بلوتارك (فلوطرخوس)

تاريخ
أباطرة و فلاسفة الإغريق



المجلد الثالث

ترجمة : جرجيس فتح الله

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة

جرجيس فتح الله

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني



356_323

ما صحت نيتي على كتابة سيرة حياة الملك الاسكندر و[قيصر] الذي انتصر على [پومپي] وجدت أن وقائعهما المجيدة تشمل فضاءً واسعاً، ان لم ابادر معتذراً الى تنبيه قارئي بأني سأفضل الاختصار على الاسهاب في كلّ واقعة او حادثة خاصّة، فسأقع تحت طائلة الانتقاد والمؤآخذة. وليكن معلوماً أيضاً بأن هدفي ليس تدوين التاريخ بل كتابة السيرَ. واعظم المآثر واجلها شأناً لا تزودنا دائماً بأوضح المعلومات عن الفضائل والرذائل البشرية. فأحياناً تجد في احدوثة صغيرة قليلة الأهمية، كعبارة أو نكتة من النكات خير دليل على الاخلاق والميول لا تعدله أعظم وقائع الحصار المشهورة واشدّ المعارك هولاً، واضخم التجريدات العسكرية وما الى ذلك. لقد كان رسامو الصور دوماً، ادق في رسم خطوط الوجه وملامحه، من رسم سائر الاجزاء الأخرى من الجسم، لأن خلق المرء يبدو على اساريره. لذلك ارجو أن يسمح لي بصرف جُلّ اهتمامي الى ما تستدل به على النفوس من علامات واشارات. وفي الوقت الذي سأعمل جهدي في رسم صور حياتهم بواسطة ذلك، تاركاً أموراً تبدو أكثر أهمية، ومسقطاً عن بحثي سرد معارك حربية عظيمة، تاركاً معالجتها لغيري.

اتفق الكتاب جميعاً على أن الاسكندر انحدر من ناحية ابيه من [هركليس] عن [كارانوس Caranus] ومن ناحية أمّه من [اياكوس Æacus] عن [نيوپطليموس] وقد كان ابوه فيليب يقطن [ساموثراكي] وهو شاب يافع، عندما وقع في حُب [اوليپياس Olympias] التي كان قد كرس معها دينياً في احتفالات البلاد، ومات عنها ابوها وامّها بعد ذلك بوقتٍ وجيز. فتزوجها بموافقة أخيها [اريمباس Arymbas]. وفي الليلة السابقة لزفافهما حلمت بأن صاعقة انقضت على جسدها فأشعلت ناراً عظيمة تفرقت السنتها فيما حواليها ثم خمدت وبعد مرور زمن على الزواج رأى[فيليب] في الحلم بأنه ختم على جسد امرأته بختم خيل له أن النقش المحفور عليه يمثل صورة أسدٍ. وقد فسر بعض العرافين هذا الحلم بأنه تحذير [لفيليب] ليشتد في مراقبة زوجه. إلاّ أن [اريستاندر Aristander] [التلمسوسي Telmessus] أكد أن حلمه يعني بأن الملكة قد حبلت بجنين ذكر سيكون في مستقبل الأيام قوياً شجاعاً كالأسد الضرغام. وقد توصل الى تفسيره هذا بعد أن تبين وجه استحالة ختم شيء فارغ.

فضلاً عن هذا، فقد شوهدت مرة أفعى مستلقية في الفراش مع [اوليمپياس] وهي نائمة. فكان هذا أهم عامل في خمود عاطفة فيليب نحوها. وسواء في ذلك أكان مأتى برود عاطفته خوفه منها بوصفها ساحرةً، أو ظنّه بأن لها علاقة باحد الآلهة فعد نفسه غير مرغوب فيه، فإن رغبته في مكالمتها قلت.

وقال آخرون بأن النساء في بلادها كن شديدات التمسك بممارسة الطقوس الأورفيّه Ar-phic[1] المتعصبة، وعبادة [باخوس] المتطرفة (ولهذا السبب سُمّين [كلودونس Clodones] و[ميمالونس Mimalones] مقلدات في أمور كثيرة ما تمارسه النساء (الايدونيات Edoni-ans) والشراقيّات قريباً من جبل [هايموس Haemus]. ومن هذا يبدو أن كلمة [ترسكووين Threskeuein] قد اشتقت فصارت تعبيراً يطلق على السطحي والغريب جداً من العبادات. ان [اوليمپياس] التي كانت شديدة التمسك بهذه الطقوس والعبادات المتعصبة الجنونية. كانت تمارس الرقص الذي هو جز[illegible] تلك الطقوس، بعد [illegible] أفاعي عظيمة مدجنة على جسدها كما تفرضه تلك العبادات، فتخلف في الناظر أثراً مرعباً متوحشا. كانت تلك الافاعي تلتفّ أحياناً حول الرماح المقدّسة، وأكاليل الرؤوس فلا يقوى الرجال على ادامة النظر خوفاً.

بعد هذا الحلم، بعث [فيليب] بـ[خيارون Chaeron] الميغاپوليسي، ليستشير عرافة اپوللو في دلفي. فورد الأمر بأن يقدم قرباناً، وان يخص من الآن فصاعداً، الاله [أمّون] من بين سائر الآلهة باكبر التعظيم والتكريم. وأُنذر بأنه سيفقد يوماً ما تلك العين التي خيل له بأنه أختلس النظر بها من شقّ الباب فرأى الإله وهو على شكل حيّة مع زوجته. ويقول [ايراتستينوس Eratosthemos] بأن [اوليمپياس] عندما رافقت الاسكندر وهو في طريقه للانضمام الى الجيش والمشاركة في اول قتال له، كشفت له عن سرّ ولادته وطلبت منه أن يتحلّى بالشجاعة والإقدام الجديرين بأصله الآلهي. ويؤكد آخرون أيضاً أنها نفت نفياً قاطعاً اي ادعاءٍ من هذا القبيل وكانت تردد دائماً قولها شاكية:

- متى يكفّ الاسكندر عن الافتراء علي عند [جونو]؟

ولد الاسكندر في السادس من شهر [هيكاتومبيوس] الشهر الذي يسميه المقدونيون [لوس Lous]. وهو يتفق واليوم الذي احترق هيكل [ديانا] في [أفسس]. وهي مناسبة تافهة

(١) نسبة الى [اورفيوس] الذي ورد ذكره في اسطورة أغريقية تقول أنه كان موسيقياً لحق بامرأته [يوريديس] الى عالم الأموات. وقد سحر [پلوتر] بالحانه فأجاز له اخراج امرأته من ذلك العالم شريطة ان لاينظر خلفه عند خروجه الآ انه فعل ذلك في آخر لحظة ففقدها.

يجعلها [هيگسياس Hegesias] المغنيزي سبباً لوقف النار وانطفائها، اذ يقول ان النار شبت في المعبد فاحترق، اثناء غياب سيدته التي ذهبت لمساعدة [اوليمپياس] اثناء المخاض بالاسكندر. ان العرافين الشرقيين الذين صادف وجودهم في أفسس اثناء الحريق، اتفقوا كلهم بأن خراب الهيكل ما هو الاّ مقدمة لمصيبة اخرى فأخذوا يتراكضون في انحاء المدينة وهم يلطمون ويصرخون قائلين ان أمراً جللاً سيتمخض به هذا اليوم وسيكون فيه القضاء والدمار لآسيا كُلّها.

ما أن استولى [فيليب] على [پوتيديا Potidæa] حتى تسلم رسائل ثلاثاً في آن واحدٍ. الأولى تعلمه بأن [پارمينيو Parmenio] قد هزم الالليريين في معركة عظيمة. والثانية تنبئه بأن حصانه قد خرج فائزاً في سباق الالعاب الأولمپية. والثالثة تبشره بولادة الاسكندر. فكان اغتباطه عظيماً بطبيعة الحال. وقد زاد في سروره أن العرافين أكدوا له بان ابناً صادفت ولادته مثل هذه البشائر الثلاثة بلا شكٍ هو جبار لا يغلب.

إن اقرب التماثيل شبها بالاسكندر هي بلا جدال، التماثيل التي صنعها له [ليسيپوس Ly-sippus] بأذنٍ خاصٍ منه. وإن تلك المميزات غير المألوفة حاول كثيرٌ من خلفائه واصدقائه محاكاتها فيما بعد. مثل ميلان رأسه قليلاً الى جانبٍ من جهة كتفه اليسرى. وعينه الناعسة مما بلغ النحّات في تصويره غاية الدقة والاتقان. إلاّ أن [أپيلليس Apelles] الذي صوره ممسكاً بيده صاعقةً، جعل بشرته أكثر اسمراراً ودكنةً مما هي في الواقع، اذ كان أشقر أبيض البشرة مع شيء من الحمرة في الوجه والصدر منه. ويحدثنا [ارسطوكزينس] في مذكراته بأن أطيب ريح كانت تفوح من جلده وأن انفاسه وجسده كانت معطرة بصورة طبيعية حتى أنها كانت تعطر الثياب التي تلي بشرته. ولعلّ سبب ذلك يعود الى مزاجه الحار الناريّ. فالرائحة الزكية على قول [ثيوفراستوس] تتأتى من تآلف الاخلاط الاربعة[٢] الرطبة مع الحرارة. وهذا هو السبب في أنّ تلك الاجزاء التي هي أكثر جفافاً وتعرضاً لحرارة الشمس من العالم تنتج أحسن التوابل وأكثرها، لأن حرارة الشمس تستنزف كل الرطبة الخارجية التي تكسو سطح الاجسامِ تلك الرطوبة التي من شأنها أن تحدث الفساد والعفونة. ان هذا التركيب الحارّ قد يكون السبب في ادمان الاسكندر شرب الخمر، وفي سرعة غضبه. أما اعتداله فيما يتعلق بملذات الجسد فقد وضح فيه منذ نعومة اظفاره. فقد كان يصعب جداً اثارته من هذه الناحية، وظلّ يمارسها أبداً بكثير من الاعتدال. امّا في الأمور الأخرى فقد كان شديد التطرف والحرارة. لقد أظهر في حبه المجد، وفي جدّه ومتابعته له جلداً وثباتاً تمازجه روح عالية وشهامة أكبر

---

(٢) في الطب القديم: الاخلاط الاربعة هي الدم والبلغم والسوداء والصفراء.

بكثير من عُمره. فلم يتطلبها أو يؤثرها في كل مناسبة تتفق له كما كان يفعل ابوه [فيليب].
(كان ينتهز كل فرصة لإظهار فصاحة لسانه الى حدّ الحذلقة، وكان يعمد الى أن نقش صور عجلات سباقه في الالعاب الاولمپية على سكتّه)، فعندما سأله أحد اصحابه هل سيدخل في سباق الالعاب الاولمپية بوصفه عداءً سريعاً، أجابه بقوله انه سيفعل ذلك لو كان المتسابقون معه ملوكاً مثله. والواقع انه كان يبدو عموماً عديم الاكتراث بالرياضيين المحترفين ان لم يكن يكرههم وكثيراً ما كان يضع جوائز لا ليتنافس عليها الممثلون والموسيقيون والزمارون واللاعبون على القيثار وحدهم، بل لشعراء الحماسة ايضاً. وكان يهوى كل انواع الصيد، والمبارزة بالعصي إلاّ أنه لم يكن يشجع اي نزال ملاكمة أو مصارعة حُرّة.

وكان وهو في مطلع شبابه يستقبل السفراء القادمين من ملك الفرس في غياب ابيه. ويدخل معهم في مناقشات كثيرة فينال احترامهم بدماثته وطيب مجلسه، وكانوا يعجبون كثيراً بأسئلته التي تسمو عن الفهاهة والصبيانية. فمثلاً يستفسر منهم عن احوال الطرق وطبيعة المسالك الى داخل آسيا، وعن عادات ملكهم وكيف يواجه اعداءه في الحرب وكم هي القوات التي يستطيع زجّها في ساحة القتال. فيمتلئون اعجاباً بع فيعدّون كفاءة فيليب المشهورة التي طبقت شهرتها الآفاق لا شيء بالمقارنة الى النضوج المبكر بدأ في ابنه في المبدأ. وفي شرف الأغراض التي يتوخاها.

وبدل أن يداخل الاسكندر الابتهاج عند سماعه نبأ استيلاء ابيه على مدينة هامّة او نال نصراً مؤزراً، تراه يشكو لرفاقه قائلاً أن أباه سيستولي على كلّ شيء ولن يترك لهم وله أية فرصة لتحقيق مأثرة عظيمة أو عملٍ مجيد. ولأنه كان أكثر ميلاً للمجد والعمل من الثروة والمسرات، تراه يعتبر ما سيرثه من ابيه تافه القيمة ومانعاً يعيقه عن اطلاب المجد في المستقبل. وكان يفضل أن يرث مملكةً يسوها الفوضى وتتجاذبها الحروب لتتيح له أكبر الفرص في اظهار شجاعته واستخداماً، ولتكون ميداناً فسيحاً لمآثر وعظائم الأعمال، على أن يجلس على عرش مملكة وطيدة الأركان مزدهرة، فيرث حياةً هادئة خالية من النشاط، يحفّ بها الترف والثروة.

ولقد أنيط أمر تعليمه كما هو مفروض، بكثير من الخدم والمدربين والمعلمين، في مقدمتهم [ليونيداس] وهو من اقرب اقرباء [اوليمپياس]. رجل صارم الخلق لم يرفض هو نفسه عنواناً لمنصبٍ كان في الواقع مشرفاً ورفيعاً، إلا أن وقاره ومهابته ودرجة قرابته على العموم أكسبته لقب الأب التربوي للاسكندر من دون سائر الآخرين. إلاّ أن [ليسيماخوس] [الاكرناني Acar-nanian] هو الذي أحتل الصدارة في تهذيبه، فقد رسم ووضع منهاج تعليمه، ومع أنه لم

يتميز بميزة خاصة تؤهله لهذا المركز، إلاّ أن ميله الى تلقيب نفسه بـ[فيونكس] وتسميته الاسكندر بـ[آخيل] واطلاقه اسم [پليوس Pelleus] على [فيليب]، كانت سبباً في الحظوة التي نالها ليلي [ليونيداس] في هذا المنصب.

أقبل [فيلونيكوس Philonicum] التسالي على فيليب وساومه على شراء الحصان المسمى [بوكيفالوس Bucephalus] بمبلغ ثلاثة عشر تالنتاً فأُخذ الى ميدان الطرد لتجربته، فتبين بأنه شرسٌ للغاية، جموح لا يسلس قياده، نفور لا يتحمل صوت اي خادم من خدم [فيليب] فأبى شراءه وفيما كانوا يخرجونه قال الاسكندر الذي كان بين الواقفين:

- أسفاً على هذا الحصان الممتاز. لقد خسروه لأن الجرأة والبراعة في ترويضه تنقصهم.

في مبدأ الأمر لم يأبه [فيليب] بملاحظة ابنه، ولكنه أصاخ سمعه عندما راح الاسكندر يردد ذلك مرات، وهو متميز غيظاً فابتدره قائلاً:

- أتنتقد اولئك الذين يكبرونك سِناً، كأنك أفهم منهم، وكأنك أقدر على ترويضه؟

فأجابه الاسكندر بقوله: اي نعم، ان بوسعي معالجة أمر هذا الجواد بشكل يفضل عن الآخرين.

قال [فيليب]: فان عجزت عن ذلك. فما هي الغرامة التي تدفعها جزاء تهورك واندفاعك؟

أجاب الاسكندر: اني أدفع ثمن الجواد برمته.

فضحك كل الحاضرين. وتمّ الرهان بين الأب والأبن. واعيد الحصان فأسرع اليه الاسكندر وامسك بلجامه وادار رأسه باتجاه الشمس اذ لاحظ - كما يظهر - أن الحيوان مضطرب وجل من حركة ظلّه. وبعد ذلك تركه يسير الى أمامٍ قليلاً وهو ممسك بالإعنة، يرتب على جسمه رتبات رفيقة هينة كلما وجد امارات القلق والجموح تراوده. ثم ترك معطفه الخارجي يسقط عنه بهدوء وبقفزة واحدة رشيقة اعتلى ظهره وشدّ ساقيه شداً محكماً عليه وما أن أستقرّ على صهوته حتى راح يجذب الأعنة اليه رويداً رويداً حتى شكمه دون أن يحتاج الى ضربه أو حثه. وعندما تبين له أن كل أثر للهياج قد زال منه، وان قلقه مدّ قضي عليه أطلق له العنان فجرى بأقصى ما وسعه، وهو يحثه بين الفينة والفينة بصوت آمرٍ ويحثه همزاً بكعب قدمه. وكان [فيليب] واصحابه ينظرون الى النتيجة بقلقٍ صامتين، حتى اذا رأووه يستدير عند نهاية الميدان ويعود ادراجه فرحاً ظافراً لما حققه، أنطلقت الحناجر تهتف استحساناً وتصرخ اعجاباً. وقيل أن أباه بكى فرحاً وعانقه بعد ان ترجل. وابتدره وهو في نشوة جبوره:

- مرحى لك عن مملكة جديرة بك ولائقة.

بعد هذه الحادثة، اقتنع [فيليب] بأن خلق ابنه ومعدنه يستوجب أن يستخدم من العقل والمنطق، لا القوة والإكراه، فكان دائماً يقدّم اسلوب الإقناع على اسلوب الارغام والأمر. كذلك تبين له أن تهذيب وتعليم هذا الابن الشاب أصعب وأهمّ من أن يناط بمعلمين للموسيقي والشعر والمألوف من العلوم المدرسية عاديين، وانما يقتضي له «اللجام والمقود معاً».

على حَدّ قول [سوفوكليس] أرسل يتقدم [ارسطاطاليس] اثقف واشهر فلاسفة عصره. واغدق عليه العطايا بسخاء يوازي ويناسب العناية التي بذلها في مهمة تعليم ابنه. فمن ذلك أنه اعاد الحياة الى [ستاگرا Stagira] مسقط رأس الفيلسوف وكان قد دكّها قبل زمن قصير واعاد اليها كل سكانها الذين كان قد نفاهم اوباعهم عبيداً. وخصص هيكل [الحوريات Nympha] المجاور لمدينة [ميزا Mieza] ليكون محلاً للدراسة والتدريب. والناس في يومنا هذا يدلونك على مقاعد [ارسطاطاليس] الحجرية التي كان يجلس عليها، والممرات الظليلة التي كان يرتادها.

وقد يخيل للمرء أن الاسكندر أخذ عن هذا الفيلسوف مبادءه في الأخلاق والسياسة فضلاً عن جانبٍ من تلك النظريات الاكثر عمقاً وغموضاً، التي يدعي أولئك الفلاسفة (كما تدل الاسماء التي يطلقونها عليها) بأنهم يدخرونها للحوار الشفوي للمبتدئين، ولايسمحون لسواد الناس بالتصرف عليها بنشرها كتابةً. وعندما كان الاسكندر في آسيا سمع أن [ارسطاطاليس] نشر رسائل من هذا النوع فكتب اليه رسالته التالية مستخدماً ابسط لغة فلسفية:

> «من الاسكندر الى ارسطاطاليس، تحيةً. لقد أسأت صنعاً في نشرك كتبك حول المبادئ الشفوية. ماذا بقي لنا بعد هذا لنمتاز به عن الآخرين في هذه الأمور التي تثقفنا بهذا بصورة خصوصية، عندما صارت متاحةً للجميع؟ وانا اوكد لك من جهتي، بأني افضل أن أمتاز عن الآخرين في معرفة ما هو رفيع سام، على أن أكون في طليعة الاخرين في توسيع سلطاني وآفاق حكمي. والسلام».

ويتكلم ارسطاطاليس عن هذه المبادىء مخففاً من شدة شغف الاسكندر بالمحافظة على تلكم المبادئ فيقول:

> إنها منشورة وغير منشورة في الوقت نفسه. وان تحرينا الواقع فكتبه عن الميتافيزيقا كتبت بأسلوب تبدو فيه وهي معدومة الفائدة للتعليم الاعتيادي كما تبدو مفيدة كمذكرات لأولئك الذين ضربوا بسهم وافر في هذه العلوم.

مما لاشك فيه ايضاً ان الاسكندر مدين أيضاً لارسطاطاليس بميوله، لا في العلوم الطبية النظرية وحدها، بل في الطبّ التطبيقي العملي. وكنت تجده - عندما يصاب صديق له بداءٍ - ينظم له الحمية، ويصف له الدواء الأصلح كما تجد ذلك واضحاً في رسائله. وكان بطبعه من أعظم محبّي كل انواع المطالعات والبحوث العلمية ويحدثنا [اونيسقريطوس Onesicritus] بأن الاسكندر كان يحتفظ دائماً بالنسخة التي صححها ارسطو من الياذة [هوميرس] المعرفة «بالنسخة المعلبة» تحت وسادة سريره مع خنجره. وهو يصفها قائلاً: إنه يعدها كنزاً مغنياً سهل الحمل والنقل - جمعت كلّ الفضائل العسكرية ومعارفها. وكان وطابه خالياً من الكتب وهو في آسيا الشمالية فأمر [هاربالوس Harpalus] بارسال طائفة منها اليه. فزوده بتاريخ [فيلستوس Philistus] وبعدد جدّ كبير من تمثيليات [يوربيدس]، و[سوفوكليس] و[اسخيلوس] وببعض الملاحم الشعرية الحماسية من نظم [تيلستس Telestes] و[فيلوكزينيس Philoxenus]. وقد ظل زمناً مولعاً شغوفاً بارسطاطاليس وانزله منزلة لا تقل عن ابيه في نفسه كما كان يصرح هو نفسه. معللاً ذلك بأن احدهما منحه الحياة، وثانيهما علمه كيف يعيش أفضل حياةٍ إلاّ ان علاقتهما الصميمة وتوادّهما العميق اخذا يفتران فيما بعد، بسبب شكّ ساور الاسكندر فيه ولم يكن هذا الشكّ من الخطورة بحيث يدفعه الى اذيته. وعلى أية حال فقد خبت نار تلك العاطفة حتى ادت الى القطيعة. على أن توقانه الشديد وشغفه بالعلم ظلاً في نموّ مطردٍ بعد أن رسخت جذورها فيه، ولم تخب شرارتهما مطلقاً. ويدل على هذا تكريمه [لاناكسارخوس]، واعطاؤه هدية مالية [لكزينوقريطس] قدرها خمسون تالنتاً. وعنايته الخاصة واكرامه لكلّ من [داندامیس Dandamis] و[كالانوس Cal-anus].

عندما جرّد [فيليب] حملته على [البيزنطيين] عين الاسكندر نائبه في مقدونيا وهو لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً وفوض اليه ختمه. فلم يركن الاسكندر الى العطالة وجرد حملة على [الميدي Maedi] الثائرين وأخضعهم. واستولى على مدينتهم الكبرى عنوةً وطرد سكانها البرابرة، واسكن في محلهم مستعمرين من عدة قوميات. واعاد تسمية المدينة باسمه: [اسكندروپوليس]. وفي موقعة [خيرونيا] التي خاضها أبوه ضدّ الأغريق، قيل أنه كان أول جندي في الجيش هجم علي «العصبة الثيبية المقدسة». وعلى ما أذكر أن شجرة بلوط بالقرب من نهر [كفيسبوس] يطلق الناس عليها اسم «بلوطة الاسكندر»، كانت قد أظلت خيمته التي ضربت تحتها في حينه. ويرى المشاهد على مسافة منها قبور المقدونيين الذين خروا صرعى في تلك المعركة. هذه البسالة التي ابداها الاسكندر وهو في مقتبل عمره زادت من

محبّة [فيليب] له. فلم يكن يُسره شيء قدر سماعه رعاياه يمدحون قائدهم «فيليب» وينادون ابنه الاسكندر ملكهم.

إلاّ أن الشقاق الذي حصل في الأسرة، وسببه الرئيس تعود زيجات فيليب وارتباطاته بالمصاهرة اثارت انواع الخلافات والأحقاد فيما بينهما، اتباعاً للقول المأثور: ان المشاكل التي تبدأ في حجرات النساء، تنتهي بالانتشار الى سائر انحاء المملكة. وقد زاد من هذه الخلافات حدة «الطبع الحاد العنيد الذي تمتاز به [أولمبياس] وكانت امرأة شديدة الغيرة والحقد. فقد أخذت تدفع بابنها [الاسكندر] وتحرضه ضد ابيه. والحادثة التالية تعتبر في مقدمة الاسباب التي أدت الى القطيعة.

وقع [فيليب] في حُبّ [كليوپاترا] وكانت أصغر منه بكثير، فتزوجها. وفي ليلة العرس راح عمّها [اتالوس] في مجلس الشراب يبتهل الى الآلهة حتى تمن على المقدونيين بوارث شرعي لمملكتهم، ثمرةً من أحشاء بنت أخيه. فتميّز الاسكندر غيظاً، وتناول قدحاً وقذف به [اتالوس] فشج رأسه وهو يصيح به محتدياً:

- أأنا نغل اذن؟ تبّاً لك ايها النذل.

وعندها نهض [فيليب] ليتخذ جانب [اتالوس] وكاد يفتك بابنه لو لم يعمل حسن الصدف عمله فقد شاء ان يعثر فيسقط على الأرض، اما بكثرة ما عبّ من الخمر واما للعجلة المتأتية من هياجه. فوقف الاسكندر يسخر منه بشكل مهين قائلاً - انظروا الى الرجل الذي يستعد للعبور من اوروپا الى آسيا كيف هوى على الأرض عندما اراد الانتقال من مقعدٍ الى آخر؟

بعد هذه الفضيحة انفصل الاسكندر هو وامّه عن [فيليب] ورحلا عنه. فأستقرت هي في [ايپروس] وانسحب هو الى [الليريا].

في ذلك الزمان، أقبل [ديماراتوس] الكورنثي على [فيليب] زائراً. وكان صديقاً للأسرة جدّ مقرب له حرية مطلقة في قول ما يريد دون أن يخشى بأساً. وبعد التمهيد والعناق والسلام والتحايا، بادره [فيليب] سائلاً:

- ما حال الاغريق؟ أهم على صفاء ووئام بعضهم مع بعض؟

فأجاب [ديماراتوس] بقوله: لا أرى من حقك أن تهتمّ باحوال الاغريق مطلقاً. وقد ورطت بيتك في هذه المآسي والخصومات.

فوقع كلامه هذا في نفس [فيليب] وادرك أصالة اللوم الذي تضمنه فأرسل فوراً يستدعي ابنه وتوسّط [ديماراتوس] فنجح في اقناع الابن بالعودة الى ابيه، إلاّ أن هذا الصلح لم يدم

طويلاً فقد بدأ الخصام ثانية، عندما أرسل [بكسودوروس Pixodorus] نائب ملك [كاريا Caria] رسوله [ارستوقريطس] للتوسط في عقد زواج ابنته الكبرى على [اريديوس Arrhidæus] ابن فيليب مؤملاً أن يضمن من هذه المصاهرة، معونة الملك المقدوني وقت الضرورة. فبادرت أم الاسكندر وبعض المتظاهرين بالصداقة يملأون رأس الاسكندر بحكايات وتخرصات تدور كلها حول هذا.

ان [فيليب] بهذه المصاهرة الممتازة والتحالف الهام، انما يرمي الى تمهيد الطريق لاستخلاف [اريديوس] على عرشه وحرمان بكره. ودفع به الخوف من ذلك الى ان بعث بـ[تيسّالوس Thessalus] التراجيدي الى [كاريا] لتشويه سمعة [پكودوروس] وتحقير [اريديوس] كلاهما بوصفهما ابني سفاحٍ وبأحمقين. كما خوله أن يحاول أقناع الاول منهما بقبوله زوجاً لابنته. فتّم له ما اراد لأن العرض الثاني، كان أفضل بكثير من الاول وما ان علم [فيليب] بما يجري حتى قصد مسكن ابنه الاسكندر يرافقه [فيلوطاس ابن ارمينو] من أخلص اصدقاء، قائلاً ابنه وعشرائه، وهناك اشتد في توبيخه وتقريعه، وقسا في تعنيفه قائلاً:

- ان حطة الخلق بلغت به غاية التدني، فهو والحالة هذه غير جدير بالسلطة التي سيخلفها له طالما رغب في مصاهرة [كاري] وضيع المنبت، لايزيد عن عبد لأمير بربري. حتى هذا لم يطفيء سورة غضب فيليب، فكتب يأمر القورنثيين بأن يرسلوا اليه[ثيسالوس] مصفداً بالاغلال، وامر بنفي [هاريالوس] و[بنارخوس] و[بطليموس] و[ابريجيوس Erigyuis] اصفياء الاسكندر وعشرائه، إلاّ ان هذا اعادهم فيما بعد ورفعهم الى اعلى المناصب واكرمهم غاية الاكرام.

وبعد هذا بقليل وقع على پاوسانياس Pausanias اعتداءٌ لتحريض اتاليوس [وكليوباطرة] ولما وجد نفسه عاجزاً عن الانتصاف لنفسه من ذلك العار الذي أصابه على يد فيليب، أخذ يتربص به حتى تمكن منه وقتله. وقد حُمّلت [اوليمپياس] معظم وزر هذه الجريمة اذ اشيع انها حرضتّ وأستفزت في نفس الفتى الغاضب روح الانتقام. وقد حام شيء من الشكّ حتى على الاسكندر نفسه، اذ قيل أنه عندما أقبل عليه [پاوسانياس] شاكيا مالحقه من غدرٍ، ردد على مسامعه مقطعاً من مسرحية [ميديا Medæ] ليوريپيدس: «على الزوج، وعلى الأب، وعلى العروس»

وعلى أية حال فإن الاسكندر بذل الجهود لاكتشاف شركاء القاتل في مؤامراته وعاقبهم بصرامة؛ وكان شديد الغضب من أمّه لأنها عاملت [كليوپاطرا] زوج ابيه معاملة قاسية لا انسانية في اثناء غيابه.

كان للاسكندر من العمر عشرون سنةً عندما قتل أبوه وخلفه في حكم المملكة التي كانت تكتنفها المخاطر العظيمة وتمزّقها الفوضى ومكائد الاعداء الحاقدين. ومن ذلك أن الشعوب البربرية التي كانت تحادّ مقدونيا ابت ان يحكمها إلاّ أميرٌ من امرائها. ومع ان [فيليب] حقق انتصاراته الحاسمة على الاغريق إلاّ أن الوقت لم يتسع له لإكمال فتوحه وتعويد تلك الشعوب طاعته والخضوع لسطانه، ولهذا نزل تلك الشعوب وهي في حالٍ لاتوصف من الفوضى والغليان، وكانت تلك الفترة بالنسبة للمقدونيين أحرج فترةٍ. وودّ بعضهم لو تمكنوا من اقناع الاسكندر بالتخلي عن فكرة ابقاء الاغريق تحت سلطانه، ونصحوه باتباع سياسة اللين والرقة لكسب ولاء العشائر التي كانت تنوي الثورة عليه. واشاروا عليه بتجربة اسلوب العفو والغفران لوقف اولى بوادر الثورة. لكنه رفض تلك النصائح بوصفها من دلائل الاستخذاء والضعف. وكان يرى خلاف ذلك أنه من بعد النظر والحكمة تثبيت سلطانه بالعزم والصرامة والمثابرة لأنها خير من الاذعان والاستكانة لأنهما يشجعان الجميع على الانتقاض والثورة. وبتطبيق فكرته هذه تمكن من القضاء على ثورة البرابرة. وبددّ كل فكرة قد تراودهم بشنّ حرب، فقد قاد حملة مفاجئة على بلادهم وصل بها الى ضفاف الدانوب واوقع هزيمة نكراء بـ[سيمروس Symrus] ملك التريباليين Triballians في معركة فاصلة. ولما وردته انباء قيام [الثيبيين] بثورة عليه زحف عليهم باتفاق مع الآثينيين. من وضيق [ترموبيلي] قائلاً قولته المأثورة:

- لقد سماني [ديموستينس] «طفلاً» عندما كنت في «الليريا» وفي بلاد «تريباليا» وسماني «شاباً» عندما كنت في «تساليا». ولكني سأبدو له رجلاً عند وصولي اسوار آثينا!

وصل الاسكندر الى [ثيبه] واراد إظهار مبلغ رغبته في الصفح عن أهاليها وقبول دخالتهم بعدما فعلوا. ولم يطلب منهم غير [فيونيكس Phoenex] و[پروثيتوس Prothytes] وهما الرجلان اللذان تزعما العصيان. وأعلن ايضاً العفو العام عن كل ينضم اليه، الاّ ان الثيبيين ردوا على بيانه هذا بيان آخر طالبوه فيه بتسليم كلٍ من [فيلوطاس] و[انيتباطر]، وأعلنوا من جانبهم الدعوة لكلّ من يؤيد حرية اليونان وأستقلاله بأن ينضم اليهم، وهنا لم يسع الاسكندر الاّ أن يمارس معهم أمر وأقسى جانبٍ من الحرب. والواقع ان [الثيبيين] دافعوا عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً وابلوا أحسن البلاء. لكن عندما كرت عليهم الحامية المقدونية من القلعة وجدوا أنفسهم مطوقين من كل جهة بحيث ان القسم الاعظم منهم خرصريعاً في ساحة القتال. وتم فتح المدينة عنوة ونهبت ثم دكت دكاً. وكان الاسكندر بهذا يريد ان يضرب مثلاً لارهاب بقية شعوب الاغريق وارغامهم على الوضوح لحكمه بمثل هذا العقاب الصارم كما كان

يريد ايضاً شفاء غليل حلفائه الفينقيين و[البلاتانيين Plataens] من أعدائهم المقهورين. وهكذا لم يبق من سكانها البالغ تعدادهم ثلاثين ألفاً، غير الكهنة ونفر قليل ظلوا على صداقتهم وعلاقتهم مع المقدونيين، وأسرة الشاعر [پندار] وأولئك الذين عرفوا بمعارضتهم الحرب اثناء التصويت العام عليها. وهكذا بيع جميع السكان في سوق العبيد وقضي على ستة آلاف بحدّ السيف.

ومن البلايا الأخرى التي انصبت على المدينة، هو ان بعض الجنود التراقيين اقتحموا بيت واحدة من عقائل المدينة وعرفت بالخلق العالي وكرامة المحتد، تدعى [تيموكليا Timoclea] وبعد أن أغتصبها قائد الجنود، طلب منها ارضاءً لجشعه بعد ارضاء شهوته، أن تدلّه على مكان مالٍ مخفي فأسرعت تقول انها تعلم بوجود مالٍ وطلبت منه أن يتبعها الى الحديقة حيث ارشدته الى بئر وقالت له أنها قد ألقت في اعماقه بأثمن ما في حوزتها عندما هوجمت المدينة. فانحنى التراقي الجشع ليتفحص الموضع الذي توهم وجود الكنز منه فتقدمت منه ودفعته الى اعماق البئر ثم راحت تقذف باحجار كبيرة فوقه حتى قضت عليه. فقادها الجنود وهي موثقة الى الاسكندر. وسرعان ما اثبتت له شجاعتها وثبات قدمها في سيرها بأنها امرأة ذات منزلة وعقل راجح لايسمح بايّ امارة للخوف أو الاندهاش. وسألها الملك عمن تكون فأجابته قائلة:

- أنا أخت [ثايجنيس Theagenes] الذي خاض غمار معركة خيرونيا مع ابيك [فيليب] وخرّ صريعاً في سبيل حرية بلاد الأغريق.

فكان عجب الاسكندر شديداً مما قالته وما فعلته، فلم يسعه الاّ أن يمنحها هي واولادها الحرية، والأمان بالتوجه أنىّ شاءت.

ثم انه قبل ندامة الآثينيين، وبالغ في اكرامهم مع انهم ساهموا مساهمة كبيرة في نكبة [ثيبا]. وعلى سبيل التفكير والتعبير عن أسفهم لما وقع الغوا الاحتفالات بعيد الأسرار. وأكرموا وفادة أولئك الذين سلمت ارواحهم. وعاملوهم أفضل معاملة انسانية ولسنا اندري أكان الاسكندر كذلك الأسد الذي خمدت سورة غضبه بعد أن ارتوت نفسه، أو أنه أراد أن يبدو رفيقاً رحيماً بعد أن خرب هذا المثل المتناهي في الصرامة. وعلى ايه حال فقد كان تبدله هذا من حسن حظّ الآثينيين. ولم يكتف بالصفح عن زلاتهم الماضية، بل توجه اليهم ناصحاً بأن يعالجوا شؤونهم بالحكمة واليقظة متذكراً بأنه ان أخفق في اعماله، فان الآثينيين على أغلب الاحتمال سيكونون بمثابة الوسطاء للاغريق، ومن الثابت كذلك انه ندم كثيراً على ما فرط منه من قسوة بحق الثيبيين. وكان لأسفه هذا أثره الشديد على خلقه، فقد بات أقل شدة

وصرامة من الآخرين. ألصقت به أيضاً تهمة قتل [كليتوس Clitus]، في مجلس شراب. كما أن اباء المقدونيين اطاعة امره بالزحف لقتال الهنود، وتهديد مشاريعه بالفشل، ومجده بالزوال كان من اثر سخط وانتقام [باخوس] حامي [ثيبة]. وقد لوحظ انه كان يغضيّ الطرف عن ايّ [ثيبي] نجا من الموت، ويحقق له كل سؤله ونبيله مطلوبة ولايردّ لهم طلباً مهما كان.

بعد هذا كله أجتمع الأغريق في [الاسموس] وعلنوا اعتزامهم الانضمام الى الاسكندر في حربه مع الفرس كما أمروه قائداً عاماً لهم. وأقبل عليه اثناء وجوده هناك، عدد كبير من عظماء الكهنة والفلاسفة وتقاطروا من شتى الارجاء لزيارته وتهنئته بمنصب القائد العام. إلاّ أن [ديوجينس] السينوبي الذي كان يقطن في [كورنث] لن يأبه به ولم يحتف بمقدمه خلافاً لما كان الاسكندر يتوقعه. ولم يتحرك قيداغلةٍ من ضاحية [كرانيوس] حيث وجده الاسكندر مستلقياً في اشعة الشمس. وعندما وجد هذا الفيلسوف الحشد العظيم بالقرب منه رفع نفسه قليلاً وتنازل بالنظر الى الاسكندر فسأله هذا بلطفٍ عما اذا كان يريد يحقق له حاجةً فأجابه الفيلسوف قائلاً:

- أجل لي حاجة لدي، انك تحجب الشمس عنيّ فأريدك أن تتنحّى قليلاً.

فأصيب الاسكندر بصدمة وذهل من هذا الطلب ولم يسعه الاّ الاعجاب بعظمة هذا الرجل الذي لم يلحظ حتى وجوده، وما كان منه إلاّ أن التفت الى ابتاعه وهو عائد وكانوا يتضاحكون من نكد مزاح الفيلسوف، وقال لهم: «لو لم أكن الاسكندر لأخترت أن أكون [ديوجينس]. ثم أنه قصد [دلفي] لاستخارة [ابوللو] حول نجاح الحرب التي باشرها. واتفق انه وصل في احد الأيام المحرقة، التي لم يكن من المناسب ان نتنبأ العرافة فيها فأرسل يطلب من الكاهنة مباشرة المراسيم المعتادة فرفضة معتذرة بالمخطور الشرعيّ، فذهب اليها هو بنفسه وراح يجذبها بقوة الى الهيكل وهي تنازعه حتى ادركها التعب وغلبها اصراره فقالت:

- إنك لاتُغلب يا بنيّ.

فتمسك [الاسكندر] بقولها وصرح بأنه ظفر بالجواب الذي جاء [دلفي] لأجله ولم تعد به حاجة الى استخارة الإله.

ومن بين الخوارق التي صاحبت مسيرة جيشه، أن صورة [اورفيوس] في [ليبثرا Libethra] التي كانت قد نحتت من خشب السرو، بدت وهي تتصبب عرقاً غزيراً، وهذا مما اولد القلق الشديد في نفوس الكثيرين. إلاّ أن [اريستاندر] قال له ان هذه ليست مطلقاً دليل شؤم وانما تشير الى أنه سيحقق اعمالاً عظيمة وامجاداً بحيث يتغنى بها الشعراء وينشدها الموسيقيون

في العصور القادمة وهم مجهدون ينضح العرق من جسومهم اثناء قيامهم بوصف تلك المآثر والاحتفال بذكراها.

واختلف الناس في تقدير عدد جيشه فأولئك الذين مالوا الى التقليل منه قالوا انه كان يتألف من ثلاثين ألفاً من الرّجالة واربعة آلاف من الخيالة. امّا أولئك الذين بالغوا في رفع عدده فقد قالوا أنه كان في حدود اربعة وثلاثين ألفاً من الرجالة وثلاثة آلاف خيّال. ويقول [ارسطوبولس] ان الاسكندر لم يكن لديه مالٌ لدفع مرتبات جنوده أكثر من سبعين تالنتاً. ولم يكن لديه من الارزاق ما يكفيهم لأكثر من ثلاثين يوماً، لو أننا صدقنا أقوال [دوريس]. لكن [ارسطوقريطس] يحدثنا بأن الاسكندر كان مديناً بمئتي تالنت. ومهما بدت مقدمات تلك الفتوحات العظيمة صغيرة محدودة غير متكافئة مع الاستعدادات، فالواقع هو ان الاسكندر لم يخرج بجيشه للقتال الاّ بعد أن تأكد بنفسه أن اصدقاءه الذين رافقوه، قد طمنت كل حاجة لهم واستجيبت مطالبهم. وفي هذا السبيل منح لبعضهم مزارع ولآخرين أقطع قرى أو غلات قرى أو عوائد مرفأ بلدةً وهكذا حتى أنه أقطع ومنح وأوقف كل الأملاك العائدة للتاج المقدوني مما دفع [پيرديكاس] للقول:

- ماذا ستبقى اذن لنفسك؟

فأجابه الاسكندر: آمالي.

فردّ [پيرديكاس] عليه بقوله: اذن سيكون جنودك شركاء لك في ذلك.

ورفض أن يقبل ضيعة أقطعها له الاسكندر. وتبعه في ذلك اصدقاء آخرون في رفضه. اما أولئك الذين كانوا راغبين في عطائه فقد كان معهم سخياً، بقدر ما استنفذ كل الأملاك التي ورثها في مقدونياً. فقد ذهب معظمها في هذا السبيل.

بهذه العزيمة الثابتة وبتلك الفكرة الرضية عبر الاسكندر [المضايق] وفي [طرواده] ضحى [لمنيرڤا] واكرم ذكرى الابطال الذين ثوت رفاتهم هناك، بسكب قرابين الخمر في احتفال رسمي وخصّ قدم [آخيل] بالاكرام فدهن شاهده بالزيت وطوفّ هو واصدقاؤه حول القبر راكضين وهم عراة وضفر أكاليل الزهر عليه وصرح قائلاً: إن ساكن القبر يعتبر من أسعد الناس لأنه كان يملك صديقاً بمثل هذا الاخلاص في حياته، ولأنه بعد مماته قيض له شاعر بمثل هذه الشهرة لتمجيد اعماله. وفيما كان يجول متفرجاً على الآثار والمرابع التاريخيه في تلك المواضع قيل له أن بامكانه ن يرى قيثارة [پاريس Paris] لو رغب. فأجاب انه لايعتبرها مما يستحق المشاهدة. لكنه سيكون مسروراً لو شاهد قيثار [اخيل] التي كان يعزف عليه اثناء

تغنيه بالاعمال العظيمة التي انجزها صناديد الرجال.

وفي الوقت نفسه كان قادة جيوش [داريوس] قد حشدوا قوات ضخمة وعسكروا على الضفة الشرقية لنهر [غرانيقوس Granicus] وكان من الضروري والحالة هذه القتال على تخوم آسيا لأجل اقتحامها والنفوذ الى اراضيها. وكان عمق النهر وعدم استواء الضفة المقابلة وصعوبة ارتقاء مرتفعاتها من الاسباب التي تجعل الاستيلاء عليها مستحيلاً الا باستخدام القوة الرئيسة من الجيش، وها ما ادى الى احجام معظم ذوي الرأي عن القتال، فقال فريق أن الوقت غير ملائم للاشتباك مع العدوّ لأن ملوك مقدونيا لم يتعودوا الشروع في حملاتهم العسكرية خلال شهر [دياسيوس Daesius] الا ان الاسكندر تخطى هذه الاعراف وتجاهلها بقوله:

- يمكنكم أن تطلقوا على هذا الشهر اسم [ارتيموسيوس الثاني Artemosius].

ونصحه [پارمينيو] بأن لايحاول أمراً في ذلك اليوم بالذات لأن النهار قد تقدم فرد عليه بقوله:

- اني سألحق العار [بالهللسپونت] ان خفتُ من نهر [غرانيقوس].

وهكذا تفادى الحديث الكثير وتمكن من الاستيلاء على النهر فوراً بثلاثة عشر رعيلاً من الخيالة. اذ تقدم نحوه مواجهاً وابلاً من الرماح المقذوفة عليه من الجهة المقابلة المرتفعة الشديدة الانحدار التي كانت تعجّ بقوات لا تخص من خيالة العدوّ ورجالته. ولم يبال بعوائق الأرض وسرعة تيار النهر ولذلك غلب على القتال الحماسة والاستماتة والاستبسال، أكثر مما بدأ فيه من الخدمة والمهارة، وتشبث بكلّ عنادٍ لأجل الاستيلاء على نقطة عبورٍ. وأخيراً تمكن بعد لايٍ من شق طريقه الى أعالي الضفاف وكانت موحله زلقةً للغاية. واضطر أن يخوض فوراً معركة اليد باليد مع العدو امتازت بالاضطراب الشديد وفقدان النظام. قبل أن ينجح في تنظيم صفوف رجاله الذين كانوا مستمرين في عبور النهر وكان العدوّ يكر عليه بهجمات متتالية وهو يطلق صيحات الحرب داويةً تشق عنان السماء ثم تهجم الخيالة على الخيالة بالرماح المشرعة. وبعد أن تتكسر تلك الرماح ولايعود فيها نفع يلجأ المقاتلون الى السيوف. وكان الاسكندر يسهل تمييزه بترسه ونجمتين كبيرتين من الريش الأبيض على جانبي خوذته. ولقد هوجم شخصه من كل جانب الا انه لم يصب بجرح، وان كان قد ثقب درعه من أحد المفاصل بطعنة رمح. وكرّ عليه القائدان [ريوساكيس Rhaesaces] و[سپيثريداتس Spith-ridates] معاً. فحاد عن ثانيهما ووجه الى اولهما طعنةً نجلاء بلغت من القوة ان رمحه

انكسر في يده بسبب مناعة درعه وجودته. ولذلك لم يعد للاسكندر إلاّ سيفه فجرده لمواجهة سبيثريداتس الذي شدّ عليه من جانب اثناء ما كان منشغلاً مع الأول. فأنهض نفسه فوق سرج حصانه وأهوى على خوذته بفأسه الحربية مودعاً في ضربته كل ما فيه من قوة فأطاحت بعرف الخوذة وضبّة من ضبتي الريش، ولم ينقذه من الهلاك الاّ صلابة تلك الخوذة فقد مست شفرة الفأس شعر رأسه عندما فلقتها. وفيما كان مهاجمه يهّم بتكرار الضربة تصدى له [كليتوس] المعروف بـ[كليتوس الأسود] واخترق جسمه بطعنة نجلاء من رمحه. وفي الوقت نفسه تمكن الاسكندر من غريمه الآخر [روساكيس] وارداه قتيلاً بسيفه وفيما كانت الخيالة مشتبكةً في قتال خطير، اتمّ الفلانكس المقدوني عبور النهر وتقدمت المشاة من كل جهة للمشاركة في المعركة. إلاّ ان العدوّ الذي لم يتمكن من صدّ أول كرة إلاّ بشق الأنفس، ما لبث أن زحزح عن مواقعه ثم انكفأ على أعقابه لا يلوي، باستثناء المرتزقة الأغريق الذين صمدوا في رابيةٍ فقد رغبوا في التسليم، إلاّ أن الاسكندر غلبت عليه عاطفة الحنق وترك التروى جانباً، فرفض طلبهم وكرّ عليهم بنفسه أولاً فقتل تحته حصانه (حصان آخر غير بوكيفالس المار ذكره) ولقد كلفه عناده واصراره على ابادة هؤلاء المقاتلين المجرمين البائسين ارواح عددٍ من رجاله يفوق ما كلفه كل القتال الذي جرى قبل ذلك، دعك من الجرحى. وفقد الفرس في هذه الوقعة عشرين ألف راجل والفين وخمسمائة من الخيالة. ومن جانب الاسكندر يقول [ارسطوبولس] انه لم يفقد أكثر من ثلاثة واربعين، تسعة منهم مشاة. وأمر الاسكندر تخليداً لهم، بنصب عدد من التماثيل النحاسية من صنع المثال [ليسيبوس]. ولأجل اشراك الاغريق في شرف النصر الذي حازه، ارسل اليهم جانباً من الأسلاب، وخصّ الاثينيين بثلاثمائة درع تعش عليها العبارة التالية:

«إن الاسكندر ابن فيليب والاغريق ما عدا اللقيديين هم الذين غنموا هذا من البرابرة سكان آسيا»

وأرسل لأمّه على سبيل الهدية كل الصحاف والحلل الارجوانية وما جرى مجراها، التي غنمها من الفرس، ولم يستبق لنفسه الاّ مقداراً ضئيلاً.

سرعان ما احدثت هذه المعركة تغييّرات عظيمة لصالح الاسكندر فقد استسلمت له [ساردیس] تلك القلعة العظيمة التي ارتكزت فيها قوة البرابرة وسيطروا منها على سائر الأقاليم البحرية، اضافة الى كثير من المواقع الهامة الأخرى. باستثناء [هاليكارناسوس] و[ميليتس] فقد امتنعتا عليه فأستولى عليهما عنوة مع كل البلاد التي تتاخمهما. وبعد هذا ادركه قليل من التردد بخصوص خططه المقبلة، فكان أحياناً يرى ألاحرى أن يتعقب

[داريوس] بأسرع ما يمكن ويغامر بكلّ شيء في معركة. وكان يرى آناً ان يعمل على اخضاع السواحل ولايتعقب العدوّ حتى يوطّد سلطانه فيها ويؤمن لنفسه الارزاق والموارد من تلكم الاقاليم. وفي اثناء ما كان يقلب وجوه الرأي هكذا، اتفق ان غدير ماءٍ بالقرب من مدينة [كسانتوس] في [ليكيا] فاضت مياهه على الجانبين بشكل آنيّ تلقائي وطرحت على الضفة صحفة من النحاس نقش حول حوافّها كتابة قديمة تفيد، بأن الزمن سيأتي حين يقوم الأغريق بالقضاء على امبراطورية الفرس. فشجعته هذه المصدفة الغريبة وباشر باخضاع الاجزاء الساحليّة من [كيلكيا] و[فينقيا] وزحف بجيشه على طول ساحل البحر في [پامفيليا] بسلسلةٍ من الحملات العسكرية دفعت كثيراً من المؤرخين الى وصفها وتعظيم شأنها بأبلغ عبارات الاعجاب والاطراء وانزلوها منزلة المعجزات او المآثر الفائقة للعادة وعزوها الى خطوته لدى العناية الالهية وكمثل لذلك ليس أبلغ من تلك الأمواج التي تقبل من صدر البحر صاخبة متلاطمة فلا تخلّف غير ساحل ضيق، ما تلبث ان تنكشف عن الجرف المتكسر في اي وقت وتنسحب على حين غرّة لتؤمن له طريق مرور! ولقد أشار [ميناندر] في أحدى كوميدياته الى هذه المعجزة فقال:

> أنال الاسكندر حظوة الهية أكثر من هذا؟ أهناك حظوة اعظم من أن ألقى على باب داري من اتمنى رؤيته من الناس؟ وان أطلب عبوراً من خلال البحر، فلا اشك بان البحر لن يفسح طريقاً اكراماً اليّ.

على ان الاسكندر نفسه في رسائله لايذكر شيئاً غير اعتيادي عند سرده هذه الوقائع، بل يقول انه سار من [فاسليس Phaselis] وأخترق ما يطلقون عليه [السلالم] وفي فاسليس مكث قليلاً وعثر على تمثال [ثيودكتس Theodectes] وكان مواطناً من أهل المدينة توفي منذ زمن. فبادر الى نصب التمثال في الساحة العامة. وبعد أن تعشى وشرب مقداراً غير قليل من الخمر، خرج ورقص حول التمثال وتوجه بقلائد الزهر. وهكذا أكرم برياضته هذه ذكرى فيلسوف كان قد استمتع بمحاوراته عندما كان متتلمذاً على ارسطو.

وبعد ذلك اخضع الاسكندر [البيسيدين Pisidans] الذين انقضوا عليه ثم قهر الفريجيين وفي عاصمتهم [گورديوم Gordium] التي قيل انها كانت عاصمة ميداس الغابر، وجد العجلة الشهيرة التي كانت تشد بحبالٍ مصنوعة من لحاء شجرة القرانيا. وكانت التقاليد المتناقلة عن المدينة تقول ان من يقوى على حلها يدين له العالم بالطاعة. ويقصّ معظم الكتاب الحكاية التالية حول هذه العجلة: وجد الاسكندر نفسه عاجزاً عن حلّ عقدة الحبال لأن النهايتين عقدتا بطريقة سرية واخفيتا تماماً فلم يكن منه الاّ وقطعها بحدّ سيفه. على ان

[ارسطوبولس] يحدثنا بقوله أنه حلّها سهل عليه بقلعه المسمار من المحور الذي ربط به النير، ثم انه قام بفكّ النير نفسه من تحت.

وتقدم زاحفاً الى [پاومفلاگونيا Pamphlagonia] وكبادوكيا وسرعان ما أخضع هذين البلدين. ثم سمع بموت [ممنون Memnon] خير قواد [داريوس] على ساحل البحر. ولو عاش هذا القائد لكان كما يقدرون قميناً بوضع كثير من العراقيل والمصاعب في طريق تقدم جيش الاسكندر. ان هذا الحدث شجعه على نقل الحرب الى اقاليم آسيا العليا.

كان داريوس في اثناء ذلك يتقدم بجيوشه من [سوسه] وهو عظيم الثقة، لا بعدد مقاتليه الذين بلغوا ستمائة الف، بل كذلك بحلم له فسّره المشعبذون الفرس مجاملة له وتملقاً تفسيراً طيباً أكثر مما فسروه وفقاً للطواريء الطبيعية. حلم داريوس بانه رأى الفلاتكس المقدوني وقد التهمته النيران كما رأى خصمه الاسكندر وهو يقوم على خدمته مرتدياً عين الثوب الذي كان هو نفسه يرتديه عندما كان واحداً من سعاة الملك الذي سبقه على العرش، ورآه بعد ذلك يتوجه الى هيكل [بيلوس Belus] ثم ما لبث ان توارى عن ابصاره. كان يجب ان يفهم الحلم بأنه دليل من السماء على الاعمال العظيمة التي قدر للمقدونيين اصطناعها. وان يرى فيه نذيراً يعلمه بأن الاسكندر - سيرتفع مثلما ارتفع هو من مركز ساع بسيط الى عرش ملك وسيغدو سيداً لآسيا، وانه لن يعيش طويلاً بعد فتوحاته تلك، وسينهي حياته بالسؤدد والمجد. وزادت ثقة داريوس بنفسه لأن الاسكندر تسكع طويلاً في كيليكيا، الأمر الذي عزاه الى جبن فيه واحجام، على أن الحقيقة هي غير ذلك فقد اعاقه المرض الذي عزاه بعضهم الى الارهاق، وعزاه آخرون الى سباحته في نهر [قدنوس Cydinus] الذي كانت مياهه في منتهى البرودة. على أية حالٍ سقط الاسكندر مريضاً ولم يقدم اي طبيب من اطبائه على معالجته بالدواء فقد خيل لهم ان داءه عياء ولا امل في شفائه، وادركهم رعب وفرّق من شك المقدونيين فيهم وما سينتظرهم منهم ان هم اخفقوا في شفائه. حتى قرر فيليب الاركارناني Acarnian أن يستخدم آخر مجهود منه بعد أن تبين خطورة حالته، معتمداً على عرى الصداقة الوثيقة المشهورة التي تشدّ فيما بينهما. مفضلاً المخاطرة بسمعته وحياته على ان يترك صديقه يموت دون علاج. وبادر الى ممارسة طبّه فيه بثقة نفس وشجعه على تناول الدواء من دون تردد ان اراد الاسكندر الشفاء العاجل ومواصلة الحرب. وفي عين هذا الوقت ارسل بارمينو Parmino الذي كان في المعسكر رسالة الى الاسكندر يطلب منه ان يحذر من فيليب الطبيب لأنه هو الشخص الذي. ارشاه (داريوس) بمبلغ كبير من المال ووعده بتزويجه بنته أن هو افلح في قتله بعد أن قرأ الاسكندر الكتاب وضعه تحت المخدة دون أن يريه لأحدٍ من اصدقائه حتى المقربين.

واقبل فيليب الطبيب حاملاً جرعة الدواء فتناوله الاسكندر منه بثقةٍ واستبشار لا نهاية لهما، وبادر الى اعطائه رسالة بارمينو وطلب منه قراءتها. انه والحق يقال لموقف يستحق المشاهدة. ترى الاسكندر يتناول جرعة الدواء، وترى فيليب يقرأ الكتاب ثم تراهما يلتفت أحدهما الى الآخر ويتبادلان النظرات بمشاعر مختلفة، ذلك لأن نظرات الاسكندر كانت نظرات الاستبشار والصراحة التي يريد بها اظهار مدى عطفه على الطبيب ومبلغ ثقته فيه، أما نظرات الآخر فقد كانت تعتبر بمجموعها عن الدهشة والخوف من التهمة وكان فيها ضراعة الى الآلهة واستنجاد بها لتشهد على براءته مما الصق به. فكان حينا يرفع يديه الى السماوات، وكان حينا يرمي بنفسه الى الارض بالقرب من فراش المريض مناشداً اليه ان يلقي جانباً بكلّ خوف قد يساوره، وان يتابع تطبيق تعليمات دون تردد.

وكان أول تأثير للدواء من القوة بحيث دفع كل قوى الاسكندر البشرية الى الاحشاء الباطنية على حَدّ ما يعبرون عنه - فقد نطق وراح في غشية وتلاشى بنصه وفقد شعوره. ومهما يكن من أمرٍ فإن صحته وقواه ما لبثت أن عادتا كالسابق بفضل عناية فيليب. وظهر للملأ من المقدونيين سليماً معافى وكانوا في خوف مستمر وفي حالٍ من الأسى، فسكن قلقهم.

في ذلك الزمان كان في جيش داريوس لاجيء مقدوني يدعى آمينتاس Amyntas، على معرفة تامة باخلاق الاسكندر، ما ان ادرك نية داريوس في مباغتة الاسكندر بالهجوم من ناحية المضايق والشعب الجبلية حتى راح يلجّ في نصحه بألاّ يفعل، وبان يظلّ في السهول المترامية الفسيحة والأرض المنفتحة. لأن افضلية الجيش اللجب الكثير العدد هو في احراز الميدان الفسيح الكافي عند اشتباكه في قتال مع عدوّ أصغر منه عدداً. فلم ترق لداريوس الفكرة وقال لامينتاس: «أخشى ان يلوذ العدوّ بالفرار وينجو الاسكندر من يدي.» فأجاب امينتاس:

- لا مبرر ثم لهذا الخوف. كن متأكداً أنه ينوي خلاف ما تعتقده، لن يتحاشاك بل سيسرع اليك ويعمل جهده لملاقاتك، ومن المتحمل انه يزحف عليك الآن.

وهكذا ذهبت نصيحة امينتاس ادراج الرياح. فقد أمر داريوس فرفع معسكره فوراً وزحف داخل كليكيا. وفي الوقت نفسه تقدم الاسكندر الى سورية ودخلها لملاقاته. وفقد كلاهما أثر بعضهما بعضاً ليلاً وانكفآ على عقبيهما. وقد سرّ الاسكندر بهذا الحدث سروراً عظيماً وبذل جهده لأجل أن يحصل الاشتباك في الشعب. وبذل داريوس جهده للعودة الى مواضعه السابقة وسحب جيشه من هذه المواقع غير الملائمة. فقد بدأ يدرك خطأه في اختياره ميداناً للقتال هذه

الأراضي البعيدة جداً، حيث هناك البحر والجبال ونهر بيناروس Pinarus الذي يجري في وسطها. وهذه الموانع قد تضطره الى تجزئة قواته، وتجعل خيالته غير نافعة تقريباً. مواضع سيكون من شأنها أن تزيد من مناعة عدوه وتغطي ضعفه وتحميه ليس الا. وما كان «الحظ» بقادر على أن يوآتي الاسكندر أكثر من هذا ولا أكثر رعاية له في جعلها لمنفعة. فهو أقل من خصمه عدداً الى الحدّ الذي لم يكن ليسمح لنفسه بالتعرض لخطر التطويق. ولذلك فانه مدّ ميمنته مداً أبعد بكثير مما مد العدوّ من ميسرته وقاتل بشخصه في هذا الموقع متصدراً الصفوف الأولى واوقع الهزيمة بالبرابرة واصيب بجرح في فخذه بيد [داريوس] على ما يدعيه [خارس Chares] اذ انهما اشتبكا معاً الا ان الاسكندر. في الرواية التي حكاها [لأنتيباطر] عن المعركة ايدّ اصابته بجرح غير خطرٍ في فخذه الاّ أنه لم يتثبت من هوية الشخص الذي جرحه.

لم يكن يعوز الاسكندر لإكمال نصره الذي هزم فيه أكثر من مائة وعشرة آلاف من جنود عدوه، غير أسر [داريوس] الذي أفلح في النجاة بالفرار، بشقّ الأنفس. ولم يطارده الاسكندر بل قنع بالعودة بعد ان غنم منه عجلته وقوسه، فوجد رجاله ينهبون معسكر البرابرة، وكان يحوي الكثير جداً، من النفائس مع انهم تركوا معظم الاثقال في دمشق محاولة منهم التخفيف من احمالهم. وابقوا من النهب خيمة [داريوس] لتكون من نصيب (الاسكندر) وكانت مكتظة بالاثاث الفاخر وبمقادير كبيرة من الذهب والفضة. نزع الاسكندر شكة سلاحه وقصد الحمام وهو يقول:

- ألا فانزل عن اجسامنا مشاق الحرب في حمام داريوس.

فردّ عليه أحد اتباعه: ليس الأمر كما تقول، فالحمام هو حمام الاسكندر، لأن ما ملكه المغلوب، يجب أن يدعى ملكاً للغالب.

ووقعت انظاره على اوعية الاستحمام وقدور الماء وصناديق الادهان والاحواض وكلها من الذهب العجيب الصياغة. وشمّ الروائح الزاكية التي كان ريحها يضوع في جوانب الحمام بصورة جذابة. ومن هناك دخل مقصورة واسعة جداً مرتفعة السقف حيث الطنافس والمقاعد والموائد بالغة الفخامة وكأنها مهيئة لأقامة مأدبة. فالتفت الى المتحلقين به وقال:

- تلك هي مظاهر الملكية على ما يبدو.

وفيما كان يهم العشاء، أبلغ ان أم داريوس وزوجه وبنته الباكرتين اللاتي كن بين الأسرى، قد غشيهن كرب عظيم وحزن أليم لما شاهدن عجلته الحربية وقوسه فتوهمن أنه قتل. فظلّ

برهة ساكتاً وقد غلب تأثير حزنهن فيه على تأثير نصره. وأرسل اليهن [ليوناتس Leuna-tus] يعلمهن بان داريوس مازال حياً ولا حاجة تدعو الى الخوف من أي أذى يلحقه الاسكندر بهنّ، لأنه لم يشنّ الحرب على وليهّن إلاّ لغرض فتح الامصار. وأمر أن يعطين كل ما اعتدن الاستمتاع به عند داريوس. ولم يسع السيدات الأسيرات الاّ أن يرحبّن بهذه الرسالة أجمل ترحيب لاسيما بعد اقترانها باعمال أخرى عنها انسانية وكرماً. فقد يستخدمن لهذه المناسبة لا تقل ما اخترن من الثياب والاشياء الأخرى التي يجدنها مناسبة للمقام والظرف من بين الغنائم. ولم يعمد الى انقاص عددٍ من بطانتهن وخدمهن ولا من تقليل الاحترام الذي كن يتمتعن به.

وزاد في النفقات التي كانت تجرى لهن سابقاً. على أن أشرف وأنبل تصرف خليق بالملوك، قام به تجاههن، هو أنه عامل تانك السيدات العظيمات حسب مقتضى مقامهن وأخلاقهن. فمنع ان يسمعن أو نيلن أو يجابهن بأي شيء غير لائق. فبدأ لهن وكأنهن لا يعشن في معسكر عدوٍ بل في هيكل أو في هجرات مقدسة مخصصة للعذاري حيث يستمتعن بخلواتهن المصانة المحرمة. وكانت زوج داريوس تعد اجمل اميرات زمانها كما كان زوجها أطول واجمل رجال زمانه، ولم تكن بنتاهما بأقل من والديهما أوصافاً وميزات.

إلاّ أن الاسكندر الذي وجد الأليق بالملوك ان يشكموا أنفسهم من ان يدلوا اعداءهم، لم يحاول مطلقاً مطارحة اية واحدة منها الحبّ. بل لم يعمد الى الاجتماع باية امرأة قبل الزواج خلا [بارسينة Barsina] ارملة [ممنون Memnon] التي أخذت أسيرة في دمشق. كانت [بارسينة] هذه قد ضربت بسهم وافرٍ في العلوم الاغريقية. وعرفت بلين العريكة ولطف الخلق، وبأنها سليلة الملوك حيث انه اباها كان [ارطباز]. وقد زاد من رغبته فيها تشيع توسط وتشجيع [پارمينو] على حدّ ما يخبرنا به [ارسطبوليس] فقد كانت بارزة الشخصية لطيفة المعشر حقاً. ولم يظهر اهتماماً قطّ ببقية الأسيرات الفارسيات، مع جمالهن الباهر، ورشاقتهن واستواء اعضائهن وتناسقها، أكثر من قوله مازحاً: ان الفارسيات هن قذى للعين فظيع، مقارناً ذلك بمظهر جمال خلقه وفرط ضبط نفسه. وقد أمر بأخذهن بعيداً عنه كما ترفع من امامه الكثير من التماثيل والصورة الجامدة الخالية من الحياة.

عندما كتب اليه قائده [فيلوكزينوس Philoxenus] على جميع الساحل يستمزج رأيه في الموافقة على ان يشتري له ولدين صغيرين في نهاية الحسن والظرف يريد صاحبهما المدعو [ثيودوروس] بيعهما. شعر الاسكندر بوقع الاهانة، الى درجة أنه راح يردد بين اصدقائه متسائلاً:

- أي خسة ودناءة وجد [فيلوكزينوس] فيّ، ليقدم لي مثل هذا العرض الحقير.

ثم بادر الى كتابة ردّ شديد قال فيه: «الا فليذهب ثيودوروس وبضاعته الى سقر مشيعاً بتمنياتي الطيبة».

ولم يكن مع [هاغنون] بأقل من ذلك صرامة. فقد بعث اليه يقول انه سيبتاع له شاباً كورنثياً اسمه كروبيلوس Crobulos] ويقدمه هدية. وسمع بأن دامون [Damon] وطيموثيوس [Timotheus] وهما جنديان من جنود بارمينيو المقدونيين قد اعتديا على زوجات بعض الاجانب المرتزقة في جيشه، فكتب الى بارمينيو يطلب منه بشكل لا مردّ له، ان ينفذ فيهما حكم الموت ان وجدهما مذنبين كما ينفذ الحكم في اي حيوانين مفترسين لم يخلقا الاّ لإثارة المتاعب والفوضى للبشرية. واضاف يقول في رسالته هذه. بأنه لم يكن قطّ ليرى أو ليريد ان يرى زوج داريوس كلاً، ولا ان يسمح لأي احد ان يتكلم عن جمالها بمحضر منه. كان يريد القول ان النوم والعمل الجنسي يجعلانه يشعر بأنه بشر فانٍ قبل كل شيء، مثلما لو قيل ان التعب واللذة يصدران عن حيوانية وضعف في الطبيعة البشرية.

كان في طعامه وشرابه معتدلاً كما يبدو مما قاله لآدا Ada التي اتخذها أما قانونية له، ثم جعلها فيما بعد ملكةً على [كاريا Caria] ومما يذكر عنها - بعد اسقاط الكثير - ان الحنان كان يدفعها الى ان ترسل له يومياً الكثير من اصناف الطعام النادرة، ومن الحلوى وتبعث اليه بطهاة وحلواتية ممن تجد فيهم البراعة والتفنن في الصناعة، فيرفض ما ترسله قائلاً ان مدربّه الخاص [ليونيداس] يقدم له خير ما يصبو اليه، وهو مسيرة ليليّة تهيئواً للفطور، وفطور بسيط جداً ليخلق فيه شهيّة للعشاء. ويضيف قائلاً ان [ليونيداس] تعود فتح الصناديق والخزائن والقماطر وتفتيش الأثاث في غرفته ليتثبت من ان امه لم تترك له شيئاً فيه طابع الرقة والخنوثة. وكان أقل حبّاً بالخمر مما عُرف عنه. والعلّة التي دفعت الناس الى الاعتقاد بأنه أليف الخمر، هو انه كان وقت فراغه يؤثر الجلوس الطويل على مائدة الشراب ومبادلة الاحاديث، وكان يطيل الكلام كثيراً خلال شربه كأساً واحدة.

وبعكس ما اعتاده القادة الآخرون، لم تكن الخمر أو النوم أو اللهو او مطارحة الحبّ أو أي عارضٍ آخر ليؤخره عن عملٍ عندما يتطلب منه ذلك. وليس ثم دليل أقوى من تحقيقه هذه المآثر العظيمة والكثيرة في مثل هذا الزمن القصير. لقد اعتاد في الاوقات الاعتيادية الاستيقاظ مبكرا والتضحية للآلهة. ثم يتناول الفطور، ويقضي بقية النهار في الصيد والقنص، أو في كتابة المذكرات أو اصدار القرارات في الأمور العسكرية أو في المطالعة وتراه في التجريدات الحربية التي تتسم بطابع العجلة والسرعة لاينى يتدرب على الرمي أو ان

يركب عجلة ويترجل منها وهي تجري باقصى سرعتها ، ويخبرنا في يومياته انه كان أحياناً يصطاد الثعالب أو الطيور لأجل التريض فحسب. وبعد عودته مساء يغتسل ويدهن جسمه ثم يدعو جنازيه ورؤساء طهاته ليتأكد من ان عشاءه جاهز ولا يتناوله الاّ بعد ان ينصرم جانب من المساء ويسود الظلام وكان كثير الحفاوة والاهتمام بضيوفه ويوجب ان يخدم كل من يتكئ معه مثلما يخدم هو، وان يتلقى الرعاية والاحترام اللذين يقدمان له. وكما ذكرنا آنفا كان غرامه بالنقاش والحديث يجعلانه مجالساً مطيلاً في مجلس الشراب. وكان ثم هنة واحدة تشوب مجلسه، وهو انسياقه في مجال الغلو والادعاء والمباهاة الحربية، مما يتيح للمتزلفين فرصة عظيمة لامتطائه والتأثير عليه، وهذا ما يجعل اصدقاءه المخلصين في نهاية الضجر والضيق، ولولا ذلك لكان مجلسه لايضاهيه مجلس اي ملك من الملوك، مهما ارتفع شأنه. كان اصدقاؤه يجدون من الحطة والدناءة ان يتسابقوا الى التزلف اليه، الا [illegible] كانوا [illegible] ذلك يجدون من الخطر أن يمسكوا عن التزلف، وبين الخطر والعار تجدهم في أصعب موقف حول سلوكهم.

بعد أن يرفضّ المجلس، يجد الاسكندر طريقه الى الحمام حيث يغتسل ثم يؤوب الى فراشه ولا يستيقظ حتى الظهيرة، وقد ينام النهار بطوله.

كان قليل الطعام بعيداً عن النهم. فان ارسلت اليه سمكة مثلاً أو فاكهة نادرة، فرقها على اصحابه، وفي أغلب الأحيان تراه لايحتفظ بشيء ما منها لنفسه. ومع ذلك فان مصاريف سماطه كانت تزداد بارتفاع شأنه وسطوع نجمه حتى بلغ ما يصرف عليه يومياً عشرة آلاف دراخما. ووقفت عند هذا الحَدّ ولم تزد النفقات. ولم يقبل أن تزيد نفقة اية مأدبة يقيمها له الآخرون عن هذا الحدّ.

بعد فوزه في موقعة [ايسوس]، أرسل الى دمشق من نفذ اوامره بوضع اليد على كل ما يعود للفرس من أموال واثقال وزوجات واولاد. وفاز الخيالة التساليون بأعظم الانصبة متفقة مع شجاعتهم. وحصلت بقية الجيش على نصيب وافر من الاسلاب ايضاً مما اغناهم جميعاً، واتيح للمقدونيين بذلك اول فرصة لهم لتذوق الترف الفارسي، ومعاشرة النساء الفارسيات، والاستمتاع بلذة العيش البربري مما شجعهم وبث منهم روح الحماسة للمضي في نهجهم السرعة التي يعود بها الكلب السلاقي وراء رائحة القتيصة.

قبل ان يستأنف الاسكندر زحفه وجد من الضروري ان يتأكد من سلامة الساحل. فضم حكام جزيرة قبرص الى اتباعه واستسلمت له بلاد الفنيقيين كلها ما عدا صور، فالقى الحصار عليها سبعة اشهر وبنى تلولاً ترابية ونصب آلات الحصار والهدم الى جانب محاصرتها بمائتي بارجة من جهة البحر. وفي اثناء ذلك حلم بأنه رأى [هرقل] فوق الأسوار ماداً اليه يديه

يستدعيه، كما تخيل كثير من أهالي صور انهم رأوا في نومهم [ايوللو] الذي اخبرهم بانه ليس براضٍ عن أعمالهم وانه لم يلبث ان يترك جانبهم وينحاز الى الاسكندر. وعندئذ ما كان منهم الاّ ان قبضوا عليه بشخص تمثاله، كان الآلهة جندي هارب من الخدمة، وربطوه بالحبال وسمروّه في القاعدة. وأخذوا يلقون عليه الملام لمشايعته الاسكندر. ورأى الاسكندر في المنام – بمناسبة أخرى انه شاهد عن كثب مسخاً (ساتيراً) يسخر به فهم بامساكه فهرب وافلت ولم يتمكن منه الاّ بعد مطاردة طويلة ومناورات عديدة. وفصل المشعبذون لفظة [ساتيروس] الى كلمتين وهم بصدد تفسير الحلم وأكدوا له، أن [صور] ستسقط بين يديه. ويعرض أهالي المدينة الى يومنا هذا على الزائر، نبع ماءٍ قائلين ان الاسكندر نام قربه عندما رأى الساتيروس في منامه.

وفيما كان معظم الجيش أمام صور، قام الاسكندر بشن حربٍ على العرب الساكنين جبال [آنتي لبنان] وتعرضت حياته لخطر أكيد، عندما قام بانقاذ معلمه [ليسيماخوس] الذي شاء وأصرّ أن يصحبه في حملته هذه قائلاً: انه ليس باكبر عمراً ولا بأقلّ شجاعة من [فيونكس] وصيّ [آخيل] فعندما تركوا خيولهم، بدأ يتوقلون الجبال مشياً على الاقدام فسبقتهم بقية القطعات واضحت المسافة بين الصنفين كبيرة. وأقبل الليل وكان العدو قريباً. واضطر الاسكندر الى التخلف في المؤخرة وقتاً لبث روح الشجاعة في جنود المتعبين والمتقدمين في السن، ومديد العون للمتسكعين، وهكذا وقبل أن يفطن الى تأزم الوضع، وجد نفسه بعيداً عن بقية القطعات مع عدد قليل من الاتباع. واضطر الى قضاء ليلة شديدة البرد ،والعتمة، وفي موضع غير مريح مطلقاً. وشاهد وهو على هذه الحال نيراناً عديدة كبيرة للعدوّ منتشرة في رقعة واسعة من الأرض. فوضع ثقته في خفة حركة جسمه، وبطول معاناته المشاق والمصاعب، مستهدفاً زرع الثقة في جنوده ومعاونتهم في المآزق والشدائد، واتجه رأساً الى اقربِ نارٍ واردى بخنجره اثنين من البرابرة كانا جالسين يصطليان حوله واختطف مشعلاً ملتهباً وعاد به الى رجاله فاوقد به ناراً عظيمة أوقعت الرعب في قلوب العدو وهرب معظمهم اما الذين ثبتوا للقتال فهم فقد هزموا، وأمن الرجال من هجوم مباغت طوال الليل، هذا ما كتبه [خاريس] حول الموضوع.

ونعود الى حصار صور. لقد كانت نتيجته كما يلي: شاء الاسكندر ان يريح جيشه بعد الارهاق الذي اصابه جراء الهجمات السابقة. وقاد بجزءٍ يسير منه، هجوماً على الاسوار قاصداً اشغال العدو بصورة متواصلة وعدم ترك مجال للراحة له. واتفق ان [اريستاندر] المشعبذ بعد ان ضحى وفحص احشاء الاضحية، أكد للواقفين قربه بان المدينة ستفتح ابوابها

للغازي في غضون هذا الشهر. فكان ثم ضحك وشيء من التعليقات الساخرة بين الجنود لأن يوم النبوءة كان آخر يوم في الشهر! ورأه الملك حائراً، وكان معتاداً أنْ يخّف لنجدة النبوءات فأسرع يصدر أمراً بأن لا يعتبروا هذا اليوم الثلاثين من الشهر بل الثالث والعشرين. وامر بنفخ الابواق وهجم على الاسوار هجمة صادقة شديدة والهب زخم الهجوم وحماسته بقية قواته فتركت معسكرها وهي غير قادرة على ضبط نفسها عن التقدم لدعم الهجوم الشديد الذي اجبر الصوريين على التراجع. وتم الاستيلاء على المدينة في اليوم نفسه. وكانت [غزة] المدينة الثانية التي القى الاسكندر الحصار عليها. وهي واحدة من اكبر مدن سورية. فحصلت له اثناء الحصار الحادثة التالية. بينما كان طير يحلق فوقه، سقطت منه قطعة تراب فوقعت على كتفه، ثم حط الطائر على آلة من آلات الحصار فاشتبكت اطرافه حالاً في الشبكة المصنوعة من أوتار شدت لحماية الحبال التي تعمل بها تلك الآلات. وكان هذا طبق ما تنبأ به [اريستاندر] وملخص نبوءته هو ان الاسكندر سيصاب بجرح، وان المدينة ستسقط.

ومن هناك بعث بجزء كبير على اصدقائه دون استثناء، ومنهم ليونيداس معلمه، الذي اصابه مازنته خمسمائة تالنت من البخور، ومازنته مائة تالنت من المرّ، تذكيراً له بالآمال التي عقد عليه واشاد بها مرّة اثناء ما كان الاسكندر صبياً. اذ يقال ان ليونيداس كان يقف قريباً منه اثناء قيامه بالتضحية مرة، فرآه يتناول ملء كفيه من البخور ويقذف بها الى النار فقال له، قمين بك أن تكون اشد حرصاً في تقدماتك وان لا تكون كثير بالبذل الى ان تغدو وسيد تلك البلاد التي ترد منها هذه التوابل واللبان الزاكي الرائحة، فتذكر الاسكندر هذا وكتب اليه يقول:

«لقد بعثنا اليك بالكثير من المرّ والبخور، لكيلا تكون في المستقبل بخيلاً على الآلهة»

ومن بين الكنوز وغير ذلك من الاسلاب التي غنمها في داريوس، وجد صندوقاً ثميناً جداً اختص به لغرابته وندرته. وسأل من كان يحيط به عن أفضل شيء يودع فيه فأدلى كل برأي، ولكنه قال انه سيضع فيه الياذة هوميرس. لقد ايد هذه الحكاية ورواه ثقات. واذا كان أولئك الكتاب الاسكندرانيون المعتمدون على [هيراقليدس] صادقين فيما يروون فان هوميرس لم يكن مزاملاً كسلان للاسكندر أو محدثاً لا فائدة فيه. فحينما اصبح سيد [مصر] فكر في استحداث مستعمرة اغريقية، وقرر بناء مدينة واسعة الارجاء كثيرة السكان يطلق عليها اسمه. فقاس الأرض وحددها بمشورة افضل المعماريين، ثم اتفق في ليلة ما، ان رأى في نومه رؤيا عجيبة، رأى رجلاً هرماً اشيب الشعر ذا سيماء مهيبة يقف جنبه وينشد هذه الأبيات:

هناك جزيرة تدعى فاروس Pharos حيث زمجرة الموج عالية صاخبة على الساحل المصري.

ونهض الاسكندر في الحال وذهب الى فاروس، وكانت في ذلك الزمن تقع فوق الفم القينوبي Conobie من نهر النيل بشيء قليل، وان كانت اليوم قد اتصلت بالأرض الرئيسة بلسان ارضي. وما ان شاهد حالة الموضع ومناسبته، وهو عنق طويلة من الأرض تمتد كالبرزخ بين البحيرات الواسعة، مياة ضحلة من جانب والبحر من جانب وهو في نهايتها، يصلح لميناء واسع حتى قال:

- كان هوميروس الى جانب عبقرياته الأخرى مهندساً معمارياً مجيداً.

ثم امر ان يخطط تصميم المدينة بشكل يلائم هيئة الموقع ولافتقاره الى الطباشير لأن التربة كانت سوداء، فقد تعوض عله بدقيق القمح، مثبأ قطعة أرض وسطية على هيئة منقلة [نصف دائرة] وأخذ يرسم في داخل هذا النصف خطوطاً مستقيمة متساوية من كل نهاية، وهكذا اعطاها هيئة شبيهة بالمعطف، او القلنسوة، وفيما هو يمتع نفسه بتصميمه هذا، خرج فجأة من أعماق النهر والبحيرة عدد لايحصى من الطيور الكبيرة المختلفة انواعها، وانتشر مثل سحابة سوداء افترست كلّ الدقيق الذي استعمل لرسم خطوط المدينة. واضطرب على هذا النذير حتى الاسكندر نفسه، الى ان اعاد الكهنة العرّافون الى نفسه الاطمئنان، اذ قالوا ان ذلك لاشارة بان المدينة التي يزمع بناءها ستكون ذات خير عميم، فضلاً عن كونها ستطعم وتعين كثيراً من المدن. فأمر العمال بمباشرة البناء، بينما ذهب هو لزيارة معبد آمون.

وكانت رحلة طويلة شاقة، وخطرة من جهتين: فلو انهم فقدوا مختزنهم من الماء لأن الحصول عليه كان متعذراً عدة ايام، ولو هبت ريح الجنوب العنيفة عليهم وهم في رحلتهم يجوسون الصحراء الواسعة برمالها السميكة، كما جرى عندما قاد (قمبيز) جيشه في هذا الطريق تدفع الرمال أكداساً وأكواماً وترفع الصحراء كلها الى الأعلى مثل بحر، فتسفيه عليهم حتى ابتلعت منهم خمسين الفاً وقضت عليهم. لقد وزنت كل هذه المصاعب وشرحت له، الا ان الاسكندر لم يكن ممن اولئك الذين ينثنون عما اعتزموه بسهولة، لأن الخطر حتى ذلك الزمن كان الى جانبه في كل ما يعتزمه مما جعله رجلاً قوي الارادة ثابت العزم في كل ارائه، واقدامه كان يدفع نوعاً من العاطفة فيه لاقتحام الصعاب والتغلب عليها، كأن لم يكن يكفيه ان يكون منتصراً دائماً في ميدان القتال، بل يريد ان تخضع لارادته البلاد والفصول والطبيعة. وفي رحلته كانت الراحة والرعاية التي اسبغتها عليه الآلهة وهو في مأزقه أكثر ظهوراً واثباتاً من النبوءات التي ابلغ بها فيما بعد والتي كانت على اية حال قد انهيت اليه فيما بعد،

والتي كـانت على اية حالٍ قـد ثمنت وقـدرت أكـثـر بسـبب هذه الظواهر التي تلتـهـا فـأولاً ان الامطار الغزيرة التي سقطت صـانتـهم من خشيـة الهلاك عطشاً وبللت جفاف الرمال المحرقـة، فـأضت رطبـة متـماسكة صـالحة للسيـر، ونقت الجوّ وطهـرته. فـضـلاً عن ذلك، عـنـدمـا كـانوا يسيـرون على غيـر هدى متـحيـريـن بين الشـمـال وبين اليـمين لايدرون وجهـتـهم الصـحـيـحة لافتقـارهم الى علامـات واضحة ترشد الادلاء، فاضطربت احكامـهم وضلوا سـواء السـبيل، اذ بهم فجأة يهتدون اليـها بسرب من الغربان كانت تطير امـامهم وهم يسيرون، تنتظرهم عـنـدما يقفون او يتباطؤن في سيرهم. وأعـظم الخوارق التي صـادفتـهم على ما يخبرنا كالليـستـينس [Callisthenes] هو ان هذه الغربان. عندما تضـل سريّة سبيلها وتنقطع عن القسم الاكبر من الجيش ليلاً، تثير ضجة وتنعق نعيقاً عالياً الى ان تعود الوحدة الضالة وتنضم الى البقية.

وبعد أن قطع الاسكندر تلك المجاهل، بلغ موضعـاً حيث رحبّ به الكاهن الاكبـر عند اول السلام، ترحيباً صادراً عن ابيه [آمـون] وسأله هل بقي أحدٌ من قتلة ابيـه [فيليب] بمنجى من العقـاب بعد، طلب أن يـكون لهجة كلامـه عن ابيه أكثـر احترامـاً لأن أباه لم يكن من الـبشـر الفاني، فـغير الاسكندر من لهـجته وطلب منه ان يعرفه اذا كان قـد بقي واجد من أولئك الذين قتلوا [فيليب] دون عقاب حتى الآن وبخصوص السلطة هل ان سيادة العالم قد حفظت له؟

فـأجـاب الآله قـائلاً: انه سـيـملك العـالم وان مقـتل فـيليب قـد تم أخـذ ثأره كـامـلاً. فـفـرح الاسكندر بذلك فـرحاً عظيـماً دفعـه الى تقـديم اعـطيـات فاخرة جداً [لجـوبتـر] ومـنح الكهـنة هدايا ثـمـينة. هذا مـا كـتـبـه مـعظم الكتـاب عن النبـوءات. إلاّ ان الاسكندر بعث رسـالة الى والدته قـال فـيـهـا: انه كان ثم اجوبة سرية من الآله سيكشـفـهـا لهـا وحدهـا عـند عودتـه. ويقـول آخرون ان الكاهن رغب في مـخاطبتـه بالاغريقيـة عن طريق المجاملة والحفاوة ولما اراد أن يقول [ياپايديون Paidion] زل به اللسـان وعـوضـاً عن لفظه حـرف النون لفظ حرف الـسـين فـقـال «ياپايديوس»، وكـانت عـثـرة لسان سـرّ لهـا الاسـكندر كثيـراً. وشـاع القول ان النبـوءة هي التي قصدت دعوته بهذا.

من بين الحكم المأثورة، قـول للفـيلسـوف [بسـامـون Psammon] الذي سـمـع الاسـكندر في مصر عـنه ووثق بـه: ان كلّ الناس مـسيـرون بامـر الله، ذلك لأن كل مـا هو رأس، وكل آمـر ناهٍ هو آلهي. الاّ ان ما فـاه به الاسكندر حول الموضوع نفسـه كان أقـرب الى قـول الفـيلسـوف. قال: ان الله هو أب كلنا بدون أستثناء. لكنه بصـورة خاصة أبو خيرنا، وهو أفضلنا.

وكان يعامل البرابرة بـترفع وانفه، أما الاغريق فـيظهر لهم اللطف، والاعتدال وباقل مـا يمكن من التظاهر بالالوهية خلا مرة واحدة، عند الكتابة الى الأثينيين حول [سـامـوس] فـقـد قال لهم

بانه لن يمنحهم تلك المدينة المجيدة الحرة «انكم حزتموها بفضلٍ من ذلك الذي كان يدعى بسيدي وابي». يقصد فيليب. ومهما يكن فبعد أن جرحه السهم وشعر بالألم الشديد التفت الى من كان معه وقال لهم:

- هذا يا صدقاني هو دم حقيقي يجري مني وليس [ايخور Ichor][٣] الذي اعتادت الآلهة سفكه.

وفي مرة أخرى أرعدت الدنيا إرعاداً عظيماً، حتى دب الخوف في قلب كل انسان فسأله [اناكسارخوس] المتصوف، هل يمكنه بوصفه ابناً لجوبتر ان يفعل شيئاً كهذا؟ فأجاب الاسكندر ضاحكاً:

- كلاً، لا رغبة في أن ابدو جباراً في اعين اصدقائي. كما ستجدوني، باستصغاركم مائدتي لوجود السمك فيها، وليس رؤوس حكام الأقاليم.

في الواقع انه روى ما عُدّ حادثاً حقيقياً، أن [اناكسارخوس] عندما رأى هدية تتألف من اسماك صغيرة الحجم ارسلها الملك [هيفاستيون Hephastion] استخدم هذا التعبير بشكل من اشكال السخر والتنكيت والاستخفاف بأولئك الذين يتكبدون العناء الكبير ويركبون المخاطر والاهوال في سبيل الفاخر من الاشياء التي لاتمنحهم من المسرة والسعادة اكثر مما احرزه الآخرون منهما. ومما بينت حول هذا الموضوع يبدو ان الاسكندر لم يكن من الغباء بحيث يتوهم، ولا من التيه والمكابرة بحيث يظن نفسه إلهاً حقيقياً وانما كان يستخدم هذا الادعاء بالالوهية كوسيلة للاحتفاظ بعامل التفوق والسيادة على الآخرين ليس إلاّ.

على اثر عودة الاسكندر الى فينيقيا من مصر، ضحى للآلهة، ونظم مواكب دينية عديدة مضيفاً اليها مشاهد من الرقص الغنائي وتراجيديات تستهوى اللب بفخامة اخراجها وروعته فضلاً عن المنافسة الشديدة بين من تولى عرضها واخراجها. كان ملوك قبرص العارضين بعين الطريقة التي اعتادها اولئك الذين يتم اختيارهم بالاقتراع بين القبائل وهكذا اشتد التنافس فيما بينهم الى اقصى درجة احدهم يريد سبق الآخر، ويذكر بصورة خاصة [نيكوكريون Nicor-eon] ملك سلاميس، و[پاسكريتوس Pasicrotes] السولي Soli اللذين قاما بتهيئة الجوق ودفع مصاريف اشهر الممثلين وهما [اثينودوروس Athenodorus] [وثيسالوس Thessal-us] فقد مثل الأول لأجل پاسكيرتوس، والثاني لأجل نيكوكريون. وغلبّ الاسكندر

(٣) في الاساطير اليونانية ان الايخور هو السائل الاثيري الذي يجرى في عروق الآلهة بديلاً عن الدم البشري.

ثيسالوس، ولم يظهر تفضيله الأ بعد أن أعلن عن فوز اثينودوروس بأغلبية اصوات المحكمين فقال وهو يغادر المحل - المحكمون يستحقون التهنئة لقرارهم. الأ اني لأفضل ان اتنازل مختاراً عن جزءٍ من مملكتي على مشاهدة تيسالوس مغلوباً.

ومهما يكن فان الاسكندر دفع لاثينودوروس مبلغاً كافياً من المال عندما علم ان الاثينيين فرضوا عليه غرامة لغيابه في اعياد [باخوس] لتسديدها بعد ان رفضوا استجابة طلب الغائها بكتاب توسط بعث به اليهم. ومرة اتفق ان [ليكون Lycon] السكرافياني Scraphia] لقي استحساناً عظيماً في تمثيله وسأل الاسكندر في شعر القاه ضمن دوره الهزلي - هبته قدرها عشرة تالنتات، ضحك الاسكندر وأمر له بها.

وكتب اليه [داريوس] رسالة وارسل اصدقاء له للقيام بدور الوساطة في قبول ألف تالنت فدية للاسرى ومبادلة الصداقة بالصداقة وضم كل البلاد التي هي في هذه الجهة من نهر الفرات في حلف معه، واعطائه احدى بناته زوجة فعرض الاسكندر هذه الشروط على اعوانه وخلصائه . وعندما قال له پارمينيو انه ليقبل بها لو كان في محله، اجاب:

- كذلك انا، لو كنت پارمينيو.

وكان جوابه على مقترحات داريوس هذه هو انه لو جاء عارضاً الخضوع والاستسلام فسيعامله بأكبر عطف وحفاوة وان لم يفعل فأنه اي الاسكندر مصرٌ على ان يطارده ويجدّ في طلبه.

على ان وفاة زوج داريوس في الأسر اثناء وضعها جعله يندم ويأسف على جزءٍ من ردّه على الأقل. وبدأ كاسف البال متألماً لأن الحادث حرمه من فرصة لاظهار لطفه وطيب نفسه اللذين ظهراً جلياً بالتشييع العظيم الفخم الذي أمر به للمتوفاة.

كان ثم شخص من بين الخصيان الذين أخذوا أسرى مع النساء في خدمة الملكة يدعى [تيريوس Tireus]. هذا الخادم تمكن من ترك المعسكر والهروب على ظهر جواد الى داريوس ليخبره بوفاة زوجه ومثل امامه وما أن اسمعه القصة حتى ضرب داريوس رأسه بيده وانفجر باكياً نادباً وصاح:

- وا اسفا! ما أعظم النكبة التي مني بها الفرس. الا يكفي أن تقع زوج ملكهم واخته اسيرة لتدفن الأولى دفنة حقيرة كما يدفن رعاع القوم ونكراتهم؟

فقال له الخادم:

- أما عن موضوع جنازتها ايها الملك، وعن الاحترام والتكريم اللذين لقيتهما ، فليس ثم ما

يدعوك الى ندب سوء حظ بلادك، فعلى مدى معرفتي، لم تكن الملكة زوجك ولا ولدك في حاجة الى شيء وهم في حياتهم السالفة السعيدة معك، غير نور وجهك الذي لا أشك في ان الاله [اهورمزدا] سيعيده الى مجده السالف. واني اوكد لك بأنها حظيت بعد موتها بكل ما هو جدير بمقامها من مظاهر التكريم فضلاً عن انها أكرمت ايضاً بدموع اعدائك انفسهم. فان الاسكندر ان كنت لاتدري، رقيق القلب بعد النصر قدر ما هو مخيف في ميدان القتال.

وزاد داريوس حزناً وأسى بعد هذا الكلمة الى الحد الذي وصلا به الى اعظم الشك في اقوال الخادم فأخذه الى ناحية قصية من خيمته بعيداً عن الفضوليين وشرع يستجوبه بقوله:

- لعلك تخليت انت ايضاً عني كما تخلى عين حسن حظي واصبحت مقدونياً في سرك. أما إنْ كنت باقياً على ولائك لسيدك داريوس فإني آمرك بان تصارحني، وأستحلفك بحرمة نور [ميثرا] وبحرمة هذه اليد اليمنى التي يمدها اليك ملك. ان تصارحني القول هل أقلل من بكائي وحزني على سوء مصير [ستاتيرا] ام تراني اصبت بعارٍ وحزن بسببها اثناء حياتها يزيد عما مما اصابني الآن؟ هل لا كنت شقياً بأقل العار لو اني لقيت عدواً أكثر قسوة من الاسكندر وأقل منه انسانية؟ اني لأعجب كيف يمكن لشابٍ مثله ان يحيط زوج خصمه بهذه الرعاية السامية ويضعها في هذا المقام العظيم لو لم يدفعه دافع من شأنه ان يصيبني بالعار؟

فألقى تيريوس بنفسه عند قدميه وشرع يتوسل به أن لا يخطيء بحق الاسكندر، ولا بحق زوجه واخته الى هذا الحدّ، بابدائه مثل هذه الشكوك التي من شأنها أن تحرمه من أعظم عزاءٍ تبقى له وهو في محنته الراهنة. اعتقاد يجب أن يتغلب عليه بفضل رجل رفعته فضائله الى ما فوق الطبيعة البشرية، وان عليه ان ينظر الى الاسكندر نظرة مختلفة، وان يحمل نفسه على حبه والاعجاب به بعد ان قدم كل الدلائل على احترامه لعقائل الفرس قدر ما أظهره من الدلائل على شجاعته بين الرجال. وأكدّ الخادم كل ما قاله في السابق ووثقه بأغلظ الايمان واهولها. وراح يطنب ويسهب في وصف سماحة الاسكندر واعتداله وعظمته في مناسبات أخرى. واذ بداريوس يتركه فجأة ويقصد الزاوية الأخرى من الخيمة حيث كانت الحاشية والاتباع، ورفع يده الى السماء ونطق بالدعاء التالي:

- يا آلهة اسرتي ومملكتي! لو شئتم فإني اضرع اليكم جميعاً بان تعيدوا مجد بلاد الفرس الآفل وان اترك الدنيا وهي بعين الازدهار والعظمة التي وجدتها بها حين تسلمتُ الملك. وان تمنحوني الفرصة على ردّ جميل الاسكندر ورعايته رداً مناسباً لائقاً لقاء ما اظهره

من طيبـة وانا في محنتي، لاعـزّ الناس اليّ. امّـا اذا حكم القـدر، وحلّ الوقت الذي سيتخلى اسرة ملوك الفرس عن الحكم لفترة من الزمن، وان كان دمارنا هو الدّينْ الذي يجب دفعه الى الغضب الالهي وصروف الدهر واهوائه. فأني اضرع اليكم ان تقضوا بألاّ يجلس على عرش كورش رجل آخر غير الاسكندر.

تلكم هي الحكاية التي اوردها معظم المؤرخين في هذا الصدد، ولنعد الى الاسكندر. فبعد ان اخضع آسيا برمتها الواقعة على الجانب الغربي من الفرات تقدم نحو داريوس الذي كان يزحف نحوه على رأس مليون مقاتل. وفي اثناء تقدمه وقعت حادثة سخيفة. وهي ان الخدم الذين لحقوا بالمعسكر عمدوا على سبيل التسلية والمزاح الى ان يجعلوا من انفسهم فريقين اطلقوا على قائد الفريق الأول اسم الاسكندر وعلى الفريق الثاني اسم داريوس. وراحوا في مبدأ الأمر يضرب احدهم الآخر بقطع الطين، ثم انقلبت الحال وانتقلوا الى التلاحم بالأيدي، وبالأخير بعد ان حمي وطيس المعركة الزائفة، تطور الأمر الى قتال جديّ بالحجارة والهراوات، ولم يتم التفريق فيما بينهما الأ بعد الجهد الجهيد. وابلغ الاسكندر بالاخير رئيسي الفريقين بأن يقررا نتيجة معركة فريقيهما بمبارزة فردية بخوضاتها. وقام هو نفسه بتسليح الرئيس الذي اتخذ اسمه. في حين قام فيلوطاس بنفس العمل لقائد الفريق الذي اتخذ اسم داريوس وخرج الجيش كله لمشاهدة هذا النزال والكلّ يريدان يستخلص فألاً لنجاتهم المقبل. وبعد أن تقابل الخصمان وحمي وطيس النزال بينهما، ما لبث ان استظهر ذلك الذي يحمل فريقه اسم الاسكندر، فمنحه مكافأة، اثنتي عشرة ضيعة مع امتياز ارتدائه الثياب الفارسية. هذا ما حدثنا به [ايراتستينوس].

على أن أعظم المعارك التي خاضها الاسكندر ضدّ [داريوس] لم تكن في مدينة [اربيلا] مثلما ادعى معظم الكتاب. بل في [گوگميلا Gaugamela] وهذه الكلمة في لغتهم معناها «مناخ الجمل» وقد سمي الوضع بهذا الأسم لحادثة وقعت فيه، وهو ان احد ملوك الفرس القدماء نجا من مطاردة اعدائه على ظهر جمل سريع. فأعترافاً بفضل هذا الحيوان اسكنه هنا واوقف قرى وريع مسقفات للعناية به. وقد اتفق انه في هذا الشهر المسمّى [بويدروميون Boëdromion]، بمبدء عيد الاسرار على وجه التقريب في اثينا، ان حدث خسوف. وبعد الليلة الحادية عشرة من هذا الخسوف اصبح الجيشان على مرأى احدهما من الآخر. وابقى داريوس رجاله شاكي السلاح وفي حال تأهب واستعرضهم على ضوء المشاعل في حين قضى الاسكندر تلك الليلة امام خيمته مجتمعاًبعرافه [اريستاندر] مباشرين طقوساً سرية معينة ومضحيان لاله الخوف. في حين كان جنوده يغطون في نومهم. وشاهد أقدم قواده ولاسيما

[پارمينو] السهل جميعه ما بين جبلي [نيفاتس Niphates] و[گوردیان Gordyaean] وهما يشعان بالنيران العظيمة التي أوقدها البرابرة، وسمعوا الاصوات والاصداء المضطربة الآتية من معسكرهم مثل بحر هدير خضم آتٍ من بعيد، فادركهم الذهول والعجب عند التفكير بهذا الحشد العظيم وبعد مداولة فيما بينهم توصلوا الى ان الاشتباك بالعدو المتفوق عليهم تفوقاً ساحقاً لهو أمر عسير محفوف بالمخاطر. والتقوا بالملك وهو راجع بعد تقديمه القرابين وراحوا يلحون عليه بأن يهاجم داريوس ليلاً، قائلين ربما حجب الظلام اخطار المعركة فرد عليهم بجوابه المشهور:

- إنّي لا أسرق النصر!

قول حسبه بعضهم في حينه، قولاً صبيانياً ينطوي على تسرّع وعدم شعور بالمسؤولية، حتى لكأن صاحبه يلعب بالخطر لعباً الاّ فريقاً اتخذه دليلاً على ثقة الاسكندر بالوضع الراهن. واصابته في حسابه، وفسروا قراره بأنه في حالة هزيمة داريوس، لايبقى له فرصة أخرى لتجربة حظّه ثانية، الحظّ الذي افترض انه يقف الى جانبه بأن يعزو هزيمته الى عامل الليل الذي كان ضده كما عزاها من قبل عندما هزم في الجبال والشعّاب الضيقة والبحر.

ففي الوقت الذي كان يوجد تحت تصرفه هذا القدر العظيم من القوات، والممالك الواسعة، ولايشكو نقصاً لا في الرجال ولا في السلاح يتعلل به لرفض الاشتباك، لايكون سبب الاحجام غير الافتقار الى الشجاعة وفقدان المعنويات والايقان بالهزيمة مسبقاً.

بعد أن أجاب الاسكندر قواده بهذا الجواب انصرفوا عنه فاضطجع في خيمته ونام بقية الليل نوماً اهدأ واعمق من المعتاد الأمر الذي عجب له القادة حين اقبلوا عليه صباح اليوم الباكر وهم يريدون منه اعطاء الأمر بافطار الجنود ولم يسمح لهم الوقت بالانتظار فتقدم پارمينيو من سريره وناداه باسمه مرتين او ثلاثاً حتى استيقظ وسأله كيف امكنه أن ينام هذا النوم العميق كأنه نوم غبّ نصرٍ، في حين انه مزمع ان يخوض اعظم معركة له؟ فأجاب الاسكندر باسماً:

- أولَسنا كذلك في الواقع؟ لاسيما بعد ان تخلصنا من متاعب مطاردة داريوس في بلاد واسعة جرداء مؤملين عبثاً أن يقاتلنا؟

بدت عظمته للعيان لا قبيل المعركة فقط بل عندما بلغ الخطر اقصاه. وظهر مقدار ضبط النفس المتناسب مع بعد النظر والثقة. فلقد ظلت المعركة مدة طويلة غامضة، لا ترجح كفة جانب على آخر واشتد هجوم خيالة البختيارية Bacrtia على الميسرة التي كانت بأمرة

پارمينيو الى الحدّ الذي دبّ الخلل في صفوفها فاضطر الى التقهقر قليلاً وفي الوقت عينه ارسل [مازيوس Mazaeus] وحدة للالتفاف ومباغتة القائمين على حراسة الاثقال من الخلف مما أقلق [پارمينيو] فأرسل سعاة الى الاسكندر يعلمه بالخطر الذي يهدد الاثقال في المؤخرة، وانها مهددة بالضياع اذا انقذها بنجدات قوية يتم سحبها من الجبهة الامامية. وصلت الاسكندر هذه الرسالة وهو يعطي اشارة الهجوم لاعوانه القريبين منه. فأمر السعاة بالعودة حالاً الى پارمينيو والقول له لاشكّ انه فقد رجاحة عقله وهي في وسط قلقه. كيف ينسى بأن انتصار الجيش يجعله سيداً لاثقال العدو وان هزيمته تحتم عليه فحسب القتال ببسالة والموت بشرف لا الاهتمام بما يمتلك من مال أو عبيد. قال هذا واعتمد بلامته وتقلد بقية سلاحة قبل خروجه من الخيمة وهو بجملته زرد صقلي الصنع وحزام جلدي مشدود حوله شداً وفوق ذلك صدار كتاني مقصب ثمين كانت من الاسلاب التي غنمها في موقعه ايسوس. واللامة التي هي من صنع ثيوفيلي وان كانت من الحديد فهي مصبوبة ومطروقة طرقاً جيداً بحيث بريقها لم يكن باقل من بريق الفضة. واكمل شكة سلاحه بواقية عنق من المعدن نفسه مكفتة بالاحجار الكريمة. وكان سيفه الذي يحمله عادة في القتال، هدية ملك الكتيانيين ويمتاز بخفته العجيبة، ومعدنه الرائع. والحزام الذي يتمنطق به في كل المعارك، كان من ابدع ما اخرجته يد الصناع، ويستظهر على كل قطع سلاحه الأخرى، هو من عمل [هيلقون Helicon] السالف ذكره قدمه الروديون Rodians دليلاً على الاحترام الذي يكنونه له.

ترك حصانه المفضل [بوكيفالس] اثناء تفتيشه الصفوف وتنظيمها والانتقال بينهما لأعطاء الاوامر وتعيين الاتجاهات واستعراض الرجال، فهذا الجواد كان متقدماً في السن. على انه ارسل في طلبه عند بدء الهجوم وامتطاه حين بدأ القتال.

في هذا اليوم المشهود القى اطول خطبة له في التساليين وغيرهم من الاغريق، فردوا عليه بصياح وهتاف عظيميين. طالبين ان يتقدمهم الى الأمام ضدّ البرابرة وعندها نقل رمحه الى يسراه ورفع يمناه الى السماء راجياً من الآلهة على قول [كالليتسنيس] «ان كنت ابن جوپتر حقاً، فمن الواجب ان تساعد الاغريق وتشد ازرهم». في الوقت نفسه تقدم العراف [اريستاندر] راكباً مشتملاً بعباءة بيضاء وعلى رأسه تاج ذهبي. واظهر للجنود صقراً اطلقه فحلق فوق الاسكندر واتجه نحو العدو فدبت في الناظرين حماسة عظيمة وبعد استنهاض همم بعضهم بعضاً وتشجيعهم هجمت الخيالة باقصى السرعة وتبعها فلانكس المشاة جميعه كتلة متراصة واحدة. لكن البرابرة – انكفأوا الى الخلف قبل الاشتباك بين الصفوف الأمامية فجدّ الاسكندر في اثرهم ودفع بأولئك المنهزمين من امامه الى وسط المعركة حيث كان داريوس،

ولمحه الاسكندر من بعيد على رأس الصفوف الأمامية يحيط به حرسه الخاص، وكان رجلاً فارع الطول وسيماً، يقود عجلة فخمة يحميها عدد كبير من أفضل الفرسان من كل جانب وهم في ابدع نظام واتم الاستعداد لاستقبال هجمة العدو. إلاّ ان تقدم الاسكندر كان مخيفاً ساحقاً بحيث اجبر المتقهقرين على الارتماء فوق اولئك الذين ظلوا ثابتين في مواضعهم وهكذا هزمهم وفرّقهم شذر مذر. وحاولت قلة الصمود وهي نخبة من اشجعهم فقتلوا عن آخرهم بمشهد من ملكهم. كانوا يتساقطون أكداساً واحدهم فوق الآخر وهم يحاولون اثناء احتضارهم الامساك بالخيل المتقدمة لوقفها. واتضح لداريوس بان كل شيء قد ضاع وان اولئك الذين وضعوا في الصفوف الامامية لحمايته قد انكسروا ودفعوا الى الخلف عليه. ووجد ان الاستدارة متعذرة ولم تتخلص عجلته الاّ بعد الجهد الجهيد لأن عجلاتها اشتبكت وتعثرت بجثث القتلى التي كانت مكدسة أكداساً شيء فوق شيء فأوقفت الخيل بل غطيتها فأجعلت وانكفأت الى الخلف وجمحت ما سقط في يد سائق العجلة ولم يعد بواسطة السيطرة عليها واهتبل فرصته وهو في هذا المأزق، بترك عجلته واسلحته وامتطاء مهرة أخذت من فلوها (على ما قيل) وبهذه الوسيلة نجا، على ان النجاة كانت بعيدة عن متناول يده لو لم يرسل پارمينيو سعاة آخرين الى الاسكندر يطلب انجاده ضد اعداد كبيرة من الاعداء الذين ما زالوا صامدين في مواضعهم. في الواقع ان [پارمينيو] كان في هذه المعركة هدفاً لانتقاد الجميع فقد بدأ متراخياً لا خير فيه ربما لأن كبر السن احدث اثره في اقدامه واشجاعه، او كان - على حدّ قول [كاللتسينوس] يكره في سره تنامي عظمة الاسكندر ويحسده عليها ان الاسكندر لم يدركه اقل السخط لاستدعائه، واضطراره الى التخلي عن استكمال نصره، الاّ ان اخفى السبب الحقيقي عن رجاله وأمر بضرب بوق الوقوف، كأنما تأخر الوقت بهم لمتابعة النصر هو السبب، واتجه الى ناحية الخطر من المعركة ولكنه ابلغ بنبأ هزيمة العدو وهو في طريقه.

اما وقد انتهت المعركة بهذه النتيجة فقد بدأ وكأنها وضعت نهاية محتومة لامبراطورية الفرس. وقام الاسكندر الذي أعلن ملكاً على آسيا بتقدم شكره للآلهة بقرابين فخمة وأغدق على اصدقائه واعوانه المكافآت المالية ومنحهم الاراضي وامرّهم على الممالك والاقاليم. ودفعته رغبته الى كسب احترام الاغريق وثقتهم الى الكتابة اليهم بعهد قطعه على نفسه وهو قيامه بالغاء كل حكومات الطغاة والمستبدين وعنيهم بالعيش في ظلّ الحرية وبحماية قوانينهم، وذكر بصورة خاصة [البلاتيان Platians]. ووعدهم بأن يبنى مدينتهم لأن مواطنيهم كانوا في غابر من الزمن قد سمحوا أن يجعلوا من بلدهم مركزاً لادارة الحرب عندما نشب القتال مع البرابرة دفاعاً عن حريتهم المشتركة. وبعث ايضاً بجزء من الغنائم الى ايطاليا

[للكروتونياتيين Crotoniats] تكريماً لشجاعة وحمية مواطنهم [فايالوس Phayllus] المصارع الذي انضم الى الاسطول في سلاميس ليكون له سهم في المخاطر والاهوال بسفنه التي سيرها على حسابه الخاص ومشاركته في الحروب الميدية في الوقت الذي تنكرت لأصلها المستعمرات الاغريقية الأخرى في ايطاليا وتخلت عن بلاد اليونان. كان الاسكندر شديد التعلق بكل انواع الفضائل، وكان ايضاً يهتم كثيراً بحفظ ذكرى الاعمال والمآثر الجديرة بالثناء التي يقوم بها الغير.

ومن هناك زحف الى بلاد البابليين ودخلها وسرعان ما دانت له بالولاء. وفي [اكبتانا] ادركه شديد العجب لمنظر النار الدائمة الصادرة من نبع مثل نبع ماءٍ لاينقطع مجراه ينبط من باطن الأرض. ومسيل النفط وهو لايبعد كثيراً عن تلك البقعة، يتدفق بكمية كبيرة جداً حتى انه يؤلف ما يشبه البحيرة. ان هذا النفط وهو من بعض النواحي يماثل الزفت سريع الاتقاد بحيث تراه يتقد بملامسة الضوء قبل وصول اللهب اليه. وكثيراً ما يشعل الهواء المتوسط ايضاً. ولكي يظهر البرابرة قوته وطبيعة عمله فقد رشوا الشارع المؤدي الى مسكن الملك بقليل من قطراته وعندما حل المساء وقفوا عند احدى نهايتي الخط وبيدهم المشاعل ثم قربوها من النفط المرشوش وما أن تسلمت النار حتى كان الخط كله ناراً من طرف الى طرف في ومضة عين، وبدأ الشارع وكأن النيران قد التهمته. وكان ثم شخصٍ يدعى اثينوفانس -Athen ophanes وهو مواطن آثيني يقف بخدمة الملك وانتهاز المناسبات لتسليته عند اغتساله، ويدهن جسمه بالزيت، الاسكندر من طلب هذا الرجل أن يجرى تجربة على استفانوس بالنفط، وهو شاب قبيح الطلعة وجهه يضحك الشكلى بارع في الغناء. كان يقف منتظراً في مواضع الاستحمام عنده، قائلاً:

- لو انها (اي النار) اشتعلت فيه بدون ان تطفأ فلابدّ وانها ذات قوة لاتقهر.

نبادر الشاب يعطي موافقته على التجربة فزهن جسمه بالنفط وما ان فرك جلده حتى اشتعلت النار فيه فأستولى القلق والاضطراب الشديد على الاسكندر، ولولا جمع قريب من الناس بادروا بالماء وصبوها عليه لحسن الحظ لانتهت حياته واتت عليه النيران على ان جسمه أصيب بحروق كثيرة ومرت مدة طويلة حتى اندملت وتماثل للشفاء. وهكذا فانه لم يكن خالياً من العذر المقبول اجتهاد القائلين ان النفط هو العقار الذي ذكرت التراجيديات بانّ [ميديا Medea] وهنت به التاج والخمار اللذين اعطتهما لابنة [كريون Creon] فلا الاشياء بذات نفسها ولا النار نفسها بقادرة على الانتقاد ذاتياً، وانما يتم ذلك بنقعها بالنفط فلا ترى نفسها الاّ وهي تنجذب الى النار وتشتعل دون وسيط عند يتفق وان يقرب منها لهب. ان

اشعاع وفيض وانبثاق اللهب من بعيد لا أثر له على بعض الاجسام أكثر من اعطائها حرارة أو ضوء. ولكن في بعضها الآخر حيث تصادف جفافاً فيه تيار هوائي، وكذلك رطوبة غنية كافية فانها تتجمع الى نفسها وما تلبث أن تلتهب وتحدث التحول المنشود وعلى اية حالٍ فان طريق استخراج النفط يطلق عنان الفكر في دروب مختلفة من الآراء. هل ان هذه المادة السائلة التي تغذي اللهب، تصدر من التربة التي هي زيتية القوم ومولدة للنار، مثل اقليم بابل حيث الأرض على درجة حرارة عالية جداً بحيث ان حبّ الشعير في اغلب الاحيان تقفز احياناً عن قشرة سنبلتها وتنقذف الى الخارج، وكان اللهيب العنيف قد جعل الأرض تخفق خفقاناً. عندما تصل درجة الحرارة اقصاها هناك يعمد الناس الى النوم على جربان مملوءة ماءً. ان [هرپالوس Harpalus] الذي تركه الاسكندر حاكماً لهذه البلاد، وكان ولوعاً بتزيين حدائق القصر وما شبه بانبتة اغريقية نجح في استنبات كل ما غرسه عدا اللبلاب الذي لم تكن التربة تتحمله بل نقلته فوراً لانه من النبتات التي تحب التربة الباردة ومزاج هذه الأرض الحارة النارية لم يناسبها. [ان امثال هذه الاستطرادات التي اوردها قد يكون القارىء النافد الصبر أكثر ميلاً الى غفرانها لو بقيت مقصورة ضمن دائرة معتدلة].

عند الاستيلاء على [سوسه] وجد الاسكندر في القصر الملكي اربعين ألف تالنت نقداً مسكوكاً الى جانب ما يقصر عنه الكلام وما يتعذر تحديد مقداره من الاثاث والكنوز من بين ذلك ما تبلغ قيمته خمسة آلاف تالنت من الارجوان الهرميوني ظل مكنوناً هناك زهاء مائة وتسعين عاماً وما زال محافظاً على لونه جديداً قشيباً، ويقال أن السبب في ذلك يعود الى استعمالهم العسل في صبغ الأرجوان كما يستعملون الزيت الأبيض وكلاهما يحافظان على تألق القماش ومرونته بعد مرور هذه الحقبة من الزمن. ويحدثنا [دينون Dinon] ايضاً ان ملوك الفرس كانوا يجلبون ماءً من نهري النيل والدانوب ويختزنونه عندهم استشهاداً بعظمة سلطانهم وسعة امبراطوريتهم.

كان دخوله بلاد الفرس من اراض وعرة جداً يسهر عليها انبل الفرس، وقد لجأ اليها داريوس نفسه. على ان الصدف هدت الاسكندر الى دليل تتفق اوصافه تماماً مع ما تنبأت به [پيثيا] في طفولة الاسكندر، وهي ان [ليقوسيّاً] سيقوده الى بلاد فارس. وبمعونة شخصٍ ابوه ليقي وامه فارسية يتكلم اللغتين، دخل البلاد بطريق غير مباشرة ولكن دون كثير من اللف والدوران. وفي هذا الموضع وضع السيف في رقاب كثير من الأسرى، كما اقرّ هو نفسه بذلك اعني انه امر بقتلهم معتقداً ان في ذلك مصلحة. وادعى أن الأموال المنقولة والنفائس هناك وضع يده على ما يربو عن عشرة آلاف زوج من البغال وخمسة آلاف جمل اخذها عنوة. ووجد

تمثالاً كبيراً لزركسيس ملقى باهمال بسبب ما عم من الفوضى والاضطراب اللذين اثارهما الجم الغفير من الجنود المتدافعين نحو القصر، فوقف ساكناً وبادره بالكلام كما لو كان بشراً حياً:

- أتتوقع ان نمرّ بك مروراً عابراً وانت ملقى على الأرض لأنك غزوت يوماً ما بلاد اليونان؟ ام ترانا نقيمك على قاعدتك مقدرين عظمة عقلك ومضائلك الأخرى؟

وبعد ان فكر ملياً مقلباً الأمر من شتى وجوهه، واصل سيره دون أن يعره أكثر من ذلك اهتماماً. واتخذ من هذا الموضع مقراً شتوياً له ومكث اربعة أشهر لاراحة جنوده. ومما أثر عنه انه عندما جلس لأول مرة على عرش ملوك الفرس تحت مظلّة من ذهبٍ، ما كان من [ديماراتوس Demaratus] الكورنثي وهو أحد أقرب خلصائه وواحداً من اصدقاء ابيه إلاّ ان انفجر باكياً بكاء الرجال المتقدمين بالعمر، وراح يندب سوء حظ أولئك الاغريق الذين حرمهم الموت من لذة رؤية الاسكندر جالساً على عرش [داريوس].

وقرر أن يبدأ زحفه على داريوس وقبل أن يباشر ذلك راح يسليّ نفسه وقواده بحفلات شرب وغير ذلك من وسائل قضاء الوقت وانغمسوا في ذلك الى الحدّ الذي سمح فيه لكلّ خطية بان الجلوس الى جنب صاحبها وتساقيه. وكانت تاييس Thais الآثينية مخطية بطليموس ملك مصر المقبل أشهرهن. هذه المرأة نطقت بقول موجه الى الاسكندر يمتاز بالبراعة من جهة، وبالفكاهة وسرعة البديهة من جهة أخرى اثناء ما كانت كؤوس الراح تترع وتدار فلعبت الخمر برأسها الى الحدّ الذي فاهت بكلام لايمكن اعتباره غير جدير بطبائع موطنها وكان ارفع بكثير من مكانتها وصفتها. قالت:

- ان قيامي اليوم بالخدمة. وبإمكاني أن أشتم ملوك الفرس في قصرهم، فيه بعض تعويض عما كابدته من المتاعب والمشاق بمتابعة الجيش في تنقلاته في ارجاء آسيا. لكن قد يزيد في سروري كثيراً لو يسمح لي - على سبيل العبث والتسلية لا غير في ان اشعل النار بيدي في قصر [زركسيس] الذي احال مدينة آثينا الى رماد، والاسكندر ينظر الى المشهد.

وهكذا سيسجل للاجيال القادمة بان المرأة التي تبعته قد ثأرت من الفرس للمآسي والاهانات التي تلقاها الأغريق منهم، وهو انتقام أشدّ وانكى من اي انتقام ناله القواد العسكريون منهم بحراً أو براً.

وأستقبلت كلماتها بارتياح عام وغمغمه استحسان دليلاً على تشجيع المحتفلين وتحبيذهم حتى ان الملك نفسه لم يسعه غير الموافقة مع الإجماع فنهض من مجلسه وعلى رأسه أكليل

الزهر وبيده مشعل متقد، وسار على رأس الجمع وهم في أثره محدثين ضوضاء وضجة والكل يرقص ويهتف فينادي بأعلى صوته فترجع اجواء القصر اصداءها. وبمشاهدة المقدونيين الموكب استخفهم الطرب وراحوا يتراكضون هنا وهناك وبأيديهم المشاعل وكانوا يتوقعون حرق وتدمير القصر الملكي متخذين من شوق الاسكندر الى الوطن وعزوفه عن السكنى بين البرابرة دليلاً.

هذا ما سجله بعض الكتاب حول الحادث في حين ذكر آخرون ان مباشرة الحريق كان متعمداً وليس عفوياً. إلاّ ان الفريقين يتفقان بان ندم الاسكندر كان سريعاً آنياً فاصدر امره باخماد النار فوراً.

كان الاسكندر بطبيعة حاله جواداً معطاء. يزداد سخاء كلما سما به حظه. وكان يقرن هباته بضروب لطيفة من المجاملة وحسن التصرف واللباقة وهي امور ضرورية جداً لتجعل اية منحة فضلاً مشكوراً لا تعويضاً وسأورد بعض الأمثلة على ذلك:

فتك اريسطون قائد الپايونيين Paeonians] بمقاتل من الاعداء وحمل رأسه الى الاسكندر قائلاً ان هدية كهذه تعوض في عرف بلاده بكوبٍ من الذهب الخالص فرد الاسكندر باسماً:

- بكوب خالٍ من الخمر. ولكني اشرب نخبك بهذا الكوب الذي اقدمه اليك مترعاً!

من مناسبة ثانية كان أحد الجنود يسوق بغلاً محملاً باموال تعود للملك فادرك الحيوان النصب. فبادر الجندي الى نقل الحمل الى عاتقه وسار يستاق البغل المتعب خلفه فشاهده الملك ينوء تحت ثقل ما يحمل فسأله عما حدا به الى ذلك فاجابه وهو يهم بانزال حمله من فرط التعب، فقال له الاسكندر:

- لاتهن الآن وتماسك وأكمل رحلتك وخذ ما تحمله الى خيمتك فهو ملك حلال لك.

وكانت نفرته وانزعاجه من رافضي هباته أكثر ممن يستجدونها منه ولذلك كتب الى فوكيون Phocion يقول «اني ان اعتبرك في عداد اصدقائي ان ظللت ترفض قبول عطاياي.

ولسيراپيون وهو أحد الشبان الذين كان يلاعبهم بالكرة لم يعط شيئاً لانه لم يطلب منه، وفي يوم ما جاء دور الشاب في قذف الكرة فراح يتوجه بقذفاته الى اللاعبين الآخرين متجاهلاً الاسكندر فسأله هذا عما يحدوه الى هذا فاجاب الشاب قائلاً:

- لأنك لم تطلب مني.

فسرّته الاجابة وانبسطت يده له غاية الانبساط.

وكان ثم آخرٌ اسمه [پروتياس Proteas] وهو رجل لطيف خفيف الظلّ ضاحك الثغر مزّاح

شريب خمر، كان قد اغضبه يوماً لسبب ما. فدفع اليه باصدقاءٍ متوسطاً مستشفعاً طالباً عفوه وهو باكٍ حتى نجحت المساعي وصرح الاسكندر ان قلبه قد صفا له وانه عاد الى وده. فقال پروپتاس

- لايسعني تصديق ذلك ما لم تعطني جهداً.

ففهم الملك قصده وامر فوراً بمنحه خمسة تالنتات.

وتبدو روعة اخلاقه وسموه في اغناء اتباعه والواقفين على خدمته من رسالة كتبتها له [اولمپياس] اوصته فيها بان يقبض يده قليلاً في مكافأة المحيطين به معللة ذلك بقولها:

- انك الآن تساويهم بالملوك، فتمنحهم السلطة، وتتيح لهم الفرصة في أن يجمعوا حواليهم حاشية من الاصدقاء ويختصون بهم في حين ينفض من حولك الاصدقاء.

وكثيراً ما كانت تكتب اليه حول ذلك، ولكنه لم يكشف عن محتويات تلك الرسالة الى أحدٍ خلا رسالة واحدة فضها وهيفابستيون Hephaestion واقف معه فأجاز له مطالعتها معه كما تقضي به العادة. وبعد ان فرغ هيفابسيتون من القراءة اسرع الاسكندر فخلع خاتمه ووضع ختمه على شفتي صديقه!

كان [المازيوس Mazaeus] أكبر الاشخاص مقاماً في بلاط داريوس ابن قُلد وظيفة حاكم اقليم. فجعله الاسكندر حاكماً على اقليم آخر أفضل من الأول. فرفض ذلك على كلٍ تواضعاً منه وقال له انه بدل [داريوس] واحد، يخلق عدة نسخ من الاسكندر. ومنح [پارمينيو] ونزل [بغواس Bagoas] فوجد المالك الجديد فيه مستودعاً من الثياب والحلل ما تربو قيمته عن ألف تالنت. وكتب الى [انتيباطر] يأمره أن يتخذ لنفسه حرساً خاصاً دائمياً للمحافظة على حياته من المتآمرين، وارسل الى امه الكثير من الهدايا الا انه لم يمنحها اي مجالٍ للتدخل في أمور السياسة والحرب ولا أن تستخدم ميلها الى التدخل، ولا أن تتبع فضولها. وعندما نشب الخلاف بينهما بهذا الخصوص تحمل حدة طبعها بكل صبرٍ واناة، بل ارتفع حلمه معها الى الحَدّ الذي قال بعد أن قرأ رسالة اتهام لانتيباطر طويلة ضدها حررها له [انتيباطر].

- ان انتيباطر لايدرى ان دمعةً واحدة نذرفها عين ام تمحي الف رسالة كهذه.

لكن عندما تبين ان اخلصاءه غرقوا في اسباب الترف وتمادوا في الاسراف والبذخ، حتى ان هاكنون Hagnon التاياني خصف احذيته بمسامير من الفضة، و[ليوناتسي] ارسل العدو العديد من الجمال لحمل التراب الدقيق من مصر، وفرشه على أرض المصارعة. وان [فيلوطاس] اصبح لديه من شباك الصيد ما يبلغ طوله مائة فرلنك، وان الكثيرين يستخدمون

ارهاناً واطياباً غالية الثمن بدل الزيت الاعتيادي عند الاستحمام، وانهم يصحبون الخدم والحشم حيثما انتقلوا وسافروا لتدليكم والقيام عليهم في حجراتهم - عندما تبين كل ذلك بدأ يعنفهم بلحجة رقيقة معتدلة فيقول لهم مثلاً:

- اني لأعجب منكم، انتم الذين خاضوا غمار المعارك والنزال الفردي الكثير، كيف لم تعلّمكم التجارب بأن المرهقين من عمل اليوم ينامون أهنأ النوم وأعمقه، لا كأولئك الذين يعمل الآخرون من أجلهم. كيف عميت بصيرتكم عن الرؤية، فما عدتم تقارنون طراز العيش الفارسي بطرز عيشتكم، أن أبغض شيء وأحقره هو ان يكون المرء شهوانياً على ان أنبل حالة من حالات البشر وأسماها هي في أن يعاني الألم ويتمرس في الآفات.

وناقشهم أيضاً في ادعاء المرء بانه جندي ولكنه لا يعني بحصانه أو ينظف شكة سلاحه ويصقلها دوماً لتكون دائماً في حالة جيدة، ان الجندي هو ذلك الذي يهتم بالدرجة الأولى في ان تكون يديه نافعتين لأقرب الاشياء اليه وهو جسده وكيانه. وقال أخيراً:

- أبحاجة انتم الى ان تتعلموا بأن نهاية انتصاراتنا وكمالها، يتحقق في اجتناب رذائل ونقائص من استظهرنا عليهم؟

ولدعم حجته بالبرهان الحسيّ. انصرف الى الصيد والقنص انصرافاً مضاعفاً، وخرج كثيراً في تجريدات عسكرية مهتبلاً كل الفرص لتعريض نفسه للمشاق والاخطار حتى اتفق ان اللقيديميين الذين كانوا قد وفدوا عليه في سفارة، حضروا منازلة بينه وبين أسدٍ ضخم فتمكن منه وصرعه فقالوا انه قاتل الحيوان الضاري ببسالة فأي الاثنين يجب ان يكون الملك؟ وقام [كراتيروس Craterus] بعمل نقش بارز لهذه المنازلة ظهر فيه الاسد والكلاب والملك وهو يصارع الوحش وهو نفسه قادم لمعونته - وكان النقش على النحاس بتماثيل بعضها من صنع [ليسيبوس Lysippus] وبعضها من صنع [ليوخارس Leochares] ووضع هذا يعرض نفسه للمهالك والاخطار قاصداً تعويد نفسه عليها وحث غيره على الاعمال النبيلة والاقدام.

إلاّ ان اتباعه الذين اغتنوا واتربوا وادركتهم الخيلاء، بسبب ذلك، مالوا الى الانغماس في الملذات والفوا حياة الخمول والكسل، بدأوا يضيقون ذرعاً بالمسيرات والحملات العسكرية وتمادوا الى الحد الذي امسكوا عن الحديث الطيب عنه وراحوا يغتابونه. في بادئ الأمر تحمل منهم ذلك متحلياً بالصبر الجميل وقال:

- تلك هي العادة، مهما أحسن الملوك عملاً فان ألسنة السوء تنالهم بالقدح.

ومع ذلك لك يكف عن عطفه عليهم فينتهز أقل مناسبة لابدائه لهم، ان دلائل رقته

واحترامه لهم لاتحصى. سمع مرة ان [پيوكستس Peucistes] قد عضّه دبٌ فكتب اليه يقول:

- اني لا أقبل ان اسمع من الآخرين هذا النبأ، بل اريد أن تخبرني به انت، لكن مادام الأمر قد حصل فدعني اعرف كيف انت وان كان قد تنكر لك ايّ صاحب من اصحابك ساعة الخطر حتى انزل به العقاب.

وارسل الى [هيفاسيتون] الذي كان قد سافر لمهمةٍ - رسالة يذكره فيها كيف ان رمح [پيردكّاس Perdeccas] اخترق فخذي كراتيروس بمحض الصدفة اثناء ما كان يصارعان نمساً ضارياً على سبيل التسلية. وعند شفاء [پيوكستس] من مرض ألم به ارسل كتاب شكر لطبيبه [الكسيپوس Alexippus] وعندما لازم كراتيروس الفراش مرة، رأى حلماً في نومه فقام على اثره بتقديم القرابين لأجل شفائه وطلب منه ان يفعل المثل. وكتب ايضاً الى پاوسانياس Pausanias الطبيب الذي كان يهم بتطهير احشاء [كرايتروس] بالخربق، شعوراً منه بالقلق الشديد عليه من ناحية وتذكرة له في ان يكون حذراً باستعماله هذا العقار السّام من جهة أخرى.

وكان رفيقاً وغيوراً على سمعة اصدقائه الى الحدّ الذي عمد فيه الى ايداع كل من [ايفيالتس Ephialtes] و[كيسوّس Cissus] السجن لانهما كانا أول من اخبراه عن هرب [هارپالوس Harpalus] من خدمته؛ خشية أن تكون تهمة مزيفة. وعندما اعاد العجزة وكبيري السنّ الى الوطن، عمد [يوريلوخوس Eurylochus] وهو مواطن ايجي، الى تسجيل اسمه في قائمة العاجزين في حين كانت صحته على ما يرام. ولما افتضح أمره، اعترف بانه يحبّ فتاة اسمها [تيليسپّا Telesippa] وقد اراد ان يلحق بها الى الساحل. فاستخبر الاسكندر عن وليّ أمر الفتاة فتيل له انها محظيّة حرة بالولادة فقال [ليوريلوخوس] الجندي.

- سأعينك في حبّك هذا. إن امكن الفوز بمعشوقتك بالهدايا أم بالوساطة ولكن علينا الا نستخدم وسائل أخرى لأنها حُرة.

انه لمن الغريب حقاً ان يتعنّى الاسكندر كتابة الرسائل وتوجيهها في قضايا بسيطة تافهة خدمةً لاصدقائه. ككتابته رسالة حول البحث عن فتىً مفقود يعود [السلوقس] هرب الى كيليكيا وتوجيهه رسالة شكر وتقدير الى [پيوكستس] لقبضه على [نيقون] خادم [كراتيروس]. وكتابته رسالة [الميگابيزوس Megabyzus] حول عبد لجأ الى معبدٍ لائذاً. فصدر تعليمات تقضي بعدم التعرض له طالما هو في الداخل. ولكن ان استطاع سيده حمله

على الخروج بوسائل مشروعة فلا بأس من القبض عليه.

وقد أثروا عنه انه لما جلس مجلس القضاء للمرة الأولى في قضايا تتضمن احكام موتٍ وضع يداً على أذن عندما أخذ المدعي يعرض دعواه، لابقائها حرة غير منحازة لمساع المدعى عليه. لكنه فقد عطفه ورقته هذه عندما كثر عرضي القضايا الجنائية عليه وكان معظم التهم صحيحاً ولها كانت احكامه خاطئة ظالمة أحياناً. واخذ يميل الى تصديق الزائف من التهم ايضاً. ولاسيما عندما يتعرض احد لشخصه بالغيبة. فانه ينسى نفسه، ويغدو قاسياً لايعرف للرحمة معني. مفضلاً مجده وشهرته على حياته ومملكته.

كما قلنا سابقاً، انطلق الاسكندر وراء [داريوس] متوقعاً ارغامه على الدخول في معركة أخرى. وسمع ان [بسوس] تمكن من القبض عليه وحبسه وما ان سمع بذلك حتى بادر باعادة التساليين الى ديارهم ومنحهم هبة قدرها ألفا تالنت، علاوة على ما يستحقونه من اعطيات. وتعب جنوده من مطاردته داريوس [قطع في احد عشر يوماً، ثلاثة آلاف وثلاثمائة فرلنگ] وغدا معظمهم على اتم الاستعداد للانثناء عنه بسبب قلة الماء. وبينما هم في محنتهم هذه، اتفق ان وحدة من المقدونيين الذين جاؤا بماءٍ في جربان على بغالهم من نهر صادفوه، انهم وصلوا حوالي الظهر الى الموضع الذي عسكر فيه الاسكندر فوجدوه يكاد يموت عطشاً فبادروا الى ملء لامة وتقديمها له. فسألهم لمن يحملون الماء فقالوا لأولادهم. واضافوا قائلين أن ما يهمهم حياته فحسب فلو سلمت لكان فيها الكفاية ولو هلكوا هم جميعاً، اذ سيكونون قادرين على تعويض الخسارة. فتناول اللامة وتلفت فرآى اعناق القريبين منه تمتدّ متلهفة للماء، فاعاد الوعاء شاكراً دون ان يشرب قطرةً واحدة وقال:

- إن أصبتُ أنا وحدي من مائكم، فستنهار معنويات الباقين.

ما ان تبين الجنود عظمة تصرفه حتى أخذت الحماسة مأخذها منهم فهتفوا هتاف رجل واحدٍ وطلبوا منه ان يتقدمهم وبدأوا يسوطون خيولهم. وقالوا: مادام ملكنا بهذه الصفة، فنحن نتحدى التعب والعطش. واننا لنعد انفسنا كائنات لا تقلّ كثيراً عن مستوى الآلهة الخالدين. لكن ومع هذه الرغبة والاستبشار فان الذي قدروا على متابعة الزحف على ما قبل لم يكن يزيد عن ستين فارساً، هجموا على معسكر الاعداء في غفلة منهم ووضعوا ايديهم على كميات لا تقدر من الذهب والفضة وكانت مبعثرة هنا وهناك ومروا بحسد كبير من العجلات ممتلئة بالنساء، ومتفرقة في رقعة واسعة وليس فيها سائقون. وجدوا في ادراك اول الهاربين املاً في العثور على داريوس معهم. وقد عثروا عليه فعلاً بعد كثير من الجهد. وكان ملقى في عجلةٍ مثخناً بالجراح على شفا الموت. فطلب من آسريه مشربة ماء. وعندما نال قليلاً من

الماء البارد قال لساقيه [پوليستراتوس Polystratus] انه بلغ آخر درجة من الشقاء وسوء الحظ عند قبوله هذه الحسنة وعجزه عن ردّها واضاف:

- لكن الاسكندر الذي ارجو من الآلهة ان تكافئه لعطفه على أمي وزوجي واولادي، سيشكرك دون شكٍّ لانسانيتك معي. فقل لي عنيّ اني امدّ اليه يدي اليمنى دليلاً على شكري وتقديري.

وقبض على يد [پوليستراتوس] ولفظ آخر انفاسه.

وظهر الحزن العميق على الاسكندر عند وصوله اليه، ونزع معطفه والقاه على جسده. وبعد مرور فترة من الزمن أسر [بيسوّس] فأمر به ان يمزق شلوا على الوجه التالي: شدوه الى شجرتين متقابلتين بعد ان احنوا جذعيهما وضموهما الى بعض بقوة عظيمة ثم أطلقوهما فعادتا الى وضعهما وقد نالت كل واحدة منهما للجزءُ من الجسد المشدود اليها. واسجي جسد داريوس في نعش مكشوف وأرسل الى امه بابهّة تليق بمقامه. وجعل اخاه [اكساثريس Ex-athres] واحداً من اخلص اصدقائه واقربهم. وزحف بزهرة جيشه نحو [هرقانيا Hyrcania] فوجد امامه ساحلاً واسعاً وبحراً مفتوحاً لا تقل سعته عن بحر قزوين Euxaine ماؤه اعذب من المياه الأخرى. الاّ انه لم يتحقق منه. وبدا له ان كل الاحتمالات تشير الى كونه ذراعاً صادراً من بحيرة ميوتس Moeatis. على ان علماء الطبيعة قبله كانوا أخبر منه فقد توصلوا الى الحقيقة قبل حملته بعدة سنين فاثبتوا انه من الجلبحان الاربعة التي تدخل الى القارة من البحر الرئيس عند هذا الخليج الذي لايعرف بغير اسم (قزوين) ويقع في اقصى الشمال كالبحر الهرقاني، التقى البرابرة بنفر كانوا يقودون جواده الخاص [بوكيفالوس] فأخذوهم اسرى ووضعوا ايديهم على الحصان فاستشاط غضباً وارسل اليهم منادياً يهددهم ويطلب اعادته أو سيضع السيف في رقابهم جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً دون ان تداخله فيهم اية رحمة. على انه عاملهم معاملة لطيفة عندما أعلنوا الطاعة وسلموا له مدنهم وزاد في لطفه بان افتدى حصانه ممن نهبه.

ومن هنا زحف الى پارثيا. ووجد نفسه هناك عاطلاً لا عمل لديه فاشغل نفسه بأمور ثيابه كلبسه الزيّ البربري. ولعله اقدم على ذلك للتقرب من قلوبهم وليسهل مهمة تحضيرهم. اذ ليس ثم ما يجذب قلوب الناس كتبني عاداتهم وكالتخلق بطباعهم او ربما كانت منه اول محاولة يستنتج منها مدى استعداد المقدوميين لعبادة شخصه كما يعبد البرابرة ملوكهم بتعويدهم شيئاً فشيئاً على التغيير الطارىء في حكمه واسلوب حياته وغير ذلك من الأمور. وعلى اية حالٍ فانه لم يتخذ الزي الميدي لباساً فقد كان بنظر مواطنيه اجنبياً تماماً وغير

اختار الطريق الوسط بين الزي الفارسي والمقدوني واهتم بحيث لا تكون زاهية صارخة الالوان كالأولى ولا فخمة فاخرة كالثانية. وكان في مبدأ الأمر لايرتدي زيه الجديد هذا الا عند اجتماعه بالبرابرة أو عندما يكون في خلوة بين اتباعه واعوانه الاقربين. الا انه ظهر بها فيما بعد وكان منظره بها يحزن المقدونيين الا انهم كانوا يسكتون عنها ويتجاوزون بسبب فضائله وحسن اخلاقه الى الحدّ الذي يشعرون معه بأن من العدالة أن يترك وشأنه يرضي اهواءه وميله الى المجد والظهور، بعدما عرض نفسه الى المخاطر والأهوال. ومن العوارض الخطيرة التي أصيب بها مؤخراً ان سهماً أخترق ساقه ففتت عظم القصبة واخرجت منها شظايا. كذلك اصيب في مؤخر عنقه بضربة حجرٍ عنيفة جداً اضعفت باصرتيه وغدا ضعيف الرؤية مدة طويلة. ولم يمنعه كلّ ذلك من تعريض نفسه للمزيد من الأخطار باستهتار عجيب فقد عبر نهر [اوركزارتس Orexartes] الذي حسبه نهر [تانايس] وهزم الصيثيين وطاردهم زهاء مائة فرلنگ وهو يعاني طوال ذلك من الاسهال الشديد.

ويؤكد الكثيرون انه في هذه البلاد حظي بزيارة الامازونات هذا ما يزعمه [كليتارخوس Clitarchus] و[پوليكلتيوس Polyiclitus] و[اونيسكريتوس Onesicritus] و[انتيگينس Antigenes] و[استر Ister] الا ان كلاً من [ارسطبولس] و[خاريس] اللذين اشغلا وظيفة المبلغين عن الالتماسات والعرائض، و[بطليموس] و[انتقليدس Anticlidis] و[فيلون] و[تيبان Theban] و[فيليب] التيانجيلي Theangela، و[هيكاتيوس Hecatæus] الارترياني Eretrian و[فيليب] الخلقيدوني، و[دوريس] السامياني Samian، يقولون ان الحكاية كلها هي من نسج الخيال. والواقع ان الاسكندر نفسه يؤيد ادأي الاخير اذ انه يقصّ في رسالة موجهة الى انتيباطر تفاصيل ما حصل خلال الحملة. فيخبره ان ملك الصيثيين عرض ابنته عليه زوجاً. ولا يذكر شيئاً عن التقائه بالامازونات وبعد عدة سنين كان [اونيسكرتريس] يقرأ هذه الحكاية في كتابه الرابع الى ليسيماخوس الذي كان ملكاً آنذاك فضحك ليسيماخوس ضحكة هادئة وعقب قائلاً:

- اين كنت في ذلك الوقت يا ترى؟

ولو سلمنا جدلاً بصحة الحكاية فايه فائدة في ذلك للاسكندر ومن المؤكد انه بعد ان ادركه الملل من متابعة الحرب، ترك القسم الاكبر في مقراته بهرقانيه، وأحتفظ بنخبة من الرجال يبلغ عددهم عشرين ألفاً من الرجالة، وثلاثة آلاف من الخيالة، وتوجه اليهم بهذه الخطبة:

- انكم حتى هذه الساعة لم تروا البرابرة الا في احلامكم. فان كنتم تعلون انفسكم بالعودة

دون ان تفعلوا شيئاً بعد أكثر من ارهاصكم اسيا دون الاستيلاء عليها، فإن اعداءكم سينقضون عليكم كما ينقضون على نساءٍ. اني لن استبقي احداً رغم أنفه، وبامكانكم ان تذهبوا حيث شئتم، فليس لي غير رفع صوتي بالاحتجاج على المقدونيين والرثاء لهم، لأني تركت وحدي مع حفنة من الاتباع والمقطوعين، وانا في سَبيلي ان أجعل منهم سادة الدنيا.

ذلك هو طبق ما دونه [انتيپاطر] حرفاً بحرفٍ. واضاف يقول انه حين خاطبهم بهذا الكلام صاحوا قائلين: سنتبعك حيثما شئت ان تقودنا. وبعد نجاحه هذا لم يكن من الصعب ان يستميل القسم الاكبر الذين انضموا الى النخبة. والآن ايضاً روض نفسه على العيش كالمواطنين المحليين وحاول تقريبهم الى مدينة المقدونيين قدر الامكان، (وهو منشغل في حملة كانت ستقذف به الى مسافة بعيدة) مفكراً بدراية وبعد نظر، انه زيادة في الحكمة هو الاعتماد على حسن النية المتأتية من الاختلاط والامتزاج منهما الوسيلتان الفعالتان للتوصل الى الهدوء والاستقرار، دون اللجوء وسيلتي الى القوة والاكراه، ولذلك اختار ثلاثين ألفاً من الصبيان واسلمهم الى مربين لتعليمهم لسان الأغريق وتدريبهم على استعمال السلاح على اصول الضبط والربط المقدونيين. واما عن زواجه بروكسانا Roxana التي سحرته بفتوتها وجمالها في حفلة شرب. حيث وقع نظره عليها لأول مرة وهي ترقص، فكانت مسألة حبّ لا غير. ومع هذا فقد بدت القضية وكأنها جزء من الخطة التي يتولى امر تحقيقها. اذ انه لما يرضي الشعب المغلوب ان يختار الغالب زوجه منهم فيشعرهم باشدّ الميل له. فالحب وهو العاطفة الوحيدة التي تمكنت منه واستقوت عليه وهو ارق الناس والطفهم جعلته يتحمل بالصبر والتأني حتى يحصل على روكسانا بطريق شرعية شريفة.

وتبين ان هيفاستيون كان أكثر اصدقائه وخلصائه موافقة له على تصرفاته واسرعهم الى محاكاته في تغيير زيه في حين بقي [كراتيروس] اميناً على عادات بلاده وتقاليدها. فعمد الاسكندر الى استخدام اولهما عند تعامله مع الفرس، والاعتماد على الثاني عند تعامله مع الاغريق والمقدونيين. وكان على العموم يظهر لهيفاستيون أكثر الحب والإعزاز ويظهر لكراتيروس اكثر الاحترام والاكبار. لأن هيفاستيون (كما يقول) هو صديق الاسكندر، في حين ان كراتيروس هو صديق الملك ولذلك حقد احدهما على الآخر وكان الخلاف ينشب فيما بينهما فترة وفترة حتى بلغ الخلاف بها حداً في الهند ان هما بالاشتباك بالسلاح وقد اشهراه وكادا يلتحمان وانحاز الى كل واحد اصدقاؤه يشجعه ويدفعه للنزال فأسرع الاسكندر يحثث مطيته اليهما وراح يعنف [هيفاستيون] علانيةً ووصفه بالرقاعة والجنون. ونسيانه بأنه لم يكن شيئاً

مذكوراً لولا فضله، ووبخ [كراتيروس] في السرّ، ثم أجبرهما على المصالحة مقسماً بالآله آمون وبقية الآلهة انه يحبهما حباً لا يعدله حبه للبقية ولكن إنْ علم انهما عادا الى الخلاف والتنابز فسيقتلهما أو سيقتل المعتدي منهما على الاقل. وتحاشى احدهما اثارة الآخر او ازعاجه باقول أو الفعل حتى على سبيل المزاح.

ولم يكن أحدٌ يداني [فيلوطاس] ابن [پارمينيو] في مكانته السامية عند المقدونيين فالى جانب شجاعته ومقدرته على احتمال متاعب الحرب ومشاقها، كان يأتي بعد الاسكندر في السخاء وبسط اليد، والتعلق باصدقائه. سأله أحدهم مالاً فأمر وكيله بان يعطيه. فأخبره بأنه لايوجد فقال:

- اما عندم صحفة او ثياب لي؟ اذهب معها واعطه.

الاّ انه بلغ حدّ الافراط في غطرسته وكبريائه وتظاهره بالفن الى حدّ الادعاء الكاذب، غير اللائق بالانسان السوّي. كان يبدو كل مظاهر الترفع والانفة غير مفلح في اظهار رقة العظيمة وجمالها بهذا التعاظم المغلوط الزائف نال القدر الكبير من الحسد والحفائظ. وكان [پارمينيو] ينذره أحياناً بقوله:

- من الافضل يا بني ان لا يكون البشر متعاظماً الى هذا الحدّ.

رفع أمره الى الاسكندر منذ زمن والصقت به التهم وبصورة خاصة عند هزيمة داريوس في كيليكيا، والاستيلاء في دمشق على كميات هائلة من الغنائم. وكان من بين الأسرى الذين جيء بهم الى المعسكر، [انتيگون] الپدنية [Pydna] الفائقة الجمال التي وقعت من نصيب [فيلوطاس]. فجعلها مخطية له، وفي يوم ما قال لها وهو في مجلس شراب. أن كل الأعمال العظيمة انما حققها هو وابوه، وبها نال ذاك الصبي الاسكندر المجد وجنى الفائدة الى جانب لقب الملك. ولم نستطع كتم ذلك فاقضت بما سمعت الى احد معارفها، وكما جرت العادة نقله هذا الى ثالث حتى وصلت الحكاية اذن [كراتيروس] الذي أخذ المرأة الى الاسكندر سراً. وبعد ان سمع منها ما جاءت للاقضاء به أمرها بالاستمرار في الانصات الى ما يتفوه به فيلوطاس ونقله اليه.

هكذا سقط [فيلوطاس] في الفخ بغفلة منه. كان يطلق لنفسه العنان ارضاء لنوبة غضب تجتاحه، وانسياقاً بحبه للزهو والخيلاء، فينطق بالعبارات الحمقاء الطائشة ضدّ الملك في محضر من [انتيگون] فما تلبث انه تبلغ الاسكندر ومع أنه بدأ مقتنعاً بهذه الدلائل القوية الاّ انه لم يأبه بها ولم يتخذ اي اجراء سواء في ذلك بسبب وثوقه من حب پارمينيو واخلاصه او

خوفاً من نفوذهما وعلو شأنهما في الجيش. ولكن من حدود هذا الزمن بدأ شخص من [خلاسترا Chalastra] يدعى [لمنوس Limnus] بالتآمر على حياة الاسكندر، وافضى بنيته هذه الى شاب كان مولعاً به اسمه [نيقوماخس] لعله ينضم اليه فرفض نيقوماخس وكشف الأمر لاخيه [بالينوس Balinus] الذي بادر فوراً بالطلب من [فيلوطاس] ان يأخذهما الى الاسكندر فلديهما شيء بالغ الأهمية يريدان ان يفضيا به اليه فلم يعرهما اذناً صاغية والحا عليه مرة أخرى دون جدوى فقصداً غيره وتمكنا عن طريقه من الوصول الى الاسكندر. فكشفا له بمؤامرة [لمنوس] وأظهرا بسياق ذلك اهمال [فيلوطاس] وكيف انه رفض ايصالهما اليه مرتين. وهناك استنشاط الاسكندر غضباً وزاد انزعاجاً لما علم ان [لمنوس] دافع عن نفسه وقتل بيد الجندي الذي ارسل لاعتقاله لأنه فقد بموته الوسيلة الوحيدة للكشف عن خيوط الدسيسة. وما ان أخذ استياؤه من [فيلوطاس] يبدو حتى هبّ اعداء هذا الشاب وراحوا يسلقونه بالسنة حداد قائلين ان الملك سهل الاستغفال اذ كيف يتصور ان شخصاً تافهاً لا وزن له [كلمنوس] يقدم بنفسه وبتدبيره الخاص على مثل هذه العملية الضخمة؟ وان اقرب الاحتمالات، هو أنه لايزيد عن اداة يحركها لولب كبير. وانه يجب ان يحقق مع كل من له مصلحة في التآمر على حياة الاسكندر تحقيقاً دقيقاً وهكذا ملأوا اسماع الملك بمثل هذا الدسّ ثم شرعوا يظهرون الف سبب وسبب للشك في [فيلوطاس] حتى نجحوا في حمل الملك على اعتقاله وتسليمه للتعذيب فجرى ذلك امام كبار الضباط، وجلس الاسكندر نفسه وراء ستارة يتسمع الى ما يجرى. واصغى الى اللهجة الذليلة والخنوع اللذين كان [فيلوطاس] يتوجه بهما الى [هيفاستيون] وقيل انه هتف من مجلسة:

- ما أجبنك وأخسّ نفسك يا فيلوطاس ومع ذلك تجد في نفسك القدرة على المشاركة في مثل هذه المؤآمرة الخطيرة.

وبعد موته أرسل الى ميديا بأمر بقتل ابيه [پارمينيو] ذلك القائد التي اتى بضروب من الشجاعة والاقدام تحت أمرة [فيليب] وكان الرجل الوحيد من اصدقائه القدامى ومستشاريه الذين شجعوا الاسكندر على غزو آسيا. كان لپارمينيو ثلاثة ابناء في الجيش. فقدمتهم اثنين قبلاً وها هو الآن يموت من ثالثهم.

هذه التصرفات جعلت الاسكندر مصدر رعب كثير من اصدقائه، ولاسيما [انتيپاطر] الذي أخذ يجمع من حوله الانصار ويقوى نفسه بارسال موفدين الى [الياتوليين Aetolions] في السرّ، توخياً لعقد حلف معهم، وكانوا ممن يهاب الاسكندر، لأنهم دمروا مدينة [أونيادي Oe-niade]. وعندما اخبر الاسكندر بذلك قال هازئاً ليسوا بحاجة الى الثأر لحرب والدهم،

فسأتولى عنهم انا شخصياً انزال العقاب بالياتوليين. ولم يمر طويل زمن على هذا، حتى كانت مأساة كليتوس المؤلمة وهي حادثة قد تبدو لمن سمع منها طرفا بسيطاً، أقسى وابعد عن الانسانية من حادثة [فيلوطاس]، اما لو تدبرناها بظروفها ودرسناها بدوافعها الآنية ووزنا العلة والمعلول، فسنجد انها كانت مجرد سوء طالع صادفه الملك الذي، أفسح غضبه الناري وافراطه في الشرب، المجال لظهور الروح الشرير في كليتوس.

جاءت الاسكندر من ساحل البحر فاكهة يونانية على سبيل الهدية فأعجب بجمالها وطراوتها فبعث يستدعي كليتوس ليراها وليقاسمه اياها. كان كليتوس وقتئذ، يضحي للآلهة، فترك قربانه فوراً واقبل متبوعاً بثلاث شياه كان قد صبّ عليها الخمر تمهيداً لتضحيتها. وعندما انبيء الاسكندر بهذا سأل عرافيه [اريستاندر] و[كليوماتس -Cleo mantes] اللقيديمي عما يعني هذا فأكدا له انه فال سيء. فامرهما ان يعجلا بتقديم قرابين لاجل سلامة [كليتوس] فقد رأى فضلاً عن ذلك حلماً غريباً قبل ثلاثة ايام عن كليتوس. لأه في ثياب الحداد جالساً مع ابناء [پارمينيو] المائتين. وعلى كل فان [كليتوس] لم يمكث لانهاء تضحية، وانما اقبل رأساً لتناول العشاء مع الملك الذي قام بالتضحية لكلّ من [كاستور وپوللوكس] وعندما افرطا في الشرب باشر بعض الجالسين بغناء اشعار المدعو [پرانيخوس Pranichus] أو [پيريون Pierion] على حَدّ زعم آخرين. نظمت تلك القصائد بهجاء وتحقير أولئك الضباط الذين هزمهم البرابرة مؤخراً. فجرحت مشاعر اكبر الحاضرين سناً ووبخوا الناظم ومنشدي قصائده توبيخاً شديداً في حين كان الاسكندر والشباب الآخَرون المحيطون به في اقصى درجة من الاستمتاع بها وشجعوا المنشدين على الاستمرار، الى ان خرج [كليتوس] عن طوره ولم يقو على ضبط نفسه وكان قد شرب كثيراً، وهو بالاصل ذو مزاج حاد عنيد لايسلس له قياد. نهض وقال:

- ليس من اللائق فضح المقدونيين امام البرابرة واعدائهم، اذ مع شقائهم بهزيمتهم فما اكثر الرجال الذين يفضلون الهازئين بهم.

فعقب الاسكندر قائلاً: ان كليتوس انما يدافع عن نفسه بهذه الاقوال، مسمياً الجبن سوء حظ.

فعاد كليتوس يصيح قائلاً: هذا الشيء الذي أخترت تسميته بالجبن، انقذ حياة ابن الآلهة عند هروبه وحسام [سپيثريداتس Spithridates] يتعقبه، وكانت نجاته على حساب الدم المقدوني، بهذه الجراح ارتفعت الى هذا المقام الذي مكنّك من بنوتك لفيليب وتسمية نفسك بابن [أمون].

فصاح الاسكندر فهو في أشدّ حالات الغضب: أيها الحقير، اتظن بأنك ستظلّ تنطق بهذه الأمور في كل مكان عني، وتحرض المقدونيين على العصيان، وانت في منجى من العقاب؟

فأجاب [كليتوس]: لقد نلنا من العقاب ما نستحق، اذا كان هذا ما نكافأته عن جهودنا وتعبنا. ما اسعد أولئك الذين ماتوا لكي لايروا اليوم مواطنيهم يجلدون بسياط ميديّة. ويضطرون الى الرجاء من الفرس للسماح لهم بمقابلة الملك.

وراح يتكلم على هذه الشاكلة دون ضابط اورادع فأنهض أقرب الرجال من الاسكندر وراحوا يشتمونه وعمل كبار السنّ كل ما في وسعهم لتسكين الهياج. والتفت الاسكندر الى كل من [كزينودوخوس Xenodochus] [اليـاردي Pardion] و[اريتميوس Aretemius] [الكولوفوني Colophonian] وسألهما: الا يعتقدان ان الاغريق اذا قورنوا بالمقدونيين، قد تصرفوا ككثير من انصاف الآلهة تجاه هؤلاء الأخيرين؟ لكن [كليتوس] مع هذا لم تهدأ ثائرته، وسأل الاسكندر: ألديه ما يضيفه الى اقواله السابقة، والاّ لماذا يدعو الى طعامه رجالاً أحراراً بالولادة اعتاد أن ينطقوا بما يجول في رؤوسهم دون قيد ولا خوف، خير له ان يعيش ويتحدث الى البرابرة والعبيد فلا مانع لدى هؤلاء من الركوع لزناره، وجلبابه الفارسيين.

بهذا استفزّ الاسكندر الى الحدّ الذي عجز هذا عن ضبط نفسه وكظم غيظه فتناول تفاحة من فوق المائدة وقذف بها كليتوس فاصابته ثم دار ببصره يريد سيفه. إلاّ ان [اريستوفانس] احد افراد حرسه الخاص، كان قد ابعد عنه سلاحه وقام اليه آخرون وأخذوا يتوسلون به عبثاً، فقد انفلت منهم وصاح بصوت عالٍ منادياً حرسه باللغة المقدونية، وتلك اشارة أكيدة بانه يعاني اعظم الاضطراب. وأمر نافخ بوقه بالنفخ مسدداً اليه لكمة بقبضة يده، فلم يطعه فوراً وتلكأ (وقد نال هذا الرجال شكره وتقديره فيما بعد لعصيانه أمراً كاد يوقع فتنة في صفوف الجيش) وتكبد اصدقاء كليتوس كثيراً من العناء باخراجه من القاعة وهو ما زال مصراً على موقفه وعناده. فقد عاد ثانية من باب آخر وهو ينشد شعر [يوريبدس] عن لسان اندروماك بثقة نفس واستهتار في اليونان، واأسفي الى اي درك شيء ترددت الاحوال!

وعندها أختطف الاسكندر رمحاً من احد من أحد الجنود واعترض كليتوس وهو يتقدم حتى اصبح امام الستارة المرخاة على الباب ودفن الرمح في جسمه فسقط على الأرض في الحال ولم تصدر منه غير صرخة وأنة. وتلاشى غضب الملك وعاد الى حالته الطبيعية في الحال، ولما شاهد اصدقاءه حوله يخيم عليهم الوجوم والصمت العميق نزع الرمح من الجسد الهامد وهم بدفنه في عنقه وكاد ينجح لو لم يقبض الحرس على يديه، وينقلوه رغم انفه الى غرفته الخاصّة

حيث ظلّ يبكي طوال الليل والنهار الذي تلاه بكاءً مراً ولما انهكه الندب والعويل انطرح بدون كلام خلا تنهدات عميقة.

وخشي اصدقاؤه من ضرر يلحق صحته فاقتحموا الغرفة عليه الى انه لم يلتفت الى اقوالهم ولم يعبأ بوجودهم. حتى تمكن اريستاندر من تحويل اهتمامه الى الرؤيا التي يشاهدها عن [كليتوس] والظاهرة العجيبة التي تلتها. يريد ان كل ما حصل كان مكتوباً ومسطراً في لوح القدر ولا مرد له. وعندها بدأ حزنه يخفّ وجاؤوه [بكاللستينوس] الفيلسوف صديق [ارسطو] المقرب واناكسارخوس الابديري. واستخدم اولهما لغة الاخلاق ووسائل تسكين رقيقة مؤملاً أن يجد سبيله الى الكلام العقول. والنجاح في السيطرة على العاطفة. الاّ ان اناكسارخوس الذي كان لا يحيد مطلقاً عن طريقته في الفلسفة، مع اشتهاره باحتقار معاصريه والتقليل من شأنه صاح فور وصوله:

- اهذا هو ذاك الاسكندر الذي تنظر اليه الدنيا كلها.

مستلقٍ هنا يبكي كالعبد خوفاً من لوم الناس وانتقادهم. وهو قانونهم وميزان العدالة لهم، ان استعمل الحق الذي منحتها له فتوحاته بوصفه السيد الأعلى والحاكم على الجميع، يجب ان لا يكون ضحية للرأي الخطل. الا تدري ان [جويتر] برسم بيدين: ألواحدة منهما تحمل العدل والثانية ترفع القانون تعبيراً عن قانونية وعدالة اعمال الفاتح كلها.

بهذه وامثالها من الافكار تمكن [اناكسارخوس] ان يهدىء الملك ويزيل عنه الألم. على انه أفسد خلقه من ناحية أخرى فقد زادته تهور واجتراء على القانون. ولم يتوان هذا الفيلسوف بمثل هذا الكلام عن التقرب منه والتسلل الى قلبه وجعل صحبة كاللستينوس (وهي صحبة لم تكن قط بالشيء المرغوب فيه) ثقيلة مكروهة بسبب تزمته.

واتفق ان هذين الفيلسوفين التقيا في حفلة دارت المناقشة منها الى موضوع المناخ ودرجه حرارة الجوّ، فأنضم [كاللستينوس] الى القائلين بان تلك البلاد ابرد جواً من بلاد اليونان، وشتاؤها اقسى من شتائه. ولم يقبل [اناكسارخوس] بهذا القول مطلقاً وناقشه بشيء من الحدة. فقال [كاللستينوس]:

- بالتأكيد، ليس بوسعك الاّ الاقرار بان هذه البلاد أشدّ برداً من بلاد اليونان. فهناك اعتدت ان لاتلبس غير عباءة منسلة الخيوط لتدري عنك اقسى شتاء، وهنا ترتدي ثلاث عباءات سميكة واحدة فوق الأخرى!

هذه المزحة ازعجت [اناكسارخوس] وغيره من ادعياء المعرفة. ولم يستطع جماعة المتملقين

ان يتحملوا رؤية كاللستينوس موضع الاعجاب الشديد ومؤيداً من الشبان والشيوخ على حدٍ سواء بسبب حياته المثالية واتزانه وقناعته بحاله. وتأكيده انه ما قام بزيارة الاسكندر الاّ ليتوسط لاعادة مواطنيه المنفيين وبناء المدينة وتأهيلها من جديد. مفضلاً عن الحسد الذي تسببه له سمعته الحميدة فان تصرفاته الشخصيّة تفسح السبيل لسيء النية للاضرار به. كان يرفض في معظم الاوقات حضور الحفلات العامة واذا حضر احدها أفسد المجلس بتعاليه وحمته الذي يدل على عدم موافقته على ما يسمح ويرى. وقال الاسكندر يقصده:

هذا الادعاء الكاذب بالحكمة... اني امقته حين يعمى المرء عن رؤية مصلحته

كان في حفلة عشاء اقامها الملك. والمدعوون كثيرون. فطلب منه عند وصول الكأس اليه ان يرتجل خطبة في تقريظ المقدونيين ففعل وبلغ الذروة في بلاغته وحسن تعبيره. حتى ان الحاضرين نهضوا جميعاً لتحيته والتصفيق له والقاء اكاليل الزهر عليه. الاّ الاسكندر فقد انشد ابيات [يوربيدس]:

لست بمستغربٍ لانك اجدت القول الى هذا الحدّ فليس اسهل على المرء ان يكون بليغاً في المواضيع السهلة

وعقبها بقوله: لذلك، فان انت أظهرت قوة عارضتك بمصارحة مقدونيّي باخطائهم وتعداد نقائصهم فلعلهم يتلافونها عندما تذكر لهم.

فاطاعه [كاللستينوس] في الحال وبادر الى نقض كل ما قاله فيم مندداً بهم دون ضابط. وختم اقواله بهذا:

- أن السبب الرئيس في نجاح [فيليب] واتساع سلطانه هو تفرق الاغريق.

ودعم قوله هذا بالبيت الآتي:

في المنافسة السلميّة يشتهر حتى الانذال

وهو ما جرح مشاعر المقدونيين الى الحدّ الذي اصبح ممقوتاً منهم وقال الاسكندر انه عوضاً عن اظهار قوة عارضته فيما تكلم، أظهر سوء نيته فحسب. ويؤكد لنا [هرميبوس Hermip-pus] ان المدعو [ستروبوس Stroebus] (خادم لكاللستينوس كان يقرأ له) انهى بكلّ هذه التفاصيل الى ارسطو فيما بعد وانه عندما ادرك ان كره له الملك يزداد رددّ هذه الابيات مرتين او ثلاثاً قبل سفره:

ادرك الموت أخيراً [باتروكلس] العظيم ايضاً

وان كان ارفع منك فضائل بكثير

ولم يكن اعتباطاً منه ان يصف شخص [كالليستينوس] بقوله انه خطيب مصقع ولكنه خطل الرأي، ومن المؤكد انه وضع الفيلسوف في مكانه الصحيح عند رفضه عبادة الاسكندر. والكلام علانية ضدّ ذلك الرجل الذي لم يكن يجرأ أعظم المقدونيين وأعلاهم مكانةً على الشكوى من تصرفاته الاّ في السرّ. انه انقذ الاغريق والاسكندر نفسه من أكبر العار عندما ابطل ممارسة هذه العبادة الاّ انه دمّر نفسه لأنه لم يكن لبقاً وآثر استخدام اسلوبٍ خشنٍ فظ كأنه يريد ارغام الملك على ذلك. في حين كان ينبغي له ان يسلك سبيل العقل والمحاجّة. ويكتب [خاريس] و[ميتلين] ان الاسكندر في مجلس شراب له، قدم كأسه الى احد اصدقائه بعد ان شرب منها فما ان تسلمها هذا حتى نهض متوجهاً الى مذبح في البيت. وبعد ان شرب سجد الاسكندر اولاً ثم قبله وعاداً الى مجلسه مع الباقين الذي أخذوا يقومون بالعمل نفسه تباعاً الى أن جاءت نوبة [كالليستينوس] الذي تناول الكأس وشرب في حين كان الاسكندر غافلاً عنه، منشغلاً بمحادثة هيفاستيون. ثم تقدم يريد تقبيله فتدخل [ديمتريوس] الملقب [فيدون] قائلاً:

- مولاي! لاتدعه بقبلك فهو الوحيد بيننا الذي رفض عبادتك. فرفض الملك القبلة. وكان كل ما أظهره كالليستينوس من اهتمام هو قوله بصوت مرتفع:

- فأنا اذن أعود ناقصاً عن الآخرين قبلة.

ان الاستياء الذي احدثه بهذا العمل رفع من قدر تصريح هيفاستيون الذي قال انه رجع عن تعهده في ان لايقدم للملك نفس العبارة التي يقدمها الآخرون بعد ان تعهد ان يفعل ذلك مخلصاً.

ولأجل أن يكمل دماره تقدم عدد من الرجال كليسماخوس و[هاگنون Hagnon] يؤكدون ان هذا الفيلسوف السوفسطائي يتجول في كل مكان متباهياً بوقوفه في وجه السلطة المستبدة وان الشباب جميعاً يتبعونه ويكرمونه بوصفه الوحيد بين الألاف المؤلفة الذي ملك من الشجاعة ما حافظ به على حريته. ولذلك فحينما أكتشفت مؤامرة [هرمولاوس Hermo-laus] سهل تصديق التهم التي الصقها به خصومه ولاسيما عندما سأله الشاب عن الوسيلة التي تمكنه من أن يصير اشهر رجل على وجه البسيطة؟

فأجابه ان أضمن واسرع سبيل الى ذلك هو القضاء على ذلك الذي سبق له فحاز هذه الصفة. ولأجل حثه على تنفيذ العمل اوصاه بالاّ تروعه اريكة الذهب وان يتذكر بان الاسكندر هو انسان ضعيف عرضة للموت مثل سائر الناس. على ان شركاء [هيرلاوموس] لم يذكروا ان

[كاللستينوس] كان بين المساهمين في المؤامرة لا من قريبٍ ولا من بعيد. والاسكندر نفسه في رسائله التي كتبها بعدها مباشرة لكل من [كراتيروس] و[اتالّوس] و[الكتياس Alcetas يذكر ان الشبان الذي عذبوا، اقروا بأنهم انضموا الى المؤامرة من تلقاء انفسهم، دون دفع أو تحريضٍ من أحدٍ. وليس ثم مذنب غيرهم. ومع هذا ففي رسالة كتبها [لانتيپاطر] نجده يتهم [كاللستينوس] حين يقول:

- تولى المقدونيون رجم الشبان حتى الموت. أما السوفسطائي (يقصد كاللستينوس) فانا مزمع معاقبته ايضاً مع أولئك الذين بعثوا به اليّ وأولئك الذين آووا في مدنهم كل من تآمر على حياتي.

وفي العبارة الأخيرة اشارة لا لبس فيها الى (ارسطو) الذي كان (كاللستينوس) قد ربي في بيته لقرابة بينهما. فهو ابن بنت [هيرو Hero] أخت ارسطو. واختلفت الرواة في اسباب موت الفيلسوف. فقال بعضهم أنه شنق بأمر من الاسكندر. وقال آخرون انه مات في السجن بمرض ألمّ به على ان [خاريس] يكتب بهذا الصدد انه ابقي مكبلاً بالاغلال سبعة أشهرٍ بعد القاء القبض عليه تمهيداً لمحاكمة أما مجلس قضاء كامل وبحضور [ارسطو]. فافرط في البدانه، واصيب بمرض طفيليّ مات به هناك وقت أصيب الاسكندر بجرحه الخطير في اقليم [مالي اوكسيدراكي Malli Oxydracae] بالهند. وسنأتي الى تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

ولأجل ان نواصل السرد بالترتيب الزمني نقول، ان ديماراتوس الكورنثي الذي غدا شيخاً في اراذل العمر - كان في حدود ذلك الزمن قد بذل اقصى الجهود ليحظى برؤية الاسكندر ولما نال بقية ابتداره قائلاً: أنه ليأسف لسوء حظّ أولئك الاغريق الذين ماتوا قبل ان يروا الاسكندر جالساً على عرش [داريوس] ولم يتمتع [ديماراتوس] بالنعم التي حباه بها الى الملك فسرعان ما ركبه المرض وتوفي فشيع تشييعاً فخماً ورفع له الجيش نصباً تذكارياً من التراب ارتفاعه ثمانون كيوبتيا ومحيطه في غاية السعة. ونقل رماده في عجلة فخمة تجرها اربعة جياد حتى الساحل.

وقرّ عزم الاسكندر على الشروع في حملته الهندية. وكان يدري ان جنوده قد اتخموا بالغنائم واثقلوا بها وانها تعرقل المسير. فعمد في فجر يوم الحركة وفور تحميل العربات اثقال الجيش، الى اشعال النار في سهمه من الغنائم ثم احراق ما يعود منها لأصدقائه ثم أمر باحراق ما يعود منها الى افراد الجيش الباقين. وهو عمل يبدو عند التفكير بالاقدام عليه أكثر خطورة واصعب اجراءً مما بدأ عند تنفيذه.

فلم يشك منه غير قلة. وأطلق معظم الجنود كأن وحياً نزل عليهم - هتاف الموافقة وصيحات القتال وتزودوا بما هو ضروري فقط وأحرقوا واتلفوا كل ما هو كمالي. فكان منظراً فريداً ضاعف من حماسة الاسكندر ومن عزمه على المضيّ في الخطة التي رسمها. في الحقيقة أنه غدا في تلك الأيام صارماً قاسياً الى ابعد الحدود. عنيداً لا ينثني في انزال العقاب بمن يقدم على اي خطأ مهما صغر. فقتل [ميناندز] احد اصدقائه لأنه أخلى قلعة كان قد استأمنه عليها. وقتل برميه سهم من يده[اورسوداتس Orsodates] أحد البرابرة عندما شق عليه عصا الطاعة.

وفي ذلك الزمن اتفق أن نعجةً ولدت ولدت حملاً بهيئة ولون قلنسوة على الرأس وبخصيتين على كل جانب. النبوءة التي تطيرّ منها الاسكندر الى الحدّ الذي أمر كهنة البابليين يتطهيره (كانت عادته ان يأخذ هؤلاء الكهنة معه لمثل هذه الاغراض) وقال لاصدقائه ان اهتمامه بالموضوع لايعود الى شخصيه بل بهم فهو يخشى أن تعمد القوى السماوية الى نقل امبراطوريته بعد موته الى شخص عاجزٍ فاسدٍ، لكن سرعان ما تبدد خوفه هذا بأمر عجيب حصل بعدها بوقت قصير. اعتبره بشير خير. وتفصيله أن [پروكسينس Proxinus] المقدوني الذي كان رئيس المشرفين على بيت الملك، كان يحفر في الارض قرب نهر [اموداريا Oxus] لاقامة الفسطاط الملك. فاذا به يكتشف نبعاً يخرج منه سائل ثخين زيتيّ القوام، بعد أن أزيل ما يعلوه أخذ يجري زيتاً نقياً لايختلف عن الزيت العادي مذاقاً ورائحة. ونعومة وصفاءً في بلاد لاينمو فيها شجر الزيتون على الاطلاق. ولقد قيل والشيء بالشيء يذكر أن مياه نهر [اموداريا] بدرجة من النعومة والرقة لاتعد لها مياه اي نهر آخر، ويذكر انه يترك لمعةً على بشرة من يستحم به. وايا كان السبب فمن المؤكد أن الاسكندر سُرّ بهذا الاتفاق غاية السرور، كما يتضح ذلك من رسائله الى [انتيپاطر] فقد وصف الحدث بأنه أروع من كل البشائر والفأل الحسن التي خصّه الله بها. ثم ان العرافين فسروا له الأمر بقولهم ان يشير الى المجد الذي سيناله من حملته العسكرية ومكانها في التاريخ. على انها ستحفل بالمشاق والصعاب. فالزيت على حدّ تفسيرهم هو هبة آلهية للبشر ينعش اجسادهم من متاعبها ويرطب امزجتهم.

ولم يكونوا في حكمهم هذا مخطئين فقد تعرض الاسكندر لكثير من المخاطر في المعارك التي خاضها واصيب بجراح بليغة جداً. على ان اعظم خسارة حاقت بجشيه انما كانت بسبب فساد الهواء وشح الارزاق. وكان الاسكندر كالعهد به دوماً يقدم على الخطر فيركبه ويجتازه بعزمه ومتانة خلقه مهما عانته. فهو يرى الأ شيء مستحيل امام الشجاعة الحقة ولا شيء ثابت أو مضمون امام الجبن وخور العزيمة. ويقال انه في حصار [سيسميثريتس Sisimithres]

الذي صمد كالصخرة المنيعة في وجهه حتى ادركه اليأس من التغلب عليه يدب في جنوده سأل [اوكسيارتس Oxyertes] هل ان [سيسيمثراتيس] هو رجل شجاع فأكد له بأنه أجبن الأحيار طراً فقال الاسكندر:

- اذن قل لي ان الموضع يسهل اقتحامه مادام المدافع عنه ضعيفاً.

وشدّ الخناق على [سيسيمثريتس] وفي وقت وجيز تمّ له الاستيلاء على الموقع. وفي هجوم شنه على موقع منيع مثله بقسم من جنوده المقدونيين، نادى سَميّاً له بين افراد الجيش قائلاً لا سبيل لك الاّ البلاء الحسن والاقدام ان لم يكن لشيء، فللاسم الذي تتسمىّ به فقاتل الشاب ببسالة حتى قتل. وقد آلمه ذلك جداً . وفي مناسبة أخرى، لاحظ ان جنوده يتباطؤن في سيرهم، ويتقاعسون عن حصار موقع يدعى [نيسا Nysa] بسبب النهر العميق الذي يصعدهم عن المدينة فتقدم الاسكندر حتى الضفاف وقال:

- ما أشقاني من رجل لأني لم اتعلم السباحة!

وحيل بينه وبين محاولته العبور على ترسه بكل صعوبة. وبعد نهاية هذا الهجوم أقبل عليه سفراء المدن العديدة التي القى عليها الحصار يعلنون الطاعة ويرغبون في الصلح، وعجبوا حين راؤه بكامل شكة سلاحه ودروعه وليس ثم خادم أو حارس يقف بين يديه، أخيراً جيء له بوسادة فأجلس عليها [اكوپيس Acophis] أكبرهم سنّاً. فذهل الشيخ لهذا التصرف النبيل والحفاوة وسأله: ماذا ينبغي لمواطنيه ان يعملوا ليستحقوا صداقته؟ فأجاب الاسكندر:

- أريدهم ان يختاروك حاكماً عليهم وان يرسلوا مائة من وجهائهم واعلاهم مقاماً لابقيهم رهائن عندي.

فضحك [اكوفيس] وقال:

- سيكون حكمي لهم اسهل بكثير لو ارسلت لك مثل هذا العدد من اردئهم لا من افاضلهم!

من المعروف ان رقعة الارض التي أمتد اليها حكم الملك [تاكسيلس Taxiles] تساوى مساحة ارض مصر، وهي كثيرة المراعي حسنتها. يخرج منها أفضل الفاكهة. وقد اشتهر ملكها هذا بالحكمة فقد كان كلامه للاسكندر عند اول لقاء ما يأتي:

- اي غاية نتوخىٰ من قتال بعضنا بعضاً، إن لم يكن غرضك من القدوم الينا سرقة مائنا أو طعامنا الضروري، وهما الشيئان الوحيدان اللذان يدفعان عقلاء الرجال الى القتال في سبيلها.

واما بخصوص متاع الدنيا الاخرى كما يعتبر في اعين الناس، فان كنت احرز الأكثر منه فها

أنا على استعداد لمقاسمتك ايّاه. ما تعطيني منه شاكراً.

وكان سرور الاسكندر بهذا القول عظيماً بحيث وثب عليه وعانقه قائلاً:

- اتعتقد أن كلماتك الرقيقة ومسلكك الحميد، لن تلقى صنوها، أستبقى دون مقابل؟ كلاً انك لن تهرب مني. وسأنافسك وادخل معك في معركة لاتستطيع ان تهزمني فيها مهما بلغت من اللطف والكرم.

وبعد ان قبل بعض الهدايا منه، اتحفه بهدايا اثمن وأعلى قيمةً. وزاد عليها فمنحه ألفي تالنت من النقود المصكوكة. فأثار بذلك استياء اصدقائه القدماء، ولكنه كسب بها قلوب البرابرة.

لقد تولى الدفاع عن المدن الهندية افضل المقاتلين الهنود وقالوا قتالاً شديداً واظهروا من الشجاعة الاقدام ما اتعب الاسكندر ووضعه في مواقف خطيرة، وبالأخير عند استسلامهم وفتح مدنهم أعمل السيف في رقابهم جميعاً اثناء انسحابهم فلم ينج منهم أحد. وكان هذا حنثاً بالعهد الذي قطعه لهم وسجل له لطخة سوداء في حين مآثره الحربية التي كانت تمتاز بالنبل والعدالة وبها اصبح ملكاً. ولم يكن أقل غيظاً من الفلاسفة الهنود الذين نددوا تنديداً بمن حالفه من امراء الهند، ودعوا الشعوب غير المغلوبة الى مقاومته. فأعتقل عدداً منهم وقتلهم.

ويورد الاسكندر تفاصيل حربه مع [پورس Porus] في رسائله الخاصّة. يقول ان نهر [هيداسپس Hydaspes] كان بفصل ما بين الجيشين، وعلى احدى ضفافه كان پورس قد جرّد فيالقه وهيأها ووجهها نحو الضفة المقابلة للحيلولة دون عبور العدو. اما الاسكندر فقد أمر بمواصلة احداث الضوضاء والضجة في معسكره لتبديد مخاوف البرابرة من هجوم مباغت عليهم. ثم انتهز فرصة في يوم مظلم مليء بالعواصف فسار مستتراً مسافةً عن الموضع الذي عسكر فيه العدو وعبر النهر الى جزيرة صغيرة بجزءٍ من رجالته ونخبة من خيالته. وهبت اشدً واعنف عاصفةً مطرية مصحوبة ببروق وزوابع رعدية. وسقط امامه بعض رجاله مصعوقين. ثم ترك الجزيرة مباشراً العبور الى ضفة العدو. وكان النهر بعد العاصفة قد فاض وزادت سرعة جريانه بحيث احدث له ثغرة في الضفاف تدفق منها ماؤه واغرق مساحات شاسعة من الأرض ولذلك عجز عن تثبيت اقدامه بعد عبوره، لأن الأرض غدت موحلة زلقة معرضة لقوة التيار من الجهتين في هذا الموقف يؤثر عنه انه قال:

- أيها الآثينيون! انكم لن تصدقوا الحديث عن الأخطار التي اتعرض لها لاستحق رضاكم.

هذه الرواية اوردها [ارنسكريتُس] على كل حالٍ. ويتابع الاسكندر وصفه ليقول: هنا ترك الرجال قواربهم وعبروا الفتحة بسلاحهم وكان الماء يغطيهم حتى الصدور. وزحف بخياله حوالي عشرين فرلنگ تاركاً المشاة خلفه، معتداً أن العدو لو هاجمه بخيالته فسيكون متفوقاً عليهم، واذا هاجمه بمشاته فان جنوده المشاة سيدركونه في الوقت المناسب لاسناده وكان مصيباً في تقديره فقد هاجمه العدو بألفٍ من الخيالة وستين عجلة حربية مجهزة بالسلاح تعرضت له قبل ان يتعرض له القسم الأكبر، فأستولى عن جميع العجلات، وفتك باربعمائة من الخيالة في الموقع نفسه، وقد قدر [پورس] في الوقت نفسه ان الاسكندر عبر النهر بشخصه فتقدم بكامل جيشه عدا وحدةٍ تركها لمشاغلة المقدونيين الذين لم يعبروا وايهامهم في حالة اقدامهم على العبور، وخشي الاسكندر من تفوق خصمه العددي. فلأجل ان يتحاشى صدمة فيلتهم، قسمّ قواته، وهاجم ميسرتهم بنفسه، وأمر [كوينوس Coenus] بالهجوم على ميمنتهم ففعل بنجاح كبير. وبهذه الخطة انكسر الجناحان، فأنكفأ العدو على اعقابه في القلب وتحاشدت جموعه حول فيلته. وهناك لمّ العدو شعثه وبدأوا قتال اليد باليد، ولم تتم هزيمتهم الكاملة الاّ في الساعة الثامنة نهاراً. هذا الوصف تركه لنا الفاتح نفسه في رسائله الخاصة.

ويكاد جميع المؤرخين يتفقون على القول بأن [پوروس] كان رجلاً فارع الطول يبلغ طوله اربع كيوبتات وسپانا واحداً. وانه حين يعلو ظهر فيله، يبدو جسمه متناسباً مع هيكل الفيل. حتى لكأنه ممتط جواداً. مع ان فيله الخاص كان من اضخم الفيلة. قدم هذا الحيوان اثناء المعركة العديد من الدلائل على حكمته وذكائه، ولاسيما رعايته للملك الذي كان يدافع عنه بكلّ شجاعة طالما هو قادر على مواصلة القتال فتراه يدفع الى الوراء بهيكله أولئك الذين يطبقون عليه. ولما ادرك ان سيده عجز عن القتال لكثرة الجراح التي اصابته من الرماح. حال دون سقوطه عن ظهره بركوعه بكلّ لطف ونزع الرماح من جسمه بخرطومه. ولما وقع (پوروس في الأسر، سأله الاسكندر ماذا توقع ان تكون معاملته أجاب:

- كملك.

كانت الجملة المقتضبة جامعة وقد كررها عند القى عليه السؤال نفسه ولم يكتف الاسكندر بابقائه على عرشه في مملكته لكن تحت سلطانه بل ضم الى حكمه اقاليم مختلف القنابل المجاورة التي تم اخضاعها. اقاليم قيل انها تأوي خمسة عشر شعباً وخمسة آلاف بلدة عامرة فضلاً عما لايحصى من القرى. وعين [فيليب] احد اصدقائه حاكماً لمملكة أخرى تبلغ مساحتها ثلاثة اضعاف الأولى.

بعيد معركة المراجع - نفق جواد الاسكندر المسمى بوكيفالس كم يذكر معظم المراجع متأثراً

من جراحة. او كما يقول [اونيسكريتوس] بسبب الارهاق وكبر السن فقد بلغ الثلاثين. وتألم الاسكندر لموته كألمه لموت رفيق قديم او صديق مقرب. وبنى مدينة سماها [بوكيفاليا] تخليداً له، على ضفة نهر هيداسپس. وقيل أيضاً بنى مدينة أخرى وسماها باسم كلب اثير على قلبه اسمه [پريتاس: Peritas] كان قد رباه بنفسه. يؤكد [سوتيون Sotion] بانه سمع هذا من [پوتامون Potamon] و[ليسبون Lesbon] لكن هذه المعركة الأخيرة مع [پوروس] فلت من غراب شجاعة المقدونيين وجلدهم، وحالت دون تقدم آخر لهم داخل الهند. فقد وجدوا من الصعوبة بمكان ان يدحروا عدواً لم يستخدم في المعركة أكثر من عشرين ألفاً من المشاة والفين من الخيالة. فحكموا أن لديهم سبباً وجيهاً في معارضة قرار الملك الذي كان يقضي بعبور نهر [الگانج] فقد قيل لهم انه عرضه اثنان وثلاثمون فرلنگ وعمقه مائة فاتوم[٤] وان لجيشاً لجباً يحمي ضفيته. وقيل لهم ان ملوك [القندريتان Gandasitan] و[الپريزيان Praesian] ينتظرونهم هناك بحشد من العجلات الحربية يبلغ ثمانية آلاف، فضلاً عن ستة آلاف فيل مقاتل. ولم يكن بالخبر الكاذب أو المبالغ فيه اذيع لتخويفهم. [فاندروكوتوس -Androcot tus] الذي ما عاد اليوم يحكم تلك الاقاليم، أهدى فوراً سلوقوس خمسمائة فيل، واخضع الهند بجيش قوامه ستمائة ألف. غضب الاسكندر، وتألم في بادىء الأمر لتردد جنوده فحبس نفسه في خيمته والقى بنفسه على الأرض وصاح قائلاً:

- ان لم تعبروا الگانج فاني لست مديناً لكم، ولا بالشكر عن اي شيء عملتموه. ان الانسحاب الآن يعني الاعتراف الصريح بانكساري وخذلاني.

إلاّ ان الحجج الدامغة ووسائل الاقناع المنطقية التي حاولها معه اصدقاؤه وصيحات جنوده الذين كانوا يتجمعون امام مدخل الخيمة بهيئة المتضرعين المستوكفين - نجحت أخيراً في حمله على التفكير بالعودة على أنه لم يتمالك نفسه من ان يترك خلفه عدداً من انصاب النصر الزائفة تخليداً لحملته، وتضخيما لمجده، فخلّف صور اسلحة أكبر حجماً مما يستخدم عادةً. ومعالف للخيول بلجم وشكائم أكبر من العادية اقامها في عدة مواضع، كما بنى ايضاً مذابح للالهة ظلّ يحترمها ملوك [الپريزيان] الى يومنا هذا حين عبورهم النهر، ويقربون الاضاحي عليها بالطريقة الاغريقية.

كان [اندروكوتس] صبياً انذاك حين وقعت عينه على الاسكندر وكثير ما قيل فيما بعد انه سُمع وهو يقول:

- لم يخطيء الاسكندر في جعل نفسه سيداً على كل هذه البلاد الاّ بقدر يسير. فملكها الذي

---

(٤) قامة. مقياس للاعماق مقداره ست اقدام.

كان يحكم إذذاك، عرف بحياته الفاسدة ووضاعة المنبت. وكان مبغظاً محتقراً.

وهزُ الشوق الاسكندر لرؤية البحر المحيط. فأمر ببناء اطواف وقوارب مقطورة وزوارق كبيرة، يرسلها تجوب الانهار على هدفه وتمضية لوقت فراغه. على ان ملاحته لم تخل من فائدة. فقد كان ينزل الضفاف بين الفينة والفينة فيستولى على مدن محصنة وعلى الأراضي الواقعة فيما يلي ضفتيها. وتعرضت حياته الى اعظم الخطر عند حصاره عاصمة [الماليين Mallians] الذين اشتهروا بانهم اشجع شعوب الهند. فبعد ان دحر المدافعين بامطارهم بوابل من السهام، تقدم الجميع وأعتلى السور بسلم الا ان السلم انكسر بعد وصوله مباشرة وتركه وحيداً معرضاً للمقذوف من الرماح التي كان يوجهها اليه البرابرة من اسفل السور. وتحاشاها بخير ما امكنه ثم قفز الى الاسفل ليجد نفسه وسط اعدائه، وشاءت الصدف ان يهبط على رجليه. وان يوهم بريق سلاحه وقعقعتها البرابرة بانهم يرون اشعة ضوئية أو شبحاً ساطع النور يتراقص امام جسده. فأخافهم فتفرقوا من حوله وهربوا. حتى اذا التفتوا ووجدوه وحيداً الأ من حارسين له. كّروا عليه والتحموا معه، وحاول بعضهم تسديد طعنة اليه من خلال مفاصل دروعه بسيوفهم ورماحهم. ورشقه احدهم بسهم صائب من مسافة قريبة، فوجد له منفذاً واستقر في ضلع ما تحت الصدر. كانت اصابته شديدة بحيث اجبرته على التراجع واسناد ركبته الى الارض، واسرع الرامي نحوه وسيفه مشرع يريد القضاء عليه وكاد أن يفعل لولا تدخل [بيوكستس] و[لمينوس Limnaeus] وكان كلاهما جريحين مثله. لمينوس كان جرحه قتالاً اما پيوكستس فقد ثبت في موضعه بينما وُفّق الاسكندر في قتل البربري. على ان الخطرُ ظلّ يحوم حوله، فالى جانب الجراح الكثيرة التي اصيب بها. نزلت على عنقه ضربة دبوّس ثقيل فأضطر الى اسناد ظهره الى الحائط وظلّ مواجهاً للعدوّ وبهذا الموقف الحرج شق المقدونيون لهم طريقاً الى الداخل والتفوا حوله، ورافعوه الى أعلى السور وقد بدأ يفقد وعيه، ولم يعد يحسّ بما يجرى حوله. ثم حُمل الى خيمته، وانتشر خبر موته في المعسكر كله. وامكنهم بعد لأي وبعد كثير من الآلام فصل قصبة الرمح الخشبية بالمنشار، وتكبدوا نفس العناء في نزع درعه، وبعدها بدأوا بقطع النصل وكان بعرض ثلاثة اصابع وطول اربعة. وهو نافذ في العظم لصيق به وراح في غيبوبة الاحتضار اثناء العملية، لكنه رجع الى وعيه بعد اخراجه. ومع ان كل خطر زال عنه فقد بقي اياماً الدقيقة الصارمة حتى اذا سمع يوماً هتاف المقدونيين خارج خيمته وقد برح بهم الشوق الى رؤيته، أشتمل بجبتّه وخرج اليهم. وبعد ان ضحى للآلهة ركب السفينة وانطلق لاخضاع البلاد الواقعة على الضفاف وعدد لايستهان به من كبيرات المدن.

في اثناء هذه الرحلة قبض على عشرة من فلاسفة الهند وكانوا أكثر زملائهم نشاطاً في تحريض [سبّاس Sabbas] على الثورة فاذاقوا المقدونيين الأمرين جراء ذلك. هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم السوفسطائيين التجريديين Gymno Sophist] عرفوا بسرعة البديهة واحكام الاجابة. فقام الاسكندر بالتحقيق من هذا بتوجيه اصعب الاسئلة اليهم . واندرهم بانه سيقتل من لا تتفق اجابته مع السؤال، وجعل اكبرهم سناً حكماً في ذلك. سُئل اولهم:

- ايهما أكثر عدداً في رأيك، الاحياء من البشر ام الأموات؟

فأجاب: الاحياء. لأن الموت ما عاد لهم وجود مطلقاً.

وطلب من الثاني ان يعلمه أيهما مصدر اكبر الوحوش، ألبر أم البحر؟ فأجابه:

- البرّ لأن البحر جزءٌ من البرّ.

كان سؤاله للثالث: اي من الحيوانات اشدّ ذكاءً؟

فأجاب: تلك التي لم يعرفها الانسان بعد.

وطلب من الرابع أن يخبره بالوسيلة التي استخدمها لاقناع [سپاس] بالثورة عليه.

فأجابه: قلت له عليك ان تختار بين العيش وبين الموت ميتةً شريفة.

وسأل الخامس: أيهما أقدم النهار والليل؟

فأجاب الفيلسوف: النهار أقدم، بنهارٍ واحدٍ على الأقل.

وادرك أن الاسكندر لم يقنع بإجابته فاسترسل: عليك ان لاتستغرب. فالأسئلة الغريبة تلقى اجوبة غريبة مثلها.

ثم توجه الى السادس منهم بالسؤال التالي: ماذا يفعل المرء ليكون محبوباً غاية الحب؟

فأجاب: ان يكون عظيم السلطان، دون ان يجعل نفسه مصدر خوف.

وسأل السابع: كيف يغدو المرء آلهاً؟

فأجاب: بإتيانه اعمالاً تقصر عنها طاقة البشر السويّ.

وسأل الثامن: أيهما أقوى؟ ألموت أم الحياة؟

فأجاب: الحياة أقوى من الموت لأنها تتغلب على الكثير من الرزايا والبلايا.

وسأل الأخير: كم يناسب المرء أن يعيش من السنين في رأيك؛

فأجابه: حتى يبدو له الموت أطيب من الحياة.

ومن ثم التفت الاسكندر الى العاشر الذي جعله حكماً وطلب منه أن يصدر قراراً. فقال:

- كل ما يمكنني الحكم به، هو أن كلّ اجابة كانت أسوء من الأخرى. فقال الملك:

- اذن فستكون اول من يموت لأعطائك مثل هذا الحكم. فردّ الفيلسوف قائلاً:

- قولك هذا ليس بصحيح، والأجدر أن تقول كاذباً: ان ذلك الذي كان اسوء الجميع اجابة يجب ان يكون اول الموت.

بعد هذا حملهم الهدايا الكثيرة وأطلقهم.

على انه بعث [اونيسكراتس] أحد تلاميذ (ديوجينس) الساخر الى فريق الفلاسفة الذين تمتعوا بأعظم السمعة وطلقوا الحياة العامة، طالباً قدومهم. وقيل ان [كلانوس Calanus] أمر الاسكندر بكلّ فظاظة وصلافة، أن ينضو عنه ثيابه ويصغي لأقواله وهو عارٍ والاّ فانه لن ينبس امامه ببنت شفة وان كان من نسل جوپتر نفسه. الاّ ان [داندامس Dandamis] كان لطيفاً فاسمعه الرسول طرفاً من محاورات سقراط وفيثاغوراس وديوجينس. فقال الفيلسوف الهندي، انه يراهم رجالاً ذوي مواهب عظيمة، ولا يجدّ علةً في آرائهم سوى احترامهم الفائق الحدّ لقوانين بلادهم وعرفها. ويقول آخرون ان [داندامس] سأله لماذا تكبد الاسكندر عناء مثل هذه الرحلة الطويلة الى بلاده. ومهما يكن فقد تمكن [تاكسيلس] من اقناع [كالانوس] بأن يبقى عند الاسكندر. و[كالانوس] ليس اسمه الحقيقي وانما هو [سفينس]. وقد غلب عليه اللقب الأول لكثرة ترويده لفظة [كاله] وهي شكل من أشكال التحية باللسان الهندي. كان يلقيها على كل من يصادفه. فلقبه الاغريق بـ[كالانوس] وقيل انه أوضح للاسكندر المقصود بالحكم بالتجربة التالية.

جاء بجلد متغضن غير مدبوغ وبسطه على الأرض وطيء حافته فأرتفع في موضع. وهكذا كلما وطيء جزءً، ارتفع جزءً. ثم وضع قدمه فوق مركز القطعة فاستقرت القطعة على الأرض دون أن يرتفع منها شيء. وقد قصد من هذا أنه يجب ان يسكن في وسط امبراطوريته وان لا يقضي وقتاً طويلاً في حدودها.

أمتدت رحلاته النهرية سبعة أشهر. وعندما بلغ البحر أبحر الى جزيرة سماها [سكليستوس Scillestus] وسماها آخرون [پسلتُيس Psiltucis] وفيها ضحّى للآلهة وادى ما تيسر له من المراسيم الدينية، بسبب طبيعة البر وساحله خير المأمونة. وبعد أن التمس من الآلهة بان لاتدع رجلاً غيره يتعدى حدود مملكته التي فتحها بجيشه. أمر اسطوله بالعودة. وعين نيارخوس اميرالاً، [واونسكريتوس] رئيس الملاحة. ومخر العباب وساحل الهند عن يمينه أما هو فعاد

عن طريق البرّ ماراً ببلاد [اوريتيس Orites] وعانى مشقة كبيرة من جيش قوامه مائة وعشرون ألفاً من الرجال ،خمسة عشر الفاً من الخيالة، لم يعد من الهند الاّ الربع وقد فقده بسبب الأمراض وسوء الطعام والحرارة المحرقة. وبالأخص الجوّع. كانت مسيرتهم عبر أراضي بور سكانها فقراء يعيشون عيشة ضنك ولا يملكون الاّ النزر اليسير من الاغنام بالتي هي من اردأ الانواع. ولحمها عفن غير صحي لأنها تقتات على السمك البحري.

بعد ستين يوماً من السير في بلغ الاسكندر [گدروسيا Gedrisia] حيث وجد الوفير من كل شيء هيأه له ملوك البلاد وحكام الاقاليم المجاورة حال سماعهم بقدمه. فاراح جيشه هنا ثم واصل السير في [كرمان] وهو يأدب ويحتفل طول الطريق زهاء سبعة ايام متواصلة. وشاركه اصدقاؤه فراحوا هم أيضاً يقيمون المآدب والحفلات ويقصفون ويشربون اناء الليل واطراف النهار، فوق منصّةٍ نصبت على صقالة ضخمة تجرها ثمانية من الخيل جراً بطيئاً، ويسير خلفها عدد كبيرٌ من العجلات غطي بعضها بالارجوان والمظلات المطرزة وبعضها زين بالاغصان الخضراء التي كانت تستبدل باستمرار قبل ان تذوى وفيها بقية اصدقائه وقواده يشربون تتوج هاماتهم أكاليل الزهر. فما عدت ترى اثراً لدرع او ترسا او خوذة او رمح. بل تجد بدل الدرع الكأس والطاس واوعية الشراب [التركلينية Thericlan] التي كانوا يغطسونها طول الطريق في الجرار الكبيرة والقصاع ثم يسرب بعضهم نخب صحة الآخر، بعض راكب وبعض راجل والجو كله ترجع اصداء المزمار والسرناي والأغاني وأوتار القيثار. والنسوة يرقصن كأنهن في صلاة لباخوس. هذه المسيرة المضطربة والفوضى الى جانب الشراب وكل ما نتصوره من المزاح واللعب والعربدة الباخوسيّة. كأن الأله نفسه قد حضر لتصدر الاحتفال وتشجيعه.

وفور وصول الاسكندر القصر الملكي في [گدروسيا] أراح نفسه وأمر بالمآدب والحفلات لجيشه. وفي يومٍ ما بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر - قيل أنه خرج لرؤية مسابقة في الرقص نال [باغواس Bagoas] فيها المرتبة الأولى فأجتاز المرسح وهو في ثياب الرقص وجلس الى جانب الملك مما سرّ له المقدونيون حتى بدأوا يهتفون ويصيحون طالبين منه معانقة [باغواس] ولم يتوقفوا عن التصفيق والهتاف حتى أحاط الاسكندر عنقه بذراعيه وقبله.

هنا جاءه اميراله [نيارخوس] واشاع السرور في نفسه عندما قصّ عليه رحلته البحرية. حتى انه قرر أكمال رحلته بحراً حتى فم الفرات باسطول كبير يدور به حول جزيرة العرب وافريقيا ثم يدخل به البحر المتوسط في اعمدة هرقل. ولأجل ذلك أمر ببناء مختلف انواع السفن في [تباسقوس] وجمع كميات كبيرة من الارزاق والبحارة والملاحين من كل مكان. لكن

انباء المصاعب التي عاناها في حملته الهندية والمخاطر التي تعرض لها شخصياً على يد [الماليين] والخسائر الفادحة التي فيما بها جيشه والشك العام بخصوص سلامته فسح المجال للثورة بين كثيرٍ من الشعوب المغلوبة ولأعمال الظلم الفادح والاستغلال. والاهانات التي كان حكام الاقاليم والقادة يصبونها على رؤوسهم لذلك فقد بدأ التململ بذر قرنه وروح الثورة تستفز بين كثير من الشعوب المقهورة. وبدا الميل العام الى التغيير واضحاً حتى في الوطن نفسه فقد ألبّت (اولمپياس) و(كليوپاطرا) حزباً ضدّ (انتيپاطر) وقسمتا رقعة حكمه فيما بينهما. فحازت الأولى (اپيروس) و استأثرت الثانية بمقدونيا. وعندما ابلغ الاسكندر بذلك قال ان أمه أختارت أحسن الاقليمين لأن المقدونيين لا يحتملون قط حكم امرأة، وعلى أثر ذلك ارسل نيارخوس ثانية الى الاسطول وأمره بشنّ الحرب على بلاد الساحل. وكان في اثناء مسيرته البريّة، ينزل العقوبات بالقادة والحكام الذين أساؤا التصرف ولاسيّما اوكسيارتس Oxyartus احد ابناء (اپوليتس Abuletes)، فقد قتله بطعنة رمح وعندما قدم له هذا ثلاثة آلاف تالنت من النقد المصكوك بدلاً من الارزاق التي كان ينتظرها منه. القاها الى الخيول وقال:

- اي نفع ترى في هذه الارزاق.

ثم اودعه السجن.

بلغ الاسكندر بلاد فارس، فوزع النقود على النساء جرياً على عادة ملوكهنّ عند قدومهم هذه البلاد في زيارة. اذ يمنحون كل انثى بالغ قطعة واحدة من الذهب. وبسبب هذه العادة قيل ان بعض هؤلاء الملوك ما كان يزور هذه البلاد الآلماماً بسبب هذه العادة. وكان [اوخوس Ock-us] احد ملوكهم بخيلاً طماعاً فلم يزر مسقط رأسه طوال فترة حاكمه لئلا يضطر الى تطبيق هذه العادة.

ووجد الاسكندر قبر [كورش] مفتوحاً ومسروقاً فأمر بقتل الفاعل [پوليماخوس Polyma-chus] وكان مواطناً مقدونياً من [پللا Pella]، له مكانته وشهرته. وبعد أن قرأ النقش على الضريح أمر بأن تنقش الكتبة التالية في الاسفل، باللغة اليونانية:

«ايها الانسان كائناً من كنت، ومهما كان موطنك (لأني اعرف من اين جئت)،

. أقول لك أنا كورش مؤسس امبراطورية الفرس، لاتحسدني على هذا القطعة الصغيرة من الأرض التي تغطى جسدي».

وقد هزت هذه العبارة مشاعر الاسكندر ومست اوتار قلبه وملأته بالقلق والكآبة والأيمان ابعد ارستقرارية في احوال البشر. وكان الفيلسوف [كالانوس] يشكو إذذاك من مرض في

المثانة شعر به لفترة قصيرة من الزمن فرجا الملك أن تقام له محرقة فأقبل حيث نصبت وهو ممطٍ حصاناً وبعد ان تلا صلاة ورش نفسه بالماء وقطع حضلةً من شعره وقذفه الى النار قبل صعوده اليها، عانق المقدونيين الموجودين عناق الوداع الأخير واستأذنهم، وطلب منهم ان يقضوا ذلك اليوم في لهو وانشراح وأن يسودهم روح الالفة والمحبة لملكهم الذي لايشك في انه سيلقاه ثانية وبعد زمن قصير.

في بابل! وبعد أن فرغ من قوله استلقى فوق المحرقة وغطّى وجهه ولم يأت بحركةٍ عندما اقترب اللهب منه وظلّ ساكناً حتى خرجت روحه، وضحياً بنفسه على عادة فلاسفة هذه البلاد القديمة. وقد أقدم هندي آخر على هذا العمل بعدها بسنوات عديدة، في اثينا حيث جلبه القيصر معه. وما زال الناس حتى يومنا هذا يشيرون لها «نصب الهندي» هناك.

بعد عودة الاسكندر من المحرقة دعا عدواً كبيراً من اصدقائه وكبار ضباطه للعشاء واقترح مباراة في شراب الخمر يقدم فيها للفائز تاجٌ فشرب [پروماخوس Promachus] اثني عشر غالوناً من الخمر وربح الجائزة. وكانت تالنتاً واحداً. لكنه مات بها بعد ثلاثة ايام. ولحق به على ما يقول (خاريس) – احد واربعون بسبب افراطهم في الشرب. وحَلّ بردٌ شديد جداً بعدها بقليل.

في سوسه تزوج [الاسكندر] من [ستاتيرا Statira] بنت [داريوس] وأحتفل كذلك بزواج اصدقائه، مانحاً انبل السيدات الفارسيات، لأفضل المستحقين منهم. وجعل ذلك مناسبة لتكريم المقدونيين الآخرين الذين سبقوا اقرانهم في الزواج. ذكر ان عدد المدعويين الذين حضروا هذه الوليمة كان زهاء تسعة آلاف. أعطى لكلّ واحد منهم كأس ذهب للقرابين. وبتجاوزنا المناسبات الآخرى التي أظهر فيها اعماله العجيبة، نذكر انه دفع ديون افراد جيشه التي بلغت تسعة آلاف تالنت وثمانمائة وسبعين. من جيبه الخاص. الأ ان [انتيگينس] الذي فقد أحدى عينيه لم يكن مديناً لأحد لكنه سجل نفسه في قائمتهم وأتى بشخصٍ زعم ان دائنه وانه امده بالمال من المصرف، فتسلم المال. ومالبثت حيلته ان انكشفت فتميز الاسكندر غيظاً وطرده من البلاد وجرده من رتبة القيادة مع انه كان جندياً ممتازاً وشجاعته لا تنكر. ففي زمن شبابه كان تحت امرة [فيليب] في حصار [پيرنتوس Perinthus] فاصابه سهم منجنيق في عينه، فأبى أن ينزع ولم يترك ميدان القتال حتى صدّ هجوم العدو وارغمه على التراجع والدخول الى المدينة. لذلك لم يكن في وسعه تحمل الذل والعار باي قدرٍ من الصبر، وكان متوقعاً ان الحزن واليأس سيدفعانه الى قتل نفسه. فخشي الملك هذه العاقبة ولك يكتف بالعفو عنه وانما تركه يستمتع بالمال الذي عاد اليه من حيلته.

وشاع السرور العظيم في نفسه للتقدم الذي احمده الصبيان الثلاثون الفاً الذين تركهم وراءه بين ايدي المدربين والمعلمين فقد اشتدت سواعدهم وحسنت وجوههم، وصاروا يؤدون تمارينهم ببراعة وضفة مدهشتين. فاغتم المقدونيين للاهتمام الذين ابداه الملك بهم وخافوا ان يصبحوا لديه ثانويين. وعندما شرع في اعادة الزمن والعجزة والمشوهين من الجنود الى الوطن بحراً.

احتجوا قائلين: ان هذه المعاملة خلت من العدالة، والتقدير فبعد أن نالت منهم الخدمة العسكرية ما نالت في تلك الظروف الصعبة ها انهم يعاملون بزراية واحتقار فينتقلون الى الوطن ليعيشوا بين اقربائهم واصدقائهم عيشة اسوء مما كانوا يعيشونها قبل مغادرتهم اياه. لذلك فخير له ان يستغني عنهم جميعاً وان يعتبر مواطنيه المقدونيين سقط متاع لا يرجى منهم نفع بعد أن اصبح لديه عدد كاف من الراقصين الصبيان، بامكانه ان شاء أن يقودهم لفتح الدنيا.

فوبخهم أشدّ توبيخ ثم طردهم من حضرته وأسلم واجب الحراسة للفرس واختار منهم الحجاب والحرس. وتلاشت معنويات المقدونيين عندما وجدوا انفسهم متبوذين مجللين بالعار، وملكهم يصاحب هؤلاء الرجال. وبلغت الغيرة والحقد بهم حدّ الخبال. ثم ادركهم الندم وقصدوا خيمة الاسكندر عزلاً وليس عليهم غير ثيابهم الداخلية يبكون ويصرخون طالبين منه ان يعاملهم المعاملة التي تستحقها وضاعتهم وجحودهم، فلم يفدهم ذلك. على ان غضبه انفثأ بعض الشيء. لكنه ابى استقبالهم فلم يتفرقوا وظلوا حيث هم يومين وليلتين كوامل يتباكون ويتنادبون ويتوسلون به ان تداخله الرحمة منهم وفي اليوم الثالث خرج اليهم وتبين حالة الذلّ فيهم فبكى ملياً ثم شرع يلومهم برقة، وبعدها أخذ يحادثهم بلطف. ثم انه سرّح من لم يعد صالحاً للخدمة مزوراً بعطايا كثيرة. وموصياً انتيباطر ان يكرم مثواهم عند عودتهم الى الوطن فيخصص لهم أحسن المقاعد وأقربها عند حضورهم الاحتفالات العامة والمسارح وان يتوجوا بأكاليل الزهر وغير ذلك من ضروب التكريم. وأمر ان يصرف للصبيان الذين فقد آباءهم في الحرب رواتب آبائهم بانتظام.

بعد وصوله [اكبتانا] وانجازه الاعمال العاجلة انصرف الى تسلية نفسه باقامة الحفلات العامة وضروب النشاط الفني وحشد لذلك ثلاثة آلاف فنان وممثل استقدمهم من اليونان ولكن منهاجه هذا قطع فجأة بمرض [هيفاستيون] بالحمى كان [هيفاستيون] جندياً وشاباً فلم يسعه تقييد نفسه باصول العلاج والحمية. وانتهز فرصة ذهاب طبيبه [گلاوكوس Glaucus] الى المرسح فأكل دجاجة وشرب مقداراً كبيراً من الخمر فتفاقم المرض وساءت حالته وتوفي بعد قليل. وبلغ الحزن بالاسكندر مبلغاً عظيماً حتى خرج به عن طوره. واظهاراً لمدى حزنه أمر

بقطع اعراف وذبول كل خيله وبغاله وبهدم اسوار كل المدن المجاورة وصلب الطبيب المسكين ومنع النفخ بالناي والضرب على أية آلة طرب في المعسكر لفترة طويلة الى ان جاءته نبوءة عراف آمون التي فرضت عليه اكرام [هيفاستيون] والتضحية له كما يضحى للابطال، وتراءى له ايضاً ان الحرب قد تصرف عنه احزانه فأنطلق الى قنص الرجال ومطاردتهم واوقع [بالكوسينين Cossaeans] وافناهم بحدّ السيف وسميت وقعته معهم «بالتضحية لخيال هيفاستيون واعتزم ان ينفق على بناء ضريحه ونصبه التذكاري عشرة آلاف تالنت. وقرر ان تكون روعة التصميم وجمال الصنع مما يزيد عن نفقات وأختار من بين النحاتين [ستاسكراتيس Stasicrates] لأنه كان يخرج دائماً بشيء جديد غير مسبوق في تصاميمه. التقيا مرة فقال النحات له: ان جبل آتوس في تراقيا هو أصلح كل الجبال التي عرفها لنحته وتهذيبه ليكون على شكل انسان فان اعجبه المشروع فبامكانه ان يجعل من هذا الجبل اجمل وابقى تمثال بشر في العالم، يمسك بيده اليمنى مدينة نفوسها عشرة آلاف ويخرج من يسراه نهر غزير المياه ليصب في البحر. وقد رفض الاسكندر مشروعه، الاّ انه صار يصرف جل اوقاته مع النحاتين والصناع لاستنباط تصاميم وابنية أكثر فخامة وروعة.

وكان في طريقه الى بابل عندما وصل [نيارخوس] مصب نهر الفرات، فانبأه بأن بعض العرافين الكلدانيين الذين التقى بهم حذروه من ذهاب الاسكندر الى بابل. إلاّ انه لم يأبه واستمر حتى اذا بلغ اسوار المدينة شاهداً اعداداً كبيرة من الغربان يقاتل أحدها الآخر في الجوّ، وسقط بعضها بالقرب منه. واسرّ اليه احدهم ان [ابوللودوروس Appollodorus] حاكم بابل قدم قرباناً ليعرف ما سيكون مصير الاسكندر. فارسل يستقدم الكاهن [فيتاغوراس] فأكد له صحة الخبر فسأله: باية حال وجد الأضحية؟ فقال كانت شحمة الكبد معيبة فقال الاسكندر:

- بشير خير عظيم دون شك!

ولم يتعرض للعراف بسوء، الاّ ان الاسف ادركه لأنه أهمل تحذير [يفارخوس] وانفق جل وقته خارج المدينة، ينقل سرادقه من موضع الى آخر، ويمخر عباب الفرات جيئة وذهاباً. وصارت تقلقه ظواهر طبيعية أخرى منها ان حماراً مروضاً هجم على أكبر واجمل أسوده فقتله برفسه من رجله. ونزع ثيابه ذات يوم ليدهن جسمه وكان يلعب بالكرة ولما راحوا لجلب ثيابه لمح الشبان اللاعبون رجلاً مرتدياً ثياب الملك وتاجه على رأس يجلس ساكناً على عرشه. فتقدموا منه وسألوه عمن يكون فظلّ برهة لايجيب ثم افاق من استغراقه وقال انه اسمه [ديونيسيوس] وانه من [مسينيا] وقد جيء به من الساحل لجريمة اتهم بها وله في السجن مدة طويلة، حتى ظهر له [سيرابيس] وحرره من اغلاله وقاده الى هذا المكان وامره أن يشتمل

براد ء الملك ويعتمر بتاجه ويجلس حيث وجدوه ولا يتفوه بكلمة. عندما سمع الاسكندر بهذا، أمر به فقتل بعد استشارة العرافين.

وعلته الكآبة وفقد ثقته بحماية الآلهة ومعنويتها وزاد شكه في اصدقائه وكان أعظم مخاوفه متأتيةً من [انتيپاطر] واولاده وأحدهم [ايولاوس Iolaus] هو رئيس سقاته والآخر [كساندر] كان قد ربي تربيةً اغريقية صرفة. رأى لأول مرة البرابرة يقدمون فروض العبادة للملك فلم يتمالك نفسه من الضحك عليهم بصوت مسموع فأغضب الاسكندر الذي امسك به من شعره بكلتا يديه وأخذ يضرب الحائط برأسه. وفي مناسبة أخرى قال [كساندر] شيئاً في معرض الدفاع عن [انتيپاطر] في وجه متهميه فقاطعه الاسكندر قائلاً:

- ما هذا الذي تقوله؟ أو تظن الناس يتكبدون عناء مثل هذه الرحلة الافتراء على ابيك. ان لم يصبوا باذىً؟

فأجابه [كساندر]: ان سفرهم الطويل الذي ابعدهم عن دليل الاثبات، لهو شهادة بزيف التهم.

فابتسم الاسكندر وقال: ذلكم هو شيء من سوفسطائية ارسطو فهو قول يصلح لطرفي في القضية.

ثم اضاف يقول: سأنزل بك وبوالدك اشد العقاب اذا ثبت ارتكابكما أقل الظلم بحق الشاكين.

أحدث هذا التهديد أثراً من الرعب في كساندر لم يقو الزمن على ازالته. فبعد مرور سنين عديدة وصيرورته ملكاً على مقدونيا وسيّد اليونان كان يتمشى يوماً في دلفي ويتأمل التماثيل فيه وما ان وقعت عيناه على تمثال الاسكندر حتى استبد به القلق الشديد وراح جسمه يرتجف من اعلى الى اسفل وزاغت عيناه ودارت به الأرض. ولم يعد الى وضعه الطبيعي الأ بعد زمن.

ما أن ركبت الاسكندر المخاوف من سلطان ما وراء الطبيعة حتى غمّ على عقله وأصبح ينزعج لاتفه الحوادث اذ كان يرى فيه نذيراً أو بشيراً. وأكتظ بلاطه بالعرافين والكهان الذين لم يعد لديهم عمل غير التضحية والتطهير وكشف المستقبل. ما اقبح الشّك والاستخفاف بالقوى الالهية. وما اقبح الايمان بالخرافات فهو كالماء المنخفض المستوى، يندفع ولايقف في جريانه لميلأ العفو بالمخاوف التافهة والحماقات. تلك كانت حالة الاسكندر. لكن اجوبة معينة وردته من العرّاف بخصوص [هيفاستيون]. نبذ احزانه جانباً وعاد الى معاقرة الخمر وتقديم الاضاحي. بعد أن انتهى من مأدبته الفخمة التي ادبها [لينارخوس] واستحم كعادته قبل ان يأوي الى فراشه خرج ليتعشى مع [ميديوس Mesius] بناء على الحاحه في الرجاء واستمر

يشرب الراح لديه حتى اليوم التالي واصيب بالحمى التي لازمته حتى وفاته. ولم يكن سببها شربه من وعاء هرقل كما كتب بعضهم، ولم يشعر بأي ألم فجائي في ظهرة كما لو كان قد أصيب بطعنة رمح فكل هذا في مستنبطات بعض المؤلفين الذين توهموا أن الواجب يقضي عليهم حشر عظيم الاحداث في الفصل الأخير من عمر الاسكندر، محركاً للعواطف مأساوياً. ويحدثنا [ارسطوبولس] ان سعار الحمى زاد في عطشه فشرب غالوناً من الخمر وراح على اثرها يهذي وتوفي في الثالث عشر من شهر [دايسيوس Daesius].

الاّ أن المدونات التي وصلتنا تفصل الأمر بالشكل التالي:

في الثامن عشر من الشهر، نام في حمامه بسبب الحمّى. وفي اليوم التالي استحّم ونقل الى غرفته الخاصّة وقضى وقته يلاعب [ميديوس] الشطرنج. وعند المساء استحَم ثانية وصحا واكل ما رغب في أكله ولازمته الحمّى طوال الليل. وفي العشرين أكمل التضحيات المعتادة واستحّم واستلقى في الحمام مستمعاً الى تقرير [نيارخوس] عن رحلته وعن ارصاده في البحر الأعظم، وقضى اليوم الحادي والعشرين كذلك، وكانت حرارته في صعود. وتألم كثيراً اثناء الليل. وفي اليوم التالي بلغت الحمّى اوجها فرفع ونقل الى سريره والقريب من الحمام الكبير، واجتمع بكبار ضباطه وتداول معهم حول انتقاء رجال ملائمين لملء الشواغر في الجيش. وساءت حاله جداً في اليوم التالي (الرابع والعشرين) ونقل من سريره للمشاركة في التضحية، واصدر أمراً بان يبقى جنرالاته في حالة انذار في البلاط. وان يقوم صغار الضباط بالخفارة خارج القصر، وفي اليوم الخامس والعشرين نقل الى قصره على الضفة الأخرى من النهر، ولم ينم الاّ يسيراً. على ان حرارته بقيت كما هي. وعندما دخل قواده الى غرفته وجدوه هامداً لايقوى على الكلام. وظلّ كذلك طول اليوم التالي. وظن المقدونيون انه قضى نحبه فأندفعوا بصياح عظيم الى مداخل القصر، وهددوا اصدقاءه حتى اضطر هؤلاء الى اخلاء الطريق لهم وادخلوها جميعاً وهم عزل حتى فراشه. وفي اليوم نفسه ارسل [بيتون Python] وسلوقوس الى هيكل [سيرابيس] للاستفسار عما اذا كان يجب ان ينقل الاسكندر اليه. فأجابهم بالنفي. وفي مساء الثامن والعشرين لفظ آخر أنفاسه. معظم هذه الرواية منقولة حرفاً بحرف من اليوميات.

في حينه لم يقم اي شك حول تسميمه ولكن قبل بعد ستّ سنين واستناداً الى بعض الاشاعات ان [اولمبياس] قتلت كثيرين وذرت رماد بقايا [ايولاووس] الذي كان قدمات، كأنها تنفذ فيه حكم الموت. لكن اولئك الذين يؤكدون بأن ارسطو نصح [انتيباطر] بأن يقدم على دسّ السمّ، وان السمّ جيء به عن طريقه، يوردون اسم [هاگنوتيميوس -Hagnothemi

us] مرجعاً لهم، ويقولون انه سمع [انتيكونس] الملك يرويها ويضيف السمّ بأنه كان سائلاً بارداً كالثلج استقطر من صخرة في ناحية [نوناكريس Nonacris] وجمع كما تجمع قطرات الندى الرقيق القوام وحفظ في حافر جحشٍ لكونه شديد البرودة يخترق كل اناءٍ يحتويه غير هذا. ومهما يكن فالغالبية ترى انها حكاية موضوعة. ان الجسد بقي طرياً نقيَّ البشرة طوال فترة النزاع الذي نشب بين ضباطه واستمر عدة أيام. ولم يظهر عليه اي اثرٍ للتفسخ والفساد مثلاً مع انه ظل مسجى في موضع صغير شديد الحرارة والرطوبة. هذا يقوم دليلاً لايستهان به على كذب الرواية.

كانت [روكسانا] حاملاً. ولهذا السبب حباها المقدونيون بالتكريم وكانت تغار من [ستاتيرا] فبعثت تستقدمها برسالة مزيفة من الاسكندر كأنه ما يزال حيّاً وعندما وقعت في قبضتها قتلتها هي وأختها والقت بجثتيهما في بئر واهالوا التراب عليهما. وكان [پرديكاس] يعينها في ذلك. وقد مارس سلطاناً عظيماً بعد موت الاسكندر ملقباً نفسه بـ[اريدايوس Arrhidaeus]. ولم يكن في حياته غير حارس شخصي اما [اريدايوس] ابن فيليب من امرأة خاملة النشأة اسمها [فيلينّا Philinna] فقد كان ضعيف العقل، لا بسبب عاهة في عقله أو بدنه (بالعكس فقد تميز في طفولته بالخلقة السليمة، والعقل السوّي) بل بسبب حالة مرضية على اثر تناوله ادوية كانت [اولمپياس] تسقيها له فاتلفت صحته وعقله.

١٩٧١/١٢/٢٢



كلوديوس
(حوالي ٤١ ق.م)

يوليوس قيصر

CAESAR

(Gaius Julius)

101 _ 44



قيصر

قيصر

بعد ان استتب الأمر لـ(سيللاً) رغب في حمل قيصر على طلاق زوجه [كورنيليا] بنت [چنّا Cinna] آخر حاكم مطلق على جميع الامبراطورية الرومانية. لكنه عجز عن تحقيق ذلك سواء باستخدام الوعد أو الوعيد نقنع من ذلك بمصادرة مهرها.

وأصل العداء بين (سيللا) و(قيصر) هو قرابة أخيرهما لـ(ماريوس). فـ(ماريوس) الأب كان بعلاً لـ(يوليا) عمة (قيصر) وقد انجبت له (ماريوس الأصغر) الذي هو والحالة هذه ابن عمته. في مبدء الأمر أغفل (سيللا) قيصراً وتجاوزه من العديد الذين فتك بهم بسبب المشاغل والاهتمامات الأخرى التي الهته عنه لكن (قيصر) بقي يلفت الانظار بنشاطه. اذ قدم نفسه للشعب مرشحاً لرتبة الكهانة، مع صغر سنه. فلم يقدم (سيللا) على معارضته بصورة مكشوفة وأنما عمد الى اتخاذ تدابير لإسقاطه. ثم شاور اعوانه في القضاء عليه. فالحّوا عليه بالعدول عن ذلك قائلين، ان قتل صبيٍ ليس شيئاً مهماً » فقال ماريوس:

- ان الذين لايرون في الفتى (قيصر) أكثر من (ماريوس واحد، هم جهلة لايعرفون شيئاً).

ولما بلغ ذلك (قيصر) سارع الى الاختفاء متحاشياً الظهور برحيله الى اراضي (السبين) حيث مكث فيها مدة طويلة.

كان اثناءها يغيّر مخبأة كثيراً، حتى وقع في احدى الليالي - اثناء انتقاله من بيت الى آخر بسبب سوء صحته - في ايدي جنود [سيللا] الذين كانوا يقومون بالتفتيش في تلك الانحاء للقبض على من أفلت من المذبحة. وأفلح [قيصر] مع الضابط [كورنيليوس] فأخلى سبيله برشوة قدرها تالنتات، وركب البحر متجهاً نحو [بيثينيا] وبعد مكوثه هناك ضيفاً على الملك [نيقوميدس]، عاد ادراجه إلاّ ان القرصان اعترضه في البحر قرب جزيرة [فارماكوزا Phar-macosa] وكان هؤلاء في تلك الفترة قد دوخوا البحار في كل مكان باساطيل كثيرة من السفن الكبيرة وما لايحصى من السفن الصغيرة.

ضحك [قيصر] من القرصان عندما حدوداً فديته بعشرين تالنتاً وهزء بهم قائلاً انهم لم يقدروا قيمة اسيرهم تقديراً صائباً وتعهد لهم من تلقاء نفسه ان يرفع الفدية الى الخمسين وارسل في الحال بعضهم الى عدة اماكن لجمع مال الفدية. وترك بين يدي جماعة من القرصان الكيليكيّن، احطّ خلق الله، وأكثرهم تعطشاً للدم، وليس معه غير ضّلٍ واحدٍ وخادمين. وكان يحتقر آسريه ولا يأبه بهم حتى انه كان وقت نومه يرسل اليهم أمراًبالاً يحدثوا صوتاً. وظل يسرح ويمرح بينهم زهاء ثمانية وثلاثين يوماً، ويروح عن نفسه بمشاركتهم في العابهم وتمارينهم كأنهم ليسوا اسريه بل حراساً له. وكان ينظم القصائد ويكتب الخطب ويسمعهم اياها. ويصيح في وجه من لايبدي اعجابه بها بأنه جاهل بربريّ، وكثيراً ما كان يهددهم بالشنق على سبيل المزاح، ـــــ كثيراً ويعزون انطلاقاته هذه في الحديث الى نوع من السذاجة والجرأة الصبيانية. ووردت فديته من [ميليتس Miletus] فدفعها وأطلق سراحه فشرع فوراً في اعداد بعض السفن في ميناء [ميلتيس] وأنطلق يطارد القرصان وباغتهم مع سفنهم وهم بعدُ في الجزيرة واسر معظمهم وأستولى على اموالهم واودع الأسرى سجن [برغاموس] وراجع [جونيوس Junius] الذي كان وقتذاك حاكم آسيا، لتحديد عقوبتهم بمقتضى صلاحيته باعتباره [بريتورا] ولطمع [جونيوس] بالمال (وكان كبيراً) أخذ يماطل في تقرير مصير السجناء، فما كان من قيصر الأ وعاد الى [برغاموس] وأمر باخراج القرصان من السجن وصلهم - عقوبة طالما كان يهددهم بها لما كان أسيراً عندهم فلا يحلمون بأنه كان جاداً.

في الوقت نفسه بدأ سلطان [سللاً] ينتابه الضعف فنصحه اصدقاؤه بالعودة الى روما. الأ انه سافر الى [رودوس] وانتمى الى مدرسة [اپوللونيوس] ابن [مولون Molon] معلم البلاغة والبيان الشهير. وكان رجلاً معروفاً بالعلم والفضل ومن تلاميذه [شيشرون].

قيل ان [قيصر] خلق ليكون رجل دولة وخطيباً في الوقت نفسه، فقد زودته الطبيعة بكلّ مقوماتهم وحكمت عليه ان يتكبد العناء ويركب الصعاب في صقل مواهبه فيحوز المرتبة الثانية بلا شكٌ في الخطابة. ولكن هدفه لم يكن هذا بل اختار الكفاح لأجل ان يكون الأول بين رجال الحرب والسياسة. فلم يرتفع الى مقام البلاغة التي كانت سترفعه الطبيعة اليها.

واستأثرت باهتمامه تلك الحملات والخطط التي ربح بها الامبراطورية فيما بعد. فتجده في جوابه على رسالة التقريظ التي كتبها [شيشرون] بحق [كاتو]، يطلب من قارئه ان لا يقارن كتابة الجندي البسيطة ببلاغة الخطيب الذي زاد على موهبته الجميلة، انه اوقف حياته كلها على دراستها وصقلها.

عند عودة [قيصر] الى روما، إتهَم [دولابللاً Dolabella] بسوء الادارة. واقبلت وفود من

مدن اغريقية عديدة لتعزيز اتهامه لكن [دولابللا] بُريء. وقابل [قيصر] هذه المساندة التي نالها من الاغريق بمساندتهم في اتهامهم [پوبليوس انطونيوس] بفساد الادارة امام [ماركوس لوكولوس] پريتور مقدونيا. ونجح في هذه القضية نجاحاً الجأ المتهم الى استيناف حكمه امام تريبونات روما زاعماً انه لايمكن ان ينال محاكمة عادلة في اليونان وفي مرافعته بروما نال قيصر ببلاغته وقوة عارضة تقديراً كبيراً ومكانة سامية. ولم يكن نصره هذا باقل اثراً من انعطاف قلوب الجماهير نحوه، بسبب دماثته ولطف حديثه الذي كان يستبطن اللباقة وحسن التقديرات لمشاعر الآخرين مما لايتوقع صدوره من شخص في مثل عمره. وكان بيته مفتوحة في وجوه قصاده، لا ينقطع فيه المآدب والحفلات. ويتجلى فيه طراز الحياة العالي التي يحياها. كل ذلك ساهم بالتدريج في خلق نفوذه السياسي وازدياده. واستخف خصومه بتنامي سلطانه في مبدأ الأمر مقدرين أنه ما يلبث أن سلبث أن يتلاشى عندما يخلو وفاضه من المال، في حين كان آنذاك يزداد قدراً ومكانة عند العامة، حتى ثبت نفوذه ولم يعد في الامكان ازاحته. فمال بصورة مكشوفة الى تغيير نظام الحكم كله وجاء ادراكهم متأخراً بأن ليس ثم بداية تعدّ تافهة عندما يقبل بها الهِمّة والدأب المتواصل الى اعلى درجة. وان الاستهانة بالخطر في البداية ستعجله في النهاية ما حقاً تتعذر مقاومته. وكان [شيشرون] اول من داخله الشك في غايته وهدفه وهو الاستيلاء على السلطة وتبين مزاج قيصر التآمري من خلال تفكره برقة الحاشية ولين العريكة مثله مثل الملاّح الذي يتوقع هبوب العاصفة عندما يكون البحر في اهدأ واصفى حالاته. ولقد قال في هذا:

- لقد تحسست بطموحه الى السلطان المطلق في كل ما أقدم عليه من أعمال. لكنني عندما أرى شعره مصففاً بعناية كبيرة، وعندما اتابعه وهو يسويّ خصلاته باصبع واحدة، لايسعني الخيل بأن في رأس هذا الرجل افكاراً ستؤدي الى تقويض نظام الحكم الروماني.

وسنعود الى ذلك بمزيد من التفصيل فيما بعد.

وكان فوزه بمنصب التريبون العسكري في عملية الاقتراح، اول دليل على تعلق الناس به. وقد جاء اسمه بين الفائزين قبل اسم [كايوس پوبليوس] نفسه. وثم دليل آخر على تعلق الجمهور به اقوى من هذا انه ألقى خطبة ممتازةً في تأبين عمته [جوليا] امرأة ماريوس من الفوروم] وبلغ من الجرأة في تشييع جنازتها أن جلب صور ماريوس وابرزها للملأ. أمر لم يقدم أحدٌ عليه منذ أن تفرد [سللاً] بالسلطة واعلانه ان اعضاء حزب ماريوس هم اعداء الدولة. فبدأ بعض الحاضرين يستنكر ذلك ويؤلب الخواطر ضده فرد الجمهور عليهم بصيحات تشجيع

مدوية وتصفيق ينم عجبه وسروره لاخراجه امجاد [ماريوس] من القبر بعد ان طردت هذه الفترة الطويلة.

جرت العادة في روما أن تلقى خطب تأبين في اجنازات النساء الشهرات المتقدمات في السن. ولم تكن ثم سابقة في تأبين امرأة صغيرة السن حتى بدأها [قيصر] بتأبين امرأته الراحلة وهذا ما زاد في شعبيته ايضاً. فلقد اجتذب مشاعر العامة اليه بأظهاره محبته لها بهذه الطريقة، وراح الناس ينظرونه رجلاً عامر القلب بالحنان والرقة. وبعد ان وارى زوجه التراب رحل الى اسپانيا بمنصب [كويستور] تحت أمرة بزيتور اسمه [ڤيتوس Vetus] ظل يذكره بالخير ويعزه الى الأخير.

وعندما تقلّد هو منصب البريتور، بادر الى ترفيع ابن رئيسه السابق الى نفس الوطنية التي كان يتقلدها عند ابيه. وبعد ختام مدته في اسپانيا عقد قرانه على [پومپيا] زوجه الثالثة وكان له من [كورنيليا] زوجه الأولى، بنت اعطاها لـ[پومپي الاكبر]. وقد اثر عنه التبذير الشديد وسعة الانفاق، حتى بلغت ديونه الفاً وثلاثمائة تالنت. وكان من رأي الكثيرين أن الانفاق الكثير سعياً وراء كسب حبّ الناس، ما هو الاّ استبدال الثابت الجيد، بما قد لايكون أكثر من بديل غير مؤكد. والواقع انه كان يبتاع بالثمن الزهيد، ما لايمكن تحديد قيمته. وعين مشرفاً عاماً على طريق [آپيا Appia] فلم يقف في صرفه عليه عند المبالغ المخصصة له من الخزينة العامة بل انفق عليه من جيبه الخاص مبلغاً كبيراً. وفي اثناء توليه منصب [الايديل] جلب عدداً كبيراً من المصارعين واتحف الجمهور بثلاثمائة وعشرين مبارزة. وامّا اغراقه ولجاجته في اقامة الحفلات والمهرجانات العامة وتمثيل المسرحيات فقد طمس به كلّ ما عمله اسلافه في هذا المجال. وكان تعلّق الناس به لايمكن وصفه الاّ بشدة رغبتهم وتسابقهم في اقتراح المناصب والانعامات الجديدة له.

كان في روما آنذاك حزبان سياسيان: حزب [لسللاّ] وهو الحزب القوي المسيطر، وحزب [الماريوس] الراحل وهو في أشدّ حالات الضعف والإنهيار. فاعتزم قيصر احياء هذا الحزب، واتخاذه حزباً له. وانتهز فرصة اعجاب الناس به، وسمعته الصاعدة بالحفلات التي يقيمها بصفته [ايديلا] فأمر - تحقيقاً لمطلبه هذا - أن تنقل خفيةً صور [ماريوس] وتماثيل النصر وهي حاملة تذكارات الحرب، فتم نقلها ليلاً ونصبت في الكاپيتول. وشاهد بعضهم في صبيحة اليوم التالي هذه التماثيل ـــ وهي تتوهج وتختال بجمالها وبالكتابات التي خلدت انتصارات [ماريوس] على الكمبري. فأدركهم العجب لجرأة من نصبها. ولم يكن من الصعب التكهن بهويته. وانتشر النار في الهشيم وقامت الضجة الكبرى وجرت الاجتماعات العامة،

واحتج بعضهم قائلاً انها محاولة مكشوفة لقلب نظام الحكم، باحياء امجاد طوتها قوانين مجلس الشيوخ ومراسيمه. وان قيصر، ما أقدم عليها إلاّ يجسّ نبض الشعب وليتأكد من مدى استعداده، بعد أعداده لهذه النهاية وترويضه ترويضاً كافياً لاطاعة نزواته، وأن يتقبل بهدوءٍ ما يطلع به عليهم قيصر من مخططاتٍ. ودبت الشجاعة من الجهة الثانية بمشايعي ماريوس واعضاء حزبه. وكان عجيباً حقاً أن يجد لماريوس مثل هذا العدد الهائل من الاتباع، بعد أن اخرجهم هذا العمل من مكامنهم فقد تدفقوا حشوداً الى الكاپيتول هاتفين، وصار بعضهم يصرخ كالمجانين عند رؤيته صور [ماريوس]. وارتفع قدر قيصر كثيراً لأنه كان القريب الوحيد الجدير بانتمائه لماريوس من بين اقربائه الآخرين. وعلى أثر هذه الفعلة، اجتمع مجلس الشيوخ ونهض [كاتالوس لوتاتيوس Catalus Lutatius] وهو من أكبر الرومان قدراً وهاجم قيصر، وختم خطبته قائلاً:

- ان قيصر لايحفر الغاماً لنسف الجمهورية، وانما ينصب آلات هدمٍ لتقويض صرحها، ولما اعتذر قيصر وارض مجلس الشيوخ راح اشدّ المعجبين به يشجعونه ويقوون من عزيمته ونصحوه بالاّ ينكص على أعقابه ولا يتراجع عما انتواه بتأثير من الغير. مادام واثقاً انه سيتظهر على الجميع بعد زمن يسير بفضل منزلته الشعبية. فيكون الرجل الأول في الجمهورية.

في ذلك الزمان توفي [ميتللوس] الكاهن الأكبر وتنافس على المنصب الشاغر كلّ من [كاتالوس] و[ايساوريكوس Isauricus] وكلاهما من ذوي المكانة الرفيعة، والنفوذ الكبير في مجلس الشيوخ. إلاّ ان قيصر لم يتركهما في الميدان وحيدين وتقدم الى الشعب مرشحاً نفسه للمنصب وبدت الآراء والاحزاب في الظاهر منقسمة بصورة متساوية على المرشحين لا ترجح الواحد منهم على الآخر، وكان [كاتالوس] أكثرهم تخوفاً من النتيجة. ففي حالة فشله ستكون خسارته في مكانته وسمعته أكثر من المرشحين الآخرين فبعث لقيصر، يريد شراءه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال فكان جواب قيصر:

- اني على استعداد لاستدانة مبلغ أكبر مما عرضته، حتى اواصل معركة الانتخاب.

وفي اليوم المعين للاقتراع قال لأمه التي رافقته باكيةً حتى باب الدار:

- يا ام! هذا اليوم سيراني أحد رجلين، امّا منفيٌّ، واما كاهن اعظم.

وخاض معركة انتخابية حامية، وبفرز الأصوات فاز قيصر، فأحدث فوزه موجة قلق في نفوس الاشراف واعضاء مجلس الشيوخ وخافوا أن يدفع العامة الى كل نوع من انواع

الاعتداء، والشرّ. وانحنى [كاتالوس] و[پيزو] باللائمة على [شيشرون] لأنه اتاح له فرصة النجاة في مؤامرة [كاتيلين] بعد ان اتاح هو نفسه للحكومة اعظم الفرص لادانة قيصر. وتفصيل الأمر هو أن [كاتيلين] لم يكن ينوي من مؤامرة احداث انقلاب كامل في الوضع السياسي فحسب، بل كان يرمي فضلاً عن ذلك الى بسط سلطانه المطلق على الامبراطورية ويقضي على الجميع. وقد هرب قبل ان تتجمع الادلة الكافية ضده، وقبل انكشاف اهدافه النهائية انكشافاً تاماً. على انه ترك [لنتولوس] و[گثيگوس Cethegus] في المدينة لينوبا عنه في العمل. ولم يكن ثم ما يعززّ الشكّ في انهما حظيا بتشجيع قيصر ومعاونته من طرف خفيّ. وكل ما في الأمر أن مجلس الشيوخ ادان هذين الشخصين بالاجماع. ثم طلب [شيشرون] من اعضاء المجلس أن يحددوا شكل العقوبة، فارتأى الاعضاء الذين ادلوا باصواتهم قبل قيصر أن تفرض عليهما عقوبة الموت، وحان دور قيصر فألقى خطبة معدّة، جاء فيها: انه ليرى من الظلم ان تنتزع حياة شخصين كريمي المحتد لهما هذه المكانة الرفيعة قبل ان يحاكما محاكمة عادلة. وهو أمر غير مسبوق الاّ اذا كانت هناك ضرورة ملحّة. وهو يقترح أن يحتجزا في أية مدينة ايطالية يختارها [شيشرون] حتى تتم هزيمة [كاتيلين] وعندئذ سيتاح للمجلس في الظروف السليمة أن يقررّ بأناة وروية ما هو مناسب بحقهما.

وكانت عباراته تحمل كثيراً من المعاني الانسانية، وزاد من وقعها في نفوس سامعيها صياغتها البليغة، فتبنى رأيه هذا كل من تلاه، وخف الذين سبقوه الى العدول عن رأيهم الأول والموافقة على اقتراحه، ثم جاء دور [كاتالوس] و[كاتو]، للكلام فعارضا الرأي وسفهاه بشدة. وأثار [كاتو] في خطابه الشكّ حول [قيصر] نفسه والح في وجوب تسليم المجرمين الى نطع الجلاد الحاحاً شديداً. وبينما كان قيصر يهمّ بالخروج من مجلس الشيوخ، لحق به جمّ غفير من الشبان القائمين على حراسة [شيشرون] انذاك، وجردوا سيوفهم وأطبقوا عليه، الاّ ان [كيوريو Curio] ألقى رداءه فوقه وقاده بعيداً عنهم – على ما قيل، وشيشرون نفسه عندما التفت اليه الشباب ينتظرون قضاءه في قيصر، ابدى لهم اشارة الكفّ عنه، إمّا لخوفه من العامّة، واما لأنه كان يجد في القتل عملاً غير شرعي. ان صحّ هذا فلا يسعني الاّ العجب لاغفال شيشرون ذكر الحادث في كتابه عن قنصليته. وعلى اية حال فقد تعرض الى اللوم فيما بعد، لأنه لم يستفد من تلك الفرصة الذهبيّة ويتخلص من قيصر وتركها تفلت من يده خوفاً من العامة المتعلقين بقيصر والمنحازين اليه انحيازاً ظاهراً.

وبعد زمن نهض في المجلس يريد تبرئة نفسه من الشكوك التي تحوم حوله، فارتفع الضجيج ودوت صيحات الاستنكار ضده ودامت الجلسة اكثر من المعتاد بسبب ذلك، واحتشد الجمهور

في الخارج ثم صعدوا الى دار المجلس بحشود عظيمة واحدقوا به وصاحوا يريدون [قيصر] ويطلبون اسقاط التهم عنه. وخشي [كاتو] من ثورة تسري بين الفقراء من المواطنين اول موقد للهب بين الشعب - كما خشي أن يضعوا كل آمالهم في قيصر. فأقنع مجلس الشيوخ بالاقتراع على منحهم علاوة شهرية من القمح. وكان وجهاً من وجوه الصرف وضع الخزينة في حالة عجز كبير، قدره سبعة ملايين وخمسمائة الف درهم سنوياً. الا ان نجاحه في ازالة خطر الثورة، كان عظيماً. واضعف نفوذ [قيصر] الى درجة كبيرة، وكان في ذلك الحين يوشك ان يتسلم منصب [البريتور] ليغدو أكثر منعة وقوة بحكم منصبه.

على أن فترة [بريتوريته] انقضت دون ان يحدث ما يكدر، خلا ما لقيه من سوء حظّ في اموره العائلية، وكان [بوبليوس كلوديوس] من طبقة الاشراف مشهوراً بغناه، وذلاقة لسانه على انه سبق أشهر فسّاق زمانه بتهتكه وخلاعته. وقد وقع في غرام [پومپيا] زوج قيصر ولم يجد منها صدوداً. وفرضت رقابة شديدة على مثواها. ولازمتها والدة قيصر [اوريليا] وهي امرأة صارمة، ولم تفارقها لحظة واحدة مما جعل اي وصال بين الأثنين يتسم بالخطورة والصعوبة. وكان الرومان يتعبدون لآلهة انثى يطلقون عليها اسم [بونا Bona] وهي التي يسميها الاغريق [غينياكيا Gynaecea]. والفريجيون الذين ينادونها باسم غريب، يدعون انها امّ [ميداس] ويقول الرومان انها واحدة من الـ[درايد Drydes] تزوجت [فاونس Fau-nus] ويؤكد الأغريق بأنها والدة [باخوس] الذي يحب الا ينطق باسمها. ولهذا السبب فان النسوة اللاتي يحتفلن بعيدها، يعمدن الى تغطية الخيم باعضان الكرم. وتمشياً مع الخرافة، توضع حية مقدسة الى جانب صورة الآلاهة. ويحظر على الرجل ان يكون قريباً او أن يكون في البيت عندما تقام الشعائر الدينية بهذه المناسبة. فالنسوة وحدهن يقمن بها ويقال ان المراسيم لا تختلف عن تلك التي تقام في عيد [اورفيوس Orpheus]. بحلول يوم العيد يترك الزوج الذي يكون إما قنصلاً أو بريتوراً. بيته مع كل الذكور الموجودين فيه، فتنوب الزوج منابه في الاشراف عليه. وتقام المراسيم ليلاً، ويتلهى النسوة فيما بينهم باللعب عند توليهن الخفارة وتصدح انغام الموسيقى في ارجاء الدار دون انقطاع. واراد [كلوديوس] ان ينتهز فرصة احتفال [پومپيا] بهذا العيد، فخيل له ان يستطيع الدخول الى دارها دون ان يفتضح أمره، فتنكر بثياب مغنية وتزين بحليّها وحللها فبدأ وكأنه فتاة لأن لحيته لم تنبت بعد واقبل ليجد الأبواب مفتوحة وخادم پومپيا بانتظاره، فأدخلته في الحال. وأسرعت لابلاغ سيدتها، لكنها تأخرت، فداخله القلق، وترك موضعه وأخذ يتجول في الدار من غرفة متحاشياً النور، والتقت به أمة [اوروبليا] ودعته للعزف معها، جرياً على عادة النسوة.

فأبى فدفعته امامها وسألته عن يكون ومن اين جاء. فقال انه ينتظر [أبرا Abra] خادم [پومپيا]. وهو اسمها الحقيق ففضحه صوته الخشن فصرخت الخادم وهربت حيث النساء مجتمعات واخبرتهن بوجود رجل في الدار. فأخذ الرعب مأخذه من سائرهن وغطت [اوريليا] الاشياء المقدسة واوقفت الطقوس والمراسيم وأمرت باغلاق الابواب وانطلقت دون نور تبحث عن [كلوديوس] الذي كان قد التجأ الى غرفة خادم [پومپيا] وكبسته هناك. وتعرفت عليه النسوة ودفعنه خارج الدار. ثم ادلين بالحكاية الى ازواجهن. وفي الصباح تبين ان الخبر منتشر في ارجاء المدينة، والناس كلهم يتحدثون بمحاولة [كلوديوس] السافلة ويطالبون بانزال العقاب به لانه مجرم تجاه الاشخاص الذين تلم شرفهم وتجاه الرأي العام والآلهة جميعاً. فرفع أحد التريبونات الشكوى ضده واتهمه بتدنيس الشعائر الدينية.

واتفقت كلمة طائفة من الشيوخ عليه، وادلوا بشهادات ضده واتهموه بعدد من الجرائم المخزية. منها مواقعة أخته، التي هي زوج [لوكوللوس]. الاّ ان الجمهور وقف ضدّ هذا الاتهام وادفعوا عن [كلوديوس]. مما كان له لاثره الكبير في نفوس القضاة، فقد ذعروا وخافوا سوء العاقبة ان هم جرحوا مشاعر العامة. وأسرع [قيصر] فطلق [پومپيا] لكنه دعي كشاهد اثبات ضد [كلوديوس] فقال أنه لايتهمه بشيء. وبدا هذا تناقضاً منه وسأله رافع الشكوى:

- اذن ما الذي دعاك الى طلاق زوجك؟

فأجاب قيصر: لا اريد أن تكون زوجي أكثر من مظنونة.

قال بعضهم ان جواب قيصر كان واقع ما يشعر به فعلاً، وقال آخرون انما اجاب بذلك ارضاء للعامة الذين عقدوا النية على انقاذ [كلوديوس] وعلى اية حال فقد برءي. لأن القضاة اعطى رأيه مكتوباً بشكل يتعذر قرأته، وقد تعمدوا ذلك حتى يكونوا بمأمن من العامة، ولكي لا يصيبهم عار أمام الاشراف باخلائهم سبيله.

وعين حاكماً لاقليم [اسپانيا] بمقتضى منصب [الپريتور] الذي يتقلده. إلاّ ان اوضاعه المالية كانت في غاية الارتباك مع دائنيه الذين تكالبوا عليه قبيل سفره وهم يلحون ويلحفون، فلم ير بدأ من مراجعة [كراسوس] أغنى اغنياء روما وكان هذا بحاجة الى عزم [قيصر] الفتي لإسناد المعارضة التي يتزعمها [كراسوس] ضدّ [پومپي] فتعهد له بارضاء أكثر الدائنين الحافاً، وسداد جميع الديون التي لم تعد تحتمل التأجيل ودفع عنه مبلغاً قدره ثمانمائة وثلاثون تالنتاً، ولم يبق عائق امام سفر [قيصر] فأنطلق الى اسپانيا مجتازاً الالب. ومرّ بقرية بربرية صغيرة فيها قلة من الناس الفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً. وأخذ

ضباطه يمزحون فيما بينهم بقولهم «ايوجد هنا مُنافسة على الاصوات الانتخابية؟ أو نزاع حول المنصب الأول؟ أو ثأرات بين كبار القوم؟».

وأجاب قيصر على هذا وهو في غاية الجدّ.

- انا شخصياً أفضل أن أكون الرجل الأول بين هؤلاء القوم على أن أكون الرجل الثاني في روما.

وقيل انه كان يقضي اوقات فراغه في اسپانيا بمطالعة تاريخ الاسكندر، وفي احدى المرات دمعت عيونه وبكى بعد فراغه من قراءة جزء فعجب اصحابه وسألوه عما ابكاه فقال:

- اما ترونه سبباً وجيهاً للبكاء عندما افكر بأن الاسكندر اخضع مثل هذا العدد من الشعوب والأمم وهو في مثل عمري في حين اني لم أنجز عملاً مذكوراً حتى الآن؟

وأظهر نشاطاً جماً حال مباشرته حكم اسپانيا. فاضاف عشر كتائب جديدة الى العشرين الموجودة. وزحف بها على [الكالايچي Calaici] و[اللوزيتاني Lusetani] واخضعهما، ثم تقدم حتى بلغ المحيط، باسطاً سلطان روما على تلك القبائل التي لم تدخل في طاعتها من قبل. وكان نجاحه العسكري الطيب يوازي نجاحه في المسائل المدنية. فقد اهتم باحلال المودة والتفاهم بين عدة دول اقليمية تابعة وازال الخلافات المحتدمة بين الدائن والمدينين فأصدر قراراً يقضي بأن يتسلم الدائن ثلثي دخل المدين السنوي وترك المدين حر التصرف في الثلث الآخر حتى يتم تسديد الدين كله. كل هذا جعله لا يترك اقليميه الاّ وقد خلف وراءه اسماً طيباً وسمعة حسنة. وقد اغتنى وأغنى جنوده فكافأوه بأن خلعوا عليه لقب [امبراطور].

يقضي القانون الروماني على القائد المنتصر المطالب بموكب نصر أن يبقى خارج اسوار المدينة منتظراً الموافقة. ويقضي قانون آخر بأن على من يرشح نفسه للمنصب القنصلي أن يحضر بشخصه محلّ الاقتراع. وكان قيصر قد بلغ مشارف روما اثناء موعد الانتخاب القنصلي فوقع بين نارين وتحيّر بين القانونين. وبعث يطلب من مجلس الشيوخ أن يسمح له بانابة اصحابه في ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لاضطراره الى البقاء خارج روما. في بادىء الأمر عارض [كاتو] الطلب وكان القانون في جانبه. ولكن عندما تبين ان أغلبية المجلس تؤيد ترشيح [قيصر] دون اعتبار لصراحة القانون. حاول جهده لكسب الوقت وراح يبدد اليوم بالكلام والخطب، ففضل قيصر ان يصرف النظر عن موكب النصر وأن يتابع ترشيحه للقنصلية فدخل المدينة معلناً عن ترشيحه لنفسه، ومستعيناً بحيلة انطلت على الجميع خلا [كاتو]. فقد

نجح مسعاه في مصالحة [كراسوس] مع [پومپي] وكانا أقوى شخصيتين في روما، وبينهما خلاف شديد نجح قيصر في ازالته. فقوّى نفسه بقوتيهما المتحدتين. واحدث انقلاباً في الحكم تحت ستار العمل الطيب.

اذ لم يكن الخلاف بين [قيصر] و[پومپي] سبب تسعير نار الحرب الاهلية. بل بالأحرى اتحادهما وتآمرهما من المبدأ على تدمير الارستوقراطية ولهذا نشب النزاع فيما بينهما بعدئذ. و[كاتو] الذي تنبأ أكثر من مرة بما ستكون عاقبة هذا التحالف، بدا وقتئذ رجلاً مناكداً فضولياً. ولكنه خرج بالأخير قنصلاً حكيماً بعيد النظر، الاّ انه فاشل.

وهكذا تضاعف دعم [قيصر] بنفوذي [كراسوس] و[پومپي] فتسنم منصب القنصلية مع [كالپورينوس بيبولوس Calpurinius Bibulus] وحال مباشرته مهام منصبه أصدر لوائح ومراسيم لا تصدر عادة من القنصل بل من اشدّ التريبونات جراءة، منها اقتراحه اقامة مستعمرات [مستوطنات] وتقسيم الاراضي، ارضاء للعامة ليس الاّ. وعارض اللائحة أفضل الشيوخ وأكثرهم شرفاً. فاهتبل [قيصر] الفرصة التي كان ينتظرها منذ وقت الطويل. وتسلح بهذه الذريعة الخادعة واحتج بأعلى صوته قائلاً:

«انه ليكره ان يرغم على طلب العون من الشعب، وان سلوك المجلس القاسي المهين لم يبق له غير سبيل واحدة وهي ان يوقف نفسه على رعاية مصلحة العامة وتبنيّ مشاكلهم».

واسرع بالخروج من المجلس وتقدم من الجمهور وهو بين [كراسوس] و[پومپي] وسألهم «اتوافقون على اللوائح التي اقترحتها» فأجابوا «أننا موافقون» وعندئذ طلب منهم أن يساندوه ضد أولئك الذين هددوه بسيوفهم. فردوا قائلين انهم معه. واردف [پومپي] قائلاً: انه سيلقى سيوفهم بسيف وترسٍ أيضاً. وامتعض الاشراف من هذا القول امتعاضاً شديداً. اذ لم يكن يليق بوقاره، ولا بالتوقير الواجب لمجلس الشيوخ. وكان بالأحرى أشبه بحماسة صبي أو هذيان مجنون. لكنه وقع موقعاً حسناً لدى العامة.

وحكم [قيصر] قبضته على [پومپي] بتزويجه ابنته [جوليا] التي كان معقوداً عليها [لسرفيليوس كيپيو Servilius Caepio]. وارضى هذا الخطيب بأن أعطاه ابنة [پومپي] التي كانت بدورها مخطوبة [لفاوستوس Faustus] ابن [سللاّ] وقد فترة تزوج قيصر [كالپورنيا Calpurnia] بنت [پيزو Piso] وظفر لأبيها بمنصب القنصل للسنة التالية. فتعالى صوت [كاتو] بالاحتجاج والسخط وقال بكثير من الحرارة.

- انه لما لايمكن التسامح فيه قط أن تُستقْحب الحكومة عن طريق الزواج، وان يدفع الفاعلون

أحدهما الآخر الى قيادات الجيوش وحكم الاقاليم وغير ذلك من المناصب الكبيرة عن طريق النساء.

ولزم [بيبولوس] زميل قيصر في القنصلية، داره يعّد ما بقى له في ايام قنصليته، بعد أن عجز عن معارضة قراراته ومراسيمه الا اذا شاء ان يقتل في الفورم. وحذا [كاتو] حذوه للسبب عينه. وبعد تمام زواج [پومپي] بادر الى ملء الفورم بالجنود. واعان الجمهور في ابرام القوانين الجديدة. وامن لقيصر حكم كل بلاد الغال أعني الجزء الواقع جنوب جبال الألب والقسم الذي يقع ما وراءها، الى جانب [ايلليريكوم]، وأمره على خمس فرق لمدة خمس سنوات. وبدر من [كاتو] بعض المحاولات لاحباط هذا الاجراءات فاعتقله [قيصر] واقتاده الى السجن بنفسه، وكان يتوقع منه أن يراجع التريبونات متظلماً. لكنه وجد [كاتو] يسير معه الى السجن طائعاً دون ان ينبس بحرف وان الاستهجان لم يقتصر على الاشراف بل تعداه الى العامّة. اذ راحوا يتبعون خطى [كاتو] صامتين مكتئبين اجلالاً لمقام السجين وأكباراً لفضائله وتمنىّ [قيصر] في تلك الساعة ان يخفّ أحد التريبونات لنزع [كاتو] من يده. ومنذ ذلك الحين لم يعد يحضر المجلس الاّ قلة من الشيوخ. واضرب عنه الباقون وقد امتلأت أنفسهم قرفاً واشمئزازاً من الوضع. وانتهز [كونسيديوس Considius] وهو شيخ عجوز في آخر العمر، فرصة يوماً ما فقال لقيصر:

- ان الشيوخ لايحضرون المجلس خوفاً من جنودك.

فسأله قيصر: ولم لا تلازم بيتك انت ايضاً؟ مدفوعاً بذات الخوف؟

فأجابه كونسيديوس: ان عمري يعصمني من الخوف. والقليل الباقي منه لا يستأهل الكثير من الحذر.

وأكبر الفضائح التي وقعت في فترة قنصليته، هي معاونته لكلوديوس في حصوله على منصب [التريبيون]، وهو عين كلوديوس الذي حاول النيل من عفة زوجه فأقتحم بيته ودنس العبادات السرية. لقد عاونه لكي يضمن سقوط [شيشرون] فلم يغادر قيصر المدينة لقيادة جيشه الاّ بعد أن نغلّب على [شيشرون] وطرده من ايطاليا.

نقف عند هذا الحدّ في تتبعنا مساعي القيصر واعماله قبل نشوب الحروب الغالية. فها هو ذا الآن يعود الى سلوك السبيل الذي اختطه لنفسه. ليبدأ الحياةً جديدة ويباشر أعمالاً جديدة. لقد برز في هذه الحروب والحملات العديدة التي اخضع بها الغاليين، جندياً وقائداً لايقلّ باي حال عن أعظم من ظهر من القادة، وأكثر من قادوا الجيوش استدراراً للإعجاب. فان نحن

قارناه بالقواد الذين انجبتهم أمر آل فابي وآل ميتيلي وآل سكيپيو. او بأولئك الذين عاصرهم أو سبقوه بقليل مثل سللاً وماريوس ولوكولوس الاول والثاني او حتى [پومپي] الذي ارتفعت به امجاده الى السماكين لما ابداه من براعة في حروبه، فسنجد ان قيصر فاقتهم جميعاً. وقد جاء تفوقه هذا من عدة جهات. منها وعورة الأرض التي كانت ميداناً لحروبه، ومنها مساحة الاراضي التي استولى عليها. وعدد العدو الذي دحره وقوته، وشراسة القبائل واساليبها الغادرة. تلك الطبيعة التي تمكن بلطفه وملكاته من التغلّب عليها واسترضائها. ومنها انسانيته ورأفته بالعدو المغلوب. ويقول آخرون ان تفوقه على القادة الذين سبقوه، انما يعود الى عطفه على جنوده وعطاياه ومكافأته لهم. والجميع يتفقون بأن تفوقه العتيد متأت من عدد المعارك التي خاضها وكثرة الاعداء الذين أهلكهم. فقد خاض حرباً متواصلة في بلاد الغال دامت عشر سنوات كوامل وفتح عنوة ما يربو عن ثمانمائة مدينة وقوض ثلاثمائه حكومة ومن الملايين الثلاثة من المقاتلين الذين قاتلهم عن مرات. اهلك مليوناً وأسر مثل هذا العدو.

كان قيصر عطوفاً رقيقاً حسن النية تجاه جنوده وكان بارعاً في اظهار طبعه هذا باسداء كل خدمة يريدونها. حتى ان الرجال العاديين يبدون تحت امرته من الاقدام والاستماتة مما لايمكن الوقوف في وجهه أو التغلّب عليه. ولاسيما عند تعنّ لهم الإخطار وتحدق بهم، وكمثل على ذلك [اچيليوس Acilius] الذي بترت يده اليمنى ضربة سيف اثناء القتال البحري قرب [مارسيليا] فلم يلق ترسه وبقي في يده اليمنى يضرب به وجوه الاعداء المهاجمين، حتى دفع بهم الى الوراء واستولى على سفينتهم، وثم [كاسيوس سكيڤا Cassius Scæva] الذي رشق بسهم فاصاب أحدى عينيه في اثناء القتال بالقرب من [داركيوم] ثم اصيبت ذراعه بطعنه رمح، ثم اصيب فخذه بطعنه أخرى ورشقت درقته بمائة وثلاثين رمحاً خفيفاً فنادى العدوّ كأنه يريد أن يستسلم. ولما تقدم منه اثنان قطع كتف احدهما بضربة من سيفه وأهوى بضربة على وجه الآخر فاجبره على الانسحاب. حتى كتبت له النجاة عندما خفّ اليه اصحابه. وفي ايطاليا وجد بعض ضباط الطليعة المتقدمة من جيشه، أنفسهم في مستنقع كثير المياه، وفيما هم يفكرون بطريقة للخروج هاجمهم العدو، فقذف جندي بسيط نفسه في وسطهم - والقيصر واقف ينظر الى المشهد. وأبدى ضروباً عجيبة من الشجاعة حتى تيسر له انقاذ الضباط وهزم البرابرة. وعصي هذه الجندي في الطين بالأخير، وبعد كثير من الجهد خرج سابحاً آناً وخائضاً آناً، ولكنه فقد ترسه. وكان قيصر وضباطه يتابعونه بانظارهم موجبين. ثم توجهوا للقائه مبتهجين. لكن الجندي الذي كان شديد الحزن لفقدانه ترسه، القى بنفسه عند قدمي قيصر طالباً المغفرة لهذه الهفوة. ومرة أخرى استولى [سكيپيو] في افريقيا على سفينة كان

فيها [خرانيوس پترو Garnius Petro] المعين حديثاً بمنصب [كويستور] فوزع [سكيپيو] ركاب السفينة على جنوده كغنائم حرب، ولكنه وجد من حسن الذوق أن يعتق الكويستور ويهبه حياته لكن هذا قال

- ليس من المعتاد أن يتقبل جنود قيصر الرحمة، بل أن يمنحوها وانتضى سيفه وسقط عليه فمات.

ونفخ في جنود روح التفوق، وتشربوا حبّه للمجد. وبتوزيعه المال والعطايا عليهم دون حساب برهن لهم انه لايكدس الثروة التي غنمها لنفسه ولا لأجل ان يمتع بها شخصه، بل أن ما كسبه هو ملك عام مخصص لمكافأة وتشجيع البسالة والاقدام وانه يعتبر زيادةً في غناه، كل المنح التي اعطاها للمستحقين منها جنوده. زد على ذلك أنه ما كان ليتردد قط في تعريض نفسه لشتّى الأخطار من غير تعلل أو احجام أو شعور بالتعب ولم يكن جنوده يستغربون منه استهانته بالخطر لأنهم كانوا على ادراك تام بمدى حبه للشهرة الاّ ان مصدر عجبهم كان همته التي لا تتناسب مطلقاً مع قابليته الجسدية وتكوينه الطبيعي فقد كان هزيلاً ابيض البشرة ناعمها. يشكو من الصرع لعلّةٍ في رأسه، قيل انها اصابته في [قرطبة] لكنه لم يتخذ من نحوله ورقة بدنه سبباً للخلود الى الراحة وترف العيش. ولكنه اتخذ من الحرب علاجاً للانحراف صحته. وكافح داءه المزمن وحصن جسمه ضد كل انتكاسة بسفرات طويلة شاقة. وطعامٍ خشن ونوم في العراء وتمارين مجهدة مستمرة. وكان عادة ينام إمّا في عربة أو فوق محمل يسيران به وهو يتعقب العدوّ. وكان ينقل على هذه الشاكلة الى القلاع والحاميات والمعسكرات ومعه خادم واحدٌ يدون ما يمليه عليه وعربته تسير به بينما كان يقف وراءه جندي بيده سيف مجرد. وكان يسوق عربته بسرعة لا تصدق. حتى انه بلغ نهر الرون في ثمانية ايام عند رحيله عن روما لأول مرة. وبرع في ركوب الخيل منذ طفولته وكان من اهون الأمور عنده أن يعلو ظهر حصانه ويداه معقودتان وراء ظهره مطلقاً لمركوبه العنان بأقصى سرعته. واتاحت له الحرب ترويض نفسه على املاء رسالة وهو على ظهر جواده، وان يصدر اوامره الى كاتبين يدونان ملاحظات عنها في الوقت نفسه. ويقول [اوپيوس Oppius] بل كان يملي اوامره على أكثر من اثنين أحياناً.

والمعتقد انه اول من استنبط وسائل الاتصال الجفرية باصحابه واعوانه، اذ كان زخم العمل او سعة المدينة لا يدعان له وقتاً للمداولة حول الأمور الملحة العاجلة. ومن الحكاية التالية يظهر كم كان قليل الاهتمام بطعامه. دعاه [ڤاليريوس ليو Valerius Leo] الى العشاء في [ميلان] وعند جلوس المدعوين. وضع امام قيصر طبق فيه هليون، صب عليه سائل حلو المذاق

بدل الزيت، فأكل منه قيصر دون ان تبدو علائم قرفٍ أو تردد وعنف اصحابه لأنهم عابوا الطعام بقوله:

- حسبكم ان لا تأكلوا ما لا تحبون أكله. لكن من يصم الآخرين بسوء التربية وقلة الذوق، يبرهن على أنه يفتقر اليهما بالأحرى.

والجأته العاصفة يوماً وهو في الطريق الى كوخٍ صغير لم يجد فيه غير غرفة واحدة لا تتسع لأكثر من شخصٍ واحدٍ فالتفت الى مرافقية وقال لهم:

- ان مواضع الشرف يجب ان تخصص لعظماء الرجال، ووسائل الراحة الضرورية يجب ان تعطى للاضعف.

وأمر أن يؤخذ [اربيوس] الى الغرفة لأنه كان مريضاً أما هو وبقية اصحابه فقد باتوا ليلتهم في العراء تحت سقيفة عند الباب.

كان اول اشتباكه في بلاد الغال مع الهلفيتيين Helvetian والتيكوريني Tigurini، هؤلاء احرقوا مدنهم الاثنتي عشرة وقراهم الاربعمائة، وتقدموا من خلال ذلك الجزء الغاليّ الذي يدخل في الاقليم الروماني، مثلما فعل الكمبري والتيوتون من قبلهم، ولم يكونوا بأقل من اسلافهم هؤلاء شجاعة، ولا عدداً فهم يبلغون ثلاثمائة الف بينهم مائة وتسعون الفاً من المقاتلين واشتبك معهم [لابينوس Labienus] ولكن تحت اشراف وتوجيه قيصر، فهزمهم قرب نهر [آرار Arar] وباغت الهلفيتون قيصر من حيث لا يتوقع وهجموا عليه وهو يقود قطعات جيشه نحو مدينة صديقة. على انه نجح في الانسحاب الى موقع منيع وبعد ان نظم صفوفه واستعرض رجاله، جيء له بجواده فقال:

- عندما أكسب المعركة، سأستخدم جوادي لمطاردة العدو أما الآن فلنتعرض للعدوّ راجلين.

وهاجمهم راجلاً وبعد معركة عنيفة طويلة الأمد، دارت الدائرة على الجيش الرئيس وطردهم من ساحة القتال. ولكن اصعب صفحة في هذه المعركة هي القتال عند موقع العجلات وأمام المتاريس فقد صمد العدوّ في القتال وشاركت النسوة والاطفال في الدفاع الى ان مُزقوا ارباً. ولم تنته المعركة الأ عند منتصف الليل. وتوجّها بعملٍ مجيد يفوق نصره فيها. فقد جمع كل البرابرة الناجين وكانوا يزيدون على مائة الف واجبرهم على العودة الى مواطنهم التي تركوها ومدنهم التي احرقوها. فعل ذلك خوفاً من ان يقدم الجرمان على احتلالها واستيطانها بعد خلوها من سكانها.

وكانت حربه الثانية حرب الدفاع عن الغاليين الذين يهددهم الجرمان. وقبلها كان قيصر قد

بذل جهده في روما على أن يعترفوا بملكهم [اريوڤستوس Ariovistus] حليفاً. إلاّ ان جيرتهم ما كانت تطاق بالنسبة الى الشعوب الخاضعة للرومان. وكان محتملاً ان ينتهزوا اول فرصة تعنّ لهم ليتحللوا من التسوية التي تمت، وليزحفوا على بلاد الغال. ووجد قيصر ضباطه يحجمون من التعرض للعدو، ولاسيما الشبان الاشراف الذين انضووا الى قيادته أملاً في اتخاذ الحرب وسيلة من وسائل الترويح والتسلية والربح المالي الماريّ، فجمعهم، نصحهم بأن يعودوا الى الوطن، وبان لايتعرضوا لمخاطر معركة لا يرغبون فيها ما داموا خائري العزيمة، مفتقرين الى مقومات الرجولة. وقال انه سيزحف على البرابرة بالفرقة التاسعة لانه لا يتوقع ان يجد في عدوّه قوة المرأس التي كانت عند الكمبري وانهم لن يجدوا فيه جنرالاً اقل حنكة من [ماريوس] فانابت الفرقة التاسعة وفداً ليقدم له الشكر والتقدير لحسن ظنه فيهم وانابت الفرق الأخرى باللوم والتقريع على ضباطها. وتبعه الجيش كله بحماسة في سيرة امتدت عدة ايام حتى عسكر على بعد مائتي فرلنگ من العدوّ. وخان [اريوڤستوس] بعض شجاعته عند اقتراب العدوّ. اذ لم يكن يتوقع من الرومان مهاجمة الجرمان. ولم يكن يفكر بأنهم سمينبرون للدفاع عن رعاياهم على ابعد الاحتمالات. ولذلك زادت دهشته من تصرف [قيصر] وسادت جيشه حالة من الرعب زاد منها نبوءات عرافاتهم اللاتي كنّ يصدرن نبوءاتهن بعد مراقبة تيارات النهر واستقراء الاشارات من اصوات الغدران ومنعطفاتها. فقد انذرتهم بالا يشتبكوا في قتال مع العدوّ قبل ظهور الهلال الجديد. وكان [قيصر] قد علم بذلك، ورأى الجرمان قاعدين لا يأتون بحركة تنمّ عن نية قتال ففكر بان الظرف مناسب له وهم تحت تأثير تلك المخاوف والمحاذير. ووجد من خطل الرأي ان يظل هو قابعاً في معسكره ينتظر ساعة هجومهم فتقدم من تحكيماتهم ومرتفعاتهم المنيعة حيث عسكروا، فاثارهم عمله واستفزهم ولم يتمالكوا أنفسهم فانحدروا اليه بعنفٍ وضراوة. فهزمهم ونال نصراً كاملاً وانشأ يطاردهم الى مسافة اربعمائة فرلنگ حتى بلغ ضفاف [الراين] وكان الطريق كله مفروشاً بالغنائم وجثث القتلى. ولقى [اريوڤستوس] الأمرين في عبوره النهر بفلول صغيرة من جيشه. وقيل ان قتلاه بلغوا ثمانين ألفاً.

بعد هذه المعركة ترك قيصر، جيشه في مقراته الشتوية ببلاد [سيكواني Sequani] وقصد الجزء الواقع على نهر [بو] من بلاد الغال، ويقع ضمن حدود حكمه، لأن نهر [روبيكون] يفصل بلاد الغال التي هي في الجهة الجنوبية، عن باقي ابطاليا، وكان سبب قدومه، الاشراف من موضعه على شؤون معينة في روما، فأستقر هناك وعمل على كسب ودّ الناس وكانت جماعات كثيرة تتقاطر اليه باستمرار، فيقضي حاجاتهم ولا يرد منهم سائل. ولم يُصرف واحدٌ

من حضرته الاّ وعهدُ بالعون في اليد، وأمل بأكثر منه في الغد. ولم يتبين [پومپي] خلال فترة حروب قيصر الغاليّة، كيف يستخدم هذا سلاح روما لتحقيق انتصاراته من جهة. وكيف يعمل على خطب ودّ الرومان ويضمن ولاءهم له، بالثروة التي يغنمها من تلك الانتصارات.

ولم يطل المقام بقيصر فقد وردت الانباء تقول ان [البلجي] وهم أقوى المغاليين سكنة الجزء الثالث من البلاد - قد شقوا عصا الطاعة وأعلنوا الثورة وحشدوا الآلاف المؤلفة من المقاتلين - فأنطلق نحوهم بجيش لجب وأطبق عليهم وهزم أكبر وحداتهم وأكثرها تراصاً. كان عددهم كبيراً الاّ ان اسلوب دفاعهم اتسم بالضعف وقد سهل على مشاة الرومان عبور المستنقعات والانهار العميقة اكداسُ الجثث التي تركها العدو وممن ثار عليه، من جميع القبائل التي تسكن ساحل الاطلنطي، لكنها استسلمت دون قتال فساق جيشه نحو [النرڤي Nervii] اشرس واشدّ القبائل عتواً في تلك الانحاء. وبلادهم تغطيها الغابات تماماً، فوضعوا اولادهم ومقتناهم في احشاء تلك الغابات بعيداً عن متناول العدوّ، وباغتوا [قيصر] بستين الفاً وهو غير مستعد لهم اثناء ما كان يضرب خيامه فهزموا خيالته وطوقوا فرقتيه السابعة والثامنة عشرة وقتلوا جميع ضباطهما ولو لم يختطف قيصر ترساً ويشق لنفسه طريقاً بين رجاله انفسهم للوصول الى البرابرة، ولولا انحدار الفرقة العاشرة من رؤوس التلال عند ادراكها الخطر فتخترق صفوف العدو لانقاذه، لما سلم ذلك اليوم روماني واحدُ الاّ ان المثل الذي ضربه لهم قيصر من جرأته خاضوا المعركة بما يفوق الطاقة البشرية من الشجاعة - على حدّ ما مأثور القول لكنهم لم يستطيعوا رغم هذا زحزحة العدوّ من ميدان المعركة، بل اعملوا فيهم تقتيلاً وتمزيقاً وأولئك يقاتلون فتاع دفاع. وذكر انه لم يبق من الستين الفاً الذين دخلوا المعركة غير خمسمائة ومن اربعمائة من شيوخهم، غير ثلاثة.

عندما أبلغ مجلس الشيوخ الروماني بهذه الانتصارات اقترعوا على ان تقام الاعياد العامة لمدة خمسة عشر يوماً مستمرة وان تنحر خلالها القرابين مع التشديد على تطبيق ذلك بدقة، وكانت فترة عيْد رسمي لم يتح اطول منها لأي نصر روماني سابق. لقد كان ثم شعور عظيم بالخطر الذي يهدد روما جراء عصيان وثورة هذا العدد الكبير من الشعوب والأمم دفعةً واحدة. وأعطى تعلق الجمهور بقيصر، هذا النصر رونقاً وجمالاً آخر بسبب النجاح الذي حققه.

وعاد الى مشتاه على نهر [پو] بعد توطيد الأمن وتثبيت الوضع في بلاد الغال وقضى الفصل كله يتابع الاحداث في روما وهو في مكمنه. وطلب جميع المرشحين للمناصب العامة معاونته فمدهم بالمال لتخريب الذمم وشراء الاصوات. وبعد فوزهم ليكونوا ادوات طيعة له يفعلون ما يشاء لهم لأجل زيادة نفوذه. والانكى من هذا كله أن ابرز وأقوى الشخصيات في

روما راحت تنقاد له وترحل اليه زائرة في [اليوكا Lueca] وعلى رأسهم [پومپي] و[كراسوس] و[اپيوس]، وحاكم سردينيا، ونيپوس Nepus پروقنصل اسپانيا. ووجد في وقت واحدٍ ومحل واحدٍ مائة وعشرون ليكتوراً، وأكثر من مائتي شيخ. وبنتيجة المداولة التي جرت في مقره، رسم أن يتولى [پومپي] و[كراسوس] منصب القنصل للمرة الثانية للسنة القادمة وان يصرف لقيصر مبلغ آخر من المال، وان تجدد قيادته خمس سنوات آخر. ولا يسع اي عاقل أن يقرّبانه من السفاهة والاسراف العظيم أن يقدم اولئك الذين منحهم قيصر الاموال الطائلة - على اقناع مجلس الشيوخ بمنحه مالاً أكثر هو غني عنه. وفي الواقع أن الموافقة على ذلك تمت جبراً عنهم وبعد احتجاج وتذمرٍ، لا بالاقناع ولم يكن [كاتو] هناك. فقد ازاحوه في الوقت المناسب بارساله الى قبرص. إلاّ ان [فافونيوس Favonius] المقلّد المتحمس [لكاتو] ترك المجلس بعد ان يئس من جرّ المجلس الى معارضة القرار، وخرج يخطب في الناس بأعلى صوته منددأ بتلك الاجراءات الشاذة، فلم يصغ اليه احد. بعضهم ازدراه احتراماً [لكراسوس] و[پومپي] والاغلبية استخفت به ارضاء لقيصر الذي كان معقد آمالهم.

بعد ذلك عاد [قيصر] الى قواته المعسكرة في بلاد الغال. فوجد الحرب قائمة. إذ عبر مؤخراً شعبان من الشعوب الجرمانية نهر الراين. احدهما يعرف بـ[اوسيپس Usipes] والآخر [تنتريتاي Tenteritæ] وذكر [قيصر] في تعليقاته عن حربه مع هؤلاء. فقال ان البرابرة ارسلوا سفراء لعقد معاهدة معه ولكنهم هاجموا جيشه والمفاوضات قائمة وتغلب ثمانمائة منهم على خمسة آلاف من خيالته فهزموهم، ثم عادوا يرسلون وفداً ثانياً يريدون تكرار الخدعة فقبض قيصر على مندوبيهم وسجنهم وساق جيشه عليهم. فقد وجد من السذاجة أن يركن الى عهد يقطعه هؤلاء بعد نقضهم المعاهدة الأولى - الاّ ان [تانوسيوس Tanusius] يقول: عندما أعلن مجلس الشيوخ اعياد النصر وامر بنحر الذبائح. صرح [كاتو] بأنه يرى وجوب تسليم قيصر الى البرابرة وبذلك يكفرّ عن جريمة نقض العهد التي تقع على عاتق الدولة بنقلها الى المسبب المسؤول. وكان من مجموع الذين عبروا الراين اربعمائة ألف تم القضاء عليهم الاّ فلولا قليلة نجت ولاذت بحمى [السوگمبري Sugambri] وهو شعب جرماني. واخضع قيصر هذا الاقليم ليبدأ منه غزو الجرمان طامعاً في الوقت نفسه بأن يكون اول قائد روماني يعبر الراين على رأس جيشه. فقام بانشاء جسرٍ فوقه رغم كونه عريضاً جداً، وتياره في البقعة التي اختارها كان عنيفاً دفاقاً تنحدر مياهه حاملة جذوع الاشجار وغيرها من الاخشاب فتصطدم بأسس الجسر وتهزه هزاً. فما كان منه الاّ ودقّ دعامات خشبية ضخمة في اعماق النهر قبل الجسر بمسافة لايقاف وحبس هذه الكتل الطافية المنحدرة مع التيار وبهذه الوسيلة ألجم المجرى

وأكمل الجسر، كذلك الذي لا يصدق من رآه انه مجهود عشرة ايام لا غير. ومرّ الجيش فوقه بدون عائق. ففر [السيوڤي Suevi] من امامه وهم أشدّ المقاتلين الجرمان تهوراً واقداماً - حاملين معهم كل مقتناهم ولاذوا باكثف الوديان شجراً. فأحرق بلادهم وساعد الموالين للحكم الروماني ثم قفل راجعاً الى بلاد الغال. ولم يمكث في جرمانيا غير ثمانية عشر يوماً.

على ان غزوة بريطانيا كان اعظم دليل على شجاعته. وبذلك يكون اول من انزل اسطولاً في المحيط الغربي واول من مخر عباب الاطلنطي بجيش. لقد غزا جزيرة جعلتها المعلومات القليلة عنها امر وجودها موضع اخذ وردّ بين المؤرخين. وكان الكثيرون يتساءلون اهي مجرد اسم وخيال ام هي حقيقة. ويمكن القول أنه وسع رقعه الامبراطورية وجعلها تمتد الى ما وراء حدود العالم المعروف. لقد عبر اليها مرتين. واتخذ لصوره الساحل المقابل لها من بلاد الغال. وفي المعارك العديدة التي خاضها مع أهل الجزيرة، كانت الخسارة التي انزلها أكثر من الخدمة التي اسداها لنفسه، فسكان الجزيرة في حال يرثى لها من الفقر. ولا يملكون ما يصلح للسلب والغنيمة. وهكذا وجد نفسه عاجزاً عن وضع خاتمة لهذه الحرب تتفق واهدافه. أكتفى باخذ رهائن من ملكها وفرض جزية عليه وغادر الجزيرة. ووجد عند وصوله بلاد الغال كانت تنتظره رسائل عديدة من أصحابه معدة لارسالها اليه عبر البحر. وعلم منها بوفاة ابنته وهي تضع مولودها من [پومپي]. فكان حزنه وحزن پومپي عليها بالغاً ولم يكن اشياعهما باقل حزناً واضطراباً فقد شعروا ان في موتها القضاء على حلفٍ أبقى الامبراطورية الرومانية العليلة حتى تلك الساعة في حالة من السلام والهدوء.

وحمل الجمهور نعش [يوليا] رغم معارضة التريبونات. الى حقل مارس. وهناك اقيمت مراسيم التشييع وفي ارضه دفنت.

تضخم جيش [قيصر] الى درجة كبيرة. حتى اضطر الى توزيعه على عدة معسكرات ومقرات شتوية. سافر هو الى ايطاليا كعادته. وفي اثناء غيابه اجتاحت بلاد الغال ثورة عامة، وزحفت من سائر الارجاء جيوش كثيرة على المقرات الرومانية وحاولت الاستيلاء على القلاع التي اعتصموا فيها، وتمكنت اقوى وأكبر مجموعة من المغيرين بقيادة [ابريوريكس Abriorix] من القضاء على [كوتا Cotta] و[تيتوريوس Titorius] مع كل رجالهما وحاصرت قوات من المحاربين الاشداء، تناهز ستين الفاً. الفرقة التي يقودها [شيشرو] وكادوا يقتحمون معسكرها عنوة، ولم يبق جندي روماني فيها الأ وهو جريح منهوك القوى الى حد العجز. لقد ظلوا يدافعون عنها دفاع المستميت وكان [قيصر] بعيداً عنهم بمسافة طويلة، على انه أسرع بجمع سبعة الآف جندي وخف لنجدة المحصورين وعلم الاعداء بقدومه، فخففوا

لاعتراض سبيله وهم على ثقة من سهولة قهر هذه الحفنة من الرجال واراد قيصر أن يضاعف ثقتهم هذه فأوهمهم بأنه يتحاشى القتال وهو في الوقت نفسه يواصل سيره، حتى وجد موضعاً يصلح لاشتباك قليل من الرجال مع العديد منهم فضرب معسكره فيه واصدر امراً قاطعاً لجنوده بعدم التعرض للعدو. وامرهم باقامة متاريس أعلى من المعتاد. وتقوية الابواب. وتلك مظاهر ضعف قصدوا بها استهانة العدد بهم. ولحق بهم العدو وهو على أتم الاطمئنان وبدون نظام فباشروا هجومهم فخرج اليهم [قيصر] وهزمهم بعد ان الحق بهم خسارة جسيمة. واطفأت هذه المعركة معظم الثورة في تلك الاقسام من بلاد الغال. وقام [قيصر] خلال فصل الشتاء بزيارة كلّ جزءٍ من البلاد، متخذاً الاحتياطات لاحباط المكائد بكثير من الحزم واليقظة. ووردته ثلاث فرق لتسد مسدّ ما فقده اثنتان منها زوده بها [پومپي] من الجيش الذي يقوده، والثالثة تم تشكيلها في بلاد الغال التي تقع على [الپو]. ولكن ما مرّ حين من الوقت الأ واخرجت بذور الحرب شطئها - تلك البذور التي زرعت خفية منذ زمن طويل فأنتشرت على يد أقوى واشجع رجال تلك الشعوب المحاربة، واسفرت عن نفسها فاذابها اخطر واعظم ما شاهدته تلك الاصقاع من حروب سواء بعدد الرجال الذين شاركوا منها وكلهم في شرخ الشباب وباحسن العدة والسلاح والمال الذي جمع لضمان مواصلة الحرب أو بمناعة المدن، او بوعورة البلاد التي جرت المعارك على ادعها. كان الوقت شتاء والانهار متجمدة، والغابات مغطاة بالثلوج والماء يسيح فوق الأراضي المنخفضة ويخفى معالم الطرق في بعض المواقع تحت طبقة كثيفة من الثلج وفي مواقع أخرى جعلت المستنقعات الفارقة بالماء والمجاري العديدة، كل سبيل ضائعاً أو غير واضح. بدا [قيصر] امام كل هذه العقبات حائراً، فمن المتعذر وغير العملي ان يحاول الانقضاض على العصاة في مثل هذه الظروف. لقد ثارت عدة قبائل بصورة جماعية بزعامة قبيلتي [ارڤرني Arverni وكارنوتيني Carnutini] وكان القائد الأعلى لهذا الاتحاد [ڤرجنتوريكس Vergentorix] الذي قتل الغاليون اباه لشكهم في انه كان يطمح الى السلطة المطلقة.

قسم هذا القائد الغاليّ جيشه الى عدة وحدات ونصب عليها القواد والآمرين واجتذب الى صفه كل ما جاوره من البلدان الى الاقاليم التي تتاخم نهر [آرار] وكانت قد بلغته انباء المعارضة التي يلقاها [قيصر] في روما فرأى ان يزجّ كل بلاد الغال في هذه الحرب. ولو تأخر في تنفيذ خطته هذه قليلاً وباشرها عند انشغال [قيصر] بالحرب الاهليّة لكانت ايطاليا ستتعرض الى عين الخطر الذي جاءها من غارة الكمبري الكاسحة. لكن قيصر الذي فاق الرجال جميعاً بموهبته حسن استخدام كل ما يمت الى الحرب بصلة ولاسيما اختياره وقت

المعركة المناسب. فقفل عائداً من حيث أتى حال علمه بنبأ الثورة. فبرهن للبرابرة أن جيشاً يتقدم نحوهم في هذا الفصل القاسي ويمثل هذه السرعة، هو جيش لا يقهر. لم يكونوا ليتوقعوا ان يصل اليهم ساعٍ او عداء برسالة منه، وها هوذا الآن بلحمه ودمه مع كامل جيشه يدوخ بلادهم ويدمّر قلاعهم ويخضع مدنهم ويبسط حمايته على الموالين له. وانداحت الثورة حتى شملت [الايدوي Edui] الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حتى ساعة الثورة اخواناً للرومان فانضموا الى العصاة، مما اضرّ كثيراً بمعنويات جنوده. فتحرك نحوهم واجتاز بلاد [ليگونيس Ligones] قاصداً الوصول الى حدود [سيكواني] حلفائه الذين كانوا اشبه بحصن أو سدّ يحمي ايطاليا من قبائل الغال الأخرى. وهنا أطبق عليه العدو وطوقه بالالوف المؤلفة. ولم يكن هو الآخر بالراغب عن القتال. وبعد معركة طاحنة ووقوع كثير من القتلى فاز بالنصر الكامل. وان اصيب في بدء المعركة ببعض النكسات على ما يبدو. ويريك [الأروڤيني Aruvi-ni] سيفاً قصيراً معلقاً في الهيكل، يزعمون أنه أُخذ من قيصر. وقد رآه قيصر فيما بعد فأبتسم وعندما أشار اصحابه عليه برفعه لم يقبل فقد اعتبره مكرساً للآلهة.

بعد هذه الهزيمة هرب عدد كبير من البرابرة مع ملكهم الى مدينة تسمّى [أليسيا Alesia] فألقى قيصر عليها الحصار وكان ارتفاع اسوارها وعدد الرجال المدافعين عنها كبيراً حتى بدا وكأن اقتحامها متعذر. ثم جوبه خارج اسوارها بخطر لم يتصوره. فقد جمع الغاليون من كل قبيلة نخبة من رجالها زودهم بأحسن السلاح وتقدموا لرفع الحصار عن المدينة وكان عددهم ثلاثمائة الف والمدافعون داخل المدينة لا يقلون عن مائة وسبعين ألفاً. وهكذا وجد [قيصر] نفسه محصوراً بين الجيشين فاضطر الى حماية نفسه بجدارين اقامها بمواجهة المدينة وبمواجهة الجيش المنقذ، مدركاً ان اتحاد القوتين معناه دماره التام. ان الخطر الذي احدق فيه امام [آليسيا] رفع من صيته، وشهرته من وجوه عدة واتاح له فرصة ضرب امثلة عملية لبسالته وبراعته القيادية. فرصة لم تتحها له أية حرب أخرى. ان المرء ليعجب حقاً كيف اشتبك وتغلب على هذه الألوف العديدة من الرجال خارج المدينة دون أن ينتبه له المدافعون عنها، بل والانكى من هذا أن الرومان الذين كانوا يحرسون جدارهم المقابل للمدينة ظلّوا يجهلون ما حصل ولم يدروا بالنصر الذي احرزوه حتى سمعوا صيحات الرجال وولولة النساء في المدينة، وفي تلك اللحظة بدأوا يرون اخوانهم من بعيد وهم يعودون الى معسكرهم محملين باكداس من التروس المكفتة بالذهب والفضة، ومثلها من الدروع الملطخة بالدماء فضلاً عن الكؤوس والخيام المصنوعة على الطرز الغالي. بهذه السرعة المذهلة انحلّ هذا الجيش العرموم وتلاشى مثل حلم أو خيال. وقتل معظم رجاله في ميدان القتال امّا المدافعون عن [اليسيا] فلم يروا

بدأ من الاستسلام لقيصر بعد معاناتهم الأمرين. ولبس [ڤرچنتوريكي] اللولب المحرك لكل هذه الحروب خير ما لديه من دروع وتقلد أحسن السلاح وزين حصانه وخرج من باب المدينة متجهاً نحو قيصر. وكان هذا جالساً فترجل بالقرب منه ونزع درعه واقتعد الأرض عند قدميه صامتاً حتى اقتيد واحتفظ به الموكب النصر.

كان [قيصر] قد قرر منذ أمد بعيد اسقاط [پومپي] كما كان [پومپي] قد أعتزم ان يفعل المثل بقيصر. ذلك لأن الخوف من [كراسوس] الذي كان عامل الصفاء والتهادن فيما بينهما لم يعد له وجود بعد ان قتل هذا في بلاد الپارثيين.

فلم يكن لمن يريد ان يجعل نفسه سيد روما بلا منازع - إلاّ ان يتغلب على منافسه فحسب. وكانت الضمانة الوحيدة لبقاء الواحد هو ان يسبق الآخر في ازاحة ذلك الذي يخشاه، ولم يكن [پومپي] يشعر بتلك المخاوف اذ ظلّ حتى الزمن القريب يستهين بقيصر ويستصغره لاعتقاده أنه قادر على التطويح به بالسهولة التي رفعه. إلاّ ان [قيصر] الذي لم يحد عن خطته الاولى ضد منافسه، انسحب الى خلوه كالمصارع الحاذق، ليعد نفسه للنزال جاعلاً الحروب الغالية ميدان تمرينه. فحقق التقدم المنشود في قابلياته العسكرية كما ضاعف مجده باعماله العظيمة حتى عد صنو [پومپي] عند المقارنة ولم تعنّ له فرصة الاّ انتهزها، سواء اتلك التي يتيحها له [پومپي] أو التي تتحفه بها احداث الزمان. أو فساد الحكم في روما، فقد بلغت الحالة حداً صرت معه تجد كل المرشحين لمناصب الدولة بدون استثناء ينفقون الاموال الطائلة لرشوة الناس علانية وبدون حياء. فيأخذ الناخبون ما قسم لهم. ولا يكتفون باسناد راشيهم عن طريق اعطائه اصواتهم بل يدعمونه باقواسهم وسيوفهم ومقاليعهم اذا اقتضى الأمر. وهكذا فبعد أن لطخوا ميادين الاقتراع عدة مرات بدماء الناخبين. تركوا المدينة دون حكومة، لتهتز كسفينة دون ملاح يقبض على سكانها ويديره ومن كان يملك شيئاً من العقل تراه شاكراً حامداً لو أنتهى عهد الفوضى الجاهلية العاصف بما لا اسوء من الحكم الملكي المطلق. وبلغت الجرأة ببعضهم على التصريح بأن العلاج الناجع للحكم هو النظام الملكي. وان عليهم ان يتقبلوا هذا العلاج من يد ارق وارحم الاطباء يقصدون [پومپي]، الذي تظاهر بالرفض لكنه بذل في الواقع اقصى الجهود حتى ينصب دكتاتوراً. وادرك [كاتو] ما يجول في رأسه فأقنع مجلس الشيوخ باعلانه قنصلاً أوحد، فلعلّ عرض نوع من الملكية المقيدة بالقانون يصرف نظره عن اطلاب الدكتاتورية. وزادوا على ذلك فصوتوا على استمراره في حكم اقليميه اسپانيا وافريقيا، فحكمهما عنه نواب له. واقترعوا ايضاً على الاستمرار في الانفاق على جيوشه من الخزينة العامة وخصصوا له ألف تالنت سنوياً.

فما كان من [قيصر] الأ وطلب من مجلس الشيوخ منصب القنصلية مع تمديد حاكميته على الاقاليم الغاليّة ولم يتدخل [پومپي] في الطلب باديء ذي بدء. إلاّ ان [مارجللوس] و[لنتولوس] عارضاً في الطلب وكان من أشد مبغضي [قيصر] لا يتورعان عن اللائق وغير اللائق اذا كان في ذلك اهانته وتحقيره فقد ألغيا امتياز المواطنة الرومانية الممنوح لأهالي [كوميوم الجديدة Comun] وهي مستوطنة اسسها قيصر في بلاد الغال وأمر [مارجللوس] الذي كان وقتئذ بمنصب القنصل أن يحضروا أحد شيوخ تلك المستوطنة اثناء وجوده في روما فجُلد. وقال له انه أحدث فيه العلامة كدليل على انه ليس مواطناً رومانياً. وأشار عليه ان يكشف عن آثار الجلد لقيصر عند عودته.

وبعد انتهاء مدة قنصلية [مارجللوس] بدأ قيصر يمطر هداياه على كل ذوي الوظائف العامة، من الغنائم الحربية. وانقذ [كيوريو] التريبيون من ديونه الكثيرة واعطى [پاولوس] الذي كان قنصلاً ألفاً وخمسمائة تالنت فبنى بها دار القضاء الفخمة الملاصقة للفورم، وحلت محلّ الصرح المشهور باسم [فولڤيان Fulvian] فادرك القلق پومپي من هذه التمهيدات وبادر الى اتخاذ الخطوات الضرورية بصورة مكشوفة، بنفسه أو عن طريق اصحابه، لاختيار خلفٍ لقيصر وارسل يطلب منه اعادة الجنود الذي استعارهم منه لمواصلة الحرب في بلاد الغال. فلبى [قيصر] طلبه ومنح كل جندي هبة قدرها مائتان وخمسون درهماً. ولم يكن ما اشاعه الضابط الذي اعاد بالجنود الى [پومپي] بالمنصف أو الجميل، وأخذ يتزلف الى [پومپي] باختراع الاكاذيب كقوله ان جيش [قيصر] يكن له الحب والتقدير وهو طوع بنانه، وان كانت اموره في روما ليست على ما يرام بفعل بعض الحسّاد وحالة الحكومة التاعسة، فحسب الجنود ان يصلوا الى ايطاليا - انهم سيعلنون ولاءهم له في الحال ان قيصر ارهقهم بحملاته المتعددة فأصبح وضعهم لا يطاق كما انهم يتوجسون خيفة من طموح قيصر الى حَدّ تهيئة نفسه للعرش الملكي.

فأختال [پومپي] بنفسه زهواً وترك جانباً استعداداته العسكرية اطمئناناً منه الى هذه الانباء المكذوبة، وبدأ وكأنه لا يحسّ ولا يخشى خطراً. واقتصر في محاربته على الخطب واصوات الناخبين وهو ما لم يكن يهتم به [قيصراً]. واثر عن ضابط له ارسله الى روما . انه وقف امام مجلس الشيوخ يوماً. وعندما ذكروا امامه ان الشيوخ لن يمددوا حكم قيصر. ضرب غمد سيفه بيده وقال:

- هذا سيمددّه.

على ان المطاليب التي عرضها قيصر كانت معقولة، تنوح منها رائحة الاعتدال واللطف فقد

اقترح أن يضع سلاحه جانباً وان يحذو [پومپي]حذوه فيعودا مواطنين عاديين ويرجع كلاهما الشعب لأصدار حكمه فيهما وقال انه أولئك الذين اقترحوا ان ينزعوا سلاحه وان يثبتوا [پومپي] في سلطاته التي يتقلدها الآن، انما يثبتون شخصاً واحداً في سلطة لا حدود لها، تلك السلطة التي اتهموا الشخص الآخر بأنه يريدها لنفسه.

وعندما وضع [كيوريو] باسم قيصر هذه المقترحات امام الشعب ارتفع له الهتاف عالياً ورمى بعضهم قلائد الزهر اليه وشيعوه متوجاً بالزهر كما يشيعون المصارعين الفائزين وابرز [انطوني] وكان آنذاك تريبونا رسالة من قيصر بهذا المآل وتلاها وعارضها القنصلان بشدّة. إلاّ ان [سكيپيو] حمو [پومپي] أقترح على الشيوخ ما يلي:

«ان لم يضع قيصر سلاحه في غضون فترة زمنية محددة، فانه يعتبر عدواً لروما»

ووضع القنصلان الاقتراحين التاليين في المناقشة:

«هل يسرّح [پومپي] جنوده؟» ثم «هل يسرح [قيصر] جنوده؟»

لم توافق على المقترح الأول غير قلة فسقط. ولكن حصل شبه اجماع على المقترح الثاني. على ان [انطوني] قابل ذلك باقتراح آخر وهو: «ان يتخلى كلاهما عن منصبيهما». فوافق الجميع عليه الاّ فئة قليلة.

وبدا [سكيپيو] عنيفاً للغاية. بينما تعالى صوت القنصل [لنتولوس] يقول:

- انكم لستم بحاجة الى الاقتراع حول لص، وانما بحاجة الى سلاح.

ونأجل الاجتماع في ذلك اليوم. وظهر الشيوخ في ثياب حداد اشارة الى ما يشعرون به من حزن بسبب تفرق كلمتهم.

ووردت رسائل أخرى من [قيصر] أكثر اعتدالاً وتنازلاً. اقترح فيها ان يستعفي من كل منصب ويحتفظ ببلاد الغال التي هي داخل جبال الألب، مع [ايلليريكوم] وفرقتين عسكريتين الى أن يحين موعد الانتخابات القنصلية فعندئذ يرشح نفسه. وحاول شيشرون جهده (وكان قد عاد من صقلية) اصلاح ذات البين والإنة قناة [پومپي] وكان هذا يميل الى الموافقة على مقترحات [قيصر] خلا طلبه قيادة فرقتين. أخيراً استخدم [شيشرون] وسائل اقناعه مع اصحاب قيصر، ليقبل بحكم الاقليمين مع الاحتفاظ بستة آلاف جندي فقط، لكي تتم تسوية النزاع، ومال [پومپي] الى الموافقة الاّ ان [لنتولوس] القنصل رفض الاصغاء الى هذه التسوية وطرد [انطوني] و[كيوريو] من القاعة مشيعين بالاهانات. فزود [قيصر] بالذرائع

الكافية والمقبولة ليطلع على جنوده فوراً فيثيرهم ويهيج مشاعرهم. فهاهما شخصان حسنا السمعه سمعة وصاحباً نفوذٍ اضطراً الى الهروب بعربة اجرة وثياب العبيد تنكراً بها حتى خرجا من روما.

لم يكن في حوزة قيصر آنذاك، غير ثلاثمائة من الخيالة وخمسة آلاف من المشاة. لأن القسم الاكبر من جيشه قد تخلف وراء شمال الألب. وكان من المقرر أن يأتي به ضباط تلقوا منه تعليمات خاصّة بهذا الشأن. وقد وجد ان الخطوة العملية الاولى التي سيخطوها نحو هدفه المرسوم لا تتطلب منه قوات كثيره. وان ما يحتاجه هو المفاجأة لتصيب جرأته اعداء ه بالذهول. وانه من الافضل له بث الذعر في نفوسهم باقدامه على عملٍ لا يتوقعونه، لا محاولة التغلب عليهم بشكل اعتيادي، فان الاستعداد لذلك سيوقظهم من سباتهم. فأمر قواده وضباطه سباتهم. فأمر قواده وضباطه أن يتوجهوا الى [ارمنيوم Arminum] بسيوفهم فقط وبلا سلاح آخر. وان يحتلوها بأقل ما يمكن من الضجة وسفك الدماء. وارمنيوم، مدينة (غالية) كبيرة. اناب [هورتنيوس Hortenius] عنه في هذه العملية وقضى يومه مختلطاً مع الناس متسكعاً أو متفرجاً على المصارعين وهم يقومون بتمارينهم. وقبل ان يجن الليل بقليل أختلى بنفسه وبعدها عاد الى المجلس في القاعة وتحدث مع مدعويه للعشاء، وعندما انتشر الظلام ترك المائدة معتذراً من المدعويين. وطلب منهم ان يبقوا حتى يعود (كان قبل قيامه قد نبه قلةً من اصحابه بان يتبعوه متسللين واحداً بعد الآخر وان يسلكوا طرقاً مختلفة وركب هو عربة أجرة مضت به في الطريقِ سافةً، وبعدها الوى عنان جيادها الى ارمنيوم. وبوصوله الى نهر (روبيكون) الذي يفصل جزئي بلاد الغال الألپية عن الايطاليا. توقف وراحت به الهواجس والافكار شتى المذاهب. ها هو الآن يركب الخطر الفعلي ويبدأ طريقاً لايمكن النكوص عنه. وزاد اضطرابه وهو يفكر في عواقب المغامرة التي سيقدم عليها وفي نتائجها الخطرة. تثبت من الطريق ثم تريث وأخذت الآراء المختلفة تصطرع في نفسه. مرة يقرر كذا، ومرة يقرر كذا، دون ان ينطق لسانه بكلمة. كان يصاب بالجورد عندما تصل به الحيرة وتقلّب الغايات حدهما الاقصى. ثم طفق يبحث الامر مع اصدقائه، ومنهم [اسنيوس پوليو Asinius Pollio] وتساءل كم سيجر عبوره النهر من مصائب على البشر. واي آثارٍ ونتائج له سيتحملها الاجيال القادمة؟

أخيراً نفض عن رأسه هذه الأفكار، وهو منفعل، واستسلم للقدر مستخدماً المثل الذي تجده متحيراً على شفتي أولئك الذين يستعدون لقذف أنفسهم في مغامرة خطيرة جريئة: «لقد القي الزّهر».

وبهذه العبارة توجه الى النهر وعبره وأسرع الى [ارمنيوم] فبلغها قبل ان يطلع النهار ودخلها. وقيل انه حلم في الليلة السابقة لدخولها، حلماً دنساً، فقد رأى نفسه وهو يواقع امّه.

بعد استيلائه على [ارمنيوم] فتحت الابواب على آخر مصاريعها كما يقول المثل - لاستقبال الحرب في كل بقعة وزاوية من الارض والماء. وديست حدود الاقاليم مثلما ديست حدود القوانين والشرائع وما كان لأحد أن يتصور فرار الرجال والنساء في ايطاليا من مدينة الى أخرى مذعورين كما حدث في الأزمان الغابرة، وتسود الفوضى التامة البلاد حتى لكأن المدينة تترك موقعها لتلوذ بالمدينة الأخرى. وتدفقت سيول اللاجئين على روما فأصبحت تموج بهم. وعجز القضاء والحكام عن القيام بواجباتهم وتمشية امور الدولة ولم تفد بلاغة أفصح الخطباء في تهدئة الحال. كانت المدينة اشبه بحطام سفينة بائسة الحظّ، حطمها عنف العاصفة. وثارت الخواطر في الناس وتضاربت الآراء وانكشفت خفايا الضمائر عن النزوات المتطرفة. فلم يعد التائقون الى اي محاولة تغيير يخفون مشاعرهم ان هم تلاقوا في هذه المدينة الكبيرة، بافراد الحزب المناوي القلق الحزين فيثيرون الجدال والشحناء بالافصاح عن ثقتهم التامة بنتائج الاحداث الجارية. وزاد [بومبي] اضطراباً على اضطرابٍ وقلقاً على قلق من الحاح الآخرين وثرثرتهم. بعضهم يقول له انه يستأهل كل ما يعانيه الآن، لأنه سلح قيصر ضد الحكومة وضدّ نفسه وآخرون يلومونه لأنه تغاضى عن لنتولوس عند اهانته [قيصر] بعد أن عرض هذا التنازلات الكثيرة وتقدم بالمقترحات المعتدلة لحسم النزاع وانهاء الخلاف. وطلب منه [فاڤونيوس] ان يدق الأرض بقدمه! (مذكراً اياه بزهوه في مجلس الشيوخ، حين طلب فهم أن لا يشغلوا بالهم بالاستعداد للحرب لانه قادر بخبطة واحدة من قدمه، ان يملأ ايطاليا كلها بالجنود). والواقع ان [بومبي] كان انذاك يملك من الجنود ما يزيد عن قوات [قيصر] الاّ أن التقارير الكاذبة والانذارات المبالغ فيها حالت بينه وبين عمل ما يريد، فقد انبيء بان العدو سيداهمه وشيكاً بعد ان سحق كل مقاومة اعترضته، فوهى عزمه وترك نفسه تنساق وراء الصيحة العامة واصدر بياناً أعلن فيه ان المدينة في حالة فوضى شاملة. ثم غادرها بعد أن امر الشيوخ بتركها واللحاق به. وبان لايبقى أحدٌ ممن لا يفضل الاستبداد على الوطن والحرية.

وفرّ القنصلان بسرعة، من غير أن يقدما القرابين المعتادة في مثل هذه الظروف، واقتفى اثرهما معظم الشيوخ، حملوا معهم اموالهم ومقتناهم وخفوا مسرعين الى ترك المدينة، مثل سارق جاره. وجرّ التيارُ العام عدداً من مساندي قيصر، فنبذوا جانباً مشاعرهم الخاصّة وسط الذعر الشامل وهربوا مع الهاربين. انه لمما يثير الحزن ان ترى تلك المدينة وقد عمتها الفوضى وسادها الاضطراب مثل السفينة التي اسقط في يد صخرة ملاحيها فتركوها تسير على هواها

لتصطدم كما شاء لها القدر باية صخرة تعرضها. مع هذا كلّه ورغم الحالة المؤلمة كنت ترى الناس الهاربين لايفرقون بين مسقط رأسهم المتروك ومنفاهم الذي اجبروا عليه، فهربوا من روما كأنهم يهربون من معسكر [القيصر] كلّ ذلك ثقةً منهم [بپومپي] واكراماً له حتى ان [لابينوس Labinus] الذي كان من أخلص اصدقاء قيصر واحد قواده الكبار الذين حاربوا معه بتفانٍ في بلاد الغال فقد تخلّى عنه والتحق [بپومپي]. وبادر قيصر فالقى الحصار على [كورفينيوم Corfineuim] التي كانت تحميها ثلاثون كتيبة بأمرة [دوميتيوس]. هذا القائد ادركه اليأس من جدوى الصمود والاحتفاظ بمدينته فطلب من طبيب في حاشيته ان يسقيه سُمّاً، فناوله جرعة وكان يؤمل ان يقضي بها على نفسه. وما ان استقرت الجرعة في جوفه حتى أقبل من يخبره مؤكداً ان [قيصر] اظهر منتهى الرحمة وصفح من كل الأسرى الذين وقعوا في يده، فطفق القائد يندب سوء حظه ويلوم تسرعه في قراره فطيب الطبيب خاطره قائلاً انه اعطاه عقاراً منوماً ولم يعطه سُمّا. فكان فرحه عظيماً وهب من سريره وقصد قيصر واعطاه عهد الاخلاص. على انه انحاز الى جانب [پومپي] فيما بعد. ان هذه الانباء هدات من روع الباقين في روما وجعلتهم يعدلون عن تركها، واعاد اليها بعض من غادرها.

وضم قيصر الى جيشه جنود [دوميتيوس] وكان هذا ديدنه في كل مدينة يفتحها، فتزيد قواته على حساب قوات [پومپي] حتى اذا شعر بأنه يمتلك القوة الكافية للتعرض؛ تقدم بريد [پومپي] فلم يشأ هذا، وانسحب الى [بروندیزيوم] بعد أن ارسل القنصلين مع عدد من الجنود قبله الى [ديراكيوم] وركب [پومپي] متن البحر عندما علم باقتراب قيصر كما ورد ذلك في سيرته مفصلاً. ولو كان قيصر يملك سفناً لما تردد في ملاحقته، الاّ أنه قفل راجعاً الى روما وقد اصبح سيد ايطاليا بلا منازع ومن دون ان يريق قطرة دم في غضون ستين يوماً فقط، فوجد المدينة هادئة خلافاً لما توقع. وكان فيها عدد كبير من الشيوخ فواجههم بكلّ احترام وخاطبهم باللهجة اللائقة. وطلب منهم أن يبعثوا باقتراحه التالي الى [پومپي] انه يرضى بأية شروط معقولة لحسم النزاع واجراء الصلح. فلم يشاؤا ذلك اما خوفاً من [پومپي] الذي تخلوا عنه، واما لأنهم لايعتقدون بأن [قيصر] جاء في عروضه، وانما قصد ان يظهر امامهم شخصاً معتدلاً معقولاً.

وحاول [ميتيللوس] التريبون منعه من سحب المال من الخزينة العامة، مستنداً الى نصوص القوانين التي تمنع ذلك فقال قيصر:

– للقانون زمان وللسلاح زمان. إن كنتُ لا أعجبك فأنصرف من هنا، الحرب لاتسمح بحرية الكلام فان وضعت سلاحي جانباً وحققت السلم فتعال واخطب ما شاءت لك الخطابة.

واردف يقول: واسمع هذا منيّ، أنك تريد أن تحدّ من حقيّ المشروع. وانت في الواقع وكلّ من وقف ضدي وهم الآن في قبضتي، قد يعاملون المعاملة التي ارتأيها انا.

ثم توجه الى الخزينة يريد فتحها. فلم يجد مفاتيحها فاستقدم الحدادين وامرهم بكسر الاقفال. فعاد [ميتيللوس] يعارض في ذلك وراح بعضهم يشجعه. فارتفع صوت القيصر منذراً ومهدداً اياه بالموت أن بدر منه ما يزعجه وقال: - واسمع منيّ. لعلك لاتعلم ايها الشاب ان القول لأكره عندي من الفعل.

فما كان من [ميتيللوس] الاّ وان انسحب خوفاً. وراح بعد ذلك ينفذ كلّ اوامر قيصر في تأمين نفقات الحرب.

وزحف نحو اسپانيا، عازماً قبل كل شيء على سحق [افرانيوس Afranius] و[ڤارو Var-ro] نائبي [پومپي]. وكان يرمي من ذلك الى الاستيلاء على الجيوش التي يقودانها وانتزاع الاقاليم التي يحكمانها. وبذلك يكون في وضع جدّ ملائم لمنازلة [پومپي] دون ان يخشى عدواً خلفه. في هذه الحملة تعرض شخص [قيصر] الى مخاطر كثيرة بسبب الكمائن التي نصبت له. كما تعرض جيشه للجوع بسبب نقص الافوات لكنه ظلّ يتعقب عدوه ويستفزه للقتال، ويحاصر استحكاماته ويدك قلاعه حتى وفق أخيراً الى الاستيلاء على المعسكرات وعلى الجيش ولم يسلم غير القادة الذين فروا والتحقوا [بپومپي].

وعند عودته الى روما نصحه حميّه [پيزو] بارسال وفد الي [پومپي] للمفاوضة في الصلح. الاّ ان [ايساوريكوس Isauricus] ثناه عن ذلك أختار لأجل ان ينال لديه حظوة. وبعد هذا اعلنه مجلس الشيوخ دكتاتوراً ومنحه الصلاحيات اللازمة لممارسة هذا المنصب. فدعا المبعدين الى العودة، وردّ حقوق المواطنة الى اولاد اولئك الذين وقعوا تحت طائلة [سيللاّ] وخفف عن كاهل المثقلين بالديون باصداره قانوناً يخصم به جزء من الفوائد لمتراكمة، واصدر قوانين أخرى بمثل هذه الروح السمحاء ولم تكن بالكثيرة، ثم استقال من منصب الدكتاتور بعد احد عشر يوماً من توليه وأكتفى باعلان نفسه قنصلاً مع [سرڤيليوس اساوريكوس] ثم ترك روما الى ميدان القتال. واغذ السير، تاركاً جيشه وراءه. مصطحباً ستمائه فارس منتخبين وخمس فرقٍ فقط وبهذه القوة الصغيرة ابحر في اوائل شهر كانون الثاني (الذي يوافق تقريباً الشهر الاثيني المسمى پوسيديون) وبعد اجتيازه البحر الآيوني استولى على [اوريكوم Oricum وپوللونيا Apollonia] ثم ارسل سفنه الى [برندبزيوم] لتنقل بقية جيشه المتخلف في المسيرة ان رجال هذا الجيش لم تعد في اجسامهم حيوية الشباب واندفاعه. كما ان الملل قد شاع في نفوسهم من الحروب المتواصلة، فلم يسعهم وهم في سيرهم

الاّ ان يشكوا من الحال ومن قيصر فيقولون:

- اين؟ ومتى سيدعنا [قيصر] هذا نعيش في دعة وسلام؟ انه لينقلنا من موضع ال موضع، ويستخدمنا كأننا غير قابلين للعطب والتلف، وهو لايملك شعوراً بالارهاق والتعب. ان حديدنا نفسه قد فسد من كثرة الضرب والقراع الا فليداخلنا بعض الرفق بدروعنا وصفائحنا التي كادت تبلى من كثرة الاستعمال. وجراحنا ولا نذكر غيرها يجب ان تحمله على التفكير بان من يقودهم هم كائنات حية لا فرق بينهم وبين سائر البشر في تعرضهم الألم واحساسهم بالغنى. ان الآلهة نفسها لا تقوى على ايقاف فصل الشتاء، ولا ان تمنع هبوب العواصف في اوقاتها المقررة. ومع هذا فهو يدفعنا دفعاً الى الأمام كأننا لا نتعقب العدوّ بل نفرّ من وجهه!

بهذا كانوا يتحدثون وهم يسيرون متثاقلين نحو [برنديزيوم] حتى اذا بلغوها ووجدوا [قيصر] قد سبقهم الى الابحار انقلبت مشاعرهم رأساً على عقب وراحوا يلومون انفسهم قائلين انهم خانوا جنرالهم. وعاقبوا ضباطهم لتباطئهم في السي، وصعدوا الى المرتفعات المشرفة على البحر باتجاه [ابيروس] وطفقوا يراقبون ظهور السفن التي ستقلهم الى قيصر - بعين لا تطرف.

في تلك الاثناء كان [قيصر] قد اختار [ابوللونيّا] مقراً له، الا] انه لم يكن قادراً على التعرض للعدو لافتقاره الى القوات الكافة. وزاد قلقه لتأخر وصول قواته الأخرى من [برنديزيوم] وادركته الحيرة وبات متوتر الاعصاب. أخيراً اقدم على مغامرة جنونية. فإستقلّ البحر وحده دون ان يعلم احداً. ونزل قارباً ذا اثني عشر مجذافاً متوجهاً الى [برنديزيوم] كان البحر انذاك مشحوناً باسطول العدو الضخم ولكنه صعد القارب متنكراً بزيّ العبيد والقى بنفسه في مقره، نكرةً من النكرات. وكان نهر [اينوس Anius] هو وسطة الوصول بهم الى عرض البحر. وفي تلك البقعة بالذات كانت تهب عادةً ريح خفيفة كل صباح من اليابسة الى البحر فتجعل مصب النهر هادئاً خالياً من التيارات، بدفعها الامواج الى الامام. الا ان ريحاً قوية هبت من البحر في تلك الليلة فشلت عمل الريح الخفيفة المتجهة الى البحر. فزادت مقاومة الامواج البحرية عند مصب النهر وهاج هائجها واخذ تيارها الشديد يدفع ماء النهر من حيث اتى بعنفٍ وضراوة اعجزا القبطان عن الخروج به الى عرض البحر. ولم يجد سبيلاً غير الرجوع. فأمر بحارته بالاستدارة والعودة. فما كان من قيصر الا وكشف عن هويته ممسكاً بيد القبطان المشدوه وقائلاً:

- إمض في طريقك يا صاح ولا تخش شيئاً، فأنت تُقَل قيصر ومستقبله.

لم يعد البحارة يكترثون بالعاصفة بعد سماعهم هذا القول. وانحنوا على مجاذيفهم يضربون بها باقصى قوةٍ. وبذلوا كلّ ما في طوقهم للوصول الى البحر. حتى اعياهم الأمر ودخل القارب كثير من الماء، وادرك [قيصر] ما يحدق به من خطر وهو في مصب النهر، فسمح للقبطان بالعودة كارهاً. وعند نزوله اليابسة استقبلته جموع من جنوده باللوم والتأنيب. وكانوا ساخطين منه لقلة ايمانه بمقدرتهم، ولشعوره بالضعف عن نيل نصرٍ بهم وحدهم. فأزعج نفسه وعرض حياته للتهلكة بسبب الغائبين، كأنه فقد الثقة بالحاضرين.

وبعد هذا بقليل وصل [انطوني] بالقوات من [برنديزيوم] فشجع ذلك قيصر على منازلة [پومپي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع على منازلة [پومپي] وان كان هذا قد أختار لقواته أفضل المواقع، ومورده من الأقوات والمهمات لاينقطع براً أو بحراً على السواء. أما [قيصر] فكان يشكو في البداية قلة الارزاق وكان في النهاية يفتقر الى الحد الأدنى من الضرورات. وكادت المجاعة تتفشى في الجيش حتى اضطر جنوده الى الحفر عن نوع من الجذور تنمو هناك فينقعوها بالحليب لتكون مستساغة. وكانوا أحياناً يعملون منها خبزهم، ويتقدمون الى رابايا العدوّ الامامية ويقذفون الى جنوده ببعض من هذه الأرغفة وهم يقولون «طالما تنتج الارض مثل هذه الجذور فلن نرفع الحصار عنكم». وكان پومپي شديد الحرص على ان لا تصل هذه الارغفة والكلام التي يرافقها، الى جنوده كانت معنوياتهم قد هبطت وارتخت مفاصلهم للرهبة التي داخلتهم من شراسة اعدائهم واعتيادهم الخشونة وصاروا ينظرون اليهم نظرتهم الى ضوار.

واستمرت المناوشات على مشارف واستحكامات [پومپي] الامامية وكان النصر فيها جميعاً لقيصر، عدا واحدة. فقد أجبر العدو رجاله على الفرار بشكل هدد معسكره كله، حتى كاد يفقده. فقد صال عليهم [پومپي] صولة قوية فلم يصمد امامه رجل واحدٌ وملئت الخنادق بالقتلى وسقط العديد على متاريسهم واستحكاماتهم بعد ان دفعهم العدوّ اليها. واعترض قيصر طريق فرارهم وحاول ارجاعهم الى ميدان القتال فلم يفلح وعندما ذهب ليمسك بالالوية رماها حاملوها على الأرض فغنم العدو اثنين وثلاثين لواءً، ولم ينج قيصر الاّ باعجوبة. فقد تشبث باحد الجنود، وكان ضخم الجثة متين الالواح وأخذ يعدو معه ويصيح به أن يقف ويصمد فشهر سيفه وقد أمتلأ خوفاً من الخطر الذي يلاحقه كأنه يهم يطعن قيصر، الاّ ان حامل درعه اهوى على يده بضربة فقطعها. وبلغت حالة قيصر درجة لا توصف. لكن [پومپي] اما زيادةً في الحذر، أو لسوء حظٍ، لم يبادر الى انزال الضربة القاضية بعد نجاحه العظيم وانما تراجع، بعد ان تعقب العدوّ المندحر الى معسكره. وقال قيصر وهو يتابع انسحاب [پومپي] بانظاره:

- كان النصر اليوم حليف العدو لوحظوا بجنرال يعرف كيف يناله.

وانسحب الى خيمته واستلقى على فراشه يريد النوم فعزّ عليه وقضى ليلة ليلاء لم يقض مثلها من قبل، تتناهبه الأفكار وتتقاذفه الهواجس. ويقلب وجوه الرأي في حاله، الى ان انتهى أخيراً الى نتيجة واحدة، وهي انه لم يحسن ادارة دفة الحرب. ها هنا امامه بلاد خصبة وجميع مدن مقدونيا وتساليا الغنية فلم يعرها بالاً ولم يجرّ الحرب الى تلك الأصقاع، بعد ان جثم قرب الساحل حيث يتمتع اعداؤه بافضلية اسطول قوّي. انه والحالة هذه محاصر بافتقاره الى المهمات والاقوات، وليس محاصراً الآخرين بالسلاح.

في خضم محنته هذا اهتدى الى الحلّ المنشود. فرفع معسكره صباح اليوم التالي وسار معتزماً مهاجمة [سكيپيو] الذي كان معسكراً في مقدونيا، وبذلك سيحقق احد أمرين أمّا أن يرغم [پومپي] على السير نحو بلادٍ بعيدة عن ساحل البحر فيفقد ميزته الحالية ويصعب عليه امداد قواته بالارزاق عن طريق البحر. وإما ان يتسنى له التغلب على [سكيپيو] ان آثر [پومپي] البقاء حيث هو.

ان رفع [قيصر] معسكره والابتعاد عن جيش [پومپي] جعلهم يستنجون بأنه ينهزم من امامه. فقوى ذلك من عزماتهم والهب حماستهم لتعقيبه، الاّ ان [پومپي] كان يخشى المجازفة في معركة يتوقف عليها الكثير. ولكونه كان حسن التجهيز وافر القوت مهما امتد به الزمن، فقد ارتأت خطّة انهاك الجيش قيصر واضعاف معنوياته التي لم يكن يقدر انها بستصمد طويلاً، صحيح ان قيصر يملك خيرة الرجال، مقاتلون حنكتهم الحرب وعجمت عودهم وشجاعتهم لايقف امامها شيء في اية معركة. الاّ ان مسيراتهم الطويلة العديدة، وسهرهم في الحراسة، هدّ من قواهم وارهقهم، وهم ما عادوا فتياناً، ولم ولم تعد اجسامهم تتحمل الجهد، وتبعاً لذلك لم تعد شجاعتهم تغني. فضلاً عن ذلك فقد تفشى فيهم - على ما قيل - مرض سارٍ بسبب طعامهم غير الصحي، وأكثر من ذلك أن قيصر كان خالي الوفاض لا مال لديه ولا اقوات. ولهذا قدّر [پومپي] ان قيصر سينتهي امره وتذهب ريحه بوقت قصير. فلم يشأ تعقيبه والتعرض له. لم يؤيده أو يشكره على هذا القرار غير [كاتو] فقد شاع السرور في نفسه لقرار فيه اقتصاد لارواح مواطنيه. عندما شاهد جثث القتلى الذي سقطوا من جيش قيصر في آخر معركة وكان عددهم الفاً واحدة ادار ظهره وغطى وجهه واجهش بالبكاء. لكن الجميع راحوا يلومون [پومپي] لتردده في قطف ثمرة نصره واحجامه عن القتال. وحاولوا غمز قناته واخراجه عن طوره بالتشبيهات والالقاب. فأطلقوا عليه اسم [أغا ممنون] ولقبوه [بملك الملوك] كأنما يريد الاستمساك بسلطاته الملكية الحالية، بل مستمتع برؤية هذا العدد الكبير

من القادة رهن اشارته، وتحت امرته، وامام خيمته. وشكا [فامشونيوس] (وهو الرجل الذي يقلد كاتو في الصراحة) شكوى مرة من هذا القرار، وقال انه سيحرم من أكل تين [توسكولوم Tusculum] هذه السنة أيضاً، لأن [پومپي] مغرم بالقيادة العامة. وأما [افرانيوس] الذي كان قد عاد مؤخراً من اسپانيا، فبسبب الهزيمة الشنعاء التي مني بها هناك، ولكونه كان موضع شكٍّ في أنه أخذ من [قيصر] رشوة ليسلمه جيشه، فقد اراد تبديد هذا الشكّ بتساؤله: «لا أدري لماذا لاتحاربون شاري الأقاليم هذا؟».

هذه الأقوال ارغمت [پومپي] على المعركة، فأنطلق جاداً في اثر القيصر، وكان هذا لا يقوم من عقبة الاّ ليسقط في أخرى. ففي سيرته هذه لم يمرّ ببلد قابل بتموينه، بعد ان هوت سمعته الى الحضيض بسبب الهزيمة الأخيرة. على ان بعض التحسن طرأ عليه عند وصوله [گومفي Gomphi] المدينة التسالية. فقد وجد ارزاقاً كافية لجيشه، فضلاً عن كماليات أخرى. مثل الخمر فقد وجدوا كميات كبيرة منها. فشربوا حتى ارتووا، وسرت حميّاها في جسومهم فراحوا يلهون ويعبثون ويعربدون على الطريقة الباقوسية وهم سائرون. وشفوا من امراضهم وارتاحت ابدانهم وشغروا كأنهم خلقوا من جديد.

لما وصل الجيشان [فرساليا Pharsalia] وعسكرا عادت خطة [پومپي] الأصلية تداعب فكره، وصمم على تحاشي الاشتباك بعد حصول بعض الخوارق، وبسبب رؤيا رآها. إلاّ أن اتباعه كانوا على درجة من الثقة بالنجاح حتى ان الخلاف نشب بين [دوميتيوس، وسپنثر، وسكيپيو] على من يخلف [قيصر] في القيادة منهم. وبعث كثيرون الى روما لاكتراء بيوت ملائمة لسكن القناصل والپريتورين يدفعهم ايمان قوي بأن هذه المناصب ستسند اليهم بعد انتهاء المعركة.

كان صنف الخيالة بصورة خاصة مصراً على القتال. فالفرسان مجهزون بأحسن السلاح وأفضل الخيل، يختالون بجمال منظرهم ويعتدون بشجاعتهم، ويعتمدون فضلاً عن ذلك على تفوقهم العددي، خمسة آلاف مقابل الف واحدة هي كل ما يملك [قيصر]. وكان الفرق بين مشاة الجيشين كبيراً أيضاً فجيش [پومپي] يبلغ ٤٥ ألفاً في حين ان جيش قيصر لا يزيد عن ٢٢ الفاً.

جمع قيصر جنوده وخطب فيهم قائلاً:

- ان كورفينيوس Carfinius قادم بفرقتين للانضمام الينا. وهناك خمس عشرة كتيبة تحت امرة [كالينوس] معسكرة في ميغارا واثينا. هل تفضلون التريث حتى تلتحق بنا هذه القطعات ام ان نجازف بدخول المعركة؟

فهتف الجميع بما يفيد انهم يرفضون التريث. وطلبوا منه الاسراع جهده للتعرض للعدو وارغامه على المعركة. فضحى لتطهير جيشه، وبعد فحص الاضحية الأولى قال له الكاهن انه سيدخل معركة فاصلة خلال ثلاثة ايام. فسأله [قيصر] هل وجد في الاحشاء بشير خير؟ فأجاب الكاهن:

- هذا ما عليك ان تجيب انت عنه. لأن الآلهة تشير الى قرب حصول تغيير عظيم في مجرى الأمور. فان كنت تجد نفسك الآن حسن الحال فعليك ان تستعد لسوء حظٍ. وان كنت الآن سيء الحال فلك ان تأمل حسن الحظ.

في الليلة السابقة للمعركة، عندما كان [قيصر] يقوم بدورة منتصف الليل في المعسكر، شوهد نور في السماء باهر، خرج منه لهب وبدأ وكأن يمرق فوق معسكر قيصر ثم يسقط في معسكر [پومپي]. وتبين جنود المناوبة الذين جاؤوا صباحاً لتسلم الحراسة من خفراء الليل - موجة من الفوضى والقلق ناجمة عن الخوف تجتاح جنود العدو. ومهما يكن فان قيصراً لم يكن ليتوقع ان تنشب المعركة في ذلك اليوم بالذات. فقوض معسكره وامر بالسير نحو [سكوتوزا Scotosa] وعلى أثر رفع المضارب هرع كشافته اليه قائلين ان العدو يستعدّ للمعركة، فطار فرحاً بالنبأ. وبعد ان صلّى للآلهة: نظم جيشه في نسق المواجهة وقسمه الى ثلاثة اقسام: القلب، اناط قيادته بـ[دوميتيوس كالڤينوس Domituis Calvunus]. وامرّ [انطوني] على الميسرة، واحتفظ هو بالميمنة معتزماً دخول المعركة وهو على رأس الفرقة العاشرة. لكن ما تبين أن خيالة العدوّ تتخذ مواضعها قبالته بمظهرها البديع وعددها الكبير، حتى اصدر أوامره سراً بأن تتقدم ستّ كتائب من احتياط المؤخرة وتوم اليه خلف قطعاته. وافهمها واجبها الذي ستنجزه عندما تبدأ خيالة العدو هجمتها. ووضع [پومپي] نفسه في الميمنة واناط الميسرة [بدرميتيوس]. وأمّر حميّه [سكيپيو] على القلب وجمع ثقل الخيالة كلها في ميسرته بقصد تطويق ميمنة العدو وسحق هذا الجناح الذي يقوده [قيصر]. وكان الاعتقاد يسود جيش [پومپي] بأنه لم يخلق بعد ذلك [القلاتكس] الذي يستطيع الصمود امام الهجمة الكاسحة الطريقة. ولا شك انه سيتكسرّ ويمزق فلولاً عندما تصكه قوة من الخيالة بهذه الضخامة. وعندما كملت استعدادات الجانبين واعطيت اشارة الهجوم. كان مشاة [پومپي] في المقدمة فأمرهم بالثبات في مواضعهم وتلقي الهجمة الأولى بهدوءٍ ومن غير ان يحدثوا خللاً في صفوفهم، الى ان يصبح العدو فهو على رميه رمح.

يلوم قيصر[پومپي] لاتخاذه هذه الخطة. فيقول، بدأ لي [پومپي] وكأنه لايدري كيف أن مُستهلّ الهجمة الأولى يكون على شكل اندفاع عظيم ويتم بهرولةٍ، يعطيان زخماً وقوة

لضربات الجنود. ويلهبان نفوس الرجال بنار الحماسة التي يجعلها الاصطدام الفعلي ناراً متقدة. »

وقد لاحظ [قيصر] عند تحريكه الجنود الى الامام أحد امراء سراياه، وهو عسكري مجرب مقدام يحث جنوده ويحمسهم على بذل كل ما في طوقهم. فناداه قيصر باسمه:

- كايوس كراسينيوس Caius Crasinius! أي آمال لنا، واي دافع للتشجيع؟

فبسط [كراسينيوس] يده ورفعها عالياً وصاح بصوت جهوري:

- سنفوز بنصر باهر، وسأستحق اليوم ثناءك، حياً كنت أم ميتاً.

قال هذا واندفع الى الامام وكان اول رجل يشتبك مع العدو. فتبعه جنوده المائة والعشرون. فأخترق بهم الصفوف الأولى وظلّ يضغط على العدو ويعمل فيه تقتيلاً حتى أخترق فمه حد سيف بلغ من القوة ان خرجت ذبابته من قذاله.

وفيما كانت معركة المشاة الرئيسة محتدمة. تقدمت خيالة [پومپي] بكل ثقة من الميمنة. ونشرت صفوفها الى مسافة واسعة جداً تريد الاحاطة واكمال عملية التطويق. ولكن كتائب قيصر الكامنة اندفعت اليهم وهاجمتهم قبل الالتحام. وامسكوا عن قذفها بالرماح عن بعدٍ ولم يوجهوا طعناتهم الى الأرجل والافخاذ كما جرت العادة في قتال الخيالة عند الاشتباك القريب وانما سددوا الأسنة الى وجوه الراكبين المتقدمين كما أوصاهم قيصر، متوقعاً أن أولئك السادة الشبان الذين لم يدخلوا معركة من قبل ولم يعرفوا للجراح طعماً، وانما جاؤوا بشعورهم الطويلة وهم في زهرة اعمارهم واوج وسامتهم، لايهتمون بالخطر الآني ولا بالعار القادم،وصدق وصحّ ما توقع. فالووا ليكونوا في نجوة من طعنات الرماح، التي لم يطيقوا حتى التطلع اليها وداروا على أعقابهم وغطوا اوجههم وقاية لها. وما ان عمتهم الفوضى المحتومة، حتى انكفاؤا على أعقابهم هاربين فأتلف عملهم هذا كلّ شيء. اذ اسرع المنتصرون الى الاحاطة بالمشاة ووقعوا على المؤخرة فمزقوها اربا. وعندما تطلع [پومپي] وهو على رأس الجناح الآخر، وشاهد خيالته مكسورة مدحورة فارقته ثقته بنفسه، ونسي أنه [پومپي الأكبر]، ووجد نفسه رجلاً جردته الآلهة من ملكاته العقلية، فأنسحب الى خيمته دون ان يلفظ كلمةً. وجلس فيها ينتظر النتيجة. حتى دارت الدائرة على الجيش كله وظهرت طلائع العدوّ عند العوارض والمتاريس المثبتة امام المعسكر والتحمت مع المدافعين عنها. واذ ذاك آفاق من ذهوله وقيل انه نطق بالجملة التالية:

- ماذا؟ افي المعسكر أيضاً؟

ونزع ثيات القائد المميزة له، وارتدى الثوب المناسب للفرار، وخرج من المعسكر متسللاً. وقد اتينا الى ما صادفه من أمور والى كيفية التجائه الى مصر، ومصرعه هناك.

عندما دخل [قيصر] معسكر [پومپي] ورأى جثث بعض خصومه على الارض وشاهد بعضهم الآخر يعاني سكرات الموت قال متنهداً:

- هذا ما كتب لهم في لوح القدر، لقد ألجاؤني الى هذه الضرورة. أنا [كايوس قيصر] بعد نجاحي في الحروب العديدة التي خضتها، أأدان ان لم اسرّح جيشي؟

يقول [پوليو Polio] هذه العبارة نطقها قيصر باللاتينية. الاّ انه دونها بقلمه فيما بعد باليونانية واضاف اليها قوله:

«معظم من قتل عند الاستيلاء على المعسكر كانوا خدماً، ولم يسقط في القتلى أكثر من ستة آلاف».

والحق معظم المشاة الأسرى بفرقه، وعفا عن كثير من الشخصيات البارزة ومنهم [بروتوس] أحد الشركاء في مؤامرة اغتياله لم يظهر أثر [لبروتوس] فور انتهاء المعركة الأمر الذي قلق له [قيصر] وكانت فرحته أعظم من قلقه عندما رآه يدنو منه حياً سليماً.

سبق هذا النصر عدد من الخوارق تكهنت. وابرزها كما قيل لنا - المعجزة التي حصلت [في تراليس Tralles]. كان ثم تمثال لقيصر مستقر على ارض صلبة، كما ان مادة التمثال كانت من أقوى واصلب المرمر، الاّ ان نخلةً نبتت عند قاعدة التمثال. وفي مدينة [پادوا] كان شخص يدعى [كايوس كورنيلوس] عرف بالعرافة الجيدة. وهو صديق للمؤرخ [ليڤي] وابن مدينته. اتفق لهذا العراف أنه كان يقوم بشعبذات معينة فاذا به - على ما يخبرنا ليڤي - يحدد ساعة المعركة. قائلاً للذين كانوا يراقبونه «الآن بدأت المعركة وتلاحمت الايدي» ثم نظر مرة ثانيةً في الاشارات وقفز كأن وحياً هبط عليه وصاح «قيصر! انت منصور».

واصيب الحاضرون بدهشة عظيمة. إلاّ انه نزع أكليل الزهر الذي كان يحيط برأسه وحلف انه لن يضعه ثانية حتى يتبين صحة نبواته ويؤكد [ليڤي] بصورة قاطعة ان ما يريده هو الحقيقة بعينها.

وخلد [قيصر] نصره هذا باعطاء التساليين حريتهم ثم جدّ في اثر [پومپي] وعند عبوره الى آسيا، حرر الكنيديين Cnidians ومنحهم حق الاقتراع وحول ثلث جزيتهم عن كاهلهم الى أهالي أقليم آسيا كل ذلك في سبيل اكرام ذكرى [ثيومپوپوس] مؤلف مجموعة اساطير. وبوصوله الاسكندرية انهي اليه نبأ مصرع [پومپي]. لكنه لم ينظر الى [ثيودوتس] الذي قدم

له رأس الصريع، وانما قبل ان يأخذ ختمه وهو يبكي. وبادر باطلاق سراح كل من أعتقله ملك مصر اثناء ما كانوا يهيمون على وجوههم في تلك الانحاء، وقربهم منه. وفي رسالة بعث بها الى اصدقائه بروما صرح لهم ان أكبر فرحة اتاحها له انتصاره، هي استطاعته انقاذ حياة مواطنيه الذين حاربوا ضده.

واما عن الحرب في مصر، فبعضهم يقول انها لم تكن مشرفة لسمعة [قيصر] ولم تكن ضرورية، وانما كانت بسبب غرامه بكليوباترا فحسب ويلوم آخرون وزراء الملك ولاسيّما الخصي [بوثينيوس Pothinus] وزيره الأول، وهو الذي قتل [پومپي] ونفى [كليوباترا]. فقد راح هذا يتآمر على قيصر سراً (فاتخذ قيصر لنفسه الحيطة بقضاء لياليه ساهراً، مدعياً انه يشرب الخمر) ولم يكن [قيصر] يطيقه للاهانات الولية والفعلية التي لا يفتأ يوجهها اليه. كان يكيل لجنود [قيصر] قمحاً عفناً فاسداً، ويقول لهم:

- عليكم ان تقنعوا به لأنكم تأكلون على حساب الآخرين.

وأمر أن يؤتي طعام [قيصر] باطباق من الخشب والفخار، متعللاً بأن [قيصر] نهب كل الاواني الذهبية والفضية تحت زعم المطالبة بالمتآخر من الدين. (ان والد الملك الحالي كان مديناً لقيصر بمليون وسبعمائة وخمسين الف قطعة نقدٍ فخصم منها قيصر منها لاولاده سبعمائة وخمسين ألفاً ورأى من حقه المطالبة ببقية الدين وقتذاك لسدّ نفقات جيشه). وقال له [بوثينوس] حريٌ به ان يبارح الآن مصر ويهتم بأمور أكثر خطورة من البقاء هنا، ويستسلم ماله فيما بعد مع الشكر. فأجابه قيصر: أنه لا يرغب ان يتخذ المصريين ناصحين ومستشارين له. وبادر حالاً الى استقدام كليوباترا من منفاها. فاستقلت قارباً صغيراً وليس معها غير [پللودوروس الصقلي محل ثقتها. وارسى بها القارب في عتمة الليل بالقرب من القصر. وادركتها الحيرة ولم تدر كيف تدخل القصر خلسة، حتى اهتدت الى حيلة، فلفت نفسها بلحاف وقام ابللودوروس بربطه عليها بالحبال وحملها على ظهره كالصرة وادخل بها القصر حتى جناح [قيصر]. في البدء كان قيصر مأخوذاً بحضور ذهن كليوباترا وذكائها المفرط. وبالأخير افتتن بصحبتها الى الحدّ الذي أجبر اخاها على مصالحتها في مشاركته بالحكم. واقيم حفل كبير بمناسبة الصلح. وفي اثناء هذا الحفل أكتشف حلاق قيصر المؤامرة التي حيكت لاغتياله. كان هذا الحلاق فضولياً مغرماً بتقضي الاحاديث. جعله جبنه المفرط يدس أنفه ويتتبع كلّ محادثة. وكانت المؤامرة بتدبير [اخيلاس] قائد قوات الملك. وبوثينوس الخصي. فبادر قيصر حال علمه بوضع حرس في القاعة وقتل [بوثينوس] لكن اخيلاس أفلت ولجأ الى الجيش واثار حرباً على [قيصر]؛ حرب اتعبته واورثته كثيراً من الصداع، صعب

عليه ادارتها بالفئة القليلة من الجنود الذين جاء بهم، مقابل قوات كبيرة جداً. ومما لاقاه من صعاب، قلة الماء، فقد حول خصمه مجرى الاقنية عنه. ومنها انه اضطر الى احراق سفنه كلها لما حاول خصمه قطع خطوط مواصلاته البحرية فتحاشى ذلك بهذه الخسارة ولكن اللهيب امتد الى الارصفة ثم الى المكتبة العظيمة فالتهمها. وفي اثناء معركةٍ بالقرب من [فاروس] قفز من حاجز المرفأ الى قارب صغير لمعونة جنودٍ له وقعوا في مأزق. فشد عليه المصريون من جميع الجهات فقذف بنفسه الى البحر ونجا سابحاً بعد لأي. ويروى انه كان يمسك بعدد من الرقوق المخطوطة وكانت هدفاً تسدد اليه الرماح المقذوفة بلا انقطاع. فكان يضطر من البلل ان يبقى يده مرفوعة بينما يستعمل اليد الأخرى فقط للسباحة. وقد غرق قاربه أيضاً.

بالأخير انضم الملك الى [اخيلاس] الاّ ان [قيصراً] هاجمهما وحقق الغلبة عليهما وسقط عدد كبير من القتلى في تلك المعركة ولم ير الملك بعدها فترك [قيصر] كليوباترا ملكة على مصر وولدت له بعد قليل ابناً سماه الاسكندرانيون [قيصاريون]. ورحل هو الى سوريا ومنها الى آسيا. وهناك انبيء ان [فارناكيس Pharnacis] ابن ميشريداتس قد تغلّب على [دوميتيوس] الذي هرب الى البونتس بحفنة من الرجال، وان [فارناكيس] يستغلّ نصره هذا بكلّ ما فيه من نشاط وعزم، فقد اخضع [بيثينيا] و[كبدوكيا] وهو في سبيله للاستيلاء على ارمينيا السفلي، وارسل ايضاً يدعو جميع الملوك والحكام للثورة على الرومان. فأسرع [قيصر] في اثره بثلاث فرق ونازله بالقرب من [زيلا Zela] وطرده من البونتس، وهزم جيشه هزيمة تامةً. روى [قيصر] لصديقه [امانتيوس Amantius] تفاصيل هذه الحرب بعد رجوعه الى روما واستخدم ثلاث كلمات للتعبير عن السرعة والحزم التي اخذها به فقال (جئت. رأيت، انتصرت!) ولهذا الكلمات في اللاتينية قافيه واحدة فيكون وقعها على الاذن موسيقياً فضلاً عن ايجازها البليغ.

وركب البحر الى ايطاليا. ودخل روما في نهاية السنة، ولذلك حدد انتخابه دكتاتوراً. وهو منصب لم يستقم لغيره سنة كاملة وانتخب [قنصلاً] للسنة الثانية. واخذت السنة السوء تناله بعد حادثة عصيان بعض الجنود ومثلهم البريتورينْ [كوسكونيوس Cosconis، وگالبا Gal-ba. ولم يكن عقابه لهما أكثر من تأنيب ناداهم فيه (بالمواطنين) بدلاً من مناداتهم «باخواني الجنود». ومنح كلّ واحدٍ منهم الف درهم. فضلاً عن قطعة أرض في ناحيةٍ من ايطاليا. كذلك اخذ الناس يغتابونه لإسراف [دولابلاً] وفجور [انطوني] وتبذير [كورڤينيوس] الذي هدم دار [پومپي] ليبني مكانه داراً أفضل منه، فكان البناء الثاني ادنى مستوى من الأول كل هذه الأمور اثارت استياء الرومان وسخطهم. لكن قيصراً لم يكن بالذي يجهل أخلاق

اصحابه، ولا بالأعمى عن تصرفاتهم ولم يكن ليقرها لولا انه كان مضطراً الى استخدام هؤلاء لاجل تسيير دفة الحكم بالشكل الذي يرتضيه.

بعد معركة فرساليا هرب [كاتو] و[سكيپيو] الى افريقيا، وحشدا هناك قوات كبيرة بمساعدة (جوبا) الملك. فقرر [قيصر] قتالهم وعبر الخليج الى صقلية في حدود انقلاب الشتاء. ولأجل ان يزيل من رؤوس ضباطه اي املٍ بالتريث والبقاء، عسكر على ساحل البحر. وما ان هبت ريح موآتية حتى ركب هذه القوة في سواحل افريقيا وكرّ راجعاً خفية وقد ساورته المخاوف على القسم الاكبر لكن مخاوفه زالت عندما التقى به في عرض البحر فقادهم بنفسه الى المعسكر. وانبيء ان الاعداء يستخدمون على نطاق واسع تلك النبوؤة الغابرة القائلة «بأن اسرة سكيپيو ستكون ابداً منصورةً في افريقيا.» وكان يوجد في جيشه شخص خامل الشأن وضيع الشخصية من أسرة [افريقيا] اسمه [سكيپيو ساللوتير Sallutio] فجاء به ووضعه على رأس جيشه [يصعب القول: هل اراد قيصر بذلك السخرية من سكيپيو الذي كان يقود جيش العدو، ام انه كان جاداً مؤمناً بالنبوءة يسعى لان تكون في صالحه؟] وهكذا بدأ الرجل الخامل الشأن كالجنرال في كل المعارك العديدة التي خاضها قيصر الى النهاية.

كان [قيصر] مفتقراً الى الاقوات لاطعام جنوده وعلف حيواناته، حتى اضطر الى اطعام خيله الاعشاب البحرية بعد غسلها غسلاً تاماً لازالة الملح منها، وخلطها بقليل من العشب الأخضر ليكون مذاقاً مستساغاً.

كان النوميديون بكثرة عددهم واصالة خيولهم سادة الميدان بلا جدال. فاينما ذهب [قيصر] تعقبوه وادركوه وبسطوا سيطرتهم على الارض. ومرة كانت خيالة قيصر في غفلة. لم يكن لديهم واجب يشغلهم فوقفوا يستمتعون بمشاهدة احد الافارقة وهو يرقص رقصاً عجيباً وينفخ في المزمار في الوقت نفسه وفيما هم منصرفون اليه وكلهم راجلون وقد اسلموا اعنة خيولهم الى بعض الصبيان، احدق العدو بهم من كل جانب فقتل بعضهم وتعقب الفارين حتى معسكرهم فكرّ عليهم ولو لم يخف قيصر و[اسينيوس پوليو] لمعونتهم ووقف فرارهم لانتهت الحرب.

وفي اشتباك آخر أيضاً كان العدو مستظهراً فأمسك قيصر بعنق أحد حملة الأعلام وهو ممعن في الهرب والوى وجهه نحو العدو بقوة وقال:

- انظر! هذا هو سبيلك الى العدوّ.

انتفخ [سكيپيو] زهواً بهذا النصر. وراودته فكرة الاشتباك في معركة فاصلة. فترك

[افرانيوس] و[جوبا] كلاً مع قطعاته المنفصلة والمتقاربة في عين الوقت وتقدم بنفسه نحو [تابسوس Thapsus] وهناك شرع يقيم معسكراً مستحكماً على بحيرة يتخذها محوراً للعمليات الحربية، وملاذاً يلجأون اليه في عين الوقت. وفيما كان [سكيبيو] منهمكاً في اعداد معسكره سار اليه [قيصر] بسرعة لاتصدق فأجتاز غابات كثيفة واراضي لم يسبق لاحد ان أجتازها لصعوبتها، وحاصراً قسماً من جيش العدو وهاجم القسم الثاني هجوماً جبهياً فهزمه. ولم يتريث بل واصل استغلال حسن حظه واجتاح في هجوم آخر معسكر [افرانيوس] ونهب معسكر النوميديين. واعتبر [جوبا] نفسه سعيداً لأنه نجح في الفرار، وهكذا بساعات قلائل من يوم واحد تمكن قيصر من الاستيلاء على ثلاثة معسكرات وقتل خمسين الفاً، ولم يخسر غير خمسين رجلاً.

تلك هي تفاصيل هذه الحرب كما رويت، ويقول بعضهم ان قيصر لم يكن موجوداً اثناء المعركة. فقد فاجأته احدى النوبات الاعتيادية من الصرع وهو يشرف على تنظيم صفوفه وشعر بقدومها وقبل ان تتمكن منه وتفقده وعيه، وفيما كانت اوصاله تهتز وترتعش، انسحب الى القلعة المجاورة ورقد.

وقبض على عدد عن كانوا حائزين مناصب القنصلية والپريتورية فقتلهم. أما بعضهم فقد سبقوه وبخعوا انفسهم.

واضطلع [كاتو] بمهمة الدفاع عن [اوتيكا Utica] فلم يكن في المعركة، وكانت رغبة [قيصر] في أخذه حياً هي التي دفعته الى الزحف على المدينة. وفيما هو جادّ بسيره، اتاه من يخبره بأن [كاتو] بخع نفسه. فتألم كثيراً. ولم يتفق على سبب ألمه ولكن من المؤكد انه نطق بالعبارة الآتية عندما بلغه النبأ:

- اي [كاتو] اني حقدي عليك لموتك كان يساوي حقدك علي لو منحتني شرف انقاذ حياتك.

غير ان الرسالة التي كتبها [ضد كاتو] بعد ذلك، ليس فيها دليل على عطفه، ولا يظهر فيها ميل الى مصافاته والعفو عنه. كيف يكون متسامحاً معه وهو حيّ، في حين يظهر حقداً واضحاً عليه وهو ميت؟ لكن بوسع المرء ان يستنبح ما يستنبح من عفوه عن [شيشرون] و[بروتوس] وكثير غيرهم ممن عادوه وحاربوه. لم يكتب قيصر رسالته هذه بسبب عدائه [لكاتو] بل دفاعاً عن نفسه وتبريراً لأعماله. كان شيشرون قد كتب رسالة ثناء بحق كاتو وجعل اسمه عنواناً لها. وكان مقدراً لهذه الرسالة المدونة بيد استاذ عظيم في موضوع ممتاز - ان تتداولها كل الأيدي وهذا ما اثار [قيصر] الذي اعتبر اطراء خصومه شيئاً اشبه بالذم له.

ولذلك نراه يجمع في رسالته [ضد كاتو] كل ما قيل في ثلمه وانتقاص من قدره. ولكلّ من الرسالتين معجبون كما لكلّ من شخصيتي [قيصر] و[كاتو].

عند عودة [قيصر] الى روما لم ينس ان يقدم للناس تفاصيل رائعة الانتصاراته. ومما قاله لهم انه اخضع بلاداً تدر عليهم سنوياً مائتي الف بوشل[٥] يوناني قمحاً، وثلاثة ملايين پاوند من الزيت. واجيز بالسير في ثلاثة مواكب نصر: لمصر، وللپونتس ولأفريقيا، ولم يكن الموكب الثالث تخليداً لنصره على [سكيپيو] بل على [جوبا] الملك كما أعلن عن ذلك وقد شوهد في هذا الموكب وجوبا الصغير.

وكان أسعد اسير حظاً. فقد بلغ هذا البربري النوميدي مصاف اعاظم مؤرخي الأغريق.

وبعد هذا وزع [قيصر] العطايا والمكافآت على جنوده ونظم للجمهور الحفلات والمسارح. ودعا أهالي روما كلهم الى وليمة جماعية واحدة، فنصب اثنان وعشرون متكأ ومائدة. وأمر بعرض للمصارعين والمعارك البحرية، تكريماً لابنته يوليا. مع أنها ماتت منذ زمن. وأجرى احصاءً عاماً لأهالي روما بعد هذه الاحتفالات فظهر أن السكان نقصوا الى مائة وخمسين الفاً بعد ان كانوا ثلاثمائة وعشرين، وهي الخسارة التي انزلتها الحرب الاهلية بها. ولا نذكر ما حَلّ ببقية ايطاليا والاقاليم الأخرى.

انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الرابعة وخرج الى اسپانيا لقتال ابني [پومپي] وكانا صغيري السن. الاّ انهما جمعا حولهما جيشاً لجباً واظهرا من الحذق والشجاعة ما اهلهما لقيادته. واحس [قيصر] انه مقدم على مجازفة كبيرة. وجرت الوقعة الكبرى قرب مدينة [موندا] ولاحظ قيصر أن جنوده يعانون ضغطاً شديداً وان مقاومتهم تضعف.

فأسرع الى الامام يشق الصفوف وصاح بين الجنود:

- الا تخجلون من تسليمي الى صبيين؟

بعد اهوال من القتال واستماته تمكن من دحر العدوّ وقتل ثلاثين الفاً منه، بخسارة الف من جنوده. وعند عودته من المعركة قال لأصحابه:

- قاتلت كثيراً لأجل احراز النصر. ولم اقاتل لانقذ نفسي الاّ في هذه المرة.

انتصر في عيد باخوس. وهو يوافق يوم اعلان [پومپي]الحرب عليه قبل اربع سنوات، ونجا من الموت أصغر ابني [پومپي] الاّ ان [ديديوس Didius] جاء برأس أكبرهما بعد مضي ايامٍ وبهذه المعركة كانت خاتمة حروب [قيصر].

---

(٥) مكيال للحبوب يساوي ٨ غالونات أو ٢/١ ٣٢ ليتراً.

كان استياء الرومان من موكب نصره بهذا المناسبة، لا يُحدّ ولا يوصف وقالوا انه لم يتغلب على قادة اجانب أو على ملوك البرابرة. وانما قضى على اولاد واسرة رجل من أعظم الرومان. وان كان الخطّ قد خانه. ولذلك لم يكن من المستساغ أو اللائق ان يحتفل [قيصر] بمصائب بلاده، ويعلن الافراح في امور لا مجال له في تقديم اي اعتذار عنها سواء للآلهة ام للبشر، عدا قوله انها كانت لضرورة ملجئة. ثم انه ظلّ ساكتاً عن أعماله الحربية هناك حتى عودته فلم يبعث الى الوطن برسالة أو بنبأ عن نصرٍ حازه. بل بدا خجله من ذلك أكثر من توقعه مجداً منه.

نزل مواطنو [قيصر] عن الكلّ له. وقبلوا باليسير الممنوح لهم، مؤملين ان حكومة الفرد ستفسح لهم مجالاً لالتقاط انفاسهم بعد كثير من الحروب الاهلية والمصائب الوطنية. فنصبوه دكتاتوراً مدى الحياة. وهذا في الواقع حكم الطغاة والاستبداد الصريح الذي لا مواربة فيه، لم يكن مطلقاً بل كان دائمياً ايضاً. وتقدم شيشرون باول المقترحات الى المجلس لتكريم قيصر. ولم يكن فيها أسراف وانما كانت تناسب اي انسان معتدل الأ ان الآخرين تسابقوا على الاكثر وارتفعوا الى حَدّ جعل من [قيصر] شخصاً بغيضاً لدى أكثر الناس اعتدالاً، وابعدهم عن الاكتراث بمثل هذه الامور. ويعتقد ان لاعدائه سهماً في ذلك بقدر ما لمتملقيه لأن هذا يخدم اغراضهم ويهيء لهم الذرائع للعمل عنده، ولتبرير اية محاولة ترمي الى اسقاطه. اذ لم يكن لديهم بعد ان وضعت الحرب اوزارها ما يتهمونه به فقد بنوا هيكلاً لآلهة الرفق [كليمنسي] اعترافاً بامتنانهم له لأنه استغلّ نصره للرحمة والعفو، فلم يكتف بالعفو عن العديد ممن حاربوه، بل منح طائفة منهم ارفع المناصب وخلع عليهم. ونخصّ بالذكر [بروتوس] و[كاسيوس] وكلاهما كان بريتوراً. كذلك اعاد تماثيل بومبي الى مكانها وكانت قد رفعت. فعقب شيشرون هذا العمل بقوله: «انه ركّز تماثيله بنصب تماثيل [بومبي]»، وعندما نصحه اصحابه باتخاذ حرس شخصي بنفسه وعرض العديد منهم أنفسهم لذلك، رفض رفضاً باتاً وقال:

- انه لخير للمرء ان يموت مرةً من ان يحيا في خوفٍ مستديم منه.

وعَدّ حب الجمهور وتعلقه به، افضل واضمن من ايّ حرسٍ واقام للمرة الثانية مهرجانات عامة لتسلية وامر بتوزيع القمح، وكافأ افراد جيشه بتأسيس المستوطنات لهم في عدة مناطق من جملتها مستوطنتا قرطاجنة وكورنث اللتان دمرتا في وقت سابق فاعادهما الى سابق عهديهما واعمرهما بالمستوطنين.

وكثرت عهوده ووعوده للاشراف وعلية القوم، بالمناصب القنصلية والبريتورية في المستقبل

وارضى فريقاً بوظائف ومناصب ولم ينْد لأحدٍ املاً، بما كان يبديه من اهتمام مفرطٍ في أن يظهر للملأ حاكماً عدلاً لايضمر غير حسن النيّة. فمثلاً عند موت [مكسيموس] القنصل قبل انتهاء فترته بيوم واحدٍ بادر الى نصب [كانينيوس رڤيليوس Caninius Revilius] قنصلاً لليوم الواحد المتبقى. واخذ الناس يتقاطرون لتهنئة القنصل الجديد فقال شيشرون.

- فلنسرع لئلا تنتهي فترته قبل وصولنا اليه!

ولد قيصر لعظائم الأمور، ولم يكن ليستقرّ له قرار في اطلاب المجد، ولم تُغره الأعمال العظيمة التي انجزها بالجلوس وقطف ثمار اتعابه. بل كانت محرضة له ومشجعة على المضيّ في هذا السبيل، ومثيرة في نفسه افكاراً ومشاريع لأعمال اعظم منها ورغبة في امجاد جديدة كأن الحاضر بالنسبة اليه منته وهو يتطلع الى الآتي. في الواقع كان ثم صراع عنيف بينه وبين نفسه، وكأنه شخصان مختلفان. فتراه يعمل الفكر للتفوق على ما مضى بما هو آت. ولهذا قرر ان يشنّ حرباً على الپارثيين ثم التوجه الى [هرقانيا] بعد اخضاعهم. ومن هرقانيا الى بحر قزوين وجبال القفقاس ثم يسير بمحاذاة البحر الأسود ويدخل بلاد الصيتين ويجتاح كل البلاد المتأخمة لجرمانيا ويدوخ جرمانيا نفسها ثم يعود الى ايطاليا ماراً ببلاد الغال. وبعد اكماله دائرةً لامبراطوريته وجعل حدودها الماء من كل الجهات وفيما بدأت الاستعدادات لذلك، اقترح أن يحفر البرزخ الذي تقوم عليه [كورنث] وعين [آنينوس Anienus] للاشراف على العمل. وفكر ايضاً في تغيير مجرى التيبر، وتحويله بقناة عميقة مباشرة من روما الى (چرچيي Circeii) ثم الى البحر بالقرب من [تاراكينا Tarracina] ليكون سبيلاً سهلاً مأموناً لكل التجار المتعاملين مع روما. واعتزم ايضاً تجفيف كل المستنقعات القريبة من [پومنتيوم Pomentium] و[سيتيا Setia] واستصلاح اراض واسعة للزراعة بعد استخلاصها من المياه. واقترح عمل تلال كبيرة في اقرب ساحل بحري الى روما ليمنع طغيان مياه البحر على اليابسة ثمة. وتنظيف الساحل قرب [اوستيا Ostia] من كل الصخور والرمال الضحضاحة التي تجعل رسو السفن هناك غير مأمون وانشاء مرافيء وموانيء صالحة لاستقبال العدد الكبير من السفن.

هذه المشاريع تم تخطيطها واقرارها الاّ انها لم تنفذ، غير ان اصلاحه التقويم السنوي لتصحيح الخلل في الوقت وقد اتمّه بشكل علمي دقيق بارع. فبرهن على فائدته العظمى. منذ العهود الغابرة كان الرومان بحاجةٍ الى مبدأ معين وقاعدة ثابتة تحكم تتابع الأشهر ضمن السنة دون زيادة او نقصان حتى لا تتحول اعيادهم وايام قرابينهم بالتدريج حتى تقع بالأخير في الفصول التي لاتستقيم مطلقاً مع طبيعة تلك الاعياد. ولم يكن لدى الناس حتى ذلك

الحين قاعدة لحساب السنة الشمسية ولم يكن يعرف حساب الوقت غير الكهنة، وهم كما شاءت اهواؤهم وامزجتهم يدخلون الناس دون سابق إنذار في الشهر الكبيس الذي يسمونه [مركيدونيوس Mercedonius] و[نوما] هو الذي ادخل هذا الشهر في السنة. الاّ ان محاولته لم تكن ناجحة لاصلاح الأخطاء الناجمة عن متعاقب الدورات السنوية كما بينا ذلك في سيرته. ولذلك استدعى [قيصر]، خير فلاسفة وحاسبي عصره لتسوية المشكلة. واستخرج من النظام الذي قدم اليه، قاعدة جديدة أكثر دقة لاصلاح التقويم. فثبت الرومان عليه حتى يومنا هذا وظهر انهم انجح اي شعب آخر في تحاشي الاغلاط الناجمة عن عدم انتظام الدورة السنوية. هذا العمل الجليل اغاظ ايضاً أولئك الذين ينظرون الى انجازاته نظرة سوداء. ويشعرون بالضيق والحرج من سلطته. اتفق مرة أن أحد اصدقاء شيشرون قال:

- ستشرق ليرا Lyra[٦] صباح اليوم التالي.

فردّ شيشرون: أجل ستشرق، حسب احكام المرسوم!

كأنّ المسألة إرغام قانوني.

الاّ أن السخط الأعظم الذي انصبّ عليه من الجمهور، هو رغبته في الملكية، كان هذا فاتحة انفصام العلاقة الطيبة بينه وبين العامة. وكان فضلاً عن هذا ذريعة معقولة لأعدائه في السرّ، زعم الذين ارادوه ملكاً أن كتب [السيبل Siyle] تنبأت بأن الرومان لن يستظهروا على البارثيين الاّ عندما يكون ملك على رأسهم وليس قبل ذلك باي حالٍ. وفي ذات يوم بينما كان [قيصر] نازلاً من [ألبا] الى روما تجرأ بعضهم فحياه بتحية الملوك. ولحظ أن الناس المتجمهرين لم يرقهم الأمر فأظهر الامتعاض من التحية. وقال أن اسمه [قيصر]. وليس [ملكاً]. وعندها ساد سكون عام ومرّ بين الناس دون أن تظهر عليه علائم الارتياح أو الرضا. ومرة أخرى عندما اغرقه المجلس بضروب من التكريم والامتيازات اتفق ان تسلم قرارهم بذلك وهو جالس على كرسي الخطابة [روسترا Rostra] حيث كان القناصل والبريتوريين وكل اعضاء مجلس الشيوخ واقفين اجلالاً له. فلم ينهض لهم وعاملهم كأنهم من عامة الناس. ثم قال: ان ما خلعوه عليه من تكريم وامتياز يحتاج بالأحرى الى حماية لا الى زيادة. هذا الموقف جرح مشاعر الشيوخ والعامة معاً. فالاخيرون عدواً اهانة المجلس، اهانة تسرى على جميع الشعب. ولم يستأذن بالانصراف، بل تفرق الحضور وكلهم المٌ وادرك [قيصر] هفوته فآب الى منزله واستلقى كاشفاً عن رقبته وخاطب اصحابه قائلاً:

- اني مستعد لتقديم هذه لكلّ من يريد ان يسدد لها طعنة.

---

(٦) كوكبة القيثارة. النسر الواقع.

واعتذر عن خشونته بالمرض زاعماً ان المصابين يفقدون حضور ذهنهم ان هم تكلموا طويلاً في حالة الوقوف. فيصابون بدوار ثم بتشنج ثم يفقدون الوعي تماماً. على ان الواقع لم يكن كذلك، فقد كان يهمّ بالوقوف احتراماً للمجلس عندما انحنى اليه [كورنيليوس بالبوس] احد اصحابه بل أحد المتزلفين وهمس في اذنه:

- الا تتذكر أنّك [قيصر] وانك لا تأخذ الاّ ما يستحقه مقامك؟

واتاح فرصة أخرى للحاقدين باهانته التريبيونات. كان يحتفل حينذاك بعيد [لوبركاليا] وهو عيد الرعاة بالاصل كما يقول بعض الكتاب وله بعض صلة (بليقية الاركادية) وفيه ترى الفتيان الاشراف والحكام يركضون في شوارع المدينة ذهاباً واياباً وقد نضوا عنهم الجزء الأعلى من ارديتهم يضربون كل من صادفوه بسوطٍ من الجلد على سبيل التفكهة والمزاح. وتعترض نساء كثيرات من ذوي الوجاهة والمقام سبيلهم وهن رافعات الاكف لتلقي ضربة السوط كما يفعل معلم المدرسة بتلاميذه عقاباً. معتقدات ان ذلك يسهل للحامل وضع وليدها ويجعل العاقر ولوداً. وجلس قيصر على كرسي من الذهب متوشحاً برداء النصر في الروسترا، يرقب الاحتفال. وكان [انطوني] القنصل اذ ذاك، أحد الراكضين فعند وصوله الفورم افسح الناس له، فصعد وقدم لقيصر تاجاً مزداناً بالغار، وندّ من بين الجمهور هتاف ضعيف، من قلةٍ كانت قد جمعت لهذا الغرض. وعندما رفض قيصر التاج تعالى الهتاف مجلجلاً عاماً. وقدم اليه ثانية فلقي العمل هتافاً اضعف من الأول، وعاد الى رفضه فارتفع الهتاف يشق عنان السماء. فايقن قيصر أن اللعبة مقضيّ عليها ونهض وأمر ان يؤخذ التاج الى الكابيتول، ثم بدت تماثيل [قيصر] وعلى رؤوسها التاج الملكي. فذهب التريبيونان الشعبيان [فلاڤيوس Flavi-us] و[مارولوس Marullus] حيث تقوم التماثيل وانتزعوا التيجان عن هاماتها واعتقلا اول من حيّا [قيصر] بالملكية واودعاهم السجن، فسار الجمهور خلفهما مشيعاً بهتاف الاستحسان والتشجيع وأطلقوا عليهما لقب [بروتوس] لأن [بروتوس] كان أول من انهى التعاقب الملكي في الدولة الرومانية ونقل السلطة الى مجلس الشيوخ والعامة بعد ان كانت مركزة في يد شخص واحد فاغتاظ [قيصر] وعزل التريبيون، واستهان بمشاعر الاهالي باصراره على اتهامهما - ولقب الرجلين أكثر من مرة بـ[بروتي Bruti] و[كيوماي Cu-maei].

هذا ما جعل الجمهور يتطلع بانظاره الى [ماركوس بروتوس] سليل بروتوس الاول من جهة ابيه على ارجح الاقوال، وسليل الاسرة النبيلة المشهورة [سرڤيلي] من جهة امه، وابن اخت [كاتو] ختنه. الاّ ان الامتيازات والمناصب التي خلعها عليه قيصر اخمدت فيه اية فكرة قد

تساوره في الاطاحة بحكومة الفرد. عفا عنه [قيصر] في فرساليا بعد هزيمة [پومپي] وسعى هو بعد ذلك الى نيل العفو عن كثير من اصحابه، كما كان موضع ثقة قيصر الخاصّة، وكان يتقلد في ذلك الحين ارفع پريتورية. ورسم له قيصر ان يتسنم منصب القنصلية بعد اربع سنوات مقدماً اياه على [كاسيوس] منافسه فيها. وعندما سئل [قيصر] عن هذا التفضيل قال:

- كاسيوس أحقّ بها، لكني لا استطيع اغفال [بروتوس].

ولم يضع لمن اغتاب [بروتوس] بعد ان قطعت مؤامرة اغتياله شوطاً بل وضع يده على جسمه وقال للنمام:

- بروتوس سينتظر جلدي هذا.

يعني انه جدير بتسلم الحكم لما يتحلّى به من خلق. لكنه لن يكون سافلاً ولا ناكر جميل الى الحدّ الذي يعمد لأخذه غصباً. ولم يجرأ على مفاتحة [بروتوس] بالمؤامرة أحد ممن كانوا يطمحون الى التغيير وينظرون اليه بوصفه الشخص الوحيد - او الانسب على الأقل - بتحقق هذا التغيير. على انهم كانوا يأتون ليلاً فيصفون على كرسيه الذي اعتاد الجلوس عليه عند فضّ الدعاوى والنظر في الظلامات - اوراقاً فيها مثل هذه العبارات:

«انت نائم يا بروتوس». «لم تعد بروتوس بعد».

وعندما أحسّ [كاسيوس] أن الطموح بدأ يتمخض فيه، سارع في اذكائه. وكان كاسيوس يحقد على [قيصر] حقداً شخصياً لأسبابٍ كثيرة سنأتي الى ذكرها في سيرة [بروتوس].

ولم يكن [قيصر يخلو من شك في نوايا [كاسيوس] فلقد قال مرة لاصحابه:

- ما رأيكم فيما يهدف اليه كاسيوس؟ اني لا أحبه، انه يبدو شديد الشحوب.

ولما قيل له ان [انطوني] و[دولأبلاّ] شريكان في المؤامرة اجاب:

- اني لا أخشى مثل هذين المبدنيين المترفين. لكن أخشى اولاء الرجلين الضعيفين الشاحبي الوجه.

يعني كاسيوس وبروتوس.

ومهما يكن من أمرٍ فالقدر - كما تدل الظواهر، هو محتوم أكثر مما هو غير متوقع، ولقد قيل ان خوارق عديدة وظواهر طبيعية لوحظت قبل تنفيذ المؤامرة. ونحن لا نرى ما يستأهل الذكر في انوار اضاءت السماء، واصوات سمعت في الليل وطيور حطت في الفورم. فهناك مثلاً ما اورده الفيلسوف [سترابو] حول مشاهدة عدد من الرجال بدوا وكأنهم سخنوا بالنار

يجادلون بعضهم بعضاً. وخروج حزمة نار من يد خادم لأحد الجنود، حتى خيل للحاضرين انها احترقت في حين ظلت سليمة لم يلحقها ضرر. وهناك معجزة أخرى رواها كثيرون وهي ان عرافاً طلب من قيصر ان يحذر خطراً عظيماً سيتعرض له بعد متنصف آذار Ides(٧). وعند حلول ذلك اليوم لقي قيصر العراف بالصدفة اثناء ما هو داخل مجلس الشيوخ فطفق يمازحه قائلاً:

- لقد حَلّ متنصف آذار.

فأجابه العراف بهدوء: أجل حلّ ولكنه لم ينته بعد.

وفي اليوم الذي سبق اغتياله تعشى مع [ماركوس ليپيدرس] وفيما هو يوقع بعض الرسائل جرياً على عادته، اثيرت وهو متكيء على المائدة - مناقشة حول أفضل ميتة فأسرع يجيب قبل ان يسبقه أحد:

- موت الفجأة.

ثم انه عاد الى منزله واستلقى على الفراش الى جانب زوجه، فاذا بجميع ابواب الدار ونوافذها تنفتح معاً على مصاريعها فأجفل للصوت وبهره الضوء الذي نفذ الى الغرفة. وجلس على سريره. وفي نور القمر وجد كالپورنيا مستغرقة في نوم عميق الاّ انه سمعها تهمس في حلمها بكلمات غير مفهومة وتصعد انينا وآهات. لقد كانت تحلم بانها تبكي فوق جثة زوجها وهو مثخن بالجراح يلفظ انفاسه بين ذراعيها. ويقول آخرون ان الحلم الذي رأته غير هذا. بل رأت البرج الذي قرر الشيوخ بناءه في سطح دار [قيصر] بمثابة زخرف وكدليل على الرفعة والسؤدد، قد تداعى وخرّ وكان هذا سبب بكائها وانينها، على ما يخبرنا ليڤي. واستقيظت صباحاً وتوسلت بقيصر الاّ يخرج من الدار ان امكن وان يؤجل اجتماع المجلس الى موعد آخر. وان استهان بالرؤيا فحبذوا لو استخار طالعه بتقديم القرابين واداء بعض الفرائض الأخرى. ولم يكن هو نفسه يخلو من الشكوك والمخاوف. كما انه لم يعرف من زوجه كالپورنيا شدة ايمانها بالخرافات كغيرها من النسوة. وها هو يراها وقد استحوذ عليها القلق الشديد.

قال الكهنة انهم نحروا عدداً من الأضاحي فوجدوها منحوسة. فقررّ ان يبعث انطوني لفضّ المجلس.

وكان ثم شخص يدعي [ديتيموس بروتوس Decimus Brutus] ويلقب [البينوس] وهو

(٧) في التقويم الروماني كلمة Ides تشير الى الخامس عشر من آذار او من تشرين الثاني من الايام السبعة التي تليه.

أحد من وثق بهم قيصر وأئتمنهم بحيث جعله وريثه الثاني. لكنه كان من الشركاء في المؤآمرة. فخشي ان تأجل الاجتماع ان ينكشف السرّ. فأخذ يندد ويسخر بالعرانين ويلوم [قيصر] لأنه سيقيم الحجة على نفسه بأهانة المجلس لأنهم لم يجتمعوا الاّ بدعوة منه. وقال انهم على استعداد للتصويت بالاجماع على المناداة به ملكاً لكلّ الامبراطورية خارج ايطاليا. وسيضعون على رأسه تاج الملك. فلو أرسل من يطلب منهم التفرق في الوقت الحاضر ثم الاجتماع بعد أن يتفق لكالپورنيا أن ترى حلماً أفضل مما رأت أمس. فماذا سيقول خصومه؟ وكيف السبيل لاصحابه الى الصبر وكظم الغيظ ان سمعوا تهم الطغيان والتحكم تكال له؟ ومع هذا اذا اصرّ ان هذا اليوم يوم نحس فحريّ به أن يذهب هو بنفسه الى المجلس ويطلب التأجيل. قال هذا وأمسك بيد قيصر وساربه. ولم يمض بعيداً عن المنزل حتى تعقبه خادم من الخدم فعجز عن اللحاق به، بسبب الازدحام فقصد منزله وطلب من كالپورنيا متضرعاً ان تحميه في الدار حتى عودة [قيصر] لأن لديه اموراً في غاية من الاهمية يريد أن يكشفها له.

وكان ثمّ معلم اليوناني اسمه [ارتيمودوروس الكنيدي Artimodorus]. افسحت له صناعته المجال للتصرف ببروتس فتم له الاطلاع على السرّ. جلب هذا المعلم لقيصر اسماء الرؤوس التي ينبغي له اجتثاثها مكتوبة على ورقة صغيرة. وكان يعلم أن [قيصر] اعتاد ان يسلم الاوراق التي تقدم له الى احد الخدم القريبين منه فاقترب منه غاية ما امكنه وقال له وهو يناوله الورقة.

- اقرأ هذه يا قيصر. على انفراد وبسرعة. لأنها تتضمن أمراً خطيراً يخصّك بالذات.

تسلم قيصر الورقة وحاول قرأتها عدة مرات فأخفق بسبب تزاحم الناس لمكالمته. فابقاها في يده وحدها حتى دخل المجلس ويقول آخرون ان معطي الورقة هو شخص آخر، وان ارتيمودوروس لم يستطيع الوصول اليه وبقي بعيداً عنه بسبب الازدحام.

ربما جرت هذه الاحداث بمحض الصدف والاتفاق. الاّ ان الموضع الذي قدّر ان يكون محلّ التنفيذ حيث كان المجلس سيعقد جلسته يومذاك، هو واحدٌ من الصروح التي بناها [پومپي] واوقفها مع مرسحه للنفع العام، الامر الذي يوضح ان هناك موجهاً للاحداث من قوى ما وراء الطبيعة، يفرض وقوعه في زمان ومكان معينين.

قيل ان [كاسيوس] وجه نظره الى تمثال [پومپي] مستمداً منه المعونة في سرّه. مع انه من معتنقي المبدأ الابيقوري.

الاّ ان رهبة الموقف وعظم المطر افقداه توازنه العقلي وملأه في تلك الخطة بنوع من الوحي.

اما [انطوني] القوي العضل الذي لم يكن يفارق قيصر. فقد ابقاه [بروتوس البينوس] خارج المجلس وشاغله بحديث طويل اخترعه لهذا الغرض. ودخل قيصر فنهض اعضاء المجلس احتراماً له. وتقدم بعض المتآمرين فوقفوا خلف كرسيه، وآخرون وقفوا امامه متظاهرين بمساندة [تيلليوس كمبر Tillius Cimber] الذي يتشفع لأخيه المنفي. وأخذوا يتبعونه وهو سائر الى مقعده بكلمات التوسط والاسترحام حتى اذا جلس رفض الاستجابة الى الرجاء، فالحوا عليه فبدأ يعنفهم بشدة لكثرة لجاجتهم. وعندها مسك [تلليوس] رداءه بكلتا يديه وجذبه الى تحت فكشف عن عنقه وتلك هي الاشارة المتفق عليها بين المتآمرين. واصابه [كاسكا Casca] باول طعنة من خنجره ولم تكن قتّالة ولا بليغة، لأن الضارب كان شديد الاضطراب شأن كلّ بادىء بعملٍ جريء مثل هذا. فاستدار قيصر حالاً وامسك بالخنجر ولم يفلته وصاح الضارب والمضروب معاً. قال قيصر باللاتينية

- كاسكا أيها الخسيس ماذا يعني هذا؟

وقال كاسكا بالاغريقية مستنجداً باخيه:

- عونك يا أخ!

في المبدأ اصيب كل من لا علم له بالمؤامرة بما يشبه الذهول والوجوم وبلغ الرعب بهم الحدّ الذي شلّ حركتهم فلم يقدموا على الفرار ولم يجرأوا على مساعدة قيصر. ولم ينطقوا بكلمة. اما الذين كانوا متهيئين لها فقد شدّوا الخناق عليه من كل صوب بخناجرهم المجردة. فكان يتلقى طعنةً اني توجّه ورأى سيوفهم مسددة الى وجهه وعينيه وحوصر كالوحش الضاري المكافح. كان الاتفاق فيما بينهم أن يشارك كل واحدٍ منهم بطعنة ويلطخوا انفسهم بدمه. ولهذا سدّد بروتوس طعنه الى ما فوق الفخذ ويقول بعضهم ان [قيصر] قاوم الجميع محركاً جسمه لتحاشي الطعنات وهو يصرخ مستنجداً الى ان رأى سيف [بروتوس] مسلولاً، فحينذاك غطى وجهه بطرف ردائه وكف عن الحركة وسقط على الارض عند قاعدة تمثال [پومپي]. ولايعلم أكان هذا مجرد صدفة ام ان قاتليه تعمدوا دفعه الى تلك الجهة؟ فتلطخ التمثال بدمه. وهكذا بدا وكأن [پومپي] نفسه قد تزعم عملية الانتقام من خصمه فسقط تحت قدميه ولفظ آخر انفاسه وهو مثخن بالجراح. أصيب على ما قيل بثلاث وعشرين طعنة وجرح عدد من المتآمرين بأسلحة اخوانهم عند تسديدهم الضربات الى الشخص واحد.

بعد ان تم القضاء على [قيصر] وقف [بروتوس] خطيباً يشرح الاسباب التي حملتهم على قتله. لكن مجلس الشيوخ كان عازفاً عن سماعه وتسابق اعضاؤه الى الفرار فملأوا الناس

رعباً وقلقاً فأغلقت طائفة بيوتهم عليهم وترك آخرون حوانيتهم واماكن عملهم وصار الجميع يتراكضون في الشوارع، بعض قاصداً موضع الجريمة. وبعض عائد من موضع الجريمة. وأفلت [انطوني] و[ليبيدوس] اصدق اصدقاء قيصر. واختفيا في دار أحد الاصدقاء. وخرج بروتوس وشركاؤه ونفوسهم مازالت متوقدة بحرارة الموقف. وتركوا المجلس كتلةً واحدة وقصدوا الكابيتول والسيوف مشرعة في ايديهم، لا كمن يفكر بالفرار ولكن بثقةٍ واعتزاز.

وكانوا ينادون في الناس اثناء سيرهم ان يستمتعوا بالحرية. ودعوا كل من صادفوه من علية القوم للانضمام اليهم. فالتحق بهم عدد منهم وسار مع موكبهم كما لو كان شريكاً في المؤامرة، وبمقدوره الادعاء بنصيب من شرف هذا العمل. اليك مثلاً [كايوس اكتافيوس Gaius Octavins] و[لنتولوس سبنثر] اللذين جوزيا شرَّ جزاءٍ على حماقتهما هذه. فقد قبض عليهما [انطوني] و[قيصر الاصغر] فضاع منهما الشرف المنشود، مع حياتيهما. اذ لم يكن أحد ليشكَّ في أنهما بريئان حتى أولئك الذين تولوا انزال العقوبة بهما فقد كانوا متأكدين ان لا دخل لهما فيها، وانما انزل بهما العقاب لما انطوى عملهما عليه من سوء نية. وفي اليوم التالي نزل [بروتوس] وبقية المتآمرين من [الكابتول] والقوا خطباً في الجمهور. فأصغى الناس اليها دون ان يظهر عليهم سخط أو رضا. لكن ضمتهم لوضح بأنهم يأسفون لما حَلَّ بقيصر، ويحترمون [بروتوس].

واصدر المجلس قرار العفو العام واسدال الستار عما جرى واتخذ التدابير لمصالحة الفئات المتخاصمة. وتقرر ان يعبد [قيصر] كأحد الآلهة. وبعدم الغاء أو نقض اي قانون سُن أو عمل جرى ايام حكمه ثم منحوا [بروتوس] وصحبه مناصب مختلفة وقيادات خارج ايطاليا حتى ظنَّ الناس جميعاً انه الأمور استقرت بشكل ليس أحسن منه.

لكن عندما فضت وصية قيصر ووجد أنه ترك ميراثاً لايستهان به لكل مواطن روماني، وعندما حمل جثمانه الى الميدان الكبير مثخناً بالجراح. لم يسع الجمهور المحافظة على الهدوء واسرع المحتشدون بجمع الواح المصاطب وقضبان الخشب والموائد وكدسوها ثم رفعوا الجثمان الى الكومة واشعلوا النار فيها. وسحب بعضهم ملتهبة وهرعوا لاحراق بيوت المتآمرين. وآخرون أخذوا يطوفون بها ارجاء المدينة لعلهم يعثرون على أحد القتلة ليمزقوه ارباً فلم يجدوا أحداً لأن أولئك اتخذوا التدابير للمحافظة على ارواحهم.

كان ثم صديق [القيصر] اسمه [سنا] رأى في تلك الليلة التي تلقت المؤآمرة حلماً غريباً. خيل له ان [قيصر] دعاه الى العشاء وعند اعتذاره عن الذهاب امسك [قيصر] بيده وسحبه ولكنه تراجع. عندما سمع هذا الرجل ان جثمان قيصر يحرق في الميدان توجه الى الموضع

احتراماً لذاكره. وان كان الحلم قد ملأه بالمخاوف والهواجس ومع انه كان مصاباً بالحمّى وسأل عنه أحد المتجمهرين فأجاب شخص قريب منه انه [سنّا] وانتشر بين الناس بلمح البصر انه احد المتآمرين. (كان ثم [سنّا] آخر بين المتآمرين في الواقع) فامسكوا به حالاً ومزقوه ارباً.

وشاع الرعب في نفس [كاسيوس] و[بروتوس] بسبب هذه الحادثة. وغادرا ايطاليا خلال ايام قلائل. وقد ذكرنا تفاصيل اعمالهما وما صادفاه وكيفية موتهما في سيرة [بروتوس].

مات [قيصر] وله من العمر ستّ وخمسون سنة. اي بعد موت [پومپي] باربع سنوات. ولم يجن غير الشهرة الفارغة والمجد المثير للحسد، من تلك الامبراطورية التي جمع اطرافها، والسلطة التي ظلّ يطلبها طول حياته، بركوب الأخطار والأهوال. الاّ ان الجنيّ الحارس الذي ظلّ ملازماً له طوال حياته. لازمه بعد مماته منتقماً له من قتلته، متصيداً كل ضالع في المؤآمرة براً وبحراً فلم يدع أحداً منهم حياً سواء، في ذلك أولئك الذين انفذوا الامر فعلاً أم الذين كان لهم نصيب التحريض والحضّ الكلامي.

ومما يخرج عن دائرة الصدفة والاتفاق ما وقع [لكاسيوس] فقد بخع نفسه بعين الخنجر الذي استخدمه لقتل [قيصر] بعد هزيمة [فيليپاي] وابرز الظواهر السماوية التي وقعت في هذه المناسبة هو ظهور مذنب ساطع في كبد السماء، طوال الليالي السبع التي عقبت مصرع [قيصر]، وبعدها اختفى. ومنها اظلام الشمس التي استمر قرصها شاحباً مغبراً طوال تلك السنة، فلا يبدو بريقها الخاطف عند بزوغها ولا تعطي حرارة قوية كالعادة. ولذلك اصبح الجوّ رطباً معكراً لحاجته الى اشعة أقوى تتكفل بتبديده وتنقيته. ولم تينع اثمار ذلك الموسم بالشكل المعتاد لعين السبب وبدأت الفاكهة تذوى وتتساقط لقلة الحرارة، قبل وصولها مرحلة التكوين. والاهم من هذا كلّه الطيف الذي ظهر لبروتوس وهو دليل على ان الآلهة لم تكن راضية عن مقتل قيصر. واليك الرواية:

كان [بروتوس] ينوي الانتقال بجيشه من [ابيدوس] الى القارة وقد استلقى ليلةً في خيمة كما هي عادته ولم ينم وانما راح يفكر في شؤونه وفي المتوقع من الاحداث. وقد اثر عنه انه أقل الناس نوماً. وان لديه مقاومة طبيعية له وقدرة على السهر والعمل المتواصل دون شعوره بالحاجة الى الراحة. وخيل له وهو مستلق انه سمع صوتاً عند باب الخيمة فأرسل نظره مستطلعاً على ضوء مصباحه الذي كاد ينطفيء. فشاهد هيئة مخيفة شبيهة برجل لكن بقامة غير اعتيادية وملامح قاسية ادركه بعض خوف اولاً. ولكن الطيف لم يفعل شيئاً ولم يتكلم وانما وقف صامتاً بالقرب من سريره. فسأله [بروتوس] عمن يكون فأجاب الطيف:

- انا الجنيّ الشرير [يا بروتوس]، وستلقاني في [فيليپاي] فأجاب بروتوس بكل شجاعة:
- حسن، سألقاك هناك.

وغاب الطيف الطيف فجأة. وعندما حان الوقت صف جيشه قرب [فيليپاي] مقابل جيش [انطوني] و[قيصر الصغير] ودارت الدائرة على خصومه اولاً وهزم العدوّ ونهب معسكر قيصر. وفي الليلة التي سبقت المعركة الثانية، ظهر له الطيف ثانية ولم يكلمه. فادرك في الحال أن نهايته دنت. وعرّض نفسه لكل انواع المخاطر في المعركة فلم يقتل. ولما رأى رجاله يولون الادبارمقهورين صعد صخرة وجرد سيفه وسدده الى صدره العاري وبمعونة احد اصدقائه بخع نفسه.

١٩٧٢/١/١



دينار منقر ٥٤٧م المتحف البريطاني


فوكيون
PHOCION
402 – 318



بلغ [ديماديس Demades] الخطيب في اثينا أوج سلطاته بين الاثينين باعتباره مستشاراً للدولة في شؤون العلاقة مع انتيباطر والمقدونيين. وكانت الضرورة تلجئة الى كتابة وقول ما هو دون سمعة المدينة ومطانتها. وكان يعتذر لنفسه قائلاً: انه يدير دفة حطام سفينة لا غير. ولو طبق هذا القول السليط الوقح على فترة حكم [فوكيون] لكان اقرب الى الحقيقة. فديماديس في الواقع، كان حطام بلاده لا غير، يحيا حياةً فاسدة، ويحكم حكماً فاسداً، حتى قال عنه [انتيپاطر]:

- بعد ان طعن ديماديس في السنّ، صار أشبه بالأضحية. اتت النار عليها ولم تبق منها غير الكرش واللسان.

ويخلاف ذلك، فوكيون، فقد كان الفضيلة مجسمة. لكن عاديات الزمن العاثر حققت الغلبة لنفسها عليه في مباراة غير متكافئة. فخمل ذكره وضاع في زوايا النسيان بسبب سوء حظّ اليونان. ولن نسمح لأنفسنا بان نوافق [سوفوكلس] في اغراقه باستصغار قوة الفضيلة حين يقول:

عندما يعثر الحظ. يتخلّى العقل عنّا ايضاً، ويذهب الى حيث لا عودة.

ومع هذا فان الصراعات بين افاضل الرجال وسوء الحظّ يمكن ان تحصل في الواقع. فبدلاً من التكريم والامتنان اللذين يستحقانه جزاءً. تحدهم يقاتلون في أغلب الاحيان بسوء الظنّ والنتقاص لاضعاف ايمان الآخرين بفضائلهم.

ومما هو معروف سائد أن الهيئات الشعبية هي أكثر الجهات اهانة بالطيب من الرجال وازدراءً لهم عندما يبطر الشعب بالرخاء وينتفخ زهوا بالنجاح. وكثيراً ما يحصل العكس ايضاً فالنوائب والنكبات العامة تحَط وتفسد عقول وامزجة الرجال، حتى تصل بهم الى المشاكسة والحدّة فيصعب جداً توجيه كلمة طيبة اليهم أو أظهار عاطفة صادقة نحوهم، فأنهم يشعرون وكأنهم يهانون، ومن يحاجّم في اخطائهم يعتبرونه متشفياً بسوء حظوظهم. ويؤولون اي نقاش يجرى معهم بانه استهزاء واحتقار لهم. ان العسل يوجد في مواضع عسيرة المنال

تصيب طالبها بخدوش وجروح. واكثر النصائح اتزاناً واوفرها حكمة هي عند العقول المريضة مغيظة مستنفزة الاّ اذا تم عرضها وتقديمها بممهدات ملطفة رقيقة الحاشية.

والشاعر يتناول بالوصف موضوعات مقبولة بصورة عامة، بكلمة معبّرة، ذات وقع لطيف مستحبٍ فلا يغيظ ولا تستفزّ. ان العيون المقروحة تتطلب المحل المعتم لكي لا تقع الا على الألوان الغامقة، لأنها لا تتحمل الضوء الساطع، كذلك السياسته ففي الوقت العصيب، وفي ايام الذلّ والضنك، تسود الناس حساسيّة عالية ومرارة، وبقابلية تحمّل ضعيفة، تجد كل نصيحة خالصة صريحة مهما كان الموقف يتطلبها - تحتاج الى هذه الحيطة. وعندما تكون آثار الخطأ غير قابلة للاصلاح، يكون تصريف الشؤون العامة عملاً مزعجاً محفوفاً بالاخطار مهما بلغت اليد الممسكة باعنتها من الحذق والمهارة. ويبتلع الدمار التام والانهار العام أولئك الذين يسايرون الشعب ويتطرفون له اما أولئك الذين يحاولون قيادة الشعب الى السبيل القويمة فأنهم يهلكون في أوّل المحاولة.

ويحدثنا الفلكيون بأن حركة الشمس ليست على تمام اتساق مع حركة الفلك بصورة عامة، كما هي ليست معاكسة له أو متقاطعة معه، ولكنها تتخذ مساراً مائلاً وتتعقب خطاً قوسياً غريباً فتنساب بهدوءٍ وليونة لتوزع ضياءها وحرارتها اثناء دورتها السنوية ذات الفصول المختلفة المنقسمة قسمةً عادلة على الأرض، وهذا ما يحدث في عالم السياسة فان كانت حركة الحاكمين معاكسة ومضادة لامزجة المحكومين وميولهم، فان هؤلاء سيضيقون بها ويعتبرونها قسوةً من حكامهم واستبداد. ومن الناحية الأخرى فان التغاضي الكثير والتشجيع - كما يحصل في أغلب الاحيان - يزيد في اخطاء المحكومين وزيغهم فيكون مليئاً بالخطر ذا عواقب وخيمة. إن السياسي الحقيقي هو الذي ينجح في ارضاء شعبه بحيث يتيح له المجال للشعور بالمصلحة العامة والثبات عليها، فعندما يكون التنازل الشعبي استجابة للطاعة الاختيارية المستمدة من ذلك الشعور، عندئذ تجد المحكومين أكثر استعداداً للخدمة والطاعة - كالعبيد يمكن ارشادهم وحكمهم بالشكل الذي يصونهم ويصون مصالحهم شريطة ان لايزجروا أو يضطهدوا أو يعاملوا بقسوة.

وعلينا الأقرار انه بقدر مما هو جميلٌ حسن أن يطرأ بعض التعديل على الملاينة والمسايرة للمحافظة على سلطة الحكومة فهو صعب عسير المنال. لكن ان أمكن الوصول الى هذا المزيج المفيد فان التعاضد والتوافق يكونان في أحسن حالهما. ولنعلم بأن الله نفسه يحكم العالم لا بالقوة التي لا تطاولها قوة، بل بالحكمة والعقل المقنع وبالغايات الخالدة.

إن [كاتو] الأصغر، هو مثل شبيه بالمترجَم له. لم تكن أخلاقه مقبولة، ولم يكن طبعه

مرضياً من الناس وقليلٌ من أحبّه. أنظر كيف تصرّف في انتخابات القنصلية. وبهذا يقول شيشرون:

- خسر المنصب لأنه كان يتصرف وكأنه أحد مواطني «جمهورية افلاطون» غير مدرك انه كان يعمل بين حثالات نسل [رومولوس].

ويلاحظ الشيء نفسه في الفاكهة الناضجة قبل اوانها. اننا نستمتع بالنظر اليها والاعجاب بها أكثر من استمتاعنا باكلها. فكانت فضائله واخلاقه ذات الطابع القديم البعيدة عن روح العصر تعيش بين العادات الفاسدة التي حملها الترف والعطن الى ذلك العصر. فبدت رائعة غريبة في ذلك الجوّ وكانت اسمى وأجود من ان تلائم متطلبات العصر أو ان تتفق مع روح الزمن واتجاهاته. ومع هذا فان ظروفه تولى ادارة الدفة وقد بدأت السفينة تميل الى الغرق. كان عصر [كاتو] في الواقع مضطرباً تعصف به الأهواء من كل جانب ومع ذلك تمكن من مديده لمساعدة الملاحين (ولم يسمح له بأن يكون واحداً منهم)، لذلك فاللوم لايقع عليه بل عليهم على أن شجاعته ومتانة خلقه، أحبطت على الحظّ محاولته في تدمير الجمهورية رغم كلّ ما حدث. ولم تقع الواقعة أخيراً الاّ بعد فترة طويلة وبعد التدرج البطيء وبذل الجهود، في حين كان [كاتو] على قاب قوسين من النجاح.

ومن المناسب كثيراً ان نجري مقارنته بـ[فوكيون] لا لمجرد التشابه في الخصائص العامة. كقولنا انهما شخصان طيبان وسياسيان عظيمان. مما لاشكّ فيه ان ثم فروقاً كبيرة بين الاخلاق ذات المنحى الواحد كالفرق مثلاً بين شجاعة [الكيبيادس] و[ايپامنداس] وبين حذر [تمستوكليس] و[اريستيدس] وبين عدالة [نوما] و[اغيسلاوس]. الاّ ان أخلاق هؤلاء الرجال مجتمعاً تتّسم بعين الطابع العام واللون والصفات بحيث لايمكن تمييز الفرق وان تأملنا ادق نقاط الاختلاف فيما بينهما. فالمزيج متحقق بعين النسب بتأكدنا من شمولها على عين العناصر المكونة لها: ابتداء من الرفق وانتهاء بالتزمت لا بأقدام في موقفٍ والاحجام في موقف بالدفاع المتطرف عن مصالح الشعب والاهمال التام لأنفسهم بالاقدام بميلهم المقيم الى كل الاعمال السامية بغاية من اللطف وحرصهم على مجانبة كل ما هو تافه حقير. لذلك يلزمنا منطق سليم مقارن. وعقل حصيفٍ نافذ لاستخلاص الفوارق بين [كاتو] و[فوكيون].

أما عن اصل [كاتو] فمما لاينكر انه كان أصلاً عريقاً لامعاً كما سنفصله فيما بعد. ولم يكن اصل [فوكيون] وضيعاً او خاملاً. ولو كان ابن خراطٍ كما أدعى [ايدومينوس Idomoneus] لكان [گلاوكيپوس Glaucippus] ابن [هيپيريدس Hyperides] قد اتخذ الزعم للحطّ من شأنه، وهو الذي جمع آلاف العيوب والنقائص عنه. كذلك لم يكن بمقدور [فوكيون]

وابوه بهذه الحال من الضيق المالي ان ينال مثل ما نال من التربية والتهذيب العالي في صدر شبابه فقد تتلمذ على [افلاطون] ثم على [كزينوقراطس] في الاكاديمي وأوقف نفسه منذ البداية على ممارسة أشرف الأعمال، ومتابعة أعلى الدراسات. وكانت ملامح وجهه في غاية الهدوء وقل ان رآه آثيني يضحك اويبكي. ويقول [دوريس] انه نادراً ما عرف عنه ارتياده الحمامات العامة، أو شوهدت يده خارج معطفه عند ارتدائه معطفاً. واذا كان خارج اسوار المدينة أو مخيم تبدى مدى احتماله قسوة الجوّ في انه لا يرتدي الاّ الخفيف من الثياب ولايمشي الاّ حافي القدمين، إلاّ عندما يكون البرد على اشده. واذ ذاك يقول الجنود مازحين حين يرون فوكيون مرتدياً معطفه:

- لاشكّ ان شتاء هذه السنة سيكون قاسياً.

كانت قسمات وجهه صارمة قاسية منفرة، في حين لم يضارعه أحد في طيبة قلبه. ولا يرى برفقة احد الاّ اذا كان من اصدقائه الخلص القلائل. أبدى [خاريس] ملحوظة على قطوبه وجهامته فأضحك بها الاثينيين، فقال [فوكيون]:

- إن جهامتي لم تورث أحداً منكم الحزن. الاّ ان فكاهات هؤلاء الرجال، أورثتكم من الآلام ما فيه الكفاية.

هكذا كانت أحاديث [فوكيون] دوماً، ملأى بالتوجيه الأدبي، مفعمة بالحكم الجميلة، والاقوال البليغة. لاتسمح بأي مجال للتزويق والتنميق في اطار ايجازها الجافّ الهادف، يقول [زينو]: على الفيلسوف الاّ يتكلم الاّ عندما يشبع كلماته بالمعاني، وكذلك هي اقوال [فوكيون] فقد حفلت بأعظم المعاني والمفاهيم المؤداة باقصر الجمل واوجزها. وربما كان [بوليوكتس Polyeuctus] السفتيوني Sphettion] يقصد هذا بقوله: ان [ديموستينس] كان في الواقع أعظم خطباء زمانه. الاّ ان [فوكيون] كان اقوى متكلم». كانت خطبه اشبه بقطعة النقد الصغيرة ذات القيمة العالية، لا يمكن تقديرها بحجمها بل بقدر ما تحويه من القيمة الحقيقية.

شوهد مرة على ما يقال وهو يمشي منشغل البال خلف الملعب بعد ان أمتلأ المسرح بالنظارة. فأنتبه اليه صديق فابتدره يسأل:

- اراك يا فوكيون منشغل البال.

فأجابه فوكيون: أجل. انا افكر في اختصار ما سأقوله الآثينيين.

وديموستينس نفسه الذي كان يحطّ من شأن كل خطباء زمانه ما ان يقوم [فوكيون] للكلام

حتى يهمس في اذان القريبين منه: اليكم سكين تقليم عصرنا.

وعلى أكثر تقدير لا يعود هذا الى بلاغة [فوكيون] قدر ما يعود الى قوة تأثير شخصيته. فايماءة، ولا نقول كلمة، تصدر من شخص رفيع المكانة لهي أقوى وقعاً من ألف محاورة أو عبارة مدروسة يلقيها الآخرون.

والتحق [بخبرياس Chabrias] الجنرال، وهو بعد فتى يافع وأخذ عنه الكثير في الفنّ العسكري، وأكتسب ذاك منه ما ساعده على اصلاح طبعه المتلقّب غير المتوازن فقد كان [خبرياس] عسكرياً مقداماً صوّالاً ينسى حاله عندما يحمى وطيس المعركة فلا يرى نفسه الاّ وهو يتقدم الصفّ الأول، الأمر الذي كلّفه حياته بالأخير عند جزيرة [خيوس] فقد دفع بسفينة الى الامام حتى ارتطمت باليابسة.

لكن [فوكيون] فضلاً عن شجاعته - كان هادىء النفس متأنياً صبوراً. لديه من البراعة ما يكّفه من دفع القائد الى القتال عندما يأنس منه المماطلة والتسويف ولديه من الحذق ما يستطيع في ظرف آخر من تهدئه انفعاله ووقف اندفاعه الجائح الذي لا مبرر له. لذلك مال اليه [خبرياس] الرقيق الحاشية الطيب القلب وآثره بحبه واسند اليه القيادات واتاح له فرص العمل وافسح له المجال والوسائل ليجعل اسمه علماً في بلاد الاغريق. وساعده في العمليات الكبيرة، لاسيما القتال البحري في [نخسوس] الذي رفع صيت [فوكيون] الى الأوج. فقد اناط به قيادة قطع المسيرة وأحتدمت المعركة في هذا الجناح بالذات وتركز ثقلها عليه فقهد مصيرها بنصر سريع، وكانت تلك اول معركة بحرية ناجحة خاضتها المدينة بقواتها الخاصة بعد أن نفضت عنها سيطرة المحتل. فاستطارت شهرة [خبرياس] بها وعدّ [فوكيون] بسببها من القادة المجيدين. واتفق ان النصر وقع في يوم الاحتفال بعيد (الأسرار الكبرى) ولذلك جعل [خبرياس] عادته لتخليد ذكر اليوم المجيد بتوزيع الخمر مجاناً على الآثينيين في السادس عشر من شهر [بيودروميون] سنوياً.

أمر [خبرياس] [فوكيون] بالابحار الى سكان الجزر ومطالبتهم بسهمهم من مهمات الحرب ونفقاتها وزوده بعشرين سفينة لحراسته. فقال له فوكيون:

- ان كنت تريدني الذهاب اليهم كاعداء فهذه القوة لايؤبه بها. وان كنت تعتبرهم اصدقاء وحلفاء فتكفيني سفينة واحدة.

وأقلع بسفينة فحسب فزار المدن وكان لقاؤه بالحكام لقاء صداقته واخوة وعاد بعدد من السفن، أرسلها الحلفاء الى آثينا لنقل المهمات وأمتدت آثار صداقته [لخبرياس] الى ابنه بعد

وفاة هذا الجنرال. فضلاً عن سائر اقربائه. فقد حاول [فوكيون] جهده ان ينفعه ويرعاه، وكان شاباً غبياً عنيداً لايسلس قياده، لم يأل فوكيون جهداً في اصلاحه وتقويمه وتغطية هفواته وزلاته. ومرة بدأ له هذا الفتى مزعجاً وقحاً في المعسكر بطرحه اسئلة سخيفة وبمقاطعة فوكيون واقحام ارائه الفجة ومقترحاته في كيفية وضع الخطط الحربية فضاق به ولم يتمالك نفسه من القول:

- اي خيرياس! خيرياس، اترى الى اي حَدّ بلغ تمسكي بصداقتك واظهاري الامتنان من جميلك باحتمالي ابنك هذا ؟

لاحظ فوكيون عند تصريفه الشؤون المدنية العامة، ان الادارة الداخلية كانت تتبع سياسة المحاباة باقتسام المغانم ما بين اعضائها وابتلاعها. فمثلاً اصبحت الأراضي نهباً مقسماً بين العسكريين والخطباء. لا يتدخل احدى الفئتين لصالح طرف ثالث مدعٍ. كان الخطباء يتكلمون في الاجتماعات العامة، ويحصون الاصوات ويهيئون القرارات والمقترحات، من امثال [يوبولوس Eubulus] و[ارسطوفون Aristophon] و[ديموستينس] و[ليكورغوس] و[هيپريدس] وكلهم يحصلون على ما يريدون وهم في مأمن من معارضة العسكريين امثال [ديوپيتس Diopethus] و[مينيتوس] و[ليوستينس Leosthenes] و[خاريس] فهؤلاء يجمعون ثرواتهم من الحروب والقيادات التي يتولونها. فلا يلقون اي اعتراض من الفئة الأولى. واراد [فوكيون] من جهته، العودة الى النظام القديم في توزيع الأراضي وكان كاملاً محكماً بحد ذاته، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع المصالح العام. منذ ايام [پيركليس] و[اريستيديس] و[صولون]. وهكذا ظهر الساسة بالمظهر الذي ينطبق عليه قول [ارخيلوخس Archiloches]:

- إن اصحاب [مارس] و[الميوزات] الذين أعدوا للفن والسلاح، مالوا معاً الى بعضهم بعضاً.

ولم يفته ان الآلهة الفضلى للمدينة، انما هي حامية الحكمتين: الفنيّة والعسكرية في آن واحد.

بهذه الأفكار، وفي الوقت الذي كان ينصح وطنه بالاخلاد الى الهدوء والتمسك باهداب السلم والابتعاد عن الحرب. تراه قد تقلّد منصب القائد الأعلى مرات تزيد عما تقلده اي سياسيّ آخر عاصره أو سبقه. مع انه لم يشجع ايفاداته حملة عسكرية ولم يساهم في تأليف واحدة، في الوقت الذي لم يرفض او يتعذر، عندما ينتخب للقيادة العامة بالاقتراع. لقد بات

مؤكداً انه انتخب قائداً عاماً خمساً واربعين مرة. ولم يؤثر عنه انه حضر بشخصه مرة واحدة في اي انتخاب منها. وانما كان يستدعى بعد فوزه من خارج الجمعية ليتقلدها. وكانت الدهشة دائماً تستولي على أولئك الذين لم يتوقعوا أن يضع الشعب ثقته في فوكيون لأنه كان ابعد الناس عن محاولة كسب عطف الجمهور والتزلف اليه. بل كان في خلافٍ دائم معه، لا يألو جهداً في كبح جماحه والحد من اندفاعه.

يعمد الأمراء والعظماء الى دعوة بطانتهم من المتملقين والمتزلفين عندما يبسطون مائدة طعامهم. والمثل نفسه ينطبق على الآثينيين. فعند المناسبات التافهة تراهم يدعون متكلميهم الفصحاء ذوي العبارات المتأنقة الطلية لتسلية أنفسهم والترويح عنها. فاذا جَدّ الجدّ. وتأزم الموقف رأيتهم حذرين هادئين، قادرين على اختيار الأعقل والأرزن لتولي مهام الدولة، مهما كان موقفه صارماً عنا مشاعرهم ونزواتهم، وهذا ما لم يحاول فوكيون نكرانه، عندما تليت النبوءة الواردة من (دلفي) وقد جاء فيها: «ان الآثينيين كلهم على رأي واحد. ولا يتوقع الا مخالف فرد يتقدم الى الامام غير هياب ولا وجل ويقول لهم: لستم بحاجة الى النظر أبعد مني. انه الرجل المنشو. لا رجل الأ هو، ذلك الذي لم يرضه اي شيء فعلوه».

ومرة أعطى رأيه للمجتمعين في قضية فقوبل بهتاف الاستحسان بالاجماع فالتفت الى بعض اصدقائه غير مصدق وسأله:

- أقلت شيئاً سخيفاً دون انتباه؟

وفي مناسبة اجتماع عام احتفالاً بالعيد، طلب منه ان يتبرع بشيء كسائر المتبرعين. وأشتدّ الحاح الناس. فأشار عليهم أن يتوجهوا الى الاغنياء، لأنه يخجل ان يقدم تبرعاً «هنا» في حين يرى نفسه مضطراً الى الوفاء بدين عليه «هناك» واستدار وأدماً بأصبعه الى [كالليكلس Callicles] المرابي. الا ان الجمهور لم يدعه وازداد لجاجة وصخبا، فأسمعه الحكاية الآتية:

خرج امرء جبان الى الحرب، فسمع الغربان تنعق فوق رأسه وهو سائر. فألقى بسلاحه وقرر الرّيث. الأ انه بدل رأيه حالأورفع سلاحه مستأنفاً سيره، وسمع النعيق مرة أخرى فتوقف ثانيةً وخاطب الغربان قائلاً:

- انعقي حتى تنفلقي. فلن أكون لك طعاماً.

والحّ الآثينيون بان يشتبك مع العدو وكان الظرف غير موآتٍ فرفض رفضاً قاطعاً، فوصموه بالجبن وخور النفس. فقال لهم :

- في هذه الساعة فقط اعملوا ما شئتم ولن أكون شجاعاً أو اعملوا ما سأعمل ولن تكونوا

جبناء. ونحن على كلّ حال نعرف انفسنا معرفة جيدة.

ومرةً أشتد سخط الأهالي عليه في ظرفٍ خطير للغاية. وطالبوه بتقديم حساب دقيق في وجوه صرف الأموال العامة وغيرها. فقال لهم:

- عليكم يا اصدقائي الاعزاء، ان تتأكدوا أولاً من سلامتكم.

وبعد حربٍ كان الآثينيون خلالها طيعين ليّني العريكة حتى تم عقد معاهدة سلم واذابهم يعودون كما كانوا من الضخب والشغب والاعتداد بالنفس. وانحوا باللوم على فوكيون، واتهموه بأنه كان سبب فشلهم في القتال. فكان جوابه الوحيد على زعمهم قوله:

- انتم سعداء الحظّ يا اصدقائي لأن لديكم قائداً يعرفكم حق المعرفة. ولو هذا لذهبت ريحكم منذ زمن بعيد.

ووقع نزاع حدود بينهم وبين البروثيين. فأتفق مع هؤلاء على التسوية بالمفاوضة فاذابهم يلجأون الى الاشتباك والعراك فقال لهم:

- الاجدى لكم أن تواصلوا القتال بالسلاح الذي امتزتهم به وهو: السنتكم، لا بأسلحة الحرب التي لا تتقنونها.

ومرة كان يخطب فيهم، وهم لا يريدون الاصغاء اليه ولا يدعونه مستمراً فقال لهم:

- قد تحملوني على تنفيذ ما هو ضد رغباتي. لكنكم لن ترغموني على قول ما لا اؤمن به.

وكان [ديموستينس] من الخطباء الذين دأبوا على معارضته. وقد انذره مرة بقوله:

- في يوم ما، سيفتك الآثينيون بك يا فوكيون، عندما يجتاحهم الغضب.

فأجاب فوكيون:

- وسيفتكون بك انت عندما يرتد اليهم صوابهم.

ومرة راح [بوليؤكتوس] السيفتي يحرض الناس على قتال [فيليب] وكان اليوم قائضاً وهو شحيم لحيم فأخذ يلهث وانبهرت انفاسه بالحرّ الشديد فكان يتناول ماء بين آونة وأخرى فقال [فوكيون] مشيراً اليه.

- دونكم الرجل الذي يصلح لقيادتنا في الحرب! ماذا سيكون من أمره بعد ان يشدّدرعه ويحمل ترسه لمقارعة العدو؟ وها هو امامكم يلقي عليكم الخطب المنمقة. وقد كاد يلفظ انفاسه الاخيرة من فرط الاعياء.

ولما شرع [ليكورغوس] في الجمعية العمومية يبدي ملاحظاته العديدة العديدة حول سلوكه،

ويؤنبه بصورة خاصة على نصيحته بتسليم المواطنين العشرة الذين طلبهم الاسكندر من الآثينيين أجاب فوكيون بقوله:

- كنت قد ادليت بنصيحة أنفع وأضمن ولم يؤخذ بها.

وكان ثم شخص يدعى [ارخيبيادس Archibiades] ويلقب بـ(اللقيديموني) أعتاد ارسال لحية ضخمة والخروج بمعطف مهلهل قديم، وبسيماء صارمة جداً. ومرة تعرض [فوكيون] للهجوم في الجمعية. فاستنجد فوكيون بالرجل وندبه لمعونته وشهادة بحقّه. ونهض هذا وشرع يتكلّم بما يفيد الموافقة على اقوال خصوم [فوكيون] واضعاً يده على لحيته، فقال فوكيون:

- ايه يا ارخيبيادس. لقد ازف الوقت لحلاقتك.

كان [ارسطوجيتيون Aristogition] المدعي العام، رجل حربٍ مخيف ضمن نطاق جلسات الجمعية العامة، همّه اثارة شعور الأهالي وتحريضهم على القتال. فلما ازف يوم السوق وتجنيد الصالحين للقتال أقبل وهو يقزل متوكئاً على عكاز وساقه مربوطة بلفاف. وتبينه [فوكيون] من بعيد. وما ان دنا حتى صاح [فوكيون] بالكاتب.

- أخرج [ارسطو جيتون] أيضاً. بوصفه أقزل ولا نفع يرجى منه.

لذلك كان من أغرب الأمور انّ شخصاً كفوكيون صارماً جافي الطبع في كل المناسبات يشتهر بلقب «فوكيون الطيب». ومع ذلك فليس من الصعب في رأيي ان تكون امزجة الرجال كالخمر - طيبة وحريفة عند المذاق في الوقت نفسه. ككثير من الاطعمة الحلوة عندما يذوقها المرء لأول مرة، يجدها بعد التكرار كريهة مجّة ضارة. وقد روي ان [هيبريدس] قال للناس مرةً:

- لا تسألوا انفسكم يا رجال اثينا: أأنا مقذع الهجاء لاذع اللسان أم لا؟ بل سلوها أأنا مأجور لأكون كذلك أم لا؟

كأن الطمع هو العامل الوحيد الذي يجعل المزاج الحاد كريهاً ممقوتاً بل كأنه محظور على الناس ان يعرضوا أنفسهم للسخط العام باستخدامهم سلطاتهم ونفوذهم للتمادي في اظهار طباعهم الشخصية كالكبرياء، والغضب والاضطغان. و[فوكيون] لم يسمح لنفسه مطلقاً باستخدام شعور عدائه أو كرهه للإضرار باي مواطن في الواقع لم يكن يعتبر أحداً عدواً له الا عندما لايجد من سبيل له غير مهاجمة المعارضين في الاجراءات المفيدة للصالح العام بكلّ عنف وبدون رحمة. في مثل هذه المعارك تجده والحق يقال خصماً عنيداً صلفاً غير مهادن. أما في حالاته الاعتيادية فهو مهذّب لطيف، متواضع للجميع دون استثناء. حتى أنه كان يحدب

على خصومه السياسيين وينشد صداقتهم ويهتم بهم ان وقعوا في محنة، ويتبنى قضايا من هم في أشدّ الخلاف معه. ويحميهم أن كانوا بحاجة الى حماية. وقد لامه اصحابه مرةً لدفاعه عن رجل دي أخلاق مشبوهة. فقال ان البريء ليس بحاجة الى من يدافع عنه.

الحّ [ارسطوجيتيون] المتملق الذليل السالف الذكر، بطلب التحدث الى [فوكيون]. وكان قد القي في السجن بعد صدور حكم عليه. فحاول اصدقاؤه أن يثنوه عن الزيارة فقال:

- كلاً واسمحوا لي من فضلكم. فايّ مكان اختاره لزيارة ارسطوجيتيون خير من هذا المكان!

وكان حلفاء اثينا واهل الجزر يحذرون ويتوجسون شراً من كلّ اميرالٍ يرسل اليهم فيضعون المتاريس على المداخل. ويسدون موانيهم في وجهه ويجمعون مواشيهم وعبيدهم ونساءهم واطفالهم ويغلقون دونهم ابواب قلاعهم. خلا [فوكيون] فما أن يعلموا بقدومه حتى يخرجوا بزوارقهم ومراكبهم الخاصّة للقاءه والترحيب به رافعين الأعلام وضافرين أكاليل الزهر. فسيتَقلبونه عند نزوله البرّ بكل مظاهر الفرح والغبطة.

توغل [فيليب] الملك في [يوبيا Eubaea] وتقل جيوشه من مقدونيا وارسلها لاخضاع المدن مستميلاً الطغاة الذين يحكمونها. فاستجار [پلوتارخ] الأرتيري بالآثينيين وطلب منهم العون على انقاذ جزيرته التي كادت تقع في ايدي المقدونيين. فأرسل [فوكيون] اليها على رأس شرذمةٍ من الرجال. لعلّ اليوبيين يلتفون حولها فتكون نواة لجيش يدافع عن الجزيرة. لكنه وجد الجزيرة في حالٍ يرثى لها من الفوضى. لقد قام عملاء فيليب وصنائعه بالمهمة خير قيام فسلموا اليه البلاد كلها، وشعر [فوكيون] وكأن الأرض التي يسير عليها ملغمة. وأحدق به خطر عظيم فما كان منه محافظة على نفسه الأ ان يختار نشزاً صغيراً من الأرض يفصله مجرى ماء عميق عن السهول المنبسطة المحيطة بتاميني Tamynae. فحوط النشز وحكمه ووضع فيه الصفوة المختارة من جنود، وأمر ضباطه بالاً يعترض سبيل أولئك الشرثارين والفوضويين الأشرار من السكان ان هم خرجوا من المعسكر وعادوا من حيث أتوا. وحجته في ذلك انهم سيكونون عالةً لا يرجى منها نفع ولايمكن السيطرة عليهم وسيصبحون فضلاً عن ذلك عقبة فعلية. وانهم بادراكهم عجزهم عن القيام بالواجب المفروض عليهم سيكونون أقل استعداداً لاساءة تصوير عملهم وسيكذبون أو سيحرضون الغوغاء عليهم عند العودة. ولما أقترب العدو حذرّ [فوكيون] رجاله من الاشتباك حتى يفرغ من تقدمة القرابين. وقد تأخر كثيراً فيه أمّا بصعوبة نشأت اثناء اجراء المراسيم الدينية، وامّا كان بتعمد ذلك ليغري العدو بالتقدم أكثر مما فعل. لكن پلوتارخ صاحب الجزيرة فسرّ تلكؤه، بالجبن وخور العزيمة، وهاجم العدو بمرتزقته. فلم يسع خيالة فوكيون الأ وان تندفع من المعسكر، بنظام مختل وفوضى لا

مثيل لها؛ وصلت الهزيمة باول المهاجمين، وسرت الهزيمة الى البقية. وهرب [پلوتارخ] لايلوى، وتقدم بعض وحدات من العدو تريد الاستيلاء على المعسكر متوهمة أن نصرهم كان تاماً، في تلك الساعة كان [فوكيون] قد فرغ من تقديم القربان فاندفع الآثينيون من المعسكر والقوا بأنفسهم على العدو وهزموه وفتكوا بالقسم الاكبر منه امام الخندق اثناء محاولته الفرار. وبعدها أمر [فوكيون] مشاته بالمزيد من اليقظة في مراقبة حركات العدو وبعد ان أكمل تنظيم صفوف الناجين من الهزيمة الأولى ندب نخبة من خيرة رجاله واشتبك مع العدو في معركة دموية حامية ابدى فيها الجميع بسالة واقداماً لا مزيد عليهما. وحاز شرف ذلك اليوم [تاللوس Thallus] ابن [كينياس Cineas] و[گلاوكس Glaucus] اليوليميدي -Poly medes] اللذين كانا يقتتلان الى جنب القائد العام. وقام كليومانس بدور ممتاز في المعركة فبعد ان أصلح من وضع الخيالة وردّ اليها معنوياتها راح يستنهف همم الفرسان ويشجعهم بصيحاته الحماسية، ثم قادها لمساعدة قائده الذي كان يعاني ضيقاً شديداً فعزز النصر الذي نالته المشاة وثبته. وطرد [فوكيون] [پلوتارخ] من الجزيرة وأحتل قلعة [زاريترا Zaretra] الهامة جداً لموقعها كما يقال في مخصرة الجزيرة. لأن البحر يحتضنها من الجانبين في مكان تضيق الجزيرة كضيق الخصر في الجسم.

وأطلق [فوكيون] سراح كلّ الأغريق الذين وقعوا في اسره، خوفاً من السنة خطباء اثينا التي قد تحمل الأهالي على ارتكاب عملٍ من اعمال القسوة والعنف في فورة من الغضب. وبعد ان أنجز واجبه هذا من كلّ الوجوه أقلع الى الوطن. وكان للخلفاء أقوى سبب لأسف الآثينيين على حرمانهم تجاربه وشجاعته فان [مولوس Molossus] الذي خلفه في القيادة لم ينجح الاّ بافلاته حياً من ايدي العدوّ. وتقدم [فيليپ] ورأسه مفعم بالخطط والآمال الجسام فتوغلت قواته في الهللسپونت واحتل الخرسونيز، وپيرينثوين Preinthus] ثم حاصر بيزنطة، فجردّ الآثينيون قوة لنجدة البيزنطيين. وعمل الساسة الخطباء اقصى جهدهم لأنتخاب [خاريس] قائداً عاماً، فلم تحقق قيادته شيئاً جديراً بالقوات التي وضعت تحت امرته. كانت المدن تهتزّ رعباً منه وتأبى استقبال سفنه. جابياً الأموال من الحلفاء، ومحتقراً من الاعداء.

وبلغ السخط بالاهالي مبلغه - وأثار الخطباء غضبه فأظهر ندمه على ارسال النجدة الى البيزنطيين. نهض فوكيون قائلاً:

- ليس حرياً بكم أن تحنقوا على الحلفاء لفقدانهم الثقة بكم. بل عليكم ان تحنقوا على قوادكم لأنهم ليسوا أهلاً للثقة. انهم يضعونكم موضع الشكّ حتى لدى أولئك الذين يعجزون عن الصمود الاّ بمعونتكم.

وكان وقع هذا الكلام شديداً على الجمعية العامة فعدلت عن قرارها الأول وأمرته في الحال أن يؤلف قوة أخرى ويقلع الى نجدة حلفائهم في الهللسبونت. فكان هذا التعيين أكبر عاملٍ في انقاذ بيزنطه من يد الغازي. اذ كان اسم [فوكيون] علماً وسمعته داوية. وكان في مدينة بيزنطة رجل عرف واشتهر عند البيزنطيين بفضائله يدعى [ليون]هو أحد رفاق [فوكيون] في الاكاديمي منذ ايام التلمذة. فضمن هذا الرجل سلوك [فوكيون] امام المدينة ففتح أهاليها ابوابها لاستقباله ولم يسمحوا رغم ممانعته بان يعسكر خارجها، بل دعوه هو ووحدات جيشه الى الداخل واقاموا لهم المآدب وأظهروا من الثقة به والاعتماد عليه ما تجلى واضحاً في المقابلة اللطيفة السليمة. ولذلك تفانى الآثينيون في الدفاع عنهم واظهروا اشدّ الحماسة في قتال عدوهم ليستعيدوا الثقة المفقودة. واندحر فيليب الملك في الهيللسبونت وتدنت سمعته الى الحضيض - وهو الرجل الذي ظلّ يعتقد به الى يومنا هذا بأنه لايغلب واستولى [فوكيون] على عدد من سفنه وأحتل بعض المواقع التي كان قد حصنها ووضع فيها حاميات. وقام بعدة غارات وتوغل في البلاد ونهب واجتاح، حتى اصابة العدو بجرح فاقلع عائداً الى الوطن.

في ذلك الوقت طلب الميغاريوّن سراً مساعدة من الآثينيين ولخشية [فوكيون] في انكشاف الأمر للبويوثيين فيحبطوا المسعى بعمل مسبق، دعا الجمعيّة العامة في فجر يومه وعرض مطلب الميغاريين للتصويت، فنال التأييد وما أن ظهرت النتيجة حتى نفخ [فوكيون] في نفير الحرب وقاد الآثينيين رأساً من محل الاجتماع الى حيث تسلحوا واستعدوا للسير. فاستقبلهم الميغاريون بفرح عظيم وباشر [فوكيون] بتحصين [نيسيا Nisaea] وبنى جدارين جديدين طويلين يمتدان من المدينة الى الميناء، فربط المدينة بالبحر، ولم يعد لها ما تقلق لأجله او تخشى هجوم للاعداء من اليابسة فوضعت ثقتها التامة بالآثينيين.

وباتت الحرب مع [فيليب] أمراً لامناص منه، ونصب الآثينيون قادة عسكريين آخرين بغياب [فوكيون]. فرآى هذا عند عودته من الجزر أن ينصح مواطنيه بخلاف ما استقر رأيهم عليه وقال لهم:

- ما دام فيليب قد اظهر نواياه السليمة. وبما أن الخطر الذي يتعرضون له، كبير، فالأحرى بهم أن يعقدوا معه معاهدة صلح.

وكان من معارضي فكرته هذه شخص ممن تعودوا الاختلاف الى سوح المحاكم، وكيل اتهامٍ أو ما أشبه فقد انبرى له وسأله:

- أتسعى الى اقناع الآثينيين بالجنوح للسلم وها ان السلاح الآن بأيديهم؟ فقال:

- أجل. وان كنت أعلمُ بأني سأكون آمراً عليك عند نشوب الحرب وانك ستكون آمراً عليّ في

زمن السلم.

ولم يكتب لمسعاه النجاح. فقد استظهر عليه رأي [ديموستينس] الذي نصحهم بالحرب، على ان يكون القتال أبعد ما يمكن عن المدينة. ورأى ان يخوضوا المعركة في [آتيكا].

فقال [فوكيون] متوجهاً الى الآثينيين.

- أيها الاصدقاء الطيبين. حري بنا ان لا نتساءل أين سنقاتل بل كيف سنكسب، فالنصر هو الوسيلة الوحيدة لابعاد الحرب عنا. ولو هزمنا فإن الحرب ستغزونا في عقر دارنا وبأسرع مما تتصورون.

وحلت بهم الهزيمة، واراد الغوغائيون ومثيرو الفتن أن يدفعوا [خاريديموس Charidemus] الى المنصّة لتنصيبه قائداً. فتملك الخوف المواطنين الشرفاء وراحوا يتوسلون الى الأهالي بدموعهم أن يلقوا مقاليد الأمور الى [فوكيون] وبمعاونة المجلس الاريوباغي نجحوا في مسعاهم وتولى [فوكيون] السلطة. وكان من رأيه عموماً، ان يقبل الآثينيون بالشروط العادلة التي يضعها فيليب. لكن [ديماديس] آقترح ان المدينة يجب ان تحصل على عين شروط السلم التي نالتها سائر الدول الاغريقية. فعارض [فوكيون] في ذلك، وقال:

- يجب ان نعرف أولاً تفاصيل تلك الشروط التي فرضها فيليب عليها.

فلم يعمل بنصيحته، وفشل تحت ضغط قصر الوقت. لكن ما لبث الآثينيون أن أدركهم الندم عندما وجدوا من بين الشروط التي فرضت عليهم، تزويد [فيليب] بالخيل والسفن، فقال [فوكيون]:

- خوفي من هذا، هو الذي دفعني للمعارضة. ومادام الأمر قد وقع، فعلينا أن نخلص في تطبيق تلك الشروط وان لايهن عزمنا. كان اجدادنا آمرين وكانوا مأمورين، وبانجازهم واجباتهم كحاكمين ومحكومين، انقذوا بلادهم مع بقية بلاد اليونان.

ولما انتشر نبأ وفاة [فيليب] عارض [فوكيون] في اقامة تظاهرة فرح عامة قائلاً:

- من الخسّة والدناءة ان يظهر المرء أي نوع من التشفي في مثل هذه المناسبة. واعلموا ان الجيش الذي حاربكم في خيرونيا، لم ينقص الاّ رجلاً واحداً.

وعندما وجه [ديموستينس] مطاعنه في الاسكندر، وكان هذا يزحف لمهاجمة [ثيبه] تمثل [فوكيون] ببيتين لهوميروس:

يا قاصر العقل، لماذا اردفت ضربتك بأخرى
فأثرت بهذا، غضبه الجائع؟

ثم قال متسائلاً: لماذا تزيد من ايقاد نار شوقه الى المجد؟ لماذا تجهد نفسك في تعريض المدينة الى حريق رهيب أخذ الآن يدنو منها؟ نحن الذين قبلنا على انفسنا مسؤولية انقاذ ابناء وطننا لن نرضى بدمارهم مهما ارادوا هم ذلك!

وبعد أن استسلمت [ثيبه] وطلب الاسكندر تسليم كلّ من [ديموستينس وليكورغُس، وهيپريدس، وخاريديموس] اتجهت الانظار الى [فوكيون] ونادوه باسمه طالبين ان يعطي رأيه. فنهض وعرض لهم واحداً من أخلص واحبّ اصدقائه اليه وقال:

- انتم الذين بلغتم بالامور الى هذه الخاتمة لا غيركم. أما أنا فلو طلب منيّ الآن تسليم صديقي هذا [فيكوكس] لما ترددت في ذلك. ولو كان في مقدوري التضحية بحياتي وبمستقبلي في سبيل سلامة الوطن فياما اسعد حظيّ. واضاف يقول:

- انه ليدمي قلبي ان أرى هؤلاء الذين لجاؤا الينا هاربين من ضرائب [ثيبه]. ومع هذا يكفي بلاد الاغريق حزنها هلى [ثيبه]. ومع الأفضل لمصلحة الجميع ان نخفف من غضب الفاتح ونتوسط للاثنين، لا ان نجازف بمعركة أخرى.

فوافق الآثينيون. وقيل ان الاسكندر رفض اول طلب للمفاوضه وقذف بالكتاب بعيداً بكلّ احتقار وادار ظهره لاعضاء الوفد فخرجوا وهم يرتجفون رعباً. لكنه قبل الطلب الثاني من يد [فوكيون] بعد ان أعلمه المقدونيين بمكانته الكبيرة عند والده. ولم يكتف بالسماح بمقابلته والاصغاء الى عروضه وطلباته، وانما رجاه ان ينصحه فقال له: «إن كنت تجنح للسلم فعليك أن تبرم معاهدة صلح وسلام حالاً. وإن كنت تنشد المجد والسؤدد فعليك ان تباشر الحرب ضدّ البرابرة لا ضدّ الاغريق».

وساير مشاعر الاسكندر وغذى طموحه بمختلف الآراء والنصائح المختارة بدقةٍ فتمكن من استمالته والتخفيف من غلوائه. حتى انه طلب من الآثينين أن لاينسوا مركزهم الرفيع. لأن السيادة الأولى ستنتقل اليهم اذا ما ناله مكروه. وظهر [الفوكيون] احتراماً كبيراً ورفع من شأنه بانعامات حظي بها أحدٌ من اصحابه الملازمين له واتخذه صديقاً واحتفى به ضيفاً عزيزاً، لا كعضوٍ في وفد مفاوضة. ويحدثنا [دوريس] انه لما قويت شوكة الاسكندر ولقب بالكبير بعد انتصاره على [داريوس] أهمل كتابة عبارة «تحياتي...» عند تصديره رسائله. ولكنه كان يثبتها في رسائله الى كلّ من [فوكيون] و[انتيپاطر]. وقد ذكر خاريس ذلك ايضاً.

أمّا التكريم الذي حباه به الاسكندر، فمن المعروف عنه انه ارسل له مرة مائة تالنت. ولم وصلت الهدية الى آثينا، سأل [فوكيون] حاملها. «لماذا أختص هو وحده من دون سائر

الآثينيين بهذه الهدية الكبيرة؟» فقيل له أن الاسكندر يعتبره الشخص الوحيد الشريف العظيم القدر. فقال:

- اذن فليسمح لي ان ابقى كذلك. وان أظلّ معروفاً بمثل هذه السمعة.

وتبعه الرسل الى داره. وشاهدوا بأعينهم حياة الكفاف البسيطة التي يحياها، كانت امرأته تعجن الخبز بيديها. وكان هو يستقي الماء ليغسل به قدميه. فعادوا يلحون عليه بقبول الهدية. واستنكروا ان يعيش صديق الاسكندر بهذه الحالة من الفقر والإملاق، فلفت [فوكيون] انظارهم الى فقير عجوز يمرّ بهم وهو مشتمل بعباءة قذرة قديمة. وسألهم هل وجدوه في حالة أدنى من حالة هذا الرجل الفقير؟

فوجوه الاّ يلجأ الى مثل هذه المقارنة فقال:

- مع هذا فان الرجل قانع بالأقل مما لديّ. ومختصر القول ان انا لن استعمل هذه النقود فايّ جدوى لي من احرازها؟ وان استعملتها فسوف أكسب سمعة سيئة لي وللاسكندر عند ابناء وطني.

فعادت الهدية الثمينة الى مرسلها، لتبرهن للأغريق بهذا المثل الفريد، ان القادر على منح مثل هذه العطية. ليس أغنى من ذلك القادر على رفضها.

واستاء الاسكندر وكتب له يقول أنه لايمكن أن يجلّ الاصدقاء الذين يرفضون منّته وتكريمه. ولم ينفع هذا القول في [فوكيون] ولم يغره بقبول المال، الاّ انه رجا من الاسكندر قبول شفاعته في الصّوفي [اخيكراتيدس Echecratides] وفي [اثينودوريس الامبري Imbri] وكذلك في ديماراتوس، وسپارتون Sparton الروديسيين الذين كانوا قد سجنهم لبعض تهم في ساردیس. فلبى اسكندر طلبه على الفور وأخلي سبيلهم. وبعدها، عندما بعث الاسكندر بـ[كراتيروس] الى مقدونيا أمره ان يعرض على [فوكيون] أربع مدن آسيوية وهي [كيوس Cius] و[ابليا Elæa] جرجيستوس Gergithus وميلاسا Mylassa يتخير منها واحدة ليحكمها. وان يلحّ في ذلك الحاحاً شديداً ويقول له انه سيحنق عليه أن رفض. لكن [فوكيون] أصرّ على موقفه ولم ينجح معه المسعى، وبعد قليل توفي الاسكندر.

ما زال منزل [فوكيون] قائماً حتى يومنا هذا في ميليتا. لا زخرف فيه غير بعض الصفائح النحاسية الصغيرة، وهو بصورة عامة بسيط عادي. ولا يعرف عن زوجتي [فوكيون] الا القليل. ومن هذا القليل ان الأولى هي أخت [كيفيسودوتس Cephisodotus] النحات. والثانية عرفت بالفضيلة وبساطة العيش واشتهرت بهما كشهرة أمانة زوجها. حدث مرة أن

الجمهور كان يشاهد تراجيديا جديدة. وقبل ان يدخل الممثل المرسح لتمثيل دور الملكة، طلب تزويده بعدد من النساء الحسنات الشباب ليظهرهن معه كبطانة وخدمٍ وغضب عندما لم يجب طلبه واضرب عن التمثيل وابقى المشاهدين في الانتظار حتى أقبل ميلانتيوس Melantius المشرف على الجوق ودفعه نحو المرسح وهو يقول:

- عجباً لك! الا تدري ان زوج فوكيون نفسها، لا تجد بين يديها أكثر من خادم واحدة؟ وانت تريد أن تظهر بمظهر فخم لتملأ رؤوس نسائنا بالتيه والغرور؟

نطق بهذه العبارة بصوت جهوري سمعه كل من كان قريباً.

وأقبلت امرأة من أيونيا لزيارة زوج فوكيون وحلت ضيفة وطفقت تريها حليها النفيسة من الذهب المكفت بالجواهر، وعصائبها وقلائدها وغير ذلك فقالت امرأة [فوكيون].

- اما انا فزوجي هو [فوكيون] وهو كل ما املكه من الحلي فهذه عشرون عاماً وهو قائد اثينا العام.

واراد ابنه [فوكس Phocus] الإسهام في الالعاب اثناء العيد الكبير المخصص [لمنيرفا] فاذن له بالمشاركة في سباق القفز شريطة ان لايجعل الفوز هدفه، بل التدريب على ضبط النفس والنظام اللذين يميزان تلك الالعاب. وكان الفتى مولعاً الى حدٍ ما بالخمر لايرعى في حياته نظاماً معيناً.

فعند فوزه في السباق، تنافس الكثيرون على شرف صحبته ودعوته للمآدب والاحتفالات بمناسبة الفوز. ورفض [فوكيون] كل الدعوات الا واحدة. وعند وصوله شاهد الاستعداد الباذخ والمظاهر الفخمة، حتى ان الماء الذي يقدم لغسل الاقدام مزج بالخمر والتوابل. فأنب ولده وتساءل لماذا سمح لصديقه بان يلطخ شرف نصره بمثل هذه المظاهر؟ ولأجل أن ينتزع ابنه من اسر هذه العادات وينقذه من تلك العشرة، ارسله الى لقيديمون وضمه الى الشبان الذين كانوا يتلقون تدريبهم وفق في النظام السبارطي. فأغاظ الآثينيين بعمله هذا. واعتبروه استهانة بجدوى التهذيب في بلاده وراح [ديماديس] يندد به علناً بقوله:

- ما رأيك يا فوكيون لو نصحنا الآثينيين بتبنيّ النظم السبارطية؟

أن شئت فانا على استعداد لتقديم مشروع قرارٍ بهذا المآل وان أعمل على ترويجها والموافقة عليها. فأجاب فوكيون:

- صدقت يا صاح. بهذا العطر القوي الذي يفوح منك. وذاك المعطف الفاخر على كتفيك، فأنت أصلح من يتكلم في تقريض ليكورغوس والاشادة بالطعام السبارطي.

وعندما كتب الاسكندر بطلب امداد من السفن وعارض الخطباء العموميون في ارساله. طلب فوكيون سماع رأيه في الجمعية وقال:

- أيها السادة اني أريد ان اراكم أحد اثنين. إمّا منتصرون وإمّا اصدقاء للمنتصرين.

وعنفّ [بيثياس Pytheas] الذي كان وقتذاك يخطو اول عتبة في الخطابه وتوجيه الكلام للجمعية عاتبه لما كان قد اظهره من الاعتزاز بالنفس والغرور:

- ان العبد الفتى الذي اشترته المدينة أمس فقط، يجب ان يتحلّى بقسط من الأدب ما يمسك به لسانه.

ولما شق [هرپالوس] عصا الطاعة على الاسكندر وهرب من آسيا حاملاً معه مبالغ طائلة من المال، استقرّ في آتيكا. وتسابق رجال الجمعية العامة العاديون الى صرّة نقوده فوزع عليهم مبالغ بسيطة لتكون بمثابة طعم. لكنه عرض على [فوكيون] مالا يقل عن سبعمائة تالنت، وكل ما يريد من منافع، ان يكون تحت تصرفه وان يأتمر بأمره. فأجاب [فوكيون] بكلّ حدة وصرامة: «سيندم هرپالوس ان لم يقلع فوراً عن مجهوداته في افساد المدينة واغوائها بالمال» فأسكته واوقفه عن عمله. ثم ان أمر هرپالوس عُرض أمام الجمعية وراح الآثينيون يتشاورون حوله. فوجد ان من أخذ منه مالاً كان اشد المهاجمين له. فأخذوا يؤلبون ضده ويبالغون في شجب اعماله. ويلحون في اتهامه، يريدون بذلك دفع الريبة عن أنفسهم، وتغطية علاقتهم به. اما [فوكيون] الذي أبى يتسلم منه شيئاً. فقد أهتم بسلامته الشخصية بقدر ما سمحت له المصلحة العامة، وهذا ما شجع [هرپالوس] على بذل جهودٍ أخرى لشرائه. لكنه أقتنع بالأخير أن [فوكيون] أشبه بقلعة منيعة لايمكن لوسائل الاعزاء ان تجد فيها منفذاً من اية جهة. فعمد الى التقرب من ختنه [خاريكلس Charicles] وأختصه بالصداقة ووضع فيه ثقته التامة. وكان يطلب معونته على الدوام. فبات ختن [فوكيون] موضع شكّ. فمثلاً ماتت [بيثونيكا Pythonice] مخطية هرپالوس وام ابنه وكان كثير الحبّ لها. فعزم ان يبني لها ضريحاً فخماً واناط بصديقه [خاريكلس] مهمة الإشراف على العمل، مهمّة لا تشرف صاحبها، وزاد من حطّة شأنها التمثال (وهي المنحوتة التي ركبت بعد إكمال الضريح). هذا النصب يرى اليوم في [هرميوم Hermeum] وانت خارج من آثينا الى [اليوسيس Eleu-sis]. وليس في مظهره ما يدلّ على ان ثلاثين تالنتاً انفقت عليه. وهو على ما قيل الأجر الذي طلبه [خاريكلس] من [هرپالوس] لقاء اتعابه. وبعد موته من الرعاية. لكن [خاريكليس] حوسب على علاقته بهرپالوس. فطلب حماية حميّه، والتقدم للدفاع عنه في ساحة القضاء. فرفض فوكيون ذلك وقال له:

- لم اخترك لابنتي زوجاً إلاّ لتبتغي اشرف الغايات.

كان [اسكليبيادس Asclepiades] ابن [هيبارخوس] أول من حمل نبأ وفاة الاسكندر الى آثينا. فكذبه [ديماديس] وطلب من سامعيه الاّ يصدقوه. اذ لو كان الأمر صحيحاً فان العالم كله سينتن بجثته قبل موته! وعندما رأى [فوكيون] حماسة الآثينيين للثورة الفورية اخذ يبذل قصارى جهده لتهدئتهم وكبح جماحهم واندفع عدد منهم الى المنبر للتحريض على الثورة هاتفين بأن النبأ صحيح وان الاسكندر قد مات. فقال فوكيون:

- إن هو اليوم ميت، فسيكون كذلك غداً. وكذلك سيكون بعد غدٍ فلا حاجة بكم والحالة هذه الى اتخاذ قرار عاجل. تأكدوا أولاً.

قبل ان يقلع [ليوسثينس Leosthenes] الى الحرب في لاميا Lamia بعد معارضة فوكيون الشديدة. اراد أن يضحك الناس عليه فسأله هازئاً:

- ماذا كسبت الدولة من بقائك هذه السنوات الطوال قائداً عاماً؟

فأجاب فوكيون: ليس بالقليل أن يتيح للمواطنين الدفن في قبورهم الخاصة.

واستمرّ [ليوسثينس] يخطب في الجمعية العامة متباهياً مختالاً. فقال فوكيون له:

- خطبك ايها الشاب شبيهة بشجر السرو. فهي مهيبة ممشوقة القامة، لكنها عقيمة لا تثمر.

وعندما هاجمه [هيبيريدس] آنذاك. وسأله الم يحن الوقت بنصح الآثينيين بشن الحرب، أجاب فوكيون:

- سأنصح بهما عندما أرى الشبان لايتهربون من الخدمة في الجيش. والاغنياء ولا يترددون في التبرع باموالهم. والخطباء يكفّون عن سرقة بيت المال.

وتعاظم الاعجاب بالقوات التي عبأها [ليوسثينس] والاستعداد الحربي الذي اتخذه فسئل فوكيون عن رأيه بالمجندين الجدد فأجاب:

- في المدى القصير مناسبون جداً. لكني أخشى السباق الطويل. لو طال امد الحرب فان المدينة لا تملك مالاً ولاسفنا ولا جنوداً غير ما ترون الآن.

وبرهنت الاحداث على صدق قوله: في البدء جرى كلّ شيء على ما يرام وراحت بشائر الخير تترى، ونال [ليوسثينس] شهرة عظيمة بانتصاره على [البويوتيين] ومطاردته [انتيباطر] وارغامه على الاحتماء باسوار [لاميا Lamia] وطار الآثينيون فرحاً بالانتصارات الأدلى، فعيدوا وأحتفلوا وقدموا القرابين الرسمية للآلهة. وخيل لبعضهمان [فوكيون] مقتنع الآن

بخطئه في الحساب فسألوه: أما كان يتمنّى أن يكون صاحب هذه الانتصارات؟ فأجاب:

- أجل، وبكلّ سرور. لكن مع رأيي السابق.

وعندما بدأ السعاة يقبلون واحدهم إثر الآخر مؤكدين تلك الانتصارات ومبالغين فيها قال:

- ترى متى سيصل آخرهم؟

وبعد ذلك بقليل قتل [ليوسثينس]. وكان ثم من يخشى ان يضع [فوكيون] حَدّاً للحرب لو سلّموه القيادة، فأتفقوا على شخص مغمور نكرة في الجمعية، لينهض ويدعى بأنه صديق قديم لفوكيون وموضع ثقته، ثم يتوجه الى المجتمعين ويناشدهم بان يعفوا [فوكيون] من هذا الواجب وان يدخروا الرجل الذي لايضاهيه أحد، لعمل آخر أخطر وأهم من هذا العمل. وان يسندوا قيادة الجيش لـ[انتيفيلس Antiphilus]. فوقع كلامه موقعاً حسناً وارضى به الجمعية لكن [فوكيون] اوضح المسألة لهم بقوله:

- اني في الواقع لا ارتبط باي رباط من الصداقة مع هذا الرجل كما أنه لايوجد بيني وبينه اي نوع من الالفة والمودة. ومع ذلك فاسمح لي يا سيدي ان اضعك في عداد اصدقائي وطالبي الخير لي. فان نصيحتك كانت لفائدتي حقاً.

وعندما تحمس الآثينيون لتجريد حملة على البويوثيين، انبرى لمعارضتها في مبدأ الأمر فحذره اصحابه من كون الناس سيفتكون به ان ظلّ يخالفهم في الرأي، فقال:

- سيكون هذا ظلماً وتعدياً منهم، ان قدمت لهم خالص النصح.

والاّ فمن حقهم ان يفعلوا بي ما يشاؤون.

وظلّوا يصرخون ويلحون ليقودهم الى الحرب. فأمر المنادي أن يعلن بيانه الذي جاء فيه «على كل اثيني لم يبلغ الستين ان يتزود بما يكفيه من الزاد لستة ايام ويتبعني رأساً من هنا». فأحدث بيانه ضجة، واجفل كبار السنّ واحتجوا عليه فسألهم.

- ما الذي يدفعكم الى الاحتجاج؟ أنا الآن في الثمانين من العمر، على اتم استعداد لقيادتكم.

هذه المحاولة نجحت في تهدئتهم الى حين.

ولكن ما أن بدء [ميقيون Micion] بقواته الكبيرة من المقدونيين والمرتزقة، يجتاح الساحل، ثم يحتل [رامنوس Rhamnus] ويتوغل في البلاد المجاورة حتى زحف عليه [فوكيون] وانشأ مختلف الاشخاص المدنيين يتدخلون في اجراءاته بالاشارة عليه ان يحتل

مرتفع كذا وتلّ كذا، وان يضع الخيـاله في هذه الجهـة وتلك ويهاجم العـدو من تـلك النقطة او تانك فعيل صبره وقال:

- رحماك يا هرقل! ما أكثر ما عندنا من القادة. وما أقل ما لدينا من الجنود!

ثم وضع جيـشـه في نـسق المعـركة. ورأى جنديـاً يتـقـدم الآخـرين في الصـف يريد ان يظهـر شجاعـته. ثـم رآه يتراجع الى مكانـه في الصفّ عندما بـدأ تقدم العدوّ وقـد تملكه خوف شـديد ضاح فوكيون مؤنباً:

- أيهـا الشـاب! يجب أن تـخجل من نفـسك مرتـين في هذا اليـوم. فـأولاً تركت مـحلك الذي أخترته لك. وثانياً تركت المحل الذي اخترته لنفسك.

ومهما يكن فقد وفق [فوكيون] الى هزم جيش عـدوه هزيمة تامة وقتل [ميقيون] مع كثيرين في ميـدان المعركـة نفسـها. كذلك أحرز للجيش الأغريقي نصراً آخر في تسـاليا بعـد وصـول [ليوناتس] على رأس المقدونيين من آسيا للانضمام الى [انتيپاطر] فقد قاتلهم وتغلّب عليهم وقتل [ليوناتس] في ساحة المعـركة. وكان [انتـفيلين] يـقود مشـاتـه و[مينون] الـتسالي يـقود خيـالتـه. لكن لم يمرّ فتـرة طويلة الأ وعبر [كراتيروس] المضيق من آسيـا بقوات جرارة وخاض معركـة ضارية انكسر فيـها الاغريق إلاّ انه لم يلحق بهم هزيمة تامة ولم يصبهم بخسـارة كبيرة. لكن مـا الحيلة وكـيف تكون نهاية الـصراع عـندمـا يفـتـقر الجيش الى الضبط والربط؟ الجنود لايطيـعون ضباطهم. والقـواد شبـان نزقون كـثيـرو التبسط مع الجنود. و[انتيـپـاطر] ناشط في مـفاوضـة ومغازلة المدن الأغـريقـية كـلاً على انفراد. كـانت النتـيـجـة، انحلال الجيش الأغـريقي وتسليم البلاد للفاتح تسليمـاً مخجلاً.

عندمـا وردت الانبـاء بزحف انتـيـپـاطر الخـاطف على اثينا بكلّ مـا لديه من قـوات، هرب [ديموسـتـينس وهيپـريدس] من المدينة. أمّا [ديمادس] الذي كـان قـد عجـز عن تأدية أي قـسط من الغـرامـات التي فـرضـتهـا عليـه سلطة المدينة لأنه أدين سـبع مرات لتـقديمه لوائح ومـراسيم مـخالفة للقـوانين وكـان قد حرم حق الاقـتراع ولم يعـد صـوته يسـمع في الجـمـعـية العـامة، فقـد أهتبل فرصة الحصانة من تـنفيـذ العقوبة ليقدم اقتراحـاً بارسال سـفراء مطلقـي الصلاحيـة الى [انتيـپاطر] ومفـاوضته في صلح. الاّ ان الأهالي ما عـادوا يثقون به. فأتجهوا الى [فوكـيون] بوصفه موضع ثقتهم الوحيد فقال لهم:

- لو ان نصـائحي السـابقـة لقيت منـكم آذانـاً صـاغـيـة، لما آل بنا الأمـر الى مناقـشـة وضـعنا الحاضر مطلقاً.

ومهما يكن فقد أخذت الاصوات وصودق على قرار المفاوضة. فأنيب مع فوكيون آخرين لمواجهة انتيپاطر الذي كان قد عسكر في الأراضي [الثيبية] وكان ينوى تقويضه والزحف على آتيكا. وكان أول طلب [لفوكيون] هو ان يعقد الصلح بدون أن يتحرك [انتيپاطر] من معسكره. فقال [كراتيروس]: ليس من العدل ان نكون عبئاً ثقيلاً على بلاد اصدقائنا وحلفائنا ببقائنا فيها، بينما يكون الأحرى بنا استخدام ارض العدو لتزويد الجيش بالمؤن والارزاق.» لكن [انتيپاطر] أمسك بيد [فوكيون] وقال:

- يجب أن نخصّ [فوكيون] بهذا الفضل.

واما بخصوص الموفدين الآخرين فقد أوعز اليهم بالعودة، كلٌ الى مدينته بعد احاطتهم علماً، بأنه لايسعه الاّ ان يعرض عليهم عين الشروط التي عرضها عليه [ليوسثينس] عندما كان يحاصره في [لاميا]، وهي الاستسلام دون قيد أو شرط.

وعاد [فوكيون] ونقل لمواطنيه هذا الجواب فلم يسعهم الاّ النزول عند حكم الضرورة وقبلوا ولم يكن لديهم الخيار في الأحسن وعاد [فوكيون] الى [ثيبه] ثانية مع مندوبين آخرين، بينهم [كزينوقراطس] الفيلسوف الذي ذاعت شهرته في كل مكان لما يتمتع به من فضائل وحكمة، وقد قدر أن كل من يقع نظره عليه سيمتلئ أعجاباً به واحتراماً له. ويزيل من قلبه الكبرياء والقسوة والغضب. لكن النتيجة كانت عكس ما توقع فقد بدأ [انتيپاطر] خالياً من الكياسة مجرداً عن العاطفة كارهاً لأي شيء حسن. حَيّا كل فردٍ، خلا [كزينوقراطس] فقد أهمله وتظاهر بأنه لم يلحظ وجوده. وقيل لنا ان [كزينوقراطس] علل هذا التجاهل بأن [انتيپاطر] عندما قرر ان ينزل ذلك العقاب القاسي بآثينا انما فعل حسناً بخجله منه وعدم النظر اليه. عندما شرع في الكلام لم يصغ اليه وظلّ يقاطعه بخشونة وغلاظة حتى اضطر أخيراً الى الصمت. وعندما انهى اليه [فوكيون] الفرض من الايفاد، اجابه باقتضاب أنه يعقد معاهدة صلح مع الآثينيين بشروط غير قابلة للتبديل وهي: انه يسلم له [ديموستينس وهيپريدس] ولهم ان يحتفظوا بشكل حكومتهم القديم شريطة ان لا يكون حق الاقتراع الا لمن ملك عقاراً وان يقبلوا بوضع حامية في [مونيخيا Munychia] وان يدفعوا مبلغاً من المال لسدّ نفقات الحرب.

كانت الشروط ملائمة مقبولة نظراً للظرف. وقبلها اعضاء الوفد خلا [كزينوقراطس] الذي قال: «اذا أعتبر [انتيپاطر] الآثينيين عبيداً فان معاملته هذه لهم طيبة كريمة. وان عدّهم احراراً، فان شروطة قاسية.» وتلاه [فوكيون] والحّ على رفع شرط وضع الحامية. واستخدم الكثير من الحجج والبراهين فأجابه [انتيپاطر]:

- نحن يا فوكيون مستعدون لتلبية اي طلب لايكون سبباً في دمارك ودمارنا.

واورد آخرون رواية مختلفة للمقابله، قالوا ان [انتيپاطر] سأل [فوكيون]:

- فلنفرض اني عدلت عن ارسال الحامية الى آثينا فهل انت على استعداد لضمان ايفاء المدينة بشروط المعاهدة وهل تتعهد بأن أهاليها لن يثوروا عليّ؟

وتردد [فوكيون] وابطأ في الاجابة، فأنبرى «كالليميدون كرابوس Callimedon the Carabus» وهو مولى من الموالي، سريع الغضب، وعدوّ لدود لكلّ المدن الحرة. وصاح قائلاً:

- واذا استمر هكذا ينطق بالتافه من الكلام، استرضى يا [انتيپاطر] ان تستغفل فتصدق به وتعدل عن ما انتويته؟

ورضخ الآثينيون وقبلوا بالاحتلال، و[ميناللوس Menyllus] حاكماً وكان رجلاً منصفاً عادلاً ومن معارف [فوكيون].

لكن هذا الاجراء بدأ عملاً تعسفياً استبدادياً للغاية بل استعراضاً حاقداً مهيناً، للقوة والجبروت. أكثر مما ينطوي عليه احتلال قلعة من أهمية عسكرية. ومما زاد في حنق الآثينيين واستيائهم، أختيار الظرف لدخول الحامية فقد دخلت في العشرين من شهر [بيودرميون] اي يوم العيد الكبير، حيث يحمل الآثينيون [اياخوس Iachus] ويسيرون به بموكب ديني حافل من المدينة الى [البوسيس]. فكان انتهاكاً صارخاً لحرمة المراسيم الدينية راح كثيرون يستذكرون به مناسبات معينة قديمة وحديثة للتدخل الالهي.

ففي سالف الزمان الذي شهد اسع عهودهم وأكبر انتصاراتهم كانت الاشكال والاصوات التي ترى وتسمع في المواكب الدينية ضماناً لهم اذ أنها تلقي الرعب والهلع في انفس اعدائهم. وها ان الآلهة الآن في موعد الاحتفال بعيدها، تقف بنفسها لتشهد اقسى موقف من مواقف الظلم التي ابتلي بها الأغريق، وابعثها على الأسى. لقد دنس أقدس ايامهم، وغدا أعظم ذكرى لهم تاريخاً لأفظع نكبة حلت بهم. قبل سنوات قليلة، اصغوا الى تحذير في نبوءة جاءتهم من [دودونا Dodona] اوصتهم إن يشددوا الحراسة على مرتفعات [ديانا] لئلا يستولي عليها اغراب مستطرقون. وفي حدود ذلك الزمن تقريباً، كانوا يهمون بصبغ الشرائط والاكاليل التي تزين عربات الموكب ومحفاته فتسلموا بدلاً من لون الارجوان المقرر، لوناً اصفر باهتاً وليكون النذير أقوى دلالةً. حافظت الاشياء المصبوغة للاستعمال الديني - على الوانها الأصيلة. وبينما كان أحد المرشحين للتكريس الديني، يغسل خنزيراً صغيراً في مرفأ [كانثاروس Cantharus] وثب عليه قرش وانشب انيابه فيه فقطع الاجزاء السفلى حتى بطنه

وابتلعها، وتلك علامة واضحة اراد الآله أن يعلمهم بها انهم سيفقدونالجزء الأدنى من المدينة مع ساحل البحر ولن يتبقى لهم غير الجزء الأعلى.

كانت شخصية [مينيلوس] ضماناً كافياً لحسن سلوك افراد الحامية إلاّ ان عوامل أخرى برزت فابقت حالة التوتر على وضعها بل زادتها حدة. فأولئك الذين حرمتهم شروط انتيپاطر من حق الاقتراع لأنهم فقراء معدمون، بلغوا اثني عشر الفاً. ومن بقي في المدينة شعر بالظلم والمذلة. اما الذين تركوا بيوتهم وهاجروا الى تراقيا حيث اعطاهم [انتيپاطر] مدينه ومساحات من الأراضي للسكني والفلاحة فقد عدوا أنفسهم في مرتبة المستوطنين العبيد أو المنفيين. زد على هذا موت [ديموستينس] في [كالاوريا Calauria] وموت [هيپريدس] في [كليوني Cleonae] كما ورد ذكره في محلّ آخر. لذلك بدأ الناس يترحمون على [فيليب] والاسكندر ويتمنون لو عادت تلك الأيام. وكان حال المدينة أشبه بما حصل عقب مقتل [انتيگونس] فقد عاث القتلة في البلاد فساداً وملأوها ظلماً واضطهاداً. وشوهد مواطن فريجي يواصل الحفر في الحقول فسئل عمّ يبحث فقال:

- اني انقّب عن حسرة عميقة! أفتش عن انتيگونس!

هكذا كانوا يقولون مذكرو تلك الايام. كانوا يستعيدون ذكريات الوقائع التي خاضوها مع أولئك الملوك، فيجدونهم الآن كرماء غفارين مهما بلغ غضبهم من العنف. وها هو ذا اليوم [انتيپاطر] بتواضعه المزيف ومظهره الذي لا يفترق به عن مظهر الرجل العادي، وطعامه البسيط، يسترحبه الحقيقي للسلطة المطلقة، وطغيانه وقسوته وتنكيله بمن وقع تحت سلطانه.

مع ذلك كله فقد أفلح [فوكيون] معه في سعيه لاعادة الكثيرين من منافيهم. ونجحت شفاعته أيضاً في المطرودين. فحال دون قذفهم كالآخرين، وراء نهر تيناروس Taenarus وجبال [كيراونيا Ceraunia] فمكثوا في بلاد الاغريق واستقروا في الپيلوپونيس. ومنهم [اغنونيدس Agnonidus المتزلف، ولم يكن أقلّ انكباباً ومواظبة على تدبير الأمور داخل المدينة ملتزماً بالعدالة والمساواة مفضلاً للخدمة العامة والاقضية بين الناس كل من عرف بحسن التهذيب وعلو المقام. اما الثرثارون الفضوليون مثيرو الشغب الذين وجه اليهم ضربة قاتله بعزلهم من الوظائف ومنعهم من المشاركة في المناقشات العامة فقد نصحهم بملازمة بيوتهم وفلاحة اراضيهم. ولاحظ ان [كزينوقراطس] يدفع ضريبة الغريب لأنه لم يكن مواطناً اثينيا فعرض عليه مواطنة الشرف فأبى الفيلسوف قائلاً انه لايستطيع قبول اعفاء عن حالة كان قد ارسل سفيراً للانتقاص منها واستظهارها.

ورغب [مينيللوس] ان يقبل منه [فوكيون] مبلغاً من المال على سبيل الهدية فشكره وقال:

- ليس [مينيللوس] بأعظم من الاسكندر، وليست حالتي اليوم اشدّ عسراً مما كانت عندما رفضت قبول هدية الاسكندر، لأقبلها منك الآن.

والحّ عليه بأن يسمح لابنه [فوكس] بقبولها. فقال:

- ان كان ابني من ذوي العقول السليمة، فسيرى ان ميراثه كافٍ. وان لم يكن كذلك فكلّ الموارد لن تكفيه.

لكن جوابه [لانتيپاطر] كان حازماً، حاداً. فقد حاول هذا تكليفه بعمل شيء لايشرفه فكان جوابه:

- لا يمكن لانتيپاطر ان يتخذني صديقاً ومتزلفاً في آن واحدٍ.

في الواقع ان [انتيپاطر] كان لايفتأ يردد القول بأن لديه في آثينا صديقين: فوكيون وديمادس. الأول لايريد منه ايه منة أو عطية. والثاني لايمكن اشباع نهمه. وليس بعجيب ان يرى [فوكيون] الفقر فضيلة عاشها حتى غدا عجوزاً بعد ان تولى عدة مرات منصب القائد الأعلى، وصادق الملوك والأمراء، في حين كان [ديماديس] يجد أعظم متعة في انفاق ثروته، وان كان في وجوه تخالف العرف والقانون مخالفة صريحة. ومن ذلك انه كان ثم قانون يمنع ممارسة الاجنبي لفن الرقص في اي جوق. ويعاقب مؤجره وعارضه بغرامة قدرها ألف درهم. فبلغ الزهو بديماديس ان عرضوا جوقاً كاملاً من الرواقص الاجانب ودفع عن رأس من الرؤوس المائه الف درهم. دفعها في المسرسع عداً ونقداً. وعندما زوج ابنه [ديمياس Demaes] قال له بذاك الغرور والخيلاء:

- عندما تزوجت امك يا بنيّ. كان زواجي من البساطة بحيث لم يشعر به جيراني الملاصقون. وها ان الملوك والأمراء يقدمون الهدايا في حفلات زواجك.

وظلت الحامية في [مونيخيا] مصدراً للالم الغيظ. وباعثاً للغيظ الكظيم. ولم يكف الآثينيون من الالحاح على [فوكيون] بمفاتحة انتيپاطر واقناعه بسحبها، لكنه كان يرفض التدخل ولعله يئس من تحقيق ذلك. أو ربما وجد في بقائها ضمانة لهدوء الأهالي واستقرار الشؤون العامة وانتظامها للرهبة التي يشيعها وجودها. لذلك أكتفى من [انتيپاطر] بحصوله على مهلة في دفع الجزية المفروضة على المدينة. فعامة الأهالي واتجهوا الى [ديماديس] فأسرع بقبول مهمة الوساطة وسافر الى مقدونيا مصطحباً ابنه. وشاءت القوى الالهية أنه وصل حين سقط [انتيپاطر] مريضاً. وغدا [كساندر] وكيلاً له وتشاء الصدف ان يعثر هذا على رسالة

سبق لديماديس ان وجهها الى [انتيگونس] في آسيا، يزين له القدوم وامتلاك بلاد الاغريق ومقدوني... المعلقة الآن بخيط بالٍ قديم (هازئاً بانتيپاطر). فما ان رآه قادماً حتى أمسك بابنه وقتله قريباً منه حتى ان دمه لطخ كل جسمه وثيابه وانثنى على الاب يشتمه ويصفه بلاذع القول ويؤنبه على خيانته ونكرانه الجميل، ثم الحقه بابنه.

قضى [انتيپاطر] نحبه بعد تسميته [پوليسپيرخون Polysperchon] قائداً عاماً، وكساندر قائداً للخيالة. فباشر كساندر في الحال العمل لنفسه بجدٌ. وأرسل [نيقانور Nican-or] خلفاً لميتيللوس في قيادة الحامية، وأمره بان يتسلم [مونيخيا] قبل أن يشيع نبأ وفاة [انتيپاطر]. ففعل وبعد ايام بلغ النبأ أهالي آثينا فأتهموا [فوكيون] بسبق العلم به. والعمل على كتمه عنهم بكل الوسائل لرعايه اصداقه تربط ما بينه وبين [نيقانور] القائد الجديد، فلم يحفل بتخرصاتهم، ولم يعرها اهتماماً وراح يزور القائد بانتظام ويتداول معه في الشؤون العامة ففاز بتحويل عطفه الى الاثينيين وضمن لهم حسن نيته. وحمله على قبول ترؤسه للالعاب وبما ينطوى عليه ذلك من متاعب له وانفاق المال.

ومنح [پوليسپيرخون] صلاحيات الملك، فلأجل ان يحبط تدابير [كساندر] تمهيداً لازاحته بعث بكتاب الى الآثينيين باسم ملكه. يعلن فيه عن اعادة نظام الحكم الديمقراطي في آثينا، وان الآثينيين جميعاً هم احرارٌ في ادارة جمهوريتهم حسب شرائعهم الاولى. وكانت الغاية من هذا، القضاء على نفوذ فوكيون كما ستكشف عنه الوقائع. فپوليسپيرخون كان يخطط للاستيلاء على المدينة، وهو أمر محال طالما يتمتع [فوكيون] بالثقة. فليس ثم طريقة فعاله لازاحته والقضاء عليه الأ بملء المدينة مرة أخرى بالناس الذين لايملكون حق الاقتراع. وأطلاق ألسنة الغوغائيين والمدعين العامين.

وأخذت المدينة تغلي كالمرجل بهذا الوعد. وحاول [نيقانور] التحدث اليهم في اجتماع لمجلسهم في [پيريوس] وأقبل وحده موكلاً امر سلامته الشخصية [بفوكيون]. وعندما حاول [دركيللوس Dercyllus] قائد الحرس القبض عليه بايعازٍ مسبق، أفلت [نيقانور] فاجياً بجلده، ولم يقم شك في انه لن يضيع لحظةً واحدة من العمل للانتقام بسبب ما لحقه من أهانةٍ. وعوقب [فوكيون] لأنه أخلى له السبيل ولم يحتجزه. فقال يدافع عن نفسه انه كبير الثقة بنيقانور لايتوقع منه القيام بايّ عملٍ تهدد سلامة المدينة، واذا ظهر الأمر خلاف ذلك فانه يتعهد أمامهم بان يقتبل الضرر على نفسه، ولا يفعله هو وواصل حديثه الذي كان فعلاً ينم عن شرف نفسٍ وعقلٍ رفيع. على أن صاحب السلطة العليا والقائد العام الذي يجازف بسلامة وطنه، يصعب تبرئته من تهمة اخلاله باقدس واجب من واجبات العدل والانصاف، ذلك

الواجب الذي يحتمه عليه منصبه. وليس يجدي القول انه كان يخشى توريط المدينة في حربٍ، اذا ما القى القبض على [نيقانور]. وليس يجدى قولنا انه لم يمسكه لأنه كان يأمل منه مبادلته الثقة والتعامل الشريف، لقد كانت ثقة [فوكيون] في حسن نية وفي شرف كلمته كبيراً بحيث أعماه عن الاجراءات التي اتخذها هذا القائد - تلك الاجراءات البعيدة جداً عن حسن النية كالاستعداد للهجوم على [پيريوس]، وارساله الجنود الى سلاميس واتصاله بمختلف سكان [پيريوس] لاستمالتهم واجتذابهم الى صفه. والانكى من ذلك كله، أنه لم يكن بالامكان اقناع [فوكيون] بانه مخطئ في وضع ثقته الصمياء وظلّ يركب متن الشطط. حتى عندما سمى [فيلوميدس اللامپري Philomedes Lampra] ففاز من الجمعية بقرار يقضي على كل الآثينيين يحمل السلاح والتأهب للسير وراء [فوكيون] قائدهم. ظلّ قاعداً لايعمل شيئاً. حتى قاد [نيقانور] جنوده فعلاً الى خارج مونيخيا وحفر الخنادق وحكم مواضعه حول [پيريوس]. وعندما أطلق [فوكيون] الآثينيين أخيراً، راحوا يهتفون ضده ويهزأون بأوامره.

كان الاسكندر بن [پوليسپيرخون] على مسافة قريبة جداً من آثينا وتحت أمرته قوات كبيرة، فأعلن عن استعداده لنجدتهم ضدّ [نيقانور] على أن نيته الحقيقية المضمرة هي مباغتة المدينة واحتلالها وهي في حالة الفوضى وأهلها منقسمون على أنفسهم. وكان قد افسح اليها كل من طُرِد منها، وانضم الى العائدين خليط من الاجانب وحشود من الاشخاص الذين حرموا حق التصويت. من هذا الخليط انبثقت جمعية عامة لاتعرف نظاماً ولا قانوناً - ما لبثت ان جردت [فوكيون] من كلّ سلطاته وعينت في محلة قادة آخرين. ولم لم تحكم الصدفة بان يلمح الآثينيون من فوق الأسوار اجتماعاً ثنائياً بين الاسكندر و[نيقانور] لوقعت المدينة في الشرك المنصوب. لقد تكررت المقابلات بين القائدين على هذه الشاكلة فلم تبق اي مجال للشكّ. وانبرى [اغنونيدس] يهاجم [فوكيون] ويتهمه بالخيانة. وشعر كالليميدون وخاريكلس بهبوب الإعصار فهربا من المدينة خوفاً على حياتهما. وخرج [فوكيون] مع ثلة من اصحابه يقصدون [پوليسپيرخون] وأخذ معه [صولون] البلاتي Platæa، و[دينارخوس Dinar-chus] الكورنثي صديقاً پوليسپيرخون الحميمين وموضع ثقته. لكن الوفد تأخر أياماً في [ايلاتي Elatae] لمرضى ألمّ بدينارخوس. وفي اثناء ذلك اصدر الآثينيون بتحريض من اغنونيدس واقتراح من [ارخستراتس Archestratus] قراراً يقضي بارسال وفد الى پوليسپيرخون لتوجيه الاتهام الى [فوكيون] ووصل الوفدان في وقت واحد وكان [پوليسپيرخون] قد خرج مع الملك الى الريف وتوقفا عند قرية من اعمال فوكيس Phocis تدعى فاريجي Pharygal] وكان يعرف انذاك باسم [اكروريوم Acrurium]. هناك نصب

[پوليسپيرخون] سرادقاً مذهباً واجلس الملك وحاشيته فيه. وأمر فوراً بالقبض على دينارخوس وتعذيبه ثم قتله. وبعد نفاذ ذلك سمح بادخال الآثينيين الذين ملاؤوا السرادق ضجيجاً ولغطاً: فريق يتهم فريقاً، وينتقصه وتعالت الضوضاء، وتمكن اغنونيدس من التقدم الى الأمام، راجياً ان يوضع الجميع في قفص ويرسلوا الى آثينا ليقرر أهاليها ما يرون في شأنهم. فلم يتمالك الملك من الابتسام. ويظهر ان الحاشية وكانت من المقدونيين والاجانب، استمتعت بهذه الضجة والثرثرة فراح افرادها يحرضون اعضاء الوفد ويشجعونهم من طرف خفي للمضي في عرض قضيتهم. لكن استقبال الوفد وسماعه جرى بشكل مهين لا يتفق والأصول. اذ كثرت مقاطعة پوليسپيرخون [لفوكيون] فنفذ صبره وضرب الأرض بعصاه وكفّ عن الكلام. وعندما قال [هيگمون Hegemon] ان اليوليسپيرخون نفسه يشهد على شدّة تعلقه بالشعب، صرخ پوليسپيرخون بحدة:

كفّ عن شتمي واهانتي امام الملك.

وهبّ الملك واقفاً يهم بان يقضي على المتكلم بطعنة من رمحه الاّ ان [پوليسپيرخون] حال دون ذلك، فانفرط عقد الاجتماع. وقبض على [فوكيون] وصحبه. اما اصدقاؤه الذين لم يكونوا على قوته منه فقد أخفوا وجوههم وهربوا عندما ابصروا ما حَلّ به وقام [كليتوس] بنقل المقبوض عليهم الى آثينا ليحاكموا. الاّ ان الحكم في الحقيقة يقال مؤلمة مثيرة للمشاعر. فقد وضعوا في عربات مرت خلال الكيراميكوس Ciramicus الى موضع المحاكمة مباشرة وظلوا في حراسة كليتوس، حتى بدأ اجتماع الجمعية العامة، وقد فتحت الابواب لكلّ قادم أجنبياً كان ام عبداً، وقبل حتى أولئك الذين صدرت عليهم احكام الحرمان من حق التصويت، وشاركت النساء ايضاً ولم يمنع أحد من اعتلاء منبر الخطابة.

وبعد تلاوة كتاب الملك وقد جاء فيه انه مقتنع بخيانة هؤلاء الرجال. لكن لما كانوا مواطنين مدينة حرة، فلا يسعه الاّ ان يؤمن لهم حق المحاكمة والحكم بموجب الشرائع التي تسير عليها. وعلى اثر ذلك جلب [كليتوس] المتهمين ولم يحتمل المواطنون الشرفاء هول الموقف فغطوا وجوههم وانحنوا الى امام لأخفاء دموعهم ووجد احدهم الشجاعته الكافية ليقول: مادام الملك احال هذه القضية الخطيرة الى الشعب ليحكم فيها. فمن الافضل ان ينسحب كل اجنبي وكل من هو في حالة العبودية. ففقد صبر الجمهور واخذ يصيح: «هؤلاء هم أوليقارشيون. اعداء حرية الشعب. انهم يستحقون الرجم» وبعد هذا لم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة دفاع عن [فوكيون] ولم يكن هو ايضاً قادماً على اسماع صوته بعد ان سأل:

- اتريدون قتلنا بصورة شرعية أم بشكل يخالف الشرع؟

فأجاب بعضهم: بل بموجب الشرع.

فقال [فوكيون]: كيف تتوقعون ننال محاكمة عادلة؟

فاصمّوا آذانهم، وعافوا سماعه فتقدم بضع خطوات وقال: أنا شخصياً أقر بذنبي. وأعلن أن سياستي العامة تستحق حكم الموت. لكن لماذا يا رجال آثينا تقتلون هؤلاء، وهم ابرياء لم يرتكبوا ذنباً؟

فصاح الرعاع: هم اصدقاؤه، وفي هذا الكفاية.

عندئذ انسحب [فوكيون] وظلّ ساكتاً الى النهاية.

وقرأ [اغنونيدس] مشروع القرار. وهو على الشعب أن يقرر برفع الايدي هل هم مجرمون ام لا. واذا وجدوهم كذلك فيجب عليهم فرض عقوبة الموت. بعد تلاوة المشروع. اقترح بعضهم اضافة فقرة أخرى تتضمن تعذيب [فوكيون] قبل تنفيذ الحكم. وان تجلب المخلعة[1] مع الجلادين. لكن [اغنونيدس] لاحظ ان [كليتوس] لايرغب في ذلك، وانه هو نفسه كان يجد ذلك عملاً وحشياً فقال:

– يا رجال آثينا! عندما نلقي القبض على ذاك العبد [كالليميدون] فسنضعه على المخلَعة. إلاّ اني لن أقدم هذا الاقتراح في قضية [فوكيون].

وعقب أحد المواطنين على هذا بقوله: لو أننا عذبنا [فوكيون] فماذا ترى سنفعل بك؟

وتمت الموافقة على المشروع وطلب من الحاضرين رفع الأيدي فلم يبق أحد في مجلسه بل نهضوا جميعاً. وكان بعضهم قد ضفر اكاليل الزهر – وحكموا على جميع المتهمين بالموت.

الى جانب [فوكيون] حكم كل من نيكوكلس، وثديبوس Thudippus وهيگمون، وپيثوكلس Pythocles من الحاضرين وديمتريوس الغاليري وكالليميدون وخاريكلس وآخرين من الغائبين.

وبعد ان تفرقت الجمعية، نقل المحكومون السجن وسار خلفهم اصحابهم واقرباؤهم يبكون ويولون ويتشبثون بهم وبدأ [فوكيون] مثلما كان يبدو عند عودته الى منزله من الجمعية تحفّ به الحاشية والأتباع بوصفه قائداً عاماً، ولاحظ الناس بدهشه هدوءه وكبرياءه. وأقبل اعداؤه من الجانبين يهينونه ويشتمونه. وتقدم أحدهم وبصق في وجهه. فالتفت فوكيون الى الضباط وقال: عليكم ان تضعوا حَدّاً لهذه البذاءة والحطة.

---

(١) المخلعة Rack آله تعذيب قديمة تشبه الدولاب يشد عليها الجسم وتمط بها أعضاؤه حتى تتخلع.

وبوصولهم السجن أطلق [ثديپوس] العنان لعواطفه عند رؤيته الجلاد وهو يمزج السمّ ويعدّه. وراح يندب حاله ويندد بالحكم القاسي الذي حكم به ظلماً، وهو الموت مع [فوكيون] فقال له فوكيون:

- الا يرضيك ان تموت مع [فوكيون]؟

وسأله أحد اصحابه الواقفين ألديه أقوال يريد ابلاغها الى ابنه فأجاب فوكيون:

- أجل حبّذا لو تفضلت. قل له أن لايحقد على الآثينيين.

ورجا فيه [نيكوكلس] اعزّ وأخلص اصدقائه ان يسمح له بشرب السمّ قبله. فقال [فوكيون]:

- انت يا صديقي، تسألني شيئاً أكره اعطاءه، ويحزنني أمره. لكن ولأنني ما كنت في سائر حياتي بدرجة من الانانية أن رفضتُ لك طلباً، فعليّ ان ارضيك بهذا ايضاً.

وتناولوا السمّ جميعهم حتى لم يعد منه بقية ولم يكن كافياً لأحداث الموت. فرفض الجلاد ان يعد مقداراً آخر إلاّ اذا دفع له المحكومون اثني عشر درهماً ثمناً للجرعة الاضافية. وحصل بعض التأخير ومضى الوقت. فنادى [فوكيون] احد اصدقائه قائلاً:

- ان المرء في آثينا لايستطيع أن يموت قبل ان يدفع أجرة ذلك وطلبت منه دفع المبلغ اللازم.

في الثالث عشر من شهر [مونيخيون Munychion] من كل سنة اعتادت المدينة ان تحتفل بموكب ديني تكريماً لجوپيتر. وكان الفرسان يمرون مع الموكب فبلغوا السجن وقذف بعضهم باكاليل الزهر. وبكى آخرون. وتوقف بعضهم وأخذوا يذرفون الدمع حزناً وقال أولئك الذين لم تتلوث عقولهم تماماً بالحقد والضغينة. وأولئك الذين احتفظوا ببقية من الانسانية أن تنفيذ الحكم في هذا اليوم هو مروق وخروج عن المبادئ الدينية، لقد كان أقل الواجب يفرض أن لاينفذوا الحكم في ذلك اليوم بالذات. لتبقى المدينة طاهرة بريئة من حكم موت وتنفيذه علناً في يوم عيد ديني.

وكأن الفوز بحياة [فوكيون] لم يكف خصومه. فاوغلوا في حقدهم وتمادوا بمنعهم من دفنه في اي مكان من البلاد. ولم يكن بمقدور اثنين ان يرفع محرقة لاحراق الجثة. ولا ان يجرأ واحد من اصحابه على المغامرة بهذا الشأن. وكان ثم شخص يدعى [كونوپيون Conopion] وهو ممن أمتهن العمل. فأخذ الجثة ونقلها الى ما وراء [اليوسيس] وجمع حطباً مما وراء حدود ميغارا وانجز العمل وكانت زوج [فوكيون] وخدمها حاضرات فشاركن في المراسيم واقمن ثم قبراً خالياً وسكبت الخمر القربانية حسب الأصول ثم جمعت العظام في ذيل ثوبها وعادت بها

ليلاً وحفرت حفرة بالقرب من المدفأة في المنزل ووارتها وهي تقول:

- أيتها المدفأة المباركة، ها اني اودع اليك بقايا رجل طيب باسلٍ. متوسلة اليك ان تحمي وتحفظي هذه البقايا حتى يضمها قبر ابائه عندما يعود الآثينيون الى صوابهم.

وهكذا كان. مما مرت فترة من الزمن قصيرة، حتى ادرك الآثينيون من تجاربهم الاليمة أنهم حرموا انفسهم من حاكم ممتاز وحام للعدل وكابحٍ للطيش والجموح لا نضير له. فرسموا ان يصنع له تمثال من نحاس. وان تدفن عظامه باحتفال رسمي على نفقة الدولة.

واما بخصوص اغنونيدس ومتهميه الآخرين، فقد قبضوا عليهم ونفذوا فيهم حكم الموت. وهرب كل من ابيتورس وديموقيليس من المدينة خوفاً. فتعقبهما ابنه واصاب ثاره من كليهما. ولقد قيل لنا ان ابنه كان بصورة عامة شخصاً عادياً. مرة وقع في حب عاهرة كان يحتفظ بها تاجر بالعواهر. وسمع ثيودورس الملحد يناقش في [ليقيوم] فيقول: ان كان شراؤك حرية صديقٍ ذكرٍ عملاً حسناً فلماذا لايكون حسناً ايضاً شراؤك حرية صديق انثى؟ واذا كانت هذه المنّة لسيدٍ فلماذا لاتكون ايضاً لمخطيّة؟

فلقي هذا المنطق صدى لعاطفة حبه لتلك الأمَة، وأسرع فأشترى حريتها.

ان الميتة التي ذاتها [فوكيون] احيث في اذهان الاغريق ذكر ميتة سقراط[٢]. فالقضيتان متشابهتان. وكلاهما راح ضحية خطأ المدينة المؤسف وحظها العاثر.

١٩٧٢/١/٩

---

(٢) من المفيد ان نذكر هنا ان السمّ الذي استعمل لتنفيذ الحكم في هاتين الضحيتين الشهيرتين، هو العصير المستحلب من نبات الشوكران Water Hemloek.

كاتو الأصغر

CATO

(The Younger)

95 _ 46



لمعت شهرة اسرة [كاتو] لأول مرة على عهد والد جدّ كاتو الاصغر. الذي كان علماً من اعلام الرومان بفضائله وأعماله العظام كما اوردنا في سيرته.

فقد [كاتو] ابويه هو واخوه [كيپيو Caepio] واخته [پورشيا] وأخت لأم وهي [سرڤيليا Servilia]، فكفلهم خالهم [ليڤيوس دروسوس Livius Drusus] وكان وقتئذ شخصية كبيرة النفوذ في الدولة. شهيراً بمناقبه وسمو اخلاقه. وقيل عن [كاتو] ان طباعه لم تتغير منذ نعومه اظفاره حتى نهاية حياته. ففي تصرفاته واقواله وملامح وجهه كان ثم صلابة وثبات لا تحركهما اية عاطفة. ولوحظ فيه من ثبات العزم ما ينوء به عمره. ان سار قدما وراء شيء فليس هناك قوة تثنيه عنه. وكان خشنا فظاً مع متملقيه وقاسياً الى أقصى حَدّ مع الذين يتوعدونه. يصعب جداً حمله على الضحك ونادراً ما انبسطت اساريره ولو بابتسامةٍ ولم تكن اثارة غضبه بالأمر السهل. اما اذا هاج هائجه فمن العسير جداً تهدئته.

ظهر عليه الغباء وبطء الفهم عندما بديء بتعليمه. الا انه ما يتلقى شيئاً حتى يثبت في ذاكرته القوية. وهذا في الواقع هو سبيل الطبع الاعتيادي. فالناس من ذوي العبقريات المرهفة يمكن تذكيرهم باسرع من لمح البصر، اما من يتلقى الافكار بصعوبة فذاكرتهم اقوى لأن الجديد الذي يتلقونه يحترق في ادمغتهم وينطبع كالوشم. ولعل السبب في صعوبة تعليمه يعود الى طبعه العنيد وتعذرّ اقناعه. فلأجل ان يتعلم المرء يجب ان يكون طائعاً. ويأتي الاقناع بصورة اسرع للأقل جلدا على مقاومته لذلك تجد الشبات اسهل اقناعاً من الرجال الذين يزيدونهم سناً. وتجد المرضى اسهل انقياداً من الاصحاء. وعلى الاجمال عندما يتوفر ادنى الشك والعناد فان اقتبال الجديد أسهل. ومع هذا فقد قيل ان [كاتو] كان اطوع التلاميذ لمعلمه ينفذ كل ما يأمره به لكن بعد السؤال عن السبب والبحث في الداعي اليه. وكان معلمه من اثقف الناس، فهو أكثر استعداداً لتعليم تلاميذه منه الى ضربهم وكان اسمه [ساريپدون Sarpe-don].

في اثناء طفولة [كاتو] تقدم حلفاء للرومان بطلب اعتبارهم مواطنين رومانيين احراراً ونزل

احد مندوبهم [پومپيديوس سيلو Pompaedius Silo] ضيفاً على صديقه [دروسوس].

ومضت على هذا الجندي الشجاع الذائع الصيت ايام في منزل دروسوس كسب به حبّ الاطفال وتعلقهم. وسألهم ذات يوم:

- حسناً يا أولادي! ألا تتقدمون برجاء لخالكم حتى يساعدنا في مهمتنا ؟

فأسرع [كيپيو] بالموافقة باسماً. الاّ ان [كاتو] ظلّ ساكتاً وانما راح يحدج الاغراب بقسوة وعين لاتطرف. فقال [پومپيديوس]

- وانت يا سيدي الصغير ما رأيك؟ ألا تتدخل الى جانب اخيك وتتوسط لأجلنا عند خالك؟

وظلّ [كاتو] صامتاً لايجيب. وبدأ بسكوته هذا وصرامة وجهه أنه لايوافق. وعلى سبيل الدعابة رفعه [پومپيدوس] وتقدم به من النافذة وحمله كأنما يريد القاءه وطلب منه ان يوافق والاّ قذف به من حالق. قال هذا بلهجة وعيد واخرج جسم الطفل من النافذة وراح يهزّه هزاً شديداً. وبعد ان عانى [كاتو] ذلك فترة دون ان يبدو عليه خوف أو وجل، انزله [پومپيدوس] وهمس لاحد اصحابه قائلاً:

- رحم الله روما لأنه ما زال بعد صبياً. لو كان هذا رجلاً فلا اضننا سنحصل من الأهالي على صوتٍ واحدٍ.

وفي مرة أخرى. بمناسبة عيد ميلاد احد اقربائه دعي الي العشاء مع عدد من الأطفال. وانتقل بعض الاحداث صغارهم وكبارهم الى موضع آخر من الدار ليلعبوا معاً لعبة المحاكمة. فشكلوا محكمة ووقف أحدهم متهماً الآخر. وجاء آخر ليقود المحكوم الى السجن. وكان بين اللاعبين طفل في غاية الجمال، اوثقه صبيّ آخر وحمله الى السجن فصاح مستنجداً بكاتو الذي ألمّ بالموقف بلحظةٍ واسرع الى الباب ونحّى الواقفين على حراسة الباب واخرج الطفل. ثم ترك الحفلة الى داره غاضباً ومعه عدد من لداته.

مالبث [كاتو] أن أصبح شهيراً بين الصبيان. وعندما اعتزم [سللاً] أحياء السباق الديني المعروف باسم [طروادة] وهو سباق الفرسان الفتيان. جمع ابناء الأسر العريقة ونصب قائدين من بيتهم. فقبل الفتيان اولهما بسبب امّه، فقد كان ابن ميتيلا عقيلة سللا. اما الثاني وهو [سكستوس] ابن اخ [پومپي] فقد رفضوا ان يكون قائداً او مدرباً. فسألهم [سللا] من تختارون؟ فصاحوا بصوت واحدٍ [كاتو]. وتنازل [سكتسوس] بطيبة خاطرٍ عن هذا الشرف له، مقتنعاً بأنه أجدر به.

كان [سللا] بوصفه صديقاً للأسرة يرسل احياناً بطلب [كاتو] واخيه لرؤيتهما والتحدث

اليهما، وهي التفاتة قلما حظي بها احد، لاسيما بعد ان استتب له الأمر واصبح صاحب الأمر والنهي المطلق. وحرص [سارپيدون] على مرافقة [كاتو] لفائدة يتوخاها وشرف يناله فضلاً عن سلامة تلميذه وكانت دار سللا تبدو وكأنها موضع تنفيذ احكام الموت لكثرة السجناء الذين يساقون منها الى السجن والمعذبين والمقبوض عليهم. وكان [الكاتو] من العمر اذ ذاك اربع عشرة سنة يرى بأم عينيه رؤوس الشخصيات المعروفة تجلب الى الدار ويسمع الحسرات الخفيّة التي يطلقها الحاضرون، فسأل معلمه:

- لماذا لايقدم أحد على قتل هذا الرجل؟

فأجابه المعلم: لأنهم يا فتاي يخافونه أكثر مما يكرهونه.

فقال [كاتو]: لماذا لاتعطيني اذن سيفاً لاطعنه به واحرّر بلادي من هذه العبودية.

ولحظ [سارپيدون] سحنة [كاتو] تتغير من فرط الحنق، وعضلات وجهه تتصلب عزماً وتصميماً، فانتبه اليه وضاعف رقابته عن منذ ذلك الحين لئلا يقدم على محاولة طائشة.

وفي صباه كانوا يسألونه عمن يختصه بأعظم الحب فيجيب:

«أخي» فيسألونه ومن يليه» فيجيب «أخي» ويظلّ جوابه كذلك للمرة الثالثة والرابعة وهلم جراً حتى يتعب السائل ويتخلّى عنه.

وزاد هذا الحب الأخوى واشتد كلما تقدم [كاتو] في السن حتى اذا ناهز العشرين ما عدت تراه يتعشى ولايخرج الى ظاهر المدينة ولا الى الفوروم الأ بصحبة [كيپيو]. لكن عندما بدأ هذا الأخ يستعمل الادهان الثمينة ويتطيب بالعطور النفيسة أبى [كاتو] ان يحذو حذوه لأنه كان متمسكاً بحياة التعشف معزماً بالبساطة العيش. ويسمع [كيپيو] أحياناً كلمات الاعجاب باعتداله وضبط نفسه. فيقرّ بأنه قد يكون كذلك اذا ما قورن بغيره... و«لكن عندما اقارن نفسي بكاتو أجدني أكاد لا أختلف عن [سيپيوس Sippius]. وهذا فتى كان يضرب به المثل السيء لحياة الترف والخنوثة التي يحياها.

وعين [كاتو] كاهناً لاپولو. فأنتقل الى منزلٍ خاصٍ به. وتسلم حصته من ميراث ابويه، وكان يبلغ مائه وعشرين تالنتاً. وزاد من تقشفه وبساطته، وتعرف بالفيلسوف الرواقي [انتيپاطر الصوري] وتوثقت علاقتهما وانصرف بكليته الى الدراسة والتعمق في العلوم الخلقية والسياسية. ومع انه كان يميل - ان صح القول - الى السعي نحو كل فضيلة بنوع من الوحي الاّ ان فضيلتي الاستقامة والنزاهة كانتا تستأثران باهتمامه فصيلتان تخلق بهما دون انحراف او هوادة. ولم يسمح ان تتغلب عليهما الرحمة او العطف. ودرس ايضاً من الكلام

والمناقشة الجماهيرية، معتقداً بان الفلسفة السياسية هي كالمدينة الواسعة يجب ان يتوفر لسلامتها عنصراً الحرب والعسكرية. الاّ انه لن يتمرن على الخطابة والمناقشه امام ملاءٍ ولم يسمع عنه ان يتحدث في المجالس الخاصة باللهجة الخطابية. وكان يقول لمن يعيب عليه صمته ونزر كلامه:

- أجل اني لكذلك أومل ان لايمتد ذلك بي. سابدأ في الكلام عندما اجد لديّ منه مالا يكون الأفضل له أن يكتم ولا يقال.

إن قاعة [پورشيا] الكبرى، كما تدعى، بناها [كاتو] الاكبر عندما كان [ابديلاً] واوقفها للنفع العام، وفيها كان تريبونات الشعب يمارسون واجباتهم. وقد وجد ان اسطوناً من اساطينها يعترض ترتيب مقاعد التريبونات. حين جلوسهم لسماع المظلمات. فثار نقاش حولها: هل ترفع من البناية، أو تنقل الى موضع آخر منها؟ هذه المناسبة حملت [كاتو] على دخول الفوروم وهو كاره، فقد عارض التريبونات ونال من الاعجاب شيئاً غير قليل لما ابداه من اقدام ومقدرة خطابية. لم يكن في خطبته شيء من نزق الشباب وطيشه، كما كانت خالية من التكلف والعبارات المنمقة، فقد عمد الى الصراحة، وحشد فيها المعاني ورصّها رصاً خشناً لايخلو من نوع من الروعة والجمال. واسترعى الاهتمام وظهرت شخصية الخطيب المفوّه فيه حين وجد الناس في لغته الصارمة مهيجاً لمشاعر الطرب الطبيعية والاهتمام التلقائي. كان صوته ذا صدى عميق يسمعه الجمّ الغفير دون عناء. وكانت فيه مقدرة على الاحتمال عجيبة، فلا يعتريها وهن وكثيراً ما خطب يوماً كاملاً دون توقف.

بعد ان ادى واجبه في هذه المسألة، عاد الى الدرس والاعتكاف عن الناس. وباشر رياضة شاقة عنيفة لتقوية جسمه. وعودّ نفسه على السير حاسر الرأس في أشدّ الايام حرارة وبرداً. وعاف الركوب باته، وما كان يرى الا وهو ماشٍ. واذا خرج في سفرة مع اصحابه سار وحده تاركاً الاخرين راكبين، الاّ انه كان يلحق بهم واحداً تلو الآخر متحدثاً معهم طول الطريق. وكان يثير الاعجاب بصبره على المرضى، وبالشدة التي يأخذ بها نفسه في العلاج والحمية عند توعك مزاجه. واذا داهمته البرداء اعتكف وابى مواجهة احدٍ حتى تفارقه الحمى وتنصرف عنه اول نوبةٍ لها. وعند العشاء بين الاصحاب عندما يلقى النرد لاختيار صحفة الطعام ويخسر، فيتقدم له الجماعة الحاضرة الطعام الذي يفضله رغم خسارته، فانه يأبى «رافضاً ان يجادل في حكم ڤينوس» على حدّ قوله. ولم يكن يشرب الاّ مرة واحدة في اليوم، بعد العشاء ثم ينصرف لطيته، لكن تعاطيه الخمر زاد بمرور الايام حتى بلغ الأمر به ان كان أحياناً يصل الغبوق بالصبوح. وفسر اصحابه هذا الادمان بقولهم ان شؤون الدولة والمشاغل العامة، كانت تستغرق

منه كل وقته، وبما انه شغوف بالمعرفة والتتبع فقد أعتاد قضاء الليل بطوله في محادثة الفلاسفة وشرب الخمر. ولذا قال المدعو [مميوس Memius] في ملأ من الناس أن [كاتو] يبدد ليالي كاملة في معاقرة الخمر. فردّ عليه شيشرون بقوله:

- وعليك ان تضيف: وهو ينفق نهارات كاملة في لقب القمار! وبمختصر القول، كان [كاتو] يجد الفساد في عادات الزمن واخلاقه وان اصلاح الأمر في الزم الضرورات، وهو لذلك يجد نفسه مجبراً على مخالفة ما جرى عليه العرف، اظهار لفساده. فمثلاً وجد ان الارجوان الفاتح هو موضة العصر. فأختار منه الغامق الشبيه بالأسود وكان يخرج أغلب الأحيان بعد تناول فطوره دون حذاء وشملة. انه لم يكن يبغي من هذه المخالفة، اطلاب شهرة زائعة او الفات النظر اليه. بل لكي يعود نفسه على عدم الخجل الاّ مما يستحق الخجل. وان يحتقر كل انواع الصغائر والمخازي.

ورث من أحد ابناء عمومته عقاراً فباعه بمائة تالنت وجعلها نقوداً تحت متناول يده. لتكون رهن مشيئة المستينين من أصدقائه، دون فائدة. وقد وضع مرة املاكه وعبيده رهناً للخزانته العامة في سبيل بعضهم.

ولما بلغ سن الحلم - والزواج وهو لايعرف امرأة قط. عقد له على [ليپيدا Liepida] المعقود لها قبله على [ميتللوس سكيپيو]. لكن العقد الأخير فسخ لانسحاب الخطيب بملء رغبته فبقيت [ليپيدا] حرة، لكن ما لبث [سكيپيو] ان ندم على ما فرط منه وحاول كل ما وسعه ليعيدها قبل تمام زواج [كاتو] فتكلل سعيه بالنجاح. فاستشاط [كاتو] غضباً وكان اول ما خطر بباله مراجعة القضاء الاّ ان اصدقاءه نصحوه بالاّ يفعل. وعلى كل حال فقد دفعته العاطفة وتهور الشباب الى كتابة عدد من القصائد في هجاء [سكيپيو] والنيل منه على اسلوب [ارخيلوخوس] اللاذع الساخر الاّ انه كانت خالية من بذاءة ذلك الشاعر وفحشه. وبعد ذلك تزوج [آتيليا Atilia] بنت [سورانوس Soranus] فكانت أول امرأة عرفها الاّ انها لم تظل الوحيدة. وهو بذلك أقلّ حظاً من [ليليوس Laelius] صاحب [سكيپيو] الذي لم يعرف طوال عمره المديد غير امرأة واحدة كانت زوجته الوحيدة.

في حرب العبيد التي عُرفت باسم زعيمهم [سپارتكوس] كان [غيلليوس Gellius] جنرالاً. وقد تطوع [كاتو] فيها بسبب اخيه الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. لم يجد [كاتو] فيها، فرصة لاظهار نبوغ أو شجاعة بسبب اخطاء القائد العام في ادارة دفة الحرب. الاّ انه رغم هذا ومع الفوضى والاضطراب اللذين سادا الجيش - أبدى تمسكه الشديد بالضبط والربط، وتجلت فيه آيات من البأس والاقدام بقدر ما تطلبه الموقف فضلاً عن كثير من التروي

والحكمة. فبدأ وهو قرين [الكاتو] جدّه الأعلى وعرض عليه [خيلليوس] مكافآت عظيمة وهم بتقليده ارفع درجات الشرف العسكري الاّ انه أبى قبول ذلك معتذراً بانه لم يقم بشيء يستحق هذا. وبدأ برفضه هذا شخصاً شاذاً غريب الطباع. ودليل آخر على تمسكه بالقانون - انه قد صدر قانون يمنع المرشحين انفسهم لأي منصب بألاّ يستعينوا اثناء الاقتراع بملقنين يزودونهم باسماء الناخبين. وكان [كاتو] الوحيد بين المرشحين لمنصب التريبيون الذي طبق القانون. وقاسى الكثير ليستظهر اسماء من يجب عليه الاتصال بهم من الناخبين لتحيتهم. ان الذين اثنوا على موقفه هذا، لم يكن ثناؤهم يخلو من الغيرة والحسد. فبقدر ما كانوا يقدرون نبل عمله، كانوا يضيقون ذرعاً بالصعوبة التي يجدونها في احتذاء حذوه.

على اثر انتخابه [تريبيوناً] ارسل الى مقدونيا ليلتحق بجيش الجنرال [روبريوس Ru-bruis] وقيل ان زوجه ركبها الهمّ عند رحيله وانشأت تبكي. فقال لها احد اصحابه المدعو [موناتيوس Munatius] يخفف من حزنها ويطمئنها:

- لا تقلقي يا آتيليا، فسأقوم انا نفس على حراسته وهذا عهد مني لك.

فأجاب [كاتو]: بكلّ سرور.

ويعد رحلة يومٍ كامل توقفاً، وقال له [كاتو] بعد ان تناولا عشاءهما:

- عليك الآن ان تفي بعهدك لأتيليا. فلا تتركني ليلاً أو نهاراً.

وأمر ان يفرش في حجرته سريران لينام موناتيوس على أحدهما وبقيا كذلك وتعود [كاتو] ان يتخذ من الموضوع مزحة. فكان يتأكد من وجوده هناك على الدوام. وقد رافقه في رحلته خمسة عشر عبداً ورجلان من الاحرار واربعة من اصحابه، كلهم كانوا يسافرون على صهوات الخيل الاّ [كاتو] فقد ظلّ كعادته يستخدم قدميه، لا يتأخر عنهم قط ويحادثهم جميعاً كلّ بدوره اثناء السير.

وبوصوله معسكر الجيش سلّمه الجنرال قيادة أحدى الفرق ولم يجد في هذا اي شرف كبير، ولا بالأمر الجدير بالقائد. ولأجل ان يثبت اقدامه الفريد في بابه. قرر ان يجعل من جنود فرقته شيئاً اشبه به. لا بارخائه الشكيمة، واستصغار هيبة المنصب بل بمزج العقل بالسلطة. وكان يعمد الى تدريب وارشاد جنوده فرادى واحاداً، ويكافيء ويعاقب حسبما يستحق كل منهم.

واصبح جنود على درجة عالية من الانضباط بحيث صعب القول اهم مسالمون أكثر مما هم محاربون ام بالعكس. أهم أكثرهم اقداماً أم أكثرهم احجاماً؟ لقد كانوا على حدّ سواء مصدر خوف للعدو ومعين لطفٍ للحلفاء. يحجمون عن الدنايا لقدمون على المعالي ونال ما في ذلك

من معنى. وعلا قدره عند الجميع واحبه الجنود، لمساهمته شخصياً بكل ما كان يأمر به. وكان في كسائه وطعامه وحله وترحاله اقرب مظهراً الى الجندي البسيط منه الى قائد فرقة وسبق القادة العظام في تسامي خلقه وحكمته وبات موضع الاعجاب العام دون ان يدري. ذلك ان حب الفضيلة الحقيقي، انما هو جعله الودّ والاحترام اللذين يحسّ المرء لمن يتولى تلقيتها للآخرين أولئك الذين يثنون على اطايب الرجال وهم لايشعرون بحبٍّ لهم، انما يحترمون سمعتهم لكنهم في الواقع لايعجبون باخلاقهم ولا يحاكونها.

في ذلك الحين كان يعيش في [برغاموس]، الفيلسوف الرواقي الشهير [اثينودورس] الملقب [كورديليو Cordylio] وقد بلغ من العمر عتباً. وكان دائم الرفض لكلّ صلة صداقة أو تعارف يطمح اليها الامراء والعظماء، ولم يكن [كاتو] يجهل ذلك، الاّ انه لم ييأس. ووجد ان استحالته وخطب ودّه لا يتمان بالكتابة اليه او ارسال الرسل. وقرر ان يسير اليه بنفسه. وكان القانون يمنحه حق التمتع باجازة شهرين فانطلق الى آسيا. واضعاً ثقته في أخلاقه وشخصيته معتقداً أنها لن تخيبه. والتقى به وتحدث معه حتى نجح في اقناعه بخطل قراره بالاعتكاف عن الناس، وعاد به الى المعسكر فرحاً مزهواً بنصره، كأنه انجز عملاً بطولياً يفوق اعمال [پومپي ولوكوللوس] اللذين راحا آنذاك يدوخان بجيوشها البلاد المترامية ويخضعان الممالك العظيمة.

وفي فترة خدمة [كاتو] العسكرية ورده نبأ مرض أخيه وهو في[انيوس Aenus] التراقية متجهاً الى اسيا. ولم يثنه هياج البحر وعدم عثوره على سفينة مناسبة. بل استقل مركباً تجارياً صغيراً مع اثنين من اصدقائه وثلاثة من الخدم، وأقلع من [سالونيكي Thessaloni-ca] واشرف على الغرق ولم ينج الاّ بعد لأي. ولما وصل [انيوس] وجد أخاه جثه هامدة. ويعتقد أن [كاتو] بدأ في هذا الموقف أخاً محبّاً أكثر منه فيلسوفاً. متضّلا عن الحزن العظيم الذي استولى عليه ورقوعه على الجثمان الهامد شماً وتقبيلاً وعناقاً، لم يبخل باي مالٍ على جنازته وأسرف الى حَدّ السفه بالعطور الثمينة والأقمشة الفاخرة الملحقات التي أحرقت مع الجثمان والضريح المرمري الثاسي Thasian الذي كلفه وحده ثمانية تالنتات - اقامة في ساحة انيوس العامة. هناك فريق عاب عليه ذلك قائلاً انه لايتفق ووقاره المعروف واعتداله، هؤلاء الذين جعلوا همهم ابداء الاعتراضات التافهة لأقل مطعن، غاب عنهم أن [كاتو] كان ممتلئاً بالحنان الطبيعي والحبّ الاخوي مع ثبات جنانه وقلة استجابته النفسية للفرح والخوف والحبّ الجامح.

وبالمناسبة بعث كثير من الامراء وكبار القوم في تلك البلاد والمدن بالهدايا الثمينة تكريماً

لأخيه الراحل. فلم يأخذ مالاً ورده، مكتفياً بالعطور والتزيينات التي لم يقبلها الاّ بعد دفعه ثمنها. ثم انه قسم الميراث بينه وبين بنت [كيپيو] ولم يطالب بنفقات الجنازة من اصل التركة، مع هذا كله، فهناك بعض من يؤكد أنه وضع رماد جثمان أخيه في منخلٍ ليخرج الذهب الذائب بعد احتراق الجسم. ان مخترع هذه الاكذوبة قد يرجو الغفران لقلمه قدر ما يرجو خلاص سيفه من اي اتهام او انتقاد.

انهى [كاتو] خدمته العسكرية. وكان توديعه حافلاً بالعواطف الجائشة لقد شيعه الجنود بالدعوات وحسن الثناء، بله بالدموع والعناق. وفرشوا ارديتهم عند موطيء قدميه، وراحوا يلثمون يديه اثناء مروره بهم، وهذا شرف لا يقلده الرومان الاّ للقلة من الجنرالات والقواد الأعلين. وكان قد قرر بعد تركه الجيش وقبل الاستقرار في روما والعمل في الحقل السياسي - أن يقوم برحلة في آسيا لدراسة عادات وأخلاق وقدرة كلّ أقليم. كما كان أيضاً يكره رفض دعوة [ديوتارس Diotarus] ملك غلاطية، الذي كان بينه وبين ابيه صداقة متينة، وقد تشوق [كاتو] فعلاً لزيارته. واتبع في رحلته هذه النظام التالي: في الصباح الباكر بعث بخبازه وطاهيه الى الموضع الذي يكون قد قرر البيتوتة فيه، فيدخلان المدينة بكل بهدوء واحتشاك. وان لم يتفق لهما صديق او واحد من معارف [كاتو] أو أسرته. فأنهما يستدركان حاجته من الطعام في احد الفنادق. ولا يقلقان راحة أحدٍ. فان لم يوجد فندق، راجعا الحكام وطلبا المعونة في ايجاد منزل لسيدهما. ويقبلان دون اعتراض اي مسكن يخصص لهما. ولايخرجان قطّ عن جادة الأدب أمام الحكام ولا يحدثان ضبحّة أو يلجأ الى تهديد. وكثيراً ما وجد انفسيهما ضائعين لا يكترث بهما احدٌ ويصل [كاتو] فلا يجد شيئاً مهيئاً. ولا يحسن وجوده من الوضع، ويقل الاحتفال به عندما يُرى جالساً فوق متاعه لايتكلم فيحسبونه نكرةٍ من النكرات يخاف أن يصدر أمراً لئلا يلقى ما يكره. وكان أحياناً يستدعى بعض الأهالي وينتمى بهم جانباً ليهمس في آذانهم:

- أيها الحمقى تخلوا عن هذا الطبع واقرؤا ضيوفكم، فليسوا كلهم مثل [كاتو]. كونوا لطفاء وبذلك تكسرون من حدّ القوة. هناك الكثير ممن لايريدون الاّ ذريعة ليستلبوا منكم ما يمكن ان تعطوه بشيء من التردد.

ووقعت له حادثة طريفة اثناء مروره بالبلاد السورية - كان يريد الدخول الى انطاكية فشاهد حشوداً من الناس خارج اسوار المدينة وقد انتظموا صفوفاً على جانبي الطريق: شبان بمعاطف طويلة في جانب، وصبيان بحلل قشبية في جانبٍ وثم آخرون وهم الكهان والقضاة باردية بيضاء واكاليل من الزهر. وحسب [كاتو] ان هذا الاحتفال انما اقيم له تكريماً. فتملكه غضب

شديد على خدمه الذين سبقوه الى المدينة معتقداً انهم اذاعوا نبأ قدومه، وطلب من اصحابه واتباعه ان يترجلوا وسار معهم. ولم يكد يدنو من باب المدينة حتى تقدم منه رجل كبير السن بيده قضيب وأكليل، ربما كان رئيس الاحتفال، وابتدر [كاتو] دون تحية قائلاً له اين تركت [ديمتريوس] ومتى سيصل؟ كان ديمتريوس هذا، خادماً [لپومپي]. وبما ان عيون العالمين كلها كانت شاخصة الى [پومپي] فمن البديهي ان الخادم ايضاً سيتمتع بالتكريم بعد أن علم انه يتمتع بحظوة ونفوذ لدى سيده. وهنا انفجر خدم [كاتو] مقهقهين ولم يتمالكوا أنفسهم من القهقهة وهم يجوسون بين الجمع الحاشد. وعرا [كاتو] نوع من الخجل والأسف وقال:

- ما اشقاك أيتها المدينة!

ولم يزد. على انه كان يضحك كلما عنت له، او ذكّره بها أحدٌ.

ولم يعتم [پومپي] أن جعل الناس يخجلون من جهلهم وحمتهم وعدم اكتراثهم [بكاتو]، بما اظهره له عندما زاره في [افسس] ذهب كاتو لزيارة الرجل الذي يكبره سنّاً، والقائد العام لأعظم الجيوش، ذاك الذي طبقت شهرته الآفاق. فابى [پومپي] الاّ ان يستقبله واقفاً. وتقدم منه مرحباً اعترافاً منه بكبر مقامه. ومد يده مصافحاً وعانقه بكثير من العطف والرقة واطنب في مدح مناقبه بحضوره وزاد في مدحه بغيابه. وبدأ الناس جميعاً يظهرون الاحترام [لكاتو] ويكتشفون فيه الطبع الدمث العجيب، وسموّ الروح وتلك هي عين الطبع التي كانوا يعيبونه عليها من قبل. ان مجاملة [پومپي] بدت وكأنها صادرة من شخص يجلّه أكثر مما يحبّه، وانطباع العموم هو أنه احاط [كاتو] باعجابه حينما كان معه. الاّ أنه لم يكن آسفاً على رحيله. فقد اعتاد [پومپي] الالحاح على زائريه الشبان بملازمته لكنه لم يعرض على [كاتو] البقاء بل أسرع بالسماح له بالرحيل، كأنما كان سلطانه مهدداً بوجوده. مع هذا فقد كان [كاتو] الوحيد بين الراحلين الى روما الذي اوصاه [پومپي] بالولاده وزوجه، وكانت الأخرة في الواقع قريبة لكاتو.

وبعد هذه المقابلة تنافست المدن في تكريمها لكاتو. وكانت الواحدة تلو الأخرى تستقبله بالحفلات والمآدب المقامة على شرف مقدمه. فطلب من اصحابه ان يشتدوا عليه في الرقابة وان يعنوا بأمره لئلا يأتي اليوم الذي يصدق فيه قول [كيوريو]. وكان هذا صديقاً حميماً له يكره فيه تزمته ونقشفه. وقد سأله يوماً عند انتهاء خدمته في الجيش. هل اعتزم زيارة آسيا؟ فأجابه [كاتو]:

- طبعاً. بكلّ تأكيد.

فقال [كيوريو]: نعم ما تفعل. فستعود بمزاج أطيب وخلق ألطف. وبشاشة أكثر.

تلك هي العبارات التي استخدمها على وجه التقريب.

وبلغ [ديوتارس] من العمر عتيّاً. فأرسل يستقدم [كاتو] ليعهد اليه برعاية اطفاله واسرته. وحمل اليه فور وصوله الهدايا من كل نوعٍ راجياً منه قبولها. واستاء [كاتو] لكثرة الحاحه. ولم يبق الاّ ليلة واحدة. ورحل في الصباح الباكر. وبعد أن قطع مسيرة يوم، نزل في [پسينوس Pessinus] ليجد في انتظاره كمية أكبر من الهدايا مع رسالة من [ديوتارس] يستخلفه بان يقبل ما ارسل اليه أو على الأقل ان يسمح لاصدقائه بها لأنهم يستحقون بعض المكافأة منه في حين ان امكاناته لاتسمح له بذلك. الاّ ان [كاتو] أصرّ على رفضها وان وجد بعض اصدقائه الراغبين فيها يهمون بالتظلم من تزمته. فأسرع يقول، ان الفساد لايحتاج الى ستارٍ أو ذريعة. وان على اصحابه ان يقاسموه ما يحرزه بشرف وبحقّ. ثم انه اعاد الهدايا الى [ديوتارس].

وعندما استقل سفينة مقلعة الى [برنديزيون] حاول اصحابه اقناعه بوضع رماد اخيه في سفينة أخرى فأبى قائلاً: انه يفضل مفارقة الحياة على مفارقة الرماد. وهكذا اقلع وقيل لنا ان الاقدار حكمت ان تكون سفرته حافلة بالاخطار الجسام في حين لم تصادف السفن التي ابحرت معه اية متاعب ووصلت بسلام.

وفي روما قضى جلّ اوقاته ملازماً داره أو مجالساً اثينودورس او في الفوروم معقباً قضايا اصحابه. وكان الوقت قد ازف ليتقدم مرشحاً لمنصب [الكويستور] الاّ انه تريث ولم يتقدم الاّ بعد ان درس القوانين المتعلقة بتلك الوظيفة. وبعد الافادة من المجربين فيها حتى بلغ الغاية في تفهمه واجباته وصلاحياته. هذا الاطلاع الواسع ساعده على القيام باصلاحات هامة واجراءات تغييرات كبيرة بين الموظفين ورؤوساء الاقسام في بيت المال عندما تولى المنصب. نظراً لما لهولاء الموظفين من الخدمة الطويلة والمران والمعرفة التامة بالسجلات العامة والقوانين فقد كانوا موضع الاعتماد التام من كل الرؤوساء الجهلة الذين يتعاقبون سنة بعد سنة ويأتون دون خبرة سابقة ولا مؤهلات كافية ليتلمذوا على مرؤوسيهم. فلا يجدون بداً من القاء زمام الأمور اليهم. فباتوا هم امناء الخزينة الفعليين ولم يفسحوا اي مجال لرؤوسائهم لممارسة صلاحياتهم حتى جاء [كاتو] وهو على اتم استعداد، فتولى الأمور بنفسه متسلحاً لا بلقب الكويستور وحده بل بالاطلاع الواسع والمعرفة التامة. وبهذا انزل الموظفين من عليائهم

فأصبحوا وكأنهم مجرد خدم وسعاة. وكشف عن سوآتهم وفرط جهلهم وفضح اعمالهم المشينة وكشف عن حيلهم. كان هؤلاء يتسمون بالجراءة والصفافة فراحوا يتزلفون الى زملائه ويتقربون منهم. لتنظيم كتلة مناوئة له. إلاّ انه اسرع فأدان رئيسهم بجريمة خيانة الأمانة، حول ميراث وصيّاً عليه، وطرده من وظيفته ثم احال موظفاً آخر الى المحاكمة بتهمة النصب والاحتيال. فأنتدب المتهم [لوطاطيوس كاتالوس] للدفاع عنه. وكان [لوطاطيوس] يمارس منصب [الچنصور] وهو رجل متمكن في عمله، ذو مزايا خلقه نادرة، ويعتبر اعقل من هم في سنه، واعلاهم سمعة. كذلك كان صديقاً حميماً [لكاتو] كثير الثناء على بساطة عيشه وتواضعه. أدرك [لوطاطيوس] انه لم يفلح في تبرئة موكله اذا واجه محكمة عادلة، فتقدم برجائه الى [كاتو] لاسقاط التهمة. فاستنكر [كاتو] ذلك منه ولكن [لوطاطيوس] لم ينثن ثم زاد في الحاحه فقال له [كاتو]

- من المخجل يا كاتالوس ان يتعرض [الچنصور] الى عار الطرد من قبل ضباطناوهو صاحب الكلمة المطلقة على أرواحنا جميعاً.

وبدا [كاتالوس] بعد هذه العبارة وكأنه يهمّ بقول، لكنه آثر الصمت اما حياءً وامّا غيظاً. ثم سار لطيته وهو مكسور الخاطر. على ان التهمة لم تثبت. اذ كانت اصوات القضاء الذين حكموا ببراءته أقل بصوت واحد من عدد الاصوات التي حكمت بإدانته، فلم يكن من محاميه [كاتالوس] الاّ وارسل يستقدم [ماركوس لوليوس Marcus Lollius] القاضي، أحد زملاء [كاتو] وكان مريضاً فجيء محمولاً على كرسي وصوت للبراءة. إلا أن [كاتو] أبى استخدام الرجل المظنون في اي عمل ولم يكترث للصوت الذي كان السبب في خلاصه. ولم يدفع له مرتباً. وبهذا فرض على الموظفين سلطانه وضمن احترام اوامره واستخدم السجلات بالشكل الذي وجده ملائماً للمصلحة العامة. فرفع من سمعة الخزينة وجاوز به سمعة مجلس الشيوخ. وانتشر بين الناس هذا القول، ان [كاتو] رفع من شأن منصب الكويستور فجعله مساوياً لمنصب القنصل.

وجد [كاتو] بعد التدقيق ان كثيراً من الناس مدينون للدولة بديون قديمة، ووجد ان بيت المال نفسه مدين لعدد من الاشخاص وكان مبدئه حماية الناس من الاعتداء ومنعهم من الاعتداء في الوقت نفسه. ولهذا راح يتعقب المدينين ويستحصل منهم ديون الخزينة دون ان تأخذه فيهم رحمه او هوادة. كما دفع من مال الخزينة ديون الناس على آخرها. فلهج الناس بمديحه وحبّه وزاد أكبارهم له واعجابهم به، اذ شاهدوا بأم أعينهم كيف كان يجلب أولئك الذين ظنوا انهم فازوا بغنيمة غير قابلة الردّ فيرغمهم على اعادتها. وكيف كان بدفع حقوق

أولئك الذين ادركهم اليأس من وصول ديونهم اليهم. كانت ترد الخزينة صكوك دفع مزيفة واوامر صرف كاذبة من مجلس الشيوخ لمصلحة بعض الاشخاص من ذوي الحظوة والجاه، فتقبل وتصرف لهم المبالغ. ولم يكن [كاتو] بالذي يسكت عن هذا. وفي قضية معينة عندما شكّ في صحة مصادقة مجلس الشيوخ على اذن بالدفع رفض شهادة عدد كبير من الشهود الذين جيء بهم ولم يعترف بصحة الأذن حتى جاء القناصل بأنفسهم وايدّوا الأمر بعد ان حلفوا اليمين امامه!

وكان [سللاً] في زمانه قد أتخذ عدداً كبيراً من الوكلاء والمعتمدين لممارسة الاعمال اللاقانونية التي سادت فترة حكمه، وكان قد دفع لكلّ منهم اثني عشر الف درهم مكافأة على اغتيالهم الخصوم وقتلهم. هؤلاء المناكيد الاشرار كانوا موضع المقت الشديد من الناس، ظلوا يسرحون ويرحون ولايجرأ احد على النيل فيهم. وباشر [كاتو] باستدعائهم واحداً بعد آخر ومحاسبتهم على المبالغ التي قبضوها دون وجه حقٍ، وأعتبرهم واضعي اليد على اموال تخصّ الدولة، وبذلك استحصل منهم كل ما قبضوه ولم يصرفهم بعد التأنيب والتعنيف انما احالهم الى المحاكم متهمين بجرائم القتل التي ارتكبوها. وكانت الاجراءات التي اتخذها بحقهم دليلاً يثبت ادانتهم، وحكماً تمهيدياً. لذلك سهلت ادانتهم واستوفوا حظهم من العقاب. وساد فرح عام وخيل للناس ان الطغيان القديم قد استوصلت شافته، وان [سللاً] نفسه يساق الى المحكمة لينال ما اقترفت يداه - على حَدّ قولهم.

كانت استمرارية [كاتو] ومعين نشاطه الذي لاينضب سبباً آخر لميل الجمهور اليه. فهو يأتي دائرته قبل كل أحد ويكون آخر الخارجين منها. ولم يغب عن اي اجتماع جماهيري مطلقاً. ولم يخطئ جلسةً واحدة لمجلس الشيوخ. فقد كان رقيباً لاتغمض له عين على أولئك الشيوخ الذين لايبخلون باصواتهم على هذا او ذاك، لالغاء ديون مستحقة عليه للدولة. أو لشطب رسوم في ذمته، يفعلون ذلك لمنفعتهم الخاصة، أو لافتقارهم الى الشعور بمسؤولياتهم. ومجمل القول انه حفظ بيت المال. وصانه من الجواسيس بعد ان ملأه بالمال. وقدم بذلك اكبر دليل على ان الدولة يمكن ان تكون غنية دون ان تحتاج الى ارهاق المواطنين بالجباية. في مبدأ الأمر اثارت اجراءاته مشاعر الكره والسخط في نفوس بعض زملائه. لكنهم اصبحوا بالتالي راضين عنه كل الرضا. فقد كان مستعداً لتحمل المسؤولية وكل التبعات والانتقادات عندما يرفض هؤلاء الزملاء مساعدة اصدقائهم في اغتراف اموال الدولة أو يأبون اصدار قرارات لاتنفق مع مبادئ الشرف عند مراجعة حساباتهم. فان أشتد عليهم ضغط ذوي الحاجات اسرعوا فوراً الى القاء اللوم على [كاتو] بقولهم انه لايستطيعون عمل شيء دون موافقته. وشيعه جميع حاشد من الناس

الى منزله في آخر يوم له من وظيفته، تكريماً له واعترافاً بفضله. وبينما هو في طريقه، أخبره أحدهم انه عدداً من اصحاب [مارچللوس] هم الآن في بيت المال يستخدمون نفوذهم وكل ما لديهم من حظوة ووجاهة ليحملوا زميله هذا على الغاء دين وشطبه من السجلات العامة بعد اعتباره منحةً، كان [مارچللوس] صديقاً لكاتو منذ الطفولة وهو أحد خيرة زملائه في بيت المال طالما كان [كاتو] بجانبه. لكن وهو وحيد، ضعيف الارادة لا يصمد امام رجاء ذوي الحاجات نزّاع الى ارضاء كل من يقصده. فما كان من [كاتو] الا وعاد ادراجه ودخل بيت المال ليجد [مارچللوس] يهمّ بتلبية الرجاء وتسجيل الدين منحةً، فأمسك بالسجل وشطب القرار و[مارچللوس] واقف لاينطق بكلمة - بعد أن قام [كاتو] بواجبه صحب [مارچللوس] الى منزله، ولم يعتب عليه لا في حينه ولا بعده وظلّ مقيماً على صداقته ومحبته. ولم ينفك [كاتو] عن مراقبة سير الامور في الخزينة بعد اعتزاله الخدمة. وكلف خدمه بمتابعة تسجيل تفاصيل الخرج. وكان يحتفظ لنفسه بدفاتر خاصة تتضمن حسابات الدخل منذ ايام [سللاً] حتى انهاء خدمته، ابتاعها بخمسة تالنتات.

وكان اول القادمين الى مجلس الشيوخ وآخر المغادرين. وكان أغلب الأحيان يجلس على مقعده ويفتح كتابه وينشغل بالقراءة ناشراً رداءه امام كتابه ريثما ينتظم المجلس ويكمل نصابه بمجيء الاعضاء متباطئين. ولم يؤثر عنه خروجه من المدينة قط اثناء دورات المجلس. وقد وجد [پومپي] وانصاره انهم لايستطيعون اغراء او ارغامه على السير في ركابهم والموافقة على مقترحاتهم الجائرة فحاولوا ابعاده عن الاجتماعات بأن أشغلوه بتعقيب مصالح اصحابه، والدفاع عن قضاياهم والفصل في خلافاتهم وغير ذلك. لكنه سرعان ما أكتشف حيلتهم، فاحبطها باعلانه لاصدقائه ومعارفه بأنه لن يتولى متابعة اية قضية خاصة لاي منهم طالما كان المجلس في دور الانعقاد فهو لم يدخل الحياة السياسية جراً لمغنم او دفعاً لمغرم أو أبتغاء لمجدٍ أو ارضاء لهواية، أو على سبيل الصدف، بل لأنه العمل الاصلح والاشراف للرجل الأمن المخلص. فهو والحالة هذه مسوق الى التمسك والمواظبة على واجباته العامة، مثل مثابرة النحلة على خليتها. وهذا ما حدا به الى استخدام معارفه واصدقائه وكل المتصلين به في كل مكان من الجمهورية - لتزويده بالتقارير والبيانات والاحكام وكل الاجراءات الهامة التي تحصل في الاقاليم، ومرة نهض [كلوديوس] الخطيب المهيج، وأخذ يوجه الطعون والاتهامات الى بعض الكهنة والكاهنات. ومنهم [فابيا Fabia] أخت ترنتيا Terentia زوج شيشرون التي وقعت جراء ذلك في خطرٍ عظيم. فتدخل [كاتو] في الأمر بجراءته المعهودة، وجعل [كلوديوس] يبدو انساناً متهتلكاً فاجراً حتى اضطره الى مغادرة المدينة. وقدم [شيشرون] اليه ليشكره على موقفه هذا فأجابه:

- عليك ان تتوجه بشكرك الى الجمهورية.

الجمهورية التي اوقف نفسه لها. وبهذا كسب سمعة عجيبة حتى ضرب به المثل، ومن ذلك ان محامياً في قضية ليس فيها غير شاهدٍ واحدٍ، كان من جمله ما قال في دفاعه مخاطباً القضاة: عليهم ان لايعولوا على شهادة شاهدٍ واحد وان كان [كاتو] نفسه!

ومما جرى على السنة الناس عندما يريد احد ان يؤكد حدوث شيء غير محتمل الحدوث، ان يقولوا: انهم لن يصدقوا حتى وان جاء [كاتو] مؤيداً ومصدقاً.

وذات يوم طفق احد الخلعاء المشهورين ببذخهم وفجورهم يتكلم في المجلس حول ضبط اهواء النفس والتقشف فهب [انيوس Anæus] من مجلسه وصاح:

- من يستطيع احتمال ذلك منك؟ انت يا سيدي تقيم المآدب مثل [كراسوس]، وتبني الصروح مثل [لوكوللوس] ثم تتكلم مثل [كاتو]!

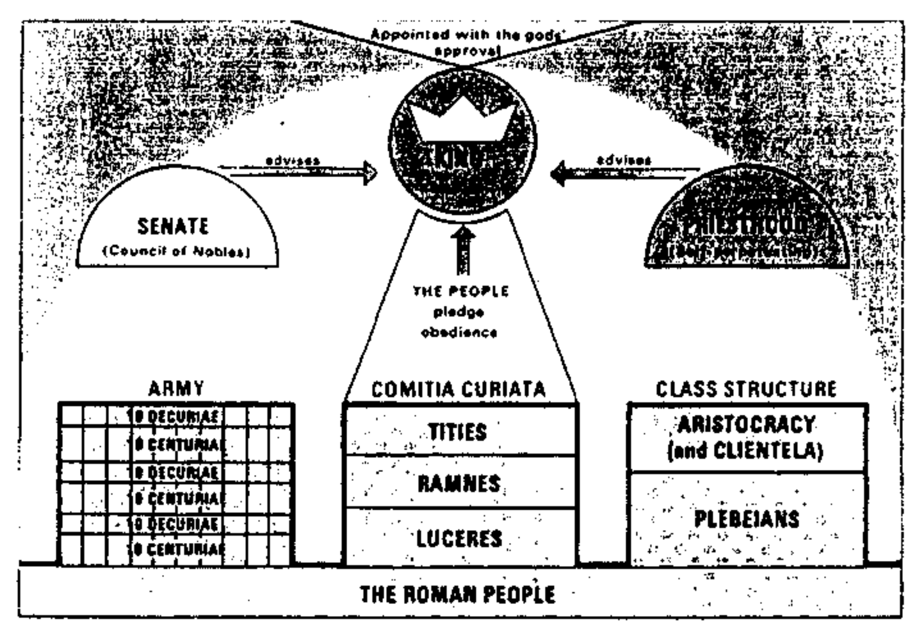
وأطلق الناس على الفاسدين الحلفاء الذين يضفون على حديثهم طابع التزمت والوقار - اسم [كاتو] استهزاء بهم!

زين له اصدقاؤه ببادئ الأمر التقدم للفوز بمنصب تريبون الشعب فلم يجد في نفسه الرغبة بادىء الامر- متعللاً بأن السلطة التي يتمتع بها صاحب هذا اللقب عظيمة الى الحَدّ الذي يجب الاّ تستخدم الا كآخر دواء عند الضرورات القصوى. ثم أنه قرر السفر الى مغناه الريفي خارج روما حيث لديه ضيعة هناك ليقضي فترة الاجازة بين كتبه واصدقائه الفلاسفه وبينما هم في طريقهم اعترضهم كثير من الخيالة والعربات والخدم وسألوا فقيل ان [ميتيللوس نيپوس Metellus Nepos] يقصد روما لترشيح نفسه لمنصب التريبيون فوقف [كاتو] صامتاً برهة. ثم أمر بالعودة الى روما. فعجب اصحابه من قراره وسألوه عما حدا به الى تغيير رأيه فجأة فقال:

- انكم لاتعلمون كم ينطوي عليه جنون ميتيللوس من خطر. انه الآن يدخل روما مسلحاً بنفوذ [پومپي] وعونه، وسينقض كالبرق الخاطف على الدولة وينشر الفوضى والاضطراب. لم يعد الوقت وقت نزهة واسترخاء، وعلينا ان نعود لنحول بين هذا الرجل وبين مأربه أو ان نموت بشجاعة دفاعاً عن حرياتنا.

ولم يبق في مغناه الريفي الا قليلاً وعاد الى روما مساءً وفي صباح اليوم التالي توجه الى الفوروم ورشح نفسه لمنصب التريبيون مقابل [ميتيللو].

ان واجبات هذا المنصب في الحقيقة هي واجبات رقابة، لا تنفيذ اعمال معينة. فللتريبيون



Constitution of the monarchy — دستور الملكية

الحق في ابطال كل اجراء حكومي أوامر صادر من مرجع رسمي بمجرد عدم موافقته. وان كان قد حصل اجماع عليه وفي هذا تكمن اهمية المنصب. ولم يكن [الكاتو] في مبدأ كثير من الأنصار، ولكن ما ان عرفت نواياه حتى تقدم كل الناس الطيبين وذوي المقام في المدينة، مشجعين مساعدين. ليس لأنه طالب فضلٍ منهم. بل لأنه هو المتفضل على بلاده وسكانها الطيبين بقبوله الترشيح لمنصب رفض الترشيح له عدة مرات حين كان ملك يمينه. لكنه الآن رضي بركوب الخطر في سبيله لعلمه أن حريات الشعب تستهدف لخطر أكيد، ونظام حكمهم مهددٌ بشرٍ مستطير. وقيل ان الحشود التي تجمعت حوله كانت من الكثرة بحيث اشتد ضغطها عليه وكادت تزهق انفاسه ولم يكن قادر على السير حظوة واحدة. أخيراً فاز بالمنصب مع [ميتيللوس] وآخرين.

وجد [كاتو] بعد مباشرته وظيفته، ان انتخاب القناصل أصبح سلعة تباع وتشرى. فانحى على الاهالي باللوم وانبهم تأنيباً شديداً وفي نهاية خطبته هدد بأنه سيسوق الى القضاء كل من يعطي مالاً لهذا الغرض، ونفذ قوله هذا، الاّ في قضية [سيلانوس] للقرابة التي تصل فيما بينهما، فهو زوج اخته [سرفيليا]. ولم يحله الى المحاكمة وانما اتهم زميله في القنصلية [لوشيوس مورينا Lacius Morena] باستعماله وسائل غير شريفة لانتخابه قنصلاً. وكان

ثم قانون يسمح لكلّ متهم بانتداب شخص تكون مهمته مراقبة المدعي. ليكون المتهم على علم بالوسائل التي يتبعها هذا الأخير في تهيئة مواد الإتهام. وأخذ الشخص الذي عينه [مورينا] لمراقبة [كاتو] يتبعه كالظلّ انى توجه ويراقبه مراقبة الصقر. الاّ انه لم يجده موضع شبهةٍ في التجائه الى اساليب غير شريفة. وانما كان يجمع مواد اتهامه بشكل صريح قانوني. فأعجب هذا الرقيب بسمو بروح [كاتو] ووثق ثقةً مطلقة بنزاهته. فكان يسأله عندما يلقاه في الفوروم هل ينوى القيام بعمل هول التهمة في ذلك اليوم؟ فاذا اجابه [كاتو] بالنفي تركه معتمداً على كلمته. وأوكل [مورينا] زميله في القنصلية [شيشرون] للدفاع عنه. فأنتهز هذا الفرصة ليتضرف ويتفكه عند تطرقه الى [كاتو] وعلاقاته بالفلاسفة الرواقيين، و«متناقضاتهم» كما كانت تعرف آنذاك - فأثار الضحك الشديد بين القضاة، ولم يسع [كاتو] الاّ أن يلتفت الى الحاضرين ويقول باسماً:

- أترون ايها الاصدقاء كم هو ظريف قنصلنا هذا؟

وبرئت ساحة [مورينا]. واثبت فيما بعد انه انسان نبيل وممن لايفتقر الى الشعور الحيّ، ولايحمل حقداً او موجدة. فقد ظلّ رغم ما حصل - يستشير [كاتو] في الأمور الخطيرة طوال مدة قنصليته. وظلّ يحترمه ويقدره. وكان لسلوك [كاتو] أيضاً تأثير على هذه العلاقة. فمع انه صارم مرعبٌ لا تأخذه في الحق هوادة، يوم يكون في المجلس أو المحاكم. الاّ ان كان لطيفاً انساني المعاملة مع الناس جميعاً.

وقبل انتخابه تريبيوناً، اسدى الى شيشرون خدمة كبيرة ايام كان هذا قنصلاً. وبالتعاون معه عل حل مشاكل عامة كثيرة واهمها طّراً مجهوداته العظيمة في خنق مؤآمرة [كاتالين]، التي كانت تدين نجاعتها الناجحة الى [كاتو]. كان [كاتالين] كما ذكرنا قد دبرّ انقلاباً هائلاً ضد الدولة، بتحريضه على العصيان واثارته حرباً أهلية ضروساً. الا ان شيشرون كشف المؤامرة وادانه وارغمه على الفرار.

لكن لنتولوس وكاثيگا وآخرين بقوا في المدينة للسير قدما في المؤآمرة، واتهموا [كاتالين] بالجبن والتردد في التنفيذ. وواصلوا العمل الإشعال النار في المدينة وبث الفوضى، تمهيداً لاسقاط الحكومة. وتحريض كل الشعوب الرومانية على الثورة. واثارة حروب خارجية في الاقاليم. فوفق [شيشرون] على الخطة [كما سنورد ذلك في سيرته) ورفع الأمر الى مجلس الشيوخ. فتكلم [سيلانوس] اولاً، واقترح فرض اقصى عقوبة على المتآمرين. ووافق على اقتراحه هذا كل الشيوخ الذين تلوه حتى جاء دور [قيصر] للكلام، وكان خطيباً مفوهاً، كان قيصر يري أن كلّ خلل يصيب الدولة هو في مصلحته، ومن شأنه ان يخدم غاياته ولذلك لم

يكن اطفاء الفتنة بل اشعالها. ولهذا القى خطبة رقيقة ملأى بالرحمة. ونفى ان يكون للمجلس الصلاحية للحكم على المتآمرين بالموت. ورأى أن يساقوا الى المحاكم. مقترحاً بقاءهم في السجن. ومالت أكثرية المجلس تقريباً الى رأيه خوفاً من غضبة الشعب، حتى ان [سيلانوس] نفسه تراجع عن موقفه وسحب اقتراحه الأول بقوله انه لم يكن يقصد عقوبة الموت عندما مطالبته بانزال اقصى العقوبة، وانما يقصد السجن لأن هذا أقصى ما يمكن ان يحكم به على روماني. فتحول الاتجاه العام الى فرض عقوبة أخفّ من الموت الى ان حان دور [كاتو] للكلام، فبدء وبكثير من الحماسة يؤنب [سيلانوس] على تردده في الرأي وهاجم [قيصر] الذي يريد القضاء على الجمهورية بالكلمات الرقيقة والخطب الشعبية. ويعمل جاهداً على القاء الخوف في قلوب اعضاء المجلس. في حين يجب هو نفسه ان يخاف ويشكر الله على نجاته من العقاب والتهام . انه يجرأ علنا وبكلّ صفاقة على حماية اعداء الدولة في حين لايجد ذرة من العطف في ضميره على اوطانه التي كادت صروح امجادهم تتهدم بفعل المخربين مع هذا كلّه يجد في نفسه الجرأة على طلب الرأفة بأولئك الذين كان الافضل لهم ان لا يولدوا. ان موتهم سينقذ الجمهورية من الدماء ومن الخراب...

هذه هي الخطبة الوحيدة التي حفظت من بين سائر خطب [كاتو] فقد قيل لنا ان [شيشرون] وضع كتاباً حاذقين سريعين في عدة اماكن من قاعة المجلس. وكان هو قد علمهم اسلوب الاختزال برسم اشكالٍ ذات خطوط قليلة بدلاً من الكلمات الكثيرة. حيّ ذلك اليوم لم تكن كتابة الاختزال معروفة، فهي والحالة هذه التجربة الأولى في هذا الفن.

نجح [كاتو] في مسعاه وحوّل المجلس ثانيةً الى رأيه الأول وصدر القرار بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين.

ان كل صغير من الأمور يفيدنا في اعطاء صورة كاملة عن خلق [كاتو] وابراز اتجاهاته العقلية. ومن ذلك ما نقل لنا انه بينما كان هو وقيصر في اشد حالات الهياج والحماسة وانظار المجلس شاخصة اليهما. سلم أحدهم ورقة صغيرة لـ[قيصر] وشك [كاتو] في مضمونها. وصاح أن هذا عمل يثير الريبة واصرّ على ان هناك فتنة تدبرّ في الخفاء وطلب قراءة الورقة علناً. فما كان من [قيصر] الاّ وناوله الورقة. فوجدها [كاتو] رسالة غرامٍ من [سرڤيليا] اخته الى قيصر الذي كان قد اغواها وافسدها. فقذف بها اليه وهو يقول:

- خذها، خذها أيّها السكّير!

ثم واصل المناقشة كأن شيئاً لم يحدث.

في الواقع يبدو ان [كاتو] كان سيء الحظّ من ناحية النساء فهذه المرأة السيئة اشتهرت بسوء السمعة لعلاقتها [بقيصر] وسرڤيليا الأخرى اخته الثانية، كانت اسوء من الأولى سيرة وهي بعد امرأة [لوكوللوس] احد عظماء الرومان. وام ابنه وقد اضطر الى تطليقها فيما بعد. والانكى من هذا كله ان زوج [كاتو] نفسها لم تكن خالية من المطاعن والقالة السيئة. فبعد ان ولدت له [آتيليا] ولدين، اضطر الى طلاقها لسوء سلوكها، ثم تزوج [مارشيا Marcia] بنت [فيليپس] وكانت امرأة متينة الخلق حميدة السيرة. الاّ انها كانت سبباً ومادة لتعليقات وروايات عديدة، ولما كانت حياة [كاتو اشبه بفصل دراميّ. فهذا المشهد الذي نورده، مليئ بالغموض والمعاني الغريبة المحيرة.

والرواية هي [تراسيا Thrasea] الذي اسندها الى [موناتيوس] واعجبوا به اختص بنخبة اعلى مقاماً وابرز قدراً. ومن هؤلاء [كونيتوس هورتنسيوس Quintus Hortensius] وهو الرجل رفيع الخلق، جليل القدر، لا مطعن فيه. علق هذا الرجل بحبّ [كاتو] ولكنه لم يكتف منه بالصداقة والتآلف. بل كان يطمح الى ايجاد صلة قربى بين البيتين والأسرتين، فراح يعمل لاقناع [كاتو] بالزواج من ابنته [پورشيا] التي هي زوجة [بيپلوس] وام ابنيه! معتبراً اياها ارضاً مخصبةً لا مانع من تثمر لكاتو أيضاً وعلل اقتراحه قائلاً: مع أن العرض قد يبدو غريباً لعقول الرجال الاّ انه صحيح بحكم الطبيعة. فمن الخير والمصلحة العامة ان لا تبقى المرأة عقيمة رحمها. وكذلك لايجدر بها ان تزيد من أعباء رجل واحد، فتفقره بان تحمل له عدداً كبيراً من الاولاد. فضلاً عن ان الفضائل تنمو وتزدهر بارتباط نسب الأمر الراقية، وتنتشر بزيادة انسالها. وستتماسك الجمهورية ويصلب عودها بامثال هذه وابط. اما اذا ابى [بيبولوس] مفارقة زوجته مفارقة القطيعة فبامكان [كاتو] اعادتها اليه حالما تلد له. وبهذه الوسيلة يتم الاتحاد بين الأسرتين!

فاجابه [كاتو] انه في الحقيقة يودّ [هورتنسيوس] كثيراً ويتمنى من صميم قلبه أن تتم صلة القربى بين البيتين، لكنه يستغرب منه اقتراحه بتزويجه ابنته وهي الآن متزوجة من آخر. فنقل [هورتنسيوس] الموضوع الى ناحية أخرى وطلب منه ان يتنازل له عن زوجته [مارشيا] لأنها شابة ولود، وانها قد ولدت له كثيراً من الذرية، لم يقدم [هورتنسيوس] على الطلب لاعتقاده بان [كاتو] قليل الاهتمام [بمارشيا] اذ كانت في تلك الساعة حاملاً . وادرك [كاتو] اخلاص صديقه وكان مقتنعاً بان ليس هناك سوء قصد في الأمر. فلم يرفض رجاءه وانما اشترط موافقة والد [مارشيا] فأرسل يستدعي [فيليپوس] فجاء ليجد الموافقة قد تمت فلم يسعه الاّ الرضا. وتم زواج [هورتنسيوس] بحضور [كاتو] الذي ساعد في اتمامه. وقع

هذا في وقتٍ متأخرٍ. ولكني ما ذكرته هنا الاّ اكمالاً لسياق حديثي عن النساء.

ونفذ حكم الموت بـ[لنتلوس] وشركائه المتآمرين. لكن قيصر الذي وجد نفسه هدفاً للانتقاد وموضع الشك والاتهام في مجلس الشيوخ اضطر الى الالتجاء للشعب واخذ يثير احط العناصر واكثرها فساداً. وادرك [كاتو] عاقبة ذلك، فأقنع المجلس بكسب جماهير الفقراء والمعدمين ، عن طريق توزيع القمح عليهم دون مقابل. وهو ما كلّف الخزينة اثني عشر الفاً وخمسمائة تالنت. هذا العمل الانساني المتسم بطابع الرحمة. ابعد الخطر مؤقتاً الاّ ان [ميتيللوس] بعد مباشرته مهام [التريبيون] بدأ يعقد اجتماعات جماهيرية صاخبة، وهيّأ قراراً يقضي باستدعاء [پومپي] الاكبر الى ايطاليا فوراً على رأس كل قواته للمحافظة على المدينة من عواقب مؤامرة [كاتالين]. كان هذا ذريعة مقبولة في ظاهرها ، الاّ ان النيّة التي كانت تكمن وراء ذلك هو وضع كلّ شيء في يد [پومپي] ومنحه السلطة المطلقة فالتأم مجلس الشيوخ لمناقشة الأمر. الاّ ان [كاتو] لم يعمد الى مهاجمة [ميتيللوس] كعادته، وانّما وضع نصائحه في الطف عبارة ممكنة. ثم انتقل الى الرجاء وشرع يثني على أسرة [ميتيللوس] ويرفع من قدرها لأنها كانت تنحاز دائماً الى جانب الاشراف، وكان تأثير هذا بميتيللوس خلافاً لما أمله [كاتو] فقد زاد بذاءة، وتحقيراً [لكاتو] معتقداً بانه خائف منه واطلق لوعيده العنان دون ضابط ورقيب وبوقاحة لا مثيل لها وهدد بأنه سيعمل ما يراه مناسباً رغم انف مجلس الشيوخ.

وهنا غير [كاتو] من لهجته وصوته وموقفه. والقى خطبة عنيفة حادة ختمها بقوله: ان [پومپي] لن يدخل المدينة مسلحاً. وانا في قيد الحياة.

ووجد المجلس ان الخطيبين يركبان متن الشطط وانهما فقدا السيطرة على حواسهما. فاقتراح [ميتيللوس] هو ثورة عمياء ، وهيجان سببه ذلك الاضطراب العام الذي آل بكلّ شيء الى الفوضى والخراب. ومزايا [كاتو] بدت لهم آنذاك، شيئاً اشبه بالجهاد الروحي في قضية شريفة عادلة.

وأقبل يوم اقتراع الشعب على القرار. وسبق [ميتيللوس] الى احتلال الفورم بالمسلحين والمصارعين والعبيد والاجانب، كل هؤلاء كانوا يأملون فصول تغيير سياسيّ لمصلحتهم، فأنتصروا الپومپي. ولم يكن عددهم بالقليل. وهم فضلاً عن ذلك كانوا يتمتعون بدعم قيصر [الپريتور] آنذاك. ومع أن علية القوم وعقلاءهم لم يكونوا أقل شعوراً بالذلّ من [كاتو] فقد بدا وكأنهم مستعدون للمعاناة معه أكثر منهم استعداداً لمعاونته. واستولى على اسرة [كاتو] خوف وقلق عظيمين على مصيره، ولم يتبلغ بعض اصدقائه بكسرة خبز أو بشربةِ ماء طوال

تلك الليلة حيرةً وقلقاً. وشرعت زوجه واخواته يبكين ويندبنه اما هو قد ظلّ راسخ العزم، رابط الجأش ولم تزايله ثقته بنفسه. وشرع يعزّي ويسلّي ويشجع باحاديثه وكلماته ثم انسحب بعد العشاء في موعده الاعتيادي ونام نوماً عميقاً. ابقظه منه صباح اليوم التالي زميله الشيخ [مونيشيوس ترموس Municious Thermus] وما ان استوى على قدميه وفرك عينيه حتى انطلقا معاً الى الفوروم وليس معهما الأ قلة. الأ انهما التقيا بكثير من الناس الذين اوصوهما بالتزام جانب الحذر. ولما رأى [كاتو] معبد [كاستور وپوللوكس] مطوقاً بالجنو. ودرجاته محروسة بالمصارعين. وميتيللوس وقيصر على رأس الدرج متجاورين، التفت الى انصاره قائلاً:

- تأملوا هذا الجبان الطائش! لقد جرد لواء كاملاً من الجنود على رجل اعزل لا يحمل قطعة سلاح.

وتقدم مع [ترموس] فأفسح حرس المدخل السبيل لهما فقط ومنعوا الآخرين من المرور. الأ ان [كاتو] قبض على يد [موناتيوس] واستله من الجمهور وجره معه. ثم توجه الثلاثة رأساً الى [ميتيللوس] و[قيصر] وجلس بينهما ليمنعهما من مسارة احدهما الآخر. فاصابهما بالذهول. وتطلع الحزب المناصر [لكاتو] الى ملامحه معجبين بروحه العالية وبسالته فاقتربوا واخذوا ينادونه مشجعين وطفق يحمّس احدهما الآخر ويحثه على التكاتف والتعاضد، لا يفرطون بحريتهم ولا بالمدافع عنها.

وتناول الكاتب المرسوم لتلاوته الأ ان [كاتو] منعه. فأخذه منه [ميتيللوس] وهم بقراءته الا ان [كاتو] انتزعه من يده. ولما كان [ميتيللوس] قد حفظه من ظهر قلب فقد انشأ يتلوه استظهاراً فكمّ [ترموس] فمه براحة يده واسكته. وادرك [ميتيللوس] ان خصومهم مصرون على الوقوف في وجههم وان الشعب احجم ومال الى الكفّه الراجحة. فأرسل يستقدم من منزله بعض الرجال المسلحين فأقبلوا واندفعوا يطلقون صرخات مرعبه ناشرين الخوف في القلوب. فتفرق انصار [كاتو]، الذي بقي ساكتاً بينما أخذ انصار خصومه يرجمونه بالحجارة ويقذفونه بالعصي من فوق. حتى خفّ اليه [مورينا] (وهو القنصل الذي احاله كاتو للمحاكمة) وغطاه بردائه وصاح بأمر المعتدين بالكف عن رمي الحجارة. ومجمل القول انه اقنعه بالعودة وسحبه بالقوة الى هيكل [كاستور وپوللوكس]. ولما وجد [ميتيللوس] المكان خالياً. وان مناويه قد لاذوا بالفرار وتركوا الفورم. خيل له ان نصره اصبح سهلاً ووشيكاً فأمر الجنود بالانسحاب من مواقعهم وشرع في اجراءات التصديق على المرسوم حسب الاصول المتبعة. الأ أن الحزب المناوىء ما لبث ان استفاق من الصدمة فلم شعثه وعاد شديد البأس يطلق افراده صيحات

شديدة، فتملك اتباع [ميتيللوس] الخوف، وظنوا ان خصومهم اتحدوا بجماعة من المسلحين ففروا وتركوا الساحة خاليةً ولما استتب الامر لهؤلاء عاد [كاتو] فرفع من المعنويات وانشأ يمدح موقف الشعب ويثني على قراره، حتى أخذت الاغلبية تنادي بتنحية [ميتيللوس] عن منصبه. واجتمع مجلس الشيوخ واصدر قراراً ثانياً بدعم [كاتو] ورفض مشروع [ميتللوس] معللا الرفض بانه قد يكون سبباً في اشارة فتنة تؤدي الى حرب أهلية في المدينة».

على ان [ميتيللوس] لم ييأس وظلّ سادراً في غلوائه. ووجد مشايعيه يحجمون خوفاً من [كاتو]، وكانوا يجدون فيه خصماً لايغلب. فترك المجلس الى الفوروم وجمع الناس وخطب فيهم خطبة ضد [كاتو]. وهتف بأعلى صوته ان أرغم على الفرار امام من طغيانه وجبروته ومن المؤآمرة التي حيكت ضدّ [پومپي] وانه لن يمر على المدينة طويل زمن حتى يدركها الندم لاستهانتها برجل عظيم مثله. وقال انه سيرحل الآن الى آسيا (معتزماً اخبار پومپي بكلّ ما لحق شخصه من اهانات وتحقير). الخ...

وعظم قدر [كاتو] كثيراً لأنه انقذ الحكم من تريبيونية [ميتيللوس] الخطرة. وتغلب بشخص هذا، الى حَدّ ما على [پومپي]. وزاد قدره ارتفاعاً عندما اعترض سبيل الاجراءات الرادعة التي قرر المجلس اتخاذها بحق [ميتيللوس] وعارض في قرار عزله من الوظيفة حتى جعلهم يعدولون عن رأيهم. وأكبر فيه العامة هذا العمل الدال على نبله وانسانيته، لأنه لم يطأ عدوّه بعد ان تمكن فيه. وقدر العقلاء فيه بعد النظر والدهاء السياسي بتحاشيه اغضاب [پومپي].

بعد ذلك بفترة عاد لوكوللوس من الحرب الآسيوية، بعد ان جرده [پومپي] من شرف انهائها وبذلك سلبه مجد الحرب كلها كما بدا واضحاً لكلّ منصف. وكاد [لوكوللوس] يخسر ايضاً موكب النصر، لأن [كايوس موميوس] أخذ يشهر به امام الشعب ويهددّ بسوقه الى القضاء، كل ذلك حباً بپومپي لا بغضة [بلوكوللوس]. لكن [كاتو] وهو اخ [سرڤيليا] زوج [لوكوللوس]، انبرى لـ[موميوس] واوقفه مقتنعاً بانه يظلم لوكوللوس، ويتهمه زوراً، فعرض نفسه لكثير من الشتائم والتعليقات البذيئة وكاد يطرد من منصبه بدعوى اساءته استخدام صلاحياته وتجاوزه حدودها، على انه استظهر بالأخير وارغم [موميوس] على سحب اتهامه، وترك ميدان المعركة. فأمن بذلك موكب النصر [للوكوللوس]. وبقي هذا لصيقاً بكاتو فقد كان يعدّ صداقته حاجزاً دفاعياً له من نفوذ [پومپي] وحارساً يقظاً.

كذلك عاد [پومپي] من الحرب يجرّ اذيال المجد، ويتمتع بعطف الشعب الذي ظهر جلياً في استقباله الرائع له، حتى خيل له أنه لن يرفض له طلباً. وبعث الى المجلس يرجو تأجيل الجلسة

المخصصة لانتخاب القنصل حتى يتسنى له الحضور ومعاونة [بيزو] المرشح. ومالت الأغلبية الى اجابة الطلب غير ان [كاتو] استعمل حقه في الاعتراض، لا لاعتقاده بأن في التأجيل خطورة، بل لأنه يريد يقطع السبيل بصورة آنية، على آمال [پومپي]. ويحبط خططه ويحول دون فرض سلطانه على المجلس. ولم يكن هذا بالهيّن على [پومپي] الذي ادرك ان أكثر مشاريعه ستلقى الفشل الذريع ان لم يضمن انحياز [كاتو] الى صفّه. فأرسل وراء موناتيوس صديقه الحميم.

كان لـ[كاتو] ابنتا أخٍ في سن الزواج، فعرض لموناتيوس أن يتزوج هو الكبرى منهما. وان يزوج ابنه بالصغرى (ذكر بعضهم انهما بنتا [كاتو وليس اخيه] فعرض موناتيوس الأمر على [كاتو] بمحضر من امرأته واخواته، فطرن فرحاً بمصاهرة هذا الشخص العظيم. إلاّ أن [كاتو] اتخذ قراره فوراً دون أن يحتاج الى كثير من التفكير والتردي واجاب بقوله:

- عد من حيث جئت يا موناتيوس، عد وقل لپومپي، أن [كاتو] لايمكن التغلّب عليه من جهة مخدع النساء. اني في الحقيقة ممتنّ جداً لهذا الشرف الذي اسبغه عليّ واني اعده بصداقة أمتن وابقى من اي علاقة قربى طالما استقامت اعماله وخلصت نيته. الاّ اني لن اقدم لمجد [پومپي] رهائن على حساب سلامة الوطن.

وسخطت النسوة لهذا الجواب. وبدأ في اعين اصدقائه غطريساً فظا. الاّ ان الايام ابدت صحة رأيه. حين اخذ پومپي يسعى للفوز بمنصب القنصل لأحد اصدقائه. وراح يشترى اصوات الناخبين، وأشتهر أمره. وعلم الخاص والعام بنبأ تلك الرشوة التي دفعها للناخبين في حدائق منزله. فتوجه الى النسوة وذكرهن بعرض [پومپي] وكيف ان سمعتهن كانت ستتلوث بهذه الأعمال المنافية للشرف لو صاهرنه، فاعترفن بخطأهن وباصابته. ولكن لو أخذنا القضية بمفردها وتتبعنا آثارها، لما وسعنا الاّ لوم [كاتو] على رفضه هذا الحلف الذي اصبح من نصيب قيصر، بتلك المصاهرة التي وحدت قوتيهما وقضت على الجمهورية بالزوال، وكادت تقضي ايضاً على الامبراطورية. ما كان هذا ليحدث مطلقاً لو سمح [كاتو] لنفسه بالتجاوز عن اخطاء پومپي الصغيرة. ولو لم يكن شديد التخوف من هفواته. لم يقف [كاتو] لحظة ليفكر كيف اضطر [پومپي] الى ان يمنح رجلاً آخر الفرصة لارتكاب اعظم الأخطاء!

أمور وقعت فيما بعد على كل حال، في ذلك كان قد نشب خلاف عظيم بين [پومپي] و[لوكوللوس] حول فرض تطبيق المراسيم والاوامر التي يصدرانها بخصوص البونتس. ووقف [كاتو] الى جانب المظلوم وكان [لوكوللوس]. ووجد [پومپي] انه الاضعف في المجلس فالتجأ الى العامة، ولأجل حصوله على اصوات كافية من الناخبين اقترح سن قانون يقضي

بتوزيع الأراضي على الجنود. فعارض [كاتو] ورفض القانون. فانحاز [پومپي] الى [كلوديوس] اعنف الخطباء الديماگوگيين في ذلك الوقت، كذلك خطب ودّ [قيصر] فبادله الودّ. وكان [كاتو] السبب في هذا ايضاً. فقد عاد [قيصر] من اسپانيا. ورغب في ترشيح نفسه للقنصلية دون ان يكون ذلك حائلاً بينه وبين موكب نصره. لأن القانون يحتم على المرشح لمنصب القنصل ان يحضر محل الاقتراع. ويحتم على من يطلب لنفسه موكب نصر ان يبقى خارج الاسوار حتى يبت في طلبه. فعرض [قيصر] على المجلس ان يأذن لاصحابه بالنيابة عنه في الترشيح وان يشرفوا على عملية الانتخاب بغيابه وكان كثير من اعضاء المجلس يميلون الى تحقيق طلبه. لكن [كاتو] عارض في الطلب. ولما تبين ان الأكثرية ستحصل بالقبول اذا جرى التصويت. لجأ الى التأخير بوقوفه خطيباً يوماً كاملاً. فلم يجد [قيصر] مندوحة من التخلّي عن موكب نصره والدخول الى المدينة قبل موعد الاقتراع. واتصل [بپومپي] وعقد الحلف ثم تقدم مرشحاً لمنصب القنصل ففاز به. وتزوج [پومپي] ابنته [يوليا] فكمل الحلف ضد الجمهورية.

واقترح [قيصر] سن قانون يقضي بتوزيع الاراضي على الفقراء وحضر [پومپي] وساند الاقتراح. وانحاز [لوكوللوس] و[شيشرون] وانصارهما الى القنصل الآخر [بيبولوس] ليصبحوا كتلة معارضة للقانون المقترح. وكان [كاتو] في طليعة هذه الكتلة. فقد رأى ان حلف [پومپي - قيصر] ينطوي على أعظم الخطر. وان القانون المقترح وان كان سيعود بالنفع على الأهالي، الاّ أن مقترحيه لايريدون منه الاّ التقرب من الشعب وينتظرون ان يكافأوا عليه بيقته، وهذا ما يخشاه [كاتو]. فتمكن من حمل المجلس على رفض القانون وشايعه آخرون ممن لم يكونوا شيوخاً. وقد آلهم أن يلجأ [قيصر] الى هذا الأسلوب غير الجدير [بالقنصل] في التودد الى الأهالي، وتملقهم بهذا الشكل المخلّ بمبادئ الشرف، مما لايقدم عليه الاّ [تريبيون] متهورٌ غير شاعر بالمسؤولية.

وجد [قيصر] واشياعه انهم عاجزون عن امرار القانون بالشكل الأصولي ولجأوا الى الارهاب والقوة. فألقوا محتويات وعاءٍ من القاذورات على [بيبولوس] وهو متوجه الى الفورم ثم هجموا على الحرس اللكتوري الذي يرافقه وكسروا عصيهم. وقذفوا بعدة رماح فأصيب بعض الناس بجراح. ولاذ معارضو القانون بالفرار من الفورم. واسرع الشيوخ بالخروج، وكان [كاتو] آخر الخارجين يمشي ببطء ويتلفت بين آونة وأخرى متوعداً بالويل والثبور.

وتمّ [القيصر] ما اراد، ولكنه لم يكتف وانما استحصل قراراً يحتم على كل شيخ ان يقسم يمين التأييد للقانون الجديد، والدفاع عنه ضد كل محاولة لتعديله او تغييره. وفرضت اشدّ

العقوبات على من يرفض اداء القسم، ولم يجد الاعضاء مناصاً وحلفوا اليمين متذكرين [ميتيللوس] في العهود الماضية، اذ رفض أن يحلف اليمين في قضية كهذه، فأرغم على ترك ايطاليا. وأبى [كاتو] ان يفعل ذلك. رغم بكاء زوجه واولاده وتوسلهم، والحاح اصدقائه وأسرهم، الى ان تمكن [شيشرون] من اقناعه بالنقاش والمنطق قال له: ربما كان موقفك غير صحيح بوصفك رجلاً عادياً، تعارض ما قرره الشعب بشبه اجماع. ثم ان الأمر نفذ ولات حين مناص. ومن الحماقة والجنون ان تعرض نفسك للخطر وامامك فرص عظيمة لخدمة بلادك. انه لمن الخطل ان يتذرع المرء بهذه الحجة ليترك الجمهورية في محنتها، الجمهورية التي فعل لأجلها الشيء الكثير. ان يدعها تقع فريسة في ايدي أولئك الذين عقدوا الخناصر على تدميرتها ليس الا. كأنما يسرك ان تنفذ نفسك من اخطار الدفاع عنها، وختم كلامه بقوله:

- ان [كاتو] ليس بحاجة الى روما، الا ان روما بحاجة الى [كاتو] وكلّ اصدقائه.

وفي مقدمتهم شيشرون يقصد نفسه، اذ انه كان وقتئذ هدف [كلوديوس] حين توعده بان ينقضّ عليه حالما يتقدم مرشحاً لمنصب [التريبيون]، قيل ان [كاتو] قنع ولان جانبه بهذه الحجج، وذهب الى المجلس كارهاً لحلف اليمين وكان آخر من أداها قبل [فافونيوس] احد اصدقائه الخلصّ.

وسكر قيصر بخمرة نجاحه، فأقترح قانوناً آخر لتقسيم كل أراضي [كامپانيا] تقريباً - على المواطنين الفقراء والمحتاجين، ولم يجرأ أحد على معارضته غير [كاتو] فصعد قيصر اليه وجرّه من مقعده وقاده الى السجن، فلم يحجم [كاتو] عن استعمال حقه في الكلام وواصل الكلام في معارضة القانون وهو في طريقه الى السجن وطفق ينصح المواطنين بعزل كل المشترعين الذين يقترحون مثله من القوانين وسار خلفه اعضاء المجلس ونخبة من ابرز المواطنين مكتئبين محزونين معبرين عن ألمهم وسخطهم بالسكوت ولم يفت قيصر مبلغ سخط الاهالي. الاّ ان العناد وبالمكابرة جعلاه يمضي في انفاذ ما قرره متوقعاً ان يفوز في هذا النزال باقل ضعف واستخذاء يظهره له [كاتو] أو باستئنافه القرار. فخاب فأله ولم يبد من سجينه أي شيء يدل على ضعف فادركه الخجل من فعلته، ومن رأي الشعب فيها. فأرسل يستقدم تريبيوناً وطلب منه التدخل في قضية [كاتو] واطلاق سراحه.

مهما يكن فان [قيصر] نال عطف الشعب وولائه بتلك القوانين والاجراءات. فعين حاكماً لأيلليريكوم وكل بلاد الغال وسلم قيادة جيش يتألف من أربع فرق لمدة خمس سنوات. وظلّ [كاتو] يصيح بهم قائلاً انهم ينصبون طاغيةً باصواتهم الانتخابية. ونصب [پوبليوس كلوديوس Publius Clodius] وهو پاتريشي تريبيوناً للشعب خلافاً للقانون لأنه وعدهم بعمل

كل ما يحسن في عيونهم شريطة ان يرسل [شيشرون] الى المنفى. وأختاروا لمنصب القنصلية كلاً من س[كالبورنيوس بيزو] حميّ [قيصر] و[آولوس غابينيوس Aulius Gabinius] أحدي دُمى [بومبي] كما ذكر لنا أولئك الذين يعرفون سيرته واخلاقه. واستتبق لها الأمور، واخضعا جانباً من المدينة بالخوف. وكسبوا ولاء الجزء الآخر بالهبات والعطايا على انهما بعثا في خوف من [كاتو] يتذكران خانقين التعب والمجهود اللذين بذلاه للتغلّب عليه. والعار والخجل اللذين لحقهما عندما اضطرا أخيراً الى استعمال الشدّة معه. وبئس [كلوديوس] من ابعاد [شيشرون] عن ايطاليا بوجود [كاتو] فيها. فعمد الى تدبير حيلة. فأرسل يدعو [كاتو] لمقابلته فور مباشرته وظيفته. قال له انه يعتبر [كاتو] أكثر الرومان امانة ونزاهة وهو مستعد ليبرهن على صدق اعتقاده هذا...» فقد طلب كثيرون أرسالهم الى قبرص في المهمة المتعلقة [ببطليموس] وتشبثوا بالوساطات. واعتقد انك الوحيد لها».

فصاح [كاتو] مستنكراً. وقال انها خطة حيكت لابعاده، ان ما يعرض تكريماً بل اهانة.

فأجاب [كلوديوس] بكبرياء وفظاظة:

- ان لم تعتبرها فضلاً وتكريماً فستذهب وان لم يكن ذهابك بملء أختيارك.

وقصد [كلوديوس] الجمعية العامة من فوره واستحصل امراً بارسال [كاتو] الى قبرص في مهمة [بطليموس]. ولم يخصصوا له سفينة، ولا جندياً ولا خادماً. خلا اثنين من امناء السرّ، احدهما لصّ ووغد، والآخر من بطانة [كلوديوس]، وكأن مهمة قبرص لم تكن كافية فقد أمر أيضاً بتسوية مشاكل اللاجئين في بيزنطيه، اذ كان [كلوديوس] مصمماً على ابقائه بعيداً طالما هو يتولى وظيفة البريتور.

ونصح [كاتو] شيشرون قبل رحيله الجبري، وذكره بأنه سيكون الهدف الثاني. وعليه ان لايبدي اي مقاومة والاّ سحقوه أو وقعت البلاد في اتون حرب اهلية وفوضى عامة. وعليه ان يتربص بالأيام لينقذ البلاد مرة أخرى.

وارسل قبله الى قبرص صديقه [كانيديوس Canidius] لعله يقنع بطليموس بالطاعة دون اللجوء الى القوة. فان فعل ذلك فلا حاجة له بالمال أو الجاه لأن الرومان سيقلدونه كهانة الآلهة [بافوس Paphis]. امّا هو فقد بقي في [رودوس] للاشراف على بعض التدابير. منظراً الجواب من قبرص.

في الوقت ذاته كان [بطليموس] ملك مصر قد أقلع من الاسكندرية متوجهاً الى روما لخلاف نشأ بينه وبين رعاياه، أملاً في ان يقنع [بومبي] و[قيصر] بارسال قوات تعيده اليه

عرشه. ورغب وهو في طريقه الى روما بمقابلة [كاتو] وارسل من ينبئه بوصوله متوقعاً من [كاتو] أن يأتي اليه، وكان هذا قد تناول دواء مطهراً للاحشاء عندما ابلغه الرسول برسالة بطليموس. فأجاب انه يفضل لو قدم بطليموس اليه ان وجد ذلك ممكناً. وأقبل الملك فلم يخرج [كاتو] لاستقباله، ولم ينهض للترحيب به عند دخوله بل اقرأه التحية كما يحيّ الرجل العادي واشار عليه بالجلوس فعلا بطليموس شيء من الارتباك وعجب من السلوك الصارم المتعالي ان يصدر من شخص مظهره يدل على بساطته وتقشف متناهيين، ولم يكن أقل عجباً عندما بدأ يحدثه عما يشغل باله من امور. فقد راعته حكمته وحصافته وتبسطه في الحديث انتقد [كاتو] مشاريعه وقال انه سيخسر كثيراً من مقامه ومن راحته وسعادته. اي اذلال ومتاعب سيواجه، كم سيضطر الى الرشوة ارضاء لجشع الزعماء الذين سيقابلهم في روما. أولئك الذين لايشبعون ولو انقلبت ارض مصر كلها الى فضّة ثم نصحه بالعودة الى دياره ومصالحة رعاياه وعرض عليه ان يرافقه اليها ويعاونه في تسوية الخلاف، وبهذا النصائح الخالصة بدأ بطليموس وكأنه يستيقظ من نوبة جنون أو اغماءة وتبينت له الحقيقة. وادرك صواب ما قاله [كاتو] وقرر ان يأخذ بنصيحة. الاّ ان اصدقاءه عادوا فاقنعوه بمواصلة السفر الى روما والمضي في مشروعة. وهناك وجد نفسه مضطراً الى الانتظار بباب احد الحكام. فراح يلوم نفسه وحماقته في رفضه نصيحة رجل فاضل حكيم، بل نبوّة آله كما بدت له آنذاك.

من حسن حظ [كاتو] ان بطليموس الآخر في قبرص، آثر ان ينهي حياته بيده فشرب سُمّا، وقد ذكر له ان خلف اموالاً طائلة. فقرر [كاتو] ان يتجه اولاً الى [بيزنيطوم] فأرسل الى قبرص ابن اخته [بروتوس] لأن ثقته [بكانيديوس] لم تكن مطلقة وبعد ان صالح اللاجئين مع أهالي [بيزنطيوم] ترك المدينة هادئة مستقرة واقلع الى قبرص، وهناك وجد كنوزاً ملكيّة من صحاف، وموائد واحجار كريمة وارجوان، وكان يتحتم ان يجعل منها نقداً. فصمم ان يتولى الأمر بكلّ دقة وانتظام وان يبيع المخلفات بأعلى سعر ممكن. لذلك كان يحضر بنفسه صفقات البيع ويدقق حساباتها. ولم يكن يثق باسعار السوق. وكان يشك في الجميع على السواء من ضباط ومنادين ومشترين. وبأصدقائه أنفسهم وبمختصر القول كان يختلط بالمشترين ويحثهم على رفع الثمن. وبهذا الشكل باع أغلب الاشياء.

أساء [كاتو] بعدم ثقته هذه، الى معظم اصدقائه، ولاسيما [موناتيوس] اقربهم اليه وأخلصهم له. وكادت القطيعة التامة تتم بينهما. وهذا ما زوّد [قيصر] باقوى واشد نقدٍ لكاتو في الكتاب الذي صنفه عنه. على أن [موناتيوس] نفسه يحدثنا بأن اصل الخصام لم يكن بسبب قلة ثقة [كاتو] بل باهمال الأخير، وبغيرة [موناتيوس] نفسه من [كانيديوس]،

وقد ألفَ موناتيوس أيضاً كتاباً حول [كاتو] وهو الذي كان مرجع [ثراسيا] الأساسي. يقول [موناتيوس]. انه لحق بكاتو في قبرص. فوجد ان المنزل الذي خصص له في نهاية الحقارة فقصد منزل [كاتو] فمنع من الدخول بحجة ان [كاتو] يعقد اجتماعاً خاصاً مع [كانيديوس]. فشكا الأمر الى [كاتو] بأسلوب مهذب رقيق للغاية. الاّ ان الجواب (حسب رواية ثيوفراستس) كان في غاية الخشونة والفظاظة. قال له:

- كثيراً ما يؤدي الحبّ الشديد الى الكره... ولأنك تجني حبّاً زائداً على الحد، فقد خيل لك أنك لاتحظى الاّ بالقليل من الالتفات والتكريم. فيثور بك الغضب فجأة. وأني ما استخدمت [كانيديوس] الاّ لاخلاصه وتفانيه. لقد كان معي منذ البدء ووجدته أهلاً للثقة.

كان هذا الحديث الخاص الذي جرى بينهما. الاّ ان [كاتو] افضى به لكانيديوس، ولما علم [موناتيوس] اضرب عن العشاء معه. ومرة ارسل [كاتو] يستدعيه لأخذ رأيه في شأن من الشؤون فرفض القدوم فهدده [كاتو] بوضع الحجز على امواله ومتاعه وهو اجراء يتخذ عادة بحق من يعصي الأوامر الرسمية. الاّ ان موناتيوس لم يعبأ وشدّ الرحال الى روما. وبقيت الجفوة قائمة بينهما لكن [مارشيا] عملت على الجمع بينهما عند عودة زوجها الى روما (وهي ما تزال حليلته بعد). وتمّ لها ذلك في دعوة عشاء أقامها رجل يدعى [باركا Barco]. وجاء [كاتو] بالأخير فوجد القوم مستلقين على ارائكهم فسأل عن مجلسه فأجاب [باركا] «أجلس حيث يطيب لك» فدار بانظاره فيما حوله. وقال انه سيجلس بالقرب من [موناتيوس] وتوجه الى ناحية. ولكنه لم يظهر له اي اشارة عطف أو مجاملة، طوال جلوسها على المائدة. وبمناسبة أخرى كتب [كاتو] بمسعى من مارشيا الى [موناتيوس] قائلاً انه يرغب في التحدث اليه. فجاء [موناتيوس] صباحاً. واستبقته [مارشيا] حتى انصراف الجماعة ثم دخل [كاتو] وطوق عنقه بذراعيه وقبله بكلّ مودة، وهكذا تم الصلح بينهما. لقد اسهبت في التفاصيل لأعتقادي ان اخلاق الرجال وامزجتهم أسهل انكشافاً في مثل هذه الأمور البسيطة منها في الاعمال العظيمة.

جمع [كاتو] ما يناهز سبعة آلاف تالنت من الفضة، وادركه القلق على مصيرها عند نقلها في رحلة بحرية بعيدة المسافة. فأمر بصنع عدد كبير من الصناديق الحديدية يتسع كل منها لتالنتين اثنين وخمسمائة درهم، وربط كل صندوق بحبل طويل وشدّ الى نهاية الحبل الأخرى قطعة من الفلين. حتى اذا ما عرفت السفينة امكن أكتشاف مواضع الصناديق في البحر حين تطفو الفلينه على السطح، ووصلت النقود بسلام الاّ القليل. وكان [كاتو] قد نظم سجلين بكلّ الحسابات المتعلقة بمهمته . ولكن لم يسلم أحد منهما، فقد عهد بالأول الى معتوقه

[فيلارگيروس Philargyrus] الذي ابحر من [چنكرى Cenchreae] وفقد هو والسفينة والحمولة. اما الثاني فقد كان معه حتى بلغوا [كورچيرا Corcyra] فنزلوا ونصبوا خيامهم في الساحة العامة. وشعر البحارة بالبرد القارس في الليل فأوقدوا نيراناً عظيمة، سرى بعضها الى الخيام فاحترقت وضاع فيها السجل. وقد آلمه ضياع السجل وازعجه كثيراً. لأنه اراد أن يكون نموذجاً يحتذيه الآخرون لا دليلاً على امانته ونزاهته ضد قالة السوء ولكم افواه الاعداء فقد جلب معه عدداً من وكلاء اعمال بطليموس ليشهدوا عند الحاجة على امانته.

وسرعان ما وصلت الانباء الى روما بقدومه عن طريق النهر فخرج كل الحكام ومجلس الشيوخ بكامل اعضائه مع حشود من الاهالي لاستقباله. وأمتلأت ضفتا التيبر بالناس. فكان دخوله لايقل ردعة عن موكب نصر، لما حفل به من تكريم ومظاهر رسمية. الاّ ان وجه الغرابة يكمن في سلوك [كاتو] هنا، فهو لم ينزل فيسفينة عندما لاح له القناصل والپريتورون. ولم يتوقف لتحيتهم بل واصل التجذيف صاعدا الى صدر النهر مستقلاً بارجة ملكية ذات ستّ طبقات من المجاذيف. ولم يترجل حتى بلغت به الرصيف. وعد تصرفه هذا شاذا غير لائق. وكبرياء وصلافة ليست في محلها. واصاب الناس الذهول وهم يتابعون قافلة الاموال الطويلة تقطع الشوارع. واجتمع مجلس الشيوخ وأعلنوا بعبارات التكريم منحه منصب بريتور شرف فوق العادة. ومنح امتياز ارتداء ثوب ذي حاشية ارجوانية في المناسبات العامة. فأعتذر [كاتو] عن قبول كل هذا التكريم وتوجه برجاء واحد الى المجلس وهو اعطاء الحرية لـ[نيقياس] وكيل اموال [بطليموس] للاخلاص والتفاني اللذين ابداهما في هذه المهمة.

تولىّ [فيلپس] والد [مارشيا] مهام القنصلية في تلك السنة. وبهذه الصورة قبضت يد [كاتو] على زمام السلطة وكان احترام القنصل الآخر له أكثر أثراً من اعتزاز [فيليپوس] به بسبب القربى. وعاد [شيشرون] من المنفى الذي ارسله اليه [كلوديوس] وما لبث ان استعاد نفوذه ومكانته في قلوب الشعب. وقصد الكاپتول اثناء غياب [كلوديوس] وانتزع بالقوة الوثائق الخاصة بتعيينه تريبيونا، فرفع [كلوديوس] شكوى من شيشرون امام مجلس الشيوخ واجتمع المجلس ليسمع شيشرون يطعن بحجة انتخاب كلوديوس بقوله: انه لم يكن تريبيوناً شرعياً قط وكل ما قام به من أعمال فهو باطل لا قيمة قانونية له فأنبرى [كاتو] يقاطعه ثم نهض ليردّ عليه بقوله:

- في الواقع اني لا ازكي ولا اقرّ ابداً الاجراءات التي قام بها [كلوديوس]: ولكن ما ارتوئ التحقيق من صحة الاجراءات التي تمت اثناء توليه المنصب فعليكم ايضاً ان تحققوا في صحة وشرعية اجراءاتي في قبرص، فما دام القائم بها لا يملك السلطة شرعية فان البعثة

ليست شرعية بالاحرى. وفي رأيي ان انتخاب [كلوديوس] تريبيونا تم بشكل قانوني لا غبار عليه. فهو پليبي بحكم القانون اذ تبنته اسرة پليبيه، وان كان پاتريشيا بالولادة، فان اساء استخدام وظيفته فليستدع ليقدم الحساب، ان سلطة الحكم لا تتأثر باخطاء الحاكم.

استاء [شيشرون] من اقوال [كاتو] وانقطعت حبال المودّة بينهما فترةً طويلة، الاّ انهما تصالحا فيما بعد.

تم الاتفاق بين [پومپي] و[كراسوس] من جهة وبين قيصر من جهة أخرى. فأجتاز هذا الألب. وفي مقابلةٍ تعاهداً على خطة يتّم بموجبها ترشيح اولهما وثانيهما لمنصب القنصلية للمرة الثانية، وعند فوزهما يصدران مرسوماً بتحديد فترة حكم قيصر خمس سنوات أُخر. وان يفتنما لأنفسهما حكم اكبر الاقاليم الرومانية مع الجيوش والاموال اللازمة. كانت مؤامرة صريحة للقضاء على نظام الحكومة المقرر وتوزيع الامبراطورية بعد تقطيع اوصالها. وكان عدد من الشخصيات الرفيعة قد قرر الترشيح للمنصب القنصلي لتلك السنة، الاّ انهم بادروا الى الانسحاب عندما تقدم منافساهما العظيمان. ولكن [لوشيوس دوميتيوس] زوج [پورشيا] اخت [كاتو] لم ينسحب وبقي بتحريض وتشجيع [كاتو] . فقد حثه على الصمود قائلاً ان الغرض ليس منصب القنصل وانما انقاذ حرية روما. في الوقت نفسه، اجتمعت كلمة العقلاء النيرين على الحيلولة دون عملية توحيد القوى بين پومپي بوكراسوس فلو تم ذلك لجاوزت في طغيانها كل حدٍ وباتت مصدر خطر عظيم على الدولة، فمن الضروري ان لا يفوز واحد منهما بالقنصلية ولهذا السبب بادروا الى مساندة (دوميتيوس) وتشجيعه لمواصلة العمل مؤكدين له ان كثيرين ممن يخشون مساندته بصورة علنية، سيقومون بدعمه سراً. وخاف اشياع [پومپي] ذلك فكمنوا [لديمتيوس] وهو ماضٍ الى الساحة قبيل ان يؤذن الفجر وطرحوا حامل المشعل الذي كان يسير امامه - ارضاً ثم اجهزوا عليه وجرحوا عدداً آخر من الاتباع وهرب البقية. الاّ [كاتو] الذي امسك [بدميتيوس] وابقاه مع انه اصيب هو الآخر بجرح في ذراعه. وطفق يصيح بالآخرين ان يصمدوا ويدافعوا عن حرياتهم ضد الطغاة حتى النفس الأخير. وقال أن الطغاة اسفروا عن وجههم الحقيقي وكشفوا عن شكل العدالة التي سيمارسون بها سلطانهم السلطان الذين يسعون اليه بهذه الطرق العنيفة الشاذة. الاّ ان [دوميتيوس] لم يسعه مواجهة الخطر فأنسحب بالأخير الى بيته، وترك الميدان خالياً [لپومپي وكراسوس] فأعلن فوزهما في الانتخاب.

لم يتطرق اليأس الى [كاتو] رغم ذلك وعزم ان يتقدم لمنصب البريتور، فسيعنيه ذلك على

مقارعتهما الى حَدّ ما لا كرجل عادي بدون سلطة ينازل أكبر الحكام سلطة. وهذا أخشى ما كان يخشاه الحليفان اذ ادركا ان منصب [الپريتور] في يد [كاتو] معادل لمنصب القنصل في يد غيره. فدعيا المجلس في دورة استثنائية دون ان يبلغا الدعوة الى عدد كبير من الشيوخ، وحملاه على اصدار مرسوم يقضي على البريتور المنتخب ان يباشر بوظيفة فوراً دون الانتظار لفترة التمحيص التي فرضها القانون. وهي فترة من الوقت يقضيها البريتور الجديد منتظراً طعون الانتخاب التي قد تقدم ضده او توجيه تهمة شراء الاصوات اليه. وبهذا المرسوم انفسح المجال لهما لشراء اصوات الناخبين دون خوف من أن يتهم مرشحوهم. ثم دفعوا باصدقائهما للترشيح ضد [كاتو] وفرقا الاموال والرشاوى واخذ يراقبان الناخبين عند الادلاء باصواتهم. على ان سمعة [كاتو] ومكانته حققت له اوّل الفوز ونصرته على كل هذه الحيل والدسائس فقد ادرك الشعب بصورة عامة انه لمن المخجل أن تفرق الأموال وتدفع الاثمان لأجل هزيمة [كاتو] في حين يجب على الشعب ان يدفع المال له ليغريه بقبول المنصب. لذلك فقد اعطته القبيلة الأولى كل أصواتها. ووقع [پومپي] في مأزق، فأسرع ليطلق كذبة محبوكة الاطراف بصيحة:

- انها تُرعِد.

وارفض الاجتماع الانتخابي حالاً ذلك الرومان من الناحية الدينية يعتبرون الرعود فألاً سيئاً، فاذا حدث ذلك اوقفوا أعمالهم مهما كانت وارجاؤا البت فيها. وراح خصوم [كاتو] قبل الاجتماع الانتخابي الثاني ينشرون المزيد من الرشاوي يمنة ويسرة ويفسدون الضمائر ويخرجون بالقوة خيرة الناخبين من مكان الاقتراع. وبهذه الوسائل أمنوا لـ[ڤاتينيوس Vatun-ius] الفوز بالمنصب البريتوري بدلاً من [كاتو]، وقيل ان الذين باعوا اصواتهم من ڤاتينيوس، اسرعوا بالخروج من الميدان كأن واحداً يطاردهم. وبقي آخرون يتبادلون فيما بينهم عبارات الدهشة والاستنكار. وواصل أحد من مفوضي الشعب الاجتماع الجماهيري. فوقف [كاتو] كأنما هبط عليه وحي من السماء، ومتنبئاً لهم بكل ما سيحل بالبلاء من نوائب. وحثهم حتى التزام جانب الحذر من [پومپي وكراسوس] لأنهما سيكونان أصل البلاء. وانهما دبرا كل هذه الخطط ولذلك خشيا من فوز [كاتو]. وبعد ان انتهى من خطابه شيعه الى منزله عدد من الناس يزيد على عدد كل الناخبين الذين صوتوا للبريتورين الجدد.

واقترح [كايوس تريبونيوس Caius Trebonius] ذلك القانون الذي اسند حكم الاقاليم للقناصل. على ان يستأثر پومپي بأقليمي اسپانيا وافريقيا. وكراسوس بمصر وسوريا، وان يخولا مطلق الصلاحيات لشنّ الحرب وادامتها براً وبحراً حيثما وجدا ذلك مناسباً. ووضع المشروع قيد البحث ويئس المعارضون من رفضه ولم يبد من أحدٍ قول او فعل لمناهضته. وقبل

أن تؤخذ الأصوات صعد [كاتو] منبر الخطابة طالباً الكلام فسمح له بساعتين بعد كثير من الجدال. وانقضى الوقت المحدد وهو ينذر ويشرح وينبيئ بأكثر ما كان سيقع. ولم يسمح له بتحديد الوقت الاّ انه استمر يتكلم غير عابيء. فصعد اليه ضابط صف وانزله، الاّ انه لم يتوقف وعلا صوته ووجد كثيراً من الآذان تصغي اليه وتشاركه الرأي. فما كان من ضابط الصف الاّ وامسك به واخرجه من الفورم بالقوة. لكنه عاد بعد ان تركه واعتلى المنبر ثانية واستنجد بالشعب ودعاه للوقوف في صفه ولما تكرر ذلك منه مرات، احتدم [تريبونيوس] غيظاً وأمر بسوقه الى السجن الاّ ان الجمهور سار خلفه ويعضون الى خطبته التي ارتجلها لهم. وساور [تريبونيوس] الخوف وأمر باخلاء سبيله، وانقضى اليوم ولم يتوصل المجلس الى رأي حول القانون بسبب [كاتو]. ولكن التهديد والارهاب الذي استعمل ضد المواطنين في الايام التالية. فضلاً عن الهبات والوعود فرقت الجموع المشايعة [لكاتو] واحضر اكويليوس Aquilius التريبيون وثلة من الجند داخل بناية المجلس. وأخرج [كاتو] من المجلس وهو يصيح:

- انها تُرعد!

وجرح كثير من الناس وسقط بعض القتلى. أخيراً ابرموا القانون بالقوة، وبلغ السخط حداً بالناس حتى انهم قرروا تحطيم تماثيل [بومبي] وكادوا يفعلون لو لم يخف اليهم [كاتو] ويثنيهم عن عزمهم.

واقترح قانون آخر يتعلق بالاقاليم التي سيحكمها قيصر وبالفرق العسكرية التي ستخصص له. في هذه المرة لم يتوجه [كاتو] الى الشعب. وانما استنجد [ببومبي] نفسه قال له:

- الأ تدري بأنك اليوم ترفع قيصراً على كتفيك. ولن يلبث أن يغدو ثقيلاً ينوء به ظهرك، وأخيراً انك لن تستطيع القاءه ولن تستطيع ابقاءه. وستطوح به وبنفسك معه كيان الجمهورية. وعندئذ ستتذكر نصيحة [كاتو]. انها ليست نافعة لك فحسب بل هي صحيحة نزيهة بحد ذاتها.

وكثيراً ما كان ينذر [بومبي] بامثال هذه النذُر فلا يعبأ بها ولا يرتدع ولا يشك في انقلاب [قيصر] عليه، معتمداً على قوته وحسن حظّه.

ونصب [كاتو] بريتوراً في العام التالي، ويبدو انه لم يرفع من شأن منصبه باستقامته ونزاهته الفريدتين، قدر ما انتقصه وحطّه بسلوكه الغريب. فكثيراً ما كان يأتي الى مجلس القضاء حافياً ويتصدر معقد القضاء دون ثياب داخلية تستر عورته. فيصدر الاحكام بهذه

الهيئة الزّرية في القضايا الكبرى، وضدّ شخصيات بارزة. قيل ايضاً انه كان يشرب الخمر بعد تناوله الفطور مباشرة وبعدها يقصد محل عمله، وهذا تلفيق وكذب صراح. كان الفساد في ذلك الحين قد استشرى بين الناس، وضربت الذمم بالرشاوى التي يدفعها ذور الحاجات لنيل المناصب. ومعظم الناس كان يرتزق على بيع صوته للمرشحين. وكان [كاتو] شديداً في استئصال جذور هذا الفساد من ارض الجمهورية. فأفلح مع مجلس الشيوخ في استصدار مرسوم يحتم على من انتخبوا لأشغال المناصب العامة ان يراجعوا المحكمة دون حاجة الى إتهام. لتقديم بيان موثق باليمين عن سلوكهم في اثناء الانتخاب. وكان هذا الاجراء شيئاً بغيضاً للمرشحين والمنتخبين. وهو كذلك خطب فادح بالنسبة الى بائعي الاصوات. فأجتمع جمهور كبير من الناس واعترضوا سبيل [كاتو] وهو متجه الى المحكمة وأخذ يشتمونه بأصوات عالية. ويقذفونه بالحجارة. وهرب كل من كان متسكعاً بالقرب من دار المحاكم. وارغم [كاتو] على أن يتدافع بالمناكب ويشق طريقه شقاً متحاشياً بشق النفس الحجارة المنثالة عليه، حتى تمكن من الوصول الى المنصة. فانتصب واقفاً بطلعته المكفهرة التي لايلوح فيها اثر للخوف والرهبة. فسيطر على الجمهور في الحال واسكت الصراخ. ثم توجه اليهم بكلمة تناسب المقام فارهفت الآذان الى ما يقول. وبذلك أخمد الفتنة بصورة تامة. ولما اثنى مجلس الشيوخ على موقفه وحسن تصرفه علق بقوله:

- لكني لا اثني عليكم لترككم بريتوركم في مأزق دون ان تسعفوه.

واحتار المرشحون في أمرهم. فكل واحدٍ منهم يخشى ان يدفع مالاً للناخبين بنفسه. ويخشى في عين الوقت ان يقدم منافسه على الدفع... اخيراً إتفق المرشحون على ان يضع كل واحد منهم ضماناً قدره مائة وخمسة وعشرون ألف درهم، ثم يدخلون جميعاً في المعركة الانتخابية بكل نزاهة واستقامة. فاذا وجدوا واحداً منهم يلجأ الى طريق ملتوية فان يفقد المبلغ الذي وضعه. وبعد ان تمّ الاتفاق اختاروا [كاتو] اميناً على المال. وحكماً في الموضوع. فلم يأخذ المال وانما أكتفى من كل واحدٍ بكفيل ضامن وفي يوم الاقتراع حضر [كاتو] ووقف الى جانب [التريبيون] المشرف على جمع الاصوات. وراح يرقب بكلّ دقة عملية الاقتراع لا تفوته منها شاردة او واردة. فكشف عن مخالفة واحدة. وأمر المخالف بتأدية المبلغ المقرر للباقين، ولهج الجميع بالثناء على [كاتو] ولكنهم ترفعوا عن اخذ مبلغ الضمان مكتفين بالفضيحة التي كانت عقاباً كافياً للمخالف. وزاد حاسدو [كاتو] حنقاً قدر ما زادت سمعته ارتفاعاً. وسخط كثيرون عليه، لأنه اصبح يمارس فعلاً كل سلطات مجلس الشيوخ ومجلس القضاء الأعلى فضلاً عن سلطة الحكام. ليس هناك فضيلة كفضيلة العدالة يجرّ تقديرها وتزكيتها، على

صاحبها كثيراً من البلايا والمكاره. انها تتطلب من قوة الارادة والسلطة على جماهير الشعب، مالا يتطلب غيرها من الفضائل. ذلك لأن الجمهور لايقدر الا ذوي البأس وذوي الحكمة. في حين يحبون الاستقامة والنزاهة في الرجال فيضعون فيهم ثقتهم وايمانهم المطلقين. انهم يخافون الجرأة، ولا يثقون بالدهاء والذكاء. اضعف الى هذا انهم ينظرون الى الطبع والمزاج لا الى الارادة الطيبة والنية الخالصة في ممارسة تلك الفضائل. ويعتبرون البسالة قوة طبيعية من قوى العقل ويعدون الحكمة حدّة ورهافة جسمانية. لذلك يكون بمقدر الانسان ان يغدو عادلاً لو ملك الارادة، ويستتبع ذلك ان الظلم يعتبر أحط ما في الأخلاق لأنه اصعبها اغتفاراً وتبريراً.

لهذا كان [كاتو] موضع كره العظماء من الرجال. لأنهم يرون أنفسهم مهانين ومنتقدين فضائله. [فيومبي] مثلاً كان ينظر الى ارتفاع مكانة [كاتو] بمثابة دمارٍ لنفوذه. لذلك دأب على اطلاق ألسنة السوء عليه للنيل منه وتجريحه. ومن بين هؤلاء [كلوديوس] المفتن الذي انظم الآن الى [پومپي] وانشأ يذيع بأن [كاتو] خصّ نفسه بجزء كبير من اموال [قبرص]، وهو يكره [پومپي] لأنه رفض الاقتران بابنته. فكان جواب [كاتو]: انه لم يزود برجل او حصان او سفينة. ومع ذلك فقد جلب لهم من قبرص وحدها ما يزيد عن كل ما حصل عليه [پومپي] من اموال بعد الحروب العديدة والانتصارات على العالم الذي نهبه نهباً. وانه لم ينشد مصاهرة [پومپي] مطلقاً لا لكونه غير مستحق مصاهرته، بل لاختلافهما الشديد في آرائهما حول سياسة الجمهورية...» لأني تنازلت عن حكم الاقاليم التي وضعت تحت تصرفي عند اعتزالي بريتوريتي، اما [پومپي] فقد استبقى لنفسه عدة اقاليم ومنح عدداً منهما للآخرين. وقد ارسل الآن لقيصر قوات قوامها ستة آلاف جندي لتعزيز جيشه في بلاد الغال، لم يطلبها قيصر من الشعب، ولم يستحصل [پومپي] على موافقة الشعب بارسالها؛ رجال وخيل وسلاح على قدر ما يتصور المرء، باتت فهي هدايا يتبادلها الرجال العاديون، و[پومپي] القائد العام والجنرال، يهدي الجيوش والاقاليم لاصحابه في حين يقعد هنا ليشرف على المعارك الانتخابية ويثير الغوغاء اثناء عملية الاقتراع. اننا لنرى بكلّ وضوح كيف يعمل لـ(الفوضى)، للوصول الى (الملكية[1]).

كان هذا جوابه لپومپي.

من بين اصدقاء [كاتو] والمعجبين به شخص اسمه [فافونيوس] وهو لكاتو مثلما كان [ابوللودورس الفاليري] [لسقراط] في الأيام الخوالي. كانت كلمات [كاتو] تسلمه الى حالة

---

(١) يوجد هنا مقابلة بديعية «باللغة اللاتينية بين كلمتي [Anarchy = فوضى] وبين [Monarchy = الملكية المطلقة].

من الوجد والحبور وتفعل في عقله فعل الخمر القوية فتسكره الى حدّ النشوة. رشح نفسه لمنصب [آلايديل] وكاد يفشل الاّ ان [كاتو] الذي حضر لمعاونته لاحظ ان الاصوات المعطاة مكتوبة بخط يدٍ واحدة فكشف الغش والتلاعب. وارجع التريبيون المشرف. فقرر هذا الغاء الانتخاب. وفاز [فافونيوس] في الانتخاب التالي. ونشط [كاتو] لمعاونته في مهام وظيفته. واهتم عنه بالاشراف على التمثيليات التي كانت تعرض على المرسح ويمنح الممثلين تيجاناً من اغصان الزيتون البري لا من الذهب. كالتي تمنح للفائزين في الالعاب الاولمپية.

واعتاض عن هذا بالهدايا الثمينة التي تمنح عادة للمتفوقين، بالبنجر، والفجل والخس والكمثرى بالنسبة للاغريق. وجرار خزفية مملؤة بالخمر، وتيناً، ولحم خنزير وقثاء، وحزماً من عصيّ خشبية صغيرة بالنسبة للرومان منهم. فسخر بعضهم من بُخل [كاتو] وأكبر آخرون هذا التبسط الخلقي الرقيق، من رجل عرف بالتزمت والتقشف ومجمل القول كان [فافونيوس] يختلط بالجمهو، ويجلس مع المشاهدين ويصفق ويهتف [لكاتو] مع المصفقين والهاتفين ويطلب منه ان يغرق المتفوقين بالعطايا والمكافآت ويحث الناس على تكريمهم. كان [فافونيوس] قد سلم كل سلطاته لكاتو. وفي الوقت نفسه كان زميله فضلوا ارتياد مرسح فافونيوس، وعرضه حيث كانوا يهتفون لها استحساباً وينسجمون فيها بكلّ جوارحهم ويستمتعون بجوّها المسلي. ويكبرون صاحبها الرجل البسيط الذي يختلط بهم كأي انسان عادي. أما [كاتو] المشرف على العرض المسرحي فقد كان يفعل ذلك عن عمدٍ استهجاناً واستنكاراً للنفقات الطائلة التي يتكبدها الآخرون. وليلقي عليهم درساً في ان التسلية يجب ان تطلب لنفسها ولشرح الصدور بصورة ادبية مهذبة لا بل للاستعداد العظيم والتظاهر بالفخفخة وصرف الاموال الطائلة والاهتمام المستمر بالأشياءوالتفاصيل التافهة.

وتقدم [سكيپيو] و[هپسيوس Hypsaeus] و[ميلو Milo] مرشحين للمنصب القنصلي، ولم يكفهم استخدام ذلك الاسلوب اللاشرعي الذي اصبح معترفاً به من بذل الرشاوى وافساد الضمائر وشراء الاصوات. بل لجأوا الى السلاح والقتل ايضاً. ودلّت الظواهر على تصميمهم التام للوصول بطيشهم وتهورهم الى حَدّ اثارة حرب أهلية. لذلك اقترح في المجلس تخويل [پومپي] صلاحية الاشراف على الانتخابات العامة. فعارض [كاتو] في مبدأ الأمر محتجاً بقوله «ليس على القوانين ان تطلب الحماية من [پومپي] بل على [پومپي] ان يطلب ذلك من القوانين». على ان الفوضى طالت. واصبح الفورم، فهو محاصر بثلاثة جيوش، وليس في الافق بادرة لإحتمال وضع حدٍ لتلك الفوضى. أخيراً وافق [كاتو] على ان يسلم المجلس جميع الصلاحيات [لپومپي] «فهذا خير من السقوط فريسة لآخر المصائب مادام استخدام التدبير

اللاقانوني الأخف ضرورياً كعلاج لدفع الأعظم، بل خير للمجلس ان يقيم نظاماً ملكياً، من ان يعاني انقلاباً عنيفاً سينتهي شاء ام ابى الى عين النتيجة.».

وبناء على ذلك تقدم [بيبولس] صديق [كاتو] باقتراح نصب [پومپي] قنصلاً أوحد. فإما سيعيد كيان الحكومة الشرعية، وإما سيخدمون بشخصه سيداً هو خير الأسياد!

نهض [كاتو] وايدّ الاقتراح لدهشة الجميع، وقال قوله المشهور:

«اي شكل من الحكومة هو خير من لا حكومة».

واضاف يقول: لايشك في ان [پومپي] سيحسن التصرف وسيرعى مصالح الجمهورية التي اوكلت اليه. وعلى اثر ذلك أعلن [پومپي] قنصلاً أوحد. واسرع يدعو [كاتو] لمقابلته في الضواحي وهناك حيّاه بحرارة وعانقه بشدة وشكره على الشرف الذي اسبغه عليه. وطلب منه ان لايبخل عليه بالنصيحة والمعونة فأجابه [كاتو]:

- ان ما تكلمت به في المناسبات الماضية لم يكن لبغضة احملها لك. وما فعلت لاجلك اليوم لم يكن لحبّ اكنّه لك، وكل ما فعلت انما كان لمصلحة الجمهورية. ولن اتقاعس عن اسداء النصح لك في السرّ ان طلبت ذلك. وسأبدي رأيي الصريح في العلن وان لم تطلب مني.

وفعل مثلما قال. فعندما سنّ [پومپي] قوانين صارمة تتضمن الحبس والغرامات الكبيرة لأولئك الذين افسدوا ذمم الشعب بالعطايا والهبات، نصحه [كاتو] بالعدول عن ذلك لأن ما فات فات، وعليه الاهتمام بما هوآت. اذ لو تعقب الجرائم الماضية فلن يقف عند حَدّ. وان فرض عقوبات جديدة فليس من العدالة ان يعاقب الناس بموجب قانون لم يكن له وجود حين ارتكبت تلك الجرائم ليقال انهم خالفوا احكامه. فلم يأخذ برأيه. وعندما أحيل الى المحاكمة اناس بارزون فيهم اقرباء [لپومپي] ظهر عليه التراخي وعدم الميل الى محاكمتهم. فلامه [كاتو] لوماً شديداً والحّ عليه بأن يستمر في الاجراءات القضائية بحقهم.

وسن [پومپي] قانوناً آخر ألغي بموجبه عادة كتابة خطب التزكية بحق المتهمين وارسالها الى المحكمة. مع هذا فقد ربح هو نفسه خطبه بتزكية [موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus] وبعثها وقضية المتهم قيد المرافعة.وكان [كاتو] أحد القضاة فما كان منه الاّ ووضع كفيّه فوق اذنيه وابى سماعها عند تلاوتها فأعترض عليه [پلانكوس] وطلب تنحيته قبل صدور القراءة على أنه أدين مع ذلك.

في الواقع كان [كاتو] مصدر حيرة بل مشكلة عظيمة لكلّ المتهمين مهما كانت تهمهم. فهم من جهة يخشون ان يكونا من بين القضاة الذين يحاكمونهم، ومن جهة أخرى لايجسرون

على طلب تنحيته فكثير منهم حكموا لأنهم رفضوه قاضياً لهم، وبذلك ظهروا بمظهر غير الواثق من براءتهم . وكانت سُبّة يلقيها العدوّ في وجه عدوه حين يذكره بأنه لم يقبل [بكاتو] قاضياً له.

في ذلك الوقت كان قيصر يتربص بقواته في بلاد الغال، رابضاً بسلاحه على اتم الأهبة ، مستخدماً في الوقت عينه هباته وعطاياه لتعزيز نفوذه في روما. فبدأت تحذيرات [كاتو] تنزع [پومپي] من احضان التهاون الآمن لتسلمه الى علائم أكيدة للخطر الماثل. لكن [كاتو] رآه بطيئاً متردداً كارهاً اتخاذ اية تدابير وقائية ضد [قيصر] فقرر ترشيح نفسه للقنصلية، فمن طريقها يرغم [قيصر]: اما على القاء سلاحه واما على الكشف عن نواياه الحقيقية. وكان موقف منافسي [كاتو] جيداً. فأحدهما: [سولپيشيوس Sulpicius] كان مدينا لكاتو ولسمعته ونفوذ بالكثير. وقد اعتبرت منافسته نوعاً من نكران الجميل، وظاهرة غير مستحبة. لكن [كاتو] لم يجد فيها معرّة. وقال:

- انه ليس بالأمر المستغرب ان لايخلي رجل لآخر السبيل في ما يعدّه خير غاية وأنبلها.

وكان [كاتو] قد حمل المجلس على اصدار مرسوم يحتم على المتقدمين للمناصب والوظائف العامة ان يتولوا بث الدعوة الانتخابية بأنفسهم دون الاستعانة بالوسطاء. ومنعوا ان يصحبوا أحداً من هؤلاء في جولاتهم الانتخابية لتزكيتهم عند الناخبين وجمع الاصوات لهم، فكثر خصومه بين الناس، لأنه ضيع عليهم وسيلة ارتزاق هامّة من جهة وافقدهم فرصة التفضل بالمنّة على الاشخاص الذين يتوسطون للمرشحين، فيخسرون بذلك المال والمكانة. ثم ان [كاتو] لم يكن يتقن أساليب المعارك الانتخابية فهو أكثر حرصاً على وقار حياته، وهيبته من الوظيفة. واتبع وسائله الخاصة في الدعوة لنفسه وابى الاستعانة بأصدقائه لترويج قضية وكسب الجماهير الى صفه، وبذلك فشل.

في مثل هذه الاحوال لايكون الشعور بمرارة الفشل والاستكانة قاصراً على الفاشلين ولكنه يتعداهم الى الاصدقاء والأقربين فتجدهم اياماً وكأنهم في حدادٍ وكآبة. ولم يبد على [كاتو] اي تأثير بالنتيجة. فقد دهن جسمه بالزيت، ولعب الكرة في الساحة. وبعد تنازله فطوره قصد الفورم كعادته حافياً ومن دون وشاح وسار مع معارفه وتحدث اليهم. وتعرض للوم شيشرون الذي قال:

- عندما تتطلب الضرورة قنصلاً مثلك، لاتحاول ان تبذل أقل المجهود ولا تتنازل الى مجاملة الناس. لقد فعلت كذلك عندما اهملت ترشيح نفسك للپريتورية ثانية.

فأجاب [كاتو]: انه لم يخسر البريتورية اول الأمر بأصوات الناخبين بل بالعنف وافساد الضمائر وهما الوسيلتان اللتان لجأ اليهما خصومه اما في الانتخابات القنصلية فما كان يوجد مثل هذا التدخل المنافي للاخلاق. فأتضح له ان الشعب غير معجب بمسلكه، وليس يجمل بالرجل المستقيم ان يغير مسلكه لأجل الفوز بالقنصلية. والرجل العاقل لايحاول الحصول مرة ثانية على ما فشل في نيله، وهو معرض لعين التحامل.

كان [قيصر] في ذلك الوقت يقاتل عدداً كبيراً من الشعوب الهمجية المحاربة، ويلاقي الأمرين في اخضاعها. وقيل انه انقضّ على الجرمان في وقت الهدنة وأهلك منهم ثلاثمائة ألف. فأقترح بعض اصدقاء [قيصر] بهذه المناسبة ان يعلن المجلس عيد شكرٍ للآلهة. فردّ [كاتو] يشجب الاقتراح. ويقول كان من الواجب أن يسلموا [قيصر] الى الجرمان لنقضه الهدنة. وبذلك يكفر عن ذنبه ويرد اللعنة عن روما واضاف يقول:

- مع هذا، علينا ان نتوجه بالشكر للآلهة لأنها انقذت الجمهورية ولم تصبّ جام سخطها على الجيش للحماقة التي ابداها قائده.

وعلى أثر ذلك وجه [قيصر] كتاباً الى مجلس الشيوخ قرئت علناً وكانت حافلة بالتهم والسب المقذع بكاتو، وبعد تلاوتها نهض دون ان يظهر عليه اي تأثر أو اهتمام. وراح يتكلم بصوت هادئ خالٍ من الحرارة، كأنه يتحدث في أمرٍ عادي. فجعل اتهامات قيصر له تبدو مجرد شتائم رخيصة وسباب عادي، او بدت شيئاً اشبه بمزاح ودعابة تافهة. ثم انتقل بعدها الى فضح نوايا قيصر السياسية وشرح ما بيته وما عمل في سبيله (كأنه أحد شركائه في التآمر لا خصمه المقيم) وختم كلامه بالقول:

- لاتتوهموا ان ابناء البريطون والغال هم مصدر الخطر. وعليكم ان تخشوا شرّ [قيصر] بالاحرى ان كنتم عقلاء.

هذه الخطبة ايقظت المجلس من سباتٍ وأثارته الى الحدّ الذي ندم معه اصدقاء [قيصر] على تلاوتهم كتابه. فقد زودوا [كاتو] بفرصته الثمينة لقول كثير مما يجب قوله، ولايضاح الحقائق الدافعة حول [قيصر]، ومع هذا لم يقرر المجلس شيئاً. وانما اتجه الميل الى ارسال خلفٍ له. وهنا طلب اشياع قيصر ان يجرد [پومپي] ايضاً عن حكم اقاليمه وان يسرح جيشه والاّ فلا سبيل لقيصر غير الاحتفاظ بالاثنين ايضاً. فصاح [كاتو] «ها ان ما تنبأت به يحقق الآن، لقد اصبح واضحاً لكم انه يستخدم قواته لارغامكم على اصدار القرار الذي يريده، انه حول جيوشه التي حصل عليها بالحيلة نحو الدولة.»

لم يكن [الكاتو] نفوذ كبير خارج المجلس. فقد هيء الشعب لتعظيم قيصر. وكان المجلس يخشى الشعب رغم قناعتهم بصحة رأي [كاتو].

وانقلب الوضع عندما وردت انباء احتلال قيصر مدينة [ارمينيوم] وزحفه نحو روما. فقد شخصت الانظار كلها الى [كاتو] حتى [پومپي] نفسه، وكذلك الجمهور، لأنه الرجل الوحيد الذي تكهن بما سيحدث، والاول الذي كشف عن نوايا قيصر الحقيقية. وعلق على هذا بقوله:

- لو صدقتموني، ولو أخذتم بنصحي لما آل الأمر بكم الى الخوف من رجل واحدٍ، ولا لوضع كل آمالكم في رجل واحد.

وأقرّ [پومپي] بأن [كاتو] نطق بكلام الانبياء. بينما تصرف هو تصرف الاصدقاء فجاوز به الحدود. ونصح [كاتو] المجلس بأن يضع كل السلطة في يد [پومپي]...

- لأن خير من يطفئ لهيب الشرور هم أولئك الذين يتمكنون من احداث اعظمها.

تبين [لپومپي] أنه لايملك القوات الكافية. وما يستطيع تعبئته ليس بالكفاءة والتدريب المطلوبين، فسترك المدينة. وقرر [كاتو] اللحاق به في المنفى فبعث بابنه الاوسط الى [موناتيوس] وكان صديقه هذا في بلاد [بروتيوم Brutium] وقتذاك. وصحب ابنه الأكبر، فقد عاد فعقد ثانية على [مارشيا] التي اصبحت بعد وفاة هورتنسيوس أرملة غنية. فقد ترك لها بعلها كلّ ما يملك واتخذ [قيصر] هذه الحادثة فيما بعد، دليلاً على جشعه، وارتزاقه من وراء الزواج اذ قال:

- لو كان [كاتو] بحاجة الى حليلةٍ فلماذا طلقها؟ ولو لم يكن بحاجة فلماذا تزوجها ثانية، اللهم اذا كان قد اعطاها لهورتنسيوس بمثابة طعم، اعاره اياها وهي صغيرة، ليستردها فيما بعد وهي غنية.

ان الردّ على هذا يذكرنا بقول [يوريپيدس]:

عند الكلام عن الأسرار - فان أعظم الأسرار غموضاً هو بالتأكيد - الجبن في هرقل.

فالشبيه باسنادك الجبن الى هرقل، هو اسنادك الجشع الى كاتو، والسؤال الواجب هنا هو: هل أحسن [كاتو] عملاً بالزواج؟

في هذا أخذ وردّ، فما أن عقد على [مارشيا] حتى عهد اليها ببيته وبناته ولحق [بپومپي] وقيل انه لم يقص شعر رأسه، ولم يحلق لحيته، ولم يضع على رأسه أكليلاً منذ ذلك اليوم. وغدا كئيباً ساهماً كثير التفكير في النوائب التي حلت ببلاده. بقي كذلك حتى النهاية. دون

ان يفرح لنجاح يصيب حزبه أو لفشل يمنى به عدوه.

وأسند اليه حكم صقلية. فأقلع الى [سيراقوزه] وهناك علم ان [آسينيوس پوليو Asinius Pollio] قد وصل الى [مسينيا] مع قوات للعدوّ. فأرسل [كاتو] يسأله عن الغرض من قدومه. وطلب من [پوليو] بدوره ان يشرح له سبب هذه الاضطرابات العنيفة، فأبلغه ان [پومپي] جلا عن ايطاليا، وضرب مخيمه في [ديراكيوم]. فأنشأ [پوليو] يبدي عجبه من غرابه وغموض الاحكام الآلهية في احوال البشر وقال:

- كان [پومپي] ناجحاً ومظفراً على الدوام في اعماله التي لم تكن تنطوي على حكمة أو اخلاص للوطن. وها هو الآن مهتم بالحفاظ على كيان بلاده والدفاع حريتها، فاذا به سيء الحظّ على طول الخط.

وقال [كاتو] بخصوص [آسينيوس] أنه قادر على طرده من صقلية لو شاء، لكن لما كانت قواته ستعززّ بنجده كبيره، فهو لا يرى موجباً لاقحام الجزيرة في حرب. وان عليه ان يتوجه بنصحه للسيراقوزيين، بأن ينضموا الى الفريق الغالب وان يعملوا لأجل لسلامهم. ثم انه ترك الجزيرة متجهاً الى معسكر پومپي.

نصح [پومپي] بتأخير القتال، اذ كان لايفتأ يأمل في اصلاح الأمور، وكان يكره أن يشتبك الغريمان في قتال لأن الخاسر هو البلاد، وسيكون عاملاً من عوامل خرابها أيا كان المنتصر في المعركة. واقنع [پومپي] ومجلس الشورى باصدار مرسوم يمنع بموجبه نهب اي مدينة خاضعة للشعب الروماني. وقتل اي مواطن روماني الاّ في ساحة المعركة اثناء القتال. وبهذا كسب شرفاً كبيراً وتسبب في التحاق الكثير [بپومپي] الى آسيا لمساعدة القائمين على التجنيد وتهيئة السفن. وصحب اخته [سرڤيليا] وطفلها من [لوكوللوس]، فمنذ ترملها وهي تعيش في كنف أخياها. وقد حسن سلوكها وطابت سمعتها اذ وضعت نفسها في رعايته، وتبعته في كل تنقلاته وقاسمته شظف العيش الذي عرف به. على ان [قيصر] لم يكف عن التعريض به عن طريقها.

وبدا ان ضباط [پومپي] في آسيا ما كانوا في حاجة كبيرة الى [كاتو] فقفل راجعاً الاّ انه حقق وهو في طريقه انضمام أهالي [رودس] الى القضية. وترك أخته وطفلها هناك وانضم الى [پومپي] الذي تمكن من جمع قوات ضخمة في البرّ والبحر. وكشف عن نواياه الحقيقية بعمل لايعدله عمل آخر. كان قد اعتزم ان يسلم [كاتو] قيادة الاسطول الذي يتألف من خمسمائة بارجة قتال وعدد كبير جداً من السفن الخفيفة وسفن الاستطلاع والقوارب المكشوفة. الاّ انه

اعاد النظر في قراره، أو لعل ذلك كان بتأثير من اصدقائه. فقد تبين له ان هدف [كاتو] الوحيد هو تحرير البلاد من سلطان كل غاصب. فان هو عقد له اللواء على كل هذه القوات العظيمة، فسيعمد فور القضاء على [قيصر] الى حمل [پومپي] على القاء سلاحه وخضوعه لقوانين الجمهورية. ولذلك عدل عن رأيه وعين [بيبولوس] قائداً للاسطول مع انه كان قد نوه [لكاتو] بعزمه الأول. لم يكن لديه عن سبب او دليل يحمله على الافتراض بأن حماسة [كاتو] للقضية قد ضعفت باي شكلٍ من الاشكال. فقبيل خوض احدى المعارك في (ديراكيوم) خطب پومپي في جنوده على ما قيل - ثم طلب من ضباطه ان يحذوا حذوه، فتعاقبوا واصغى الرجال اليهم ببرود وصمتٍ حتى تقدم [كاتو] بالأخير. وبلغةٍ فلسفية تناسب المقام تكلم عن الحرية والرجولة والموت والذكر الحسن. القى خطابه بشكل عاطفي طبيعي قوي لاتعمل فيه وختمه طالباً العون من الآلهة موجها اليها خطابه كأنها موجودة معهم، لتنظر نحوهم وترعاهم وهم يقاتلون في سبيل بلادهم. فأطلق الجيش كله صيحة راعدة وتملكتهم الحماسة وهاجت انفسهم فقادهم ضباطهم يحدوهم الأمل والثقة لمواجهة الخطر. وهزم جيش [قيصر] ولاذ بالفرار. الاّ ان حظّ [كاتو] الكريم استخذى لحذر پومپي وتذبذبه فجعل نصره ناقصاً. على اننا اوردنا ذلك في سيرة [پومپي].

وفي الوقت الذي استبد الفرح بالجميع وبالغوا في تقدير نجاحهم كان [كاتو] وحده يندب حظّ بلاده. ويلعن ذلك الطموح القتال الذي دفع بهذا العدد الكبير من الرومان الى قتل بعضهم بعضاً.

وتعقب [پومپي] قيصراً الى تساليا. تاركاً في [ديراكيوم] مقداراً من الذخيرة والمال والمؤونة وكثيراً من خدم بيته واقربائه ووضع الجميع بعهدة [كاتو] وسلمه قيادة خمس عشرة كتيبة فقط. كانت ثقته به كبيرة. لكنه يخشاه، فهو يدري تماماً ان [كاتو] هو آخر من يتركه ان غُلب. اما اذا انتصر فلن يدعه يستخدم نصره على هواه. وبقي مع [كاتو] في [ديراكيوم] كثرة من اشراف روما ووجهائها، وعندما تسربت ابناء هزيمة [فرساليا] قرر كاتو ان يعيد الموجودين معه في [دراكيوم] الى ايطاليا في حالة موت پومپي ثم يبتعد هو عن طغيان [قيصر] الى ابعد مسافة ممكنه ويعيش في المنفى. اما اذا نجا فانه سيعمل على تجميع الجيش له. وبهذا القرار رحل الى [كورچيرا] حيث الاسطول رأسٍ واراد هناك ان ينزل [لشيشرون) عن القيادة بوصفه قنصلاً، وهو بريتور، فرفض شيشرون وأعلن اعتزامه العودة الى ايطاليا فأحتد عليه ابن [پومپي] وهم وهو في سورة من الغضب بمعاقبة كل من يزمع العودة. وبدأ بشيشرون فألقى القبض عليه. الاّ ان [كاتو] انفرد به وثناه عن عزمه وبهذا انقذ حياة

شيشرون فعلاً وانقذ آخرين من التنكيل وسوء المعاملة ورجعَ [كاتو] ان [پومپي] الأكبر هرب الى مصر افريقيا. فأصعد كل الرجال ظهر السفن واقلع يريد اللحاق به . وقبل ذلك خيرّ أولئك الذين فقدوا حماستهم في الاستمرار بالقتال، وصرفهم. وبنزولهم ساحل افريقيا التقوا بـ[سكستوس] ابن [پومپي] الاوسط فانباءهم بمقتل ابيه في مصر. فاستبد بهم الحزن، وقالوا انهم لن يتبعوا بعد [پومپي] قائداً غير [كاتو]. فملكته العاطفة ازاء هذه الشهادة المخلصة التي قدمها جمهور من الشرفاء، ولم يسعه تركهم في بلاد بعيدة غريبة يجابهون المصاعب، الا اذا قبل العار على نفسه. وهكذا تولى القيادة وسار الى مدينة [كيرينه Cyrene] فأستقبله سكانها دون تردد مع انهم أغلقوا ابوابها بوجه [لابينيوس] قبل مدة قليل. وهناك علم ان [سكيپيو] حميّ [پومپي] قد اتفق مع الملك [جوبا Juba] وان [آتيوس ڤاروس At-tius Varus] الذي نصبه [پومپي] حاكماً لأفريقيا، قد التحق بهما مع قواته . فقرر [كاتو] ان يسير اليهم براً إذ كان الوقت شتاء. وجمع عدداً من الحمير لحمل الماء. وكدس مقادير كبيرة من الزاد والمؤون، وعدداً من العربات. وأخذ معه ايضاً عدداً من أولئك الذين يطلق عليهم اسم [پسيللي Psylli] وهم يبرئون الملدوغ بسمّ الأفعى عن طريق مصّ السمّ بافواههم كما امتازوا أيضاً بعملية سحر يستطيعون بها تنويم الافاعي وشلّ حركتها.

وساروا سبعة ايام متواصلة و[كاتو] كالعهد به دوماً يسير على قدميه متقدماً جنوده ولا يستعين بعربة او حصان. منذ معركة فرساليا وهو يتعمد الجلوس الى المائدة ولايستلقي. وهو مظهر آخر من مظاهر حداده، اذ لم يعد يستلقي الاّ في وقت النوم.

ومرّ الشتاء عليهم في افريقيا وسحب [كاتو] جيشه الذي كان يناهز العشرة آلاف. وساءت احوال [سكيپيو] و[مكروس] للغاية نتيجة لخلافاتها وشجارهما وخنوعهما وتزلفهما للملك [جوبا] الذي لا تطاق صلافته ولايحتمل زهوه بقوته وغناه. ففي اول مرة اجتمع به [كاتو] للمداولة، أمر بوضع كرسيه الخاص في الوسط بينه وبين سكيپيو. ولم يفت [كاتو] ذلك فنقل كرسيه الى جهة [سكيپيو] ومنحه شرف الجلوس في الوسط مع انهما خصمان، حيث سبق له ونشر عنه بعض الفضائح كتابةً. هناك أناس يعدون أمثال هذه المبادرة من التوافه، فينتقدون [كاتو] لأنه حريص عليها. فمرة كان يتمشى في صقلية مع [فيلوستراتوس Philostratus]. فأفسح له ليحتل المكان الأوسط اظهاراً لمبلغ احترامه الفلاسفة، ولاشك في انه حطم كبرياء [جوبا] الذي كان يعامل [سكيپيو] و[ڤاروس] معاملة زوج من حكام الاقاليم عنده، ونجح على اثر ذلك في احلال الوئام بينهما. وأخلى سكيپيو وڤاروس الميدان له ليترأس قيادة الجيش العامة بعد أن تحققوا من رغبة الجنود. لكنه أبى قائلاً انه لايريد الخروج عن القوانين

التي يدافع عن حرمتها. فهو حائز درجة البريتور ولذلك لاحق له في القيادة بوجود البروقنصل (كان سكيبيو قد أختير پروقنصلاً) أضف الى هذا ان الناس يتيمنون بوجود سكيبيو على رأس الجيش في افريقيا، فالأسم وحده يبث في نفس الجنود نسائم الأمل ويغريهم بالنجاح.

فأضطلع [سكيبيو] بالقيادة، وبتحريض من [جوبا] قررّ فوراً وضع السيف في رقاب أهالي [اوتيكا Vtica] جميعاً. وان يدك المدينة حتى يسويها بالقاع لأنها- حسبما زعما - قد انحازت الى [قيصر]. فلم يوافق [كاتو] وراح يستصرخ الآلهة، ويستنكر ويحتجّ امام مجلس الحرب. وبصعوبة عظيمة انقذ أهالي المدينة المساكين من المصير القاسي الذي كان ينتظرهم، وانيط به حكم المدينة باقتراح سكيبيو وطلب الأهالي، خوفاً من وقوعها في يد [قيصر] لأنها كانت موقفاً عظيم المناعة ذات فائدة كبيرة لكلّ من الخصمين المتجاربين. فزادها [كاتو] مناعة بتحكيمها واختزان المؤون فيها. فقد جلب كميات كبيرة من القمح. واصلح الأسوار، وبنى الابراج وحفر خنادق عميقة وزرع حقولاً من الموانع والأسيجة حولها. ووضع شبان المدينة في هذه الاستحكامات بعد تجريدهم من السلاح وابقى الأهالي فيها ويرحلهم ووفرّ الأمن لهم وحرص أن لايقع اعتداء او اهانة عليهم من الرومان. وراح يبعث فيها بكميات من السلاح والمال والمؤونة الى معسكر الجيش. ومجمل القول انه جعلها قاعدة تموينه الرئيسة.

ونصح [كاتو] و[سكيپيو]، كما نصح [پومپي] من قبله بأن لايتعجل المعركة قطّ وبأي شكل كان، مع رجل حلب من القتال اشطره وعجم عوده. واشار عليه ان يستخدم خطة التأخير، لأن الزمن سيخضد بالتدريج من شوكة الأزمة وعنفها والعجالة هي القوة التي يعتمدها الغاضب. الا ان [سكيپيو] أهمل النصيحة عجباً واستكباراً وكتب له رسالة يصمه فيها بالجبن. ويقول له: حسبه ان يقعد آمناً مطمئناً خلف الاسوار ولايمنع غيره من استخدام اصالة تفكيره بجراءة لاهتبال الفرصة المؤآتية. فرد [كاتو] عليه بقوله: أنه سيقلع الى ايطاليا بالمشاة والخيالة التي انزلها في افريقيا، وهناك سيعمل على مشاغلة [قيصر] لابعاده عنهم. فسخر [سكيپيو] بهذا الاقتراح كذلك. فأسف [كاتو] على نزوله [لسكيپيو] عن القيادة، مدركاً انه لن يدير الحرب بتعقل وحكمة، وان هو نجح خلافاً لكل ما تدل عليه الظواهر، فأنه سيسيئ استخدام هذا النجاح في الوطن، بقدر ما اساء القيادة هنا، لقد اقتنع [كاتو] وأعلم اعوانه بقناعته هذه. قال لهم ان أمله بهؤلاء القادة كاد يتلاشى. ان لديهم الشيء الكثير من الجسارة ولكنهم يفتقرون الى الأقل من الحصافة. مع هذا فان تحقق ما ليس في الحسبان، وهزم

[قيصر] فهو شخصياً لن يعود الى روما بل سيبتعد من قسوة [سكيپيو] وبربريته التي ظهرت بتوعده الكثيرين باسوء المصير.

حصل ما توقعه [كاتو] بأسرع ما كان ينتظر. ففي ساعة متأخرة من الليل وصله رسول من المعسكر بعد قطعه مسافة ثلاثة ايّام لينبئه بنشوب معركة عظيمة قرب ثايسوس وضياع كلّ شيء. واحتلال قيصر المعسكرات وهروب [سكيپيو] و[جوبا] مع فئات قليلة وتشتيت الجيش. وصلت هذه الانباء ليلاً، والبلاد في حالة حرب، فاقلقت أهالي المدينة واستبد بهم الرعب حتى كادوا يفقدون صوابهم. وصعبت السيطرة عليهم وارادوا الخروج. الاّ ان [كاتو] برز اليهم في هذه الوقت العصيب. وواجههم بكلمات تهدئة مشجعة حتى قبض على ناصية الحال وسيطر على الموقف واسكن روعهم وبدو خوفهم قال لهم: من المحتمل جداً ان الأمور لم تسأ الى الحد الذي يتصورون وربما بالغت الانباء في وصف الحالة وساد الهدوء بصورة مؤقتة. وفي صباح اليوم التالي استدعى الثلاثمائة الذين جعلهم مجلس شورى له، وهم مواطنون رومانيون سكنوا افريقيا لممارسة الاعمال التجارية والصرافة. وكان ثم معه عدد من اعضاء مجلس الشيوخ واولادهم. وعقد الاجتماع في هيكل [چوپتر]. وفيما هم يكتملون، كان [كاتو] يتمشى بهدوء تام مستغرقاً بمطالعة كتاب كأن لم يحصل شيء جديد وكان الكتاب سجلاً بحساب التجهيزات التي اعداها للحرب من أسلحة ودروع وقمح وذخيرة وجنود.

عندما كمل عقدهم توجه الى الثلاثمائة أولاً، فأشاد بشجاعتهم واخلاصهم واثنى على خدماتهم الجليلة التي قدموها لوطنهم من اشخاصهم واموالهم ونصائحهم. ورجاهم أن لايتفرقوا مهما كانت الظروف، وان لايتوهموا بأن الفرد يسلم بتركه رفاقه، وانما العكس هو الصحيح، ان ظلوا متعاضدين متكاتفين فلن يدعوا لقيصر سبباً للازدراء بهم لو وقفوا ضده، كما سيكون أكثر استعداداً للعفو عنهم أن أعلنوا ولاءهم له. فهو لذلك ينصحهم بالتشاور فيما بينهم، وسيحترم اي قرار يتخذونه. فإن فضلوا الاستكانة لحكم الاقدار فسيعزو قرارهم وانقلابهم عليه الى حكم الضرورة. واذا قرروا الثبات معه في وجه الخطر دفاعاً عن الحرية فلن يكتفي بمدح شجاعتهم بل سيكون معجباً بها وقائداً ورفيقاً حتى يحققوا أقصى ما يمكن من السعادة لبلادهم التي هي ليست اوتيكا ولا [ادرُمنتوم Adrumentum] وانما روما. فبعظمتها المأثورة، كثيراً ما خرجت سالمةً من شر النكبات والخطوب. هذا فضلاً عن تمتعهم بكثير من اسباب السلامة. وفي مقدمتها انهم يحاربون شخصاً ترغمه مشاغله على الانتقال من موضع الى آخر. فقد رفعت اسپانيا علم الثورة بقيادة [پومپي] الأصغر. وروما نفسها مثل الحصان الجموح تأبى ان تسرج، انها والحالة هذه على أهبة الانتفاضة، حالما يطرأ على

الوضع اي تغيير. وأما عنهم، فليس باللائق بهم أن ينكصوا على أعقابهم في مواجهة الخطر. وعليهم ان يتخذوا من خصمهم عبرةً ومثالاً فهو يعرض للخطر لتحقيق شر النوايا وابعدها عن الحق ومع هذا فلأمل له بنهاية سعيدة كما هم يأملون. فبصرف النظر عن تقلبات الحرب ومفاجآتها، عليهم أن يطمئنوا من النتيجة فوزهم بأسعد حياة ان هم نجحوا واستظهروا، وعليهم ان يدركوا بأنهم سيموتون أشرف ميتة ان هم اخفقوا. ومهما يكن من أمر، فعلهم ان يتبادلوا وجهات النظر فيما بينهم ويصلوا الى قرار، وسيشاركهم في الدعوة الى الآلهة لتبارك قرارهم الحاضر، تعويضاً عن شجاعتهم الماضية وخلوص نياتهم.

بثت اقوال [كاتو] في نفوس الكثير فيهم روح الاقدام وحركت مشاعرهم، وهزت اريحيتهم، حتى انهم نسوا الأخطار المحدقة بهم ورجوا منه أن يكون قائدهم الأوحد الذي يتحدى الاقدار ولايعرف للهزيمة معنى، وعرضوا انفسهم وسلاحهم واموالهم ليفعل بها ما يشاء. وقالوا انهم يفضلون ان يلاقوا حتوفهم باتباعهم نصحه، على أن تسلم لهم ارواحهم بغدرهم بشخص يتحلّى بمثل هذا الخلق العظيم. واقترح أحد الحاضرين اصدار قرار بتحرير العبيد. فلم يقبل [كاتو] لأن ذلك لايستقيم مع روح العدالة أو حكم القانون. امّا اذا اقدم المالك بملء اختياره على ذلك فانه سيرحّب بضم كل لائق للخدمة من العبيد المحررين الى قواته. ووعد كثيرون بتنفيذ ذلك فدون الاسماء في السجل. وفي تلك الساعة وصلته رسائل من [جوبا] و[سكيپيو]. كان [جوبا] قد اعتصم بالجبال مع بعض رجاله منتظراً ما يقرره [كاتو] وهو ينوي انتظاره هناك اذا فضل مغادرة [اوتيكا]. أو ان يسير اليه لنجدته اذا ما حوصرت المدينة. وكان [سكيپيو] قد أصعد ما لديه من قوات الى السفن في موضع لايبعد كثيراً عن [اوتيكا] منتظراً الجواب من [كاتو] حول بعض المسائل. وارتأىٰ [كاتو] ان يؤخرّ الرسل والردود الى أن يتخذ الثلاثمائة قراراً. اما الشيوخ الذين كانوا معه فقد اظهروا نخوة وشهامة عظيمتين، واعتقوا عبيدهم في الحال وسلّحوهم ولكن الحماسة التي بثها [كاتو] في نفوس الثلاثمائة لم تلبث طويلاً وأخذت تتهافت بعد ان تركهم. ولا غرابة، فهؤلاء رجال تجارة ومال، ومعظم ثرواتهم في عبيدهم. وهناك اشياء ومواد تتقبل الحرارة بسرعة وتفقدها بسرعة عندما ترفع النار عنها، هكذا التهبت نفوس هؤلاء وارتفعت حرارة دمائهم بوجود [كاتو]، لكن ما ان أخذوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم بغيابه حتى تغلب خوفهم من قيصر، على احترامهم [لكاتو] الفاضل وراحوا يتساءلون قائلين:

- من تكون نحن؟ ومن هو ذلك الذي نأبى الخضوع له؟ الا يمارس [قيصر] الآن كل سلطان روما ونفوذها؟ من منا سكيپيو، او كاتو او پومپي؟ في هذه الساحة عندما يفسح الناس

للخوف سبيلاً للتسلل الى كراماتهم وشرفهم، اينبغي لنا ان نقاتل في سبيل حرية روما. فنعلن ونحن في [اوتيكا] الحرب على [قيصر] ذلك الذين لم يستطع [كاتو] و[بومبي الأكبر] ان ينالا منه فتيلاً فهربا من ايطاليا؟ انحرر العبيد، انطلقهم ضد [قيصر] وهو المتحكم في حرياتنا؟ كلا، ولنعرف أنفسنا جيداً نحن المساكين، ما علينا الاّ ان نوالي المنتصر ونرسل وفداً يطلب لنا الرحمة والغفران منه.

كان هذا رأي أكثرهم اعتدالاً الاّ ان الأغلبية ارتأت القاء القبض على الشيوخ والاحتفاظ بهم لقيصر تهدئة لغضبه. وكان [كاتو] يتوقع انقلابهم عليه لكنه لم يبدُ مهتماً. وكتب لجوبا وسكيپيو، يشير عليهم بان يظلوا بعيدين عن [اوتيكا] لأنه لايثق بالثلاثمائة.

واتجهت نحو اوتيكا قوة كبيرة من الخيالة كانت قد نجت من المعركة الأخيرة. وأرسلت قبل وصولها بثلاثة رسل الى [كاتو] يحمل كل واحد منهم رسالة مختلفة عن رسالة صاحبه. كانت فئة من هذه القوة ترى ان تلتحق بجوبا، وفئة تريد الانضمام الى [كاتو] وفئة تخشى دخول [اوتيكا] بعدما اصغى [كاتو] الى الرسل. امر [ماركوس ريبيريوس Marcus Rubri-us] بالذهاب الى الثلاثمائة لاستطلاع أمرهم وتدوين اسماء الذين أختاروا تحرير عبيدهم - سراً دون علمٍ منهم. ثم أخذ يرجوهم بالاّ يتركوا هذا العدد الكبير من الشيوخ الرومان هنا. وان لايختاروا [جوبا] قائداً، قبل [كاتو] بل ان يفكروا بالسلامة الجماعية وان يدخلوا المدينة المنيعة الكثيرة المؤن. فالقمح فيها يكفيهم عدة سنين، كذلك توسل الشيوخ بهم للبقاء. وعاد الضباط الى جنودهم للمشاورة. وجلس [كاتو] والشيوخ على قدمات الأسوار ينتظرون القرار. وفي عين الوقت أقبل [روبيريوس] مسرعاً وعليه علائم الاضطراب العظيم. وقال أن الثلاثمائة قد اشعلوا نار الفتنة في المدينة وهم يحرضون الأهالي على الثورة واحداث الشغب، فخيم اليأس على الحاضرين وأخذوا يبكون حالهم. وحاول [كاتو] التسرية عنهم. وبعث الى الثلاثمائة يطلب منهم ان يتذرعوا بالصبر، وعاد الضباط اليه بطلبات غير معقولة قالوا انهم لايرغبون في الخدمة تحت أمرة [جوبا] للأجر الذي يدفعه لهم. وانهم لايرهبون قيصر اذا ما التحقوا [بكاتو] لكنهم يخشون ان يحصروا داخل المدينة بين الاوتيكيين وهم مطبوعون على الخيانة والغدر، ومن دم قرطاجنيّ. هم الآن هادئون مسالمون ولكنهم سيتآمرون بلاشك ويخونون الرومان حال اقتراب [قيصر]. وان كان [كاتو] يرجو ان يلتحقوا به ويعملوا تحت امرته، فما عليه الاّ ان يخرج من المدينة، أو ان يقضي على الاوتيكيين. حتى يخلو الموضع من العدو والبرابرة. ووجد [كاتو] في مقترحاتهم قسوة وبربرية لايطيقها. فأجابهم بلطف انه سيشاور الثلاثمائة بالأمر. وعاد الى المدينة فوجد الرجال لايختلقون اعذارا، ولايتظاهرون

بالمسكنة والذلة كما كانوا يفعلون سابقاً احتراماً له. بل أخذوا يصرحون على رؤوس الاشهاد بأنهم عازفون عن قتال [قيصر]، انهم عاجزون ضعفاء ولا أحد يرغمهم على مالا قبل لهم به. وأطلق بعضهم آراء حول القبض على الشيوخ وتسليمهم لقيصر. وتغافل [كاتو] وكأنه لايسمع، وكان في الواقع نقبل السمع نوعاً ما. وفي عين الوقت أقبل أحدهم ليخبره بأن قوة الخيالة قد رحلت. فخوفاً من أقدام الثلاثمائة على اتخاذ قرار ضدّ الشيوخ خرج حالاً مع عدد من اصدقائه فوجد الخيالة قد ابتعدت مسافة، فأمر بالخيل وانطلق وراءهم مسرعاً. وعندما راؤه قادماً كثيراً واستقبلوه بكل مودة وطلبوا منه انقاذ نفسه معهم. قيل ان [كاتو] بكى في تلك اللحظة وأخذ يستعطفهم لأجل الشيوخ ومد اليهم يديه ضارعاً، والوى عنان بعض خيولهم، وامسك باسلحة راكبيها الى أن أفلح في تحريك عواطفهم ونجح في حملهم على البقاء يوماً واحداً فقط لتأمين اخراج الشيوخ وتسفيرهم. فعادوا ووزعهم على المواقع. بعضهم اناط به حراسة المداخل. وبعضهم او كل اليه احتلال الحصن وهكذا... فبدأ الخوف يتسرب الى قلوب الثلاثمائة، لئلا يلقوا الجزاء على تغلّب رأيهم فبعثوا يطلبون مقابلة [كاتو]. الاّ ان الشيوخ أحاطوا به وحالوا بينه وبين الذهاب اليهم قائلين انهم لن يأمنوا على حاميهم ومنقذهم من الوقوع في ايدي خونة غدارين.

لم يظهرّ سموّ خلق [كاتو] كما ظهر الآن. كل طبقة من الناس في اوتيكا تبينت بأسف وأعجاب خلوّ ما يفعله من أية دوافع خاصّة أو مصلحة شخصية. هذا الذي قررّ ان يضع حَداً لحياته. لا يبذل اعظم المجهودات ويشقى ويكدح الاّ في سبيل الآخرين، يضمن حياة الآخرين ثم يقوم بانهاء حياته. اذ كان من السهل عليهم ان يتبينوا انه قرر الموت ولو لم يفصح عن نيته.

بعد ان هدأ من روع الشيوخ، ووافق على مقابلة الثلاثمائة فشكروه بحرارة وطلبوا منه ان يستخدمهم ويثقُ بهم. ومع انه لا وجه شبه بينهم وبين [كاتو] ولايستطيعون التحليق الى عظمة فكره فهم يريدون منه أن يرحم ضعفهم. وقالوا ايضاً: انهم قرروا ان يتصلوا [بقيصر] ويرجوا منه قبل كل شيء العفو عن [كاتو] فان اخفقوا في مسعاهم فسيرفضون عفوه عنهم. وسيقاتلون دفاعاً عنه مادام فيهم نفس يتردد. فشكر لهم [كاتو] حسن نواياهم ونصحهم بتأمين سلامتهم بأسرع ما يمكن. وان لايتشفعوا له بتاتاً فالمغلوبون يتوسلون، والمخطئون يطلبون الصفح، أما هو فما اعترف بالهزيمة طوال حياته، بل كان يحرز نصره كلما وجد ذلك مناسباً. ولقد هزم قيصر في كل نزالٍ يتعلق بمبادئ الحق والعدالة [فقيصر] المغلوب وليس هو. لقد ادين وحكم بجريمة نواياه السيئة ضدّ بلاده، ظلّ يعمل لها دون انقطاع، وظلّ ينكرها

باستمرار. وبعد ذلك خرج، وعندما انبئ بتقدم [قيصر] على رأس جيشه قال:
- آه، انه يتوقع ان يجدنا رجالاً شجعاناً.

ثم قصد الشيوخ والحّ عليهم بالاّ يتأخروا عن الرحيل وان يستعجلوا ما دامت الخيالة في المدينة. وأمر باغلاق جميع الأبواب الاّ باباً واحداً يواجه البحر وخصص ما لديه من السفن للراحلين وزود بالمال والقوت من هو في حاجة، وتم ذلك بغاية من الضبط والدقة والتأهب لقمح كل شغب، وعدم الاعتداء على الأهالي.

ووصل [ماركوس اوكتافيوس Marcus Octavius] على رأس فرقتين من العسكر وضرب معسكره بالقرب من [اوتيكا] وارسل يسأل [كاتو] عن رأيه في أسناد القيادة العامة فلم يجبه [كاتو] وانما قال لاصدقائه:

- أيحق لنا بعد هذا ان نعجب لما أصابنا من الفشل، حينما يظلّ حبنا بالمناصب باقياً ونحن نشرف على الدمار التام.

في الوقت نفسه، انبيء بالخيالة تتأهب للرحيل وانها تنهب مقتنيات الأهالي فهرع [كاتو] اليهم وانتزع ما في يد اول من صادفه والقى الآخرون عنهم ما نهبوه وخرجوا صامتين خجلين. ثم جمع كل أهالي [اوتيكا] موصياً خيراً بالثلاثمائة راجياً منهم الاّ يثيروا حقد قيصر عليهم بل عليهم ان يتدبروا أمر سلامتهم جميعاً. وبعد هذا ذهب الى الميناء لرؤية الراحلين. وعانق اصدقاءه ومعارفه وودعهم. ولم يشر على ابنه بالرحيل ولم يجد من المناسب اقناعه بترك ابيه. الاّ ان هناك شخصاً يُدعى [ستاتيليوس Statyllius] وهو شاب في زهرة العمر ذو روح وثابة، شديد الولوع بالاقتداء [بكاتو] والتشبه باخلاقه. طلب منه ان يرحل لأنه عدوّ لدود لقيصر، فلم يفلح معه، فالتفت الى [ابوللونيدس] الفيلسوف الرواقي وديمتريوس الفيلسوف المشائي Peripatatie. وقال لهما:

- تقع عليكما مهمة اطفاء حمّى روح هذا الشاب وتعريفه بالصالح له.

وامضى الليل ومعظم النهار في ترحيل اصدقائه وقضاء حاجات المراجعين له.

عُين [لوشيوس Lucius Caesor] احد اقرباء [قيصر] مندوباً لمفاوضة الثلاثمائة. فجاء الى [كاتو] وطلب منه ان يلقي خطبة بالثلاثمائة لأقناعهم وأضاف يقول:

- واما عنك، فسيشرفني ان الثم ايديّ قيصر واخرّ على قدميه مستشفعاً لك.

فلم يسمح له [كاتو] ان يقدم على عمل كهذا باية حال واجابه:

– لو شئت المحافظة على حياتي بفضل من [قيصر] لذهبت اليه انا بنفسي. الاّ اني لا اريد ان أكون مديناً بفضل لطاغيةٍ جراء أعماله طغياته. ان انقاذه ارواح أولئك الذين لاحق له في حكمهم، كأنه سيدهم الشرعي، هو محض اغتصاب... ولكن دعنا نبحث اذا اسمحت في خير ما يمكن قوله عن الثلاثمائة.

وتحادثنا فترة من الوقت وعندما ازمع [لوشيوس] الرحيل اوصاه [كاتو] بابنه وببقية اصدقائه وشدّ على يديه مودعاً. ثم عاد الى منزله ودعا ابنه واصدقاؤه فتحدثوا في مختلف المواضيع. وحظر على ابنه العمل السياسي، لأنه متعذر الآن بالشكل الصحيح اللائق، وبغير هذا الشكل يكون مخلاً بالشرف. وعند المساء دخل الحمام وفيما هو يغتسل تذكر [ستاتيلليوس] فنادى بصوت مرتفع:

– ابوللونيوس! هل روضت روح [ستاتيلليوس] الجموح. هل ذهب دون ان يودعنا؟

فأجاب [ابوللونيوس]:

– كلاّ. لقد تكلمت معه كثيراً فلم أفلح. انه مصمم، ويقول انه قررّ الاقتداء بك.

وقيل لنا – ان كاتو ابتسم وأجاب:

– هذا ما سيثبته عما قريب.

بعد خروجه من الحمام ذهب للعشاء برفقة عدد كبير من اصحابه فجلس الى المائدة منتصباً كما أعتاد منذ معركة [فرساليا] فقد حرم على نفسه الاستلقاء على ظهره الاّ عندما ينام، ونعشى معه جميع اصحابه وكل حكام [اوتيكا].

وتسببت الخمر في اثارة احاديث ممتعة. فبحثت قضايا فلسفية عديدة، وامتد بهم الحوار الى عقائد الرواقيين الغريبة المسماة بالمتناقضات وتركز في هذا مبدأ: ان الرجل الصالح هو حرّ وحده. وكل الاشرار هم عبيد. وانبرى الفيلسوف المشائي يعارض القول كما هو متوقع. فأنقضّ عليه [كاتو] وناقشه بحرارة. وارتفع صوته بعض الشيء وحاول باسهاب وكان اثباته النقطة، مشفوعاً بحماسةٍ، ادرك الجميع منها انه قررّ وضع حدٍ لحياته واطلاق روحه من جسده. فران سكون عميق وغشيت الكآبة الجميع. ولتبديد اي شكّ في نيته عمد الى قلب المناقشة متحولاً الى موضوع آخر فراح يتكلم عن امور الساعة، مبدياً قلقه على من هم الآن في عرض البحر، وايضاً على الآخرين المسافرين براً مجتازين صحراء قاحلة ما حلة.

وعندما تفرقت الجماعة، راح يتمشى مع اصدقائه كما هي عادته بعد العشاء. واصدر الأوامر الضرورية الى ضباط الخفر ثم دلف الى هجرته، وهناك عانق ابنه وكل صديق له

وبحرارة أكثر من المعتاد، مما جددّ شكهم في نيته على الموت. وبعدها صرفهم واستلقى وتناول كتاب محاورة افلاطون [حول الروح] وبعد ان قرأ أكثر من نصف الكتاب. رفع نظره فلم يجد سيفه (كان ابنه قد أخذه عند تناول العشاء) فنادى خادمه وسأله عمن أخذ السيف، ولما يجب الخادم استأنف القراءة. وبعد قليل طلب السيف بلهجة تعمد فيها الاّ يبدو ملحفاً أو مستعجلاً، بل يريد ان يعرف اين هو فحسب. وانتظر برهة انهى خلالها قراءة الكتاب فلم يجلب له السيف. فنادى خدامه وطلب احضار السيف بصوت أعلى من الأول، وسددّ الى فم احدهم لكمة قوية رضّت يده وزاد غضبه وأخذ بصيح ان ابنه وخدمه غدروا به واسلموه الى العدو وهو اعزل. فأسرع ابنه واصدقاؤه الى الغرفة مهرولين وسقطوا على قدميه واخذوا يبكون ويضرعون اليه. فرفع نفسه عن الفراش ونظر نظرة صاعقة وقال:

- متى؟ بل كيف اصبحت سليب العقل، مريض الرأي بحيث لايحاول أحدٌ محاجّتي بالعقل والبرهان، أو ان يبين لي ما هو الأحسن ان كان يراني طائشاً؟ ايحتتم أن اجرّد من السلاح، وأمنع عن استخدام عقلي؟ وانت أيها الشاب لماذا لاتربط يدي ابيك وراء ظهره. حتى اذا جاء قيصر وجده عاجزاً عن الدفاع؟ ليس السيف ضرورياً ان شئت القضاء على حياتي. وما عليّ الا ان احبس انفاسي برهة من الزمن. أو أن اشبحّ رأسي في الجدار.

بعد هذا، خرج ابنه وهو يبكي وتبعه الباقون عدا ديمتريوس وابولونيوس وكان أكثر هدوءاً في حديثه معهما اذ قال متسائلاً:

- وانتما؟ أتريان ايضاً ان تبقيا رجلاً في مثل سني حيّاً بالقوة وتجلسان تنظران اليّ صامتين؟ أم هل تدليان بجمع تثبت لي ان طلب [كاتو] السلامة من العدوّ عندما تغلق امامه الابواب الأخرى، هو خليق به، وليس من الحطة في شيء؟ ان كان الأمر كذلك، فبرهنا اننا بفضل قيصر ومساعدته سنكون أحكم عقلاً وأكثر امتناناً له من ابقائه على حياتنا فحسب برفضنا كلّ المبادئ التي تشربتها ارواحنا. أقول هذا لا لأني صممت على الفناء والعدم بالنسبة لذاتي، لكني سأنفذ ما أراه مناسباً من القرارات، بعد ان أجعل ذلك في حدود سلطاني، ولن امتنع عن اتخاذ كما مشاورين بالرجوع الى كل المبادئ التي تبشر به فلسفاتكما، واني لفاعلٌ، وفي الوقت نفسه ارجو ان لاتزعجا نفسيكما واذهبا قولا لابني بأنه لن يرغم اباه على مالا يستطيع اقناعه به.

فلم يردّاً عليه بشيء، بل خرجا باكيين. وجاءه صبي بسيفه، فاستله من الغُمد ونظر اليه. وفحص ذبابته فوجدها جيدة، فقال:

- والآن، انا سيّد نفسي.

والقى بالسيف جانباً وتناول كتابه ثانية فأنهاه مرة أخرى على ما قيل. وبعدها نام نوماً عميقاً وسمع شخيرة في الخارج. وفي حدود نصف الليل نادى اثنين من معتوقيه: [كلينثس Cleanthes] وطبيبه و[بوتاس Butas] الذي كان يستخدمه في الاعمال المختلفة، فأرسل ثانيهما الى الميناء، ليتأكد من ابحار كل اصدقائه. ومد يده الى طبيبه ليعالجها بعد ان انتفخت من اثر اللكمة. فشاع الفرح في نفوس الجميع اذ خيل لهم انه عدل عن الموت.

عاد [بوتاس] بعد فترة وانبأه برحيل الجميع ما عدا [كراسوس] الذي تأخر لعمل، الاّ أنه يهّم الآن بالابحار. وقال ايضاً ان الريح عاليةً والبحر هائج جداً. وصدرت من [كاتو] حسرة أليمة تفجعاً على المبحرين. وبعث [ببوتاس] مرة أخرى ليرى هل عاد أحدٌ منهم ليأخذ شيئاً كان قد نسيه؟ وطلب منه ان يأتيه بالخبر.

وبدأت الطيور تصدح باغاريدها. فأخذته سنة من النوم. أخيراً أقبل [بوتاس] واخبره ان كل شيء هادىء في الميناء. فأستلقى [كاتو] كأنه يريد استئناف غفوته، وطلب منه ان يغلق الباب بعد خروجه. لكن ما ان خرج هذا حتى تناول سيفه ودفنه في صدره. الاّ أنه لم يقو على تسديد طعنة نجلاء لورم يده، فلم يمت في الحال. وسقط عن السرير وهو يتخبط وهوت معه منضدة حسابية صغيرة كانت قريبةً منه فصدر دوّي صاح له الخدم واسرع ابنه والخدم الى غرفته في الحال. فوجدوه يتشحط بدمه وقد خرج جزءٌ كبير من احشائه وهو ما زال حياً يتطلع اليهم. وقفوا وقد أخذت منهم الرهبة مأخذها. وتقدم منه الطبيب وهم بدفع امعائه الى الداخل وكانت سالمة لم يمزقها حَدّ السيف، وحاول خياطة الجرح. الا ان [كاتو] الذي استرد وعيه وفهم نية الطبيب دفعه الى الوراء وبتر امعاءه بيده وفتح الجرح فلفظ انفاسه الأخيرة.

وفي وقت أقل مما يصل خبر الموت الى اسرةٍ مفجوعة. كان الثلاثمائة، يقفون ببابه. وبعد قليل اجتمعت حشود أهالي [اوتيكا] وعلا الصراخ والعويل. كان فتقدهم حقاً، وكان حاميهم. الرجال الحرّ الوحيد الذي لم يذق طعم الهزيمة.

في هذه الساعة بلغتهم انباء اقتراب [قيصر] فلم يصرفهم عن اداء التكريم [لكاتو] خوفهم من الخطر الماثل ولا الرَغبة في تملّق الفاتح ولا التنابز والخلف فيما بينهم. واخرجوا جثمانه بموكب مهيب وشيعوه تشييعاً فخماً ودفنوه على ساحل البحر حيث يقوم الآن تمثاله وهو قابضٌ على سيف. وبعد ذلك عادوا ليفكروا بسلامتهم وسلامة مدينتهم.

أبلغ [قيصر] بأن [كاتو] بقي في [اوتيكا] دون شعور بقلق ولم يحاول الفرار. وانه أخلى

من معه من الرومان وبقي مع ابنه وعدد من اصحابه فوقع في حيرة وأعمل الفكر ليتحسّس نوايا [كاتو]. وكان عظيم التقدير لكفاءاته فقرر الزحف عليه بكلّ جيشه . وعندما سمع بموته - قيل انه نطق بهذه العبارة:

- اي كاتو! اني أنكر عليك موتك. مثلما أنكرت عليّ حفظ حياتك!

والحق يقال لو ان [كاتو] تحمل منّة قيصر والابقاء على حياته لما كان في ذلك منقصة له، ولا ثلم لشرفه كما هو يرفع من مجد قيصر. ونحن بطبيعة الحال لانستطيع التكهن بما كان سيحصل، لكننا نخمن ان جاز لنا - من طبع قيصر الرؤوف.

مات كاتو وله ثمان واربعون سنة من العمر، ولم يتعرض [قيصر] لابنه بسوء. ولكن قيل لنا ان هذا الابن شبّ عاطلاً متسكعاً. وعرف باسرافه في معاشرة النساء، مكث في كبكدوكيا ضيفاً على [مارافاداتس Maraphadates] أحد اعضاء الأسرة المالكة، وزوجه الفائقة الجمال - فأطال المكث في المنزل أكثر مما ينبغي. وجعل نفسه موضوعاً لمختلف القصائد نورد منها الأمثلة التالية:

غداً - وهو اليوم الثالث عشر.
سيرحل [كاتو] على أغلب الظن.

و

بورشيوس[٢] ومارفاداتس صديقان حميمان
و«روح» واحد تكفيهما على ما يقال.
و«روح» هو اسم زوج [مارفاداتس]. و
الكلّ يعترف بعظمة [كاتو]
انه ليحمل «روحا» ملكية بالتأكيد!

لكن كلّ هذه الوصمات مسحت تماماً ببسالة ميتته. ففي معركة [فيليپاي] قاتل في سبيل حرية بلاده ضدّ [قيصر وانطوني]. وعندما انكسر الصفّ. أبت نفسه الفرار والنجاة. واستنكف ان يبقى اسمه مجهولاً من العدوّ. فأظهر نفسه وكشف عن هويته في الجبهة الأمامية. وراح يحمس] الآخرين ويحثهم على القتال. حتى سقط قتيلاً، تاركاً اعداءه ممتلئين اعجاباً ببسالته. ولم تكن بنت [كاتو] بأقل أنفة وشرفاً من باقي افراد أسرتها. تزوجت

---

(١) اسم [كاتو] الابن.

[بروتوس] قاتل [قيصر]. وكانت مطلعة على المؤآمرة ضدّه وانهت حياتها بالشكل الذي يليق باخلاقها واسرتها. وهو ما سيرد تفصيله في حياة [بروتوس].

اما [ستاتيلوس] الذي أصرّ على الاقتداء باعمال [كاتو] فقد حال الفيلسوفان بينه وبين القضاء على حياته في حينه وبعدها انضمّ الى بروتوس وكان له نعم الصديق المخلص النافع. وخرّ صريعاً في معركة فيليپاي!

١٩٧٢/١/١٩



أپولو


آغيس
AGIS
224 _ 241

زعم السذج والبسطاء ان أسطورة [آكسيون] التي عانقت السحابة بدلاً من [جونو] فولدت السناطير - هي اسطورة اخترعت اختراعاً لتمثيل حالة الطموح في البشر. أولئك الذين انشغلت عقولهم باطلاب المجد وهو محض صورة من صور الفضيلة، فلم يحققوا اثراً أصيلاً ولا منتظماً، بل حصلوا على نتائج مشوهة غير طبيعية (كما هو متوقع من مثل هذا الاتصال الآلهي). وبركضهم وراء عواطفهم وتنافسهم وبانسياقهم بحوافزهم الآنية لهم اشبه بأولئك الرعاة في تراجيديا سوفوكليس القائلين:

اننا نتبع هذه السائمة، مع انها تحمل اسيادها الشرعيين وهي تقودنا، مع انها بكماء.

في الواقع هذا هو الوضع الحقيقي الذي تجد عليه المشتغلين في الشؤون العامة. ففي جريهم وراء القاب فارغة: كقادة وحكام... يرتضون لأنفسهم منزلة العبيد، والاتباع لأهواء الناس ونزواتهم، وهم في ذلك مثل رقباء السفينة، يقفون في قيدومها ويمتد نظرهم ابعد من الملاحين الممسكين بالدّفة. الا انهم لايسعهم الا ردّ انظارهم الى اولئك الملاحين واطاعة اوامرهم. هؤلاء الرجال يوجههم هتاف الجماهير وتصفيقهم - ان جاز لي القول - وان كانوا يسمون حكاماً هم في الحقيقة مجرد اتباع للجمهور. الرجل الذي كمل عقله، وسمت فضائله لا حاجة له بالمجد والشهرة الا بقدر ما يعبدان طريقه ويمهدانه للثقة الكبيرة التي يوفرانها له. وليس ثم محذور في ان يسمح للشاب وهو الراغب في الشهرة - ان يفخر باعماله الطيبة بعض الفخر. اذ ان فضائله (على حدّ قول ثيوفراستوس) التي ما زالت بعد غضّة الإهاب، لم تخرج من شطئها، تتوقد الى الثناء و تتقوى به فتنفذ جذورها الى الأعماق. لكن عندما يغلب الافراط على هذه العاطفة، فانها تغدو خطرة جداً عند كل البشر. وهي مخربّة ومرة عند الحكام. فالنفوذ العظيم والسلطان الواسع ينقل المرء الى حالة من حالات الجنون فلا يعود يفكر بالصالح المجيد، ولكنه يعد كل عمل صالحاً طالما هو مجيد. وكما أجاب [فوكيون]، الملك [انتياطر] الذي طلب منه الاقدام من عمل لايشرفه:

- لا أستطيع ان أكون متزلفاً لك وصديقاً في آن واحد.

كذلك على أولئك الحكام والساسة ان يجيبوا الناس:

- لا أستطيع أن أحكم واطيعكم في آن واحدٍ.

وما يحصل للدولة ان جرى الأمر خلاف ذلك، مثله مثل ما حصل لتلك الأفعى التي تقول الاسطورة عنها أن ذيلها تمرّد على رأسها وشكا من انه يلقى عنتاً كبيراً بارغامه على ان يظل تابعاً للرأس. وطلب أن يحل محل الرأس في القيادة، فتم له ذلك. فما لبث ان لحق به كثير من الأذى فقد سار على غير هدى وشجّ الرأس واصابه بجراح كثيرة. فقد عاكس الطبيعة، واصبح الرأس يتبع دليلاً أعمى أصمّ. كذلك نجد عاقبة الكثيرين الذين يستلمون لميول الجماهير الطائشة غير الهادفة او الموحّدة. انهم لايستطيعون ان يتوقفوا من جهة، ولايستطيعون انقاذ أنفسهم من المصير المحزن المحتوم.

هذا ما عنّ لنا ذكره عن ذلك المجد الذي يعتمد على هتاف الجمهور نجد آثاره المؤسفة في مصيري [كايوس وطيبريوس گراخوس Caius, Teberais Graechus] الأخوين النبيلَيّ الخلق اللذين صقلت طباعهما السمحاء بأحسن التربية والتهذيب وتسنما الحكم يحدوها أشرف النوايا واجدرها بالثناء، مع هذا فقد ذهبت ريحهما، لا أقول بعامل الرغبة الجامحة في المجد، بل بعامل الخوف من العار الأكثر أغتفاراً من الأول. فلأنهما كانا محبوبين لدى الشعب وموضع ثقته، وجد في العار عليهما ان لايدفعا الثمن كاملاً. لقد حاولا باصلاحاتهما القانونية الجديدة ان يتفوقا على كل ما حازاه من شرف ومجد، فحققا ذلك بينهما المزيد من الشرف والشهرة، فاتقدت حماستهما وحماسة الشعب وأخذ الجانبان يتنافسان في الامجاد والمصالح. فوصلا بالأخير الى سبيل مغلق، بحيث اصبح الاصطدام فيما بينهما، حماقة، والتراجع عاراً وهذا ما سينتج القاريء مما سأقصه. واني سأقارنهما الآن باثنين من القادة اللقيديميين الشعبيين هما الملكان آغيس وكليونيتس فلأنهما كانا أيضاً من المغرمين باثارة الجماهير، يجاهدان لاعادة نظام الحكم والحياة النبيل الذي ضاع في زوايا النسيان منذ امد بعيد فكرههما الأغنياء والمتنفذون الذين صعب عليهم ان يجردوا من استمتاعهم الأناني الذي اعتادوه. لم يكن هذا الملكان أخوين لحماً ودماً، كزميليهما الرومانيين. لكن يلاحظ فيهما لون من التشابه الأخوي في أعمالهما ومقاصدهما التي تبدت في تمهيدات ومناسبات سأفصلّها الآن:

عندما عاد حبّ الذهب والفضة يتملك نفوس سكان الجمهورية اللقيديمية ساد البخل والحرص وحطة النفس في جمع المال. والترف والاسراف والخنوثة في انفاقه. فهوت سپارطة من المكانة العالية التي كانت تحتلها. واوذيت سمعتها وفضائلها. واستمرت احوالها في تدهور حتى ايام

[آغيس وليونيداس] الملكان اللذان حكماً اللقيديين في وقت واحد.

انحدر [آغيس] من أسرة [يوريپون Eurypon] الملكية وهو ابن [ايوداميداس Eudami-das] سادس جيل منحدر من صلب [اغيسلاوس] صاحب الحملة العسكرية على آسيا، الذي كان أعظم رجال زمانه بين الأغريق. خلف آغيسيلاوس ابناً يدعي [ارخيداموس] الذي قتله الماسبيون Masspains في [ماندونيوم Mandonium] بايطاليا. فخلفه ابنه البكر [آغيس] ولما قتل هذا بيد [انتيپاطر] قرب ميغالوپوليس دون ان يعقب؛ خلفه اخوه [يوداميداس] واعقبه ابنه [ارخيداموس]، والذي اعقبه [يوداميداس] ثالث وهو والد آغيس الذي نترجم له سيرته الآن.

و[ليونيداس] ابن [كليونيموس Cleonymus] كان من الأسرة الملكية الثانية [آغيادي Agiadæ] وهو الثامن المنحدر من صلب [پاوسانياس] الذي قهر [ماردونيوس Mardon-ius] في معركة [پلاتيا Plataea]. وأعقب [پارسانياس] ابنه [بليتسوناكس واعقبه پاوسانياس ثان، نُفي وعاش عيش النكرات المقمورين في [تيگيا Tegea] ونصب بدلاً عنه ابنه [اغيسيپوليس Agesipolis] ومات هذا دون عقبٍ فخلفه أخ له اصغر منه يدعي [كليومبروتوس] وترك هذا ابنين أكبرهما أغيسيپوليس] الذي لم يلبث طويلاً على العرش وتوفي دون عقبٍ فخلفه اخوه الأصغر [كليومينس] الذي رزق بابنين هما: [اكروتاتوس Acrotatus] وكليومنيوس. أولهما توفي قبل ابيه. الا انه خلف ابناً يدعى [آريوس Areus] الذي خلف جده في الحكم، وقتل في كورنث، فترك العرش لابنه [اكروتاتس] الذي هزم وقتل بالقرب من ميغالوپوليس في معركة مع طاغيتها [ارسطوديموس Aristodemus] وترك امرأة حبلى. فنصب [ليونيداس] ابن [كليونيموس] المذكور آنفاً، وصياً. ولما مات الملك الصغير قبل ان يبلغ اشدّه، فقد خلفه على العرش.

لم يكن [ليونيداس] بالملك الصالح لشعبه قطّ. فمع الانحطاط الخلقي والاجتماعي الذي ساد اسپارطه آنذاك، وجد فيه صدود عن العادات والشرائع القديمة يزيد كثيراً عما لدى غيره. ولاغرو فقد عاش ردحاً طويلاً من الزمن بين سادة الفرس العظام، وكان من حاشية الملك [سلوقوس]، فركب متن الشطط والطيش، وعمد الى تبني تلك العظمة والفخفخة التي تعيشها تلك القصور الملكية في النظام الاجتماعي الأغريقي، واتخذ عين الأساليب في الحكم. وكان [آغيس] زميله في الملك - على درجة عظيمة من سمو الفكر وجمال الطبع لم يتفوق بها على [ليونيداس] وحده بل على كلّ الملوك الذين سبقوه منذ عهد [آغيسلاوس] الأكبر. لقد مترفاً منعماً في احضان امّه [آغيسيستراتا Agisistrata] وجدّته [ارخيداميا Ar-

chidamia] وكانتا اغنى اغنياء اللقيديميين. وقبل ان يبلغ [آغيس] العشرين من عمره، نبذ كل المتع الدنيوية، وابتعد بأقصى ما يمكنه عن الملذات والمظاهر الفخمة التي تبدو مناسبة لجماله. وراح يختال معتزاً بالمعطف الاسبارطي الخشن، ويتبع النظم اللاقونية القديمة في طعامه واغتساله وتمارينه. وكثيراً ما كان يردد: انه لايريد ان يجعل من الملك غاية، بل وسيلة تمكنه من احلال النظم والأساليب الاجتماعية التي كانت تسود البلاد في الماضي.

قد يصحّ ان يؤرخ اللقيديميون بداية انحطاطهم وتحللهم الخلقي بعد فتحهم آثينا مباشرة، وعلى أثر تدفق الذهب والفضة الذي أعقب ذلك. مع هذا فان عدد البيوت التي اثبتها ليكورغوس مازالت على حاله. كذلك القانون الذي أوجب على المورث ان يختلف لابنه كل ما لديه من مالٍ وارضٍ. وكان هذا يحقق نوعاً من الضبط والعدالة يسند الدولة الى حَدٍّ ما، وهي متخبطة في أمورها الأخرى. لكن [ايپيتاديوس Epitadaus] الايفور ذا النفوذ الكبير والطبع العنيف والروح الحاقدة، اراد ان يشفي غليله من ابنه العاق الذي كان مختلفاً معه فأقترح قانوناً، يمنح الجميع حرية التصرف بأراضيهم عن طريق الهبة، في حال حياتهم او بالوصية بعد موتهم دون اعتبارٍ للوارث فتمت الموافقة عليه بدافع الانانية. وقدر لهذا القانون ان يلحق الدمار بأفضل دول الكومنويلث نظاماً. اذ عمد الاغنياء بدون تحرج الى التصرف بعقارهم دون اعتبارٍ لورثتهم الشرعيين.

وبهذا تركزت الثروة في يد القلة وباتت الأغلبية معدمة لاتملك شيئاً. وأهملت المقاصيد النبيلة ولم يعد لها مكان في المجتمع الجديد. وساد الدولة حطة وغلب على شؤونها عقد الاغنياء وحسدهم، ولم يعد باقيا من الاسر السپارطية الأصلية أكثر من سبعمائة منها مائة فقط تملك الأراضي. والباقية فقدت الأرض والمنزلة الاجتماعية وغلب شعور العجز والعزوف عن الدفاع عند البلاد ضد اعدائها الخارجين وراح الجميع ينتظر بفروغ صبر بارقة تشير الى انقلاب او ثورة داخلية.

وجد [آغيس] ان اشرف ما ينبغي عمله هو اشاعة المساواة في البلاد وزيادة نفوسها بالتوطين. وكان في الواقع مصيباً في حدسه، فبدأ يستطلع آراء مواطنيه في ذلك. فوجد اللهفة والرغبة عن الشباب فوقما كان يتوقع، كانوا متحمسين الى مباراته في ميدان الخير والصلاح وفي سبيل الحرية كانوا على اتم الاستعداد لنبذ ما تخلقوا به وعاش فيه أكثر من استعداد المصارع لنزع ثيابه، أمّا كبارِ السنّ الذينَ تعودوا الترف وسائر الرذائل، وكانوا أكثر من غيرهم تشبثاً بتلك الحياة فقد كان مجرد اسم [ليكورغوس] يسلمهم الى القلق والخوف، مثلهم في ذلك مثل العبد الآبق الذي يقاد الى مولاه. لم يسع هؤلاء ان يسمعوا [آغيس]

منتقداً الحالة المؤسفة التي آلت اليها سبارطة ومتمنياً ان يستعيد مجدها السالف. ولكن [ليساندر] ابن [ليبيس LIBYS] و[ماندروكليداس Manrroclidas] ابن [اكفانس Ec-phanes] و[آغيسيلاوس] لك يكتفوا بالموافقة وانما شجعوا ومدوا له يد العون. كان [ليساندر] حائزا ثقة شعبية تامة وله نفوذه الكبير على الناس، ويعد [ماندروكليداس] أكفأ الاغريق في الادارة والتنظيم الى جانب الحذق والدهاء والجرأة والإقدام وآغيسيلاوس خال الملك، هو خطيب منوه، إلاّ انه جشع شهواني لا تأثير للمصلحة العامة على ضميره، ويظهر ان الفضل لحمله على هذا التشيع يعود الى ابنه [هيبوميدون Hippomedon] الذي أهلته بسالته وأعماله الفريدة، لاحتلال مكانة رفيعة، وكسب نفوذ كبير لدى شبان [سبارطه]. اما الدوافع الحقيقية التي حملت آغيسيلاوس على ممالأة آغيس فهي انه كان غارقاً في الديون، يأمل باصلاحات آغيس ان يتخلص منها.

وبعد ان ضمّ آغيس خاله الى صفه، دفعه الى كسب امّه، وكان لها اصدقاء وأشياع كثيرون، فضلاً عن مدينيها ومساهمتها الكبيرة في الشؤون العامة. غير أنها احجمت عندما فوتحت. واشتدت في نصح ابنها بالعدول عن هذا القصد العسير الذي لايرجى منه نفع، الاّ ان [آغيسيلاوس] زاد في مجهوده لاقناعها بأن المشروع ليس بالصعوبة التي تتخيلها. وانه اذا تحقق سيعزز مركز الأسرة على اية حال. وتوسل ابنها الملك بها ورجاها الاّ تقف عقبة ضدّ آماله وامجاده بسبب المال. وقال انه يعجز عن مساواة الملوك الآخرين في الغنى، لأن اتباع الولاة وخدمهم، ومدبري بيوت [سلوقوس وبطليموس] أكثر غنى من كل ملوك سبارطة مجتمعين. فاذا استطاع التفوق على ترفهم وغناهم بالبساطة والخلق الرصين واحتقار الغنى والملذات، ولو استطاع ان يشيع المساواة بين السبارطيين فيكون ملكاً عظيماً. وظلّ يضرب على هذا الوتر حتى راقت الفكرة للام والجدة وانتهى الأمر بهما الى التحمس لها والثناء على طموح الشاب النبيل. ولم تكتفيا بالموافقة بل أخذتا تدفعانه. ولم تقتصر جهودها على مفاتحة كل المرتبطين بهما وحثهم على مساندته، وانما توجهتا بالدعوة الى النساء، ليعلمهن ان الزوجات اللقيديميات يمارسن نفوذاً كبيراً على ازواجهن دوماً، فقد تعود هؤلاء أن يسارنهم بكل أمور الدولة الهامة، بصراحة تزيد عن صراحتهن عندما يحدثنهم عن أمورهنّ الخاصّة. كان هذا في الواقع اهم عقبة تواجه مشروعه فمعظم الأموال في سبارطة هي بيد النساء. واصلاحاته تجردهم لا في التوافه الماديّة وجدها وهي في عرفهن مصدر سعادتهن الرئيس، بل لمعرفتهم التامة بأن غناهنّ هو العامل الأساس لقوتهم ومكانتهن.

فهؤلاء الذين يريدون ابقاء ما كان على ما كان انحازوا الى ليونيداس واخذوا يدفعونه الى

ابداء المزيد من المعارضة قائلين ان واجبه وهو الاكبر سناً والأوفر تجربة، أحباط مشاريع هذا الشاب المندفع الأهوج. وكان ليونيداس بالأصل على خلاف شديد مع [آغيس] كتمه ولم يشأ اظهاره خوفاً من صولة الشعب الذي كان يصبو الى التغيير ويدعو اليه بصراحة. لكنه كان يعمل في السرّ بكل وسيلة لاحباط المشروع واضعاف الثقة بجدواه. وتحريض الحكام على الوقوف ضدّه. وكان لايترك مناسبة تفوقه الا وسفهه بمكرٍ ودهاءٍ كقوله مثلاً: «ان آغيس يقترح توزيع اراضي الاغنياء على الفقراء ثمناً لاغتصابه الحكم المطلق. وان الغرض من اجراءات الغاء الديون وتوزيع الأراضي ليس تزويد سپارطة بالمزيد من المواطنين وانما لشراء حرس خاصٍ للطاغية.

على كلّ لم يعر [آغيس] اهتماماً بكلّ هذه التخرصات، وعمل على انتخاب ليساندر ايغوراً. ثم اهتبل اول فرصة عن طريقه لتقديم مشروعه الاصلاحي Rhetra الى المجلس. وأهم مواده هي:

تلغى جميع الديون. كل الأراضي الزراعية توزع بمساحات متساوية فتلك التي تقع بين مجرى النهر قرب [پللينه Pellene] وبين جبل [تايگيتس Taygetus] حتى بلدتي (ماليا Malea) و(سيلاسيا Sellasia) تقسم الى اربعة آلاف وخمسمائة قطعة، أما بقية الأراضي فتقسم الى خمسة عشر الف قطعة، وهذه الأخيرة توزع على سكان الريف القادرين على الخدمة العسكرية في سلك المسلحين تسليحاً ثقيلاً. أما القطع من الصنف الأول فتوزع على المواطنين المولودين من ابوين سپارطيين، على ان يكون العدد شاملاً سكان الريف أو الاجانب الذين نشأوا نشأة صحيحة. اقوياء الاجسام وفي سن الخدمة العسكرية. ويقسم هؤلاء الى خمس عشرة كتيبة: بعضها يتألف من اربعمائة مقاتل وبعضها من مائتين. ويكون طعامهم وتدريبهم وفق المبادئ التي رسمتها شرائع ليكورغوس.»

قدم هذا المشروع «المجلس الكبار». فجوبه بمعارضة. فبادر ليساندر الى عقد جمعية الشعب الكبرى. وخطب فيها هو وماندروكليداس واغيسيلاوس. فأثاروا حماسة الجمهور. قالوا: انه لما يورث الأسى ان توضع عظمة سپارطه موضع اهمال وزراية ارضاءً لفئة قليلة من الاغنياء الذين لايرضون بأقل من استعبادهم. والاستبداد في امورهم. وعليهم ان يتذكروا النبوءات الغابرة التي كانت سباقةً بتحذيرهم من التعلق بالمال، لأنه الخطر الأعظم على سپارطه، والسبب المحتمل لخرابها. فيضاف اليها تلك النبوءات التي وردت مؤخراً من [پاسيفاي Pasiphae] (وهو هيكل شهير، ومهبط وحي يقع في [تالامي Thalamae]).

وعلى حدّ قول بعضهم ان [پاسيفاي] هي احدى بنات [أطلس] التي ولدت لجوپتر ابنه

[آمون]. ويرى آخرون انها [كساندرا] بنت الملك [پريام Priam] الذي ادركه الأجل في هذا الموضع فسمي پاسيفاي لأنه «كاشف» النبوءات «الجميع». ويقول [فيلارخوس Phylar-chus] بل هي [دافني Daphne] بنت [آمـــيكلاس Amuclas]. هربت من [اپوللو] فمسخها شجرة غارٍ. وشرفها الآله بنعمة التنبؤ أمرتهم بالعودة الى ما كانوا عليه من المساواة وفق النظام الذي ابتدعه ليكورغوس لهم.

بعد ان انتهى الخطباء الثلاثة، نهض آغيس وبعد كلمات قلائل قال: انه سيقوم بخير ما يسعه للأسهام في تطبيق الشريعة الجديدة التي انما وضعت لصالحهم. فاولاً سيوزع فيما بينهم كل الاراضي التي ورثها - وكانت ذات مساحات واسعة من الاراضي الصالحة للرعي والزراعة - وسيقدم لبيت المال العام ستمائة تالنت من النقد المصكوك. وانّ امّه وجدته واصحابه واقرباءه وهم أغنى اللقيديين مستعدون للاقتداء به.

وامتلأ الناس أعجاباً بكرم الشاب. وغمرتهم فرحة عظيمة. منها أن ملكاً جديراً باسپارطه يقوم بينهم بعد ثلاثمائة من السنين المجدبة. وزاد ليونيداس مقتاً ومعارضةً، لادراكه بانه سيكون هو واصدقاؤه، مرغمين على التخلي عن اموالهم في حين سينفرد [آغيس] بكلّ الفضل والمجد المتأتي معه. فنهض وسأل [آغيس] امام الجموع الحاشدة.

- ألم يكن [ليكورغوس] في رأيك - رجلاً حكيماً محباً لبلاده؟

أجاب [آغيس] «بلى». فتساءل [ليونيداس] بقوله:

- ومتى ألغى ليكورغوس الديون، ومتى منح الأجانب امتياز المواطنة، وهو الذي رأى ان سلامة الجمهورية لا تتحقق الا بتطهير المدينة من الأغراب بين الفينة والفينة.

فأجاب [آغيس]:

- لست أعجب ان اظهر [ليونيداس] قلة معرفة بليكورغوس وشرائعه فقد نشأ متزوج في الخارج واصبح والداً هناك. واتخذ زوجه من البلاط الفارسي. ان ليكورغوس اذهب الديون والقروض معاً بالغائه النقود كوسيلةٍ للتعامل. الحق يقال انه اعترض على وجود الاغراب عن عادات البلاد واخلاقها، لا لأنهم يضمرون سوءً بل لئلا تتسرب عدوى حبّ المال الى انماط معيشتهم فتتلحق بالاخلاق الرقيقة وتتقلب في احضان الترف. فمن المعروف جيداً انه رحبَ ببقاء كل من [ترپاندر Terpander] و[طاليس Tales] و[فريكيدبس Phercydes] وكلهم أجانب، مدركاً بأن فلسفتهم واشعارهم تنحو منحاه الفكري. وانت الذي تعودت مديح [اكپرپس Ecprepes] الذي قطع بفأسه وترين من

الاوتار التسعة في آله طرب الموسيقي [فرينيس Phrynis] ، ايام كان ايغوراً. وكذلك بمدحك عمل أولئك الذين احتذوا حذوه فيما بعد، فقطعوا اوتار قيثار [طيموثيوس Tio-motheus] فبأي وجه تلومنا على رغبتنا في وضع حَدّ نهائي للترف والإسراف والفخفخة في الجمهورية ؟ اتظنّ ان اهتمام هؤلاء الرجال كان منحصراً باوتار تلك العيدان بالذات، ام أنهم ينوون شيئاً أكبر واهم من ذلك؟ انهم يريدون ان يكبحوا في الموسيقي نفس الاغراق والتطرف الذي يسود حياتنا الحاضرة ووضعنا الاجتماعي. فقد دبت الفوضى فيهما واتلفت كل انسجام وتوافق في مدينتنا.

ومنذ تلك الساعة انحاز سواد الشعب الى [آغيس]، وانحاز الاغنياء الى صفّ [ليونيداس]. وأخذت الدهماء تضغط على [آغيس] ضغطاً شديداً بان يمضي قدماً في اهدافه. وبعد الرجاء والالحاف تمكن من اقناع مجلس الكبار الذي تتضمن صلاحياته اعداد القوانين التي يؤخذ فيها رأي الشعب بالاقتراع العام. ولما رفض المشروع بصوتٍ واحدٍ، عزم [ليساندر] ان ينتصف لذلك من [ليدانيداس]. فقدم بحكم منصبه تقريراً عنه بناه على مبدأين قديمين: الاول يقضي بمنع اي شخصٍ منحدر من نسل هرقل ان ينسل اولاداً من امرأة أجنبي. والثاني يعتبر من الجرائم الكبرى، تركُ اللقيديمي وطنه والعيش بين الأجانب. وأوكل ليساندر بعضهم لتنظيم الاتهام بينما خرج هو وزملاؤه «لمراقبة الاشارة». وتلك تقليد يمارسونه بالشكل الآتي:

يختار الايغور في كلّ سنةٍ تاسعة، ليلةً تنيرها النجوم، لا تشد بها غيمة ولا يضيئها قمر، فيجلس الجميع معاً هادئين صامتين لاهمّ لهم الاّ مراقبة السماء. فان شاهدوا شهاباً يخرّ، أعلنوا فوراً ان ملكهم قد ارتكب جرماً بحق احد الآلهة، فيعزلونه ويمنع عن ممارسة سلطاته حتى تحلّه من هذا القيد بنوءة مصدرها [دلفي] أو [اولمپيا].

وعاد [ليساندر] وأكد للشعب انه رأى شهاباً يخرّ من السماء. فطلب من [ليونيداس] في الوقت عينه، ان يتقدم دفاعاً عن نفسه. واحضر الشهود فشهدوا بأنه تزوج امرأة آسيوية، اعطاها اياها اعوان الملك [سلوقوس]، وقد ولدت له ولدين الاّ أنها لم تكن تطيقه حتى انه اضطر الى الفرار منها، وعلى هذا الأساس عاد الى [سپارطة] ولما مات سلفه دون عقب، تولى الحكم.

لم يكتف [ليساندر] بهذا وانما دفع [كليومبروتوس] الى المطالبة بالعرش. وكان من اعضاء الأسرة المالكة وختن [ليونيداس] ايضاً، وادرك [ليونيداس] الخوف من سوء العقبى فهرب والتجأ الى هيكل [منيرڤا ذات البيت النحاسي] تصحبه ابنته زوج [كليومبروتس] التي

قررت هجر زوجها واللحاق بأبيها وهو في محنته. طلب [ليونيداس] مرة أخرى فتمرد على الدعوة فعزلوه ونصبوا [كليومبروتوس] في محلّه.

بعد هذا التغيير انتهت فترة [ليساندر] فاعتزل منصبه وانتخبت دفعة جديدة من الايغورين الذين اسرعوا فأكدوا لليونيداس سلامته. واستدعوا كُلاً من [ليساندر وماندروكليداس] ليبررا عملهما في الغاء الديون ومباشرتهما تقسيما جديداً للأراضي. وشعرا بالخطر ماثلاً فالتجأ الى الملكين، وبينا لهما ان مصلحتهما وسلامتهما تتوقفان على اتفاقهما في اصدار القرارات، فتلك هي السبيل الوحيدة لتحدي الايغورين. لأن سلطة هؤلاء في الواقع تبدأ عندما يدبّ الخلاف بين الملكين فيصدران قرارات منفردة غير متوافقة. فاذ ذاك يباشر الايغور صلاحياتهم بترجيح كفة من يرونه اصلح الرأيين، اما اذا اتفق رأي الملكين في قضية، فلا أحد يجرؤ على مقاومة سلطتهما. فالمجلس الذي تتطلب وظيفته منه ان يقف حكماً بين الرأيين المختلفين لايحق له بالتدخل عند صدور رأي واحدٍ. بعد هذا خرج الملكان مع صدقانهما الى الساحة العامة وانتزعا الايغور من مقاعدهم، ونصبا اشخاصاً جدداً في محلهم. وكان من بينهم [آغيسيلاوس]. ثم سلحوا سرية من الشبان وأطلقوا عدداً كبيراً من السجناء، ودبّ الخوف في نفوس اشياع الحزب المعارض وقلقوا لمصيرهم. ولكن لم تسفك قطرة دم واحدة. بالعكس، عندما ادرك [آغيس] أن [آغيسيلاوس] أمر ثلةً من الجند بنصب كمين [لليونيداس] وقتله اثناء هروبه الى [تيغيا] ارسل تواً بعض اتباعه لحمايته وحراسته حتى وصوله المدينة بسلام. الى هنا سار كل شيء على ما يرام ولم يجرأ أحد على المعارضة. لكن هذه البداية الطيبة نسفت نسفاً لضعف نفسٍ بدر من شخصٍ واحدٍ فأنهدم المشروع وقضي على أنبل واصدق الغايات في سپارطة بسبب حبّ المال. قلنا أن [آغيسيلاوس] كان غارقاً في الدين، الاّ أنه كان يملك أكبر وافضل العقار. ففي الوقت الذي انحاز متحمساً مسروراً الى محبّذي المشروع الذي يضمن له الخلاص من ديونه، كره التخلّي عن ارضه. ولذلك عمل على اقناع [آغيس] بتأجيل الشق الثاني من القانون، اذ لو نفذ الشقان معاً فان التغيير العظيم المفاجيء قد ينجم عنه ثورة لاتبقي ولاتذر. لكن لو بدىء بالغاء الديون اولاً فسيكون من السهولة بمكان حمل الأغنياء على التخلي عن اراضيهم. ونجح أيضاً في حمل [ليساندر] على اعتناق فكرته، وخدعه بمكره كما خدع آغيس فأمر كل دائن باحضار سنداته ووثائقه التي تدعى [كلاريا Claria] عند اللقيديين، الى الساحة العامة، وكدست كلّها واشعلت النار فيها. ولم يكن بالمستغرب ان تجد الاغنياء المرابين يرمقون المشهد بقلوب اثقلها الألم، على أن آغيسيلاوس قال هازئاً، بأن عينيه لم تقعا على لهيب أنقى واسطع من هذا اللهيب.

وزاد الشعب لجاجةً والحف في اجراء توزيع فوري للاراضي، فأمر الملكان باجراء ذلك، إلاّ ان [آغيسيلاوس] أخذ يتعلل بهذه العقبة او تلك وأخرّ تنفيذ القانون الى أن نجم ما دعا [آغيس] الى الخروج للحرب. فقد استنجد [الآخائيون] باسپارطة بمقتضى معاهدة التحالف الدفاعية المعقودة بينهما. لتوقعهم المستمر محاولة من [الايتوليين] لدخول [الپيليپونيسيس من اراضي [ميغارا] وكانوا قد ارسلوا جنرالهم [اراتوس] لتعبئة القوات والحيلولة دون الهجوم وكتب [اراتوس] الى ايغور سپارطة فأصدر هؤلاء امراً يقضي باسراع [آغيس] لمعاونته بالاحتياطي اللقيديمي وسرّ [آغيس] سروراً لامزيد عليه للاقدام والحماسة اللذين ابداهما افراد حملته. كان معظمهم شباباً فقراء، تخلصوا من ديونهم وتحرروا وكانوا يأملون ان يحصلوا جميعاً على قطع اراضٍ عند عودتهم. ولذلك ساروا خلف ملكهم بشوق وحمية. وكان أهالي المدن التي يمرون فيها لايتمالكون انفسهم من الاعجاب بسيرهم من اول نهاية [الپيليپونيس] الى آخر نهاية، دون ان يختل نظامهم، أو تبدر منهم ضوضاء او حتى صوت ان جاز لنا القول. فتذكر الأغريق بهم، الجيش اللاقوني العتيد، من الايام الغابرة الذي كان يضرب بتواضعه وبساطته المثل تحت أمرته قادته العظام: آغيسيلاوس، او ليساندر، أو ليونيداس فلاغرو ان كان آغيس موضع اعجاب وتقدير، فهو قائد هذا الجيش وربما اصغر رجل فيه، يأخذ نفسه بالحزم والتقشف ولايحجم عن أي عملٍ، ولايفترق بأية ميزة من الغنى أو العظمة ان كان في سلاحه أو ثيابه أو تصرفاته - عن افقر جندي في جيشه، الاّ ان الاغنياء راحوا ينظرون الى هذا التحول الجديد نظرة قلق وقعتٍ، ولم يستبعدوا من ذهنهم فكرة انتشار هذا النظام الجديد، الذي سيحدث عند دخوله بلادهم تغييراً عظيماً في أحوالهم.

انضم جيش [آغيس] الى قوات [اراتوس] في مدينة [كورنث]. ودار نقاش حول الخطة، هل يتم الاشتباك بالعدوّ الآن، أم بفضل التريث؟ وهنا أيضاً ابدى [آغيس] جراءة وحصافة عظيمين، خاليين من الضرور او التهور اذ قال أنه يفضلّ أن يشتبك قواتهما مع العدو، فهذه هذا لوسيلة الوحيدة لمنعه من اجتياز مداخل [الپيلوپونيسس]، الاّ أنه يستطيع اوامر [اراتوس] لا لكونه القائد الأكبر سناً والاكثر تجربةً، بل لأنه جنرال [الاخائيين] الذين لايملك هو حق قيادتهم، لأنه جاء لنجدتهم فحسب، أقول هذا ولا أغفل رواية [باتون Baton] السينوبي الذي زعم ان [اراتوس] كان يحبذ القتال، لكن آغيس عارض في الأمر، مؤكداً ان ما اوردته هو الصحيح، ورواية [باتون] لقراره اذ قال: انه اتخذ القرار لحلول موسم الحصاد. فوجد الأفضل ان يدع العدوّ يمرّ من ان يجازف بكلّ شيء في معركةٍ واحدة. فردّ قوات الحلف شاكراً. وعاد [آغيس] بمجد ليس بالقليل فوجد الفوضى عامة، والثورة المعاكسة الجديدة

وشيكة، بسبب سوء ادارة [آغيسيلاوس]. فقد تحرر هذا من الخوف الذي كان يكبح جماحه الى حدٍّ ما بعد تخلصّه من ديونه ولم يعد يتعفف عن ممارسة اي نوع من الضغط والارهاب ان وجد فيه مغنماً. ومما اقدم عليه انه جبى ضريبة الشهر الثالث عشر في حين ان دورة العام كانت دورة بسيطة لاتستدعي زيادة الشهر الكبيس. لهذا ولغيره من الاسباب ولخوفه ممن لحقه اذى منه ولمعرفته بمدى كره الشعب له، ورأى الاّ معدى له من احاطة نفس بحرسٍ شاكي السلاح يلازمه في دار الحكم دوماً، وطغى وبغىّ وتجبرّ حتى بلغ الحدّ الذي تطاول معه على الملكين فجاهر بتحقير اولهما، اما اذا أظهر قليلاً من احترام للآخر فهو يعود الى صلة القرابة التي تربطه به لا الى الاحترام والخضوع الواجبين لسلطة الملك. ثم انه أعلن عن استمراره في اشغال منصب الايغور عاماً آخر. فزاد اعداؤه قلقاً لذلك، ولم يضيعوا وقتاً في حبك مؤآمرةٍ تستهدف القضاء عليه، واستقدموا [ليونيداس] من [تيغا] علناً واعادوا نصبه ملكاً برضا الشعب نفسه الذي كان ساخطاً لأنه انخدع بوعد توزيع الأراضي. وكاد [آغيسيلاوس] يلقى حتفه في تلك الفتنة لولا أن خفّ اليه ابنه [هيپوميدون Hippomedon] الذي ينزله الشعب منزلة حُبّ وتقدير فأنقذه من أيديهم ورحّله سراً. وهرب الملكان ايضاً، ولجأ [آغيس] الى هيكل [منيرڤا ذات البيت النحاسي]، واستجار [كليومبروتوس] بهيكل [نپتون]. وكان [ليونيداس] أشد حنقاً على ختنه هذا، منه على [آغيس]، فترك الأخير لشأنه وقصد حَرَم كليومبروتوس بثلة من الجنود وأخذ يعنفه بشدة وغضبٍ - على ما قدمت يداه، وهو زوج بنته، من التآمر عليه مع اعدائه واغتصاب عرشه وارغامه على ترك بلاده.

كانت [خيلونيس Chilonis] زوج [كليومبروتوس] قد آثرت العيش مع ابيها في منفاه بعد ان أغتصب زوجها الملك منه، فتركت الزوج واوقفت نفسها على العناية بأبيها والتسرية عنه في محنته، وفي اثناء فترة لجوئه الى المعبد في سپارطة بقيت معه في حمى الآلهة، وهربت معه نادبة سوء حظّه، ساخطة على [كليومبروتوس]. فلما قلب الحظّ لزوجها ظهر مجنّه، أنقلبت هي الأخرى على ابيها ولحقت بزوجها. فكانت تشاهد جالسة معه في حَرَم المعبد وقد لفت ذراعيها حول عنقه وطفلاها الى جانبها فأمتلأ الناس اعجاباً بحنان هذه الشابة ووفائها. وقالت لابيها مشيرةً الى شعرها وثوبها المهملين.

- اني لم أبلغ الى هذه الحال التي تراني فيها يا أبت بسبب ما يعاني [كليومبروتوس] من شقاء. فحزني وحدادي أصبحا عادةً في منذ أمدٍ بعيد. لقد عانيتهما لأسري عنك في منفاك. والآن وقد عدت الى بلادك والى ملكك، أُكتب علي ان أبقى شقية حزينة؟ لعلك تريدني ان ارتدي الثياب الملكية وأسعد معك بعد ان تقتل بين ذراعيّ الرجل الذي قبلته

لي زوجاً. فإما أن يهدأ غضبك على [كليومبروتوس] بدموعي ودموع طفلي. واما ان يقاسي عقاباً يفوق ذلك العقاب الذي فرضته على اخطائه. سيراني - تلك التي أخلص لها الودّ - اموت امامه الآن. لأي غاية أعيش، وكيف سأظهر بين السپارطيات؟ كيف سيستقبلون المرأة التي عجزت عن الانة قلب أبيها أو زوجها؟ يبدو اني ولدت لا شارك في سوء حظين، حظ الزوجة وحظّ البنت وهما أقرب الناس اليّ. وامّا عن [كليومبروتوس] فقد ابديت عجزي التام عن الاعتذار النبيل بسبب غلطته، عندما تركته ولحقتُ بك. الاّ أنك انت تعطيه الآن أفضل عذر لزلته، حينما يرى المعالم انك تقتل زوج ابنتك بسبب مملكة - ولا تراعي لها حرمة».

انهت [خيلونيس] كلامها الحزين واسندت وجهها الى رأس زوجها راحت تقلّب عينيها الدامعتين المتقرحتين في الناس الشاخصين أمامها. فمست عاطفة البنوة شغاف قلب [ليونيداس] وانسحب برهةً للتشاور مع صدقائه، ثم عاد بعدها وطلب من [كليومبروتوس] ترك الحَرَم ومغادرة البلاد، على أن تبقى [خيلونيس] الى جانبه اذ ليس من العدل ان تترك أباً بلغ من حبه لها أن قبل شفاعتها في زوجها وابقى على حياته. لكن ما قاله لم يقنعها. فنهضت وحملت أحد طفليها وأعطت الثاني زوجها ثم تلت صلاةً على مذبح الآلهة. وخرجت في اثر ابيها. مجمل القول: لو لم يَعِمِ الطموح عيني كليومبروتس لاختار بدون شكّ ان ينفى مع هذه المرأة الوفية على الملك بدونها.

بهذا تم خلع [كليومبروتوس] وازاحته، وبعده باشر [ليونيداس] بعزل جماعة الايغور واختيار آخرين. ثم بدأ يفكر في القضاء على [آغيس]، فحاول اولاً اقناعه بوسائل شريفة بان يترك الحَرَم المقدس، ويشاركه في الملك، قائلاً ان الشعب سريع الصفح عن زلاّت الشباب الطامح الى المجد، المخدوع باحابيل [اغيسيلاوس]، الاّ انه وجد [آغيس] شديد الارتياب، لاتنجع معه اية محاولة في اخراجه من (حَرَمَه) فنبذ هذه الفكرة على ان ما تعذر تحقيقه بشعبذة عدوٌ، تمّ انجازه بخيانة صديق كان [امفاريس Amphares] و[داموخاريس Damo-chares] و[اركيسيلاوس Arcesilaus] يختلفون الى زيارة [آغيس] وكان عظيم الثقة باخلاصهم حتى انه بعد فترة من الزمن وافق على مصاحبتهم الى الحمامات قريبة من الهيكل فيرافقونه عند عودته، هؤلاء الثلاثة كانوا من اعزّ صدقانه وكان اولهم [امفاريس] قد استعار من [اغيسيستراتا] ام آغيس عدداً كبيراً من الصحاف والاواني الثمينة وغيرها من ادوات المنزل وكان يأمل ان يتملكها ان افلح في القضاء على الأم والحاق الاسرة كاها بها، فهو

والحالة هذا اكثرْ الثلاثة تقبلا لاغراء [ليونيداس] واسرعهم لخدمة اغراضه. وبوصفه واحداً من الايغور فقد بذل مجهودات كثيرة مع زملائه لينقلوا على [آغيس]. وقد وجد الثلاثة ان [آغيس] لايترك حَرَمه، الاّ عند ذهابه الى الحمام. فقرروا ان يقبضوا عليه خلال هذه الفسحة من الزمن. وفي يوم ما التقوه وهو عائد، فحيوّه كما كانوا يفعلون عادة، وتبادلوا الاحاديث اللطيفة وهم سائرون وتراشقوا بالنكات والفكاهات كما تفعل ثلة من الشبان الخِلان حتى بلغ السير بهم منعطف الطريق المؤدية الى السجن. فما كان من [امغاريس] الاّ ان وضع يده على آغيس وقال: مستخدماً صلاحية الايغور:

- عليك ان تتبعني يا آغيس، لتمثل امام الايغور الآخرين وتجيب عمّا قدمت يداك من مخالفات.

في الوقت نفسه شدّ [داموخاريس] طرف معطف [آغيس] حول عنقه وجرّه به وكان عملاقاً شديد القوة، بينما سعى الآخران وراءهما، يحثثان [آغيس] ولم يكن أحد من اصدقاء [آغيس] قريباً بله لم يكن ثم انسان. فسهل عليهم ايداعه السجن. وكان [ليونيداس] قد حضر قبلهم ومعه سرية من الجند. وزعت على كل الطرق والأزقة القريبة. وجاء جماعة الايغور ومعهم أكبر عدد من [الكبار] الذين يثقون بهم فقد رغبوا في يبدو على موآمرتهم مسحة من العدالة. وطلبوا من [آغيس] تقديم حساب عن أعماله فأبتسم لنفاقهم هذا وريائهم ولم يجب بحرف فقال له [امغاريس]:

- من الأجدى بك ان تبكي فقد آن اوان القصاص على غرورك واعتدادك بنفسك.

وانبرى [ايغور] آخر محاولاً ان يبدو أكثر رأفةً وعرض عليه سؤال من يريد ان يتلمس له عذراً. قال:

- لعلك أرغمت من قبل آغيسيلاوس وليساندر؟

فأجاب آغيس: انه لم يقع تأثير احدٍ. ولم يكن قصده مما عمل غير الاقتداء بليكورغوس، وممارسة الحكم الصالح بتطبيق شرائعه. فسأله الايغور:

- ألست نادماً على الأقل ولما بدر منك من نزقٍ وخَرَق فأجاب [آغيس]:

- لست استسيغ الندم قطّ على قصد مجيد نبيل عادل كمقصدي، مع اني متأكد بأن الموت في انتظاري.

فصدروا عليه حكمهم بالموت، وامروا الحرس باقتياده الى [الديخاس Dechas]وهو موضع في السجن يتم فيه تنفيذ حكم الموت شنقاً بالمجرمين. وعندما امتنع الضباط من وضع ايديهم

عليه وابى الجنود المرتزقة ذلك بدورهم، معتقدين أن التطاول على ملك هو عمل دنيء يخالف المبادئ الشرعية أخذ [ديموخاريس] يتوعد ويشتم. ثم دفع [آغيس] بيده الى الغرفة.

في اثناء ذلك عَمّ المدينة نبأ أعتقال الملك. فتجمعت فصائل من المواطنين وهرعوا الى السجن وبأيديهم المشاعل والمصابيح ووقفوا عند الابواب تتوسطهم أم [آغيس] وجدته وانطلقت الاصوات عالية تطالب باخراج الملك اليهم، وبالسماح له بالدفاع عن نفسه امام الشعب في محاكمة علنية. الاّ أن هذه الضجة عجلت بموته بدلاً من أن تحول دونه. فقد تملك الخوف خصومه من تفاقم الأمر، ومن احتمال انتزاعه من أيديهم اثناء الليل. والتفت [آغيس] الذي كان على شفا الموت - فرآى أحد الضباط يبكي حظه بكاءً مراً فقال له:

- لا تبكيني أيها الخِلّ انا الذي سأموت بريئاً، بفعلة نكراء أقدم عليها شرّ الناس. فحالتي هي أفضل من حالتهم بكثير.

ثم أسلم عنقه للمشنقه دون ان يبدو عليه أثر للخوف والارتباك. وبعد ان أسلم الروح، خرج [أمغاريس] من باب السجن فوجد اغيسيتراتا فأقبلت عليه، مؤقتة بأنه مازال ذلك الصديق الصدوق لابنها، وخرت على قدميه ضارعةً، فأنهضها برفق وأكد لها بالاّ داعي لقلقها على ابنها، وان شاءت فلا مانع ثم يحول دون دخولها لرؤيته. فطلبت ذلك لأمها ايضاً فأجاب بالا مانع ايضاً. وما ان دخلتا حتى امر باغلاق باب السجن. وسبقت اليه [ارخيداميا] وكانت عجوزاً دردبيسا، عاشت حياتها كلها متمتعة بالاحترام ورفقه المقام بين قومها. وما أن قدرّ [امغاريس] أنها قضت، حتى أشار الى [اغيسيتراتا] بالدخول ان شاءت. فطالعها جسد ابنها مسجى على البلاط، وامها تتدلي مشنوقة. فكان اول ما صنعت انها مدت يدها لمساعدة المنفذين على انزال جثة امها، ثم غطت وجهها واسحبتها الى جانب جثة ابنها قائلة وهي تعانقه وتلثم وجنتيه:

- آه يا بني. ان شفقتك العظيمة وطيبة قلبك الفائقة هي التي جلبت لنا ولك الدمار.

كان [امغاريس] واقفاً يرقبها من خلف الباب فانفجر غاضباً وصاح:

- مادمت تقرين اعمال ابنك فمن الاجدر ان تقاسيه مصيره فنهضت ومدت عنقها وهي تقول:

- آمل ان يكون هذا الفداء لصالح سبارطة.

وعرضت الجثث الثلاث للملأ. وتبدت الحقائق وهتك السرّ، ولم يكن ثمّ خوف على درجة من القوة بحيث يمنع الناس من الاعراب عن فرط تقززهم واشمئزازهم والتصريح بكرههم

لليونيداس وامغاريس محور المؤآمرة. كان عملاً وحشياً لم تشهد سپارطة مثله منذ ان سكن [الدوريون Dorians] ارض الپيلوونيس. وقال السپارطيون أن الاعداء أنفسهم يتحرجون من سفك دم ملك لقيديمي، فينكصوا عنهم ويتحاشوهم في اثناء المعارك، يدفعهم الى ذلك شعور الاحترام والتوقير. ونحن في الواقع نجد انه لم يقتل من ملوكهم في سوح المعارك الكثيرة التي خاضتها سپارطة مع سواهم من الاغريق منذ تأريخها الأول حتى عصر فيليب المقدوني غير [كليومبروتوس] الآخر الذي قتل بطعنة رمح في موقعة [ليوكترا]. واني لا أجهل تأكيد المسينيين بأن [ثيومپوپوس Theompopus] قتل بيد قائدهم [ارسطو مينوس -Aristo menes] الا ان اللقيديميين ينكرون ذلك قائلين: بل جرح فحسب.

لكن تلك هي مشيئة الاقدار. ومما لاريب فيه ان [اغيس] هو أول ملك ينفذ فيه الايفور حكم الموت في لقيديمون لمحاولته تطبيق شريعة نبيلة بذاتها قمينة بمواطنيه قتل في زمنٍ كانت احظاء البشر تقابل عادة بالسماحة والغفران السريع. فان كان [آغيس] مخطئاً حقاً فان لوم خصومه له كان يجب ان يكون أقل من لوم اصحابه؛ بسبب ذلك الطبع السمح النبيل والشعور المرهف الذي دفعه الى انقاذ حياة قاتله [ليونيداس]. وبسبب ايمانه ايضاً بطيبة الناس الآخرين.

١٩٧٢/١/٢٣



« منيرفا »

كليومينس

CLEOMENES

235 – 222

تلك هي حكاية سقوط [آغيس]

كان أخوه [ارخيداموس] أسرع من [ليونيداس] فأنقذ حياته بالفرار في اللحظة المناسبة. ألاّ انه ترك وراءه [آغياتيس] زوجه مع طفلها. فأجبرها [ليونيداس على ترك دارها وارغمها على الزواج من ابنه [كليومينس] وكان في ذلك الوقت اصغر من ان يصلح للزواج، اذ كان لايريد أن يحظى بها آخر، لأنها ورثت اموالاً وضياعاً واسعة من ابيها [غيليپوس Gpli-pus]. وكانت اجمل نساء بلاد الأغريق وأكثرهن جاذبية وفتوةً واعلاهن خلقاً. لذلك قالوا انها بذلت جهداً كبيراً لتفادي هذا الزواج الاجباري. فابغضت ليونيداس بعد اتمام العقد، وأظهرت للزوج الجديد الفتيّ لطفاً وامانةً. وما ان عرفها حتى علق بها وهام بها حباً. واشربته نفس العطف الدائم الذي كانت تكنّه [لآغيس] فأخذ يكثر من السؤال والاستفسار عما وقع له، ويصغي بانتباه شديد الى مأساته وغاياته واهدافه. وشبّ الفتى بروح سمحاء وخلق رضيّ. وبدا كآغيس في اعتداله وقصده عن المتع. الاّ انه لم يكن بمثل نبله وشكه وحذره. كان ثم شيء من الحرارة والاندفاع ينخسانه نخساً دائماً، وكان ثم عنف ونفاذ صبرٍ في شوقه الى كل ما يراه عادلاً وحسناً. ومن رأيه ان اخلاص الرجال وولاءهم بملء اختيارهم هو خير ضابطٍ لهم. لكنه كان يرى ان سحق منادمتهم وارغامهم على سلوك السبيل الفضلى. هي من الشجاعة على جانب كبير ومما يستحق التقدير.

طباعه هذه، جعلته كارهاً لنظام الحكم في المدينة. فالمواطنون سادرون في لهوهم وعيشهم الخامل المكسال. والملك في شغلٍ شاغل عن تبعات الحكم، تاركاً للأمور حبلها على غاربها، متمنياً الاّ يقلق راحته أحد بواجب او يشغله عن ملذاته واستمتاعه بغناء عملٌ جُدّي. وتطرق الاهمال الى المصالح العامة وراح كل مواطن يجرى وراء منافعه الخاصّة. وبعد قتل [آغيس] بات التلفظ بكلمات «التمارين، وتدريب الشبان، والضبط» وما شاكل، من الخطورة بمكان. وأما الحديث عن التقشف وترويض النفس على الاعتدال، وعن المساواة والتحمل فكان اشبه بارتكابك جريمة الخيانة العظمى ضدّ الدولة.

ولقد قيل ان [كليومينس] تلقى الفلسفة في صبا. من [سفيروس Sphærus] [البوريستنيني Borystenite] الذي أجتاز البحر الى سبارطة وقضى ثم ردحاً من الزمن معانياً المشقة في تعليم الفتى ونهذيبه. وهو أحد اوائل تلاميذ [زينو] [الكيتي Citiean]. والأرجح انه أعجب برجولة كليومينس فالهب طموحه. ويروى عن [ليونيداس] الأول، انه سئل عن رأيه في شعر [تيريتوس Tyrtaeus] فأجاب:

- انه يصلح لشحذ شجاعة الشبان.

ذلك لأنه اشعاره تملأ نفوس بحرارة النار الآلهية فتراهم يندفعون غير مبالين بأي خطر. كذلك الفلسفة الرواقية، فهي مهيج شديد للطبع الناري القوي. فاذا مازجّها الهدوء والرقة اصابت غاية النجاح في هداية المرء الى الصالح والطيب من الأعمال.

خلف [كليومينس] اباه [ليونيداس] بعد وفاته. فوجد الفجور والتحلل مستولين على نفوس المواطنين عموماً: فالأغنياء لايكترثون بالمصلحة العامة، وهم عنها في شغل بمصالحهم الخاصة ولذاذاتهم. والفقراء قد ركبهم الشقاء، قابعون في بيوتهم وقد فقدوا الروح القتالية وعافوا التمارين والانظمة السبارطية عماد حياتهم الاجتماعية، والملك، لايملك من الملك غير اسمه والايغور قد حصروا السلطة كلها في ايديهم. فعزم ان يغير هذه الحال تغييراً تاماً. واختلى بصديقه الخليل [كزيناريس Xenares] (عاطفة صداقة بهذه يعبر عنها السبارطيون بكلمة ملهم، أو الحَالّ فيه) وكاشفه بعزمه وأخذ يستوضح منه عن آغيس. ويسأل اي نوع هو بين الملوك؟ وبأي الوسائل توسل، وبماذا استعان للبدء في تنفيذ اهدافه ومراميه؟ في اول الأمر بادر [كزيناريس] الى تلبية طلب صديقه بسرور، وقص عليه قصة آغيس بتفاصيلها وعواقبها وظروفها. ولما وجد [كليومينس] شديد التأثر بما يسمع، مرهفاً سمعه الى حديثه عن نظام الحكم الجديد الذي ابتدعه آغيس، ملحاً عليه باعادة الكلام؛ أخذ يؤنبه تأنيباً شديداً ووصمه بالجنون. ثم ازورّ عنه واجتواه، لكنه لم يخبر أحداً بسبب الجفوة وكان يقول فحسب:

- سلوا كليومينس فهو أعرف بالسبب.

وأعتقد [كليومينس] ان الجميع على شاكلة [كزينارس] في صدودهم عن اهدافه، فسكت ولم يبح بسرّه لأحد. وانما بدأ ينظم خططه ويتدارس مشاريعه في نفسه وقد استقّر رأيه بأن الانقلاب الذي اعتزمه هو أسهل تنفيذاً عندما تكون المدينة في حالة حرب منه عندما تكون في حالة سلم. فعمل على استحداث خلاف بين الدول الاغريقية وبين الآخائيين الذين زودوا تلك الدول بالمبررات الكافية للشكوى. كان [اراتوس] وهو أعظم الرجال قوة وشوكة بين كل

الاخائيين، يريد ان يوحدّ كل بلاد [اليلوپونيسيس] وقد نذر لهذا الغرض حياته السياسية الطويلة، والقيادات العديدة التي تولاها. اذ وجد ان الوحدة السياسية هي انجع وسيلة للم شعثهم وجعلهم قوة يعتد بها امام اعدائهم. وقد اتفقت كلمتهم تقريباً على تحقيق تلك الوحدة خلا اللقيديميين والاليائيين والقسم الذي يعتمد المصالح السپارطية من الاركاديين فهؤلاء لم يتفقوا. وما ان قضى [ليونيداس] نحبه، حتى شرع [اراتوس] بمهاجمة الاركاديين وراح يعيث نهباً وسلباً في بلادهم، ولاسيما الجزء الذي يتاخم [آخائيا]. كان يحاول بهذا، جسّ نبض السپارطيين مستهيناً [بكليومينس] لكونه شاباً يافعاً ليس له حظّ من التجارب لا في السياسة ولا في الحرب.

أرسل الايفور [كليومينس] لمفاجأة الآثينيين قرب [بلبينا Balbina] وهو شعب جبلي يشرف على مداخل [لاقونيا] وكانت ملكيته آنذاك موضع نزاع بينهم وبين [الميغالوپوليتيين] فأحتله [كليومينس] واقام عليه التحكيمات. فلم يبد من [اراتوس] مايدل على استيائه لكنّه زحف ليلاً لمباغتة [تيغيا] و[ارخومينوس Orchomenus] الاّ ان خطته هذه أصيبت بالاخفاق لجبنٍ واحجام ساور أولئك الذين تفاهم معهم على تسليم المدينتين له غدراً، وانسحب معتقداً ان عمليته هذه مرت دون أن يكشفها أحدٌ الاّ ان [كليومينس] كتب اليه رسالة يسخر فيها منه متسائلاً الى اين يريد السرّى ليلاً؟ وطالبا ان يعلمه بوصفه صديقاً له! فأجاب [اراتوس] انه عزم ان يتوجه اليه ويقاتله بعد ان سمع عن نيته في تحكيم ممر [بلبينا]. فردّ [كليومينس] بقوله: لا اعتراض له على ذلك لكنه يرجو منه الاجابة ان سمح له بالسؤال - لماذا كان يحمل معه المشاعل والسلالم؟

فضحك [اراتوس] للنكة وسأل عن الشاب أي نوع من الشباب هو؟ فأجاب [داموقراطس Damocrates] وهو سپارطي منفيّ:

- إن كنت قد اعتزمت شيئاً ضد اللقيديميين فأسرع به، قبل ان يستنسر البُغاث وتطول نخالبه.

بعد هذا مباشرة، عسكر [كليومينس] في اركاديا بقليل من الخيالة وثلاثمائة من الرجالة. وهنام تسلم من الايفور أمراً بالعودة، خشية ان يشتبك في قتالٍ وفي اثناء رجوعه استولى [اراتوس] على [كافياي Caphyae]. فأمروه بالعودة من حيث اتى وفي طريقه استولى على [ميثيديوم Methydium] واجتاح بلاد [الارگيف] فأنبرى له الاخائيون بعشرين ألفاً من الرجالة والفٍ من الخيالة يقودهم [ارسطوماخوس Aristomachus] فالتقاهم كليومينس في [باللانتيوم Pallantium] وأخذ يتعرض لهم. واوقعت جسارته الخوف في قلب [اراتوس] فمنع جنراله من الاشتباك معه واشار عليه بالتقهقر متعرضاً لوابل من تقريع الآخائيين وشماتة

السپارطيين الذين لم تزد قواتهم عن خمسة الآف . وشدد هذا النجاح من عزيمة [كليومينس]، وراح يتكلم بين مواطنيه بجرأة مذكراً اياهم بمقولةٍ لأحد الأولين وعقب عليها: «من العبث الآن أن لايسأل السپارطيون كم كان عدد اعدائهم بل اين هم؟». ثم سار بعد هذا النجدة الاليائيين الذين كانوا يتعرضون لهجمات الآخائيين، فأنقضّ عليهم وهم يتراجعون بالقرب من [ليقيوم Lycaeum] واوقع الهزيمة الشنعاء بكامل جيشهم وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، وخلف كثيراً من قتلاهم في ميدان القتال، حتى انتشر بين الاغريق ان [اراتوس] بين القتلى. لكن [اراتوس] استثمر الشائعة على خير وجه فزحف بعد الهزيمة مباشرة الى [مانيتنيا] واستولى عليها بسرعة خاطفة قبل ان يشعر أحد بما حصل. ووضع فيها حامية. فأنحطت معنويات اللقيديين كثيراً بهذا الخذلان. وعارضوا في قرار [كليومينس] بمواصلة الحرب. فلم يكن منه الاّ أن أستدعي [ارخيداموس] شقيق [آغيس] من [مسينيه Messene] ليتبوأ العرش معه باعتباره من اعضاء الاسرة المالكة الثانية، وقصده من هذا اضعاف سلطة الايفور بملء الشاغر في العرش واكمال سلطة الملك، فأستولى الخوف على أولئك الذين شاركوا في القضاء على [آغيس]، لئلا يطلب منهم تقديم الحساب على فعلتهم بعد قدوم [ارخيداموس]. وخرجوا بصورة مكتومة لاستقباله عند دخوله المدينة ورافقوه مع المرافقين الى داره، وهناك قتلوه. ولم يتأكد - على رأي [فيلارخوس] أن [كليومينس] كان ضدّ هذه الفعلة. ام انه تركه سائباً بين ابديهم. ام أن صحبه أقنعوه باطلاق يدهم فيه، وعلى اية حال فأعظم الذنب يقع عليهم لأنهم أرغموه على الموافقة.

وبقي مصراً على أجراء تغيير في النظام السياسي، وعمد الى رشوة الايفور ليرسلوه على رأس حملة عسكرية. كما فاز بودّ الكثيرين بمساعي امه [كراتيسيكليا Cratesiclea] التي لم تبخل بجهد في سبيل تحقيق مطامح ابنها. ومع انها كانت عزوفاً عن الزواج، لكنها في سبيله قبلت الزواج باحد أكبر شخصيات المدينة غنى ونفوذاً.

وخرج كليومينس يقود جيشاً اسپارطياً فأستولى على [ليوكترا] وهو موضع من بلاد [ميغالوپوليس] فأسرع الآخائيون لصده بقوات كبيرة تحت أمرة [اراتوس] فأشتبك الجيشان تحت اسوار المدينة نفسها، فأندحر قسم من جيش [كليومينس] وأمر [اراتوس] الآخائيين بان يقفوا عند مجرى النهر العميق ولايعبروه وبذلك تتوقف المطاردة. الاّ ان هذه الأوامر اغاظت [ليدياداس Lydiadas] الميغالوپوليتي، قائد الخيالة، فعصيها وحث خيالته فعبرت النهر معقبة العدوّ المنهزم، ودخلت ارضاً يملأوها الكرم والسواقي والأخاديد فدبت الفوضى في صفوفها واضطر الى التقهقر دون انتظام. وكان [كليومينس] يتابع الموقف فوجده قد انقلب

لصالحه واصدر أمره الى التارنتيين والكريتيين بالكرّة عليهم فهزموهم بعد دفاع مجيد وقتل قائدهم. فأرتفعت معنويات اللقيديميين وأشتدت عزائمهم وانقضوا على الآخائيين وطلقين صرخة عظيمة فهزموا الجيش بكامله. وكان عدد القتلى ما عدا جثة القائد [ليدياداس] فقد أمر باحضارها ولفّها بثوب ارجواني وتوج هامتها وأرسلها مع حرس خاص حتى ابواب ميغالوبوليس.

تلك هي نهاية [ليدياداس] الذي تنازل عن سلطات الطاغية بملء أختياره وأعاد للمواطنين حرياتهم وضمّ مدينته الى وحدة الحلف الآخائي.

تاه [كليومينس] عجباً بنفسه لنجاحه هذا، ومال الى الظن بأنه سيصبح اشدّ خصوم الآخائيين خطراً وبأساً لو أجتمعت السلطة كلها في يده. فمال الى زوج امه [ماغستونيس] واقنعه بان مصلحة الدولة تستوجب تصفية سلطات الايفور، وجمع الاموال الخاصّة كلها في بيت مال مشترك عام. وبذلك تعود سپارطة الى سابق عهدها من المنعة وتعمها المساواة وتتبؤا مجدداً مكانتها الأولى في قيادة بلاد الاغريق كلها. فراقت الفكرة لماغستونيس] وحصل على تأييد اثنين أو ثلاثة من صحبه.

في حدود تلك الايام كان أحد الايفور نائماً في هيكل [پاسيفلي] فرآى حلماً غريباً جداً. خيل له انه شاهد اربع كراس ترفع من الموضع المخصص لجلوس الايفور عندما يباشرون اقضيتهم، وان شخصاً واحداً جلس في محلهم. وفيما هو متعجب سمع صوتاً من داخل الهيكل يقول:

- هذا هو الحلّ الأفضل لسپارطة.

وقص حلمه على [كليومينس] فأضطرب في مبدء الأمر وخشي ان الايفور يستخدم قضبه هذه طعماً لاستدراجه ومعرفة نواياه بعد ان ساوره الشكّ فيها. لكنه ما لبث ان تأكد بأن محدثه سليم النية وانه لم يجانب الحقيقة فيما قاله فأشتدت عزماته ثانية. وخرج للحرب مصحوباً بمن اعتقد انهم أشدّ المعارضين له. فأستولى على [هيريا Heræa] و[آلسيا Alsæa] وهما مدينتان تنتميان للعصبة (الآخائية) وزود [اورخومينوس] المعسكر امام [مانتينيا] بالارزاق. وانطلق في مسيرات طويلات صعداً ونزلاً حتى القى الرعب في قلوب معارضيه اللقيديميين الذين أخرجهم معه، وطلبوا منه ان يتركهم في [اركاديا] ففعل أما هو فكرّ راجعاً الى [سپارطة] على رأس المرتزقة من جيشه وانهى بسرّه لأولئك الذين تأكد من صلاحهم لاغراضه وسار سيراً بطيئاً لمداهمة الايفور وهم يتناولون عشاءهم.

ولما اصبح على مسافة قصيرة من المدينة بعث [يوركليداس Eurclidas] الى قاعة المائدة العامة حيث يتناول الايغور عشاءهم. بحجة نقل رسائل منه عن الجيش اليهم. ثم لحق به [تيريكون Therycion] و[فيوبس Phoebis] وهما من اتراب [كليومينس] وقد ربيا سوية (يسمونهم موثاكيس Mothaces) مزودين بعدد قليل من الجنود. وبينما كان [يوريكليداس] يسلم الرسالة للايغور، أقتحم الآخران القاعة وبيديهما السيوف مشرعة وانقضّ الجميع على الايغور وقتلوهم: أولهم [آغيليوس Agylæus] هوت عليه ضربة سيف فسقط لاحراك به كأنه ميت. الأ انه تحامل على نفسه بعد قليل وجرّ جسمه جراً حتى خرج من الغرفة وزحف دون ان يفطن اليه أحد متجهاً الى بناية صغيرة مخصصة لآله (الخوف) وهي في العادة مغلقة، لكن المقادير شاءت ان تكون مفتوحة وقتذاك. فولج وأغلق الباب وراءه وأستلقى منتبهاً.

قضي على الايغور الاربعة الباقين، واشفعوا بعشرة آخر أقبلوا لنجدة زملاتهم. ومن لم يأت بعمل أو حركة تجاوزه القتلة ولم يعترضوا سبيل من فرّ من المدينة. وتركوا [آغيليوس] وشأنه عندما غادر المعبد في اليوم التالي.

فضلاً عن تخصيص [اللقيديين] أماكن مقدسة (للخوف) فأنهم اقاموا بنايات مماثلة لـ(الموت) و(الضحك) وغير ذلك من العوارض والعواطف البشرية. وعبادتهم للخوف، تختلف عن عبادتهم لقوى ما فوق الطبيعة التي يرهبونها لكونها قادرة على الحاق الأذى بهم. يعبدون «الخوف» لاعتقادهم بأنه الضمان الرئيس لبقاء دولتهم (ومرجعي في هذا ارسطو). فقبل أن يتسلم الايغور الجدد الحكم يصدرون بياناً للشعب، يعدون فيه بأنهم سيحلقون شواربهم وسيخضعون لأحكام القانون. وسوف لايجعلون القوانين شديد الوطأة على الناس. يرددون هذه العهود التافهة ليعودوا شبانهم على الطاعة حتى في أصغر الأمور. وأميلُ الى الظنّ بأن الاقدمين لم يدركوا ان الشجاعة التي هي عدم الخوف في عرفهم، هي في الحقيقة الخوف الذي يحذر اللوم والعار. ان الذين يظهرون أعظم الجبن ازاء القانون هم أجل الناس على اعدائهم. وأولئك الذين اقلّ من غيرهم خوفاً عند الخطر هم أكثر الناس خوفاً من التأنيب المستحق. ولله درّ القائل:

- مازال الاحترام واجباً للخوف.

وقول هوميرس: ستكون يا ابت العزيز مخوفاً ومحترماً.

وقوله ايضاً: بخوفٍ صامت يتحملون الإضطهاد

وفي الناس عموماً استعداد كبير لاحترام كل من يرهبونه لذلك شيد اللقيديميون معبداً للخوف لصق دار الايغور [سيسيتيوم Sysissitium] ورفعوا مقام هذه السلطة حتى ضاهت سلطة الملك.

وفي اليوم التالي للمذبحة، اصدر [كليومينس] قراراً بنفي ثمانين مواطناً، رأى ابعادهم عن سپارطة ضرورياً. كذلك رفع مقاعد الايغور كلها، خلا مقعداً واحداً يجلس هو عليه لاجراء المقابلات الرسمية ولانفاذ الأحكام. ودعا المواطنين كلهم الى اجتماع عام. وخطب فيهم معتذراً عما قام به من تدابير بقوله:

- قضت شريعة [ليكورغوس] ان يحكم [مجلس الكبار] الى جانب الملك. وقد بقي هذا النظام معمولاً به مدة طويلة. ولم تدع الحاجة الى اتخاذ اي هيئة حاكمة أخرى، وفي اثناء الحرب الطويلة مع المسينيين، كان الملوك الذين هم قادة الجيش لايجدون وقتاً كافياً لنشر العدل بين المواطنين وتصريف شؤونهم لغيابهم. فكانوا يختارون اصدقاء لهم فينيبونهم للفصل في قضايا المواطنين وتسوية مشاكلهم، وأطلق على هؤلاء النواب اسم [الايغور] وكانوا في مبدء الأمر يعتبرون أنفسهم خدماً للملوك لا أكثر، لكنهم بدءوا بالتدريج يغتصبون السلطة، حتى تكونت منهم هيئة حاكمة أخرى متمايزة والدليل على هذا، ذلك التقليد الذي مازال يتبعه الملك. فعندما يرسل الايغور بطلب حضوره، يمتنع عن الدعوة الأولى، وكذلك يفعل عندما يدعى ثانية. ولايتوجه اليهم الاّ عند الدعوة الثالثة. وكان [استيروپوس Asteropus] اول من رفع الايغور الى أعلى درجة من المكانة واحرز لهم السلطة العليا، وعاش سنوات عديدة بعد ذلك. الاّ انهم كانوا طوال وجوده يعملون ضمن نطاق صلاحيتهم ولايخرجون عنها وكانت مجاراتهم ومماشاتهم أفضل من الخلاف معهم اجتناباً للفتنة. لكن الخضوع لدعيٍّ، حديث عهد بالسلطة لايتورع عن تغيير نظام الدولة أمرٌ يصعب احتماله. فقد اصبح الايغور ينفي ملوكاً، ويقتل آخرين دون ان يسمع لهم دفاع، ويتوعد بالويل أولئك الذين يطمحون الى اشاعة أفضل وأقدس نظام حكم شاهدته [سپارطة]. ولو كان في وسعي تحرير لقيديمون من ربقتهم بدون سفك دماء لفعلتُ، ولو تمكنتُ من انقاذ بلادي من تلك الاوبئة الوافدة: الترف، والديون والبذخ، والربا؛ ومن أقدم شريّن على الأراض: الغنى الفاحش والفقر المرقع لعددت نفسي اسعد ملوك الدنيا بنجاحي، الشبيه بنجاح الطبيب النطاسي عند قضائي على امراض بلادي دون احداث الآم. لكن الضرورة الجأتني الى الاقتداء بليكورغوس في اجراءاتي. لم يكن ليكورغوس حين قام بانقلابه، ملكاً أو حاكماً، بل

كان رجلاً عادياً عندما وجّه ضربته الى الملكية المطلقة. فقد دخل الساحة العامة شاكي السلاح. ففرّ الملك [خاريللوس Charillus] خائفاً والتجأ الى الهيكل، وكان انساناً صالحاً عاقلاً محباً لوطنه، فسارع بقبول اصلاحات [ليكورغوس] واقرّ التغيير الثوريّ في نظام الحكم. ان عمل [ليكورغوس] يقدم لنا الدليل الدامغ على صعوبة الانقلاب بدون استعمال القوة واشاعة الخوف. وكان باستعمالهما معتدلاً مقصداً، لم يفعل شيئاً أكثر من ازاحته أولئك الذين وقفوا عقبة في طريق سپارطة الى السعادة والأمان.

وقال لبقية الشعب:

- أصبحت الأراضي جميعها ملكاً مشاعاً فيما بينكم، وستبرأ ذمم المدينين من ديونهم كلها. ويجرى الفحص على كل فرد لايملك حق المواطنة، فالأشجع سيصبح سپارطياً حُراً، يستخدم سلاحه للمحافظة على المدينة. وبهذا لن تشكو لاقونيا بعد الآن قلة المدافعين عنها، ولن تترك نهباً مقسماً بين الايتوليين والأليريين.

بعد هذا أعلن هو وزوج امه [ميغستونس] وصدقانه تنازلهم عن كل املاكهم لبيت المال العام، وأقتدى به جميع المواطنين. وقسمت الأرضون وجعل لكل من نفاه حصة في التقسيم ذلك لأنه وعد باعادتهم جميعاً حالما تستقر الأمور، وتهدأ. وأكمل ما نقص من عدد المواطنين بأفضل سكان الريف، وخير من توسّم فيه الكفاءة. وبذلك جنّد اربعة آلاف مقاتل صنديد. ونبذ الحربة سلاحاً. وعلمهم استعمال ما يدعى [ساريسا Sarissa] بكلتا اليدين، واستبدل قبضة الترس الاعتيادية بسير. ثم بدأ بمشاوراته حول وضع منهاج لتهذيب الشبان وتمرينهم او «انضباطهم» كما يطلقون عليه. فتولى معظم التفاصيل المدعو [سفارس Sphares] الذي كان موجوداً في سپارطة وقتئذ. وما هي الأ فترة وجيزة حتى عادت معاهد الرياضة البدنية والموائد الاشتراكية الى سابق عهدها الزاهر، ونظامها المتقن الغابر. وعاد معظم الناس بملء أختيارهم خلا فئة قليلة بحكم الضرورة - الى ممارسة الحياة اللاقونية الأولى السمحاء. وتحاشياً من يعود اسم الملك ليثير الحسد في النفوس، بادر الى اشراك أخيه [بوكليداس Eu-clidas] في العرش . وهي المرة الأولى التي يحكم في سپارطة ملكان من أسرة واحدة.

وعلم ان [اراتوس] ومن ورائه [الاخائيون] توهم بأنه انقلابه هذا اشغله واورثه كثيراً من المتاعب والمشاكل، ولم يترك له مجالاً للمجازفة بالخروج من سپارطة المتقلبة على رمضاء هذا الانقلاب العظيم. فوجد [كليومينس] من المفيد والرائع حقاً.

ان يذيق اعداءه طعم إقدام جنوده وتفانيهم. فغزا بلاد [ميغالوپوليس] واجتاحها اجتياحاً.

وشملت عملياته الحربية مساحة واسعة منها وتوغل بعيداً فيها، وفاز بكثير من الغنائم. ثم احتجز جوقاً من الممثلين كان في طريقه الى [مسينيه] وبنى مرسحاً في بلاد العدوّ ووضع جائزة تعادل اربعين مينا. وجلس يشاهد العرض المرسحي طوال اليوم، ليس لأنه بحاجة الى التسلية أو لكونه يحبّ التمثيل بل لاظهار مدى استهانته باعدائه. فبهذا يبرهن على مدى تفوقه ان جيشه وحده دون سائر الجيوش الملكية الاغريقية لم يزود بممثلين او دجالين او راقصين. او مغنيات، فقد خلا من كل شكل للدعارة والفجور ومظاهر الترف. الشباب من الجنود يقضون معظم الوقت في التدريب، والكبار منهم يشرفون على تدريبهم وتلقينهم دروساً في «الانضباط». وفيما عدا ذلك يَتَسلون بتبادل الملح والفكاهات المحليّة، ويتراشقون بتلك الاجوبة اللاقونية المحكمة السريعة، وكنا قد لحظنا النتائج الباهرة التي اسفرت عنها هذه الاساليب، عندما تصدينا لسيرة ليكورغوس.

وجعل [كليومينس] من نفسه قدوةً. فقد كان نموذجاً حياً للبساطة امام كل ذي عينين. فلم يسمح لنفسه بمستوى عيشٍ أعلى او أفخم من مستوى عيش مواطنيه. وهذا ما حقق له المكانة الفضلى عند الاغريق. ان الناس الذي يخدمون الملوك لايعجبون بغناهم واثاثهم الثمين وعدد الخدم والعبيد الذين يحفون بهم قدر ما يكرهون غطرستهم وكبريائهم وصعوبة الوصول اليهم، واجوبتهم المتكبرة للسائلين. وهذا مالا تجده عند [كليومينس] فهو ملك في الواقع، يحمل اللقب الملكي الاَ ان زائره لايرى ارجواناً ولا حللاً ملكية مقصبة ولا محفات ولا ارائك يتقلب عليها مريحاً جسمه. وسائله لايرى الباب مغلقاً بوجهه ولايتسلم رداً على طلبه بعد صعوبات وتأخير لكثرة السعاة والحجاب، ولايحظى بالاجابة عن طريق المذكرات، فكليومينس، ينهض ويتقدم باي ثوبٍ يتفق انه ارتداه في ذلك اليوم - فيستقبل ذوي الحاجات والزائرين، ويكلمهم بدون كلفة أو تحفظ. وبذلك يجتذبهم ويفوز بمحبتهم؛ مصرحاً بأنه الوحيد الذي هو ابن هرقل الحقيقي. ويتناول وجبات طعامه العامة في غرفة عادية قليلة الأثاث على الاسلوب اللاقوني. فاذا استضاف اجانب او سفراء اضاف الى الاثاث اريكتين. ويأمر خدمه بأن يجعلوا طعامه أرقى من المعتاد بشيء قليل، وليس معنى هذا أن تضاف الى اصنافه الحلوى والمقبلات، واطايب المأكول. بل تبدل الصحاف، بأخرى أكبر منها. وتزاد كمية الخمر. وقد أنب صاحباً له لأنه دعا بعض الاغراب الى طعام لايزيد عن الخبز الشعير والشوربا ء السودا ء. وهو الطعام الذي يتناولونه عادة، في موائدهم الاشتراكية المسماة [فيديتيا Phiditia]. وعتب عليه بقوله: في مثل هذه المناسبات، عندما يدعى اغراب الى الطعام، ليس من المستحسن أن يكون المرء لاقونياً بكل معنى الكلمة.

وبعد أن ترفع المائدة، يؤتى بمحمل عليه وعاء نحاسي مليء بالخمر ويؤتي بجرتين فضيتين تتسع الواحدة منهما لحوالي ليترٍ واحدٍ من الخمر، ويؤتى بعدد من الاقداح الفضية. وتترك الحرية لمن يريد ان يشرب ومن لايريد، ولايلحّ على الضيوف قطّ. ولايوجد موسيقي. [فكليومينس] يقوم بتسلية الضيوف بالقاء الاسئلة حينا، وبرواية الحكايات حينا. ولم يكن حديثه بالرزين كثيراً ولا بالجديّ المملّ ولا بالخشن ولا بالفكاهة المعيبة.

وكان يمقت استخدام الجوائز والعطايا وسائل للايقاع بالرجال كما يفعل الملوك الآخرون. فهو يعتبرها اساليب زائفة متجردة عن الشرف. وبدأ له أن الانبل والاجدر بالملوك لكسب محبة المقربين منهم هي تبادل الاحاديث الرقيقة والمحاورات الممتعة؛ مادام الفارق الوحيد بين الصديق والمرتزق هو كسبنا الأول بالحديث المخلص وشرف الخلق. وكسبنا الثاني بقوة المال.

كان [المانتينيون] اول من طلب معونة [كليومينس] فدخل مدينتهم ليلاً وتعاون الطرفان على طرد الحامية الآخائية ووضعت المدينة تحت الحماية اللقيديمية. فأعيد نظام الحكم السابق وشرع في تطبيق قوانينهم الأولى. وفي اليوم التالي زحف على [تيغيا]، ثم أخترق اركاديا بحركة دائرية وانقضى فجأة على [فيري Pherae] في آخائيا، وقصده من ذلك ارغام [اراتوس] على التعرض له، والاّ انحطت سمعته لأن احجامه سيدفع [كليومينس] الى التوغل في البلاد.

كانت القيادة الآخائية في تلك الفترة بيد [هيبرباتاس Hyperbatas] إلاّ أن [اراتوس] كان صاحب السلطة الأصيلة الحقة. فتقدموا بكلّ قواتهم وعسكروا في (ديمي Dymae) بالقرب من [هيكاتومبيوم Hecatombaeum] فأقبل [كليومينس] ووجد أن ضرب مخيمه ما بين [ديمي] المدينة العدوة وبين معسكر الآخائيين، ينطوي على محاذير. فما كان منه الاّ وتعرض للآخائيين بكلّ جسارة وارغمهم على دخول المعركة وهزم [فلانكسهم] وقتل عدداً كبيراً منهم واخذ أسرى كثيرين ومن ثم زحف على [لانغون Langon] وطرد منها الحامية الأخائية وردّ المدينة للاليائيين حلفائه.

ولما تحرج وضع الآخائيين وساء، طلبوا من [اراتوس] والحوا وتوسلوا بأن يتولى القيادة، وكان قد رسم ان يتولى سنةً ويعتزلها سنةً، فأبى وكان في ابائه مخطئاً. فعندما يشتد هبوب العاصفة لايجمل بالملاح ان يستنكف عن الدفّة، ويسلمها الى شخصٍ آخر.

في مبدء الأمر أقترح [كليومينس] للصلح، شروطاً بسيطة معتدلة وارسل سفراء، للآخائيين. ثم أعقبهم بآخرين مطالباً لنفسه القيادة العليا للعصبة، أما في الأمور الأخرى فقد أظهر استعداد للمافقة على شروط سهلة، وعلى اعادة الاسرى اليهم وارجاع اراضيهم. وكان

الآخائيـون راغبين في الصلح على اساس هذه الشروط، ودعوا [كليـومينس] للحضـور في [ليرنا Lerna] حيث سيعقد اجتماع لبحث الأمر. الا أن اسراع [كليومينس] في السير وشربه الماء في اوقات غير مناسبة جعله يتقيأ مقداراً من الدم، وبحّ صوته ولم يعد يقوى على الكلام. فتوقف وبعث للآخائيين بأهم الأسرى، وارجأ الاجتماع الى أمدٍ وقفل عائداً الى لقيديمون.

هذا التأخير غير المتوقع ادىّ الى خراب الأغريق ودمارهم وقد بدأوا او كادوا ينهضون من كبوتهم ويتخلصون من المحن والارزاء التي اخنت عليهم. فبدأوا يبدون بعض الكفاءة والمقدرة في استخلاص بلادهم من نير المقدونيين وعسفهم. فقد جاهد [اراتوس] اولاً، لإحباط الاتفاق بين [كليومينس] والآخائيين (اما خشية منه أو عدم ثقةٍ به أو حسداً من النجاح غير المتوقع الذي اصابه الملك الفتى او ربما وجد مما يحطّ من قدره ان يخلفه في كل مجده وسطوته فتى غضّ الأهاب، وهو الذي تولى القيادة العليا لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، لم ينازعه فيها أحد، ليأتي كليومينس بعدها فيرأس تلك الحكومة التي تعب في بنائها ووضع أسسها هذه السنوات الطوال). فلم يصغ الأخائيون اليه، خوفاً من اقدام [كليومينس] واقتناعاً منهم بأن الشروط التي عرضها المقدونيون معقولة جداً، وكلها ترمي الى اعادة [البيلوپونيس] الى وضعها الاعتيادي الاول. فضاقت السبل في وجه [اراتوس] ووجد مرجعه الأخير في عملٍ لايليق صدوره من اي اغريقي. عمل يحطّ من شرفه كثيراً وينتقص من شجاعته ومآثره الجسام. فقد دعا [انتيغونس] المقدوني الى بلاده وملأ [البيلوپونيس] بالمقدونيين. وهو الذي طرد حاميتهم من كورنث، ثم أخرجهم من البلاد في ايام شبابه. بل وأكثر من هذا فقد أثر عنه شكه العظيم وخلافه المستحكم مع سائر الملوك، وفي مقدمتهم [انتيغونس] نفسه، الذي أسند اليه آلافاً من المثالب والنقائص في تعليقاته التي تركها بعد موته. لقد كان [اراتوس] لائم الحديث عن الاهوال التي قاساها والمخاطر والخسائر الجسام التي تعرض لها حتى تسنّى له تحرير اثينا من حاميتها المقدونية وها هو الآن يأتي بنفس الرجال وهم شاكو السلاح الى موطنه، بل الى منزله، بل الى جناح نسائه فيه. لأنه لايتحمل فرداً من اسرة (هرقل) هو ملك سپارطة الذي حقق انقلاباً اصلاحياً عظيماً في حكومة بلاده، وانقذها من التوافق الفوضوي، ان جاز لنا القول، واعاد تطبيق الأنظمة الدورية Doric البسيطة، ونظام الحكم الذي كان يسود سپارطة في عهد [ليكورغوس]. فهو يستكثر عليه رئاسة [التريتيان Tritaeans] و[السيكيونيان Sicyinians] وفي الوقت الذي استأصل الغنى وأصلح أمر الفقير (وهذه تهمة (اراتوس الفضلى لكيومنيس) كان هو يترفع عن تناول خبز الشعير وارتداء المعطف

الخشن، يعمد الآن الى ان يعنو طائعاً ومعه أخائياً بشكل مهين للتاج المقدوني وارجوانه واوامره التعسفية، وحكام اقاليمه. وبالغ في تكريم [انتيغونس] لكي ينأى عن كليومينس ويزيل اي شك في انه تحت امرته - فقدم قرابين باسم [انتيغونيا] مشتقاً من [انتيغونس] وانشد التراتيل الدينية وعلى رأسه أكليل الزهر، ممجداً مسبحاً بحمد مقدوني مهزول مصدور. أكتب هذا ولست انوى به النيل من [اراتوس] قطّ. فهذا الرجل اثبت في وقائع كثيرة صدق حبه للاغريق، الى جانب عظمته. وما ذكرت هذا الاّ اشفاقاً مني على الضعف البشري الذي يستولي على نفوس رفيعة، متمسكة باهداب الفضيلة في شتىّ صورها واشكالها، فيتعذر على اصحاب تلك النفوس ان يبقوا شرفهم غير مثلوم وان يحتفظوا بامجادهم الغابرة. بهفوة واحدة من هفوات الغيرة والحسد.

واجتمع الآخائيون في مؤتمر ثانٍ بـ[ارغوس] واقبل [كليومينس] من [تيغيا]. وكان الأمل كبيراً بتسوية جميع اسباب الخلاف. لكن [اراتوس] كان بالمرصاد، فقد اتفق هو [وانتيغونس] سلفاً على الشروط التي سيتمّ بها التحالف. وخوفاً من ان يأتي [كليومينس] ويجردهما من كلّ شيء، إمّا بالاتفاق التام، وامّا بارغام المؤتمر على الموافقة، فقد اقترحا أن يوضع بيد [كليومينس] ثلاثمائة من الرهائن لكي يدخل المدينة وحده. اذ يأتي بجيشه الى ساحة التدريب المسماة كلارابيون Cyllarabium، والواقعة في ظاهر المدينة، فيفاوض من هناك.

وأبلغ [كليومينس] بهذا فقال لهم انهم يسيئون معاملته، اذ كان عليهم أن يعلموه بنيتهم هذه من الأول. وها هم بعد أن قرع بابهم يظهرون ارتيابهم به ويسدون بابهم في وجهه، وكتب رسالةً الى الآخائيين في هذا الصدد، كان معظم ما فيها تهم موجهة [لاراتوس]. أما [اراتوس] فقد وقف في الاجتماع يشنّ عليه هجوماً عنيفاً. فأسرع [كليومينس] يرتحل عنهم. وارسل برقيا الى آرغوس [ايكيوم Aegium - في تعليقات اراتوس]يعلنهم بالحرب، لكيلا لايدع لهم وقتاً كافياً للتأهب والدفاع. ونجحت حركة مماثلة له بين الآخائيين انفسهم، وتهيأت المدن للثورة بلهفٍ لأن العامة من الناس كانوا ينتظرون من رآسة [كليومينس] توزيعاً للاراضي وتخلصاً من الديون. وكان رؤساء القوم في كثير من المدن لايطيقون [اراتوس] وبعضهم سخط عليه ونقم، لجلبه المقدونيين الى [البيلوبونيسس]. هذا التنابز والخلاف شجع [كليومينس] على غزو آخيا. فأستولى اولاً على [پلليني Pellene] بهجوم مباغت وطرد منها الحامية الآخائية، ثم ضمّ اليه [فينيوس Pheneus] و[پنتلليوم Pentelleum]. وشكّ الأخائيون بخيانة مبيتة لهم في كل من [كورنث] و[سيكيون Sicyon] فأرسلوا خيالتهم

ومرتزقتهم من ارغوس] وجعلوها عيوناً عليهما. وخرجوا الى ارغوس للاحتفال بالالعاب [النيمية Nemean] وعلم [كليومينس] بخروجهم، وكان يأمل بأنه سينشر رعباً شديداً ويحدث في صفوفهم اضطراباً واسع النطاق لو تقدم ليلاً وداهم المدينة وهي ساهية عنه لاهية بالالعاب وبما لايحصى من المشاهدين، فزحف بجيشه حتى اسوارها. ثم انقضت على الحيّ الذي يسمى [آسپس Aspis] ويقع الى شمال الملعب. وهو جيدّ التحصين يصعب التعرض له، بله الاستيلاء عليه، فكان الرعب الذي احدثه عظيماً. وبهت الجميع فلم يبد احد اية مقاومة. الاّ انه رضي منهم بشروط سهلة هي موافقتهم على ابقاء حامية في المدينة، وتسليمه عشرين رهينة من مواطني المدينة. ومساعدة اللقيديين والتسليم له بالقيادة العليا.

هذه المأثرة الحربية رفعت من شهرة كليومينس ووسعت نفوذه ودعمته. ظلت [ارغوس] ممتنعة عن كل ملوك سپارطة الاقدمين فمع محاولاتهم المتكررة لم يفلحوا في ضمها بشكل دائمي. و[پيروس] القائد المحنك الأكثر تجارباً من اي قائد آخر، دخل المدينة عنوة ليقتل داخلها وليموت معه جزء كبير من جيشه. لذلك كان الإعجاب عاماً ببراعة [كليومينس]. فأولئك الذين كانوا يسخرون منه لتقليده [صولون] و[ليكورغوس] في تحريره الناس من الديون واشاعة المساواة في الملكية بين المواطنين، اسرعوا الآن يقرون بأن نجاحه هذا، ما هو الاّ ثمرة الاصلاحات التي اجراها في سپارطة. لقد كان السپارطيون قبل ذلك اعجز عن المحافظة على مدينتهم، لضعفهم الشديد نسبة الى اقرانهم. فقد غزا الايتوليون (لاقونيا) واستاقوا منها خمسين ألفاً من العبيد؛ ويذكرون ان أحد السپارطيين الشيوخ قال بهذه المناسبة: انهم (اي الغزاة) خدموا لاقونيا بتخفيف العبء عنها. مع هذا فبمجرد عودتهم الى تقاليدهم الأولى، وممارستهم الانضباط في زمن قصير جداً راحوا يضربون الأمثلة الفريدة في الشجاعة والطاعة. كأنهم يعملون تحت سمع وبصر [ليكورغوس] نفسه. فرفعوا سپارطة من الحضيض ليضعوها في المحل الأول، دولة قائدة في بلاد الاغريق. واستعادوا كل [الپيلوپونيسس].

بعد الاستيلاء على [آرغوس] اسرعت [كليوني Cleonæ] و[فليوس Phluis] باعلان انضمامها الى [كليومينس] وكان [اراتوس] في كورنث، يتعقب من قيل انهم موالون لسپارطة، فأقلقه نبأ هذه الانتصارات، مدركاً ان [كورنث] نفسها تميل الى [كليومينس] وتريد التخلص من الآخائيين. فدعا المواطنين الى الاجتماع في قاعة المجلس. وتسلل هو دون ان يلحظه احد، وخرج فامتطى جواده الذي كان قد هيء له وفرّ الى [سيكيون]. فخفّ الكورنثيون الى [ارغوس] كأنهم على جناح طائر، أو كما يصف اراتوس ذلك: «كانوا يتسابقون على اولوية الوصول الى كليومينس» حتى أن خيولهم نفقت تحتهم! وغضب

[كليـومـينس] على الكورنثـيين لأنهم لم يحولـوا دون هروبه. ويضـيف [اراتوس] قـولـه: ان [ميغستونس] جاءه مُوفداً من [كليومينس] يطلب منه تسليم قلعة [كورنث] التي كانت تحتلها حامية آخائية. وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، فأجابه أن زمام الأمور قد افلت من يده وانه الآن تحت رحمة الأهالي. هذا ما خطتـه يد [اراتوس]. على ان [كليـومينس] سار اليها من [ارغوس] وفي طريقه اخضع الطرويزينيين Troyzenians والإپداوريين والهرميونيين [Hermionians]. واذ بلغ [كورنث] شرع بحصار القلعة من جميع الجهات بعد ان ابى الآخائيون تسليمها. ودعا اليه اصحاب [اراتوس] وبطانة بيته، فوضع منزله وماله ونشبه في عهدتهم امناءً عليه. وبعث [تريتيماللوس Tritymallus] المسيني اليه، بعروض صلح، وهي أن تشترك في حماية القلعة حاميتان سپارطية واخائية بعددٍ مساوٍ من الجنود. وان يعطى ضعف المرتب الذي خصصه له بطليموس الملك. فرفض [اراتوس] وأرسل [ابنه مع رهائن أخر الى انتيغونس، وراح يسعى لاقناع الكورنثيين باصدار قرار بتسليم القلعة [لانتيغونس]. فما كان من [كليومينس] الاّ واغار على بلاد السيكيونيين. وحمل الكورنثيين على اصدار قرار بمصادرة اموال [اراتوس] للمدينة.

كان [انتيغونس] في الوقت عينه يجتاز [گيرانيا Geranea] بجيش جرار. ففضل [كليومينس] ان يحصّن ويعزّز مواقعه في جبل يدعى [اونيا Onea] لا في البرزخ، وأن ينهك الجيش المقدوني بحرب المواقع والنقاط المستحكمة، لا ان يجازف بمعركة فاصلة يلعب فيها الفلاتكس المقدوني المحكم دوراً حاسماً. واسرع بتنفيذ خططه، مخيباً آمال [انتيغونس] تماماً فقد قدم وليس معه مؤن كافية لحرب الإنهاك التي فرضها عليه [كليومينس] كملك لم يكن من السهل عليه ان يشق طريقه من الممر عنوة وكليومينس يسيطر عليه. وحاول المرور ليلاً عبر [ليكيوم Lechaeum] لكنه أخفق وخسر عدداً من رجاله. وارتفعت معنويات جيش [كليومينس] وبلغ اعتزازه بهذا النصر الى الحد الذي جعلهم يذهبون الى العشاء في حالة مرح صبياني. وركبت [انتيغونس] الكآبة. والجأه موقفه العسير الى محاولات يائسة لم تجده فتيلاً. وكان في سبيل اتخاذ خطة الزحف باتجاه رَعَن[1] [هيريوم Heraeium] ومنها ينقل جيشه الى [سيكيون] بالزوارق. هي عملية

تتطلب وقتاً طويلاً، وكثيراً من المهمات والاستعداد. الاّ ان اصدقاء لاراتوس وصلوا مساء من [ارغوس] عن طريق البحر واشاروا عليه بالعودة لأن [الارگيڤيين] شقوا عصا الطاعة على [كليومينس] و[ارسطوطل Aristotle] يتزعم الفتنة وهو الذي فجر الثورة، اذ سهل

(١) الرَّعَن هو قمة الجبل الداخلة في البحر.

عليه اقناع الأهالي الذين كانوا بصورة عامة ساخطين على [كليومينس] لأنه لم يبرّ بوعده فيلغي ديونهم وعلى هذا، سار [اراتوس] على رأس ألف وخمسمائة مقاتل من جيش [انتيغونس] وابحر بهم الى [ابيداوروس]. الاّ [ارسطوطل] لم يشأ الانتظار واخرج الأهلين وبدأ بالتعرض لحامية القلعة، وأقبل [تيموكزينوس Timoxinus] بالآخائيين من [سيكيون] لنجدته.

وسمع [كليومينس] بالفتنة في حدود الهزيع الثاني من الليل، فأستدعى [ميفستونس] وامره غاضباً بأن يذهب الى [ارغوس] لتسوية الأمور، فهو الذي تعهد بولاء الارغوسيين وهو الذي أقنعه بالا ينفي المشتبه بهم. واعطاه ألفين من الجنود وبقي هو يرصد [انتيغونس] ويشجع الكورنثيين. بقوله ان الاضطراب في [ارغوس] ليس بالذي يؤبه به، وانما هو فتنة أثارتها شرذمة لاقيمة لها. لكن [ميفستونس] قتل فور دخوله [ارغوس] وتعذر صمود الحامية فراحت تبعث بالرسول تلو الرسول طالبةً نجدةً. ولخوف كليومينس من ان يعمد العدوّ بعد احتلاله ارغوس، الى سدّ الممرات والتوغل في لاقونيا آمناً وحصار سپارطة وهي بدون حماية، أجلى عن [كورنث] فخسر المدينة حالاً لأن [انتيغونس] دخل في اعقابه ووضع الحاميات فيها. وانحرف [كليومينس] عن استقامة سيره وهاجم [ارغوس] ليأخذها بالمفاجأة، ثم جمع قواته الزاحفة فأقتحم بها الاسپيس Aspis، واتصل بالحامية التي بقيت صامدة في الداخل ازاء الآخائيين وتسلق الاسوار في جوانب من المدينة واستولى عليها وامر رماته الكريتيين فطهروا شوارعها من المقاومين. الاّ انه شاهد [انتيغونس] ينحدر بفلانكسه من الجبل نحو السهل، كما دخلت خيالته المدينة من جميع الجهات، فوجد ان المحافظة على مواقعه في المدينة غير ممكن، فجمع رجاله وانسحب بسلام متقهقراً تحت السور.

احرز [كليومينس] في وقت جد قصير سلطاناً عظيماً. في سفرة واحدة (ان صحّ القول) نصب نفسه سيداً على الپيلوپونيس. وبوقت يساويه في القصر، أضاع الكلّ فبعض حلفائه تخلى عنه وبعد فترة وضع بعضهم مدنهم تحت حماية [انتيغونس] وهكذا خابت آماله وفشلت مساعيه. وراح يقود شراذم من قواته عائداً. وفي الطريق لقيه رسل في لقيديمون وهو في تيغيا، حاملين له نبأ أعظم نكبة وأشدها ايلاماً. هو نبأ وفاة زوجه التي كان يحبّها أشدّ الحب، ولايطيق عنها بعداً، اد ما كان يتردد وهو في انجح حملاته وقمة انتصاره أن يترك جيشه ويعود الى سپارطة لزيارة [آغياستيس].

كان حزنه عليها عظيماً ورزؤه بفقدها كان قميناً بأي شابٍ فاضل اجمل وأفضل زوج. الا انه لم يدع عاطفته تصيبه بالعار، ولا لضعفه يفسد رجاحة عقله. فتجلد ولم يخنه صوته ولا

تقاطيع وجهه، ولم يطرأ على عاداته خلل. واستمر يصدر الاوامر الضرورية لضباطه، ويتخذ التدابير اللازمة للدفاع عن [تيغيا]. وفي صباح اليوم التالي وصل سپارطه. وندب هو وامّه وطفلاه خسارتهم ومصيبتهم. ثم أنهى الحداد وباشر فوراً بتصريف شؤون الدولة.

ووعده [بطليموس] ملك مصر بالمساعدة. الاّ انه اشترط عليه ارسال امه وطفليه ليبقوا عنده بمثابة رهائن. فظل فترة طويلة يخجل من مفاتحة امّه. وكثيراً ما قصدها لهذا الغرض فما يهم بالحديث الاّ ويرتج عليه فيتردد ثم يعدل. واخذت الشكوك تساورها من سلوكه هذا وسألت صدقانه عما اذا كان قد كتم عنها شيئاً يخشى مفاتحها به؟ أخيراً لم يسعه أخفاء الأمر عنها، فصارحها فقهقهت ضاحكة وقالت:

- أهذا ما كنت تحاول مصارحتي به ثم تحجم؟ هيا عجل وضعني على ظهر السفينة. ابعث بهذه الرّمة الى حيث تؤدي اعظم خدمةٍ لسپارطة، قبل أن تتلفها عاديات السنين وتستهلك كل منفعة منها.

وتمت كل التدابير للرحلة، وسافروا براً حتى [تيناروس والجيش كله تحت امرهم وبحراستهم. وعندما تهيأت [كراتيسيكليا] لركوب السفينة. انتحت بابنها جانباً ثم قادته الى هيكل [نبتون] وهناك أكبت عليه تعانقه قائلة:-

- امضِ في سبيلك يا ملك سپارطة. وان خرجنا الآن فلا تدع احداً يرانا باكيين. ولاتظهر اي ضعفٍ عاطفي غير لائق باسپارطه. فهذا هو أساس قوتنا. اما بخصوص النجاح والفشل فقل لن يصيبنا الاّ ما قدرته لنا الآلهة.

وتجلدت وتصبرت، وخرجت بحالة اعتيادية فركبت السفينة مع حفيديها وامرت القبطان بالاقلاع حالاً. ولما وصلت مصر وعلمت ان [بطليموس] يزن مقترحات وعروض سلم من انتيغونس وان [كليومينس] قد دعاه الأخائيون والحوا عليه بعقد اتفاق فأبى لأنه كان يخاف عليها من بطليموس ان تمّ ذلك بدون رضاه. فكتبت اليه تنصحه بان يفعل ما هو لائق بسپارطه نافع لها، وان لايخشى بطليموس بسبب عجوزٍ وطفلين كذلك كانت اصالة خلتها وهي في وسط محنتها وسوء حظها.

بعد استيلاء [انتيغونس] على [تيغيا] واجتياح [اورخوبينس] و[مانتينيا] وجد [كليومينس] نفسه محصوراً في حدود لاقونيا الضيقة. فعمد الى سَدّ حاجته من المال بأن سمح لكل فردٍ من [الهيلوت] بان يفتدي حريته بخمسة پاونات آتيكية فجمع بذلك خمسمائة تالنت. وسلّح ألفين من المقاتلين تسليحاً مقدونياً فتم له وحدة مقاتلة خليقة بمقارعة

[اليوكاسپيدس Leucaspides] قائد [انتيغونس]. ووضع خطة رائعة غير مسبوقة: كانت [ميغالوپوليس] في ذلك الحين كمدينةٍ قائمة بذاتها لاتقل مناعة وعظمة عن سپارطة نفسها. اضف الى هذا ان قوات [انتيغونس] والآخائيين قد عسكرت بالقرب منها. وكان الميغالوپوتيون ذوي اليد الطولى في استدعاء [انتيغونس] لمعونة الآخائيين. وكانت خطة كليومينس تعتمد على «خطف» المدينة (ليس ثم كلمة أخرى أنسب من هذه لوصف عملية حربية تمت بمثل تلك السرعة والفجأة) فأمر رجاله بأن يتزود كل منهم بمؤونة خمسة أيام وسار بهم نحو [سيلاسيا] كأنه يعتزم اجتياح بلاد [الارگيف] إلا انه انحدر من هناك الى تخوم [ميغالوپوليس]. وبعد ان اراح جنوده عند [رويتيوم Rhoeteum] انحرف فجأة الى طريق [هيليكوس Helicus] وتقدم من المدينة رأساً. ولما اصبح على مسافة قصيرة منها أرسل [پانتيوس Panteus] على رأس لوائين للانقضاض على جانب من الاسوار يقع بين برجين، علم انه أقل الاجزاء حمايةً في اسوار المدينة، ثم تقدم خلفه ببقية جيشه، سائراً على هونه. ولم يكتف [پانتيوس] باكمال مهمته على خير وجه، وانما وجد جزءً كبيراً من السور بدون حماية. فباشر في الحال بهدم اقسامٍ منه، وثغره عدة ثغرات في أماكن أخرى وقتل كل مدافعٍ تصدى له. وفيما هو منهمك بذلك. وصل [كليومينس] ودخل المدينة بجنوده قبل ان يشعر الميغالوپوتيون بالمباغتة ولما علموا بما اصابهم ترك فريق منهم المدينة حاملاً ما استطاع حمله من متاعٍ. وحمل فريق سلاحه وخرجوا لقتال المهاجمين ومع انهم لم يستطيعوا ردّهم على الأعقاب، الاّ ان دفاعهم اتاح للمواطنين الفرصة والوقت للجلاء عن المدينة بسلامٍ. ولذلك لم يكن في المدينة أكثر من ألف نسمة عند تمام احتلالها. اما البقية فقد هربت بالزوجات والاطفال الى [مسينيه] ونجا كذلك جلّ الذين قاتلوا العدوّ وحاولوا صدّه. ووقع منهم أسرى قليلون، ومن بينهم [ليساندريداس Lysanderidas] و[ثياريداس Thearidas] وهما من ذوي المقام الكبير والنفوذ عند الميغالوپوليتيين، ولذلك احضرهما الجند امام [كليومينس] حال وقوعهما في الأسر. وما أن وقع نظر [ليساندريداس] على الملك من مبعدةٍ حتى صاح قائلاً:

- والآن يا ملك سپارطة لقد بات في مدى سلطانك أن تشتري اعظم المجد بقيامك باعظم وانبل عمل ملكيّ اقدمت عليه حتى اليوم.

فأدرك [كليومينس] ما يقصده واجابه: ماذا تقصد [يا ليساندريداس]؟ من المؤكد انك لاتنصحني باعادة مدينتكم اليكم ثانيةً؟

فقال [ليساندريداس]: بل هذا ما اقصده. وانصحك بالاّ تعمل يد الخراب في مدينة باسلة كهذه المدينة، بل ان تملأها باصدقاء مخلصين اوفياء وحلفاء لك، بان تعيد البلد الى

الميغالوپوتيين. وبأن تصير منقذاً لهذا الحشود الكبيرة من الناس.

ففكر [كليومينس] برهة ثم قال: انه لمن الصعوبة بمكان الايمان بهذه الأمور الى حدٍ كبيرٍ، لكن فلتفسح المنفعة مكانها للمجد.

ثم ارسل هذين الأسيرين الى [مسينيه] مع رسول من قبله يدعو [الميغالوپوليتيين] الى مدينتهم. ان هم قطعوا روابطهم مع الآخائيين وانقلبوا حلفاء له. ولكن [فيلوپومين] لم يقبل ان ينقضوا حلفهم مع الآخائيين رغم بساطة الشروط وكرامتها وانسانيتها. وراح يتهم [كليومينس] امام الأهالي واظهر نواياه بشكل معكوس. قائلاً انه لايريد اعادة المدينة اليهم، بل الاستيلاء على أهاليها ايضاً. ثم أجبر [ثياريداس وليساندريداس] على مغادرة [مسينيه].

(فيلوپومين هذا، اصبح فيما بعد زعيم الآخائيين، ونال أعظم شهرة ومكانة بين الاغريق وقد تقدم ذلك في سيرته).

عندما سمع [كليومينس] بما جرى في [مسينيه] ساوره غضبٌ شديد. وكان قبل ذلك قد شدد بعدم نهب المدينة واتخذ التدابير الوقائية لذلك - فأمر في سورة غضبه هذا ونفاد صبره، بتجريد المدينة من كل ما هو نفيس فيها وارسل الصور والتماثيل الى سپارطة وهدم جزءً كبيراً منها ثم انسحب خشية اطباق [انتيغونس] و[الآخائيين] عليه. لكنهم لم يأتوا بحركة. اذ كانوا وقتئذ يحضرون مجلس حربٍ في [ايگيوم Aegium]. هناك اعتلى [اراتوس] منبر الخطابة وبكى ملياً ساتراً وجهه بطرف ردائه، فران الذهول على المجتمعين وعلتهم البغتة، ثم صاحوا وطالبوه بالكلام فقال:

- [ميغالوپوليس] دمرّها كليومينس!

وسكت. فأنفرط عقد المجتمعين فوراً. وذهل الآخائيون لعظم الخسارة وفجائيتها. واعتزم [انتيغونس] ارسال نجدات عاجله، ولما رأى البطء الشديد في عملية التجمع من المقرات الشتوية. اصدر اوامره بالبقاء حيث هي. وسار بنفسه الى [ارغوس] تحرسه ثلة من الجنود.

ومع ان العملية التالية التي اقدم عليها [كليومينس] بدت مغامرة جنونية يائسة، ۆلا انها في رأي [پوليبيوس] عملية ذات تصميم ناضج وتنفيذ متقن تنطوي على بعد نظر كبير. فبعد ان تأكد [كليومينس] ان المقدونيين متفرقون في مقراتهم الشتوية وان انتيغونس مع اصحاب له وقليل من المرتزقة بُشتّى في [ارغوس]، أغار على بلاد [الارگيف] مؤملاً ان يدفع الخوف من العار [انتيغونس] الى الاشتباك معه في ظروف غير متكافئة. فان أبى

القتال فستهبط مكانته عند الآخائيين الى الحضيض. وهذا ما كان، فان السلب والنهب والذي عمله في بلاد الارگيف، اثار غيظهم وألمهم فتجمعوا حشوداً كبيرة أمام باب الملك واخذوا يصيحون به قائلين: عليه آن يقاتل أو ان ينزل لغيره عن القيادة اشجع منه وأكثر أقداماً. الاّ ان انتيغونس وهو القائد المحنك. عدّ المجازفة الحمقاء بمصير جيشه، وتركه مواقعه الآمنة، أكبر عاراً من تأنيب الناس وسخريتهم به. فلم يعرهم أذناً صاغية، وأصرّ على عدم الاشتباك بمعركة مع [كليومينس]. وفي اثناء ذلك بلغ جيش عدوه اسوار المدينة وهو يعيث في الانحاء سلباً ونهباً دون ان يلقى مقاومة ما، مجرعاً خصمه الإهانة تلو الاهانة، ثم انسحب.

بعد فترة أبلغ [كليومينس] ان انتيغونس ينوي التقدم نحو [تيغيا] ومنها يشرع في غزو لاقونيا، فأسرع يقود جنوده متحامياً الطريق حتى ظهر امام ارغوس عند تباشير الفجر. وعمد الى تخريب الحقول المحيطة بها. ولم يجتث سنابل القمح كما يفعلون عادة بمناجل الحصاد والسكاكين وانما كان يدق السنابل دقاً بهراوات خشبيّة ضخمة كالسيوف العريضة وهو سائر غير متوقف احتقاراً واستخفافاً مقصوداً، دون ان يتكبد في ذلك جهداً أو يضيع وقتا. وهكذا اتلف حاصلهم. الاّ انه اعترض محاولة جنوده اشعال النار في [كللابارس Cyllabaris] وهو ملعب رياضي، كأنه شعر بأن الخراب الذي احدثه في ميغالوپوليس كان لغلبة العاطفة على الحكمة. وسبقه [انتيغونس] الى [ارغوس] واحتل الجبال والشعب ووضع فيها ربايا. فلم يأبه [كليومينس] ولم يكترث وارسل رسولاً يطلب مفاتيح هيكل [جونو] كأنما يريد تقديم القرابين فيه ثم يعود من حيث أتى!

بهذا المزاح الاليم الشامت الموجه [لانتيغونس] ضحى للآلهة تحت جدران الهيكل المغلق ثم توجه الى [فيلوس] ومنها الى [اوليغيرتس Oligyrtis] حيث طرد محتليها. ثم سار نزلاً الى [اورخومينوس] ودخلها.

هذه العمليات فضلاً عن انها شدت من عزائم المواطنين - جعلته يبدو امام اعدائه رجلاً جديراً بالقيادة العليا، قادراً على اصطناع العظائم. فبقوات مدينته فقط، نازل المقدونيين ذوي القوات الجبارة فدوخهم وقاتل كل الپيلوپونيسّ ومن وراءهم اموالهم وكنوزهم تدعمهم. وحافظ على لاقونيا من غوائل السلب فضلاً عن اجتياحه بلاد العدوّ واستيلائه على العديد من المدن الهامة وهذا كله دليل على عبقرية قيادية فذة وبراعة غير عادية.

ان اول القائلين بأن المال هو عَصَب الأمور، يبدو انه كان يقصد الحرب خاصّة. ولما اقترع الآثينيون على وجوب انزال سفنهم وتجهيزها للحرب وعجزوا عن ايجاد المال اللازم قال [دياديس]:

- المطلوب، الخباز اولاً، ومن ثم الملأح.

وارخيداموس الغابر - في بداية حرب [البيلوبونيس] عندما اجمعت كلمة الحلف على تحديد حصّة كل حليف في النفقات، قيل انه اجاب:

- ان الحرب لايمكن ان تعتدّ بكذا ايام.

كان [انتيغونس] كالمصارعين الذين اكملوا تدريبهم واعدوا اجسامهم اعداداً صحيحاً، فراحو ينهكون قوى أخف منازليهم وابرعهم مناورةً. فقد دخل الحرب بموارد عظيمة. واتعب [كليومينس] الذي صعب على املاقه تأمين المال الكافي لدفع اجور مرتزقته. او لتدبير قوات مواطنيه. أما في ما عدا هذا، فان عامل الزمن كان الى جانبه. فالاحوال لم تكن على مايرام في مقدونيا، وقد اجتاحها البرابرة وتوغلوا فيها وهو غائب عنها. وفي عين الوقت دخلها جيش جرار للاليريين، فبعث المقدونيون يستعجلون بالعودة، وكادت الرسائل تصله قبيل المعركة، ولو وصلته لأسرع بالعودة تاركاً الآخائيين يتدبرون امرهم الأ ان الحظّ الذي أغرِم بتقرير نتائج الاحداث العظيمة في دقيقة واحدة. ابدى في هذا الحدث دقة زمنية رائعة. فبعد ختام معركة [سيلاسيا] مباشرة، تلك المعركة التي خسر فيها كليومينس جيشه ومدينته - وصل السعاة وطلبوا مقابلة انتيغونس. وهو ما جعل سوء طالع [كليومينس] أكثر استدراراً للشفقة والعطف. فلو انه استمر يتقهقر ولو انه تحاشى الدخول في المعركة يومين آخرين لما عادت الحاجة تدعوه الى المجازفة اذ بعد رحيل المقدونيين سيكون بمقدوره ان يفرض ما يشاء من الشروط على الآخائيين. الأ انه اضطر كما اسلفنا الى وضع آخر امله في سلاحه، لافتقاره الى المال، وارغم على زجّ العشرين الفاً (حب رواية [پوليبيوس]) يقابل ثلاثين ألفاً، وقد اثبت نفسه قائداً رائعاً في هذه الوقعة العصيبة. وأظهر مواطنوه شجاعة فائقة، وحارب مرتزقته حرباً بطولية. الأ انه غُلب بعامل الاختلاف في أساليب التعبئة، وانحطم تحت ثقل [الفلانكس بسلاحه الثقيل. ويؤيد [فيلارخوس] كذلك ان السبب في هزيمة [كليومينس] هي خيانة بعض المبطانة والمقربين منه.

أمر [انتيغونس] بتقدم الاليريين والاركارنانيين على محور شبه دائري فوق طريق خفيّة، ثم تطويق الجناح الذي يقوده [بوكليداس] أخ [كليومينس]، ثم جرّ بقية قواته الى المعركة. وكان كليومينس قد صعد ربوة منبسطة لمراقبة تنفيذ اوامره. ولما لم يشاهد أثراً ما للقطعات الاليرية والاكارنانية بدأ الشك يساوره بان [انتيغونس] قد أرسلها للقيام بشيء شبيه بما فصلناه فأستدعى [داموتيلس Damoteles] قائد الوحدات التي انيطت بها واجبات نصب الكمائن. وطلب منه ان يتعصّى بانظاره وضع المؤخرة وان ينعم النظر فيما وراء الجبهة فهناك

شيء ما قد يكتشفه. إلاّ ان داموتيلس (وقيل ان انتيغونس اشتراه) اطمأنه بألا شيء يخشى منه، وعليه الاّ يقلق فالمؤخرة على مايرام، والواجب عليه الآن هو ان يحصر اهتمامه بالجبهة الأمامية وبالذين سيقاتلونه منها. فاطمأن [كليومينس] وتقدم متعرضاً للعدوّ. وهجم السپارطيون هجمة عنيفة زحزت الفلانكس المقدوني من مكانه واجبرته على التقهقر وبعجلة أختراق ناجحة مرت قطعاته بين قوات [انتيغونس] وتغلغلت الى مسافة نصف ميل. الاّ أنه اوقف العملية عند ادراكه الخطر الذي بات يتعرض له الجناح الملتفّ بقيادة أخيه وناداه قائلاً:

- لقد ضعت يا أخي العزيز، لقد ضعت انك لمثل باسلٌ لشبابنا السپارطي، ولحن لأناشيد نسائنا.

وتمزق جناح [يوكليداس] وتشتت قواته بدداً. وانقضّ عليه المنتصرون من هذا الجانب المكشوف وسرعان مادبت الفوضى في جنوده وعجز عن مواصلة القتال فهرب. وقيل انه لم يسلم من السپارطيين الستة آلاف غير مائتين وسقط كثير من المرتزقة.

عندما دخل [كليومينس] سپارطة نصح من استقبله أن يخرجوا للقاء [انتيغونس]. واما عن شخصه فسيختار ما هو أصلح لسپارطه موتاً أكان أم حياة. ورأى النسوة يفزعن لاستقبال من نجا معه، ويتناولن منهن اسلحتهم ويسقيهن. فدلف الى منزله وتقدمت منه خادم وهي امرأة حرة كان قد جاء بها من [ميغالوپوليس] بعد وفاة زوجه وهمت بخدمته جرياً على العادة. فرفض ان يشرب شيئاً مع انه كان يشكو عطشاً شديداً. وأبى الجلوس مع أنه كاد يسقط أعياءً. واستقرت ذراعه وهو مازال لابساً دروعه - فوق عمود. واسند جبينه الى مرفقه وأراح جسمه قليلاً. ثم بدأ يقلب الفكر في السبل التي يتعين عليه الأخذ بها. ثم انه توجه مع بعض اصحابه الى [گيتيوم Gythium] فوجد السفن التي اوصى عليها مهيأة، فركبوها.

واستولى [انتيغونس] على سپارطة. واحسن معاملة اللقيديميين ولم تتعرض مكانة المدينة لإهانة او تجريح بأي شكلٍ من الأشكال وسمح للاهلين بممارسة قوانينهم ونظام حكمهم. وبعد ان قدم قرابينه رحل عنهم في اليوم الثالث لدخوله، لأنه سمع بنشوب حرب طاحنة في مقدونيا، وعلم ان البرابرة يجتاحون بلاده. فضلاً عن اشتداد وطأة العلة عليه فقد انقلبت الى سلّ والتهاب في قصبات التنفس. مع ذلك لم يهن وظلّ مثابراً وتمكن من العودة وانقاذ بلاده، والموت ميتة مجيدة مشرفة وسط الهزيمة الشنعاء والمقتلة الكبرى التي اوقعها بالبرابرة. ويذكر [فيلارخوس] وهو من الأمور المحتملة جداً. ان أحد اوعيته الدموية انفجر لشدة الصيحات التي اطلقها في ميدان القتال. وقد قرأنا في المدرسة، انه صاح من فرط فرحه بعد أن تمكن من النصر:

- يا لك من يوم مبين!

فنفث مقداراً من الدم، وركبته الحمّى ولم تفارقه حتى فارقته روحه. هذا ما يتعلق [بانتيغونس].

ابحر [كليومينس] من [كيثيرا Cythera] الى جزيرة أخرى تدعى [ايگياليا Aegialia]. وكان يهم بالاقلاع منها الى [كيرينه Cyrene] حين انتحى به صاحبه [ثيريكيون Thery-cion] جانباً. وكان رجلاً نبيل النفس في كل المواقف. جريء اللسان، مرحاً. فقال له:

- مولاي. ألموت في ساحة الوغى وهو أشرف الموت، ضاع منا. ومع اننا جميعاً نعلم أن [انتيغونس] لن يطأ ملك سپارطة وهو حيّ. والآن فهذا الطريق الذي لايحط من الشرف والكرامة، مفتوح امامنا. فلماذا نهرب من شرّ قريبٍ لنلجأ الى الشرّ البعيد؟ ان لم يكن مما يخلّ بشرف نسل هرقل ن يخضع لخلفاء فيليب والاسكندر، فسنقتصد رحلة طويلة بتسليم انفسنا [لانتيغونس] فربما كان أفضل بكثير من [بطليموس] مثلما كان المقدونيون أفضل بكثير من المصريين، ولو وجدنا الخضوع للذين غلبونا عاراً فلأي سبب نختار من لم يغلبنا سيداً؟ ألأننا نريد الاعتراف برئيسين بدلاً من رئيس واحدٍ؟ فنهرب من وجه [انتيغونس] لنتزلف الى [بطليموس]؟ ام انك تلجأ الى مصر بسبب والدتك؟ سيكون في الواقع منظراً جميلاً ممتعاً حين تعرض ابنها لأنظار نساء [بطليموس]، لابوصفه اميراً، بل عبداً منفياً. أو لسنا بعد سادة سيوفنا؟ وفي الوقت الذي ماتزال لاقونيا على قيد النظر منا، الا يجمل بنا ان نحرر انفسنا من هذا الشقاء المخزي، ونبريء أنفسنا امام أولئك الذين سقطوا في [سيلأسيا] صرعى، اعلاءً لشرف سپارطة ودفاعاً عنها؟ أم قضي علينا ان نقعد في مصر متكسعين نتسقط ابناء سپارطة ونتساءل عمن شاءت ارادة [انتيغونس] ان تنصبه حاكماً للقيديميين؟

هذا ما قاله [ثيريكيون] وهذا هو جواب [كليومينس] عليه:

- باطلابك الموت أيها الجبان - وهو اسهل وادنى ملاذ - تتصور انك ستبدو بطلاً مغواراً، إن هذا النوع من الفرار، هو اشدّ خزياً من الفرار الأول. رجال افضل منا بكثير، خفضوا جناح الذل لأعدائهم بعد ان عاندهم الحظ، او وقف شعوبهم ضدهم. لكن من يستسلم ويسقط تحت عبء الضنى والقنوط وتحت وطأه خطل رأي الرجال وسوء نصيحتهم انما ينزل عن نصره، بسبب جبنه وخنوثته. فالموت الاختياري يجب استبعاده كوسيلة للخلاص من العمل، وان اخترته فكعمل مثاليّ قائم بذاته. ومن العار ان تموت او ان

نحيا لأنفسنا فحسب. ان الموت الذي تدعوني اليه الآن انمّا يطلب لخلاصنا من شقائنا الحاضر، وليس فيه نبلٌ ولا جدوى واري انه يجدر بنا نحن الاثنين بأن لاندع لليأس من حال بلادنا، سبيلاً لأنفسنا. وعندما نفقد الأمل تماماً، فلا بأس ان يختار كل واحد أسرع ميتة يراها.

لم يجبه [تيريكيون]. لكن ما ان حانت له فرصة الوقوف في أحد السواحل، حتى نزل وبخع نفسه.

أقلع [كليومينس] من [ايگياليا] وأرسى في ليبيا. وكان سفره الى بلاد الملك محفوفاً بالاكرام والرعاية الى ان بلغ الاسكندرية. ولم تزد مقابلته الأولى للملك على عبارات المجاملة المعتادة، ولم يلق أكثر من الحفاوة الرسمية، لكن الأمور تغيرت فيما بعد. فقد تبين له بعد تجربته ان [كليومينس] رجل عميق الحس راجح العقل، يخالط اسلوب حديثه اللاقوني البسيط، نبل ورقة محببة. وانه لم يفعل شيئاً غير جدير باصله العريق ولم يحن هامته لتصاريف الحظّ. وبدا له أخلص مستشارٍ من بين أولئك الذين كان يتزلف والتحبب شغلهم الشاغل. فأدركه الخجل وندم لإهماله هذا الرجل الكريم، وانبه ضميره لأنه تسبب في ان يحرز [انتيغونس] هذه الشهرة العظيمة على حسابه. فأنقلب سلوكه تجاهه، وأظهر له كثيراً من المودة والانعطاف ووعده بأن يجهزه بسفن ويمده بالمال للعودة الى بلاد الاغريق وتبوء عرش مملكته، وخصص له مرتباً سنوياً قدره اربعة وعشرون تالنتاً. كان [كليومينس] ينفق القليل منه على نفسه واصحابه لما طبعوا عليه من الاكتفاء بالحد الأدنى من وسائل العيش. اما الباقي فكان يستخدمه لستر خلّة المحتاجين من لاجيء الاغريق الى مصر. الا ان [بطليموس] العجوز توفي قبل ان يخرج وعده [لكليومينس] الى حيز التنفيذ. وكان خلفه ملكاً متحللاً، شهوانياً، زير نساءٍ واقعاً تحت تأثير خمره وحريمه. فأهمل شأن [كليومينس] بسبب انشغاله بملذاته ونسائه، وكان أحفل ساعاته بالعمل وأكثرها جدية هي مساهمته في الاحتفالات الدينية المقامة في قصره. فتراه ينقر الدف ويشارك في المراسيم حين تولى عنه تصريف شؤون الدولة الهامة حظيته [اغاثوكليا Agathoclea] وأمّها والقوّاد [اونانتس Oenanthes]. في مبدء الأمر كان يبدو ان هؤلاء في حاجة الى [كليومينس]. لأن بطليموس الراحل كان يخشى أخاه [ماغاس Magas] الذي تبوأ مكانة كبيرة في قلوب الجنود بمساعي أمّه، فأفسحّ [لكليومينس] بين مجلس شوراه الخاص واطلعه على خطة ترمي الى قتل أخيه. الا ان [كليومينس] عارض الجميع بقوله: يجب ان يكون للملك اخوة كثيرون على قدر المستطاع. فلهذا اثر كبير على امنه واستقرار احواله.

فردّ [سوسيبيوس Sosibius] بأنهم لا يأمنون من اخلاص الجنود المرتزقة مادام [ماغاس] حياً. فقال [كليومينس] لا حاجة بهم الى القلق من هذه الجهة. ففي المرتزقة أكر من ثلاثة آلاف [پيلوپونيسيسي] وهم اصحابه وبامكانه ان يقودهم في اي وقت يشاء بايماءة منه. بعد هذا الحديث بدأ لهم [كليومينس] شخصاً لا مطعن في اخلاصه، يستطيع أن يستخدم نفوذه الكبير لمصلحتهم الاّ ان الضعف الذي كان يشكو منه بطليموس الأبن، أثر على مخاوفه وزاد فيها. وعندما تفتقد الحكمة وسداد الرأي. ينزل الشعور بالأمن الى وهدة الشك العام وعدم الثقة. وهذا ما جعل كليومينس موضع ريبةٍ عند رجال الحاشية بوصفه صاحب نفوذٍ عظيم لدى المرتزقة. واصبحت هذه المقولة على كل شفة ولسان في القصر «ان كليومينس في البلاط اشبه باسدٍ بين النعاج». هكذا كان يبدو في البلاط حقاً: يراقب بهدوءٍ ويتابع ببصرته النافذة كل ما يجري.

ونبذ كل فكرة بطلب سفن وجنود من الملك، على ان الانباء وصلته بموت [انتيغونس] وبأن الآخائيين مشتبكون في حربٍ مع الايتوليين وان احوال [الپيلوپونيسيس] قد بلغت حداً كبيراً من الفوضى والانحطاط: وهي تتطلب بل ترغب في الاستعانة به. فطلب الأذن بالرحيل مع اصحابه فحسب. فلم ينل بغيته ولم يُتح له المجال ليكلم الملك بهذا، لأن الأخير منصرف بكلتيه الى نسائه وقد أغلق بابه بوجه كل أحدٍ منفقاً اوقاته في احياء الحفلات الباخوسية، واقامة مجالس الشراب. وفكّر [سوسيبيوس] الوزير الأول - بأن احتجاز [كليومينس] ضد رغبته سخيفة ويجعل منه انساناً مشاكساً. كما ان المحذور من السماح له بالعودة قائم. فهو رجل مقدام ذكيّ اريب، مطلع على علل المملكة ومواطن الضعف فيها. ولم تكن الهدايا والعطايا لترضيه وتسكن من ثورته، انه كالثور المقدس [آپيس] ففيما هو يعيش منعماً بكل ما يمكن توفيره له من راحةٍ ورزق وفير وعلى مايبدو فيه من الرضا والسعادة، تراه يحنّ ابداً الى العيش على ما تجرد به الطبيعة، وان يطلق سراحه ليمرح ويرعى بحرية متجولاً على رساله في الحقول بعيداً عن مضايقات الكهنة ورعايتهم. كذلك كان امر [كليومينس] ان عاد يطيق مجاملات البلاط ودعواتهم الرقيقة. وظلّ مقيد الدار كأخيل:

«... مُضنى ... بعيداً، يتمنى القتال، وصيحة الحرب.»

ظلّت احواله هكذا حتى قدم [نيكاغوراس Nicagoras] الى الاسكندرية. وكان هذا يكن له أشدّ البغض، إلا ان يتظاهر بصداقته. وسبب ذلك انه كان قد باع من [كليومينس] عقاراً جيد الغلّة، ولم يقبض ثمنه، ربما لأن [كليومينس] كان يشكو ضيق ذات اليد، وربما لانهماكه في حروبه وما شاكل ذلك من المشاغل فلم يتيسّر له الوفاء. ولمحه [كليومينس] وهو ينزل

البرّ، يتنزه على الرصيف فأقبل عليه وحياه بمودةٍ وسأله عما أتى به الى مصر؟ فشكر له [نيكاغوراس] تحيته وقال انه قدم ليعرض على الملك صفقة من الخيول الحربية الممتازة. فقال [كليومينس] باسماً:

- وددت له عرضت عليه صفقة من الغلمان والمغنيات الصغيرات فهذا هو ما يهتم به الملك في الوقت الحاضر.

فضحك [نيكاغوراس] مستغرباً من هذا، ومضى لطيته، وبعد ايامٍ قصد [كليومينس] وذكره بالعقار الذي اتباعه، وطالبه بالثمن معتذراً بأنه ما كان ليزعجه لو انه اصاب من بضاعته الربح الذي أمله.

فأجاب [كليومينس] بانه لم يفضل لديه شيء مما أجري عليه. فتركه [نيكارغوراس] غاضباً وقصد [سوسيبيوس] وقصّ عليه مزاح [كليومينس] وسخريته بالملك. فسرّ الوزير بمعلوماته. الاّ انه كان يحتاج الى سبب أكثر اثارة لحقد الملك عليه. فأقنع [نيكاغوراس]. ان يترك لدية رسالة تدين [كليومينس]. وتدل بانه يضمر خطة للانقضاض على جزيرة [كيرين] حالما يتوفر له الجند والسفن. فكتب [نيكاغوراس] الرسالة المطلوبة وغادر مصر. وبعد اربعة ايامٍ عرض [سوسيبيوس] الرسالة على الملك زاعماً انها وصلته الساعة. فثار بها غضب الشاب وملكه الخوف. وتم الاتفاق ان يدعى [كليومينس] الى منزل واسعٍ فاذا دخلها لايخرج منها وان يعامل بالشكل اللائق الذي اعتاده دون نقصان.

هذا الاجراء آلم [كليومينس] كثيراً. فركبه وزاد في الطين بلة حادثة أخرى فيها قرأ السلام على آماله. وودع آخر رجاء له. كان بطليموس ابن خريسيوماس Chryseumas احد المقربين الى الملك، ولطالما أظهر المودة واللطف لكليومينس حتى توثقت عرى الصداقة فيما بينهما وارتفعت الكلفة فكانا يتحدثان في الشؤون العامة دون تحفظ او وجل. طلبه كليومينس فجاءه وكلمه بما طيب خاطره، وهدّأ من روعه وبدد شكوكه واعتذر عن سلوك الملك حياله. ولكنه وهو في طريقه الى الخارج انثنى الى الحراس يعنفهم لإهمالهم في مراقبة [كليومينس]:

«... هذا الوحش الضاري العظيم الشديد الشراسة...».

ولم يدر ان [كليومينس] كان خلفه وقد سمع كل ما تفوه به.

اسرع [كليومينس] الى رفاقه وأخبرهم بما سمع ورأى وعندئذ نبذوا آمالهم السالفة وعزموا على اتخاذ العنف وسيلةً، وقرروا الانتقام من [بطليموس] لخسته ودناءته وان يغسلوا الاهانة

ويموتوا الميتة الجديرة بالسپارطيين. لا ان يظلوا ساكتين حتى يذبحوا كالاضاحي المسمّنة لقد كان من المؤلم والمخزي [لكليومينس] الذي ترفع عن مفاوضته [انتيغونس] المحارب المقدام ورجل الأفعال الجسام - ان ينتظر فرصته لمفاتحة ملك مخنث بأمره، حتى يلقي دُفّه جانباً، ويرفض طلبه ثم يقتله.

وتم الاتفاق على الخطة. وصادف ان [بطليموس] ازمع السفر الى [كنوپوس Canopus] وقتذاك. فأشاع اصحاب [كليومينس] بان الملك قد ردّ اليه حريته، ولما كانت العادة تقضي ان يرسل الملك هدايا ومطاعم لمن يطلقه من اساره، فقد هيأ ذوو كليومينس كلّ ذلك وارسلوه الى محتجزهم ملقين في روع الحرس بأن ما ارسلوه هو من الملك. فقرب [كليومينس] للالهة، ودفع بجزء كبير مما جيء به، الى الحرس. ووضع أكليل زهر في رأسه وأخذ يلهو ويقصف مع خلأنه، متظاهراً بالفرح والغبطة. وقيل انه بدأ في تنفيذ خطته قبل التوقيت الذي قرره لها، بعد ان علم ان خادماً مطلعاً على سرّ الخطة قد خرج لزيارة معشوقته وهذا ما جعله يعجّل بها خشيه انكشافها. فما ان نشر البدر ضياءه والحراس في نوم عميق من تأثير الخمر. حتى بادر فارتدى زرده، وفتح كمّه الأيمن لتكون ذراعه أكثر حرية وامتشق سيفه واندفع الى الامام مع اصحابه وهم بنفس الهيئة وكان عددهم جميعاً ثلاثة عشر. بينهم [هيپتياس Hippitas] الأعرج الذي لحق بهم رغم عرجه - في الهجوم الأول، ولما ادرك ان بطئهم كان بسببه طلب منهم ان يقضوا عليه وان لايتلفوا عملهم بانتظار شخص قاصر لافائدة منه. واتفق ان اسكندرانياً كان ماراً على ظهر حصانه فأنزلوه وراكبوا [هيپيتاس] عليه واندفعوا يطوفون في الشوارع منادين بالحرية للشعب. ولم يكن لدى الاسكندرانيين من الشجاعة الاّ بمقدار الاعجاب [بكليومينوس] ومدح جسارته، ولم يجد احد منهم في نفسه الجرأة للانضمام اليه ومساعدته. وانقضّ ثلاثة منهم على [بطليموس] بن [خريسوماس] وهو في طريقه الى القصر فذبحوه. وتقدم نحوهم [بطليموس] آخر، هو الضابط المكلف بأمن المدينة، وكان راكباً عجلةً فهجموا عليه وفرقوا حراسه واتباعه وجذبوه من فوق العجلة وقتلوه. ثم اتجهوا نحو القلعة يريدون كسر ابواب السجن واطلاق سراح من فيه علّهم يستفيدون من بعضهم. الاّ ان الحراس كانوا يقظين لهم فأحكموا سدّ المدخل. ولما اخفقوا في محاولتهم هذه، أخذوا يتجولون في المدينة على غير هدىً ولم ينضم اليهم أحدٌ وكان الناس يهربون من امامهم ويختفون حال اقترابهم. وادرك [كليومينس] اليأس من اي نجاح وقال لرفاقه:

- لا عجب ان يحكم النساء والرجال، فهم يخافون الحرية.

واوصاهم ان يموتوا بتلك الشجاعة الجديرة باتباعه وبمآثرهم في المعارك السابقة التي

خاضوها. ثم هوى كل واحدٍ منهم على حَدّ سيفه. وكان أولهم [هيپيتاس] فقد قضى عليه أحد رفاقه الشبان. وبقي [پانتيوس] وهو القائد الذي ارسله كليومينس لمباغتة [ميغالوپوليس] وكان شاباً جميلاً للغاية. ومن أشدّ المتمسكين بالانضباط السپارطي، وهو أعز اصدقاء كليومينس. لما رآه مع البقية صرعى استلّ خنجره وراح يتنقل فيما بينهم وهم صرعى ويخز كل واحدٍ منهم بذبابه خنجره ليتأكد من موته على الطريقة السپارطية. وانتهى الى جسد [كليومينس] فوخز كاحل ساقه فأنقلب هذا ما ظهره، فانحنى پانتيوس وقبلّه وجلس بالقرب منه حتى أسلم روحه، فغطى جثته، ثم قتل نفسه.

هكذا قضى [كليومينس] نحبه بعد الحياة التي قصصنا حوادثها، وبعد ان حكم سپارطة ستة عشر عاماً. وانتشر خبر مصرع الثلاثة عشر في طول المدينة وعرضها. ولم تقو [كراتيسيكليا] على تحمل هول الصدمة وطحنها الأسى وان كانت معروفة بقوة العزيمة، فعانقت طفلي [كليومينس] وانحرطت في بكاء وعويل ولم يكن أحد يتوقع ان طفله الاكبر ذو روح وثابة مثله. فقد نقذف بنفسه من أعلى السطح وسقط مهشماً مرضوضاً ولكنه لم يمت، فحمل وهو يصيح مستنكراً منعهم له من قتل نفسه. وما ان أبلغ [بطليموس] الملك بتفاصيل الحادث حتى أمر بسلخ [كليومينس] وتعليقه، ويقتل ابنيه وامّه وسائر النسوة اللاتي جئن مع اللاجئين السپارطيين هؤلاء.

وكان بينهن زوج [پانتيوس] وهي فتاة جميلة نبيلة التقاطيع لم يمر كثير على زواجها وقد مرت بها هذه المصائب وهي في اوج حبها. منعها ابواها من الإبحار مع [پانتيوس] على أثرتمام الزواج، فأبت ورغبت اللحاق به فحبساها في البيت رغم انفها. لكنها تمكنت بعد ايام قليلة من الحصول على حصان وشيء من المال وهربت ليلاً وانطلقت تسابق الريح حتى بلغت [تيناروس] ومنها ابحرت الى مصر وانضمت الى زوجها وتحملت معه بطيب خاطر حياة المنفى. مدت يدها الى [كراتيسيلكيا] لتعينها وهي سائرة بين الجنود الى ساحة الموت. ررفعت ثوبها وشجعتها. ولم يكن يبدو عليها اي رهبة من الموت، وكان طلبها الوحيد ان تموت قبل الطفلين. وعندما بلغن محل التنفيذ بدئ بقتل الطفلين امام عيني [كراتيسيكليا] ثم حان دورها فقالت قبل ان يجرى فيها حكم [بطليموس]:

- وآهٍ لكما أيها الطفلان! الى اين تراكما ذاهبان؟

الاّ ان زوج [بانتيوس] وكانت امرأة ذات قوةٍ لمت حولها اطراف ثوبها وبهدوء تامٍ وصمت راحت تعنى بجثث القتيلات. واسجتهن على الأرض بشكل مقبول على قدر ما يسمح به الظرف واحدة بعد الأخرى. وبعد ان تم بالتنفيذ في جميعهن حان دورها، فأعادت تنظيم ثوبها

وجمعته الى جسدها ولم تقبل بان يتقدم أحد منها او يكون شاهد عيان لموتها ماعدا الجلاّد. وانتظرت الضربة بشجاعة. ولم توصِ بان يرعاها أحد أو يقوم بربطها بعد موتها. وهكذا بدا حياءُ عقلها في موتها، اذ جعلته حارساً على جسمها. وكذلك كانت دائماً في حياتها، فأظهرت في عصر انحلال السپارطيين بان النسوة منافسات متفوقات على الرجال وضربت مثلاً في الشجاعة فاق تحديات الحظّ.

بعد ايام قليلة لاحظ المتفرجون على جثة [كليومينس] المعلقة حية كبيرة ملتفة حول رأسه تغطي وجهه وتمنع اقتراب الطيور الجارحة منه. وهذا ما ملأ الملك بالوساوس المخفية فأمر النسوة بمباشرة مختلف الكفارات، كأن شخصاً غير عادي، أو مخلوقاً محبوباً من الآلهة قد قتل. واحيا الاسكندرانيون مآتم دينية في الموضع ومنحوه لقب البطل وابن الآلهة. الى ان أقنعهم الفلاسفة بخطلهم. بقولهم كما ان الثيران تنسل النحل، والخيول تستولد الزنابير والحشرات تخرج من رمم الحمير الميتة، كذلك عصير واخلاط[2] مخّ الانسان فانه يتخثر فتولد منه الافاعي. وقد لحظ القدماء ذلك. فجعلوا الحية رمزاً للبطل - دون سائر المخلوقات الأخرى.

١٩٧٢/١/٢٧

---

(٢) الاخلاط الاربعة هي عند القدماء: الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقد زعم اطباؤهم انها تقرر صحة الانسان وسقمه ومزاجه.

طيبريوس گراخوس

GRACCHUS

(Tiberius Sempronius)

162 – 133

بعد أن فرغنا من عرض السيرتين الأوليين، نبدأ الآن في استعراض حياتي اثنين من الرومان - لم يكن سوء الحظّ الذي لقياه بأقل من سوء حظّ قرينيها [آغيس] و[كليومينس].
[طيبريوس وكايوس] ابنان شقيقان [لطيبريوس غراكوس] الذي تولى مرةً منصب الـ[چنصور] ومرتين منصب [القنصل]، ونال موكبي نصر. ولكن شهرته وسمعته تعود بالاغلب الى فضائله ومكارم خلقه لا الى امجاده والمناصب التي تقلدها. ولهذا، أقدم بعد موت [سكيپيو] قاهر [هنيبعل] على خطبة بنته [كورنيليا] ولم يكن ثم صداقة أو علاقة بينه وبين [سكيپيو] وربما كان ثم جفوة. وتروى عنه حكاية مؤداها انه وجد يوماً في غرفة نومه حيتين فاستشار العرافين في هذه الخارقة. فمنعوه من قتل الاثنتين أو تخلية سبيلهما. وقالوا ان قتل الذكر سيؤدي الى موت [طيبريوس] وان قتل الأنثى سيؤدي الى موت [كورنيليا]. وكان [طيبريوس] شديد الحبّ لزوجه وفكر ان الموت اقرب اليه منها لكونه كبير السنّ. وهي مازالت صغيرة فعمد الى قتل الذكر، وترك الأنثى لشأنها وتوفي بعد حين تاركاً اثني عشر ولداً من [كورنيليا].

واضطلعت [كورنيليا] بتدبير شؤون المنزل وتربية اولادها فكانت خير ربة بيت، وأعظم الامهات محبة، وأكثر الارامل وفاء ونبلاً. حتى بدا [طيبريوس] على جانب عظيم من الرجاحة عند اختيار الموت في سبيل هذه المرأة، التي بلغ وفاؤها أن عرض عليها [بطليموس] الملك تاجه فابت الاقتران به وفضلت عيشة الترمّل وبقيت هكذا الى الأخير. وشكلت اولادها الاّ ابنة واحدة، زوجتها من [سكيپيو] الأصغر، وابنين هما [طيبريوس] و[كايوس] وهما موضوع دراستنا هذه.

كانت العناية التي بذلتها الأم في تثقيفهما عالية حتى بدأ وكأنهم مدينان بفضائلهما الى ذلك أكثر مما هما مدينان لمنبتهما، ولمواجهة الطبيعية. فهما بين رومان عصرهما في المقدمة. اقرب المثال وبالاختلاف الملاحظ في هذين الشابين النبيلين. هو التماثيل والصور التي نحتت للالهيْن [كاستور وپوللوكس] فمع تشابههما، فهناك فروق، تبدو في كل منهما. أولهما كان يهوى حلبة الملاكمة، وثانيهما كان مجلياً في ميادين السباق. فالتشابه العام بين الأخوين

[غراكوس] قويّ من ناحية الخلق. كلاهما عرفا بثبات العزيمة وضبط النفس والسخاء الفصاحة والذكاء. الأ ان نشاطهما وشكل معالجتهما للمسائل العامة تختلف فيما بينهما أختلافاً كبيراً وليس من قبيل الشذوذ عن الموضوع ان نبدأ بتعيين وجوه الاختلاف هذه:

فمن ملامح طيبريوس، وتعابيرها، ومن ايماءاته وحركاته؛ يظهر انه رقيق الحاشية، هادئ الطبع، في حين يظهر كايوس عنيفاً في غاية الجدّ. وينعكس هذا في خطبهما الجماهيرية السياسية. فالأول ذو اسلوب رزينٍ منظمٍ، يقف على المنبر فلا يتحرك حتى ينهي خطابه، والثاني تراه لا يستقرّ في مكان فيسير ويتنقل جيئة وذهاباً، ويجتذب عباءته حتى تنحسر عن كتفيه، وهو اول روماني يلجأ الى مثل هذا الأسلوب. كما قيل ان [كليون Cleon] كان اول خطيب من الآثينيين نزع عباءته وضرب فخذه عند توجهه بالخطاب الى الجمهور. كانت خطب [كايوس] عاطفية عنيفة، صريحة الى أقصى حَدّ. اما خطب [طيبريوس] فكانت منطقية مقنعة رقيقة تثير الرثاء، واسلوبه نقيّ لاشائبة في فصاحته. اما اسلوب [كايوس] فهو حماسيّ فخم. ويمكن قول هذا عن عيشهما ومأكلهما، [فطيبريوس] بسيط العيش زاهدٌ، و[كايوس] لو قورن بغيره - معتدل متزمت. الا أنهما نقيضان في حبّ الاشياء النادرة والأزياء الجديدة، كما يبدو من اتهامات [دروسوس Drusus] لكايوس: فقد روى انه ابتاع درلفينات فضيّة بألف ومائة وخمسين درهماً للپاون الواحد وزناً. والعزق يبدو أيضاً في مزاجيهما. فأولهما أنيس متزن. والثاني خشن عاطفي تستاقه العاطفة وهو في أوج خطبته فتنسيه نفسه ويفقد سيطرته على صوته وتتغير نبراته الاعتيادية، وينحدر الى البذاءة والنبوّ، فيتلف خطبته. ولمعالجة هذا الاندفاع عمد الى استخدام خادم حاذقٍ اسمه [ليشينيوس] كان يقف خلفه عندما يخطب. وبيده مزمارٌ خاص لتنظيم طبقات الصوت ونبراته، فكلما شعر بتغير نبرة سيده وتبين حدّة الغضب فيه نفخ بمزماره نغمة هادئة، ما يسمعها [كايوس] حتى يوقف اندفاعه العاطفي فيأخذ صوته بالانخفاض، وترتخي اعصابه ليعود الى حالة الطبيعية.

تلك هي وجوه الخلاف بين الاخوين، الا أنهما كانا صنوين في الشجاعة والاقدام الذي اظهراه في الحروب. وفي عدالتهما وعنايتهما بمصالح الشعب وفي تفانيهما باعمالهما وواجبات مناصبهما. وبضبط النفس في ما يتصل بملذاتهما.

وكان [طيبريوس] يكبر أخاه بتسع سنوات. فبعدت الشقة بين جهمودهما العامّة، بالعامل الزمني، فكان هذا احد الأسباب الرئيسة التي أودت بمشاريعهما وخططهما السياسية. اذ تعذر توحيد تلك المجهودات والمشاريع ولولا ذلك، لكانت القوة المتولدة من تكاتفهما في وقت واحد كفيلة بالتغلب على اية عقبة وسحق كل مقاومة، وبعد هذا كله علينا أن نقص سيرة كل

من هذين الاخوين على انفراد ولنبدأ بأكبرهما.

ما أن بلغ [طيبريوس] مرحلة الرجولة، حتى كانت سمعته طائرة وصيته ذائعاً. حتى انه قُبل في هيئة الكهنة المتنبئين، بالاكثر لفضائله المتكاملة، لا لعراقة نسبه. وقد تأيد هذا بما أقدم عليه [آپيوس كلوديوس Appius Claudius] رئيس مجلس الشيوخ الروماني وقتذاك، و(القنصل) و(الجنصور) قبلها. وهو رجلٌ راجح لايجهل قدر نفسه ولامكانته الرفيعة. هذا الشخص وجد في احتفال ديني عام للكهنة العرافين فتوجه الى [طيبريوس] بخير العبارات وألطفها وعرض عليه بصراحة، يد ابنته فبادر [طيبريوس] الى القبول بكلّ سرور، فتم العقد. وعاد [آپيوس] الى منزلة. ونادى زوجه بصوت عالٍ ورجله فوق العتبة، وقال:

- يا انتستيا! لقد أخترت زوجاً لابنتي واتممت العقد.

فأجابت وهي مشدوهة: ولم هذه العجلة؟ وما معنى هذه السرعة، الا اذا كنت قد عقدت لها على طيبريوس غراكوّس؟

لست أجهل ان بعضهم يعزو الحكاية الى كلّ من [طيبريوس] رأس أسرة غراكّي Gracchi و[سكيپيو افريقانوس] الأ ان معظمهم يرويها كما اثبتناها. ويكتب [پوليبيوس] أن أقرب اقرباء [كورنيليا] بعد وفاة ابيها [سكيپيو] فضلّ [طيبريوس] الأبن على كلّ الخاطبين الآخرين. فزوجها له. وان اباها لم يعقد لها على أحد ولم يعد بها شخصاً.

ولذلك ترى [طيبريوس] الشاب يخدم في افريقيا تحت أمرة [سكيپيو] الأصغر زوج أخته، فيساكنه الخيمة. وسرعان ما تعلم كيف يقدر روح قائده النبيلة حق قدرها. فقد كانت صالحة جداً لاثارة دوافع قوية للمنافسة على الفضائل، والرغبة في اقامة الدليل على الكفاءة. ولم يمرّ عليه طويل زمن حتى فاق شبان الجيش كلهم في ميزتي الطاعة والإقدام. وكان أول من تسلق اسوار العدوّ على ما ذكره [فانيوس Fannius] الذي يشاركه في العمل وكانت المحبة والمودّ تكتد فانه من كل جانب طوال وجوده في الجيش حتى أسف الجميع عند رحيله، وتمنوا رجوعه.

ولما عين كويستوراً - بعد هذه الحملة - شاء سوء طالعه أن يلحق بأمرة [كايوس مانشينوس Caius Mancinus] القنصل في الحرب الدائرة ضد [النومانتيين Numan-tines]. كان هذا الجنرال حسن الخلق لا مطعن فيه. لكن لازمه سوء حظٌ لم يلازم مثله اي قائد روماني آخر، فلم يتغير مسلك [طيبريوس] ازاءه مطلقاً بسبب النكبات العظيمة التي لقيها قائده والاخفاق الشنيع الذي مني به. وكان أكثر الاعجاب [بطيبريوس] متأتياً من احترامه العظيم لقائده فضلاً عن رجاحة عقله وشجاعته، وهذا ما كان بارزاً فيه كل البروز

ومدعى للتقدير. والجنرال نفسه كان ينسى جلال منصبه وهيبته عندما تحزب به الأمور وتكتنفه الخطوب. فبعد ان لم يحالفه التوفيق في عدد من الوقعات الهامّة، حاول ترك معسكره والانسحاب ليلاً، فعلم النومانتيون بذلك وترصدوا له واسرعوا باحتلال معسكره وبتعقيب القسم المنسحب من قواته وقتلوا من حرس مؤخرته خلقاً كثيراً، وشرعوا يتعرضون للقسم الاكبر من كل صوب، حتى ارغموه على الالتجاء الى ارضٍ صعبة لايستطيع منها نجاة، واسقط في يد [مانشنينوس] وادركه اليأس من شق طريقه بالقوة. فأرسل بطلب الهدنة والصلح. الأ ان النومانتيين رفضوا التفاوض الأ مع طيبريوس، لعدم ثقتهم بغيره لا لمتانة خلق الشاب وسمعته الداوية بين الجنود، بل اكراماً لذكرى ابيه الذي أخضع بالقوة قبائل عظيمة من الاسبان عندما كان يدير دفة الحرب ضدهم، لكنه صالح النومانتيين ونجح في اقناع الرومان باحترام ذلك الصلح، وعدم الإخلال بشروط مطلقاً.

فأوفد [طيبريوس] الى العدوّ وتم الاتفاق على شروط الجانبين وبهذه الوسيلة انقذ عشرين ألفاً من المواطنين الرومان خلافاً للخدم والاتباع في المعسكر، كانوا سيهلكون لا محالة. على أن [النومانتيين أحتفظوا بكل ما وجدوه من أموال في المعسكر، ومما نهبوا، سجلات [طيبريوس] المالية وفيها دون كل ما اجراه من معاملات صرفٍ وانفاق خلال توليه منصب [الكويستور]. وكان شديد القلق عليها، عظيم الأمل في استعادتها. ولذلك ما أن واصل الجيش سيره حتى قفل راجعاً الى [نومانتيا] ومعه ثلاثة او أربعة من اصحابه لا غير. ورجا الضباط النومانتيين اعادة السجلات، قائلاً انه سيتعرض الى تهم يلصقها به اعداؤه حين يعجز عن تقديم حساباته حول ما دخل ذمته من اموال وسرّ النومانتيون به وحمدوا الفرصة التي اتاحها لهم لخدمته ودعوه الى دخول المدينة ولما تردّد أقبلوا عليه وامسكوا يده راجين ان لاينظر اليهم بعد اليوم نظرته الى عدو، وان يثق بصداقتهم فيعاملهم على هذا الاساس. ورأى [طيبريوس] انه يفعل حسناً لو وافق على الدعوة فقد كان شديد الرغبة في استعادة سجلاته، عظيم الخوف من الاساءة الى مشاعرهم باظهار الريبة والشك فدخل مدينتهم وقدقوا طعاماً له وبكثير من الالحاح والرجاء جلس واكل ومن ثم أعادوا اليه سجلاته، وخيروه في استعادة ما شاء من الأسلاب الباقية، فأبى ان يمدّ يده في شيء منها خلا شيئاً قليلاً من البخور الذي يستعمل في القرابين العامة. ثم انه ودعهم شاكراً بعبارة جميلة ورحل.

ووجد عند عودته الى روما ان معاملاته المالية باتت هدفاً للطعون والاتهام. فكان اجراءً شائناً من الرومان لم يسبق بمثيل له. الأ ان ذوي الجنود واصحابهم وهم يؤلفون فئات كبيرة من الناس كانوا يعتبرون [طيبريوس] منقذاً لعدد كبير من الرومان وينسبون للقائد كل ما وقع

من أخطاء. فأقبلوا على [طيبريوس] يشدون أزره. وطالب المندرون والمتهمون أن يقتدى باسلافهم في معاقبة المسؤولين الرومان الذين يخرقون معاهدات روما مع جيرانهم. فيجردوا القواد بله كل الكويستورين والتريبيون الذين ساهموا بشكلٍ ما، وسلموهم الى السامنيت Samnites مثلاً، وجعلوهم يتحملون تبعات الحنث بالعهد والاخلال بشروط الصلح. لكن الشعب في هذه المرج ابدى تعلقاً غير عادي [بطيبريوس] ولطفاً به. وقد صوت فعلاً على تجريد القائد من رتبته وتكبيله بالاغلال وتسليمه للنومانتيين، لكنهم حبا [بيطيبريوس] اعفوا كل الضباط الآخرين معه وربما كان لتدخل [سكيپيو] أعظم الرومان واقواهم نفوذاً اثر في انقاذه، وان كان قد انتقد لأنه لم يتدخل لحماية [منشينوس]. ولم يهتم هو نفسه بالمحافظة على شروط السلام التي توصل اليها قريبه وصديقه [طيبريوس] مع النومانتيين. ولنا ان تعترض بأن اختلافهما وجفوتهما يعودان بالدرجة الأولى الى طموح كل منهما، والى تأثير الأصحاب والناصحين، الذين كانوا كثيري الالحاح على [طيبريوس] في ابداء المزيد من الاندفاع. على ان هذا الخلف لم يصل الى حَدّ القطيعة ولم يكن بالغ السو. ولا أعتقد أن [طيبريوس] كان سيلقى ما لقي من نوائب لو اهتم [سكيپيو] بمعاونته وجعل من نفسه ظهيراً له. على انه كان بعيداً منه، يقاتل في [نومانتيا] عندما برز [طيبريوس] في روما لأول مرةٍ سياسياً مشترعاً في المناسبة التالية:

كان الرومان عندما يستولون بالفتح على اراضٍ من جيرانهم، يبيعون قسماً منها بالمزاد العلني. ويحتفظون بالباقي للدولة، (اراض اميريّة). ويعهد بهذه الاراضي الى المواطنين الفقراء والمعوزين ببدل ايجار رمزيّ بسيط يدفعه المستغلّ الى الخزينة العامة. ولكن الاغنياء اخذوا يعرضون بدلات ايجارٍ مرتفعة. فيطرد الناس الأفقر منهم ويجردون من اراضيهم، ولهذا صدر مرسوم يحددّ المساحة التي يمكن للفرد استغلالها بما لايزيد عن خمسمائة فدان (ايكر) فوضع حداً لجشع الاغنياء الى حين، وكان عوناً كبيراً للفقراء الذين تمكنوا من الاحتفاظ بقطع اراضيهم المستأجرة من الدولة. إلاّ أن الاغنياء مالبثوا ان أهتدوا الى طريقة للاحتيال على القانون، لاستعادة الاراضي والتصرف بأكثر من المساحات المقررة. تحت اسماء اشخاص آخرين، وكفوا عن الإدعاء بها علناً وكأنها لاتعود لهم. لم يعد الفقراء الذين جردوا من أراضيهم بهذا الشكل، يبدون اي استعداد كالسابق للانخراط في صفوف الجيش والخروج الى الحرب. كما أهملوا تربية اولادهم. وبعد زمن قصير هبط عدد الرومانيين الأحرار في سائر ايطاليا ولم يعهد فيها من إلاّ نسبة قليلة، تدفقت الى محلات العمل والصنائع المكتظة بالعبيد الأجانب. كما استخدم الاغنياء بعضهم في اراضيهم المغصوبة بمثابة فلاحين أجراء.

وأخذ [كايوس ليليوس Caius Lalius] وهو صديق مقرب لسكيپيو - على عاتقه اصلاح الحال وازالة الحيف لكنه لقي معارضة شديدة من ذوي الحول والطول فخاف الفتنة ونكص على أعقابه. فلقب «بالحكيم» و«البعيد النظر» وكلتا اللفظتين تؤديان الى معنى الكلمة اللاتينية [ساپيان Sapiens]

الاّ ان [طيبريوس] الذي انتخب تريبونا للشعب اضطلع عنه بهذه المهمة دونما تردد، بتشجيع [ديوفانس] الفصيح، و[بلوسيوس Blossius] الفيلسوف كما شاع في حينه. كان [ديوفانس] قد لجأ الى روما من [ميتلين]، والثاني ايطالي جاء من مدينة [كوما Cuma] بعد ان تلقى دراسته هناك على [انتيپاطر الطرسوسي] الذي شرفه بالأخير باهدائه بعض مقالاته الفلسفية.

وعزا بعضهم الى [كورنيليا] أم [طيبريوس] المساهمة في تشجيعه فقد كانت تشكو لولديها دائماً بأن الرومان يفضلون مناداتها «بابنة سكيپيو» على مناداتها «بأمّ الغراكيين» ويزعم آخرون ان [سپريوس پوستمليوس Spurius Postumius] كان السبب الرئيس في ذلك. وهو رجل في مثل عمر [طيبريوس] ومنافس له في الشهرة بوصفه خطيباً جماهيرياً. فقد وجد [طيبريوس] عند عودته من الحرب ان تربه هذا قد سبقه كثيراً في مضمار الصيت والشهرة وان الاهتمام قد زاد بأمره. فقرر أن يبرز عليه بتبنيّ قضية عامة جماهيرية عسيرة المنال ذات آثار خطيرة جداً. على ان شقيقه [كايوس] ذكر فيما خلّف من كتابات. ان [طيبريوس] عند رحيله الى [نومانتيا] مجتازاً [توسكانيا] ارتاع لرؤيته الريف الايطالي يكاد يكون بلقعاً مقفرا من البشر، ولم يجد مزراعين أو رعاة من طبقة الأحرار، ومعظمه مسكون بالبرابرة والعبيد المستوردين، فكان هذا اول حافز له على اتباع السبيل السياسي الذي ادّى به وباسرته الى الدمار. ومن المؤكد ايضاً أن الجماهير نفسها أثارت حميته وشددت عزماته ودفعته الى الدعوة بالرقاع والكتابات على الجدران والأنصاب والشرفات وفيها تشجيع وحث شخصيّ له على الأخذ بيد المواطنين الفقراء وانصافهم باعادة اراضيهم اليهم.

على انه لم يضع مشروع قانونه العتيد الاّ بعد مشاورة واسناد من المواطنين الذين تمتعوا بأعظم المكانة والنفوذ والسمعة عند الناس، منهم [كراسوس] عظيم الكهنة. و[موشيوس سكيڤولا Mucius Scoevola] المحامي الذي كان قنصلاً في ذلك الحين. و[كلوديوس آپيوس] حموه. ولم يسبق ان بدا قانون كهذا في اعتداله ورحمته، لاسيما وانه شرع للوقوف في وجه الظلم والجشع، فأولئك الذين ينبغي ان ينزل بهم عقاب شديد لخروجهم على احكام القوانين السابقة، أو أن ينزلوا على الأقل عن اداعاءاتهم في تلك الأراضي التي اغتصبوها

فملكوها بدون وجه حق، سيكون لهم بموجب قانون [طيبريوس] المقترح حق التعويض النقدي لقاء التخلي عن ادعاءاتهم غير المشروعة عند النزول عن الأراضي المضبوطة واعادتها الى مستغليها الشرعيين المحتاجين. لقد صيغ قانون الاصلاح هذا بكثير من الحذر والنعومة متغاضياً عن كلّ الصفقات المشبوهة السابقة، وحمد الناس له الاحتياط لمنع وقوع أي ظلمٌ في المستقبل. ومع هذا يرضى عنه رجال المال وكبار الاقطاعيين لجشعهم المفرط، وكرهوا واضعه حقداً عليه ولروح التخريب فحاولوا تضليل الناس واغواءهم وقالوا أن [طيبريوس] يهدف بمشروعه الى اعادة تقسيم الأراضي وقلب الحكومة، ونشر الفوضى في كل مكان.

لكن مساعيهم خابت. فقد عرف من [طيبريوس] تبنيه القضايا العادلة الشريفة، كما كان يملك من قوة العارضة والبيان ما يكفي ليجعل مشروعاً أقل وجاهة من هذا يبدو مقبولاً معقولاً. ولذلك ما كان بذلك الخصم السهل أو بالذي يؤمن جانباً. وقد اعتلى منبر الخطابة يوماً والجموع المحتشدة تحيط بالمنصة وشرع يتكلم دفاعاً عن الفقراء فقال:

- لكل وحشٍ ضارٍ في ايطاليا عرينه ومغناه الخاص يستجم فيه وملجأه الأمين يقيل اليه. اما أولئك الذين يحملون السلاح ويعرضون حياتهم للردى في سبيل سلامة بلادهم، فليس لديهم ما يتمتعون به غير الهواء والضياء. ولأنهم لايملكون بيوتاً أو مواطن خاصة، تراهم مكرهين على الانتقال من موضع الى آخر مع اولادهم ونسائهم.

واستتلى يقول:

- يرتكب القادة خطأ مضحكاً عندما يحمسون الجندي البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل «مذابح قرابينهم وانصابهم المقدسة». في حين لايوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانية، فن يملك مذبحاً أو نصباً، بل بيتاً. أو مأوى ورثوه من اسلافهم لكي يدافعوا عنه. أنهم في الواقع يقاتلون ويقتلون، لكن ليحافظوا على غنى الآخرين وترفهم يشار الى هؤلاء المساكين بأنهم سادة الدنيا لكنهم في الواقع لايملكون قدماً واحدة من الأرض.

خطبةٌ كهذه يلقيها شخص صادق الشعور، قوي الروح، على مستمعين متعاطفين متحمسين، لاتجد امامها خصوماً قادرين على تنفيذها ومعارضته هجمها في تلك الساعة. لذلك امسك المعارضون عن المناظرة والمناقشة، وقصدوا [ماركوس اوكتافيوس] التريبيون زميل [طيبريوس] وكان هذا شاباً رصين الخلق معتدل المزاج صديقاً عزيزاً [الطيبريوس] ولهذا أبى في مبدء الأمر ان يقود المعارضة ضده. ولكن قاصديه الحوا كثيراً وكانوا من وجهاء القوم

ومن لايرد لهم طلب، فقبل بعد الجهد الجهيد. واضطلع بمهمة الحيلولة دون إقرار للقانون الجديد. وكانت القاعدة ان لكل [تريبيون] الحق في ايقاف تشريع اي قانون. ولايملك زملاؤه حيلة تجاه ذلك لأن الإجماع وشرط واجب وان عارض واحد، لايسن القانون ولاينفذ. فأنزعج [طيبريوس] لهذا العمل، وبادر في الحال الى نبذ مشروع قانونه المعتدل. مقدماً مشروعاً آخر أشدّ وطأة من سالفه على المذنبين فهو والحالة هذه أكثر استساغة وقبولاً عند العامة. وبمقتضى هذا المشروع الجديد قانونه المعتدل. وبمقتض هذا المشروع الجديد يجب على المعتدين ان يتنازلوا في الحال عن كل الأراضي التي يتصرفون بها خلافاً لاحكام القوانين السالفة دون تعويض وعلى اثر ذلك بدأت مشادة يومية بينه وبين [اوكتافيوس] كانت الخطب سلاحها. الاّ انهما لم ينزلا الى التراشق بالتهم الشخصية ولم يسمع ان لسانيهما عثر بكلمة نابية تحطّ من قدرهما وهما في حمى العاطفة منساقين. ان الطبع النبيل وثمرة التهذيب الرفيع لايتبدى.

«... في المجون الباخوسيّ والعربدة»

فحسب، بل في الخصومات السياسية والتنافس. حيث يكون العقل ضابطاً وعليه رقيباً. وعلم ان [اوكتافيوس] كان ايضاً مما خرقوا احكام القانون السابق وهو يحتفظ بمساحات كبيرة من الأراضي الاميرية فطلب منه الكف عن معارضته وعرض في سبيل المصلحة العامة ان يدفع عن اوكتافيوس بدل حصصه. من جيبه الخاص، وان كان ما يملكه ليس بالكثير. ولما رفض اوكتافيوس عرضه اصدار بيان يمنع فيه كل شخص يشغل وظيفة ذات طابع تضائي، من ممارسة وظيفته حتى يبرم او يرفض القانون المقترح، بالاقتراع العام ثم انه وضع الختم على ابواب هيكل [زُحَل] فلم يعد امناء الخزينة يستطيعون اخراج مالٍ او ادخاله. وهددّ بفرض غرامة كبيرة على كلّ [بريتور] يحاول تحدي اوامره، فتوقف كلّ ذوى المناصب عن ممارسة شؤون وظائفهم لئلا يقعوا تحت طائلة العقوبة. وعلى الأثر لبس الاغنياء الملاكون واصحاب الأراضي الكبار ثياب الحداد، وخرجوا الى المحلات العامة يروحون ويغدون باسارير كالحة واوجه تعلوها الكآبة. ثم عقدوا الخناصر على مؤامرة للقضاء على [طيبريوس] وهيأوا القتلة. فلم يفته ما دبروه ودأب على حمل عصاً في داخلها نصلٌ كتلك التي يستخدمها اللصوص وتسمى باللاتينية (دولو Dolo].

وحَلّ اليوم المضروب أجلاً لادلاء الشعب باصواته في القانون، الاّ أن الاغنياء ضبطوا الاواني الخاصّة بالاقتراع وذهبوا بها. فعمت الفوضى، الاّ ان حزب [طيبريوس] بدأ كافياً لردّ الحزب المناوي وتكتل الاشياع حوله وقوى عزمه على المضي في هدفه حتى النهاية. وعندئذ القى [مانليوس Manlius] و[فولفيوس Fulvius] القنصلان بنفسيهما امام [طيبريوس].

وأخذا بيده يتوسلان اليه والدموع تنحدر من اعينهما - بان يعدل عن قراره. وكان [طيبريوس] يشعر بغبة الفوضى والاضطراب القائم، ويحترم هذين الرجلين الفاضلين فطلب منهما ان يشيرا عليه بما يصنع فأقرا بأنهما غير صالحين لابداء رأي في مثل هذا الأمر الجلل. الاّ انهما الحّا عليه بأن يترك لمجلس الشيوخ مهمة الفصل في الموضوع. لكن لما أجتمع مجلس الشيوخ، ظهر عجزه هو الآخر عن التوصل الى نتيجة، بسبب تغلّب حزب الاغنياء فوجد نفسه مضطراً الى اتخاذ سبيل مجافٍ لحكم القانون ولروح العدالة، بأن اقترح عزل [اوكتاڤيوس] من منصبه. اذ كان من المستحيل ان يجد سبيلاً لابرام القانون بالتصويت، الاّ بعد ازاحة التريبيون المعارض.

في مبدء الأمر أخذ يرجوه بارق وأعذب خطاب. وامسك بيديه وراح يتوسل به قائلاً:

- الآن، وبمحضر من الشعب كله، يمكنك ان تنتهز الفرصة لتمنّ عليه وتتفضل بهذا الطلب، وهو بحدّذاته مطلب عادل معقول. انه لتعويض تافه عن الأخطار والمصاعب الكثيرة التي تحملها المواطنون لأجل المصلحة العامة.

الاّ ان [اوكتاڤيوس] ظلّ مصراً على موقفه ولم يتزحزح عنه قيد شعرة وعندها توجه [طيبريوس] الى الشعب بقوله:

- لما كان كلانا يشغل منصباً واحداً ذا سلطة متساوية، فمن العسير تسوية الخلاف بين وجهات نظرينا في موضوع خطير كهذا بغير حرب أهلية. وفي رأيي ان العلاج الوحيد الذي لامناص من الاخذ به، هو تنحية أحدنا من منصبه هذا.

وطلب من [اوكتاڤيوس] ان يدعو المواطنين لاصدار حكمهم عليه اولاً، وأكد له انه سينزل عن سلطاته كلها بطيبة خاطر ان شاء الشعب ذلك. فرفض [اوكتاڤيوس]. فقال [طيبريوس] انه سيقوم هو نفسه باستطلاع رأي الجمهور في تنحية [اوكتاڤيوس] ان لم يغير رأيه بعد مناقشة مستفيضة. ثم أجل الاجتماع الى اليوم التالي.

ولما اجتمع الناس ثانيةً، جلس [طيبريوس] على كرسي وظيفته وحاول للمرة الثانية اقناع [اوكتاڤيوس]. فلم ينل منه فتيلاً فوضع مصيره بيد الشعب طالباً منه ان يقترعوا عليه في الحال - وعندما ادلى سبع عشرة قبيلة من اصل خمس ثلاثين بأصواتهم ضدّ [اوكتاڤيوس] ولم يتبق الاّ صوت قبيلة واحدة لتتم تنحيته عن منصبه. أوقف [طيبريوس] عملية الاقتراع، وجدد رجاءه واهوى عليه عناقاً وتقبيلاً أمام الجماهير المتحشدة متوسلاً باخلاص وحرارة ان يعدل عن رأيه، قائلاً انه لايريد أن يكون سبباً في الحاق العار بأحدٍ، أو يوصم بتهمة تدبير

وتنفيذ عملٍ كريه كهذا. ويقال ان [اوكتافيوس] ظهر عليه بعض التردد ولين الجانب وبدا متأثراً بهذا الرجاء الحار فامتلأت عيناه بالدموع وظلّ صامتاً برهةً من الزمن. الاّ انه ارسل نظره الى حيث يقف الاغنياء والاقطاعيون كتلة متراصة واحدةً. وبدأ نهباً موزعاً بين الخجل، وبين تحقير نفسه لديهم. فالتفت الى [طيبريوس] ودعاه الى استخدام اي اجراء ضده مهما كان صارماً وعلى هذا حصلت الأغلبية بطرده من منصبه. فأمر [طيبريوس] أحد خدامه المعوقين يطرد [اوكتافيوس] من الروسترا، بدلاً من استخدام ضباط الأمن الأمر الذي اضفى على العملية لوناً جديداً من الأسى. فجرّ [اوكتافيوس] الى الخارج بهذا الاسلوب الشائن، وهجم عليه الجمهور، فخفّ الاغنياء لمعونته، وبشيء من الصعوبة رفع [اوكتافيوس] رفعاً واخراج من بين الحشود الهائلة. الاّ ان خادماً مخلصاً ثبت نفسه امامه سداً ليفسح له مجال الفرار بدرء مهاجميه ففقئت عيناه، الأمر الذي اورث [طيبريوس] كثيراً من الحزن. وخف مسرعاً وقد ادرك انها بوادر فتنة وعمل على تهدئة الهياج.

بعد هذا صدق قانون الاراضي الجديد ووضع موضع التنفيذ . وانتخب مفوضون ثلاثة لمسح الأراضي والإشراف على التقسيم بصورة عادلة. وهؤلاء هم [طيبريوس] نفسه، و[كلوديوس آپيوس] حموه، [كايوس غراكوس] أخوه، الذي كان وقتذاك بعيداً عن روما، في الجيش بأمرة [سكيپيو افريقانوس] امام [نومانتيا]. وتمّ تصريف كل هذه الأمور المتعلقة بتطبيق القانون بمعرفة [طيبريوس] دون عقبه، اذ لم يجرء أحدٌ على الوقوف في وجهه بعد ان وضع في محل [اوكتافيوس] المعزول شخصاً لايمتاز بشيءٍ اسمه [موشيوس] وهو من الموالين له.

وحزّ في أنفس كبار القوم أن توجه اليهم مثل هذه الأهانة. وخافوا ان تتعاظم شوكة [طيبريوس] وتزداد شعبيته فلا يقف عن حدٍ. فراحوا ينتهزون كل فرصة لإهانته والتشهير به في مجلس الشيوخ. فعندما طلب تخصيص خيمةٍ له على حساب الخزينة جرياً على عادة من يقوم بخدمة عامة كي يستخدمها في عملية تقسيم الاراضي، رفض طلبه رفضاً قاطعاً. مع أن مثل هذا الطلب يجاب بصورة عامة لمكلفين براجبات أقل أهميّة بكثير من هذا الواجب كما ان العلاوة التي خصصت لنفقاته اليومية لم تزد عن تسع اوبولات. وكان [پوبليوس ناسيكا Publius Nasica] الرأس المدبر لهذه الاهانات. لقد حقد هذا الشخص حقداً مكشوفاً على [طيبريوس] فهو اقطاعي كبير ضبط مساحات كبيرة من الأراضي الاميرية، وارغم على التنازل عنها، ولذلك لم تكن ضغينته باليسيرة. أما الشعب فقد أخذ هياجه يتصاعد حتى بلغ درجة خطيرة تكشف عنها الحادثة التالية: توفي احد اصحاب [طيبريوس] بموت الفجاءة. ولوحظ ان بقعاً خبيثة انتشرت على جسمه، فأسرع الجمهور الى جنازته بضجيج وعجيج وهم

يصرخون بأن الرجل مات مسموماً وحملوا النعش على اكتافهم ووقفوا على حراسته اثناء رفعه الى المحرقة. كان في الواقع بعض ما يبرر شكوكهم في وجود دسيسة لأن الجثة انفجرت وخرج منها مقدار كبير من الاخلاط الفاسدة اخمدت النار، تحاولوا ايقاد المحرقة عبثاً، ولم يروا بداً من نقل الجثمان الى موضع آخر. وبعد لأي تمكنوا من إشعال النار فيها.

وعمد [طيبريوس] الى مضاعفة هياج الجمهور، بان ارتدى ثياب الحداد ودفع باولاده الى الناس طالباً منهم ان يتكفلوا باعالتهم مع والدتهم، ليظهر بمظهر اليائس من حياته.

وفي حدود ذلك الزمن ادرك الأجل الملك [أتالوس] الملقب [فيلوميتر Philometer]، وحمل [يوديموس Eudemus] البرغامومي وصية الأخيرة الى روما، وفيها جعل أهالي روما كلهم ورثته الشرعيين. واراد [طيبريوس] ان يُسّر الشعب فأقترح فوراً أن يصدر مرسوم بتوزيع تركة [اتالوس] على فقراء المواطنين المستحقين قطعاً من الأراضي الاميرية، فما يصيبهم سيعينهم فعلاً على شراء الحيوانات وفلاحة اراضيهم. اما بخصوص المدن التي تقع ضمن حدود مملكة المتوفى، فقد افتى بأن مجلس الشيوخ لايحق له التصرف بها وانما هذا من حق الشعب وهو الوارث، ولذلك فانه سيسأل الشعب عما يرتأيه بشأنها. فكانت اهانة للمجلس لم يسبق ان واجه مثلها من قبل. واذ ذاك نهض [بومبيوس Pompeius] وقال: انه جار ملاصق [لطيبريوس] وبذلك سنحت له الفرصة ليعلم بأن [يوديموس البرغامومي] أهدى [طيبريوس] تاجاً ملكياً ورداء ارجوان، على أساس انه سيصبح ملكاً لروما بعد مرور وقت قصير. ووبّخه [كونتيوس ميتيللوس Quintus Metillus] أيضاً بقوله: عندما كان والده (اي والد طيبريوس) چنصوراً كان الرومان يسارعون الى اطفاء النور كلما رأوه يمرّ في الطريق عائداً الى داره لتناول العشاء، لئلا يشاهدهم غارقين في حفلات الشرب والقصف واللهو في وقت غير مناسبٍ. في حين يرى اليوم احطّ الدهماء والسوقة يطوفون ليلاً بأيديهم المشاعل ويمشون وراء [طيبريوس] حتى يبلغوا به منزله؛ اما [تيطس آنيوس Titus Annius] وهو شخص لايتمتع بسمعة طيبة جداً، لا من ناحية الخلف ولا من ناحية العدل. لكنه اشتهر بالبراعة في القاء الأسئلة والحذق في الاجابة. انبرى هذا يتحدى [طيبريوس] برهاناً على ان يثبت بأنه عزل حاكماً هو بحكم القانون شخصية مصونة قدسيّة. وتعالت الضجّة وغادر [طيبريوس] القاعة على جناح السرعة ودعا الشعب الى اجتماع عام ثم طلب [آنيوس] وباشر في توجيه التهم اليه. لكن آنيوس وهو المتكلم البارع الذي لايتحصن وراء سمعة أو مكانة [كطيبريوس] لجأ الى حماية نفسه بالسلاح الذي اتقنه. فطلب ان يؤذن له بالقاء سؤال أو اثنين على [طيبريوس] قبل الدخول في الموضوع الرئيس. فأعطي له ذلك وساد الصمت

فطرح آنيوس] سؤاله كالآتي:

- إن كنت تنوي قذفي والتشهير بي. وأردتُ مراجعة تريبيون من زملائك للانتصاف لي. فيأتي هذا المعونتي. افيثور ثائرك لهذا السبب وتحكم بعزله؟

قيل ان [طيبريوس] ارتبك وانعقل لسانه فبقي صامتاً يبحث عبثاً عن اجابة، مع انه عُرف بسرعة البديهة وحضور الذهن في اوقات أخرى. فعمد الى فض الاجتماع. الاّ انه بدأ يدرك ان الطريق التي اتبعها مع [اوكتافيوس] قد خلقت رد فعلٍ حتمي بين جماهير الشعب فضلاً عن طبقة الأشراف اذ بدأ وكأن حرمة منصب التريبيون قد انتهكت، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدسة ابداً. فتوجه الى الجمهور في خطبة يريد بها تبرير عمله، أرى من المناسب أن اجتزيء منها بعض الفقرات لتقوم دليلاً ولتكوّن فكرةً عن قوة حجته ومقدرته الخطابية في اقناع مستمعيه قال:

- ان تريبيون الشعب يتمتع بشخصيّة قدسيّة فعلاً. ومن الضروري ان تكون تلك الشخصية مصونة محصنَة. لأن صاحبها وقفٌ على الشعب مكرس لحراسته وحمايته بوجه من الوجوه. لكن ان انحطّ وتردّى الى الحد الذي يضطهد للشعب وتقليصّ سلطته ويصادر حقّه في الاقتراع، فأفعاله هذه تجرده من شرف الحصانة والصيانة، لإهماله الواجب الذي تسبب في اضفاء هذا الشرف عليه، ومجلات هذا يتوجب علينا ويتحتمّ ان ندع التريبيون يفعل ما يشاء، فلا نعترض سبيله، وإن شرع بتدمير الكاپيتول او اشعال النار في دار السلاح ان التريبيون الذي يأتي بمثل هذه الأفعال هو تريبيون سيء. ومن يعتدى منهم على سلطة الشعب لايعود تريبيون قط. أو ليس من السهل ادراك مغزى اعطاء التريبون سلطة حبس القنصل، في حين ان الشعب لايملك سلطة تجريده من صلاحياته عند استعماله هذا الحق الذي تسلمه منهم ليلحق الضرر بهم؟ ذلك لأن التريبيونات فضلاً عن القناصل لم يبلغوا مناصبهم الاّ بأصوات الشعب. إن الحكومات الملكية التي تجمع في يدبها كل السلطات دون منازعٍ، قد ارتفعت فوق هذا، الى مرتبة التقديس بأعظم الفرائض الدينية شأناً، وأكثرها حرمة ولكن جماهير الشعب دون التفاتٍ الى كل هذا خلعوا [تاركوين] عندما ضل سبيل الرشاد ولجريمة شخصٍ واحدٍ انقرضت الأبد تلك الحكومة الرومانية الغابرة التي بنيت عليها روما. ما أعظم قداسة وحرمة في روما من العذارى الڤستالات! اللاتي انيط بهن وحدهن آمر المحافظة على النار الأزلية؟ مع هذا كله، فلو زلت واحدة منهن عن السبيل القويم، لوئدت حيةً. ان القداسة التي منحت لهن من أجل الآلهة، تستردّ عندما يخطئن امام الآلهة. كذلك الأمر مع التريبيون، فهو يفقد

حصانته التي يتمتع بها من أجل الشعب عندما يرتكب عملاً ضد الشعب. عندما يهاجم اسس تلك السلطة التي استمد منها سلطانه. اننا لانعترف بالتريبيون، تريبيوناً شرعياً الاّ عندما ينتخب بأغلبية الأصوات. أفليس أكثر من هذا شرعيةً ان يتمّ عزل نفس هذا الشخص باجماع الاصوات على تنحيته؟ ليس ثم أقدس من التقدمات والنذور الدينية ومع هذا لايمنع الجمهور من استعمالها، ولايحال دون رفعها ونقلها حيث اريد لها ان تكون، ووظيفة [التريبيون] أيضاً، كأية تقدمه أو عطية مقدسة. للشعب حقٌ شرعي في نقلها من يد شخصٍ الى يد آخر. بل وليس في الامكان ان ننزل هذه السلطة بهذه المنزلة من الصيانة والثبات حين نجد الكثيرين ممن تولاها يتنازلون عنها بملء اختيارهم ويطلبون اعفاءهم منها.

هذه أهم الحجج التي وردت في دفاع [طيبريوس]، الاّ ان اصدقاءه خوفاً من الخطر الذي يتهدده، وبسبب المؤآمرة التي تتجمع خيوطها حوله. فارتاؤا ان اسلم الطرق هو التقدم لمنصب التريبيون للعام القابل. وعلى هذا الاساس بدأ يعمل لضمان مساندة الشعب له باصدار قوانين جديدة. فأقترح مراسيم لتقليل سنوات الخدمة العسكرية، وشرع حق استيناف احكام القضاة امام الشعب، وضم الى اعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا مخولين اذ ذاك صلاحية القضاء، عدداً مساوياً من المواطنين من طبقة الفرسان، محاولة منه تقليص نفوذ المجلس بدافع من العاطفة والتحزب للشعب، لا لأسباب معقولة أو لأجل المصلحة العامة والمساواة. وعندما بدأ النقاش حول هذه المراسيم، وجد ان المعارضة هي الأقوى. كما ان الشعب لم يوحدّ كلمته ويقف كتلة قراصة بعد. فأراد كسب الوقت بالقاء الخطب الاتهامية لبعض زملاتهم الحكام ثم ارجأ الاجتماع الى اليوم التالي:

ونزل [طيبريوس] الى ميدان المدينة الكبير مختلطاً بالشعب بكل تواضع وقال لهم بعينين دامعتين: ان لديه اسباباً وجيهة للشك في ان خصومه سيحاولون اقتحام بيته وقتله في تلك الليلة. ففعل كلامه فعله القويّ في الجماهير، حتى جاء عدد منهم وضرب خياماً حول منزله. وسهروا ساعات الليل في حراسته وعند تباشر الصبح اقبل أحد العرافين الذين يكشفون عن نتائج الأعمال وعواقب الأمور ان كان خيراً أم شراً. باسقراء نقر الدجاج الحبّ الذي يلقى اليها. وبذل العراف جهوداً هائلة لاخراج الدجاج من قنه فلم يخرج الاّ واحدة رفت بجناحها الأيسر، ومدت رجلها، ثم دلفت الى قنّها دون ان تلتقط شيئاً من الحبّ. وهذا ما ذكّر [طيبريوس] بحادثة سابقة أخرى تطيّر منها. فقد كان لديه خوذة حربية ثمينة جداً رافقته في سائر المعارك التي خاضها. تسللت اليها حيتّان ووضعتا بيضهما فيها ثم فقستاها صلالاً. ان

استذكاره هذه الحادثة زاد من غمه وقلقه. وعلى اية حال فقد توجه الى [الكاپيتول] حال علمه بتحشد الجمهور هناك. الاّ ان قدمه عثرت بالعتبه عند خروجه من الدار. وكانت بدرجة من الشدة ان كسرت له ظفر ابهامه فانبجس الدم من حذائه، ولم يسر قليلاً حتى شاهد غرابين يقتتلان فوق منزل يقع على يساره. وكان يحيط به عدد من الناس. فدفع احد الغرابين بقدمه حجراً نافراً من البناء فسقط تحت قدمه تماماً. وادرك اقوى اصحابه جناناً بأن هذه انذار له بالوقوف. الا أن [بلوسيوس] الكوميّ الذي كان بين الحاضرين اشار بانه سيكون من المخجل والمخزي [لطيبريوس] ابن [غراكوس]، وحفيد [سكيپيو افريقانوس] وحامي حمى الشعب الروماني ان يرفض دعوة الشعب، خوفاً من طير لا عقل له. ولن يكتفي خصومه باتخاذ ذلك مادة للسخر منه، بل سيزعمون للشعب بأنها دليل على الطبع التحكمي الاستبدادي المستهين برغبة الجمهور. وفي الوقت عينه اقبل عدد من السعاة الى اصدقائه يشددون على حضوره الى الكاپتول قائلين ان كل شيء يسير على مايرام هناك. وفي الواقع كان اول دخول [طيبريوس] نصراً من جميع الوجوه. فما أن ظهر حتى رحب به الشعب بهتاف داوٍ، وكانوا يرددون الشعارات التي تدل على مبلغ سرورهم اثناء اتجاهه الى معقده، وتحلقوه ولم يدعوا احداً يدنو منه الاّ المعروف من اصحابه. وباشر [موشيوس] بوضع المسألة في التصويت ثانية، لكن الهرج والفوضى التي كانت تثيرها جماعات ممن وقفت بعيداً عن نطاق الاجتماع حالت دون المضيّ في الاجراءات وفق الاسلوب المعتاد، فلم يتوصل الى شيء. ونشب عراك من اتباع الحزب المعارض المتدافعين الى الأمام والمحاولين شق طريقهم الى الداخل ليندسوا في الصنوف.

وفيما كانت الحالة على هذه الصورة من الاضطراب. وقف الشيخ [فلاڤيوس فلاكوس Fla-veius Flaccus] في موضع ظاهر [لطيبريوس] ولكن بعيد يتعذر اسماعه ما يريد قوله له. فأخذ يشير اليه بحركات من يده يقصد افهامه بان لديه ما يريد قوله له وهو بالغ الأهمية. ففهم وبعض الصعوبة وصل فلاڤيوس واسره بان طبقة الاغنياء توصلوا الى قرار نهائي في مجلس الشيوخ، بعد أن وجدوا بأنهم لن يفلحوا في ضمّ القنصل الى معسكرهم. وهو ان يعمدوا الى اغتياله وقد سلحوا عدداً من خدمهم واتباعهم لتنفيذ هذا العمل. فأبلغ [طيبريوس] اتباعه واصحابه. فما كان منهم الاّ زموا ارديتهم على اجسامهم وكسروا رماح الضباط التي كان يستخدمها هؤلاء لابعاد الجمهور وتفريقه، وجعلوها قطعاً وتوزعوها لمقاومة الهجوم بها. وعجب الناس البعيدون واخذوا يتساءلون عمّا يجري وكان [طيبريوس] يعلم ان صوته لا يصل اليهم. فرفع يديه فوق رأسه يريد ان يصور لهم بحركاته الخطر العظيم الذي يتعرض له ولاحظ خصومه هذه الحركة فأسرعوا في الحال الى مجلس الشيوخ وأعلنوا ان

[طيبريوس] يطلب من الشعب تاجاً، مفسرين مسّ رأسه بيده بهذا التفسير فخلق النبأ ضجة واضطراباً عاماً بين الشيوخ. وأسرع (ناسيكا) يطالب القنصل بعقاب الطاغية والدفاع عن الحكومة، فأجاب القنصل بهدوء انه لن يكون البادىء باستخدام العنف.. وفي الوقت الذي لابود ان ينفذ حكم الموت بأي رومانيّ حرّ قبل صدور الحكم الشرعي عليه كذلك لن يسمح بتنفيذ عمل [لطيبريوس] ارغم عليه الشعب أو أختاره، عن طريق استفتاء غير قانوني. الاّ ان (ناسيكا) قال وهو ينهض:

- مادام القنصل لايراعي سلامة الجمهورية، فليتبعني كل من يريد الدفاع عن حرمة القانون.

ثم وضع طرف عباءته فوق رأسه واسرع الى [الكابتول] وحذا من تبعه حذوه ولفوا عباءاتهم على سواعدهم وشقوا طريقهم وراءه. ولما كانوا من ذوي السلطة والمقام في المدينة فقد تهيبت العامة اعتراض سبيلهم بل اسرعت في افساح السبيل لهم فأخذ الواحد منهم يسقط على الآخر من فرط العجلة. واما اتباعهم الذي جروا وراءهم فقد استعدوا بالهراوات والقضبان التي جاؤوا بها من بيوتهم، وجعلوا قوائم بعض المصاطب والمقاعد، ورفع قطعاً من تلك التي تكسرت بسبب تدافع الجمهور اثناء فرار السريع، واتجهوا نحو [طيبريوس] وهم يكيلون الضربات لكل من يقف في طريقهم ويوقعونه ارضاً فتفرق الناس وحاول [طيبريوس] الخلاص فأخذ يعدو وفيما هو كذلك اذا مسك احدهم بذيل ردائه فاوقعه الاّ انه خلع الرداء واستانف فراره بثيابه الداخلية الاّ انه عثر وسقط فوق الساقطين المرضوضين. وفيما هو يحاول النهوض، شوهد [پوبليوس ساتوريوس Publius Satureius] التريبيون يهوى علي رأسه باول ضربة قتالة في قائمة كرسيّ. ونسب [لوشيوس روفوس Lucius Rufus] الضربة الثانية لنفسه. كأنه أقدم على مأثرة تدعو الى الفخر. وقتل في هذه الفتنة ما يزيد عن ثلاثمائة بالعصي والقضبان، والهراوات ولم يقتل أحد بسلاح حديدي.

تلك على ما قيل - اول فتنة بين الرومان تنتهي بسفك الدماء منذ اسقاط الحكم الملكي، فكلّ الخصومات - وما كانت بالصغيرة أو بالتافهة - تحلّ بالتصافي - بتنازل فريق لفريق: مجلس الشيوخ يتنازل خوفاً من العامة، والعامة تتنازل توقيراً للمجلس وكان من المحتمل حقاً ان يتوصل الى اقناع [طيبريوس] بالتنازل عن طريق محاجته محاجة منطقية. ومن المؤكد انه سيخضع دون حاجة للاعتداء عليه ولا اللجوء الى عنف وسفك الدماء، اذ لم يكن لديه من المشايعين اذ ذاك - مايزيد ثلاثة آلاف. والواضح الذي لايقبل نقاشاً ان مقتله لم يكن بنت ساعته. فالحقد والحنق الذي حفظهما الاغنياء له كأنا مسؤولين عن المأساة، أكثر مما كان للاسباب التي يدّعوها هم، وكدليل على هذا، نشير الى الوحشية والاهانة اللاانسانية التي

عوملت بها جثته. فلم يسمحوا لأخيه رغم رجاءاته الحارة – بدفنها ليلاً، بل القوها في النهر مع الجثث الأخرى. ولم يقف حقدهم عند هذا الحدّ، فقد ابعدوا اصحابه عن ايطاليا دون اللجوء الى الاجراءات القانونية المعتادة وقتلوا كل من وقع بايديهم، وبينهم [ديوفانس] الخطيب. وقتل [كايوس ڤيلليوس Caius Villius] قتلة شنعاء فقد وضع في برميل مليء بالافاعي والحيات وجيء بـ[بلوسيوس الكوفي] الى القناصل واستجوب حول ما وقع فأعترف بصراحة انه انفذ كل ما طلبه [طيبريوس] منه دون تردد فصاح [ناسيكا]:

– فلو طلب منك [طيبريوس] اشعال النار في الكابتول. اتفعل؟

فأجاب اولاً: ان [طيبريوس] لن يطلب منه شيئاً مثل هذا فكرر آخرون نفس السؤال عليه فقال:

– لو كان [طيبريوس] قد أمر به لفعلته، فانه لم يأمر بشيء ان لم يكن في مصلحة الشعب.

وأطلق [بلوسيوس]. فرحل الى [ارسطونيقوس Aristonicus] في آسيا وعندما سقط هذا، بخع بلوسيوس نفسه.

لم يعارض مجلس الشيوخ في قانون تقسيم الأراضي الاميرية، تهدئة من تأثرة العامة هذه الأحداث وسمح باختياره مفوض آخر في محل [طيبريوس] فأختاروا [پوبليوس كراسوس] من اقرباء القتيل، اذ ان [كايوس غراكوس] هو ختنه. الاّ ان [كورنيليوس نيپوس Cornilius Nepos] يقول ان بنت [كراسوس] لم تتزوج [كايوس] بل [بروتوس] الذي نال موكبي نصره لتغلبه على اللوزيتانيين. الاّ ان معظم الكتاب يتفقون معنا فيما ذكرناه.

ومهما يكن فقد أظهر الشعب دلائل سخطٍ واضحة لمقتل [طيبريوس]. وتبين انه كان يتحين الفرصة للانتقام وسبق ان هدُدّ [ناسيكا] بالاحالة الى القضاء، وخشي عليه المجلس فعينه سفيراً وارسله الى آسيا ولم يكن ثم ما يستدعي ذلك. ولم يخف الشعب حنقه على هذا الرجل فقد كان يهان ويحقرّ كلما لوحظ سائراً في شارع فينادى القاتل والطاغية والرجل الذي لوث أقدس واطهر بقعةٍ في روما بدم حاكم مصون. فرحل [ناسيكا] من ايطاليا رغم انه كان ملزماً بالبقاء بحكم وظيفته: (عظيم الكهنة) لترؤس القرابين الرسمية الهامة. فراح يطوف في البلاد على غير هدى لايستقرّ به مقام. ومات بعد قليل في موضع لايبعد كثيراً عن [برغاموس]. وليس بالأمر العجيب أن يبغض الناس [ناسيكا] الى هذا الحدّ. [فسكيپيو افريقانوس] الذي يكنّ له الرومان أعمق الحبّ والولاء، باستحقاقه، كاد يتعرض لسخط الشعب ايضاً لأنه أنشد بيتاً لهوميروس عندما أبلغ بمقتل [طيبريوس] وهو في نومانتيا اذ قال:

«وكذلك سيهلك كا من يفعل مثل هذا».

وقد سأله كلّ من [كايوس] و[فلوثيوس] في مجتمع حافل عن رأيه في مقتل [طيبريوس] فكان رأيه يخالف رأي الشعب فيما أقدم عليه [طيبريوس]. ولهذا السبب راح الناس يقاطعون خطبته كلما صعد المنبر وهو مالم يقدموا عليه من قبل. فراح يطعن في الرأي العام بدوره... على أننا اوردنا هذه التفاصيل في سيرته.

١٩٧٢/١/٣١



کایوس گراخوس

CAIUS GRACCHUS

154 ـ 121



في مبدء الأمر تحاشى [كايوس غراكوس] الدخول في الحياة العامة اتوارى عن الانظار، وراح يعيش في منزله عيشة هادئة، ولعله قصد بهذا ان يزيد من كراهة الشعب لاعداء أخيه، اذ انه كان يخاف دسيسة من هؤلاء الاعداء. على اية حال ظلّ على هذه الحال، لا كأنه مضطرٌ الى ان يقضي حياته منسياً، بل انه القدر الذي حكم عليه بالحياة الخاملة غير المثمرة، وتمادى بعضهم في تحري اسباب اختياره العزلة. فقال أنه أبغض أساليب أخيه وعزف عن الترويج لها واحيائها في الخواطر بصورة مطلقة، ومهما يكن من أمر، فان لصغر سنه اذ ذاك - تأثيراً في هذا. اذ كان يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً حين لم يرد عمر [طيبريوس] عن الثلاثين عندما أعتبط.

بعد مرور حين من الوقت أطلق لميوله متنفساً وأرخى لها بعض العنان بكلّ هدوء، وبدت بضيقه ذرعاً من الكسل والخمول وحياة البيت ميوله تلك لم تكن ترضى له بحياة الأكل والشرب وكسب المال، فأخذ يبذل الجهود الكبيرة في دراسة البيان والفصاحة، لتكون له بمثابة اجنحة توصله الى الحياة العامة. وكان واضحاً انه لاينوى فضاء عمره في زوايا النسيان فعندما جرت محاكمة صديقه [فيتيوس Vettius] تولى الدفاع عنه. فنقل المستمعين الى حالة من الوجد والذهول وجنوا فرحاً ان وجدوه سيد البيان وامام الفصاحة حتى بدا غيره من الخطباء مجرد اطفال امامه. فراح الحسد والخوف يعملان عملهما في نفوس ذوي النفوذ والوجاهة، وصاروا يتحدثون فيما بينهم عن وجوب الحيلولة دون وصول [كايوس] الى منصب [التريبيون].

وما مرت فترة قصيرة حتى انتخب [كايوس]، كويستوراً، وكان ملزماً بالعمل تحت أمرة القنصل [اوريستس Orestes] في سردينيا ومع ان هذا التعيين كان مبعث سرور لاعدائه، الا انه لم يكن كارهاله. فهو مقاتل بطبعه وقد تدرب على صناعة الحرب كتدربه على الادعاء والمرافعة في المحاكم. اضف الى هذا انه كان يخشى كثيراً العمل في الحقل السياسي، وان ظهوره للناس في الروسترا لم يكن ليسعه التخلص منه بناء على الحاح الناس واصدقائه الأ بقيامه بهذه الرحلة. لذلك كان راضياً اتم الرضا بهذه الفرصة فرصة ابتعاده عن مركز الاغراء.

وبصرف النظر عن شيوع الرأي القائل بأن [كايوس] يفوق أخاه [طيبريوس] في ديماغوغيته المسيطرة، وطموحه الى الزعامة الشعبية، فمن المؤكد انه حمل حملاً على دخول. ويحدثنا شيشرون الخطيب انه عندما طلق الحياة السياسية وآثر ان يحيا حياة هادئة ظهر له أخوهُ في الحلم وناداه باسمه وقال له:

- لماذا تتلكأ يا كايوس؟ لا مهرب لك ابداً. لقد كتبت لكلينا حياة واحدة وميتة واحدة، نقضيّ الأولى ونلاقي الثانية في خدمة الشعب.

وما ان استقر المقام [بكايوس] في سردينيا حتى أخذ يقدم ادلة لمواهبة العالمية صارت مثالاً يحتذى. ففاق كل اترابه الشبان في الحرب مع الاعداء. وكان عادلاً مقسطا لمرؤوسيه، وطائعاً محترماً لضابطه الأعلى. كذلك كان حسن خلقه وبساطته ومثابرته فقد تفوق بهذا على كل من يكبرونه عمراً بكثير. واتفق أن حَلّ في سردينيا شتاء قارس البرد شديد الوطأة. حتى اضطر القائد الى ان يفرض على عدد من المدن واجب تجهيز جنوده بالملابس الضرورية. فأعترضت المدن الى روما وطلبت اعفاءها من هذا العب، فوجد مجلس الشيوخ الطلب وجيهاً وأمر القائد بأن يجد حَلاآخر لمشكلة البسة الجيش، وفيما هو في حيرته لايدري ماذا يصنع وحالة الجنود تترددى. جاءه [كايوس] بالحلّ المنشود اد انطلق هذا الشاب يتنقل من مدينة الى أخرى مناشداً متوسلاً مستخدماً ارق تعابير الاقناع، حتى تكللت مساعيه بالنجاح وأقبلت الأهالي بمحظى اختيارها على التبرع بالثياب للجيش، وأعلمت روما بمساعيه فأثارت حسداً في نفوس اعضاء المجلس وبدت لهم مقدمةً لما ينتظر منه كزعيم شعبي في المستقبل. والانكى من هذا ان وفداً من السفراء ارسله [ميشيسا Micipsa] الملك من افريقيا الى روما، ليعلم المجلس بأن مولاهم الملك تقديراً [لكايوس غراكوس] واحتراماً له، قد أرسل كميات كبيرة من القمح الى القائد في سردينيا. فعد المجلس هذا العمل اهانة كبيرة له وطردوا السفراء من القاعة واصدروا امراً باستبدال قطعات الجيش هناك بأخرى جديدة على ان يبقى[اوريتيس] في القيادة، وهذا ما يفرض بقاء كويستوره [كايوس] معه. فلما رأى كيف تجرى الأمور واي منحى شاذ تتخذ ثاربه الغضب وابحر الى روما، فاستهجن اعداؤه ظهوره غير المتوقع في روما، كما لامه الناس، اذ لم يكن من اللائق أن يترك [كويستور] مقرّ عمله قبل ان يتركه قائده. وعلى كل خال فقد وجهت اليه اتهامات بهذا المال واستدعي للمثول امام [الچنصورين] فطلب ان يسمح له بتبرير عمله وقام بذلك خير مقام، وبدأ شخصاً مظلوماً، لحق به اكبر حيف، قال انه خدم في الجيش اثنتي عشرة سنة في حين لم يخدم امثاله أكثر من عشر. وانه ظلّ [كويستوراً] بأمرة القائد ثلاث سنوات في حين لايجوز قانوناً ان يبقى أكثر من سنةٍ واحدة.

وانه كان الوحيد الذي خرج الى الحرب وصرته ملأى، وعاد وهو لايملك شروى نقير. في حين ان الآخرين. بعد ان شربوا الخمر التي حملوها معهم، عادوا وقد ملأوا جرارها الفارغة بالذهب والفضة من الحروب.

ووجهوا اليه بعد ذلك اتهامات أخرى، منها اثارة الفتنة بين الحلفاء، ومشاركته في مؤآمرة تمَ اكتشافها عند [فريگللي Fregellae]، وما ان بدد الشكوك التي تحوم حوله، وبرأ نفسه من كل تهمة حتى تقدم مرشحاً نفسه لمنصب [التريبيون] ومع ان كل الشخصيات البارزة كانت تقف له ضد اي مرشح، فقد تقاطر عدد لايحصى من الناس، من كل الانحاء ايطاليا للتصويت له فضاقت المدينة بهم على رحبها. وعزت محلات المبيت. ولما كان (الحقل) لايتسع للجمعية العامة فقد تسلقت فئات من الناخبين اطناف البيوت وصعدوا السطوح. ومع شتىّ الضغوط التي مارستها طبقة الأشراف على العامة لاسقاط [كايوس] وتحقيق رغائبها في المرشحين فقد فاز [كايوس]، ولكن ليس بأكثر الاصوات بين الفائزين كما كان متوقعاً بل جاء ترتيبه الرابع، وعندما باشر مهام وظيفته ظهر حالاً من هو [التريبيون] الأول الحقيقي. كان أقوى زملائه لساناً. والعاطفة التي كانت تتدفق حين يرثي اخاه جعلته اجرأهم في الكلام. لقد اعتاد في كل مناسبة تذكير الشعب بما وقع في تلك الفتنة. فيروح يعرض لهم أمثلة من أسلافهم، كيف أعلنوا الحرب على الفالسكان Faliscans لأنهم أهانوا بالقول، تريبيون الشعب [غينوشيوس Genocius] وقذفوه ببذيء الكلام. كيف حكموا بالموت على [كايوس فيتوريوس Caius Viturius] لأنه رفض الخضوع والتنازل للتريبيون في الفورم...

- في حين أن هؤلاء الرجال - بمحضر منكم جميعاً قتلوا [طيبريوس] بالهراوات وجروا جثته الذبيحة في وسط المدينة، ثم القوها في النهر. ولم ينج من هذا الحقد اصحابه فقد امسكوا بكل من طالته ايديهم وقتلوهم فوراً دون محاكمة، دون اعتبارٍ للتقليد العادل القديم الذي ظلّ نافذ المفعول في مدينتنا: عندما يتهم شخص بجناية خطير، ولايحضر شخصياً الى المحكمة. يرسل القضاة بوقياً الى منزله صباحاً فيدعوه بنفير بوقه الى المثول امام القضاة. وبدون اتخاذ هذا الاجراء لايمكن ان يباشر القضاة التصويت على الحكم. الى هذه الدرجة من الحرص والحذر كان اسلافنا قد بلغوا في الأمور المتعلقة بالموت والحياة.

بعد أن تأكد من مقدرة خطبه العاطفية على تحريك عواطف الجمهور (كان صوته أقوى وأعلى من سائر خطباء عصره). اقترح سنّ قانونين جديدين: اولهما، ان كلّ من طرد وظيفة عامة أخرى والثاني: ان اي حكم بالنفي يصدر حاكم على روماني، دون أن يتيح له محاكمة

شرعية، فللشعب الحق في اتخاذ مايراه مناسباً من عقاب بحق هذا الحاكم.

وكان واضحاً ان المقصود باول القانونين هو [ماركوس اوكتافيوس] الذي عزله الشعب من منصب التريبيون باقتراح [طيبريوس] أما القانون الثاني فقد كان يمسّ [پوپيليوس Popili-us] الذي نفى كل اصحاب [طيبريوس] اثناء توليه منصب [البريتور]. ولما لم يكن هذا راغباً في تعريض نفسه للمحاكمة فقد هرب من ايطاليا.

وقد سحب [كايوس] القانون الأول برجاء من والدته [كورنيليا] فكان لهذه البادرة وقع جميل عند الشعب وسرّ بها كثيراً، فطالما انزلوا [كونيليا] منزله رفيعة وخصوها بأعظم الاحترام بسبب ولديها بالأحرى لا بسبب ابيها. ولقد اقاموا لها فيما بعد تمثالاً من النحاس تكريماً لها ونقشوا عليه هذه العبارة «كورنيليا والدة الغراكيين». ولدينا فقرات من خطبه كان يستخدم فيها اسمها بقوة حجة وبيان كثيرة، وبحياءٍ قليلٍ اثناء مهاجمته الخصوم، كأن يقول:

- كيف تتجرأ على الطعن في سمعة كورنيليا ام طيبريوس (ولأن الشخص الذي صدرت منه المطاعن عن يشتبه في ان شذوذه الجنسيّ انثوي الصبغة فهو يستطرد).
- بأي وجه يمكنك ان تقارن [كورنيليا] بشخصك انت؟ هل ولدت بقدر ما ولدت في ابناء؟ ومع هذا فكلّ روما تعلم انها تأبى مبادلة الرجال الحديث مدة اطول مما تستغرقه انت!

هذه التعابير اللاذعة كانت تتخلل لغته. وهنالك مالايحصى من أمثال هذه العبارة يمكن الاستشهاد بها مما خلف من كتابات.

ومن بين القوانين التي اقترحها الآن مستهدفاً رضا الشعب واضعاف سلطة الشيوخ: القانون الخاص بالاراضي الاميرية التي كان قد قرر توزيعها على المواطنين الفقراء، والقانون الذي يتعلق بالجنود العاديين وكسوتهم على حساب الدولة دون خصم التكاليف من اجورهم وتحديد سنّ الانخراط في سلك الجيش بما لايقل عن سبع عشرة سنة كاملة. وقانون ثالث حول منح حق الانتخاب والتصويت كل الايطاليين بصورة مطلقة مثلما يتمتع بذلك أهالي روما. وقانون رابع يتعلق باسعار القمح ووجوب بيعه من الفقراء بأقل مما كان يباع منهم في السابق. وقانون خامس بتنظيم المحاكم ومجالس القضاء، وتقليص سلطة اعضاء مجلس الشيوخ الى حدٍّ كبير. فإلى ذلك الحين كان اعضاء مجلس الشيوخ يجلسون وحدهم للقضاء في سائر الدعاوى. لذلك كانوا يلقون الرعب في نفوس طبقتي الفرسان الرومان والعوام. فأقترح [كايوس] في قانونه ضمّ ثلاثمائة مواطن عادي من طبقة الفرسان الى مجلس الشيوخ (وهم ثلاثمائة كذلك) وان تمنح سلطة القضاء للستمائة معاً على حدّ سواء.

وفيما هو يناقش ويحاور ويبسط وجهة نظره للفوز بالمصادقة على هذا القانون، لوحظ ان سلوكه كان يكشف من نواحٍ كثيرةٍ عن صدق واخلاص غير عاديين. وفي الوقت الذي كان الزعماء الشعبيون الآخرون حتى ذلك الحين يديرون رؤوسهم اثناء خطبهم نحو مجلس الشيوخ [الوضع يدعى كوميتيوم Comitium] تراه الوحيد الذي خالف القاعدة في خطبه العامة. فقد ادار رأسه الى الجهة المعاكسة - للشعب وظلّ مقيماً على ذلك. انها اشارة الى نوع من الانقلاب في مفهوم الدولة، وتحول من الاتجاه الارستقراطي الى المنحى الديمقراطي. ان عمله هذا اشارة للخطباء الجماهيرين بالتوجه الى الشعب لا الى مجلس الشيوخ بعد ان صادقت الجمعية العامة على هذا القانون، خوّل [كايوس] الصلاحيات اللازمة لانتقاء الفرسان الذين سيشاركون الشيوخ في السلطة القضائية، وبهذا صار يتمتع بسلطة تشبه سلطات الملك. ونزل مجلس الشيوخ نفسه الى حدّ قبول مشورته في الأمور الخطيرة. فلم يستغل [كايوس] هذه الخطوة باقتراحات ونصائح تحطّ من قدر المجلس. مثال ذلك قراره بخصوص القمح الذي ارسله المتعهد [فابيوس Fabius] من اسبانيا. فقد كان مقسطاً فيه محافظاً على شرف روما وسمعتها. اذ أقنع المجلس ببيع القمح واعادة بدل المبيع الى عين الاقاليم التي استورد منها، مع توجيهه اللوم [الفابيوس] لأن عمله هذا جعل الدولة الرومانية تبدو مكروهة ممقوتة. وهذا ما أضفى عليه لوناً من الاحترام الفائق للعادة، ونشر اسمه في الاقاليم. واقترح اتخاذ بعض الاجراءات حول تأسيس مستوطنات رومانية في عدة مدن، وشق طرق جديدة، وبناء مستودعات عامة لخزن القمح. وكان يقوم هو شخصياً بالإشراف على هذه الاشغال العامة وادارتها، ويبادر دون تردد الى اصدار الاوامر الضرورية لتنفيذ هذه المشاريع الكبيرة المختلفة بدقة واندفاع كأنه لايشرف على جميعها في آن واحد بل على مشروع واحد فقط. واشتدّ العجب بالجميع - حتى الكارهين له والخائفين منه - للكفاءة والمقدرة التي يبديها في انجاز ما تعهد بانجازه، واما بخصوص افراد الشعب فقد كان الفرح يغمرهم حين يرونه محاطاً بافواج من المقاولين والصناع والفعلة ونواب الشعب، وضباط الجيش والجنود والخبراء. وكان يعامل الجميع ببساطة وصراحة دون الاخلال بمركزه، ولطفه. وهكذا سخر طبعه لتلبية حاجات ومطالب كل مراجع. فصار الناس ينظرون الى كلّ من وصفه بالغطرسة والعنف، والخيلاء، نظرتهم الى الغمازين اللمازين الحاسدين. وكانت زعامته الشعبية اظهر في حديثه الاعتيادية واعماله، منها في خطبه الجماهيرية.

واولى أكثر العناية بشق الطرق واوقف عليها اعظم مجهوداته. فأهتم بان تكون لطيفة المنظر مريحة، وشقت عبر الحقول الزراعية بخطّ مستقيم تماماً، تحت اشرافه المباشر. ورصف

قسمٌ منها بالحجر المهندم وقسم آخر رصف بكتل صلبة من الصخر. فاذا اعترضه وادٍ أو مجرى ينهر عميق. بادر اما بردمه أو باقامه جسر فوقه على مستوى واحدٍ من النهايتين فيبدو للرأي منتظماً مستوياً ليس به نبوّ. وامر بتقسيم كل طريق الى اميال (كل ميلٍ واحد يساوي أقل قليلاً من ثمانية فرلنگات). واقام اعمدة حجرية لتعيين المسافات من موضع الى موضع، كذلك ركز حجارة على مسافات متقاربة من جانبين الطريق لمساعدة المسافرين على اعتلاء ظهور خيولهم دون حاجة الى سائس.

لهذه الأسباب أكبره الناس. وبدأوا يتلهفون ليظهروا مدى تعلقهم به وامتنانهم منه. وفي يومٍ ما ذكر اثناء خطابه بانه يرجو المنّ عليه بفضل واحدٍ لا غير، ولو فعلوا لكان هذا أكبر تقدير منهم يطمع فيه. وان يفعلوا فلن يعتب عليهم. هذا القول حمل الناس على الظنّ بأنه يرنو الى المنصب القنصلي والتريبيون. وعندما أزف يوم الانتخاب القنصلي، وتوافد الناخبون وهم يضربون اخماساً باسداس، ظهر [كايوس] في (الحقل) بصحبة [كايوس فانيوس] المرشح القنصلية. وشرع يروج له الدعوة مع اصحابه فكان لهذا تأثيره المؤكد في فوز [فانيوس]. وانتخب [كايوس] تريبيوناً للمرة الثانية. دون ان يتقدم للترشيح، او يبث الدعوة لنفسه، بل تمَ انتخابه بمبادرة تلقائية من الشعب. لكن سرعان ما ادرك ان مجلس الشيوخ عدوه اللدود وان [فانيوس] ليس من الأصدقاء المتفانين الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتماداً تاماً عندما تحزب الأمور. فراح يتودد للشعب ثانية بقوانين جديدة. فأقترح أن ترحل مستوطنة من الرومان لإشغال مدينة [تارنتوم] و[كاپوا]. واقترح المساواه اللاتين في حقوقه المواطنة مع الرومان وتمتعهم بنفس الامتيازات المقصورة على الأخيرين. الا ان المجلس تهول تعاظم قوته وزيادة خطره عليهم، فأتخذ سبيلاً جديدة غير مسبوقة، لأجل تجريده من محبة الشعب، وذلك بتمثيلهم دور الديماغوغي مقابله، عن طريق الإغراق في منح الامتيازات للشعب خلافاً لمفاهيم النضج السياسيّ:

كان [ليڤيوس دروسوس Livius Drusus] التريبيون زميلاً [لكايوس] وهو شخص ينحدر من اسرة طيبة، جيد الثقافة والتهذيب، لا يقل مستوى باي حالٍ، عمن نال بقوة لسانه وغناه اعظم الشرف والتكريم فأصبحوا اقوى رجال ذلك العصر نفوذاً وسلطاناً. الى هذا الشخص لجأ اعضاء مجلس الشيوخ لاستعماله في انجاح خطتهم، وطفقوا يحثونه ويشجعونه على مهاجمة [كايوس] والانضمام الى حلفهم ضدهم والمشاركة في السبيل الذي اعتزموا المضي فيه الى النهاية. لا باستخدام القوة او مناهضة الجماهير بشكلٍ سافرٍ، بل بالمداهنة والتقرب منها عن طريق ارضائها ومنحها امتيازات لاتتوقعها. ولولا الغرض الذي تستدطنه هذه السياسة

لشعروا بأن في مقاومة تلك المطاليب والامتيازات أكبر شرفٍ لهم وان حصدوا منها نقمة الشعب وكرهه:

فقبل [ليفيوس] ان يخدم اغراض مجلس الشيوخ، وان يضع سلطته تحت تصرفهم. وراح يقترح مشاريع قوانين لم تكن في الواقع بذات نفع أو تكريم للشعب. وكل همّه ان يستبق [كايوس] الى قلوب افراده والفوز بثقتهم بارضائهم (وبدا الأمر كلّه اشبه بتمثيلية هزلية) والتزلف الذليل اليهم وتقديم الترضيات المختلفة. حتى بدأ للجميع ان مجلس الشيوخ لم يكن مناهضاً أو مستاءً من اجراءات [كايوس] بل كان همّه الوحيد القضاء المبرم عليه، أو اضعاف الثقة به وتجريده من شعبيته على الاقل ان لم يكن الغرض الأول ميسوراً.

فعندما أقترح [كايوس] انشاء مستوطنتين رومانيتين فحسب واوصى بانتقاء اعضائهما من الطبقة الراقية. اتهموه باهانة عامة الشعب. في حين ابدوا رضاهم على اقتراح [دروسوس] بانشاء أثنتي عشرة مستوطنة كل واحدة منها تتألف من ثلاثة آلاف مواطن يتمّ اختيارهم من افقر الناس وأكثرهم حاجة. وعندما وزع [كايوس] الأراضي الاميرية على المواطنين الفقراء، وفرضت ايجارات زهيدة جداً يدفعونها للخزينة اظهر المجلس الغيظ لصرامته. كأن ارضاءهم للشعب خالص لوجه الله، ولذلك اثنوا على [ليفيوس] لأنه اقترح اعفاءهم من بدل الايجار الزهيد هذا، وسخطوا على [كايوس] لأنه منح اللاتينين حقوقاً مساوية لحقوق الرومان في التصويت على انتخاب الحكام. وعندما اقترح [ليفيوس] ان يحظر على قائد المائة الروماني فرض عقوبة الجلد على الجندي اللاتيني. أسرعوا فصادقوا على قراره. ودأب [ليفيوس] على القول في كل خطبه، بأنه لن يقترح من القوانين الا تلك التي يحبذها مجلس الشيوخ الذي يحرص على المصلحة العامة حرصاً شديداً ويهمه رفاء الشعب وسعادته. في الواقع ان هذه النقطة هي الوحيدة التي ادىّ بها [ليفيوس] خدمة صادقة، من دون سائر اعماله، فقد قربت ما بين الشعب ومجلس الشيوخ، وخلقت المزيد من الثقة، فقد كان ينقم على زعماء المجلس ويشك في نواياهم تجاهه. فجاء [ليفيوس] ليزيل تلك الريب، ويخفف من شدّة ذلك العداء، بفنّه الذي لم يفعل شيئاً لمصلحة الشعب ومنفعته دون توجيهات المجلس ومصادقتهم!

الاّ ان العامل الاكبر الذي دفع الشعب الى ايلاء [دروسوس] الثقة التامة والعطف الشديد. هو انه لم يقترح قانوناً ينطوي على منفعة خاصة له. فقد اناط الاشراف على عملية الاستيطان بمفوضين لم يكن هو واحداً منهم. ولم يهتم بموضوع توزيع الاموال. في حين كان [كايوس] يتولى دائماً المهمة الرئيسة من اي مشروع هام.

واقترح [روبريوس] احد تريبيونات الشعب اعادة تأهيل قرطاجنة التي هدمها [سكيپيو] وسواها بالقاع، وعهد الى [كايوس] بالمهّمة، فابحر الى افريقيا. فأنتهز [دروسوس] الفرصة التي اتيحت له بغيابه للمزيد من التقرب الى الجمهور وكان نجاحه يعزى بصورة رئيسه الى ادانته [فلوڤيوس] احد اصدقاء [كايوس] المقربين المعين معه في مشروع توزيع الاراضي. كان [فلوڤيوس] مشاكساً مشاغباً مكروهاً من مجلس الشيوخ الى اقصى حدٍ. وكان ايضاً يشك في انه عمل على تأجيج الخلاف بين المواطنين الرومان وحلفائهم. وانه يحرضّ الايطاليين من طرفٍ خفيّ على الثورة. الاّ انه لم يتوفر دليل ملموس على حقيقة هذه التهم، أكثر من الشكّ وبسبب طبعه المتقلّب واتجاهاته العنيفة. وكانت علاقة [كايوس] به السبب الرئيس لدماره، فقد اصابه رشاش من النقمة التي صبت على رأس [فلوڤيوس]. وعند وفاة [سكيپيو افريقانوس] الفجائية. من دون معرفة سبب هذه الميتة غير المتوقعة سوى آثار لبعض الرضوض والكدمات شوهدت في الجثة مما يدل على اعتداء وعنف استخدم قبل الوفاة، كما ذكرنا في سيرته، حامت الشكوك. حول [فلوڤيوس] لأنه كان عدوه اللدود. وفي يوم موته بالذات كان قد تهجم في خطبة القاها على الشعب. ولم يكن [كايوس] نفسه بعيداً عن الظنون. ومهما يكن من أمر بان هذا الاعتداء الاثيم الذي ارتكب بحق اعظم وارفع الناس قدراً عند الرومان لم ينتصف له، ولم يجر تحقيق شامل دقيق فيه، لأن الشعب منع وعارض في اي تحقيق قضائي. خوفاً من ان ينال [كايوس] ضرّ من اعدائه ان بوشر بالاجراءات ان هذا وقع قبل الحوادث التي فسروها الآن:

وفي افريقيا حيث انهمك [كايوس] في بعث قرطاجنة واحيائها تلك المدينة التي عرفت فيما بعد باسم [يونونيا Junonia]، ذكر ان عدداً من نُذُر السوء قد ارسلته الآلهة، ومن بينها هبوط عصفة ريح هوجاء على أول شعار روماني كان حامله يشدّ عليه بكلتا يديه فأنكسرت قناته، وهبت عاصفة شديدة أخرى بصورة مفاجئة فحملت الاضاحي التي كانت مكدسة فوق المذابح وقذفت بها الى خارج الحدود التي رسمت للمدينة. ومنها ان الذئاب هجمت ونهبت كلّ الاشارات التي وضعت لتعيين خطط المدينة. ولم يأبه [كايوس] لهذا كلّه، وواصل عمله واصدار اوامره بالتنفيذ حتى أكمل عمله كله في سبعين يوماً، وقفل راجعاً الى روما. اذ علم كيف استهدف [فولڤيوس] لاتهام [دروسوس] مدركاً ان الوضع لايسمح له بالغياب عن روما. ذلك لأن [لوشيوس اوپيميوس Lucius Opimius] كان يسير الى المنصب القنصلي بطريق ممهد بعد ان جمع حوله العديد من الاتباع والاشياع. و[لوشيوس] هذا من طبقة الاشراف، يتمتع بنفوذ غير قليل في مجلس الشيوخ كان في الماضي قد رشح نفسه الاّ

انه فشل لتدخل [كايوس] لصالح [فانيوس] فأنتخب هذا قنصلاً في حينه. وقد ساد اعتقاد جازم ان [لوشيوس]، سيعمل للقضاء على [كايوس] قضاءً مبرماً إن فاز من الانتخابات. وكان نفوذ [كايوس] في افول واضمحلال. ولم يعد الشعب مستعداً للتصفيق له اعجاباً باعماله كما كان يفعل سابقاً. لأنه وجد كثيرين ممن لايفق تهم اختراع وسائل جديدة يومياً لارضائه. ولايقف المجلس عائقاً بل يسارع فوراً للمصادقة عليها.

بعد عودته الى روما انتقل من منزله في [جبيل پالاتين Palatine] ليعيش قريباً في الساحة العمومية محاولة منه ان يبعث الحياة في شعبية هذه الاحياء التي يقطنها الدهماء والمعدمون من المواطنين. وتقدم ببقية قوانينه الى الشعب معتزماً ان ينال المصادقة عليها بالاستفتاء العام. فأجتمعت لمساندته هائلة من جميع البلاد، الاّ ان المجلس اقنع [فانيوس] القنصل باصدار بيان فيه يأمر كل مواطن غير مولود في روما ان يغادرها. ثم اذيع بيان ثانٍ غريب في بابه: يقضي بمنع اي فردٍ من الحلفاء والموالين من القدوم الى روما في تلك الفترة بالذات. فبادر [كايوس] الى اذاعة بيان مضاد، منددا باجراءات القنصل، ومعلناً للحلفاء والموالين بأنه سيساندهم ويحميهم اذا بقوا في روما ولم يبرحوا. على انه لم يحفظ الوعد الذي قطعه لهم. فقد شاهد بنفسه احد اصحابه الخلصاء بين حراس [فانيوس] يقودونه الى السجن فتشاغل عنه ومر به دون ان يحرك ساكناً. اما لأنه كان خائفاً من وضع نفوذه المتهافت على المحكّ. وإما لأنه (كما ذكر هو نفسه) كان يتحاشى منح اعدائه تلك الفرصة التي يصبون اليها كثيراً. وهي الوصول بالخلاف الى العنف والقتال الفعلي. في اثناء ذلك حصل خلاف بينه وبين زملائه التريبيونات حول المسألة التالية: كان مقرراً أن تعرض مشاهد نزال للمصارعين في حفلٍ عام فوق الساحة العمومية. فنصب معظم الحكام مقاصير حول الملعب بنية الاستفادة من تأجيرها. فأمرهم [كايوس] بهدمها حتى يتاح للفقراء مشاهدة العرض مجاناً. فلم يمتثل احد منهم، فجمع عدداً من الفعلة كان يعملون عنده. وباشر بهدم المقاصير في الليلة السابقة على العرض، وما أقبل الصبح حتى كانت الساحة خاليةً منها. واتيح المجال للعامة للاستمتاع بمناظر النزال في هذا وجد العامة ان [كايوس] قام بعمل رجولي. الاّ انه اسخط زملاءه التريبيون كثيراً فقد وجدوا في عمله هذا مظهراً من مظاهر العنف والتدخل الصلف.

وكان هذا على ما يعتقد السبب الأساس في عدم انتخابه تريبيوناً ثالث مرة. لا لأنه لم يحز أغلبية الأصوات، بل لأن زملاءه اجمعوا على الانتقام منه فعمدوا الى كتابة تقرير غير صحيح عن نتائج الانتخاب. وهذا الأمر موضع خلاف على كل حال، لكن ما هو مؤكد، هو الحنق

الشديد الذي استولى عليه بسبب فشله وكان صلفاً جداً تجاه بعض خصومه الذين اظهروا سرورهم لسقوطه فقد ردّ عليه بقوله: ان كلّ هذا مرح تهكمي مزيف، فقلما عرفوا الى اي زاوية مظلمة من النسيان والخموله قذفت بهم مآثره واعماله!.

وما ان انتخب [اوبيميوس] قنصلاً حتى تمّ الغاء عددٍ من قوانين [كايوس]، وتمادى خصومه ففتحوا تحقيقاً في اجراءات التي قام بها في [قرطاجنة] ولم يدخروا شيئاً لإثارته وازعاجه لعلّ ثورته العاطفيّة تمكنهم من ذريعة مقبولة للحكم عليه بالموت؟

في مبدء الأمر، احتمل (كايوس) هذه الاجراءات بصبر. ولما شجعه اتباعه واثاروه ولاسيما (فولفيوس)، قرر أن يتزعم فريقاً من الاشياع والموالين، وينزل الى مقاومة القنصل بالقوة. وقيل انه امّه انضمت الى العصيان وساعدته بأن استقدمت سراً الى روما جماعات من الاغراب بحجة مجيئهم للبحث عن عمل كحصّادين اذ كان في رسائلها اليه إشارة لهذا. على ان آخرين اكدوا بصورة خاصة جداً، ان (كورنيليا) على الأقل لم توافق على ما عمله ابنها.

وحلّ اليوم الذي تقررّ ان يلغي فيه (اوبيميوس) قوانين (كايوس). وتقابل الحزبان في الصباح الباكر امام الكابتول وبعد أن انجز القنصلُ المراسيم المعتادة في تقريب القرابين جاء احد خدم القنصل ويدعى (كوينتوس انتيلليوس Quintus Antillius) وحمل احشاء الاضحية وسار بها الى الخارج ومرّ بـ(فولفيوس) واصحابه الواقفين فقال لهم:

- انتم ايها المواطنون المشاغبون. افسحوا السبيل للرجل الأمين!

وقيل انه أشفع هذا الاستفزاز بمدّ ذراعه العارية نحوهم هزوءً بهم واستصغاراً. فانقضوا عليه وقتلوه باقلام stiles(*) قوية مما يستخدم عادة في الكتابة. وقيل انهم صنعوها لاستخدامها بمثابة سلاح بهذه المناسبة. هذه الجناية احدثت استياءً عاماً مفاجئاً وخلفت في رؤوس كل حزب أثراً مختلفاً. أمّا (كايوس) فقد احزنه الأمر كثيراً وانحى باللوم الشديد على اتباعه لأن عملهم هذا زود خصومهم بالذريعة المقبولة التي كانوا يتمنونها منذ زمن بعيد ليبرروا حملتهم عليهم. واهتبل (اوبيميوس) الفرصة التي واتته من حيث لا ينتظر وظهر عليه الفرح الغامر وبدأ يحرض الشعب على الانتقام. إلاّ ان زخةً قوية من المطر الهاطل حالت دون المضيّ في ذلك وانفرط عقد المجتمعين.

وفي صباح اليوم الباكر دعا القنصل مجلس الشيوخ الى الاجتماع وكان النقاش دائراً في الداخل، عندما وُضع جثمان (انتيلليوس) في نعش وجيء به الى الساحة العمومية وعرض

(*) كانت الاقلام تصنع من حديد او اي معدن وهي دقيقة مرهفة الحدّ.

على مـلأ من الناس امام مجلس الشيوخ تماماً. ورافق ذلك صراخٌ وعويل شديدين فـاظهر (اوپيميوس) دهشته داخل المجلس (مع انه كان قد احيط علما بهذا التدبير) وراح يتساءل عن سبب الضجة وخرج اعضاء المجلس جميعاً لاستطلاع الأمر ودنوا من النعش حتى وقفوا بالقرب منه ولم يسع الشعب ان يخفي اشمئزازه وبغضته بالمجلس حين تذكروا كيف انهم لم يكتفوا باغتيال (طيبريوس غراكوس) اثناء ما كان يقوم بواجبات وظيفته في الكاپتول، بل قذفوا بجثته الشوهاء في مياه النهر، ومع هذا يجدون في انفسهم الجرأة والصفاقة بحضورهم وتفجعهم العلني في الفوزم، وتكريمهم وتشريفهم جثة خادم عاديٍّ فأجور (وان كان موته عدوانا سافراً فأنه على كل حال كان المتسبب فيما حل به الى درجة كبيرة). يريدون بهذه الوسيلة الكيد للمدافع والحامي الوحيد المتبقّى للشعب، ثم القضاء عليه.

بعد برهة من الزمن عاد الشيوخ من حيث أتوا، وصوتوا حالاً على تزويد (اوپيميوس) القنصل بسلطات استثنائية، لحماية كيان الجمهورية، ووضع حدٍ نهائي للطغاة كلهم. وبعد ان تمَّ هذا، أمر (اوپيميوس) الشيوخ بان يتسلحوا، وامر الفرسان الرومان بأن يكونوا على استعداد صباح اليوم الباكر وأن يجلب كل واحدٍ منهم معه خادمين بكامل سلاحهما. وقام (فولڤيوس) من جهته بالتأهب وجمع الجمهور حوله في تلك الاثناء كان (كايوس) قد ترك الساحة العمومية وسار عائداً الى منزله، الاّ انه وقف امام تمثال ابيه وشخص اليه ملياً بابصار لاتريم، وظلّ برهةً في استغراق عميقٍ ثم تنهد وسار عنه والدموع تسيل على خديه. فتأثر بذلك كل من رآه واخذوا ينحون باللائمة على انفسهم لخذ لانهم رجلاً فاضلاً وتركهم اياه، وشدوا الرجال الى منزله وقاموا حراساً عليه طول الليل باعين يقظه وهدوءٍ تام، يتبادلون النوبة في ما بينهم، ويقومون بضروب من الكهانة عما سيأتي به الغدّ، وعن نتيجة هذا النزاع، كما جرت العادة في النكبات العامّة. كانت حراستهم تختلف عن حراسة (فولڤيوس) فقد قضى حراسه الليل كله في السكر والعربدة والهتاف. وكان (فولڤيوس) اوّل من سكر فراح يهذي في كلامه ويقدم على تصرفات لاتليق بسنه ومقامه.

ولما تبين الخيط الابيض من الخيط الأسود ايقظوا (فولڤيوس) وهو بعد غير مستفيق من تأثير الخمر، وتسلحوا بقطع السلاح التي غنمها (فولڤيوس) من حروبه في بلاد الغال وتغلبه عليهم اثناء فترة قنصليته وكانت معلقة على جدران منزله، ثم شقوا طريقهم نحو جُبيل (آڤنتين) بصياح وجلبة، مهددين متوعدين.

لم يفلح أحدٌ في حمل (كايوس) على التسلح واشتمل بمعطفه كأنه يريد الذهاب الى اجتماع عام، بفارق بسيطٍ وهو اخفاؤه خنجراً قصيراً في طيات ثوبه. وفيما هو يهم بالخروج ادركته

امرأته عند الباب وامسكته بيدٍ بينما كانت تمسك طفله الصغير بيدها الأخرى واخذت تتوسل به بالكلام الآتي:

- أسفاً يا كايوس! اني لا افارقك الآن لتذهب وتخطب في الناس، لا بوصفك تريبيونا ولا مشترعاً، ولست اودعك لتذهب الى حرب مشرفة قد تلاقي فيها ذلك المصير الذي حتم علينا ان نلقاه عاجلاً ام آجلاً، فيكون له بعض الاثر الملطف لإحزاني وهو أن حدادي عليك سيكون موضع احترام وتكريم. انت تذهب الآن لتكشف صدرك لقتلة (طيبريوس) غير حامل سلاحاً. مفضلا أن تتقبل اعظم الظلم على انه ترتكب اقلّ الظلم. الاّ ان موتك في هذا الوقت لن يكون بذي نفع للمصلحة العامة، فالتخرب سائدٌ والبطش والسلاح هما مقاييس اليوم الوحيدة للعدالة. لو ان اخاك سقط قتيلاً امام (نومانتيا) لكان العدو قد اسرع بتسليم ما تبقى من ..... لكن، ذلكم هو حظي العاثر، ربما كنت تلك الضارعة المسكينة للفيضان او الامواج، لعلها تعيد اليّ بقاياك. اية ثقة يمكن ان نضعها في القوانين او الآلهة، عندما كفت يدها عن (طيبريوس).

كانت (لوچينيا) منشغلة بشكواها وندبها حين اخذ (كايوس) يتملص تدريجاً من عناقها حتى افلتها بلطف وصمت. وسار عنها برفقة اصحابه فحاولت التشبث بطرف ردائه، لكنها سقطت على التراب وتمددت وبقيت حينا لا تبدر منها حركة، حتى ظن الخدم انها فارقت الحياة، فحملوها وذهبوا بها الى اخيها (كراسوس).

واجتمع الخلق كتلة متراصة، واخذ (فولڤيوس) بنصيحة (كايوس) فأرسل هذا ابنه الأصغر الى الساحة العمومية حاملاً عصا الرسول، وكان شاباً في غاية الوسامة. بدأ بلهجة متواضعة مستكينة والدموع تجول في عينيه، وبخجل لايشينه - بدأ يعرض مقترحات للمصالحة بحضور القنصل وكل الشيوخ. ومالت الأغلبية الساحقه من المجتمع الى قبول المقترحات. إلاّ ان (اوپيميوس) ردّ قائلاً انه ليس من اللائق بهم ارسال الرسل للتفاوض مع مجلس الشيوخ على شروط للاستسلام. وخير لهم ان يستسلموا دون قيد او شرط، كالمواطنين المخلصين وان يحاولوا نيل العفو بالطاعة والخضوع. وأمر الشاب بالا يعود اليه الا اذا وافقوا على هذا الشرط. ويقال ان (كايوس) كان شديد الرغبة في ان يذهب لتبرئة نفسه امام المجلس. الاّ ان كلمة اصدقائه اجمعت على خلاف ذلك. وارسل (فولڤيوس) ابنه مرةً اخرى لتسوية الأمر، الاّ أن (اوپيميوس) الذي كان قد قررّ خوض المعركة مهما كان. أمر الابن فقبض عليه واودع السجن. ثم حمل على الفريق الذي يقوده (فولڤيوس) بكتيبة من مشاته ووحدة من الرماة الكريتين، هؤلاء الرماة احدثوا من الاصابات المميتة والجروح الخطيرة في الناس، ما اديّ الى

هزيمة وفرار سريعين. ولجأ (فولڤيوس) الى حمام عمومية غير معروفة، لكن سرعان ما اكتشف مخبأه هذا فقتل وقتل معه ابنه الاكبر. ولم يؤثر عن (كايوس) انه شارك في القتال أو اشتبك مع اي شخص فقد انسحب الى هيكل (ديانا) مشمئزاً للغاية من اعمال العنف التي تقع. وهناك حاول انهاء حياته الاّ أن اصدقاءه حالوا دون ذلك، وانتزع (پومپينيوس) و (ليشينيوس) سيفه منه، واخذا يلحان عليه بشدة ان يهرب. ويقال انه ركع للالهة ورفع يديه الى الاعلى داعياً على الشعب الروماني، بالبقاء دوما في حالة الذل والعبودية، عقاباً له على نكرانه وخيانته. اذ ما اذيع بيان العفو العام، حتى تخلت عنه الأغلبية العظمى وتنكرت له.

حاول (كايوس) النجاة، الاّ ان اعداءه كانوا يجدون في أثره ولا ينثنون عنه وتبعوه حتى الجسر الخشبي وهنا افلت منهم بشق الأنفس وعرض عليه اخلص صاحبين باقيين معه ان ينجو بنفسه ويدعهما هناك يحميان إنسحابه بتعويق المطاردين حتى يقضى عليهما. ولم يتبق معه غير (فيلوقراطس Philocrates) خادمه. وكان وهو يسرع على ظهر حصانه، يسمع كلمات التشجيع والدعاء بالنجاح من الناس، كما يفعل عابرو السبيل حين يصادفون المتسابقين في العدو. ولكن لم يتقدم احد منهم لمعاونته، ولم يعطه أحدٌ حصانا مع طلبه ذلك. وتوفر له وقت كافٍ للاختفاء في بستان صغير مكرس (نلفيوري Furies) وهناك قام خادمه بقتله، ثم ألحق نفسه به حالاً نهوت جثته فوق جثة سيده. ويحلف بعضهم بأن الاعداء ادركوهما وهما حيّان وكان (فيلوقراطس) يحتضن سيده بقوة بحيث عجزوا عن توجيه طعنة لكايوس قبل قتل الخادم.

وقيل ايضا، عندما احتز احد المطاردين رأس (كايوس) وسار به، لقيه (سپتيموليوس Septimuleius) وهو صاحب (لاوپيميوس) فانتزعه منه قسراً لأنهم اعلنوا قبل بدء المعركة عن مكافأة ذلك لكلّ من يأتي برأس (كايوس) او (فولڤيوس) تعادل زنة الرأس ذهباً. فرفع (سپتيموليوس) الرأس على سنان رمحه واقبل على (اوپيموس) وقدم له الرأس فجيء بالميزان في الحال ووجد انه يزن سبعة عشر پاوندا. فقدم (سپتيموليوس) دليلاً على عنائه، فضلاً عن تقديمه دليلاً على وحشيته، اذ انه افرغ الدماغ من تحف الرأس وملأه رصاصاً! وجاء آخرون برأس (فولڤيوس) ايضاً إلاّ انهم كانوا من احطّ البشر وحثالات المجتمع فطردهم ولم ينلهم الجائزة. والقيت جثتا الرجلين مع جثث القتلى الآخرين وقد بلغت ثلاثة آلاف - في مياه النهر وصودرت املاكهم ومنعت اراملهم من الحداد عليهم. وخصوا (لوچينيا) زوج (كايوس) بعاملة فظّة فقد جردوها من صداقها، واضافوا الى لا انسانيتهم جريمة وحشية أخرى بقتلهم ابن (فولڤيوس) الاصغر. وحيده لم يكن رفع السلاح في وجههم ولا لأنه كان موجوداً في اثناء

المعركة - بل لمجرد ارساله لعرض شروط الصلح ولاجله سجن اولاً ثم قُتل.

ولم يحنق الشعب على أحد قدر حنقه على (أوبيميوس) لبنائه هيكل (النصر Cancord) تخليداً لنجاحه في ذلك الوقت. كأنه يقصد الفخر بالمجد والنصر الذي حازه، بقتله هذا العدد الكبير من ابناء جلدته. وقد اتخذ احدهم الليل ستراً، فاضاف الى المكتبة المنقوشة على البناية. هذا البيت:

بالحماقة والتنابز، بني هيكل الكونكورد

مع هذا كله، فقد كان (اوبيميوس) هذا، اولّ محاولي اغتصاب السلطة، والظهور بمظهر الدكتاتور وهو قنصل. فقضى بالموت على ثلاثة آلاف مواطن بدون محاكمة، الى جانب (كايوس غراكوس) الذي فاق كل معاصريه في الفضيلة والشرف. و (فولفيوس فلاكوس) القنصل السابق الذي منح موكب نصر.

(اوبيميوس) هذا وجد فيما بعد بأنه لايستطيع كفّ يده عن السرقة. وعندما ارسل سفيراً الى (يوغورثا Jururtha) ملك النوميديين ظهر فساده بقبوله العطايا والهبات. وعند عودته أدين وشهر به، فخسر كل كرامته ومكانته وادركه الهرم وهو مكتنف ببعض الشعب الجبلية وتحقيره له. كان الشعب في حينه مروعاً جزعاً مهيض الجناح ولكنه لم يلبث الاّ وعاد يتبين الحقائق، فاظهر بجلاءٍ مدى اجلاله واحترامه ذكرى (الأخوين غراكوس) بصنع تماثيل لهما ونصبهما في الميادين العامة. وبتقديس الموضعين اللذين سقطا على اديمهما. وبجلب اولى ثمار الارض اليهما حسب مواسم السنة كأنها من قبيل التقدمات. واخذ الناس يتقاطرون اليهما للتبرك والعبادة يومياً، كأنهما هيكل آلهة.

وأثر عن والدتهما (كورنيليا) انها تحملت مصيبتها بفقد ابنيها بروح عالية وشجاعة. وعند الاشارة الى الموضعين المقدسين اللذين صرعا فوقهما قالت: ان جسديهما الهامدين يستحقان هذين الضريحين. وقد انتقلت فيما بعد من مثواها وسكنت والقرب من موضع يدعى (ميسينوم Misenum) ولم يطرأ اي تغيير على طرز حياتها. وكانت محاطة بطائفة كبيرة من الاصدقاء. ودأبت على استضافة الاجانب في بيتها وتكريمهم ولازمها عدد من العلماء ورجال الاغريق ولم يبق أمير اجنبي الاّ ووصلته بالهدايا فقابلها بالمثل. وكان المهتمون بالحديث معها، يبدو عليهم الانتباه الشديد عندما تندفع مسرورة الى تسليتهم بذكرياتها عن ابيها (سكيبيو افريقانوس) وعاداته واسلوب عيشه. على انه أعجب واروع ما كان فيها هو الاصغاء اليها حين تتحدث عن ولديها، دون ان تذرف دمعاً او يتملكها الاسى تقصّ

التفاصيل الوافية عن اعمالهما ومصيرهما الأليم كأنها تقصّ حكاية عن بعض الابطال الغابرين. وهذا ما اوهم بعضهم أن تقدمها في السنّ، وعظم مصائبها قتل فيها مشاعرها وعواطفها لكن من يظن هذا صحيحاً، كان يغفل عن المقدار العظيم من ضبط النفس ونبل الطبع الذي يجب ان يتوفر للمرء حتى يتغلب على المصائب. ومع ان الخط كثيراً ما يكون اكثر نجاحاً في استظهاره على قوى الفضيلة اثناء عملها على اجتناب ...... فليس بامكاننا عند ابتلائنا بالمصائب - الأ ان نحتملها بالصبر الجميل.

١٩٧٢/٢/٢



(سوفوكل)

المقارنة بين طيبريوس وكايوس ولديْ غُراكوس

بآغيس وكليومينس

بعد ان سردنا قصص سير هؤلاء الأربعة كلاً على حدة، بقي علينا ان نعرض لمقارنة احدهم بالآخر.

فاما عن الأخوين (غراكي) فاشدّ المنتقصين لهما والدّ اعدائهما لاينكرون بأن فضائلهما الموهوبة - بعد ان صقلها العلم والتهذيب فاقت كلّ ما لوحظ عند الرومان الآخرين المعاصرين. وقد يجوز لنا الافتراض أن المواهب الطبيعية عند (آغيس) و(كليومينس) كانت اقوى واظهر. فمع افتقارهما الى وسائل الثقافة والتهذيب الجيدة، ومع نشوئها على تلك العادات والتقاليد واساليب العيش التي ظلت مدة طويلة تفسد الآخرين. فقد انتصبا مثلين رائعين للتقشف والاعتدال امام شعبهما. اضف الى هذا ان الاخوين (غراكي) اللذين عاشاً في زمن بلغت فيه روما اوجها من شرف الاعمال والفضائل، كانا سيجللان بالعار فعلاً لو لم يخلفا للجيل التالي، التراث النبيل لفضائل اسلافهما. اما الاثنان الآخران فقد كانا ابنين لوالدين جبلت اخلاقهما من طينة أخرى وقد وجدا بلادهما في حالة انحطاطٍ وتفسخ اجتماعي. وكل هذا لم يخمد فيهما حماستهما المتأججة وشوقهما الى كل ما هو شريفٌ وعادل.

إنه امانة الرومانيين وترفعهما عن المادة ينظر اليه بصورة أساسية على هذا النحو: في ادارتهما المرافق العامة وفي قيامهما بواجبات وظيفتيهما، لم يُظنّ عليهما في ربح غير مشروع. في حين كان يحق لآغيس أن يشعر بالاهانة لو مدح بهذا الشكل الرخيص فقيل عنه بأنه لم يغصب لنفسه شيئاً بدون وجه حق، وهو الذي وزع على ابناء وطنه ثروته الخاصة التي كان الجزء النقدي منها فقط يبلغ ستمائة تالنت. إن الغصب والابتزاز قد يبدوان له جريمة غريبة وهو الذي يعد حيازتك اموالاً تزيد على اموال جارك مظهراً من مظاهر الجشع وإن كنت جمعتها باساليب عادلة وطرق مستقيمة.

ونشاطهما السياسي في ثورتيهما على النظام والدولة يختلف تمام الاختلاف في خطر شأنها ومداها واهدافها. بالغايات الاساسية التي كان الشابان الرومانيان يرميان اليها هي توطين الأهالي في المدن واصلاح الطرق الخارجية. واجرأ مشروع اشتهر به (طيبريوس) بالاخص، هو استرجاع الاراضي الاميرية. ونال (كايوس) اطيب سمعة، باضافته ثلاثمائة عضو من طبقة الفرسان الرومان الى مثل عددهم من اعضاء مجلس الشيوخ لاجل ممارسة السلطة القضائية التي كان ينفرد بها الشيوخ. أما التغيير الذي احدثه كلٌ من (آغيس وكليومينس) فقد كان ذا طابع آخر، فهما لم يعمدا إلى ازالة جانبٍ من المساوئ، ولا الى علاجٍ حالات بسيطة من المرض، وهو أمر ستبدو نتيجته - على حد قول افلاطون كنتيجة قطع أحد رؤوس (الهيدرا)، فهذا هو الوسيلة الوحيدة لزيادة عدد رؤوسها! لكنهما اختطا اصلاحاً جذرياً شاملاً كان مقدراً له ان يحرر البلاد من كل ما ابتليت به - او بالاحرى (إنْ شئنا ان تكون اكثر صدقاً) انهما ازالا حالة اجتماعية طارئة كانت علة البلايا. فاعاد الى مدينتهما سالف نظامها الصالح.

ومهما يكن فعلينا الاقرار بميزة للغراكيين. وهي أن مشاريعهما الاصلاحية كلها، كانت تلقى دائماً معارضة من ذوي السلطة والنفوذ الأعظم. ومن جهة الآخرين، فإن تلك الخطوات التي اقدم عليها آغيس اولاً، ثم اكملها (كليومينس) من بعده، حظيت بمساندة السابقة العظيمة المجيدة المتمثلة في القوانين العتيقة وأبتهما البساطة والمساواة، انحدرت اليهما من (ليكورغوس) الذي استوحاها بدوره من الالة پوللو. ومن نافلة القول ايضاً ان مجهودات الأخوين (غراكي) لم تضف الى امجاد روما المؤثلة مجداً جديداً. في حين وجد الاغريق فجأة مدينة سپارطة تعود الى سالف مجدها وسابق عهدها بفضل (كليومينس) فتمارس السلطة العليا على سائر (الپيلوپونيسس) وتزاحم في القيادة العليا اعظم واقوى امراء ذلك العصر. وهو نهضة كان مقدراً لها تحرير بلاد الاغريق من الخطرين الدلليري والغالي، واعادتها الى حالتها الأولى من العز والمنعة والاستقرار تحت حكم ابناء هرقل.

ومن ظروف موتهم يمكننا أن نستدل على اختلاف في الوان شجاعتهم. فالاخوان (غراكي) اللذان قاوما ابناء وطنهما. قتلا وهما يحاولان الفرار. وآغيس استسلم لمصيره بمحض اختياره، مفضلا ذلك على ان لا تهدر حياة مواطن واحدٍ من اخوانه المواطنين. اما (كليومينس) الذي عومل معاملة مهينة ظالمة فقد بذل جهداً للثأر لنفسه فلما اخفق لم يتردد قط في انهاء حياته بيده.

ولا مناص من القول ان (آغيس) لم يقم بمأثرة عظيمة جديرة بقائدٍ نابغ فقد حال دون ذلك موته في سن مبكرة. واما عن بطولات (كليومينس) فمن العدل ان نقرن بها اعمال

(طيبريوس) الحربية، اذ كان اول من حاول صعود اسوار (قرطاجنة) ولم يكن هذا بالقليل التافه. ولنا ان نضيف الى هذا اتفاقية السلم التي عقدها مع النومانتيين فانقذ بها عشرين ألف روماني من خطر التطويق والابادة. و(كايوس) نفسه، فقد ابدى شجاعته الفائقة في بلده فضلاً عن حروب سردينيا. فهذه الأعمال المبكرة المجيدة، كانت دليلاً قوياً على أنهما كانا سيتفوقان ويبزّان خيرة قادة الرومان لو امتد بهما الأجل.

وفي المجال السياسي المدنيّ، بدا (آغيس) ضعيفا مفتقراً الى الصلابة والعزم. فقد سمح لنفسه أن يقع في شباك مكر (اغيسيلاوس) وخيب امال المواطنين في انجاز مشروع توزيع الأراضي، وعلى العموم ترك كل الخطط والاهداف التي رسمها بتأن وروّية واعلنها للشعب. تركها غير منجزة بسبب افتقار الشاب اليافع الى قوة الارادة. واماً عن (كليومينس) فقد رافق ثورته كثير من العنف والاندفاع، وقتل دون وجه حقٍ، جماعة الايغور وكان تفوقه عليهم بالقوة والسلاح اكبر ضمان له للتغلب على حزبه، أو لنفيهم خارج المدينة بكلّ سهولة كما فعل بالآخرين. إن استعمالك المبضع – الاّ في حالات الضرورة القصوى – ليس بالجراحة الجيدة ولا بالسياسة الرشيدة. وانما هي في كلا المجالين جهلٌ وحمق. وهو في المجال الثاني ظلم، بل وحشيه وتجرد من الشعور الانساني. وفي هذا الصدد لا نجد (الغراكييّن) السباقين الى سفك دماء اخوانهما ولقد قيل عن (كايوس) انه اجتنب كل شكل من اشكال المقاومة حتى عندما هددت حياته، وظهرت بطولته واضحة امام العدوّ الاجنبي. امّا في الثورة فلم يكن فعالاً قط، وهذا ما حمله على الخروج من داره وهو اعزل، ثم انسحابه عند بدء القتال. وفي كل الاحوال كان يحرص على أن لا يلحق بالاخرين ضررٌ منه، اكثر من اهتمامه باستنقاذ نفسه وابعادها عن الضرر. ومن فرار الآخوين (غراكي) نفسه، يجب ان لا نتخذه دليلاً على خور النفس، بل انه نعدّه انسحاباً مشرفاً وتحاشياً مما قد ينجم عنه خطر للآخرين فلو مكث كل واحد منهما في موضعه لواجها احد احتمالين، اما الاستسلام لمهاجميهم، واما قتالهم دفاعاً عن النفس.

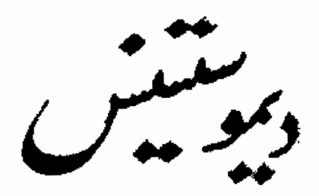
واعظم هفوة يكن ان تعزى الى (طيبريوس) هو قيامه بعزل زميله التريبيون، وترشيح نفسه لمنصب التريبيون مرة ثانية. امّا عن مقتل (انتيلليوس) فقد عزي الى (كايوس) زوراً وبهتانا. اذ تمّ ذلك دون معرفته نأسف غاية الأسف. وكان (كليومينس) بعكس ذلك (ولا نشير الى مقتله الايغور) فقد حررّ جميع العبيد، وحكم متفرداً، اذ كان زميله، شريكاً في المظاهر لا غير وهو اخوه (يوكليداس) من اسرته نفسها كان قد اقنع (ارخيداموس) الوريث الشرعي للملك ومن الفرع الآخر للاسرة، فجازف هذا بالعودة من (مسينيه) الى بلده لكنه قتل. ولما لم يقم (كليومينس) بعمل ما للثأر له، فقد قوي الشك في ان له يداً في الحادث.

و(ليكورغوس) ذاك الذي زعم (كليومينس) بأنه يقتدي به، نزل عن الملك بمحض اختياره لابن اخيه (خاريللوس)، ثم اسرع بالرحيل عن سپارطة وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة لئلا يحصل للشاب حادث مفاجيء، فيقال ان لخاله ضلعاً فيه، ولم تعد الأ بعد ان رزق (خاريللوس) بابن يرث ملكه من بعده. على اننا في الواقع لايمكننا ان نجد اغريقيا آخر غير (كليومينس) جدير بان يقارن (بليكورغوس) وواضح بما فيه الكفاية انك واجدً في الاجراءات العامة التي اقدم عليها (كليومينس) قدراً كبيراً من التهور واهدارٍ لحرمة القانون. فعلى اولئك الذين يميلون الى لوم تصرفات هولاء، ان يلاحظوا بان الأغريقيينْ منهما، كانا ثائرين منذ حداثتهما، يطمحان الى السلطة المطلقة والطغيان، ويشغفان بالنضال والتنافس. وان (طيبريوس) و(كايوس) فُطرا على الجري وراء المجد والشهرة. واكثر من هذا لايمكن لاعدائهم ان يجدوا فيهما. لكن ما أن يبدأ النضال ضد خصومهما حتى تطغى حماستهما وعواطفهما على طبيعتهما الهادئة - فتجرفهما - كالريح النكباء - وتدفعهما الى الاتيان بالاعمال المتهورة الطائشة.

أي مشروع أعدل وأشرف من اولّ غاية عملا لها، لو لم تتصدى لهم قوة الاغنياء وحزبهم - بالعمل على الغاء القانون، والهائهما بهذا التناحر القتال اولهما لاجل المحافظة على نفسه، والثاني انتقاماً لموت أخيه الذي قتل ظلماً وبدون مبرر شرعي.

ومما بيناه يمكنك انت بنفسك أن تصل الى الفروق التي لو فصلنا فيها كلاً على حدة لامكنني أن اوكد لك بان (طيبريوس) كان اعلاهم فضيلة. والشاب (آغيس) اقلهم خطأ، وفي القتال والجرأة هناك شقة بعيدة تفصل ما بين كليومينس وكايوس.

١٩٧٢/٢/٢



DEMOSTHENES

384 – 322



ديموستينس

لست أدري أيهما: أهو (سوسيوس Sosius) الذي نظم قصيدة في مدح (الكيبيادس) بمناسبة فوزه سباق العجلات في الالعاب الاولمبية، أم هو (يوربيدس)، أم هو شاعر آخر؟ في هذه القصيدة يعلمنا الشاعر ان اول شرط لسعادة المرء هو ولادته «في مدينة ذائعة الصيت». لكن من يطمح الى السعادة الحقّة التي تعتمد بالدرجة الاولى على المزاج والسجايا العقلية، لا يشترط - في رأيي - أن يأتي من مدينة شهيرة، وليس بعيب أن تكون مسقط رأسه بلاد متأخرة او مجهولة، كما لا يكون عقبة له كونه ولد لأم ليست بذات وسامة أو جمال. ومن السخف حقاً أن نعتقد بأن (إيوليس Tulis) وهو جزء صغير من (خيوس Ceos) (وهي ليست بالجزيرة الكبيرة)، (وايجينا Aegina) التي شبهها احد الاثينين مرةً - بالقذى الصغير في مرفأ (پيريوس) الذي يجب ازالته، ان ينبغ منهما ممثلون بارعون وشعراء معلقون ومع ذلك تعجزان عن الإتيان بانسانٍ عادل عالي الخلق، حكيم، واسع الفكر. ان الصناعات والفنون الأخرى التي تبتغي المجد والغنى غاية لها، هي فريسة سهلة للذبول والغصور في بلدان فقيرة أخنى عليها الدهر. لكن الفضيلة خلاف ذلك فهي كالنبتة القوية الأيدّة، تمد جذورها وتنمو في اي مكان تصادف طبعاً اصيلاً وعقلاً مثابراً كدوداً. ومن ناحيتي انا فالانصاف يقضي عليّ بالقول: اني لا أريد ان تعزى مسؤولية اي نقص لدى في عمل اتيته، أو حكم صحيح ابديته، الى ضعة موطني وخمول شأنه.

والأمر خلاف ذلك إن كان في نية احدهم تدوين تاريخٍ يقتضي جمع حوادثه من مصادر توصل اليها بالملاحظة والتتبع. ومن قراءة آثار لا يسهل العثور عليها في اي مكان كان، ولم تكتب بلغته، وكثير منها اجنبيّ، متفرق موزع على أيادٍ أخرى. فمن ألزم الضرورات لهذا المؤرخ أن يقطن مدينة زاهرة عامرة، سوق الفنون فيها رائجة حُرّة، حيث يكون تحت متناول يده العديد من المراجع في كل علمٍ وفنٍ. وحيث يتيسر له جمع المعلومات من الذاكرة والصدور، والاستيضاح عن تلك التفاصيل التي اغفلتها اقلام من سبقه، فحفظت في صدور الناس حفظاً اميناً. وبذلك يسلم عمله من الهفوات ويسد النقص من نواحٍ كثيرة حتى في أدق التفاصيل التي يمكن الاستغناء عنها.

وامّا عن نفسي. فانا اعيش في بُليدة لا ارغب في الرحيل عنها، لئلا تقل نفوساً! ولما كنت في روما وفي انحاء أخرى من ايطاليا لم يتسنّ لي الفراغ الكافي لمدارسة لغة الرومان والتمرن عليها بسبب انشغالي في الشؤون العامة، وبالتلاميذ الذين يأتوني لتلقي دروس الفلسفة، فقد تأخر بي زمني كثيراً ولما بدأت في اراذل عمري اقرأ للكتاب اللاتين وقع لي ما كان يبدو غريباً وقوعه، لكنه حصل لي فعلاً ولا أبالغ. فقد كنت اتوصل الى مهم الاشياء احيانا لا لمعرفتي بمعاني الكلمات فحسب بل بتجاري الخاصّة للاشياء. ولا اشك في أنه مجهود رائع لطيف أن تتوصل الى تذوق جمال ورشاقة النطق باللسان الروماني ومنهم مختلف استعارات الكلمات ووصلها وادغامها وغير ذلك من اساليب البديع التي هي سِرّ جمال الكلام. الاّ ان هذا يتطلب مقداراً من التمرين والدراسة ليس بالقليل، وليس بالسهل نيله، فهو انسب واجدر بمن يملك فراغاً ووقتاً كافيا للدرس.

وفي كتابي الخامس الخاص بالسير المقارنة، أتيت الى سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون)، وان مقارنتي لمزاجهما الطبيعي وطباعهما ستعتمد على اعمالهما وحياتيهما كسياسيين. ولن ازعم لنفسي نقداً لهما عن طريق مضاهاة خطبهما، لأصدر بعدها حكمي على من هو الأكثر سحراً والأخطب. فنحن هنا اشبه بما يقول (آيون Ion): «كسمكة فوق ارض يابسة»

وهو مَثَل ربما اغفلته ذاكرة (كيسيليوس Caecilius) عندما يستخدم عبقريته الجريئة دوماً، في محاولة للمقارنة بين (ديموستينس) و(شيشرون). واذا كان من السهل الواضح لكلّ انسان ان «يعرف نفسه»، ما أخذ المبدأ مأخذ نبوّة.

والظاهر أن العناية الآلهية قد شاءت في البدء، أن تطلق (ديموستينس وشيشرون) في سبيل واحدة. فاحدثت بينهما كثيراً من المشابه في اخلاقهما وطباعهما وشغفها بالشهرة وذيوع الصيت، وحبهما بالحرية في الحياة المدينة. وافتقارهما الى الشجاعة في الحرب، وعندما تحزب الأمور. كما انها زادت في الوقت نفسه كثيراً من المشابه العرضية الحادثة، ففي اعتقادي ان من الصعوبة بمكان ان نجد خطيبين بدأ بداية متواضعة خاملة، ليغدوا فيما بعد بهذه الدرجة من القوة والعظمة. ويندر أن يصادف خطيبين نازلا الملوك والطغاة، وان كلاهما شكل ابنته، وطردا من بلديهما ثم عادا مكرمين ثم هربا ثانيةً، وتمكن منهما اعداؤهما واخيرا انتهت حياتهما بيد ابناء وطنيهما. فلو افترضنا وجود امتحانٍ مهارةٍ للحظ والطبيعة (كما يحدث احيانا عند اهل الفن) لكان من الصعب علينا ان نحكم بالنجاح الاخر لاحدهما عندما قضيا بأن يكون المترجم لهما شبيهين في امزجتهما وطباعهما. أو... لعل كل هذا من قبيل الصدف المعارضة في الحياة؟

سنتكلم في البدء عن اولهما:

كان (ديموستينس) والد (ديموستينس) رجلاً من أفاضل المواطنين، حسن السمعة كما يحدثنا (ثيومبوبوس Theompopus)، عرف (بالصّيقل) لأنه كان صاحب معمل كبير لصنع السيوف يشتغل فيه عمال مهرة. واماً ما يقوله (إسخينس Aesechines) الخطيب بان امهّ كانت بنتاً لأم بربريةٍ ولأب يدعى (غيلون Gylon) فرّ من بلاده لاتهامه بالخيانة، فلا استطيع الجزم بصحة هذا الزعم او فساده، بالافتراء على الأم وقذفها. غير أن المؤكد هو وفاة ابيه عن حال معاشية طيبة، ولابنه من العمر سبع سنوات. وقدرت قيمة ما يملك من عقار بحوالي خمسة عشر تالنتاً خلفها (لديموستينس) الاّ ان الاوصياء عليه اساؤا الأمانة فاختلسوا جانباً من التركة واهملوا العناية بالمتبقي. حتى انهم احتالوا على اساتذته وانكروا اجورهم، ولهذا لم ينل الصبي الثقافة التي كان مقدراً له ان ينالها زد على ذلك انه كان رقيق البنية عليلاً فجنبته امه الإجهاد ولم يتشدد عليه اساتذته بالواجبات والدروس. وكان ضئيل الجسم واهنه من البداية ولهذا لُقب بـ(باتالوس Batalus) وقيل ان الصبيان هم الذين خلعوا عليه هذا الاسم تندراً على شكله. وقال آخرون ان (باتالوس) هو نافخ مزمارٍ نحيل الجسم، كتب (انتيپاطر) مسرحية هزلية سخراً منه. ونوه آخرون بأن (باتالوس) هو شاعر كان ينظم قصائد ماجنة خليعه واغاني خمريّة. ويبدو أن ثم عضوا من اعضاء الجسم لايليق بنا ذكره هنا. كان آثينيو ذلك الزمان يسمونه (باتالوس).

اماً اللقب الثاني الذي لصق (بديموستينس) وهو (ارغاس) فلانه كان شرساً حقوداً. لأن (ارغاس) هو من اسماء الأفعى الشعرية. او ربما لطريقته المعجوجة في الكلام، لأن (ارغاس) اسم لشاعر كان ينظم قصائد بذيئه ينبو عنها الذوق. وبهذا الكفاية من الأمر على حَدّ قول (افلاطون).

وكان المنبّه الأول لميله الشديد الى الخطابة على ما يقال، هو الحادث التالي:

كان مقرراً أن يتقدم (كاليستراتوس) الخطيب للدفاع عن (اوروپوس Oropus) في محاكمة علنية. وكان ينتظر من تلك القضية اعظم النتائج، فضلاً عن مقدرة الخطيب الذي كان اذ ذاك في اوج شهرته، وخطورة القضية التي سيترافع فيها وسمع (ديموستينس) معلميه واساتذته يتواعدون على حضور الجلسة وتمكن بعد الحاح شديد من اقناع معلمه باخذه الى المحكمة، وكان لهذا المعلم معرفة بالحجّاب فأمن لتلميذه معقداً مستوراً لايُرى منه وفاز (كاليستراتوس) فوزاً مبيناً واثار الاعجاب الشديد. وبدأ الصبي بالتفكير في مجده بنوع من الحسد، ولاحظ كيف كان الخطيب موضع حفاوة الجميع، وكيف رافقته حشود من الناس

الى منزله تكريماً وتبركاً. واكثر ما اثار عجبه من الخطيب قوة عارضته التي بدت وكأنها تخضع كل شيء لارادتها، وتفوز بكل ما تريده. ومنذ تلك الساعة ودع (ديموستينس) كل انواع الدراسات التي يتلقاها وبدأ يتمرن على الخطابة، ويبذل كل جهوده في معاناتها، معداً نفسه لهذا الفن. واتخذ من (ايسيوس Isaeus) مدرباً ومرشداً له في فن الكلام، مع ان (ايسوقراطس Isocrates) كان وقتذاك يلقي دروساً في الخطابة. وقال بعضهم أنه لم يقصده لأنه كان يتيما يشق عليه دفع الأجور التي حددها (ايسوقراطس) بعشرة مينات. أو لعله فضل اسلوب (ايسيوس) لأنه اكثر واقعية، واقوى تأثيراً من الناحية العملية. ويذكر (هرميپوس Hermippus) وقوفه على مذكرات لكاتب مجهول، ورد فيها ان (ديموستينس) كان تلميذاً لافلاطون، اخذ عنه الكثير من تلك الفصاحة التي عرف بها فيما بعد. وينوه (هرميپوس) هذا، بـ(كتسيپوس Ctesibuis) الذي ينقل عن (كالياس Callias) السيراقوسي وآخرين، بأن (ديموستينس) حصل بصورة سرية على معلومات عن مبادئ (ايسوقراطس) و(الكيداماس Alcidamas) فتدارسها واتقنها اتقاناً تاماً.

وما أن بلغ مبلغ الرجال حتى بدأ بمراجعة المحاكم لمقاضاة اوصيائه وكتابة الخطب ضدهم. ولجأ هؤلاء في الوقت نفسه الى مختلف الحيل والوسائل لفتح دعاو جديدة ضده. ومع انه كما يقول عنه (ثوكيديدس) - درس صناعته هذه في خضم الأهوال والمخاطر فقد نجح في ربح دعواه على خصومه بمجهوداته الخاصّة، الاّ انه لم يتمكن من استرداد تركة ابيه خلا النزر اليسير منها. ولم يفز من تلك المعركة القضائية بغير جانب من الثقة بمقدرته على الكلام، والتمرس الوافي فيه. ولما تذوق طعم السلطان والوجاهة المتأتيتين من الترافع القضائي قررّ أن يخوض غمار السياسة ويتفرغ للشؤون العامة.

قيل عن (لاميدون Laomedon) الأرخوميني أنه اعتاد بناء على نصيحة طبيبه - أن يعدو مسافات طويلة ليرد عنه غائلة مرض طحاله، وبعد التدريب المتواصل والجهد الشاق. اشتدّ عوده وصلب، وشارك في العاب الغار الكبرى، ليغدو من خيرة العدائين للمسافات الطويلة، وهذا ما اتفق (الديمستينس) تماماً، فقد توسّل بالخطابة في مبدء الأمر لاستعادة املاكه المغتصبة. فقويت عارضته، وقدر له اخيراً أن يكون المجلّي والسبّاق في الحياة العامة على كلّ الخطباء المتبارين امام الجمعية العامّة، كما فعل (لاوميدون) في الألعاب الرياضية الكبرى. الاّ أنه مني بخذلان مبين في اول خطاب توجه به الى الجماهير التي سخرت منه وعابت عليه اسلوبه الغريب غير المهذب المرهق بالجمل الطويلة، والمشوه بكثرة من المصطلحات المتبذلة اللفظية الى حدّ الاغراق الكريه المجوج. اضف الى هذا أنه كان يشكو على ما يبدو

- ضعفاً في صوته. وكان في نطقه ارتباك وابهام، يمازجه قصر نَفَسٍ كان يلجئه احيانا الى تقطيع الجمل او وصلها دون مراعاة للسياق واصول الوقف. وبهذا يشكل على السامع فهم ما كان يقوله. فترك الجمعية العامة وقد تثبطت همته وفقد ثقته بنفسه، وفيما هو يسير متثاقلا على غير هدى على رصيف ميناء (پيريوس) التقى به (يونومُس Iunomus) الثرياسي Thri-asion. وكان هذا قد بلغ من العمر اراذله. فأنشأ يؤنبه وينتقده بقوله: أن اسلوبه في الالقاء يشبه كثيراً اسلوب (پركليس) وانه لم يبلغ بعد المستوى المطلوب من الخطيب الجماهيري بسبب جبنه وخور نفسه، امام صياح الجمهور وعدم صموده، وقلة احتفاله بتهيئة جسمه وتنشيطه، بل اهماله وتركه اياه فريسة للوهن والذبول.

وفي مرة أخرى، عافت الجماهير سماعه وتولّت عنه. فعاد الى بيته كئيبا وقد نال منه الفشل، مغطياً رأسه بملفع وقيل أن (ساتيروس Satyrus) الممثل الساخر الذي كان على معرفة وثيقه به، تعقبه حتى ادركه واخذ يطارحه الحديث فانشأ (ديموستينس) يشكو شكوى مرة من تنكر الجمهور له وهو اكثر المترافعين مثابرةً وجداً. وصارحهُ بأنه كاد يستنفذ كل جهده وقواه في هذا السبيل دون أن يجد له منفذاً إلى قلوب الجمهور الذي يسمع البحارة والأميين والسكارى ويدعهم يصولون ويجولون فوق المنبر، اما هو فلا يلقي غير الازورار والاحتقار. فقال (ساتيروس):

- إنت محق في قولك يا (ديموستينس). خير اني سأعالج علقك بسرعةٍ لو تلوث علي الآن فقراتٍ من (يوربيدس) او (سوفوكليس).

فتلا (ديموستينس) قطعةً، وعقبه (ساتيروس) فتلا القطعة نفسها باسلوب القائه الخاص فكساها ثوباً قشيبا أخاذاً بما رافقها من ايماءات ووقفات. وبدت (الديموستينس) شيئاً يختلف تماماً عما تلاه. وبهذا اقتنع بمدى اعتماد الأسلوب الكتابي على اللفظ الجميل المتأنق. وادرك أنه من العبث والفهاهة ان يمرن المرء نفسه على الخطابة باهماله حسن الالقاء والنطق. وبادر فابتنى لنفسه غرفة للدراسة تحت الأرض (مازالت الى يومنا هذا باقية)، وظلّ يختلف اليها يومياً لصياغة اسلوبه، وتدريب صوته وتهذيب القائه. ولطالما حبس نفسه فيها شهرين او ثلاثة، دون ان يبارحها، كابحاً فيه رغبة الخروج منها، بحلق نصف رأسه ليمنعه الخجل عن الظهور كلما راوده الحنين إلى رؤية الناس وكثيراً ما كانت تشتد به الرغبة الى ذلك. ولم يكتف بهذا بل جعل من حياته ومعاملاته واحاديثه الاعتيادية مع الناس وسيلة مكملة للدراسة، واتخذ من تلك المناسبات، والمناقشات مادةً للمقارنة والتدقيق. فما يفارق اصحابه حتى يهبط الى غرفة الدراسة ويبدأ في استعادة كل ما مرّ به بترتيب، ويفحص حججه

وذرائعه وردوده للناس. وكان يستعرض تفاصيل خطبه مع نفسه ويقسمها اجزاءً وفترات، كما يستعيد الى ذهنه ما تبادله من اقوال مع الناس فيصحح فيه ويغير ويعيد صياغته بعدة اشكال. لذلك اعتبر مدينا بقدرته الخطابية الى المثابرة والجدّ الدؤبين لا الى عبقرية طبيعية عظيمة. واما عن الظنّ بانه لم يكن يسرع الى الكلام حسب مقتضى الحال الاّ نادراً، ولا يسرع الى المنبر الاّ بعد الالحاح والطلب منه عند التئام الجمعيّة. فلم يكن ينهض الاّ وهو مستعد ومتفهم للموضوع. لذلك اعتاد كثير من الخطباء الجماهيرين أن يعيروه، ويتندروا عليه بهذا. ومرة هزأ منه (پثياس Pythias) بقوله ان مناقشاته وخطبه يفوح منها رائحة المسرجة، فرد عليه (ديموستينس) بالجواب القاطع التالي:

- في الواقع (بايثياس) أن مِسرجتي ومسرجتك تختلفان في النظر الى الاشياء وفهمها.

على أن (ديموستينس) لا يحاول ان ينكر هذا الواقع على الآخرين، بل يقر بصراحة بأنه كما انه لا يُعدّ خطبته كلها من الفها الى يأئها، فهو كذلك لا يتكلم على البديهة مطلقاً من غير استعداد. ويؤكد ان الإستعداد وسبق التفكير هو عمل تنطوي على الاخلاص للجمهور. ففي التأني والرويّة نوع من الاحترام لهم، بينما الاستهالة وقلة الاهتمام بكيفية تلقي المستمعين اقواله يفصح عن شيء من الطبع الاوليغارشي، وهو سبيل كل من يفضل وسيلة الارغام على الأقناع.

واما عن افتقاره الى الشجاعة والعزم في الارتجال والكلام على البديهة فقد اتخذت دليلاً آخر على نقصه. وذكروا أن (ديماديس) كان كثيراً ما ينهض من مجلسه عندما يصاب لسانه بعيّ او يرتج عليه القول، فيقيله من عثاره. ولم يلاحظ أنه فعل ذلك لديماديس وقد يقال: اذن كيف يُفسّر رأي (اسخينوس) فيه عندما يشيد معجباً بجرأته الكلامية؟ وكيف امكن (ديموستينس) ان يقف وحده لمقارعة (پيثون Python) البيزنطي، عندما راح هذا يندد بالآثينيين ويهاجمهم هجوماً عنيفاً بكلّ اعتداد وسيل دفاقٍ من الكلمات؟ وعندما كتب (لامارخوس Lamarchus الميريني Myrinaen) تقريظاً وثناء لفيليب والاسكندر، ضمنه الكثير من اللوم والقدح بالثيبيين والاولنثيين Olynthians والقى ذلك على جموع الحاضرين في الألعاب الاولمپية، كيف اتفق ان نهض (ديموستنيس) وبدأ بخطابٍ اعاد فيه للاذهان تلك الفوائد التي جناها الاغريق من الثيبين والخلقيديين تاريخاً، وحكومةً، وذكرَ الحاضرين بالبلايا والنوائب التي جرّها المتزلفون للمقدونيين على تلك البلاد، وبهذا حوّل عواطف السامعين فانقلبوا على ذلك السوفطائي، الذي لم يسعه الاّ ان يتسلل سراً من الاجتماع خوفاً من ضجيج السخط الذي ثار ضده.

ويبدو ان (ديموستينس) كان يرى ان ثم جوانب في خلق (پركليس) لا تتفق ومشاربه. الاّ أنه تأثر خطاه وسار على نهجه في تحفظه وثبات سلوكه، وإبائه الكلام على البديهة مهما كانت الأسباب. الاّ أنه لم يأنف من مجدٍ تتيحه له مناسبةٌ آنية. مثلما كان يحذر كثيراً من تعريض ملكته الى رحمة الفرص. والخطب التي القاها عفو الخاطر تنطوي على ثقةٍ بالنفس وجرأة تزيد كثيراً عن تلك الخطب التي اعدّها كتابة، لو آمنّا باقوال (ايراتُستينس) و (ديمتريوس) الفاليري والكوميديين عنه: يقول (ايراتستينس): كثيراً ما كان (ديموستينس) ينتقل الى حالةٍ من الوجد والجذب. ويقول (ديمتريوس) انه اعتاد النطق بهذا القسم الايقاعي المشهور الجميل الوقع على الجمهور.

«قسماً بالارض، بالينابيع، بالانهار، بالغدران».

كأنه في حالة الوحي، او خروج عن الوعي. واطلق عليه احد الكوميديين اسم «روپوپرپرثراس Rhopopurperthras» وسخر منه كوميديٌ آخر لاستعماله الطِباق اللفظي ببيت من الشعر:

«وما اخذ أعاد ؟" جملةٌ يسرّ لها خيال ديموستينس نفسه»

هذا، الاّ اذا قصد (انتيفانس Antiphanes) بها، التندر ايضاً على خطبة (لديموستينس) القاها في (هالونيسوس Halonesus) نصح بها الآثينيين بالاّ «يأخذوا» يديّ فيليبس، بل ان «يعيدوها». ومهما يكن من امرٍ فالكلّ أجمعَ على أن (ديماديس) خطيب لايجارى ولا يباري فيه احد وانه لايحتاج الى اكثر من استخدام مواهبه الطبيعية لتبرز بديهته على كل مجهود (ديموستينس) في مدارسة خطبته واعدادها قبل القائها. ونقل لنا (ارسطون) الخياني Chian رأيا ليثوفراستس بخطباء آثينا المعاصرين عندما سئل: في اي صنفٍ يضع (ديموستينس) فأجاب:

- أنه جدير بمدينة آثينا.

ثم سئل عن رأيه بديماديس فقال:

- أعلى منه.

وذكر هذا الفيلسوف أن (پوليئكتوس Polyeuctus) الشقيتي احد ساسة ذلك العصر اعتاد القول: «ان (ديموستينس) هو اعظم الخطباء طُرّاً، (وفوكيون) أكفاؤهم لأنه يعبرّ عن اكثر ما يمكن من المعاني بأقل ما يمكن من الكلمات». والحق يقال أن هذا صحيح، فقد روي عن ديموستينس انه كان يقول لمن حواليه، كلما وقف (فوكيون) للردّ عليه:

- ها قد اقبلت السكين على خطبتي.

وليس واضحاً هل كان قوله هذا يعبر عن شعوره بالخوف على تأثير كلامه، ام على حياته وسمعته. والمفهوم العام من القول على كلٍّ هو ان كلمة واحدة من رجل ثقةٍ او ايماءة يأتيها قد تنقل السامعين الى آلاف من المراحل بعيداً.

وروى (ديمتريوس الفاليري) عن (ديموستينس) وقد غدا شيخاً هماً أنه شرح له الاسلوب الذي اتبعه لاصلاح العيوب التي خلقتها الطبيعة فيه بقوله أنه تغلّب على عيّه وتلجلجه بوضعه حصاة في فمه اثناء الكلام فاستقام لسانه. وانه ضبط نبرات صوته بترديد الخطب والقصائد الشعرية عندما تنبهر انفاسه ويلهث في اثناء عدوه او صعوده مرتقى حاداً. وكان عنده في المنزل مرآة كبيرة يقف امامها عند مباشرته تمارينه.

وقيل أن احدهم جاء اليه مرةً يطلب منه النصح والإرشاد ليكون خطيباً وقص عليه كيف هوجم وضُرب، فقال ديموستنيس:

- من المؤكد انه لايمكن أن يحصل لك شيء كهذا.

فرفع القادم صوته وصاح مستنكراً:

- ما هذا يا ديموستينس؟ اتقول انه لم يحصل لي شيء كهذا ؟

فرد ديموستينس:

- آه، ها انا الآن اسمع صوت شخصٍ أهين وضرب حقاً!

وكان يهتم كثيراً بالنبرة والاسلوب ويعلق عليهما الاهمية القصوى في كسب ثقة المستمعين وايمانهم. وكان الاسلوب الذي يعتمده يبعث في نفوس سواد الجمهور سروراً عجيباً. أما عند: الفئة المثقفة امثال (ديمتريوس الفاليري) فهو اسلوب رخيص، متبذل، مخنث. وذكر (هرميبوس) عن (ايسيون Aesion) انه سئل عن رأيه في الخطباء الاوائل وفي الخطباء المعاصرين فأجاب: من الرائع المعجب حقاً أن يتأمل المرء رباطة الجأش والاسلوب الرفيع اللذين يتوجهون به الى الناس. على أن خطب (ديموستينس) تبدو لقارئها اقوى بناءً واشد تأثيراً ولا جدال قطّ في ان خطبه المكتوبة تتميز بالاسلوب الصارم القاسي، وتراه في ردوده، وتعقيباته المرسلة على البديهة، يسمح لنفسه بالدعابة والسخرية. فعندما قال له ديماديس:

- اي ديموستينس! علّمني، كي تعلِم الخنزيرة مينرفا.

ردّ عليه فوراً:

- اهي (مينرڤا) التي وجدت مؤخراً وهي تتقاطى الفحش والدعارة في كولليتس؟

وعندما حاول لصّ، اشتهر بلقب «النحاسي» انتقاده لاستيقاظه في ساعة متآخرة، وكتابته على ضوء الشموع. قال (ديموستينس):

- اني لأعلم جيداً بأنك تفضل ان تكون كل الشموع مطفأة، ولست بمستغرب يا اهل أثينا من كثرة السرقات في البلد مادام لدينا لصوص من نحاس وجدران من طين!

ان لدينا الكثير من هذه الامثلة يصح اثباتها هنا، الا اننا سنمسك عن هذا في الوقت الحاضر ونواصل وصف شخصيته وتحديد ابعادها على ضوء اعماله وحياته السياسية.

كان اول دخوله الحياة العامة، ابان حروب (فوكيون) كما يؤكد هو نفسه وكما يستبان من خطبه الفيليبيّة، فمنها ما القاه بعد نهاية تلك الحروب. واولها يشير الى احداثها الأخيرة. ومن المؤكد انه رفع الدعوى على (ميدياس) عندما كان له اثنتان وثلاثون سنة من العمر. ولم يكن اذ ذاك شديد الاهتمام بالشهرة السياسية. هذا وما حمله في رأيي - على سحب اتهامه (لميدياس) وقبوله مبلغاً من المال على سبيل التعويض لأنه...

«لم يكن بذلك الرجل السهل اللين الجانب»

بل صارم الطبع، حريص على الانتصاف لنفسه. وعلى اية حال فقد وجد (ديموستينس) ان في مقارعة (ميدياس) صعوبة ينوء بها. وهذا رجل قوي عزيز الجانب، سواء من ناحية المال او المنطق أو الجاه ولذلك استجاب (ديموستينس) لرجاء من توسط في الأمر. ولو وجد املاً او احتمالاً في تحقيق النصر عليه، فلا اظن الآلاف الثلاثة من الدراهم التي قبضها تعويضاً، كانت تكفي لفلّ غراب حقده واطفاء جذوته.

ان الهدف الذي اختاره لنفسه في سياسة الجمهورية، كان شريفاً وعادلاً، فقد دافع عن الكيان الإغريقي في وجه (فيليب) وهذا السلوك الممتاز حقق له الشهرة، واثار الاهتمام في كلّ صقع بما ابداه من البلاغة والشجاعة الأدبية، وغطت شهرته والاعجاب به كل بلاد الاغريق، وتودد اليه ملك الفرس، وكان (فيليب) نفسه يقدره ويفضله على سائر الخطباء الآخرين. حتى اعداؤه، فقد اضطروا الى الاقرار بأنه رجل ذو خطرٍ عليهم، ومن الواجب ان يتخلصوا منه، ولذلك تجد (إسخينس) و(هيپريدس) يُقران له بهذه المنزلة في حين ما انفكا عن انتقاصه والافتراء عليه. ولذلك تراني حائراً في ايجاد سبب مقبول لمقولة (ثيومپوپوس) عنه حين وصف اخلاقه بالميوعة وسرعة التقلب وعدم الثبات على نهج واحدٍ مدة طويلة، سواء بصلته مع الناس، أو باتباعه نفس الغايات. بينما كان العكس هو الأظهر على طبعه. فقد

ظلّ متمسكا بالرأي والاتجاه السياسي الذي اختطه لنفسه منذ البداية حتى النهاية ولم يحد عنه حتى انه آثر ترك الحياة على انكار مبادئه. ولم يسمع عنه اعتذارٌ أو تبرير لانتقاله من معسكر سياسيّ الى معسكرٍ آخر مثل (ديمادبس) الذي كان يتحجج بقوله أنه كثيراً ما تكلم ضد نفسه، لكنه لم يتكلم قطّ ضدّ المدينة، ولم يكن مثل (ميلانوپوس Melanopos) خصم (كاالليستراتوس) المأثور، فلأنه كان كثير الارتشاء، تراه لايتورع عن القول للناس:

- هذا الرجل هو خصمي فعلاً، لكن علينا ان نواليه ونطيعه لخير بلادنا.

ولم يكن ايضاً مثل (نيقوديمس Nicodemus) المسيني الذي ظهر منحازاً الى (كساندر) في مبدء الأمر، ثم تركه وانضم الى صفّ (ديمتريوس)، وفسّر انقلابه هذا بقوله ان العملين ليس فيهما اي تناقض ذاتي اذ من الحكمة دائماً أن يُساير الفاتح. وليس ثم ما يمكن قوله بحق (ديموستينس) مما يجري هذا المجرى فلم يكن ممن ينكص على عقبيه او يراوغ لا قولاً ولا عملاً. ولو لم ينطلق من هذا المنطق في نشاطه السياسيّ من البداية حتى النهاية لوجدنا حتما اختلافاً مهما كان قليلاً. وقد ذكر (پانيتيوس Panaetius) الفيلسوف ان معظم خطبه كانما كتبت للتدليل على هذه النتيجة وهي ان كل ما هو صالح ونبيل يجب ان يطلب لذاته فحسب. ودليل ذلك خطبته عن «التاج» وخطبته «ضد اريستوقراطس» وخطبته «في سبيل الحصانات»، وخطب «الفيليپيات»، كان في كل هذه الخطب يدعو ابناء وطنه بأن يطلبوا لا ما يبدو لهم اجلب للسرور والراحة والفائدة بل كان يستصرخهم مراراً وتكراراً بان يؤثروا بالدرجة الأولى كل ما يستقيم مع الشرف والعدل، قبل أن يفكروا في أمنهم وسلامتهم. فلا ظل (ديموستينس) عفّ اليد ولو كانت شجاعته في الدعوة الى الحرب توازي سموّ مبادئه وخطبه، فهو يستأهل أن يوضع لا في عداد (ميروروكليس Moeroclis) و(پوليئكتوس) و(هيپريدس)، بل في مصاف الطبقة الأولى من الخطباء امثال (كيمون) و(ثوكيديدس) و(پيركليس).

من المؤكد ان (فوكيون) المعاصر له نال صيتاً بفضل شجاعته وامانته لايقل عن صيت (إفيالتس Ephialtes) و(اريستيدبس) و(كيمون). وان كانت حكومة آثينا قد حبته باقلّ الرضي وعدته من الحزب المتعاون مع المقدونيين. الأ ان (ديوستينس) الذي لم يكن اهلا للاعتماد عليه في السلاح على حدّ قول (ديمتريوس) ولا كان محصّنا تماماً من الرشوة أنىّ جاءت امتنع عن قبول هدايا فيليب والمقدونيين بصورة قاطعة. الأ انه انكشف وهوجم عندما تغلب عليه الاصفر الرنان الذي جاء من سوسه واكبتانا)، ولهذا اعتبرا الأقدر على تزكية فضائل الزمن الغابر، منه على الاقتداء بها والسير على نهجها. ومع هذا كله فقد ارتفعت

حياته الخاصة عن حياة كل الخطباء الذين عاصروه خلا حياة (فوكيون). لم يواجه احد منهم الجمهور بمثل الجراءة والصراحة التي واجهه بها وكان يهاجم الاخطاء، ويعارض في نزوات الشعب واندفاعاته الطائشة كما يبدو من خطبه، وكتب (ثيومپوپوس) يقول: أن الآثينيين اختاروا (ديموستينس) ليقوم بتوجيه الاتهام الى شخصٍ معين فرفض ذلك فهبّ الجميع صارخين وتعالى ضجيج السخط عليه فنهض وخاطبهم بقوله:

- يا رجال آثينا! سأكون رهن امركم دائماً كناصحٍ ومشاورٍ شئتم ذلك ام ابيتم. أما ان اكون مدّعياً كاذباً، او متملقاً ذليلاً، فهذا ما لن اكونه ابداً مهما حاولتم.

وكان موقفه من قضية انتيفون Antiphon موقفاً ارستقراطيا بحتاً. فبعد ان برىء الرجل امام الجمعية العامة، اقتيد الى المحكمة الاريوباغية، فحكمته وادانته وانفذت فيه الحكم بتهمة تعهده لفيليب باحراق دار السلاح، ولم تعبأ باستياء عامة الشعب. واتهم (ديموستينس) ايضاً الكاهنة (ثيوريس Theoris) بأنها لقنت وحرضت العبيد على خداع وغش اسيادهم الى جانب تهم أخرى، فحكم عليها بالموت ونفذ فيها.

وقيل ان (ديموستينس) هو كاتب الخطبة التي استعان بها (ابوللودورس) على مباشرة الدعوى ضد (تيموثيوس Timotheus) الجنرال الآثيني، بخصوص دين عليه. كذلك عزيت اليه الخطبتان ضد (فورميون Phormion) و(ستفانوس Stephanus) وفي القضية الأخيرة الاعتقاد أن مسلكه كان بعيداً عن قواعد الشرف ذلك لأن الخطبة التي رد بها فورميون على (ابوللودورس) كانت ايضاً من بنات افكاره، ومثله في هذا مثل ذلك الذي زودّ خصمين بالسلاح، من دكان اسلحة واحد، ليطعن احدهما الآخر!

ومن خطبه الموجهة الى الجمعيات العامة، خطبه ضد (اندرويتون Androtion) وخطبه ضدّ (ثيموقراطس Timocrates) وارستوقراطس وكلها كتبت ليلقيها آخرون قبل أن يبرز في ميدان السياسة، ويبدو انه ادعاها عندما كان له من العمر سبعة وعشرون او ثمانية وعشرون عاماً.

واما خطبته ضدّ (ارسطوغيتون Aristogiton)، وخطبه تلك «حول الحصانات» فقد القاها هو بنفسه بطلب من (قطيپوس Ctesippus) ابن (خبرياس) كما يقول هو نفسه، الاّ ان بعضهم يقول انه ما فعل هذا الاّ تقرباً لقلب امّ الفتى، على انه في الواقع لم يتزوجها؛ وكانت زوجه ساموسيّة الموطن كما اورد (ديمتريوس المغنيزي) في كتابه الموسوم «الاشخاص المتطابقة اسماؤهم». وهناك خطبته ضدّ (اسخينس) الذي اساء التصرف في سفارةٍ، لا يعلم هوأ ألقيت

ام بقيت حبراً على ورقٍ. على أن (ايدومينيوس Idomeneus) يقول أن (اسخينس) نجا من الإدانة بثلاثين صوتاً. ويبدو أن لا صحة لهذا القول، على قدر ما يمكن استخلاصه من خطبتيهما «في التاج»، اذ لم يأت اي منهما الى ذكر المسألة بوصفها قضية وصلت مرحلة التهمة والمرافعة، لا صراحة ولا ضمناً... لكن فلنكتف بهذا القدر ولنوع لغيرنا أمر البتّ في هذا التباين.

كان واضحاً حتى في فترة السلم، السبيل الذي قصد (ديموستينس) توجيه سياسة الجمهورية اليه، فقد دأب على انتقاد كل ما يصدر من الملك المقدوني، وكان يجد في كل تصرف من تصرفاته عيباً، ويهتبل كل مناسبة وفرصة لإثارة اهالي اثينا وتهييجهم عليه ولذلك لم يتردد ذكره في بلاط (فيليب) كثيراً ولا كان يمدح بما يستحق. ولقد كان واحداً من اعضاء السفارة العشرة الذين ارسلوا الى مقدونيا ومع ان الجميع خطوا بالالتفات، الاّ أن اكبر الاهتمام كان منصبا على الخطبة التي القاها فقد خطيت بالجواب المفصّل الدقيق. الاّ ان (فيليب) فيما عدا ذلك لم يحتف به كما احتفى بالاخرين ولم يبد له اللطف والمجاملة اللتين ابداهما لحزب (اسخينس وفيلوقراطس) ولما مدح الآخرون مقدرة (فيليب) في الخطابة واطنبوا في وصف جمال شخصه وطيب مجلسه في حفلة شراب لم يتمالك (ديموستينس) من ايراد اعتراض تافه على هذا المديح بقوله: ان الصفة الأولى هي أجدر بالخطيب، والثانية قمينة بامرأة والثالثة هي من خصائص الاسفنج، وليس في اية واحدة منها ما يصلح لاسنادها الى امير.

لكن الاحداث آلت الى الحرب بالأخير (ففيليب) لم يكن ليصبر على حياة السلم، والآثينيون انساقوا بتأثير (ديموستينس)، فقد حرضهم على فيليب عندما اخضع (ايوبيا) بخيانة من طغاتها. وصوت الآثينيون باقتراح منه على مرسوم اعلان الحرب، وعبروا البحر وطردوا المقدونيين من تلك الجزيرة. ومما دفع الى تأجيج اوار تلك الحرب، هو انتصار آثينا للبيزنطيين، والپرنثيين Perinthions عند تعرضهم لهجمات المقدونيين. فأقنع (ديموستينس) الجمهور الآثنيين بنبذ خصوماتهم مع هاتين المدينتين، ونسيان الاساءات التي ارتكبتاها في اثناء حروب الحلف، فارسلت النجدات العسكرية التي انقذتهما وعززت دفاعهما. وبعد هذا بفترة قصيرة قام بمهمة السفير المتجوّل في مختلف دول اليونان، وكان يحثهم على مقاومة (فيليب) وقتاله. وافلح في انشاء جبهة متحدة من هذه الدول باستثناء القلة منها. وتالف الى جانب القوات التي عبأها المواطنون انفسهم - جيش للحلف يتألف من خمسة عشر الفاً من المشاة وألفين من الخيالة. ودفعت تلك الدول بطيبة خاطر الأموال للازمة لتجنيد المرتزقة وعلى

ما يذكره (ثيومبوبس) أن قولة (كروبيلوس Crobylus) المشهورة كانت في مناسبة طلب الحلفاء تعيين مقدار مساهمتهم المالية وتحديدها بصورة دقيقة فقد نهض هذا الخطيب وقال:

- إن الحرب لايمكن أن تُطعم بكذا وكذا، في اليوم الواحد.

بعد أن حملت كل بلاد الاغريق السلاح، واخذت الآمال العراض تداعب شعوبها، واتحد الايوبيون، والآخائيون والقورنثيون والميغاريون و(الليوكاديون Leucadians) و(الكوركيريون Corcyraean) اهالي ومدناً، في عصبة مؤتلفة واحدة، بقيت اشق المهمات في عهدة ديموستينس، وكان قد ارجيء البتّ فيها، وهي ضمّ الثيبيين الى هذه العصبة. كانت بلادهم متآخمة لآتيكا، وكان لديهم قوات كبيرة مهيّأة للقتال، وهم في ذلك الوقت أفضل محاربي الاغريق، ولم يكن بالهيّن حملهم على مناصبة فيليب العداء، اذ لم يمرّ وقت طويل على الجميل الذي صنعه معهم في اثناء حروب فوكيون. ومما عقدّ الأمر كثيراً أن أسباباً للنزاع والخلاف بين مدينة ثيبة وآثينا كانت تنجم وتتجدد باستمرار وتشتد وتتفاقم بخصومات تافهة تنشأ بسبب حدودهما الواحدة.

الاّ ان فيليب الذي علا نجمه وسطع وزاده غروراً نجاحُه في امفيسّا Amphissa، سرعان ما انقض على ايلاطيا Elatea فجأة، واستولى على (فوكيس) واصاب الآثينيين بذعرٍ شديد. ولم يجرأ احد من الخطباء على اعتلاء المنبر ومواجهة الجمهور وفقد الجميع مقدرة الكلام وركبتهم الحيرة امام جمعية ذاهلة صامتة. في هذا الظرف العصيب برز (ديموستينس) وحده، والقى اليه بنصيحته، وهي التحالف مع ثيبة، ولجأ الى شتى الوسائل والاساليب لبث روح الاقدام في الآثينيين، ورفع معنوياتهم بالآمال المشرقة، فاخذوا برأيه وبعثوا به مع آخرين في سفارةٍ الى ثيبة، وبادر فيليب ايضاً بارسال وفدٍ حسب ما يذكر (مارسياس Marsyas) لإحباط مساعي (ديموستينس)، وكان وفده يتألف من (اميتاس Amytas) و(كليارخوس Clearchus) المقدونيين، و(دخوس Doachus) التسّالي، وثراسيديوس Thrasydoeus. كان الثيبيون أعرف من غيرهم بمصلحتهم في تلك الساعة، وأخبر بما يوأتمهم، الاّ ان فظائع الحرب واهوالها كانت شاخصة امام اعينهم جميعاً. وخسائرهم الفادحة في الحروب الفوكرنية، مازالت ماثلة للاذهان. الاّ ان قوة عارضة الخطيب وسلطان تأثيره كان كما يقول (ثيومبوبوس) عاتياً في اذكاء نار شجاعتهم واشعال لهيب حماستهم، حتى انهم تركوا جانباً كل حذرٍ أو خوف، وعافوا كل عهدٍ مقطوعٍ بنوع من الهام ربانيّ، ليختاروا سبيل الشرف الذي دعتهم اليه كلمات الخطيب. ان هذا النجاح الذي حققه ديموستينس، بلغ حداً من المجد والآثار الجسيمة، الجأ معه (فيليب) الى ارسال وفدٍ للمعارضة في صلح. الاّ ان كل بلاد الاغريق هبت

دفعة واحدة بسلاحها للنجدة ووضع القادة العامون انفسهم تحت تصرف (ديموستنيس) لتلقي الاوامر منه، لافي اتيكا وحدها بل في (بويوتيا) ايضاً. وكان تأثير لسانه على جمعيات ثيبة العامة لايقل عن تأثيره في الآثينيين. فدانت لسلطانه المطلق جمعيتا المدينتين، واحاطتاه بودّهما. وكان يجانب الطرق الملتوية في ادارتهما، ولا يدافع امامهما الاّ عن قضية عادلة كما اقرّ بذلك (ثيومپوپوس) نفسه. ولم يكن هذا على جدارته والمعيته بالكثير.

على أن الآلهة قدرت على مايبدو من مجرى الاحداث، فترة من الزمن تفقد فيه بلاد الاغريق حريتها. فكان الحظّ العاثر يقف لها بالمرصاد فيصيبها بالفشل ويحبط مساعيها بصورة متوالية، وتواترت النبوءات والاشارات العلوية لتأكيد ذلك. منها النبؤة الكئيبة التي نزلت على الكاهنة الثيبية. وهي نبوءة قديمة تضمنتها مجموعة القصائد السيبيلية Sibyl.

> المعركة في ثِرمُودون ستكون مأمونةً عن بعد واني لأرغب في مشاهدتها من مسافةٍ، مثل نسرٍ مراقب وهو يطير في الفضاء سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب

ويقال ان (ثِرمودُون Thermodon) هو غدير صغير هنا في بلدنا (خيرونيا) وهو يجرى الي (كيفيسوس Cephisus) على اننا لم نقع على نهيرٍ بهذا الإسم يجرى في تلك الانحاء في يومنا هذا، وليس لنا الاّ أن نخمن بأن مسيل الماء المعروف اليوم باسم (هَيْمون Hae-mon) الذي يمرّ محاذيا هيكل (هرقليس) حيث عسكر الاغريق، هو (ثرمودون) المقصود. اذ انه اصطبغ بعد هذه المعركة بالدماء، وامتلأ بجثث القتلى، ولأجل هذا تغييرّ اسمه واطلق عليه الاسم المعروف به اليوم - كما نظن. على أن (درويس) يقول بأن (ثرمودون) ليس نهيراً. وان هذا الاسم يتعلق بحدث معين، وهو ان بعض الجنود عندما شرعوا بضرب خيامهم وحفر الخنادق حولها، عثروا على تمثال حجري صغير، دلت الكتابة المنقوشة فيه، انه تمثال (ثرمودون) يمثله حاملاً امازونةً جريحة بين ذراعيه. وهناك بنوءة أخرى عن الموضع تتداولها الألسن وهي:

> ايها الغراب، لا تتردد في حضور ورؤية المعركة التي ستقع في (ثرمودون) فستكون لك مأدبة كبيرة من لحوم الرجال هناك.

وليس من السهل ان نقررّ أي زعمٍ من هذه المزاعم هو الصحيح، على اية حال. اماّ عن (ديموستينس) فقد قيل أنه كان يثق بقوات الاغريق ومقدرتها ثقة لاحدّ لها. وقد اثاره ما وجده من علامات اليأس والعزم في هذا العدد الكبير من المقاتلين الشجعان المستعدين لقراع

العدو مما لا يتصور معه انهم قد يعيرون اذنا صاغية للنبوءات او انهم يهتموا بالعرافات، حتى قال انه يشكّ في الكاهنة، ويميل الى الاعتقاد بأن بعضهم اغراها لتتكلم في صالح (فيليب). واخذ يذكر الثيبيين بـ(إپامنينداس)، ويذكر الاثينيين بـ(پركليس) قائلاً انهما كانا يتخذان قراراتهما بتحكيم عقلهما فيهما. وينظران الى النبوءات وامثالها بوصفها اعذاراً يتعلل بها الجبناء. الى هذه المرحلة كان (ديموستينس) جريئاً أيّداً. الاّ انه لم يجنى أيّة مأثرة في القتال الفعلي، ولم يطابق بلاؤه في ساحة الوغى، تجليّه في منبر الخطيب، فقد فرّ من الميدان، وترك موضعه بشكل مخز والقى باسلحته جانباً، دون أن يحسّ بالعار الذي اصاب الكتيبة المنقوشة على ترسه بأحرف من ذهب «مع حظ سعيد»، وهذا ما يذكره لنا (پيثياس Pythias) ما ان لاحت بتاشير النصر (لفيليب) حتى ركبته فرحة طاغية، واستخفه طرب عظيم فخرج بعد ان عبّ مقداراً كبيراً من الخمر - لمشاهدة القتلى، واخذ يردد آخر بيان حربي صدر بناءً على اقتراح من (ديموستينس):

«اقتراح من ديموستينس ابن ديموستينس».

وراح يقطعه تقطيعاً ايقاعياً ويشد على موضع الوقفات فيه. وبعد ان عاد لنفسه واخذ يفكر بالخطر العظيم الذي كان يتعرض اليه قبل قليل، ادركته ارتجافة تهيبّ من تلك القوة والكفاءة الهائلة في كلام خطيبٍ مما دفعه الى المجازفة بحياته ومملكته، بمعركة تتقرر نتيجتها بسويعات. لقد انداحت شهرة ديموستينس وانتشرت حتى بلغت بلاط الفرس، وارسل الملك رسائل الى عُمّاله آمراً اياهم بان لا ينجلوا على (ديموستينس) بالمال وأن ينجزوا اية خدمة يطلبها بوصفه الوحيد في كل بلاد الاغريق، الذي تمكن من إلهاء فيليب، وإشغال قواته العسكرية في ميادين قريبة منه اعني في النزاعات اليونانية. لقد انكشف هذا (للاسكندر) فيما بعد، من رسائل لديموستينس وجدها في (ساردبس) ومن اوراق عثر عليها لضباط فرس، وفيها ثبتٌ بالمبالغ الطائلة التي ارسلت اليه.

بعد الفشل الذي مني به الأغريق، اخذ الحزب الآخر المعارض في الجمهورية، يعمل على الايقاع (بديموستينس) واتخذوا من ذلك فرصة ليلفقوا عدة تهم عليه، والصاق بعض الجرائم به. ولم يكتف عامة الشعب بتبرئته من كل ما عُزي اليه، بل ظلّ يخصّه بالمنزلة الأولى من الاحترام، ولم ينفكوا عن دعوته للمشاركة في تصريف الشؤون العامة، ثقةً منهم بحسن نيته واخلاصه. وقد تجلى ذلك عندما جيء بعظام قتلى (خيرونيا) الى الوطن لدفنها باحتفال رسميّ، فقد اختاروه لالقاء خطبة التأبين، ولم يظهروا وهم تحت تأثير المصائب اي خلق وضيع او معاملة دنيئة. وهذا ما سجلّه لنا (تيوپوپوس) باسلوبه المغرق في المبالغة، وكان العكس هو

الصحيح فبالاحترام والتكريم اللذين خصّوا به ناصحهم الأمين، برهنوا على عدم استنائهم من نصائحه واقتراحاته.

القى (ديموستينس) الخطبة التأبينيه، الأ انه أبى أن تكون البيانات اللاحقة لها، صادرة باسمه، بل وكل اصدقاءه بها واحداً بعد الآخر، متعللاً بأن اسمه يجلب النحس والشؤم. وظلّ هكذا فترةً، حتى ارتفعت معنوياته وشجعّه موت (فيليب) الذي لم يعش كثيراً عقب انتصاره في (خيرونيا) وهذا ما اشير اليه في البيت الأخير من النبؤة على ما يبدو لي:

«سيبكي المغلوب هناك، وسيهلك الغالب».

أعلم (ديموستينس) سراً، بنبأموت (فيليب) قبل انتشاره، فوجد في ذلك فرصته ليستهوي الناس، ويبث في انفسهم الشجاعة، ويحي الأمل الباسم بالمستقبل. فاقبل على الجمعية العامة بوجه طافح بالبشر وباسارير باشة ورغم لهم انه رأى حُلماً ينبئ عن حظ عظيم مقبل على آثينا. وبعد هذا بقليل قدم الرسل بنبأموت (فيليب) وما أن انتشر ذلك في اوساط الشعب حتى خرجوا الى الهياكل لتقديم القرابين، واصدروا قراراً بتقديم «تاج» الى پاوسانياس. وخرج اليهم (ديموستينس) وعليه حلة فاخرة وقد اعتمر باكليلٍ من الغار، مع انه لم يزل في حداد على ابنته التي لم يمض مع وفاتها غير سبعة أيام، حسب قول (اسخينس) الذي انتقده على هذا التصرف، وهاجمه ووصفه بالانسان الذي تجرد عن عاطفة الحب الأبوي. كان الأحرى (باسخينس) لو عمد (ديموستينس) الى الظهور بغير هذا المظهر. أن يفضح ضعفه ويعيب عليه افتقاره الى رباطة الجأش وقوة الارادة، وهو أقرب الى الخلق الانثوي؛ إن كان يعتبر البكاء والعويل، الدليلين الوحيدين على رقة الطبع ورهافة الحسّ. او كان يدين اولئك الذين يتحملون تلك المصائب بالمزيد من الحلم والتصبر، وبالاقل من العاطفة. واما من جهتي فلا يسعني القول بأن مسلك الأثينين في تلك المناسبة كان شريفاً لائقاً. فإن ضفر الاكاليل على رؤوسهم وتقديم القرابين للآلهة لموت أمير لم يلقوا منه الأ اطيب المعاملة والطفها واقربها الى الانسانية، مات وهو في أوج انتصاراته وعظمة نجاحه وهم يعانون مرارة الهزيمة والفشل. لقد اثاروا بعملهم هذا نقمة الحظّ عليهم فضلا عما ينطوي من الخسة والدناءة بذات نفسه. فبعد أن جعلوه مواطن شرفٍ آثيني، وبالغوا في اكرامه وتبجيله حياً، رأيتهم يخرقون كل حدود السرور والتشفي ويشتمونه عندما يسقط قتيلاً بيد شخصٍ آخر لايمت اليهم بصلةٍ وينشدون أناشيد النصر والظفر كأن بسالتهم هي التي قضت على حياته. في الوقت نفسه ينبغي لي أن اشيد بموقف (ديموستينس) الذي ترك البكاء والدموع واحزان الأسرة، للنساء حين وجد ان واجبه يقضي عليه برعاية مصالح الجمهورية وفي رأيي انه واجب بنيل للنفس الجريئة

الصالحة للحكم، وقوفها الثابت الدائم لحماية المصلحة العامة تاركاً الاحزان الخاصة والمتاعب الشخصية تجد تعويضها فيما ينعم به الشعب من خير. كان واجباً عليه أن يحافظ على وقاره ومكانته اكثر بكثيرٍ من الممثلين حين يمثلون اداور الملوك والطغاة على المرسح، تراهم لايعرفون عن احاسيسهم الخاصّة عندما ينخرطون في بكاءٍ، أو عندما يضحكون. بل يقومون بتمثيل الدور حسب مقتض الحال. اضف الى هذا ان واجبنا تجاه الجار الذي حلت به مصيبة لايقتصر على مواساته وانما ان نقدم له كل ما يسري عنه قولاً وعملاً وتحويل افكاره الى المواضيع المسلية. مثلما نشير على الناس الذين يشكون الماً في اعينهم بأن يتحاشوا النظر الى الالوان الساطعة المؤذية، والتحول الى اللون الاخضر او الى مزيج من الالوان الخفيفة الهادئة. ولهذا ففي حالة (ديموستينس) يجب علينا أن نلجأ الى وسائل تعزية للمصيبة التي ابتلي بها. أفضل واجدى، وليس مثل نهوض بلاده من كبوتها وعودتها الى الازدهار وسيلة افضل، بادخالنا المناسبات العامة والخاصة في الحساب - إنه جاز لنا القول. فاليسر الذي يصيب الدولة يطمس المصائب التي تحلّ بالمرء ويخفيها. لقد لجأت الى التفصيل اولاً لأني اعرف بان كثيراً من القراء قد أثرت فيهم نفسيه (اسخينس) فبلغت بهم حَداً من الرهافة والرقة مما لايليق بالرجال.

ولأعد الى حكايتي: نفخت جهود (ديموستينس) روح الحياة مجدداً في المدن الاغريقية فعادت الى الائتلاف في عصبةٍ. وامد الثيبيين بالسلاح فانقضوا على الحامية المقدونية المعسكرة بين ظهرانيهم وفتكوا بالخلق الكثير منها. واستعد الاثينيون بقواتهم لنجدتهم. واصبح لديموستينس القول الفصل في الجمعية العامة. ووجه الرسائل الى القواد الفرس المؤتمرين بأمر ملك الفرس في آسيا، يحثهم على شن حربٍ ضد الملك المقدوني، ناعتاً اياه بالطفل، وبالأبله. لكن، ما ان استتب الأمر للاسكندر في بلاده، وزحف على رأس جيشه نحو (بويوتيا)، حتى هبطت معنويات الآثينيين وخانتهم الشجاعة. وخنق صوت (ديموستينس) وتركوا الثيبيين يقاتلون الاسكندر وحدهم فخسروا مدينتهم، وعَمّ اهل آثينا الحزن والقلق الشديد. وقرروا ارسال وفد مفاوض الى الاسكندر، وكان ديموستينس عضواً فيه. الاّ ان الخوف من غضب الملك تملكه وهو في الطريق، فكرّ على اعقابه راجعاً من (كيثيرون Cithaeron) متخليا عن المهمة. وفي الوقت عينه ارسل الاسكندر الى آثينا طالباً تسليم عشرة من خطبائهم اليه على حدّ قول (ايدمينيوس ودوريس)، لكن معظم المؤرخين يقولون ان الاسكندر طلب الثمانية التالية اسماؤهم فحسب: (ديموستينس) و(پوليتكتوس) و(افيالتس) و(ليكورغوس) و(ماوركليس) و(ديمون) و(كاللستينس) و(خاريديموس). وبهذه المناسبة قام

(ديموستينس) ليقص عليهم حكاية الغنم التي سلّمت كلابها الى الذئاب مشبها نفسه واعضاء الوفد الآخرين الذين اوقفوا انفسهم على سلامة مواطنيهم، بالكلاب التي تحمي القطيع والمقدوني بكبير الذئاب... وقال مستطرداً:

- وكما نرى تجار القمح يبيعون محصولهم بعرض عينة او نموذج منه، في صحفة يطوفون بها على الشارين، كذلك انتم بتسليمكم ايانا ونحن فئة قليلة من الجمع الكثير، تسلمون انفسكم جميعاً وانتم لاتدرون.

نجد الحكاية مدونة هكذا في تاريخ (ارسطوبولس) الكساندري راح الآثينيون يتداولون فيما بينهم، جائرين لايدرون ماذا يصنعون. ثم اتفق (ديماديس) مع الذين طلب الاسكندر تسليمهم اليه على ان يدفعوا له خمسة تالنتات لقاء ذهابه بدلاً عنهم للتشفع لهم عند الملك. وسواء في ذلك أكان يعتمد على صداقته للملك والمكانة التي يتمتع بها لدية، او انه كان يأمل في ان يجد سورة غضبه قد انفثأت، مثل أسدٍ مفترس، شبع من القتل حتى أتخُم، فمن المؤكد انه ذهب ونجح في نيل العفو عن الرجال، واجراء صلح بين الملك والمدينة.

وبهذا اصبح (الديماديس) اليد الطولي عند ذهاب الى الاسكندر وعلت كلمة اشياعه، واهمل (ديموستينس) اهمالاً تاماً وأفل نجمه. لكن الحركة ربت فيه عندما قام (آغيس) السپارطي بثورته، فقد حاول (ديموستينس) اجراء حركة لمصالحة، الاّ انه سرعان ما عاد لينطوي على نفسه ثانيةً بعد فترة قصيرة، اذ لم يشأ الاثينيبون ان يتدخلوا في أمر هذا الثورة.

وقتل (آغيس) وغلب اللقيديميون على آمرهم. وفي هذه الفترة قدم للمحاكمة (قطيسفون Ctesiphon) بالتهمة المتعلقة «بالتاج» وكانت الإجراءات القانونية قد بدأت في هذه القضية قبل معركة (خيرونيا) بقليل في وقت ارخونية (خيرونداس Choerondos). الاّ أنها لم تعقب وتحال الى المحاكمة الاّ بعد عشر سنوات في وقت ارخونية (ارسطوفون). لم تنل قضيةً من الشهرة ما نالته هذه القضية سواء بسبب ما كان يتمتع به خطباؤها من صيتٍ ذائع، او بسبب الشجاعة الفريدة التي ابداها القضاة الذين ابو اصدار حكم ضد (ديموستينس)، مع أنّ متهميه في ذلك الوقت بالذات كانوا في اوج سلطانهم ونفوذهم الذي تدعمه قوة مقدونيا. فبرأوه بتكريم وإجلال. حتى أن (اسخينس) لم يحصل على خمس اصواتهم، فلم ير بداً من مغادرة المدينة بسرعة، منفقاً بقية حياته في تعليم البلاغة في جزيرة (رودس) وفي القارة الاسيوية بأيونيا.

بعد هذا بزمن قصير هرب (هرپالوس) من الاسكندر وغادر آسيا لاجئاً الى اثينا. ولم يكن

يجهل مقدار الذنوب التي ارتكبها، وكان سببها تعلقه بالترف والبذخ؛ فادركه خوف شديد من الملك الذي اصبح الآن مصدر رهبة حتى لصفوة اصدقائه، وجاء الى الاثينيين واضعاً امواله وسفنه ونفسه تحت تصرفهم. وسرعان ما امتدت ايدي خطباء المدينة اليه وشخصت ابصارهم الى امواله وخفوا الى معونته وحملوا اهالي آثينا على اجارته واعطائه حق اللجوء. وفي مبدء الأمر نصحهم (ديموستينس) بطرده من البلاد، وبالحذر من توريط مدينتهم في حرب بلا مبرر او ضرورة. وبعد ايام قليلة كانوا يقومون بجرد الاموال التي جاء بها (هرپالوس) ولاحظ هذا إعجاب (ديموستينس) الشديد وفرحة بكأسٍ من صنع فارسيٍّ. وراقبه وهو يتأمل بلهفةٍ نقوشه وتهاويله. فطلب منه أن يزنه بيد ويقدر كمية الذهب فيه، فذهل (ديموستينس) من ثقله وسأله:

- كم يبلغ وزنه؟

فأجابه (هرپالوس):

- «اليك... سيصل» مع عشرين تالنتا.

وما ان جنّ الليل حتى وصله الكأس مع ذلك القدر من التالنتات. ويبدو أن (هرپالوس) كان عجيباً في استقراء امارات الجشع فيه من انقلاب سحنته ومن انظاره وحركات عينيه. ولم يقو (ديموستينس) على مقاومة الاغراء وادخل الهدية الى حصن بيته كحامية شاكية السلاح، ومن بعدها استسلم لهرپالوس واصبح طوع امره. ففي اليوم التالي، اقبل على الجمعية العامة وقد احاط عنقه بحرمةٍ من صوفٍ. فلما طلبوا منه الكلام، راح يلوح بيديه مشيراً الى انه فقد تدرته على النطق. الاّ ان الاذكياء واصحاب النكتة، اتخذوا من الأمر مادة للمزاح والتندر فقالوا «لاشكّ ان الخطيب قد أصيب الليلة الفائته بالتهاب اللوزتين الفضيّ! وليس غير.» ولم يلبث الناس ان علموا بالرشوة فثار بهم الغضب، واوقفوه عن الكلام ولم يسمحوا له بالاعتذار لنفسه بل امروه بالنزول عن المنبر وهم ضاجّون صاخبون.

ونهض رجل وصاح:

- ماذا دهاكم يا رجال آثينا؟ اما تريدون أن تستمعوا الى حامل الكأس؟

وأخيراً طردوا (هرپالوس) من المدينة. وخوفاً من أن يطلب منهم تقديم حساب عن الاموال التي ابتزها الخطباء منه، فقد اجروا تفتيشاً دقيقاً في منازلهم، ولم يستثنوا من هذا الاجراء غير (كاليكلس Callicles) ابن (اريينّداس Arrhenidas) الذي كان قد تزوج حديثا، فاستثنوا داره من التفتيش حرمةً لعروسه التي كانت منه على ما يذكر (ثيومپوپوس).

وعارض (ديموستينس) في التحقيقات، واقترح اصدار قرار يقضي بإحالة الأمر الى المحكمة الاريوباغيــة، وانزال العقاب باولـئك الذين تدينهم المحـكمة. على انه كـان من الاوائل الذين ادانتهم تلك المحكمـة عندما مثل امامها متـهمـاً فـغـرم خـمسين تالنتـاً ووضع في السـجن، فضاقت نفسه به ولم يحتمله امّا خجلاً من الجريمة واما بسبب ضعف بنيته، فهرب بمساعدة وتدبير بعض المواطنين واهمال بعضهم. ومن القليل الذي روي لنا، انه لم يبتـعد كثيراً عن المدينة حتى شعر بأن ثمّ من يتعقبه وتبين أن فيـهم خصوماً له، فحاول الاختفاء، الاّ انهم نادوه باسمه ودنوا منه ورجوه قبول شيء في المال يستعين به على رحلتـه، واكدوا له أنهم ما تعقبوه الاّ لهذا الغرض وطفقوا يشجعونه ويشددون عزائمه للوقوف بجلد امام سوء خطّه. فانشأ يندب نفسه ويبكي بحرقة وقال:

- لكن أني لـي ان احمل ثقل كل هذه النوائب. وها اني اغـادر مدينة لي فيـهـا خصـوم من امثالكم في حين لن يكون من السهل قط ان اجد اصدقاء لي في اية مدينة الجأ اليها ؟

ولم يظهـر جلداً وصبـرا على حيـاة المنفى، وقـضى جل اوقـاته فـي (إيجـينا Aegina) و(ترويزين Troezen)، ينظر دومـاً بعـينين دامـعـتين الى بلاد (اتيكا). وقـد تخلف في المدونات بعض اقوال له لا تشبه كثيراً تلك العواطف الفنية الدافعة المفعمة بالجراءة التي اعتاد القاءها عندما كان يهيمن على الجمهورية. قيل أنه رفع كلتا يديه نحو الاكروبوليس وهو يغادر المدينة، وقال:

- ايتها السـيدة (مينرفا) كيف تطيقين وجود ثلاثة وحوش ضارية لايسلس قيادها: البوم، والثعبان، والشعب الآثيني؟

وكان يثبط همم الشباب الذين يأتون لزيارته والتحدث اليه، ويحذرهم من اخطار السياسة ومعالجة شؤون الدولة بقوله:

- لو خيرت من البدء، بين سبيلين، احدهما يؤدي الى منبر الخطابة والجمعية العامة، والآخر يؤدي الى الدمار المباشر، ولو قيض لي التكهن بالنوائب الكثيرة التي تنتظر العاملين في الحقل السياسي، من المخاوف والحسد، والافتراء، والتناحر، لاخترت بدون شكّ، السبيل المؤديه الى موتي مباشرةً.

وحَلّ اجل الاسكندر عندما كان (ديموستينس) في المنفى كما ذكرنا. فرفع الاغريق السلاح ثانيةً، وقد شجعتهم محاولات (ليوسثينس) الباسلة، الذي كان انذاك يبني حول (انتيباطر) المحاصَر في (لاميا). وعلى اثر ذلك هرب من اثينا الخطيبان (بيثياس) و(كالليميدون -Cal

limedon) الملقب بالسلطعون وانحازا الى جانب (انتيباطر) وراحا يتنقلان في مختلف انحاء بلاد اليونان برفقة سفرائه لاقناع الاغريق بالاخلاد الى السكينة وعدم الانحياز الى جانب الاثينيين. لكن (ديموستينس) التحق بالسفراء القادمين من آثينا وبذل قصاراه، واسدى كل ما امكنه من العون لاقناع المدن الاغريقية بالهجوم معاً على المقدونيين وطردهم من بلاد الاغريق. ويقول (فيلارخوس) ان مناظرة وقعت في (اركاديا) بين (بيثياس) و(ديموستينس) انجرّت بالاخير الى مهاترة صريحة. فقد كان الاول داعية مقدونيا والثاني داعية اغريقياً. قال (بيثياس):

- لما كنا نفترض دائماً وجود مرض ما في الاسرة التي تشرب حليب الحمير، فان المدينة التي تأتيها سفارة من آثينا، لابدّ وان تكون مصابة بوعكة مرضية!

فاسرع (ديموستينس) يردّ على هذه المقارنة بقوله:

- يؤتى تحليب الحمير ويستعمل لحفظ الصحة، وقد جاء الآثينيون لاجل شفاء المرض باعطائهم العلاج الشافي.

سُرّ الآثينيون بسلوك (ديموستينس) حتى انهم الغوا قرار نفيه وارسلوا يطلبون اليه العودة، وحمل هذا القرار اليه ابن عمه (ديمون Demon) الپاياني Paeanian وبعثوا له بسفينةٍ اقلته من منفاه (ايفينا) الى (پيريوس) حيث خرج المواطنون جميعاً لاستقباله باعظم الفرح. ولم يتخلف عن هذه المناسبة كاهنهم وارخونهم. ويقول ديمتريوس المغنيزي، ان ديموستينس رفع يديه نحو السماء وبارك ذلك اليوم الذي شهد عودته السعيدة قائلاً انه اشرف بكثير من يوم عودة (الكيبادس) ذلك لأن ابناء وطنه دعوه من تلقاء انفسهم، لا بأمرٍ فرض عليهم بالقوة. وبقي موضوع الغرامة المالية معلقاً. اذ لم يكن القانون يسمح باعفائه منها بقرار شعبي. على انهم وجدوا مخرجاً بالاحتيال على القانون. فقد جرت العادة لديهم ان يخضعوا قدراً من الفضّة لاولئك الذين يقرر تعيينهم لتزيين وترتيب مذبح التضحية الخاصّ (بجوبترسوتر) فاناطوا به هذه المهمة وخصصوا له خمسين تالنتاً لقاء هذه الخدمة وهو مقدار الغرامة التي حكم بها.

على انه لم يتمتع وقتاً طويلاً بالعيش في بلاده، فقد مينت بعد قليل بالفشل التام كلّ محاولات الاغريق. فمعركة كرانون Cranon التي جرت في (ميتاغيتنيون Metagitnion) في شهر (بيودروميون) ادت الى دخول الحامية المقدونية (مونيخيا) وبعدها بشهرٍ، وهو شهر (پيانپسيون Pyanpsion) قضى (ديموستينس) نحبه على الوجه التالي:

عندما وردت الأبناء بزحف (انتيباطر وكراتيروس) على آثينا. انتهز (ديموستينس) ورفاقه

فرصتهم للهرب من المدنية سراً. على ان حكماً بالموت اصدره الشعب عليهم باقتراح من (ديماديس)، فتفرق الهاربون آحاداً، واصبح كل واحد منهم في موضع وارسل (انتيباطر) جنوده الى كل ناحية للقبض عليهم بأمرة (ارخياس Archias) الذي غلب عليه لقب «صياد المنفيين» منذ ذلك الحين، وكان «ثوري Thurian» المولد، وقيل انه احترف التمثيل التراجيدي في اول حياته، وذكروا ان (بولص) الايفيني أبرع ممثلي زمانه كان تلميذه. الاّ ان (هرميپوس) يعتبر (ارخياس) من تلاميذ (لاكريطس Lacritus) الخطيب ويقول (ديمتريوس) انه امض بعض الوقت مع (انكسيمينس).

عثر (ارخياس) في (ايغينا) على كلّ من هيريدس الخطيب و(اريطونيقوس Aritonicus) المراثوني، و(هيميريوس Himeroeus) شقيق ديمتريوس الفاليري، فاخرجهم من هيكل (ايقوس Aecus) بالقوة اذ كانوا قد لاذوا به، وارسلهم الى (انتيباطر) الذي كان في (كليوني Cleonae). وهناك قتلهم. وقيل انه قطع لسان (هيپريدس). وسمع ارخياس ان (ديموستينس) قد لاذ بحرم هيكل (نبتون) في (كالاوريا Calauria) فعبر اليها في مركب خفيف. وحاول فور نزوله اليابسة بوحدةٍ من الرمّاحة الشراقيين، وحاول اقناع (ديموستينس) بمرافقته الى انتيباطر وكان يعتقد أنه لن يلقى معاملة قاسية. الاّ ان (ديموستينس) كان قد رأى الليلة السابقة حلماً غريباً. فقد خيل له أن رحل في سباق تمثيل تراجيدي مع (ارخياس) لاحراز قصب السبق. ومع ان تمثيله الجيد حاز رضا المتفرجين التام، فقد خسر بسبب سوء الاعداد المسرحي، وأثاثه الحقير.

بينما كان ارخياس يتحدث اليه بكلّ لطفٍ وهو جالس لا يأتي بحركة ولا يغير من جلسته شاخص اليه بعين لاتريم، انتفض فجأة وقال:

- اي (ارخياس) أني أقلّ تأثراً بوعودك الآن، من تأثري بتمثيلك في الماضي.

فداخل الغيظ (ارخياس) واخذ يهدده فقال (ديموستينس):

- انت الآن تنطق بنبوءة مقدونية أصيلة، وقبل ذلك كنت تمثل دوراً. فامهلني قليلاً لاكتب كلمة او اثنتين لأهلي. قال هذا ودخل حرم الهيكل وتناول رقاً كأنما يهمّ بالكتابة. ووضع القصبة في فمه وقضمها كما هي عادته عندما تتناهبه الأفكار او عند الكتابة. ابقى القصبة في فمه برهة، ثم اطرق وغطّى رأسه. وخيل للجنود الواقفين بالباب بأن جلده خانه وان الخوف من الموت قد دبّ في اوصاله. فراحوا يسخرون منه ويلقبونه بالانثى، والجبان، وبالقلب الجازع. واقترب منه (ارخياس) وطلب منه القيام مردداً ما قاله،

وواعداً مرة أخرى بالسعي لمصالحته مع (انتيباطر). لكن (ديموستينس) الذي شعر بأن مفعول قد سَرى في احشائه كشف عن وجهه وشخص بابصاره الى (ارخياس) وقال:

- الآن يمكنك متى شئت، ان تبدأ بتمثيل دور (كريون Creon) في التراجيديا، وتقذف بجسدي هذا في العراء دون دفن. ولكني يا (نبتون) الرحيم سأنهض الان وفي جسدي بقية من روح لاترك هذا الموضع المقدس، مع ان (انتيباطر) ومقدونييه، لم يبقوا شيئاً من هيكلك الا وهو مدنّس.

بعد هذا طلب أن يسنده أحدٌ لأنه بدأ يرتعش ويهتزّ اثناء سيره، وسقط عند مروره بالهيكل واخرج تنهيدة ثم اسلم الروح.

يقول (ارسطون) انه تناول السم من القصبة كما أوضحنا. الا ان (پاپّوس Pappus) وهو مؤرخ غير (هرميپوس) على تاريخه - يذكر أنه عندما سقط بالقرب من المذبح، وجد في لفافة اوراقه التصدير التالي لرسالةٍ شرع في كتابتها:

«من ديموستينس الى انتيباطر...»

وعندما اثار موته الفجائي دهشةً كبيرة، ذكر التراقيون الذين كانوا يحرسون الباب بأنه تناول السمّ من صرة قماش بيده، ووضعه في فمه، وقد ظنوا انه ابتلع ذهباً. الا أن التحقيق الذي اجراه جماعة (ارخياس) مع الخادم التي كانت تعني بشؤونه، اكد بأنه كان يحمل هذه الصرّة منذ مدة طويلة كتعويذةٍ. ويقول ايراتوستينس ايضاً أنه كان يحتفظ بالسّم في خاتم مجوف. وان الخاتم المقصود، هو حلية كان يلبسها في ذراعه. وهنالك روايات مختلفة أخرى اوردها كتاب عديدون تطرقوا الى الموضوع ذاته، على اننا لا نرى ثم حاجة للبحث في مناقضاتهم، خلا اني لا استطيع اغفال ما اورده (ديموخاريس Demochares) قريب ديموستينس، الذي يرى أنه لم يلق ميتته السهلة السريعة تلك بفضل السمّ، بل بنعمة فريدة وعناية فائقة خصته بها الآلهة، فأنقذته من وحشية المقدونيين.

توفي ديموستينس في السادس عشر من شهر (پايانپسيون) وهو اليوم الأحفل بالأسى والمراسيم الدينية من امساكية الـ(الثسموفوريا Thesmophoria) التي تحييها النسوة بالصيام في معبد الآلهة. وبعد موته مباشرة اغدق عليه الآثينيون من التكريم والاجلال ماهو اهل له. فقد نصبوا تمثاله النحاسّي واصدروا مرسوماً يقضي بأن ينزل في كنف (البريتانيوم Prytaneum) اكبر اسرته سِنا. ونقش على قاعدة تمثاله، الكتابة المشهورة التالية:

«لو كنتُ قوياً قدر ما كنت حكيماً للاغريق لما تمكن "المقدوني" من التغلب

عليهم»

ولذلك فمن السخف حقاً أن نصدق ما روى بعضهم أن ناظم هذين البيتين هو ديموستينس، نظمهما في (كالاوْريا) قبيل تناوله السُم.

قبل عودة (ديموستينس) الى آثينا بفترة قصيره وقعت على ما قيل - الحادثة التالية:

استدعي جندي للمثول أمام ضابطه الأمر، كي يجيب عن تهمةٍ. فوضع هذا، تلك القطعة الذهبية الصغيرة التي ماتزال بين يدي تمثال (ديموستينس) وكانت الاصابع متشابكةً واحدتهما بالأخرى وبالقرب منها نبتت شجيرة دلب سقط منها عدد كبير من الاوراق واستقرّ حول قطعة الذهب فاخفاها لوقت طويل اما بفعل الريح التي دفعت بها الى هذا المكان بمحض الصدفة او أن الجندي نفسه عمد الى وضعها. وبالأخير عاد الجندي ليجد قطعته الذهبية في مكانها وقد ذاع نبأ هذه الحادثة وانتشر في الخارج وصار عقلاء المدينة وحكماؤها يجادل بعضهم بعضاً فيها متخذين منها مادة للطعن بنزاهة ديموستينس، في عدد من المقطوعات الشعرية الحكمية التي الفّوها.

واماً عن (ديماديس) فإنه لم يتمتع طويلاً بالنعم التي اغدقت عليه فقد لاحقه الانتقام الالهي لموت (ديموستينس) الى مقدونيا، حيث ذاق طعم الموت على يد اولئك الذين تزلف منهم بوضاعةٍ وكانوا قد ملّوه واجتووه. على ان الجرم الذي اجترحه كان واضحاً يتعذر نكرانه. فقد ضبط بعض رسائله التي كان يحث بها (پردكاس) على مهاجمة المقدونيين وانقاذ الاغريق قائلاً ان المقدونيين يتعلقون بخيط رثٍّ قديم لا غير، ويقصد به (انتيباطر). وقد واجهه (دينارخوس الكورنثي) بذلك. وحمي غضب كساندر فذبح ابنه على صدره اولاً، ثم أمر بقتله. فتعلم من شقائه ونهايته السيئة درسه وهو ان الخونة الذين يبيعون بلادهم، انما يبيعون أنفسهم اولاً. وتلك نهاية طالما تنبأ له بها (ديموستينس) فلم يلق عليها باله.

بهذا يا (سوسيوس) تتمّ لك سيرة (ديموستينس) اقتبستها من الروايات التي قرأناها او سمعناها عنه.

١٩٧٢/٢/٥

شيشرون

CICERO

(Marcus Tulius)

B.C 108 – 43



شيشرون

أجمع الكلّ على أن (هلڤيا Helvia) والدة شيشرون كانت كريمة المحتد، رخية العيش. لكن لم يعرف عن ابيه الا عكس ذلك وبعضهم يجعله ابن قَصّار ورث الصنعة عن ابيه، في حين نجد آخرين يصعدون بنسب اسرته الى (تُللوس آتيوس Tullus Attuis) ملك الڤولسكان Vol-scan الشهير الذي شن حروباً على الرومان لم تخل من المجد. ويبدو على كلٍ، أن اول من نجم من هذا البيت متخذاً لقب (شيشرون)، لابد وانه كان ذا شأنٍ بحيث ان أعقابه لم يكتفوا بالتسمي به، بل تمسكوا بالتسمية واعتزوا وإن كانت لفظة عيبٍ بلغة السوقة. فاللاتين يطلقون كلمة «چيچر Cicer» على نبات البيقية[1]. والحزُّ او الثقب في ارنبة انفه الذي يشبه فتحة في جذع ذلك النبات، اعطته لقب شيشرو.

وشيشرون الذي اكتب الآن سيرته، قيل أنه انتهر بشيء من الشدة بعض اصدقائه عندما اشاروا عليه بنبذ الأسم او تغييره عندما تقدم للوظيفة العامة ودخل المعترك السياسي. وقال معقباً: انه سيبذل جهده ليجعل اسم (شيشرون) أشهر وأعلى مجداً من اسمي (سكاوري Scauri) و (كاتولي Catuli). وعندما كان كويستوراً في صقلية اراد ان يقدم صحفة فضية الى الآلهة. فأمر الصائغ أن ينقش اسميه الأولين عليها وهما «ماركوس» و «تلليوس» وقال له ممازحاً له أن ليفتش بدلاً من الاسم الثالث صورة نبات البيقية. هذا ما ذكروا لنا عن اسمه وفصله.

واما عن ميلاده فقد روي أن امّه ولدته دون ألم او مخاض في غرة الشهر الثالث من التقويم الجديد وهو عين اليوم الذي يدعو فيه الحكام الرومان للامبراطور ويقربون له. وقيل ايضاً ان رؤيا ظهرت لمرضعة تنبيء بأن الطفل الذي تتولى ارضاعه سيغدو فيما بعد عظيم نفع لحكومات روما. وقد ايدّ شيشرون عملاً هذه التكهنات التي تؤخذ بصورة عامة مأخذ الاوهام والاحاديث الفارغة وجعلها نبؤات حقيقية. اذ ما أن بلغ سن الدارسة حتى برز صبياً ذكياً موهوباً وارتفع مقامه بين اترابه واعجبوا به، حتى أن اباءهم كانوا يختلفون الى المدرسة ليتأملوا عن كثب سرعة استيعابه وحضور بديهته التي اشتهر بها بين زملائه وكان اقلّ هؤلاء

---

(١) نبات تعلف به الحيوانات وهو اشبه ما نطلق عليه «الجتّ».

الاباء تهذيباً يستأذن من اولادهم ان يروهم يستقبلون شيشرون باحترام ويوسعون له موضع الصدارة بينهم. وكان - وفق ما تمناه افلاطون من الميل الى الفلسفة، والتعلق بالدرس، والشوق لتلقي كل نوع من انواع المعرفة والثقافة. واظهر كذلك ميلاً غريباً لنظم الشعر، ولديه قصائد متداولة حتى يومنا هذا نظمها في صباه على البحر الرباعي تدعى (بونطيوس غلاوكوس Pontius Glaucus). ثم عندما نزع بصورة خاصة الى الدراسة والتتبع اشتهر بأنه افضل خطيب فضلا عن كونه أحسن شاعرٍ في روما. ومازال اسلوبه البياني موضع اعجابٍ ومحاكاة بصرف النظر عن الاساليب المستحدثة الكثيرة التي سادت العصر منذ ايامه، الاّ ان قصائده فقدت شهرتها وطواها النسيان. وما اكثر الشعراء المجيدين الذين جاؤا بعده.

بعد ان انهى دراساته الأولية، دخل طالباً مستمعاً لفيلو Philo الاكاديمي الذي أحبه الرومان واعجبوا به لبلاغته ولسمو اخلاقه، وانزلوه منزلة فاقت منازل كل تلاميذ (كليتوماخوس Cli-tomochus) وكذلك لازم آل موچي Macii وكانوا ساسةً بارزين، وزعماء في مجلس الشيوخ واخذ عنهم علوم القانون. وخدم ردحاً قليلاً من الزمن في الجيش تحت امرة (سُلّلا) اثناء الحرب المارسية. لكن ادرك بان الجمهورية تنقسم الى شيع واحزاب. ووجد الامور فيها تنحو منحى الاستبداد، وتتجه الى الملكية المطلقة، فآثر الانسحاب ليحيا حياة عزلة وتأمل ومناظرة مع جهابذة الاغريق. واوقف نفسه على الدراسة، حتى استتب الأمر لـ(سلّلا) ونعمت الجمهورية بنوع من الاستقرار.

في ذلك الحين تقدم معتوق (سللا) المدعو (خريسوغُونس Chrysogonus) بادعاءٍ في ضيعة تعود لشخص قيل أنه قتل عندما صدر قرار اهدار الحقوق عليه، وقال انه اشتراها بألفيْ درهم. فرفع (روسكيوس Roscius) ابن القتيل ووارثه الدعوى عليه موضحاً ان قيمة الضيعة مأتان وخمسون تالنتاً، فثار غضب (سللا) لان هذا يضع تصرفاته موضع طعن وامر باجراء التعقيبات القضائية ضد (روسكيوس) بتهمة قتله اباه. وجمع (خريسوغونس) الادلة ضدّه. ولم يجرء احدٌ من المحامين على مساعدة المتهم واعتذروا عن الوكالة خوفاً من قسوة (سللا) فوجد الشاب نفسه وحيداً لا نصير له، فسعى الى (شيشرون) مستجيراً. واخذ اصدقاء شيشرون يشجعونه على هذا بقولهم: ليس من المحتمل أن تعن له فرصة لتقديم نفسه الى الحياة العامة اشرف واجلّ من هذه الفرصة. فقبل الدفاع عنه وربح القضية فنال منها شهرة كبيرة. الاّ ان الخوف من (سللا) استولى عليه فرحل الى اليونان ذاعما انه يفعل ذلك بسبب احتلال صحته. في الواقع كان ضعيف البنية هزيلاً رقيق المعدة الى حد لم يكن يقوى على تناول طعامٍ عادي خلا الحمية الدقيقة التي لا تحوي من القوت الاّ النزر التافه وهذا ايضاً، ما

كان ليقوى على تناوله الاّ في ساع متأخرٍ من الليل. وكان صوته حسنا جهورياً، لكنه على قدر عظيم من الخشونة وعدم التهذيب حتى انه يرتفع عند الحِدّة والحماسة الى الحدّ الذي كان يخشى منه على صحته.

وارتحل الى آثينا واستمع الى (انطيوخوس) العسقلاني، وسحر بسلاسة الإداء وأناقته، ولم تستهوه المبتدعات التي ادخلها هذا الفيلسوف على المبادىء، ذلك لأن (انطيوخوس) هذا، كان قد ابتعد وقتذاك عن الاكاديمي الجديدة كما يسمونها وقطع علاقته بمذهب (كارنيادس Carneades)، وسواء في ذلك إأستهواه منطق الفة المظاهر والحواس، او دفعه كما يقول بعضهم شعور المنافسة والمعارضة لأتباع (كليتوماخوس وفيلو) وتغيير افكاره واعتناق المذهب الرواقي في معظم شؤون الحياة. على أن (شيشرون) كان اكثر ميلاً الى مبادىء الاكاديمي الحديثة وكان يعتنق مذهبها وقد عاهد نفسه على ان ينسحب من مزاولة المحاماة والعمل السياسيّ ويقضي حياته في هدوء تتبعات فلسفية اذا منيت حياته العامة في الجمهورية بالاخفاق.

لكن بعد ان بلغه نبأ موت (سللا). وبعد أن صح بدنه واشتد عوده بالتمارين الرياضية، وسيطر على نبرات صوته فبات رخيما يشنف الآذان، منسجما مع صحته العامة، راح اصدقاؤه في روما يلحون برسائلهم ليعود. ولاسيما (انطيوخوس) الذي كان لايفتأ يحثه على العودة الى المعترك السياسيّ. وهكذا تهيأ ثانية لاستخدام البلاغة التي هي آلة الخطيب، وعبأ كل كفاءته السياسية للعمل، وانشا يثابر على التمارين الخطابية وشدّ الرحال الى اشهر بُلغاء عصره. رحل عن اثينا الى آسيا وورودس وناظر من الاساتذة الآسيويين (كزينوكلس Xeno-cles) من (ادراميتيوم Adramyttium) و(مينيپوس Menippus) الكاري Caria، وديونيسيوس المغنيزي. وفي (رودس) درس الخطابة على (ابوللونيوس) ابن (مولون)، والفلسفة على (پوسيدونيوس Posidonius). وقد قيل لنا ان (ابوللونيوس) الذي لم يكن يفقه اللاتينية، طلب من شيشرون ان يخطب باللغة اليونانية فوافق مسروراً، مؤمنا بأنها خير طريقة لتنبيهه الى اخطائه. وبعد ان انتهى من الالقاء تملك العجب السامعين وارحوا يتنافسون على اسبقية مدحه وتقريظه. إلاّ أن (ابوللونيوس) الذي لم يبدر منه اشارة تدل على مأثرة او حماسة اثناء اصغائه اليه، بقي ساكتاً ساهماً فترة طويلة بعد نهاية الخطبة دون أن تصدر عنه ملاحظة. وعندما ادرك قلق شيشرون من الموقف بادره قائلاً:

- لك ثنائي واعجابي يا شيشرون، وللبلاد الاغريقية رثائي ومواساتي حيث ان هذه الفنون وتلك الفصاحة وهي الامجاد الوحيدة المتخلفة لها، ستنتقل عن طريقك الى روما.

وعندما قرر (شيشرون) العودة الى معترك السياسة وهو مليء الوطاب بالآمال. فوجيء بنبوءة هبطت بمعنوياته الى حدٍ كبير. فقد استخار آلهة دلفي في الطريق الذي يسلكه لتحقيق اكبر المجد. فكان جواب العرافة البيثية بأن يجعل من جنيّه، لا رأي الناس فيه، دليل حياته. لذلك كانت حياته في روما متسمة بالحذر. وتأخر كثيراً في التقدم الى الوظائف العامة، ولذلك قلّ حظّه من الشهرة في ذلك الحين. لقد عرفته طبقة الجهلة والدهماء في روما باسمي (الاغريقي) و(طالب العلم). لكن لما قررّ أن يطلب الشهرة والمكانة، برغبة ابيه واقربائه، انصرف جاداً الى المحاماة ولم يكن تقدمه الى الصفوف الأولى ونبوّؤه المحل الأرفع لا بطيئاً ولا رفيقاً، بل سطع نجمه وتألق فوراً وبز كلّ المحامين الممارسين الى مسافة بعيدة. في الأول كان مثل (ديموستينس) ضعيف الالقاء على ما روي ولذلك كان شديد الاهتمام بالنصائح والارشاد التي يوجهها اليه (روسكيوس Roscius) الكوميدي، و(ايسُوب Aesop) التراجيدي. ورووا عن ايسوب هذا انه كان مرةّ يمثل دور (اتريوس Atreus) على المرسح. وفيما كان يلقي المقطع المتعلق بموضوع الانتقام من (ثياستيس Thyestes) ان هاجت روحه بالدور ونسي نفسه في حماسة تمثيله واهوى بصولجانه على رأس احد الخدم اثناء مروره عبر المرسح، بضربه بلغت من الشدّة انها جندلته ميتاً على خشبة المرسح. كذلك آض القاء شيشرون فيما بعد، فقد ساهمت بلاغته بالكثير للوصول بخطبه الى درجة الاقناع. واعتاد السخر بالمتكلمين ذوي الاصوات العالية بقوله انهم يصرخون لانهم لايعرفون كيف يتكلمون، كالعرج الذين يركبون الخيل لأنهم لا يقوون على السير. ووجد حضور بديهته، والقاءه التهكمي المطرز عموما بظريف الاقوال وبارع الردود، مما يناسب جداً المحامي المترافع، حيث يتجذب السامعين الى درجة كبيرة. على أن افراطه في استخدامها آلم الكثيرين، ولذلك وصف بحبّ المشاكسة وبسوء الطبع.

عين شيشرون (كويستوراً) في زمن القحط وندرة القمح وكانت صقلية مقرّ وظيفته. وفي بادئ الأمر نقم عليه الناس لارغامهم على تصدير قمحهم الى روما. الاّ ان الامر تغيرّ بهم بعد ان جربوه وتاكدوا من حرصه وعنايته وعدالته وشفقته. فاحاطوه باكبارٍ واحترامٍ لم يحيطوا بهما اي حاكم سبقه. وصادف ان بعض الشبان الرومان من اسرٍ شريفة، اتهموا بخرق النظام العسكري وبسوء السلوك اثناء الخدمة فاضطلع بمهمة الدفاع عنهم وبرأّهم باذلاً اعظم الجهد، مما اورثه ثقة عالية بنفسه، وفسر اعتداده واعتزازه بكلّ الاعمال التي انجزها عند عودته الى روما. وقد وقعتُ له وهو في الطريق قصة مضحكة طريقة قصها علينا هو بنفسه قال: انه التقى في (كامپانيا) بمواطن كبير المقام كان يعده من اصدقائه. فسأله عن رأي الرومان في

مـجهـوداته، ومـا هي اقوالهم عنه، كـأن المدينة لا شـغل لهـا الاّ مناقلة اخـبـاره والمداولة في انجازاته. فسأله ذلك الصديق بدوره.

- وفي اي بلدٍ كنت يا شيشرون؟

هذا الجواب حطم معنوياته العالية واصابه بالخيبة التامة حيناً من الزمن وبه فتح عينيه على الحقيقة المرّة، وهي ان انباء اعماله غرقت في خضم مدينة روما كأنها غـاصت في لجة بحرٍ دون ان تخلف أثراً ايجابيـا يذكر في شهرته. وتبين لنفسه فيما بعد، ان المجد الذي يسعى اليه هو شيء غير محدود، لا نهاية في اطلابه ولا مدى. وبذلك خفف كثيراً من غلواء طموحه. الاّ انه ظلّ دوماً يسـرّ وينبسط حين يسـمع ثناءً او مـديحاً لشـخصـه وبقي الى الاخيـر مغرمـاً بالمجد والسؤدد، هذا العقبة كثيراً ما وقفت في سبيل متابعته لأحكم قراراته وابعدها نظراً.

وعندما ابتدأ يعالج الشؤون العامة بجدٍ، وجد من السـخف والغباء ان يعرف الحرفيون اسماء ومواضع وفائدة الأواني والادوات التي يستخدمونها في حرفهم في حين يهمل رجال السياسة معرفة الناس والاشخاص، وهم ادواتهم التي يصرفون بهما الشؤون العامة. ولذلك سعى الى تلافي هذا النقص ولم تعد معرفتـه بالناس قاصرة على الاسماء بل تعدتها الى الامكنة التي يعيش فـيهـا كل شخص بارز من المواطنين، ومـاذا يملك من عـقـار، ومن هم الاصـدقـاء الذين يعتمد عليهم، ومن هم جيرانه. فغدا قادراً - عند سلوكه سبيل في ايطاليا - على تسمية عقار ومقرات اصدقائه ومعارفه والاشارة الى مواقعها. وكان يملك ضيعة صغيرة جداً تدر عليه مـا يكفي لسدّ خلته وتغطيه نفقاته فحسب، ولهذا كـان غريباً منه أن يأبى تقاضي اجورٍ او قـبول هدايا من مـوكليـه. وكذا فـعل حين قـام بالادعـاد ضـدّ (ڤـيـريس Veres). وكـان هذا (بريتوراً) في صقلية فاتهمه الصقليون بكثير من الاعمال الاجرامية اثناء وجودة ثمّ. ونجح (شيشرون) في ادانته لا بكلامه، بل بامتناعه عن الكلام إن جاز لنا القول ذلك ان البريتورين الذين كانوا يساندون (ڤيريس) ويمالئونه دفعوا بالمحاكمة الى الخلف بعدة تأجيلات الى ان حلّ اليوم الذي ما عاد يوجد بعد وقتٌ كاف لسماع دفاع المحامين. فتقدم (شيشرون) ليقول انه لا حاجة ثم يدعو الى القاء الخطب، فاستمع الى الشهود وعرضت الادلة وبادر يطلب من القضاة اصدار الحكم. ومع هذا فقد سجلت لشيشرون عدة عبارات طريفة لبقة بالمناسبة. كان ثم شخص يدعى (كيچيليوس Caeciluis) وهو عبد معتوق، قيل أنه يمارس الطقوس اليهودية، لم يدخله الصقليون في عداد المدعين، فاضطلع هو بنفسه الادعاء ضدّ (ڤيريس)، وهنا تساءل شيشرون.

- ما علاقة اليهودي بـ«الخنزير؟» (بالرومانية: كلمة Verres تعني الخنزير البرّي).

ولما بدأ (ڤيريس) يعيب على شيشرون حياة الخنوثة التي يحياها ردّ عليه بقوله:

- عليك أن تستخدم هذه اللغة في البيت مع اولادك! (وكان لڤيريس ابن سلك سبل الغواية فساءت سمعته)

لم يجرأ (هورتنسيوس) الخطيب على القيام بمهمة الدفاع عن (ڤيريس) مباشرةً، الأ أنه اقنع بالحضور عنه عند فرض الغرامة عليه، وأهدي لقاء ذلك، تمثالاً عاجياً لأبي الهول. فعندما عرضّ به شيشرون في احدى فقرات خطبه بصورة غامضة ملتوية وعقب (هورتنسيوس) قائلاً انه ليس بارعاً في حلّ الالغاز و الأحاجي بادره شيشرون بالقول:

- كلاً لست بارعاً مع أن في بيتك ابا الهول!

وصدر الحكم على (ڤيريس). ولان (شيشرون) حددّ مبلغ الغرامة بسبعمائة وخمسين ألفاً. فقد اكتنفته الريب وشك في انه قبل رشوةً لتخفيض مبلغ الغرامة. الأ ان الصقليين تدليلاً على امتنانهم واعترافهم بجميله قصدوه بكلّ ما يخطر بالبال من الهدايا وهو في منصب (ايديل) فلم يقبل لنفسه شيئا وانما استغلّ كرمهم هذا لتخفيض السعر الرسمي لمواد المعيشة.

وكان يملك مربّعاً في غاية الجمال في (آربي Arpi) كذلك كان يملك مزرعة بالقرب من ناپولي واخرى قريبة من (پومپي) وليس منهما ما ارتفعت قيمته. وبلغ صداق زوجه (ترنتيا Terentia) مائة الف. وكانت حصته من الميراث تسعين الفاً، وبهذا كان يعيش عيشة طيبة، الا انها ليست باذخة، بصحبة علماء الاغريق والرومان الذين يلازمونه وندر بل لم يجلس قطّ للعشاء قبل غروب الشمس. ولم يكن ذلك بسبب اعماله ومشاغله بقدر ما كان ذلك بسبب ضعف بنيته ومعدته. وكان من نواحٍ أخرى يهتم بجسده لذلك خصص مواعيد معينة للعناية به بالتدليك والسير على القدم. فبني تكويناً قوياً صحيحاً في انسب وقت، قادراً على تحمل كثير من المشاق والتعب. ووهب اخاه دار ابيه وسكن هو نفسه في المرتفع البالاتيني حتى لا يتعب قصّاده وزواره بالسير الطويل. ولم يكن عدد قاصديه وزائريه للسلام عليه وتقديم فروض الاكرام له باقلّ من قصاد (كراسوس) لاجل غناه او (پومپي) لما يتمتع به من مكانة ونفوذ بين الجنود. كان هذان اشهر واقوى رجلين في روما انذاك. وقد عملت مجهودات (شيشرون) السياسية، الشيء الكثير لتوطيد سلطان (پومپي) ومكانته في الدولة.

تقدم عدد كبير من المرشحين معه الى منصب (البريتور)، فسبقهم اليه وتولى الفصل في القضايا بعدل ونزاهة. وقد روي ان (ليچينيوس ماچر Licinius Macer) صاحب النفوذ الكبير في المدينة واحد اعوان (كراسوس)، اتهم امامه بقضية ابتزاز وكان واثقاً من تأثير

نفوذه الشخصي ومن مساعي اصدقائه الفعالة. وبينما كان القضاة يتداولون في الحكم، ذهب (ليچينيوس) الى بيته فقصّ شعره ولبس رداءً نظيفاً، كما يفعل الواثق من البراءة، ثم انطلق الى الفورم، وفيما هو في طريقه التقى (بكراسوس) عند باب القاعة، فأخبره هذا أن الحكم قد صدر بادانته بالاجماع. فرجع الى منزله واستقلى على فراشه واسلم الروح. اعتبر هذا الحكم تشريفاً لشيشرون اذا أظهر فيه دقّة ادارته للقضاء والمحاكم

وثم حادثة اخرى تتعلق بالمدعو (ڤاتينيوس Vatinius) وهو رجل غليظ الطبع تغلب عليه الوقاحة ولا يتورع عن شتم القضاة واهانتهم. وكان يشكو اوراماً في رقبته حين تقدم من مجلس قضاء (شيشرون) بمطلبٍ فاستمهله (شيشرون) للنظر فيه فعقب ڤاتينيوس قائلاً:

- لو كنتُ انا نفسي پريتوراً لفرغت الآن من البت فيه دون حاجة الى مهلة.

فاستدار اليه (شيشرون) بسرعه واجاب:

- لكنك ترى اني لااملك رقبة مثل رقبتك.

ولما بقي من فترة وظيفته يومان او ثلاثة، اقتيد (مانيليوس Manilius) امامه متهماً في قضية اختلاس. وكان المتهم يتمتع لدى الشعب بمكانةٍ، ورأيهم فيه حسن وكان الرأي الشائع انه ما اتهم بهذا، الاّ بسبب (پومپي) التي تربطه به صداقة وثيقة. فطلب مهلةً امداً قبل المرافعة فلم يسمح له شيشرون باكثر من يوم واحدٍ اعني اليوم التالي فحسب فثارت خواطر الدهماء وسخطوا اذ جرت العادة انه يسمح (الپريتورون) للمتهمين بعشرة ايام على الاقل فاستدعى تريبونو الشعب (شيشرون) ليمثل امام عامة الشعب متهماً بخرق هذا العرف القضائي. فطلب الكلام وقال: انه ظل دائماً يعامل المتهمين معاملة انسانية وبالمساواة بقدر ما يسمح به القانون لذلك وجد من الصعب عليه ان يحرم (مانيليوس) من حقه هذا وقد اضطر اضطراراً الى تعيين هذا اليوم لانه الوحيد الذي بقي له من فترة حكمه. وانه ليس من مصلحة اولئك الذين يرغبون في مساعدة (مانيليوس) ان يدفعوا بقضيته الى پريتور آخر ليصدر فيها حكماً. فاحدث باقواله هذه انقلاباً عجيباً في افكار الجمهور واثنوا عليه كثيراً. ورغبوا منه أن يضطلع شخصياً بمهمة الدفاع عن (مانيليوس) فقبل ذلك بطيبة خاطر، واكراما لپومپي بالدرجة الاولى، وكان هذا غائباً. وهكذا عاد يتخذ مكانه عند الشعب. والقى دفاعاً يتضمن طعناً صريحاً بالحزب (الاوليغارشي) وباولئك الذين يحسدون (پومپي) وينقمون عليه.

وكان تفضيله الوصول الى المنصب القنصلي عن طريق طبقة الاشراف، لا يقل عن تفضيله ذلك عن طريق العامة لخير البلاد ومصلحتها. ولهذا نجد الجانبين يتحدان للسعي له بالمنصب للاسباب التالية:

انه الانقلاب الذي احدثه (سُلّلا) في نظام الحكم كان يبدو في عهده، نظاماً أخرق لاطعم له. وبمرور الزمن وبالاعتياد عليه اصبح في نظر الشعب نوعاً من الاستقرار المقبول. الاّ أن بعضهم حاول احداث تغيير شامل في الوضع السياسي من القاعدة الى القمة يحدوهم في هذا منافع خاصّة، لا دوافع عامة نبيلة. وكان (پومپي) في تلك الفترة منشغلاً بحروبه مع ملكي الپونطس والامن ولذلك لم تعد القوات المرابطة في روما بكافية لقمع اية محاولة للثورة. كان يتزعم هؤلاء الانقلابيين رجل جرئ متهور متقلب الاهواء يدعى (لوچيوس كاتيلينه Lucius Catiline) بارتكابه جنايات كثيرة، منها افتضاضه بكارة بنته، وقتله اخاه وبسبب خوفه من تبعات جريمته الاخيرة واتخاذ الاجراءات القانونية بحقه، اقنع (سللا) بان يضع اسم اخيه القتيل في قائمة الذين سينفذ فيهم حكم الموت بسبب اهدار حقوقهم المدينة كأنه مازال بعد حياً. اختارت حثالة المجتمع ومتهتكوه هذا الرجل زعيماً. وتعاهدوا فيما بينهم بمختلف الاقسام المغلظة. منها انهم ضحوا برجلٍ واكلوا لحمه. وعمد هذا المتآمر الى افساد عدد كبير من شبان المدينة بتيسير سبل الغواية لهم من شرابٍ ونساء، وكان ينفق على فجورهم بسخاءٍ وبدون حساب. أضف الى هذا أن مقاطعة (إتروريا Etruria) كانت قد حرضت الى حَدّ اعلان الثورة. كذلك كانت الحال في بلاد الغال الجنوبية اولالپية على ان روما نفسها كانت تعيش تحت خطر انقلاب حكومي عنيف بسبب التفاوت في توزيع الثروة والاراضي. فالطبقة العليا التي كان افرادها يمتازون باطيب الخلق املقت لاسرافها وانفاتها المتواصل على الحفلات العامة والاستعراضات الشعبية، ولطموحها الى المناصب الرفيعة وبنائها الصروح الفخمة. حتى تركزت ثروات المدنية في ايدي اناس منحطين خلقاً، وضيعين منبتاً. لذلك لم يكن يحتاج الى اكثر من فتيلٍ صغير لتحقيق الانفجار العام وكان في مقدور اي انسان جريء اسقاط جمهورية مريضة واهنة.

وعلى اية حال كان (كاتيلينه) بحاجة الى منصب عظيم النفوذ لدعم خطته وتنفيذها فتقدم مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي وكان عظيم الامل بالفوز، مؤملاً أن يكون زميله في المنصب (كايوس انطونيوس Cauis Antonius) وهو رجل لا يحلّ ولا يربط ولا يمكن الركون اليه لا في قضية حسنة ولا في قضية سيئة. الاّ انه يصلح مرقاة لاغنى عنها للسلطة وكانت الاغلبية الساحقة من خيار المواطنين توجس خيفة من هذا، لذلك كلفت (شيشرون) بالتقدم الى المنصب القنصلي واسرع عامة الشعب يؤيدون هذا الترشيح، فخسر (كاتيلينه) وانتخب (شيشرون) و(كايوس انطونيوس) وكان شيشرون الوحيد بين المرشحين الذي لم ينحدر من ابٍ حائز الدرجة الكويستورية، او من طبقة الشيوخ.

ومع ان خطط (كاتيلينه) لم تنكشف بعد للناس، الاّ انه وقعت اضطرابات كبيرة فورتولي (شيشرون) مهام منصبه فقد كان من جهةٍ اولئك الذين جردتهم قوانين (سيللاّ) من حق الاشتغال في الوظائف العامة، وهؤلاء لم يكونوا ليشكوا ضعفاً في قوتهم، ولاقلة في عددهم، وقد تقدموا من الشعب مرشحين لمختلف الوظائف وراحوا يغازلونه ويتقربون منه استجلاباً لعطفه ويتحدثون اليه بالواقعي الحقيقي عن طغيان (سيللا) واستبداده. مختارين وقتاً غير مناسبٍ لاشاعة البلبلة والاضطراب في اصول الحكم. ومن جهة ثانية كان تقديم تريبوني الشعب مقترحات قوانين تؤيد هذا المنحى وتاليفهم لجنة من عشرة اشخاص زودوا بصلاحيات غير محدودة يمارسونها بوصفهم محكمة عليا، مخولين بموجبها حق بيع الاراضي الاميرية في كل من ايطاليا وسوريا والبلدان التي فتحها (پومپي). وحق محاكمة ونفي من شاؤا محاكمته او ابعاده. وحق تأسيس المستوطنات، وسحب الاموال من الخزانة العامة وجباية ودفع ما يراى الجنود ضرورياً. واعلن عدد من الاشراف مساندتهم لهذا القانون وفي مقدمتهم (كايوس انطونيوس) القنصل زميل (شيشرون) الذي كان يأمل أن يختار عضوا في اللجنة العشرية. على أن خوف طبقة الاشراف الاعظم منه هو اعتقادهم بانه شريك في مؤآمرة (كاتيلينه) وانه يناصرها بسبب الديون الثقيلة التي يرزح تحتها.

في مبدء الأمر حاول (شيشرون) ايجاد علاج ناجح لهذا الخطر المتفاقم. فاستصدر مرسوماً يقضي باناطة حكم اقليم مقدونيا بزميله، ورفض في الوقت عينه حاكمية بلاد الغال التي عرضت عليه فنال بهذا الفضل ثقة زميله واصبح له اطوع من البنان وبدا مستعداً لنصرته ومساندته في كل ما يعمله لمصلحة البلاد مثل اللأعب المأجور. وبترديض زميله هكذا صار بوسعه تحدي المتآمرين بكثير من الجرأة. وتقدم الى المنصة فالقى في مجلس الشيوخ خطاباً ضد قانون «المفوضين السامين العشرة». وكمٌ افواه من اقترحه. وألجمهم فلم يجدوا ما يردون به على حججه. وكرروا محاولتهم لسبق تدبير، فدعوا القنصلين للمثول امام الجمعية العامة. ولم يكن (شيشرون) خائفاً من شيء فخرج الى الجمعية اولاً وطلب من اعضاء مجلس الشيوخ ان يتبعوه. ولم يقتصر نجاحه على ابطال الاقتراح، بل حقق بالخطاب الذي القاه نصراً ساحقا على التريبونين حتى نبذوا كل فكرة حول تحقيق مشاريعهم الأخرى.

ولا جدال في ان (شيشرون) كان الرجل الأوحد الذي ارتفع على الكلّ، وجعل الرومان يشعرون بعظمة ما يعد فيه سحر البلاغة على العمل الصالح. ومقدار مناعة العدالة عندما تجد لها اللسان الجيدّ المعبر. وما هو ضروري لمن يتوخى الدقة في سياسة الجمهورية، أن يقدم في عمله النزيه المستقيم، على ما هو اقرب الى هوى الشعب. وأن يفضل في كلامه

استخلاص الصالح المفيد من كل ما قد ينجم عنه ظلم وتعدٍ، وقد وقعت حادثة اثناء قنصليته يمكن ان تقوم برهانا على مدى تأثير الكلام ومفعوله، كان فرسان روما في الماضي يمتزجون بعامة الشعب في المراسح ويختارون مقاعدهم بين صفوفهم كيفما اتفق لهم، وكان (ماركوس اوتو) اول من ميزهم عن المواطنين في عهد بريتوريته. فخصص لهم جناحاً مناسباً اصبحوا يشغلونه بوصفه موضعاً خاصاً لهم في المرسح. أحدث هذا التصرف استياء عند العامة، وأشعرهم بالإهانة. وعندما ظهر (اوتو) في المرسح راحوا يهسهسون له ازدراءً، اما الفرسان فاستقبلوه بالتصفيق. وكررت العامة هسيسها وتمادت فيه، وواصل الفرسان التصفيق، ثم استدار هذا الفريق على ذاك واخذا يتبادلان الشتائم والكلمات المقذعة، فعمت الفوضى المرسح وأعلم (شيشرون) بالأمر فخف مسرعاً ودعا الشعب الى الاجتماع في هيكل (بللونا Bello-na) وطفق يشتد في تعنيفهم وتأنيبهم، وما لبثوا ان عادوا الى المرسح ليستقبلوا (اوتو) بهتاف عظيم نافسوا فيه الفرسان وتباروا معهم على اظهار اكثر التعظيم والاحترام له.

في مبدء الأمر روعَ المتآمرون الكاتيليون وثبطت بهم الهمم لكن سرعان ما دبت الشجاعة في اوصالهم فلموا شعثهم وعبأوا قواهم واخذ بعضهم يشدد عزائم بعض في وضح النهار لتنفيذ المخطط قبل عودة (بومبي) الذي قيل انه يتجه الآن الى روما على رأس قواته. وكان جنود (سللا) القدماء عمود الحركة الفقري، واداتها الرئيسة في يد (كاتيلينه). كان قد تمّ تسريحهم جميعاً اينما كانوا في ايطاليا. الا ان القسم الاكبر منهم وهو الاكثر شراسة كان منتشراً بين مدن (اترוريا) تراودهم احلام سلب ونهبٍ جديدة لثروات ايطاليا المكنوزة. وكان يتزعمهم (مانليوس Manlius) الذي أبلى بلاءً حسنا في الحروب تحت امرة (سللا) فاصبح لذلك من المشاهير وانضم هذا الى كاتيلين وجاء الى روما لمساعدته باصوات الجنود اثناء الانتخابات ذلك ان كاتيلين اقدم للمرة الثانية على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي واعتزم قتل (شيشرون) عندما يحمى وطيس الانتخاب. ويبدو ايضاً ان القوى الالهية اطلقت النذر عن الاحداث الاتية، فأرسلت زلازل وصواعق، واظهرت علامات غريبة، ولم تكن الدلائل البشرية بل كانت كافية جالبة القناعة على انها لم تبلغ حداً يمكن معه اداته (كاتيلينه) ذي الحول والطول، والمنتمي الى طبقة الاشراف. ولهذا ارجأ (شيشرون) موعد الانتخاب، واستدعى (كاتيلينه) الى مجلس الشيوخ واستجوبه حول التهم المنسوبة اليه، وكان هذا يعتقد أن عدداً كبيراً من الشيوخ يوافقونه على رغبته في التغيير. واراد أن يقدم لسائر التأمرين نموذجاً لاتجاهاته وطبيعته فرد على سؤال شيشرون بجواب صلفٍ اذ قال:

- اي ضرر هناك، حين ارى جسمين اولهما هزيل سقيم يعلوه رأس وثانيهما شديد قوي لكن

بدون رأس، فاقوم انا بوضع رأس لهذا الجسم المحتاج الى رأس بعد قطعه من الجسم الأول؟

هذا الايضاح ذو الدلالة الكافية الذي القي في مجلس الشيوخ اثار المزيد من المخاوف في نفس شيشرون. فلبس درعاً. وما عاد يخرج من منزله الا وهو برفقة جمع من المواطنين الشرفاء، وقصد «السهل» مع جماعة من الشبان للاجتماع - وبحركة مقصودة منه ترك رداءه ينحسر قليلاً عن كتفيه ليبين الدرع من تحته منبها الحاضرين الى الخطر الذي يتهدده. فهاج هائجهم واحاطوا به لحمايته. وفشل (كاتيلينه) في الانتخابات العامة ثانية وانتخب سيلانوس Silanus ومورينا Murina للمنصب القنصلي وبعد فترة قصيرة، تجمع الجنود الموالون لكاتيلينه في (اتروريا) وبدأوا يشكلون الوحدات والسرايا. ذلك لاقتراب اليوم الذي حُدد لتنفيذ المؤامرة. وفي حدود متنصف الليل قصد منزل (شيشرون) بعض كبار الشخصيات الرومانية وذوي النفوذ فيها من امثال (ماركوس كراسوس، وماركوس مارچللوس، وسكيپيو ميتيللوس) فطرقوا بابه ونادوا البواب لايقاظه واعلامه بحضورهم. وكان الدافع الذي حملهم الى المجيء هو ان بواب دار (كراسوس) جلب لسيده بعد العشاء عدة رسائل حملها له شخص مجهول، بعض هذه الرسائل موجه الى اشخاص آخرين غير كراسوس الا ان فيها رسالة مغفلة عن التوقيع موجهة الى كراسوس نفسه وقد علم كراسوس من فحوى هذه الرسالة أن كاتبها ينبه بأن (كاتيلينه) يدبّر مذبحة عظيمة وينصحه بمغادرة المدينة ولم يفضّ كراسوس الرسائل الأخرى وانما جاء بها الى (شيشرون) متخوفاً من الخطر الجاثم، وقاصداً تبديد الشكّ الذي يحوم حوله بسبب صداقته (لكاتيلينه). ففكر شيشرون في الأمر ملياً، ودعا المجلس في صباح اليوم الباكر للاجتماع، ودخل القاعة حاملاً تلك الرسائل ووزعها على من ارسلت اليهم طالباً منهم قراءتها علناً. وكانت كلها تروي التفاصيل عن المؤآمرة. ونهض (كوينتوس اريوس Quintus Arrius) وهو بمنصب (پريتور) وادلى بتفاصيل عن تجمع الجنود في اتروريا وانتظامها في وحدات وسرايا. وقال ان (مانليوس) يتحرك بقوة كبيرة من الجنود ما بين تلك المدن منتظراً الانباء من روما فاصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يقضي بوضع السلطة كلها في يد القنصلين وبأن يأخذا على عاتقهما ادارة دفة الأمور جميعها وطلب منها أن يبذلا كل مجهوداتهما لانقاذ الدولة. لم يكن هذا التخويل بالشيء العادي، والمجلس لا يقدم على هذه الخطوة عادة الا عندما يحدق الخطر بالحكومة.

بعد ان تزود شيشرون بهذه السلطة خولّ (كوينتوس ميتيلليوس) كل الصلاحيات المطلقة فيما يتعلق بالخارج واحتفظ لنفسه بالصلاحيات ضمن مدينة روما وكبر حجم الجمع الذي كان

يقوم على حراسته يوميا عند تركه داره حتى أن الجزء الاكبر من الساحة العامة كان يغصّ به عند وصوله. ونفد صبر (كاتيلينه)، وادركه النفور من تأخير وارجاء آخر وقرر أن يهتك حجاب السرية والكتمان بالذهاب الى (مانليوس). وأمر (مارچيوس) و(كثيگوس) بالخروج مسلحين بالسيف الى منزل (شيشرون) في صباح اليوم الباكر كأنهما جاءا للسلام عليه فينقضا عليه ويذبحاه. وجاءت تلك السيدة النبيلة (فولڤيا Fulvia) الى (شيشرون) ليلاً لتكشف له الأمر وتطلب منه ان يحاذر (مارچيوس وكثيگوس). على انهما اقبلا في اول الصبح فلم يسمح لهما بالدخول فاخذا يصيحان ويخبطان واحدثا ضجة امام الباب مما اثار مزيداً من الشك. وخرج شيشرون ودعا المجلس الى اجتماع طارىء في هيكل (چوبتر ستاتور) الذي يقع في نهاية الشارع المقدس وانت قاصد (البالاتين) واقبل (كاتيلينه) والآخرون، كانما يريد القاء دفاع عن نفسه فلم يعره احدٌ التفاتاً وعاف الشيوخ الجلوس بالقرب منه وتركوا مقاعدهم القريبة من المقعد الذي اختاره. ولما بدأ في الكلام قاطعوه بالصراخ. واخيراً نهض شيشرون وطلب منه مغادرة المدينة، فمادام واحد يحكم الجمهورية بالكلام والآخر يحكمها بالسلاح فالضرورة تقضي باقامة جدار فيما بينهما. واسرع (كاتيلينه) بالخروج من روما بثلاثمائة مسلح متخذا لنفسه شعار الحكم: الفأس والعصي، والشعار العسكري - والتحق بمانليوس وهناك اجتمع حولهم عشرون الفاً فزحفا بهم الى عدد من المدن محاولين اقناع اهاليها بالثورة أو ارغامهم عليها. وهكذا انقلب الأمر الى حربٍ صريحة، فأرسل (انطونيوس) لقتاله.

كان الانصار الذين بقوا في المدينة بقيادة (كورنيليوس لنتولوس) الذي يلقب بـ(سورا Swra) وهو شريف الاصل الا انه فاسق منحط يعيش لملذاته فحسب، طرد من مجلس الشيوخ لخلاعته. وهو الآن في منصب البريتور للمرة الثانية. الأمر الذي يقضي به العرف على كل من يرغب في استعادته عضويته في مجلس الشيوخ. ولقب (سورا) لصق به على ما قيل في المناسبة التالية: كان كويستوراً في ايام (سللا) فبددَ واختلس مبالغ كبيرة من اموال الدولة، فاخذت (سللا) سورة من الغضب واستدعاه طالبا منه تقديم الحساب امام مجلس الشيوخ، فمثل امامهم واجاب ببرود عظيم وبعدم اكتراث ان ليس لديه حساب يقدمه لهم، لكن لهم «أن يأخذوا هذه» وامسك بربلة سامة كما يفعل الصبيان عندما يخطئ احدهم هدفه في لعبة الكرة. فلصق به اسم (سورا) وهي كلمة رومانية تطلق على عضلة الساق. وحوكم مرة بتهمةٍ رشوة بعض القضاة وبرىء باكثرية صوتين لا غير فراح يشكو تبديده المال بدون جدوى، حيث انه دفع لقاضيين في حين ان قاضياً واحداً كان يكفي لتبرئته. تلك هي اخلاق

الرجل الذي وقع الآن تحت تأثير (كاتيلينه) وتضليل النبوآت الكاذبة وعرافة قراء البخت الذين ملأوا بالآمال الكاذبة مقتبسين له ابيات شعرٍ زائفة ونبوءات لاسند لها، حتى بلغ الأمر بهم ان راحوا يدعمون اقوالهم بالنبؤة الواردة في كتب «السيبيل» القائلة بوجود ثلاثة باسم (كورنيلوس) حكمت الاقدار بأن يتولوا الملك على روما، صدقت النبؤة في اثنين منهم وهما (چنّا وسلّلا) وان الخطّ الالهي يتقدم الآن بالهدية الملكية لثالثهم وهو (كورنيلوس لنتولوس)، فعليه والحالة هذه ان يقبل التاج مهما كلفه الأمر وان لا يضيع الفرصة بالتأخير كما فعل (كاتيلينه). ولذلك كانت خطة (لنتولوس) عظيمة الخطر فقد قرر القضاء بحد السيف على كل اعضاء مجلس الشيوخ وكل من وقف في سبيله من المواطنين الآخرين وان يشعل النار في المدينة، ولا يستثنى احد من المذبحة، خلا اولاد (پومپي) فقد اعتزم القاء القبض عليهم وابقاءهم رهائن لضمان الاتفاق مع ابيهم، حيث انتشرت اشاعة قوية مؤداها ان هذا القائد هو الآن في طريقه الى الوطن عائداً من حملته العسكرية الكبرى. كانت الليلة المتفق عليها للتنفيذ هي «ليلة زحل Saturnalia» وجيء بالسيوف والكتان والكبريت واخفيت في دار (كثيگوس) وهيء مائه رجل، وقسمت المدينة الى عدة قطاعات وحدد لكلّ رجل قطاعه المناسب كي يشعلوا النار دفعة واحدة عند اعطاء الاشارة، فنشب الحرائق في وقت واحد وتمسي المدينة وهي كتلة من نار. وعين آخرون لوقف جريان الماء في القنوات وقتل كل من يحاول نقل الماء منها لاطفاء الحرائق. وفيما كانت هذه الخطط في دور الاعداد. اتفق ان كان في روما وقتئذ سفيران من (اللوبروغيسيين Allobroges) وهو شعب كان انذاك تحت الحكم الروماني في حالة يرثى لها من البؤس وعدم الاستقرار. فكرّ (لنتولوس) وانصاره أن يستفيدوا من هذين السفيرين لحث الغاليين وتحريضهم على التمرد، ودفعوا اليهما برسائل لحملها الى حكامهما وبرسائل أخرى لنقلها الى (كاتيلينه) تعهدوا للغاليين في رسائلهم الأولى باعطائهم الحرية، وفي الرسائل الثانية طلبوا من (كاتيلينه) اصدار امرٍ بتحرير العبيد قاطبة الزحف بهم الى روما. وارفقوا بالمسيرين المذكورين (تبطس) (الكروتوني Croton) للوصول بهما الى (كاتيلينه) ودفعوا اليه برسائل أخرى له. كل هذه المداولات التي اجراها اناس متهورون في مجالس شرابٍ ونساءٍ وصلت الى علم (شيشرون) الذي كان يراقب الأمور بدأب متزن وروية وباعظم الذكاء والحكمة اذ كان يعتمد على عدد من الوكلاء في الخارج يرصدون كل حركة ويعقبون كل ما يجري كما كانوا على اتصال تام بالكثيرين الذين تظاهروا بالاشتراك بالمؤامرة. لذلك كان على علمٍ بكل الحديث الذي جرى بينهم وبين الاجنبيين فدبر لهم كمينا ليلياً وقبض على الرسول الكروتوني ومعه الرسائل، وكان السفيران الغاليان على اتصالٍ سري بشيشرون يعملان معه بالاتفاق.

في صبيحة اليوم التالي دعا شيشرون المجلس للانعقاد في هيكل (الكونكورد) وهناك قرأ الرسائل واستجوب المخبرين وزاد (يونيوس سيلانوس Junius Silanus) قائلاً ان عدة اشخاص سمعوا (كثيگوس) يعد بقتل ثلاثة قناصل واربعة پريتورين وعقبه (پيزو) وهو قنصل سابق ليشهد بعدة امورٍ من هذا النوع. فأرسل (كايوس سولپيميوس Caius Sulpici-us) احد الپريتورين الى منزل (كثيگوس) لاجراء التفتيش فعثر فيه على كمية من الحراب والدروع ومقدار من السيوف والخناجر شحذت نصالها مؤخراً. واخيراً قرر المجلس العفو عن الكروتوني لادلائه باعتراف كامل. وادين (لنتولوس) وعزل من منصب الپريتور الذي كان يشغله، فخلع ثوبه الموش بالارجوان في المجلس وارتدى ثوباً آخر اكثر لياقة بظرفه الحالي، وعهد به وبشركائه الحاضرين الى الپريتورين لوضعهم تحت الحجز القضائي الحر.

واقبل الليل وكانت جموع العامة في الخارج تنتظر، فخرج اليهم (شيشرون) واخبرهم بما تمَّ، ثم ذهب الى منزل صديق وجارٍ له ملاصق، بحراسة الجمهور، لأن داره كانت مشغولة بالنساء بسبب قيامهن بالطقوس الدينية السرية والعبادة للالاهة التي يسميها الرومان (الصالحة)، والاغريق (المرأة الربة)، فتقدم اليها القرابين سنوياً في دار القنصل، بوساطة أمه او زوجه وبحضور العذارى الڤستالات.

دخل (شيشرون) منزل صديقه سراً وجلس وراح يقلب وجهات النظر في كيفية معاملة هؤلاء الرجال. كان متردداً خائفاً بعض الشيء من انزال العقوبة الرادعة الوحيدة بمرتكبي تلك الجرائم الشنعاء. فضلاً عن ما طبع عليه من رحمة، وخشية الظن بانه صارم في ممارسة سلطته، قاسٍ في معاملة اناس هم من اشرف الناس مبيناً واقواهم علاقات في المدينة. ولو أنه عاملهم برفقٍ ولين لعرض نفسه الى خطر كبير في المستقبل. فلو حكم عليهم بما هو اخف من عقوبة الموت لاضطغنوا عليه وما غفروا ولا سامحوا، بل سيزيد على خبثهم سعاراً من الحقد جديداً، وسيندفعون الى ارتكاب كل جريرة متصورة. في حين سيظن بأنه وصل الى احط درجات الجبن وانه فقد رجولته - ولم تكن العامة ترتفع بشجاعته الى مستوى عالٍ اذ لم يشتهر بها عندهم.

وفيما كان شيشرون يضرب اخماساً باسداس حول السبيل الاقوام الذي يسلكه. حصلت معجزة للنسوة اثناء تقديهن القربان. فمن المذبح حيث بدت النار وكأنها خامدة تماماً، خرج لهب ساطع شديد من رماد الخشب المحترق. فساد الرعب النسوة، الاّ ان الڤستالات نادين (ترنتيا) زوج شيشرون وطلبن منها ان تسرع الى زوجها وتطلب منه تنفيذ ما استقر عليه رأيه لمصلحة بلاده. لأن الإلاهة ارسلت نوراً عظيماً لتزيد من سلامته وعزته، فأسرعت (ترنتيا) اليه، ولم تكن مطبعها رقيقة القلب ولا بالجزوع وانما امرأة جميعة الفراد (تفضل ان تحشر

نفسها في شؤون زوجها العامة على مسارته بامورها العائلية، كما يقول عنها شيشرون نفسه)، وانبأته بالمعجزة وراحت تحرضه على المتآمرين، وايدها في ذلك شقيقه (كونيتوس)، و(پوبليوس نيگيديوس Publius Nigidius) احد اصدقائه المتفلسفين الذي شيشرون كان يعتمد كثيراً على ارائه في اهم امور الدولة واخطرها.

في اليوم التالي ثارت المناقشة في المجلس حول العقوبة التي ينبغي انزالها بهؤلاء. وكان (سيلانوس) اول من ادلى برأيه فرأى ان يرسلوا الى السجن جميعاً حيث تطبق عليهم اشدّ عقوبةٍ واتفق معه كل من عقبه حتى حان دور (كايوس قيصر) الذي اصبح فيما بعد دكتاتوراً. وكان وقتذاك شاباً في مطلع حياته السياسية، إلاّ انه كان قد اختط لنفسه منذ البداية اهدافاً تمكنه من تغيير الدولة الرومانية وقلبها الى ملكية. ولم يكن هذا واضحاً لأعين الآخرين في حينه، إلاّ ان شيشرون وجد اسباباً تدعو الى الشكّ القوي في نياته دون ان تتوفر له الادلة الكافية. في الواقع هناك بعض من يقول ان أمره افتضح وكان هلاكه على قاب قوسين. ويرى آخرون ان شيشرون تعمد التغاضي عن الأدلة المتضافرة عليه خوفاً من اصدقائه ومن نفوذه المتعاظم اذ كان واضحاً لكل امرء أن قيصر لواتهم مع المتآمرين لكان احتمال نجاتهم معه اكثر من احتمال عقابه.

عندما حان دور (قيصر) للادلاء برأيه نهض واقترح بأن يعدل المجلس عن فكرة الحكم عليهم بالموت، ووافق على مصادرة املاكهم واحتجازهم في مدنٍ بايطاليا يعينها شيشرون، يبقون فيها حتى يتمّ القاء القبض على (كاتيلينه). وبما ان هذا الحكم كان أخف الأحكام المقترحة ولأن مقترحه كان اقوى الخطباء فقد انزله شيشرون منزلة من الاهتمام ليست بالقليلة، فنهض ورجع كفة الميزان الأخرى بانحيازه الى جانب الاقتراح لأول مرة، والى جانب اقتراح قيصر مرة أخرى. وقد وجد اصدقاء شيشرون في انتقال شيشرون بين الاقتراحين امراً حسنا لأنه سينال اقلّ اللوم ان لم يقض على المتآمرين بالموت. ولذلك لم يختاروا حكم الموت وما لبث (سيلانوس) ان عدل عن رأيه وسحب اقتراحه قائلاً انه لم يقصد الحكم بالموت بل قصد اقصى العقوبة. وهي الحبس للشيخ الروماني وكان (كاتالوس لوطاطيوس Catalus Lutatius) اول المتكلمين بشجب اقتراح قيصر وعقبه (كاتو) واشار بحماسة شديدة الى الشكّ القوي الذي يحوم حول (قيصر) نفسه وملأ الشيوخ غيظاً وعزماً فصوتوا بالاغلبية على مرسوم يقضي بتنفيذ حكم الموت بالمتآمرين. إلاّ ان قيصر عاد الآن يعارض في قرار المصادرة، وقال انه لا يرى من العدالة في شيء، أن يفيد من اقسى الحكم اولئك الذين اخف جزءٍ مما اقترحه هو عن حكم. وعندما عارضه الكثيرون استنجد بالتريبونين فاسقط في يد هؤلاء ايضاً. الى ان رضخ شيشرون ووافق فالغي هذا الجزء من العقوبة.

بعد هذا خرج شيشرون مع اعضاء المجلس لمواجهة المتآمرين ولم يكونوا في موضع واحدٍ، اذ كانوا موزعين على البريتورين وكان (لنتولوس) المحجوز في البالاتين اول من اخذ. جاء به عن طريق الشارع المقدس الى وسط الساحة العامة تحيط به حلقة من المواطنين البارزين لحمايته. وارتعد الناس لما يفعله وكانوا يمرون به صامتين لاسيما الشبان منهم حتى جعلهم الخوف والرهبة أشبه بمن يتقبل مراسيم التكريس للاسرار المقدسة العتيقة. ذات القوى الضخمة. ثم اجتاز الساحة العامة حتى وصل السجن. وسلم (لنتولوس) للضابط الآمر وأمره بتنفيذ حكم الموت. ثم اشفعه بـ(كثيگوس) والباقين اذ كان يأتي بهم واحداً بعد الآخر ويسلمهم للمكلفين بتنفيذ الحكم. وشاهد عدداً كبيراً من الضالعين في المؤامرة مازالوا واقفين في الساحة العامة على شكل جماعات وكتل جاهلين بما حدث ومنتظرين موعدهم الليلي متوهمين بان زعماءهم مازالوا احياء او من المحتمل أنهم انقذوا. وعندئذٍ صاح (شيشرون) بصوت جهوري:

- إنهم لأحياء يرزقون! (وهذا التعبير يستخدمه الرومان للإشارة الى الموتى تطيراً واجتنابا للشؤم).

وعندما ترك الساحة العامة قاصداً منزله، كان الليل قد جَنَّ، ولم يعد الناس يسيرون في ركابه بنظام وصمت وانما راحوا يستقبلونه بالهتاف والتهليل وهو يمرّ بهم، ويحيونه بوصفه منقذاً ودعامةً للبلاد، وسطعت الانوار باهرة في الشوارع من المصابيح والمشاعل المعلقة على ابواب المنازل. وخرجت النسوة الى إسطح بيوتهن يحملن الضياء تكريماً له ولمشاهدته عائداً الى بيته تحف به بطانة رائعة من ابرز واشرف المواطنين، ومن بينهم الكثير الذين خاضوا حروباً عظيمة ونالوا امتياز مواكب النصر واضافوا مساحات الى الامبراطورية الرومانية براً وبحراً. واقرّ هؤلاء فيما بينهم اثناء سيرهم أن الشعب الروماني المدين لعدد من القادة والضباط العظام بهذا العصر الذهبي عصر الغنائم والثروة والعزة والمتعة. يجب ان يكون مدينا (لشيشرون) وحده بسلامة كل هذا، بانقاذهم من الخطر الاعظم الذي حوّم فوق رؤوسهم. ان احباط المؤامرة ومعاقبة المتآمرين ليس بالشيء الفريد في بابه. الاّ أن سحق اكبر الرؤوس المتآمرة باقل ما يمكن من الاضطراب والفوض هو المعجزة الكبرى فاغلبية الذين التفوا حول (كاتيلينه) انفضوا من حوله حال سماعهم بالمصير الذي آل اليه (لنتولوس وكثيگوس) وهاجم (شيشرون) الفلول الباقية من اتباعه وتم القضاء غليها وعليه.

على ان هناك من يفتري على شيشرون وينتقص اعماله هذه وعلى رأسهم اولئك الذين خلفوه في دست الحكم مباشرة كـ(قيصر) الذي كان واحداً من البريتورين، والتريبيونين:

متيللوس (وبستيا Bestia). هؤلاء تسلموا مناصبهم قبل ان تنتهي فترة قنصلية (شيشرون) بأيام قلائل. فلم يسمحوا له بالتوجه بخطبة عمومية بهذه المناسبة. وانما القوا المقاعد امام الروسترا ومنعوه من الكلام قائلين:

- لك ان شئت، أن تحلف يميناً بين الانسحاب من المنصب القنصلي ثم تنزل الى تحت ثانية.

فرضي (شيشرون) وتقدم لتأدية اليمين، فران صمت عام، وتلا قسمه ولكن ليس بالطريقة المألوفة، بل بشكل جديد غريب. اذ ذكر فيه انه انقذ بلاده وحفظ الامبراطورية. وايد الشعب هذا القسم باقسامهم. ونفذ صبر قيصر والتريبيونين منه واقترحوا اصدار مرسوم باستدعاء (بومبي) الى روما على رأس جيشه كيما يضع حداً لاستعلاء (شيشرون). وكان من حسن حظ شيشرون والجمهورية، ولفائدتهما الكبرى ان (كاتو) في ذلك الحين كان متقلداً منصب (التريبيون). ومع أن سلطته مساوية لسلطة زملائه الآخرين، إلاّ انه كان يفوقهم سمعةً ومكانةً، ويملك القوة لمعارضة ارادتهم. فكان يسهل عليه إحباطها. وفي خطاب جماهيري له، اغدق على فترة قنصلية (شيشرون) آيات المديح والثناء وانزلها منازل التعظيم والتكريم، حتى اعلن الشعب رسمياً منحه لقب «ابي البلاد» فكان اول من حصل على هذا اللقب، حينما اقترحه (كاتو) في خطبته.

وبات يتمتع باعظم سلطان في المدينة، إلاّ أن ذلك خلق له كثيراً من الحسّاد، كما انه اسخط العدد الكبير لا لسوء اعماله بل لدوام الاعتداد بنفسه والتمجيد لذاته. لا يجتمع مجلس شيوخ ولا جمعية عامة ولا مجلس قضاء الاّ وتجده يتكلم عن (كاتيلينه ولنتولوس). وفي الواقع انه ملأ كتبه ومدوناته بمدح شخصه الى الحدّ الذي أحال اسلوبه الرائع الخلاّب، كلاماً مملاً مقرفاً في اذن السامع. وكان طبعه الأناني مثل المرض المزمن فيه. ولكن مع عزامه المفرط بتمجيد نفسه فقد كان بعيداً كل البعد عن حسد الآخرين، والعكس هو الصحيح، فلطالما اغرق واطنب في الثناء على الاقدمين والمعاصرين كما شهدت بذلك كتاباته، ويذكر الآن بعض اقوالٍ له مأثورة، منها رأيه في ارسطو قال عنه: «انه نهر من عسجد» وقال في محاورات افلاطون «لو أن جوبتر تكلمّ، فستكون لغته لغة تلك المحاورات» واعتاد القول عن (ثيوفراستس) «إنه ترفي الشخصي» وعندما سئل اي خطبة من خطب ديموستينس احبّ اليه، اجاب «اطولها». على ان بعض مقلدي ديموستينس المتأثرين به، شكوا من عبارات وردت في احدى رسائله قوله «ان ديموستينس كان أحيانا يردح في اغفاءة اثناء القائه» ونسوا المدح الذي كان يغرقه به والتكريم الذي خصّه به، حين سمّى ادق خطبه واحكمها، تلك التي كتبها ضدّ (انطوني) بـ(الفيليپيات) واما عن مشاهير فلاسفة عصره وخطبائه، فليس فيهم الاّ وقد

زاد مديحه له من مكانته او شهرته، سواء بكتابته او باحاديثه عنهم. فقد نال من (قيصر) عند توليه السلطة، الجنسية الرومانية (للقراطيبوس Cratippus) الفيلسوف المشائي (الأرسطي)، واصدر مرسوماً حمل المجلس الاريوباغي على طلب بقائه في آثينا لتعليم الشباب فيها، وليبقى وجوده شرفاً تتمتع به المدينة ومازال ثم رسائل منه الى (هيرودس Herodus)، واخرى لابنه يوصى فيها بأخذ الفلسفة عن هذا الفيلسوف. ولديه رسالة يؤنب فيها (گورجياس Gorgias) البليغ لأنه اغرى ابنه بالشراب والترف وحظر عليه صحبته. هذه الرسالة ورسالة أخرى وجهها الى (پيلوپس Pelops) البيزنطي هما الرسالتان الوحيدتان من بين الرسائل اليونانية التي كتبها في ساعة غيظ على ما يبدو. كان في الأولى محقاً بمهاجمة (گورجياس) إن صدق ما أثر عنه من فجور وتهتك. اما الثانية فقد كانت شكوى وتعنيفاً دنيئاً، لأن پيلوپس لم يهتم باستصدار مرسوم تكريم له من البيزنطيين.

واليك صورة أخرى لاعتداده بنفسه واعزامه بالثناء، تبدو احيانا ملفقةً للنظر بخروجها عن اللياقة ونبذها الوقار جانباً: القاها دفاعاً عن (موناتيوس) فانقذه من الإدانة. فأسرع المبرأ باتهام صديقه (سابينوس Sabinus) في الحال فثار غضب شيشرون وقال في فورة من الحنق.

- اتظن انك برئت لأنك تستحق البراءة يا موناتيوس، أو الستُ انا الذي سوّدت القضية بحيث عجزت المحكمة عن رؤية جريمتك؟

والقى من الروسترا تقريظاً بحق (ماركوس كراسوس) نال كثيراً من الاستحسان. وبعدها بايام قليلة راح يقدح في الذات نفسها علناً. فقصده (كراسوس) معاتباً بقوله:

- الم تمدحني انت بنفسك قبل يومين من هذا الموضع بالذات؟

فاجاب شيشرون:

- اجل كنت امرّن بلاغتي بخطبةٍ في موضوع سيّء.

وكان (كراسوس) قد قال في احدى المناسبات بأنه لم يوجد من اسرته من أناف على الستين، وما لبث أن رجع عن ذلك وتساءل مستنكراً:

- لا ادري ماالذي حملني على هذا القول.

فاجاب (شيشرون):

- لكي تفوز بعطف الجمهور. فانت تعرف كم يطربهم سماع ذلك!

وعندما ابدى (كراسوس) اعجابه بالحكمة الرواقية «الرجل الصالح هو غنيّ دائماً» قال شيشرون:

- ألا تعني «ان كل الاشياء هي ملك للعاقل؟» (كان كراسوس معروفاً بالجشع)

وكان لكراسوس هذا ابن له شبه عجيب برجل يدعى (اكسيوس Axius) حتى ان الشك كان يحوم حول عفة الأم. القى هذا الابن خطبة ناجحة في مجلس الشيوخ، فسئل شيشرون عن رأيه فيها فاجاب باليونانية

- اكسيوس كراسّو Axius Crassow

وفيما كان (كراسوس) يتهيأ للرحيل الى سوريا، كره أن يترك (شيشرون) خصما. فسلمَ عليه ذات يوم وقال له انه سيزوره تلك الليلة ويتعشى عنده، فأحسن شيشرون استقباله واحتفى به. وبعد ايام قليلة توسط احد معارف شيشرون (ڤاتينيوس Vatinius) وانهى اليه رغبته في التصافي والصداقة وقد كان بينهما جفوة وقطيعة انذاك فاجاب شيشرون:

- ماذا؟ ايريد ڤاتينيوس ايضاً أن يتعشى عندي؟

ذلك هو اسلوب معاملته لكراسوس.

وعندما كان ڤاتينيوس يترافع امامه في قضيته، وهو يشكو من اورام في رقبته، لقبّه «بالخطيب المتورّم». واخبره احدهم مرةً بأن (ڤاتينيوس) هذا قد قضى نحبه، ثم جاء من ابلغه توا بأنه مازال حياً يرزق فقال:

- الا فليهلك الوغد، فان انباءه ليست بصحيحة!

وتقدم (قيصر) بمشروع قانون لتوزيع اراضي كامپانيا على الجنود معارض فيه كثير من الشيوخ ومن بينهم (لوچيوس غيلليوس Lucius Gellius) وهو من اكبر الشيوخ سنا في المجلس فقد صرح ان القانون المقترح لن يمرّ من المجلس مادام هو حياً فقال شيشرون:

- فلنؤجله اذن، ان غيليوس لا يطلب منا الانتظار طويلاً.

وكان ثم شخصٌ يدعي (اوكتاڤيوس) يعتقد انه اغريقي الأصل. شكا هذا من انه لا يسمع شيشرون عندما كان هذا يترافع فقال معقباً:

- مع ان في اذنيك ثقوباً!

وقال له (ميتيللوس نيپوس Metellus Nepus) بكرة بأن ما احدثه من دمارٍ كشاهدٍ، اكثر مما انقذ كحاكم فعقب شيشرون على هذا بقوله:

- اقرّ بأني املك من الصدق اكثر مما املك من الفصاحة.

وكان جوابه لشاب شك في انه أعطى والده كعكعة مسمومة وكان يتبجح دائماً بأنه ينوي ان يؤلف رسالة قدحٍ بحق شيشرون.

- هذا خير من كعكعتك.

واوكل (پوبليوس سكستيوس Publius Sextius) شيشرون للدفاع عنه مع محامين آخرين في قضية. الا انه كان يرغب في يتولى هو قول كل شيء دفاعاً عن نفسه ولم يكن يفسح مجالاً لأحدٍ من محاميه بالكلام عنه. وعندما كان ينتظر قرار البراءة من القضاة المجتمعين للمداولة صاح به شيشرون قائلاً:

- عجلّ (يا سكستيوس) عجل واستغلّ وقتك، فغداً ستضحى نكرة من النكرات!

وطلب (پوبليوس كوتّا Publius Cotta) للشهادة في احدى القضايا وكان يريد ان يلقي في روع الناس بأنه محام مع جهله وبعده عن العلم والثقافة وعندما قال في شهادته انه لا يعرف شيئاً عن المسألة قال شيشرون:

- لعلك حسبتَ اننا نسألك عن نقطة قانونية!

ووقع نزاع بينه وبين (ميتيللوس نيپوس) فأخذ خصمه هذا يردد عدة مرات.

- ومن كان ابوك يا شيشرون؟

فاجاب:

- لقد جَعَلتْ امُّك الجوابَ على مثل هذا السؤال فيما يتعلق بك انت، اكثر صعوبة! (كانت امّ نيپوس سيئة السمعة)

وكان ابن (نيپوس) هذا متقلب الاهواء، غير مستقّر على رأي فمرةً تخلىّ فجأة عن منصب التريبيون وابحر الى سورية ملتحقاً بپومپي، ولم يستقرّ به المقام هناك، بل عاد حالاً بدون سبب كما رحل بدون سبب واقام لمعلمه فيلاغروس Philagrus خبارةً تزيد عما يناسب مقامه وما يحتمَ عليه الواجب ثم بنى نصباً حجرياً فوق قبره، فيه تمثال غراب. فقال له شيشرون

- ذلك مناسبٌ حقاً، مادام لم يعلمك الكلام، بل على الطيران هنا وهناك!

وعندما افتتح (ماركوس اپيوس) دفاعه امام احد المجالس القضائية قائلا ان صديقه طلب منه المثابرة والبلاغة والاخلاص في قضيته، قال شيشرون:

- وكيف طاوعك قلبك أن تهمل كل طلبٍ من طلباته؟

قد يبدو استعمال هذه النكتة الحادة ضد الخصوم والاعداء في المرافعات القضائية من قبيل

البلاغة المسموح بها. على انه آثار كثيراً من الشعور بالسخط والاستياء لحضور بديهته في مهاجمة اي شخصٍ على سبيل التفكهة لا غير. ودونك قليلاً من الحكايات المماثلة:

كان (الماركوس اكوينيوس Marcus Aquinius ختنان مبعدان في احد المنافي. ولذلك لقبه بالملك إدراستوس Adrastus).

وكان (لوچيوس كوتا) مغرما بشرب الخمر من دون اعتدال وكان (چنصوراً) ايام تقدم شيشرون مرشحاً نفسه للمنصب القنصلي. وفي اثناء اجراء الانتخابات عطش شيشرون فطلب ماء وفيما هو يتناوله واصحابه يحيطون به، قال لهم:

- انتم محقون في تخوفكم. فقد يغضب الچنصور منيّ لشربي الماء القراح.

وفي احد الأيام، لقي (ڤوكونيوس Voconius) مع بناته الثلاث القبيحات، فتمثل بالبيت:

«لقد أنسل جيلاً دون اذن من ابوللو!».

وقرأ (ماركوس غيليوس) عدة رسائل في مجلس الشيوخ بصوتٍ حادٍ ثاقب جداً - وكان المعروف عنه انه ابن عَبْد سابق - فقال شيشرون معلقاً:

- لا عجب، فقد انحدر من صلبِ مُنادين.

كان (فارستوس سلاً) ابناً لسللا الدكتاتور الذي عمد الى اهدار الحقوق المدنية لكثير من المواطنين وادانتهم وقتلهم. بددّ هذا الابن ثروته، وغرق في الديون حتى لجأ اخر الأمر الى نشر بيانات بيع املاك للتسديد، فقال له شيشرون انه يحبّ هذه البيانات اكثر مما يجب بيانات ابيه.

بهذه العادة كان يبدو مكروها لكثير من الناس وتآمر عليه حزب (كلوديوس) بالشكل التالي:

كان (كلوديوس) ينحدر من اسرة نبيلة؛ وهو شاب في زهرة العمر، ذو نفس وثابة وارادة قوية. وقع في هوى امرأة (قيصر) ودخل سراً منزلها متنكراً بزيّ فتاة عازفة. وكانت النسوة آنذاك منشغلات بتقدمة قرابينهن واداء طقوسهن التي لا يسمح للرجال بحضورها، فلم يكن احد من الرجال موجوداً. ولما كان (كلوديوس) أمرد لم يطر شاربه فقد توقع الاجتماع بـ(پومپيا) دون ان يفطن اليه النسوة المجتمعات. ولكنه دخل البيت الكبير في الليل فضل سبيله بين المماشي، ولقيته وصيفة (اوريليا) ام (قيصر) وهو يمشي على غير هدى فاستوقفته وسألته عن اسمه فاضطر الى الجواب وقال انه يبحث عن (ابرا) احدى وصائف (پومپيا) ففضحه صوته الغليظ وصرخت الوصيفة مستنجدة بالنساء فقمن باغلاق الابواب واخذن

يفتشن كل موضع من الدار حتى وجدن (كلوديوس) مختبئا في غرفة الوصيفة التي ادخلته الدار. ولما انطلقت الشائعات الكثيرة عن هذه الحادثة عمد (قيصر) الى تطليق زوجه ورفعت دعوى عامة على (كلوديوس) لتدنيسه الشعائر الدينية.

في ذلك الوقت كان (شيشرون) على صلة ودّ وصداقة بـ(كلوديوس) وقد كان له عوناً وسنداً وتميزَ بعنفه وحماسته في مناصرته. وركز دفاعه في المحكمة، بنفي وجوده في روما يوم الحادث وقال انه كان بعيداً عنها في الريف، لكن (شيشرون) تقدم للشهادة، فشهد بأن (كلوديوس) جاء الى بيته زائراً في ذلك اليوم بالذات وحادثه في شؤون مختلفة. وكانت شهادته صحيحة، لكن المظنون أن الدافع الذي حفزه للشهادة لم يكن مجرد استجلاء حقيقة، قدر ما كان يقصد منها مهادنة زوجه (ترتنيا) وارضاءها. فقد كانت تحقد على كلوديوس بسبب (اخته) كلوديا التي حاولت التزوج من (شيشرون) على ما قيل - واتخذت (تللوس Tullus) احد اخلص اصدقائه وسيطاً في ذلك الامر وثارت شكوك (ترنتيا) بكثرة زياراته لكلوديا التي كانت جارة لهما، وغاظها الاهتمام الكثير الذي يحيطها به. وكانت ترنتيا عصبية حادة المزاج. ولدالتها وسلطانها على زوجها فقد دفعته الى الشهادة نكاية (بكلوديوس). وتقدم فضلاً عن شيشرون عدد كبير من افاضل المواطنين واكثرهم استقامة للشهادة عليه بحلفه يمينا كاذبة، وباعمال الفوض، والرشوة، واغتصاب الحرائر. واثبت (لوكوللوس) عن طريق خادمات منزله، بأن المتهم واقع اخته الصغرى وهي زوج لوكوللوس. وساد الاعتقاد بأنه اقدم على الفعل نفسه مع اختيه الأخريين ترتيا Tertia التي تزوجها (مارچيوس ريكس Marcius Rex) وكلوديا التي بنى بها (ميتيللوس چيلير Metellus Celes) وكانت تلقب كوادرنتيا Quadrantia. لأن أحد عشاقها خدعها باعطائها صرّة تحوي نقوداً نحاسية صغيرة القيمة بدلاً من الفضّة، ويطلق على أصغر مسكوكة نحاسية «كوادرانت». وعن طريق سيرة هذه الأخت بصورة خاصة تكالبت المطاعن باخلاق كلوديوس. الاّ ان كل ذلك لم يجد فتيلاً فقد اتفقت كلمة العامة ضد الشهود ومحركي الاتهام ومن والاهم. فدب الخوف في نفوس القضاة ووضعت حراسة عليهم لدرء اي اعتداء او تحرش بهم. وكتب معظمهم رأيه على اللوح بشكل غامض يتعذر منهم المقصود منه. وعلى أية حال وجدت الأغلبية انه غير مذنب. وذكر أن الرشوة كانت ذات اثرٍ فعال في الحكم وعلق (كاتالوس) على ذلك بقوله للقضاة: .

- كنتم مصيبين جداً بطلبكم حرساً. كيما تحولوا دون عملية سلب نقودكم.

وعندما عاتبه (كلوديوس) قائلاً ان القضاة لم يقتنعوا بصحة شهادته، اجاب:

- أجل، لقد صدقني خمسة وعشرون فادانوك اما الثلاثون الآخرون فلم يصدقوك، لأنهم لم يخلوا سبيلك الأ بعد أن تسلموا مالك.

ومع ان (قيصر) دعي للشهادة، فانه لم يدل بشيء ضده، وقال انه لا يعتقد بارتكاب زوجه فعل الزنى وهو ما طلقها الأ لأنه لا يكفي لبيت (قيصر) أن يكون طاهراً من الرجّس، بل منزهاً عن الشائعات ايضاً.

بعد ان سلم جلد (كلوديوس) من هذا المأزق، ونال منصب (التريبيون) بادر الى مهاجمة (شيشرون) مؤلباً عليه الناس كافة، ووصمه بكلّ ما يسيء الى سمعته، وكان قد كسب ثقة العامة بقوانين شعبية، وافلح في استصدار مراسيم بتقليد كل قنصل حاكمية اقليم فكانت (مقدونيا) من نصيب (پيسو Piso) وسورية من نصيب (گابينيوس Gabinius) والف لنفسه حزباً قوياً من المواطنين المعوزين لمساندة اجراءاته. ولم يكن يُرى الأ وحوله جماعة من الصبية المسُلحين. في ذلك الحين كان ثلاثه يتمتعون باكبر السلطان في روما: (كراسوس) خصم شيشرون علناً و(پومپي) صديق كليهما دونما تفضيل. و(قيصر) الذي يتهيأ للرحيل الى بلاد الغال على رأس جيش. قصد (شيشرون) ثالثهم وطلب منه ان يقبله مساعداً في حكم الاقليم الذي عين له، فلم يبد قيصر تمنعاً وادرك (كلوديوس) ان شيشرون سيفلت من يده ويمتنع عن سلطته التريبيونية بهذه الوسيلة، فراح يشيع بين الناس انه يميل الى المصالحة والتصافي، ويعزو ما حصل بينهما من عداء الى (ترنتيا) واخذ يذكره بالخير والطيب دوماً، ويتوجه اليه بارق العبارات كأنه افرغ من قلبه الحقد والضغن ويتوجه بالعتب عليه بلهجة ودودة رقيقة، فبدء بهذه المظاهر المصطنعة فخدع شيشرون حتى حمله على الاعتذار (لقيصر) عن قبول الوظيفة، وعاد الى معترك الحياة السياسية ثانية، فاحنق (قيصر) عليه، ولأجل ذلك انحاز الى جانب (كلوديوس) ضدّه، وعمل على قطع كلّ الاسباب ما بينه وبين (پومپي). واعلن أيضاً في الجمعية العامة بأنه لا يعتقد ان (كثيگوس ولنتولوس) يستحقان الموت قانوناً وعدلاً اذ لم تجر محاكمتهما. وكان هذا الاتهام الذي وجه الى (شيشرون) واستدعي للجواب عنه. فابدل ثوبه واهمل هيئة وخرج اشعث الشعر مسترسله يستجدي عطف الشعب، كايّ متهم. الأ ان (كلوديوس) كان يعترضه في كل منعطف وخلفه عصابة من المشاكسين الوقحين يسخرون منه ويعيرونه برثاثة ثيابه وذلته. وكثيراً ما قطعوا عليه ضراعاته الى الناس بقذفه بالحجارة والاقذار.

بادرت طبقة الفرسان الرومان برمتها الى تغيير ثيابها تضامناً معه في اول الأمر، وكان يسير خلفه ما لايقل عن عشرين الفاً من الشباب بشعرهم الا شعث المسترسل، ضارعين معه

الى الشعب واجتمع مجلس الشيوخ واصدر امراً بأن يغير كل افراد الشعب ثيابهم كما هي العادة في مناسبات الحداد الرسمية. والحزن العام الا ان القنصلين عارضا في القرار وطوق (كلوديوس) مجلس الشيوخ برجاله المسلحين فخرج عدد كبير من الشيوخ وهم يصيحون ويمزقون ثيابهم الاّ ان منظرهم هذا لم يثر الخجل او الشفقة. وكان على شيشرون بعد هذا، أن يختار بين الفرار او تحكيم السيف بينه وبين كلوديوس، ورجا من (پومپي) ان يخفّ لنصرته وكان (پومپي) قد تعمّد الابتعاد وسافر الى بيته الريفي في مرتفعات (ألبان Alban) ومكث هناك. وارسل (شيشرون) اولاً ختنه (پيزو) للتوسط اليه ثم قصده هو بالذات، ولما ابلغ (پومپي) بقدومه توارى وتسلل من باب آخر متحاشياً مقابلته. لخجله، واستذكاره الصراعات العديدة التي خاضها (شيشرون) في سبيله والفوائد التي جناها من سياسته، الاّ انه اصبح الآن ختن (قيصر) وهذا ما منعه عن نصرته. ولما وجد شيشرون ان (پومپي) تخليّ عنه وتركه وحيداً بلا نصير، التجأ الى القنصلين، فاغلظ (غابينيوس) له القول كالعادة، الاّ ان (بيزو) كان اكثر لطفاً ومجاملة ونصحه بالرضوخ للأمر الواقع وارخاء العبان لإعصار (كلوديوس) حينا من الزمن، وأن يركن الى الهدؤ انتظاراً لتبدل الحال فيكون منقذاً لوطنه من اخطار هذه الاضطرابات والفوضى التي ينشرها (كلوديوس) كما أنقذه في الماضي، بعد هذا انقلب الى اصدقائه يطلب رأيهم. فنصحه (لوكوللوس) بالبقاء وقال انه واثق بفوزه اخيراً. واشار عليه آخرون بالفرار، مؤكدين أن الشعب لن يلبث ان يفتقده عندما يبشم من جنون (كلوديوس) وهياجه، فوافق على الرأي الثاني وبادر اولاً فحمل تمثالاً لمينرڤا كان في داره منذ زمن طويل بموضع تكريم، الى الكاپتول واوقفه عليه بعد ان نقش عليه العبارة التالية:

«الى مينرڤا شفيعة روما».

وزوده اصدقاؤه بمرافقين فترك المدينة في حدود منتصف الليل وسافر براً عبر لاقونيا قاصداً صقلية. وما أن انتشر نبأ فراره، حتى اقترح (كلوديوس) على الشعب مرسوما يقضي بنفيه. واصدر هو امراً شخصياً حرم عليه فيه «الماء والنار». وحظر على اي شخصٍ ضمن مسافة خمسمائة ميل في ايطاليا أن يأويه في داره. الاّ ان معظم الناس لم يأبهوا لهذا البيان احتراماً (لشيشرون) وبذلوا له كل رعاية ورافقوه في طريقه. الاّ شخصاً واحداً يدعى (ڤيبيوس Vibi-us) وهو صقلي كان شيشرون قد شمله بالالطاف الكثيرة منها انه عينه رئيساً لمهندسي الدولة ايام كان قنصلاً. فقد ابى على شيشرون دخول بيته عند وصوله هيپّونيوم Hipponium وهي مدينة لوقانية تعرف اليوم باسم (ڤيبو Vibo). وارسل من يعلمه بأنه سيخصص له مسكنا في الريف. وامّا (كايوس ڤرجيلوس Caius Vergelius) پريتور صقلية، الذي كانت

تربط فيما بينهما اوثق علاقات الصداقة فقد كتب اليه، يزين له العدول عن النزول الى صقلية، ازاء هذا كله لم يسع (شيشرون) الاّ ان يتوجه الى (برنديزيوم) وهو مثقل بالهم، خائر العزيمة. واقلع في ريح موآتية ما لبثت أن انقلبت الى اعصار عات مضادٍ يهبّ من جهة البحر، فدفع بالسفينه من حيث اتت وقذف بها الى ساحل ايطاليا في اليوم الثاني. ثم انه اقلع مرةً ثانيةً ووصل (دراكيوم) وعند نزوله اليابسة وقع زلزال وهزّة بحرية في الوقت عينه كما قيل، وتلك ظواهر فسرّها السحرة بأن نفيه لن يطول كثيراً، وما حصل هو بشائر التغيير. وقصده الكثير احتفاء به. وتنافست مدن الاغريق على تكريمه. الاّ انه بقي مع ذلك حزين النفس منكسر الخاطر كعاشق ولهان تنكرّ له الحظ، وكثيراً ما كان يرنو الى جهة ايطاليا متشوقاً. في الواقع لم يتصور أحد أن تبلغ الذلة والشعور بالمهانة ما بلغت بهذا الرجل الذي اوقف جانباً كبيراً من حياته على الدرس والعلم. لقد اعتاد الطلب من اصدقائه بأن يلقبوه بالخطيب، بله بالفيلسوف فقد كانت الفلسفة عليه غالبة، ولم يتخذ البلاغة الاّ مرقاة الى العمل السياسي. على أن للرأي العام قوى عظيمة في ازالة صبغة الفلسفة من نفوس الرجال تلك التي خلفها الدرس والعقل كما يقال. وبقوة الاعتياد والتماس الدائم بامكانه أن يطبع نزعات الدهماء ومشاعرهم في نفوس الساسة. الا اذا كان المرء شديد الحذر منتبها الى انه عند التصدي لشيء عام، فعليه ان يهتم للمشاكل نفسها لا للعواطف الناشئة عنها.

بعد أن نجح (كلوديوس) في ابعاد شيشرون بهذه الشكل. انقض على مغانيه وحقوله ثم منزله في المدينة واعمل فيها حرقاً وتدميراً وبنى على ارض المنزل هيكلاً لربّة الحرية. وعرض بقية املاكه للبيع بالمزاد العلني يومياً فلم يتقدم لها شارٍ. بهذه الوسائل وطد سلطانه وهابه الاشراف وتعلقت به العامة بعد أن فتح لهم ابواب التسيبّ والوقاحة على مصاريعها وجرأهم على النظام العام. أخيراً راح يجرب سلطانه ضدّ (پومپي) فهاجم بعض اجراءاته التي اقدم عليها في البلاد المفتوحة. فلم يسع (پومپي) الاّ الشعور بثقل العار لجبنه وراح يلوم نفسه على التخلي عن (شيشرون) وتبدلت افكاره فجأة فأخذ يعمل جاهداً مع اصدقائه لاعادة (شيشرون). ولما عارض (كلوديوس) في ذلك اتخذ مجلس الشيوخ قراراً بالتصويت، بقضي بالامتناع عن مصادقة اي اجراء رسمي او الأمر بتنفيذه الاّ بعد عودة (شيشرون) لكن الشحناء والنزاع على هذا الأمر تفاقم عندما تولى (لنتولوس) المنصب القنصلي، فحصل اشتباك نجم عنه اصابة التريبيونات بجراح في الفورم، وترك (كوينتوس) شقيق (شيشرون) ملقى بين القتلى دون ان يفطن احد الى انه بين القتال. وبدأ التغيير يظهر في عواطف الشعب وكان (آنيوس ميلو Annius Milo) احد تريبيوناته اول من ملك الشجاعة لاستدعاء

(كلوديوس) الى المحاكمة عن اعمال العنف التي اقترفها. وتحزب عدد كبير من عامة سكان المدن المجاورة الى (پومپي) وشدوا ازره عندما ذهبوا معه فطردوا (كلوديوس) من الفورم واستدعي الشعب ليدلي باصواته حول عودة (شيشرون) وقيل إن الشعب قر على امر يجمع كما اجمع هذه المرة. ورغب المجلس ايضاً في منافسة الشعب بعواطفه فبعث برسائل شكر الى تلك المدن التي استضافت المنفيَّ واحتفت به ايام ابعاده. واصدر مرسوماً يقضي باعادة بناء داره ومرابعه الريفية التي دمرها (كلوديوس) على نفقة الدولة.

هكذا عاد شيشرون بعد ستة عشر شهراً من نفيه، وعمت المدن الفرحة وبلغت لهفة الناس لرؤيته حداً كبيراً، حتى ان ما قيل على سبيل الفخر ان ايطاليا عادت به الى روما محمولاً على اكتافها هو قول لا يوازي الحقيقة. وكراسوس نفسه الذي عرف بعداوة له قبل نفيه، خرج لاستقباله بملء الرغبة وتصالحا. لأنه «اراد أن يفرح ابنه (پوبليوس) احد المعجبين المغالين بشيشرون» على حَدّ قوله!

ولم يلبث (شيشرون) في روما الأ قليلاً وانتهز فرصة غياب (كلوديوس) فقصد الكاپتول مع جمع كبير، ومزق وكسر الالواح التريبيونة التي سجلت عليها انجازات (كلوديوس). وعندما وجه اليه هذا استجواباً عن الدافع الذي حمله على هذا العمل اجاب (شيشرون) انه فاز بمنصب (التريبيون) خلافاً للقانون لكونه پاتريشيا، فكل ما انجزه والحالة هذه، باطلٌ لا قيمة له. وقد ساء ذلك (كاتو) وعارض (شيشرون) لاحبّا بكلوديوس الذي لم تكن تصرفاته موضع رضاه، بل محتجاً بأن تصويت المجلس على عدم قانونية تلك الانظمة والاوامر والمراسيم ومن ضمنها تعيينه هو نفسه لمهمتي قبرص وبيزنطيوم، يتسم بطابع النزق والطيش فضلا عن مجافاته للقانون. وهذا ما احدث الجفوة بين (كاتو) و(شيشرون). لم تبلغ مبلغ العداء السافر وانما شاب صداقتهما برود كبير.

بعد هذا قام (ميلو) بقتل (كلوديوس) فاحيل الى القضاء فوكل (شيشرون) للدفاع عنه، وخشي مجلس الشيوخ أن استنطاق شخصٍ ذي جرأة ومكانة مثل (ميلو) قد ينجم عنه اضطراب في حبل الأمن. فاناط بـ(پومپي) أمر الاشراف على النظام في المدينة اثناء هذه المحاكمة والمحاكمات الأخرى وأن يتولى الاشراف على الانضباط في دور القضاء ايضاً، فعمد (پومپي) ليلاً الى احتلال المرتفعات فيما حولها، وضرب نطاقاً من الجنود حول الفورم وخاف (ميلو) من تأثير هذا المشهد غير المألوف على شيشرون فيضطرب ويسيء الدفاع عنه. لذلك اقنعه بأن يأتي الى الفورم محمولاً في محفة وان يبقى فيها حتى تنتظم الجلسة ويكمل نصاب القضاة وتمتلىء القاعة. ويبدو من هذا أن (شيشرون) كان يفتقر الى الشجاعة الأدبية فضلاً

عن الشجاعة الحربية. فبدأ دفاعه بشيء من التردد والتلعثم. ولازمته الرعشة في البداية. وفي كثير من خطبه لا تتركه الرجفة الا نادراً، حتى عندما يدخل في صلب الموضوع ويبلغ جوهر خطابه فمثلاً دفاعه عن (لوچينيوس مورنيا) في قضيته اتهمه بها كاتو كان محامي خصمه (هورتنسيوس) قد دبج خطبةً نالت استحساناً عظيماً. وكان شيشرون قد امضى الليلة مؤرقاً يتناهبه قلق الطموح الى التغلب عليه. فانهدت قواه بفعل الأرق، ولم تعدّ خطبته من المستوى الذي اثر عنه. فبعد ان هبط من المحفّة لمباشرة قضية (ميلو) لاحت منه التفاتة الى (پومپي) وهو يحتل مواضعه بعسكره فوق المرتفعات وخطف انظاره بريق الاسلحة اينما التفت حواليه في الفورم. فاعتراه الخوف، وارتج عليه في الأول، لأن جسمه كان يرتعش، ولسانه يتلجلج. في حين كان (ميلو) المتهم، ثبت الجنان رابط الجأش في كل تصرفاته. فقد أنف من ارسال شعره، او ارتداء ثياب الحداد، على نحو ما يفعل المتهمون، وكان هذا السبب الرئيس لادانته على ما يبدو. واما عن (شيشرون) فقد قيل أنه ما اظهر من الخوف والحرص على نفسه، كان اكثر مما اظهر من قلق وحرص على صديقه.

وعين (شيشرون) كاهنا من المرتبة التي يطلق عليها الرومان اسم (اوگور Augur) مخلفاً (كراسوس) الأصغر الذي قضى نحبه في بلاد الپارثيين. وعين بالقرعة حاكماً لاقليم (كيليكيا) وابحر متجها الى مقر حكمه على رأس اثني عشر الف راجلٍ والفين وستمائة من الفرسان وكان قد زوّد باوامر تقضي باخضاع كبدوكيا لملكها (آريوبارزانيس Ariobar-zanes) وقد انجز المهمة على افضل ما يمكن دون اللجوء الى استعمال السلاح. وادرك بان الكيليكين يبيتون ثورةً على اثر الفشل الذي مني به الرومان في بلاد الپارثيين، وبعدما حصل في سورية من الاضطرابات والمشاكل. فعمد الى تهدئتهم وكسب ودهم واخلاصهم باتباعه اللين والعدل. ورفض الهدايا التي كان يقدمها له الملوك. والغى الضرائب والرسوم التي تجبى من الأهلين عن الملاهي والحفلات العامة وكان يستقبل في داره يومياً رجال العلم والثقافة اللامعين في الاقليم ويبالغ في اكرامهم، ولكن بصورة خلت من مظاهر البذخ والترف. ولم يكن يقف حارس امام بابه، ولم يقصده أحد ويراه متكئاً على سريره. اذ كان يستيقظ عند الفجر ويقف امام باب منزله، او يتمشى الى جواره، مستقبلاً كل قادم للسلام عليه والسؤال عنه، وقيل انه لم يأمر قط بجلد أحدٍ من مرؤوسيه بالعصي او بنزع ردائه، ولم يتلفظ قط بكلمة بذيئة في سورة من غضب او انفعال ولم يوقع عقوبة تجرح كرامةً او تصيب عزة النفس. ووجد أن اموالاً طائلة قد اختلست من الخزينة العامة فاهتمّ بان تستعيد المدن استقرارها المالي وفي الوقت نفسه لم يوقع عقوبة باولئك الذين سددوا ماختلسوه وانما تركهم يحتفظون بحقوق

المواطنة. واشتبك ايضاً في حروب وهزم قطاع الطرق الذين كانوا يعيشون سلباً ونهباً في جبل (أمانوس) فحيّاه جيشه بلقب (امبراطور) وكتب الى (كوچيليوس Coecilius)[٢] الخطيب الذي طلب منه عدداً من فهود كيليكا لعرضها في ملعب روما. وفي نوبة من نوبات تمجيد النفس لما حققه كتب يقول أنه لافهود بعد في كيليكيا فقد هربت جميعها الى كاريا سخطاً واستياء لانها أمست المخلوقات الوحيدة التي تهاجم في حين ان الجميع ينعم بالسلام والاستقرار.

وعند مغادرته الأقليم توقف في (رودس) وكان جدّ سعيد لقضاء بعض الوقت في آثينا، حيث كان يحتفظ لها باجمل الذكريات للأيام التي قضاها هناك في الماضي. والتقى البارزين في كل فرع من فروع العلم والثقافة واستقبل اصدقاءه ورفاقه القدامى. وبعد ان قوبل في اليونان بما يستحق من التكريم قفل الى روما فوجدها على حدّ قولنا - في اولى مراحل الحميّ التي تمخضت بالحرب الأهلية.

وفي مجلس الشيوخ عندما هَمّ الاعضاء الاصدقاء بالتصويت على منحه موكب نصر، قال انه يفضل ان يمشي وراء عجلة نصر (قيصر) لو أن المسائل سويت بصورة مرضية. وكتب في السر عدة رسائل الى (قيصر) ناصحاً وقابل (پومپي) شخصياً عدة مرات باذلاً جهده لتهدئة الطرفين، ومناشداً كليهما تحكيم العقل. لكن الشق اتسع ولم يعد بالامكان معالجة الأمر وتقدم قيصر من روما وپومپي لا يجرأ على البقاء فيها، بل تركها مع كثير من افاضل المواطنين. الاّ ان (شيشرون) لم يغادرها. وكان المقول عنه انه من اشياع (قيصر) على انه في الحقيقة كان مذبذباً موزع الرأي لايدري الى اي طرف ينحاز فقد كتب في رسائله يقول:

«الى اي طرف ينبغي لي أن اتوجه؟ لپومپي اسبابه العادلة المشرفة لشنّ الحرب. الاّ ان قيصر هو احسن تصرفاً في ادارته واقدر على وقاية نفسه واصدقائه. لهذا فانا اعلم ممن سأهرب والى من يجب أهرب» لكن عندما اشار اليه تربانيوس Terbanius احد اصدقاء (قيصر) بقوله أن (قيصر) يرى أن ينحاز الى صفه ويشاركه في مستقبله وهو افضل السبل له، لكن اذا وجد سنه لا تسمح له بمعاناة المتاعب فبامكانه الرحيل الى بلاد اليونان والعيش هناك بهدوء بعيداً عن الفريقين المختصمين. وادرك (شيشرون) العجب من (قيصر) لأنه لم يكتب له شخصياً.

وردّ بغضب قائلاً: انه لن يقدم على عمل يشين ماضيه. وهذا ما يمكن استنتاجه من رسائله؛

---

(٢) في نسخة أخرى Caelius.

وما ان زحف (قيصر) على اسپانيا حتى ابحر للانضمام الى معسكر (پومپي) ورحبّ به الجميع خلا (كاتو) الذي انتحى به جانباً واخذ يؤنبه على مجيئه قائلاً انه ارتكب خطأً كبيراً في الانضمام الى (پومپي). وقال عن نفسه: اما انا فمرتبط بكلمة شرف أن لا اتخلى عن الخط السياسي العام الذي سرت عليه منذ البداية، الاّ انك قد تكون اكثر فائدة لبلادك واصدقائك لو بقيت في الوطن، دون ان تنحاز الى فريق، وأن تكيف نفسك للاحداث عندما تعرف ماذا ستكون النتيجة.

امّا الآن فقد جعلت نفسك عدواً لقيصر دون ضرورة ولا سبب وجيه، وجئت هناك للتعرف الى هذه الاخطار العظيمة التي تهددنا جميعاً.»

اقلقت هذه العبارات واثرت على عقله، كما احزنه ايضاً ان (پومپي) لم يعتمد عليه في مهمات كبيرة، وهو الملوم بهذا لأنه ما انفك يعلن عن اسفه لمجيئه، وينتقص من تدابير (پومپي) العسكرية وينتقد خططه من وراء ظهره دائماً. ولم يكن يتورع عن القاء النوادر والملح سخرية من رفاقه في السلاح. ومع انه كان في الواقع يتجول في انحاء المعسكر بوجه عبوس وملامح كئيبة الاّ انه كان يحاول دوماً التسرية عن الآخرين ودفعهم الى الضحك بنكاته رغم انفهم. والأمر يستأهل منا ايراد بعض الامثلة:

فضّل (دوميتيوس) للقيادة شخصاً غير عسكري، وبررّ تفضيله بأنه انسان متواضع، واسع الفهم والبصيرة. فقال شيشرون:

- فلم لا تعينّه معلماً لأولادك اذن؟[٣]

وسمع مدحاً بـ(بثيوفانس) اللسبي رئيس سلاح الهندسة في الجيش، للطريقة الفذة التي اتبعها في تعزيتهم على خسارة اسطولهم فقال:

- انها لرحمة في الواقع أن يكون في القيادة اغريقي!

وعندما كان (قيصر) يتابع نجاحاً اثر نجاح وقد كاد ان يطوق پومپي كان (لنتولوس) يذيع ابناء تفيد بأن اصدقاء (قيصر) قد هبطت معنوياتهم وثبطت هممهم فقال شيشرون معقباً:

- ذلك لأنهم لايتمنون الخير لقيصر ولايريدون ان ينتصر.

وقال للمدعو (مارچيوس) الذي قدم مؤخراً من ايطاليا واخبرهم بانتشار اشاعة قوية في روما، تقول ان پومپي قد ضرب عليه الحصار:

- ولهذا ركبت البحر الى هنا انك تشاهد الأمر بأم عينك!

---

(٣) في نسخة: «لماذا لا تعينه معلماً؟»

وراح (ننيوس Nnius) يشجعهم بعد احدى الهزائم ويطلب منهم ان لا يقطنوا ولا يفقدوا الأمل فما زال في معسكر پومپي نسور سبعة. فقال شيشرون:

- نصيحة ممتازة! لو كنّا نحارب الزّاغ ليس إلاّ.

وظلّ يشددّ (لابينوس Labienus) على اهمية بعض النبؤات التي اشارت الى ان (پومپي) سينتصر فقال شيشرون

- بالضبط فانها نعم الستراتيجية تلك التي ادت بنا الى خسارتنا معسكرنا الآن.

بعد معركة (فرساليا) التي لم يحضرها (شيشرون) لوعكة ألمت به وماتلاها من فرار (پومپي)، بقي تحت امرة (كاتو) قوات كبيرة واسطول ضخم في (دراكيوم) فرغب في تسليم القيادة لشيشرون بمقتض القانون وبحسب الاقدمية في المنصب القنصلي ولما رفض ذلك وابى مشاركتهم في تصميمهم على مواصلة الحرب، تعرضت حياته الى خطر عظيم وكاد يقتل ووصمه پومپي الأبن واصدقاؤه بالخيانة وجردوا سيوفهم وسددوها الى صدره، فتدخل (كاتو) وانقذه بشق الانفس، ثم اخرجه من المعسكر. فاستقل البحر ووصل الى (برنديزيوم) وتأخر فيها بعض الوقت وتنظراً (قيصر) الذي كانت مشاغله في آسيا وقصر قد أخرته. ولما انبئ بأنه وصل (تارنتوم) وانه منطلق الى برنديزيوم براً، أسرع اليه، ولم يكن فاقد الأمل كليةً بالنتيجة، الاّ انه كان يشعر بالخجل لاضطراره الى جسّ ردود فعلٍ عدوٍ وفاتح امام عدد كبيرٍ من الشهود. ولم يكن في الواقع حاجة به البته ليقول او يفعل اي شيء غير لائق به ولمحه قيصر مقبلاً يتقدم الجماعة بمسافةٍ، فنزل لاستقباله حالاً، وحيّاه وافسح له وهما سائران يتحدثان لوحدهما - مسافة فرلنگ واحدٍ. ومنذ ذلك الحين وهو يعامله باكرام واحترام حتى انه لما كتب (شيشرون) خطبه في مدح (كاتو) انتهز (قيصر) مناسبة الردّ عليه. ليمدح حياة شيشرون وبلاغته مقارنا اياه بپركليس و(ثيرامينس Theranenes) وكان عنوان رسالة الأول (كاتو) وعنوان رسالة الثاني (ضدّ كاتو).

وروي كذلك، إن (كوينتوس ليگاريوس Quintus Ligarius) احيل الى المحاكمة لأنه رفع السلاح ضدّ (قيصر) فقبل شيشرون مهمة الدفاع عنه. فقال (قيصر) لاصدقائه

- ولم لا نسمع خطبة لشيشرون بعد مرور هذا الوقت الطويل؟ واما عن (ليگاريوس) فكلنا يعلم منذ زمن طويل انه مجرمٌ وعدو.

ولكن لما بدأ (شيشرون) يتكلم بدت كلماته مثيرة للعواطف بصورة لا تصدق. وما ان مضى في دفاعه شرطاً متنقلاً من عاطفة الى أخرى بلغة ساحرة آسرة حتى اخذت آلوان

(قيصر) تفرّ وتقبل وكان واضحا أن كلّ عاطفة فيه قد تحركت وجاشت به. وأخيراً عندما تطرق الخطيب الى معركة فرساليا[٤] وصل تأثره منتهاه، وراح جسده يتهزّ وسقطت بعض الاوراق من يده. وهكذا غلب على أمره وبرأ (ليگاريوس).

ومنذئذ انقلبت الجمهورية الى حكم الفرد المطلق، انسحب (شيشرون) من الحياة العامة وطلق السياسة وراح يمضي اوقات فراغه في تعليم الفلسفة لقصّاوه من الشبان. وكانوا كلهم يتحدرون من ارقى واشرف الأسر الرومانية وهو مدين بصورة رئيسة لهذه العلاقة الحميمة في عودته الى معترك الحياة السياسة واستعادته نفوذه العظيم في روما، وانشغل ايضاً في كتابه وترجمة المحاورات الفلسفية، ونحت تعابير ومصطلحات لاتينية لمختلف الكلمات المستخدمة في المنطق والعلوم الطبيعية. ويقولون بأنه كان اولّ من أوجد الاسماء اللاتينية لهذه التعابير:

Phantastia, Syncatathesis, eporhe, Catalepsis, atamon, ameres, Kenon.

وسلسلة في اللسان اللاتيني اماً بطريق الاستعارة، او بايجاد مصطلحات جديدة مقاربة لها. وعلى سبيل التسلية عالج ايضاً نظم القريض، وقيل انه اذا عكف عليه، خرج في اليوم التالي وقد نظم خمسمائة سطر في ليلة واحدة. وقضى الشطر الاكبر من حياته في مفناه الريفي بـ(توسكولوم Tusculum) وكتب لاصدقائه قائلاً انه يحيا حياة (ليرتس Laertes) إما على سبيل المزاح كما هي عادته، أو تعبيراً عن طموحه ورغبته في المساهمة بالشؤون العامة التي جعلته غير راض عن الاوضاع السائدة وقتذاك. وقلما كان يأتي الى روما؛ واذ غشيها فللتسليم على (قيصر)، وكان على رأس من اعتاد أن يقترحوا ضروب التكريم له، ويحاولون دائماً اختراع تعابير مديح له نفسه او لأعماله فمثلاً هناك تعليق له على تماثيل (پومپي) فقد تمّ رفعها ونقلها من مواضعها، الاّ ان قيصر أمر باعادتها إلى امكنتها؛ وعندما اقيمت قال شيشرون: ان (قيصر) بعلمه الكريم لم ينصب تماثيل (پومپي) فحسب وانما ثبت تماثيله نفسه تثبيتاً راسخاً.

وقيل أنه فكر في كتابة تاريخ بلاده؛ مضيفاً اليه جزءً كبيراً من تاريخ الاغريق ومضمنا اياه كل الحكايات والأساطير الغابرة التي وقف عليها وتولى جمعها. الاّ أن مختلف الاحداث العامة والخاصّة المؤسفة والمصائب التي كان معظمها من عمله ونتيجة اخطائه، حالت بينه وبين تحقيق هذه الأمنية. فبالدرجة الأولى طلق زوجه (ترنتيا)، متعللاً بأنها اهملته اثناء الحرب، وتركته يسافر وهو خالي الوفاض لا يملك ما يقيم به اوده في رحلته، وزعم انه لم يجد لديها عطفاً وحنانا عند عودته الى ايطاليا اذ انها لم تلحق به في (برنديزيوم) طول بقائه.

(٤) فرسالوس أيضاً بالرومانية.

وانها لم تهيء لبنتهما الصغيرة التي قطعت هذه الرحلة الطويلة اليه، مايليق بمثيلاتها من رفقة ومال كاف لنفقات السفر، فضلاً عن كونها خلفت له منزلاً خالياً عاريا عن الأثاث وورطته في ديون كبيرة. وهذه بالتاكيد اكثر الاسباب وجاهة للطلاق. لكن (ترنتيا) التي تنكر كل هذه المزاعم تتمسك باقوى دفاع زوّدها به هو نفسه. اذ لم يمرّ وقت طويل على طلاقها، حتى تزوج باكراً صغيرة السن وقع اسير جمالها وهذا ما جعل حجتّها اقرب الى التصديق، وعلى أن عتيقه (تيرو Tiro) يقول أنه اقدم على هذه الزيجة ليتخلص من ديونه، لأن الفتاة كانت في غاية الغنى. وكان (شيشرون) قد نصّب قيماً على اموالها ووصياً عليها. ولما كان مدينا بمبالغ طائلة فقد نصحه اصدقاؤه واقرباؤه بالزواج منها بغض النظر عن الفارق الكبير بين عمريهما، واستخدام مالها لايفاء دائنيه حقوقهم.

ونوه (انطوني) بهذه الزيجة في ردّه على «فيليپياته» ووجه اليه التأنيب الشديد عائباً عليه طلاقه امرأة عاشت معه حتى مرحلة الشيخوخة، واضاف بعض اللمحات الساخرة الطريقة حول مزاج شيشرون البيتي، وعقم تصرفاته وبعدها عن طباع المحارب. وبعد فترة قصيرة من زواجه توفيت بنته و(توليا) زوج (النتولوس) وهي على فراش الوضع، وكانت من قبل زوجاً لـ(پيزو) الذي مات وتركها فترمّلت. فتقاطر الفلاسفة وذوو العلم من كل صوب لتعزيته، وكان حزنه عليها شديداً جداً، حتى انه طلق زوجه الجديدة لأنها اظهرت السرور لموتها.

هذا ما كانت عليه احوال (شيشرون) المنزلية آنذاك. لم يشارك (شيشرون) في التكتل الذي كان يتخذ شكله ضدّ (قيصر) مع انه كان من اقرب اصدقاء (بروتوس) وموضع سرّه، واحد الذين يشكون بألم ماآلت اليه الاحوال السياسية، ويرغبون في عودة نظام الحكم السالف. الاّ ان المتآمرين كان يتخوفون من جبنه، ويحسبون حساب شيخوخته والشيخوخة تجعل اجرأ الناس، جباناً هياباً.

وبعد ان نفذ (بروتوس) و(كاسيوس) والباقون خطتهم، تجمع أصدقاء (قيصر) ضدهم وخيف من حرب اهلية ثانية تبتلى بها روما. وفي هذه اللحظة الحرجة دعا (انطوني) وكان قنصلاً - مجلس الشيوخ للانعقاد والقى كلمةً قصيرة حول اجلال الوئام والتصافي واجراء المصالحة الوطنية، وتبعه (شيشرون) بخطبةٍ مطولة تناسب المقام، وحمل المجلس على احتذاء حذو الآثينين بالتصويت على قانون العفو العام عن كل من ساهم في قتل (قيصر) وان يعطى كلا من (بروتوس وكاسيوس) حكم اقليم. ولكن لم ينفذ ايّ من هذين القرارين. ذلك لأن الجمهور كان يعطف على (قيصر) على كل حالٍ فعندما شاهد الجمهور جثته محمولة خلال (الفوروم) وعندما انشأ (انطوني) يعرض ثيابه الدامية التي مزقتها طعنات السيوف اجتاحته

سورة من الغضب وهاج هائجه، وانطلقوا في اثر القتله وتوجهوا الى منازلهم وبايديهم المشاعل لاحراقها الاّ ان المتآمرين انذروا بما ينتظرهم فاستبقوا الخطر وبادروا الى ترك المدينة حفظاً لحياتهم.

وبرز (انطوني) فجأة كالنجم الثاقب. واصبح سيد الموقف الذي لا يقف امامه شيء. وبات القلق يغزو نفوس الجميع - من ان يعمد الى التفرد بالحكم المطلق. وكان شيشرون اكثر الناس توجساً من هذا. و(انطوني) كان من الجهة الثانية يحذر من عودة نفوذ شيشرون وتعاظمه ومن العلاقة الحميمة التي تربطه (ببروتوس) لذلك صار يتضايق من وجوده في المدينة. اضف الى هذا، التحاسد الذي نشأ بينهما من تنافر طبيعي في اخلاقهما. وخاف (شيشرون) سوء العاقبة وفكر في النزوح الى سورية معاوناً (لدولابللا) الاّ ان القنصلين المنتخبين (هرتيوس Hertius) و(پانسا Pansa) اللذين كانا سيخلفان (انطوني) رجياه بالبقاء وتعهدا بسحق نفود خصمه ان بقي في روما ظهيراً لهما. وكانا شخصين طيبين وصديقين له. فصدقهما الى الحدّ الذي قرر البقاء، ولم يكن واثقاً منهما كل الثقة. وذهب دولابللا وحده. واتفق مع القنصلين ان يقضي الصيف في آثينا وان يغد عندما يتوليا سلطانهما القنصلية. فسافر وحده الاّ ان بعض التأخير طرأ على رحلته وكما يحدث غالباً فقد وردت انباء جديدة له من روما؛ فقد قيل ان هناك تغييراً عجيباً طرأ على سلوك (انطوني)، وان كلّ اعماله وسياسته تبدو وكأنها تتجه الى ارضاء مجلس الشيوخ، وان كلّ ما يلزم في الوقت الحاضر هو عودته لتستقيم الأوضاع على افضل الاسس من الاستقرار. فلام نفسه لافراطه في الحذر وقفل راجعاً الى روما، ولم يخب ظنه في اولى توقعاته؛ فقد اجتمعت حشود هائلة من الناس لاستقباله حتى ان التحايا وخطب الترحيب في ابواب المدينة وفي اثناء دخوله اليها استغرقت يوماً كاملاً تقريباً.

في صباح اليوم التالي دعا (انطوني) المجلس للانعقاد، وطلب حضور (شيشرون) الاّ انه اعتذر بوعكة مرضية الزمته الفراش، ولم يحضر. على ان سبب تخلفه الحقيقي عن الحضور هو الخوف على ما يبدو من دسيسةٍ دبرت له إما لشك ساوره، او لمعلومات وصلته وهو في طريقه الى روما. فاظهر (أنطوني) استياءً عظيماً وشعر بالاهانة وتوعده بارسال جنود لجلبه بالقوة او لاحراق بيته، الاّ ان اناساً كثيرين توسطوا في الأمر ورجوه ان لا يفعل شيئاً من هذا القبيل فقنع بقبول ضمانات من (شيشرون) على حسن سلوكه. وبعد هذا كان يتجاهل احدهما الأخر عندما يلتقيان. وبقي كلاهما على هذه الحال يحاذر أُحدها من الآخر حتى جاء (قيصر) الأصغر من (ابوللونيا Apollonia) وهو اول ورثة (قيصر). فبدأ النزاع بينه وبين (انطوني) حول خمسة وعشرين مليون درهم كان انطوني قد احتجزها من التركة.

ونتيجة لهذا قدم (فيلپس Philippus) زوج ام (قيصر) الشاب ومارچللوس زوج اخته مع الشاب نفسه الى (شيشرون) واتفقوا معه على ان يضع بلاغته ونفوذه السياسي عند المجلس وعامة الشعب تحت تصرفهما، وان يتولى (قيصر) الشاب امر الدفاع عن شيشرون بنفوذه المالي، وبما هو تحت امرته من القوات الكبيرة التي خدمت تحت لواء (قيصر) الاكبر. وكان من المعتقد بوجود سبب آخر اقوى من هذه الأسباب، حمل (شيشرون) على قبول صداقة (قيصر)؟ في ايام حياة (پومپي) و(قيصر) يبدو ان شيشرون رأى حلماً مؤداه أنه كان يدعو بعض ابناء الشيوخ لدخول الكاپتول لأن (چوپتر) كان يريد أن يختار واحداً منهم لحكم روما. وجاء المواطنون مسرعين بكلّ شوقٍ ووقفوا حول الهيكل، والفتيان جالسون في اوشحتهم الموشاة بالارجوان وكأن الطير على رؤوسهم، ثم فتحت الأبواب فجأة واصطف الفتية واحداً بعد الآخر، وطفقوا يمرون امام الاله بكلّ انتظام وهو يستعرضهم ويتفحصهم، ثم انه اخذ يصرفهم تباعاً وكلهم أسف، حتى وصل (قيصر) الفتى امام الربّ، فمدّ اليه چوپتر يده وقال:

- ايها الرومان، عندما يصبح هذا الفتى سيد روما؛ سيوضع حدٌ نهائي للحرب الأهلية.

قيل ان (شيشرون) رأى هذا الحلم ومنه كون لنفسه صورة واضحة المعالم لملامح الشاب، بقيت منطبعة في ذهنه وان كان يجهل شخصياً. وفي اليوم الذي تلا ليله الحلم، التقى وهو في طريقه الى (مخيم مارتيوس Campus Martius) بالفتيان وهم عائدون من العابهم الجمنازيّة، يتقدم الفتى الذي رآه في الحلم فادركه العجب وسأله عن اصله وفصله فبتين له انه (قيصر) الشاب، الذي لم يكن ابوه (اوكتافيوس) معروفاً، وان امّه هي (آتيا Attia) بنت اخت قيصر. ولهذا السبب تبناه (قيصر) الذي لم يعقب، وجعله في وصيته وارثاً لاملاكه ومنزله. ومنذ ذلك الحين كان شيشرون - على ما قيل - يراقب الشاب بكل اهتمام كلما صادفه، وكان الفتى يقلل اهتمام شيشرون بلطف ويرحب بعطفه. وقد شاء آله الحظّ ان يولد الفتى عندما كان شيشرون قنصلاً.

ومع أن هذه الأسباب هي التي أثرت عن نشوء العلاقة بين الرجلين. الاّ أن الدافع الحقيقي الذي جعل شيشرون ظهيرا للفتى هو اولاً بغضه لانطوني. وثانياً طبعه الذي كان يدفعه دوماً الى الشهرة والبروز. فتصور بأنه يضيف قوة (قيصر) الى نفوذه السياسي. والفتى كان يجسّم له هذه الفكرة الى الحدّ الذي صار يناديه «بباابت» وهو ما اغضب (بروتوس) الى حد كبير فكتب في رسائله الى (اتيكوس Atticus) مهاجماً شيشرون بقوله: «من الجليّ ان تودده الى قيصر خوفاً من انطوني، لم يكن يستهدف به حرية بلاده وانما كان يخطب ودّ طاغية، ليكون عطوفاً على شخصه ليس الاّ». ومع هذا، فان (بروتوس) احتضن ابن (شيشرون) الذي كان

يدرس الفلسفة في آثينا، وسلمّه قيادة عسكرية واستخدمه في عدد من المهمات الناجحة.

في تلك الفترة بلغت سطوة (شيشرون) أوجها في المدينة. فكان يعمل ما يشاء وما يهوى، استظهر وتغلب على (انطوني) وطرده، وارسل القنصلين (هرتيوس) و(پانسا) على رأس جيش للقضاء عليه. كذلك حمل المجلس على أن يسمح (القيصر) بالحرس اللكتوري، وشعار الپريتور بوصفه يحارب دفاعاً عن بلاده. وبعد أن هزم (انطوني) في معركة سقط فيها القنصلان قتيلين، اتحد الجيشان تحت راية (قيصر). فخاف المجلس من العاقبة وتهوّل حظه العجيب، وحاولوا بالجوائز وضروب التكريم سحب الجيش منه وتحديد سلطانه متعللين بأن الجيش لم يعد وجوده ضرورياً بعد دحر انطوني. وهذا ما كان يخشاه (قيصر) فارسل بعض اصدقائه الى (شيشرون) سراً ليرجوه ويقنعوه بالسعي للفوز بالمنصب القنصلي لهما معاً. وقال انه لن يزاحمه في السلطة العليا، وسيدعه يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، فحسبه الأسم والشهرة لا غير. وقد اعترف (قيصر) نفسه في ما بعد أنه استخدم حبّ شيشرون للسلطة بدافع الضرورة الملحّة لأنه كان يخشى أن تسرح جنوده او ان يجد نفسه معزولاً. فوعده بالمساعدة والمساندة في الانتخاب واقنعه بالترشيح للمنصب القنصلي.

وهنا استسلم شيشرون بالتأكيد؛ لكلمات شاب خادعة وهو في عمره المتقدم، وسمح لنفسه أن يسقط في الفخ. فساعد (قيصر) في الانتخابات. وكسب له رضا مجلس الشيوخ. ولاجل هذا لامه اصدقاؤه في حينه، ثم سرعان ما ادرك هو بأنه الحق الدمار بنفسه، وخان بلاده في حريتها. اذ ما ان استتب الأمر للفتى وتولى وظيفة القنصل حتى ودّع شيشرون وداعاً أخيراً وتصالح مع (انطوني) و(ليپيدوس Lepidus) ووحدوا قواهم وقسموا الحكومة فيما بينهم كأنها قطعة أرض. ثم نظموا قائمة بمائتي شخص قرروا القضاء عليهم بالموت. الاّ أن معظم الخلاف الذي ساد مناقشاتهم كان موضوع شيشرون، فانطوني يأبى كل اتفاق الاّ اذا ادرج اسم شيشرون في رأس القائمة. و(ليپيدوس) متفق مع انطوني في هذا. وقيصر يعارض الاثنين. وقيل أن قيصر ظلّ يومين كاملين وهو مصر على استنقاذ شيشرون الاّ أنه استسلم في اليوم الثالث وتخلى عنه وكانت مواد اتفاقهما هي الآتية:

يتخلى قيصر عن (شيشرون)، ويتخلى (ليپيدوس) عن أخيه (پاولوس) ويتخلى انطوني عن خاله (لوچيوس قيصر). وهكذا تخلى الثلاثة عن كل مشاعر واعتبارات انسانية مفسحين المجال لاحقادهم ومطامعهم وبذلك برهنوا ان ليس ثم حيوان اشد وحشية من فصيلة البشر عندما تتسلح عواطفه بالقوة. لقد توصل الثلاثة الى هذا الاتفاق بعد اجتماع دام ثلاثة ايام كاملة في بقعة قريبة من بلدة (بونونيا) يحيط بها النهر ولا تبعد كثيراً عن المعسكر.

كان (شيشرون) اثناء هذا كله، في مفناه الريفي قرب (تسكولوم) وكان معه اخوه وهناك سمعوا ببيان اهدار الحقوق. فقررا الرحيل الى (استورا Astura) وهي مربع لبشيشرون على ساحل البحر، ومن هناك يركبان سفينة تقلهما الى مقدونيا حيث (بروتوس) معسكر هناك بقوات كبيرة كما تواترت الانباء عنه. فانطلقا معاً، كلٌ في محفّة وقد اثقل الحزن قلبيهما. وكثيراً ما كان يقفان وتوضع المحفةّ الى جانب المحفة ويعزي احدهما الآخر ويهون عليه.

وكان (كوينتوس) اكثرهما هَمّا وترحاً. وبدء يفكر في بؤسه وقال أنه لم يتزود بشيء من المال، ولم يكن عند (شيشرون) ايضاً ما يكفي لنفقات الرحلة. فارتأى (كوينتوس) أن يواصل شيشرون هروبه وان يعجل هو بالانضمام اليه بعد أن يتزود من منزله بما هو ضروري. ذلك هو السبيل الذي اتفقا عليه، فاعتنقا وافترقا وهما يبكيان.

لم تمرّ ايام قلائل على هذا حتى وقع (كوينتوس) ضحية غدر خدمه، فقد افشوا سِرّه لمطارديه فادركوه وقتلوه مع ابنه الصغير. على ان (شيشرون) بلغ (استورا) فوجدت سفينته فصعد اليها في الحال، ومخرت به العباب بريح طيبة حتى (چيركسيوم). ومن هناك اراد الملاحون الاقلاع رأساً الاّ ان شيشرون فضل النزول منها اما خوفاً من هياج البحر او لأنه لم يفقد تماماً ثقته بقيصر وعاد متجها صوب روما وقطع حوالي مائة فرلنگ، ثم ادركه الخوف ثانية فغير رأيه وقفل راجعا الى البحر. وقضى ليله على الساحل تتناهبه المخاوف والافكار السوداء؛ فمرة يقرر التسلل سراً الى بيت (قيصر) نفسه على حجرة المذبح المنزلي، ليجلب لعنة السماء عليه. الاّ ان الخوف من التعذيب، جعله يعدل عن هذه الخطة. وهكذا بعد أن قلب في رأسه مختلف المشاريع المضطربة، والاراء المتناقضة، أمر خدمه بالذهاب به الى (كايتا Caietia)(٥) وهنا كان لديه عقار ومنزل لطيف جداً للاصطياف عندما تكون الريح الإتسية Etisian على أرقها. يوجد في هذا الموضع مزار لابوللو لا يبعد كثيرا عن ساحل البحر ومنه هبّ سرب من الغربان محلقاً في الفضاء بضجة عظيمة، واتجه الى سفينة (شيشرون) وهي في طريقها الى اليابسة. فحط على خشبة الصاري، فريق منه ينعق وفريق ينقر رؤوس الحبال، فتطير الجميع من هذا، ونزل شيشرون الى اليابسة ثانية ودخل منزله واستلقى على فراشه ليصيب بعض راحةٍ ويهدئ من خواطره واستقر عدد من الغربان على النافذه واخذت تنعق نعيقاً مقبضاً للصدر. وحطّ غراب منها على الفراش حيث شيشرون مستلق تحت الاغطية. وراح ينقرها ويسحبها حتى ازاح الغطاء عن وجهه. وعندما رأى الخدم هذا، اخذوا يلومون انفسهم لوقوفهم موقف المتفرج منتظرين قتل سيدهم لا يفعلون شيئاً

---

(٥) في نسخة: كايتيي Capitae.

للدفاع عنه. في حين هذه المخلوقات الحيوانية اقبلت لمساعدته والعناية به في بؤسه وسوء حظه. فاقبلوا عليه يتوسلون به حينا، ويرغمونه حينا، حتى حملوه بالمحفة الى ساحل البحر.

في تلك الاثناء ادركهم القتلة. ويقدمهم (هرنيوس Hernnius) قائد المائة، و(پوپيلليوس Popillius) وهو ضابط في الجيش كان شيشرون قد تولى الدفاع عنه عندما حوكم بتهمة قتله أباه. بلغوا المنزل فوجدوا ابوابه مقفلة. فكسروها ودخلوا وكان معهما مساعدون ولم يعثروا عليه، وانكر الموجودون في المنزل معرفتهم بمكانه وقيل لنا أن شاباً كان شيشرون قد لقنه العلوم العقلية والفنون يدعى (فيلولوگس Philologus)، وهو عتيق اخيه (كونتيوس)، بادر متطوعاً الى اخبار الضباط بأن المحفة تأخذ الآن سبيلها الى ساحل البحر خلال المماشي الضيقة الظليلة. فاخذ الضابط قبضةً من الرجال واسرع ينتظره في الموضوع الذي يخرج طريق من الغابة. ولمح (شيشرون) مطارده (هرنيوس) يعدو في المماشي. فأمر خدمه بانزال المحفة، وربت بيسراه على ذقنه واراحه عليها كما اعتاد ان يفعل وتطلع الى قاتليه بنظرةٍ ثابتة. وكان الغبار يعلوه، وقد ظهر الاهمال على شعر رأسه ولحيته، وبدا التعب والارهاق على وجهه. وحجب الواقفون وجوههم عندما تولى (هرنيوس) قتله بعد ان اخرج له عنقه من المحفة. وكان له من العمر اربعة وستون سنة. قطع (هرنيوس) رأسه، وبتوصية خاصّة من (انطوني) قطع ايضاً يديه اللتين دونتا الفيليپيات (اختار شيشرون هذا الاسم للخطب والمقالات التي كتبها ضدّ (انطوني) وظلت تعرف بهذا الاسم حتى يومنا هذا).

عندما جيء باعضاء شيشرون المبتورة الى روما كان (انطوني) في اجتماع معقودٍ لتنظيم انتخابٍ. فلما سمع بالنبأ وتطلع الى منظر الاطراف صاح:

- والآن فلنضع حداً «لاهدار الحقوق»

وأمر بأن يثبت الرأس واليدان من الروسترا. فوق كبش السفينة وهو موضع الخطابة في الفورم. وكان منظراً استنكره الرومان واشمأزوا منه. وبدا لهم وكأنهم يرون هناك لا وجه شيشرون بل صورة لنفس (انطوني) ومع هذا كله فقد اظهر (انطوني) لمحه واحدة من الشعور الطيب حين دفع بالواشي (فيلولوگس) الى ايدي پومپونيا Pomponia امرأة (كوينتوس). وما أصبح تحت رحمتها حتى راحت تنزل به انواعا من اهول العقوبات. منها أنها جعلته بقطع من لحمه اجزاءً اجزاء، ويشويها ويأكلها. هذا ما رواه لنا بعض الكتاب الا أن (تيرو Tiro) عتيق شيشرون لم يأت الى ذكر شيء من غدر (فيلولوگس).

بعد مرور زمن طويل، كان (قيصر) يزور أحد ابناء بنته، فوجده يمسك بكتابٍ من كتب

شيشرون، حاول اخفاءه تحت طيات ثوبه خوفاً من جده، فلحظ (قيصر) ذلك وتناول الكتاب منه واخذ يقلب اوراقه وهو واقف، ثم اعاده اليه قائلاً:

- هذا يا صغيري، رجل عالمٌ ومحبٌ لوطنه.

هذه الرواية حكيت لي والعهدة على الراوي.

وبعد ذلك بقليل قضى (قيصر) على انطوني، وكان قنصلاً. وجعل ابن (شيشرون) زميلاً له في المنصب القنصلي، وفي عهد هذه القنصلية اصدر مجلس الشيوخ قراراً بانزال تماثيل انطوني كلها، ومحا كل آثار التكريم والتعظيم التي حبي بها ومنع ان يطلق اسم (ماركوس) على ابناء الاسرة التي ينتمي اليها. وبهذه الوسيلة اوكلت العناية الآلهية إلى اسرة شيشرون، باعمال القصاص الأخيرة من (انطوني).

١٩٧٢/٢/٨

المقارنة بين ديموستينس وشيشرون

دونا ما تيسرت لنا معرفته من سيرتي (ديموستينس) و(شيشرون) بظروفهما القمينة جداً بالتأمل. وان نحن تركنا جانب المقارنة الدقيقة ما بين مقدرتهما الخطابية، فيبدو لي ان هناك الكثير الذي يجب ان يقال في مجال المقارنة العامة.

فلأجل ان يتمكن ديموستينس من ناصية الكلام استخدم كل قواه، أطبيعية كانت ام مكتسبة، وسخرها جميعاً لهذه الغاية حتى سبق بقوة عارضته واندفاعه وتأثيره، كل معاصريه سواء من جهة الموضوعات السياسية او القضائية التي طرقها، او من جهة العظمة والسمّو اللذين فاق بهما كل الخطباء المادحين والمؤبنين وفاق بالدقة والشمول العلمي كل بلغاء زمانه ومنطقييهم. وكان (شيشرون) عالي الكعب في الثقافة، بانكبابه المثابر على الدراسة. وبذلك بزّ الجميع في سائر فروع العلم وترك عدداً لا يحص من الرسائل الفلسفية بقلمه على المبادئ الاكاديمية. واننا لنراه في الواقع يحاول دائماً حتى في خطبه السياسية والقضائية ان يكشف عن طول باعه في العلوم وسعه اطلاعه. كانت خطب (ديموستينس) خالية من عنصر الفكاهة، صُيغت كلها صياغة جدية لغرض التأثير الحقيقي، لا يشم منها ريح المصباح كما يقول (پيثياس) هازلاً بل ريح الجد واصالة الرأي والاخلاص الهادىء المتزن، والصرامة وكل ما يعبرّ عن مزاجه الطبيعي. في حين كان تعلق (شيشرون) بالنكته وولعه بالسخرية، كثيراً ما ينحدر به الى الاسفاف والبذاءة وكان حبّه في اتخاذ المناظرات الجدية في القضايا القانونية مادة للهزل، وولعه بارجاء الملاحظات الظريفة لمنفعة موكليه، يجعله غير حافلٍ قط بكلّ ما يمتّ الى الكرامة والحشمة. فمثلاً قوله في معرض الدفاع عن (گيليوس Caelius) «انه لم يقدم على عمل سخيف، الى حد اغراقه وافراطه في اللذائذ والمسرات، انه لمن الجنون ان لا يستمتع بالاشياء التي يملكها، لاسيما وان معظم الفلاسفة الكبار اكدوا بان الملذات هي في رأس قائمة الاعمال الصالحة!».

وروي لنا ايضاً انه لما قَبِل (شيشرون) وكان فضلاً، مهمة الدفاع عن (مورينا) ضدّ المتهم

(كاتو) اورد مجموعة من الفكاهات (اغاظةً لكاتو) على «المتناقضات» السخيفة المعزوّة للمدرسة الرواقية، فسرت القهقهات من الجمهور الى القضاة.

فعقب كاتو قائلاً لمن حوله بابتسامة هادئة:

- ايها الاصدقاء، اي قنصل مضحك عندنا؟

الحق يقال ان شيشرون كان يمتاز بطبع مرح فكاهي جداً. وكان يبدو باسم الثغر ابلج الوجه دائماً، في حين كان ديموستينس يبدو شديد الانشغال والتفكير قلق الخاطر، وهو مظهر ظلّ يلازمه الاّ فيما ندر، ولذلك عدة اعداؤه جلفاً فظاً، كما اقر هو بذلك. ويتضح من مدوناتهما العديدة أن (ديموستنيس) لم يمدح نفسه الاّ باعتدال ومن غير نبوّ، عندما تدعو الحاجة الى ذلك، او ان كان في ذلك فائدة هامة. وهو في المناسبات الاخرى متواضع مقتصد في الثناء على نفسه. الاّ أن اختيال (شيشرون) بنفسه الذي لا يعرف حدوداً - في خطبه ورسائله - تدفعه الى الشهوة العلامة للبروز والمعالي. فتراه يهتف دائماً بوجوب نزول السلاح عن مكانته للوشاح، وتنحية اكليل غار الجندي ليحل اللسان محله. ولم يقتصر على تعظيم اعماله ومنجزاته، بل هداها الى خطبه تلك التي القاها، وتلك التي كتبها ونشرها. فيخيل اليك انه دخل مباراة خطابية للصبيان حول من هو أفضل لساناً. مع الخطيبين (ايسوقراطس، وانكسيمنيس) لا بالذي اضطلع بمهمة قيادة البلاد الرومانية ورعاية مصالحها،

«ان الجندي الكامل السلاح والعدّة يرعب الخصم»

من الضروري حقاً للزعيم السياسي ان يكون خطيبا متمكناً. لكن من الخسة ان يستمتع المرء ويتمطق بتمجيد قوة بيانه. ومن هذه الناحية كان (ديموستينس) سامي الفكر وقوراً بصورة غير اعتيادية. كذلك كان يعد مقدرته الكلامية، مسأله تمرين يعتمد النجاح فيه كثيراً على سلامة قلب المستمعين وطيبتهم. وهو يعدّ المختالين بانفسهم اناساً تافهين منحطي الخلق.

كان كلاهما يملك المقدرة على استمالة جماهير الشعب بنفس المستوى. فكانت الجيوش والمعسكرات اطوع اليهما من البنات وكان قادتها في حاجة دائمة اليهما. مثل (خاريس Charis) و(ديوبيثس Diopithes) و(ليوستينس) بالنسبة الى (ديموستينس). و(پومپي) و(قيصر) الاصغر، بالنسبة الى شيشرون وهذا الاخير يقربه في مذكراته الموجهة الى (اغريبّا Agrippa) وميكيناس Maecenas على أن ما قيل، وظنّ بوجوب اثبات مزاج الرجال وطباعهم في تجربتها بامكنه السلطة والحكم، حيث تتحرك كلّ عاطفة فيهم وينكشف كل نقاط الضعف، فهذا مما لم يتح لديموستينس، ولم يكن في وضع يمكنه قط من تقديم مثل هذا

البرهان عن نفسه اذ لم يقبل منصباً خطيراً ولم يضطلع بمسؤولية سياسية ذات تبعات ولم يتقدم جيشا لقتال (فيليب) من بين تلك الجيوش التي عبأتها قوة عارضة وذربة لسانه. اما (شيشرون) فقد ارسل الى صقلية بمنصب (كويستور) وارسل الى كيليكيار وكبدوكيا بمنصب (پروقنصل) في زمن كان حبّ المال قد ملك على الناس مذاهبهم، والقادة والحكام الذين يعينون خارج البلاد، ينهبون ويسلبون بالقوة الغاشمة مع انهم يعتبرون السرقة جريمة. وبلغ الأمر حداً ان قبول الرشوة ما عاد يعتبر معرةً ومن يقدم عليها باعتدال وشيء من التعفف يخطى بالتقدير والاعجاب. الاّ ان (شيشرون) قدم اعظم البراهين على احتقاره الغنى، وعلى انه انسان طيب القلب عفّ الضمير في ذلك العصر. وفي روما عندما عند انتخب قنصلاً، ولكنه اعطي فعلاً صلاحيه الدكتاتور المطلق للقضاء على (كاتيلينه) ورفاقه المؤتمرين، حقق مقولة افلاطون المأثورة:

«ان محن الدول ونوائبها تأتي الى نهايتها عندما يشاء الحظّ ان تجتمع السلطة العليا والعدل والحكمة في واحدٍ».

وقيل في لوم (ديموستينس) أن بلاغته استخدمت للارتزاق، وانه كتب سراً خطباً (لفورميون Phormion) و(اپللودورس) وهما خصمان في قضية واحدة. واتهم بقبول المال من ملك الفرس. وانه ادين لأخذه رشوةً من (هرپالوس). فلو سلمنا جدلاً بكذب كل من روى عنه هذه الحكايات وهم ليسوا بقلةٍ فإن ديموستينس مع هذا، لم يكن متعففاً عن قبول الهدايا التي تقدم اليه عرفاناً بجميله او تكريماً له من اشخاص ذوي مقامٍ ملكيّ. ومن كان من مقرضي المال بالربا البحري الفاحش، لا يقدم هذا الأمر من حقيقه الحكم عليه ولا يؤخر. على اننا نعلم بان شيشرون رفض عدة هدايا من الصقليين ايام كان كويستوراً. وابى قبولها من ملك كبدوكيا عندما كان پروقنصل. ونرفع عنها من اصدقائه في روما عندما كان منفياً رغم الالحاح الشديد وقد اتينا الى ذكر هذا في سيرته.

زد على ذلك أن نفي (ديموستينس) كان معرةً، بسبب ادانته بجريمة الرشوة. اما نفي شيشرون فقد كان مشرفاً له لأنه انقذ بلاده من شرذمة اوغادٍ. فعندما هرب ديموستينس من بلاده لم يهتم احد بالأمر. اما نفي (شيشرون) فقد حمل اعضاء مجلس الشيوخ على لبس الحداد ورفضوا اصدار اي قانون قبل صدور قانون بالغاء الحكم على شيشرون. ومهما يكن فقد قضى فترة نفيه في مقدونيا متعطلاً خاملاً. الاّ ان نفي ديموستينس كان بحدّ ذاته جزءً كبيراً من الخدمات التي قدمها لوطنه فقد راح يجوب مدن الاغريق طولاً وعرضاً وانضم الى الاغريق وراح يطرد سفراء مقدونيا مبرهنا على أنه مواطن افضل بكثير من (ثيموستوكلس

والكيبباديس) عندما كانا يمران في مثل ظرفه هذا. وصمد الى الأخير في مقارعته (انتيباطر) والمقدونيين. في حين نجد (ليليوس Laelius) يؤنب (شيشرون) في مجلس الشيوخ لجلوسه صامتاً عندما تقدم الشاب الأمرد (قيصر) طالبا الأذن للتقدم الى المنصب القنصلي خلافاً لاحكام القانون. واتهمه (برتوس) في رسائله بأنه ادار ورعى أعظم واشد طغيان من ذلك الذي ازالوه

واخيراً فان مقتل (شيشرون) يثير في انفسنا الشفقة والرثاء. شيخ هرم يحمله خدامه وهو بحاله يرثى لها فيسيروا به جيئة وذهابا يهرب ويختبئ من موت هو في الواقع قريبٌ منه إن تقيدنا بعامل السِنّ وحكم الطبيعة. مع هذا كله يقتل.

ومع ان ديموستينس بدا في اول الأمر ذليلاً متوسلاً الا ان استعداده للموت واحتفاظه بالسمّ يستدعي منا الاعجاب. بل يزيد اعجابنا به استخدامه له عندما عجز هيكل الرب الذي لاذبه عن حمايته فلجأ الى مذبحٍ اعظم ان جاز لنا القول، وحررّ نفسه من الجنود والسلاح هازئا بقسوة (انتيباطر).

ديميتريوس

DEMETRIUS

(Poliocretes)

337 – 283

وجد العباقرة منذ زمن بعيد أن ثم تجاوباً بين المبادي، وبين حواس الجسم واوّل منبه لهم الى ذلك حسب اعتقادي، هو ملاحظتهم شكل اختبارنا للاضداد في مبادئنا وفي حواسنا. ما ان يتمّ التوصل الى حكم معين عليها، حتى يتقرر استخدامها بناء على قيدين: اولاً ان حواسنا لا تقرر انتقاء الأسود بدلاً من الابيض، او تفضيل الحلو على الحامض، او اللين والمطاوع على القاسي والمقاوم من الاشياء. كلّ ما على الحواس من وظيفة هي ان تتسلّم الانطباعات كما يحصل عادة وتنبئ العقل عن الانطباعات كما تسلمتها. وثانياً ان المبادي، التي يبدعها العقل لانتخاب المناسب والحصول عليه، ورفض غير المناسب والتخلص منه، يكمن تأثيرها الحقيقي في اعتبار الأول من الاشياء، على ان تهتم ايضاً بالثاني منه بشكل عرضي طاري،، لا لشيء الاّ لمجرد رفضها له. فلأجل أن يحفظ الطب الصحة، يجب ان يشخص المرض. ولاجل أن يتولد التوافق في اللحن الموسيقي يجب التحقق من وجود النشاز

ولما كانت السجايا العليا الثلاثة: الاعتدال، الحكمة، العدل، اعمال اختيار وفروض. فانها لا تمارس فحسب على ما هو عادل صالح، بل على ما هو شرير وغير عادل، وضالّ. وهي لا تطري البراءة الصرفة (والسذاجة والجهل بما تجب معرفته هو الاسم الاقرب لها) لمجرد انها لا تجد ما تفخر به غير عدم تجربتها للشرّ. فقد اعتاد السپارطيون الأقدمون في اعيادهم ان يرغموا (الهيلوت) على شرب مقدار كبير من الخمر القراح، ثم يعرضونهم على موائد شبانهم العامة، ليتفهموا معنى السكر وعواقبه. مع اني لا ارى ذلك يتفق مع المبادي، الانسانية والعدالة: ان تصلح اخلاق امرءٍ بافساد اخلاق الآخر، فإن لنا ان نتعظ ونفيد من اولئك الذين اطلقوا العنان لطيشهم وتهورهم فجعلوا من انفسهم وهم في اعلى مقامٍ مثلاً صارخاً من امثلة سوء التطرف. ولن اكون راكباً متن الشطط ان قدمت زوجاً او زوجين من الامثلة فلعلها تروح عن انفس قرائي، او لعلهم سيجدون فيها لحنا يختلف عن لحن المقام الاصلي الذي أنشده. اني لست متاكداً من هذا على كل حال، ولكني اضع امامي (إسمينياس Ismenias) الثيبي الذي اعتاد ان يشير الى تلاميذه العازفين بالمزمار، المجيدين منهم والمسيئين بقوله.

- ستعزفون مثل هذا.

او

- ستعزفون مثل ذاك.

او كما اعتاد (انتيغينيداس Antigenidas) قوله:

«يكون الشبان اكثر التذاذاً بسماع جيد العزف إن أسمعوا قبله عزفاً رديئاً».

وذلك يبدو لي باننا سنكون على اكثر الاحتمال اشدّ اقبالاً وحماسة للقراءة والملاحظة والاقتداء بخير السير، ان احطنا علما بالرديء منها، والأجدر بالنقد.

ولذلك فالكتاب التالي يتضمن سيرتي (ديمتريوس پوليورغيستس Demetrius Polior-cestes). وانطونيوس القنصل الثالث. وهما شخصان لا يصدق في غيرهما عبارة كتلك التي قالها افلاطون: «الطباع العظيمة تولد اعظم القبائح كما تولد اعظم الفضائل». فكلاهما كان شبقاً للنساء، مسرفاً في تعاطي الخمر، مولعاً بالحرب، جواداً سخياً، متلافاً مترفاً، مستبداً عنيداً. وقد طابقت خطوطهما اخلاقهما، فحياتاهما كانت سلسلة متصلة من الانتصارات العظيمة والانكسارات الكبيرة. من الارباح الفخمة الى الخسارات الموجعة الى السقوط الفجائي الى النهوض غير المنتظر، ليس هذا وحده فقد تشابه موتهما. مات (ديمتريوس) وهو قيد الأسر الفعلي لدى اعدائه، ومات (انطوني) وهو على وشك الوقوع اسيراً في يد اعدائه. ولد (لانتيغونس) من زوجه (ستراتونيكي Stratonice) ابنة (كورّيثوس Corrhoeus) صبيان. اطلق على الأول منهما اسم عمّه (ديمتريوس) واعطى الثاني اسم جدّه (فيليب). ومات (فيليب) وهو صغير. هذا أبسط التفصيل واقصره. لكن بعضهم روى ان (ديمتريوس) لم يكن ابنا لانتيغونس، بل لأخيه، وان اباه توفي وهو صغير، فتزوج (انتغيونس) بارملة فعد ابن اخيه ولداً له.

لم يكن (ديمتريوس) بطول ابيه العملاق، وان كان يعدُّ من الطوال. الاّ أن وجهه كان يتمتع بوسامة فريدة في بابها، ويمتاز بتعابير وملامح اعجزت كل المصورين والنحاتين عن محاكاتها او الوصول الى شبه مقبول بها، كانت ملامحه تجمع بين القوة واللين، والرزانة، والبشر الطفولي. وكان ثم نظرة معينة تنم عن البطولة وملامح العظمة الملكية يشق نقلها تماماً. ولم تكن اخلاقه تكذب، فليس ثم من كان يدانيه في مقدرته على اشاعة حبة والرهبة منه. وكان الطف الندماء وارقهم حاشيةً واكثر الامراء ظرفاً وبذخاً في مجالس الخمر والمآدب اليومية. ولم يكن يدانيه احد في القتال جلداً وصبراً وحمية واقداماً. وكان يبدو ان (باخوس) قدوته. فهذا الرب الذي حذق فن الحرب، اتقن صناعة السلام في مسراته وافراحه بعد الحرب.

كان شديد الحب والتعلق بابيه (انتيغونس) ويدل على حنانه ورفقه بامّه الاهتمام المضاعف الذي كان يخصها به مما يوضح بأن ذلك لم يكن بدافع الواجب او الخوف بل الى الميل المجرد وهو اقوى من دافع الواجب بكثير. روي انه عاد من الصيد مرة فدخل على جناح والده رأساً وكان يتحدث الى بعض السفراء. فارتقى الدرج اليه وقبله، وجلس الى جانب ممسكا بحرابه كما جاء. وصرف (انتيغونس) السفراء بعد ان قضى حاجتهم وفيماهم خارجون ناداهم بصوت عال قائلاً:

- واذكروا ايضاً بأنها هذه هي طريقة حياتنا نحن الاثنين معاً.

كأنما يريد أن يلمح لهم بأن علاقته مع ابنه ليست بالدليل البسيط على قوة حكمه واستقراره. وان وجود هذا الانسجام والتفاهم بينهما مما يعزز هذا السلطان. انّ السلطة شيء مُوحش انطوائي فيها قدر عظيم من الحسد والريبة والتوجس. ولقد جعل اول واعظم خلفٍ للاسكندر من عدم خوفه من ابنه سجيّة تستحق الاعجاب والاكبار. ولم يحكم بيت من بين كل خلفاء الاسكندر كبيت انتيغونس الذي خلص وحده من مثل هذه الجرائم اجيالاً عديدة. ولنأت بالتفاصيل. كان (فيليب) الوحيد من هذه الاسرة الذي قتل ولده. في حين قدمت كل الأسر الأخرى امثالاً كثيرة عن اباء يفتكون بابنائهم، وازواج يقضون على نسائهم، واولاد يقتلون امهاتهم، امافتك الاخوة بالاخوة فهو من قبيل المسلّمات الحسابية شائع مقبول، لكونه اول ضمانٍ لسلامة الملك.

ولنذكر هنا مثلاً مقتبسا من مطلع حياة (ديمتريوس) يوضح عطفه الانساني، وهو حادث وقع له مع مثيريدات ابن آريوبارزانس وهو في مثل سنه يشاطره العيش منظما الى حاشية الملك. لم تشب سلوك الفتى شائبة، ولم يصدر منه ما يستوجب التوجس، الا انه مع هذا وقع تحت شك (انتيغونس) بسبب حلم رآه: خيل له انه في حقل واسع مونق، زرع فيه بذوراً ذهبية اخرجت شطئها حالاً. وما هي لحظة إلاّ اختفى القمح ولم ير غير الجذامة وفيما هو واقف وقد علاه الغضب والحنق سمع اصواتاً تقول: (ميثريدات حصد القمح الذهبي وحمله الى البونطس). فقلق الملك لهذا الحكم، وربط ابنه بقسم على عدم افشاء السر، ثم قص عليه ما رآى واضاف يقول انه اعتزم الاستعجال في التخلص من (ميثريدات) والقضاء عليه. فكان حزن (ديمتريوس) عظيماً. ولما جاء الفتى كعادته لتمضية بعض الوقت معه. قرر تحذيره ولئلا يحنث بقسمه لم يتفوه بكلمة، الاّ انه سحبه شيئاً فشيئا عن الجماعة حتى انفرد به فامسك برمحه وخط بسنانه أمامه كلمتي، ميثريدات! اهرب! » ولم يفتح فمه. فادرك الفتى الاشارة وهرب الى كبدوكيا ليلاً، وسرعان ما تحقق حلم انتيغونس عنه فقد استولى ميثريدات على

اراضٍ واسعة خصبة وخرج منه خطّ ملوك (البونطس) الذي خضع جيله الثامن للرومان. يصلح هنا مثلا لطيبة قلب (ديمتريوس) وحبه العدل. وهما جزء من طبعه.

ويخبرنا (امبدوكلس Empedocles) انما تخرج المنازعات والحروب من عاطفتي الحب والبغض كما هي سنة الكون في عناصر الطبيعة. ولاسيما ان كان التماس أقرب، والنزاع الطويل الأمد بين خلفاء الاسكندر انما تأججت ناره وتفاقم أمره في مناسبات خاصة بتعارض المصالح ومجاورة الحدود، كما هي الحال في نزاع (انتيغونس) و(بطليموس). فقد وردت انباء لانتيغونس تشير بان (بطليموس) عبر البحر من قبرص وغزا سورية وانه يجتاحها ويعيث فيها سلبا ويخضع مدنها لطاعته. فأرسل (ديمتريوس) وكان له من العمر اذ ذاك اثنان وعشرون عاماً ليكون ذلك اول اختبار له كقائدٍ مطلق الصلاحية في معركة كبيرة. اما هو فمكث في (فريجيا)، ولم يجد اندفاع الشباب امام التجربة والمران. فقد زحف على خصم تلقى تدريبه في مدرسة الاسكندر وعجم عوده مختلف الوقائع والمعارك. واصيب (ديمتريوس) بهزيمة نكراء بالقرب من (غزة) واسر من جيشه ثمانية الآف وخسر خمسة الآف قتيل. ووقعت خيمته وامواله ايضاً وكل مقتناه الخاص واثاثه غنيمة في ايدي العدو. على ان (بطليموس) اعاد هذه المنهوبات مع الاسرى من اصدقائه وحملهم رسالة مهذبة رقيقة قال فيها انهم لا يحاربون الاّ وراء المجد والشرف. وقبل (ديمتريوس) الهدية وانشأ يضرع للالهة بالا تبقيه مدينا (لبطليموس) وان تمنحه الفرصة السريعة ليرد له الجميل واحتمل نكبته بصبر وجلد كقائد عتيق كثير التجارب خبير بتقلبات الحظّ لاكصبي غلب على امره في محاولة له. وانهمك في جمع فلول جيشه وملأ مستودعاته بالذخيرة. واهتم بولاء المدن له، وعكف على تدريب جنوده المستجدين.

وبلغت (انتيغونس) انباء المعركة، فقال ان بطليموس انما هزم صِبيْة وعليه الآن مواجهة الرجال. الاّ انه لم يشأ كسر معنويات ابنه ولم يخب رجاءه فترك له القيادة في النزال التالي.

ولم يمض على هذا طويل زمن بعد ان تسلم (كيلليس Cilles) نائب بطليموس قيادة جيش جرار، وكان ينظر الى (ديمتريوس) بوصفه خصماً مغلوباً في معركة سابقه ولهذا صور خياله أنه سيفر من سورية هارباً قبل ان تتاح له رؤيته. لكنه سرعان ما وجد نفَسه مخطئا فقد انحدر اليه (ديمتريوس) من حيث لا يتوقعه وباغته وباغت جيشه فأسره مع سبعة الآف من جنوده، وغنم اكداساً عظيمة من الاسلاب والاموال. ولم يكن فرحه بالنصر، بسبب الغنائم التي سيحتفظ بها قدر ما كان فرحه بسبب الغنائم التي سيعيدها. وكان شكرهُ للمجد والثروة التي حازها، اقلّ لها بالذات، من الفرصة التي اتاحتها له ليفي بها كرم عدوه. الاّ انه لم يستأثر

بقراره وانما كتب الى ابيه. فاذن له بأن يعمل ما يشاء. فبادر باعادة (كيلليس) الى بطليموس مع اعوانه محملين بالهدايا. كان من نتائج هذه الهزيمة ان جلا (بطليموس) عن سورية وجاءت بانتيغونس من (كلاينوي Celaenoe) لجني ثمار النصر ولرؤية الأبن الذي كسبها.

بعد هذا مباشرة، ارسل ديمتريوس لاخضاع العرب النبطيين. وهناك دخل منطقة قاحلة لا ماء فيها فاحدق به خطر عظيم. إلاّ انه اذهل البرابرة بعزمه وثباته، وعاد بعد أن غنم منهم الكثير، ومن بين اسلابه سبعمائة جمل.

كان (انتيغونس) قبل زمن قد طرد (سلوقوس) من بابل إلاّ انه هذا استعاد ملكه بمجهوده وثبت قواعد حكمه. وخرج بعدها بقوات جرارة لاخضاع القبائل المتاخمة للهند والاقاليم المجاورة لبلاد القفقاس، فخيل (لديمتريوس) أنه ترك بلاده ما بين النهرين وليس فيها الحماية الكافية. فاسرع يعبر الفرات بجيشه متجها نحو بابل دون ان يتوقعه احدٌ وافلح في احتلال احدى قلعتيها وطرد منها حامية (سلوقوس) ووضع فيها سبعة الآف من جنوده. وبعد أن سمح لجنود بالافادة من غنى البلاد، وحملهم ما وسعهم حمله من الغنائم، انسحب نحو البحر تاركا (سلوقوس) الذي بات الآن أمنع جانباً، واكثر امنا في ملكه مما كان بالأول اذ بدا (ديمتريوس) بانسحابه وكأنه يتنازل عن كل ادعاء له في بلادٍ عاملها معاملة عدوّ. على أن سرعة حركته الانسحابية انقذت (هليقارناسوس) من يد (بطليموس) الذي كان يحاصرها. ان المجد الذي ناله الأب والأبن من هذا العمل اولد فيهما رغبة عجيبة لتحرير بلاد الاغريق التي اوصلها (كساندر) و(بطليموس) الى العبودية. هذه الحرب لم تضاهها اية حرب اخرى اوقدها اي ملك من الملوك بنبل مقصدها وعدالة غاياتها. فالثروات التي غنماها من البرابرة من اخضاع البرابرة بمساندة الاغريق، انفقاها على بلادهم التي تمّ تحريرها. ابتغاء للشهرة والسمعة الحميدة ليس الاّ. وفي اثناء القرار لبدء المحاولة اشار احد اصدقاء (انتيغونس) بأنه في حالة استيلائهم على اثينا فيجب الاحتفاظ بها فهي مفتاح بلاد الاغريق، فمن هذا الممر يمكنهم النزول من السفن ودخول البلاد وقتما شاؤا. إلاّ أن (انتيغونس) لم يأخذ بهذه النصيحة. اذ لم يكن ليريد ممراً اضمن واقوى من حسن نية الأهالي فمن اثينا منارة العالم ستنتشر انباء معاملتهم هذه بسرعة، فلا يعود يجهلها أحد. وعلى هذا الأساس ابحر (ديمتريوس) الى اثينا باسطول يتألف من مائتين وخمسين سفينة ومبلغ من المال قدره خمسة آلاف تالنت. وكان (ديمتريوس) الفاليري يحكم المدينة باسم (كسّاندر) على رأس حامية معسكرة في ميناء (مونيخيا) وببراعة منه واكبها حسن الحظ، ظهرت طلائعه امام (پيريوس) في السادس والعشرين من شهر (ثارجيليون Thargelion) قبل ان يسمع احدٌ عنه شيء. في

الواقع توهم الناس لأول وهلة انها سفن بطليموس وبدأت الاستعدادات لاستقبالها. ولما اكتشف القادة خطأهم بالاخير. اسرعوا الى الداخل وعمت الفوضى واختلط الحابل بالنابل، وشرعوا يحاولون التأهب لمواجهة القوات الغازية. وجد (ديمتريوس) مداخل الميناء من دون دفاع منفذ الى الداخل فوراً. ولما اكتشفت هويته كان قد تمركز في الميناء آمناً امام اعين الجميع. واصدرت سفينة اشارات توضح عن رغبته في مقابلة سلام فسمح له بذلك، فأمر منادياً ذا صوت جهوري بأن يعلن ان مجيئه الى هنا كان بأمرٍ من ابيه. ولا غرض له الأ دعوته الى الالهة بتحقيق امنيته وهي اعادة الحرية للأثنيين وطرد الحامية المقدونية. وممارسة شرائعهم ودستور بلادهم القديم.

وما سمع الناس هذا حتى القوا بتروسهم ارضاً واخذوا يصفقون وطلبوا منه بهتافات داوية ان ينزل الى البرّ. ونادوه بالمنقذ وبحامي الحمى. واسقط في يد الفاليري واتباعه ولم يسعهم الأ استقبال الغازي اصادقاً كان في وعده أم كاذباً. وارسلوا وفداً يرجون منه بسط حمايته عليهم. فاحسن (ديمتريوس) استقبالهم واعادهم برفقة (اريستيديموس المليطي Aristode-mus) احد اصحاب ابيه. وبات الفاليري يخشى ابناء وطنه اكثر من خشيته العدوّ بعد ان تغيرت يد الحاكم. الأ ان (ديمتريوس) منحه الحماية. واحتراما لفضائله وسمعته بعث به الى ثيبه مزوداً بكتاب أمان على ان يكون له الخيار في الذهاب منها الى حيث يشاء. وصرح بأن قدمه لن تطأ ارض مدينة اثينا رغم شوقه ولهفته، حتى يتم طرد الحامية المقدونية منها ويتم تحريرها، ثم قطع كل صلة بقلعة (مونيخيا) بخندق وتحكيمات. وابحر لمهاجمة (ميغارا) حيث يوجد ثم حامية (لكسّاندر) ايضاً. ولما علم بأن (كراتيسيپوبس Cratesipobis) زوج اسكندر ابن پولسپريخون التي اشتهرت بجمالها شديدة الشوق لرؤيته، تخلف عن جنوده قرب (ميغارا) وانطلق بشرذمة من الاتباع ذوي السلاح الخفيف الى (پطرا Patrae) محل سكناها. وترك اتباعه هؤلاء وضرب خيمته منفرداً بعيداً عن اعين الرقباء لتقوم المرأة بزيارته من غير ان تقع عليها عين. وعلم بعض الاعداء بمكانه فهاجموه فاضطر الى التنكر بمعطف رث والنجاة بجلده، ولم يكن بينه وبين عار الاسر الأ خطوة؛ كلها بسبب عاطفته الهوجاء، وبطبيعة الحال سلبت منه خيمته وامواله.

واستسلمت (ميغارا) وكان الجنود يقومون بنهبها لولا تدخل الآثينيين الآني. وتم طرد الحامية واستعادت المدينة حريتها. ولم يمنعه انشغاله تذكر (ستيپلو Stiplo) الفيلسوف الذي اشتهر بايثاره حياة العزلة وكان يعيش في هذه المدينة. فبعث بطلبه وسأله هل اغتصب منه احدٌ شيئاً؟ فاجاب:

- كلاً، لم الق اي انسان يستلب المعرفة.

خلت المدينة من الخدم تقريباً فقد تسلل معظمهم من المدينة وفرّ ولما جدد (ديمتريوس) ترحيبه بـ(ستيپلو) واستاذن هذا، قال

- اني يا (ستيپلو) اترك مدينتكم هذه وهي مدينة للاحرار.

فاجاب (ستيپلو):

- بالتاكيد. اذ لم يعد بين ظهرانيا خادم واحدٌ.

وعاد من (ميغارا) ليشد الحصار على (مونيخيا). ولم تمر ايامٌ حتى فتحها بهجوم صاعق. وأمر بهدم اسوارها وتحصيناتها. وبهذا حقق امنيته. ودخل الاحياء العليا من اثينا بناء على دعوة الاهالي الملحة وهناك استقدم المواطنين جميعاً واعلن لهم العودة الى تطبيق دستورهم القديم وبشرهم بأنهم سيتسلّمون من ابيه مائه وخمسين ألف مكيال من القمح ومقداراً من الاخشاب يكفي لبناء مائه سفينة، وهي هدية منه اليهم. وهكذا اعاد (انتيغونس) الى الآثينين نظام حكمهم الديمقراطي بعد خمس عشرة سنة اي منذ حرب (لاميا) ومعركة (كرانون). خلال هذه الفترة كانت السلطة اسميا تمارس اوليغارشياً، اما فعلياً فكان يهيمن عليها رجل واحدٌ هو (ديمتريوس) الفاليري الذي عرف بجبروته.

الاّ ان التكريم الذي اغرق الاثينيون (ديمتريوس) به أثار استياء واشمئزازاً. كانوا اول من خلع على (انتيغونس) و(ديمتريوس) لقب الملك. وقد بقيا الى ذلك الحين يجعلان من رفضهما التاج دليلاً على زهدهما وتواضعهما فهو الشرف الوحيد الذي ظل موقوفا على نسل فيليب والاسكندر لايشاركهما فيه احدٌ. وخلع الاثينيون عليهما لقبين آخرين، هما «المخلّصان» و«الربّان الحارسان» وتثبيتاً لهذا التزلف صوتوا على قرارٍ يقضي بتغيير تقويم المدينة. وابطل حساب السنين، اعتباراً من الأرخون الحولي واعطي هذا الشرف لكاهن «الربين الحارسين» الذي يتم اختياره سنوياً. فتحمل كل المعاملات الرسمية والوثائق والمستندات تاريخه وتذيل باسمه. وقرروا ايضاً نسج صورتي الأب والابن مع زمرة الآلهة في نقوش الرداء الأعظم. وقد سوا البقعة التي كانت اول ما وطيء ديمتريوس عند نزوله من عجلته. وبنوا هيكلاً فوقها باسم «هيكل نسل ديمتريوس». واستحدثوا قبيلتين جديدتين اسموهما «انتيغونيد» و«ديمترياد» تيمناً باسميهما واختاروا لمجلس الشورى الذي يضمّ خمسمائة عضو خمسين عضوا لكلّ من القبيلتين الجديدتين فاصبح اعضاؤه ستمائة. الا ان اكثر الاقتراحات نزقاً هو ذلك الذي تقدم به (ستراتوكليس Stratocles) امام المخترعين لهذه الاساليب العجيبة المنتقاة من التكريم. فقد

اقترح ان يمنح اعضاء اي وفد ترسله المدينة الى احدهما - عين اللقب الذي يخلع على الوفود المرسلة الى (دلفي) او (اولمپيا) لتقديم القرابين الرسمية نيابة عن الحكومات بمناسبة الاعياد الاغريقية الكبرى.

(ستراتوكليس) هذا، كان شخصاً خليع العذار، متهتكاً لاخير فيه من اية ناحية نظرت اليه. وكان يبدو وقد جعل همّه أن تستجلب له رقاعته وصفاقته محبة الجمهور المأثورة لـ(كليون Cleon). قدمت له محظيته (فيلاكيون) يوماً صحفة فيها مخّ ولحم رقبة لعشائه فقال:

- آه اذن فأنا ساتعشى من الاشياء التي نلعب بها نحن الساسة كما نلعب بالكرة!

ومرة أخرى عندما مُني الاثينيون بهزيمتهم البحرية قرب (أمورغوس Amorgos) اسرع الى منزله قبل وصول النبأ الى المدينة، وضفر على رأسه اكليلا، واقبل راكباً الى الجيراميكوس Ceramicus معلنا بأنهم نالوا نصراً، واقترح ان يصوتوا على قرار باقامة عيد شكر للآلهة وتوزيع اللحم على الاهلين حسب القبائل. وعقب هذا مباشرة وصلت فلول المعركة مع حطامها. فاستنكر الناس علمه هذا فما كان منه الاّ ان خرج اليهم بصفاقة وجهه العجيبة متسائلاً:

- اي ضرر يتأتى من استمتاعكم بيومي فرح وبهجة؟

هكذا كان (ستراتوكليس) ومما زاد في الطين بلة كما يقول(ارسطوفانس) انه وجد من فاق (ستراتوكليس) تفاهة باقتراحه اصدار مرسوم كالآتي:

«كلما شرف (ديمتريوس) المدينة بزيارة، فعليهم أن يقيموا له من الافراح والمهرجانات ما اعتادوا اقامته لكل من الربين (سيرس Ceres) وباخوس. ومن فاق غيره من البذخ والانفاق على استقباله يدفع له من بيت المال مبلغ ليعمل به تقدمات مقدسة».

ثم غيروا اسم الشهر المعروف بـ(مونيخيون) وجعلوه (ديمتريون) كما اسموا اليوم المنفرد الواقع بين نهاية الشهر القديم وبداية الشهر الجديد بنفس الاسم. وغيروا عيد باخوس المسمى (ديونيسيا) الى (ديمتريا) اي عيد ديمتريوس. كل هذا التغيير كان موضع استياء الارباب، فالرداء المقدس الذي نسجت فيه صورتا انتيغونس وديمتريوس الى جنب صورتي (جوپتر ومينرفا) تعرض لريح شديدة اثناء ما كان محمولاً في الموكب المار خلال الجيراميكوس، فانشق من الاعلى الى الاسفل ونبت الشوكران وهو نبات نادر، في كل مكان حتى في خلوات الريف بكميات كبيرة جداً، ونما واستطال حول الهياكل التي شيدت للربين الجديدين. والغوا

المواكب الدينية في يوم عيد باخوس، لنزول صقيع عنيف قاسٍ غير متوقع، قتل الكروم واشجار التين ودمرّ غلة القمح وهو في سنابله. فما كان من (فيليبيدس Philippides) خصم (ستراتوكليس) إلاّ وهجاه في كوميدياه بالابيات التالية:

لمن أرسل الصقيع الذي قتل كرومكم؟

ولآثام من إنشق الرداء المقدس؟

من منح البشر التكريم الذي لا يمنح لغير الارباب؟

انه الآن عدو الشعب، وليس المرسح المسكين!

كان (فيليبيدس) اخلص اصدقاء (ليسيماخوس) الملك الذي شمل الآثينيين بمختلف الوان العطف اكراما لصديقه هذا. لقد بلغت محبّة ليسيماخوس به حداً انه كان يرى من قبيل الفأل الحسن لقاء (فيليبيدس) قبل قيامه بحملة عسكرية او مباشرته مشروعاً. على العموم كان الرجل محترماً لاخلاقه ولبساطة فيه وعدم فضول ولبعده عن شمائل البلاط الملكي من اعتداد بالنفس والتوسط لقضاء الحاجات. ومرة عندما اخذ (ليسيماخوس) يلح عليه بتسمية هدية يقدمها له اظهاراً لمحبته، اجاب:

- اي شيء تريد، خلا اسرار دولتك.

ان هذا الممثل المسرحي يستاهل على ما اعتقد موضعاً من حديثنا قدر ما يستأهله الخطيب الجماهيري.

الأ ان الحماقة التي فاقت كل حماقات التملق والزلفى السابقة هو اقتراح تقدم به (دروموكليدس Dromoclides) (السفيتي Sphettus) الذي اوصى الجمعية اثناء مناقشتها حول الطلب من عرافة (دلفي) أن ترشدهم الى اقوم السبل لتكريس بعض الدروع، بأن يطلبوا النبؤة بالاحرى من (ديمتريوس)! وها اني اثبت صيغة الاقتراح حرفيا كما ورد في النص المقرر:

«ليكن خيراً وسعداً. ان اهل آثينا، رسموا بأن يختار شخص لائق من بين المواطنين الآثينين. يكون مندوباً عنهم ويرسل الى (المخلصّ) وبعد ان يقدم القربان كما يجب، ليستفسر من (المخلص) باي شكل ديني صحيح قويم، يسره أن يرتائ في قرب وقت ممكن، تكريس الدروع؟ وسيعمل اهل اثينا بحسب الجواب»

بهذه الرقاعة، اكملوا افساد عقلٍ، لم يكن قبلاً من السلامة والمناعة كما ينبغي ان يكونه.

وتزوج (ديمتريوس) في فترة الهدؤ والتعطل بـ(يوريدكي Eurydice) وهي من نسل (ميلتيادس) الغابر. وكانت قبله زوج (اوفيلتاس Opheltas) حاكم (كيرين Cyrene) ولما توفي عنها عادت الى اثينا. وقد عَدّ الآثينيون هذا الزواج تقديراً لهم وتشريفاً للمدينة. الاّ ان (ديمتريوس) لم يكن يتقيد في مثل هذه الأمور بايّ مبدء، فقد جمع عدة زوجات في وقت واحد الاّ ان (فيلا Phila) بنت انتيباطر وزوج (كرايتروس) الرجل الوحيد بين كل خلفاء الاسكندر الذي ترك في قلوب المقدونيين اعمق مشاعر الحبّ، ظلّت تحتفظ بالمقام الأول بين زوجاته. ولقد ارغمه ابوه على البناء بها بصرف النظر عن فارق العمر للاسباب التي ذكرناها. فقد كان ديمتريوس صبياً يافعاً وهي اكبر منه بكثير، ولذلك ابدى بعض التمنع، فاسرّ انتيفونس في اذنه مقطعاً من قصيدة ليوريبدس، مستبدلا كلمة (يفيد) بكلمة (يتزوج):

طبيعي كان أم غير طبيعي، على المرء ان (يتزوج) طالما كان في ذلك نفع.

ومع هذا فان الاحترام الذي يكنّه لـ(فيلا) او غيرها مهما بلغ، لم يكن يمنعه من معاشرة المحظيات وبنات الهوى، لينال في هذا المجال اسوء سمعة نالها امير معاصر.

ارسل ابوه، يامره بالتوجه لقتال (بطليموس) في قبرص ولم يكن له بد من الامتثال لأمره فترك بلاد اليونان آسفاً. الاّ انه أتى وهو في طريقه بعمل اكثر نبلاً ومجداً فقد بعث الى (كليونيدس Cleonides) قائد (بطليموس) المشرف على حاميتي (سيكيون) و(كورنث) يعرض عليه مالاً، لقاء خروج الحاميتين من تلكما المدينتين. فلما رفض اقلع الى قبرص فوراً بقوات اضافية وانقض على (مينيلاوس) شقيق (بطليموس) وهزمه. فاقبل (بطليموس) بنفسه يقود قوات برية وبحرية متفوقة ولم يتعرض احدهما للآخر وقتاً طويلاً خلا انهما كانا يتبادلان التحديات والتهديدات، والاعتزاز بالقوة. فقد نصح (بطليموس) (ديمتريوس) بالانسحاب قبل أن تصل كل قواته إن كان يهمه ان لايداس تحت الاقدام! وعرض (ديمتريوس) على (بطليموس) أن ينسحب بأمان إن وافق على سحب حاميته من (سيكيون) و(كورنث). وكان جميع الامراء والملوك المعاصرين يتطلعون في الواقع الى نتيجة هذا النزاع المجهول بلهفة وترقب اذ من الواضح ان غنيمة الغالب لن تكون قاصرة على قبرص او على سورية، بل هي السيادة المطلقة.

كان مع (بطليموس) مائة وخمسون بارجة، أمر (مينيلاوس) بالخروج بها من ميناء (سلاميس)، والمعركة في اوج احتدامها، والهجوم بستين منها على مؤخرة (ديمتريوس). فعمد هذا الى الحيلولة دون خروجها من الميناء بسدّ مدخل الميناء الضيق بوضع عشرة من بوارجه في فم المدخل. ثم نظم قواته البرية في صفوف المعركة ونشرها على طول الأرض الداخلة في

البحر، وتعرض للعدوّ بمائة وثمانين بارجة وكان هجومه عنيفاً كاسحاً حقق به الغلبة على (بطليموس) وهزمه هزيمة ساحقة، فهرب هذا بكلّ ما تبقى من اسطوله وكان ثماني سفن لا غير. وتم أسر سبعين سفينة مع رجالها وغرق الباقي في المعركة، وسقط في يد (ديمتريوس) اعداد هائلة من الخدم والاتباع والاسلحة والاموال والآت الحرب. جمعت كلها وجيء بها الى المعسكر. وكان من بين الاسرى (لاميا Lamia) التي ذاع صيتها في نفخها بالمزمار ونجمها كمحظية. لقد عملت (بديمتريوس) ما يشبه السحر مع ان جمالها الفتيّ كان في افول، ومع انه كان يصغرها بكثير. وبلغ به التعلق حتى بدا «وكأن كل النساء عاشقات ديمتريوس، وهو لا يعشق غير (لاميا)».

بعد هذا النصر الحاسم، زحف على (سلاميس) ولم يكن (مينيلاوس) في وضع يمكنه من المقاومة فاستسلم هو نفسه مع كل اسطوله، والف ومائة من الخيالة واثني عشر الفاً من الرجالة مع المدينة. ومما زاد في نصره جلالاً ومجداً هو معاملته الانسانية الكريمة للمغلوبين فبعد ان شيع القتلى الى مثواهم بمظاهر التكريم، منح الحرية للاحياء. ولم ينس الآثينيين وارسل اليهم من العدة والسلاح ما يكفي لتسليح الف ومائتي رجل تسليحاً كاملاً، هدية دون مقابل.

وارسل اريسطوديموس المليطي أبرع المتزلفين في البلاط، لينهي هذه الانباء السعيدة الى (انتيغونس). وعزم الرسول على ما يتراءى - أن يجعل الترحيب به فخماً عظيم الوقع. فعندما اقتربت سفينة من البرّ اوصى بان تلقى المراسي بعيداً عن الساحل وامر ببقاء نوتية السفينة فيها ومنعهم من النزول، ثم استقل زورقاً واتجه وحده الى الساحل قاصداً الملك.

كان (انتيغونس) بلا ريب قلقاً متوتر الاعصاب تتناهبه تلك الهواجس التي تعتري عادة كل من اضطلع بكفاحٍ مجهول النتائج، محفوف بالمخاطر الجسام وقيل له ان (اريسطوديموس) مقبل اليه بمفرده، فزاد هذا من اضطرابه. ولم يمسك نفسه عن الخروج الى لقائه الاّ بشق الأنفس، وطفق يرسل الرسول تلو الرسول، والصديق في اثر الصديق لاستطلاع الانباء. الاّ ان (اريسطوديموس) ظلّ يسير على هونه بوقارٍ ورزانة لا يفصح وجهه عن شيء، ولا يرد على الاسئلة الموجهة اليه، وانما يظل سائراً بهدوء. فلم يطق (انتيغونس) صبراً ونهض لاستقباله في المداخل فرآه مقبلاً يتبعه خلق كثير وكلهم قلق، يهرولون خلفه. ولما صار على قيد سمع (انتيغونس) بسط يديه وهتف بصوت عالٍ:

- تحية اليك ايها الملك انتيغونس! لقد هزمنا [بطليموس] بحراً واستولينا على قبرص وأخذنا ستة عشر الفاً وثمانمائة أسير فردّ عليه [انتيغونس]:

- مرحباً بقدومك يا ارسطوديموس. لقد اخترت ان تعذبنا مدة طويلة ونحن بانتظار انبائك السعيدة، ولذلك عليك أن تنتظر ايضاً وقتاً ملياً، لمكافأتك!

وعندها اسرع الجمهور المحتشد فنادى [بانتغونس وديمتريوس] ملكين لأول مرة ووضع اصحابهما التاج على مفرق انتيغونس، وارسل هو تاجاً لابنه مع رسالة يخاطبه فيها بلقب ديمتريوس الملك ولما وصلت الانباء الى مصر، بادر اصدقاء [بطليموس] الى المناداة به ملكاً ايضاً تبديداً لآثار الهزيمة الأخيرة وعلى سبيل المقابلة. فأسرع بقية خلفاء الاسكندر يحذون حذوهم ولبس [ليسيماخوس] التاج، و[سلوقوس] الذي كان البرابرة يتوجهون اليه بهذا الاسم من قبل، أخذ الآن يستخدمه في المناسبات الرسمية محتذيا حذو الأغريق. وظلّ [كساندر] يكتب عنوانه الاعتيادي في رسائله، إلاّ ان الناس منحوه اللقب الملكي في مخاطباتهم ورسائلهم. والقضية بعد، هي ليست قضية اضافة صفة او ادخال بدعة جديدة لا غير. فمشاعر البشر المعبرة عن أنفسهم هي التي تتمخض، وتشتد احاسيسهم رفاهة وتتسلل روح العظمة والغطرسة في احاديثهم وحياتهم فتتغير كما يتغير الممثل التراجيدي على المرسح بمجرد تغيير ثوبه، واذ ذاك يسري التغيير على خطواته وصوته، وجلسته واسلوبه في مخاطبة زميله الممثل الآخر، كذلك الحال بهؤلاء فبعد ان ينضوا عنهم ذلك الثوب المتواضع الذين كانوا يخفون تحته سطوتهم وجبروتهم تمويهاً، تزداد عقوباتهم عنفاً، وكأن الزي كان يجعلهم ارق وأرافُ برعاياهم.

ان صوت متزلف واحد، قد يقلب الدنيا رأساً على عقب.

انتشى [انتيغونس] بنصر قواته في قبرص منتهى النشوة. واعتزم ان يستغلّ حظه فيقود جيشه شخصياً ضد [بطليموس] براً، في حين يسانده [ديمتريوس] من جهة البحر باسطول عظيم. لقد عرفت النتيجة من حلم رآه [ميديوس Medius] صديق [انتيغونس]. فقد رأى انتيغونس وكل جيشه يهرولان وكأنهما في سباق وقد ابدى صديقه في الشوط الأول قوة وسرعة عظيمتين ثم أخذت خطواته تتثاقل بالتدريج حتى تخلف عن الركب لاهثاً مبهور الانفاس يجرّ قدميه كلاً واعياءً.

واعترضت [انتيغونس] مصاعب كبيرة في البرّ. وهبت عاصفة شديدة على ديمتريوس في البحر، دفعته الى ساحل خطرٍ غير صالح للرسو. وافقدته عدداً كبيراً من سفنه. وهكذا عادت الحملة دون ان تحقق شيئاً. وكان [انتيغونس] قد شارف على الثمانين ولم يعد قادراً على تحمل مشاق الحروب البرية ومسيراتها الطويلة ولعل ذلك متأت من ضخامته لا من ضعف قوته. مهما يكن فقد سلم شؤون الملك الى ابنه، وكان يبدو ان حظوظه وخبراته كافية للنهوض

باعباء الحكم ولم يكن ترفه وفجوره واسرافه بالحائل دون قيامه بما اوكله اليه. ففي وقت السلْم كان يسرّي عن نفسه بالملذات وينغمس فيها حتى يجاوز كل الحدود دون ان يتعفف عن شيء. اما زمن الحرب فتجده رائقاً صاحياً، رزيناً الى ابعد الحدود. ويحكى عنه انه بعد ان بسطت عليه [لاميا] سلطانها بشكل لم يعد سراً - عاد الى بلاده، وما رأى ابيه الشيخ حتى ارتمى عليه وأخذ يقبله بحرارة غير اعتيادية فقال ابوه متعجباً:

- ماذا؟ العلك حسبتني [لاميا].

ومرة بعد ايام متواصلة من اللهو وتعاطي الخمر، اعتذر لغيابه بقوله انه كان يشكو اسهالاً شديداً. فقال ابوه:

- هذا ما بلغني. أكانت من اثر الخمر التاسيّة Thasian ام من الخمر الخيانية Chain؟

وانبيء انتيغونس مرةً بأن ابنه مريض، فذهب ليعوده وقبل ان يلج الباب مرت به فتاة جميلة جداً. فدخل وجلس قرب فراشه وجسّ نبضه فقال [ديمتريوس]:

- ألان غادرتني الحمّى.

فردّ [انتيغونس] فوراً

- اي نعم، لقد لقيتها عند الباب خارجةً!

ان مآثر [ديمتريوس] العظيمة جعلت اباه يعامله بمثل هذا التساهل.

لقد كان الصيثيون في مجالس شرابهم يُرنّون قسيهم، ليبقوا شجاعتهم يقظةً صاحية وسط الخيال والنشوة. الاّ ان [ديمتريوس] كان يستسلم استسلاماً تاماً للملذات، ويهب نفسه للعمل الجديّ ولايدع التفكير في احدهما يحول دون اطلاب الآخر، وعندما يدعو داعي الحرب تراه يظهر من المقدرة والحنكة مالا يدانيه فيهما احد. والواقع ان كفاءته تجلت في التأهب للحرب أكثر مما تجلت في ادارة دفتها. كان يرى وجوب التحوط، للمستقبل ويفكر بانه لايستطيع ان يؤمن كلّ ما يحتاجه لكلّ مناسبة محتملة، ولم يكن لذته تعرف حداً في اجراء اختبارات على تحسينات آلات الحصار والسفن. ولم يبدد عبقريته ومواهبه في الميكانيكا، على اختراع اللعب والمتبكرات التافهة، كالتصوير والخراطة والنفخ بالمزمار، وهي من الهوايات التي ينشغل بها الملوك. فايروپوس Aeropus ملك مقدونيا كان يقضي جلّ اوقاته في صنع المناضد والمصابيح الصغيرة، و [اتالوس فيلوميتور Attolus philometor] كانت هوايته استخلاص السموم من نبات البنج Henbane، والخربق Hellebori والشوكران Hemlock والاكونيط Qconite و Doryenium. ويتولى استنبات كل هذه الحشائش في حدائقه الملكية ويجمع بنفسه ثمرها

وطلعها وبزرها في مواسمها المخصوصة ويستحلب منها السّم. اما ملوك الفرس فكانوا شديدي الاعتزاز بشحذ وصقل اسنّة رماحهم وسهامهم بأنفسهم. الأ ان [ديمتريوس] كان ملكاً بحقٍ من هذه الناحية فقد قام بدور الصانع الذي يأتي بافخم واروع الاشياء، فما ابتكروا كان فيه طابع الأصالة والابداع والغرض السامي. ولم يكن يقف عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده عند حد تصميمها ودفع الاموال لعملها بل كان يستخدم يده ويساهم بصنعها. امور يرتجف الاصدقاء لعظمتها، ويسحر الاعداء بجمالها. وعبارتنا هذه ليست جميلة الوقع على السمع قدر ما هي صادقة الدلالة، والناس الذين كانوا سيلاقون الأمرين من تلك الآلات، لم يتمالكوا انفسهم من الاسراع الى رؤيتها بعين الدهشة: بوراج ذات خمس اوست طبقات من المجاذيف تمرّ بالسواحل فيأتي سكان المدن المحاصرة ويحتلون اسوارهم ليشاهدوا «قانصات المدن» الشهيرة. حتى ان ليسيماخوس الدّ اعداء ديمتريوس من الملوك، لما قدم لفك الحصار عن [سولي Soli] في كيليكيا، ارسل اولاً يطلب السماح له بمشاهدة سفن عدوه وآلات حصاره. وبعد ان اشبع رغبته اعرب عن اعجابه بها وانصرف.

ورجا منه الرودسيون الذين عقدوا الصلح معه بعد حصار طويل، ان يسمح لهم ببعض آلاته، ليحتفظوا بها على سبيل الذكرى. وتخليداً لقوته ولمقاومتهم البطولية في الوقت نفسه.

نجم الخلاف بينه وبين الرودسيين بسبب حلفهم مع [بطليموس] وفي الحصار الذي القاه عليهم، ركز اكبر واضخم آلاته مقابل اسوارهم. وهي عبارة عن قاعدة تامة التربيع طول ضلعها اربعة وعشرون كوبيتا[1]. ويقلّ طول الضلع كلما ارتفعت الآلة الى القمّة، وهي مقسمة من الداخل الى طوابق او غرف تملأ بالجنود. وفي كل طابق نوافذ وكوى بمواجهة العدو لرمي انواع القذائف. ويحتل كل غرفة صنف من المقاتلين. واعجب صفاتها انها مع كبر حجمها لا تميل ولا تنقلب ولا تتوقف بل تجري على قاعدتها بتوازن تام وبضجّة عالية وقوة حركية عظيمة فتذهل عقول مشاهديها وتسحرهم.

وكان [ديمتريوس] مستمراً في حصاره عندما جيء اليه بدرعين حديديين من قبرص، لاتريد زنة الواحد منهما عن اربعين باونداً ورغب صانعهما [زويلوس Zoilus] امتحان درجة صلابتهما العالية وطلب ان يسدّد الى احدهما قذيفة منجذيق ترمى من احدى الآت الحصار من مسافة لاتزيد عن ستٍ وعشرين خطوة وعندما جرى الاختبار وجد ان سنان القذيفة سقط على الدرع بكلّ دقة الأ انه لم يخلف غير خدش بسيط كالاثر الذي يخلفه القلم او المنقاش، فأخذه ديمتريوس لنفسه. وقدم الثاني الى [الكيموس Alcimus] الايبروتي Epirot. افضل عسكري

---

(١) حوالي ٣٦ قدماً.

واقواهم بين ضباطه، وهو الوحيد الذي كان يلبس درعاً يبلغ ثقله تالنتين. وكان غيره يكتفي بدرع ثقله تالنت واحد. لقد هوى صريعاً في هذا الحصار اثناء معركة بالقرب من الملعب.

دافع اهل رودس دفاع الابطال وباستماتة. ووجد ديمتريوس انه لايحقق تقدماً ملحوظاً، ولم تكن مواصلته الحرب الا بدافع من عاطفةٍ وعنادٍ! او ربما بسبب ما أقدم عليه الرودسيون حين استولوا على سفينة له فيها ثياب واثاث ورسائل من زوجه [فيلا]. فأرسلوها كلها الى عدوه [بطليموس]، ولم يكن فعلهم نبيلاً كالأثينيين الذين القوا القبض على ساعٍ ارسله [فيليب] الملك وهو عدوهم. ففضوا كلّ الرسائل التي كان يحملها، الا رسالة موجهة الى الملكة [اولمبيا]. فقد اعادوها باختامها سليمة. فكان استفزازاً شديداً [لديمتريوس]. الا انه أبى ان يثأر عندما تمكنَ واصبح انتصافه لنفسه داني القطوف: فقد كان [پروتوگينس Protogenes] الكاوني Caunian يرسم لهم صورة تمثل قصّة اياليسوس Ialysus. وبقي له الشيء القليل لاكمالها عندما وقعت في يد [ديمتريوس] في احدى الضواحي. فأرسل الرودسيون اليه منادباً يرجونه الابقاء على هذا الأثر الفني وعدم اتلافه فأجابهم: انه ليفضل احراق صورة ابيه على اتلاف هذه القطعة الفنية التي كلفتهم كثيراً من الجهود. وقيل ان الفنان انفق سبع سنين من عمره في رسمها، ويروون لنا ان ابللس Apelles ذهل وعقلت الدهشة لسانه عندما شاهدوها لأول مرة. وبعد ان تمالك نفسه قال:

- جهد عظيم! ونجاح مدهش.

ثم عقب على هذا بقوله: ومع هذا فليس فيها تلك الردعة التي رفعت رسومه الخصوصية الى عنان السماء ان جاز القول. حملت هذه الصورة الى روما مع الاسلاب الأخرى وتلفت بالحريق.

بينما كان الرودسيون يدافعون عن مدينتهم دفاع المستميت، لم يأسف [ديمتريوس] حينما وجد ذريعةً يتوسل بها الى رفع الحصار ووجد ضالته هذه بالسفراء الذين قدموا من اثينا، فتوسطوا في الصلح وتمّ ذلك بان يتعهد [الرودسيون] بمساعدة انتيغونس وديمتريوس ضدّ اعدائهما جميعاً، باستثناء [بطليموس].

وطلب الأثينيون مساعدته لفك حصار [كساندر] الذي القاه على مدينتهم. فتوجه اليها باسطول يتألف من ثلاثمائة وثلاثين قطعة بحرية وعددٍ كبيرٍ من الجنود. ولم يكتف بطرد [كساندر] من اتيكا، وانما تعقبه حتى [ثرموپيلي] وهزمه واصبح سيد هراقليا التي خضعت له مختارة. كما انضمت اليه وحدة تتألف من ستة آلاف مقدوني. وبعد ان حررّ كل الاغريق

في الجزء الأدنى من ثرموبيلي كرّ راجعاً وعقد حلفاً مع البويوثيين، واستولى على [كنخراي Cenchreae] واخضع قلعتي [فيله Phyle] و[پاناكتوم Panactum] وكان فيهما حاميتان لـ[كساندر]، واعادهما الى آثينا. فتحفزت المدينة لردّ هذا الجميل. كأنما لم تملّ من اغراقه بالتكريم والشرف؛ وكأنهم لم يستنفدوا طاقاتهم في اختراع الطريف منها. لقد اتضح انهم ما زالوا يمتلكون المبدع المستحدث من افانين الملق والزلفى. عمدوا الآن الى اخلاء الهيكل الخلفي من [الپارثنون] واعدوه لسكناه. فأستقرّ هناك تحت السقف الذي يظلّ مضيفته [منيرفا]. وكان هذا قصدهم الضمني وهو مشاطرته السكنى ربّةٌ باكراً! عندما أسكن اخوه [فيليب] في بيت تشغله ثلاث فتيات. لم يقل [انتيفونس] له شيئاً، وانما أرسل وكيله وامره بأن يجد لابنه -وبمحضر منه- منزلاً أقل اكتظاظاً الشاغلين من هذا المنزل. وكان أقل ما يجب على ديمتريوس عمله هو اظهار الاحترام اللائق باخته الكبرى - الربّة منيرفا، وهذا ما يستخلص من تقدير المدينة له بانزاله في بيتها. إلاّ انه ملأ الموضع بالنجاسات حتى بدا أقل دنساً عندما اقتصرت خلاعته على معاشرة النساء المبتذلات مثل [خريس Chryids] و[لاميا] و[ديمو Demo] و[انتيكيرا Anticyra].

ان اسم المدينة الطاهر يمنعنا من ايراد بعض الحكايات الصريحة ولنذكر فحسب فضيلة الفتى [اموكليس] الملقب بالجميل وما كان له مع ديمتريوس؛ اراد ان يتخلص من ملاحقاته، فكان يتجنب كل محلٍّ قد يكون فيه. أخيراً لحقه ديمتريوس الى غرفة حمام خاصة، ووجد الفتى نفسه وحيداً بلا ناصر أو مجير، فرفع غطاء القدر وقذف بنفسه في مائه الفائر ليموت ميتة أليمة قبل ان يحين أجله؛ الاّ انها ميتة جديرة بالبلد وبالجمال اللذين سبباها ولم يكن [كليانيتوس Cleanetus] ابن [كليوميدون Cleomedom] مثل هذا الفتى، فقد نال من [ديمتريوس] رسالة توصية بابيه موجهة للآثينيين، وكان الأب قد غرم خمسين تالنتاً. فالحق العار بنفسه واوقع المدينة في ورطة. لم يسع الآثينيين الاّ الغاء الغرامة احتراماً للرسالة، على انهم اصدروا بياناً يحرمون فيه على اي مواطن جلب رسائل توصية من ديمتريوس في المستقبل. ولما علموا بأن [ديمتريوس] استاء جداً من هذا القرار وعده تحقيراً واستصغاراً لشأنه. لم يكتفوا بابطاله وانما نفذوا حكم الموت ببعض الناصحين به والمقترحين له، ونفوا الآخرين، خوفاً ورهبةً. ثم تمادوا في الاعتذار، فاصدروا مرسوماً يقضي بصحّة وسلامة كلّ ما يأمر به [ديمتريوس] الملك في المستقبل، سواء ازاء الأرباب او ازاء البشر. ولما قال احد المواطنين: «لابدّ ان يكون [ستراتوكليس] مجنوناً لاستخدامه مثل هذه العبارات» عقب عليه [ديموخارس] و[ليوكونوي Leoconoe] قائلين: «من الغرابة ان لايكون مجنوناً». ولقد

كوفيء [ستراتوكليس] خير مكافأة على زلفاه. اما دايوخاريس فقد نفي تنكيلاً به لمقولته السالفة. وتلك كانت تصرفات الآثينين بعد تحررهم من نير الحامية الاجنبية واستعادتهم ما سمي بحريتهم.

بعد هذا زحف [ديمتريوس] بقواته على [البيلوپونيسس] فلم يلق مقاومة وفرّ اعداؤه من امامه وتركوا المدن تنضم تحت لوائه. وقبل حلف سائر [اكتيه Acte] [كذلك كان اسمها] وسائر اركاديا ما عدا [مانتينيا. واتباع حرية [ارغوس وكورنث وسيكيون] بدفعه لحامياتها مائة تالنت لقاء تركها. وترأس الالعاب في ارغوس خلال عيد [يونو] التي صادف ايام وجوده، وشارك في احياء الاحتفال مع الاغريق الذين اجتمع شملهم هناك. كما احتفل بزواجه من [دايداميا Deidamia] بنت [اياكيديس Aeacides] ملك المولوسيين Molossians] واخت [پيروس]. وقال لأهالي [سيكيون]، انهم وضعوا مدينتهم خارج مدينتهم! واقنعهم بالانتقال حيث يعيشون من يومها. وبذلك اعطى مدينتهم موقعاً جديداً فضلاً عن اسمٍ جديد، اذ اطلق عليها [ديمترياس] مشتقاً من اسمه.

والتأمت جمعيّة عمومية للاغريق في المضائق. وهناك نادى به حشد عظيم من المندوبين قائداً للاغريق، كما كان الشأن مع [فيليب والاسكندر] من الاوائل. ولم يكن يخفي رغبته في التفوق عليهما، وهو في اوج عظمته وسلطانه. والواقع هو انه سبق الاسكندر من ناحية واحدة. فالاسكندر لم يأب على الملوك القابهم، في حين لم يتخذ لنفسه لقب ملك الملوك، مع ان عدداً كبيراً منهم كانوا مدينين له باللقب والسلطة معاً. اما [ديمتريوس] فقد اعتاد السخر من أولئك الذين منحوا لقب الملكية لغير ابيه ولغيره. وكان السرور يشيع في اعطافه عندما يشرب اتباعه اولاً نخب صحته وصحة ابيه بوصفهما ملكين ويواصلون الانخاب فيشربون في صحة سلوقوس بوصفه قائد الفيلة، وفي صحة بطليموس بوصفه امير البحر الاعلى، وفي صحة ليسيماخوس بلقب امين الخزانة، و[اناثوكليس] بلقب حاكم صقلية. ويضحك هؤلاء الملوك عندما تروى لهم قصص هذا الزهو الفارغ الأ [ليسيماخوس] الذي يبدي امتعاضاً لاعتباره خصياً لا غير. فمن هؤلاء عادةً يختار صاحب منصب امين الخزانة. وكان العداء بينه وبين [ليسيماخوس] اشدّ من عدائه لغيره. ومرة قال ليسيماخوس ساخراً من حبّه للاميا.

- اني لم ارمن قبل عاهراً تمثل دور الملكة.

فرد [ديمتريوس] بقوله «ان مخظيته لاتقل اخلاصاً واستقامة عن [پنلوپ Penelope] امرأة [ليسيماخوس].

ونستأنف حديثنا فنقول: كان ديمتريوس على وشك العودة الى آثينا فكتب رسالة الى اهلها

يعلمهم برغبته في ان يسمح له في الحال بالوقوف على مراسيم التكريس «للأسرار» وانه يريد اكمال مراحل المراسيم من الأول الى الأخير دفعةً واحدة وهو مخالف للمبادىء المتبعة وامر لم يسمع به من قبل لاي احد. فالمرحلة الأولى تجرى مراسيمها في شهر [بويدروميون] ولايقبل المكرسون نهائياً حتى يكلموا سنة واحدة بعد اقتبال مراسيم المرحلة الأولى. لكن طوي هذا كله بعد قراءة رسالة [ديمتريوس] في الجمعية العامة ولم يجد احد في نفسه الشجاعة للمعارضة غير [پيثودورس Pythodorus] حامل المشعل ولم يؤبه باعتراضه، فقد نطّ [ستراتوكليس] لغوره مقترحاً بالتصويت على تحويل الشهر الحالي [مونيخبون] الى شهر [انيتسيتريون] فجرى ذلك وغُيرّ وهكذا اقتبل [ديمتريوس] الاسرار الأولى. وجرى تصويت آخر فانقلب الشهر [مونيخيون] نفسه الى شهر [بويدروميون] فأقيمت مراسيم الاسرار العليا وقبل [ديمتريوس]. هذه الاجراءات اتاحت للكوميدي [فيليپيدس] فرصة جديدة لإعمال فكاهته البارعة في [ستراتوكليس]:

ان خوفه المتملق...

جعل السنة كلها تُحشر في شهر واحد!

وقال عن التصويت الذي جرى حول اسكان [ديمتريوس] في البارثنون

ذاك الذي يقلب الهياكل الى حانة متبذلة

ويجعل منزل العذراء بيتاً للخنا

ومن بين الأعمال السيئة الاثيمة التي اقترفها خلال هذه الزيارة عملٌ جرح مشاعر الآثينيين بصورة خاصّة. فقد اصدر أمراً بجمع مائتين وخمسين تالنتاً من الأهالي فوراً. فجبيت من الشعب بمنتهى الغشم والقسوة. وقدموا له المال الذي عانوا في جمعه مالا يخطر بالبال. فأمر بأن يوزع على [لاميا] وبقية نسائه ليبتعن به صابوناً، كان ما قدموا انفه من ان يخصص لغير هذا الغرض. وكان العار الذي اصابهم جراه اشدّ وقعاً ومرارة مما عانوا بجمعه من خسارة وأختلف الرواة في الحكاية في الواقع، فبعضهم يقول ان الحادث وقع للتساليين لا للاثينيين. ومهما كان من امرٍ، فان [لاميا] هي الأخرى قامت بجباية مقدار كبير من المال للانفاق على مأدبة اقامتها للملك، فأشتهرت مأدبتها الى الحدّ الذي اتى الى وصفها لينكيوس Lyn-ceus]. واضفى على [لاميا] بهذه المناسبة اسم [هيليپوليس Helepolis] الحقيقية. ولقب [ديموخارس] بصولي Soli، [ديمتريوس] بـ[ميثوس Mythus] لأن لأسطورة [لاميا] ها الخاصة وميثوسها الخاص.

الحق يقال ان أهواء هذه المرأة والبذخ الذي عاشت فيه جلبا عليه حسد كل نسائه وغيرتهن فضلاً عن عداء اصدقائه.

فمثلاً: كشف [ليسيماخوس] مرة لبعض السفراء الذين ارسلهم ديمتريوس عن ندوب في فخذيه وذراعيه بفعل براثن اسدٍ كان الاسكندر قد اطلقه عليه. وبعد ان اصغى هؤلاء السفراء الى تفاصيل معركته مع هذا الوحش الضاري ابتسموا وقالوا ان لملكهم ايضاً ندوباً في جسمه، وانه ليستطيع ان يعرض في عنقه آثار براثن [لاميا] وهي حيوان ليست بأقل خطراً من الأسد. ومما يورث اكبر العجب انه كان يصدّ عن [ميلا] بسبب تقدمها في العمر، في حين كان عبداً ذليلاً [للاميا] التي مر عهد شبابها منذ زمن طويل. وفي احدى الأمسيات عند العشاء كانت تعزف لحناً على المزمار سأل [ديمتريوس] مخطيته [ديمو] التي يلقبها الرجال بـ[جنون] ما رأيها في لاميا؟ فأجابت: اراها امرأة عجوزاً.

وجيء ببعض الحلوى فسألها الملك ثانية:

- انظري الى الهدايا التي جاءتني من [لاميا]؟

فقالت [ديمو]:

- سترسل أمي العجوز أكثر من هذا، لو اتخذتها لك عشيقة.

ورويت قصة أخرى عن انتقاد [لاميا] للحكم الشهير الذي اصدره القاضي [بوخوريس Bocchoris]. حاول شاب مصري، لمدةٍ طويلة وصال العاهرة [تونيس Tonis] وعرض عليها مبلغاً من الذهب اجراً لمعاشرتها وقبل ان يتم ذلك. حلم بأنه امتلكها واطفأ شوقه بالخيال ولم يعد يشعر برغبةٍ في الوصال الفعلي فأقامت عليه [تونيس] الدعوى بالمبلغ المتفق عليه. وعندما سمع القاضي الادعاء، امر المدعي عليه باحضار المبلغ الى المحكمة كاملاً في وعاءٍ وان يحركه يميناً وشمالاً امام انظار [تونيس] ويعطيها خياله. فطعنت [لاميا] في صحة الحكم قائلة: من المحتمل ان تكون رغبة الشاب قد اشبعت في الحلم، لكن رغبة العاهرة [تونيس] بالمال لايمكن اشباعها بخيال ذلك المال. والى هنا نكتفي بالحديث عن لاميا. لننتقل بالقصة الآن من مرحلتها الهزلية الى خاتمتها المأساوية، بتعقيب اعمال وتقلبات خطوط ممثلي اداورها.

اجتمع الملوك في عصبة، ووحدوا قواتهم لمهاجمة [انتيغونس] فترك [ديمتريوس] بلاد الاغريق، وتوجه الى والده، فوجده عالي الهمّة ثابت العزم على اتم استعداد لدخول المعركة مما لايتفق مع تقدمه في السن فشجعه ذلك كثيراً. ولكن كان معقولاً لو رضي [انتيغونس]

بالتنازل عن البسيط، او اظهر اعتدالاً قليلاً في رغبته بالسيادة المطلقة اذن لاحتفظ لنفسه بالمقام الأول بين الملوك حتى موته، ولاحتفظ بها لخلفه ايضاً. الاّ انه كان عنيفاً متجبراً غطريساً لايمكن احتمال كلماته المهينة واجراءاته من قبل ملوك شبان اقوياء الجوانب. وبهذا استفزهم وحملهم على التحالف ضده. وعندما انبيء بالحلف المتكون ضده لم يتورع من القول:

- ان هذا السرب من الطير لايلبث ان يتفرق بضربة حجر واحدة وبصرخةٍ لا غير.

ونزل ساحة القتال على رأس ما يزيد عن سبعين الفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة، وخمسة وسبعين فيلاً. امّا اعداؤه فقد حشدوا اربعة وستين الفاً من المشاة. وعشرة آلاف وخمسمائة خيّال، وما يناهز الاربعمائة من الفيلة ومائة وعشرين عجلة حربية. ولما اقترب الجمعان، لوحظ ثم تغيير لا في هدف [انتيغونس] بل في مشاعره السابقة للمعركة وتوجساته. فقد بدأ خلافاً لما كان يبدو في معاركة السابقة مهموماً صامتاً منطوياً على نفسه، وكان في العادة يبدو واثقاً في نفسه، رابط الجأش جهوري الصوت، ساخراً هازئاً، وكثيراً ما كان يعرب عن استخفافه وعن ثبت جنانه بالمزاح وارسال الفكاهات. وانضم [ديمتريوس] الى الجيش، فأسرع [انتيغونس] يعلنه خليفةً له. واصابت الجميع الدهشة اذ راؤه يختلي بابنه في الخيمة ويتباحثان منفردين وهو من أغرب الأمور اذ لم يؤثر عنه قبلاً ان عقد مؤتمراً خاصاً مع [ديمتريوس] بل كان ينفرد برأيه دائماً ويقرر خططه وحده ثم يصدر اوامره تبعاً لذلك. ومرة حين كان [ديمتريوس] صبيّاً وسأله متى يبدأ الجيش بالحركة، ردّ عليه بحدةٍ.

- انت من دون سائر الجيش، تخشى ان لاتسمع نفير البوق؟

واثرت بعض الظواهر الطبيعية على معنوياته. كان [ديمتريوس قد رأى في حلمه الاسكندر بكامل سلاحه. ظهر له وطلب منه ان يعلمه بكلمة السرّ التي ستعطي ايذانا بالمعركة، فقال [ديمتريوس] انه يعتزم ان تكون «جوبتر والنصر» فقال الاسكندر:

- اذن فسأذهب الى عدوك، وانتظر منه استقبالي.

وفي صباح يوم المعركة بينما كانت القطعات تتخذ مواضعها عثر انتيغونس بباب خيمته وهو خارج فسقط على الارض واصيب بأذى شديد. ولما زال ألم قدميه، رفع يديه الى السماء ودعا الآلهة ان تمنحه النصر او الموت قبل ان يشعر بالهزيمة. وعندما التحم الجيشان هجم [ديمتريوس] على [انطيوخوس] ابن سلوقوس وكان يقود افضل قطعات الخيالة فهزمه هزيمة نكراء وانطلق يطارده بفورة النجاح وحماسته وابتعد مسافة كبيرة طيشاً منه وتهوراً وبذلك تسبب في خسارة المعركة كلّها. اذ بعد ان ادرك خطأه وقرر الرجوع لمساندة المشاة لم يجد ذلك

ممكنا لان العدوّ قطع خطّ الرجعة بفيلقه. ومن الجهة الثانية لاحظ [سلوقوس] ان القسم الأكبر من مشاة [انتيغونس] ترك مكشوفاً لخيالته، فلم يهجم، بل قام بعدة مناورات تغطية وتظاهر بالهجوم وهكذا ابقاهم في انذار وتحفز وصار يكرّ ويفرّ ويتقدم ويتأخر كانه يهمّ بالاشتباك معطياً الفرصة للجنود الذين يريدون التخلي عن انتيغونس والانضمام اليه، وقد فعل ذلك عدد كبير منهم ولاذت البقية بالفرار. الاّ ان [انتيغونس] ظلّ ثابتاً في موضعه. وعندما تقدمت منه قوات ضخمة وانقضت عليه وصاح احد القريبين منه:

- مولاي انهم يهاجمونك.

لم يجب بغير هذا:

- وماذا في وسعهم ان يعملوا سوى هذا؟ ان [ديمتريوس] سيخفّ لنجدتي.

وظل صامداً براوده الأمل حتى الأخير، وهو يتطلع الى كل الجهات منتظراً وصول ابنه حتى جُندل مثخنا بطعنات الرماح وهرب اصحابه ومن والاه الاّ [ثوراكس Thorax] اللاريسي فقد بقي يحرس الجثمان.

بعد انتهاء المعركة أخذ الملوك الغالبون يقطعون أوصال الامبراطورية الواسعة التي كانت ملكاً لديمتريوس وانتيغونس. كما يقطعون الجثة، فيلحقون اجزاءها باملاكهم. وفرّ [ديمتريوس] بخمسة آلاف من المشاة واربعة آلاف من الخيالة الى [إفسس] باسرع ما امكنه وكان الاعتقاد السائد انه سيضع يده على كنوز الهيكل، ليُنفق منها على حاجاته ولكنه عمل عكس هذا، فقد اسرع بالرحيل خوفاً من محاولة كهذه يقوم بها جنوده، وابحر الى بلاد الاغريق. ووضع امله الوحيد في الآثينيين الذين استأمنهم على جزءٍ من اسطوله وامواله وزوجه [لايداميا] ولم يساوره اي شكّ في اخلاصهم له، وايجاد كنف من حماهم في محنته. ولما وصل الى الكيكلاديس Cyclades، التقى بوفد آثيني، راح يرجوه ان لايستمر في التقدم نحو المدينة لأن الأهالي صوتوا على عدم السماح لايّ ملك كان بولوج السور. وقالوا انهم رحّلوا [ديداميا] بما يليق من اكرام ولياقة الى [ميغارا] فاجتاحه الغضب. وفارقه صبره ورباطة جأشه. وكان قد ضبط نفسه حتى الآن فلم يبدر منه ما يحط من قدره أو يشين كبريائه. ولكنه لم يتحمل خيبة ظنه بالآثينيين وان يجد تلك الصداقة التي آمن بها واعتمد عليها زائفة فارغة عند الامتحان. فكانت صدمة عظيمة له وغصّه اليمة. والحق ان المبالغة في اظهار التكريم السطحي هو اضعف دليلٍ على الحبّ الحقيقي من الشعب الى اي ملك او أمير. تلك المظاهر تفقد قيمتها كدلائل على المحبة عندما نتذكر بانها انما تنشأ من عامل الخوف. ان

المحبة تستمد قوتها ودوامها من المشاعر الخالصة والاختيار الخُلقي. ولهذا صوت الآثينيون على القرارات الأخيرة كما صوتوا على القرارات الأولى، بنفس الاستعداد والاستعجال. ان ذوي البصائر، والحكماء لاينظرون باعتبار الى التماثيل والرسوم والتكريم الالهي وغيره مما يقدم لهم، قدر ما ينظرون الى اعمالهم وسلوكهم. فمنه يحكمون على امكان الوثوق بالمظاهر كدليل على الولاء الأصيل الحقيقي، او نبذهم باعتبارها مظهراً لولاء قسريّ. والواقع ان الشعب نفسه لايسعه الاّ ان يقرف ويشمئز من هواة الاطراء الذين يقبلون عليه بنهم وغطرسة دون احترام لحرية ارادة المعطي.

وديمتريوس الذي اعتقد انه عومل معاملة مهينة لم يكن في وضع يستطيع معه الانتقام. فأرسل عتاباً رقيقاً اعرب فيه عن امله بان يسمح له باسطوله وبينه سفن ذات ثلاث عشرة طبقة. فسلمت له السفن فأقلع بها الى المضايق. فوجد اموره هناك على اسوء حال: فحاميته قد طردت وهناك انسحاب عام وانضمام الى صفّ العدو، وبهذا غدا [پيروس] مطلق اليد في بلاد اليونان. فولى وجهه نحو [الخرسونيز] واجتاح اراضي [ليسيماخوس] واصلح احوال جنوده بالغنائم التي وضع يده عليها فأرتفعت معنوياتهم واشتدت سواعدهم. ولكن لم يهتم احد من الأمراء باعتراضه ومناجزته في هذا الجزء من العالم. [فليسيماخوس] لم يكن محبوباً في تلك الانحاء وانما كان يخشى بأسه فحسب. ولكن ما مَرَّ زمن قصير حتى ارسل [سلوقوس] يخطب ستراتونيكي بنت [ديمتريوس] من زوجه [فيلا].

كان [سلوقوس] قد انجب من [اپاما Apama] الفارسية ابنه [انطيوخوس]. على انه كان قد بسط ملكه على رقع واسعة، لاكثر من خلفٍ واحدٍ. كما انه لجأ الى مصاهرة [ديمتريوس] لأن ليسيماخوس كان في ذلك الحين قد تزوج احدى بنات بطليموس وزوج ابنه من بنته الأخرى. وعد [ديمتريوس] هذا العرض حظاً سعيداً غير متوقع، فأقلع فوراً مع ابنته وجميع اسطوله الى سورية وارسى في الساحل عدة مرات. فنزل في كيليكيا في الجزء الذي كان من سهم [پليستارخوس Plistarchus] اخ كساندر من عملية اقتسام املاك [انتيغونس] بعد هزيمته. فعد پليستارخوس عمل [ديمتريوس] اعتداء على حقوقه ولم يكن آسفاً على هذا الاعتداء المزعوم فقد اهتبلها فرصة للاحتجاج على [سلوقوس] لدخوله في مفاوضات مع [ديمتريوس] عدوهم المشترك دون مشاورة الملوك الآخرين. وابلغ [ديمتريوس] بذلك. وانتهز فرصته فأنقض على مدينة [كونيده Quinda] دون انذار ونهب منها الفاً ومائتي تالنت كانت مودعة في خزائنها. واسرع يلوذ بسفينه ورفع قلوعه ورحل. وفي [روسوس Rhosus] اجتمعت به زوجه [فيلا] وتلاقى مع [سلوقوس] وسرعان ما تمّ الاتفاق الصريح بينهما

وتبادلا الثقة بصفاء نفس بعيداً عن الشكوك. وأولم [سلوقوس] لديمتريوس في خيمته بالمعسكر، وبادله [ديمتريوس] الحفاوة فاقام له وليمة في السفينة ذات الطوابق الثلاث عشر. وتلتها لقاءات وحفلات ترفيه ومؤتمرات وزيارات طويلة لتبادل الآراء العامة دون بطانة ولا حرس مدجج بالسلاح. ثم استأذن [سلوقوس] فرحل وحمل [ستراتونيكي] الى انطاكية بموكب فخم. وانقضّ [ديمتريوس] على [كيليكيا] فأستولى عليها. وارسل [فيلا] الى اخيها [كساندر] للاجابة على شكوى [پلستارخوس]. وانضمت اليه [دايداميا] زوجه قادمة من بلاد اليونان بحراً الاّ انها ابتليت بمرض لم يمهلها كثيراً فقضت نحبها وعلى اثر موتها تمّ الصلح بين [ديمتريوس] و[بطليموس] بتوسط من سلوقوس، واتفق بموجبه على ان يتزوج [ديمتريوس] بـ[بتليمياس] بنت [بطليموس]. الى هذا الحد كان مسلك [سلوقوس] حكيماً وانجازاته طيبة لامطعن فيها. الاّ انه ما لبث ان طلب من [ديمتريوس] النزول له عن اقليم [كيليكيا] لقاء مبلغ من المال. فلما رفض طلبه، عاد يفاوضه بحدة في التنازل له عن [صور وصيدا] وهو ما بدا وجهاً من وجوه التحكم الغشوم. بل هو في الواقع عمل شائن ممن يملك تلك الممالك الشاسعة والاقاليم المترامية بين الهند والبحر السوري، فيشعر بمسيس حاجة الى مدينتين فقط؛ دون ان يعبأ بازعاج قريبه الذي عانى الكثير من المحن والارزاء وسوء الحظّ. انه بمختصر القول يبرز حكمة افلاطون: «الطريق الاكيدة الوحيدة التي تؤدي بك الى الغنى الحقيقي هي ان لاتزيد في مالك، بل ان تقلل من رغباتك» فمن لايشبع من التملك يظلّ يؤكد انه مايزال محتاجاً. وهو لاشك فقير في وسط غناه وبحبوحته.

الاّ ان [ديمتريوس] الذي لم تخنه شجاعته ارسل رداً جازماً قال انه لن يدفع اي ثمن لحسن نية ختن له مثل سلوقوس ولو خسر عشرة الاف معركة كمعركة [ايسوس Ipsus] ثم عزز هاتين المدينتين بحاميات كافية لتقوى على الدفاع في حالة هجوم [سلوقوس]. وفي ذات الوقت علم ان [لاخاريس Lachares] انتهز فرصة نزاعه ففرض حكمه على الآثينيين غصباً. فرأى انه لو باغت المدينة لنجح في الاستيلاء عليها بسهولة ولهذا اجتاز البحر بسلام على رأس اسطول كبير. الاّ ان العواصف الشديدة داهمته وهي مار بساحل [آتيكا] فخسر معظم سفنه ومن فيها من رجال. اما هو فنجا. وراح يشن حروباً صغيرة بنطاق ضيق على الآثينيين. ولما عجز عن تحقيق بغيته أرسل يأمر ببناء اسطول جديد وزحف بمالديه من جنود على البيلوپونيسس، وحاصر مدينة [مسينا]. وافلت من الموت باعجوبة في اثناء هجوم. اذ اصابت وجهه قذيفة منجنيق اخترق سنانها خدّه ونفذ الى فمه على انه شفي بالأخير، وعادت الى ملكه مدن عديدة كانت قد تمردت عليه. ثم شنّ غارة على آتيكا، فأستولى على

[اليوسس Eleusis] ورامنوس Rhamnus، واجتياح البلاد المجاورة لهما، وسقطت في يده سفينة موقرة بالقمح متوجهة الى آثينا فأمر بربانها ومدير شحنتها بان يشنقا ليلقى الرعب في نفوس الاخرين فلا يجرؤ احد على تموين المدينة بالارزاق. فضايقة منه للآثينيين. وبلغ الأمر بالسكان أن ضاقت بهم السبل واصبح البوشل من الملح يباع باربعين درهماً. والپك(٢) من القمح بثلاثمائة درهم. وارسل [بطليموس] مائة وخمسين سفينه لانجادهم فاقتربت حتى صارت على مرمى النظر من [ايجينيا Aeginae] الاّ ان هذا الأمل القصير الأمد مالبث ان ضاع بوصول ثلاثمائة سفينة لتعزيز اسطول [ديمتريوس] من قبرص والپيلوپونيسس وغيرهما. فلاذ اسطول [بطليموس] بالفرار، وهرب الطاغية [لاخاريس] من اثينا وتركهم لمصيرهم المحتوم.

ان الآثينيين الذين كانوا قد فرضوا عقوبة الموت على كل من يقترح ابرام معاهدة أو اتفاق مع [ديمتريوس]، سارعوا الآن يفتحون اقرب الابواب اليه لاخراج وفدٍ لا أملاً من رحمته في فيل شروط حسنة، بل نزولاً عند احكام الضرورة واجتناباً للموت جوعاً. فمن المآسي المريعة قيل ان ابا وابنه كانا جالسين معاً في غرفةٍ وقد ودعا كل أمل ببلغةٍ من العيش واذ بفأر ميت يسقط من السقف، فهجما عليه كل يريده لنفسه تتماسكاً وتضارباً. وروى المجاعة ايضاً أن [الفيلسوف أبيقور] لم ينقذ حياته وحياة تلاميذه الاّ بكمية صغيرة من حبوب الفاصوليا، كان يوزعها عليهم بالعدد يومياً.

كذا كانت حال المدينة عندما دخلها [ديمتريوس]. فبادر يصدر بياناً دعا فيه جميع الأهالي الى الاجتماع في الملعب. ولما انتظم عقدهم أمر جنوده أن يقفوا صفوفاً بظهر الملعب، واحتله بحرسه، ثم دخل من ممرّ الممثلين وقد وصل الرعب بالأهالي غايته القصوى. فبددت كلماته الأولى كل خوفٍ. اذ راح يؤنبهم بلهجة رقيقة، لطيفة خالية من الصرامة، معلناً رضاه عنهم. وزاد على ذلك بتقدم هدية لهم تتألف من مائة الف بوشل من القمح وعين للوظائف العامة اناساً يرضاهم الأهالي.

ولما رأى الخطيب [دروموكليس] مبلغ حيرة اخوانه المواطنين في ايجاد وسيلة للتعبير عن مدى شكرهم بالهتاف او بالكلام، ومبلغ استعدادهم للقيام بايّ شيء في هذا الصدد، خلافاً للامتنان القولي والردّ الرسمي من قبل الخطباء. نهض مقترحاً اصدار مرسوم بتسليم كلّ من قلعتي [پيروس] و[مونيخيا] الى الملك ديمتريوس. فتم ذلك. وبادر ديمتريوس دون توصية من أحدٍ بوضع حامية ثالثة في مسيوم Meseum احتياطاً لأيّ تمرد للأهالي قد يشغله عن خططه

(٢) الپك Peck هو ربع البوشل.

الأخرى وبعد استتباب الأمر في اثينا بدأ يتهيأ للهجوم على [لقيديمون] فعلم بذلك ملكها [ارخيداموس] وخرج اليه. الاّ انه انهزم في معركة جرت قرب [مانتينيا] فدخل ديمتريوس [لاقونيا] مُني [ارخيداموس] بهزيمة أخري قرب [سپارطا] وقتل مائتين من اللقيديمين وأخذ خمسمائة اسير ولم يعد بامكان هذه المدينة التي لم يستول عليها احد من قبل ان تصمد امامه. ولكن من المؤكد الثابت انه كان ملكاً عجيباً لم يخلق مثله لعب الحظّ معه لعبات خاطفة فلم تقم حياة او سيرة مملوءة بهذا القدر من التقلبات السريعة كقصة حياته. فمن صغائر الأمور الى عظائمها، ومن الرفعة الى الذلة، ومن الضعف التام الى نهاية السلطان والقوة! حتى ليقال انه اعتاد مناجاة الحظّ بكلمات [اسخيلوس] كلمّا عضّه الحظّ العاثر بناب:

«انت الذي رفعنا وانت الذي وضعتنا ثانيةً!»

وفي هذه اللحظة عندما بدأ كل شيء متفقاً وامانيه في الملك والسلطة وردت انباء تفيد بان [كيسيماخوس] استولى على جميع ما تحت يده من مدن في آسيا وان [بطليموس] قد اخضع كل [قبرص] عدا سلاميس وان امّه واولاده في سلاميس، محصورون ومع هذا كله، فكالمرأة التي وصفها ارخسيلوخوس Archilochus

تعرض الماء في احدى كفيّها الخادعتين

في حين تتوهج النار في كفّها الأخرى

صدّه الحظّ عن [سپارطا] بهذه الانباء القاضية لكنه في اللحظة عينها فتح له باب خلاص جديد عجيب: فقد توفي [كساندر] ملك مقدونيا. ولم يعش خلفه وابنه الاكبر [فيليب] طويلاً بعد وفاة والده. فأختلف اخواه فيما بينهما حول وراثة العرش. وعمد اكبرهما [انتيباطر] الى قتل امّه [تسالونيكا] فطلب الأخ الاصغر معونة [پيروس] من [اپيريوس] ومعونة [ديمتريوس] من [الپيلوپونيسس] فسبق [پيروس] في الوصول واقتطع جزءً كبيراً من مقدونيا وضمه اليه تعويضاً عن مساعدته تلك. مما حدا بالكساندر الى القلق والاعتقاد بأنه استقدم جاراً خطراً، وانه قد لايتعرض الى مثل هذا الخطر من [ديمتريوس] الذي بدأ أقوى من حليفه، وافضل سمعة. فأسرع يلتقي به في [ديوم Dium] حيث وصلها [ديمتريوس] عندما تسلم رسالة الشاب، وبعد ان سلم عليه واعرب عن شكره لتلبيته دعوته وانه ما عاد بعدُ يرى ضرورة حضور حليفه الأول، دعاه الى العشاء، والواقع ان العاهلين لم يلتقيا بقلبين خاليين من الشك فقد كان احدهما يتوجس شراً من الآخر. وفيما كان [ديمتريوس] يسير الى الوليمة المعدة له اسرّ احدهم في اذنه بأنه سيقتل غيلة في مجلس الشراب. فلم يظهر قلقاً. الاّ انه

تباطأ في سيره وارسل امراً لكبار ضباط جيشه بوضع الجنود تحت الانذار وجعلهم متأهبين بكامل سلاحهم وامر بطانته وكانت تفوق بطانة الكساندر بكثير، ان تتولى حراسته في غرفة الطعام وان لايتحركوا من مواضعهم حتى ينهض. فغلب خدم [الكساندر] على امرهم وجبنوا عن القيام بعملية الاغتيال المدبرة، اذ لم يتح لهم [ديمتريوس] الفرصة بتدابيره وتقصر امد زيارته وزعمه لألكساندر ان صحته السيئة في الاونة الاخيرة لاتسمح له بتعاطي الخمر وترك المأدبة مستعجلاً وفي اليوم الثاني بدأ يستعد للرحيل زاعماً لألكساندر ان الانباء التي وردته تستدعي منه العودة، واعتذر عن رحيله الفجائي معرباً عن أمله بلقياه حالما تسمح له اعماله. وسرّ الكساندر لا برحيله وحده، بل لأن ذلك تم بمحض رغبته ومن دون احراج وعرض عليه فرافقه حتى [تسالي]. وعند بلوغهما [لاريسا] تبودلت الدعوات فيما بينهما وجرت فيها احاديث صريحة فيها حسن نية ظاهرة يفوح منها ريح مؤامرة جديدة على [ديمتريوس] إلاّ ان الوضع انقلب واصبح المتآمر تحت رحمة الضحية: لم يشأ [الكساندر] ان يتخذ لنفسه اي احتياطات لئلا يوجس ديمتريوس منها خيفة فيبادر الى اتخاذ احتياطات مقابلة، وكان ان وقع ضحية غدره. فقد قبل دعوة [ديمتريوس] وجاء الى مقرّه وفيما هما يتناولان عشاءهما نهض [ديمتريوس] من مجلسه وسار، فقام الكساندر ولحق به متجهاً صوب الباب.

وفيما [ديمتريوس] يجتاز التفت الى حرسه وقال:

- أقتلوا من يتبعني.

وأستأنف سيرة. فوثبوا على [الكساندر] وقضوا عليه وعلى كل اصدقائه الذين حاولوا انقاذه. وقال احدهم قبل موته:

- سبقتنا بيوم واحد.

وتلا ذلك بطبيعة الحال، ليلة حفلت بالفوضى والاضطراب. وظلّ القلق مستحوذ على نفوس المقدونيين حتى الصباح خوفاً من [ديمتريوس] لكن لم تظهر منهم بادرة عنف. ووصلتهم منه رسالة يطلب فيها مقابلة لشرح الاسباب التي دعته الى هذا العمل، فأفرخ روعهم، وعادت ثقتهم بأنفسهم وتهيأوا لاستقباله استقبالاً حسناً، ولم يكن بحاجة الى الإطالة وكثرة الكلام. وسرعان ما حملهم بغضهم لانتيباطر، قاتل امّه، وفقدان أخيه وهو أفضل منه، على المناداة بـ[ديمتريوس] ملكاً لمقدونيا. وأسرعوا الى بلادهم في ركابه. ولم يأسف المواطنون المقدونيون للتغيير، فهم يذكرون جيداً أعمال [كساندر] السيئة وغدره بأسرة الاسكندر ولايغتفرون. وكان من فائدة [ديمتريوس] ان يذكروا له الأفعال الجميلة والحكم الرفيق البسيط الذي مارسه

عليهم حموه [انتيباطر] الأول والد [فيلا] لاسيما وان ابنه منها اصبح الآن فتىً منخرطاً في الجيش وهو ولي عهد ابيه بلا جدال.

الى جانب هذا الحظّ، ورده نبأ قيام [بطليموس] باخلاء سبيل والدته واولاده وصرفهم بالهدايا والهبات الكثيرة، وان بنته [ستراتونيكي] زوج سلوقوس، اصبحت الآن زوجاً لانطيوخوس ابنه، وقد نودي بها ملكة على آسيا الشرقية.

يبدو ان [انطيوخوس] هام حباً بالملكة الصغيرة [ستراتونيكي] التي انجبت لسلوقوس ابناً. فقاوم [انطيوخوس] تلك العاطفة مقاومة شديدة، وبالأخير وجد ان حبه هذا غير شرعي مطلقاً، وانه مرض فيه لايرجى شفاؤه، ولا تقدر قواه الفعلية على اخماد جذوته فأستقرّ رأيه على الموت. ولجأ الى قتل نفسه قتلاً بطيئاً. فأهمل شأنه وامتنع عن تناول الطعام وتصنع المرضى. وسرعان ما ادرك طبيبه [ايراسيستراتوس Erasistratus] ان علّته في الحب لكن صعب عليه معرفة من وقع في حبها. فلازم غرفته لا يبارحها مراقباً تقلّب مريضه وانفعالات وجهه عندما قيام جميلات البلاط بزيارة الأمير العليل. فلم يجد اي أثر يتخلف على اساريره دليلاً على ما يبطن من عاطفة، على كثرة النساء اللاتي أختلفن اليه. الاّ انه لاحظ الأعراض المعهودة، كلما دخلت ستراتيونيكي اليه وحدها او برفقة [سلوقوس]. تلك الأعراض التي وصفتها [سافو Sappho] وهي رعشة صوته واحمرار وجهه واستراق النظرات وزيغانها، وعَرَق مفاجيء ينضحُ من سائر جسمه، ومسارعة خفقان قلبه، واضطرابه وعجزه عن ضبط طغيان عاطفته، وامتقاع وجهه بعد احمرار، ثم الاغماء وفقدان الوعي.

فكر [ايراسيستراتوس] بالأمر ملياً ودرس الأعراض، وأخذ يقلب الاحتمالات من شتىّ الوجوه. فأستقرّ على ان من يحبها لو كانت غير [ستراتونيكي] لما بدأ منه هذا الإصرار العجيب على الموت، ولا البوح يسره وشعر بالصعوبة التي تكتنف حَلّ مشكلٍ كهذا وابلاغ [سلوقوس] بالحقيقة. الاّ انه اعتمد شدّة تعلق الاب بالفتى وحنانه العظيم. وأخيراً سنحت له فرصة واعلمه بأن مرض ابنه هو الحبّ. حبّ يستحيل ان يبرأ منه او يعالج به. فكان عجب الملك شديداً وسأله:

- ولماذا يتعذر شفاؤه منه؟

فقال [ايراسيستراتوس]: في الواقع انه يحبّ امرأتي!

فقال [سلوقوس]: كيف؟ وهل يرفض صديقنا [ايراسيستراتوس] ان يمنح امرأته لابني وولي عهدي الوحيد، وهو السبيل الوحيد لانقاذ حياته؟

فأجاب الطبيب: اولست اباه؟ اتفعل فعلي لو كان من يحبّه ستراتونيكي؟

فقال [سلوقوس]: ثق أيها الصديق، اني لأرجو من السماء أن تيسرّ لي اي وسيلة كانت انسيّة ام ربانية، لتتحول عاطفته الى هذه الجهة؛ اني لأسر لا بالتنازل عن [ستراتونيكي] وحدها بل عن امبراطوريتي. ان كان في ذلك امل في انقاذ [انطيوخوس].

قال [سلوقوس] هذا بعاطفة حافلة بالصدق وكانت دموعه تنهمر اثناء الحديث. وعندئذ امسك [ابراسيستراتوس] بيده وقال:

- أنت الآن لست بحاجة الى [ابراسيستراتوس]. فأنت الزوج وانت الأب، وانت الملك. فأنت اذن الطبيب المناسب لاسرتك!

فبادر [سلوقوس] الى دعوة الشعب وصارحهم باعتزامه تنصيب ابنه ملكاً وستراتيونيكي ملكة على كلّ الاقاليم الواقعة في شرق آسي. وان يجمع بين الاثنين برباط الزواج. وقال انه يملك السلطة الكافية على ابنه حسب اعتقاده فهو لذلك لايتوقع منه اعراضاً وصدوداً عن اوامره هذه. واما بخصوص [ستراتونيكي] فهو يأمل ان يوفق اصدقاؤه في اقناعها. واذا اظهرت ترددا وتمنعاً. فليفهموها بأن هذا في الواقع اعلاء لشأنها وتكريم لمنزلتها. وهي أمور لا غبار عليها مادام قرر الملك انها ضرورية للصالح العام.

وبهذه الوسيلة تم زواج [انطيوخوس] بستراتونيكي، على ما روي لنا الرواة.

ولنعد الى [ديمتريوس] بعد ان تربع على عرش مقدونيا. فقد انقضّ على تساليا وأخذها. كما ضبط القسم الاكبر من [البيلوبونيسس] ومن الجهة الغربية من البوغاز. استولى على ميغارا وآثينا. ثم زحف على البويوثيين وعولج الأمر اولاً بالتفاهم. الاّ ان [كلونيموس Cle-onymus] السپارطي انجدهم بجيشه ودخل [ثيبه] وجرّ أهم على المقاومة [پيسيس Pisis] التسپي وهو اقواهم نفوذاً فنبذوا اتفاقهم جانباً. لكن ما أن دنا [ديمتريوس] من الأسوار بآلات حصاره حتى دبّ الخوف في قلب [كليونيموس] وانسحب في موهن من الليل. ولما وجد البويوثيون انفسهم وحيدين في الميدان، اعلنوا خضوعهم فوضع [ديمتريوس] حامية في مدينتهم وفرض عليهم غرامة كبيرة، ونصب [هيرونيموس Heironymus] المؤرخ حاكماً وقائداً عسكرياً في المدينة. ولم ينل [پيسيس] باذى وانما توجه اليه بالكلام الرقيق وجامله وعينه رئيساً لقضاة تسپيا Thesipiae.

وبعد قليل، وقع [ليسيماخوس] في اسار [درومیخیتس Dromichaetes] فأهتبل

[ديمتريوس] فرصته واستولى على [تراقيا] التي بقيت دون ملك يحكمها. الاّ ان البويوثيين تمردوا عليه من جديد، ووردت انباء باطلاق [ليسيماخوس] من الأسر. فعاد [ديمتريوس] ادراجه غاضباً ليجد ان ابنه [انتيغونس] قد سبقه الى سحق البويوثيين في معركة طاحنة فباشر هو حصار ثيبة. وفي اثناء ذلك علم ان [پيروس] شنّ الغارة على تساليا وانه وصل حتى مشارف [ثرموبيلي] فاوكل لانتيغونس تشديد الحصار وزحف ببقية الجيش لمهاجمة المغير، الاّ ان [پيروس] اسرع بالانسحاب. فترك [ديمتريوس] عشرة الآف من المشاة والفاً من الخيالة في تساليا وعاد لمواصلة حصار [ثيبة]. وجاء بـ«قانصة المدن» الشهيرة لدعم هجومه. وكانت حركة هذه البارجة في غاية البطء والصعوبة لضخامة جرمها وثقل هيكلها ولم تتقدم أكثر من فرلنگين اثنين في غضون شهرين. وكان الاهالي في الوقت ذاته يستميتون في الدفاع. حتى ليبلغ جنون العناد [بديمتريوس] الى حد ارسال جنوده في مهمات خطرة جداً دون ضرورة او ثمرة. وكان ابنه [انتيغونس] يرقب بعين الأسى هلاك الكثير من الجنود في مثل هذه الهجمات فناشد اباه قائلاً:

– لماذا نحن نواصل تعريض حياة الرجال للهلاك في حين لا ضرورة ثم لذلك؟

فقاطعه [ديمتريوس] وقال له بحدّة:

– وانت يا سيدي الفاضل! لماذا يؤلمك الأمر، أياتي الموتى اليك يطلبون الارزاق اليومية؟

على ان الجنود لم يكونوا ليرفضوا له امراً اذ يجدونه قليل الاحتفال بسلامته لايقيم لحياته وزناً قدر ما يقيم لحياتهم ويهتم بهم، ويعرض نفسه لاعظم الأخطار دون تداخله شفقة بحاله. وقد اصيب عنقه بطعنة حربةٍ حتى خيف على حياته. الاّ انه واصل الحصار مع ذلك. حتى فتح المدينة ودخلها واهلها يرتجفون خوفاً وهلعاً متوقعين منه كل قسوةٍ يمكن ان يستخدمها الفاتح الغاضب. الاّ انه أكتفى بارسال ثلاثة عشر شخصاً الى الآخرة. ونفى عدداً قليلاً وعفا عن الجميع: هكذا حوصرت ثيبه مرتين وفتحت مرتين في فاصل قصير من الزمن – تلك المدينة التي لم يمض على اعادة بنائها عشر سنوات كاملة.

بعد هذا حّل موعد الاحتفال بعيد [اپوللو] البيثني. وكان الاتيوليون قد سدواً كل المنافذ الى دلفي – فأحيا [ديمتريوس] العيد والالعاب معاً في اثينا. متعللاً بأن يكون هذا الاكرام في اثينا لأن اپوللو هو الآله الشفيع للشعب الآثيني، ومؤسس امتهم على ما يعرف.

ثم عاد [ديمتريوس] الى مقدونيا. وكان ينفر من الهدوء والاستقرار بطبعه ويدرك ان المقدونيين هم اطوع الشعوب واسهلهم انقياداً عندما تشغلهم مشاغل القتال والحملات

العسكرية، وهم ابعد عن الاستقرار واقرب الى التمرد والتململ في اوقات السلم والبطالة. فزحف بهم على الايتوليين المتمردين وبعد ان عاث في بلادهم سلباً وغصباً، ترك [پنتاوخوس Pantauchus] مع جانب من جيشه لأكمال الفتوح وزحف بالبقية لمطاردة [پيروس] الذي كان هو الآخر ينشد لقاءه. الاّ ان الصدف حكمت بان يسلك كل منهما طريقاً مختلفاً فلم يتلاقيا. لكن عندما دخل [ديمتريوس] ايپروس واجتاح كل ما صادف امامه كان پيروس يباغت [بنتاوخوس] ويلتحم مع في معركة اليد باليد وجرح القائدان. الاّ ان الغلبة كتبت [لپيروس] ووقع في يده خمسة آلاف اسير وسقط كثير من القتلى في ميدان القتال. ان اسوء ما في الأمر هو ان [پيروس] كان يثير في النفوس من الاعجاب اكثر مما يثيره من العداء. وبسالته الفائقة ومساهمته في القتال شخصياً، رفعت اسمه ومكانته لدى المقدونيين فأخذوا يمجدونه ويلهجون باسمه قائلين انه الملك الوحيد القريب الشبه بالاسكندر. فالملوك الآخرون ولاسيما [ديمتريوس] لم يحاولوا احتذاء حذوه بالافعال بل كانوا اشبه بالممثلين على المرسح، يحاكون عظمته وجلال مظهره لا غير. والواقع ان [ديمتريوس] كان مجرد ابهة فارغة ولعبة مزخرفة بارديته وتيجانه وارجوانه المطرز بالذهب وقلانسه بذوائبها الغليظة واحذيته المصنوعة من أفخم اللباد الارجواني المطرز بالذهب. ولنخصّ رداء واحداً بالوصف: انه نسيج فنيّ رائع اطول من ان يتسع لنول الحائك عند نسجه. نقشت عليه صورة الكون والاجرام السماوية لم يكمل نسجه لأن النكبات داهمته فأشغلته عنه، ولم يقدم احدٌ من خلفائه على ارتدائه مع ان سلالته لم تخل من المتفجرفين المتغطرسين.

لم تكن هذه الأبهة المرسحية وحدها سبب اشمئزاز المقدونيين وقرفهم. بل كان ايضاً بذخه وترف عيشه بل صعوبة الوصول اليه والتحدث معه. فهو مترفع محتجب لايرى اذا كان في حالته الاعتيادية واذا سمح بمقابلة فهو عنيف لايطاق كريهُ الاستقبال. فمع انه كان يهتم بأمور الآثينيين أكثر من سائر الاغريق، فقد ترك وفداً لهم، عامين كاملين ينتظر الحصول على اذن بمواجهته. وارسل اللقيديميون موفداً واحداً في سفارة، فعدها إهانةً وسأل غاضباً. احقّ ان اللقيديميين لم يرسلوا غير سفير واحدٍ. فأتاه الجواب دراكاً:

- أجل سفير واحدٌ لملك واحد!

وفي حالة من حالة الصفاء وطيب المزاج، خرج مرةً راكباً جواده فلحقه عدد من الناس وقدموا اليه مظلمات مكتوبة في رقاع فتناولها منهم جميعاً بكلّ لطفٍ ووضعها في جيبه، فعمت الناس الفرحة واخذوا يتابعونه في السير حتى اذا وصل الجسر الممتد فوق نهر [اكسوز Axius] نفض جيب معطفه فتساقطا كل الرقاع في النهر. هذه الفعلة اثارت اشد السخط

والحنق في نفوس المقدونيين وشعروا بأنهم لايحكمون بل يهانون. وتذكروا ما شهده بعضهم في الأيام الخوالي. وتسامع آخرون ما حكي عن بساطة الملك [فيليب] وسجاياه السمحاء اللطيفة.

في يوم ما اعترضت امرأة عجوز سبيله عدة مرات وهو سائر والحت عليه بأن يصغي اليها فلما اجابها بأن لا وقت لديه صاحت به:

- ان كان الأمر كذلك، فلا وقت لديك لتكون ملكاً.

اصابه هذا التوبيخ في الصميم. ففكر ملياً وعاد الى بيته، ونبذ جانباً كل ما يشغله واوقف نفسه اياماً عديدة على سماع شكاوى كل قاصد، مبتدئاً بالعجز.

ان نشر العدل هو اول ما يجب ان يهتم به الملوك في الواقع. ويقول [طيموثيوس]: «ان مارس هو الطاغية»، لكن «القانون هو ملك الجميع». كما يقول پندار. وهوميروس، لم يقل ان الملوك يتسلمون منه مبادئ العدل ليحفظوها ويطبقوها. وجوپتر، لم يمنح لقب «الصديق الاعز، والتلميذ» لأشد الملوك مراساً في القتال، ولا لأكثرهم ظلماً ونعطشاً للقتل. بل لأعدلهم وأكثرهم انصافاً. وكان [ديمتريوس] يُسّر بتلك الالقاب التي يمجها ذوق رأس الالهة وينبو عنه. امّا الاسماء الطيبة التي تخلعها الآلهة فهي امثال «المدافع» و«الساهر». وأما هو فقد عرف بلقب «محاصر المدن» لقد اعطى الصدارة في موضع - لو لم يكن جاهلاً قدر ما هو قوى - لعلم انه صدارة الرذيلة. وقد أختلط الشرف بالجريمة بعمله هذا.

كان [ديمتريوس] طريح الفراش يعاني مرضاً خطيراً في پللاً Pella بينما راح [پيروس] يبتلع مقدونيا متقدماً حتى مدينة [اديسا Edessa]. ولكنه اسرع بطرده بعد ان تماثل للشفاء، ثم عقد معه صلحاً اذ لم يكن يريد اشغال نفسه بسلسلة من الحروب المحلية مع احد جيرانه بينما ركز افكاره في هدف آخر: الا وهو محاولة استعادة امبراطورية ابيه. وكان استعداده يناسب آماله العريضة ومشروعه الجسيم. فقد باشر بتجنيد ثمانية وتسعين الفاً من اشاة وزهاء اثني عشر الفاً من الخيالة، وبدأ في بناء عمارة بحرية تتألف من خمسمائة سفينة. بعضها بناه في اثينا، وبعضه في كورنث. وجزء في خلقيس وبالقرب من [پللا] وكنت تراه كثير الحركة والتنقل بين هذه الاحواض لاصدار اوامره والاشراف على التصاميم وكان الذهول يرتسم على الوجوه عندما يتأمل المشاهد الكثيرة والضخامة فالى ذلك الحين لم يكن معروفاً في عالم السفن، بارجة ذات خمس عشرة طبقة او ست عشرة. لقد بنى [بطليموس] فيما بعد سفينة ذات اربعين طبقة طولها مائتان وثمانون كيوبيتا. وارتفاعها

حتى قمّه مؤخرتها. ثمانية واربعون كيوبيتا. فيها اربعمائة نوتي، واربعة آلاف جذاف وتتسع لثلاثة آلاف جندي تقريباً للحرب على ظهرها على ان هذه السفينة كانت للاستعراض والمظهر لا تستخدم في الحرب. وهي اشبه شيء بصرحٍ مشمخّر ثابت البنيان على ساحل البحر لايمكن تحريكها الأ بعد الجهد الجهيد وتعريضها للمخاطر. اما سفن [ديمتريوس] هذه فقد صممت للقتال فضلاً عن الاستعراض. ومنظرها لايقلّ باي حالٍ عن فائدتها وهي تثير الاعجاب حقاً بسرعتها ومتانتها مثلما يثيره جرمها.

هذه الاستعدادات الهائلة لحملة آسيا التي لم يجر مثلها منذ غزوة الاسكندر لها، قربت ما بين [سلوقوس] و[بطليموس] و[ليسيماخوس] فعقدوا حلفاً دفاعياً. كما بعثوا بسفرائهم الى [پيروس] ليحملوا على القيام بعملية مشاغلة حربية عن طريق مهاجمة مقدونيا. ولم يكن هذا بحاجة الى كثير تفكير بقيمة معاهدةٍ يعقدها [ديمتريوس]، فهي لديه مجرد وسيلة من الوسائل التي تساعده على اختيار عدوّه ومهاجمته. فبادر [پيروس] الى قبول عرضهم وكان [ديمتريوس] في متنصف مرحلة الاستعداد. فما وجد نفسه الأ والقتال يكتنفه من جميع الجهات. [بطليموس] يغزو بلاد اليونان باسطول جبار. وليسيماخوس يدخل مقدونيا من جهة تراقيا وپيروس يقتحم حدودها من جهةٍ [ايپيرون] فيجتاح هذان الأخيران بلاده ويعيثان فيها سلباً وتدميراً. ترك [ديمتريوس] ابنه للاهتمام بمصير بلاد اليونان وتقدم لانقاذ مقدونيا واختار [ليسيماخوس]. وبلغه وهو في تقدمه ان [پيروس] استولى على [بيرويا Beroea] فسرى النبأ الى الجنود بسرعةٍ وقضى على النظام وفقد السيطرة وامتلأ جو المعسكر بالبكاء والعويل وصيحات الغضب والقدح في [ديمتريوس] وصب اللعنات والشتائم عليه. وأعلنوا انهم لن يبقوا بل سيذهبون لانقاذ بلدهم واصدقائهم وذويهم. وكانت نيتهم الحقيقية، الانتقاض على [ديمتريوس] والانضمام الى [ليسيماخوس]. فرأى [ديمتريوس] ان افضل ما يمكن عمله هو ابعادهم قدر المستطاع عن ليسيماخوس لأنه ابن بلدهم وفي جيشه كثيرون يعطفون عليه ويحبونه، قادم جديد واجنبي عنهم يصعب تفضيله لذاته. غير انه وجد نفسه على خطأ مبين في تقديره هذا. فما ان اصبح قريباً من [پيروس] وضرب خيامه امامه، حتى سرت نفحة اعجاب كامن ببسالته واقدامه. وكان الجنود يتناقلون خلفاً عن سلفٍ القول المأثور بان خير الملوك هو اشجع الجنود. ولطالما تحدثت الالسن عن معاملته الكريمة لأسراه وعدالته، ولا نطيل فقد كان جنود [ديمتريوس] يريدون استبداله، ووجدوا في [پيروس] خير بديل. وفي مبدء الأمر خرجت شراذم المؤخرة عليه، وما مرّ زمن حتى أعلن الجيش برمته عصياناً وبرز عدد منه الى ديمتريوس، وابلغوه بصراحة أن يعجل في الرحيل ان كان يقيم وزناً لحياته. لأنهم قرروا

بالاً يجازفوا بارواحهم بعد اليوم ليؤمنوا له عيشه الباذخ وليمتعوه بالملذات. لاشك انه كلام معقول صحيح اذا قورن بما سمعه من قبل. فلم ير بداً من الانسحاب الى خيمته وابدل ثيابه الملكية كما يفعل الممثلون بثياب عادية، وتسلل خارج المعسكر، وما ان غاب خياله عن النظر حتى شرع الجنود يختصمون ويفتك بعضهم ببعض لحيازة اسلاب خيمته. الاّ ان [پيروس] وصل فوراً ووضع يده على المعسكر ولم يقع حادث مؤسف خلال ذلك. ثم عمد الى اقتسام مقدونيا مع [ليسيماخوس] بعد ان ملك عليها [ديمتريوس] سبع سنين متواصلة.

وذهب [ديمتريوس] الى [كساندريا Cassandria] بعد ان فقد كل شيء. وادرك [فيلا] حزن عظيم ولم تتحمل رؤية زوجها في هذه الحالة المزرية من سوء الطالع لايّعدو وشخصاً عادياً منفياً عن بلاده. فرفضت ان تتعلق بأملٍ آخر. وقررت ترك حال لاثبات له ولا استقرار الاّ في الكوارث والنوائب. فشربت سماً وماتت. وشد [ديمتريوس] الرحال الى بلاد اليونان وهو مصرّ على التعلق بالحطام. وهناك جمع اصدقاءه وضباطه حوله. يقدم لنا [فيلاوس] في مسرحية [سوفوكلس] صورة عن تقلب احواله فيقول:

... اما انا فقد وجدت مصيري، وأاسفي -
يدور فوق عجلة الآلهة السريعة.
فيظل في تقلّب وتحوّل، مثل اشكال القمر الجميل
لايستمر ليلتين على حالة. بل يبدو اولاً في الظلّ
هلالاً ثم يكبر ويزداد جمالاً حتى يكتمل بدراً
ثم يتناقص شكله الكامل ويتضاءل حتى يختفي تماماً.

يصدق هذا التشبيه على [ديمتريوس]. فترى خطه في ارتفاع، واذ به يتضاءل ويتناقص، ثم يزيد ليحطّ فجأةً وهكذا، في طور ضموره وخمول شأنه يسطع ضوءه مرة أخرى وتبدأ وسائل القوة تقبل عليه شيئاً فشيئاً فتحيي في نفسه الأمل ثانيةً ظهر في مبدء الأمر في ثياب رجل بسيط يطوف في المدن عاطلاً عن مظاهر الملك. ولقيه احدهم في [ثيبه] فتذكر به قصيدة ليوريپيدس بلغ فيها كبد الحقيقة اذ قال فيها:

ذليل امام البشر، منبوذ من القوى الالهية
قادم الى دركه Dirce والى جهة اسمينوس Ismenus

وسرعان ما أخذت آماله تنتعش وتسلك سبيلها الملكيّ. اذ راح يجمع حوله اطار مملكةٍ. وأهدى الى الثيبيين دستورهم السابق. اما الآثينيون فقد نبذوه وعزلوا [دفيلوس Diohilus] كاهن «الربين الحارسين» في تلك السنة واعادوا الأرخون كالسابق وارجعوا السنة الى ما كانت

عليه. ولما سمعوا ان [ديمتريوس] لم يعد ضعيفاً كما ظنوا. ارسلوا الى [پيروس] في مقدونيا يلتمسون حماية منه. وعندها ثار غضب [ديمتريوس] وزحف على آثينا والقى حصاراً محكماً حولها. فضاق الأمر بهم وارسلوا اليه [قراطس Crates] الفيلسوف وهو رجل ذو نفوذ وسمعة فنجحت وساطته بحكمته وحسن تصرفه واقنع [ديمتريوس] برفع الحصار. ثم انه جمع كل سفنه واصعد اليها أحد عشر الف راجل مع الخيالة واقلع بها الى آسيا وهدفه انتزاع اقليمي [كاريا] و[ليديا] من قبضة [ليسيماخوس]. ووصل الى [ميليتوس] فالتقى هناك - [يوريديكي Euridice] شقيقة [فيلا] وكان معها بنتها [بطليمياس] التي ولدت لها من الملك [بطليموس] وهي خطيبة [ديمتريوس] كما ذكرنا، فتزوج منها هناك. وشرع في تنفيذ خططه وواتاه الحظّ في اول الأمر، حتى ان مدنا عديدة شقت عصا الطاعة وانضمت اليه. كما انه نجح في الاستيلاء على المدن التي امتنعت عليه لاسيما [ساردیس]. والتحق به ايضاً عدد من قواد [ليسيماخوس] بجنودهم واموالهم. الأ انه انسحب الى [فريجيا] عازماً التوجه الى [ارمينيا] عند وصول اغاثوكليس ابن ليسيماخوس على رأس جيش. وكان يرى ان تثبيت قدمه في ارمينيا يتيح له الفرصة لاطلاق لهيب الثورة في ميديا وبذلك يتمركز في شرق آسيا، حيث يسهل على قائدٍ هاربٍ مثله ان يجد له مائة طريقة وطريقة للروغان والهرب. على ان [اغاثوكليس] جَدّ في اثره دون أن يمنحه راحة. ووقعت عدة اشتباكات صغيرة كانت الغلبة فيها [لديمتريوس]. لكن مضايقة اغاثوكليس اشتدت. حتى ازهق انفاسه بغاراته المستمرة عليه واظهر رجاله مللهم ونفورهم من اهدافه وهي كما تصوروها: الابتعاد بهم مسافة كثيرة في مجاهل ارمينيا وميديا. وتفشت المجاعة فيما بينهم واخطأوا في عبور نهر [ليكوس Ly-cus] ففقدوا بسبب ذلك عدداً كبيراً منهم اذ جرفهم التيار واغرقهم. على ان روح الدعابة لم تفارقهم، فقد عمد احدهم الى تثبيت رقعة على باب خيمة [ديمتريوس] كتب فيها بيتين لاوديپ Oedipus. اجرى فيهما بعض التغيير:

«يا ابن الشيخ الأعمى انتيغونس الى اية بلادٍ جئت بنا؟

وبدأ الطاعون يفتك بهم فضلاً عن الجوع، وهو مالا مناص منه عندما تلجيء الضرورات الجيوش الى الاعتياض عن جراياتها المعتادة بما يتيسر لها من قوت. وبهذا الوباء فقد ثمانية آلاف من رجاله، فأنسحب بالبقية الى [طرسوس]. ولما كانت هذه المدينة من املاك [سلوقوس] فقد حرص ان يجنبها السلب والنهب متوخياً أن لايلحقه اي ضررٍ. وكان يصعب عليه ضبط اندفاع جنوده وهم في اشدّ حالات الضيق. فقد عمد]اغاثوكليس] الى شدّ منافذ جبل [طرسوس] وضيقا الخناق عليه. فلم ير بداً من الكتابة الى [سلوقوس]. وبدأ رسالته

بالتظلم من سوء حظّه، ثم انتقل الى الرجاء والتوسل، وتحريك عاطفة الحنان على قريب له ابتلى بالارزاء والمحن حتى رقّ له اعداؤه واشفقوا عليه. فأثرت رسالته في نفس [سلوقوس] واصدرا اوامره الى حكام تلك الاقاليم باكرام وفادة [ديمتريوس] وتزويده بما يتفق ومقامه الملكي. وبما يكفي جنوده من الارزاق. الاّ ان [باتروكليس] وهو رجل محترم الرأي عند [سلوقوس] وصديق مخلص وموضع ثقة كبيرة اشار عليه قائلاً: ان نفقات اعاشة هذا العدد من الجنود ليس من الاهمية بشي. ولكن من خطل السياسة ان يبقى ديمتريوس في بلاده. فهو من دون سائر ملوك عصره، عنيف، مغرم بالمخاطرات جرئ في اطلاب المغامرات. وهو الآن يعاني وضعاً يغرى أكثر الناس اعتدالاً ودمائة بمحاولات جنونية يائسة. اثارت هذه النصيحة هواجس [سلوقوس] فتحرك بجيش جرار نحو [كيليكيا] فغلبت الدهشة على [ديمتريوس] من التغير الفجائي وتدبر امر سلامته بالانسحاب الى أشدّ المواضع وعوثة ومناعة من جبل طرسوس. وارسل من مربضه هذا رسلاً الى سلوقوس يرجوه السماح له بالبقاء مع جيشه في محلٍّ ما بين قبائل البرابرة المستقلة. وبذلك يتسنّى له ان يجعل من نفسه ملكاً صغيراً، وان يختم حياته هناك بعيداً عن المشاكل والمتاعب والتنقل. اما اذا رفض طلبه هذا، فليقدم على الأقل قوتاً لجنوده اثناء الشتاء وان لايعرّضه وهو في وضعه المحزن هذا الى شماتة اعدائه وحقدهم.

الاّ ان حسد [سلوقوس] وهواجسه جعلته يتبين في كل ما كتبه سوء النية. فأجاب انه يسمح له بالبقاء شهرين في [كاتاونيا Cataonia] ولا أكثر من هذا على ان يرسل اليه فوراً كبار اصدقائه لابقائهم رهائن لديه حتى رحيله. ثم عمد في الوقت نفسه الى تحصين كل الممرات المؤدية الى سورية. فوجد [ديمتريوس] نفسه اشبه بالوحش الضاري في الشرك، مطوقاً من كل الجهات والجأه يأسه هذا الى الدفاع المستميت عن نفسه فأخذ يشنّ الغارات على البلاد واستظهر على [سلوقوس] في عدة هجمات شنها هذا عليه. ونذكر عنها تعرضه لهجوم العجلات ذات الأسنة المنجلية. فتحاشى الهجوم وراغ منه ثم كرّ على المهاجمين فهزمهم. ودفع بالجنود الذين وضعوا لحراسة الممرات الى الوراء وسيطر على الطرق المؤدية الى سورية. فأرتفعت معنوياته كما دبت في نفوس جنوده الحماسة فقرر الاندفاع الى الأمام دون تردد والدخول في معركة فاصلة مع [سلوقوس] يتقرّر فيها كلّ شيء. وكان [سلوقوس] في واقع الأمر يعاني القلق والهّم. فهو من جهة يكره ان يأتيه اي عون من [ليسيماخوس] لأنه يخشاه ولايثق به. وهو من جهةٍ يحجم عن الدخول في معركة مع [ديمتريوس] لأنه يعرف مدى بأسه. وتقلبات حظّه العجيبة التي طالما ارتفعت به فجأة في أسفل سافلٍ الى أعلى عليّ.

وتقدم [سلوقوس] منه وضرب مخيمه على مقربة، ثم حرك [ديمتريوس] جنوده يبغي مباغتة ليلاً وظلّ [سلوقوس] الى آخر لحظة يجهل كلّ شيء وآوى الى فراشه حين أقبل احد الهاربين واعلمه باستعداد العدوّ، ولم يجد لنفسه الوقت الكافي ليهبّ من فراشه وهو في اشدّ حالات الانزعاج، لينذر رجاله وكان يصدر الاوامر لضباطه ويوصيهم باليقظة والحذر لأنهم سيجابهون وحشاً ضارياً رهيباً وهو يحشر رجليه في حذائه. واستنتج [ديمتريوس] من الضوضاء القائمة في معسكر العدو ان الأمر المبيت لم يعد سراً وان خطته انكشفت فسحب جنوده بسرعة. وفي صباح اليوم التالي كان [سلوقوس] يضغط عليه ضغطاً شديداً. وأمرّ احد ضباطه على الجناح الايسر ودحر القوات التي تواجهه. وترجل [سلوقوس] ونزع خوذته وتناول ترساً وتقدم عن صفوف الجنود المرتزقة الامامية وكشف لهم عن شخصه وطلب منهم ان يتبعوه ويتركوا ديمتريوس قائلاً «انما لأجل سلامتهم، امتنع عن المعركة هذه المدة الطويلة. فحيوا [سلوقوس] تحية الملك وانفصلوا عن [ديمتريوس] وانضموا الى سلوقوس اليه دون ان يرفع احد منهم يده بضربة.

وهنا إدرك [ديمتريوس] انه وصل الى نهاية لعبة الحظّ، ولم يعد بعد أمل في انقلاب. فهرب الى شعاب جبال امانوس وقذف نفسه مع شرذمة من الاصدقاء والاتباع في احشاء غابة كثيفة وظلّ هناك ينتظر الليل وكل قصده ان ينجو بجلده بالتوجه نحو [كاونس Caunus] ان تيسّر له ذلك. فقد كان يأمل ان يجد سفنه متاهبة لنقله، لكنه وجد بعد سؤال الربابنة انهم لايملكون اقواتاً ولو ليوم واحدٍ فبدأ يفكر في وسيلة أخرى للنجاة. وفيما هو يقلب وجوه الرأي، وصل صديقه [سوسيگينس Sosigenes] ومعه اربعمائة قطعة من الذهب وبهذا الفرج راوده الأمل بالوصول الى الساحل وما ان بدأ الظلام يسدل استاره حتى انطلق نحو الشعاب. الاّ ان ألسنة النيران المشبوبة انذرته باحتلال العدو لها فودّع كلّ امل له بهذا السبيل وانسحب الى مقرّه في الغابة ببعض رجاله. فقد هرب بعضهم ولم تبق في الباقين رغبة في ملازمته. وتجرأ احدهم على القول: بأن الأفضل له تسليم نفسه [لسلوقوس] فسمعه [ديمتريوس] فاستل حسامه وكاد يطعنه الاّ ان اصدقاءه حالوا دون ذلك. وراحوا يبذلون الجهود لاقناعه بهذا الحلّ حتى رضخ وارسل الى سلوقوس يعرض عليه الاستسلام دون قيد او شرط.

عندما ابلغ [سلوقوس] بهذا قال: ليس حسن حظّ [ديمتريوس] الذي هداه الى طريق نجاته هذا، بل حسن حظه بالأحرى. فقد اتيح له ان يضيف الى سمعته مظهراً من مظاهر رأفته وكرمه. وبادر في الحال الى اصدار الأمر لضباط اعاشته ومديري شؤونه الخاصة باعداد سرادق ملكي وكل ما يليق باستقبال فخم مع ضروب التسليات وكان بين حاشية [سلوقوس] شخص

يدعى [ابللونيدس] وهو من اصدقاء [ديمتريوس] المقربين في الماضي. فكان والحالة هذه اصلح من يرسل من لدن الملك لاستقبال [ديمتريوس] كي يزداد اطمئناناً ويجيء وهو متأكد من استقباله كصديق وقريب ولما انتشر نبأ تلك الوفادة أسرع الحجاب والسعاة والضباط، (في مبدء الأمر قلة منهم، ثم كلهم تقريباً) الى [ديمتريوس] يتسابقون في تقديم الاحترام له. وقد زين لهم خيالهم ان [ديمتريوس] سيتبؤ المكانة الأولى عند الملك. واحدثت هذه الضجة اثرها الفوري وانقلبت العاطفة الصادقة الى حسدٍ وشكّ وتيسّر للخبثاء وسيىء السريرة ان يلمحوا بسهولة بأن انسانية سلوقوس هذه لاتنطوي على ايةً حكمةٍ، وسيكون اول ظهور لديمتريوس سبباً في هيجان خطيرٍ في الجيش. ولهذا فبينما كان [ابللونيدس] ومعه الجمّ الغفير يشرح لديمتريوس وهو في غاية البهجة نوايا [سلوقوس] الطيبة. وان عليه - بعد هذه الارزاء والمصائب ان ينسى هواجسه ويطرح اي شعور يخالجه بالمهانة لتسليمه وان يثق بالآمال الطيبة فيما كان [ديمتريوس] يصغي الى هذه الاقوال، واذا [بپاوسانياس] يصل على رأس ألف من الحرس مشاة وفرساناً فيحيطون به، وبعد ان فرقوا الناس المستقبلين اخذوه لا الى [سلوقوس] بل الى [الخرسونيز] في سورية ووضع هناك تحت حراسة قوية ووفروا له ما يكفي من الخدم واسباب العيش وسمح له بمسافة محددة للنزهة على ظهر الخيل او السير وخصص له غابة للصيد وسمح لاصدقائه ورفاقه في المنفى بزيارته. وكانت ترده من [سلوقوس] رسائل لطيفة من حين لآخر يطمئنه فيها ويشير الى قرب اخلاء سبيله، حال وحول [انطيوخوس] و[ستراتونيكي].

بعد ان ايقن [ديمتريوس] بحكم القدر. بعث برسائل الى اعوان ابنه والى قواده واصدقائه في آثينا وكورنث يوصيهم بالاً يقيموا وزناً لاي رسالة تصلهم باسمه ولو كانت مختومة بختمه، وان يعتبروه في عداد الموتى. وان يحافظوا على سلامة المدن وكل ما بقي من املاكه، لابنه وخليفته [انتيغونس].

استقبل [انتيغونس] نبأ اسر ابيه بحزن عميق ولبس الحداد عليه وكتب رسائل لجميع الملوك ولسلوقوس نفسه مستعطفاً له راجياً، وعرض ان ينزل عن كل ما بقي من املاكه بل ان يضع نفسه رهينة في مكانه. وايده امراء ومدن كثيرة في ملك الشفاعة الأ [ليسيماخوس] فقد عرض على [سلوقوس] مبلغاً كبيراً من المال لقاء قتله. لكن [سلوقوس] الذي لم يحاول قط اخفاء بغضه بليسيماخوس، صرحّ بأنه اكبر غول بربريّ، اذ يفكر في هذا العمل الوحشي. على انه ظلّ يرجيء ويسوّف. محتفظاً بالفضل [لانطيوخوس وستراتونيكي] على ما يقول.

تكررت ضربات الحظّ على [ديمتريوس] فتحملها حتى بات معتاداً وبدت له بمرور الزمن

محتملاً. في مبدأ امره عكف على ترويح نفسه بمختلف الاشكال. فيخرج للصيد ويركب الخيل... الأ انه أهمل نفسه شيئاً فشيئاً وبعد فترة من الزمن عاف كلّ شيء، وانصرف الى لعب النرد وشرب الخمر، وكان يقضي فيهما جلّ يومه. (الأمر سواء أإتخذها سبيلاً لنسيان واقعة الذي كان يعذب فكره وهو صاح فيغرقه في الخمر، أم أنه وجدها السعادة الحقيقية التي طالما صبا اليها وجن فكان من الغباء والحمق أن انصرف عنها تحت اغراء من الشهرة الزائلة والطموح التافه الذي لم يأته بغير الكوارث له وللآخرين ان ارفع درجات السعادة التي ظن ان السلاح والاساطيل والجيوش ستنيله اياها، توصل اليها الآن في الخمول والراحة.

والحقيقة هي ان كل غاية من الحروب وركوب الأخطار، والمتاعب التي يتعرض لها الامراء المنكودون هي عبث باطل. ان حماقتهم وبؤسهم لن يكونا قاصرين على جعلهم الترف والمتع غاية حياتهم بدلاً من الفضيلة والتسامي. بل على جهلهم ابن يكمن ذلك الترف والمتع وظلّ [ديمتريوس] رهن الأسر في الخرسونيز، ثلاث سنين. وبعدها دهمه المرض بسبب الخمول والعزوف عن الرياضة والعكوف على الخمر وكثرة الاكل فمات من جراه وله من العمر اربع وخمسون سنة. ونالت الالسن من [سلوقوس] وادركه أسف شديد لضعفه امام شكوكه، وتماديه فيها. فلم يرق الى فعل [درومیخیتوس Dromichetes] البربري التراقي الذي اظهر من المعاملة الانسانية والاخلاق الملكية لأسيره [ليسيماخوس] مالم يظهره لأسيره وقريبه.

وثم فصل مرسحي درامي في مراسيم التشييع التي اجريت لجثمان [ديمتريوس]. فعندما علم ابنه [انتيغونس] بمجيء رفاته من سورية خرج للقائه بسائر اسطوله فسلم له في اناء ذهبي. فوضعه في أكبر سفينة قيادة. وكانت كل مدينة ترسي في هذه العمارة التجرية ترسل تاجاً ليزين به الإناء، ويتوافد بعض المواطنين منها للمشاركة في المأتم ومراسيم الجناز ولما اقترب الاسطول في ميناء [كورنث] عرض الإناء وهو مغطى بالارجوان يعلوه التاج الملكي على سطح السفينة. واستقبله على اليابسه سرية من الشبان المدججين بالسلاح. وعزف [كزينوفانتس Xenophantes] اشهر موسيقيي زمانه على المزمار اثقل الحانه فنسق الجذافون ضربات مجاذيفهم على ايقاعه عند دخول السفينه المرفأ فبدأ وقعا يشبه ضرب الصدور في موكب التشييع، مع ضبط الردة والفواصل والايقاعات الموسيقية. واثار [انتيغونس] العواطف بثياب الحداد وبذرفه الدموع، وادمى قلوب المشيعين الذين احتشدوا على الساحل. وبعد ان قدمت التيجان والاكاليل وغير ذلك من مظاهر التكريم في كورنث، نقل الاناء الى [ديمترياس] وهي المدينة التي سميت باسمه وجمع سكانها من قرى [ايوكلس Ioclus].

لم يخلف [ديمتريوس] اولاداً من [فيلا] غير [ستراتونيكي] و[انتيغونس]، على انه رزق

بولدين من امٌ الليرية، وكلاهما يحملان اسمه ولقب احدهما بالنحيف. وله ولد ايضاً من [بطليمياس] وقد حكم [كيرينه]، وله آخر من [ديداميا] اسمه الكساندر عاش ومات في مصر. وهناك قائل يزعم ان [يوريديكي] ولدت له ابنا يدعي [كورابوس Corrbus].

ظلت اسرته تعقب ملوكاً على مقدونيا حتى [پرسيوس Perseus] آخر السلالة. وبعده دخلت البلاد حكم الرومان.

والآن بعد ان أتينا الى ختام الدراما المقدونية، فلنهيء انفسنا للتأمل في الدراما الرومانية.

١٩٧٢/٢/١١



مارك انطوني

MARCUS ANTONIUS

(Mark Antony)

82 – 30



مارك انطونيوس (انطوني)*

جدّ انطوني كان محامياً شهيراً، قتله [ماريوس] لانحيازه في الحرب الاهلية الى [سيللاً]. وابوه انطوني الذي لقبّ بالكريتي Creticus[1] لم يصبح شهيراً او بارزاً في الحياة العامة. الاّ انه عرف بالطيبة والصلاح ولاسيما بالجود والسخاء كما يمكن الحكم عليه من هذه الحادثة: لم يكن واسع الرزق كثير الغنى، ولذلك كانت زوجه تميل الى الحيلولة دون استرساله وتماديه في البذل دون حساب. قصده مرة صديق كان يشكو ضيقاً مالياً، ليستلف منه. ولم يكن لدية وقتئذ مالاً. فأمر احد خدمه ان يأتي اليه بماء في القصعة الفضية الفلانية. وعندما جيء اليه بما طلب، بلل وجهه كانه يهمّ بحلاقة لحيته ثم ارسل الخادم في مهمةٍ أخرى وقدم لصديقه هذا القصعة ليتصرف بها بالشكلّ الذي يسدّ به خلته ويفرج عن ضيقه. ولما كثر البحث والسؤال عن مصيرها في المنزل. وركب امرأته حزن عظيم وكادت تأمر بتفتيش الخدم واستجوابهم واحداً واحداً، اعترف بما فعل وسأل العفو منها والمغفرة. وزوجه [يوليا] هي من اسرة [قيصر]؛ وهي أهل في ان تتبوّ مكانتها بين اشرف نساء زمانها محتداً واعلاهم خلقاً. فقد اشرفت هي على تربية انطوني، وعند وفاة ابيه تزوجت [لنتولوس كورنيليوس] الذي انفذ فيه شيشرون حكم الموت لأنه كان من اقطاب المؤآمرة الكاتيلينية ولعل هذا هو السبب الرئيس للحقد الذي حمله [انطوني] لشيشرون. يقول: حرم على الجثة ان تدفن حتى توسطت امّه بامرأة شيشرون، فسلمت لها. ان هذا على مايبدو خطأ جسيم اذ لم يمنع دفن احدٍ ممن نفذ فيهم حكم الموت في فترة قنصلية شيشرون.

شبّ [انطوني] فتىً وسيماً للغاية. لكن سوء حظّه العظيم جعله يتعرف على [كيوريو]

(*) آثرنا ان نطلق عليه [انطوني] في هذا الكتاب، وهو الاسم الذي اختاره له كل المترجمين العرب، خشية ان يتوهم القارئ ان المقصود هو غيره.

(١) هذا اللقب اعطى له على سبيل السخر به. فقد عهدت اليه قيادة اسطول ضدّ القرصان. ففقد جزءً كبيراً منه في قتالٍ بحري ضدّ الكريتين في العام ٧٤ ق.م. وتوفي بعد ذلك مباشرةً. تاركاً ابناءً ثلاثة. أكبرهم مارك انطوني.

ويوآخيه وكان هذا شاباً خليقاً مغرقاً في ملاذه. ولأجل ان يجعل من صديقه هذا اداة طيعة له قذف به الى حياة الخلاعة والتهتك ومعاقرة الخمر وقاده الى طريق البذخ والسفه حتى أثقل كاهله بالديون وهو في مطلع شبابه وبلغ ذلك الدين مائتين وخمسين تالنتاً، كفله به [كيوريو] وتناهى الأمر الى اسماع [كيوريو] الأب فطرد [انطوني] من منزله، فلصق [بكلوديوس] فترة قصيرة من الزمن، وهو غوغائي اسوء ديماغوغي زمانه سمعةً وشاركه في أعمال العنف والفوضى إلاّ ان السأم مالبث ان تملكه من تصرفاته الشائنة، ولعلمه بأن حزباً مناوئاً تألف ضده، بادر الى ترك ايطاليا وسافر متجولاً في بلاد اليونان وهناك درس الخطابة والفنون العسكرية، واتخذ ما كان يدعى في حينه «الاسلوب الآسيوي» في الكلام وتمكن منه، وكان هذا الاسلوب في اوج شيوعه وهو في الواقع يناسب كثيراً اسلوب حياة انطوني التي حفلت بالزهو الفارغ والتباهي والشراسة والطموح الطائش.

بعد ان مكث حيناً من الوقت في اليونان، دعاه [غابينيوس] الذي كان اذ ذاك قنصلاً - للعمل معه في حروبه السورية فرفض اول الامر لأنه لم يشأ الخدمة في الجيش كانسان عاديّ. الاّ انه تسلّم منه امراً بتعيينه ضابطاً في صنف الخيالة فرحل اليه. وكان اول معركة خاضها، ضدّ ارسطوبولوس Aristobulus[٢] الذي قاد ثورة اليهود. فكان اول رجل تسلق على الاستحكامات واجلى قوات هذا الثائر عنها. ثم هزم جيشاً له يفوقه عدداً بحفنةٍ من الرجال ولم ينج من قوات خصمه الاّ القليل، فقد قضى عليهم جميعاً وأسر [ارسطوبولس] وابنه.

بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها اتصل [بطليموس اوليتس Ptolemy Auletes][٣] بـ[غابينيوس] وفاتحه في امر توحيد قواتهما وغزو مصر واعادته الى عرشه هناك. ووعده بدفع رشوة له قدرها عشرة آلاف تالنت. ووقف معظم الضباط ضدّ هذه العملية ولم يكن [غابينيوس] نفسه متحمساً لها كثيراً. الاّ انه كان واقعاً تحت اغراء العشرة آلاف. على ان [انطوني] الذي كان مدفوعاً بطموحه الى المعالي والى الشهرة والى ارضاء [بطليموس] القى بثقله الى جانبه واقنع [غابينيوس] بالمشروع. وكان الاجماع قد تمّ بان اخطر ما في العملية ليس القتال وانما اجتياز الصحراء الى [پلوسيوم Pelusium] فهي ارضٌ تغطيها رمال كثيفة،

---

(٢) كان ارسطوبولوس ملكاً وكاهناً اعلى لليهود. أسره پومپي في العام ٦٣ ق.م وارسله الى روما الاّ انه افلت من الأسر في العام ٥٧ ق.م.

(٣) هو والد كليوپاترا، اضطر الى الهرب الى [افسس] بسبب سخط المصريين عليه للضرائب الثقيلة التي فرضها. استخدم هذه الاموال المجباة لرشوة الموظفين الرومان حتى يعلنوه صديقاً للرومان وحليفاً. وقد اعيد الى العرش المصري في العام ٥٥ ق.م.

قاحلة لا ماء فيها حتى مستنقعات سربونيا Serbonia واكريگما Acregma[٤] ويسمى المصريون هذا الاقليم بثقب تنفس طيفون. ولكن من المحتمل ان المستنقع يحتوي بالاصل على ماء تركه البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط عن البحر الاحمر عند انحساره او انه ترشح منه في نقطة حيث البرزخ يفصله عن البحر المتوسط في اضيق موضع منه. وصدر الأمر لانطوني بالتقدم على رأس الخيالة فلم يكتف بالسيطرة على البرزخ بل استولى ايضاً على مدينة [پلوسيوم] الكبيرة وأسر حاميتها. وبهذا أمن سلامة الطريق للقسم الرئيس من الجيش الروماني. ووضع أساساً للمعركة التي كان اي قائد يستطيع ان يودع ثقةً كبيرة بالنصر. وفي هذه المناسبة حتى العدوّ نفسه افاد من حبّ انطوني للمجد. اذ ما ان دخل [بطليموس] الملك [پلوسيوم] حتى همّ مدفوعاً بحقده على المصريين. بوضع السيف في رقاب الأهالي جميعاً فحال [انطوني] بينه وبين ذلك ومنع قيام المذبحة. وتلا ذلك سلسلة من المعارك الدامية، كان [انطوني] يثبت فيها دائماً بسالته وعبقريته القيادية. واشهر تلك المواقف، العملية التي قام فيها بحركة التفاف والاحاطة بالعدو، وضرب مؤخرته، فاتاح بذلك كسب الرومان المعركة، وكانوا يهاجمون من الأمام ومنح تكريماً وتقديراً مناسباً لكلّ المآثر، وقد ادهشت المصريين بصورة خاصّة انسانيته التي ابداها تجاه [ارخيلاوس][٥] المتوفى فمع ان [انطوني] كان ضيفه وصديقه الشخصي الاّ انه اضطر بحكم الظروف الى قتاله اثناء حياته. ولكن عندما قتل، حمل جثته ودفنها بتكريم ملكيّ. وبهذا خلف اسماً عظيماً له عند الاسكندرنيين في حين كان رفاقه في الجيش الروماني يعدونه جندياً لامعاً.

الى جانب سجاياه، كانت ملامحه تنمّ عن وقار نبيل، ملحيته نامية، يعلوها جبين عريض وبينهما انف معقوف، وتتحد هذه التقاطيع بصورة تنم عن الرجولة والجرأة، مما يذكر الناس بتقاطيع مختلف وجوه بان اسرة انطوني تنحدر من سلالة هرقل عن ابنه [انطون]. وكان يلذّ لانطوني ان يعزّز مظهره من صحة تلك الاسطورة. وكان أيضاً يعمد الى تجسيمها في الاذهان باختياره زيّه فكلما كان يبدو أمام حشد كبير من الناس، يعمد الى شد حزام جلبابه في اسفل

(٤) تقع پلوسيوم في اقصى شرق مصب النيل في الموضع التي تقوم عليه مدينة دمياط، وتيفون اخ ايزيس واوزوريس وهو الاله الشرير عند المصريين يعتقد انه مدفون تحت مستنقعات سربونيا التي تبدء بمسافة اميال قلائل من شرق پلوسيوم. وفي [الفردوس المفقود] لجون ملتون اشارة لهما كما ان هيرودوس يصفها ايضاً في [الكتاب الثالث ف ٥] من تاريخه.

(٥) كان ارخيلاوس ابن قائد لميثريداتس بالاسم نفسه، واستسلم لسللاّ. وتزوج الابن بـ[بيرينيكه Berenice] بنت [بطليموس اوليتس] التي اصبحت ملكة على مصر عندما طرد ابوها. واول مقابلة لانطوني مع كليوپاترا ربما حصلت اثناء هذه الزيارة للاسكندرية: وكان عمرها اذ ذاك ١٤ سنة.

بطنه عند أعلى الفخذين ويتمنطف بسيف عريض يتدلى الى جنبه ويشتمل بعباءة فضفاضة. والواقع ان هذه الصفات «الهرقليّة» هي التي كانت تصدّ عنه الناس المتنطعين اعني خيلاءه، وكلامه التهكمي، وشربه الخمر علناً، وجلوسه مع رجاله وهم يأكلون. او تناول طعامه واقفاً، من موائد الجنود العامة. مما جعل ذلك مصدر سرورٍ لجنوده، الى حدّ إنهم صاروا يحبونه حب عبادة وضعفه امام سحر الجنس اللطيف يظهر جانباً جذاباً من خلقه، حتى انه اكسبه عطف كثير من الناس. تراه كثيراً ما يساعد الآخرين في شؤونهم الغرامية. ويتقبل دائماً بطيبة نفسٍ وسماحة المزاح الذي ينصب عليه من الآخرين. والى جانب هذا فان سخاءه وبسطه اليد بالهدايا لاصدقائه وزملائه الجنود وضعت اساساً مكيناً له عندما انطلق في درب السلطة. وقد دعمت هذه الصفات سلطانه عندما استطار ذكره وثبت امره، بل ورفعت من شأنه، حتى عندما أخذت حماقاته واخطاؤه العديدة تعمل على تقويضه. وينبغي لي ان اسجل هنا مثلاً واحداً لسخائه. اصدر امراً بدفع مائتين وخمسين الف درهم لاحد اصدقائه، وهو مبلغ يطلق عليه الرومان لفظة [ديچز Decies] فاستكثر وكيله المبلغ واصابه الذهول من ضخامته، ولأجل ان ينبه [انطوني] الى ضخامة الهدية كدس الفضّة امام انظار سيده. فمر بها [انطوني] وسأل عن المبلغ الذي يعدّ هذا الكدس فقال الوكيل: انه المبلغ الذي امر باهدائه لصديقه. ففطن الى ان الرجل يستكثر المبلغ فقال:

- ظننت ان [الديچيز] أكثر من هذا بكثير؛ ان هذا شيء تافه، من الاوفق ان تضاعفه.

هذه الحادثة جرت فيما بعد. اما عن الوقت الذي اتكلم الآن عنه فان الامور في روما آلت الى شفا الحرب الاهلية، وكان ان انشعب الرأي العام الروماني الى حزبين: حزب الشيوخ(٦) الذي اسلم قياده [لپومپي] اثناء وجوده في العاصمة وحزب العامة الذي كان يستمد قوته من [قيصر] الذي كان يقود جيشاً رومانياً في بلاد الغال. وعند هذه المرحلة غير [كيوريو] صديق الصبا حزبه واصبح واحداً من مشايعي [قيصر](٧)، واقنع [انطوني] بالانضمام اليه. وكانت القوة الخطابية التي يتمتع بها [كيوريو] السبب في سيطرته على الجماهير وبتفريقه بلا حساب المال الذي كان يمده به قيصر ضمن انتخاب [انطوني] لمنصب التريبيون، ثم لمنصب الاوگور(٨) واعني به الكاهن الذي ينحصر واجبه في مراقبة حركة الطير في المنصب حتى بدأ

---

(٦) اي حزب الاريستوقراطية التي يمثلها اعضاء مجلس الشيوخ وطبقتهم.

(٧) ضم قيصر [كيوريو] الى حزبه، بايفاء جميع ديونه عنه.

(٨) سرد پلوتارخ الحوادث هنا، يشوبه غموض. فقد عاد [انطوني] من مصر في العام ٥٤ ق.م وزار [قيصر] في مقره الشتوي ببلاد الغاليين وكان في روما السنة التالية وفي ٥٢ ق.م انتخب كويستوراً ورحل الى بلاد الغال. وفي ٥٠ ق.م عاد الى روما وعين او كوراً وفي السنة التالية (٤٩ ق.م) انتخب تريبوناً.

يستخدم سلطاته وما ان صار في المنصب حتى بدأ يستخدم سلطاته لمنفعة أولئك الذين يعملون [لقيصر] وينفذون خططه. في اول الأمر وجد ان القنصل [مارچللوس] يقترح وضع جميع القوات العسكرية التي تمّ تجنيدها بأمرة پومپي، فضلاً عن تخويله صلاحية تجنيد وحدات جديدة فعارض انطوني هذا باصدار مشروع قرار يقضي بارسال الجنود الذين تمت تعبئتهم الى سورية لتعزيز جيش [بيبلوس Bibulus] الذي كان منشغلاً بحملته على البارثيين. وان لايوضع المجندون الجدد تحت امرة [پومپي]. وفي مناسبة أخرى، عند رفض مجلس الشيوخ تسلّم رسائل قيصر وقراءتها في الجلسة. استخدم انطوني السلطات التي تخولها له وظيفته وقرأها علناً وبهذه الوسيلة ضم عدد كبيراً من الانصار الى حزب قيصر لأنه مكن الشعب من الحكم بتأثير هذه الرسائل، على ان مطالبه عادلة ومعقولة. وأخيراً عندما وضع امام المجلس سؤالان: هل يجب ان يسرح [پومپي] جيشه؟ و: هل يجب ان يسرح [قيصر] جيشه؟ انقسم الاعضاء فيما بينهم، وعندما صوتت اقلية صغيرة على السؤال الأول، وصوتت الاغلبية الساحقة على الثاني نهض [انطوني] وسأل سؤالاً ثالثاً: الا يرى المجلس ان يقوم كل من پومپي وقيصر بتسريح ما لديهما من جيوش؟ هذا الاقتراح قوبل بالاستحسان وحظي بالرضى فطلب انطوني وضعه في التصويت. لكن القنصلين عارضا في الاجراءات وعندئذ اخذ انصار قيصر يتقدمون باقتراحات جديدة كانوا يرونها معقولةً الاّ ان [كاتو] عارض فيها. ثم امر [لنتولوس] القنصل، بطرد [انطوني] من القاعة مستعملاً صلاحيته. فاجاب انطوني على هذا بالقاء خطاب عنيف هاجم فيه معارضيه بعد تركه المجلس. ثم تنكر بثياب عبدٍ وبرفقة [كوينتوس كاسيوس][٩] استأجر عربة وانطلقا للحاق [بقيصر]. وما ان وصلا حتى أبلغاه غاضبين بان الأمور في روما بلغت ادنى حالة من الفوضى، الى حدّ ان تريبيونات الشعب حرموا من حرية الكلام، وان كل من يرفع صوته في سبيل العدالة والمساواة يضطهد وتتعرض حياته للخطر. وعندها أمر [قيصر] بنقض معسكره وزحف مغيراً على ايطاليا. ولهذا السبب كتب شيشرون في [فيليپياته] بأن [انطوني] كان سبباً لقيام الحرب الاهلية، مثلما كانت هيلين السبب في حروب طروادة. الاّ ان هذا كذب واضحٌ. فقيصر لم يكن عاطفياً سريع التأثر، ولا بالذي ينبذ حساباته جانباً بعامل غضبٍ آنيّ. ان مجرد رؤيته [انطوني] و[كاسيوس] في ثياب رثة يدخلان معسكره في عربة اجرة لن يدفعه الى اثارة حرب على بلاده بوحي الساعة الاّ اذا كان قد خطط لهذا العمل منذ وقت طويل. بالعكس، كان [قيصر] ينلهف منذ أمدٍ بعيد الى المجاهرة بالعداء وهذه الحادثة زودته بالذريعة وبالحجة

(٩) هو اخ [كاسيوس] المتآمر على حياة [يوليوس قيصر].

المقبولة ليس الأ. اما الغرض الحقيقي الذي دفعه الى اثارة حرب ضدّ البشرية. فهو نفسه الذي دفع الاسكندر وكورش من قبل - انه ظمأ لايطفأ الى التسلط والعظمة، والى ان يكون أعظم رجل في العالم. ومطمحه هذا لايمكن الوصول اليه الأ باستظهاره على [پومپي].

وتقدم [قيصر] من روما واحتلها وطرد پومپي من ايطاليا وقرر اولاً مهاجمة قواته في اسپانيا. ثم عندما نظم أسطولً في غيابه، ان يعبر البحر الى بلاد اليونان حيث عدوه كان قد ثبت اقدامه. وفي اثناء ذلك ترك حكم روما في يد [ليپيدس Lepidus] الذي كان پيريتوراً، في حين سلم قيادة الجيوش المرابطة في ايطاليا [لأنطوني] الذي كان واحداً من تريبيونات الشعب. ولم يعتم [انطوني] ان ظفر بقلوب جنوده بمشاركتهم في تدريبهم وقضاء جل وقته معهم، وتأمين الهدايا لهم كل ما عنت مناسبة، على ان بقية الشعب كان يراه من وجهة مختلفة، فهو أكسل من ان ينظر في شكاوى الناس، وأقل صبراً على سماع أولئك الذين يقصدونه مستعينين ومستجيرين. في حين ساءت سمعته بسبب وقائعه مع نساء وزوجات الآخرين. وبمختصر القول، ان نظام حكم [قيصر] الذي لم يبد عليه اي طابع استبدادٍ عند ادارة [قيصر] له بنفسه، جعله انصاره واصدقاؤه حكماً كريهاً لايطاق. ومن أو لئك [انطوني] صاحب أكبر السلطة، ولهذا كان يعتبر اسوء المخطئين.

ورغم كل هذا تجاهل قيصر كل التهم التي وجهت الى [انطوني] عند عودته من اسپانيا وكان حكمه عليه صحيحاً. من ناحية كونه قائداً محنكا للرجال اظهر نشاطاً وشجاعة في ادارة الحرب. وابحر [قيصر] من [برنديزيوم] بقوات صغيرة[١٠] فأجتاز البحر الآيوني وارجع سفن النقل، لانطوني وغابينيوس، بأمرهما بتعبيئة الجنود عليها على جناح السرعة واللحاق به في مقدونيا ورأى [غابينيوس] مخاطر في العبور بحراً، في فصل الشتاء وبدأ بسوق جيشه في الطريق البريّ صعداً. امّا [انطوني] الذي استولى عليه القلق المتزايد من موقف [قيصر] المحفوف بخطر تطويقه بقوات متفوقة، فقد تمكن من اجلاء [ليبو Libo] الذي كان قد ضرب الحصار على مرفأ [برنديزيوم] بمهاجمة بوارجه بزوارق خفيفة كثيرة العدد. ثم انزل قوة تعدادها عشرون الفٍ راجلٍ وثمانمائة خيّال وانطلق في عرض البحر وانكشف للعدو الذي راح يطارده، ولكنه نجا من قبضته بريح جنوبية قوية فجائية أحدثت هياجاً عظيماً في البحر فأبطات من سرعة السفن المطاردة في حين دفعت الريح سفن انطوني الى ساحل صخريّ وجُرُف ذات مياه عميقة حيث امل النجاة منها ضعيف. لكن ما عتمت الريح ان انقلبت الى جنوبية غربية وأخذت تهب من اليابسة الى البحر فبدأت سفن [انطوني] تتهادى على صفحة البحر

(١٠) كان ذلك في مطلع العام ٤٨ ق.م.

برقةٍ وآمان وانشأ يرقب الساحل الذي انتشر عليه حطام اسطول عدوه. فقد دفعت العاصفة بالسفن المطاردة الى الساحل الصخريّ فاصطدمت به وتحطم معظمها تحطيماً كاملاً ووقع عدد كبير من الرجل ومقدار كبير من الاموال في يد [انطوني]. ثمّ انع احتلّ مدينة [ليسّوس] وبث ثقة عظيمة في نفس قيصر بوسوله في احرج ساعة بهذه النجدة الكبيرة.

وتبع ذلك فترة طويلة من الاشتباك المستمر، وبرز انطوني في تلك المعارك كلها، بطلاً لايشق له غبارٌ. فأوقف مرتين هزيمة مني بها الجيش ثم عاد بقوده الى النصر في هجوم مدبر. ولا عجب والحالة هذه ان ارتفع قدره عند الجنود حتى اصبح يلي [قيصر] مقاماً وقد بدا رأي هذا العاهل فيه واضحاً في [فرساليا] خاتمة المعارك. استأثر هو بقيادة الميمنة، في حين اناط قيادة هجوم الميسرة بانطوني بوصفه اقدر ضابط في جيشه.

وبعد المعركة أعلن [قيصر] دكتاتوراً فأنطلق يعقب [پومپي] وارسل [انطوني] الى روما بمنصب قائدٍ سلاح الفرسان وهو المنصب الذي يلي منصب الدكتاتور مباشرةً في المكانة الوظيفية وفي السلطان الفعلي عند وجود الدكتاتور. اما اذا غاب هذا فهو يمارس السلطة المطلقة وهو الحاكم المتفرد تقريباً وقد جرت السُنة انه عند تعيين الدكتاتور يتوقف كل من يتمتع بسلطة حاكم عن ممارسة سلطته في روما، الاّ سلطة التريبيون فتبقى.

وكان [دولأبللا] تريبيوناً في ذلك الحين، وهو شاب حديث العهد بالسياسة يحب الاصلاح. همّ باصدار مرسوم شامل جامع يقضي بالغاء الديون وفاتح [انطوني] بالأمر، وكان صديقه، وهو يعهد فيه تبنيه لكلّ مشروع فيه منفعة لسواد الشعب، ليسانده في غرضه هذا. الاّ ان [اسينيوس Asinius] و[تريبلليوس Trebelluis] نصحا [انطوني] بمعارضته، وكان في الوقت نفسه يشكّ في ان [دولابللا] قد أغوى زوجه، حتى بلغ الأمر به الى تطليقها، وكانت ابنةً لعمه [كايوس انطونيوس] زميل شيشرون في القنصليه، وجاهر [دولابللا] العداء. وفي الوقت نفسه عمد [دولابللا] الى الاعتصام بالفوروم واحتلاله بالقوة لاصدار مرسومه عن طريق جمعية الشعب. وما ان أصدر مجلس الشيوخ قراراً بتخويل [انطوني] استعمال القوة حتى زحف على الفورم وقتل عدداً من رجال [دولابللا] وفقد هو أيضاً عدداً من رجاله. فخسر بعمله هذا مكانته عند الشعب. في حين ان أسلوب حياته وسلوكه الشخصي، أكسبه أحتقار كل ذوى المبادئ والعقلاء، واصبح بغيضاً مكروهاً عندهم على حَدّ قول [شيشرون]. لقد اشمأزوا من معاقرته الخمر في غير اوقاتها. وافراطه في الإنفاق، وفضائحه الجنسيّة، ونومه طوال النهار على اثر فجوره الليلي، وقضاء ليلة في المراسح والمآدب أو حضور زواج ممثل كوميدي او مسخراتي او مهرج. او تجواله على غير هدى بسبب صداع افقده عقله. وقد

تنوقلت عنه الحكاية الآتية وهي انه حضر حفلة زواج الممثل الكوميدي [هيبياس Hippias] وظلّ يشرب ويأكل طوال الليل وكان عليه ان يخطب في الجمهور صباحاً في الفورم فتقدم من المنصة وهو ثملٌ يترنح. واخذ يفرغ ما في جوفه من قيء امام الجمع الحاشد، فأسرع احد اتباعه ونشر معطفه امامه ليفرغ فيها قيئه. وكان [لسرجيوس Sergius] المشخصّ اعظم دالةٍ عليه وكذلك [كيثيرس Cytheris] التي تنتمي الى عين الفن التمثيلي، فقد كان شديد التعلق بها، يصبحها معه عند زياراته المدن الايطالية، فيركبها في محفة، يرافقها اتباع وحاشية لاتقلّ عمن كان يحيط بامّه.

هناك الكثير غير هذا في سلوك [انطوني] اليوميّ مما سبب السخط الاستياء. فالناس مثلاً استنكروا رؤية اقداح الشرب الذهبية التي كانت ترسل قبله عند سفره خارج المدينة. كأنها جزءٌ من مهمات موكب ديني. ويتألمون لرؤية الفسطاط الذي ينصب له اثناء رحلاته والموائد الفخمة التي تمدّ في البساتين والخبائن أو على شواطئ الأنهار، والى عجلاته التي تجرها الأسود، والى عادته اسكان العاهرات وعازفات السامبوكا Sambuca[11] في بيوت الناس الفضلاء، وكان معظم الناس يستفظعون مقارنة ذلك بقيصر الذي يحارب خارج ايطاليا فينام في العراء متعرضاً للأخطار، ومعانيا التعب والارهاق وهو يخوض غمار المعارك الأخيرة من الحروب الاهلية في حين يستفيد انصاره من حملاته هذه ليغرقوا انفسهم في الترف ويوجهوا الإهانات لابناء بلدهم.

ويعتقد ان هذا السبيل في التصرف زادت في حدة الحرب الاهلية وشجعت الجنود على الاستباحة والنهب وغيرها من اعمال العنف. ولذلك بادر [قيصر] فور عودته الى العفو عن [دولابللا] ولم يختر [انطوني] زميلاً له عندما انتخب قنصلاً للمرة الثالثة، وانما اختار [ليبيدوس]. في هذا الزمن بالذات عرض منزل [پومپي] للبيع فابتاعه [انطوني] وعندما طلب منه تسديد الثمن غضب. يفسّر عدم مشاركته [قيصر] في الحرب الافريقية، بشعوره بالغبن لأنه لم يعوض بايّ شيء عن مآثرة السابقة. على ان [قيصر] مع هذا يبدو انه اصلح كثيراً من اعوجاجه وحماقاته بالتنبيه الى اغلاطه وعدم التغاضي عنها. وعلى اية حال اصلح أمره وقومّ سبيل حياته ووجه افكاره الى الزواج، واختار [فولفيا][12] ارملة [كلوديوس]

---

(١١) السامبوكا هو نوع من انواع القيثار.

(١٢) كان زوج فولفيا الأول كلوديوس، وابنتها من هذا الزواج اصبحت اولى زوجات اوكتافيوس قيصر في ٤٣ ق.م. اما زوجها الثاني فهو [كيوريو] صديق [انطوني] الذي توفي في افريقيا في ٤٩ ق.م. وكان انطوني زوجها الثالث وقد ولدت له ولدين وتوفيت في ٣٩ ق.م.

الغوغائي. وهي امرأة لم تخلق للغزل والنسج وتدبير المنزل، ولم يكن في وسعها ان ترضى بسوس رجل لا طموح له سياسيّ. بل كان همهما ان تحكم بعلاً يحكم وان تقود قائداً عاماً ولاشك في ان [كليوباطرا] كانت مدينة لها بالشكر الجزيل لأنها دربت انطوني على اطاعة سلطه زوجة. اذ لمّا جاء الوقت لتتسلمه، وجدته مروّضا طيعاً مدرباً على قبول سلطان المرأة. وكان يلجأ الى مختلف الحيل الصبيانية وصنوف المزاح ليفرح فولفْيا ويسرّي عنها. منها انه لمّا عاد [قيصر] من اسپانيا بعد انتصاره، كان انطوني من جملة المستقبلين اذ خرج للقائه، وكان ان انتشرت اشاعة مؤداها ان [قيصر] قد قتل وان العدوّ يهمّ بغزو ايطاليا. فعاد [انطوني] الى روما وتنكر بثياب عبدٍ وقصد منزله وزعم انه يحمل لفولفْيا رسالة من [انطوني] وجيء به اليها وكان الوقت ليلاً وقد لفّ وجهه تماماً، وكانت تعاني قلقاً عظيماً. فسألته قبل ان تتسلم الرسالة هل انطوني حيّ؟ فسلمها الرسالة صامتاً وما ان فضتها وبدأت بقراءتها حتى وثب اليها وطوقها بذراعيه وانشأ يقبلها. لقد أخترت هذه الحكاية لتقوم مثلاً واحداً لحكايات له كثيرة معها.

عندما عاد قيصر من اسپانيا[١٣] خرج للقائه كل شخص ذي مقام ووجاهة في روما، وقطعوا رحلة ايامٍ لاستقباله. وكان [انطوني] الشخص الوحيد الذي اختاره للتكريم فقد اركبه معه في عربته، وركب وراءهما [بروتوس الپينوس] و[اكتافيوس[١٤]] ابن بنت اخته الذي اتخذ لنفسه فيما بعد اسم [قيصر] وحكم روما سنيناً عديدة.

وعندما انتخب [قيصر] قنصلاً للمرة الخامسة بادر الى اختيار [انطوني] زميلاً له. وكان قد اعتزم الاستقالة من منصبه واناطته بـ[دولابللا]. وأعلن قراره هذا للمجلس.

الاّ ان [انطوني] عارض الأمر بشدة وأنحى على [دولابللا] بالسباب والكلام المقذع، فردّ عليه هذا بأكثر منه. الى ان بلغ الخجل [بقيصر] حداً انه ترك الفكرة جانباً بصورة مؤقتة؛ وقد اشمأز من تلاحي انصاره هذا. ثم واجه الشعب علناً ليعلن [دولابللاً] قنصلاً، فصاح [انطوني] ان الإشارات العلوية لا تنبئ بخير من وراء هذا[١٥]. فأضطر [قيصر] أخيراً الى التخلّي عن الفكرة. مما اغاظ [دولابللا] كثيراً. في الواقع يبدو أن [قيصراً] كان شديد القرف من دولابللا قدَر ما كان شديد القرف من [انطوني]. وتقول رواية أنه عندما اتهم احدهم بالتآمر عليه قال [قيصر]:

(١٣) بعد النصر الذي حققه في موندا خريف العام ٤٥ ق.م.
(١٤) في نسخة درايدن التي راجعها ارثر، هيوكوف: يثبت اوكتافيان الاّ ان المتن هو الصحيح.
(١٥) كان انطوني [اوكوراً] فهو والحالة هذه ينبئ بمقتضى وظيفته.

- اني لست أخشى الرجال البطينين وانما أخشى الشاحبين الهضيمين

يقصد كلاً من برتوس وكاسيوس اللذين كانا سيتآمران عليه ويقتلانه.

وكان [انطوني] هو الذي زوّد المؤتمرين بغير قصدٍ منه، بالذرائع المعقولة للقيام بمؤامراتهم وكانت المناسبة: عيد ليكيا Lycaea الذي يسميه الرومان [لوبركاليا]. وقد جلس [قيصر] مشتملاً برداء النصر في الروسترا في الفوروم يشهد العدائين وهم يرحون ويغدون. وقد جرت العادة أن يحتفل بالعيد بان يدهن عدد كبير من النبلاء الشبان ومتولي المناصب في الدولة جسومهم بالزيت ويمسكوا باسواطٍ من الجلد ذي الشعب ويهرولون في الطرقات فيضربون كل من يصادفونه على سبيل المزاح. وكان [انطوني] من بين هؤلاء العدائين، وعوضاً عن تطبيقه المراسيم التقليدية فقد ازوج اكليلي غارٍ حول تاجٍ واسرع نحو الروسترافرفعه رفاقه الى اعلى فوضع التاج على رأس [قيصر] يريد بهذه، الإشارة الى انه يستحق المناداة به ملكاً. ولكن قيصر تظاهر بالرفض، فشاع السرور في نفوس الشعب وأخذوا يصفقون. فحاول [انطوني] ثانيةً. فعاد قيصر يدفعه عنه جانباً. وظلت هذه التمثيلية تتكرر عدة مرات بقلةٍ من رفاق [انطوني] يشجعونه في محاولته ارغام [قيصر] على قبول التاج بينما كان سواد الشعب يحيّ كلّ رفضٍ بهتاف الاستحسان. والغرابة في الأمر ان هؤلاء الناس كانوا على استعداد للخضوع الى سلطة الملك وحكمه، في حين مايزالون يصدّون عن اللقب كأنه يعني القضاء على حريتهم.

وأخيراً نهض [قيصر] الذي اشتد غيظه مما حصل، وازاح رداءه عن عنقه وقال انه مستعد لتقبل اية طعنة يوجهها اليه اي شخص الآن. ووضع أكليل العار على هامة احد تماثيله، الاّ أن بعض التريبيونين الشعبيين رفعه، فتبعهم سواد الشعب الى منازلهم مشيعين بهتافات عالية استحساناً لعملهم، الاّ انهم طردوا من وظائفهم فيما بعدبأمرٍ من [قيصر].

هذه الحادثة شدت من عزيمة [بروتوس] و[كاسيوس] وشجعتها في مؤآمرتهما وعندما بدأ يستعرضان الاصدقاء الذين هم اهل للاعتماد على مساعدتهما، بحثا مسألة التحدث مع [انطوني]. وكان من رأي الجميع ان يفاتح بالأمر، الاّ [تريبونيوس] فقد عارض الفكرة. وذكر انه كان قد خرج هو وانطوني لاستقبال [قيصر] وركبا عربةً واحدة معاً، رفي اثناء تبادلهما الحديث أخذ يجسّ نبضه بحذرٍ وتوجس وفهم [انطوني] المراد الاّ انه لم يشجعه. كما بدا له. ولكنه في الوقت نفسه لم يبلغ [قيصر] بالحديث وحفظ سرّه بأمانة. وعندها اقترح المؤتمرون قتل [انطوني] مع [قيصر] الاّ ان [بروتوس] لم يوافق واصرّ قائلاً أن المهمة التي يضطلعون بها هي قتل رجلٍ في سبيل العدالة والقانون، ولذلك يجب أن يحافظ على نقاوتها وخلوها في

اي وصمة ظُلم. وكانت البقية تخشى قوة [انطوني] الجسمانية والنفوذ الذي يمارسه بمقتضى منصبه. فعين بعض المتآمرين لمهّمة مراقبته، حتى اذا دخل [قيصر] مجلس الشيوخ وازفت الساعة لتنفيذ عملية الاغتيال، اشغلوا [انطوني] في حديث حول أمرٍ عاجل وابقوه خارج القاعة.

ونفذت هذه الخطط كما قدّر لها وسقط [قيصر] متشحطاً بدمائه في قاعة المجلس. فأسرع [انطوني] يختفي متنكراً بزي عبدٍ. وعندما علن ان المتآمرين قد تجمعوا في الكاپتول فحسب، ولا نيّة سوء لديهم ضد اي شخصٍ آخر، خرج واقنعهم بمغادرة الكاپتول الى المدينة، وارسل ابنه رهينة عندهم. وتمادى حتى انه دعا [كاسيوس] الى العشاء في منزله، وفعل [لپيپدوس] الشيء نفسه مع [بروتوس] ثم دعا المجلس للاجتماع، وفي الجلسة اقترح اصدار قانون العفو العام، وتقليد كلٍّ بن [بروتوس] و[كاسيوس] وانصارهما حكم اقليم من الاقاليم الرومانية، فأيدها المجلس، وصوت ايضاً على أن لا يحدث اي تغيير في الاجراءات والاحكام التي اتخذها [قيصر] لذلك ارتفعت سمعة [انطوني] الى اسمى علاها عند خروجه من المجلس فقد ساد شعور عامٌ بأنه انقذ روما من حربٍ اهلية ونجح في حَلّ معضلةٍ صعبة جداً ومعقدة بطريقة حكيمة وببعد نظرٍ سياسيٍ لانظير له.

الاّ ان هذه الاجراءات المعتدلة سرعان ما اكتسحها المدّ الجماهيري والشعور العام الذي أصبح الآن يتجه نحو انطوني، وهذا ما اشاع فيه الأمل بانه سيكون سيد روما الأول لو أفلح في الاطاحة [ببروتوس]. وحدث انه عندما حمل جسد قيصر ليدفن القى [انطوني] التأبين التقليدي في الفورم. وعندما وجد أن خطابه قد احدث في الناس أثراً كأثر السحر، بدأ يضمن تأبينه عبارات رثاءٍ واستنكارٍ لمصير [قيصر]. وأخيراً عندما شارفت خطبته على الختام. سحب ثوب الميت وعرضه على الناس وهو دام وقد مزقته الطعنات وواصفاً الفاعلين بالقتلة والاوغاد سفاكي الدماء. فأهاج الحاضرين وملاءهم سخطاً، حتى انهم كدّسوا المناضد والمقاعد بعضها بعضاً فوق بعض واحرقوا جثمان [قيصر] في الفورم، ثم التقط بعضهم اخشاباً مشتعلةً من المحرقة واسرعوا بها الى منازل المتآمرين يريدون اشعال النار فيها.

ولهذا ترك [بروتوس] واتباعه المدينة، والتفّ اصدقاء قيصر حول [انطوني]. وفي ذات الوقت اوكلت [كالپورنيا] زوج [قيصر] اليه حفظ الجزء الاكبر من ثروة [زوجها]، بنقله من بيتها ووضعه في يده وكان يبلغ اربعة آلاف تالنت، كذلك وضع يده على اوراق [قيصر] وتتضمن مسودات ومذكرات لكثير من مشاريعه ومراسيمه فقام انطوني بتطبيق كثيرٍ من تلك الأوامر وعين بموجبها عدداً من الحكام والشيوخ بحسب رغباته. كما اعاد بعض المنفيين واطلق

سراح آخرين من السجن كأن كل هذه الاجراءات تمثل ارادة قيصر. وأطلق الرومان على كلّ المستفيدين من هذه الاجراءات اسم «الخارونيين»[١٦] تندراً ومزاحاً، اذ لو انهم طلبوا لاثبات قضيتهم، لكان عليهم أن يرجعوا الى اوراق الميت ليتخذوها كدليل. وبمختصر القول مارس [انطوني] في تلك الفترة حكماً اتوقراطياً بكلّ معنى الكلمة، فقد كان قنصلاً في تلك السنة. ثم عين اخويه بمنصبين رفيعين. فأصبح [گايوس Gaius] پريتوراً، و[لوچيوس Lucius] تريبيوناً للشعب.

كذا كان الموقف العام الذي وجده الفتى [اوكتاڤيوس] عند وصوله روما. وكان هذا كما ذكرت سابقاً ابن بنت اخت [قيصر] وقد جعله وارثاً له في تركته وكان يعيش في [اپوللونيا] عندما قتل خاله. فقام بزيارة [انطوني] حالاً بوصفه صديق الأسرة، ثم ذكره بالأموال التي اؤتمن عليها. ذلك لأن [اوكتاڤيوس] وكان ملزماً بموجب منطوق الوصيّة وبوصفه الوارث الشرعي، بأن يدفع خمسة وسبعين درهماً لكلّ مواطن روماني[١٧]. واستخف [انطوني] في مبدء الأمر [باوكتاڤيوس] وقال له انه مجرد صبيّ، مأفون. وانذره قائلاً ان شاباً مثله لايملك من الاصدقاء المتنفذين الأ قلة، ولا من تجربة الحياة ما يؤبه به، سيجد قبوله ميراث قيصر واضطلاعه بتنفيذ شروط الوصية عملاً شاقاً ينوء به كاهله. الأ ان [اوكتاڤيوس] لم يبد متأثراً قطّ بهذه النصيحة وواصل المطالبة بالمال في حين طفق انطوني يعمل كلّ ما في وسعه لإذلاله. فأولاً عارض في انتخابه لمنصب التريبيون. وعندما حاول تقديم كرسي ذهبي[١٨]، تكريماً [لقيصر] كما قررّ مجلس الشيوخ. هدد [انطوني] بايداعه السجن، ان لم يكف عن استجلاب عطف الشعب وتقربه منه. وهذا ما حدا [باوكتاڤيوس] الى الاستعانة بشيشرون والانضمام اليه والى كل اعداء [انطوني] اللدودين. وبمساعدتهم ضمن مساندة المجلس له. بينما تمكن هو بنفسه من كسب مودّة العامّة ونجح في جمع وتعبئة جنود [قيصر] القدماء من المستوطنات التي استقروا فيها. فاقضّ مضجع [انطوني] واقلقه بمناوراته هذه. والتقى به في

---

(١٦) يثبت پلوتارخ هنا الكلمة الاغريقية. وهي مشتقة من Charon علاج [هيداس] الاسطوري اما الكلمة اللاتينية المقابلة فهي اورچيني Oarcini مشتقةٌ من اوركس آله العالم السفلي.

(١٧) القانون الروماني لايلزم اوكتاڤيوس بقبول الميراث، على ان تركة [قيصر] كانت كبيرة جداً ولا خطر ثم في ميراث ديون عليها. والخطر بالاحرى متأتٍ من استيراث الثروة والسمعة السيئة المتعلقة باسم الميت نفسه وفي الصعوبات التي تكتنف ادارة المخلفات واستخلاصها ولاسيما تلك التي هي موضع نزاع. وقد ترك لاوكتاڤيوس ثلاثة ارباع التركة. والباقي اوصى به [كوينتوس پيديوس Quintus Pedius] وهو ابن بنت اخت ثانٍ لقيصر.

(١٨) تختلف ترجمة درايدن لهذه العبارة: فهو يفهمها هكذا «... عندما اراد ان يقدم كرسيّ ابيه والذهبي وقفاً كما رسم في الوصية...».

الكابتول وتبادلا الحديث ثم اصطلحا. وفي الليلة نفسها رأى [انطوني] حلماً غريباً تطيّر منه. خيل له ان صاعقةً انقضت على يده اليمنى. وبعد ايام قليلة ابلغ ان [قيصر] الصغير يتآمر على حياته. وحاول [اوكتافيوس] جهده لنفي هذه التهمة عنه الاّ انه لم يفلح في ازالة شك انطوني. فأخذ الخرق يتسع فيما بينهما وشبت نار العداء مستعرةً باشدّ من السابق. وهرع كلاهما يتنقلان في ارجاء ايطاليا يتنافسان في تقديم العطاءات والأجور المرتفعة لتجنيد المحاربين القدماء الذين كانوا قد استقروا في اراضيهم، ويتسابقان في ضمان ولاء الجنود الذين مازالوا في الخدمة.

في ذلك الحين كان شيشرون يمارس نفوذاً في روما لا يعدله نفوذ اي سياسيّ آخر، ولذلك اوقف مجهوداته لاثارة الرأي العام على انطوني حتى انه أقنع مجلس الشيوخ على اعلانه «عدواً للشعب». واودع (الفاچي) وغيرها من شعارات البريتور الى [اوكتافيوس]، وارسل [هريتوس Hirtius] و[پاشا] القنصلين لطرد [انطوني] من ايطاليا. والتقى الجيشان في موتينا Mutina[١٩] وكان [قيصر] فيها يقاتل الى صفّ القنصلين فهزم [انطوني] الاّ ان [هريتوس وپاشا] قتلا في المعركة. وعانى جيش انطوني مشاقاً تجلّ عن الوصف في تقهقره واضرّ به الجوع ضرراً بليغاً. ولكن من صفات [انطوني] أن تبدو اعظم سجاياه في ساعات المحنة. والواقع انه لايكون اقرب الى رجل الفضيلة والصلاح الاّ عندما يبتلى بسوء الحظ وتنزل به المصائب الى الدرك الأسفل. من المعروف عادة ان مفهوم الفضيلة بكون أقرب الى الرجال عند معاناتهم المحن، ولكن من النادر عندهم ان يحتشوا الصفات التي يعجبون بها للعمل، وان يتخلصوا من الرذائل التي يستقبحونها. وبعكس ذلك نرى الكثيرين الذين يضعفون أمام النوائب، فتنهار عزائمهم وتخونهم قواهم الى الحدّ الذي يفقدون معه بصائرهم. وعلى اية حال فقد ضرب [انطوني] مثلاً رائعاً لجنوده. فمع حياة الترف والنعومة التي حفلت بها حياته، سهل عليه أن يشرب الماء الآسن ويأكل الثمار البرية وجذور النبات دون تحرج. وقيل لنا ان الجيش اضطر وهو يقطع جبال الألب الى التهام لحاء الشجر وحيوانات لم يذقها بشر من قبل.

كانوا يريدون الاتصال بالجيش الذي يقوده [ليپيدوس] فالمعتقد انه صديق لانطوني، وهو أحد الذين انتفعوا مثله بصداقة [قيصر] ولكن [انطوني] لم يجد دليلاً على الترحيب عندما وصل وضرب معسكره بالقرب منه. ولذلك قرر المجازفة بكلّ شيء في حركة واحدة جريئة. كان شعره طويلاً مشعثاً ولحيته مرسلة غير مشذبة مهملة منذ هزيمته، وقد اشتمل بمعطف قاتم.

(١٩) هي مدينة مودينا Modena الحالية.

فتقدم من آطام معسكر [ليپيدوس] وراح يكلّم الجنود وسرعان ما ادركت الشفقه الكثيرين منهم لهيئته المزرية ومست كلماته شغاف قلوبهم، فداخل [ليپيدوس] القلق وأمر بنفخ كل الابواق لكتم صوت انطوني. الاّ ان هذا زاد في عطف الجنود عليه فحسب. ثم البسوا كلاً من [ليليوس Laelius] و[كلوديوس] ثياب عاهرتين من العواهر اللاتي يتبعن الجيش وارسلوهما للمداولة معه سراً. وطلب هذان منه ان يتحلّى بالصبر والشجاعة وان يهاجم المعسكر في الحال وقالوا بان الكثيرين سيرحبون به، بل وهم مستعدون لقتل [ليپيدوس] لو شاء. فلم يقبل [انطوني] بمدّ يدهم عليه ولكنه شرع في اليوم الثاني بعبور النهر على رأس جيشه وكان اول من وضع قدمه في الماء وخاضه حتى الشاطيء المقابل حيث كان يشاهد جنود [ليپيدوس] يرحبون به بايدٍ ممدودة، ويقلعون الأطم المحيطة بمعسكرهم ليفسحوا له سبيل المرور. وما ان دخل المعسكر حتى كان السيدّ المطلق. وعامل [ليپيدوس] بغاية اللطف والاحترام وعانقه وناداه «بأبي» ومع انه كان مسيطراً تماماً على جيش منافسه الاّ انه اصرّ ان يحتفظ برتبة الجنرال ومظاهره. وحفز سلوكه هذا [موناتيوس پلانكوس] على ضم قواته اليه، وكان معسكراً على مقربة منه بوحدات عسكرية كبيرة العدد. وهكذا اجتمع اليه مع جيشه، قوة ضخمة فعاد الى اجتياز الألب نحو ايطاليا على رأس سبع عشرة فرقة من المشاة، وعشرة آلاف من الخيالة تحمي مؤخرته. فضلاً عن تركه ستّ فرق أخرى للمرابطة في بلاد الغاليين: هذه القوة كانت بقيادة ڤاريوس Varius أحد اصدقائه وندمائه في مجالس الشراب ويعرف بلقب [كوتيلون Cotylon][٢٠].

في هذا الزمن حصلت الجفوة بين [اوكتاڤيوس قيصر] وبين شيشرون الذي كان مصراً على عودة الحريات كما كانت في ظلّ الجمهورية السابقة. وارسل [اوكتاڤيوس] اصدقاءه الى [انطوني] يدعوه الى الاتفاق. واجتمع [انطوني] و[ليپيدوس] و[اوكتاڤيوس] في جزيرة صغيرة بوسط النهر[٢١] ودام اجتماعهما ثلاثة ايام. ولم يجدوا صعوبة في التفاهم على امور كثيرة جداً وقسموا حكم العالم فيما بينهما بالسهولة التي يتقسمون فيها ميراثاً من آبائهم. وكان أعظم ما واجههم من صعوبة هو الاتفاق على الاشخاص الذين سيتمّ القضاء عليهم. اذا كان كلّ واحدٍ منهم يطلب حقّه في التخلص من اعدائه الشخصيين وانقاذ اقربائه ومن يمت اليه بصلة الرحم والدم. وبالاخير تغلّب الحقد الذين يشعر به كل واحدٍ منهم، على الشعور بالكرامة والشرف تجاه اقربائهم بل ولانهم لاصدقائهم، فضحّى [اوكتاڤيوس] بشيشرون لأجل

(٢٠) مأخوذة من الميكال اليوناني المعروف باسم [كوتيلة Kotyle]. وهو جزءٌ من اربعة وعشرين جزءً من الغالون المعروف.

(٢١) بالقرب من مدينة بولونا الحالية، في العام ٤٣ ق.م.

[انطوني]، في حين تخلّى [انطوني] بدوره عن [لوچيوس قيصر] خاله، واعطي [ليپيدوس] امتياز قتل اخيه [پاولوس Paulus]. وان قال بعضهم انه سَلّم هذا الاخ الى [انطوني واوكتاڤيوس] اللذين كانا يريدان قتله ومهما يكن من أمرٍ، فاني لا استطيع ان أعدّ شيئاً أكثر وحشية وهمجية من الإتجار بالدم. فبعد كل هذه الصفقات الدموية ومبادلة بموتٍ بموت، لا أعتبر جريمتهم في التخليّ عن أولئك، أقل من جريمتهم من قبضوا عليهم. لأن الاساءة التي اجترحوها بحق اصدقائهم هي اشنع الجريمتين. اذ انهم قتلوهم دون ان يشعروا بكرهٍ نحوهم.

واتماماً للصلح التفّ الجنود حولهم وطلبوا ان يعزز [اوكتاڤيوس] حلفه بزواجه من [كلوديا] بنت [فولڤيا] زوج [انطوني] من زوجها الأول فتمّ الاتفاق على هذا ايضاً، وبعدها انطلق «مثلث الحكم» الى اعلان اهدار الحقوق وقتل ثلاثمائة شخصٍ[٢٢] وكان شيشرون من قتلى الدفعة الأولى، وبعد ان قضي عليه أمر [انطوني] بان يحتزوا رأسه ويقطعوا يده اليمنى التي كتبت قدحاً بحقّه. وعندما جيء بهما اليه نظر اليهما نظرة انتصارٍ وتشفٍ وارسل قهقهةً عالية. وبعد ان شفى غليل، امر بدقهما فوق الروسترا في الفورم. كانه نجح في توجيه اهانة واذلال الى الرجل الميت، في حين انه اظهر به مشهداً من اساءته استعمال سلطته، وغروره وخيلاءه في ساعة يمنه. وطورد دخاله [لوچيوس قيصر] ايضاً فوجد نفسه لاجئاً الى اخته أم [انطوني] فأقتحم القتلة دارها وشقوا طريقهم بالقوة. ليجدوا الأخت تسدّ باب الغرفة في اوجههم، وتمدّ يديها قائلة:

- لن تقتلوا [لوچيوس] قبل ان تقتلوني. انا الذي ولدت جنرالكم.

وبهذا العمل افلحت في انقاذ أخيها، وهرّبته.

وضاق الرومان ذرعاً بحكم الثلاثة. الاّ ان [انطوني] كان اكثرهم موضعاً للوم. فهو أكبر سنّاً [من قيصر]، وأكثر سلطاناً من [ليپيدوس] اضف الى هذا أنه عاد الى حياة التبذل والفجور الأولى، حالما استقر به المقام. كانت سمعة العامة سيئة بحد ذاتها الاّ أنه زاد في كره الناس له، بسكناه في منزل [پومپي] الاكبر. وهو رجل كان موضع الاعجاب والاكبار العظيمين لا لسمو خلقه ووقاره وحياته البسيطة المنتظمة الديمقراطية فحسب بل لنيله ثلاثة مواكب نصرٍ وكان يحزّ في نفوسهم ان تغلق ابواب هذا المنزل في أوجه القادة والقضاة والسفراء الذين يجدون انفسهم مطرودين منه بكلّ وقاحةٍ في حين تفتح مصاريعه للاعبين

(٢٢) يذكر ابيان Appian ان حوالي ثلاثمائة شيخ والفين من الفرسان فقدوا حياتهم وكما في مذابح سللاً - لم يكن الفرض قاصراً على التخلص من المعارضين السياسيين بل لجمع المال. فكل من يصدر بحقه امر الاهدار - تصادر املاكه.

والمشعبذين والمتزلفين والطفيليين السكارى، ليتنزفوا الجزء الاكبر من الثروة التي جناها من ضحاياه بالعنف والقسوة. اذ لم يكتف ثلاثي الحكم بمصادرة اموال المهدورة دماءهم وانّما أخذوا يوجهون الاتهامات الزائفة الى اراملهم واقربائهم ويفرضون عليهم ضرائب وغرامات من كل نوع متصور. وعندما علموا ان مبالغ من المال لبعض الرومان والاجانب قد اودعت امانة عند العذارى الفستالات، ذهبوا اليهن وانتزعن تلك الاموال منهنّ بالقوة. ولم يطل الأمر [باكتافيوس] ليدرك ان نهم انطوني الى المال لايعرف حداً. ولهذا طلب ان تقسم الاموال المصادرة بينهم بالتساوي، ثم قسما ايضاً قيادات الجيش وقادا قواتهما المشتركة الى مقدونيا لمهاجمة [بروتوس] و[كاسيوس] تاركين [ليبيدوس] في روما[٢٣].

واجتازا البحر، وبدآ في حملتهما العسكرية، وضربا معسكرهما امام العدو: وكان [انطوني] يواجه [كاسيوس]، و[اوكتافيوس] يواجه [بروتوس]. ولم يقم [اوكتافيوس] بعمل يذكر، وكان [انطوني] الذي تسلّم زمام المبادرة وحقق النصر في كل قتالٍ. وعلى اية حال أصيب [اوكتافيوس] في اول معركة بهزيمة ساحقة، واستولى العدوّ على معسكره وكاد يقع اسيراً فافلت في آخر لحظة، وان كتب في مذكراته بأنه انسحب قبل المعركة بسبب حلمٍ رآه احد اصدقائه. الاّ أن [انطوني] من الجهة الأخرى، هزم [كاسيوس]، وان ذكر بعضهم بانه لم يكن موجوداً بشخصه اثناء المعركة، وانه شارك فيها عندما بدأ رجاله بمطاردة العدوّ المنهزم. ولم يدر [كاسيوس] بانتصار [بروتوس] وأمر عبده العتيق [پنداروس Pindarus] بقتله. وبعد ايام قليلة خاض الفريقان معركة أخرى دارت فيها الدائرة على [بروتوس] فقتل نفسه. وكان [اوكتافيوس] طريح الفراش فاستأثر [انطوني] بثمار النصر كلها تقريباً، ووقف عند رأس [بروتوس] المنتحر واخذ يلومه لموت اخيه [كايوس] الذي قتل بأمر من [بروتوس] انتقاماً لشيشرون. ولكنه استدرك فقال ان أكبر اللوم في هذا يقع على عاتق [هورتنسيوس]. واصدر امره بأن يقتل فوق قبر اخيه والقى بمعطفه القرمزي الثمين على جثة [بروتوس] وأمر أحد عبيده العتقاء بدفنه. وعلم فيما بعد أن هذا الرجل الموكل احتفظ لنفسه بالمعطف مع جانبٍ كبيرٍ من المال الذي خصصه المصاريف الجنازة، فأمر به فقتل.

ونقل [اوكتافيوس] الى روما مريضاً، وكان الأمل بشفائه ضعيفاً وزحّف [انطوني] عبر بلاد اليونان على رأس جيشٍ لجب، لجباية الأموال من الاقاليم الشرقية. وكان ثلاثي الحكم قد وعدوا الجنود بأن يدفعوا لكلّ منهم بمكافأة قدرها خمسمائة درهم. وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين الى اتباع اجراءات اشد صرامة في فرض الضرائب وجباية الأتاوات. واظهر انطوني

(٢٣) حدث ذلك في صيف العام ٤٢ ق.م.

في معاملته للاغريق اعتدالاً ومجاملة على الأقل في مبدء الأمر، وقنع من ضروب التسلية، بحضور الالعاب والمراسيم الدينية وسماع مناظرات الفلاسفة والعلماء، واظهر رحمةً وتسامحاً في الاحكام القضائية، وكان يسرّه ان يلقب «بمحبّ الاغريق»، ويزداد غطبة اذ يلقب «بمحبّ اثينا» حيث امطر المدينة بالهدايا. ولكن عندما اراد أهالي [ميغارا] اطلاعه على شيء ينافس جمال اثينا ودعوه لرؤية مجلس شيوخهم اسرع بالذهاب وتأمله. ثم سألوه عن رأيه فيه فأجاب: أنه ليس واسعاً جداً بطبيعة الحال. ألاّ انه متقوض جداً!

وقام ايضاً بالكشف على هيكل [ابوللو البيثي] لأجل اكمال عمارته. على الأقل وعد مجلس الشيوخ المحلي بذلك.

وبعد هذا بقليل ترك [لوچيوس چنسورينوس Lucius Censorinus] حاكماً على بلاد الاغريق[٢٤] وعبر المضيق الى آسيا وشرع حالاً بنهب ثروات الأقليم. وكان الملوك الموالون يقفون ببابه والملكات يتنافس على تقديم انفس الهدايا له، ويتراهن على من ستكون صاحبه الحظوة في عينه يتمنّين بذل انفسهن وشرفهن له. وفي حين كان [اوكتافيوس] في روما يعمل ناصباً وينهك قواه في معترك التطاحن السياسي الحزبي وفي الحرب الأهلية. كان [انطوني] غارقاً في مسرات ونعم السلم وفي راحة دائمة، وما لبثت غرائزه ان أطلقت لنفسها العنان كما كانت في السابق فزحف عليه اشتات من الطفيليين وعازفي العود مثل اناكسانور Anoxen-or والنافخين بالمزمار مثل [كسانتوس Xanthus] والراقص [مترودورس Metrodorus]، ومجموعة كاملة من اللاعبين الآسيوين، سبقت اباحيتهم ومجونهم حتى أولئك الطفيليين الذين جاء بهم معه من ايطاليا. فأستولوا على منزله واصبحوا فيه الآمرين الناهين. وأخذ الناس يضيقون ذرعاً بتبديد الثروات على قبل هذه القبائح. اذ ان كل اقليم آسيا اصبح الآن يضوع بالفجور، مثل [ثيبة] في تراجيدي اوديب الملك Sedipus Tyronnes صرخات اليأس، مختلطة بأغاني المرح». وعند دخوله أفسس استقبلته النسوة بازياء باخوسية، والرجال والاحداث بازياء المسوخ، والربّ بان Pan. وساروا امامه بمواكب. وملئت المدينة بأكاليل اللبلاب وسيقان الثيرسوس Thyrsus! وكان الجوّ يردد صدى موسيقى القيثار والزّمار والناس يحيونه بوصفه [ديونيسيوس] المحسن وجالب المسرات هكذا كان يبدو لبعض الناس بلا ريب، لكنه كان في نظر اكثريتهم [ديونيسيوس] القاسي، وناهش اللحم[٢٥]. لأنه جرد

---

(٢٤) في العام ٤١ ق.م.

(٢٥) يعزى الى [ديونيسيوس] اسماء مختلفة وسجايا مختلفة. والعنصر البدائي الوحشي في طائفته، متوفر كما هو متوفر العنصر الطيب العاقل. ومن هنا جاءت مقابلة بلوتارخ هذه.

العديد من الأسر الشريفة من كل ما تملكه وليفرقه على المتزلفين والأوغاد. وفي احيان أخرى كان يسمح لبعضهم بسرقة الاموال من اصحابها الشرعيين وهم احياء بزعم انهم موتى. وفي مغنيزيا منح [انطوني] دار احد الناس لطاهٍ كان كل فضله انه عمل له عشاءً جيداً ولكن أخيراً عندما فرض اتاوة ثانية على المدن. جمع [هبرياس Hybreas] اطراف شجاعته وتكلم باسم كل الاقليم الآسيوي قائلاً:

- ان كان بوسعك جباية أتاوتين سنويتين في عامٍ واحدٍ فلاشك انك قادر على اعطائنا موسمي صيف وحصادين.

وصاغ افكاره باسلوب بليغ معبرٍ اعجب به [انطوني] ثم انه مضى يقول بلهجة عنيفة صريحة أن آسيا قد جمعت حتى الآن له: مائتي ألف تالنت... «فان لم تتسلّم هذه الأموال، فعليك ان تسأل جباتك الذين جمعوها، وان تسلمتها فعلاً وانفقتها؛ فنحن من الهالكين» احدثت هذه الكلمات اثراً عميقاً في [انطوني] اذ كان يجهل تماماً عظم المبالغ التي جمعت باسمه، لا لأنه من أولئك اللامبالين، بل لأن السذاجة بلغت به حَدّ الثقة المطلعة بمرؤسيه.

في الواقع كان [انطوني] ساذجاً بطبعه، بطيئاً في الوصول الى الحقيقة. ولكن ما ان يدرك خطأه حتى يملأ الندم جوانب نفسه ويغدو مستعداً للاقرار بخطئه ممن اصابهم به. وكلما وجب عليه ان ينزل عقوبةً او يصلح ظلماً فهو يقوم بها بشكلٍ واسعٍ ويتخطى حدود المعقول كثيراً في المكافآت التي يمنحها، اكثر من العقوبات التي يفرضها. واما عن نوع المزاح الغليظ الوقح الذي يحبّ ان يتبادله، فهو يحمل معه علاجه. اذ بامكان كل شخص ان يقابله بمزاح اغلظ واشدّ وقاحة. وهو يلتذّ بان يكون موضع سخرٍ وضحك قدر ما يلتذ بالضحك على الآخرين. وكثيراً ما اضرت به هذه الصفة اذ كان يتعذر عليه ان يعتقد بأن الغرض الحقيقي لأولئك الذين يمارسون حرياتهم معه ويبادلونه المزاح انما غرضهم التملق والتزلف اليه. انه لم يفهم قطّ بأن بعض الرجال يخرجون عن جادتهم فيعمدون الى اتخاذ اسلوب صريح واضح وسيتخدمونه مثل المستحلب الحريف لتغطية طعم المداهنة الكريه. امثال هؤلاء ينطلقون في ردودهم الجريئة وكلامهم الاعتد الى متعمدين وهم في مجالس الخمر حتى يظهروا بأن المصادقة الذليلة في الامور الهامة لا توحي بأنهم انما يعاشرون الرجل لأجل ان يدخلوا البهجة الى نفسه، بل ان ما يصادقون عليه انما هو رأيهم الحقيقي في حكمته السامية.

تلك هي طبيعة [انطوني]، ولهذا فان حبّه [لكليوباترا] التي دخلت الآن حياته، جاء اعظم خاتمةً لمصائبه. لقد اثار الى درجة الجنون كثيراً من النوازع التي كانت الى ذلك الحين مختفية او نائمة. وخنقت او افسدت كلّ السجايا التي ظلت تبدي حتى تلك الساعة مقاومةً للاغراء.

وتنطوي على عناصر الصلاح والخير. واليك قصّة ضياع قلبه فيها:

كان يتهيأ لحملته على البارثيين، فأرسل يطلب من [كليوپاترا] مقابلته في [كيليكيا] لتجيب عن اتهامها بإرسال مساعدة مالية كبيرة [لكاسيوس] واسداء العون له في حربه ضدّ ثلاثي الحكم. وبهت رسوله [دليوس Dellius] بسحر [كليوپاترا] ودهائها ما ان وقع نظره عليها. وبات مقتنعاً من ساعتها بان امرأة مثلها لن تخشى ان يصيبها اي اذىً من [انطوني] وانما الخوف سينشأ من النفوذ والتأثير الذي ستمارسه هي عليه. فقرر ان يقدم فروض التكريم للملكة المصرية ان يزين لها الذهاب الى كيليكيا وهي «في ابهى هيئة يؤهلها اليه فنّها» كما يعبر عنه هوميروس[٢٦] وان تطمئن من [انطوني] ألطف القادة وأكثرهم رجولة وتهذيباً. وتأثرت [كليوپاترا] باقوال [دليوس]. فقد سبق لها ان أختبرت جاذبيتها وتأثير جمالها في [يوليوس قيصر] وفي [پومپي] الأصغر[٢٧]. وكانت تتوقع أسر [انطوني] بأسهل من السابقين لأن [قيصر] و[گنيوس پومپي Gnoeus Pompey] تعرفا عليها وهي فتاة غُرّة لا تجربة لها في الحياة. اما الآن فستقابل [انطوني] وهي في سن ناضجة، المرأة فيه تكون في اوج فتنتها ورجاحة عقلها[٢٨] ولذلك تهيئات للسفر بكثير من الهدايا الغالية والأموال والفخفخة والزينات التي تتفق ومقامها الملكي واسرتها العريقة. الاّ ان أكبر اعتمادها كان على ملاحتها وفتونها والتأثير الساحر الذي ستخلفه.

تسلمت سلسلة من الرسائل من [انطوني] واصدقائه تدعوها لزيارته. الاّ انها استخفت بكل هذه الدعوات حتى انها عندما قدمت، بدت وكأنها ما جاءت الاّ استخفافاً بأوامره. وصلت تمخر مياه نهر قدنوس Cydnus في مركب حيزومه من ذهب، واشرعته من الارجوان منشورة في مهب الريح، ومجاذيفه الفضية تلطم الماء بشكلٍ رتيب على الحان المزمار والسرناي والقيثار. وأستلقت هي تحت سقيفة من نسيج مذهب مرتدية زيّ [ڤينوس] كما ترى في تماثيلها. يحفّ بها صبيان صغار ذوو وسامةٍ يرتدون زي [كيوبيد] كما يرى في صوره، وهم يهشون لها بمروحاتٍ. وكانت وصيفاتها يرتدين زيّ حوريات البحر Neriede, Grace بعضهن يدرن الدفة، وبعضهن يعالجن القلوع. وكانت البخور والعطور تتضوع صادرة من المركب الى الشاطيء فتنتشر مختلف الروائح الغالية الثمن. والحشود الهائلة من الناس على الجانبين، قسم رافق المركب من صدر النهر، وقسم اقبل من المدينة [طرسوس] مهرولاً والكلّ

(٢٦) المقتبس هو من الالياذة في [ج ١٦ ف ١٦٢] والوصف بالاصل لهيرا Hera التي تجملت لايقاع [زفس] في حبائلها.

(٢٧) هو ابن پومپي الاكبر.

(٢٨) في العام ٤١ ق.م كان لكليوپاترا من العمر ثمانية وعشرون عاماً.

يريد ان يشبع نظره من المشهد. وانفضّ الجمع تدريجياً من الساحة العامة حيث كان [انطوني] ينتظر [كليوپاترا] وهو جالس على كرسيه الرسمي، حتى ترك أخيراً وحده تماماً واقفر المكان. وانتشر القول ان [ڤينوس] جاءت لاحياء العيد مع [باخوس] لمصلحة آسيا.

ارسل [انطوني] الى كليوپاترا يدعوها الى عشاءٍ. إلاّ انها استحسنت ان يلبيّ هو دعوتها. فقبل ليظهر حسن نيته وكياسته فوجد ما هيّء له يجلّ عن كل وصفٍ. الاّ ان ما فاق كل تصوره هو العدد العائل من المصابيح، قيل انه انزلت فجأة من السقف وأخذت تلقي بانوارها الساطعة الى كل الجهات في وقتٍ واحدٍ وقد نظمت وجمعت بهيئات لطيفة ونسق بديع، بعضها في مربعات وبعضها في حلقات. وبدت بمنظر يسبي اللب، لايمكن ان ينظم مثله ليأسر النظر. وفي اليوم التالي، دعاها هو رداً لضيافتها. وكان يأمل ان يفوق مأدبتها بذخاً واسرافاً وفخامةً. لكنه فشل فشلاً ذريعاً وسلّم بالهزيمة من كل ناحية، وجعل ذلك مادة للمزاح والتفكهة على سماجته وخرقه وافتقاره الى الظرف والذوق. ووجدت [كليوپاترا] ان مزاح انطوني هو من النوع الخشن الغليظ الذي هو أقرب الى العسكري منه الى رجل البلاط المهذب فجارته فيه ونزلت الميدان ونازلته دون تحفظ، ولم يكن جمال وجهها - كما روي لنا مما لايضاهيه جمال فيأسر المناظر حالاً. الاّ ان سحر وجودها لم يكن بالامكان مقاومته. وكان ثم جاذبية في شخصيتها وكلامها، مع قوةٍ غريبة في تلك الشخصية تلازم كل كلمة وكل حركة، فتوقع مجالسها مهما كان تحت تأثيرها التام. ان مجرد سماع صوتها كان اللذة بعينها وهو مثل آلة طرب متعددة الأوتار، بامكانها الانتقال عليها من جرسٍ الى جرس، فهي عندما تواجه البرابرة يندر لها ان تحتاج الى مترجم، بل تتحدث اليهم بطلاقة ودون معاونة كالاحباش، والتروغلوريت Troglodyte والعبرانيين والعرب، والسوريين والمبدين والپارثيين. وقيل انها المت بلغات شعوب كثيرة أخرى في الواقع مع ان اسلافها حكام مصر لم يتعبوا انفسهم حتى بتعلم اللغة المصرية، وان بعضهم نسي لهجته المقدونية.

وعلى اية حال نجحت [كليوپاترا] في اجتذاب [انطوني] تماماً، حتى انه قبل ان تأخذه معها الى الاسكندرية في الساعة التي كانت زوجه [فولڤيا] تدير دفة الحرب في ايطاليا ضدّ [اوكتاڤيوس قيصر] دفاعاً عن مصالح زوجها، وفي الوقت الذي كان الجيش الپارثي بقيادة [لابينوس Labienus][٢٩] (الذي اختاره قواد الملك قائداً عاماً) يهددّ بالويل على حدود

(٢٩) لابينوس هذا، هو ابن [تيطس لابينوس] احد ضباط [قيصر] في حروب الغال [يذكره قيصر في مذكراته عن الحروب الغالية]، انضم الى پومپي وقتل في معركة موندا في ٤٥ ق.م. وارسل بروتوس وكاسيوس الابن بطلب معونة من اورودس Orades ملك الپارثيين وكان هناك عندما انهزم المتآمرون في معركة فيليپي. غزا لاپينوس ســورية في ٤٠ ق.م. الاّ ان ڤنديتوس قائد انطوني طرده منها. ثم أسر في كيليكيا.

بلاد ما بين النهرين، ويهمّ بغزو سورية. وفي الاسكندرية غرق هذا المحارب القديم في ضروب من المسرات والتسليات واللهو كشاب غرّ لايقيم للمستقبل وزناً واخذ يبددّ في اللهو الباطل ما وصفه انتيفون Antiphon «باغلى السلع طراً» الا وهو الوقت. وجمع [انطوني وكليوباترا] حولهما نخبة من الاصدقاء اطلقا عليها اسم « » يولم كل واحدٍ منهم للآخرين يومياً، باسراف وبذخ بجلّ عن الوصف وقد اعتاد [فيلوطاس] وهو طبيب سكن [امفيسّا Amphissa] - ان يحدث جَدّي [لامبرياس Lamprias] عن ايام دراسته الطب في الاسكندرية[٣٠] فيقول له تعرف باحد طهاة الملكة. وقد زين له وهو بعد شاب يملأه حب الاستطلاع ان يأتي معه ليشاهد الاستعداد الفخم لوجبة العشاء ملكي، ودخل به الى المطبخ وبعد ان شاهد كثرة الاصناف وتنوعها. وراقب عملية شواء ثمانية خنازير بريّة، اعرب عن دهشته لعدد المدعوين الكثير، الذي يستلزم تلك الكمية من الطعام فقهقه الطاهي وبين له ان عهد المدعوين ليس كبيراً وهو لايتجاوز الاثني عشر نفراً. ولكن من الضروري ان يطهى كل شيء ويقدم بصورة متقنة وان التأثير كله قد يتلف ان حصل خلل في التوقيت لايتجاوز الدقيقة الواحدة. فقد يتفق ان يطلب [انطوني] العشاء فور مجيء الضيوف. او انه يطلب بعد قليل، ارجاءها ويأمر ان يؤتي له بكأس من الخمر، أو ربما يستغرق في حديث...

- لذلك فنحن لانهيء عشاءً واحداً، بل نستعد لعدد منها لأننا لانعرف اللحظة التي سيرسل بطلب العشاء بالضبط.

هذه هي الحكاية التي اعتاد [فيلوطاس] روايتها. كما انه روى حكاية أخرى، عن زمن لاحقٍ عندما كان ابن [انطوني] البكر من زوجه [فولفيا] واحداً من مرضاه وهو طبيب في الاسكندرية. وقد اعتاد تناول العشاء عنده مع اصدقائه، عندما لايتعشي هذا الشاب مع ابيه. في احدى المناسبات، حضر العشاء، طبيب آخر واخذ يتكلم متفاخراً متباهياً فأزعج المدعوين، الى ان نجح [فيلوطاس] في اسكاته بالعبارة السوفسطائية التالية:

«في بعض حالات الحُمى، يجب على المريض ان يتناول الماء البارد. وكل امرءٍ محموم، هو في حالةٍ من حالات الحمى: لذلك فكلّ محموم يجب ان يتناول الماء البارد».

فارتج على الرجل وعجز ان يردّ بكلمةٍ امام هذا المنطق. وبلغ من سرور ابن [انطوني] ان هتف قائلاً:

- كل هذا لك يا فيلوطاس

---

(٣٠) كان في الاسكندرية انذاك مدرسة طبّ شهيرة.

واشار الى منضدةٍ صف عليها اقداح شرب واسعة. فشكره فيلوطاس وأظهر تقديره الاّ انه استأذن ليبدي شكه في ان فتىً صغيراً مثله، مخوّل بتقديم هدية كهذه. غالية الثمن ولكن لم يمرّ زمن حتى جاء اليه عبدٌ يحمل تلك الاقداح في كيسٍ وطلب منه ان يضع ختمه عليها. ولما ابعدها [فيلوطاس] عنه وادركه الخوف من قبولها، قال له الرسول:

- لا تكن غُراً احمق! ما الذي يدعوك الى التردد؟ الا تدري ان مهديك هو ابن [انطوني]. وان له الحق في ان يهديك كان هذه الاقداح الذهبية ان شاء؟ ولكن لو كنت في موضعك لقبلت مقايضتها بالنقد، فبعض هذه الاقداح قديمة وصياغتها نادرة، عالية القيمة. ومن المحتمل جداً ان يفتقدها والد الصبيّ.

ويقول جدي ان [فيلوطاس] كان مغرماً برواية قصص من هذا النوع في كل مناسبة تعنّ له.

يتحدث افلاطون عن اربعة انواعٍ من الملق الاّ ان لدى [كليوپاترا] الف نوع. ولا فرق لديها ان كان مزاج [انطوني] جاداً او مرحاً فبإمكانها ان تخترع دائماً وسيلة جديدة لتسحره وتسرّه لقد ملكت عليه مذاهبه واستأثرت باهتمامه ولم تدعه يغيب عن ناظرها لحظة في الليل والنهار. تلاعبه النرد، وتساقيه الخمر، وتخرج للصيد معه. وتراقبه وهو يجرب السلاح ويتمرن عليه. وفي الليل عندما يخطر بباله التجوال في المدينة ويقف عند ابواب ونوافذ المواطنين العاديين فيتندر عليهم ويساخرهم، ترتدي هي ثياب خادمة وتؤدي دورها في أية عملية حماقه ومجون تخطر ببال انطوني. اذ كان من عادته ان يخرج متنكراً بثياب عبدٍ. وفي مثل هذه الاحوال كان يخرج باهانات وشتائم. واحياناً كان ينال نصيباً كبيراً من الضرب قبل ان يعود الى القصر، وان كان لمعظم الأهالي فكرة مؤكدة عن هويته. والواقع ان التهريج والمجون كان من نقاط ضعف الاسكندرانيين. تلذهم المساهمة في مثل هذه المسليات باساليبهم المهذبة ورقتهم المرهفة. وقد احبوه شخصياً واعتادوا القول انه وضع قناعه التراجيدي للرومان. وحفظ قناعه الهزلي لهم.

سأبدد الوقت في وصف تفاصيل لهو [انطوني] الصبياني على اني سأروي واقعة واحدة تغني عن الجميع ويكون فيها فصل الخطاب. في ذات يومٍ خرج لصيد السمك فلم يفتح عليه بشيء. ومما زاد في انزعاجه وجود [كليوپاترا] فأمر بعض صيادي السمك بالغطس سراً وربط عدد من الاسماك التي صادوها في شصّه. ثم شرع يسحب صنارته مرتين وثلاثاً. وادركت [كليوپاترا] حقيقة الأمر. وتظاهرت بالاعجاب وهللت لنجاحه، الاّ انها اخبرت اصدقاءها بالحادث ودعتهم للمجيء والمشاهدة في اليوم التالي فركبت جماعة كبيرة قوارب الصيد وانطلقوا للصيد وما ان القى [انطوني] بصنارته، حتى امرت [كليوپاترا] احد عبيدها

بالغطس الى صنارته ليضع في الشصّ سمكة مقددة من اسماك البحر الأسود. وسحب [انطوني] خيط ضاناً انه اصطاد شيئاً وما ان خرج بالسمكة المملحة حتى ضج الحاضرون بالضحك كما كان متوقعاً واسرعت [كليوپاترا] تقول:

- دع صنارة السمك لنا ايها الامبراطور، نحن ملوك فاروس وتينوب الفقراء. فطرائدك هي المدن والممالك والقارات.

فيما هو غارق في هذه الحماقات وضروب العبث الصبياني وردته من روما رسالة تبئنه ان اخاه [لوچيوس] زوج و[فولڤيا] قد أختلفا فيما بينهما، ثم اتفقا على شن الحرب ضد [اوكتاڤيوس]، واصيبا بهزيمة هربا على اثرها من ايطاليا. ووردته رسالة أخرى من سورية ابعث على القلق من الأولى. تنبئه بان [لابينوس] قد استولى على أسيا من الفرات وسورية حتى اقليم ليديا وايونيا غرباً. وعندها[٣١]، وكالنائم الذي اوقظ بخشونة من رقاد بعد ليلة عربدة وخمر، انطلق لقتال الپارثيين وتقدم حتى [فينيقيا] وهنا تسلم رسالة من فولڤيا ملائ بالتفجع والبكاء على ما حَلّ بها من محن. فقرر اجراء تغيير في خطته، وألوي متجها الى ايطاليا بأسطوله المؤلف من مائتي سفينة. وفي طريقه التقط عدداً من انصاره الذين تركوا ايطاليا هاربين وعلم منهم ان [فولڤيا] كانت المسببة الأولى للحرب مع [اوكتاڤيوس] كانت امرأة عنيدة صلبة المكسر، يلذّ لها معالجة السياسة، فضلاً عن اعتقادها بان أسرع وسيلة لحمل [انطوني] على ترك [كليوپاترا] هو اثارة الخصومات والاضطرابات في ايطاليا. وتشاء الاقدار ان يعاجلها الأجل وهي في طريقها اليه فقد سقطت مريضة في [سيكيون] وهناك توفيت. وهذا ما قوى احتمال التفاهم مع [اوكتاڤيوس]. اذ ما أنْ وطأ [انطوني] ايطاليا، حتى اصبح واضحاً لديه ان [اوكتاڤيوس] لايعتزم تحميله مسؤولية الحرب، وفي الوقت نفسه كان [انطوني] مستعداً لالقاء التبعة على [فولڤيا] لكل الاتهامات التي قد تلصق به. ومهما يكن فعندما تمّ اولّ اللقاء بينهما[٣٢]، رفض اصدقاء الجانبين اضاعة الوقت في فحص اعتذارات [انطوني] ومبرراته. فقد انصب اهتمامهم في مصالحة الرجلين ثم بقسمة الامبراطورية. فجعلوا البحر الايوني حدوداً واناطوا حكم الاقاليم التي تقع الى شرقه بانطوني، والاقاليم التي تقع الى غربه [باوكتاڤيوس]. وانيط حكم اقليم افريقيا بـ[ليپيدوس] واتفق ايضاً على ان يتولى منصب القنصلية انصارهما كلاً بدوره لأنهما لم يكونا راغبين فيها.

---

(٣١) في مطلع العام ٤٠ ق.م.

(٣٢) تشرين الاول ٤٠ ق.م.

وعدت هذه الاجراءات مناسبة للطرفين، ولكن ارتوىٔ ان تشد برباط أوثق، وهيّا الحظّ لهذا فرصةً نادرة. كان [لاوكتافيوس قيصر] أخت غير شقيقة أكبر منه، هي بنت [امخوريا Am-choria]، اما هو فابن [آتيا Atia] وهي زوج ابيه الثانية. وكان [اوكتافيوس] شديد التعلق باخته، وكانت كما اشيع عنها، اعجوبة بين النساء. زوجها [كايوس مارچللوس] توفي منذ زمن قصير. وحين [انطوني] كان يعتبر أرمل بعد وفاة زوجه [فولڤيا]. ولم ينكر علاقته [بكليوپاترا]، الا انه انكر وجود رباط زوجي فيما بينهما، وفي هذا الأمر كان موزع الفكر بين حبّه للملكة المصرية، وبين الواقع المقبول. وفي الوقت نفسه كان الرومان جميعاً متفقين على شدّ هذا الرباط، وكانوا شديدي الأمل في ان اخت [اوكتاڤيوس] ان تزوجت [انطوني] وكسبت محبته - فامرأة مثلها لايتعذر عليها ذلك. لذكائها وقوة شخصيتها فضلاً عن جمالها. سيكون في هذا الاتحاد الخلاص، وسيأتي بالهدوء والاستقرار للامبراطورية الرومانية[٣٣]. وعندما اتفق الرجلان على الشروط، ذهبا الى روما واحتفلا بزواج [اوكتاڤيا]. ولم يكن القانون يسمح للمرأة بالزواج الاّ بعد انقضاء عشرة اشهر على وفاة زوجها، الاّ ان مجلس الشيوخ اصدر في هذه القضية مرسوماً بالسماح قبل مضي المرة.

في ذلك الزمن كانت قوات [سكتوس پومپيوس] مسيطرةً على صقلية. وكان ايضاً يعيث سلباً في الساحل الايطالي وكان قادراً بمساعدة اسطول قرصان بأمرة [ميناس Menas] و[مينيقراطس Menecrates] على تهديد سلامة السفن في سائر منطقة البحر المتوسط على انه كان قد مدّ يد العون لأمّ [انطوني] عند هروبها من روما مع [فولڤيا] وكان يعتقد انه يخلص الودّ [لأنطوني]. ولذلك قرر ثلاثي الحكم مفاوضته. فأجتمعوا في ضواحي [ميسنيوم Misenum[٣٤]] عند اللسان الداخل في البحر، وكان اسطول [پومپي] راسياً على مقربة وجنود [انطوني واوكتاڤيوس] قد انتظموا صفوفاً على طوال الساحل واتفق على ان تطلق يد [سكستوس] في صقلية وسردينيا، ويتعهد مقابل ذلك بتطهير البحر من القراصنة، وارسال مقدار معين من الحبوب الى روما سنوياً.

وبعد هذا الاتفاق تبادلوا دعوات العشاء، واقترعوا فيما بينهم، فوقعت الدعوة الأولى على [سكتوس پومپي] فسأل انطوني اين ستكون الدعوة فأجاب [پومپي] مشيراً الى سفينة

---

(٣٣) هناك دليل على ان هذا الزواج، والامل في ان يثمر ولداً، هو الذي اوحى لڤرجيل بايكلوجه Ecloque الرابع المشهور. ببنؤته حول مجيء طفلٍ الهي يكون عهده مفتح العصر الذهبي.

(٣٤) عقد هذا المؤتمر في ميسينيوم الواقعة في الراس الشمالي من خليج نابلي، وكان ذلك في ربيع ٣٩ ق.م. كان سكستوس الابن الاصغر لپومپي الاكبر وقد ساعدته سيطرته على البحر، في قطع امدادات القمح عن روما. وهذا ما سبب مجاعةً وعدداً في الفتن وحوادث الشغب في روما قمعت بصرامة شديدة.

القيادة وهي بارجة ذات ست طبقات:

- هناك! فهي المنزل الوحيد الذي ورثه [پومپي] عن ابيه.

قالها معرضاً بأنطوني الذي كان واضع اليد على منزل ابيه آنذاك.

وثبتت البارجة في مرساها ومدّ جسر اليها من الساحل لعبور المدعوين. واستقبلهم پومپي بغاية الحفاوة والتكريم وعندما بدأت الخمر تفعل فعلها في النفوس وتحرر المزاح من قيود الكلفة، وبدأت تلقى تعليقات جريئة حول غرام انطوني بكليوپاترا. همس [ميناس] رئيس القرصان في اذن [پومپي].

- أأقطع الأمراس، واجعلك سيداً لامبراطورية روما لا لصقلية وسردينيا فحسب؟

فأطرق پومپي ملياً ثم أجاب:

- ميناس! كان عليك ان تنفذ هذا دون اعلامي. اما الآن فعلينا الرضى بما قسم لنا. اني لن احنث بكلمتي.

وبعد ان حضر [پومپي] دعوتي [انطوني واوكتاڤيوس] أقلع الى صقلية.

بعد اقرار هذا الاتفاق، ارسل انطوني قائده [ڤنتيديوس Ventidius][٣٥] قبله الى آسيا لصدّ تقدم الپارثيين وفي الوقت نفسه مثل وظيفة الكاهن الأعلى Pontifex Maximus التي كان يشغلها [يوليوس قيصر] ترضيةً [لاوكتاڤيوس]. وكانا خلال وجودهما في روما معاً، يتبادلان المشورة فيما بينهما ويعملان بانسجام في تصريف شؤون الدولة ومعالجة الامور السياسية. وكان الغيظ يستولي على [انطوني] كلما وجد [اوكتاڤيوس] يغلبه في العاب الحظ وضروب التسلية الاخرى التي يتعاطياها معاً وكان يوجد لديه ساحر مصري حذق في النظر في الطوالع. لم يخف هذا الساحر عن [انطوني] (اما مدفوعاً بقول الحقيقة واما مدفوعاً بتوصية من كليوپاترا) بانه صاحب حظّ عظيم لامع، الاّ ان القدر حكم بأن يكسف هذا بحظ [اوكتاڤيوس] فهو والحالة هذه ينصحه بالابتعاد عن زميله الشاب ما استطاع سبيلاً. وانذر [انطوني] بقوله:

- ان روحك الحارسة، تفترق من روحه الحارسة. وان كانت روحك جسورة صلبة العدد بنفسها الاّ انها رعديدة جبانة عندما يقترب قيصر منها.

وقد ايدت الاحداث التالية نكهات هذا المصري. فقد روي لنا ان [اوكتاڤيوس] كان الغالب

(٣٥) كان ڤنتيديوس باسوس ممن يطلق عليهم الرومان (نوڤوس هومو) أي اول عضو في الأسرة يبرز فيها بعمل ويحقق لها الشهرة وقد ظهرت مواهبه القيادية بالاصل اثناء خدمته تحت امرة يوليوس قيصر.

كلما القى الاثنان بالنرد، سواء لتسلية او لتقرير شيءٍ من الاشياء. او كلما تراهنا على قتال الديكة والسماني خرج [انطوني] مغلوباً.

وعمل [انطوني] على اخفاء ضيقه من هذه الأمور الاّ انه أولى اقوال المصري كثيراً من الاهتمام. فأوكل امور بيته الى [اوكتافيوس] وغادر ايطاليا الى اليونان ترافقه [اوكتافيا] التي وضعت له طفلةً. وقضى شتاءه في اثينا. وهناك وصلته انباء انتصارات [فنتيدبوس][36] على البارثيين. وكيف انه حقق النصر الساحق في معركة حاسمة قتل فيها [لابينوس]، و[فارناباط Pharnabates] اقدر قواد [هيروديس Hyrodes] فاحتفل بهذا النجاح باحياء الحفلات الكبرى للاغريق. وبالالعاب الرياضية في اثينا التي ترأسها بنفسه فترك في منزله شعارات المنصب التي ترفع امام الجنرال الروماني وظهر للناس مرتدياً ثوباً اعتيادياً ونعلاً ابيض وحاملاً عصًى [الجمناسارخ Gymnasiarck: اي رئيس الالعاب]. وتولى وظيفة الحَكَم في بعض المسابقات. يقبض على المصارعين الشبان من اعناقهم ويفرق فيما بينهم!

وعندما حان موعد ذهابه لحرب البارثيين، قطع اكليلاً من شجرة الزيتون المقدسة في الاكربوليس. واطاعة لنبوءةٍ معينة. ملأ اناءً بماءٍ من نبع [كلپسيدرا Clepsydra] المقدس واخذه معه. وفي الوقت نفسه عاد [پاغوروس Pacorus] ابن الملك هيرودوس فاغار على سورية بجيش پارثي ضخم، فأشتبك معه [فنتيديوس] وهزمه في جندارُس Gindarus باقليم [جيرستيكا Cyrrhestica][37] وافنى القسم الأعظم من قواته. وكان [باغوروس] من اوائل القتلى، كان هذا النصر احد المع الانتصارات العسكرية التي حققها الرومان في تاريخهم. فقد اخذوا بثأرهم كاملاً من النكبة التي اصابتهم على يد كراسوس واضطر البارثيون بعد ان خسروا ثلاث معارك متوالية الى الانسحاب خلف حدود ميديا وما بين النهرين. وقرر [فينتدريوس] الاّ يتعقب المنهزم أكثر من هذا. ربما خوفاً من اثارة حسد [انطوني] لنجاحه. وبدلاً من ذلك هاجم القبائل التي تمردت على الحكم الروماني واخضعها، والقى الحصار على انطيوخوس الكوماجيني Commagene في مدينة ساموساتا Samosata. وعندما عرض

---

(36) هزم فنتيديوس البارثيين سنة 39 ق.م في الداخل الكيليكية وجبل امانوس. وفي هذه الحروب تخلّى البارثيون عن الهجمات البعيدة المسافة التي يقوم بها رماة السهام الخيالة وهي التي جعلتهم يربحون معركة الرها Carrhae ضد كراسوس – واعتمدوا على خيالتهم المصفحة دون ان يحققوا نجاحاً. عندها غزا انطوني البارثيين كان هؤلاء قد ادركوا خطئهم وعادوا الى الاسلوبهم الأول.

(37) كان ذلك في 38 ق.م. وبحسب رواية [ديوكاسيوس Diocassius]، قتل باكوروس في التاسع من حزيران، وهو نفس اليوم الذي فقد فيه كراسوس حياته قبل خمس عشرة سنة.

انطيوخوس دفع الف تالنت لقاء العفو عنه وتعهده بالخضوع لأنطوني، اشار عليه ڤنتيديوس بان يقدم عرضه الى [انطوني] مباشرةً. وكان هذا الأخير قد اقترب من الجوار ورفض السماح [لڤينتيديوس] باجراء اي اتفاق مع انطيوخوس مباشرة[٣٨]، كان متلهفاً الى مأثرة واحدة على الأقل تعزى اليه ولم يكن يرغب ان يعزى كل نجاح الى [ڤنتيديوس]. وطال الحصار امداً واستمات المحصورون في الدفاع بعد ان رفضت عروض الصلح التي قدموها، فأسقط في يد [انطوني]. وبات يشعر بالخزي والندم لرفضه العرض الاول وقنع أخيراً بعقد صلح مع [انطيوخوس] وقبول ثلاثمائة تالنت فقط وذهب الى سورية لتسوية بعض الامور الصغيرة ثم عاد الى اثينا. وفي عين الوقت اوفى [ڤنتيديوس] ما يستحقه من التكريم ومنازل الشرف وارسله الى الوطن لينال موكب نصره.

وكان [ڤنتيدبوس] اولّ من نال موكب نصرٍ على البارثيين. نشأ لاسرة مغمورة الاّ ان صداقته [لانطوني] فتحت امامه الفرص لتحقيق عظائم الأمور. وايد الرأي القائل بان انتصارات [انطوني واوكتاڤيوس قيصر] انما تعزى في الحقيقة الى قوادهما ومرؤوسيهما أكثر مما تعزى اليهما شخصياً. لاشك في ان [سوسيوس Sossius] وهو قائد آخر من قواد [انطوني]، نال انتصارات هامة[٣٩] في سورية، في حين لم يكتف [كانيديوس Canidius] بفتح بلاد الأرمن[٤٠] عندما تركه انطوني هناك، بل اخضع ايضاً ملوك الايبري والألباني[٤١] وتقدم حتى بلغ القفقاس. وبهذا عظمت شهرة انطوني العسكرية عند شعوب البرابرة.

وفي ذلك الحين عاودت الجفوة [انطوني] بسبب ما كان [اوكتاڤيوس] يذيعه عنه من التهم والوصمات، وابحر الى ايطاليا بثلاثمائة سفينة، فأغلق أهالي [برنديزيوم] ميناءهم في وجهه فدار باسطوله حول الساحل حتى بلغ [تارنتوم] وهنا نجحت [اوكتاڤيا] التي رافقته من بلاد اليونان، باقناعه بالسماح لها بزيارة أخيها. كانت قد ولدت لانطوني ابنتين وهي انذاك حُبلى. والتقت [باوكتاڤيوس] وهي في طريقها اليه وانتحت جانباً بصديقيه [اگريپا Agrippa] و[ميچنياس Maecenas] ونالت عطفهما، راحت تتوسل بأخيها باكية، مستخدمة كل عواطفها قائلة ان لايجعلاها اشقى النساء بعد ان كانت اسعدهن. قالت له ان كل الاعين في

(٣٨) توحي دلائل اخرى بان [ڤنتيديوس] قبل رشوةً من انطيوخوس، لكي لايشدد حصاره ويلقي بكامل ثقله. واضطر [انطوني] الى انهاء القضية بنفسه. سمح لڤينتديوس بالعودة الى روما للاحتفال بنصره، إلاّ انه اختفى من الحياة العامة بعدها مباشرةً ولم يسمع عنه شيء.

(٣٩) استولى على جزيرة وبلدة ارادوس Aradus في فينيقيا ٣٨ ق.م واستولى ايضاً على اورشليم.

(٤٠) في ٣٧ ق.م السنة التي سبقت غزو انطوني لبلاد البارثيين وكان كانيديوس يقود حملة متقدمة على ارمينيا.

(٤١) قبيلتان تسكنان جنوب القفقاس.

الامبراطورية تشخص اليها الآن لأنها زوج لواحد من سيديها واخت للسيد الآخر...

- فان وقعت الطامة الكبرى ونشبت الحرب فيما بينكما. لايستطيع احد ان يتكهن من سيكون الغالب منكما. ولكن الأمر الذي لاشكّ فيه هو ان حظّي سيكون اشقى الحظوظ.

تأثر [اوكتافيوس] بكلماتهما ايما تأثير وجاء الى تارنتون بنية احلال الاسلام. وهناك شهد الأهالي منظراً في غاية النبل[٤٢] راؤا جيشاً جراراً تنظم صفوفه على طول الساحل. واسطولاً جباراً في الميناء لايأتي حراكاً في حين يتبادل الاصدقاء من الجانبين التحيات وتعّم الجيش مظاهر البهجة والفرح. وسبق [انطوني] فدعا [قيصر] فقبل، وكان منه تنازلاً اكراماً لاخته. ثم تمَّ الصلح بينهما، وبموجبه اعطى [اوكتافيوس] فرقتين من المشاة لاسناد [انطونيو] في حربه البارثية. وترك [انطوني] له مقابل هذا، مائة سفينة حربية. وافلحت [اوكتافيا] بالحصول لأخيها على عشرين سفينة خفيفة أخرى من زوجها مقابل اعطائه الفاً من المشاة. وافترقا وهما على خير ما يكون الاصدقاء، وباشر [اوكتافيوس] بقتال [يومپي][٤٣] والاستيلاء على صقلية، وترك [انطوني] زوجه وبناته مع اولاده من زوجه الأولى وابحر عائداً الى آسيا.

ولكن التأثير القتال، واعني به حبه [لكليوپاترا] الذي ظلّ مدة طويلة هاجعاً في قلبه، وبدا وكأنه طرد سحره، او على الأقل طواه النسيان بتغلب الحكمة والعقل، تجمعت قواه فجأةً وشبت ناره مرة أخرى، حينما كان يدنو من السواحل السوريّة. وأخيراً كان اشبه بالحصان الجامح المشاكس الذي يصفه افلاطون حين يقارن النفس البشرية بحصاني العجلة[٤٤]. كذلك انطوني فقد رمح عن عقله كل الاعتبارات السامية الشريفة لضبط النفس التي قد تكون منقذته، وارسل [فونتيوس كاپيتو Fonteius Capito] لمرافقة [كليوپاترا] الى سورية. وكانت الهدايا التي امطرها بها حين وصولها، لا بالتافهة ولا بالصغيرة، فقد اقطعها

---

(٤٢) جرى هذا الاجتماع في ربيع العام ٣٧ ق.م. فمن وجهة نظر انطوني كان هناك مسائل على جانب كبير من الاهمية تستدعي البتّ فيها فأولاً مع انه كان لكلّ منهما حق متساو لتجنيد الجنود في ايطاليا فقد وجد انطوني ان حقه لايحترم وكان يمنع من استعماله بمختلف الحجج. وثانياً كانت مدة حكم الثلاثي توشك على الانتهاء ومن الضروري تجديد سلطاته فبالاتفاق الذي تمّ هنا، تخلّى انطوني عن [سكستوس يومپيوس] وجهز اوكتافيوس بسفن لاستعمالها في الحرب ضده وبمقابل ذلك، لما كان حقه في التجنيد، لا قيمة له، فقد طلب جنوداً عوض ذلك. كما ان حكم الثلاثة مدد خمس سنوات أخرى.

(٤٣) في الواقع انه امضى بقية العام ٣٧ يستعد لهذه العملية. ودحر يومپيوس بالأخير وطرد من صقلية في خريف ٣٦ ق.م. وهرب الى آسيا وقبض عليه احد ضباط [انطوني] وقتله.

(٤٤) يقارن افلاطون في محاورة [فيدر Phaedrus] النفس البشرية بعجلة مجنحة وسائقها العقل. وحصان ابيض يمثل الشرف والكرامة وآخر اسود يمثل الكبرياء والوقاحة.

فيذيقيا، وسورية الكولية(٤٥) وقبرص، وجزءً كبيراً من كيليكيا، واقطعها ذلك الجزء من اليهودية الذي ينبت البلسان، والجزء الساحلي من بلاد العرب النبطيّة الذي يمتد جنوباً على البحر الأحمر هدايا كثيرة اثارت الاستياء والسخط لدى الرومان. لقد منح انطوني في الماضي اشخاصاً عادين حاكميات، ونصبهم ملوكها على شعوب عظيمة وجرد كثيراً من الحكام اقاليمهم وممالكهم كانتيغونس(٤٦) ملك اليهودية الذي أمر بقطع رأسه وكان اول ملك تنفذ به هذه العقوبة. الاّ ان الالم الذي شعر به الرومان لهذا التكريم لم يكن يعدله ألم. وزادهم نقمة عليه اعترافه بابوة التوأمين اللذين ولدا له منها وتسميتهما [الاسكندر] و[كليوپاترا] ثم لقبهما بالشمس والقمر. مهما يكن بان [انطوني] بارع جداً في اكساء شرّ الاعمال أجمل مظهر واعتاد القول ان عظمة الامبراطورية الرومانية انما تتجلى في مقدرتها على اعطائها بالأحرى لا بأخذها وان نسلاً شريفاً يجب ان يمتدّ فرعه الى عدة ملوك. وعلى اية حالٍ فان مبدأه كما يقول - هو ان جده الأعلى كان من نسل [هرقل] الذي لم يقصر ذريته على رحمٍ واحدٍ. ولم يقم امامه عقبة قانونية كقانون صولون بخصوص تحديد النسل. ولم يخشَ مخصباً بنسل، بل ترك الطبيعة تعمل عملها فترك خلفه أساساً لكثيرٍ من الأسر.

بعد هذا بزمن غير طويل وثب [فرهاد] على ابيه [هيرود] فقتله، واستولى على مملكته البارثية، وهرب خلق كثير من بلاده، وفيهم المدعو [مونيسس Momaeses] وهو رجل رفيع القدر واسع النفوذ لجأ الى [انطوني]. وقد خيل له ان حالة هذا الرجل تشبه حالة [تيمستوكليس] ولما وجد ايضاً تناسقاً جذاباً بين ضخامة ثروته وكرمه وبين ضخامة ثروة ملوك الفرس وكرمهم فقد بادر الى اقطاعه المدن الثلاث: لاريسا Larissa واريتوسا Arethu-sa وهيرابوليس Hierapolis التي كانت تسمى سابقاً بامبيجة(٤٧) ومهما يكن فعندما استدعى الملك البارثي [مونيسس] للعودة مرسلاً اليه «يداً يمنى»(٤٨) كما يعبرون عنه. اهتبل [انطوني] الفرصة واعادهُ وكان في الحقيقة يريدان ان يخدع [فراهاد](٤٩) بالتظاهر

---

(٤٥) الاقليم المركزي لسورية الذي يمتد شرقاً من جبال لبنان ويشمل دمشق وحلب Palmyra.

(٤٦) في الواقع كان انتيغونس كاهن اليهود الاكبر، وهو غاصب وليس ملكاً، وصل الى السلطة بمساعدة البارثيين عند غزوهم سورية. نفذ فيه حكم الموت في العام ٣٧ ق.م. ونصب انطوني هيرودس حاكماً على اليهودية وهو من انصاره المخلصين. ويزعم ديوكاسيوس أن قتل انتيغونس كان بناء على رغبة هيرودس.

(٤٧) تلك عادة شرقية. ان يقطع لرجل بارز مدينة او اقليم برمته يحكمهما ويكون فيها رزقه. ومقابل ذلك يكون مديناً بالولاء للعرف الاقطاعي.

(٤٨) تعبير مشائع عند الفرس والبارثيين ليدل على عرض السلام والصداقة.

(٤٩) انطلت الخدعة على انطوني. اذ يبدو ان مونيسس لم يكن بحاجة الى الالتجاء بانطوني. وان غرضه هو التجسس على انطوني ومعرفة خططه وابلاغها لملكه.

بانه لاينوي قتاله وكان طلبه الوحيد فيه هو اعادة الاعلام الرومانية التي غنموها عند مقتل كراسوس، وارجاع الأسرى الباقين في قيد الحياة.

واعاد [انطوني] [كليوپاترا الى مصر وسار حالاً بجيشه عبر بلاد العرب وارمينيا الى موضع رتب فيه ان تلتقى قواته بقوات مختلف الملوك الأحلاف. وكان ثم عدد كبير منهم الأ ان اقواهم واعظمهم سلطانا كان [أرتافازد Artavasd] ملك أرمينيا الذي امده بستة آلاف من الخيالة وسبعة آلاف من الرجالة. وهنا قام [انطوني] باستعراض قواته. وكان الرومان انفسهم يعدون ستين الفاً مع الخيالة التي كانت تعتبر رومانية في ذلك الوقت، وكان منها عشرة آلاف من الاسبان والكلتيين. وساهمت الشعوب الأخرى بما يناهز مجموعه ثلاثون الفاً بضمنها الخيالة والاصناف الخفيفة. مع هذا قيل لنا ان تحشيد القوة الهائل الذي ارعب حتى الهنود ما وراء يختيريا وجعل آسيا كلها ترتعد فرقاً كان لا نفع فيه لانطوني لتعلقه [بكليوپاترا] فلأجل ان يمضي معها فصل الشتاء، عجل بالحرب قبل موعدها الصالح. وما اختطه ورسمه فيها كان يتسم بالطيش وقصر النظر، ويجانب السداد والاصالة، كأنه لم يعد مالكاً زمام عقله، وانما تحت تأثير عقارٍ او سحرٍ. فقد كان يبدو وكأنه عينيه تشخصان دوماً الى صورتها وافكاره مركزة في التعجيل بالعودة، لا الاسراع في قهر العدو.

في الدرجة الأولى كان أفضل ما يجب عمله قضاء الشتاء في ارمينيا لاراحة جنوده الذين انهكهم سير طوله ألف ميلٍ، وبعد ذلك يحتل [ميديا] في اسابيع الربيع الأولى. قبل أن يخرج البارثيون من مقراتهم الشتوية. الأ انه لم يجد لديه الصبر على الانتظار وزحفٍ حالاً على اقليم [اتروپاتينه Atropatene] فاجتاحه ثانياً: كان شديد العجلة حتى انه ابى انتظار وصول الآليات الضرورية لعمليات الحصار، وكانت محملة على ثلاثمائة عربة. وفيها كبش لثغر الاسوار طوله ثمانون قدماً. ان عطبت اية آلة من هذه الآلات فلا يمكن مطلقاً التعويض عنها في الوقت المناسب، لأن اصقاع آسيا الشمالية خالية من اخشاب بمثل هذه الأطوال وشدّة المقاومة وعلى اية حال اصدر [انطوني] اوامره بان تتبعه في المؤخرة، لأنها تبطيء من سرعة تقدّمه. ولذلك افرز قطعة كبيرة من جيشه بقيادة [ستاسيانوس Statianus] لتقوم على حمايتها. والقى الحصار على [فرهاده Phraata] وهي مدينة كبيرة تسكن فيها زوجات ملك الميدين واولاده. الأ ان الصعوبات التي أكتنفت حصاره كشفت له عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه في تركه الآت حصاره. ولم ير بدا من التقدم بجيشه الى مسافة قريبة من الاسوار وبناء تلّ ترابي مقابلها، وكانت خسارته عظيمة جداً في الوقت والعمل. في الوقت نفسه انحدر [فراهاد] من البارثيا بجيش لجبٍ وما ان تبين له ان مقطورات آلات الحصار قد تخلفت

عن سائر جيش العدّ حتى ارسل قوةً كبيرة من الخيالة لمهاجمتها فأخذت [ستاسيانوس] على حين غرة ولم يجد نفسه الاّ وهو مطوق[٥٠] وقتل هو والالاف العشرة التي وضعت تحت امرته، ووقع أسرى كثيرون منهم [پوليمون Polemon] احد ملوك البونطس كما استولوا على آلات الحصار وحطموّها.

وبطبيعة الحال انخفضت معنويات جيش [انطوني] الى درجة كبيرة بهذه النكبة غير المتوقعة في بدء الحملة. ومما زاد الأمر سوءً» اعتقاد [ارطاڤاسديس] ملك الأرمن بأن الرومان لم يعد لهم أملٌ بالنجاح فأنسحب بقواته ورحل[٥١] مع انه كان المحرض الاول على بدء الحملة في ذلك الوقت من السنة. وتقدم البارثيون الآن من الجيش الروماني الذي يحاصر المدينة واستخدموا افضل جنودهم للقيام باستعراض قوةٍ بكامل اسلاحهم وارسال التحديات والتهديدات للرومان. فلم يكن من انطوني الذي ادركه القلق على معنويات جنوده، لئلا يفقدوا روحهم الهجوميّة، ويدركهم اليأس ان ظلّوا عاطلين - الاّ ان خرج بعشر فرقٍ وثلاث كتائب من الحرس البريتوري وكلّ خيالته، وأخذ يكتسح البلاد المجاوره ويعمل فيها سلباً ونهباً لاجتذاب العدوّ واغرائه بدخول معركة فاصلة. بعد ان تقدم مسيرة يومٍ واحدٍ لاحظ ان البارثيين بدأوا يحيطون به وهم في انتظار فرصتهم للوثوب عليه اثناء زحفه. فرفع اشارة المعركة داخل معسكره. الاّ انه امر بتقويض الخيم كأنه ينوي الانسحاب لا القتال. ثم مَرّ من امام خطوط البرابرة الذين كانوا قد انتظموا على شكلٍ هلالي. الاّ انه اصدر اوامره بأن تقوم الخيالة بهجومها على العدو حال وصول الفرق الرومانية مسافة كافية لمهاجمة خطوطهم الأمامية. ولم يأت البارثيون بحركةٍ حين أخذ الرومان بالحركة صفاً بعد صفٍ محافظين على مسافات بدقةٍ ونظام تامٍ وسكون ورماحهم مشرعة، وقد أخذ منهم العجب مأخذه. الاّ انهم صمدوا بشجاعة لخيالة الرومان عندما اعطيت اشارة الهجوم، وصدوا اندفاعهم وان كان الانقضاض عليهم سريعاً بحيث لم يمكنهم من استخدام قسيّهم. الاّ ان فرق المشاة دخلت المعركة بصيحة هائلة وبصليل اسلحتها المزعج مما أجفل خيولهم وجعلها ترتد الى الخلف، وانهزم البارثيون قبل المشاة، وقبل ان ينال هؤلاء منهم مأرباً. فجدّ [انطوني] في مطاردتهم اذ كانت آماله كبيرة بانهاء الحرب او على اقل تقدير بربح المعركة فاصلة في هذه الوقعة.

---

(٥٠) هزم بعين الخطة التي طبقت على كراسوس، وهي جماعات من رماة السهام الخيالة تمدّ بدون انقطاع بحاجتها من السهام بواسطة حيوانات حمل، وتبقى على مرمى السهام من الفرق وتصبّ عليهم زخات مدمرة من السهام.

(٥١) في الحقيقة ان [ارطباسديس] ترك قوة [ستاسيانوس] فخيالته كانت تؤلف جزءً كبيراً من الحرس، فرحيله بها، اضعف القوة وكان السبب في القضاء على معدات الحصار.

وواصلت مشاته تعقيب العدو الى مسافة ستة أميال او اكثر، وقطعت خيالته في المطاردة مسافة عشرين ميلاً. وكانت حصيلة هذا الجهد كله ثلاثون أسيراً پارثيا وثمانين قتيلاً لا غير فشاعت الخيبة في الجيش وامتلأ الجنود قهراً. وكانت صدمة عظيمة لهم ان يوقعوا هذه الخسارة التافهة في العدو لينالوا النصر عليه، بمقارنتها بالهزيمة الساحقة التي لحقتهم باستيلاء العدو على معدات الحصار وفي اليوم التالي قوضوا معسكروا وعادوا الى قاعدتهم في [فرهاطه] وصادفوا وهم في طريقهم شراذم وزمراً من العدو أخذت تتكاثر وتتجمع كلما امعنوا في سيرهم، ثم ظهرت وحدات كاملة، انتظمت بالأخير جيشاً مستعداً للقتال أخذ يتحداهم ويطبق عليهم من كلّ الجهات، كأنه لم يعان هزيمةً. وضويق الرومان كثيراً وقاتلوا قتالاً مراً وهم يشقون طريقهم الى المخيم، وبعد هذا بفترة وجيزة خرج الميديون من المدينة وهاجموا التلّ الروماني وهزموا المدافعين عنه. وهذا ما اغضب [انطوني] فعمد الى تطبيق العقوبة بتقسيم الجنود الى مجموعات عشرية، ويختار بالقرعة واحد من كل عشرة فيقتل، وأمر البقية بان تصرف لهم جراياتهم مع الشعير بدلاً من القمح.

كانت الحرب منهكة للطرفين. وبدأ المستقبل باعثاً على القلق. وراح [انطوني] الآن يحسب حساب الجوع، اذ لم يعد الآن قادراً على كفاية حاجة الجنود من الطعام بعمليات نهب واجتياح الأ بتضحية عدد كبير من القتلى والجرحى. وفي الوقت نفسه كان [افراهاط] يدرى ان جنوده لا قبل لهم بتحمل قسوة الشتاء ومتاعب الحرب فيه بالنوم في العراء اشهراً. وخشي ان يتخلى عنه رجاله ان صمد الرومان وضلوا في معسكرهم. فقد مضى الاعتدال الخريفي وهجمت الريح الباردة. ولذلك لجأ الى الحيلة التالية: اصدر امراً لرجاله الذي هم اعرف من غيرهم بالجنود الرومان أن لايضايقوهم اثناء قيامهم بجمع الارزاق ولايشتدوا في مهاجمتهم وان يفسحوا لهم المجال في ذلك. وان يتقربوا منهم بنية سلميّة ويمتدحوا شجاعتهم ويعلموهم بان الپارثيين يعدونهم جنوداً من الطبقة الأولى وان ملكهم لايسعه غير الاعجاب بهم. وبعدها يتقربون منهم مسافةً أخرى ويرخون أعنة خيلهم لتسير الهوينا معهم ويبدأون بلوم [انطوني] لأنه يأبى التوصل الى اتفاق مع ملكهم وانه لايمنحه اية فرصة للسلام بينما هو متلهف للوصول الى اتفاق، لانقاذ حياة هذا العدد الكبيرة من اشجع الرجال. بدلاً من هذا يصرّ [انطوني] على البقاء منتظراً قدوم اشرس عدوين: الجوع والبرد، مما لا قبل لهم بمقاومتهما، حتى وان رافقهما الپارثيون في طريقهم. ابلغ [انطوني] بهذه المحادثات من مختلف المصادر، ومع أن آماله كانت تدعوه الى فتح مفاوضات، الاّ انه لم يرسل الى الملك الپارثي رسلاً حتى تأكد من قائلي هذا الكلام بأن اقوالهم تلك انما تعبرّ عن رأي ملكهم. وعليه ان لايشكّ في

تلك العروض. فأرسل عدداً من رفاقه، مجدداً طلبه في اعادة الاعلام والأسرى الرومانيين لانه لم يكن يرغب ان يفترض الملك بأنه سيكون حامداً ربّه لو اتيح له الانسحاب بسلام لا غير. وكان جواب الملك: بأن موضوع اعلام كراسوس والأسرى الرومان ليس مهماً، ولكن لو انه سحب جيشه الآن فسيضمن له سبيلاً آمنة ولايتعرض له. وفي غضون ايام قلائل حمّل [انطوني] اثقاله وشدّ رحاله وبدأ مسيرة العودة. وكان خطيباً مفوهاً يسهل عليه دائماً السيطرة على مستمعيه، وكان يعلم أكثر من اي رجل من معاصريه كيف يأتي بالكلمة المناسبة الكفيلة بتحريك مشاعر الجنود. الاّ ان الهَمّ والشعور بالعار الذي كان يتملكه ويمنعه عن القاء الخطبة التقليدية، تشجيعاً للجيش، حملاه على انابة [دوميتيوس آنيو باربوس Domitius Ahino Borbus](٥٢) فيها. فاستاء بعض الجنود لهذا، وشعروا بأنه يحطّ من قدرهم، الاّ ان معظمهم ادركوا الحقيقة وتألموا جداً وشعروا بأن الواجب يقضي عليهم ان يظهروا المزيد من الاحترام والطاعة لقائدهم لهذا السبب قرر [انطوني] ان يسلك السبيل الذي جاء فيه. وهو يمرّ في ارض منبسطة خالية من الشجر. فجاءه رجلٌ من قبيلة [ماردبا Mardian] الساكنة على الساحل الجنوبي من بحر قزوين. وكان خبيراً بالعادات الپارثية. وقد قدم البرهان على اخلاصه للرومان اثناء معركة العجلات والآت الحصار، وعرض على [انطوني] اقتراحه، وهو ان يسير بمحاذاة خطّ الجبال وأن يبقيها عن يمينه، وعليه بصورة خاصّة ان لايعرّض وحدات مشاته ذات السلاح الثقيل والتجهيزات الى هجمات الرماة الخيالة بالسير في أرضٍ براحٍ لاتؤمن حماية او غطاء. وقال ان هذا هو ما يتوقعه [افراهاط] بالضبط، عندما بذل وعوده الطيبة لاقناعه برفع الحصار. فاذا وافق [انطوني] على اقتراحه فيسرّه ان يكون دليلاً للجيش. يقوده في سبيل اقصر، تتوفر فيه الاقوات التي يحتاجها. ففكر [انطوني ملياً بما قاله الرجل القبليّ. لم يكن يريد ان يظن الپارثيون بأنه لايثق بهم بعد التهادن. الاّ انه كان يفضل شخصياً اقصر السبل، وما يمرّ منها ببقاع مأهوله فطلب من [الماردي] الميثاق على اخلاصه. فعرض ان يوثق كتافه بالسلاسل حتى يقود الجيش عبر ارمينيا، فتم ذلك وانطلق يعود الجيش يومين كاملين دون ان يواجه مقاومةً، وفي الوقت الذي صرف انطوني عن رأسه اية فكرة عن رؤية العدوّ ولهذا سمح للرتل بالسير على رسله دون التقيد بنظام السير. الاّ ان الماردي لاحظ كسراً في ضفة النهر، وان الماء قد فاض منها وغمر الطريق الذي اتخذوه خطاً لسيرهم فأدرك انه من عمل الپارثيين، يقصدون به عرقلة سيرهم فأنذر [انطوني] بزيادة الحذر

---

(٥٢) هذا الضابط الذي لعب دوراً هاماً في مأساة شاكسبير. قاتل الى جانب بروتوس في فيليبي. ثم بعد ان قاد جزءً من الاسطول الجمهوري الى الادرياتيك. وانضم الى انطوني في ٤٠ ق.م. كان خصماً عنيداً لكليوپاترا ولنفوذها. وعاد مع انطوني وظلّ يلازم جانبه حتى موقعة اكسيوم حين تخلى عنه قبيل المعركة.

واليقظة لأن العدو لاشك قريب. وهكذا كان، فما أن وضع المشاة في حالة التعرض واخذ ينظم الرماة وقاذفي الرماح للعبور من الصفوف والتقدم الى جهة العدوّ حتى تدفقت جموع الپارثيين من كل صوب عليهم فنال الرومان من سهامهم عنتاً الاّ ان رماة الرماح اوقعوا فيهم ما يعادل ذلك من الخسائر واضطروهم الى الانكفاء على الاعقاب. الاّ أنهم كرّوا ثانية ليقوموا بهجوم آخر، استمر حتى تجمعت خيالة [الكلت] كتلةً واحدة وانقضوا عليهم فشتتوا شملهم فتلاشوا ولم ير لهم اثر طوال ذلك اليوم.

هذا الاشتباك لقن [انطوني] عدداً من الدروس في التعبئة، فلم يكتف بعد الآن بتغطية مؤخرته، بل بحماية جناحيه بوحدات قوية من رماة الرمح. ونظم شكل مسيرته بمربعات جوفاء واصدر الأوامر ايضاً للخيالة بأن عليها ان تهزم العدو عند الهجوم ولكن دون ان تقوم بمطاردته الى مسافات بعيدة وكان من نتيجة هذه التدابير أن الپارثيين منوا في الايام الاربعة التالية بخسائر أكثر بكثير من الخسائر التي اوقعوها بعدوهم. وخفت حرارتهم في الهجوم الى درجة ملحوظة. وبدأوا يفكرون في العودة الى ديارهم، محتجين بتقدم فصل الشتاء.

في اليوم الخامس جاء الى [انطوني] أحد ضباطه الأقدمين - [فلاڤيوس غالوّس Flavius Gallus] وهو رجل ذو شجاعة خارقة وقائد موهوب، واستأذن بأن تعود وحدة من الجنود الخفيفة في المؤخرة وبعض الخيالة من الطلائع، لأنه واثق بمقدرته في انجاز نجاح هام. فاذن له [انطوني]. وعندما هجم الپارثيون ردّهم [غالوس] على الأعقاب. الاّ أنه لم ينسحب تدريجياً ليحتذبهم الى الفرق كما جرى العمل حسب الخطّة المرسومة. بل ثبت في مواضعه واشتبك مع العدوّ في معركة سافرة. وادرك الضباط الذين يقودون المؤخرة انه وقع في خطر الانفصال عنهم، وأرسلوا عدائين اليه يأمرونه بالانسحاب الاّ انه رفض الانصياع اليهم، وقيل ان [تيتيوس] الكويستور تشبث بالويته وادارها الى الخلف كأنما يأمر الجنود بالانكفاء والعودة الى القسم الأكبر وراح يعنف [غالوس] لاسترخاصه ارواح هذا العدد الكبير من الشجعان. فردّ عليه [غالوّس] بنفس العنف والشدة وامر رجاله بالثبات فعاد [تيتيوس] وحده. ولكن فيما كان [غالوس] يتقدم الى الأمام، غفل عن ملاحظة قيام العدو بحركة تطويق من المؤنرة باعداد كبيرةٍ ولما رأى السهام تمطر عليه من كل جانب، ارسل يطلب نجدة وهنا ارتكب قادة المؤخرة ما يمكن اعتباره خطأً كبيراً. وكان بينهم [كانيديوس] وهو اقرب القواد الى [انطوني]، فبدلاً من مواجهة العدوّ بكلّ زخم وحداتهم انشأوا يرسلون تباعاً سرايا صغيرة، ما أن تندحر واحدة حتى يشفعوها بالأخرى، ولم يشعروا الاّ والجيش كلّه يكاد يمنى بهزيمة شنعاء من جراء اندحار هذه الوحدات، ولحسن الحظّ اسرع [انطوني] الى المؤخرة بمشاته

الثقيلة لوقف التقهقر وشقت فرقته الثالثة طريقها لمواجهة العدو ووقف اي مطاردة منه.

فقد الرومان مالا يقل عن ثلاثة آلاف من القتلى وخمسة آلاف من الجرحى ومن بينهم [غالوس] الذي اخترقت صدره اربعة سهام، مالبث ان توفي متأثراً بها. وأخذ [انطوني] ينتقل من خيمة الى خيمة لمواساة الجرحى والتخفيف عنهم إلماً وقهراً. وكانوا يشدون على يده الممدودة باوجه تطفح بالبشر، ويرجون منه ان يذهب ويهتم بمشاغله وهتفوا له باسم الامبراطور والجنرال. وقالوا له انهم بخير وسلامة مادام هو بخير وسلامة وعلى العموم يصحّ القول انه لن يذكر التاريخ قائداً بهذا العمر على رأس جيش يجمع كلّ هذه الميزات القتالية الممتازة، يتألف من جنود في مقتبل العمر والفتوة، قادرين على إتيان العجب سواء في مجال الشجاعة او التحمل والصبر. الاّ ان أعجب ما في الأمر هو طاعتهم لقائدهم واحترامهم له. وحسن النية التي يكنونه له، مع شعورهم بأنه يفضلون حسن ظنّ انطوني فيهم على حيواتهم وعلى سلامتهم - هذا الشعور الذي يشارك فيه الجميع: شهيرهم ومغمورهم، ضابطهم وجنديهم على حدٍ سواء. .بمختصر القول انه جيش لايقومة جنود روما القديمة انفسهم. وهناك اسباب عديدة خلقت مثل هذا التعلّق كما سبق لي ذكره، ومنها عراقة اصل [انطوني]، وقوة عارضته، وبساطته وسخاؤه الذي يصل به حدّ الاسراف، والاسلوب الخالي من الكلفة الذي يلازمه في اوقات لهوه وفي حياته الاجتماعية. وفي هذه المناسبة بالذات كان للحنان الذي عامل به رجاله واستعداده للمشاركة في الآمهم، والاهتمامه بتوفير حاجاتهم، التأثير العظيم في حمل الجرحى والمرضى منهم على ان يكونوا أكثر استعداداً لخدمتهم من اصحائهم واقويائهم.

وعلى اية حال شجع هذا النصر العدوّ الذي كان قبل يوم واحدٍ منهوك القوى بهّم بالتخلي عن القتال، وحفزه على البقاء طول الليل قريباً من الرومان استخفافاً بهم، متوقعين أن يتسنىّ لهم رشيكاً نهب الخيم الخالية والاثقال المتروكة لجيشٍ مندحر. وفي الصباح جمعوا جموعهم للهجوم بقوات تفوق الأمس عدداً حتى قيل انها كانت تضم مالايقل عن اربعين ألفاً من الخيالة. وارسل الملك حرسه الخاصّ أيضاً للمشاركة في ما توقع أن يكون نصراً أكيداً ذلك لأن الملك البارثي لم يحضر قطّ اي قتالٍ بشخصه. وقرر [انطوني] ان يخطب في الجنود. فأرسل يطلب ثياباً غامقة اذ كان يريد يجعل خطبته مثيرة للعاطفة ما وسعه ذلك. الاّ ان اصحابه عارضوا فكرته فبدا الجنرال بالارجوان وتكلم امام الجيش مادحاً الجنود الذين دحروا العدوّ ومؤنبا أولئك الذين فروا من امامه فأجاب الأولون مؤكدين الثقة التي وضعها فيهم، وأعتذر الاخيرون وابدوا استعدادهم لتقبل عقوبة التعشير أو أية عقوبة أخرى يختارها، لو أنه نسي عارهم، وكفّ عن ايلامِ نفسه بتذكره. فأجاب [انطوني] برفع كلتا يديه والدعاء من الآلهة،

قائلاً إن ادخرت له بعض جزاء لموازنة حسن حظه في الماضي، فليقع هذا عليه وحده ولتمنع السلامة والنصر لبقية الجيش.

وفي اليوم التالي قام الرومان بتغطية تقدمهم بشكل أفضل وأقوى تأثيراً وعندما هاجمهم البارثيون صدموا صدمةً شديدة. انقضوا وكأنهم لايتوقعون غير النهب والسلب من عدوهم، ولما استقبلهم الرومان بزخة من المقذوفات ووجدوهم على اتمّ النشاط والعزم والشوق الى المعركة. دبّ فيهم التخاذل والملل من القتال. على ان الرومان تلقوا منهم وابلاً من السهام وتعرضوا للهجوم عندما اضطرّ الرومان الى نزول منحدرٍ. وعندها انفتح حملة التروس الثقيلة على جبهة مقعرة ووضعوا وحدات المشاة الخفيفة في العمق وبرك الصف الأول منهم على ركبة واحدة ووضعوا تروسهم متراصة امامهم. ورفع الصف الثاني التروس فوق الصف الأول، وتوالت الصفوف على هذا المنوال. فبدأ منظرهم اشبه بالآجر المرصوف في سقوف البيوت، او بصفوف مقاعد الملعب المدرج. وكان دفاعاً فعالاً ضدّ رشقات السهام، فقد أخذت تنثال عليهم دون ان توقع فيهم خسارة. ولم يتصور البارثيون ركوع الرومان الاّ نتيجة الأرهاق الذي حَلّ بهم. فتركوا قسيهّم وأشرعوا حرابهم وهجموا هجمة صادقةً. فأنتفضَ الرومان واقفين والقوا بأنفسهم عليهم وهم يطلقون صيحة عظيمة، وفتكوا بالصفوف المتقدمة، وارغموا الباقين على الفرار. وشهدت الأيام التالية اشتباكات مماثلة ولذلك اصبحت عملية الانسحاب تجري على مراحل قصيرة.

وبدأ الجيش ايضاً يكابد الأمرين من نقص الغذاء، والجوع اذ لم يكونوا ليوفقوا حتى الى النزر اليسير، وهذا لايحصلون عليه الاّ بالقتال. اضف الى ذلك أنهم كانوا يفتقرون الى مطاحن ومخابز، فقد تركوا هذه العدد خلفهم. لأن حيوانات الاثقال لم يعد لها أثر فهي اما نفقت واما كانت تحمل الجرحى والمرضى. وشحت الارزاق حتى بيع الخيونكس الاتيكي(٥٣) من القمح بخمسين درهماً. وبيعت ارغفة الشعير بوزنها فضةً. فلم يعد للرومان حيلة الاّ باكل الخضروات والجذور، ولكنهم وجدوا ما يؤكل منها قليلاً. فأضطروا الى تجربة ما لم يذوقوه من قبل وبهذا السبيل أتوا الى نوع من الحشائش، تصيب أكلها بالجنون ثم تميته. ففقد آكلوها ذاكراتهم ودفعهم جنونهم الى نقل الحجارة من موضع الى موضع دون تعيين كأنما يقومون بعمل على جانب عظيم من الأهمية، وكانت ارجاء المعسكر تعجّ برجالٍ يرفعون الحجارة من الأرض وينقلونها الى مكان آخر، ثم تأخذهم نوبة من القيء الأصفر ويسقطون موتى. وكانتا الخمر ترياق هذا الداء، وهم لايملكون منها قطرةً. وفقد الرومان رجالاً كثيرين بهذه النازلة

(٥٣) «Cheouix» وهو مكيال يقارب البوشل.

وكانت البارثيون لاينفكون على التعرض لهم وهم بهذه الحالة. وكان [انطوني] على ما يذكر لاينفك يصيح:

- مرحى ايتها الآلاف العشرة!

مظهراً اعجابه بكزنيفون وجيشه الذي قطع مسافة أطول مما قطع جيشه، من [بابل] الى البحر ونجح في شق طريقه بوجه مقاومة اشدّ مما يلقاه.

وعجز البارثيون عن تمزيق الجيش الروماني وايقاع الخلل في صفوفه وبعد ان ارتدوا خاسئين في الاشتباكات العديدة، عادوا الى تمثيل دور الأخوة والصداقة مع افراد الفرق، عندما كانوا يخرجون من المعسكر بحثاً عن علف وطعام. ويقولون لهم مشيرين الى قسيّهم المعلقة على أكتافهم بأنهم عافوا القتال وسيعودون الى بلادهم. وكانت فئات قليلة من الميدين يواكبون الرومان مسيرة يوم أو يومين، دون أن يتعرضوا لهم، وكان غرضهم حماية القرى المجاورة ليس غير، مظاهر الصداقة هذه كانت ترافقها التحايا وحسن النوايا، وبهذا ارتفعت معنويات الرومان ثانيةً، وعندما وصلت [انطوني] هذه التقارير مال الى استخدام طريق السهل اذ قيل له ان الطريق الجبلية خالية من الماء. وفيما هو يتهيّأ لذلك اذ [بميثريدات] يصل المعسكر قادماً من جهة العدوّ، وهو ابن اخ [مونيسس] الذي كان قد التجأ الى [انطوني] فمنحه هذا ثلاث مدن. وطلب [ميثريدات] مترجماً يعرف البارثية أو السريانية، ليترجم له اقواله فأستقدم [انطوني] صديقاً له انطاكياً يدعي [الكساندر] ليقوم باستجوابه. فكشف [ميثريدات] عن هويته وقال ان عليهم ان يتوجهوا بالشكر الى [مونيسس] للمعلومات التي زوده بها لهم. ثم سأل [الكساندر] هلى يرى تلك السلسلة من الجبال الشاهقة؟ ولما اجاب هذا بالايجاب استطرد ميثريدات:

- هناك يكمن لكم الجيش البارثي. السهول العظيمة تمتد على طول قدمات السلسلة والبارثيون يتوقعون أنكم ستنخدعون بتقربهم منكم بحسن النوايا فتتركوا المسالك الجبلية وتسيروا باتجاه السهول لاشك انكم ستعطشون وتنهدّ قواكم بمروركم عبر الجبال. الاّ انكم معتادون معاناة هذه المشاق. اما اذا حاول [انطوني] السير عبر السهول، فسيلقى مصيراً شبيهاً بمصير [كراسوس].

ورحل الرجل بعد ان ادلى بمعلوماته هذه. واستبد القلق العظيم بانطوني لما سمع وجمع اصحابه. والدليل الماردي الذي كان رأيه طبق رأي [مثيريدات] وقال:

- ان مخاطر الطريق عبر السهول لا تقتصر على كمائن للعدو، فلو لم يكن أثر له، فان خَلُو

الطريق من معالم واضحة قد يفضي بهم الى التيه والضلال. وفي هذا ما فيه من ارهاق ونصب. اما طريق الجبال، فمع كونه وعراً فلا خطر فيه الاّ بقاؤكم دون ماء يوماً واحداً فحسب.

فأختار انطوني الطريق الثانية وبعد ان امر رجاله بان يتزودوا بالماء بدأ بالمسيرة ليلاً. ولكن معظمهم لم يكن يملك اوعيةً وبعضهم ملاؤا خوذهم وحملوها، وعبأ بعضهم الماء بالقرب الجلدية.

وعلم البارثيون بمسيرة [انطوني] فوراً، فأسرعوا بتعقيبه ليلاً خلافاً لما اعتادوه وعندما اصبح الصباح هاجموا المؤخرة، التي كانت في أشدّ حالة من التعب والارهاق من فرط السير وحرمان النوم فقد قطعوا ٣٠ ميلاً اثناء الليل. ليجدوا العدو في اعقابهم، فطارت أنفسهم شعاعاً وخبا بصيص الأمل في نفوسهم اذ لم يكونوا يتصورون بأن العدوّ سيدركهم بهذه السرعة، ومما زاد في الطين بلة، ان العطش تفاقم واشتدّ بالقتال الدائم، فقد كانوا يسيرون ويقاتلون في الوقت ذاته محاولين صدّ العدو عنهم وأخيراً وصلت الطلائع الى نهر ماؤه صاف بارد الاّ انه مالح، وتأثيره سمّي يحدث آلاماً فورية في الامعاء، وتشنجات ويزيد العطش. ومع تحذير الماردي فقد كان الجنود ينحون جانباً كل من يريد صدّهم عنه ويشربون من المجرى. وهرول [انطوني] الى الرتل المتقدم وراح يتوسل بهم ويرجو صبراً قليلاً قائلاً ان ثم نهراً ماؤه عذب على مسافة غير بعيدة، وان الجزء الباقي من الطريق وعر المرتقى لاتقوى خيالة العدو على سلوكه. ثم أمر بنفخ بوق التجمع والانسحاب لأن المؤخرة كانت مشتبكة في قتال مع العدو وامر بضرب الخيام، ليريح جنوده في ظلالها على الأقل. فشرع الرومان ينصبونها وواصل البارثيون خطتهم المعتادة فانسحبوا في الحال، وفي تلك الساعة أقبل عليهم [ميثريدات] ثانية وبعد ان ارسل [الكساندر] لمقابلته، نصحهم بأن لايطيلوا اقامتهم وان يصيبوا اقل ما يمكن من الراحة، ويستأنفوا السير باذلين جهدهم للوصول الى النهر التالي، لأن البارثيين لن يعبروه، لأنهم قرروا مطاردتهم حتى ضفته. فأبلغ [الكساندر] [انطوني] وعاد بالرسالة ثم عاد الى [ميثريدات] يحمل مقداراً من الصحاف والاواني الذهبية هدية، فخبأ هذا كل ما استطاع اخفاءه منها تحت ثيابه ورحل. وعمل انطوني بنصيحته فقوض خيامه قبل ساعة المساء وسار الجيش بكامله ولم يتعرض لهجوم. الا ان الرومان مضوا ليلةً ليلاء لم يمرّ عليهم مثلها، وكانوا هم مثيري فتنتها. فقد بدأ الجنود يقتلون ويسلبون من كانوا يظنون ان يخفي مالاً منهم. وسرقت الممتلكات الخاصّة من احمال الحيوانات، وأخيراً هوجم قطار اثقال [انطوني] وكسرت اقداحه ومناضده الغالية الثمن وتوزعها اللصوص فيما بينهم.

أحدث هذا العمل الفوضى الكاملة في الجيش وبدأ بعض الوحدات يفقد اتصاله مع القسم الأكبر ويبتعد عنه، وانتشرت الاشاعة بان العدوّ قد قام بهجوم ناجح اوقع بهم الهزيمة واحدث الخلل في تشكيلاتهم. وعندها استدعى [انطوني] أحد حرسه الشخصيين وهو معتوقة [رامنوس Rhamnus]، وحمله على ان يقسم له بأن يطعنه طعنة قاتلة وتتما يطلب منه ذلك ويحتزّ رأسه (لأنه قرر ان لايقع في يد البارثيين حيّاً، ولا أن تعرف هويته ميتاً). واخذ اصحابه من حوله يبكون الاّ ان [الماردي] بذل قصارى جهده ليرفع من معنويات سيدّه مؤكداً له ان النهر بات قريباً جداً فالرطوبة تشيع في النسيم الذي يهب عليهم من تلك الجهة وان الهواء البارد الذي يلفح وجوههم جعل تنفسهم اسهل من ذي قبل. وبين أيضاً بأن الوقت الذي امضوه في المسير يدلّ على ان النهر بات قريباً منهم لأن ساعات الليل كادت تمرّ. في الوقت نفسه وصله من أخبره بان الهرج والمرج الذي حصل كان سببه طمع وعنف فريق من الجنود(٥٤) فأعطى [انطوني] اشارة الوقوف وضرب الخيام لاعادة النظام الى الجيش بعد أن فقد الضبط والربط وعمت الفوضى فيه.

وطلع الصبح وعادت حالة من الهدوء والنظام تسودان الجيش حين بدأت سهام البارثيين تنثال على المؤخرة، فأعطيت اشارة القتال لوحدات المشاة الخفيفة واتخذت تشكيلة الدفاع التي سبق لها واتخذتها في الماضي اعنى حماية واحدهم الآخر بالتروس ونجحوا في صدّ مهاجميهم الذين لم يجرأوا على التقرب منهم مسافة أخرى، وسار الجيش مطبقاً هذه الخطّة حتى لاح لهم النهر، وعند وصولهم الضفة نشر [انطوني] خيالته بمواجهة العدوّ، وعبر الجرحى والمرضى اولاً، ومالبث الجنود الذين كانوا يقومون بواجب صدّ العدو، ان وجدوا لهم المجال فسيحاً للارتواء من ماء النهر، اذ ما وقعت أعين البارثيين على النهر حتى اعادوا قسيّهم الى جعبهم واشاروا للرومان بأنهم احرار في عبور النهر وهنأوهم على شجاعتهم وصبرهم. واتموا عملية العبور الى الضفة الأخرى دون تعرضٍ واراحوا أنفسهم ملياً ثم استأنفوا السير، وهم في شكٍّ من تأكيدات البارثيين. وبعد ستة ايامٍ من آخر معركة لهم بلغوا نهر أراكس الذي يفصل ميديا عن ارمينيا. وكان عبور هذا النهر السريع التيار والعميق المجرى مجازفةً عظيمة وسرت اشاعة بان العدوّ قد اعدّ لهم كميناً هناك وعلى اية حال عبروا الى الضفة الأخرى بأمان، وما ان وطئت اقدامهم ارمينيا حتى اخذوا يتعانقون ويقبلون الأرض فرحاً بنجاتهم حتى لكأنهم نوتية سفينة معطوبة نجوا من عاصفة بحرية هوجاء وبلغوا اليابسة. وانطلقوا يسيرون عبر

---

(٥٤) هذه الحادثة تبدو غير منسجمة تماماً مع اخلاص الجنود لانطوني. وربما كان السبب في نهب ممتلكاته هو شيوع خبر اليأس الذي استولى عليه، او نبأ موته الكاذب.

ارض غنية بالثمّر والقوت فأكلوا حتى اتخموا بعد ذلك الجوع والطوى، حتى وقعوا فريسة لمرضى الزحار والاستسقاء. واستعرض [انطوني] جيشه فوجد انه فقد عشرين ألف راجل واربعة آلاف خيّال. هلك أكثر من نصفهم بعامل المرض لا بسلاح العدوّ واستغرقت مسيرتهم من [افراهاطه] سبعة وعشرين يوماً، هزموا خلالها البارثيين في ثماني عشرة وقعة غير حاسمة او واقية لهم من الهجمات، اذ لم يكن في مقدورهم مطاردة عدوهم بصورة فعالة الى مسافة بعيدة. والمسؤول عن هذا كلّه هو [ارطباسديس] الأرمني[٥٥] الذي حرم [انطوني] من القوات الكفيلة بانهاء الحرب فلو ان الآلاف الستة عشر من الخيالة[٥٦] وكانت موجودة لاختلف الأمر. فسلاح هؤلاء شبيه بسلاح البارثيين وهم يتعودون اساليب قتالهم ولو كانوا هناك لمطاردة العدو بعد ان يصده الرومان لأستحال على البارثيين أن يجمعوا شتيتهم ويكرّوا عليهم بهجمة أخرى وأخرى كما جرى. ولذلك كان الجيش حاقداً على [ارطباسديس] وأصرّ على [انطوني] بالانتقام منه. الاّ انه آثر ان يسكت عنه، لأن جيشه كان قد بلغ حداً كبيراً من الضعف عدداً وارزاقاً، ووجد ايضاً من حسن السياسة ان لايضع اللوم على عاتقه ولايصمه بالخيانة واظهر له المودّة وحسن النوايا كان لم يحدث شيء بينهما. ولكن لما دخل ارمينيا مرة أخرى اثناء غزوته الثانية ارسل الى [ارطباسديس] عدة دعوات بوعود مغرية، حتى اقنعه بمقابلته، فقبض عليه وكبله بالأغلال وحمله الى الاسكندرية لعرضه في موكب نصره، وقد آلم الرومان بعمله هذا، فقد شعروا بأنه يحتفل بتقليد رسمي وطني عظيم المكانة في بلد غريب ولمنفعة المصريين وارضاء لكليوباترا. على أن هذا وقع في زمن لاحق.

وغذّ [انطوني] السير، لأنّ فصل الشتاء حَلّ وكان قاسياً بعواصفه الثلجية المستمرة، وفقد ثمانية آلاف من رجاله خلال مسيرته ووصل هو نفسه الى ساحل البحر المتوسط بثلة من الحرس الى موضع يدعى القرية البيضاء، بين بيروت Berytus وصيدا Siddon منتظراً كليوباترا، ولما استبطأها ركبه الهمّ والحّ في شرب الخمر. الاّ انه لم يكن يصبر على الجلوس الى المائدة، بل كان ينهض فجأة ويسرع الى الخارج يترقب قدومها. وأخيراً جاءت عن طريق البحر ومعها كميات كبيرة من الألبسة والأموال للجنود، وتقول احدى الروايات انها وزعت الألبسة فقط في حين ان [انطوني] وزّع باسمها المال من جيبه الخاص بوصفه هديةً منها.

في هذا الزمن[٥٧] وقع نزاعٌ بين ملك الميديين، وبين [افراهاط] البارثي. وقيل ان سببه خلاف على توزيع الأسلاب التي اغتنمت من الرومان الاّ انها اثارت شكوك الملك الميديّ الذي

---

(٥٥) قضت كليوباترا على هذا الملك بالموت في ٣٠ ق.م بعد معركة اكسيوم مباشرة.

(٥٦) في موضع سابق من هذه السيرة يذكر بلوتارخ ان عدد الخيالة كان ستة الاف. وهو أكثر احتمالاً.

(٥٧) في أواخر العام ٣٥ ق.م.

كان يخشى ضياع تاجه. ولهذا السبب طلب معونة [انطوني] وقدومه اليه ووعد من قبله بمساعدته على قهر البارثيين. فوجدها [انطوني] فرصة ذهبية نادرة انعشت آماله، لاعتقاده انه ما فشل في فتح بلاد البارثيين الاّ لأنه كان يفتقر الى اعداد كبيرة من الخيالة ورماة القسيّ وهما الصنفان اللذان سيكفيه ملك الميدين حاجته منهما وبصورةٍ يبدو قبولهما منّة وتفضلاً من [انطوني] على المهدي. فاستعدّ للزحف مرة ثانية نحو آسيا الشمالية عبر ارمينيا وهناك تنضّم اليه القوات الميدية عند نهر اراكس فيبدأ بالحرب.

في تلك الاثناء كانت [اوكتافيا] في روما شديدة الرغبة بالرحيل شرقاً للحاق بانطوني. وقد اجمعت الآراء أن [اوكتافيوس] سمح لها بذلك لا جبراً بخاطرها، بل ليتخذ من اساءة [انطوني] استقبالها، ذريعةً لإعلان الحرب عليه. وعندما وصلت [اوكتافيا] آثينا[٥٨] تسلمت رسائل من [انطوني] يعلمها بحملته الجديدة ويطلب منها انتظاره هناك. ومع ان اوكتافيا تألمت لهذا وادركت السبب الحقيقي لاعتذاراته. فقد كتبت اليه تستشيره فيما اذا كان يرغب ان ترسل اليه ما جلبته معها. لأنها حملت معها مقادير كبيرة من الألبسة العسكرية للجنود، وعدداً كبيراً من حيوانات الحمل واموالاً وهدايا لضباط [انطوني] واركان حربه الى جانب ألفين من الرجال المنتخبين المزودين بأفضل السلاح والدروع ليكونوا بمثابة حرس بريتوري[٥٩]. وارسلت [اوكتافيا]، احد اصحاب [انطوني] المدعو [نيكر Niger] لأبلاغه بكلّ هذا، وعندما ادّى الرسالة مدحها واثنى عليها، بما هي أهله حقاً.

وادركت [كليوپاترا] ان منافستها تنوي ان تتحداها من موضع قريبٍ وكانت تخشى أن تحقق [اوكتافيا] سيطرتها على [انطوني] بالاستعانة بسحر معاشرتها اليومية وحدبها الرفيق عليه، فلا يمكن اقتحام السبيل اليه بعدها لذلك تظاهرت بأن حبها لأنطوني يكاد يتلفها واتبعت نظام حمية صارماً ليبدو عليها النحول، فاذا دخل عليها شخصت اليه بعينين واجدتين لا تريمان واذا قام يريد الذهاب تصنعت الضعف وتظاهرت بالاغماء، وكانت في اثناء ذلك تبذل مجهوداً عظيماً لتمكنه من ملاحظتها وهي تبكي، فاذا التفت اليها وانتبه، اسرعت تجفف دموعها وادارت وجهها الى ناحية أخرى كأنها تريد اخفاء ذلك عنه. وظلت تمثل دورها طوال الوقت الذي كان يتهيأ في سورية للالتحاق بملك ميديا. وخف صنائع كليوپاترا ومتملقوها الى بذل الجهود مع [انطوني] فراحوا يلومونه على قسوته، وغلاظة قلبه، اذ كيف

---

(٥٨) في صيف العام ٣٥ ق.م.

(٥٩) في عهد الجمهورية الرومانية: القناصل هم قادة عامون للجيوش. والپريتورون جنرالات غالباً. ولذلك فإن الحرس الپريتوري هو بالاصل نخبة من صنفي الخيالة والمشاة، يقومون بمثابة حر شخصي للجنرال.

يطاوعه أن يعرض امرأة للتلف فيجفوها، وروحها متعلقة به وحده، صحيح ان [اوكتافيا] هي حليلته، ولكنه تزوجها لأسباب سياسية، ولأن مصلحة اخيها كانت تستلزم ذلك، فلديها والحالة هذه مقام الشرف. اما [كليوباترا] الملكة التي تحكم شعوباً عديدة فقد قنعت بمقام الخليلة. وهي لا تنفر من وضعها هذا ولا تتأفف منه مادامت تراه وتستمتع بصحبته. لكن لو حرمت من هذا فلن تستطيع الحياة. وظلوا يضربون على هذا الوتر حتى الانوا قلبه وافقدوه كل صفات الرجولة، وبات يؤمن ايماناً تاماً بأنها ستموت ان تخلىّ عنها فعدل عن حملته الميدية وعاد الى الاسكندرية، منتظراً الصيف لمعاودتها مع ان الانباء كانت تشير الى الفوضى التي عمت بلاد البارثيين والنزاع الداخلي الذي كاد يمزّقها. ومهما يكن فقد رحل الى تلك البلاد بعد فترةٍ من الزمن وعقد حلفاً مع ملك الميدين، وزوج ابنه الصغير من كليوباترا ببنت الملك الميدي وهي طفلة بعد، ثم عاد الى مصر. الاّ ان افكاره الآن تحولت الى خطر الحرب الاهلية الوشيك بينه وبين [اوكتافيوس قيصر].

وجد [اوكتافيوس] برحيل أخته عن آثينا وعودتها الى روما، اهانة له. وعد [انطوني] مسؤولاً عن هذه المعاملة الغليظة. فأمرها بترك بيت الزوجية والعيش في محلّ آخر الاّ انها رفضت وطلبت منه أن يقلع عن التفكير في اثارة حرب مع [انطوني] ان كانت هي سبباً لها. الاّ اذا كان قد قرر ذلك لأسباب أخرى. وان يتغاضى عن سلوك [انطوني] إزاءها، اذ ليس مما يطاق أن يقال بأن اعظم امبراطورين في العالم اقحما الشعب الروماني في حربٍ أهلية، احدهما بسبب حبه لامرأة، والآخر بسبب حنقه على امرأة. ان مسلك [اوكتافيوس] برهن على اخلاصها في قولها فقد ظلّت في منزل [انطوني] كأنما هو موجود فيه، وتفرغت بتفانٍ وانكار ذات الى العناية بأولادها الذين يأتون الى روما بحاجةٍ، فتحقق لهم طلباتهم لدى [قيصر] الاّ ان سلوكها النبيل عمل على تحطيم سمعة [انطوني] دون ان تريد، فقد جعلته الاساءة التي ارتكبها بحقها، مكروهاً.

وزاد الحقد عليه بسبب توزيعه ميراثه في الاسكندرية[٦٠]. بين اولاده؛ واعتبر الرومان عمله وقاحة، وحركة مرسحية، يبدو انها دليل على كرهه لبلاده. على انه جمع خلقاً كثيراً في ساحة الالعاب الرياضية هناك. وجاء بتاجين من الذهب له ولكليوباترا وضعهما على تخت من فضة مع تيجان أخرى لاولاده. فبدأ باعلان كليوباترا ملكة لمصر، وقبرص وليبيا وسورية الكوليّة، ونادي بـ[قيصاريون] زميلاً لها في الملك، والمعتقد ان هذا الشاب هو ابن [يوليوس قيصر] الذي ترك [كليوباترا] حاملاً. ثم أعلن ابنيه منها ملكي ملوكٍ، واعطى [الكساندر]

(٦٠) لم يكن هذا الاعلان مجرد اشارة أو كلام. بل تسوية سياسية مدروسة عرفت بـ(تقسيمات الاسكندرية).

ارمينيا وميديا وپارثيا [بعد الاستيلاء عليها واعطى [پطليموس] فينيقيا وسورية وكيليكيا، وجيء بالكساندر امام الجموع المحتشدة وهو في ثياب ميدية أرمينية: القلنسوة ذات الرأس المنتصب. وجيء بـ[پطليموس] وهو بالحذاء، والمعطف القصير والقبعة المقدونية وفوقها التاج. كان هذا ما يرتديه الملوك من خلفاء الاسكندر الكبير. وبعد ان عانق الاولاد ابويهما أعطي الأول منهما حرس شرفٍ ارمنيّ. واعطي الثاني حرس شرف مقدوني. وكانت كليوپاترا ترتدي زي الربة [ايزيس] وكانت تلقب بايزيس الجديدة.

ابلغ [اوكتاڤيوس قيصر] مجلس الشيوخ[٦١] بهذه الأعمال. وبتنديده المستمر العلني بـ[انطوني] نجح نجاحاً كبيراً في اثارة غضب الشعب الروماني ضدّه. وقام [انطوني] كذلك برفع عدد من الاتهامات المضادة على [اوكتاڤيوس] واهمها هي الآتية:

اولاً: عندما استولى [اوكتاڤيوس] على صقلية من [سكستوس پومپي] استأثر بها لنفسه ولم يعط له حصة منها.

ثانياً: بعد ان استعار عدداً من السفن لاستخدامها في هذه الحملة، ابقاها لديه ولم يعدها.

ثالثاً: بعد ان عزل [ليپيدوس] زميلهما الثالث، استأثر بجيشه واقاليمه التي كان يحكمها هذا القنصل مع عوائدها وضرائبها.

ورابعاً: وزع كل ما تيسر من اراضي ايطاليا تقريباً على جنوده لم يبق لجنود [انطوني] شيئاً.

وكان ردّ [اوكتاڤيوس] على هذه التهم: انه عزل [ليپيدوس] وصادر سلطاته لاساءته استعمالها وان ما استولى عليه في الحرب سيشرك [انطوني] به حالما يعطيه [انطوني] حصة من إرمينيا. وان جنوده لايحق لهم نصيب من اراضي ايطاليا ماداموا قد فتحوا بلاد الميديين والپارثيين وهي الاراضي التي اضافوها ببطولاتهم تحت قيادة جنرالهم - الى الامبراطورية الرومانية.

كان [انطوني] في أرمينيا عندما أعلم بردود [اوكتاڤيوس] قيصر. فوجّه في الحال [كانيديوس] على رأس ست عشرة فرقةٍ الى ساحل البحر. إلاّ انه ذهب الى [أفسس] برفقة [كليوپاترا] ليستقبل السفن نقلٍ وساهمت [كليوپاترا] بمائتين، مع عشرين الف تالنت وتقديم الارزاق والمؤن للجيش كله اثناء القتال. وبناء على نصيحة [دوميتيوس انوباربوس] وعدد من اصدقائه، طلب [انطوني] من [كليوپاترا] ان تعود ادراجها الى مصر وتنظر نتيجة الحرب

(٦١) بلغ اوكتاڤيوس بالأمور غايتها، عندما طوق المجلس بالجنود مناسبة تقديمه اتهاماته ضد انطوني. وكان لهذا كثير من الانصار في روما حتى في ذلك الوقت وعندها ترك حوالي اربعمائة من اعضاء المجلس مع قنصليْ سنة ٣٢ روما والتحقوا به في الشرق.

الا أنها كانت تخشى ان تنجح [اوكتافيا] في احلال صلح جديد بين الخصمين فرشت [كانيديوس] بمبلغ كبير من المال ليسعى لأجلها عند [انطوني]. فتوجه اليه هذا قائلاً: انه من الظلم ان تتحمل المرأة نفقات الحرب الطائلة هذه وتحرم من امتياز وجودها فيها كما انه ليس من الفطنة السياسية في شيء الاساءة الى المصريين وهم جزءٌ كبير من قواته البحرية. وهو كذلك لايجد الملوك الحلفاء الذين يعملون معه ارجح عقلاً واوفر ذكاءً منها. فقد حكمت مملكة عظيمة مدة طويلة من الزمن، وعايشته زمناً فنالت تجارب كثيرة في الشؤون الدولية. أثرت هذه الحجج في انطوني ورضخ لها. لأن القدر حكم بأن يحرز [اوكتافيوس قيصر] كل شيء، ولا مرد لحكم القدر. وبعد ان كمل تجمع الاساطيل ابحرا معاً الى [ساموس] وانصرفا الى اللهو[٦٢].

وصدر الأمر الى كل الملوك والافراد والحكام والشعوب والمدن من سورية حتى البحيرة الماريوتية Mareotic ومن ارمينيا حتى الليريا بأن يجلبوا أو يرسلوا ما يجب عليهم من معدات الحرب، كما صدر الأمر لجميع الممثلين بالحضور الى [ساموس] وفي الوقت الذي كانت الدنيا تخرج الزفرات وتذرف الدمع لما ستجره الحرب من ويلات، ظلّت هذه الجزيرة عدة ايام تتردد في اجوائها انغام المزامير والقيثارات، وامتلأت مراسحها بالمتفرجين، وانشغلت اجواق التمثيل، وارسلت كل مدينة ثوراً مساهمة منها في القرابين. واخذ كل ملك من الملوك المرافقين له ينافس صاحبه في اقامة المآدب على شرفه، وفي اهدائه انفس الهدايا. وبات الناس يتساءلون عن كيفية الاحتفال بالنصر المقبل مادام هذا شأن الاحتفال ببدء الحرب من بذخ واسراف في الانفاق.

بعد ختام هذه الاحتفالات رتب [انطوني] للممثلين الداريين ان يسكنوا على وجه الاستقرار في مدينة [برينه Priene] ثم أقلع الى آثينا، وسمح لنفسه أن يلهو بالمزيد من وسائل التسلية والمشاهد المرسحيّة. وشعرت [كليوباترا] بالغيرة لضروب التكريم الذي نالته [اوكتافيا] هناك - فقد تعلق الآثينيون بها وانزلوها منزلة حب خاصّة - ولذلك حاولت كليوباترا التقرب منهم وخطب ودّهم، وبالغت في انعامها عليهم فقابلوها بالمثل وافرطوا في التكريم الرسمي لها، وانتدبوا عدداً من المواطنين للقيام بمراسيم هذا التكريم وارسلوهم وفداً الى منزلها. ورافقهم [انطوني] بنفسه بوصفه مواطن شرف آثيني، ووقف امامها والقى الخطبة التقليدية بالنيابة عن المواطنين الآثينين وفي الوقت نفسه ارسل اناساً الى روما مزودين

(٦٢) من المحتمل ايضاً ان تكون هذه الاحتفالات قد اقيمت لمناسبات دينية وليس للهّو: فقد اقام الاسكندر الكبير حفلات مماثلة تكريماً لديونيسوس قبل عدد من حملاته.

بتعليمات تقضي بطرد [اوكتافيا] من منزله. وقيل لنا انها عندما تركته اخذت معها كلّ اولاده ما عدا [انتيلّوس Antyllus] ابنه البكر من زوجه [فولڤيا] الذي كان معه وانها ذرفت دموع الأسى، لأنها ستعدّ عند الرومان عاملاً من عوامل الحرب. الاّ ان هؤلاء كانوا يخصون [انطوني] بالمزيد من الرثاء، لاسيما أولئك الذين شاهدوا [كليوپاترا] وأكدوا انها لاتفضل [اوكتاڤيا] لا في شبابها ولا في جمالها.

وكان قلق [اوكتاڤيوس قيصر] عظيماً عند سمع بالسرعة التي استعدّ بها [انطوني] وعظمة تلك الاستعدادات، فقد كان يخشى ان يرغم على الاقلاع في ذلك الصيف[٦٣] لدخول معركة تقررّ مصير الحرب كلّها. وهو في ذلك الوقت يشكو نقصاً في التجهيزات، فضلاً عن الكره الشعبي الشديد الذي نجم عن فرضه ضرائب ثقيلة. فقد كان على من يتمتع بحقوق المواطنة الكاملة ان يدفع أكثر من ربع دخله، والمعتوق ثُمن أملاكه. فتعالت الضجة والصياح عليه من الطبقتين وتفشّت الاضطرابات في ايطاليا. ولهذا السبب عُد تأجيل [انطوني] حربه، خطأً من أعظم الاخطاء الستراتيجية لأنه اتاح الوقت الكافي [لاوكتافيوس] فأكمل استعداده. وعمل على تهدئة الخواطر الثائرة عليه. يضج الناس بالشكوى ويتمردون ساعة جباية المال منهم. فاذا دفعوها، هدأ ثائرهم وسكتوا. وخرجت [كليوپاترا] ايضاً عن جادة الصواب فاهانت [تيتيوس Titius] و[پلانكوس Plancus] القنصلين السابقين صديقي [انطوني] وكانا من أشدّ معارضي فكرة بقائها في غضون الحرب. فهربا والتحقا باوكتاڤيوس قيصر وانهيا اليه ببعض المعلومات عن محتوى وصية [انطوني] التي يعرفان تفاصيلها. وكانت هذه الوصية قد اودعت امانة عند العذارى الڤستالات[٦٤] وعندما ما طلبها اوكتاڤيوس منهن رفضن تسليمها وقلن: ان كان يرغب فيها فليأت وليأخذها بنفسه فلم يتوان. وقرأها، وعلم فيها فقرات تصلح لاساءة سمعة انطوني، ثم دعا مجلس الشيوخ للاجتماع وتلا تلك الفقرات علناً فأستنكر معظم الشيوخ عمل اوكتاڤيوس اذ وجدوا محاسبة المرء على ما يرغب في اجرائه بعد موته، اثناء ما هو في قيد الحياة، عملاً غريباً غير مسبوق ولايمكن التسامح فيه وشدّد [اوكتاڤيوس] النكير على [انطوني] لفقرة تتعلق بدفنه. فقد أوصى بأن يحمل جثمانه الى [كليوپاترا] في مصر بعد أن يشيع تشييعاً رسمياً في الفورم، وان حصل موته في روما. والى جانب هذا تقدم [كالڤيسيوس Calvisius] احد صنائع [اوكتاڤيوس] بعدد من التهم ضده تتعلق بسلوكه مع [كليوپاترا] فقال انه اهداها مكتبات

---

(٦٣) كان ذلك في ٣٢ ق.م.

(٦٤) يظهر ان هذا عادة عند الشخصيات الرومانية البارزة. الاّ ان عمل اوكتاڤيوس آثار استياء لأن وصيةً تودعُ لدى الڤستالات تعتبر مقدسة بنوع خاص. وكان بمقدور انطوني ان يغير من موادّها لو شاء.

في برغاموم تضمّ مائتي الف لفة رقّ. وفي مأدبة كبيرة ضمت عدداً كبيراً من المدعوين نهض وانحنى يدعك لها قدميها ايفاءً برهان أو عهدٍ مقطوع. وسمح لأهالي أفسس أن يحيوا [كليوباترا] بوصفها ملكتهم وبمحضر منه. وفي عدد من المناسبات اثناء تصريفه الرسمي لشؤون والولاة، كان يتسلّم رسائل غرامٍ منها مكتوبة على الواحٍ من عقيق أو بلّور فيقرأها علنا. وفي احد المناسبات كان [فورنيوس Furnius] وهو من ابرز الشخصيات الرومانية، يترافع امامه في قضية، فمرت به كليوباترا وهي في محفتها فقفز انطوني عن كرسية ونزل تاركاً المرافعة لمرافقتهما متعلقاً بمحفتها.

على اية حال اعتبر المجلس [كالفيسيوس] مخترعاً لكلّ هذه الحكايات وفي الوقت نفسه قام انصار [انطوني] باستفتاءٍ شعبي ودافعوا عنه علناً امام الجمهور وارسلوا احدهم المدعو [غمينيوس Giminius] ليطلب من [انطوني] بأن لايظلّ ساكتاً في حين تجري محاولة ازاحته عن السلطة بالتصويت، ويعلن عدواً للشعب الروماني. ووصل اليونان، وسرعان ما اعتبرته [كليوباترا] عيناً من عيون [اوكتافيوس]، وجعلت مجلسه على المائدة بين الناس العاديين او الأقل شأناً اذلالاً له، ووضعته هدفاً لمزاح ثقيل. وتحمل [غمينيوس] كل تلك الاهانات صبر وانتظر فرصة للكلام مع انطوني ولكنه عندما سئل عن الغرض من مجيئه في حفلة عشاء، أجاب انه سيحتفظ برسالته لمناسبة أكثر جداً، الاّ ان لديه شيئاً واحداً يريد قوله اصاحيا كان أم ثملاً. وهو ان كل شيء سيسير على مايرام عند اعادة [كليوباترا] الى مصر. ولما بان الغضب على [انطوني] قالت [كليوباترا].

- أحسنت صنعاً يا [غمينيوس] لكشفك الحقيقة قبل وضعك على دولاب التعذيب!

ومهما يكن فقد نجح [غمينيوس] في العودة الى روما بعد ايام قليلة[٦٥] وأفلح طفيليو [كليوباترا] في ابعاد اصدقاء كثيرين [لانطوني] عنه. هؤلاء لم يسعهم احتمال مزاح بطانتها السمج، ومزاحهم الغليظ، وممن تركه [ماركوس سيلانوس Marcus Silanus] و[دليوس Dellius] المؤرخ. ويقول [دليوس] هذا انه كان دائم الخوف على حياته، حتى أن [گلاوخوس Glauchus] اعلمه بما بيتت له [كليوباترا]، بعد ان غضبت عليه لقوله: ان اصدقاء [انطوني] تقدم لهم خمر فجّة، في حين ان [سارفنتوس Sarmentus] وصيف [اوكتافيوس] (وهو احد وصفائه المقربين الذين يطلق الرومان عليهم اسم [دليچاي Deli-

(٦٥) بلغت القطيعه حداً انه ما عاد الصفاء بينه وبين اوكتافيا ممكناً والاحتمال الأقرب من هذا ان كليوباترا خشيت ان يكون [غمينيوس][كاتيو باربوس] احد أولئك الذين ما فتئوا يلحون على انطوني بقطع صلاته مع كليوباترا واعادة منصبه في الغرب، ان تمكنها من تهديد المواطنين الاحرار بالتعذيب هو آخر ما يمكن ان يتحمله اصحاب انطوني من استفزاز.

ciae] يشرب هناك خمر فاليرنيا Falernia. ما أن أكمل [اوكتافيوس قيصر] استعداده، حتى اصدر امراً باعلان الحرب على [كليوپاترا] وبتجريد انطوني من السلطة التي نزل لها عنها لامرأة وجعلها تمارسها في محله. وذكر [قيصر] ايضاً أن [انطوني] وقع أسيراً للخمر وانه لم يعد يتحمل مسؤولية أعماله. وان الرومان يخوضون هذا الحرب ضدّ [مارديان -Mardi an] الخصي، وكل من [پوثينوس Pothinus وايراس Iras] وصيفي [كليوپاترا] وشارميون Charmion، وصيفتها، لأنهم ذوو الحلّ والعقد الفعليون.

وهنا عليّ ان اذكر عدداً من العجائب التي قيل انها انذرت بوقوع الحرب. وقعت هزة ارضية فأبتلعت ارض مستعمرة [پيساروم Pisaurum] التي انشأ فيها انطوني مستوطنة رومانية على ساحل الادرياتي. واخذ العرق ينضح من احد تماثيل انطوني في [البا Alba] عدة ايام متواصلة ولم يتوقف النضح رغم تجفيفه عدة مرات. ولما كان [انطوني] في مدينة پاتراي [Patrae] وقعت صاعقة على هيكل هرقل وفي اثينا مزقت الريح الهوجاء صورة [باخوس] وقلعتها قلعاً من نقش «معركة العمالقة» والقتها فوق الملعب على ظهرها. وانطوني يزعم انه متصل نسباً بالربّ الأول ومتصل بالثاني نهجاً وخلقاً حتى انه لقبّ بـ[باخوس الصغير]. وعصفت الريح في اثينا بتمثالي [فومينوس Fumenes] و[أتالوس Attalus] الهائلين اللذين نقش عليهما اسم [انطوني] من بين سائر التماثيل الكثيرة الأخرى التي لم يصبها ضرر. وشوهدت علامة نحس سيئة جداً في سفينة القيادة الخاصّة [بكليوپاترا] فقد بنى بعض العصافير في مؤخرتها عشّا فجاءت عصافير أخرى وطردت الأولى واتلفت عشها.

واجتمع لانطوني من السفن الحربية مالايقّل عن الخمسمائة، منها سفن ذات عدة طبقات قد تبلغ الثماني أو العشر وهي كثيرة الحلي والزخارف دقيقة الصنع كأنها صنعت لاستخدامها في موكب نصر واجتمع له مائة الف من المشاة واثنا عشر الف خيال. ومن الملوك الموالين الذين رافقوه [برخوس Borchus] ملك ليبيا و[تاركونديموس Tarcondemus] ملك كيليكيا العليا وفيلادلفوس Philadephus ملك پافلاكونيا Paphlagonia وارخيلاوس ملك كبدوكيا و[ميثيريدات] ملك كرماجنيه. و[سادلاس Sadlas] ملك تراقيا. هؤلاء كانوا موجودين باشخاصهم: وارسل له كل من [پوليمون] ملك البونطس ومالخوس Malchus ملك البلاد العربية، وهيرود Herod ملك اليهودية وامنتوس ملك لاقونيا وغلاطية قوات كبيرة، كما بعث اليه ملك الميدين ببعض الوحدات المقاتلة.

وحشد [اوكتافيوس قيصر] مقابل ذلك، مائتين وخمسين بارجة حربية. وثمانين ألفاً من المشاة وما يعادل خيالة [انطوني]. وكانت امبراطورية [انطوني] تمتد من الفرات وارمينيا،

حتى البحر الآيوني والليريا. وتبدأ امبراطورية [اوكتافيوس] من الليريا وتمتد غرباً الى المحيط، ثم تستمر على طول الساحل الصقليّ والتوسكاني وكان يسيطر ايضاً على كل الساحل الافريقي المواجه لايطاليا، وبلاد الغال واسپانيا حتى اعمدة هرقل. في حين كان [انطوني] يسيطر على الأقليم الذي يمتد من قيرينه Cyrne حتى ارمينيا.

وأمسى [انطوني] في هذه الآونة آلةً في يد [كليوپاترا] تسيره كما تشاء. فمع ان تفوقه البريّ على عدوه كان واضحاً. فقد قرر نزولاً عند رغبة الخليلة أن يجعل البحر ميدان المعركة الفاصلة. لقد اصرّ على ذلك ارضاء لملكته لا غير، وان كان يدري مدى افتقاره الى البحارة حتى ان ولاته Tetrarch في بلاد اليونان كانوا يجندون لها، المسافرين، والمكارين، والحصادين والصبيان الذين لم يبلغوا سنّ الخدمة حتى جردوا البلاد من قابلياتها واستنفدوا طاقاتها. ومع هذا كله لم تبلغ سفنه المستوى القتالي المنشود. وظلت سيئة الادارة بصورة يرثى لها. وكانت أسطول [اوكتافيوس] بعكس ذلك، يشمل سفناً لم تبن للعرض والرؤية وانما للحرب والخدمة. فكانت سريعة خفيفة كاملة العدد والعدة سهلة التحريك. حشدها في [تارنتيوم وبرنديزيوم] وارسل يطلبُ من [انطوني] الخروج لقتاله ولايضيع وقتاً أكثر مما ضيّع وان يقبل عليه وسوف يضمن له المكلأت والموانى حرة لاسطوله ولجيشه البري، لينزل منها ونصب خيامه، وقال انه سيحسب جيشه مسافة كافية في برّ ايطاليا مما يمكن خيالته من الحركة، فردّ انطوني على هذا التحدي بلهجة تعاظم مماثلة. وتحدى [اوكتافيوس] الى منازلته في معركة فرديّة وان كان أكبر منه سِنّاً. فان رفض اوكتافيوس هذا، فان انطوني يطلب منه ان يلتقيّا في [فرساليا] حيث اشتبك [قيصر] بـ[پومپي] من قبل وعلى اية حال فبينما كان اسطول [انطوني] جاثماً في [أكسيوم] حيث تقوم اليوم مدينة [نيكولوپوليس]. تسلل [اوكتافيوس] اليه سِراً عبر البحر الآيوني. واحتل مدينة في ايپروس تدعى [تورنيه To-ryne] اي «المغرفة». وعندما شاع القلق في نفوس اصحاب انطوني لأن جيشهم لم يصل بعد، جعل كليوپاترا من ذلك مادة للسخر وتساءلت مازحةً:

- اي بأسٍ في ما لو نجح اوكتافيوس في الامساك بمغرفة؟

وبعد فترة قصيرة، انطلق العدوّ نحو اسطول [انطوني] في الفجر وكان يخشى ان تؤسر سفنه قبل ان يتمّ وصول جنوده اليها، ولذلك سلّح كُلّ بحارته وجذافيه وعرضهم على اسطحة السفن ايهاماً للعدوّ. ثم صفّ السفن بالقرب من فم خليج [أكسيوم] وجعل طبقات المجازيف ترتفع على الماء بمجاذيفها الموجهة الى العدوّ كأنها مستعدة للقتال فانطلت الخدعة على [اوكتافيوس] وانسحب واعتبر [انطوني] بارعاً، في اقامته آطاماً لقطع مجرى الماء عن

العدوّ حيث لايوجد كثير من الينابيع الصالحة للشرب في الانحاء المجاورة. وهذه ليست بالجيدة ايضاً.

وفي هذا الزمن كان [انطوني] كريماً جداً في معاملة [دوميتيوس اينوباربوس] خلافاً لرغبة [كليوپاترا] فقد فرّ هذا في زورقٍ صغير ولحق [بأوكتافيوس] وهو مريض بالحمى، ومع ان [انطوني] بات وهو في غاية من الحنق عليه الاّ انه بعث اليه بكلّ سلاحه وامواله وصدقانه وخدمه، وما لبث [دوميتيوس] أن مات هناك كأنه يريد ان يندم بعد ان أكتشفت خيانته وقلة اخلاصه. واختار بعض الملوك التابعين تغيير مواقفهم ايضاً فالتحق [باوكتافيوس] امينتاس Amyntas و[ديوتاروس Deiotarus]. زد على هذا فشل الاسطول في كلّ عملية يشارك فيها. اذ كان دائماً يأتي متأخراً فلا يأتي بفائدةٍ فأضطر [انطوني] الى ان يزيد من اهتمامه بجيشه البريّ وادرك [كانيديوس] الآن خطورة الموقف فغير رأيه في الأمر وعاد يقترح ترحيل [كليوپاترا] الى مصر، وانسحاب انطوني الى [تراقيا] او [مقدونيا] وان يعتمد على معركة بريّة فاصلة، ذلك لأن [ديقوس Dicoues] ملك الغيتيين Getae وعده بجيش قويّ. ولم يكن ثم ما يحط من قدره ان هو تخلّى عن السيادة البحرية لأوكتافيوس، طالما تدربت قواته هذه على الحرب البحرية بالأعمال العسكرية التي قام بها اثناء حملة صقلية، هذا فضلاً عن أنه يكون من الخطل ان لايستفيد من تفوقه العدديّ وحسن تجهيز فرقه، وهو المجرّب الخبير في الحروب البرية الذي لايدانيه قائد معاصر فيها. ومن السخف ان يبعثر قواته ويشتتها بحشرها على ظهور السفن فيضعف من قيمتها القتالية، مع كل هذه المجهودات التي بذلها [كانيديوس] فقد ظلّ [لكليوپاترا] القول الفصل. وكانت قد اعتزمت في سرّها على الفرار ولم يكن الهدف الذي توخته من تنظيمها قطعها البحرية هو ربح المعركة بل ضمان فرارها حين تدور الدائرة على انطوني. وحصل ايضاً انه كان ثم جداران طويلان يمتدان من المعسكر حتى مرسى السفن وقد اعتاد انطوني سلوك هذا الممر للوصول الى القاعدة البحرية وكان يروح ويغدو آمناً وليس في فكره اي تحسّب لخطرٍ. واعلم عبدٌ [اوكتافيوس] بأن في الامكان أسر [انطوني] اثناء مروره، فأرسل دوريّة لتضع له كميناً. وكاد هؤلاء الجنود ينجزون مهمتهم الاّ انهم خرجوا من مكامنهم في اللحظة غير المناسبة وقبضوا على شخص كان يسبق [انطوني] فهرول [انطوني] ونجح في فراره.

عندما قرر نهائياً ان يخوض المعركة في البحر، اشعل النار في جميع السفن المصرية ما عدا ستين منها[٦٦] ثم عبّأ أكبر واقوى سفنه التي تتألف من ثلاث حتى عشر طبقاتٍ من

(٦٦) يظهر انه قام بهذا العمل خوفاً من هروبها اثناء المعركة. والثلاثون الباقية انما ابقيت لحراسة كليوپاترا.

المجاذيف وأقلع بها وعلى ظهرها عشرون الفاً من المشاة الثقيلة وألفان من رماة القسيّ. ومما ذكر لنا في هذه المناسبة بالذات ان قائد مائة من أحدى الفرق، كان قد خاض العديد من المعارك تحت امرة انطوني حتى أمتلأ جسمه بالندوب، صاح فجأة اثناء مرور [انطوني] :

- أيها الامبراطور. كيف يمكنك ان تفقد الثقة بهذا السيف وهذه الجراح وتضع كل آمالك في الخشب النخر؟ الأدع هؤلاء المصريين والفينيقيين يخوضون حربهم في البحر ودع لنا الأراضي فهناك نعرف كيف نقف صامدين قدماً الى قدمٍ فنهزم خصمنا او نموت دونه.

فلم يستطع [انطوني] الجواب. وكل ما فعله انه القى نظرة اليه واوما اليه بحركة من يده تشجيعاً له. ثم مظى لطيته. والواقع أنه لم يكن يملك كبير ثقة فيما استقرّ عليه. اذ لما اقترح ربابنة السفن ترك الاشرعة[٦٧] اصدر أمره بابقائها على ظهر السفن. معللاً ذلك بأنهم لن يدعوا فرداً واحداً من العدو يفلح في الفرار[٦٨].

في ذلك اليوم والايام الثلاثة التي تلته، كان البحر هائجاً حتى تعذر على الطرفين القيام، بأي عملية حربية. على ان البحر هدأ في اليوم الخامس وسكنت الريح والتقى الاسطولان وتولى [انطوني] و[بوبليكولا Publicola] قيادة الميمنة في حين تولى [كوليوس coelius] الميسرة. وتولى [ماركوس اوكتافيوس] و[ماركوس انستيوس Insteius] القلب. ووضع [اوكتافيوس قيصر] [اغريبّاً] على الميسرة وتولى بنفسه الميمنة وتولى قيادة جيش انطوني [كانيديوس] في حين سلم [اوكتافيوس] قيادة جيشه الى [طوروس Taurus] الا ان كلا القائدين وضع جيشه في خطّ القتال دون ان تبدر منهما حركة. وراح [انطوني] ينتقل بقارب صغير من سفينة الى سفينة مشجعاً جنوده وطالبا منهم الثبات، والبلاء الحسن في هذه السفن الكبيرة، مثلما عهد منهم في البرّ. وامر الربابنة بمواجهة هجمة العدو وكانت سفنهم راسية وان يصمدوا في مواضعهم على فم الخليج الضيق الذي يصعب المرور منه. وقيل ان [اوكتافيوس قيصر] ترك خيمته والظلام مازال مرخيا سدوله وأنطلق لتفقد سفنه فمرّ برجل يسوق حماراً، فأستوقفه وسأله عن أسمه فأجاب الرجل وقد عرف مخاطبه:

- اسمي [مسعود] واسم حماري [فاتح].

وبعد المعركة، عندما اقام [اوكتافيوس] عند الساحل عدداً من مناقير السفن المأسورة

---

(٦٧) قيل ان انطوني كان يؤمل الإفادة من الرياح المقبلة لدفع سفن عدوه الى الساحل وعلى اية حال معلوم ان البوراج الحربية اثناء المعركة انما تعتمد على مجاذيفها عادة وليس على قلوعها. والواضح ان اوامره خلقت انطباعاً بأن نيته الحقيقية هي الفرار لا القتال، وقد عززّ هذا الانطباع. ان امواله ومقتنياته، كانت كلها محملة على ظهر السفن، في حين كان بمقدور الجيش البريّ المحافظة عليها من الضياع.

(٦٨) يزيد نشر القلوع من سرعة السفن عند المطاردة.

تزيينا للموضع وتخليداً للمعركة، نصب بينها تمثالاً برونزياً للسائق وحماره.

بعد ان انهى جولته التفقدية، توجه الى الجناح الأيمن بقارب صغير. فوجد لعجبه الشديد ان العدوّ لاتبدر منه اية حركة في المضيق كأن سفنه ملقيةٌ بمراسيها. وظلّ برهة وهو يظن ان الامر كذلك. وابقى سفنه بعيدة عن العدوّ بمسافة ميل واحد. ولكن ريحاً رخاء هبتّ من جهة البحر قبيل الظهر. وادرك رجال [انطوني] الملل من طول الانتظار ولما كانوا قد وثقوا بأن سفنهم لا تقهر بسبب ضخامتها وارتفاعها، أطلقوا حركة الميسرة فتقدمت للمعركة. فكان سرور [اوكتافيوس] عظيما وامر جذافي ميمنته بالتقهقر، ليغري العدوّ به ويخرجه من الخليج ومدخله الضيق. وكانت خطته تطويقهم باسرع القطع من اسطولة وقتالها من مسافة قريبة حيث كانت واثقاً بأن الافضلية ستكون الى صفّه على بوارج عدوه الكبيرة السيئة العُدة بحركتها البطيئة وعجزها عن المناورة.

عندما التقت خطوط القتال، لم تحاول السفن نطح احداها الأخرى او سحقها. لأن سفن [انطوني] كانت ثقيلة جداً، لاتستطيع ان تحقق السرعة الكفيلة بتوجيه صدمة ساحقة لجدران سفن العدوّ. ولأن اوكتافيوس من جهته، تحاشى ذلك عمداً، ولم يشأ ان يصادم سفن العدوّ بمناقير سفنه، فتلك كانت مصفحة بصفائح معدنية ضخمة واسنّة برونزية، ولم يحاول ايضاً عن ينطحها من جوانبها لأن هيكلها مبني بكتل مربعة ضخمة من الخشب الذي يشده الى بعضه احزمة حديدية، فتتكسر مناقير سفنه عليها بسهولة. ولهذا اصبح القتال أشبه بمعركة بريّة واتخذ سماته تقريباً أو بكلمة أدق هجوم على قلعةٍ محصنة فكنت ترى كل ثلاث أو اربع سفن لأوكتافيوس، تحوّم حول سفينة واحدة لانطوني. وجرى القتال بالتروس والحراب والقضبان والمقذوفات النارية، وكان رجال [انطوني] فضلاً عن ذلك يستخدمون مقذوفات المجانيق المثبتة على ابراجٍ خشبية. وبدأ [اغريبا] يمدّ جناحه الايسر متحامياً طريقه للالتفاف حول جناح العدوّ. واضطر [پوبليكولا] مواجهة لهذه الحركة - الى التقدم نحوه، والانفصال عن القلب الذي كانت الفوضى قد عمّته، وقد اشتبك معه فوراً [ارونتيوس Arruntius] قائد القلب في اسطول [اوكتافيوس]. في هذه اللحظة حينما كان الميزان معلقاً بين الطرفين شوهدت سفن كليوپاترا الستين تخرج عن خط القتال فجأة وتنشر قلوعها منطلقة في عرض البحر. كانت هذه السفن قد وضعت خلف السفن الثقيلة مباشرة ولهذا اختل نظام التشكيلة وعمتها الفوضى عندما راحت تتلمس سبيل انطلاقها وراقبها العدوّ بذهول وهي تنشر قلوعها وتتجه بمساعدة الريح نحو البلوپونيسس. وهناك اوضح [انطوني] للعالم اجمع بأنه لايعمل بشعور القائد ولا بدوافع الرجل الشجاع، ولا بمقتضى عقلية الرجل السوي، بل برهن على حقيقة قول

قيل في معرض مزاح. ان روح العاشق الولهان تعيش في جسم آخر. وقد سمح لنفسه ان يجرّ جراً خلف امرأة كأنه اصبح جزءً من لحمها وان عليه أن يذهب حيث شاءت له. ما ان رأى سفنها تنطلق، حتى إمّحى كل الاعتبارات الأخرى من ذهنه وتخلّى عن الرجال الذي يقاتلون ويموتون في سبيل قضيته وخانهم. صعد الى بارجة ذات ستّ طبقاتٍ مع كل من الكساس Alxas السوري، وسچليوس Scellius واسرع وراء تلك المرأة التي دمرّته، والتي ستقوم باكمال تدميره بعد فترة قليلة.

لما ادركت انه يسعى وراءها رفعت اشارة على سفينتها فأقترب منها انطوني واصعد الى ظهرها الاّ انه لم يحاول رؤيتها ولم تره هي بل ذهب الى قيدوم السفينة وجلس وحده لاينطق بكلمة واضعاً رأسه بين كفيه، وبعد قليل لاحت قطع من سفن [اوكتاڤيوس] الليبورنية الخفيفة Liburnian في الأفق تتعقبهم فأمر [انطوني] بان تستدير السفينة لمواجهتهم. فلما فعلت، نكصت المطاردة على اعقابها الاّ سفينة [يوركلس Eurycles] اللاقوني فقد اقترب بسفينته ووقف على سطحها واشرع رمحه كأنه يريد ان يقذف به [انطوني]. ووقف انطوني عند القيدروم وصاح:

- من هو هذا الذي يتعقب [انطوني].

- انا يوركليس بن لاخاريس. جئتك مسلحاً بحظوظ [قيصر] كي أثار لوالدي.

كان [لاخاريس] قد أدين بجريمة سرقة، واحتزّ رأسه بأمرٍ من [انطوني]، على ان [يوركلس] لم يهاجم سفينة انطوني بل توجه باقصى سرعة الى سفينة القيادة الأخرى حيث كان يوجد اثنتان - فنطحها وجعلها تدور على نفسها واستولى عليها وعلى سفينة أخرى كان فيها مقدار من الصحاف الثمينة وغيرها من الأموال. وما ان كرّ [يوركليس] راجعاً رغاب عن الانظار حتى عاد [انطوني] الى وضعه السابق من الوجوم والجلوس. وظل كذلك ثلاثة ايامٍ يأبى التحرك من موضعه، وهو امّا ممتليء غيظاً من كليوپاترا، او رغبةً منه في عدم توجيه اللوم اليها، أخيراً بلغوا [تيناروم][٦٩]، ونجحت وصيفات كليوپاترا في حملهما على محادثة بعضهما بعضاً ثم أكلاً معاً ورقدا. وبدا عدد من سفن النقل الثقيلة وفلول اتباعه يتواردون اليه عقب الهزيمة العامة. واعلموا بأن الاسطول قضي عليه قضاءً مبرماً. امّا القوات البّرية فأغلب ظنهم انها ما زالت صامدة في مواقعها. فأرسل اوامر الى [كانيديوس] يأمره بسحب الجيش الى آسيا عبر مقدونيا بأسرع ما يمكن. امّا هو فقررّ ان يترك [تيناروس] الى

---

(٦٩) هي رأس ماتابان الحالي. ويقع في أقصى جنوب البلوپونيسمس.

افريقيا، وأهدى انصاره احدى سفن النقل بما فيها من اموال طائلة وآنية ذهبية وفضية تعود للملوك الخلفاء. ورغب منهم ان يقتسموها فيما بينهم ويستعينوا بها لتدبير أمر سلامتهم. فرفضوا هديته شاكرين وانخرطوا في بكاء، فأخذ يطيب خواطرهم بأعذب الكلام وارق لهجة والحّ عليهم بقبول الهدية. أخيراً صرفهم بعد ان كتب الى [ثيوفيلس] وكيل امواله في كورنت، يطلب اليه ان يمنحهم ملجأ ويبقيهم مخفيين. الى أن تصلح امورهم مع [اوكتافيوس قيصر]. و[ثيوفيلس] هذا، هو ابن [هيپارخوس] صاحب أكبر نفوذ عند [انطوني]، ومع هذا فقد كان اول عتقاء [انطوني] الذين ينضمون الى [اوكتافيوس]. وقد استقر بعد ذلك في كورنث.

هذا ما آلت اليه احوال [انطوني]. ظلّ اسطوله في [اكسيوم] صامداً بوجه [اوكتافيوس] عدة ساعات ولم يستسلم رجاله الا بعد أن اعطبت سفنه عطباً شديداً بعاصفة. وكان ذلك في الساعة الرابعة بعد الظهر، وفقد الاسطول مالايقل عن خمسة آلاف قتيل وغريق، ووقعت ثلاثمائة سفينة في يد [اوكتافيوس] كما دون هو نفسه في مذكراته. ولم يعلم بفرار [انطوني] الى القليل من سفنه. ومن بلغه النبأ كذّبه ولم يعره اذناً صاغية. اذ لم يكن يصدق ان يتخلّى جنرال عن تسع عشرة فرقة، واثني عشر الف خيال لم تدخل معركة ولم تهزم. ومهما يكن فلانطوني تجارب عديدة مع تقلبات الحظّ وتحولاته المفاجئة كما ان مفاجآت القتال وتصاريفه قد عجمت عوده وبلته. وكان جنوده في شوقٍ لرؤيته، وكانوا على ثقة بأنه سيظهر لهم من جهة ما. حقاً هذا الاخلاص وتلك الشجاعة جعلاهم يصمدون سبعة ايام متوالية وهو غائب عنهم، متجاهلين كل تقرب منهم يأتيه [اوكتافيوس]. أخيراً عندما تبينوا ان [كانيديوس] وكيل انطوني في القيادة، هرب من المعسكر ليلاً وانهم اصبحوا دون أملٍ، ولا ارزاقٍ، ولا قيادة، انضموا الى الغالب. بعد هذا ابحر [اوكتافيوس] الى آثينا بحراً حيث قام بتنظيمِ شؤون الاغريق. ووزع ما تبقى من مخزون القمح الذي انتزعه انطوني من المدن بالاكراه وكاد يوردها موارد التلف. نهب اموالهم وغصب عبيدهم وصادر خيولهم وحيوانات اثقالهم ولم يبق لهم شيئاً. لقد اعتاد [نيقارخوس] والد جديّ ان يروي كيف جند أهالي مدينتنا لأعمال السخرة فكان كل واحد منهم يحمل على عاتقه مقداراً معيناً من القمح الى الساحل قرب [انتيكيرا Anticyra]. يشرف عليهم مراقبون ويحثونهم بالسوط. وبعد ان انجزوا نقلةً واحدةً وفيما هم يتهيأون لكيل النقلة الثانية ويضعون احمالهم تلك على عواتقهم، أقبل من ينبئهم بهزيمة [انطوني]. هكذا نجت [خيرونيا] فقد هرب جنوده ووكلاء اعاشته حال سماعهم بذلك وتركوا الأهالي يتقاسمون القمح فيما بينهم.

بوصول [انطوني] ساحل ليبيا، أرسل [كليوباترا] لتسبقه الى مصر فغادرت [پاريتونيوم Paraetonium] [70] وبقي هو وحيداً، يستمتع بكلّ ما توفره له الوحدة من هدوء. فيتجول على هواه مع صديقين احدهما [ارسطوقراطس] المنطبق اليوناني و[لوچيليوس] الروماني الذي ورد ذكره في موضع ما من سيرة [بروتوس]، وقصصنا كيف انه افسح [لبروتوس] مجالاً للهرب بعد معركة [فيليبي] عندما تثاقل في سيره حتى ادركه مطاردو پروتوس، وقبضوا عليه عندما انتحل شخصيته. وقد عفا عنه [انطوني] بعد ان مثل امامه. ولهذا ظلّ اميناً مخلصاً حتى الأخير. وعندما انضم كاربوس[71] وهو القائد الذي امرّه انطوني على جيش ليبيا - الى [اوكتافيوس]، حاول قتل نفسه الاّ ان صديقيه حالاً دون ذلك وعاد الى الاسكندرية فوجد [كليوپاترا] مهتمة بمشروع جريء غريب، فقد كانت تحاول ان ترفع سفنها من البحر الابيض الى اليابسة وتنقلها الى البحر الأحمر في موضع ينفصل فيه البحران ويعتبر الخطّ الفاصل بين آسيا وافريقيا، وهو يبلغ في اضيق موضع منه حوالي اربعين ميلاً[72] وكانت خطتها ان تحملها بعدئذ بالاموال الكثيرة، مع حرس مرافق قوي. فتنزل السفن الى البحر الأحمر ثم تبحر وتستقر فيما وراء حدود مصر آمنة من الأخطار والحروب والأسر الاّ ان عرب مملكة بطرا اشعلوا النار في اول سفينة خرجت الى اليابسة[73] ولما كان [انطوني] على ثقة بأن جيشه في [اكسيوم] مازال مخلصاً فقد تخلت [كليوپاترا] عن الفكرة. ووضعت جيشها في موقف الاستعداد لحماية مصر. وفي تلك الاثناء ترك [انطوني] المدينة والاصدقاء وذهب ليعيش وحده في جزيرة [فاروس][74] حيث بنى له بيتاً على نتوء نافذ في البحر. وهناك حبس نفسه عن الناس جميعاً وقال انه يريد ان يعيش كما عاش [تيمون Timon] من قبل. فقضيته تشبه قضية ذاك الآثيني قوبل مثله بالأذى ونكران الجميل من أولئك الذين توهمهم اصدقاء، فابغض كل البشر وفقد ثقته فيهم.

كان تيمون هذا، مواطناً اثينياً عاش في ايام حروب البلوپونيسس تقريباً وقد ورد ذكره في كوميديات [ارسطوفان] و[افلاطون][75] ويصوره هذان الكوميديان رجلاً انطوائياً سوداوي

(٧٠) قرب مدينة السلوم الحالية.

(٧١) احد ضباط انطوني الذين حاربوا معه في معركة فيليبي.

(٧٢) حوالي سبعين ميلاً في الواقع.

(٧٣) هؤلاء هم رعية [ملكوس] النبطي. كان هذا الملك يحقد على كليوپاترا منذ ان أعطيت بلاده لها بموجب التسوية التى عملها انطوني في ٣٨ ق.م.

(٧٤) تقع هذه الجزيرة مقابل مدينة الاسكندرية، حيث اقيم عليها المنار الشهير، الذي يعد من عجائب الدنيا السبع.

(٧٥) هو الكاتب المرسحي الهزلي، وليس الفيلسوف المعروف.

المزاج كارهاً الناس ومع انه كان يضيق ذرعاً بالعشرة والصحبة ويتنجب البشر والاختلاط بهم، الاّ انه استمتع بصحبة [الكيبيادس] وكان آنذاك شاباً وقحاً ذا خلق نفور - وكان معتاداً معانقته وتقبيله بكلّ حب. ولما أعرب [إيبمانتس Apemantus] عن دهشته لهذه العواطف وسأله عن سببها، قال له [تيمون] انه يحبّ [الكيبيادس] لكونه يعلم بأنه سيكون سبباً لكثير من المحن والمصائب للآثينيين. وكان [إيبمانتس] هذا الشخص الوحيد الذي يسمح له أحياناً بزيارته فكلاهما من الطينة نفسها وقد حاول [ابيمانتس] أحياناً احتذاءه في طريقة عيشه. ومرة اثناء «عيد الابريقين»[٧٦] كما كان يطلق عليه، قال ايبمانتس:

- ما أبدع مجلسنا هذا يا تيمون؟

فأجابه:

- قد يكون مجلسنا طيباً لو لم تكن هنا.

ومرة نهض والجمعية العامة متقعدة في آثينا وصعد منصة الخطابة، وهذا بحد ذاته أمرٌ خارق للعادة، وبلغت الدهشة بالحاضرين حتى انهم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير وارهفوا آذانهم ليلتقطوا ما سيتفوه به. فأعلن [تيمون] قائلاً:

- يا رجال آثينا. ان لدي قطعة ارض صغيرة للبناء، تقوم عليها تينةٌ، وقد سبق لكثير من اخواني المواطنين أن شنقوا أنفسهم على فروعها، على أني انوي الآن بناء منزل في موقعها، فوجدت الأفضل ان أعلن للجميع ذلك النبأ. فان كان اي منكم يريد ان يشنق نفسه فليذهب وليفعل ذلك قبل ان اجتثها!

ولما حان اجله، دفن في هالي Halae على حافة البحر الاّ ان الجزء الامامي من الساحل انخسف وجرفه الماء ثم الجوانب فتعذر الوصول الى قبره. ويقرأ النقش المكتوب عليه هكذا.

هنا ارقد مدفوناً بعد أن انقطع خيط حياة شقية.

لاتسل عن اسمي: فليس عندي لك غير لعنتي.

هذان البيتان هما من نظمه على ما قيل. الاّ أن الصيغة المعروفة عموماً، هي من نظم [كاللياخوس Callimachus] واليك هي:

هنا يرقد تيمون، الذي ابغض البشرية: ولاتتوقف يا عابر السبيل؛ والعنيّ ان كانت تلك رغبتك، لمن سر في طريقك، فهذا كل ما ارجو منك هذا قليل من كثير من الحكايات التي انحدرت الينا عن [تيمون].

(٧٦) اليوم الثاني من عيد الخمر الذي يقام تكريماً [لديونيسوس] وهو يوم سكب الخمر قرباناً للموتى.

كان [كانيديوس] هو الذي أبلغ [انطوني] بانّ جيشه في [أكسيوم] قد تبخر وتلاشى بكامله. وعلم بعدها مباشرة أن [هيرود][٧٧] ملك اليهودية قد أعلن ولاء« [لاوكتافيوس] وأخذ معه عدداً من الفرق والكتائب، وان بقية حلفائه من الملوك قد تخلوا عنه ولم يبق لديه من السلطة شيء خارج مصر. الآ ان امثال هذه الأنباء الآن لم يعدلها اي تأثير عليه وبدت عليه السعادة لتخلصه من رسيس الأمل، ومن القلق معاً. وترك منتجعه البحري الذي سماه [تيمونية Timoneum] واستقبلته [كليوپاترا] في قصرها وأقامت المدينة واقعدتها بالحفلات والمآدب المتواصلة ومجالس الشراب وتوزيع الهدايا باسرافٍ. وثبت [قيصاريون] ابن [قيصر] من [كليوپاترا] في قائمة الشباب Ephebes[٧٨] وخلع على [انتيللوس] ابنه من [فولڤيا] المعطف الرجالي Toga Virilis بدون حاشية الارجوان[٧٩]. واشغلت المآدب والحفلات التي اقيمت بهذه المناسبة، المدينة عدة أيام بطولها. وحلّ [انطوني وكليوپاترا] عصبة «العائشين الافذاذ» والفوا عصبة أخرى، مساوية للأولى على الأقل في اسرافها وبذخها وافراطها وسمّوها «اخويّة المتحدين في الموت». وانضم اليها اصحابهم بعلمٍ منهم بوجوب انهاء حياتهم معاً، فراحوا يقضون الايام بسلسلةٍ متتابعة من حفلات العشاء الفاخرة. وفي اثناء هذا جمعت [كليوپاترا] انواعاً عديدة من السموم القتالة، وكانت تجربها على المحكومين بالموت لترى ايهّا أقل آلاماً. ووجدت ان السموم ذات المفعول السريع تورث دائماً اشدّ الآلام وانكاها، وان أقلها ألماً هي ابطأها مفعولاً. وواصلت اختبارها، لاكتشاف الميزات السميّة لمختلف الحيوانات السامة، بحملها على مهاجمة بعضها بعضاً على مشهدٍ منها وكانت تقوم بتجاربها هذه يومياً تقريباً وبعد تجربتها كلّ المحتملات، وجدت ان لدغة «الصلّ المصري asp» هي الوحيدة التي تحدث نعاساً ثقيلاً وسباتاً ثم خدراً تاماً. ولا يحدث السم تشنجات ولا تنهدات، بل قليل من العرق في الوجه، وتفقد الحواس قابلياتها بالتدريج حتى تتلاشى. والملدغون يقاومون كل محاولة لايقاظهم او انعاشهم. كما يفعل الناس عند استغراقهم في نوم طبيعي عميق.

وارسل كلاهما بعثة الى [اوكتاڤيوس] في آسيا، وطلبت كليوپاترا ان يرث اولادها عرش

---

(٧٧) كان هيرود الكبير حتى ذلك الحين نصيراً متحمساً لانطوني. وقد ارسل نجدات عسكرية الى [اكسيوم] الآ انه لم يحضرها بنفسه.

(٧٨) عند الاغريق يدرج في هذه القائمة من يتراوح عمره بين السادسة عشرة والثامنة عشرة.

(٧٩) ثقف قيصاريون ثقافة اغريقية ولذلك ادرج في قائمة [الايفيبوس] وثقف انتيللوس ثقافة رومانية. والصبي الروماني يرتدي [المعطف الرجالي] في حدود الرابعة عشرة اشارة الى انه أصبح يتمتع بحقوقه القانونية كاملة. والى هذا التاريخ كان يلبس ما يسمى Toga Praetexta ذات الاهداب الارجوانية. هذان قتلهما اوكتاڤيوس، كما سيرد ذكره.

مص. وطلب [انطوني] ان يسمح له بالعيش في آثينا كشخص عاديّ. أن حظر عليه البقاء في مصر. ولما كان معظم اصدقائهما قد انفضوا من حولهما عادا يشكان في اخلاص القلة الباقية، فقد بعث لهذه المهمة معلم ابنائه المدعو [يوفرونيوس Euphronius]. والسبب في هذا هو العمل الذي اجترحه [الكساس] اللاوديكي Laodicea. كان [تيماجينس Tima- genes] هو الذي قدم هذا الرجل الى [انطوني] في روما، ومرت الايام به وهو يزداد اقتراباً من العاهل حتى بات يتمتع بأقوى نفوذ تمتع به اغريقي عنده. وكان ايضاً ممن استخدمتهم [كليوپاترا] للتأثير على [انطوني] ففعل ذلك بكلّ نجاح وأقنعه بنبذ كل الاعتبارات التي كانت قد تعيد علاقات الصفاء مع اوكتاڤيا. وقد ارسله انطوني الى [هيرود] ملك اليهودية املاً في اقناعه بالعدول عن اعلانه الولاء لاوكتاڤيوس، ولكن بعد ان مكث [الكساس] عند [هيرود] ردحاً من الزمن وخان سيده، وجد عنده الصفاقة الكافية للمثول بين يدي [اوكتاڤيوس قيصر] معتمداً على نفوذ [هيرود] لحمايته، الاّ ان هذا الملك عجز عن معونته، وقبض عليه وجيء به الى بلاده مصفداً بالأغلال ونفذ به حكم الموت بأمرٍ من [اوكتاڤيوس] تلك كانت العقوبة التي استوفاها [الكساس] جراء خيانته، في اثناء حياة [انطوني].

رفض [أوكتاڤيوس قيصر] مطلب [انطوني]. الاّ أنه كتب [لكليوپاترا] يطمئنها بنيل كل طلبٍ معقول تبديه، شريطة أن تقضي على حياة انطوني او ان تطرده من مصر. وفي الوقت ذاته ارسل اليها [تيرسوس Thyrcus] أحد عتقائه وهو من العلماء والاذكياء[80] وفكّر [اوكتاڤيوس] أن مواهبة وقابلياته في الاقناع ستؤدي الى نجاحه في ابلاغ رسالةٍ من جنرال شابٍ الى امرأة مدركة قدر جمالها، فخورة به الى اقصى حدٍ. وعند وصول المبعوث الموفد اليها، حظي هذا الرجل منها بمقابلة اطول من الآخرين. وبالتفاتٍ وتكريم اثاراً الشك في قلب [انطوني]. فأمسك بالرجل وجلده واعاده الى [اوكتاڤيوس] برسالة قال فيها:

- إن تطاول هذا الرجل ووقاحته، قد اغاظني في ظروفٍ من سوء الحظّ تجعل استفزازي من أسهل الأمور. فإن ساءك ما فعلت به فلديك معتوقي [هيپارخوس] رهينة. وبإمكانك شنقه أو جلده، وبذلك نخرج متعادلين.

بعد هذا حاولت [كليوپاترا] اصلاح غلطتها، باظهارها له اشدّ الحنان والرعاية والتفاني. واحيت عيد ميلادها بما يناسب حالتهما الحاضرة وسوء حظوظهما، الاّ أنها أحتفلت بعيد

(٨٠) ارسل انطوني وكليوپاترا عدداً من الرسل الى اوكتاڤيوس دون ان يحققا نجاحاً، ومنهم انتيللوس ابنه، ارسلاه مع مقدار كبيرٍ من المال فأحتفظ أوكتاڤيوس بالمال وصرف انتيللوس. ومن المحتمل ان تيرسوس ارسل ليبقي المفاوضات مستمرة ليحول بين كنوز البطالمة وبين التدمير. وكانت اموالاً طائلة، وأوكتاڤيوس في حاجة ماسة الى المال.

ميلاده باسراف وبذخ منقطعي النظير، حتى ان كثيراً من الفقراء الذين دعوا الى المشاركة فيه، خرجوا وهم اغنياء. وفي ذات الوقت كتب [اغريبا] لاوكتافيوس يرجوه العودة الى روما لأن وجوده فيها ضروري. ففعل، واجلت الحرب حتى انقضاء موسم الشتاء ومن ثم بدأ [اوكتافيوس] الحرب مجدداً فزحف على مصر وسورية، كما زحف قواده عليها من افريقيا. وما لبث ان أستولى على [پيلوسيوم] واشيع ان [سلوقوس] قائدها سلّمها الى [اوكتافيوس] بايعاز من كليوپاترا. ولاجل نفي الاشاعة دفعت الى يد [انطوني] باولاد القائد المستسلم وزوجه فقتلهم.

كانت [كليوپاترا] قبل هذا بزمنٍ قصير قد ابتنت لنفسها قرب معبد [ايزيس] عدداً من الاضرحة العالية والقبور الرائعة المنظر ونقلت اليها كلّ اموالها وكنوزها من الذهب والفضة، والزمرد اللؤلؤ والابنوس والعاج والقرفة وكمية كبرى من خشب النار ونسالة الكتان. وخشي [اوكتافيوس] ان تعمد كليوپاترا في نوبةٍ مفاجئةٍ من اليأس الى اشعال النار في هذه الكنوز، فكان حريصاً على مكاتبتها باستمرار ووعدها بالمعاملة الطيبة اثناء تقدمه من المدينة. ومهما يكن من أمرٍ فبعد ان عسكر بالقرب من هيپودروم[81] الاسكندرية، كرّ عليه [انطوني من الداخل بهجومٍ رائع فأرسل خيالته على اعقابها وطاردها حتى اضطرها الى الاحتماء بتحكيماتها، وعاد الى المدينة ظافراً، وقد انعش النصر روحه ودخل القصر وعانق [كليوپاترا] وهو مدجج بالسلاح. وقدم لها جندياً من رجاله أبلى أحسن البلاء في المعركة. فاهدته [كليوپاترا] درعاً وخوذة من الذهب اعترافاً بشجاعته فقبلها وفي الليلة نفسها هرب والتحق بقوات [اوكتافيوس].

وأرسل [انطوني] تحدياً آخر [لاوكتافيوس] يطلب منه نزالاً فردياً. فكان الجواب: على انطوني ان يجد لنفسه وسائل أخرى غير هذه الوسيلة لأنهاء حياته. وهذا ما جعل [انطوني] يفكر ان اشرف ميتة هي ان يسقط في ميدان القتال. وقرر الاشتباك مع العدو برّاً وبحراً في وقتٍ واحدٍ. وقيل انه طلب من الخادم اثناء العشاء ان تترع كأسه، وأن يزيد في العناية بخدمته عن العادة، فلا أحد يدري هل سيخدمه غداً، ام انه سيخدم سيّداً آخر، بينما يكون هو في عداد الموتى، مومياء او لاشيء. وعندما لحظ ان اصدقاءه يبكون لكلامه قال انه لم يأخذهم للقتال معه، لأنه لايتوقع ان يخرج من المعركة منتصراً أو سالماً، وانما هو يبغي منها موتاً كريماً فحسب. وتمضي الرواية فتقول: في تلك الليلة بالذات عند منتصف الليل تقريباً عندما هجع الجميع، وغرقت المدينة في صمت موحش رهيبٍ توقعاً لما سيأتي به الغَد، سمعت

(٨١) هو رباط الخيل الكبير ويقع في ظاهر المدن الواسعة.

الحان موسيقي رائعة، بدت وكأنها خارجة من جوقةٍ تضرب على مختلف الآلات بمصاحبة ارخم الاصوات وأعذبها وسمع في الوقت نفسه صيحات ضجيجاً صادراً من جمّ غفيرٍ من الناس. أختلطت فيها الصرخات الباخوسيّة وبقفزات المسوخ المجذوبة، كأن موكباً مرحاً يترك المدينة وهو يغنيّ ويهتف. وبدأ الموكب وكأنه يسير في شارع وسط المدينة متجهاً الى الباب الخارجي المؤدي الى معسكر [انطوني] وفي هذه اللحظة ارتفعت الاصوات الى مُنتهاها ثم تلاشت. واستنتج أولئك الذين حاولوا تفسير هذه المعجزة بان الآلة [ديونيسوس] الذي أدعى[انطوني] بصلة قرابةٍ معه، واتخذ منه مثلاً يحتذى، قد تخلى عنه الآن[٨٢].

ما ان بدت تباشير الصبح، حتى وضع [انطوني] مشاته على التلال امام المدينة وراقب سفنه وهي تخرج لمواجهة العدوّ. ثم لما أنه ظلّ يعتقد بأن اسطوله هو الذي سيقرر نتيجة قتال اليوم. فقد بقي في موضعه منتظراً ما ستسفر عنه المعركة البحرية. ولكن ما ان اصبح اسطوله على مقربةٍ من سفن [اوكتافيوس] حتى رفع النوتيّه مجاذيفهم بالتحية، ولمّا قوبلوا بمثلها، انضموا الى [اوكتافيوس] برمتهم. وتقدم الاسطولان المتحدان نحو المدينة رأساً. وما ان شاهد [انطوني] هذا حتى وجد الخيالة تتخلّى عنه الى [اوكتافيوس]، وأخيراً عندما منيت مشاته بالهزيمة، انسحب الى المدينة وهو يصيح بنوبة غضب اجتاحته: ان [كليوپاترا] خانته وسلمته الى الرجل الذي قاتله لأجلها. فأدرك الرعب الملكة وخشيت من عمل يقدم عليه وهو في غمرة يأسه وحنقه، فهربت الى ضريحها وانزلت الابواب المعلّقة، المصفحة بالقضبان والمزاليج. ثم ارسلت تخبر [انطوني] بأنها باتت في عداد الموتى. فلم يداخله شكّ في ذلك، وانثنى يقول لنفسه:

– لماذا التأخير اذن يا انطوني؟ ان القدر قد انتزع منك العذر الوحيد الذي كان يجعلك ترغب في المزيد من الحياة.

ثم دخل غرفته. ونزع عنه دروعه وألقى بقطعها جانباً وهتف يقول:

– لم يؤلمني فقدك يا كليوپاترا، فعما قريب سأكون معك. الاّ ان الخجل يغمرني، حين أكون انا الامبراطور ذا الشهرة المعروفة أقل شجاعةً من امرأة في النهاية.

وكان [لأنطوني] خادم مخلص يدعى [ايروس Eros]، حمله منذ مدةٍ على ان يقسم له بأن يتولى القضاء عليه عندما تدعو الحاجة. فأمره ان بقي بوعده فانتضى [ايروس] وسيفه واشهره كأنه يريد طعن سيدهُ الاّ انه وجهه الى نفسه فجأةً، وعندما سقط عند قدمي سيده هتف انطوني:

(٨٢) هناك اسطورة مشهورة تقول ان الآلهة تتخلّى عن المدينة التي حان أجلها قبل سقوطها.

- أحسنت يا ايروس. لقد هديت سيدك الى ما ينبغي عمله، وان لم يطاوعك قلبك على ان تفعل ذلك بنفسك.

قال هذا واغمد سيفه في بطنه وسقط على الفراش. الاّ ان الجرح لم يقضِ عليه لساعته، وفجأة انقطع النزف وهو مستلق وعاد اليه وعيه واخذ يتوسل بالحاضرين ان يضعوا حداً لآلامه الاّ انهم هرولوا خارجاً وتركوه يتلوى من فرط العذاب ويصرخ مستنجداً، حتى أقبل أمين سرّ [كليوپاترا]، المدعو [ديوميدس] لينقله الى ضريحها بناء على اوامر منها.

عندما علم انها حيّة أمر عبيده ان يعجلوا بدفعه وحمله على اذرعتهم حتى باب الضريح. لكن [كليوپاترا] لم تسمح بفتحه، وانما نظرت من كوة صغيرة مرتفعة، وادلت باوتار وحبالٍ الى الأرض. فشد العبيد [انطوني] اليها، وراحت [كليوپاترا] وخادمتاها الوحيدتان الباقيتان معها، تسحبانه الى الأعلى. وذكر الحاضرون، انه لم يكن ثم منظر ادعى الى الأسى والرثاء مثل ذاك المنظر: [انطوني] وقد صبغته دماؤه، والروح تحشرج في صدره، يسحب الى الأعلى ماداً اليها يديه، ورافعا جسده بما بقي فيه من قوى!

لم يكن سحبه بالعمل السهل بالنسبة الى ثلاث نساء، كانت [كليوپاترا] تتشبث بالحبال بكلّ قواها وقد اسندت رأسها الى الأرض استجماعاً لقواها، الى ان أفلحت في جرّه والحاضرون يلقون اليها بكلمات التشجيع، ويشاركونها المجهود والقلق. بعد ان تم رفعه، القته على السرير ومزقت عن جسمها رداءها والقته عليه وأخذت تضرب صدرها حتى أدمته ولطخت وجهها بالدماء التي أخذت تسيل من جرحه وراحت تناديه وتندبه وتسميه مولاها وزوجها وامبراطورها. ونسيت شقاءها ومحنتها في تفجعها عليه. فأخذ [انطوني] يهدىء من آلامها وطلب خمراً اما لعطش شعر به أو أملاً في ان يعجل به موته. بعد ان شربه طفق ينصحها بأن تعمل لأجل ضمان سلامتها شريطة ان لايمس ذلك بكرامتها وشرفها وأشار عليها بالاعتماد على [پروكوليوس Proculius] من دون سائر اصدقاء [اوكتاڤيوس]. وأخيراً رجا منها ان لاتتألم لسوء الحظ الذي لقيه والاحرى بها ان تفرح باستنكار الامجاد التي نالها وان تتذكر بأنه وصل الى أعلى درجة من الشهرة والسؤدد نالهما انسان ولذلك فليس عاراً عليه ان يموت رومانياً، غلبه روماني.

ما كاد [انطوني] يسلم روحه حتى وصل [پروكيوليوس] مرسلاً من لدن [اوكتاڤيوس قيصر]. بعد ان [طعن انطوني] نفسه وفي اثناء حمله الى كليوپاترا جريحاً، أختطف [درچيتايوس Dercetaeus] وهو احد افراد حرسه الشخصي، سيفه وأخفاه ثم تسلل من القصر واسرع الى [اوكتاڤيوس] وكان اول من ابلغه بنبأ موت [انطوني] وابرز له السيف

الملطخ بالدماء، وبعد ان سمع [اوكتافيوس] اقواله، انسحب الى خيمته وبكى. كان [انطوني] صهره، وكان فضلاً عن ذلك زميله في المنصب، وشريكه في كثير من الأعمال والمعارك. ثم جمع اصدقاءه وأخرج الرسائل التي تبادلاها واخذ يقرأها عليهم، ليسمعوا وليروا كيف كان اعتدال لهجته ولطفه، وكيف كان [انطوني] فظًا ساخراً في ردوده كلها. وبعد هذا بعث پروكيوليوس بأوامر تقضي أن يبذل كل مجهود ممكن ليقبض على [كليوپاترا] حيةً اذ كان يخشى - كما ذكرتُ - أن تحرق الملكة كنوزها. كما وجد أن حضورها في موكب نصره بروما، لن يكون شيئاً بسيطاً في اعلاء مجده. ورفضت [كليوپاترا] تسليم نفسها [لپركيوليوس] الا أنها رضيت بالتحدث اليه عندما وقف امام احد ابواب الضريح على مستوى الأرض. كان هذا الباب منيعاً محكم الصنع ولكن الكلام عبره مسموعاً. وتحدثا فيما بينما وطلبت [كليوپاترا] أن يحتفظ اولادها بملك مصر. في حين أكد لها پروكيوليوس حسن نوايا [اوكتافيوس قيصر] وان لاتخشى منه شيئاً ولا تفقد الامل.

وكان [پروكيوليوس] اثناء ذلك يدرس الضريح دراسة دقيقة، وعندما عاد ابلغ [اوكتافيوس] بالنتيجة، أرسل غاللوس(٨٣)، في مقابلة أخرى لها. وسار هذا حتى وصل الى الباب واشغلها في الحديث في حين اسند [پروكيوليوس] سلماً الى الكوة التي كان انطوني قد أصعد منها. فارتقاه مع خادمين ونزلوا الى الضريح وتقدموا حيث كانت [كليوپاترا] واقفة وذهنها منصرف الى مخاطبة [غاللوس] ولمحتهم الوصيفة فصاحت بأعلى صوتها:

- ما اشقاك يا كليوپاترا! لقد امسكوا بك!

فدارت على نفسها واذا بها أمام [پروكيوليوس]. فاستلت خنجراً مما يستعمله اللصوص من حزامها وهمت باغماده في صدرها الا أن [پروكيوليوس] حال دون ذلك وكانت يداه اسرع منها فامسكها وهو يقول:

- انك يا كليوپاترا تظلمين نفسك وتظلمين [قيصر] لاتضيعي عليه فرصة اظهار كرمه تجاهك. انه الطف وارق القادة الا انك تتصرفين كأن امامك عدواً غاشماً لايحترم كلمة الشرف.

في الوقت نفسه انتزع منها الخنجر ونفض ثوبها لئلا تكون قد أخفت سما في طياته. وكذلك أرسل [اوكتافيوس] عتيقة [ايپافروديتس Epaphroditus] اليها واوصاه أن يتوخى تكريمها ومعاملتها باحترام، وان يتخذ أشد التدابير للمحافظة على حياتها.

---

(٨٣) روماني من طبقة الفرسان. كان قائداً للقوات التي زحفت على مصر من ليبيا. قلّد فيما بعد منصب حاكم مصر وكان صديقاً للشاعر فرجيل الذي قدم له الإكلوج القصيد العاشر Eclogue.

ودخل [اوكتافيوس] الاسكندرية وقد وضع يده بيد الفيلسوف [اريوس Areius] وسارا وهما يتحدثان. ليزيد في مقام الفيلسوف في أعين الاسكندرانيين ويجعله محترماً، للتكريم الفريد الذي خصه به هذا العاهل. وعندما دخل الملعب الرياضي الأهلي وصعد المنصة التي أقيمت له. وكان الرعب قد ملك على الناس مذاهبم وخروا على اوجههم امامه الاّ انه طلب منهم الوقوف وأعلن انه لاينوي وضع اللوم على مدينتهم أولاً لأن الاسكندر بانيها. وثانياً لأنه هو نفسه معجب بجمالها وسعتها. وثالثاً احتراماً منه لآريوس. وكان هذا تشريفاً خاصاً للفيلسوف. وبناء على رجائه اصدر [اوكتافيوس] العفو عن عددٍ من الاشخاص ومنهم [فيلوستراتوس Philostratus] وهو خطيب مرتجل، لايبزه احد من سوفسطائيي Saphist زمانه. ولسوء الحظّ ادعى زوراً انه فيلسوف أكاديميّ.

ولهذا السبب رفض [اوكتافيوس] الذي كان يشمئز من كل أسلوب حياته – ان يعفو عنه. فأرسل [فيلوستراتوس] لحيته البيضاء، وارتدى ثياباً سوداء وسار خلف [آريوس] وهو يردد بلا انقطاع البيت التالي:

على العاقل ان كان عاقلاً حقاً – ان ينقذ العاقل

ولما سمع [اوكتافيوس] ذلك صفح عنه، وان كان أكثر اهتماماً بتجنيب [آريوس] الإحراج، من تبديد مخاوف [فيلوستراتوس].

واما عن اولاد [انطوني]، فقد وشى بانتيللوس ابن فولفيا، معلمٌ له يدعى [ثيودورس] فقتل، وبينما كان الجنود يحتزون رأسه، أختلس هذا المعلم الواشي جوهرة ثمينة كانت تحيط بعنقه، واخفاها في جيبه ثم انكر ذلك ولكن سرقته كشفت وصُلب. ووضع اولاده من كليوپاترا هم وخدمهم تحت الحراسة. الاّ انهم عوملوا معاملة طيبة. على ان [قيصاريون] الذي قيل انه ابن [يوليوس قيصر] ارسلته امه مع أموالٍ كثيرة في رحلة الهند عن الطريق ايثيوبيا. ولم يمضِ كثيراً في سفرته فقد اقنعه معلمه رودون Rhodon، وهو على عين شاكلة ثيودورس، بأن [اوكتافيوس] سيجعله ملكاً على مصر وحمله على العودة وقيل ان [اوكتافيوس] كان يقلب وجوه النظر في الموقف الذي يحسن به اتخاذه ازاءه، حين أخذ [آريوس] يترنم بشعر اوديسيوس Odysseus المشهور من الالياذة محوّراً فيه بما يناسب المقام.

ليس اسوء من أن يوجد «قياصرة» كثيرون[٨٤]...

---

(٨٤) الالياذة ١١:٢٠٤. لما كان اديسيوس يحاول ان يحلّ النظام والتفاهم في الجيش الاغريقي قال: ليس اسوء من ان يوجد حكامٌ كثيرون.

وبعد موت [كليوباترا] عمل [اوكتافيوس] بنصيحة [آريوس]، فأهلكه واما عن [انطوني] فقد طلب عدد من الملوك والقادة (جسده) ليقوموا بمراسيم دفنه، الاّ انه لم يحرم [كليوباترا] منه ودفنته هي دفنة ملكية امتازت بفخامتها وروعتها. وزوّدت بكلّ ما أقتضى لهذا الغرض. واصطلح عليها الحزن والألم الذي كابدته – اذ اصاب ثدييها ورم وكدمات من شدة اللّطم – تقبلت بكلّ سرور المرض الذي انتابها واتخذته ذريعة لرفض الطعام، ليريحها من عبء الحياة بدون اللجوء الى وسيلة أخرى. وكان أحد رجالها الموثوقين طبيباً يدعى [اولمپس Olympus] فأنهت اليه بعزمها هذا واعتمدت على مساعدته ومشورته لتحقيق وفاتها، وقد ايد ذلك في ما دونه من تاريخ لهذه الاحداث، نشره فيما بعد. في اثناء ذلك أخذ الشكّ يساور [اوكتافيوس] فراح يخيفها بمصير اولادها، وباستخدامه هذه الضغوط بنفس الطريقة التي يستخدم القائد آلات الحصار ارغمها على التخليّ عن قصدها وسحق مقاومتها، فعادت تسمح لجسمها بالمعالجة والغذاء كما رغب [اوكتافيوس].

وبعد ايام، ذهب لزيارتها والتحدث معها وحاول اطمئنانها كانت قد عافت حياة الترف التي اعتادتها، وأختارت البساطة، فوجدها مستلقيه على حشيةٍ من القش وليس عليها غير رداء من الكتان، وما رأته حتى نهضت والقت بنفسها تحت قدميه كان شعرها اشعث وسحنتها منقلبة وعيناها غائرتين في مقليتهما، وصوتها راعش لا سبيل لها الى السيطرة عليه، وعلى صدرها آثار اللطم الشديد الذي احدثته يداها، وعلى العموم بدأ جسمها يكابد من الألم مالايقل عن الآلام التي اصابت روحها. ومع ذلك فإن سحرها، وثقتها الطائشة في جمالها، ظلت جذوتها متقدةً فيها. وكانا يشعان منها ويضيئان في تبدل سحنتها، وتقلب احوالها، رغم احوالها ورغم مظاهر الألم والأسى. وعلى اية حال بعد ان طلب منها [اوكتافيوس] ان تستلقي وجلس بالقرب منها، حاولت في مبدء الأمر تبرير مشاركتها في الحرب وعزت ذلك الى الضرورة والإرغام والخوف من [انطوني] وعندما كان [اوكتافيوس] يعارضها في كل نقطةٍ ويفحمها ويبطل حجتها، أسرعت بتغيير موقفها وبدأت لتضرع اليه وتطلب ان يرق لحالها بمختلف التوسلات والرجاء. كأنها لاتهتم بشيء غير سلامة حياتها. وأخيراً سلمته ورقةً، كتبت فيها تفاصيل كاملة عن أموالها ومقتناها، حسب زعمها. ولكن عندما اوضح [سلوقوس] أحد وكلائها بأنها لم تدرج في القائمة كل ما تملكه وانها أخفت عنه اشياءً، انتصبت على قدميها وامسكته من شعره وأخذ تلطمه على وجهه، فضحك [اوكتافيوس] للمشهد، وأخيراً هدأ من ثائرتها فقالت:

– أليس من المزعج جداً يا قيصر أن يتهمني واحدٌ من خدمي باخفاء بعض الحلي واللعب

النسوية في محضر منك عندما شرفتني بالزيارة والتبسط معي في الحديث وأنا في اتعس حال! اني لم احتفظ بها لنفسي الشقيّة بل لأقدمها هدايا صغيرة منيّ [لاوكتاڤيا] ولزوجك [ليڤيا]. فبشفاعتهما اؤمل أن أجدك أرحم وأكثر عطفاً عليّ.

وسرّ [اوكتاڤيوس] بكلامها هذا لأنه أكد له رغبتها في الحياة. فقال لها أنه سيقبل بكل شيء تسويّه على هذا الأساس وفق رغبتها. على ان أهم من كل هذا هو انه أعتزم معاملتها باكرام قد لاتتوقعه. ثم انصرف وهو واثق بأنه افلح في خداعها، لكنه كان في الواقع هو المخدوع.

كان من رفاق [اوكتاڤيوس]، شاب من طبقة الأشراف نبيل الخلق يدعى [كورنيليوس دوللابلا](٨٥). يكنّ لكليوپاترا حُبّاً، وقد اخضعته لسحرها. أفلح هذا الشاب في ابلاغها سراً - عند الحاحها عليه - بأن [اوكتاڤيوس] ازمع الرحيل الى سورية على رأس جيشه وقرر أن يرسلها هي واولادها الى روما قبله وسيتم ذلك في غضون ثلاثة ايام. وعند سمعت الملكة بهذا كان أول عمل لها ان طلبت من [اوكتاڤيوس] السماح لها بسكب القربان الأخير لأنطوني، وعندما اجيز لها ذلك امرت بحملها الى القبر ترافقها النسوة اللاتي اعتدن ان يكنّ معها. وهناك امسكت بالإناء الذي يحوي رماده وقالت:

- يا حبيبي انطوني. منذ مدة قصيرة دفنتك بيدي هاتين، وكانتا حرتين، امّا الآن وقد جئت لاسكب لك قرباناً، فانا اسيرة يحيط بي الحراس واراقب لئلا اشوه جسمي هذا بالضرب عليه أو حتى بالبكاء عليك. لقد اصبح جسم أمةٍ رقيقةٍ وهم يحرسونه ليكون زينة للنصر الذي حققوه عليك. والآن وبعد هذا لاتتوقع اي قربان يقدم لك، هذا آخر تكريم تأتي به لك كليوپاترا الأسيرة لأنها ستؤخذ عنك بعيداً. فمع انه لم يكن يفرقنا مفرق في حياتنا. لكن يبدو ان الموت سيرغمنا على تغيير مستقرنا انت الروماني المولد وجدت قبرك في مصر، وانا المصرية التاعسة سأحصل من بلادك على المقدار الذي يكفي لأثوي في ايطاليا. لقد خانتني آلهتي وخذلتني، فاذا وجدت اي عون أو حولٍ في آلهة روما، فكلّ رجائي منها ان لاتترك زوجك طالما هي صبية وان لايدعوها تسير فيَ موكب نصر يجللك بالعار. أخفني ودعني وأدفن معك، فلقد ادركت الآن ان آلاف الاحزان التي كابدتها هي لاشيء امام الأيام القلائل التي عشتها بعيدة عنك.

بهذا ناجت [كليوپاترا] انطوني، وبكته. ثم توجت الاناء الذي يحوي رفاته باكليل زهر وقبلته. ثم أمرت بتهيئة حمام، وبعد ان اغتسلت استلقت، وامرت بطعامٍ فاخرٍ. وجاءها قرويّ

(٨٥) هو ابن دوللابلا السياسي الذي ورد ذكره في سيرة يوليوس قيصر.

مصريٍّ بسلةٍ صغيرة فاعترضه الحرس وسألوه عما تحويه فرفع القروي الاغصان التي تغطيها عن تين كبير الحجم آثار دهشتهم. فضحك القروي ودعاهم اليه، فأبوا الاّ ان شكهم زال فسمحوا له بأخذ الثمر الى الملكة.

بعد ان تناولت [كليوباترا] طعامها كتبت رسالة [لأوكتافيوس] على لوحٍ ومهرتها بختمها وارسلتها اليه. وبعد هذا صرفت كل اتباعها الاّ وصيفتيها المخلصتين وأغلقت ابواب الضريح.

وفضّ [اوكتافيوس قيصر] اللوح وما أن قرأ رجاء [كليوباترا] بأن تدفن مع [انطوني] حتى ادرك ما تنويه. واراد هو ان يذهب بنفسه لانقاذها الاّ انه ضبط ارادته وارسل رسلاً يستطلعون جلية الأمر. الاّ ان المأساة سبقتهم وكانت اسرع منهم. اندفع الرسل الى الداخل الضريح فوجدوا الحرس يجهلون كل شيء. وعندما فتحوا الأبواب وجدوا [كليوباترا] مستلقية على سرير من الذهب وهي مرتدية ثيابها الملكية، وتحت قدميها [ايريس] احدى وصيفاتها تعالج سكرات الموت. و[شارميون] الوصيفة الثانية كانت تترنح ولاتقوى على رفع رأسها، منهمكة في اصلاح التاج الذي يحيط بجبين سيدتها. وعندها صاح احد الحراس غاضباً:

- شارميون أهذا عمل لائق؟

فأجابته: لائق، وجدير باميرة انحدرت من صلب هذا العدد الكبير من الملوك.

وما ان أكملت عبارتها حتى سقطت ميتة عند اقدام السرير.

واستناداً الى احدى الروايات أنّ الصلّ حمل اليها مع التين وكان مخبأ تحت الاوراق في السلة. لأن كليوباترا قد أعطت اوامر بأن يستقر الثعبان على جسمها قبل ان تعلم به ولكن عندما رفعت بعض التينات لمحته وقالت:

- اذن فهذا هو.

وتمضي الرواية فتقول، انها كشفت عن ذراعها ومدتها اليه فلدغها.

ويقول آخرون أنه كان محفوظاً في ابريق محكم السدّ. وان كليوباترا، اهاجته بوخزه بدبوس ذهبيٍّ، شبّ عليها وانشب نابه في ذراعها. الاّ ان الحقيقة ظلّت سراً لايعلم به أحدٌ فهناك رواية أخرى تفيد انها أخفت سُمّاً في دبوس شعرٍ مجوفٍ أخفته بلف خصلات شعرها عليه. ومع هذا لم يعثر في جسمها على خدش او كدمة او بقعة أو اي اعراض للتسمم، ولم يشاهد الصلّ في الضريح، الا انه لوحظ شيء شبيه بمسحاله فوق الرمل القريب من الجهة المواجهة للبحر من الغرفة. ويقول بعض الناس ايضاً انه وجد أثر نابين مغروزين في ذراع كليوباترا يكادان لايظهران للعين. ويبدو ان [اكتافيوس قيصر] نفسه أخذ بهذا التعليل، حيث سيّر في

موكب نصره تمثالاً لكليوپاترا وقد تعلق بها صِلّ. تلك هي مختلف الروايات عن مصرعها.

كان غيظ [اكتاڤيوس] لموت [كليوپاترا] شديداً. ومع ذلك لم يسعه الاّ الاعجاب بنبل روحها. وامر بان تدفن الى جوار انطوني بكلّ مظاهر الملك وابهته كما شيعت وصيفتاها بكلّ اكرام. ماتت [كليوپاترا] ولها من العمر تسعة وثلاثون عاماً. وحكمت اثنتين وعشرين سنة، وشاركت انطوني امبراطوريته في اربعة عشر عاماً[٨٦] من هذه المدة. وكان [لانطوني] يوم موته ثلاث وخمسون سنة من العمر في رواية، وستّ خمسون في رواية أخرى[٨٧]. وحطمت تماثيله كلها. ولكن سمح بالابقاء على تماثيل كليوپاترا منصوبة لأن [ارخيبيوس Archibius] أحد اصدقائها دفع لاكتاڤيوس ألفي تالنت لانقاذها من مصير تماثيل [انطوني].

ترك [انطوني] سبعة اولاد. منهم بكره [انتيللوس] الذي قتله [اكتاڤيوس]. وأخذت [أوكتاڤيا] البقية الى منزلتها وربتهم مع اسرتها. ودبرت زواج بنت [كليوپاترا] التي سميت بنفس الأسم، بـ[جوبا] ملك النوميديين، اوسع حكام عصره فكراً ومواهب. ووصلت [انطوني] وهو احد اولاد [فولڤيا] باكتاڤيوس فبلغ ارفع منزلة عنده، ففي الوقت الذي كان [اغريبّا] يتمتع بمنزلة الشرف الأولى عنده واولاد [ليڤيا] بالمنزلة الثانية، كان [انطوني] الأبن يتمتع بالمنزلة الثالثة حسب التقدير العام ولم يكن هذا التقدير يتعدى الحقيقة.

كان لاوكتاڤيا من [مارچللوس] زوجها الأول، بنتان وابن واحدٌ اسمه [مارچللوس]. هذا الولد تبناه [اوكتاڤيوس] وزوجه بنته. كما زوجّت اوكتاڤيا احدى بناتها من [اغريبّا]. الاّ ان [مارچللوس] اعتبط عقب زواجه مباشرةً. وادركت الحيرة اكتاڤيوس فيمن يجعل له صهراً مرثوقاً. فأشارت عليه اوكتاڤيا بأن يحمل [اغريپا] على تطليق ابنتها وان يتزوج بابنته [يوليا]. بالأول اقنعت [اكتاڤيوس]، وبعدها جملت [اغريپا] على الرضا بهذا التدبير فتم زواج [اغريپا] بـ[يوليا]، وزوجت بنتها المطلقة من [انطوني] الأبن.

اما ابنتا [اوكتاڤيا] من [انطوني]، فأولهما [أغريپينا]، تزوجت من [دوميسيوس آينو باربوس][٨٨]. وثانيتهما [انطونيا] التي اشتهرت بفرط جمالها وذكائها فقد تزوجت [دروسوس] الذي ملك فيما بعد. ومن اولاد [يرمانيكوس] حكم [كايوس] أفضل حكم وقتل هو وزوجه وولده. وبعد ان حملت [اغريپينا] لزوجها وولدت له [لوچيوس دوميتيوس].

(٨٦) يصعب جداً فهم الرقم. فالمقابلة الشهيرة في تدنوس حصلت في ٤١ ق.م اي بعد عشرين سنوات من [اكسيوم] تقريباً.

(٨٧) ولد انطوني في ١٤ كانون الثاني عام ٨٢ أو ٨١ ق.م. ولذلك مات وهو في الثانية والخمسين أو الثالثة والخمسين.

(٨٨) ابن صديق [انطوني] الذي تخلّى عنه عشية معركة [اكسيوم].

تزوجت [كلوديوس قيصر] الذي تبنّى [لوچيوس] هذا وسمّاه [نيرون يرمانيكوس] فكان امبراطوراً في زماننا هذا. فقتل امّه، وكاد بجنونه وحمقه يصل بالامبراطورية الرومانية الى شفا الخراب. وهو السليل الخامس لأنطوني[٨٩].

١٩٧٢/٢/١٧



تمثال من المرمر لنيرون

(٨٩) وهكذا يستر النزاع بين اوكتافيوس وانطوني بشكلٍ ما، الى نهاية حكم نيرون (٦٨م) عندما يحمى تماماً في سنة الاباطرة الاربعة، بيوت كل من يوليان وكلوديان وانطونيان.

أوجه المقارنة بين ديمتريوس وانطوني

كلاهما كان اروع مثل يضرب لتقلبات الحظّ. وعلينا الآن ان نجد سبيلنا الى الوسائل التي استخدماها للوصول الى السلطة. ورث [ديمتريوس] مملكة كان قد ثبت له اركانهما [انتيغونس] أقوى خلفاء الاسكندر. فقد توغل بجيوشه في آسيا وأخضع معظم اجزائها قبل ان يبلغ ابنه ديمتريوس مبلغ الرجال. وكان والد [انطوني] رجلاً من الافاضل الاّ انه لم يكن محارباً ولا بوسعه ان يخلف لأبنه صيتاً ونفوذاً. الاّ ان ابنه لم يكن يعوزه الإقدام للوصول الى دست الحكم، فهو لم يبلغه بفضل ميلاده كما بلغه [اوكتاڤيوس]. لذلك يمكن القول انه اصبح وارث مجهوداته الخاصّة العظمى وهو مدين لها فحسب. ولما جرى اقتسام الامبراطورية استأثر بالجزء الأفضل. ودحر الپارثيين وهزم قبائل القفقاس البربرية حتى بلغ بحر قزوين ولم يكن بحاجة الى ان يحضر بنفسه بل عن طريق معاونته ونوابه، الأمور التي اساءت الى سمعته هي التي تشهد بعظمته.

في حين نرى [انتيغونس] يعتبر تزويج ابنه [ديمتريوس] بـ[فيلا] بنت [انتيپاطر] رغم انها تكبره بكثير، زواجاً فيه مصلحة كبيرة لنجله. و[انطوني] عَدَّ زواجه من [كليوپاترا] منقصة وهي ملكة من اعظم الملوك سلطاناً وسؤدداً لايعلوها من ملوك عصرها الا ارشاق Arsaces وكان [انطوني] أعظم بكثير من ان يراه الآخرون. قمينا باشياء، أعلى مما وقفت عندها رغباته.

وامّا بخصوص اهدافهما في حكم امبراطورية، واحقيتهما فيها، فليس ثم ما يبرر لنا ان ننحي باللائمة على [ديمتريوس] لرغبته في حكم شعب تعود حكم الملوك. واما [انطوني] فقد عمل على استعباد الشعب الروماني ولم يكد يتحرر من حكم [قيصر] الفردي، فأتبع طريقة شائكة وسلك سبل الطغاة، حتى وصم أعظم عملٍ شخصي له وهي انتصاره على [بروتوس وكاسيوس] بوصمة عار، لأنه خاضها مستهدفاً سحق حريات ابناء وطنه وبلاده. في حين ظلَّ [ديمتريوس] حتى الأخير يدافع عن الحريات في بلاد الاغريق ويطرد الحاميات الاجنبية المحتلة

من مدنها. ولم يصده عن هذا معاندة الحظّ له، ووصوله الى الدرك الأسفل من البؤس. لم يكن كا نطوني الذي دأب على المفاخرة بأنه قضى في مقدونيا على أولئك الذين ارادوا اشاعة الحريات في روما.

أمّا السخاء الذي عرف به [انطوني] وعطاياه وهباته وهو اشهر ما فيه من فضائل، فان [ديمتريوس] بذّه فيها الى آخر حدّ. فما اعطاه هذا لاعدائه وخصومه، كان أكثر بكثير مما اعطاه ذاك لاصدقائه. وارتفع قدر [انطوني] عندما أمر بتكريم رفاق [بروتوس] الذي صرعوا اما [ديمتريوس] فكانت عادته ان يفعل هذا لجميع القتلى من اعدائه دون تفريق. بل رأيته كيف يعيد الأسرى الى [بطليموس] محملين بالمال والهدايا.

كلاهما كان يغرّه النجاح، ويخرجه عن طوره ويدفعه الى الارتماء في احضان الترف واللهو. ومع هذا ليس بوسعنا ان نعزو لديمتريوس، تهاونه عندما يدعو الداعي الى العمل بسبب انشغاله في عبثه ومجونه، فالملذات عنده، خادمة للفائض من الوقت. ومحظيته [لاميا]، الشبيهة بلاميا بطلة الأسطورة. كانت لساعات نصف اليقظة، وشبه الإغفاء ان جاز لنا القول. ولم يكن رمحه مزداناً باللبلاب ولاخوذته عبقة برائحة العطور عندما يدعوه داع الجدّ ويناديه منادي القتال. انه لايخرج للحرب من مخادع الناس، بل تراه يخمد الصياح الباخوسي، ويضع حداً للفجور. ويغدو «كاهن مارس اللاكهنوتي» على حدّ تعبير [يوريبدس]. وبمختصر القول ان الملذات والاسراف في اللهو لم تسبب له كارثة. في حين كان [انطوني] اشبه بصورة هرقل - حيث تُرى [أومفاله Omphale] تتناول منه دبوّسه، وتحلّ له جلد حقويه - فكثيراً ما كانت [كليوباترا] تتولى نزع سلاحه عنه، وتلهيه عن واجبه، فتفلت من يده فرصٌ كثيرة ومآثر ضخمة، يفضل عليها الذهاب الى [قينوب] و[تافوسيريس Tophosiris] ليعبثا ويلهوا ما شاء لهما العبث واللهو. أخيراً تراه يترك المعركة ويلحق بها ليرتمي في احضانها مثل [پاريس]، ولنستدرك هنا فنقول ان [پاريس] ذهب الى [هيلين] بعد ان خسر المعركة في حين ان [انطوني] ترك المعركة ليلحق بكليوپاترا، فضاع منه النصر.

لم يكن في ذلك الحين قانون يمنع [ديمتريوس] من الزواج بعدة نساءٍ فقد أصبح ذلك عادةً منذ عهد فيليب والاسكندر عند ملوك مقدونيا. وهو لم يفعل أكثر مما فعله [ليسيماخوس وبطليموس] اضف الى هذا انه عرف بحسن معاملته لكلٍّ من تزوجهن، بعكس [انطوني] فقد اقدم اولاً على عمل يأباه لنفسه اي روماني. اذ تزوج بامرأتين في آن واحدٍ، ثم طرد زوجه الرومانية ارضاء للاجنبية غير الشرعية. ولم يلحق تعدد الزوجات [بديمتريوس] اي ضررٍ في حين تسبب هذا دمار [انطوني]. الا ان فسوق [انطوني] لايمكن ان يتهم بالدنس والعقوق

الديني الذي يتسم به فسق [ديمتريوس] فالمؤرخون يحدثونا ان الكلاب كانت قد ابعدت على [الاكربوليس] بسبب نجاساتها في حين رأى [الپارثنون] نفسه [ديمتريوس] يعاشر الموسات ويضاجع العاهرات الاثينيات تحت سقفه. ويمكن ان نضيف الى هذه العيوب، القسوة التي تبدو في الظاهر بعيدة على دائرة الرغبات الحيوانية والشهوة. فقد تسبب [ديمتريوس] بازهاق او انه أزهق اجمل شباب الآثينيين وأكثرهم عفة وطهارة. هذا الشاب الذي لم يجد غير الموت سبيلاً للخلاص من فجوره الشرس وبمختصر القول: لقد عانى [انطوني] من فجوره. في حين ان الناس الآخرين عانوا من فجور [ديمتريوس].

وليس بالإمكان ان يوجه انتقاد الى [ديمتريوس] حول سلوكه العائلي. اما [انطوني] فقد سلمّ خاله للجلادين كيما يُسمح له بقتل [شيشرون] وتلك فعلة تنطوي بخدذاتها على وحشيةَ وفظاظة لايمكن اغتفارها له، حتى اذا كان موت [شيشرون] ثمن حياة خال.

وامّا بخصوص نقض [انطوني] عهوده، فقد يبرر قبضه على [ارطاباز] تبريراً معقولاً لاينكره عليه أحدٌ. فهذا الملك كان البادىء بالتخلي عنه وخيانته في ميديا. أما قتل [ديمتريوس]، لإكساندر فقد زعم الكثيرون انه تلمس للفتك به ذرائع لا أساس لها. ولم يكن قتله انتصافاً منه لنفسه لما اصابه من اذي، وانما هو ثأر لشخص آخر لحقه من الأذى.

ان الانتصارات التي حققها [ديمتريوس] كانت بفعله، في حين ان أعظم واروع انتصارات [انطوني] حققها نوابه ومساعدوه في غيابه. واما عن نهايتهما فمسؤوليتهما فيها واحدة الأ انها ليست متساويةً على اية حالٍ. فقد ترك [ديمتريوس] في الميدان وحيداً وثار عليه المقدونيون. اما انطوني فقد ترك الميدان وفرّ والرجال يقاتلون في سبيله باذلين ارواحهم. وكان الخطأ الذي ارتكبه اولهما، انه نفرّ منه جنوده ففقد حبهم. في حين ندين الآخر بتخليه عن الحبَ الشديد والاخلاص المتفاني وهما في حيازته. وموت كليهما لايثير عندنا اي اعجاب. الاّ ان موت [ديمتريوس] كان أحطّ وأخزى. فقد بقي في الأسر مختاراً. وشكر آسره لمده بثلاث سنين أخرى في حياته. وسمح لنفسه ان يروض مثل الوحش الكاسر، بالخمر والأكل. اما [انطوني] فقد قضى على حياته بأسلوب الجبان الرعديد الذي لايثير في النفس غير الرثاء على انه أقدم على ذلك في الوقت المناسب ليحول دون وقوع شخصه تحت رحمة العدوّ.




ديون
DION
409 ـ 354



إن كـان - اي [ســوسـيــوس ســينيكو] مـا قــاله لنا ســيـمـونيــدس بأن طروادة لاتشـكو من الكورنثيين

مساهمتهم مع الآخائيين في حصارها، لأن الكورنثيين كانوا يقاتلون ايضاً في صفوف الطروادين بشجاعة فـ(كلاوكـوس خرج من كورنث ايضاً)، فلنا ان نقول بكل اطمئنان ان الرومان والاغريق لايمكن أن يخاصما الأكاديمي. فكلّ امة منهما ممثلة فيها. كما تكشف عنه سيرتا بروتوس وديون التاليتين.

كان [ديون] أحد تلاميذ افلاطون. و[بروتوس] من معتنقي الافلاطونية والناشئين عليها. لقد نبغ كلاهما من ارومة هذه المدرسة، وسارا خفافاً على دربها ودرب الشرف والكرامة ولم يكن بعجيب وهما في سبيل اداء رسالتهما المتحدة المتشابهة. ان يؤكد صحة ما قاله معلمهما:

«ان الأعمال ذات الطابع العام لايمكن ان تحقق اهدافها الصحيحة والعظيمة والنبيلة الاّ اذا تعاونت القوة مع النجاح» وكما أكدّ مدرب المصارعة [هيبوماخوس Hippomachus] انه يسهل عليه تمييز تلاميذه من بعيد، وان كانوا يحملون اللحم من المجارز، فكذلك أولئك الذين نهلوا من الينبوع الثقافي نفسه تبدو مبادؤهم متطابقة وسلوكهم متشابهاً في أعمالهم كلها، وتخلق فيما بينهم انسجاماً وتوافقاً مستساغاً ولائقاً في الوقت نفسه.

ولنا ان نستنتج الشبه الشديد للرجلين من المصير الذي-آلا اليه، فقد جعلتهما الظروف شبيهين، اكثر مما جعلت اهدافهما متشابهة. إذ اخترمهما الموت وهما في عنفوان شبابهما ولم يتح لهما الوقت لانجاز تلك الاهداف خلال كثير من المصاعب والأهوال، واعجب ما في الأمر ان تدخلاً خارقاً للطبيعة انبأهما بقرب نهاية حياتهما، بظهور شبح غريب لهما. ومع انكار الكثير من الناس وجود شيء كهذا بقولهم:

لم ير انسان سويّ كامل الحواس شبحاً او رؤى فائقة للطبيعة، خلا الاطفال، والنساء المتعلقات بالأوهام والرجال الذين اثر المرضى في عقولهم أو جسومهم فتجسمت لهم الأخيلة،

وبالغوا في تصور الوهم حقيقةً واقعةً. في حين كانت الوساوس تعمل في انفسهم، بالتعاون مع جنيهِّم الشرير الكامن. ومع هذا فلو صعب على فيلسوفين وعقلين نابهين [كديون وبروتوس] ان يضللهما الخيال، ويشتتهما الخوف المفاجيء وان يكونا عرضة للتأثر المفاجيء بالرؤى حتى انهما لايترددان في الحديث عنها لاصدقائهما، فكيف يتسنّى لنا التهرب من الاقرار برأي الاقدمين المسفّه تماماً: وهو ان الشرّ والارواح الضالّة تدفعها الغيرة من افاضل البشر، والرغبة في عرقلة طيّب عملهم الى اثارة شعور الخوف والهلع في نفوسهم، فتهزهم وتجعلهم يعثرون وتحول بينهم وبين الحصول على حال اسعد من حال تلك المخلوقات بعد الموت، بالمثابرة والاستقامة. على اني سأترك هذه الأمور لفرصة أخرى. وفي هذا الكتاب وهو الثاني عشر من سير عظماء الرجال ومقارنتها. سابدأ بسيرة أكبرهما سِناً.

بعد ان استتب الأمر [الديونيسيوس] الأول بادر حالاً الى الزواج من بنت [هيرموقراطس Hermocratis] السيراقوسي. وفي اثناء الفتنة التي اشتعل نارها قبل ان يستقرّ الحكم بيد العاهل الجديد، أعتدي على شرف هذه المرأة بشكل بربري مشين لم يسعها معه الاّ انهاء حياتها بيدها خجلاً وعاراً. وعندما ثبت حكم [ديونيسيوس] ثانيةً تزوج بامرأتين في آن واحدٍ. اولاهما [دوريس] اللوكرية Locri، وثانيتهما [ارسطوماخه Aristimache] الصقليّة بنت [هيپارنيوس Hipparinus] وهو رجل من افاضل السيراقوسيين. كان زميلاً [لديونيسيوس] عند اختياره لأول مرة جنرالاً مطلق الصلاحية لغرض ادارة الحرب. وقيل ان ديونيسيوس تزوج بامرأتيه في يومٍ واحدٍ، كان [السيراقوسين] في الواقع متشددين في تفضيل نسائهم على الأجنبيات، فكأن القدر اراد تعويض [دوريس] عن اصلها الاجنبي فجعلها امّا لأبن، ووارث للأسرة. في حين بقيت [ارسطوماخه] عاقراً مدة طويلة، في حين كان [ديونيسيوس] يرغب جداً في الانجاب منها. واتهم امّ [دوريس] بأنها سقت [ارسطوماخه] عقاراً منعها من الحمل، وامر بها فقتلت.

ووجد [ديون] شقيق [ارسطوماخه] حفاوة وتكريماً بسبب اخته. الاّ انه مواهبه وكفاءاته ما لبثت ان آمنت له محبة صهره، وقربته منه كثيراً، ومما شرفه به انه اصدر أمراً لمدير خزائنه بأن يعطي [ديون] اي مبلغ يطلبه على ان يخبره في اليوم نفسه كم دفع له وعرف [ديون] بالتعالي والخيلاء، ونبل الضمير والشجاعة الفائقة. الاّ ان هذه السجايا العالية زادت تهذيباً وتسامياً بعامل الحظّ السعيد الذي هدى [افلاطون] الى زيارة صقلية من تلقاء نفسه، من دون ان يدعوه احدٌ، او يتوقعه بشرٌ. قوة فائقة للطبيعة قضت ان يكون هذا الحدث عاملاً في استعادة صقلية حرياتها السليبة وقلب نظام الحكم المستبد. فقذفت بالفيلسوف من ايطاليا

الى سيراقوسة وربطت ما بينه وبين [ديون] بأواصر صداقة دائمة. كان [ديون] انذاك فتىً صغير السن، الاّ انه كان أسرع تعلماً واوسع استيعاباً واحضر بديهة واشوق الى الممارسة الفعلية لدروس الفضيلة من سائر التلاميذ الذين استمعوا لأفلاطون بشهادة الفيلسوف نفسه وبالبرهان الساطع الذي اثبتة افعاله. فمع انه نشأ في بيئة يسودها الطغيان، وآيته الذلة والخنوع، ومع تعوده حياةً هي من ناحية عبودية وذلّ، ومن ناحية ترف سجح، سعادة زائفة لشعب لايرى امامه سبيلاً أفضل من الإنغماس في الملذات واللهو. الاّ انه ذاق اول طعم للحكمة والفلسفة اللتين تتوخيان سيادة الفضيلة، فشبت النار في روحه شبوباً. واستنتج من حالته هذه، بسذاجة الشباب، ان التغيير نفسه قد يحصل لديونيسيوس فراح يعمل جهده لحمله على الاستماع الى [افلاطون] حتى نجح، وأخذ [ديونيسيوس] يحضر دروسه في اوقات فراغه، وكان موضوع الدراسة في ذلك الوقت. الفضيلة الانسانية. وكانوا يتناظرون بصورة خاصة حول ضبط النفس، وقد برهن [افلاطون] ان الطغاة هم أقلّ الناس حظاً منه دون سائر الناس. ومنها انطلق لمعالجة موضوع العدالة. فأكد حالة السعادة التي يرفل فيها الحكم العادل. والبؤس الذي يعانيه الظالم. وهو الجدل الذي لقى اذنا صماء من [ديونيسيوس] على انه شعر بضعف حجته وبأنه مدان، وساءه كثيراً ان يجد بقية المستمعين ممتلئين اعجاباً بالمتكلم، مأخوذين بقوة حجته. أخيراً ضاق ذرعه، وبلغت روحه التراقي فسأل الفيلسوف والغضب يعصف به:

- ما الذي جاء بك الى صقلية؟

فقال افلاطون: جئت ابحث عن رجل فاضل.

فقال ديونيسيوس: الظاهر ان جهودك ضاعت سدى.

وظنّ [ديون] أن هذا كلّ ما اراد [ديونيسيوس] قوله، ولن يخرج على الحدّ. وطلب [افلاطون] ان يتدبر امر رحيله فأصعده سفينة متوجهة الى اليونان كان فيها [بولليس Pol-lis] السپارطي، فأتصل [ديونيسيوس] بهذا الرجل سراً واتفق معه ان يفتك [بافلاطون] باية وسيلة يراها. وان عزّ عليه ذلك فأن يبيعه عبداً. ولم يكن هذا ليضر افلاطون طبعاً. اذ سيبقى ذلك الرجل العادل وسيتمتع بالسعادة المتأتية منه وان فقد حريته، وتمضي الرواية فتذكر ان [بوليّس] أقلع بافلاطون، حتى [ايجينا] وهناك باعه. وكان [الايجينيون] اذ ذاك في حرب مع آثينا وقد اصدروا مرسوماً يقضي بأن يعرض للبيع في سوق النخاسة، كلّ آثيني يقبض عليه في سواحلهم. على ان منزلة [ديون] عند [ديونيسيوس] لم تقلّ مع ذلك، بل ظلّ تقديره له كما كان واوكل به اخطر المهام وارسله الى قرطاجنة في سفارات هامّة، فطارت شهرته

وارتفعت سمعته. وكان العاهل المستبد، فضلاً عن ذلك يسمح له بحرية مطلقة في الكلام، بصراحة ودون رجلٍ. وكان في هذا المجال الوحيد بين اصدقائه. ومن ذلك انه أنبه في قضية [غيلون Gelon] الذي كان [ديونيسيوس] من حكمه ويقول عنه انه مضحكة صقلية، ولما أظهر السامعون اعجابهم بهذا التهرّب واستحسانهم له اجاب [ديون] بكثيرٍ من الحزم.

- على اية حال، انت الحاكم المطلق هنا، لأنك استؤمنت ووضعت به الثقة اكراماً لغيلون. ولكن من الآن فصاعداً لم تعد الثقة ممكنة باي رجلٍ اكراماً لك.

ذلك لأن [غيلون] مارس الحكم الملكي بشكل جعله يبدو افضل نظام حكم في حين جعله [ديونيسيوس] في نظر الناس اسوء حكم. انجبت دوريس لديونيسيوس ثلاثة اولاد وانجبت له [ارسطوماخه] اربعة منهم بنتان وهما [سوفروزينة Sophrosyne] و[أريته Areta]، فزوج [سوفروزينة] من ابنة اخيها [ديونيسيوس] وزوج الثانية اخاه الذي هو عمها - [ثياريدس] وتوفي هذا، تزوجها [ديون].

وسقط [ديونيسيوس] مريضاً وبعد فترة حضرته الوفاة، وحاول ديون جهده ان يكلمه بخصوص اولاده من [ارسطوماخه] الاّ ان اطباءه لم يسمحوا له. وكانوا بهذا يريدون نيل حظوة عند خليفته. قال [طيماؤس] ان ولي عهده سقاه جرعة منومة ارادها. فأحدثت غيبوبة لم يفق منها.

وفي مجلس الشورى الذي عقده [ديونيسيوس] الأبن من اصدقائه، أجاد [ديون] في شرح الوضع الراهن. وبدا الحاضرون كلهم امامه اطفال سياسةٍ، كما ظهروا في تصويتهم عبيداً أكثر منهم مستشارين فقد وافقوا على كل ما يبهج الشاب ويرضيه جبناً منهم ومكراً دون ان يكترثوا بما هو صالح له. واصابهم [ديون] برعبٍ شديد عندما ادلى بالاقتراح الخاص بكيفية اجتناب الخطر المحدق جراء حربٍ محتملة مع القرطاجيين. فقد وضع رأيه بالصورة التالية:

«ان شاء [ديونيسيوس] سلاماً فعليه ان يبحر فوراً الى افريقيا ويبرمه هناك بشروط شريفة. اما اذا فضل الحرب فعليه ان يبني ويجهز على حسابه الخاص خمسين سفينة حربية لهذا الغرض».

واعجب [ديونيسيوس] كثيراً بفكرته النيرة واشاعت الارتياح في نفسه. الاّ ان افراد البطانة اعتبروا رضاه هذا مضراً بهم وداخلهم الحسد من منزلته التي ستخفض من مكانتهم. فأخذوا منذ ذلك الحين يتحينون الفرص ليوقعوا بين [ديونيسيوس] وبينه عن طريق الإفتراء والتشهير به. فصوروا للعاهل بأنه يريد استخدام قوته في البحر والاستعانة بها لقلب نظام

الحكم ونقل السلطة الى اولاد اخته [ارسطوماخه]. على ان اظهر واقوى اسباب الجفاء والتباغض كانت تكمن في اختلاف امزجتهما، ومشاربهما من الاول كما كانت تعزى الى انطوائية [ديون] وتحفظه؛ مقابل الزلفى والوسائل الرخيصة التي استخدمها الآخرون منذ البداية لنيل رضى الأمير والتقرب منه وهو الشاب الذي فتح عينيه على الشهوات. وكانوا يسهلون له ملذاته، ويجتهدون في ايجاد علاقة غرامية جديدة له كل يوم واغرائهم اياه بمعاقرة الخمر ومجالسة النساء وغير ذلك من طرق الفساد، وبدأ الاستبداد للرغبة بهذه المظاهر - كالحديد الذي يلين في النار، ووجدوه أكثر اعتدالاً وسماحةً؛ واقل صرامة وشدةً، لقد فلّ من غُراب الطغيان تراخي العاهل وتفسخه لا رحمته وعدله. وكان هذا التفسخ يزداد ويتمكن منه يوماً بعد يوم فانكسرت «تلك السلاسل المتينة» التي جعلت الملكية محكمة الشدّ امينة، على حدّ تعبير ابيه. وروي انه بدأ مرة مجلس شراب يتخلله الفجور، فواصله تسعين يوماً دون انقطاع، فلم يعرض عليه أمرٌ أو قضية ولم يقابله بشر ولم يسمع اي حديث جدي في البلاط. ليس غير الشرب والغناء والرقص والخلاعة والمجون دون ضابط او رادع.

لا غرابة اذن أن مالت البطانة عن [ديون] وخصوه بجفوتهم لأنه لم يأخذ بسبيل الغواية ولم يعرف عبث الشباب وملاذه، وكانت سجاياه موضع افتراءاتهم. فينعتونها باسم اوآخر مقبول الظاهر من اسماء الرذائل. أسموا وقاره كبرياءً، ونعتوا صراحته بالعناد ونصائحه الجيدة بالتأنيب والتقريع. وانتقدوه لاحتقاره أولئك الذين ابى مشاركتهم موبقاتهم. ونقول للحقيقة والواقع ان ثمّ تزمتا وترفعاً وتحفظاً وانطوائية كانت تبدو لعشرائه وفي تعامله. مما جعل صحبته ثقيلةً بغيضة ليس عند الطاغية الشاب وحده ذلك الذي فسد سمعه بالملق والمداهنة، بل عند كثير من أصدق اصدقائه وان احبوا فيه استقامته وسمّو اخلاقه. لقد عابوا عليه سلوكه ومالوا الى الاعتقاد بأن اوثق الناس صلةً به، لاينالون منه ما يجب من الاحترام والاهتمام الذي يلازم رجال السياسة عادةً. وقد تطرق [افلاطون] نفسه الى هذا النقص عند كتابته اليه فيما بعد، فنصحه وكأنه نبيٌ ان يجتنب بكلّ حذر ذلك الطبع المستبد الذي لايجد له رفيقاً الاّ العزلة والوحدانية.

ولقد اعتبر في هذا الوقت بالذات الدعامة الوحيدة الكفوءة لتثبيت الحكم المتداعي، وان الظروف هي التي جعلته شخصية هامة لهذا الغرض مع انه كان يعلم بأنه ليس مديناً بمركزه الرفيع الى فضل او منة بل الى ضرورةٍ ماسة ارغمت الطاغية على الاستعانة به. أفترض ان الجهل هو علة [ديونيسيوس] فبذل الجهد في اقناعه بالاجتهاد في دراسة العلوم العقلية، وان يسمعه شيئاً عن مبادىء الاخلاق والموازنة الفكرية في الأمور، وكان يأمل أن يتغلّب الشاب

على تخوفه من الحياة الفاضلة، وان يتعلم كيف يجد اللذة والسعادة في الأعمال الطيبة الجديرة بالثناء. لم يكن [ديونيسيوس] مجبولاً على الفساد، ولم يكن اسوء مثال للمستبد، فأبوه هو المسؤول عما آلت اليه حاله. لقد كان يخشى ان يتآمر عليه ان ازداد فهما لنفسه او اتصل بالحكماء والفلاسفة؛ فيزيحه ويقضي على سلطانه. ولذلك أبعده عن المعرفة وأغلق ابواب الحقيقة دونه فأفتقد العشرة الحسنة ولم يدر افضل الوسائل لقضاء اوقاته، فأخذ يتلهى بصنع عربات صغيرة، وكراس وشمعدانات ومناضد وما شابه ذلك في اشغال النجارة. كان [ديونيسيوس] الأب عظيم الشك فاقد الثقة دائم الحذر من الجميع، حتى انه ابى أن يقص شعره بآلةٍ حلاق. بل كان يأمر أحد خدمه بازالة الجزء الأعلى منه، بحرقه بجمرة متقدة من الفحم ولم يكن يسمح بأن يدخل عليه ابنه او اخوه بثيابهما، بل كانا يخلعانها اسوةً بغيرهما من المتقابلين وينظرهما وهما عاريان ثم يرتديان ثياباً أخرى واذ ذاك يسمح بمقابلتهما. ومرة كان اخوه [ليتينس Leptones] يشرح له موقع موضع من المواضع وهيئته. فأختطف رمحاً من يد احد الحراس ليخط بسنانه رسماً توضيحياً. فغضب عليه [ديونيسيوس]. وامر بالحراس الذي نزل عن رمحه له، فقتل في الحال. وكان يقول:

- كلما كان اصدقائي عقلاء، كلما زاد شكي فيهم. فأنا أعلم يقيناً بأنهم لن يتحرجوا عن الطغيان، ولن يكونوا رعية لطاغية، لو كان الحلّ والعقد بيدهم.

وقتل [مارسياس Marsyas] وهو ضابط أناط به قيادة هامة، لأنه رأى في نومه انه تولى قتله، وعلل فعلته هذه بقوله:

- لو لم تداعبه الفكرة في يقظته لما تخيلها في نومه.

وكان على درجة كبيرة من الجبن، وكان عبداً شقيّاً لمخاوفه ومع هذا غضب من افلاطون، لأنه لم يعده أعظم الاحياء بسالةً واقداماً!

نعود فنقول، لما وجد [ديون] ان الأبن نشأ نشأة معيبة فاسدة لافتقاره الى التهذيب، أخذ يحثه على الدرس، وان يلح على [افلاطون] أعظم الفلاسفة طراً بزيارته في صقلية. وان يضع نفسه تحت تصرفه ويتتلمذله فلعل تعاليمه تقوّم طبعة وتهديه الى حقائق الفضائل، والاقتداء بحياة الأرباب و«بالأنسان الكامل» السنيّ وباطاعة أولئك الذين تحفظ رقابتهم نظام الكون الجميل. فباتباعه هذا النهج قد يحقق السعادة العظمى لنفسه ولرعاياه الذين سيندفعون الى اطاعته مختارين ممتنين لعدالته وسماحته، كما يطيعون آباءهم. اما الآن فهم مرغمون بحكم الضرورة على الخضوع له وهم حانقون متضجرون كما يخضعون لسيدٍ غاشم. انه لايعود

طاغيةً غاصباً بل ملكاً شرعياً محبوباً ليس القوة والخوف والاسطول البحري وجيش مستعد قوامه عشرة الاف من البرابرة المرتزقة السلاسل المتينية التي تحمي النظام الملكي وانما هي الحبّ، والتفاني، والاخلاص المتولدة من الرحمة والعدل. وهذه على كل حال اقوى واشد الروابط دواماً لدعم الحكم الطويل الأمد وان كانت أكثر مرونة من أغلال الصرامة والقسوة. أضف الى هذا انه لمن الخسّة والحطّة ان يعنى الحاكم بارتداء الفاخر من الثياب وترف العيش والاسراف، في حين لايبدي من العقل والحكمة ما يوازي ابسط العقول واشدها سذاجة بين رعاياه ولايزخرف قصر عقله الفاخر بما يناسب مقامه الملكي.

كثيراً ما تطرق [ديون] الى هذا الموضوع في احاديثه مع الملك مردداً بقدر ما تسنح له الفرص - بعض اقوال الفيلسوف، فأخذ شوق [ديونيسيوس] يزداد الى افلاطون وسماع محاوراته ولج به الصبر وراح يتبع الرسالة بالرسالة اليه في آثينا. فضلاً عن رجاء [ديون] وتدخل بعض الفلاسفة الفيثاغوريين من ايطاليا الذين بعثوا يلحون عليه بالمجيء للسيطرة على تلك الروح الشابة المطواعة لعلها تنصلح بتأثير مناظراته العقلية الصائبة، فتستقيم وتتهادى فوق بحار السلطة المطلقة والاستبداد. ولم يجد [افلاطون] بداً من النزول عند الحاحهم، «خجلاً» كما يذكر لنا أكثر من اي شعور آخر. ولئلا يبدو مجرد واعظ نظريّ لايغامر بالتطبيق العملي بمحض رغبته. فكان أمله ان يوفق في شفاء الرأس والدليل وبه قد يشفى كل ما تشكو منه الجزيرة.

لكن اعداء [ديون] داخلهم الخوف من انقلابٍ قد يحصل لديونيسيوس، فأقنعوه بدعوة [فلستوس Philistus] من مَنفاه بايطاليا، وكان هذا اخا معرفة، وعلمٍ، وتجارب عميقة في أحوال الطغاة وأخلاقهم، يصلح ان يكون نداً مقارعاً لافلاطون وفلسفته. كان من البداية اداة فعالة في تثبيت اقدام استبداد الفرد وظلّ مدة طويلة يتولى قيادة القلعة وقد شيع عنه في حينه انه كان على صلة حب بامّ ديونيسيوس الأول. ولم يكن هذا غافلاً عنها. وعمد [ليبتينس] اخ [ديونيسيوس] الى تزويجه بأحدى بنتي عشيقةٍ له كان قد اغواها، دون علمٍ من أخيه، فغضب هذا غضباً شديداً واودع عشيقة [ليبتينس] السجن ونفى [فيلستس] من صقلية. ففر هذا الساحل الادرياتي ونزل حمى بعض اصدقائه، ويرجح انه كتب هناك معظم اجزاء تاريخه وقت فراغه وبطالته، فقد ظل بعيداً عن صقلية طوال مدة حكم ديونيسيوس الأول، وكما ذكرنا نجح خصوم [ديون] في الغاء امر ابعاده عن الوطن لأنه أصلح الجميع لأغراضهم، فضلاً عن كونه من انصار الحكم الاستبدادي والمدافعين عنه. ولذلك صار يسعى الى دعمه في صقلية فور عودته. وواصل المفترون النحامون يصبون الاتهامات في اذن الملك

كقولهم ان [ديون] براسل كلّ من [هيراقليدس وثيودوتّس] لقلب نظام الحكم. ولاشكّ أن [ديون] كان يأمل ان يخفف مقدم افلاطون صرامة الحكم واستبداد الطاغية وتحويل [ديونيسيوس] الى حاكمٍ عادلٍ قانوني، فان ظلّ معانداً معرضاً عن اجراء اي اصلاح، عَمَل على خلعه واحلال الحكم الجمهوري في المجتمع السيراقوزي. ولم يكن [ديون] بالأصل من محبذي الحكم الديمقراطي، الاّ انه كان يجده على اية حال افضل من حكم الفرد واستبداده حين يتعذر اقامة حكم ارستوقراطي جيد.

هذا هو الموقف عندما وصل افلاطون الى صقلية. وقد استقبل بمظاهر رائعة من التكريم والودّ. كانت بانتظاره على اليابسة عربة ملكية فاخرة، وقام [ديونيسيوس] نفسه بتقديم قرابين الشكر للآلهة، اعترافاً بجميلها وانعامها على حكمه بهذه السعادة.

وانتشعت آمال المواطنين وراحوا يتطلعون الى اصلاح عاجل عندما لاحظوا التواضع الذي أخذ يسود المآدب، والأحتشام الذي تسربل به البلاط. والانقلاب الخلقي الذي طرأ على [ديونيسيوس] وكيف صار يعاملهم برقة وانسانية، ويعالج شؤونهم بعدلٍ ولين، وكان ثمّ انصراف عام الى الفلسفة والحكمة. وذكر ان القصر كان يمور بالأغبرة لكثرة ما كان يؤمه من طلبة الرياضيات وانشغالهم بحل المسائل الحسابيّة.

وحَلّ موعد تقديم احد القرابين السيراقوسية. وجريا على العادة المتبعه أخذ الكاهن يدعو بطول العمر لحكم الطاغية، وبسلامة نظامه، فقيل ان [ديونيسيوس] الحاضر صاح به:

- كفاك صلاة ودعوات بدوام الشرّ.

استاء [فيليستس] وانصاره لهذا التحول. وقدروا ان خطر [افلاطون] عليهم يتعاظم. فبهذه المدة القصيرة استطاع ان يحدث تحولاً وتغييراً عميقاً في عقلية الفتى، فكيف به لو طال بقاؤه وامتدت محاوراته؟ ولاشكّ ان سلطانه عليه سيكون عظيماً. ولذلك وجب عليهم ان يتخلصوا من وجوده كيفما كان. فأنتقل جميعهم الى الافتراء العلني على [ديون] ونبذوا اسلوب الغمز واللمز فراحوا يشيعون للملأ أن الفتى مفتتن بسفسطة [افلاطون] وانه مسحور به. وسوف يحمل على اعتزال الحكم مختاراً ليحل [ديون] محلّه فيه وينتزع الملك لأولاد اخته [ارسطوماخه]. وتظاهر فريق منهم بالحرص على سلامة البلاد، فقالوا ان الآثينيين الذين جردوا على صقلية اسطولاً عظيماً وانزلوا اليها جيشاً برياً قوياً، فلم يفلحوا في الاستيلاء على سيراقوسة وهلكوا دونها، يحاولون اليوم عن طريق [سفسطائي] قلب نظام حكم [ديونيسيوس] ويهددون بتسريح حرسه البالغ عشرة آلاف من الرماحة، وتصفية اسطوله

البحري المؤلف من أربعمائة سفينة. والغاء كتائب الخيالة البالغة عشرة آلاف فارس واضعاف هذا العدد من المشاة، ويعزي بالبحث عن المجهول وعن السعادة الوهمية في المدارس، وكيفية العيش الهنيء بمزاولة حَلّ الرياضية. في حين سيكون التمتع بالسلطان المطلق والغنى والملذات من نصيب [ديون] واولاد أخته.

بهذا الاسلوب بدأت الشكوك تساور [ديونيسيوس] حول نوايا [ديون] واخذ يقابله بجفاء واعراض متزايدين بالتدريج. ثم ضبطت رسالة من [ديون] الى وفد القرطاجنيين القادم لأجل مفاوضات السلم، ينصحهم فيها بأن لايقابلوا [ديونيسيوس] حتى يتصلوا به. وبهذا لن يجيبوا في الوصول الى ما يريدونه. أطلع [ديونيسيوس] على الرسالة ورفع بها الى [فيليستوس] وتشاورا معاً فيما يجب عمله، ويخبرنا [طيماوس] أن العاهل تظاهر بالركون الى [ديون] وأظهر له الودّ والمصافاة ثم سار معه يوماً الى ساحل البحر حتى بلغا اسوار القلعة، وأخرج الرسالة وجابهه بها واتهمه بالتآمر عليه مع القرطاجنيين. ولم يسمح [الديون] بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه وانما نقله بالقوة الى سفينة كانت قد ارسيت هناك لهذا الغرض، وأمر البحارة بالاقلاع به وانزاله في ساحل ايطاليا.

وشاع أمر نفيه، وأعتبر عملاً قاسياً لامبرر له، وكان ثم بكاء ومناحة عند نساء بيت الطاغية نفسه. على ان السيراقوسيين قابلوا الأمر بجلد وشجاعة اذ كانوا يتوقعون من هذا اضطراباً وعصياناً بعد فقدان الثقة وضياع الأمل باصلاح الحال وكانوا يتطلعون الى ثورة وتغيير سياسيّ في نظام الحكم. ولم يخف ذلك على ديونيسيوس وهو يرى الخواطر ثائرة والنفوس هائجة فانتابه ذعر الشديد واخذ يهديء روع النسوة واقرباء [ديون] الآخرين وانصاره، مؤكداً لهم بأنه لم ينفه وانما ابعده فترةً من الزمن خوفاً من نوبة غيظ تفاجئه يوماً بسبب عناد [ديون] وتمسكه برأيه فتدفعه الى عمل يأسف عليه. وقدم لاقربائه سفينتين وسمح لهم أن يرسلوا فيها كلّ ما شاؤا من متاع وخدم اليه في [البلوبونيسيس].

كان [ديون] في غاية من الثراء. وكان اثاث منزله يضاهي ما عند الملوك فخامة وابهة. فحزم اصدقاؤه تحفه واثاثه الثمينة، مع مقدار كبير من الهدايا الغالية التي بعثت بها النسوة والأنصار فظهر [ديون] بين الاغريق بمظهر الوجاهة والترف بقدر ما يتعلق الأمر بالغنى. ولعلهم حكموا من غنى المنفي على مدى السلطان الذي يتمتع بع الطاغية.

ونقل [ديونيسيوس] افلاطون الى القلعة ووضع عليه حرساً، تحت ستار التكريم والحفاوة. وكان يخشى ان يلحق بديون ويعلن للملأ ما لقي صديقه من سوء المعاملة. اضف الى هذا، ان عاملي الزمن والدراسة روّضا [ديونيسيوس] كما تروض الوحوش الضارية، فتنقلب أليفة -

فأصبح يلتذ بصحبة افلاطون رمناظراته، وبدء حبه يغزو قلبه، بشكل فيه اثرة، وتعلق أناني لايخلو من نوازع الاستبداد، اذ كان يتطلب من افلاطون بالمقابل ان يخصّه بحبه وحده دون الآخرين وان يكون به ألصق الناس. وابدى رغبته في ان يعهد اليه بادارة دفة الدولة العليا، شريطة أن ينزله المنزلة الأولى في قلبه. هذا الإفراط في العاطفة كان مصدر ضيق شديد لأفلاطون فقد صحبته نزوات من الغيرة العمياء، والوقاحة كان من قبيل العواطف الجامحة التي نراها عند العاشقين الوالهين، فكثيراً ما كان يغاضبه ويجفوه، ليعود حالاً نادماً مستغفراً مستوكفاً صداقته مرة أخرى. وكانت تدفعه رغبة جنونية في ان يُعد تلميذاً للفيلسوف هذا امام منتقديها ومسفهيها، الذين يصارحون بأنها ستكون سبباً لدماره.

ولكن الحرب نشبت في اثناء ذلك. فصرف [افلاطون] بعد ان تعهد له بالغاء قرار نفي [ديون] والسماح له بالعودة الى الوطن في الصيف القادم. وكان في وعده هذا كاذباً. لكنه ارسل لديون ربع املاكه. واعتذر من افلاطون عن اخلافه واقسم له ان سيستدعي [ديون] فور انتهاء الحرب. واعرب عن امله في ان يركن [ديون] الى الهدوء خلال هذه الفترة، وان لايثير الفتن ولايتكلم عنه بالسوء امام الاغريق. وهذا ما عمل [افلاطون] في سبيله، بابقاء [ديون] ملازماً له في الأكاديمي والهائه في المتابعات الفلسفية.

سكن [ديون] الحيّ الأعلى من مدينة آثينا مع [كاللبيس Callipus] أحد اصدقائه. وابتاع بيتاً في الريف للراحة والاستجمام، وهبه لـ[سپيوسپوس Speusippus] اعزّ اصدقائه عند عودته الى صقلية. وقد فعل [ديون] ذلك نزولاً عند نصيحة [افلاطون] الذي كان يريد ان يلين طبعه الصارم بالعشرة الجميلة التي تتخللها فترات عفوية لمجلس الأنس والمرح المناسبين وكان [سپيوسپوس] مرحاً. فقد ذكره [تيمون] في كتاب سللي Silli بقوله «اشتهر بالفكاهة والمزاح». واتفق ان طُلب من [افلاطون] تنظيم جوق صبيان، فعهد بذلك الى [ديون] الذي أخذ الأمر على عاتقه ادارةً ونفقات. وبذلك اتاح له الفرصة للتفضل على الآثينيين، بمنة مؤملاً بذلك ان يكسب لصديقه من العطف أكثر مما يؤمن من الثقة. وسافر [ديون] الى مدن أخرى وقابل فيها ارفع واشهر شخصيات الأغريق، وجالسهم في انسهم وراحتهم وايام اعيادهم، ولم يُعْزَ اليه في كل هذه المواجهات اي تصرف سوقي او خيلاء أو سفه، بل اظهر قدراً كبيراً من التواضع والسخاء والشجاعة والتذوق الرفيع للمناظرات الفلسفية والمناقشات العقلية، فظفر بمحبّة الجميع واعجابهم وكرمته مدن كثيرة. فاللقيديميون منحوه المواطنة السپارطية دون ان يعباؤا بسخط [ديونيسيوس] الذي كان في ذلك الحين يعاونهم في حربهم مع الآثينيين.

ومما روي انه قصد مرة زيارة [پتويودورس Ptoedorus] الميغاري بدعوة منه وهو رجل غني

جداً وذو مكانه كما دل عليه ظاهر حاله. فوجد صعوبة في الوصول اليه بسبب حشود الناس المجتمعة امام بابه، ولضغط اعماله الكثيرة فالتفت الى اصدقائه وكان قد بدا عليهم الغيظ والضيق، وقال:

- كيف نلوم [پتويودورس] ونحن في سيراقوسة لا نفعل افضل من هذا ؟

ما مَرّ زمن يسير حتى قطع [ديونيسيوس] عن [ديون] ريع املاكه حسداً وغيرةً من المنزلة التي نالها عند الاغريق. ونصب حراسه القضائيين عليها. وحاول ان يتحاشى انتقاد الفلاسفة وفقدان ثقتهم بسبب تأثير [افلاطون] فراح يجمع في بلاطه عدداً كبيراً من رواد المعرفة المشهورين والحكماء، واراد ان يظهر طول باعه وتمرسه في صناعتهم تلك تحكيماً واقتداراً بمحاورتهم ومناظرتهم مستخدماً المبادىء التي تلقاها عن [افلاطون] بشكل مغلوط في أكثر الأحيان.

ثم حنّ عليه، وخالطه ندمٌ لأنه لم يحسن الافادة منه عندما كانت معارفه مبذولة له. وأسف لأنه لم يهتم بدروسه الرائعة، وكما هو شأن المستبد الذي لايرد له حكم، العنيف في تحقيق نزواته وكل ما شاءت ارادته؛ وجد نفسه شديد الرغبة في مجيئه. فلم يترك باباً الا طرقه، ولا حجراً الا قلبها في هذا السبيل ثم ولى وجهه شطر [ارخيتاس Archytas] الفيثاغوري أحد معارفه الذي كان مديناً له بأولى علاقاته مع [افلاطون]، وطلب منه أن يضمن كلمته عند [افلاطون] وان يشجعه للقدوم الى صقلية ثانيةً. فبعث [ارخيتاس] اليه برسوله [ارخيديموس]، كما ارسل [ديونيسيوس] من جانبه عدداً من الاصدقاء والسفن لحمله على قبول دعوته. وكتب اليه مؤكداً انه لن يحقق [لديون] اي رجاءٍ أو طلبٍ ان لم يوافق على القدوم. اما اذا وافق وجاء فعلاً فان كل ما يطلبه [ديون] سيجاب، وتسلّم [ديون] من اخته وامرأته رسائل مفعمة بالضراعات والشفاعات، والالحاح عليه بالرجاء من افلاطون تلبية طلب [ديونيسيوس]، وبذلك يحول بينه وبين عمل شيء آخر. فلم يسع [افلاطون] الا ان يشدّ الرحيل للمرة الثالثة من مضيق [سكيللا Scylla] ولسان حاله يقول:

«ها أني اغامر مرّة أخرى في خليج

«خاريبيدس Charybdis العظيم الاخطار»

واورث مجيئه [ديونيسيوس] غبطة عظيمة ان يحقق [افلاطون] الغلبة على [فيليستس] وان تنتصر الفلسفة على نظام الإستبداد. وانضمت النساء الى حلقات دراسته. وعظمت دالته على [ديونيسيوس] الى درجة لم يحظ بها احد قبله. وكان يملك الحرية التامة في الدخول

عليه اني شاء دون ان يفتش. وقدم للفيلسوف مبلغاً كبيراً من المال فرفضه، وجدد عرضه عليه عدة مرات وكان افلاطون يرفض ابداً. فعلّق [ارسطوبوس] الكريني الذي كان موجوداً بقوله: ان [ديونيسيوس] في سلامة تامة من عواقب سخائه، فهو يعطي القليل للراغبين في الكثير. ويعطي الكثير لأفلاطون فلا يقبل شيئاً.

بعد ان فرغ الجميع من تبادل التحايا ومظاهر الترحيب، طفق افلاطون يتحدث في أمر [ديون]. فأسمعه معاذير مختلفة. ثم بدأ يشكو ويتذمر بصورة غير مباشرة. فلم تبد شكاواه ظاهرة للعيان في مبدء الأمر لأنه جهد في اخفائها. لكنه اخذ يعمل على نزع محبّة [افلاطون] لديون من قلبه، بمزيد التفاته اليه وشموله بمظاهر التكريم والتقدير. وظلّ [افلاطون] زمناً وهو يحاذر من استفزازه، لئلا يبدو كذبه ونقضه لعهده للملأ فتقع الواقعة. وحرص ان يكتم ما بنفسه من ألم وضيق. وتوهم الاثنان ان العيون غافلة عما يجرى. وأن الناس لايدرون الحقيقة. بينما كان الأمر خلاف ذلك كما تدل عليه الحكاية الآتية:

تنبأ [هيلكيون Helecone] [الكيزيكيني Cyzicenean]احد تلاميذ [افلاطون] بكسوف فوقع في اليوم الذي حدده، فأعجب [ديونيسيوس] به وأمر له بتالنت من الفضة. فأتخذ [ارسطوبوس] من ذلك مادةً للفكاهة والمزاح مع الفلاسفة الأخرين قال:

- انه يستطيع ان يتنبأ هو أيضاً بشيء خارق.

فطلبوا منه الإفصاح، فقال:

- اتنبأ انه لن يمرّ وقت طويل الاّ وينشب خلاف بين افلاطون وديونيسيوس.

ثم ان [الطاغية] باع املاك[ديون] وصادر اثمانها وضمها الى ملكه ونقل [افلاطون] من المنزل المخصص له في حدائق القصر الى موضع سكنى بين الحرس المرتزقة الذين ابغضوه من المبدء وكانوا يتحينون الفرص للخلاص منه لأنهم كانوا يعتقدون بأنه اشار على [ديونيسيوس] بالتنازل عن الحكم وتسريح الجنود.

لما ادرك [ارخيتاس] مدى الخطر الذي يتعرض اليه افلاطون اسرع بارسال سفينة مع رسلٍ الى [ديونيسيوس] يطلب منه السماح للفيلسوف بالعودة اليه، وذكره بأنه ضامن سلامته حسب الاتفاق الذي تمّ بينهما وعلى اساسه. جاء افلاطون الى صقلية. فأقام [ديونيسيوس] المآدب والحفلات التكريمية الباذخة لضيفه تخفيفاً لما يشعر به هنا نحوه من قرفٍ. الاّ انه لم يسع ان يكتم الخوف الذي يعتمل في نفسه فقال له يوماً:

- لاشك. أنك يا افلاطون ستنتقدني بين رفاقك الفلاسفة عند عودتك الى الوطن، وسوف

تحاسبني حساباً عسيراً على اخطائي الكثيرة.

فأجابه افلاطون باسماً:

- ثق ان الاكاديمي لن تفتقر الى مواضيع بحث لتتخذ منك موضوعاً

وانصرف عنه أفلاطون، الأ ان ما كتبه عنه لايتفق بالضبط مع هذه الرواية.

وصل السخط بديون غايته القصوى. ولم يلبث الأ وجاهر بعدائه [لديونيسيوس] بعد ان سمع من افلاطون بما فعله لزوجه اذ كانت له مكاتبه سرية مع [ديونيسوس] وملخص الحكاية ان الطاغية طلب من الفيلسوف قبل عودته الأخيرة ان يسأل [ديون] هل يوافق ان تتزوج امرأته في صقلية من رجل آخر؟ وثم رواية أخرى لاندري مبلغ صدقها ولعلها من تصنيع اعداء [ديون]. تقول الرواية انه لم يكن مرتاحاً من زواجه بالاصل، وان حياته مع امرأته كانت تاعسة. فلما عاد افلاطون الى آثينا وفاتحه في أمر تسريح زوجه، كتب رسالة [لديونيسيوس] تعرض منها لمختلف الشؤون بأسلوب واضح صريح حتى اذا جاء الى هذه النقطة استخدم اسلوباً معمّى فيها غموض كان بينه وبين [ديونيسيوس] سبق اتفاق عليه واعلمه بهذا الاسلوب انه تحدث الى [ديون] حول الموضوع وقد ظهر له انه لايحبذ ذلك وسيستاء جداً ويعده اهانة موجهة الى شخصه ان قدر له التمام.

كان [ديونيسيوس] في ذلك الحين يمنيّ نفسه بالصلح والصفاء ولذلك لم يقدم على تزويج اخته، زوج ديون الأ انه نفذ ما نواه بعد ان خابت آماله في الصلح؛ وتعقدت الأمور، وعاد [افلاطون] الى آثينا متبرماً، فرغم [آرتية] وهي كارهة على الزواج من [ثيموقراطس] أحد اصدقائه المقربين. بهذا العمل الشائن سفّ [ديونيسيوس] الى الدرك الأسفل حين يقارن في هذا المجال بموقف ابيه في قضية مشابهة. أظهر خلالها تساهلاً وعدلاً والحكاية هي: انضم [پولكزينوس Polexenus] زوج [تسته Theste] اخته الى معسكر اعدائه وفرّ هارباً من صقلية خوفاً على نفسه فأرسل [ديونيسيوس] الأب يستقدم [تسته] وراح بتهمها بسبق علمها بنية زوجها في الفرار، وكتمان الأمر عنه فأجابته تلك السيدة الجسورة، الشديدة الثقة بنفسها قائلة.

- أتضنني يا أخي زوجاً سيئة أو جبانةً الى الحدّ الذي امتنع منه عن مرافقة زوجي ومشاطرته مصيره لو أعلمني بنيته على الهروب؟ اني لا أعرف عن نيته هذه شيئاً، ولو علمت لفضلت ان أسمى بزوج المنفي پولكزينس، على ان اسمي باخت المستبد الطاغية [ديونيسيوس].

وقيل ان [ديونيسيوس] أعجب ايما اعجاب بجوابها الصريح وسرعة بديهيتها، كما أعجب السيراقوسيون بشجاعتها وامانتها حتى انها بقيت تحتل مكانتها الرفيعة ومقامها الملكي الى ما بعد القضاء على حكم الطغاة، وعند وفاتها صدر قرار شعبي يلزم كل مواطن بحضور مراسيم تشييعها الى المقر الأخير. هذه الحكاية تستاهل منا التسجيل هنا، وان كانت خارجة عن صدد البحث.

عندئذ اختمرت في ذهن [ديون] فكرة التأهب لغزو صقلية الاّ ان [افلاطون] لم يشأ التدخل في الأمر وظل بعيداً بسبب تقدم العمر به واكراماً لذكرى ما لقيه من الاحترام والحفاوة في صقلية من [ديونيسيوس]، على ان [سبيوسيبوس] وسائر اصدقائه شجعوه وساعدوه قائلين: ان صقلية تضرع اليه بذراعين ممدوتين الى السماء لانقاذها. وانها ستستقبله بذراعين مفتوحتين.

وكان [سبيوسيبوس] أكثر اتصالاً بالمواطنين من افلاطون عند وجوده في [سيراقوسه] وهو يعرف ميولهم الحقيقية وان كانوا يشكون منه ويحذرون – لما بدأ من صراحته التي جعلتهم يعتقدون انه عميل من عملاء الطاغية مدسوس عليهم لايقاعهم في شرك الاّ انهم وثقوا به وأطمأنوا اليه بمرور الزمن. وسادتهم فكرة واحدة وأمنيّة واحدة وهي ان يقبل [ديون] باعداد العدة لتحريرهم، وان كان لايملك اسطولاً أو خيلاً أو سلاحاً. وليستقل اية سفينة تعنّ له واضعاً اسمه ونفسه تحت تصرف الصقليين ضدّ [ديونيسيوس] هذا ما أكد له [سبيوسيبوس]. الاّ ان [ديون] أبقى الأمر في طيّ الكتمان واستخدم رفاقه في السرّ لتعبئة ما يمكن من الرجال، وخفّ لمعونته عدد كبير من الفلاسفة والساسة نذكر منهم [يوديموس Eu-demus] القبرصي، الذي وجّه ارسطاطاليس رسالته في النفس باسمه اثر وفاته. و[تيمونيدس Timonides] الليوكادي Leucadian. و[ملطاس Miltas] العرّاف الذي درس في الأكاديمي.

اما من منفيي [ديونيسيوس] القبرصيين الألف على الأقل، فلم ينضو اليه غير خمسة وعشرين. لقد آثر الآخرون البقاء في منفاهم للخوف الذي كانوا يشعرون به. وكان موضع التجمع في [زياكزنيثوس Zaecynthus]، فهناك عبئت قوة صغيرة لاتتجاوز ثمانمائة رجل امتازوا بخبراتهم الطويلة وتمرسهم بالآفات والخدمة العسكرية الشاقة فتدربت اجسامهم واشتد عودهم، وكان اقدامهم وخبرتهم العسكرية كافيين لرفع المعنويات، وحمل جنود العدو على الانضمام اليهم كما كان [ديون] يؤمل من الصقليين.

الاّ أن القلق وخور العزيمة دبّا في نفوس هؤلاء الرجال، ساعة علموا بأنهم سيقاتلون

[ديونيسيوس] فراحوا ينحون باللائمة على [ديون] ويتهمونه بالغش قائلين انه يندفع بيأسه وحنقه كالمجنون وانه سينتهي بهم الى دمارٍ محقق دون ان يتبصر بالعواقب. ولم يكن حنقهم على ضابطهم وآمريهم بأقل من هذا، لأنهم جندّوهم دون ان يصارحوهم بجليّة الأمر أو يعلموهم بالهدف. فخطب فيهم [ديون] موضحاً حالة الضعف التي يشكو منها المستبد، واضطراب الوضع الداخلي، وبين لهم انه لم يجندهم في الواقع، بل كان يرمي الى جعلهم ضباطهم للسيراقوسيين ولبقية الصقليين الذين يوالونه جميعاً وقد مضى وقت طويل على تأهبهم واستعدادهم للثورة، ثم تلاه [الكيمينس] الأخائى سليل البيت ذي المجد العريق، ذو الإسم الشهير والمكانة الرفيعة فخطب فيهم على الوتيرة نفسها - وكان احد رجال الحملة أيضاً - فطابت نفوسهم وهدأت.

رسم للبدء في الحملة متنصف الصيف، حيث الريح الاتيسية Etesian دائمة الهبوب في البحار، وكان القمر بدراً. فهيّأ [ديون] قرباناً فخماً [لاپوللو] وسار على رأس قوته بموكب مهيب الى المعبد وهم مدججون بالسلاح. وبعد تقديم الذبائح أو لم لهم وليمة عامرة في ساحة سباق زاكشيا وبسط لهم السماط فعرتهم الدهشة من كثرة ونفاسه صحاف الذهب والموائد المثقلة بالأطعمة، وهي لاتنمّ عن ثروة اعتيادية. ولذلك استنتجوا ان رجلاً كـ[ديون] تعدى مرحلة الشباب ويملك مثل هذه النفائس التي تؤمن له خفض العيش ورغده، لن يورط نفسه في مجازفة كهذه، الا اذا كان قوي الأمل بنجاحها. ولاشك انه متأكد بأن الموالين له في صقلية سيهبون لمساعدته.

وبعد ان سكب الخمر وتلى الدعاء المعتاد، دخل القمر في خسوف. ولم يفاجأ [ديون] به، لأنه كان خبيراً بدورات الخسوف والكسوف عليماً بعلة احتجاب القمر جراء توسط الأرض بينه وبين الشمس. وكان من الضروري شرح الظاهرة للجنود الذين اضطربوا وعلتهم البغتة، وملأتهم المخاوف وهبطت معنوياتهم فنهض العرّاف [ملطاس] في وسطهم ودعاهم الى الاطمئنان والاستيشار بالنجاح الباهر، لأن العناية الالهية استبقت الاحداث بهذه الظاهرة التي تدلّ على ان عظمةً وسؤدداً سيبتعلهما الظلام وينخسفان. وفي وقتهم هذا ليس من يداني [ديونيسيوس] عظمةً وسؤدداً. وقال ان نزولهم في صقلية سيمحقه ويطفيء سناءه. واسهب [ملطاس] في شرح الدلائل لهذه الظاهرة.

واما عن خشرم النحلّ الذي استقر على مؤخرة سفينة [ديون] فقد أسّر اليه [ملطاس] بأنه يخشى ان نجاح العمل العظيم الذي هم في سبيله مؤقتاً. وان عمره لن يطول بل ستذوب آثاره وتضمحل بعد حين. وقيل ايضاً أنّ آيات عديدة تجلّت [الديونيسيوس] آنذاك، فقد انقضّ نسر

وخطف رمحاً من يد أحد حراسه وحلق به الى ارتفاع كبيرٍ ثم أفلته فسقط في مياه البحر. كما ان مياه الساحل التي تلتطم بأسس القلعة انقلبت الى مياه عذبة صالحة للشرب يوماً كاملاً بشهادة من شربوا منه. وولدت الخنازير خنانيصها كاملة الخلقة الاّ أنها تشير الى فتنة وعصيان وشيكين، لأن الرعية ما عادوا يعيرون آذاناً صاغيةً لأوامر الرؤساء. وفسروا عذوبة الماء. بأن حالة السيراقوسيين ستتبدل، وستنقلب تعاستهم الى سعادة وشقاؤهم الى هناء. امّا آية النسر الذي هو طير [جوبيتر] والرمح الذي هو شعار سلطانه وهيمنته، فتدل على ان عظيم الآلهة قد حكم بانهاء الحكم الحاليّ.

حملت سفينتا نقلٍ، كل رجال [ديون] واقلعتا بحراسة سفينة أخرى متوسطة، ومركبين كلّ منهما ذو ثلاثين مجذافاً. وبخلاف الاسلحة التي كان يحملها الجنود جلب نحو الفين من التروس وكميات كبيرة جداً من رماح القذف، والحراب الثقيلة وارزاق كثيرة جداً مختلفة تأميناً لحاجتهم اثناء الرحلة. وكانت الخطّة أن لايقتربوا من اي شاطيء حتى يصلوا الى الهدف، وان لايستخدموا غير قوة الريح، ذلك لأن البلاد التي سيمرون بها كانت كلها معادية. وانبئوا بأن [فيليتس] كان في [ايابيجيا Iapygia] على رأس اسطولٍ، مهمته التفتيش عنهم. وطالت رحلتهم اثني عشر يوماً، وكانت الريح موآتية رخية وفي اليوم الثالث عشر بلغوا پاخينوس Pachynus] وهو رأس في الجزيرة وهنا نصحهم [پروتس Protus] الملاح بالنزول الى البرّ فوراً ومن دون اي تردد. فلو انهم جوبهوا بمقاومة فن اليابسة وارغموا على العودة دون الافادة من هذا اللسان البحريّ، فقد يمتد بقاؤهم في عرض البحر اياماً وليالي عديدة انتظاراً لريح الجنوب الصيفية. الاّ ان [ديون] لم يشأ النزول في بقعة قريبة جداً من عدوه. وكان يرغب في أن يبدأ حملته من مسافة أبعد من [پاخينوس] فواصل رحلته. انه لم يمض بعيداً حتى هبت ريح الشمال الزفون ودفعت بالسفن الى الساحل وظهرت [نجمة السّماك الرامح Arcturus] وهبت ريح هوجاء وهطلت الامطار مصحوبة برعود وبروق وغُمّ على عقول البحارة فلم يعرفوا اين يتوجهون، ووجدوا على حين بغتة ان الامواج تدفع بهم نحو [چرچينا Cercina] وهي جزيرة قريبة من الساحل الافريقي في أخطر جرفٍ منها. ولم ينجوا من الاصطدام بالصخور الاّ بعد اللتيا والتي وخلصت سفنهم من الدمار ببذل جهود جبارة في التجذيف ضد الريح التي كانت تدفعهم اليها حتى مرت العاصفة. وصادفوا سفينةً فسألوها عن الموضع الذي هم فيه وعلموا أنهم عند رؤوس سرتيس Syrtes العظيمة فعاد اليأس يتملكهم بحلول هدوءٍ فجائي واخذوا يروحون ويغدون في عرض البحر على غير هدىً حتى شعروا بنسيم رخيّ يهبّ من جهة اليابسة وكانوا يتوقعون كل شيء خلا ريح الجنوب هذه فلم

بصدقوا حظهم السعيد، وراحت الانسام تشتد تدريجياً حتى انقلبت ريحاً رخاءً فنشروا القلوع كلها وبعد الدعاء للآلهة انطلقوا في عرض البحر متجهين رأساً الى صقلية يسابقون الريح وفي اليوم الخامس بلغوا [مينوا Minoa] وهي جزيرة صقلية صغيرة تحت سيطرة القرطاجنيين شاءت الصدف ان يكون حاكمها [سينالوس Synalus] احد اصدقاء [ديون]، الاّ انه لم يعلم اول الأمر بأن السفن تعود لديون فحاول منع رجاله من النزول الى البرّ. الاّ انهم اندفعوا الى اليابسة بسيوفٍ مشهرة لكنهم لم يفتكوا بأحد لأن [ديون] منع ذلك مدفوعاً بصداقته للقرطاجنيين، ودفع بأولئك الذين تصدوا اليهم وارغمهم على التقهقر واخذ يتعقبهم عن كثب ويشد الكرّ عليهم حتى دخل البلدة معهم وأحتلها ولما التقى القائدان حيّا احدهما الآخر واعاد [ديون] البلدة التي احتلها الى [سينالوس] دون ان يضارّ احد في أهليها. هيّأ [سينالوس] مقراً للجنود وزودّهم بالطعام ووفر لديون كل ما هو بحاجة اليه.

وارتفعت معنوياتهم كثيراً بالصدفة الغريبة التي حكمت ان يكون [ديونيسيوس] غائباً عن صقلية. ففي ذلك الوقت بالذات كان متجهاً الى ساحل ايطاليا على رأس ثمانين سفينة. وكان ديون يريد اراحة جنوده بعد عناء السفر، فعارضوه واصرواً على ان يجنوا أكبر الفائدة من هذه الفرصة والحّوا عليه بالزحف على سيراقوسة دون تأخير. وهكذا كان. فتركوا اثقالهم وفائض سلاحهم امانةً عند [سينالوس] وساروا نحو [سيراقوسة] وكان اول من انضم اليه وهو في طريقه مائتان في الخيالة الجرجنتيين الذين كانوا قد اتخذوا مقرهم بالقرب من [اكنوموم Ecnomum]، وتبعهم [الغلوان Geloan]. على انّ الانباء ما لبث ان وصلت سيراقوسة. وكان اهم شخص منها انذآك [تيموقراطس] صديق [ديونيسيوس]. وهو الرجل الذي زوّجه من أخته بعد فصلها عن [ديون]. واتخذ هذا التدابير الممكنة للحيلولة دون وقوع انفجار او فتنة داخل المدينة، حيث كانت الخواطر هائجة والنفوس تغلي كالمرجل الاّ أنهم لم يقدموا على عملٍ وظلوا ساكنين اذ لم يشاؤا وضع ثقة زائدةٍ فيما بلغهم من انباء. واتفق للرسول الذي حمل الخبر [لديونيسيوس] حادثة غريبة. فقد وصل الى ايطاليا، وفيما هو يجتاز ارض ريجيوم Rhegium مسرعاً اليه في كاولونيا Caulonia، التقى بصديق وهو يحمل الى منزله بعض اجزاء من جسم اضحية. فقدم له قطعة من اللحم فقبلها منه وواصل رحلته مستعجلاً وادركه التعب بعد ان قطع مسافة كبيرة خلال الليل فتوقف ليصيب شيئاً من الراحة واستلقى في غابة قريبة من الطريق. فاشتّم ذئب رائحة اللحم فنعقبها وكانت القطعة مربوطة بحقيبة الرسائل، فحمل اللحم والحقيبة معاً وبداخلها الرسائل الموجهة الى [ديونيسيوس]. ولما استيقظ الرسول افتقد الحقيبة وصار يبحث عنها هنا وهناك مدة طويلة، ولما يئس من العثور

عليها قررّ ان لايواصل رحلته الى الملك وأختفى عن الأنظار.

الاّ ان انباء الحرب في صقلية بلغت [ديونيسيوس] من مصادر أخرى لكن بعد مرور زمن طويل. وفي خلال ذلك واصل [ديون] زحفه فأنضم اليه الكاماريتيون Camarineans وانتقضَ سكان الأرياف المحيطة بسيراقوسة والتحقوا به زرافات ووحداناً، ثم انه اتصّل بالليونتيين Leontnies ابلغ وأهالي كامپانيا الذين يحرسون الايپوپلي Epipolae مع [تيموقراطس] بنبأ كاذب تعمّد [ديون] اذاعته. ومؤداه أن الغزاة ينوون الهجوم على مدنهم أولاً، فتخلى هؤلاء عن [تيموقراطس] وهرعوا الى أهاليهم لحمايتهم. وبلغ ذلك [ديون] وكان متوقعاً ذلك، ومنتظراً بالقرب من [ماكري Macroe] فرفع معسكره ليلاً وسار الى نهر [أمايس Amapus] الذي يبعد عن المدينة زهاء عشرة فرلنگات فتوقف وضحّى للآلهة على ضفة النهر وقدم نذوراً للشمس البازغة، وصرح السحَرة ان الآلهة تعده بالنصر. وكان [ديون] يشارك في تقدمة القرابين وقد ضفر أكليلاً على رأسه، فأقتدى به الحاضرون ووضعوا الأكاليل على رؤوسهم وكان ثم خمسة الآف من الذين انضموا الى قوته اثناء زحفها، وقد سدّت حماستهم مسدّ النقص الذي يشكونه في السلاح. لقد سلحوا انفسهم بكلّ ما وقعت على ايديهم. وما ان كان [ديون] يأمر بالتقدم حتى رأيتهم يندفعون الى الامام بهتافٍ وصياحٍ، كأن [ديون] قد نال النصر التام، ويروحون يشجعون بعضاً بقرب فيلهم حريتهم.

واستقبله وجهاء القوم وافاضل المواطنين بثيابٍ بيض عند ابواب سيراقوسة، وانقضّ الأهلون على انصار [ديونيسيوس] ولاسيما أولئك الذين عرفوا باسم المخبرين والجواسيس وهم فئة من أحط البشر واشدهم خبثاً وشراً. وكانت مهمتهم ان يذرعوا المدينة طولاً وعرضاً ويندسوا بين الجماعات ثم يحيطون الطاغية علماً بكلّ ما يسمعونه من الناس من اقوال ويقدمون تقارير عن ميولهم واتجاهاتهم. فأنطلق الجمهور يفتش عنهم بالأول، واذاقوهم نكالاً واشبعوهم ضرباً حتى انتزعوا ارواحهم.

عجز [تيموقراطس] عن الوصول الى الحامية المتحصنة في القلعة فركب حصانه وهرب من المدينة فأشاع الخوف والفوضى في كل المناطق التي مرّ بها مبالغاً في تقدير قوة [ديون] ليقوم ذلك عذراً وجيهاً على تركه المدينة. وما لبث [ديون] ان وصل مشارف المدينة وشوهد من بعيد قادماً على رأس قواته وعليه أجمل وافخم شكة سلاحٍ يحفّ به أخوه [ميغاكليس -Mega cles] من جهة وكالليپوس Callippus صديقه الآثيني من جانب وعلى رؤوسهم الأكاليل وقام على حراسته مائة من جنود الحملة بينما قاد الضباط بقيتهم بأحسن نظامٍ. وخرج السيراقوسيون للترحيب بهم، كأنهم يستقبلون موكباً دينياً مقدساً، جاء لاحياء مناسبة التحرر

بعد ثمان واربعين سنة من كبت الحريات، والقضاء الحكم الديمقراطي.

دخل [ديون] من باب [مينيتيد Menitid] واسكت ضجيجَ الناس بصوت النفير ليعلن بيانه الأول الذي جاء فيه:

«ان [ديون] و[ميغاكليس] اللذين جاء لاسقاط الحكم الاستبدادي يعلنان للسيراقوسيين وكل أهالي صقلية الآخرين، بأنهم منذ هذه الساعة قد تحرروا من حكم الطاغية».

ورغب في ان يخطب في الجماهير، فسار خلال حَيّ [أخرادنيا Achradina]، والناس يجلبون الأضاحي للقرابين، وينصبون الموائد ويضعون عليها الأقداح، وكانت ابواب البيوت تفتح لنثر الأزهار منها عليه. وهي مزدانة بالزينات. والناس يهتفون بأسمه ويتسابقون في النذورله كما يعاملون إلهاً. في اسفل القلعة والپنتاپلا Pentapyla] اقام الطاغية. مزولة شمسية ضخمة عالية، فصعد [ديون] عليها وانشأ يخطب في الناس داعياً الى المحافظة على حرياتهم والدفاع عنها ضدّ اي غاصب. فحيّوه واعربوا عن امتنانهم بكل مظاهر السعادة والابتهاج ونصبوه عليها واخاه جنرالين ومنحوهما صلاحيات مطلقة. وبناء على رغبتهما ضمّوا اليهما عشرين زميلاً، نصفهم من المنفيين الذين جاؤا معه. واستبشر العرافون بآيةٍ وهي ان [ديونيسيوس] كان عند مخاطبته الجمهور يطأ نصباً من الأنصاب التي تعب [ديونيسيوس] في اقامتها. ولكن لما كان النصب مزولة شمسيّة وقت نصبه جنرالاً، فقد اعربوا عن قلق من امكان حصول تغيير في الانقلاب العظيم الذي حققه، واتفقوا على ان الحظّ لن يلبث ان يقلب ظهر المجنّ له.

بعد هذا، أحتل [الايپوپلي] وأطلق سراح من سجنه [ديونيسيوس] فيه. وبدأ ببناء أطم لحصار القلعة. وبعد سبعة ايام وصل [ديونيسيوس] بحراً ودخل القلعة. وفي الوقت نفسه وصلت العربات تحمل اسلحة [ديون] التي كان قد وضعها لدي [سينالوس] فوزعها على المواطنين وسلح البقية بما تيّسر له من مصادر أخرى وكان يبدو عليهم النشاط والحماسة والاستعداد لخوض غمار الحرب كأيّ محارب متمرس.

في مبدء الأمر ارسل [ديونيسيوس] رسلهُ سرّاً لمفاوضة [ديون] في الشروط التي يقترحها. فأجاب [ديون] ان اية مفاوضة يجب ان تجرى علانية وامام السيراقوسيين بوصفهم مواطنين احراراً وراحت الوفود تنتقل من معسكر لمقترحات مقبولة ووعود معسولة كتخفيض الضرائب والرسوم، والغاء كلّ الجبايات الحربية واعباء الحملات العسكرية. وهي امور اصبحوا هم ولاة

الأمر فيها لاتتم الاّ بموافقتهم ورضاهم ولايفرضها الاّ بعد المداولة معهم حولها. فضحك السيراقوسيون من هذه العروض، واجاب [ديون] وفد الطاغية بأنّ على سيدهم ان ينتزع من رأسه فكرة التفاوض معهم حول اي شرط خلا التنازل عن الحكم، فان رضخ واستعفى، فلن ينسى [ديون] صلة القرابة التي تربطها ولن يتماهل في مساعدته على نيل العفو له عما سلف منه، وتأمين كل ما هو معقول ومناسب. فتظاهر [ديونيسيوس] بالموافقة، وأرسل وكلاءه مرة أخرى يطلب حضور عدد من السيراقوسيين الى الحصن ليبحث معهم شخصياً في الشروط المناسبة للطرفين بعد المداولات الحسنة النية. فأنيب لذلك عدد من المواطنين بموافقة [ديون]، وخرجت شائعة من القلعة تفيد بانّ [ديونيسيوس] وافق على التنازل عن سلطاته مختاراً، مفضلاً ان يقوم بهذا العمل الطيب من تلقاء نفسه على أن يرغمه [ديون] عليه الاّ ان هذه الشائعة كانت مجرد حيلة لالهاء السيراقوسيين وصرف انظارهم، لأنه القى القبض على الوفد الذي ارسل للمفاوضة وزجهم في السجن.

وعند بزوغ فجر اليوم التالي. ارسل حاميته من الجنود المرتزقة الى خارج الأسوار للقيام بهجوم مباغت على استحكامات [ديون] بعد ان سقاهم كثيراً من الخمر في تلك الليلة وحمسّهم. كان الهجوم مفاجئاً غير متوقع، وأنطلق البرابرة بجرأة واستهتار وهم يصرخون صرخات منكرة الى هدم الأطم ثم كروا على السيراقوسيين كرةً بلغ من شدتها، انها زحزحتهم عن مواقعهم، ولم تنجدهم الاّ كتيبة واحدة من جنود [ديون] المأجورين عند علمهم بالهجوم. هذه النجدة لم تدر ماذا يجب عمله وكيف تستخدم قوتها بصورة فعالة لأن الضجيج الذي احدثه السيراقوسيون حال دون وصول اوامر الضباط اسماع الجنود لقد فرّ السيراقوسيون من وجه المهاجمين واندفعوا نحو النجدة المتقدمة ورموا انفسهم عليها فأختلت صفوفها وعمتها الفوضى. ووجد [ديون] ان ليس من مصيخ الى اوامره، فقرر ان يضرب لهم ومثلا عملياً لما ينبغي لهم عمله، فكرّ بهجمة على قلب العدوّ واصبح القتال فيما حوله عنيفاً دموياً، ولما كان شخصه معروفاً من الجانبين فقد أخذ الجميع الى الموضع الذي يقاتل فيه وهم يطلقون صرخات عظيمة. ومع ان سنّه المتقدمة لم تكن تؤهله لخوض مثل هذه المعركة الاّ ان ثباته وشجاعته عوّضا عن ذلك فقد ظلّ صامداً لكلّ من يهاجمه، وفي الوقت الذي بدء العدوّ ينكفيء على اعقابه، أصيبت يده بطعنة رمح، ومن توالي الطعنات والضربات أعطبت دروع صدره عطباً بالغاً رلم تعد تصلح لوقايته من المقذوف عليه، او من الضربات المسددة اليه، واخترق درعه عدد من الأسنة والحراب ولما تكسرت نصالها سقط على الأرض فحمله جنوده واخرجوه من ميدان القتال وكانت تواقة ناشطة والعدو قد انهكت قواه، وهو يفكر في النكوص على

أعقابه، فقد كان يأمل الاستيلاء على المدينة بهجومه الأول ففوجئوا بمقاتلين اشداء مجربين لايتزحزحون عن مواضعهم، وهكذا تم تراجعهم الى الحصن، الاّ ان جنود الاغريق لن ينفكوا عنهم، وشدوا عليهم وضيقوا الخناق فأنقلب تقهقرهم هزيمة.

فقد [ديون] خمسة وسبعين من رجاله وسقط من العدو خلقٌ كثير. وكان نصراً فريداً من نوعه، الفضل فيه يعود الى الجنود الاجانب بالدرجة الأولى. فكافأهم [ديون] بمائة مينا. فردّ الجنود الهديّة، بتاج من الذهب.

ولم يتأخر [ديونيسيوس] عن اخراج رسول بحمل رسالة الى [ديون] من النسوة عياله، كتب على غلاف احدها:

«من هيپارينوس Hipparinus الى ابيه»، وهيپارينوس هو ابن ديون. على ان [طيماؤس] يذكران اسمه [اريتيوس Aretaeus] مشتق من اسم [آريته] أمّه. على اني ارجح الأخذ برواية [تيمونيدس] لأنه كان أحد جنود ابيه ومحل ثقته، وقرنت بقية الرسائل علناً، وكانت تتضمن رجاءات متواضعة وتشفعات من النساء. اما تلك التي وجهت اليه من ابنه، فان الرسل رفضوا ان تفضّ علناً الاّ ان [ديون] اصرّ واجبرهم، فكسرت اختامها. فوجد انها موجهة من [ديونيسيوس] يخاطب بها شخص [ديون] ظاهرياً. على انها في الواقع موجهة الى السيراقوسيين وقد صيغت بحيث تجعل ديون موضع شك من المواطنين كما حوت تبريراً معقولاً لنفسه واستعطافاً وذكره بالخدعات الجليلة التي قدمها ديون للحكومة المستبدة في الماضي. وختمت بتهديد يتناول اعز ذوي قرباته؛ اخته وزوجه وابنه، ان لم يوافق على مقترحاته. وتلا ذلك مطاليب مؤثرة عاطفية، تتعلق بالحرص على الحكم، وعدم وضع السلطة في ايدي اناسٍ لم ينفكوا عن بغضه او نسيان احقادهم وخلافاتهم. واقترح ان يتبوء [ديون] العرش وبذلك يضمن سلامة اصدقائه واسرته.

واحدثت الرسالة أثرها في نفوس السيراقوسيين. ففي الوقت الذي كان ينبغي ان يزيد اعجابهم بشهامته ورباطة جأشه ازاء هذا التهديد، وبعد ان قدم أعزّ مصالحه على التفريط بالعدالة والفضيلة. رأوا فيها مصداقاً لهواجسهم وشكوكهم في احراج قد يقع على [ديون] لاقبل بمقاومته، فيخضع [الديونيسيوس]. ولذلك بدأوا يبحثون عن زعماء آخرين، فأستقبلوا بالمزيد من السرور نبأ قدوم [هيراقليدس] وهو احد الذين نفاهم [ديونيسيوس] جنديّ من اكفأ الجنود تولى قيادات هامة في اثناء حكم الطغاة، الاّ انه كان متقلباً في رأيه وعقيدته، لايمكن الاعتماد عليه في قيادة أمينة ان رسم له أن يعمل مع زميل. وكان ثم خلاف سابق بينه وبين [ديون] ايام وجودهما في [الپلوپونيسس]. حيث قرر هو ان يهاجم [ديونيسيوس]

بالأسلحة التي تتوفر له وأقبل بسبع بوارج وثلاث سفن فوجد الطاغية محصوراً بين جدران القلعة والسيراقوسيون يختالون عجباً بالنصر الذي حققوه، فأخذ يتقرب اليهم بمختلف الوسائل ويخطب ودّهم لتكون له شعبية عندهم، وكان في الواقع يملك المؤهلات المطلوبة من روح جذابة الى قابلية استمالة الجمهور الذي يهوى ان يكون دوماً موضع تدليل واعزاز. إنّ تضايق الناس من ترفع [ديون] واستعلائه سهل لهيراقليدس السبيل الى قلوبهم، فقد كانوا ينظرون الى مسلك [ديون] نظرتهم الى من يريد الإستهانة بهم والاحتقار لهم. وقد جعلهم نجاحهم يطرحون جانب الحذر، كما وثقهم بأنّ من حقهم بأن يجدوا في زعمائهم تذللا وخضوعاً وتزلفاً، قبل أن يثبتوا أسس الحكم الديمقراطي.

ولذلك دعوا الى عقد جمعية عامة اعتباطية ينقصها النظام واختاروا [هيراقليدس] أميراً للماء. فتقدم [ديون] واوضح لهم أن وضع هذه الثقة في [هيراقليدس] لاتعني الا سحب ثقتهم منه لأنه لايعود بعدها قائداً عاماً لهم بعد تسليمهم القيادة البحرية الى شخصٍ آخر، فأبطلوا الأمر وألغوا التعيين خلافاً لرغبتهم. وعلى أثر ذلك دعا [ديون] [هيراقليدس] الى منزله وبين له بلطف انه لم يكن حكيماً فيما عمل، وليس من المصلحة ان ينازعه في أحدى شكليّات المناصب، في ظرف قد تسبب اية خطوة مغلوطة خراب كل شيء. ثم دعا الجمعية العامة وأعلن امامها تعيين [هيراقليدس] أميراً للماء وسعى لدى الجمعية لمنحه امتياز حرس خاص برافقه، كما خُصص لنفسه بالذات. فلم يسع هيراقليدس إلاّ ان يعرب له عن أعظم احترامه وشكره لهذا الصنيع، واحاطه بالاجلال والتعظيم، ووضع نفسه رهن اشارته على أنه ظلّ وثيق الصلة بالمواطنين المشاكسين الذين لا يسلس قيادهم يعمل سراً على إثارتهم بشكاواه، ويلعب بعقولهم، فيضع [ديون] في أشد حالات القلق والحيرة. فلو نصح بالسماح [للديونيسيوس] باخلاء القلعة وترك صقلية لعرض نفسه لتهمة حمايته والعمل على انقاذه. واذا واصل الحصار ليتحاشى السخط او زرع بذور الشك، فسيقولون انه يتعمد اطالة امد الحرب ليبقى متمتعاً بسلطة الجنرال ويبسط ظلّ الأرهاب على المواطنين.

كان ثم في المدينة شخص اسمه [سوسيس Sosis] عرف بسوء السمعة والحمق، والرقاعة. الاّ انه كان يتمتع عند الجمهور بشعبية لسبب وحيد وهو رغبتهم في ان يطلقوا الحريات الشعبية حرة من الضوابط القيود كحرية الكلام. هذا الرجل تنفيذاً لدسيسة مبيتة [الديون] وقف يوماً في أحد الاجتماعات وبعد ان استوفى حظّه من التهجم على المواطنين ووصفهم بالحمقى الذين لايرون ما آلت اليه حالهم وكيف انهم استبدلوا استبداد فاجراً ما جن بآخر يقظٍ ماكر، وبعد أن أعلن نفسه عدواً وخصماً [الديون] ترك الاجتماع.

وفي اليوم التالي شاهده الناس وهو يعدو في الشوارع، وهو شبه عارٍ وفي رأسه جرح قاطع يسيل الدم منه على وجهه كأنه يهرب من وجه مطارديه. وفي الساحة العامة تجمع الناس حوله وسألوه عما جرى له، فأخبرهم ان رجال [ديون] هاجموه يريدون قتله، وكشف لهم اثباتاً، عن الجراح التي أصيب بها رإسه، وانتصر له خلق كثير وتصاعدت هتافات معادية ضدّ [ديون] تندد به وباعماله الوحشية المستبدة، وتعيب عليه كمّه الأفواه وسفك الدماء والتهديد بالموت.

وفيما كان الجمهور يتقاطر لعقد اجتماع عام في هذا الضجيج غير الاعتيادي، أقبل عليهم [ديون] وشرع يكشف لهم خيوط الدسيسة، فأخبرهم ان لـ[سوسيس] هذا أخاً هو أحد حرس [ديونيسيوس] وانه أطلق اخاه في المدينة لأثارة الشعب والهياج. فقد اسقط في يد الطّاغية ولم يعد يرى لنفسه مخرجاً الاّ اثارة الشغب وزرع الفتنة وبذر بذور التفرقة. وفحص الجراحيّون الجرح فوجدوا مسار القطع من الأسفل الى الأعلى، وانه سطحيّ غير نافذ، لأن الجراح التي تعملها السيوف تكون بسبب ثقل السلاح - عميقة نافذة في وسط القطع. وعلى مستوى واحدٍ من العمق في سائره. ووجدوا ايضاً انه ليس ثم قطع واحدٌ مستمر متأت من ضربة واحدة، بل عدة حزوز متأتية على أغلب الإحتمال من عدة محاولات على قدر احتمال المصاب بها. ثم جاء أناسٌ عرفوا بالصدق، وعرضوا في الاجتماع موسى وقالوا أنهم التقوا بسوسيس وهو يعدو في الشارع والدم ينزف منه فأخبرهم انه يفرّ من وجه جنود [ديون] الذين أطبقوا عليه وجرحوه قبل قليل. فأسرعوا لتعقيبهم فلم يجدوا احداً الا انهم عثروا على هذه الموسى مخبأة تحت صخرةٍ مجوفة كانت بالقرب من الموضع الذي أقبل منه الجريح.

ودارت الدائرة على [سوسيس] وبدأ انه سيلقى شرّ الجزاء على ما قدمت يده عندما تأيد كذبه بمجيء خدمه وادلائهم بشهاداتهم فقد ذكروا ان سيدهم ترك منزله بمفرده قبيل شروق الشمس وبيده موسى. ولهذا سحب المدعون على [الديون] اتهامهم، وصوتت الجمعية بفرض عقوبة الموت على [سوسيس] بالإجماع وابدّت موافقتها العامّة على جميع اجراءات [ديون]. على أنهم ظلوا يضمرون حسداً وعداء لجنوده. فالقتال بات الآن بحرياً. وقد أقبل [فيليستوس] من [ايابيكيا] لمساندة ديونيسيوس على رأس اسطول كبير، وبذلك رأوا ان لا حاجة بعد تدعو الى استخدام الجنود الغرباء وهم مقاتلو برٌ ومسلحون تسليحاً يستقيم مع صنفهم. والسيراقوسيون رجال بحر وهم أعرف كيف يعالجون امورهم من هذه الناحية لأن قوتهم تكمن في سفنهم. وبالغوا في تقديرهم لأنفسهم بافراط، للتفوق الذي حققوه في اشتباكاتهم البحرية التالية من ذلك ان [فيليستوس] وقع في ايديهم اسيراً فاذاقوه اشدّ العذاب، لقد روى [ايفورس Ephorus] انه بخع نفسه عندما أسرت سفينته. الاّ ان

[تيمونيدس] الذي رافق [ديون] من أول الانزال، وكان شاهد عيان للاحداث التالية، كتب الى [سپيوسپوس] الفيلسوف يقص عليه الحادث بالشكل التالي:

جنحت سفينة [فيليستوس] فأخذ أسيراً وجرد من سلاحه، ثم نزع جوشنه. وتعرض وهو أعزل كبير السن الى كل انواع الاهانات ثم احتزوا رأسه، وسلموا جثته الى صبيان المدينة، وامروهم ان يجروّها جراً في شوارع اخردانيا ومن ثم يطرحونها في المقالع الحجرية. ويضيف [طيماؤس] قائلاً ان الصبيان زيادة في التحقير ربطوا جثته من رجله العرجاء وأخذوا يسحبونه في الشوارع، بينما اصطف أهل سيراقوسة على الجانبين يضحكون ويتندرون على مشهد الرجل المربوط المسحوب من رجله الذي قال يوماً لديونيسيوس:

- انك لن تهرب على متن حصان. بل ستنظر لتسحل سحلاً الى خارج المدينة وانت مربوط من كعبيك.

على ان [فيليستوس] انكر صدور هذا القول منه لديونيسيوس، وانما القائل كان شخصاً آخر غيره.

استفاد [طيماؤس] من هذه الفرصّة التي هيّأها له [فيليستوس] دون ان يدري، واستخدمها في دفاعه الحار الدائب عن حكم الشعب، وقدحه وانتقاده لحكم الطغاة. واتخذها سبيلاً لارواء غليله منه والتنفيس عن حقده في عين الوقت، انه لما يفتقر للمكابدين منه الأذى، ان يتمادوا في الانتصاف لأنفسهم حتى عند اهانتهم جسده الهامد، ولكن ليس ما يشرف اولئك الذين يكبتون التاريخ، ممن لم يصبهم بايّ اذى في حال حياته، أولئك الذين اعتمدوا كتبه مرجعاً لهم، ان ينزلوا الى لغة التشهير والبذاءة والتحقير، وتأنيبه على سوء حظّ قد يقع لأفاضل الناس.

ويبدو لنا [ايفورس] طرفاً نقيضاً، حين يبتعد كثيراً عن الحقائق في اطرائه [فيليستوس] ومدح سيرته. فمهما بذل من جهد وبراعة في اضفاء الدوافع النبيلة العادلة على أعمال الظلم والتصرفات القبيحة ومهما جهد في اختيار العبارات المحتشمة الشريفة، سيظلّ [ايفورس] هذا متهماً بكونه من أشدّ المتحمسين للطغيان، واعظم المغرمين بترف الطغاة وسلطانهم وغناهم والتقرب منهم.

ان من لايمدح [فيليستوس] لسوء تصرفه، ولا يذمّه لسوء حظّه، هو الذي يسلك اصلح السبل واقومها في رأيي.

بعد مقتل [فيليستوس] عرض [ديونيسيوس] على [ديون] ان يسلمه القلعة وكل ما فيها

من مؤون وسلاح وجنود مدفوعة لهم اجورهم لستة اشهر مقدماً، مقابل تأمين حياته والسماح له بالرحيل الى ابطاليا دون تعرض، ليعيش هناك معتمداً على ما تدرّه [گيارتا Gyarta] من غلّة. وهذه قطعة أرض ذات خصب وماء وثمار تعود ملكيتها الى [سيراقوسة] وتمتد من ساحل البحر حتى اواسط البلاد. فرفض [ديون] مقترحاته هذه، واشار عليه بمراجعة أهالي سيراقوسة، إلاّ ان هؤلاء طردوا سفراءه، وكان غرضهم القبض عليه حيّاً خلال وقت قصير. فما كان منه الاّ ان ترك ابنه الأكبر [ابوللوقراطس] للدفاع عن القلعة واوقر سفنه بالنفيس من الأموال وبالرجال. وانتهز فرصة هبوب ريح موآتية وتسلل آمناً دون ان يفطن امير الماء [هيراقليدس] او اسطوله. فتصاعدت الاصوات بالاحتجاج واخذوا يندّدون [بهيراقليدس] ويتهمونه بالإهمال. فأستخدم [هيپو Hippo] أحد خطبائهم الجماهيريين فاندس هذا في الجمعية وقدم اقتراحاً حول اعادة تقسيم الاراضي قائلاً ان المبدء الأول للحريات هو تحقيق المساواة وان الفقر والاستبدادهما رفيقان لاينفصلان. ودعم [هيراقليدس] اقتراحه بخطبة. واستخدم الحزب المتحمس لهذا الرأي اداة للتغلب على [ديون] الذي كان يعارض في تقسيم الاراضي. ومجمل القول صادق الشعب بالتصويت على الاقتراح، كما صودق ايضاً على اقتراح يقضي بإيقاف صرف اجور الجنود الأجانب، وعلى اقتراح ثالث بوجوب اختيار قادة جدد للتخلص من سطوة [ديون]. كان الجمهور كما يقول المثل - يريد الوقوف حالاً على ساقيه بعد مرض الاستبداد الطويل الذي ابتلى به؛ وكانوا يريدون ممارسة حقوقهم كمواطنين أحرار، بأتخاذ الاجراءات والقرارات، وهم بعد في طور النقاهة، يتعثرون في خطواتهم ويركبون متن الشطط، فكرهوا [ديون] طبيبهم النطاسي وضاقوا به ذرعاً وهو يجاهد في حفظ المدينة ضمن إطار النظام والقانون.

في متنصف الصيف تقريباً التأمت الجمعية لأنتخاب القادة الجدد، فارعدت الدنيا، ووقعت آيات نحس أخرى دامت خمسة عشر يوماً متواصلة. فشتتت الناس ومنعت اجتماعاتهم بسبب الرهبة الدينية، ولم يتم انتخاب القواد. الاّ ان الغوغائيين ودعاة الشعب وجدوا لهم يوماً صاحياً فجمعوا انصارهم وباشروا عملية الانتخاب، وفي هذا الوقت بالذات، هاجت هائجة ثور حراثة بسبب عدم اعتياده ضجيج الناس وهرج الشارع، فأنفلت من نيره ومن سيطرة سائقه وأخذ يجري كالمسعور في انحاء الملعب حيث الاجتماع معقود، يقفز ويشب ويطارد وينطح فأحدث من الفوضى والاضطراب مالايمكن وصفه، ثم ترك الملعب هائماً على وجهه في ذلك الجزء الذي أحتله العدو من المدينة بعد ذلك بقليل. ولكن السيراقوسيين، لم يكترثوا لهذه الظاهرة، وواصلوا عملية الانتخاب. فأختاروا خمسة وعشرين قائداً من بينهم هيراقليدس

واتصلوا سراً برجال [ديون] ووعدوهم بمنحهم حق المواطنة السيراقوسة مع الامتيازات التي يفرضها هذا الحق. ان هم تخلوا عن [ديون] ووافقوا على الدخول في خدمتهم. فلم يعبأ هؤلاء ولكي يبرهنوا على اخلاصهم له وعلى شجاعتهم. وضعوه في وسطهم وساروا به خارج المدينة وسيوفهم مسلولة دون ان يتعرضوا لأحدٍ باذىً. الا انهم كانوا يعاتبون الناس وهم سائرون على جحودهم ونكرانهم الجميل. ووجد الأهالي أن هؤلاء الجنود قلّة، وشجعهم عليهم انهم لم يقدموا على عملٍ عنيف، فأستهانوا بهم واعتقدوا ان تفوقهم العددي عليهم سيكفل التغلّب عليهم والفتك بهم الى آخر رجل قبل ان يفلحوا في الخروج من المدينة، فأنقضوا على مؤخرتهم.

فكانت احرج ساعة في حياة [ديون]. وجد نفسه بين نارين امّا ان يقاتل ابناء وطنه وإما ان يستسلم هو وجنوده المخلصين ليقطعوا ارباً ارباً. فحاول شتىّ وسائل الإقناع والضراعة ردّ السيراقوسيين عمّا انتووه، ومدّ كلتا يديه الى القلعة التي يتحصن فيها اعداؤهم واشار الى الجنود الذين يحتلون الاسوار باعداد كبيرة وهم يراقبون ما يجرى في المدينة. ولما اسقط في يده ولم يجد وسيلة لاقناع المهاجمين، وان الكتلة البشرية الهائلة تبدو مندفعة كالبحر الهائج بتحريض واستفزاز الغوغائيين، أمر جنوده بالكرّ وما هي لحظة حتى هرب جميعاً وتفرقوا في منعطفات الشوارع. ولم يتعقبوهم بل سارع [ديون] فأمر جنوده بالاستدارة وخرج من المدينة قاصداً [ليونيتنيا].

النساء انفسهن أخذن يضحكن على القواد الجدد ويتندرن على الهزيمة التي اصابتهم. ولأجل ان يستعيد هؤلاء ما فقدوه من ثقة واحترام طلبوا من الأهالي حمل السلاح ثانية لتعقيب انسحاب [ديون]. وادركوه وهو يجتاز نهراً فجردوا عليه كوكبة من الخيالة الخفيفة راحت تناوش قوته. ففارق [ديون] هدؤه وليونته، وأختفى من اساريره ذلك الحنان الأبوي الذي كان يحفظه لمواطنيه وحل محله الحزم والعزم على ان يرد الصاع صاعاً فأمر رجاله بمواجهتهم ورصّ صفوفه في نسق الهجوم، وسرعان ما مُنوا بهزيمة اشنع من الأولى ففروا الى المدينة بعد ان فقدوا عدداً من الرجال.

واحتفى أهل ليونتيا بمقدم [ديون] واعطوا رجاله مالاً ومنحوهم حق المواطنة. وأرسلوا يطلبون من السيراقوسيين دفع ما بذمتهم للجنود، فرد هؤلاء بارسال وفدٍ اتهام لديون فعقد الليونتيون جمعيتهم وبحث الأمر ونوقش فظهر أن السيراقوسيين غير محقين في اتهامات وانهم الجانب المعتدي. فرفض هؤلاء تحكيم حلفائهم واتبعوا ما املاه عليهم غرورهم واعتزوا برأيهم واصروا على ان لايؤمّروا من القادة الا أولئك الذين يخافون الشعب ويطيعون اوامره

بدون مناقشة وفي تلك الاثناء جرد [ديونيسيوس] اسطولاً بقيادة [نيبسيوس Nypsius] النابوليّ وحمله اقواتاً واجوراً للحامية. الاّ ان السيراقوسيين اعترضوه وتغلبوا عليه وغنموا منه اربع سفن فاسكرهم النصر، واساؤا التصرف، وانفرط عقد النظام بينهم فغرقوا في الشراب والأكل والعربدة والمجون حتى جاوزوا كل حَدّ، واهملوا أخطر شأنٍ من شؤونهم، حتى خسروا مدينتهم ساعة أن كانوا على ثقة بان القلعة أصبحت في حكم المستولى عليها، لقد راقب [نيبسيوس] الفوضى وهي تجتاح المدينة، والأهالي وهم عاكفون على الخمر والغناء والعربدة يصلون الليل باطراف النهار، وقوادهم لايحركون ساكناً لوقف الفوضى، او انهم ما كانوا ليجرأوا على اصدار اوامر لرجال سكارى. فأهتبل فرصته وقاد هجوماً خارج القلعة فأكتسح استحكاماتهم وسحقها وأطلق العنان لجنوده البرابرة في المدينة، يعيشون فيها سلباً ونهباً، ويتصرفون بها كما يشاء لهم الهوى.

عندما ادرك السيراقوسيون مصيبتهم الى سببتها حماقتهم، كان التكفير عنها أو ملافاتها عن الصعوبة بمكان. فالمدينة في حالة اجتياح فعليّ، والعدو يعمل السيف في رقاب الرجال والاستحكامات تتساقط، والنساء يسبين سبياً ويحملن قسراً الى القلعة، والقواد المنتخبون انسحبوا من المسألة بعد أن تبينوا عجزهم عن تنظيم الأهالي وتعبئتهم بشكل مقبول لأغراض الدفاع والمقاومة. وفيما هم على هذه الحال، واخرادنيا تكاد تسقط في يد العدوّ، اتجهت الانظار كلها الى آخر امل لهم، ولكنهم لم يجرأوا على النطق باسمه خجلاً، وبعد ان نال من صفاقتهم ونكرانهم اسوء ما يمكن ان يناله بشر. الاّ ان للضرورة أحكاماً. وصاح صائح من بين جنود الاحتياط والخيالة:

- ابعثوا بطلب [ديون] ورجاله من ليونتيا!

ما ان طرح هذا الرأي وتردد اسم [ديون] حتى انطلقت صيحة فرح عامة وطالبوا باستدعائه والدموع في اعينهم، وتمنوا ان يعود لقيادتهم مرة أخرى، بحكمته واقدامه وراحوا يستعيدون في اذهانهم تلك الثقة التي بثها فيهم عندما قاد هجومهم على العدو وروحه الوثابة وشجاعته في اشدّ الأخطار. فأسرعوا يرسلون العسكريين [تيليسدس Telrsides] و[ارخونيدس Ar-chonides] والفارس [هيلانيكوس Hellanicus] واربعة آخرين فأنطلقوا على صهوات الخيل ينهبون الطريق نهباً وبلغو ليونتيا مساءً، وما أن ترجلوا حتى القوا بأنفسهم تحت قدمي [ديون] وشرحوا له وهم يبكون حالة السيراقوسيين التاعسة، وبدأ عدد كبير من الليونتيين والپلوپونيسيين يتجمعون حولهم مستنتجين من لهجة حديثهم ولهفتهم بأن أمراً غير اعتيادي قد وقع.

وتقدم [ديون] الناس الى محلّ الاجتماع وكمل النصاب بوقت قصير، وأقبل ارخونيدس وهيلانيكوس والرسل الأخرون وقصوا عليهم باختصار ما حَلّ بالسيراقوسيين من محن وارزاء، وطلبوا من جنود [البيلوبونيسس] نسيان ما لقوه من اساءات ونكران والاسراع بمساعدة منكودي الحظ الذين جوزوا على ما فعلوا بأكثر مما كان المساء اليهم سيجازونهم. وبعد أن انتهوا من كلامهم سار صمت عميق ارجاء الملعب. ثم نهض [ديون] واقفاً وانشأ يتكلم، الاّ انه لم يكمل عبارته فقد خنقته العبرة، وارتج عليه، فساد الاضطراب جنوده، وأخذوا يشجعونه على الكلام، وبعد ان سيطر على عواطفه واصل قائلاً:

- يا رجال [البيلوبونيسس] ويا رجال الحلف. اني ما جمعتكم هنا، لتفكروا بمصالحكم انتم. اما انا فلا مصالح عندي ابحثها هنا، وسيراقوسة تسير الى الدمار. ومع اني لست متأكداً بأني سانجح في انقاذها، لكن سأسرع اليها، لأدفن على الأقل تحت انقاض بلدي. امّا اذا مالت قلوبكم الى مساعدتنا نحن اشقى الناس واشدهم نزقاً وطيشاً فسيكون لكم شرف المحافظة على هذه المدينة الشقية وان فشل السيراقوسيون في اثارة شفقتكم ونيل مساعدتكم فلا يسعني على كلٍ، الاّ ان أطلب من الآلهة مجازاتكم على افعالكم النبيلة المقدامة الماضية في سبيلهم وعن العطف الذي لقيه منكم [ديون] الذي لم يتخلّ عنكم عندما احدق بكم الضرّ واهنتم. ولم يتخل ايضاً عن ابناء وطنه عندما احدقت بهم الخطوب واكتنفتهم الشدائد.

وقبل ان ينهي كلامه هبّ الجنود. واظهروا استعدادهم للسير وراءه بهتافات دادية، وأخذ يتنادون الى السير فوراً لانقاذ المدينة. فعانقهم الرسل السيراقوسيون ودعوا بالبركة لديون وجنود البيلوبونيسيس وبعد ان هدأت الضجة اصدر [ديون] اوامره بعودة الجنود كلّ الى مقره والتهيؤ للمسير. فأنصرفوا ثم عادوا بعد فترة وهم بكامل سلاحهم الى موضع التجمّع وقد اعتزموا انقاذ المدينة في تلك الليلة بالذات.

وفي سيراقوس، واصل جنود [ديونيسيوس] نهب المدينة وتدميرها طوال النهار وارتكبوا كلما يخطر بالبال من المحرمات ولم يتعففوا. الاّ انهم انسحبوا الى القلعة عند حلول المساء، وقد فقدوا عدداً من رجالهم، الأمر الذي حمل زعماء المعارضة في المدينة على الظن بأن العدو نال كفايته، وانه لن يقوم بمحاولة مماثلة أخرى، فأقنعوا الأهالي برفض معونة [ديون] والحيلولة دون دخوله الى المدينة عند مجيئه، نصحوهم بعدم الانصياع اليه والخضوع له لأن ذلك ينتقص من شرفهم وشجاعتهم اللذين يحتمان عليهم انقاذ مدينتهم والدفاع عن حرياتهم ومقتناهم بأنفسهم. وبناء على هذا عاد الأهالي فأرسلوا وفداً آخر [الديون] يحظرون عليه التقدم. أمّا

العقلاء والفرسان فقد ارسلوا من جهتهم وفداً ثانياً يحثونه على الاسراع. فما كان من [ديون] الاّ ان تباطأ في سيره الاّ انه لم يتوقف، ووضعت المعارضة اثناء الليل حرساً على ابواب المدينة لمنعه من دخولها. الاّ أن [نپسوس] قام بهجوم آخر من القلعة بعدد من الرجال يفوق عدد رجال أمس وكان هؤلاء أكثر شراسة واعتداء من زملائهم. هدموا ما تبقى من الاستحكامات، وأنقضوا رامحاً ونابلاً ينهبون ويخربون. وكانت الخسارة في الارواح هذه المرة أكثر بكثير من الأول ولم يقصروا الضحايا على الرجال وانما تعدوها الى النساء والاطفال وكان مطلبهم الرئيس التدمير والتخريب وقتل كل من يقع بأيديهم، لا النهب أو السلب، ذلك لأن [ديونيسيوس] يئس من استعادة ملكه وزاد حقده على السيراقوسيين الى حد اعتزم معه ان يدفن سلطانه تحت انقاض مدينتهم. ولما كان يتوقع نجدة [ديون] لها، فقد قرّ رأيه على خطة لتدمير المدينة تدميراً كاملاً سريعاً، باحراقها وذرّ رمادها. ولذلك باشر الغزاة بقيمون الحرائق باستخدام كلّ نار تقع في ايديهم من مشاعل ومصابيح ومسارج وسهام نارية يقذفونها من بعيد ودب الهلع في أهالي المدينة وراحوا يتراكضون على غير هدى، ان شبت النار في بيت وخرج اصحابها منها تتلقفهم سيوف المغيرين لتذبحهم ذبح النعاج. ومن يهرب من المذبحة الى البيوت، اضطرته النيران الى تركها لوقوع في ابدي الجلادين، واتت النيران على عدد كبير من المنازل، وهوى عدد منها على ساكينها فدفنتهم تحت انقاضها.

هذه المصيبة الجديدة التي كانت من صنع يدهم. فتحت ابواب المدينة امام [ديون]. وكان كما ذكرنا قد ابطأ في سيره عندما انبيء بانسحاب العدوّ الى القلعة. الاّ ان ثلة من الفرسان أقبلت من المدينة صباح اليوم الباكر لتنهي اليه نبأ الهجوم الثاني. وفي اثناء ذلك جاءه فاراً بعض من عارض في دخوله، راجين منه ان يعجل في نجدتهم. واشتد الضغط عليه وارسل [هيراقليدس] أخاه، ثم عمه يثودوتس معلنين عجز المدينة عن المقاومة وان هيراقليدس قد جرح ومعظم المدينة بات اما خرائب أو لهباً. وكان [ديون] على مسافة ستين فرلنكاً من المدينة عندما وصلته هذه الانباء المحزنة فشرح لجنوده الموقف واستنهض وهم وطلب منهم ان يضربوا للرجولة مثلاً فأستأنف الجنود السير، ولم يكن سيراً بل هرولةً وكانوا مرهم في طريقهم يلتقون بالرسل تلو الرسل وكلهم يحث على الاستعجال، وتمكن ديون بفضل حماسة الجنود العجيبة وسرعتهم المذهلة من بلوغ المدينة بسرعة فدخل [الهيكاتومپيدون Hecatompedon] ودفع بالمشاة الخفيفة الى هجوم فوري على العدو فأرتفعت معنويات السيراقوسيين واذكت في نفوسهم نار الشجاعة وعمد [ديون] الى رصّ جنوده الكاملي السلاح رصّاً محكماً ملحقاً بهم من تطوع من السيراقوسيين ونظم الكتائب على العمق، ووزع ضباطه بقيادات منفصلة

ليتمكن من الاشتباك على جبهات متعددة في وقت واحد وهي الخطة الفعالة المثلى لمواجهة العدوّ في هذا الموقف.

بعد ان أكمل استعداده وقدم النذور للآلهة. زحف على رأس رجاله للاشتباك مع العدوّ ولما شوهد في الشوارع ارتفعت هتافات التشجيع والتهاني وقدمت النذور وراحوا ينادون [ديون] بالمنقذ والربّ الحارس، ويلقبون جنوده بالاصدقاء والأخوة وابناء الوطن. وكان يبدو ان الجنود لايقيمون وزناً لسلامتهم قدر ما كانوا يهتمون بسلامة [ديون] وهو يسير في مقدمتهم مواجها الخطر يخوض الدن ويتخطى النيران ويطأ اكداساً من الجثث الملقاة في طريقه. في الواقع كان العدوّ في حالة تشيع الهلع في النفوس. فقد اسكرتهم خمرة النصر وجعلتهم في منتهى الشراسة وهم في مواقع جيدة متحصنون على طول الجدار المتهدم. مما جعل أمر الاشتباك بهم مجازفة. على أن ما أورث جنود [ديون] الانزعاج هو خوفهم من النيران المشبوبة التي جعلت سيرهم صعباً بطيئاً، لأن النار كانت تلتهم البيوت ولهيبها يواجههم من كل ناحية، وخطر سقوط المنازل عليهم محدق بهم، وهم يشقون طريقهم بين اكداس من الحطام المشتعل. وخلال سحب الدخان والرماد، وحاولوا جهدهم المحافظة على نظام تقدمهم وتراصّ صفوفهم. حتى اذا بلغوا مواقع العدوّ كان ميدان التعرضّ ضيقاً جداً، والأرض غير مستوية. لاتسمح الاّ بالاشتباك على نطاق ضيق محدود. ولم يطل الأمر بهم حتى كروا عليهم بهتاف التشجيع ومساندة السيراقوسيين وهزموهم. ونجا معظم من كان قريباً من مداخل العلقة. أما الفئات البعيدة فقد لوحقت وتم التقاط افرادها من مختلف الجهات. ووضع السيف في رقابهم. ولم تكن الحال تسمح للمواطنين بابداء السرور والاحتفال بالنصر وتبادل التهاني فقد انشغل الجميع باخماد النيران واستنقاذ ما بقي قائماً من المنازل وظلوا يعملون طوال الليل ولم يسيطروا على النار الاّ بشق الأنفس.

في اليوم التالي لم يجرأ أحدً من خطباء الجمهور على الظهور في المدينة فقد ادركوا مغبة عملهم وتبينوا جريمتهم بمجرد هروبهم انقاذاً لارواحهم. على ان [هيراقليدس] و[ثيودوتس] سلما نفسيهما [الديون] مقرين بانهما اساءا اليه وراجيين ان يكون ارحم بهما مما كان منصفين له. وقالا: كم سيكون جميلاً به وهو صاحب الفضل في كلّ هذه المآثر العظيمة، ان يهديء من سورة غضبه، وأن يشمل بكرمه ناكري جميل يعترفان الآن امامه بهزيمة عداوتهما ومنافستهما الماضية له امام فضائله وقد نصحه اصدقاؤه رغم الخضوع الذي ابدياه - بالاّ يعفو عنهما وان يسلمهما الى جنوده لقتلهما وبذلك يقتلع من ارض الجمهورية، نبتة حبّ الظهور الشخص باطلاب الشعبية وهو مرض يساوى بخبثه وحظورته نوازع الطغيان والاستبداد بالضبط واخذ

[ديون] يهدئ من روعهما ويحاول كسب ودّهما فقال:

انه غيره من القادة تدربوا اكثر ما تدربوا على حمل السلاح وخوض غمار الحروب. اما هو فقد قضى جلّ وقته يدرس في الاكاديمي، كيفية التغلب على الغضب، والقضاء في ذاته على عاطفة الحسد وروح المنافسة. ولايكفي المرء ان يحقق ذلك ليعدّ براً عطوفاً باصدقائه، وبأولئك الذين يستحقون منه كل الخير. وانما يجب عليه ان يكون رفيقاً مستعداً للتصفح عن المخطئين الجانحين. وانه ليرغب في ان يُشهد عليه الملأ بأنه لايريد ان يظهر على [هيراقليدس] في مضمار الكفاءة وحسن التصرف، بل ان يستظهر عليه في مضمار الرحمة والعدل، فها هنا تكمن افضلية التفوق الحقيقي، في حين ان مجد النجاح في الحرب ليس ثابتاً ولا قطعياً. لأن الحظّ سيكون بلا شكّ، طرف المنازعة فيه ولايمكن لأي امرءٍ ادعاء حقٍ فيه. ماذا لو كان [هيراقليدس] غادراً خبيثاً حقيراً بطبعه؟ افعليه ان يشين من مناقبه هو بالاهتمام بتلك الطباع؟ ان القوانين والمبادىء تقرّ بأن الاكثر عدلاً هو ان تنتصف لنفسك من اذى، لا ان تقترف الأذى. الا ان الواضح بان كلا العملين يصدران بالأصل من العيب والنقصان نفسهما. ان خباثة طبع البشر مع عسر علاجه، الأ انه ليس من المناعة والاستحالة بمكان. اذ يمكن التغلب عليه بالعطف، ويمكن تبديله، بالعفو والمنّة المتكررة.

بعد هذا الكلام المنعم بالحجج عفا [ديون] عن [هيراقليدس وثيودوتس] واخلى سبيلهما. ثم قررّ مهاجمة القلعة بعد القاء الحصار عليها. فأمر كل سيراقوسيّ بقطع وتدٍ مساهمة منه في اقامة الاستحكامات. وبعد هذا صرفهم ليصيبوا ما هم في حاجة اليه من الراحة والجمام، وابقى رجاله يعملون في اقامة الأطم طول الليل وعندما اصبح الصبح كان خطّ الأطم قد كمل بناؤه. وأصيب الأهالي والعدو على حدٍ سواء بالدهشة لانجاز هذا العمل الكبير خلال وقت قصير. وبعد ان تمّ دفن الموتى، وافتداء الفين من الأسرى تقريباً. دعا الجمعية العامة للانعقاد. وتقدم [هيراقليدس] مقترحاً. تعيين [ديون] قائداً عاماً مطلق الصلاحية براً وبحراً فأستحسن وجوه المواطنين وعقلاؤهم ذلك ودعوا الشعب الى التصويت عليه الأ ان الرعاع من البحارة والشغيلة لم يقبلوا تنازل [هيراقليدس] عن القيادة البحرية، معتقدين انه اقرب من [ديون] شعوراً بالمواطنة، وأسرع الى تفهّم رغبات الشعب رغم رداءته. فنزل [ديون] الى حكمهم ووافق على استمرار [هيراقليدس] في قيادة الاسطول وعندما بدأ الضغط بخصوص مشروع اعادة تقسيم الأراضي والمنازل لم يكتف [ديون] بمعارضة الأمر وانما ابطل كلّ الاجراءات المتخذة في هذا الصدد، فجرح مشاعرهم وادى الى ان يرتفع رصيد [هيراقليدس] عندهم، فشجعه ذلك وقام وهو في [مسينا] يخطب في الجنود والبحارة. متهماً [ديون] بأنه

يعمل ليجعل من نفسه حاكماً مطلقاً. وكان في الوقت نفسه يفاوض [ديونيسيوس] سراً بوساطة [فاراكس pharax] السپارطي. عندما أحسّ الاشراف في سيراقوسة بما يجري كان الجيش قد أعلن التمرد. وأخذت المدينة تعاني ضيقاً شديداً وشحت الاقوات فيها، ولم يعد [ديون] يتبين السبيل الصحيحة التي يسلكها، اذ كان موضع لوم اصدقائه لأنه مكّن منه رجلاً فاسداً شريراً كثير الحسد هو [هيراقليدس].

كان [فاراكس] حينذاك قد عسكر بالقرب من [نياپوليس Neapolis] في اراضي [اغرغنتوم Agrigentum] فزحف على [ديون] بجنوده السيراقوسيين. على انه لم يكن ينوى الاشتباك معه حتى تواتيه الفرصة المناسبة. الا ان هيراقليدس وبحارته راحوا ينددون بموقفه ويشيعون بأنه يؤخر القتال ليطيل من فترة قيادته. فلم يجدّ بدأ من القتال فغلب ولكن خسارته لم تبلغ الشيء الكثير. وجمع رجاله وهو ينوي خوض معركة ثانية ورصهم في نظام محكم وحثهم على استعادة سمعتهم في المعركة التالية وقبل ان يتعرض للعدو، ورده نبأ يقول ان [هيراقليدس] يتوجه باسطوله الى سيراقوسة قاصداً احتلالها، ومنع جيشه من الدخول اليها. فأختار جماعة من رجاله النشطين وركب ليلاً متوجها الى المدينة بأسرع ما أمكنه، وفي حدود الساعة التاسعة في صباح اليوم التالي كان عند ابوابها وقد قطع سبعمائة فرلنگا في تلك الليلة، وبذلك سبق [هيراقليدس] الذي حاول الوصول قبله لكنه جاء متأخراً، ولما علم بوجود [ديون] غير اتجاه سفنه وبقي في عرض البحر لا يأتي بعملٍ وهو حائر ماذا يصنع الى أن قيضت له الاقدار [غيسيلوس Gaesylus] السپارطي فقد اخبره هذا، انه قدم من [لقيديمون] لتوجيه الصقليين وقيادتهم، كما فعل [غيليپوس Gylippus] من قبل. فكان سرور [هيراقليدس] بلقياه عظيماً. وأمسكه وتشبث به كأنه تعويذه، واظهره لحلفاء سيراقوسة، وبعث بمنادٍ الى المدينة يدعوهم الى قبول هذا السپارطي جنرالاً لهم. فكان ردّ [ديون] ان لديهم من القادة ما يكفي، وان كانوا هم بحاجة الى سپارطي يقودهم. فبإمكان [ديون] أن يسدّها لأنه مواطن سپارطي هو الآخر. وعندما تبين [لغيسيلوس] هذا الأمر نزل عن ادعائه وابحر الى [ديون] وأجرى صلحاً بينه وبين [هيراقليدس] بعد أن أقسم هذا بأغلظ الأيمان على الاخلاص والولاء وتنفيذ كل ما يعهد اليه من واجبات. وتعهد [غيسيلوس] بأن يضمن سلوكه ازاء [ديون] وأن ينفذ به أيّ حكم اذا حنث بيمينه.

وبعد هذا وجد السيراقوسيون الا فائدة من الاسطول وانه يكلفهم اعباء مالية جسيمة. فعطلوه عن العمل، وتخلصوا بذلك من أهم اسباب الخلاف والنزاع بين القواد، والقوا بثقلهم في الحصار، فأكملوا بناء الأطم وبذلك عزلوا القلعة واخذوا يضيقون عليها الخناق.

ولما وجد المحصورون ان أملهم بالنجدة يكاد يكون مستحيلاً وان اقواتهم شحت وبدأ الجوع ينشب فيهم اظفاره، أعلنوا تمردهم وشقوا عصا الطاعة على ابن [ديونيسيوس] الذي ظلّ صامداً فترة تزيد على فترة صمود ابيه. فأضطر الى مفاوضة [ديون] حول تسليم القلعة بكل حاميتها ومستودعاتها ثم اوسق خمس سفنٍ واصعد اليها امه واخواته الالتحاف بابيه. واتخذ [ديون] التدابير ليقلع عنها بسلام. ولم يبق احد من أهل المدينة الا وخرج لمشاهدة السفن وهي تغادر القلعة. وكانت نغصة في قلوب أولئك الذين لم تسمح لهم ظروفهم بمشاهدة المنظر في ذلك اليوم السعيد الذي اشرقت فيه الشمس على سيراقوسة الحُرّة لأول مرة. يذكر تاريخ طرد [ديونيسيوس] الى يومنا هذا بوصفه أعظم واروع مثل لتصاريف الحظّ. وليس لنا الاّ ان نتخيل البهجة التي عمت أولئك الذين اسقطوا اعتى المستبدين واعظمهم جبروتاً سقوطاً لاقائمة بعده بوسائل محدودة وقوة ضعيفة تكاد لاتذكر.

بعد ان أقلع [ايبلوقراطس] توجه [ديون] لوضع يده على القلعة ولم تستطع النسوة الباقيات فيها، الصبر بل اسرعن لاستقباله عند المدخل، وكانت [ارسطوماخه] تمسك بيد ابنه، و[آرتيه] تتبعها باكيةً وجلة لاتدري كيف تقابل زوجها وتكلمه، بعد ان ساكنت رجلاً آخر مساكنة الازواج. وعانق [ديون] أخته اولاً، ثم ابنه، وعندما قادت [ارسطوماخه] زوجه اليه ابتدرته قائلة:

- ان ابعادك يا أخي ديون اشقانا كلّنا. وعودتك ونصرك هذا ازالا كلّ احزاننا. الاّ احزان هذه البائسة المسكينة، احزان اضطررت ان احمل مثلها انا التاعسة وان كنت حية. ان الحظ القانا في حماك انت وحدك. فما هو قرارك في امر شقائها؟ بأي شكل ستحييك؟ كخالٍ لها ام كزوج؟

فأبكته بكلماتها، وأقبل على زوجه يعانقها عناقاً حاراً، وسلم اليها ابنه وطلب منها ان تقوده الى منزله الذي استمر على سكناه وكان فيه عند تسليمه القلعة للسيراقوسيين.لقد تمّ كل شيء وفق مرامه وتكللت مجهوداته بالنجاح، ولكنه لم يشأ أن يستمتع من حظّه المجيد، بفائدة او متعة، وأكتفى بارضاء اصدقائه ومكافأة حلفائه والانعام على رفاق الايام الخوالي في أثينا. وارضاء الجنود الذين خدموه بالهبات والتكريم الخاصّ. وتعدى حدود امكاناته في البذل والعطاء، وقنع لنفسه بالزهيد من اسباب العيش، وآثر الاعتدال في حياته، وأضق في الواقع محطّ اعجاب الناس جميعاً لا في صقلية وقرطاجنة وحدهما، بل في سائر بلاد الاغريق. وارتفع به المقام عندهم الى الأوج وعدوه اعظم رجال زمانه، واشهر قائدٍ سواء لبسالته أو للنجاح الذي حققه. وبقي [ديون] مع هذا كله بسيط العيش كأنه مازال يساكن

[افلاطون] في الاكاديمي وليس عائشاً بين ضباط مأجورين وجنود مرتزقه همهم الوحيد ان يأكلوا ويشربوا ملء بطونهم لقاء تعرضهم للأخطار والموت، وان يمتعوا انفسهم بالملذات كل يوم تعويضاً عن كدحهم واتعابهم ولذلك كان طعامه عادياً، وحياته اليومية خالية من الأبهة فلا حرس ثم ولا خدم. وكتب اليه [افلاطون] يقول: «ان اعين العالمين كلها شاخصة اليه» على أن عينه كانت في الواقع تشخص الى موضع واحد في الدنيا. الا وهو الاكاديمي منتظراً حكمها عليه. فراقبوه وقضاته هناك لايحفلون بالحظّ ولايهتمون بالشجاعة ولاتقدير عندهم للاعمال العظيمة. وكل ما يهتمون به أن يرقبوا الى اي حدّ يستطيع سلطانه استخدام الحكمة والاعتدال. وباي مستوى يستطيع ان يحافظ عليهما وهو يتمتع بالمجد والسؤدد ؟

انه والحق يقال، لم يكبت ميله الى العظمة، بل يتعمدها عند حديثه أو مخاطبته الجمهور ويصر على التمسك بهذا المظهر. في حين ان تنازلاً قليلاً ومجاملة رقيقة، كانا من ضروريات حالته الراهنة. وقد عابه [افلاطون] كما قلنا. وكتب اليه يقول «ان التشبث بالرأي يبقي الدار في وحدة موحشة». ومن نافلة القول ان مزاجه لم يكن باللين المطواع. كما انه كان يرمي من تشدده هذا الى الاخذ بيد السيراقوسيين نحو السبيل وانقاذهم من حالة الفجور والتهتك التي يعيشونها. وعاد [هيراقليدس] بتآمر ضده. استدعاه [ديون] ليكون واحداً من مستشاري الدولة، فرفض قائلاً: انه سيدلي برأيه كمواطن عادي في الجمعية العامة ولايريد أكثر من هذا. ثم شكا من [ديون] بأنه لم يهدم القلعة ولم يوافق على نبش الجمهور ضريح [ديونيسيوس] والقاء رفاته خارجاً بعد التشهير بها. ثم اتهمه بأنه طلب من [كورنث] مشاورين ومساعدين له على الإدارة. مهملاً ابناء وطنه ومحقراً من شأنهم. والواقع هو انه ارسل رسائل لبعض الكورنثيين يستقدمهم ليعاونوه على وضع دستور الدولة الذي كان ينوى اقراره. فقد أراد أن يقلّص من سلطة الشعب. ويقيد الديمقراطية التي كانت تمارس بدون حدود، وهي كما وصفها افلاطون «بحكومة الساحة العامة» كما انتوى اقامة نظام حكم هو مزيج من النظامين الكريتي والسپارطي، أعني انه يقف وسطاً بين النظام الجمهوري بالنظام الملكيّ، فيه يتولى الحكم هيئة ارستوقراطية تشمل سلطتها كل الأمور الخطيرة. ووجد ان الحكم الكورنثي بالأصل يتألف من هيئة عليا تشبه الاوليغارشية. وان عامة الشعب قليلة الاهتمام بالسياسة وأمور الحكم. وكان يدرك ان [هيراقليدس] سيكون اقوى خصومه معارضة له في هذا فضلاً عن كونه دساساً مشاغباً مفرقاً للصفوف. لذلك أفسح المجال لأولئك الذين سبق له فمنعهم عن قتله، فأقتحموا عليه بيته وقتلوه. وآثار مقتله سخطاً وحنقاً عظيمين عند الناس كافة. ولما اقام له [ديون] تشييعاً مهيباً وسار خلف نعشه كل جنوده وخطب فيهم بعد ذلك ادركوا انه

ليكون من رابع المستحيلات ان تتمتع المدينة بالاستقرار أو ان تتسع لوجود [ديون وهيراقليدس] يتنافسان على الحكم.

كان [لديون] صديق آثيني يدعى [كاللييوس Callipus] قال افلاطون عنه: انه كان على معرفة بسيطة به في مبدء الأمر ثمّ توثقت اواصر الصداقة بينهما لا بسبب من علاقة بالدراسات الفلسفية، وانما بمناسبة الاحتفال بعيد «الاسرار» وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية. هذا الرجل رافقه فيما بعد في كلّ حروبه وحظي لديه بمكانة ونفوذٍ كبيرين، وكان في مقدمة من سار الى جانبه عند دخوله سيراقوسة وعلى رأسه أكليل. وقد ابلى أحسن البلاد في المعارك وبرّز بشجاعته. هذا الرجل وجد ان خيرة اصدقاء [ديون] قد هلكوا في الحروب، وان [هيراقليدس] طواه الردي. والشعب يحتاج الى قائد، والجنود يكنون له الحب. فبدات الآمال العراض تداعب مخيلته، كأيّ وغدٍ شرير همّه الغدر، في ان تكون له السلطة العليا في صقلية على حساب القضاء على صديقه والمحسن اليه. لقد قيل ايضاً أنّ العدوّ رشاه بعشرين تالنتاً لقاء فتكه بديون. فاعزى عدداً من الجنود وضمهم الى موآمرته، واستخدم الحيلة الشريرة التالية لإحكام خطته: اعتاد ان يخبر [ديون] يومياً، بكلّ ما سمع، او كل ما لفق عن لسان الجنود من اقوال ضدّه. فنال ثقته العصياء واعتمد عليه كليه، وسمح له ان يتكلم بحريّة ضدّه في كل المجلس لايقاع خصومه في الشرك والكشف عن العناصر الضارة التي تضمر له الشرّ. فاستعان [كاللييوس] بهذا على تأليف عصبة يتضم كل الساخطين الثائرين في المدينة بوقت وجيز وكلما انضمواحد الى العصبة المتآمرة اسرع كاللييوس يقول له انه سيخالطه ليحلّ عقده لسانه ويكشف عن سرِّه، فيطمئن [ديون] معتقداً بأن صديقه انما يفعل ذلك لمصلحته وتنفيذاً لتعليماته.

وفيما كانت الموآمرة تنضج، رأى [ديون] رؤيا غريبة مخيفة. خيل اليه ان جالس ذات مساءٍ في جوسق ببيته وحيداً مستغرقاً في افكاره فسمع صوتاً مفاجئاً فالتفت فشاهد في نهاية صف الاعمدة وفي وضح النهار. امرأة فارعة الطول تشبه تانك الفيوري في التراجيديات بملامحها وزيها - ورأى بيدها مكنسة تكنس بها الارض فانتابه ذهول وهلع شديدين. وأرسل يستدعي عدداً من اصدقائه، وقصّ عليهم حلمه وناشدهم البقاء معه طول الليل لأنه كان في منتهى القلق والرعب، وهو يخشى أن يلوح له الشبح ثانيةً ان ظلّ وحيداً. الاّ ان الرؤى لم تعاوده غير انه فجع بعد ايام قلائل بمصيبه أليمة. فقد القى ابنه الوحيد بنفسه من سطح الدار فهشمت رقبته وكان شاباً يكاد يبلغ مبلغ الرجال، على اثر كدر وغيظ بسبب مسألة تافهة.

وفيما كان [ديون] في غمرة الحزن، دفع [كاللبپوس] بمؤآمرته الى حيزّ التنفيذ، فعمد الى نشر اشاعة بين السيراقوسيين، مؤداها أن [ديون] اعتزم ان يستدعي ابن [ديونيسيوس] ليجعله ولي عهده وخليفته بعد موت ابنه الوحيد. وفي هذا الوقت بالذات تسرب الشكّ في قلب [ديون] واخته وزوجه، من تصرفات [كاللبپوس] وبدأت المعلومات تردهم من كل صوب حول وجود المؤآمرة. وكان [ديون] في تلك الآونة يعاني اضطراباً نفسياً شديداً، قد يكون مرده تأنيب الضمير لقتل [هيراقليدس] وهو لاشك لطخة سوداء ووصمة عارٍ في حياته. وقد ركبه نوع من الملل والقنوط وصار يفضل الموت الف مرة على العيش في خوف دائم من اعدائه، بل في شكّ من اصدقائه. على ان [كاللبپوس] انتبه لفضول المرأتين الشديد، ولتساؤلاتهما العديدة للنفاذ الى اعماق المسألة فجاءهما باكياً ينكر التهمة بشدة وعرض عليهما اي دليل يقنعان به تأكيداً لاخلاصه فطلبتا منه ان يحلف «اليمين العظمى» وكانت تؤدى على النحو التالي: يدخل المحلف الى حرم هيكل [كيريس Ceres وپروسپرين Pros-perine] وبعد تأدية مراسيم مخصوصة يرتدي ثوب الربة الارجواني ويمسك بيده مشعلاً موقداً ويؤدي القسم. فنفذ [كاللبپوس] ما طلبا منه منكراً ما عزي اليه. وكان في الواقع لايقيم وزناً للآلهة، حتى انه انتظر الى ان حلّ عيد پروسپيرن التي حلف في هيكلها ليجعل منه موعداً لارتكاب جريمة القتل ولم تكن في الواقع ضرورة تدعوه للتشدد في اختيار اليوم. لأنه سيكون مجرماً في أي يومٍ من الايام، بعد ان قام بمراسيم كاهنها المكرس ليسفك دم احد عبادها.

وكان عدد المساهمين في المؤآمرة كبيراً. وديون في داره يجالس عدداً من اصدقائه في قاعة انتشرت فيها موائد الطعام. فطوق فريق من المؤتمرين الدار. وعمد فريق آخر الى احكام أغلاق الابواب والنوافذ، اما الفريق الذي وقع عليه تنفيذ جريمة القتل فكان من الزاكنيثيين، الذين ولجوا الدار دون معاطف ولا سيوف فأغلق الذين هم في الخارج الباب وراءهم ووقفوا حراساً عليها. وانقضّ القتلة في الداخل على [ديون] يريدون كتم انفاسه خنقاً، فلم يفلحوا فطلبوا من رفاقهم في الخارج سيفاً، ولكن لم يجرأ أحدٌ على فتح الباب وكان ثمّ عدد كبير من عشراء [ديون] في الغرفة الا ان كل واحد منهم صار يهتم بنجاته، متوهمين ان حياتهم ستكون بمأمنٍ ان هو فقد حياته فلم يقدم أحد على اغاثته وانتظر القتله ملياً، حتى قذف اليهم [ليكون Lycon] السيراقوسي بسيف قصير من النافذة فتلقفه أحد الزاكنيثيين وذبحه مثل اضحية. فقد بقي طول هذا الوقت ينتفض بين ايديهم منتظراً الضربة القاتلة.

بعد هذا اودعت السجن كل من اخته وزوجه وكانت حاملاً وفي السجن وضعت السيدة

التاعسة وليدها فقامتا على حضانته بموافقة الحرس، أو بالأحرى قبلوا ذلك لأن [كاللبيوس] بدأ يتورط بالمتاعب.

بعد ان قُتل [ديون] نبه صيت [كاللبيوس] وأصبح الحاكم المطلق في سيراقوسة فكتب بذلك الى آثينا. تلك المدينة التي تأتي سؤوليتها في هذه الجريمة النكراء بعد مسؤولية الآلهة مباشرةً. والتي كان عليها أن تنظر اليه نظرة خوفٍ وعارٍ. ولقد اصاب كبد الحقيقة من قال عنها: ان ذوى الصلاح الذين تربيهم ليس أصلح منهم، والأشرار الذين تقذفهم ليس أشر منهم. كذلك البلاد نفسها فهي تنتج الذّ العسل وافتك سُمّ من الشوكران.

وعلى اية حال لم يقطع [كاللبيوس] شوطاً طويلاً في تحّدي الحظّ. ولا في تغاضي الآلهة عن عزه ونعمانه كأنها تتستر عليه وتحميه وهو الذي اشترى الثروة والسلطة بارتكاب اشنع جريمة. فلم تمهله، وانالته القصاص الذي يستحقه. فقد خرج للاستيلاء على [كاتانا Catana] ففقد سيراقوسة. وذكروا انه قال بهذه المناسبة:

- فقدت المدينة، وربحت دمية!

ثم هاجم [مسينا] مهلك معظم رجاله ومن بينهم قتلة [ديون] ولما امتنعت كل مدن صقلية عن ايوائه وكلها تمتقه وتنفر منه، توجه الى [ريگيوم] في ايطاليا، وضاقت به السبل هناك ولم يجد ما ينفق على جنوده. ثم وثب عليه [لپتينس Leptines] وپوليسپرخون فقتلاه، وشاءت الاقدار يكون موته بالسيف الذي استعمل بقتل [ديون] وقد عرف بقصره، كالسيوف السپارطية، وبصنعته الغريبة الدقيقة، وهكذا استوفي [كاللبيوس] جزاء غدره.

عند اطلاق سراح [ارسطوماخه ورابته] من السجن اخذهما [هيكتيس Hicetes] احد اصدقاء [ديون] الى منزله. ويبدو انه ظلّ يعني بهما ويرعاهما كما يليق بالصديق المخلص الى ان زيّن له اعداء [ديون] التخلص منهما فجهز سفينه وزعم انه يريد ارسالهما الى البلوپونيسس] الا انه أمر البحارة بقتلهما والقائهما في البحر عند الابتعاد عن اليابسة. وروى آخرون انهما القيتا مع الوليد في البحر أحياءً. هذا الرجل لم ينج ايضاً من الجزاء العادل فقد قبض عليه [تيموليون] وقتله، وذبح السيراقوسيون بنته انتقاماً لـ[ديون] وكل هذا اسهبت في سرده في سيرة تيموليون.

١٩٧٢/٢/٢٢



مارکوس بروتوس

BRUTUS

(Marcus Junius)

85 ـ 42



مرقس بروتس — المتحف الكاپيتوليني

انحدر [ماركوس بروتوس] من صلب [يونيوس بروتوس] الذي اقام له الرومان الاقدمون تمثالاً برونزياً في الكابتول ووضعوه بين تماثيل ملوكهم، يرى وهو قابضٌ على سيفٍ مسلول تخليداً البسالته وثبات عزمه في طرد [آل تاركوين] والقضاء على النظام الملكي. الاّ ان بروتوس الأول هذا كان ذا طبع صارم كأنه قدّ من الحديد، لايلين كالسيف الفولاذي والرجل صلب بطبعه، لم تهذبه الدراسة والثقافة حتىّ ان حنقه على الطغاة بلغ به حداً ان قتل ولديه لأنهما تآمرا معهم. الاّ ان بروتوس الذي نسرد سيرته الآن اعتنى كثيراً بتهذيب غرائزه الطبيعية، عن طريق الثقافة والضبط العقلي الذي تعطيه الفلسفة، كما انه اجهد نفسه في تنشيط اهدأ وارزن جانبٍ من اخلاقه ودفعه الى العمل. وكانت النتيجة ان مزاجه أصبح متوافقاً تماماً مع حياة الفضيلة التي عاشها. ولذلك نجد حتى أولئك الذي حقدوا عليه بسبب مشاركته في المؤامرة ضد [يوليوس قيصر] كانوا على استعداد ليعزوا الفضل لـ[بروتوس] في كل جانبٍ طيب منها في حين حملوا [كاسيوس] صديقه العزيز وقريبه كل قبيح فيها، ولم يكن كاسيوس بالذي تنقصه الفضيلة ولا بذلك الذي يفتقر الى الخلق القويم.

وامّه [سرفيليا] تنحدر من صلب سرفيلوس اهالا servilius Ahala وهو الرجل الذي تصدى لـ[سپوريوس مايليوس Spurius Maelius][1] عندما كان يحاول كسب مساندة الشعب ليجعل من نفسه طاغية. فوضع خنجراً تحت ابطه وذهب الى الفورم، وقصد [مايليوس] متظاهراً بالتحدث اليه، وعندما كان الرجل يميل برأسه اليه ليصغي الى مايقول انتهز فرصته وطعنة قاتلة. هذا هو المتفق عليه عموماً حول اسلافه من جهة الأمّ، واما عن اسرة ابيه فالناس الذين يحملون له أشدّ الكره وسوء النية بسبب قتل [قيصر] ينفون اية صلة نسب له مع [بروتوس] الذي طرد [التاركوينيين] لأنه بقي دون عقبٍ بعد قتله ابنيه. فهو بالنسبة اليهم انحدر من رجل عاميّ هو ابن وكيل بهذا الاسم ولم ترتفع مكانته في الوظائف العامّة الاّ في زمان متأخر. على ان [پوسيدونيوس] الفيلسوف يزعم ان الابنين الشابين

(١) كان سپوريوس مايليوس تاجر قمح غنياً، نظم مؤامرة انقلابية للاطاحة بالحكم الروماني في العام ٤٣٩ ق.م. انظر ليڤي ١٣:١٧.

[ليونيوس بروتوس] أعدما الحياة، كما ورد في التاريخ حقاً، الاّ ان ثم ابناً ثالثاً كان في حينه صبياً، فعاش ومنه نشط النسل الذي انحدر منه [ماركوس بروتوس]، وزاد على هذا قوله بأنه وجد عدد من مشاهير الرجال من هذه الأسرة، كانوا احياء في زمانه، وبعضهم ذوو ملامح تشبه ملامح تمثال [يونيوس بروتوس] شبهها ملفتاً للنظر. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع.

كانت [سرفيليا] امّه، أختا [لكاتو] الفيلسوف. وهو الرجل الذي لم يعجب [بروتوس] باحدٍ قط من الرومان قدر ما أعجب به، وقد تزوج فيما بعد ببنته [پورشيا]. لم يبق في الواقع فيلسوف من فلاسفة اليونان الاّ وعرفه او قرأ له. الاّ أن أكثر ما أجتذبه هو كتابات تلاميذ افلاطون، ولم يهتم اهتماماً كبيراً بنظريات الاكاديمي الوسيطة والحديثة[٢] كما أطلق عليهما، بل ركز دراسته بالقديمة. ولذلك كان دائم الإعجاب بانطيوخس العسقلاني الذي جعل من اخيه[ارسطون] عشيراً وخلاً وضمّه الى اهل بيته ليلازمه دائماً. وهذا رجل أقل مواهب في العلوم من كثير من الفلاسفة. الاّ أن متانة خلقه، وطيب معشره، فاقت معظمهم، وسادت أخبارهم وامّا عن [امبيلوس Empylus] الذي نوه [بروتوس] واصدقاؤه باسمه في رسائلهم بوصفه احد ضيوفه، فقد كان من البلغاء. كتب بحثاً قصيراً جيدّ السبك عن مصرع [قيصر] عنوانه [بروتوس].

واتقن بروتوس اللاتينية كخطيب وكمحام مترافع لكنه كان يعبرّ عن نفسه باليونانية بالأسلوب المختصر الواقعي. أو البلاغة الموجزة المعجزة. او ما يطلق عليه بالاسلوب اللاقوني في الحديث، وهو يعرض امثلة مدهشة من ذلك في رسائله. فمثلاً عندما خرج للحرب ضد [انطوني واوكتافيوس] كتب لأهالي پرغاموم ما يلي:

«سمعت انكم دفعتم مالاً لدولابللا؛ ان فعلتم ذلك طواعيةً فعليكم الاقرار بانكم اخطأتم بحقي. ولكن ان دفعتم مرغمين فبامكانكم البرهنة على ذلك بالدفع لي طواعية».

وفي مناسبة أخرى كتب لأهل ساموس:

«مقترحاتكم غامضة. مساعداتكم لا وجود لها، فماذا تعتقدون ان تكون نهاية ذلك؟

وفي رسالة أخرى كتب يقول:

---

(٢) اسس افلاطون الاكاديمي الأولى. اما الوسيطة فقد انشأها ارخيسلاوس Archesileus في اواسط القرن الثالث ق.م. واشهر فلاسفة الاكاديمي الحديثة (وتسمى الافلاطونية الحديثة) هما كليتوماخوس وكارنيادس Carneades اللذين عاشا في القرن الثاني ق.م. (انظر سيرة كاتو أيضاً).

«ان الكزانثيين Xanthians جعلوا بلادهم قبرهم لرفضهم عطفي. ولثقة الپاتاريان Pata-reans بي، استمتعوا بحرية كاملة في ادارة شؤونهم ولديكم الفرصة للاختيار بين حكمة الپاتاريان ومصير الكزانثيين» ذلكم هو الأسلوب الذي جعل رسائله خالدة.

صحب [بروتوس] خاله [كاتو] في مطلع شبابه عندما ارسل هذا في حملة ضد [پطليموس] فبعد ان بخع هذا الملك نفسه ارسل [كاتو] الذي أخرّته بعض الأمور في [رودس] أحد اصدقائه المدعو [كانيديوس] ليتوكل في أمر اموال الملك[٣].

ولما كان ضعيف الثقة بامانة [كانيديوس] فقد كتب لابن اخته يأمره بالاقلاع حالاً من پامفيليا Pamphilia الى قبرص، وكان بروتوس قد قصد هذه المدينة ليقضي دور النقاهة من مرض شديدٍ اصيب به. فأنطلق [بروتوس] الى قبرص امتثالاً لأمر خاله بكثير من التردد، أحتراماً منه [لكانيديوس] الذي رأى انه موضع شكٍّ ظالم، واعتقاداً منه أن هذه المهمة الصغيرة الشأن هي من حيث المبدأ أصغر جداً وأحقر من انا تناط بشابٍ مثله، اوقف نفسه على التتبعات العقلية والمسائل الفكرية. ومع ذلك فقد تولى المهمة بجدارة ونجح فيها الى الحدّ الذي استأهل به ثناء خاله العظيم، وبعد أن حول كل أموال الملك الى نقدٍ، نقل كلّ ما جمع بحراً الى روما معه.

عندما انشعبت الدولة الرومانية الى حزبين، ونشبت الحرب بين پومپي وقيصر، وعمت الفوضى الامبراطورية كلّها، كان المتوقع عن العموم ان [بروتوس] سينحاز الى جانب [قيصر]، لاسيما وان اباه أعدم الحياة بأمرٍ من [پومپي] قبل عدة سنوات[٤] الاّ ان [بروتوس] وضع المصلحة العامة فوق الولاء الخاصّ. ولما كان مقتنعاً بأن أسباب [پومپي] لخوض الحرب اكثر وجاهةً، فقد انضم الى حزبه. فعل ذلك مع انه كان بالأمس القريب يأبى ان يبادل [پومپي] كلمة واحدة حين يلتقيان اذ كان يجد من العار أن يحادث قاتل أبيه. الاّ انه عَدّ [پومپي] في المرحلة الحالية قائداً لبلاده ولذلك وضع نفسه تحت تصرفه وسافر الى [كيليكا] مبعوثاً [لسيستيوس Sestius] الذي عين حاكماً لهذا الأقليم، الاّ انه لم يجد فرصة ليقوم بعمل نابهٍ هناك. ولما كان كل من [قيصر] و[پومپي] يتخذان مواقعهما ويتهيئان لخوض المعركة الحاسمة التي سيقررُ فيها مصير الامبراطورية. رحل من تلقاء نفسه الى مقدونيا ليساهم في مخاطر القضية التي آمن بها. وقبل ان [پومپي] ادركته دهشة

---

(٣) كان هذا في ٥٧ ق.م وليروتوس من العمر ٢٨ سنة. وپطليموس هذا هو اخ پطليموس اوليتس Auletes ابن كليوپاترا، وكان اذ ذاك ملك قبرص.

(٤) في ٧٧ ق.م كان والد بروتوس من انصار ماريوس. فغدر به پومپي وقتله بعد ان وافق على استسلامه.

عظيمة سرّ سرورٌ بالغاً لمقدمه حتى انه نهض من مجلسه عند اقترابه وعانقه بمحضر من كل ضباطه كأن [بروتوس] رئيسه. وفي خلال هذه الحرب كان بروتوس يعكف على كتبه وتتبعاته الفلسفية عندما يترك مجلس پومپي. ليس خلال الاسابيع التي سبقت معركة فرساليا وحدها بل حتى في اللّيلة التي سبقت المعركة الكبرى[٥] كان الموسم صيفاً والقيظ على اشدّه والمعسكر قريب من مستنقعٍ، وقد ابطأ الخدم الذين جاؤا بخيمته وهو يكاد يسقط اعياء لافتقاده الظلّ، ومع أن النهار كاد يتنصف قبل ان يدهن جسمه ويتناول بلغة من الطعام فقد امضى الوقت حتى الليل وهو يكتب ملخصاً عن [پوليبيوس Polybius]. في حين كان رفاقه إمّا مستسلمين للنوم أو يفكرون بالمستقبل بخوفٍ وهلع.

قيل ان [قيصر] كان شديد الاهتمام بسلامته. حتى انه اصدر أمراً الى قواده بألاّ يحاولوا قتله في المعركة، بل ان تسلم حياته. فان استسلم فليؤسر اما اذا ابدى مقاومة فليفسح له مجال الهرب ولا يضايق. والاعتقاد السائد ان [قيصر] فعل كلّ ذلك اكراماً لخاطر امّه، ويبدو ان [قيصر] كان على صلة غرامية بها ايام شبابه، وكانت هي مدلهة بحبه ولما كان [بروتوس] قد ولد في الفترة التي كان حبهما قد بلغ اوجه، فقد ظلّ الشكّ ينخر قلبه في ان بروتوس هو ابنه[٦] وروى أنه لما بوشر في مجلس الشيوخ بمناقشة التدابير التي يجب اتخاذها لسحق مؤامرة [كاتيلينه] التي كادت تعصف بالجمهورية. احتدمت المناقشة بين [كاتو] و[قيصر] وكانا قد وقفا جنباً الى جنب، وفي اثناء الجدال سُلّمت لقيصر رقعة جيء بها من الخارج فأخذها وقرأها. وهنا صاح [كاتو] ان [قيصر] يسلك سلوكاً شائناً بتسلمه رسائل من اعداء الدولة. فأحدث قوله ضجّة كبيرة بين اعضاء المجلس، وعندها دفع [قيصر] بالرقعة الى [كاتو] لقراءتها. فوجدها رسالة غرام موجهة اليه من اخته [سرڤيليا] فقذف بها اليه وهو يقول:

- خذها ايها السكير.

ثم عاد الى المناقشة

كان غرام [سرڤيليا] بقيصر حديث العام والخاص.

بعد ان غلب [پومپي] على أمره في [فرساليا] هرب بحراً. ولكن معسكره حوصر، غير ان

---

(٥) في آب ٤٨ ق.م.

(٦) ان تواتر هذه الاسطورة فيه غرابة. ذلك لأن [قيصر] لم يتخط الخامسة عشرة عند ولادة بروتوس. ولكن لايستبعد قطّ ان يكون قد علق بحب سرڤيليا في زمن مؤامرة كاتيلينه التي جرت وقائعها بعد اثنين وعشرين سنة.

[بروتوس] تمكن من الانسلال من الباب الى المستنقع القريب الذي كان الماء والقصب يغمرانه وبعد السُّرى طول الليل بلغ [لاريسا] سالماً، ومنها كتب الى [قيصر] ففرح لسلامته وكتب اليه يطلب قدومه. ولم يكتف [قيصر] بالصفح عنه، وانما بالغ في اكرامه وجعله ضمن دائرة أعزّ خلصائه. وفي تلك الاثناء كان النقاش يدور حول الجهة التي هرب اليها [پومپي] وكان ثم اراء متضاربة كثيرة. فانفرد [قيصر] بـ[بروتوس] وخرجا في جولة قصيرة وسأله عن رأيه في الأمر. وقد استخلص من الآراء التي طرحها بروتوس بأن فكرته هي الأقرب الى الحقيقة، فنبذ جميع الآراء الأخرى وهرع نحو مصر. لكن پومپي وصل الى مصر كما ضمن بروتوس، ولقي فيها حتفه قبل ان يدركه [قيصر].

وفي تلك الاثناء نجح [بروتوس] في التخفيف من غضب [قيصر] على [كاسيوس]. كما انه اضطلع بمهمة الدفاع عن ملك الليبيين ومع انّ كثرة التهم وثقلها كانت اعظم مما يمكنه انقاذ موكله منها. فان طلبه الرحمة له كان مقنعاً شديد التأثير بحيث استطاع ان يستخلص له جزءً كبيراً من مملكته[٧]. ويروى ان [قيصر] قال لاصدقائه بعد ان سمع [بروتوس] يخطب في الجمهور لأول مرة:

- لا ادري ماذا يريد هذا الشاب. الاّ ان ما يريده، يريده بشده وبصورة عنيفة جداً.

لان استقامة خلقه، ولصعوبة اقناعه بالقيام بعمل لمجرد المنّة أو الفضل، ولكونه لايعمل الاّ بوحي من ضميره وبعد التروي والتحكيم العقلي، جعلت مجهوداته قوية ومؤثرة في اية قضية يتناولها. ولم يكن اي قدر من التزلف والمداهنة يقوى على حمله على تلبية طلب غير عادل. وهو يعتبر الاذعان للتوسطات الصفيقة التي يعتبرها بعض الناس طيبة قلب وحسن نية، من اشنع حالات الضعف البشري الذي يصيب الرجل العظيم. ويؤكد ان أولئك الذين لايمكنهم رفض طلب سائل، لابدّ وانهم من الفاسدين في شبابهم.

عندما كان [قيصر] يتهيأ لحملته على [كاتو] و[سكيپيو] في افريقيا اختار [بروتوس] حاكماً لبلاد الغال الجنوبية. وكان ذلك لخير الاقليم العميم. ففي الوقت الذي كان سكان الاقاليم الأخرى يعانون الأمرين من ارهاب وجشع حكامهم، ويكابدون من الضغط والاضطهاد ما يجعلهم في حكم العبيد او اسرى الحرب نفس [بروتوس] عن كرب الغاليين وجعلهم مرتاحين لا من وضعهم الحاليّ، بل من مصائبهم السالفة. ولم يقنع بهذا، وانما جعل الأهالي يفكرون بمقدار الفضل العظيم الذي يدينون به [القيصر]. حتى ان هذا الدكتاتور كان بادى

(٧) هذا الاضطراب قد يبدو اما تصحيفاً في النص أو خطأ من پلوتارخ نفسه ففي ٤٧ ق.م دافع بروتوس في قضية ديواراتوس مالك الغلاطيين ولم ينجح.

السـرور لرضا المدن عندما قـام بجـولة في ايطاليـا برفـقـة [بروتـوس] بعـد عـودته من حـملة افريقيا. لم يكن [بروتوس] يهمل شيئاً فيه رفعة لمكانته ومعاملته كصديق عزيز.

في هذا الزمـان شـغـر عـدد من المناصب الـپـريتـورية. وكـان المتـوقـع أن الكرسي الـپـريتـوري الأرفع والأهم، وهو پريتـورية العاصـمة سيناط امًا [ببروتوس] او [بكاسيـوس]. وقيل حسب بعض الروايات ان هذا سبب بعض الجفاء وزاد من حدة خلاف سـابق فيما بين الرجلين حول امور أخرى، مع انهما كانا مرتبطين بأوثق رابطة قرابة. فكاسيوس هو زوج [يونيا] أحدى شقيقات [بروتوس] وهناك آخرون يقولون ان هذه المنافسة كانت من تدبير [قيصر] فقد وعد كلاً منهما على حدة بالمساعدة حتـى وجدا نفسيـهـما بـهذا القدر من التـشجيع الخفي المزدوج - ينافس بعضـهـمـا بعضاً. ولم يكن رصيد [بروتوس] يتعدى سمعتـه الطيبة واشتهارة بالاستقامة في اعمـاله. يضـعـهـا مقابل مـآثر [كـاسيـوس] العـديدة اللامـعـة اثنـاء حـملة [كراسـوس] على الپارثيين. ومهما يكن من أمر فبعد ان أصغى [قيصر] الى ادعاءات الجانبين وبحث الأمر مع اصدقائه انتهى بالقول التالي:

- كاسيوس الأقوى حججاً. ولكن علينا أن نقلّد [بروتوس] الپريتورية الأولى.

وعين [كـاسيـوس] لپـريتـورية أخرى الاّ انه كـان حانقـاً لخسارتـه بريتـورية المدينة أكـثـر منه شاكراً للمنصب الذي ناله. وكان هناك طرق أخرى شارك [بروتوس] فـيها سلطة [قـيصر] بقدر ما شاءت رغبته. ولو انه أختار ممارستها فـعلاً لكان أكبر الرجال نفوذاً من بين انصار [قيصر] واوسعهم سلطاناً الاّ أن معاشرته لكاسيوس ابعدته عن [قيصر]. لم يتمّ الصلح شخصـياً فيما بينهـما بعد منـافسـتهـمـا، الاّ انه كـان يعير اذنـاً صـاغـيـة لاصدقـائه الذين كـانوا لايكفـون عن تحذيره من الوقـوع تحت سحـر [قـيصـر] ويغـدو العوبةً في يده، وانما عليـه ان يرفض التكريم الذي يسـبـغـه عليـه الدكتـاتور لأنـه لايرمي به الى مكافـأة الفـضـيلة فـيـه، بل لاضـعـاف قـوة غاياته، وتجريده من اعتزازه الروحي.

لم يكن [قـيـصـر] من الجـهـة الأخرى عـلى تمام الـثـقة بـه وكـانت لـديه شكوكـه. والواقع انه لم يكن يفتقر الى من يخبر عنه ويتهمّه. ولكن عظم ثقته في متانة خلقه بقيت، الى جانب خوفه من سـموه روح الشـاب، وسـمـعتـه واصـدقائه. وعندمـا قيل له ان [انـطوني ودولابللا] يخططان لثورة، علق قائلاً:

- ليس مما يخيفني هذان المرجلا الشعر البطينان، وانما الشاحبان النحيفان الاعجفان.

يقـصـد [بروتوس وكـاسيـوس]. ومـرة أخرى عندمـا راح مـخـتلف الناس يـتـهـمـون [بروتوس]

ويحثون [قيصر] على مضاعفة الحذر، رفع يده ومسّ بها جسمه وقال متسائلاً:

- ماذا؟ الا تفكرون بأن بروتوس، لايصبر على هذا اللحم المسكين لينهي ايّامه؟

يقصد القول انه لايجد أحداً أجدر من [بروتوس] ليكون خليفة له في سلطته العظيمة هذه.

وعلى اية حال كان ثم شبه اجماع بأن [بروتوس] يستطيع بسهولة ان يكون الرجل الأول في روما لو صبر على وقته. وقنع بان يظل نائباً لـ[قيصر] منتظراً افول نجم سلطانه وتهافت ضيا، مآثره الا ان [كاسيوس] بطبعه الضيف وبحقده على قيصر - الذي نجم عن عداء شخصي يحمله له بالأحرى لا عن كرهٍ عام غير شخصي للطغيان - الهب شعور [بروتوس] ودفع به الى الامام. قيل ان [بروتوس] كان خصماً للدكتاتورية، وان [كاسيوس] كان خصم دكتاتورٍ من بين الأمور الذي كان [كاسيوس] يأخذها على [قيصر]، هي مسألة نقل الأسود التي حصل عليها [كاسيوس] عندما كان يهّم بتولي منصب الايديل. تركت هذه الأسود في [ميغارا] وعندما أحتل [كالينُس Calenus][8] أطلبها [قيصر] لنفسه وأخذها وقيل انها كانت سبباً في نكبة حلت بالميغاريين. ففي الساعة التي كان الفاتح يقتحم المدينة كسر الميغاريون اقفاصها وفكوا السلاسل التي كانت تقيدها، مؤملين أنها ستهاجم العدو عند دخوله، الا ان الوحوش استدارت على الميغاريين العزل واعملت فيهم تمزيقاً وهم يهرولون مرتعبين، وكان منظراً مؤلماً حتى للاعداء الفاتحين كان هذا على ما يقال - سبب حقد كاسيوس والدافع الأساس لحبك المؤامرة. الا ان التسليم بهذا هو افتئات على الوقائع. كان كاسيوس منذ نعومة اظفاره مطبوعاً بحقدٍ غريب على كلّ الطغاة الذين يريدون استعباد ابناء وطنهم. لقد كشف عن هذا عندما كان صبيّاً يغشى المدرسة التي يتعلم فيها [فاوستوس] ابن [سللا]. وعندما بدأ هذا الأبن يفرض نفسه على الطلاب ويتباهى بسلطان ابيه المطلق. وثب عليه [كاسيوس] واشبعه ضرباً واراد وصيّ [فاوستوس] واهله أن يرفعوا الأمر الى القضاء. الا ان [پومپي] لم يسمح بذلك واستدعى الصبيين واستجوبهما عما حصل، وتمضي الرواية فتقول - أن [كاسيوس] قال:

- هيا يا فاوستاس؛ ان تجرأت فردد الكلام الذي قلته على مسامع پومپي فسأثار غضبي وسأهشم اسنانك ثانيةً.

كذا كان طبع [كاسيوس]. اما في قضية [بروتوس] فلم يكن اندفاعه ناجماً عن مجرد اغراء اصدقائه الشخصيين ومجادلتهم، بل سلسلة طويلة من الايماءات، والرجاءات، والرسائل

---

(٨) احد ضباط قيصر الذي انيط به أمراً من جنود اليونان اثناء ما كان قيصر ينازل پومپي في ٤٨ ق.م.

المنفعلة التي كانت تحثه وتدفعه، فمثلاً وجدت كتابة على تمثال جدّه الأعلي [يونيوس بروتوس] الذي قضى على نظام الملكية:

«آه لو كنت معنا اليوم!»

«... لو كان هذا البروتوس حياً!»

وبدأت الرسائل تغطي مقعد [بروتوس] البريتوري الذي يجلس عليه، يوماً بعد يومٍ بالكتابات فوقه،

«بروتوس انت تغطّ في نومك»

«انت لست بروتوس حقيقياً».

كثير من هذه الاستنجازات النابعة عن الشعور العام، كان سببها اعمال متملقي [قيصر] والغارقين في نعمائه. الذين خرجوا عن كل الحدود في تكريمه وتعظيمه، فمن بين ضروب التشويق المقرف الذي اخترعوه له، انهم راحوا يضعون تيجاناً على هامات تماثيله ليلاً، مؤملين أن يقروا الشعب بمناداته ملكاً بدلاً من دكتاتور. الاّ ان هذه الجهودات جاءت بثمار معكوسة تماماً كما اتيت لشرحه في حياة [يوليوس قيصر].

وعندما أخذ [كاسيوس] يستمزج آراء اصحابه لتنظيم مؤامرة ضدّ [قيصر]. وافق الجميع شريطة أن يكون [بروتوس] زعيماً لهم. فهم يرون أن العدد، او الجرأة، او العزم الثابت ليست بالشروط الكافية. وما تحتاجه المؤامرة بالدرجة الأولى هو سمعة رجل كبروتوس فوجوده، سيكرّس الضحيّة كما يقول المثل ويؤكد عداله التضحية بمجرد مشاركته. فبدونه سيقدمون على القتل بايمان أقلّ، وسوف يثير المزيد من الشك في نياتهم بعد ذلك، لأن الناس سيقولون: لو كانت مقاصدهم نبيلة لما رفض بروتوس المشاركة فيها. ووجد كاسيوس هذه الحجج معقولة، فقصد [بروتوس] بزيارةٍ أولى بعد قطيعتهما التي اتيت الى ذكرها، ثم بعد أن تصافيا وتبادلا تحيات الودّ سأل [بروتوس] هل قرر حضور جلسة الشيوخ التي تقررّ موعدها في عيد اول آذار لأنه سمع بأن انصار قيصر سوف يقدمون اقتراحاً في تلك الجلسة للمناداة به ملكاً. وعندما أجاب [بروتوس] بأنه لن يحضر، واصل كاسيوس كلامه قائلاً:

- ماذا سنفعل اذن لو ارسلوا بطلبنا؟

فأجاب [بروتوس]:

- لو حصل هذا، فسيكون من واجبي ان ادافع عن بلادي واموت في سبيل حريتها ولا ابقى ساكتاً.

فشجعه هذا الكلام وسأله:

- ولكن اتظن انه يوجد روماني واحدٌ يدعك تضحي بحياتك على هذه الشاكلة اما تعرف شيئاً عن نفسك اي بروتوس؟ او تظنّ ان كل تلك الضراعات التي تجدها فوق مقعدك البريتوري هراءٌ كتبه النساجون والبقالون، لا ارفع رجال روما مقاماً؟ انهم يتطلبون من البريتورين الآخرين تسليات عامة ومهرجانات وحفلات مصارعة الاّ انهم يتطلعون اليك لتنقذهم من الاستبداد. انهم ليطلبون ذلك منك كدين في عنقك لاجدادك وهم مستعدون لمعاناة كلّ شيء في سبيلك لو ظهرت لهم ذلك الرجل الذي يظنونه ويتوقعونه.

وختم كلامه بمعانقة [بروتوس] وتقبيله. وبعد ان تمّ الصلح بينهم قصد كل منهما اصدقاءه للمداولة في الأمر.

كان ثم رجل يدعى [غايوس ليغاريوس Gaius Ligarius] وشيَ به [للقيصر] بوصفه أحد انصار [پومپي] فعفا عنه منذ زمن قريب. لم يشعر هذا الرجل بايّ امتنان لهذا العمل الرحيم وكان ممتلئاً حقداً على تلك القوة التي عرضت حياته للخطر. فكره [قيصر] وكان واحداً من اقرب اصدقاء [بروتوس ومرة قصده في زيارة فوجده مريضاً، فقال:

- اي ليغاريوس، انك لم تختر الوقت المناسب الملازمة فراشك

ما أن فهم [ليغاريوس] عبارته حتى انهض جسمه مستنداً على مرفقه وشدّ على يد [بروتوس] وأجاب:

- كلا يا بروتوس؛ إن احتجت اليّ في اية قضيّة جديرة بك فأنا معافى.

ومنذ ذلك الحين اخذ [بروتوس وكاسيوس] يجسان نبض عددٍ من رجال روما البارزين الذين يثقان بهم. ولم يقتصرا على دائرة اصدقائهما بل اتصلا بكلٍ من توسما فيه روح المغامرة والاقدام والاستهانة بالموت ولهذا السبب لم يكاشفا [شيشرون] بسرّهما وان كانا يثقان به ويعرفان مدى حبّه لهما. الاّ انهما خافا من جبنه الطبيعي الذي يمازجه الحذر المتأني من تصاريف الزمن والشيخوخة، وحرصه على الاستئصال أقلّ عنصرٍ من عناصر المجازفة في اي مخطط. مما يثلم من حدة عزمهما في ساعة تكون السرعة عاملاً جوهرياً. ومن بين اصدقاء بروتوس الآخرين الذين تخطاهما [ستاتيليوس Statilius] الابيقوري و[فافونيوس] احد المعجبين بكاتو. والسبب في ذلك انّه جسّ نبضهما قبل فترة قصيرة بطريقه التعميم الفلسفية اثناء مناقشةٍ، وقد اجاب [فافونيوس] ان الحرب الاهليّة هي شرّ من الملكية المستبدة. وكان رأي [ستاتيليوس] ان جرّ المتاعب للنفس وتعريضها للأخطار في سبيل الحمقى والاشرار

والنكرات لاتجمل برجل يملك أقل قدر من الفطنة والحصافة. على ان [لابيو Labeo] الذي كان حاضراً، سفّه هذين الرأيين. اما [بروتوس] فقد ظلّ ساكتاً طول الحوار، معتذراً بأنها مسألة معقدة ويصعب اعطاء رأي جازم فيها، الاّ انه انهى بالأمر الى [لابيو] فيما بعد فوجده متحمساً ووافق على الانضمام الى المؤامرة. وبعد هذا قرر أيضاً اشراك [بروتوس] الآخر، الذي يدعى [البينوس Albinus]. ولم يكن يمتاز بسمعة عظيمة من ناحية الجرأة او الاضطلاع بالمهام الخطيرة. الاّ انه كان مهماً للمتآمرين بسبب العدد الكبير الذي كان يدربه من المصارعين في ذلك الوقت للحفلات العامة ولأنه كذلك موضع ثقة من [قيصر]. وعندما قام [كاسيوس ولابيو] بجس نبضه رفض أن يقطع عهداً في الحال الاّ أنه قابل [بروتوس] على انفراد وما ان اتضح له انه زعيم المؤامرة حتى أعلن انضمامه. وتم اجتذاب معظم البقية بسمعة [بروتوس] وكلهم كانوا من علية القوم ووجوهم. ومع ان المتآمرين لم يؤدوا قسماً ولم يتبادلوا عهداً مقدساً لضمان الولاء المتبادل. فقد نجحوا في ابقاء السرّ مكتوماً نجاحاً لم يصدق معه احد بوجود مؤامرة مع ظهور كثير من الخوارق والانذارات السماوية التي أخذت صورة نبوءات وآيات، واشارات نحس في القرابين.

وبلغ [بروتوس] مرحلة شعر معها ان سلامة كثير من كبار الرومان اصلاً وعراقةً ومكانة وخلقاً تتوقف على سلوكه ولما كان يدرك جيداً الأخطار التي ينطوي عليه ذلك. حاول أقصى جهده أن يبقى خططه مدفونةً في صدره وأن يراقب افكاره الاّ انه ينقلب في بيته ولاسيما ليلاً غير الرجل الذي كان في الخارج. فاحيانا كانت اعاصير فكره تفزعه من نومه فيصحو مرعوباً. وفي احيان أخرى عندما يكون غارقاً في هواجسه وحساباته واجما امام الصعوبات التي تكتنفه، اتضح لامرأته وهي مضطجعه معه في الفراش بأن قلقاً غير عادي يخيّم على عقله ويضغطه ضغطاً شديداً، وانه يقلب في رأسه مشروعاً عسيراً معقداً.

ذكرت سابقاً أن [بورشيا] هي احدى بنات [كاتو]. وقد تزوجها ابن عمتها [بروتوس] وهي صغيرة جداً، مع انها كانت ثيباً، بعد موت زوجها الأول [بيبولوس][٩] الذي انجبت منه صبياً. وثمّ كتيب اسمه «مذكرات بروتوس» كتبه هذا الفتى وهو متوفر الآن.

كانت [بورشيا] شديدة الحبّ لزوجها. ولم تكن ذات خلق عاطفي فحسب وانما كانت تجمع الى حيويتها عقلاً راجحاً ونباهة. فلم تلّح على معرفة السرّ من زوجها حتى اخضعت نفسها للتجربة الآتية: صرفت خادماتها من غرفتها وأخذت مدية صغيرة مما يستخدمه الحلاقون لتقليم الأظافر وأحدثت في فخذها جرحاً عميقاً. وفقدت مقدار كبيراً من دمها وبعد ذلك

(٩) زوجها الأول هو ماركوس كالورنيوس بيبولوس، كان قنصلاً مع قيصر في ٥٩ ق.م.

شعرت بآلام شديدة واعترتها رجفة وحمّى عالية وعندما كان الألم يبرّح بها والاضطراب الشديد يعلو [بروتوس] لحالتها، قالت له:

- بروتوس، انا بنت [كاتو]، ولم يزوجوني بك لاقاسمك السكنى والفراش كمخطية لا غير، بل لاكون شريكة حقيقية في افراحك واتراحك. ليس لدي ما الومك عليه ولكن اي برهان تريد مني على حبيَ لك إن انت تأبى علي مشاطرتك في ذلك النوع من المحن الذي يستدعى رفيقاً أميناً تعتمد عليه، وتبقي آلامك ومعاناتك لنفسك وحدها؟ انا أعلم جيداً ان المرأة اضعف من أن تستأمن على أسرار. ولكن من المؤكد يا بروتوس إن لنبل الأصل والثقافة وصحبة العلماء وافاضل الناس، بعض الأثر في تكوين اخلاقنا. ومن حقي أن أفخر بكوني بنت [كاتو] وزوج [بروتوس]. لم أكن أعلم قبلاً كيف تغني احدى هاتين النعمتين. الاّ اني الآن وضعت نفسي في التجربة فوجدت اني قادرة على قهر الألم.

ثم كشفت له عن الجرح الذي احدثته في ساقها وقصّت عليه الحكاية وشرحت له التجربة التي اقدمت عليها لمعرفة مدى قابليتها على الاحتمال. فعرته الدهشة ورفع يديه الى السماء شاكراً وداعيا الآلهة لمساعدته في ما هو مقدم عليه ليبرهن انه زوج جديرٌ بمثل هذه المرأة. ثم أهتم كثيراً بصحة زوجه حتى تماثلت الى الشفاء.

وأعلن عن افتتاح جلسة للشيوخ كان يتوقع من [قيصر] ان يحضرها. واتفق المؤتمرون ان يهتبلوا هذه الفرصة هذه المناسبة ستساعدهم على تعبئة قوتهم كاملةً دون اثارة الشبه. وفضلاً عن ذلك فسيكون كل شخصيات روما واشرافها مجتمعين في صعيد واحدٍ، وهم يأملون ان هؤلاء سيقبلون حالاً بعد ان يقضى الأمر، الى تبني قضية الحرية. اضف الى هذا أن الموضع الذي أختير للجلسة بدأ وكأن العناية الآلهية قد اختارته، لإتمام القصد. لقد كان رواقاً ترتفع فيه الأعمدة من تلك الاروقة المفتوحة الجوانب التي تلاصق الملعب وفيه رحبة واسعة اقيم عليها تمثال لبومبي ايام حكومة الجمهورية على نفقة الدولة. وعندما زين هذا القائد ذلك الحيّ من المدينة بالاروقة وبالملعب(١٠) الى هذه البناية دعي المجلس الى الاجتماع في منتصف آذار(١١) (والرومان يطلقون عليه (عيد مارس، وكان يبدو وكأن العناية الآلهية تقود [قيصر] الى الموضع ليلقى عقابه على موت [بومبي].

---

(١٠) هذه البناية الجميلة الكبيرة وهي اول مرسح ثابت بني في روما. تّم انواع من بنائها في ٥٥ ق.م. وتقع في كامبوس ماريتيوس Campus Martius في الشمال الغربي من المدينة.

(١١) باللاتينية يعرف بعيد مارس Idus Martiae.

ما ان انبلج الصباح حتى خرج [بروتوس] ومعه خنجر لاتعلم به غير زوجه. واجتمع بقية المؤتمرين في منزل [كاسيوس] ورافقوا ابنه الى الفورم لأنَّ الصبي كان سيجري في هذا اليوم مراسيم ارتدائه ثياب الرجال اي toga virilis كما يسميها الرومان ومن هناك اسرعوا جميعاً الى رواق [پومپي] وظلوا هناك بانتظار مقدم [قيصر] للمشاركة في جلسة المجلس. ولم يكن ليسع ايّ رجل على علم بالمؤامرة الاّ ان يندهش في تلك الساعة لما رآه فيهم من رباطة جأشٍ وهدوء وحضور ذهن. في ساعة اقتراب الأزمة من نهايتها. وكان كثيرون منهم حائزين على المنصب الپريتوري ووظيفتهم تقضي عليهم بالنظر في قضايا اليوم. فأنصرفوا يصغون بصبرٍ الى الشكاوى المعروضة وينظرون في الخلافات كأن ليس لديهم شيء آخر يشغل بالهم، وكانوا يبذلون قصاراهم في صياغة احكامهم بدقةٍ في كلّ قضيّة وعندما رفض شخص من المتداعين قبول حكم [بروتوس] وبدأ يتحجّ بصوت مرتفع ويتظلم لقيصر، تطلع [بروتوس] بهدوء في وجوه المستمعين وقال:

- قيصر لايمنعني من الحكم بموجب منطوق القانون ولن يفعل ذلك قطّ في المستقبل.

وفي الوقت نفسه وقعت مفاجآت وحوادث غير منتظرة، أخلّت بهدوئهم واورثتهم بعض القلق. اولها تأخر (قيصر) عن الوصول بعد مرور وقت طويل وانقضاء الشطر الاكبر من النهار. فقد اعاقته زوجه ومنعه العرافون من الخروج لعيبٍ وجدوه في اضحيته. وثانيها ان رجلاً أقبل على [كاسكا Casca] أحد المؤتمرين وامسك بيده وقال:

- لقد اخفيت السرّ عنّا يا كاسكا، الاّ ان [بروتوس] اخبرني بكلّ شيء.

وفيما وقف [كاسكا] جامداً صامتاً ابتسم الرجل واستطرد يقول:

- عليك ان تخبرني بالحقيقة يا صاح، كيف اصبحت موفور الغنى بهذه السرعة فأقدمت على ترشيح نفسك لمنصب المحتسب [ايديل]؟

كان [كاسكا] على وشك فضح السرّ بسبب التباس فهمه لكلام الرجل لو لم يبادر هذا بالتفسير.

وفي ذلك الوقت قابل [پوپيليوس ليناس popilius Loenas] كلا من [بروتوس وكاسيوس] بحرارة أكثر من المعتاد ثم دنا منهما وهمس بصوت خافتٍ جداً:

- دعواتي لكما، وتمنياتي لمشروعكما النجاح. لكن كل ما تعملانه، استعجلا به، فكلّ الناس يتحدثون به الآن.

قال هذا وتركهما سائراً بعد ان اشاع الشك فيهما بافتضاح أمر المؤامرة.

وفي تلك اللحظة ايضاً قدم احد السعاة وهو يعدو من جهة منزل بروتوس، يحمل اليه نبأ مفاده ان زوجه [پورشيا] تعالج سكرات الموت، والحقيقة هي ان الاضطراب بلغ بها منتهاه في ارتقابها النتيجة حتى خرجت عن طورها وضاق بها المنزل على رحبه، ما تسمع صوتاً أو جلبة الاّ وتجفل وتهب من مجلسها واقفةً كأنها في حالة انجذاب وحارت قواها من فرط حركتها. اذ كانت تخرج وتسائل المارة عمّا يحدث في الفورم ثم تعود لترسل الساعي تلو الساعي. تسقطاً للأنباء، وتضاعفت مخاوفها وأخذت الشكوك تنهشها وتفريها، ولم تستطع الوصول الى مخدعها فقد اغمي عليها وراحت في غيبوبة وفرّت الوانها وفقدت النطق. فأطلقت نساؤها صرخة عظيمة وهرع الجيران الى منزل [بروتوس] ليستطلعوا الأمر وانتشر خبر وفاتها بسرعة وعلى نطاق واسع. على ان العناية التي بذلتها وصيفاتها اعادت اليها وعيها بعد قليل واستردت قواها وتأثر [بروتوس] تأثيراً عميقاً بالنبأ المفاجيء كما هو متوقع طبعاً الاّ انه لم ينس واجبه، ولم يفسح للقلق مجالاً ليجعل عقله منشغلاً في همومه الخاصّة.

وورد الخبر بأن [قيصر] في طريقه الى المجلس محمولاً في محفّة. لقد تطير من نُذر الشرّ التي ظهرت في قرابينه فقرر الا يبت في اية مسألة هامة يومها، وان يؤجلها الى وقت آخر معتذراً بالمرض. وما ان خرج من محفته حتى تقدم منه [پوپيليوس ليناس] الذي كان قبل قليل قد تمنى [لبروتوس] النجاح في غايته وشرع يحدثه ملياً. وظلّ [قيصر] واقفاً طوال المحادثة لاينم عليه شيء خلا اشارات الاهتمام، ولم يكن بوسع المؤتمرين - (هذا ما سأطلق عليهم الآن) سماع الأقوال الا ان استنتاجهم الطبيعي هو أن الحديث يدور حول مؤآمرتهم وان [ليناس] يقوم بانذار [قيصر] فوهت عزائمهم. وبدا من النظرات التي تبادلوها فيما بينهم انهم مجمعون على ان لاينتظروا القبض عليهم وان يقتلوا انفسهم بايديهم. وامتدت ايادي كاسيوس وبعض الآخرين الى اغماد سيوفهم المندسة تحت معاطفهم لتجريدها عندما لاحظ [بروتوس] ان تصرف [ليناس] كله يدل دلالة واضحة على انه يعرض طلبا، ولايقدم اتهاماً. فلم ينطق بحرفٍ لأنه كان محاطاً بالأغراب الذين لا شأن لهم بالمؤامرة. الاّ ان أظهر البشاشة والبشر. فأفرخ روع [كاسيوس] وصحبه. وبعد قليل لثم [ليناس] يد [قيصر] وانصرف. فبدأ واضحاً ان مقابلته [لقيصر] كانت تتعلق بمسألة خاصة تهمّ شخصه ولا احد غيره.

بعد ان دخل اعضاء المجلس قاعة المناقشات قبل [قيصر] تجمع المؤتمرون حول كرسيه كأن لديهم قضية يريدون عرضها عليه. وادار [كاسيوس] وجهه نحو تمثال [پومپي] - على ما قيل لنا - كأنه يستنجده العون ويسمع دعاءه. وفي الوقت نفسه راح [تريبونيوس] يشاغل [انطوني] بالحديث عند المدخل ويصرف اهتمامه ليبقيه خارجاً ووقف اعضاء المجلس تكريماً

لقيصر عند دخوله، وما ان جلس حتى كان المؤتمرون جميعاً يتحلقونه ثم دفعوا باحدهم وهو [تلليوس چمبر Tillius Cimber] ليعرض عليه قضية أخيه المنفي، وتدخل بقية المؤتمرين في الشفاعة له، وقبض (چمبر) على يد قيصر وقبل رأسه وصدره. بالأول رفض [قيصر] الرجاء. ولكن عندما وجد انهم لايدعونه يذهب حاول النهوض ودفعهم عنه بعنفٍ وعندها امسك [تلليوس چمبر] عباءته وسحبها عن كتفيه. بكلتا يديه في حين تقدم [كاسكا] الذي كان واقفاً خلفه مشهراً سيفه وكال له الطعنة الأولى فأحدث صرحاً بسيطاً في ذراعه. فأمتدت يد [قيصر] الى قبضة السيف وامسكها وصاح باللاتينية:

- كاسكا ايها الوغد! ماذا تفعل؟

في حين نادى [كاسكا] أخاه باليونانية طالباً المعونة. وعندها وجد [قيصر] نفسه يتلقى الطعنات من اياد كثيرة. وفيما هو يتطلع حواليه ليجد له مخرجاً وخلاصاً من مهاجميه وقعت عينه على [بروتوس] مشهراً سيفه في وجهه فأفلت يد [كاسكا] التي كان ممسكاً بها وغطى وجهه بردائه وسلم جسمه لضربات القتلة فأطبق المؤتمرون عليه واعملوا فيه طعناً حتى صارت النصال تعترض النصال وأصيب بعضهم بجراح على يد الآخرين وأصيب [بروتوس] بجرح في يده في اثناء مساهمته بالعمل ولطخت الدماء جميعهم.

أخيراً بعد أن قتل [قيصر] تقدم [بروتوس] ووقف في وسط القاعة وحاول جهده تهدئة روع الاعضاء واقناعهم بالبقاء الا انهم تولوا عنه مذعورين وتدافعوا بكثير من الفوضى الى الابواب وتزاحموا بالمناكب ليستبقوا الخروج مع أنه لم يكن ثم من يطاردهم. فقد قطع المؤتمرون عهداً فيما بينهم بأن لايقتلوا أحداً غير [قيصر]. وان ينادوا امام جميع الشعب بالحريّة. عندما كانت المداولات تجري بين المؤتمرين حصل اجماع على ضرورة قتل [انطوني] ايضاً. اذ اعتبروه رجلاً يستخف بالقوانين ويفضل الحكم الاوتواطي المطلق وان لديه حظوة كبيرة من الجنود وسلطاناً عليهم بسبب مقدرته على الاختلاط بجنوده بكل بساطةٍ وكسب ولائهم وطاعتهم. وأخيراً طموحه ووقاحته الطبيعية تضاعف خطرهما لأنه ارتفع الى منصب القنصلية، وكان في ذلك الوقت زميلاً [لقيصر] في هذا المنصب. الا ان [بروتوس] عارض الاجماع. واصرّ بأن الواجب يقضي بالدرجة الأولى ان يعملوا وفق أضيق حدود العدالة، وكان من رأيه ان ينصلح حال [انطوني] وان التغيير قد يطرأ عليه فيما بعد. كان يتمسك بفكرته وهي: ما ان يزاح [قيصر] عن الطريق فان طبيعة [انطوني] السمحاء، وطموحه وحبّه للمجد، سوف تتجاوب مع المثل النبيل الذي ضربه المؤتمرون وانه سينضم اليهم لمساعدة بلادهم على الوصول الى الحرية. وبهذه الوسيلة انقذ [بروتوس] حياة انطوني فعلاً. الا ان الذعر الشامل

الذي عقب القتل جعل [انطوني] يخلع معطفه المشيخي. ويتنكر بثوب رجل من العامة ويهرب.

وقصد [بروتوس] ورفاقه الكابتول وأخذوا يلوحون بايديهم الدامية القابضة على سيوفهم المسلولة، للناس ويدعونهم للتمتع بحرياتهم. في مبدء الأمر ووجهوا بصيحات الخوف ليس الاّ وزاد الاضطراب العام بحرجلة الناس المرتعبين، عقب الاغتيال مباشرةً. ولما يعقب ذلك نهب او سفك دماء، فقد استجمع الشيوخ وكثير من الناس شجاعتهم وقصدوا الكابتول لرؤية المؤتمرين وهناك أحتشد خلق كثير. فارتجل [بروتوس] خطبة تناسب الموقف وترضي الجمهور. وهتف له المستمعون عالياً وطلبوا منه النزول اليهم من الكابتول فعادت الثقة بالنفس الى المؤتمرين وقصدوا الفورم. وساروا معاً الاّ ان [بروتوس] وجد نفسه محاطاً بأبرز رجال روما الذين رافقوه من الكابتول بكل مظاهر الاجلال والتعظيم، حتى اصعدوه الى الروسترا. كان الجمهور الذي يواجهه يضم اناساً من مختلف الاتجاهات والعواطف وقد جاء متهيئاً الاحداث شغب. الاّ أن الرهبة سادته عند مشاهدة [بروتوس] وراح يترقب كلامه بصمت خاشع ونظام تام الشروع في خطابه اصغى اليه بانتباه. ولكن ما أن أخذ [جنا Cinna] مكانه وبدأ يتهجم على [قيصر] بدأ واضحاً ان عدداً كبيراً من المستمعين ساخطون على ما حصل وبدء غضب الجموع يتصاعد وأخذوا يهاجمون [جنّا] بعبارات مقذعة وبعنف حتى اضطر المؤتمرون الى العودة والاحتماء في الكابتول. وهناك صرف [بروتوس] الرومانيين البارزين الذين رافقوهم اذ كان يخشى ان يحاصروا هناك ولم يجد من العدل ان يتعرض للخطر من لم يساهم معهم.

ومهما يكن من أمرٍ فقد اجتمع مجلس الشيوخ في اليوم التالي في هيكل الربّة [تللوس Tellus] وتكلم [انطوني وبلانكوس وشيشرون] محبذين التآلف والاتفاق واجراء مصالحة عمامة وان يقوم المجلس باصدار قانون العفو العام. فصوت على الاقتراح وقُبل[١٢]. وبموجبه تقررً ان لاتتخذ اية اجراءات ضدّ المؤتمرين فضلاً عن قيام القنصلين باقتراح تكريم مناسب لهم. ثم الفض الاجتماع. ثم بعد ان ارسل [انطوني] ابنه الى الكابتول بمثابة رهينة، غادر بروتوس وصحبه البناية وتبادل الفريقان عبارات الودّ والتحيات بدون تحفظ. وعزم [انطوني] [كاسيوس] للعشاء واحتفى به. وفعل [ليبيدوس] المثل مع [بروتوس] وتبودلت الدعوات بين الطرفين وساهم اصدقاء الفريقين بذلك. ثم التأم مجلس الشيوخ في بكور اليوم التالي

(١٢) تلك كانت مساومة. فالمجلس الذي هو الآن السلطة الدستورية العليا كان ينتظر منه أن يعلن بان اغتيال رئيس الدولة هو عمل من اعمال الخيانة الاّ انه لم يفعل ولكنه صادق في هذه الجلسة على كل المراسيم التي اصدرها [قيصر] لأن وجود العدد الكبير من محاربيه القدماء في روما ارغمه على ذلك في الواقع.

وكان اول عملٍ له هو التصويت، على قرار بشكر [انطوني] لتفاديه حرباً أهلية. ثم قرضوا عمل [بروتوس] ورفاقه الحاضرين وبعدها شرعوا في توزيع حاكميات الاقاليم، فكانت [كريت] من نصيب [بروتوس]، وافريقيا لكاسيوس، وآسيا لتريبونيوس وبثيبنا لچمبر، والغال الجنوبية لألبينوس بروتوس.

وأخيراً نوقشت قضية وصية [قيصر] وجنازته. وطلب [انطوني] وانصاره ان تقرأ الوصية علناً وان لايدفن الجثمان بصورة اعتيادية بل الاكرام والمراسيم التقليدية، والاّ انفجر سخط الجمهور مرة أخرى فعارض [كاسيوس] في هذه الطلبات بكلّ قوته الاّ ان [بروتوس] نزل عند الطلب ووافق. ويبدو انه كان مخطئاً في حكمه هذه ايضاً. ارتكب غلطته الأولى بابقائه على حياة [انطوني]، فتعرض بذلك لتهمة وضعه أمام المؤتمرين خصماً قوياً ليس ثم اخطر منه، وهذه غلطته الثانية. فبسماحه بتشييع جثمان [قيصر] بالشكل الذي اقترحه [انطوني] وقع في خطأ مميتٍ لايرجى اصلاحه. وكان اوّل آثاره انه عندما ظهر من وصيته [قيصر] انه وهب كل مواطن روماني خمسة وسبعين درهماً. وأوقف لمنفعتهم كل بساتينه فيما وراء نهر [التيبر] حيث يقوم هيكل آله الحظ اليوم، تصاعدت موجة عارمة من الحبّ له، وساد شعور قوي بعظم الخسارة فيه، ثم انه عندما جيء بالميت الى الفورم، القى [انطوني] خطبة التأبين التقليدية فوق جثمانه. وما ان وجد الجمهور المحتشد شديد التأثير باقواله حين غير من اتجاهه وانتقل الى المسائل العاطفية ورفع عباءة [قيصر] وقد جمدت عليها الدماء فنشرها لتراها العيون مشيراً الى كل خرقٍ فيها نفذت منه السيوف الى جسم القتيل وراح يحصى الطعنات. ففقد المستمعون كل سيطرة على أنفسهم فصاح بعضهم محرضاً على قتل القتلة. وعمد بعضهم الى تكديس المناضد والمقاعد التي جاؤا بها من الحوانيت المجاورة بعضها فوق بعض ليعملوا محرقةً كبيرة. مثلما حدث في الشعب الذي فقد فيه كلودبوس الغوغائي حياته[١٣]. ثم رفعوا جثمان [قيصر] الى قمتها واشعلوا النار فيها، وفي الحقيقة كان اختيار هذه البقعة بالذات لاقامة المحرقة، موفقاً جداً لأنها محاطة بعدة هياكل ومحاريب واماكن مقدسة. ثم لما اخذ اللهب يتصاعد ويشتد اندفع الناس من كل جانبٍ وامسكوا بعيدان مشتعله وانبثوا في ارجاء المدينة يفتشون عن بيوت القتله لاشعال النار فيها.

وكان المؤتمرون قد اتخذوا احتياطاتهم فتحصنوا في داخل منازلهم واصبحوا قادرين على دفع الخطر. الاّ انه كان يوجد رجل شاعرُ يدعى [جنا] لا علاقة له بالجريمة. وهو في الواقع صديق لقيصر راى في الحلم ان [قيصر] دعاه الى العشاء فلم يقبل الدعوة، الاّ ان [قيصر] الحّ عليه

(١٣) قتل كلوديوس ٥٢ ق.م في شجار نشب بينه وبين (ميلو) في الشارع وقاتله منافس غوغائي له.

وأخيراً أمسك بيده واخذه الى موضع وسيع مظلم، فتبع خطى مستضيفه متردداً والرعب يملأ جوانبه. وبعد أن غابت الرؤية عن مخيلته وجد نفسه فريسة لحمى ركبته طوال الليل. ولما اقبل الصبح ونقل جثمان قيصر لدفنه، شعر بالخجل لتخلفه عن المناسبة وخرج وانضم الى الجموع في الوقت الذي بلغ بهم الهياج منتهاه بخطبة [انطوني] وهناك وقعت اليه انظار الجمهور، لم يتثبتوا من هويته وانما توهموه [چنا] الذي وقف بالأسى يتهجم على [قيصر]. فوثبوا عليه ومزقوه ارباً.

هذه الواقعة زادت من قلق [بروتوس] بشكل لم يشره حدث آخر خلا انقلاب سلوك [انطوني] فترك المدينة هو وانصاره. في الاول قضوا بعض الوقت في [انسيوم Antium] على ان يعودوا الى روما بعد ان يسكن هياج الناس وتهدأ الخواطر وكانوا يتوقعون ان يحصل ذلك بشكل طبيعي وبعد فترة وجيزة ذلك لأن غوغاء المدينة عرفوا بسرعة التقليد وعدم الاستقرار. كما كانوا يعلمون ان مجلس الشيوخ يقف في صفهم. ومع انه أطلق سراح الذين فتكوا بـ[چنا] الاّ انه قام باجراءات تحقيق والقى القبض على أولئك الذين هاجموا منازل المؤتمرين. وفي هذه الفترة من الزمن أخذ الناس يضيقون ذرعاً بانطوني لأنه بات يمارس سلطات تكاد لاتختلف عن السلطة الدكتاتورية: وصبوا الى عودة [بروتوس] وكان متوقعاً ان يحضر بشخصه للاشراف على الالعاب الشعبية(١٤) لان تنظيمها يقع ضمن واجباته الاّ انه أكتشف مؤامرة لاغتياله يدبرها عدد من المحاربين القدماء الذين قاتلوا تحت إمرة [قيصر] فأقطعهم اراضي في المدن. وقد تسللوا الى المدينة بشراذم لتنفيذ المؤامرة فلم يجرأ على التوجه الى روما. واقيمت الالعاب بغيابه وانفق عليها بسخاء، وكانت في غاية الفخامة. كان [بروتوس] مد ابتاع في ما مضى عدداً كبيراً من الوحوش المفترسة فأصدر اوامره باستخدامها كلها وعدم بيع قسم منها أو ادخاره، لتكون متعة الجمهور كاملة كذلك سافر الى [ناپلي] وتعاقد مع عدد كبير من الممثلين واللاعبين والمغنيين. وكتب لاصدقائه عن [كانوتيوس Ca-nutius] ، الممثل الذائع الصيت في زمانه، لاقناعه بزيارة روما. اذ لم يكن يرغب في ارغام اي اغريقي على المجيء. كذلك كتب لشيشرون مشدداً عليه بحضور الالعاب.

بقيت الحالة على هذا المنوال في روما حتى مقدم الشاب [اوكتاڤيوس قيصر] فأحدث تغييراً كاملاً مفاجئاً في الوضع كله. كان ابن بنت أخت [يوليوس قيصر]، فتبناه وجعله وريثاً له بموجب وصية. كان وقت مقتل [قيصر] في اپوللونيا على الساحل الالليري يتابع دراسته.

---

(١٤) هنالك ما يسمى [بلودي ابوللينارس Ludi Apollinars] وتقام في تموز. وكان من واجب بروتوس بوصفه بريتور العاصمة Praetor Urbanus أن يرأسه. الاّ أن أخا [مارك انطوني] حضره بالنيابة عنه.

حيث اعتزم الانضمام الى الحملة التي تهيأ لها قيصر ضدّ البارثيين الاّ انه اسرع الى روما عند سماعه بمقتله. واول عمل اقدم عليه للتقرب الى الشعب هو اتخاذ لقب [قيصر] وتوزيع ما خصصه الراحل في وصيته لكل مواطن روماني من مالٍ. وبهذه الوسيلة لم يقتصر نجاحه على تجريد [انطوني] من شعبيته ومكانته عند الجمهور، وانما افلح بالمال والهبات التي فرقها دون حساب على الجنود، في ضم اعداد كبيرة من حاربوا تحت امرة قيصر اليه. واقنع شيشرون بمساندته مدفوعاً بمقته الشديد لأنطوني. وهذا ما حمل [بروتوس] على تأنيبه تأنيباً قاسياً. ومما كتب له قوله:

- اراك يا شيشرون لا تصدّعن الطاغية، ولا انك تخشى ان يكون ذلك الطاغية هو الشخص الذي تكرهه. وعندما تبدي في خطبك واقوالك اعجابك بطيبة [اوكتافيوس] فرأيك هو في الحقيقة الثناء على نوع من الاستعباد ليس فيه الاّ.

واستطرد مذكراً اياه بقوله:

- الاّ ان اباءنا الأولين ما كانوا يطيقون حتى الطغاة اللطفاء. وامّا من ناحيتي فلم اقررّ بصورة نهائية ان أعلنها حرباً أم اجنح الى السلم الاّ أني مصمم على شيءٍ واحدٍ وهو ان لا أكون عبداً. واني لأعجب يا شيشرون كيف تخشى اخطار الحرب الأهلية بكل ارزائها ولاتخشى سلماً شائناً ذليلاً، وان تطلب امتياز اقامة اوكتافيوس في محلّ [انطوني] كمكافأة على التخلص من طغيان هذا الأخير.

تلك كانت لهجة بروتوس في أولى رسائله لشيشرون على ان الجمهورية الرومانية كانت قد انشعبت الى حزبين احدهما يساند [اوكتافيوس] والآخر يظاهر [انطوني] وراح الجنود يبيعون ولاءهم لمن يدفع لهم أكثر من غيره كأنهم في مزادٍ علني. وبدأت الاحداث تسلم [بروتوس] الى اليأس وقنط من تحقيق آماله. فقررّ مغادرة ايطاليا فمرّ بلوقانيا حتى بلغ ميناء [فيليا Velia][١٥] واضطرت زوجه [پورشيا] الى العودة منها الى روما، وحاولت اخفاء احزانها

(١٥) ترك بروتوس وكاسيوس ايطاليا آخر الأمر في حزيران ٤٤ ق.م. الاّ ان بلوتارخ يستبق الاحداث في تحليله الوضع السياسي وتأثيره على حالة بروتوس العقلية. فان المؤتمرين تركوا ايطاليا لا كلاجئين سياسيين بل حكاماً وقادة بموجب مراسيم صدرت من مجلس الشيوخ بالتصويت. في هذا الوقت بقي شكل نظام الحكم الذي سيعقب العهد القيصري موضع اخذٍ وردٍ، فما زالت ميول الجيوش الرومانية في ايطاليا والاقاليم وولاؤها موضع شك. وكان ثم نزاع طويل يوشك أن يستعر اواره امام اوكتافيوس قبل أن يقوى على تحدي [انطوني]. لقد بلغت سلطة مجلس الشيوخ اوجها في نهاية العام ٤٤ ق.م بانتخاب القنصلين الجمهوريين هريتوس وپانسا. وكانت نقطة التحول في اوائل صيف ٤٣ ق.م عندما قتل هذان القنصلان في [موتينا] وما لبث الجيش القادم من اسپانيا بقيادة [ليپيدوس] ان انضم الى [انطوني] وهو حدث اخلّ تماماً بميزان القوى في ايطاليا وادى الى الاتحاد الثلاثي.

لفراق [بروتوس] الاّ أن منظر نقش في صورةٍ فضح أمرها واصاب محاولتها النبيلة بالاخفاق. كان موضوع الصورة مقتبساً من اسطورة اغريقية «هكتور يودع اندروماخه» والمنظر يمثلها وهي تتناول من ذراعيه طفلهما [استياناكس Astyanax] بينما تشخص بنظراتها الى زوجها. وجدت [پورشيا] وهي تنظر الى الصورة احزانها تمثل امامها فأنفجرت باكية، وادامت الذهاب الى النقش عدة مراتٍ في اليوم والبكاء امامه. وبهذه المناسبة اقتبس [اچيليوس -Acil ius] أحد اصدقاء بروتوس ابيات هوميرس التي تخاطب [اندروماخه] زوجها هكتور بها[١٦]:

انت لي يا هكتور كلّ شيء.

رعيتني كأبٍ وكأمٍ

وكأخٍ وكزوج محبّ

فأبتسم بروتوس له وقال:

- لكني لن أجيب [پورشيا] بمثل ما أجاب هكتور[١٧]

اهتمي بنولك ومغزلك

وأصدري اوامرك لخادماتك

- ربما لأنها لاتملك القوة الكافية لاتيان الأعمال المنتظرة من الرجال الاّ ان لديها الروح الوثابة للنضال في سبيل بلادها، مثلما لدينا.

لقد اقتبسنا هذه الحكاية من كتاب [بيبولوس] ابن [پورشيا] عن بروتوس.

بعد ان ترك [بروتوس] ميناء [ڤيليا] ابحر الى آثينا فأستقبله الشعب بحماسة عظيمة وأحتفى به بمختلف مظاهر الاكرام الرسمية، فمكث هناك عند احد اصدقائه واستمع الى دروس [تيوميستس Theommestus] الاكاديمي و[قراطيپوس Cratippus] المشائي Peripalitie وبحث مسائل الفلسفة معهما وبدأ وكأنه لا شاغل له غير الدراسة الأدبية. الاّ انه كان طوال هذه الفترة يعدّ العدة للحرب سراً دون ان يدع للشكّ اليه سبيلاً. واعتزم ان يستميل قواد الجيش الروماني في مقدونيا، وارسل لهذه الغاية داعيته [هيروستراتوس Herostratus وفي الوقت نفسه أجتذب كلّ الشباب الرومان الذين يدرسون في آثينا ومنهم ابن [شيشرون] الذي كان دائم الثناء عليه بحرارة والقول:

---

(١٦) انظر الالياذة ٦: ٤٢٩ - ٤٢٠.

(١٧) انظر الالياذة ٦:٤٩١.

- سواء في ذلك أكنت في حلم أو في يقظة، لايسعني الأ الاعجاب برجل له مثل هذه الروح العالية، وذاك الكره العظيم للاستبداد.

وبعد ذلك بدأ [بروتوس] يعمل جهاراً. ولما علم ان عدداً من السفن الرومانية المحملة بالمال قد ابحرت من آسيا وان قائدها انسان طيب، ومعروف لديه بالسمعة ذهب لمقابلته في [كاريستوس Carystus] وهي مدينة في [يوبيا]. وبعد ان تداول معه واقنعه بتسليم السفن له، اقام مأدبة كبيرة في ذلك اليوم الذي وافق عيد ميلاده. ثم بعد أن بدأوا بالشراب واقترحوا نخب «النصر لبروتوس والحرية لروما» رغب [بروتوس] في بث المزيد من الحماسة في المجتمعين فأمر بوعاء أكبر من الخمر. وفيما هو ممسك به ردد بدون مناسبة او سبب ظاهر
- هذا البيت من هوميروس، وهو آخر كلمات نطق بها پاتروكليس المحتضر[١٨].

لقد عاكسني الحظّ اولاً وأدار لي وجهه

ثم تلاه ابوللو ابن ليتو Leto

وزاد بعض الكتاب شرحاً لهذا، انه عندما خرج [بروتوس] لخوض آخر معركة له في فيليپي كانت كلمة التيمن التي اختارها لجنوده هي «ابوللو» واستنتجوا ان النزوة المفاجئة التي دفعته الى ترديد هذا البيت، وانما نبعت من احساس مسبق بالهزيمة.

بعد هذا اعطاه [انتستيوس Antistius] نصف مليون دراخماً من الأموال التي كان يحملها الى ايطاليا، وبقية جيش [پومپي] الذي لم يزل يهيم على وجهه في انحاء تساليا انضم مسروراً تحت لوائه. وأخذ من [چنا] ايضاً خمسمائة خيّال كان هذا يريد ايصالها الى [دولابللا] في آسيا. بعد ذلك ابحر الى [ديمترياس] وهي ميناء تسالي حيث وضع يده على كميات كبيرة من الاسلحة والمعدات التي كان [يوليوس قيصر] قد أمر بجمعها لحملته البارثية وكانت على وشك ارسالها الى [انطوني]. وسلم اليه [هورتنسيوس] البريتور حاكم مقدونيا، الاقليم الذي يحكمه وأعلن الملوك والحكام المجاورين مساندتهم له وعرضوا عليه المعونة. ثم وردت انباء تشير الى ان [گايوس] اخ [مارك انطوني] قد خرج من ايطاليا وهو في طريقه للانضمام الى القوات التي يقودها [ڤاتينيوس Vatinius] في دراكنيوم وابوللونيا[١٩] وقرر [بروتوس] ان يعترض سبيله ويضع يده على جيشه قبل ان يتم تعزيزه.

---

(١٨) الالياذة ٨٤٩:١٦. هناك استعارة وتورية في اسم ابوللو هنا - فبالامكان أن يقصد به هنا «مدمّر» او مُخرب.

(١٩) في نسخة أخرى: دراكيوم وردت ابيدامنس Epidamnus. وكلتاهما ميناء في شمال غرب اليونان على بحر الادرياتيك.

فأنطلق حالاً بما تيسر له من قوة يقطع ارضاً وعرة، تهدده العواصف الثلجية، ويسبق قافلة ارزاقة بمسافة كبيرة توخياً للسرعة. وما ان وصل ضواحي [دراكيوم] بدأت عليه اعراض المرض الذي يسمونه بوليميا Boulimia، وهو متأت من البرد والتعب يصيب معشر الانسان والحيوان على حدّ سواء، لاسيما عندما يشقون طريقهم في الثلوج ويضعفهم الانهاك. وربما كان كانت علته ان الحرارة الطبيعية في الجسم عندما تجد نفسها متجمدة ومكثفة بالبرد الذي يحدق بها تستنفد بسرعة كل ما لديها من غذاء، أو لعل البخار الحاد الخبيث الذي يتصاعد من الثلج ينفذ الى الجسم ويقتل الحرارة التي تتولد من المسام. ذلك لأن عرق الجسم يتولد في الظاهر من تلك الحرارة الداخلية، فيقوم ردّ فعل معاكس بما يواجه من برد حال وصوله الجسم. ومهما يكن فقد بحثت هذا الموضوع بتفصيل في مكان آخر.

ووجد [بروتوس] نفسه خائر القوى مهدوداً. ولم يعد للجنود لقمة يتبلغون بها، ولذلك اضطر خدمه الى السؤال من اعدائهم. واقتربوا من ابواب المدينة وطلبوا من الحرس شيئاً من الخبز. ولما سمع هؤلاء عرض [بروتوس]. اقبلوا اليه بمحض اختيارهم وجلبوا له طعاماً وشراباً وقد ردّ [بروتوس] الجميل عندما سقطت المدينة في يديه فقد اظهر ليس لهم وحدهم بل لسكان جميعاً اعظم ضروب العطف والرعاية.

عندما وصل [گايوس انطونيوس] ايوللونيا، أمر كل الجنود المعسكرين بالقرب من المدينة بالانضمام اليه. الاّ انهم انضموا الى [بروتوس] وفي الوقت نفسه اتضح له أن أهالي [ايوللونيا] هم مع [بروتوس] فترك المدينة وزحف على [بوثروتوم Buthrotum][٢٠] فخسر في مبدء الأمر ثلاث كتائب مزقها [بروتوس] شرّ ممزق اثناء ما كان خصمه يواصل سيره. وأخيراً عندما اشتبك في معركة للاستيلاء على بعض التحصينات المحيطة بـ[بلليّس Byllis] واقتحامها وكان بروتوس قد سبقه لاحتلالها. اصيب بالاندحار على يد [شيشرون] الأبن الذي اناط به [بروتوس] القيادة. فكسب لقائده عدة معارك. وباغت [بروتوس] [گايوس] في ارض مستنقعات وقواته مبعثرة فوق مساحة واسعة الاّ انه لم يصدر اوامر بالهجوم، وانما احاط بجيش عدوه وحذر من التعرض لحياة الجنود اذ كان متأكداً بأنهم سيكونون في صفه بعد قليل، وهذا ما حصل فعلاً فقد استسلموا هم وجنرالهم وهكذا وجد [بروتوس] جيشاً عظيماً تحت امرته. وعامل [گايوس] معاملة كريمة تتفق والشرف العسكري. فقد سمح له بالاحتفاظ بشارات رتبته مدةً طويلة مع ان كثيراً من الشخصيات كتبوا له من روما يحثونه على قتله ومن بين هؤلاء شيشرون نفسه. ولكن عندما بدأ [گايوس] يفاوض ضباط [بروتوس] سراً

---

(٢٠) على ساحل الارض اليونانية مقابل كورفو Corfu.

محاولة منه اثارة عصيان، نقله بروتوس الى سفينة ووضعه تحت حراسة دقيقة. وعندما هرب الجنود الذين نجح [گـابوس] في اقناعهم بالانتقاض على بروتوس ولجأوا الى [ابوللونيا] ودعوا [بروتوس] لزيارتهم، أجابهم ان هذا ليس بالتقليد الروماني الصحيح. وان عليهم ان يأتوا هم الى جنرالهم ويطلبوا منه الصفح وهذا ما فعلوه، فعفا عنهم.

وفيما هو يتهيأ للعبور الى آسيا وصلته انباء عن تطورات الموقف في روما. ففي خلال[٢١] تلك الفترة تمكن [اوكتافيوس قيصر] من الحصول على ثقة مجلس الشيوخ ومساندته ضدّ [انطوني] وانه طرد خصمه ومنافسه هذا من ايطاليا. فكان على [بروتوس] ان يخشى الآن [اوكتافيوس] اذ بدء يعمل على تعيينه قنصلاً خلافاً لاحكام القانون. وانه يحتفظ بجيوش اكثر مما تحتاجه الدولة، على انه رأى ان مجلس الشيوخ لايقره على هذه الاجراءات، وانه بدأ يتحول نحو بروتوس، ويصدر مراسيم باناطة قيادة الاقاليم العسكرية به، فاستبد القلق باوكتافيوس ولذلك ارسل يعرض على [انطوني] المصالحة وجاء بعين الوقت بجيشه واحاط روما[٢٢] ليعمل على تنصيبه قنصلاً بالتهديد مع انه لم يكمل العشرين من عمره كما ذكر هو نفسه في «تعليقاته». وكان احد اولى اعماله، اصدار الأمر بالتحقيق ورفع الدعوى العمومية على [بروتوس] ورفاقه المؤتمرين بتهمه انزال حكم الموت دون محاكمة باوّل رجل في الدولة يتولى اكبر منصب. وعين [لوچيوس كورنيفيچيوس Lucius Cornificius] مدعياً عاماً على [بروتوس] وماركوس اگريپا Marcus Agrippa مدعياً عاماً على [كاسيوس]. ثم حكم المتهمون غياباً واضطر القضاة الى الادلاء باصوات الادانة اضطراراً. وقيل ان المنادي صعد الروسترا ونادى [بروتوس] لحضور المرافعة كما يحتم التقليد القضائي ندت من العامّة تنهيدة عميقة، واطرق النبلاء برؤسهم صامتين وشوهد [پوبليكوس سيليچيوس Publius Silicius] وهو ينفجر باكياً ولهذا السبب وضع اسمه في قائمة المستباحة دماؤهم بعد حينٍ. ثم ما عتم ان عقد الصلح بين [اوكتافيوس وانطوني وليپيدوس] والفوا الحكم الثلاثي[٢٣] وقسموا الأقاليم بينهم ووضعوا قائمة باستباحة دماء من ارتوثي القضاء عليهم وقد بلغ عددهم المائتين[٢٤] وكان شيشرون من ضمنهم.

---

(٢١) في أوائل ٤٣ ق.م.

(٢٢) في صيف ٤٣ ق.م.

(٢٣) في تشرين الأول ٤٣ ق.م.

(٢٤) هذا العدد قاصر على اعضاء مجلس الشيوخ الذين حكموا بالموت. وكان ثم ايضاً ما يناهز ثلاثة آلاف من طبقة الفرسان. كان عدد اعضاء المجلس يتفاوت كثيراً باختلاف العهود. فالى مبدأ القرن الاول قبل الميلاد كان اقل من مائتين. وزاد سللاً في عدده الى (٥٠٠) تقريباً، وضاعفه قيصر فأصبح الفاً. الا ان أغسطس انقصه الى (٦٠٠).

بلغت هذه الانباء [بروتوس] وهو في مقدونيا، فوجد نفسه مكرهاً على اصدار أمر [لهورتنسيوس]، بقتل [گايوس انطونيوس] عقاباً لقتل [شيشرون وبروتوس البينوس] اولهما صديقه وثانيهما قريبه. ولهذا السبب أمر [انطوني] بأن يقتل [هورتنسيوس] فوق قبر [گايوس] عندما ظفر به بعد معركة [فيليپي]. وقد قال [بروتوس] أنه أكثر خجلاً لموت شيشرون منه حزناً عليه، وانه ليلقي اللوم على اصدقائه في روما لما حصل. وقال ان ما جعلهم عبيداً ليس الطاغية المستبد، وانما أعمالهم، ولقد سمحوا لانفسهم ان ينظروا نظره استسلام الى اعمال يجب أن لايتسامحوا حتى لمجرد سماعها.

عبر [بروتوس] الى القارة الآسيوية[٢٥] بجيشه وقد اصبح لجباً مرهوباً واصدر أمراً بوضع الاسطول على قدم الاستعداد في بشينيا وفي الميناء المجاور [چيزكوس Cyzicus] في حين قام بعدة جولات في داخلية البلاد لتفقد المدن وكسب ولائها والعمل على تدبير شؤونها ومقابله الحكام المحليين وارسل رسلاً الى [كاسيوس] في سورية يلتحق به متخلياً عن حملته المنتواة الى [مصر]. وذكره بأنهما لايتجولان في الامبراطورية لاقتطاع اجزاء منها لنفسيهما: بل ان غايتهما هو تأليف جيش لاسقاط الطغاة وتحرير بلادهما. فعليهما أن يضعا نصب اعينهما هذا الهدف والاّ يبتعدا عن ايطاليا، بل يجب ان يسرعا بالعودة الانقاذ ابناء وطنهما من الظلم.

واطاع [كاسيوس] أمر الدعوة ولما قفل راجعاً، خفّ [بروتوس] اليه وتقابلاً في [أزمير] وكانت اول لقيا لهما بعد ان افترقا في [پيريوس] باثينا. حين توجه [كاسيوس] الى سورية، وسار [بروتوس] الى مقدونيا، وشعرا بارتياح وثقة عظيمتين للقوات التي يقودها كل منهما لقد خرجا من ايطاليا كأحقر المنفيين، بلا مال ولا سلاح ولا سفينة واحدة مجهزة بمجاذيف ولا جندي تحت امرتهما، فدار الزمان دورته القصيرة، وهاهما يجتمعان الآن بعد اشهر قليلة يقودان اسطولاً وجيشاً من الخيالة والمشاة، ولديهما مال وفير. وفي حالة موآتية جداً لخوض المعركة في سبيل الامبراطورية الرومانية.

وكان [كاسيوس] يحرص أن يكونا متساويين مقاماً، الاّ ان بروتوس كان يستبق نيته بالذهاب لزيارته، اذ كان [كاسيوس] أكبر منه سناً ولايستطيع تحمل درجة معينة من المشقة. كان [كاسيوس] يعرف بالكفاءة العسكرية، الاّ انه اشتهر ايضاً بالطبع الحادّ العنيف، وممن يحافظ على سلطته بما يشيعه من رهبة، وان كان مع اصدقائه المقربين قد يصل في مزاحه الى حدّ التهريج. الاّ ان مناقب [بروتوس] جعلته محترماً عند الناس، محبوباً من الاصدقاء.

(٢٥) في آخر صيف ٤٣ ق.م.

موضع اعجاب الأفاضل، غير مكروه من اعدائه انفسهم. وقد تميز بطبع رقيق فريد في بابه وسمت روحه العظيمة عن الشعور بالغضب او الفرح أو الطمع ثابت لايلين في تتبع اهدافه، ولاينكص عما يعتقده صواباً وشريفاً. ان اخلاصه التام لغاياته اكسبه الحب الاعظم والسمعة العليا. و[پومپي] الاكبر نفسه مثلاً ما كان يتوقع منه لو انتصر على [يوليوس قيصر] ان ينزل عن سلطانه الى حكم القانون وانما سيظل يتولى تصريف شؤون الحكم وفق هواه فلا يسرح جيشه اطاعة لحكم القانون، وانما كان سيهديء من روع الناس بأتخاذه لقب. قنصل او دكتاتور او اي عنوان سلطة أخر مقبول. ونعود الى [كاسيوس] لنقول لقد عرف بعواطفه الجائحة العنيفة التي لايمكن السيطرة عليها. كثيراً ما ادّى به جشعه وحبه للمال الى الزيغ على الصراط المستقيم ولذلك بدأ من الطبيعي ان غايته من القتال وتنقله في ارجاء الامبراطورية والمجازفة بحياته لم تكن لأجل حرية ابناء وطنه بل لتأمين مركز عظيم لنفسه. ان زعماء الجيل الذي سبق جيل [پومپي] و[كاسيوس] رجال امثال [چنّا] و[ماركوس] و[گاربو Carbo] كلهم اعتبروا بلادهم غنيمة حرب في انهم فعلوا كل شيء إلاّ التصريح - لأجل التوصل الى السلطة المطلقة.

والامر يختلف عند [بروتوس] فاعداؤه أنفسهم لم يتهموه بخيانته مباد ءه على هذه الشاكلة، في الواقع سمع كثيرون انطوني يقول ان [بروتوس] هو الوحيد من المؤتمرين الذي اندفع الى ذلك بشعور التسامي وبما اعتقده شرف القصد، في حين ائتمر الباقون جميعاً على [قيصر] لأنهم بكرهونه ويحسدونه. وواضح ايضاً من رسائل [بروتوس] بأنه وضع ثقته في نبل قضيته أكثر مما وضعها في قوة السلاح. فقبيل ازمة حظّه الختامية كتب الى [اتيكوس Atticus] يقول ان أموره على خير ما يرام، وبأحسن ما يمكن أن يأتي به الحظّ، اذ اما أن يحقق النّصر ويعيد الحرية الى الرومان واما ان يموت فيكون شخصه بمنجى من الاستعباد. وفي الوقت الذي باتت المسائل كلها قد سويت بشكل يبعث على الاطمئنان له ولاصدقائه، فهناك مسألة واحدة بقيت موضع شكّ. هل سيعيشون ويكونون احراراً، او سيموتوا؟ واضاف يقول في الرسالة نفسها: ان [مارك انطوني] يدفع ثمناً عادلاً لحماقته، فبدلاً من أن يختار في هذه اللحظة ان يحتلّ مكانه في التاريخ الى جانب رجال من امثال [بروتوس وكاسيوس وكاتو] فضلّ أن يجعل نفسه مجرد تابع لاوكتاڤيوس وتنبأ بأنه ان لم يُهزمكم كلاهما معاً، فلن يطول بهما الزمن حتى يقتتلا فيما بينهما.

وقد دلّ على انه عراف ممتاز.

طلب [بروتوس] من [كاسيوس] جانباً من الأموال التي جمعها، معتذراً بأنه انفق كل ما

في حوزته على اعداد اسطول كاف لسيطرتهما على البحر المتوسط. الاّ ان اصدقاء [كاسيوس] عارضوا في ذلك قائلين: انه ليس من العدل في شيء ان يدفع لبروتوس تلك الأموال التي وفرّها بالتقتير وعلى حساب شعور السخط بين الجنود، يستعملها في دفع اجور جنوده وتنمية شعبيته بينهم. على ان [كاسيوس] لم يعر اقوالهم اهتماماً ودفع له ثلث ما لديه. وبعد هذا افترق الجيشان لينهض كل منهما بواجباته. فأستولى [كاسيوس] على [رودس] على انه عاملهم بقسوة لا داعي لها قط. وكان سلوكه هذا يناقض الجواب الذي ردّ به على المواطنين حينما أخذوا ينادونه بسيهدنا وملكنا عند دخوله مدينتهم فقد قال لهم:

- انا لست بسيدٍ ولا بملك الاّ اني عاقبت وقتلت الرجل الذي جمع في ذاته هاتين الصفتين.

ومن ناحية أخرى طلب بروتوس اموالاً وجنوداً من ليقيا Lycia[٢٦] فأجابه لاوقريطس Laucrates زعيمهم الديمقراطي، باقناع المدن على الثورة. وأحتل الأهالي مرتفعات معينة كانت تعترض خطّ سير [بروتوس] فأرسل بادىء ذي بدءٍ قوة من الخيالة باغتت العدوّ اثناء تناولهم الطعام الفطور وقتلت منهم ستمائة. ثم استولى على معاقلهم وقراهم الاّ انه اخلى سبيل كل اسراهم بدون فدية يريد بذلك استمالة الأهالي برحمته وعدله. الاّ أن الليقيين ظلوا معاندين واختاروا مداواة حقدهم بجراحهم، واحتقار انسانية بروتوس وعطفه، حتى ارغم اصلب محاربيهم على اللجوء باسوار مدينة [كسانتوس Xanthus] فحاصرهم فيها. فحاول الأهالي النجاة بالسباحة تحت الماء في النهر الذي يجري بمحاذاة المدينة فكان يلتقطهم بالشباك التي نصبها في مجراه، لقد ربط بتلك الشباك اجراساً صغيرة ترنّ كلما سقط فيها سابح، بعد هذا حاول الكسانيتون القيام بهجوم خارج المدينة ليلاً واشعال النار في بعض الآت الحصار. الاّ ان الرومان فطنوا اليهم وارغموهم على العودة. وهبت ريح شديدة فوجهت النار الى استحكامات المدينة والى البيوت المجاورة لها وامتدت اليها حتى خشي بروتوس ان تأتي النار على المدينة كلها فأمر رجاله بالتعاون مع الاهلين على اخمادها.

لكن حالة رهيبة لاتوصف من اليأس تملكت الليقيين فجأة، حالة خير ما يمكن وصفها به هو الحنين الشديد للموت فقد أخذ كل حيّ في المدينة امرأة كانت ام طفلاً، حراً ام عبداً من كل عمرٍ وطبقة يقذفون من الاسوار بالصواريخ الرومانَ الذين خفوا لمعونتهم وهم يحاولون اخماد النيران في الوقت الذي أخذ آخرون يجمعون الحطب والخشب وكل مادة قابلة الإحتراق لنشر الحريق في سائر المدينة. ويزيدون من وقيدها بصبّ الزيت وكل سائلٍ ملتهب وكل ما من شأنه مضاعفة شدتها فسرت النار في جميع انحاء المدينة وتصاعد اللهب واصبحت كتلة واحدة من

---

(٢٦) أقليم في ساحل آسيا الصغرى الجنوبي، الى جوار [رودس].

نارٍ. فركب [بروتوس] والأسى يغمر جوانبه وطاف حول الأسوار واخذ يتوسل بالكزانيثيين بايدٍ ممدودة مناشداً اياهم ان ينقذوا ارواحهم ومدينتهم. فلم يصغ اليه بشرٌ وكان همّ الرجال والنساء ان يجدوا الوسائل السريعة لاهلاك انفسهم لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم واطفالهم واحداثم وهؤلاء الأخيرون كانوا يطلقون صرخات مرعبة وهم يقذفون بأنفسهم الى الأتون دعك ممن كانوا يلقون بأنفسهم من أعلى السور او يعرضوا اجسامهم لطعنات ابائهم متوسلين بهم ان يقضوا عليهم. بعد خراب المدينة الشامل وجدت جثة امرأة مشنوقة وعلى صدرها تتدلى جثه طفلها المشنوق ايضاً. وهي ما تزال ممسكة بالمشعل الذي احرقت به بيتها. كان المنظر أليماً يقطع نياط القلب. ولم يكن بروتوس يطيق رؤيته فقد انفجر باكياً وأعلن عن مكافأة لكلّ جندي ينقذ كزانثيا واحداً. وقيل انه لم يعثر على اكثر من مائة وخمسين من سائر السكان، تم انقاذهم من الموت رغم انفهم. وهكذا فقد اعاد التاريخ نفسه في هذه طبقاً لدورة خراب شامل مقدرة الأجل: فان اجداد هؤلاء الأقدمين، في ايام الامبراطورية البارثية[٢٧] اقدموا على احراق المدينة واهلاك انفسهم.

ما عتم [بروتوس] ان وجد نفسه بعد هذا، يواجه مقاومة شديدة مماثلة من مدينة [پاتارا Patara] فتردد في مهاجمتها، واستبدت به الحيرة فيما يصنع لأنه كان يخشى ان يصابوا بالأزمة التي أصيب بها الكزانثيون. ولما كان من بين اسراه بعض النسوة الپاتاريات فقد بادر باطلاق سراحهن بدون فدية وكن بنات وزوجات أعلى رجال المدينة مقاماً، فردين لذويهنّ ما لاقينه من حسن المعاملة وعظمن اخلاق [بروتوس] وعدالته ولطفه حتى اقنعهم بتسليم المدينة اليه. وبنتيجة ذلك حذا حذدهم كلّ سكان [ليقيا]، وأعلنوا خضوعهم لسلطته فوجدوا ان حسن معاملته وعطفه يفوقان كلّ ما توقعوه. اذ كان [كاسيوس] في حدود ذلك الزمن قد ارغم الرودسيين على تسليم كل ما لديهم من ذهبٍ وفضّة يملكونه وبهذا ابتز منهم ثمانمائة تالنت تقريباً، ولم يكتف بهذا بل فرض على السكان جميعاً غرامة قدرها خمسمائة تالنت. ولم يطلب بروتوس من اللقيين أكثر من خمسمائة وخمسين تالنت ثم أنطلق الى [ايونيا] دون ان يلحق بهم ضرراً باي شكل كان.

وقام [بروتوس بمآثر كثيرة أخرى وواكبت العدالة عقوباته ومكافآته ولكنني سأذكر واحدة، كانت مصدر ارتياحه هو ارتياح ابرز الرومان في ذلك العصر. عندما نزل [پومپي] الأكبر لاجئاً في [پلوسيوم] بمصر بعد أن دالت دولته وتجرد من كل سلطانه بهزيمته امام [يوليوس قيصر]، تداول اوصياء الصبي (فرعون) مع اصدقائهم فانقسمت اراؤهم. فبعضهم ارتأى أن

(٢٧) يصف هيرودوتس خراب كزانثوس على يد الجنرال الفارسي هرباغوس Harpagus.

يمنحوا [پومپي] حقّ اللجوء. وبعضهم ارتأى ان يطرد من مصر. الاّ [ثيودوتس] الخيوسي Chios الذي كان قد استؤجر لتعليم الملك الصبي البلاغة والذي كان يُعّد راجح العقل لعدم وجود من يفضله. ولذلك كان عضواً في مجلس الشورى هذا فقد صرّح قائلاً انّ الفريقين مخطئان، أولئك الذين يحبذون قبوله وأولئك الذين يرون اخراجه والموقف يتطلب موقفاً واحداً ليس الا وهو القبض عليه وقتله ودعم حجته هذه بالمثل التالي:

- الرجل الميّت لا يعض

فوافق المجلس على رأيه ووقع [پومپي الأكبر] ضحيةً حذلقة معلم بلاغة سوفسطائية. وكما أعتاد ثيودوتس هذا ان يتباهي، أو كمثل على تقلبات الحظ العجيبة غير المتوقعة. ولم يمرّ زمن طويل حتى وصل [قيصر] الى مصر ونال بعض القتلة جزاءهم العادل وذاقوا مرارة موتٍ استحقوه. على ان الحظّ مَدّ في حياة [ثيودوتس] قليلاً، ولكنه اسلمه الى حياة الفقر والذلة والتنقل. الاّ ان يد [بروتس] طالته اثناء ما كان يعبر اسيا فأمسك به وقتله. وكان موته أكثر ذكراً من اي حادث في حياته.

ودعا [بروتوس] زميله [كاسيوس] لينضم اليه في [سارديس]. وخرج لاستقباله وهو في طريقه له مع جماعة من اصحابه، واصطفت القوات المختلطة بهيئة الاستعراض وحيتهما بلقب [امبراطور] ولكن الخلاف الحادّ نشب بينهما، كما يحصل عادة في المشاريع العظيمة التي تضمّ عدداً كبيراً من القادة والأنصار. وتبودلت التهم فيما بينهما. ولذلك قررا قبل كل شيء ان يعقدا فيما بينهما اجتماعاً مغلقاً بمعزلٍ عن كلّ أحدٍ. فاوصدت الابواب دونهما وبدأ الرجلان يتلاومان ثم يتبادلان التهّم، وسرعان ما انتقلا الى الملاحاة والبكاء.

واستولت الدهشة على اصدقائهما في الخارج وهم يسمعون صياحهما وهياج عواطفهما وخافوا سوء العاقبة، الاّ انهم لم يجرأوا على دخول الغرفة لأن الأوامر كانت جازمة. الاّ ان [ماركوس فاڤونيوس] الذي كان من المعجبين [بكاتو] وممن يتعاطون الفلسفة بدافع من التعصب العاطفي لا من القناعة العقلية. حاول الدخول عليهما الاّ أن الخدم منعوه. الاّ انه كان شديد العناد ما أن يقرر شيئاً حتى يعمله ولايكون منعه عنه بالسهل فهو كما ذكرنا رجل مندفع بالعاطفة والتطرّف. ولم يكن ليعلق كبير اهمية على مركزه كعضو في مجلس الشيوخ الروماني. وباتخاذه سلوكاً معيناً يتميز باللامبالاة والسخرية. كان يزيل في الواقع الآثار التي تخلفها خشونته ويخفف من وقع كلماته الجارحة. ونجم عن ذلك ان الناس عدواً وقاحته مزاحاً. وفي هذه المناسبة شقّ طريقه بالقوة بين الواقفين واقتحم الغرفة وانشأ يقتبس مقاطع من هوميروس، تلك التي استخدمها [نسطور Nestor] مع آخيل وآغا ممنون - ويلقيها بلهجة مسرحية:

فلتطيعا أحكامي، فأنا أكبر منكما
سنًا واوفر منكما حكمة![٢٨]

واستمرّ في ذلك، فضحك [كاسيوس] الاّ ان [بروتوس] دفع به الى خارج الغرفة قائلاً له ان قد يدعي بفلسفة الكلبيين[٢٩].

الاّ ان كل ما لديه منها في الواقع، هو صفاقة الكلب. على ان هذه الحادثة احدثت اثرها وحسمت النزاع الى حين وافترقا حالاً ثم ان [كاسيوس] اقام مأدبة عشاء دعا اليها [بروتوس] اصدقاءه ضيوفاً. وفيما كان المدعوون يهمون بالجلوس على ارائكهم وصل [فافيوس] وقد أغتسل وشيكاً. فناداه [بروتوس] قائلاً انه ليس مدعواً، وأمر الخدم ان يجلسوه على اريكة في آخر الغرفة. الا ان [فافونيوس] اندفع الى امام وتقدم ليأخذ محله في احدى الارائك الوسطى[٣٠] واخذ المرح يتسرب تدريجياً الى النفوس بعد ان اديرت الراح، وأخذت النوادر والآراء الفلسفية تطرز الاحاديث وتضفي على الدعوة كثيراً من الظرف والامتاع.

في اليوم التالي اذان [بروتوس] علناً [لوچيوس بللا Lucius Pella] وحقرّه؛ وهو روماني يتولى منصب بريتور وصديق لبروتوس، الاّ ان أهالي سارديس اتهموه باختلاس الاموال العامة فحنق [كاسيوس] حنقاً شديداً. اذ قبل ايام قلائل لا غير، واجه اثنان من اصحابه تهمة مشابهة فلم يفعل شيئاً أكثر من تأنيبهما سراً الاّ انه برّأهما علناً وابقاهما في وظيفتيهما. ولذلك لام [بروتوس] على صرامته وتمسكه بحرفيّة القانون بكل تزمتٍ في حين تتطلب الظروف الحاضرة منهما كثيراً من اللباقة وحسن التصرف. فأجاب [بروتوس] مذكراً اياه بمنتصف آذار يوم قتلا [يوليوس قيصر] لا لانه كان ينهب الناس، بل لان سلطته شجعت بعضهم على النهب. واستطرد يقول:

- لو أننا نحاول ان نتلمس العذر في اهمالنا تطبيق العدالة، لكان من الأفضل أن نتغاضى عن اعمال اصدقاء قيصر، على ان نترك اصدقاءنا يخطئون. ففي هذه الحالة سنوصم بالجبن ولا اكثر. ولكنا الآن معرضون للاتهام بالجور والظلم بعد كل ما عانينا من تعب وتعرضنا له من اخطار.

---

(٢٨) الالياذة ١: ٢٥٩.

(٢٩) ان اتباع هذه فلسفة يعرفون بـ Cynics (اشباه الكلاب). لسلوكهم الفظ الذي يتعمدون الظهور به.

(٣٠) يضع الرومان ثلاث ارائك حول مائدة عشائهم، ويتركون الجانب الرابع مفتوحاً، والاريكة الوسطى تعتبر موضع الشرف.

تلك هي المبادىء الذي وضعها [بروتوس] نصب عينيه. وعندما ازف وقت الرحيل عن آسيا الى بلاد اليونان قيل ان [بروتوس] رآى آيةً عجيبة: لقد كان نومه خفيفاً وقد تمكن بالتدريب وضبط النفس من تقليل اوقات نومه الى ساعات قليلة. ولم يكن ينام اثناء النهار ولم يكن يفعل ذلك ليلاً الاّ بعد أن يأوى كل واحد الى فراشه ولايعود ثم من يتحدث اليه او حاجة تستدعي منه الحَلّ. في تلك الايام عندما بدأت الاعمال الحربيّة، ووقع ثقلها كلها على عاتقه وكانت الافكار عن المستقبل تزعج رأسه اعتاد أن ينام نومته الأولى ليلاً بعد العشاء. ثم يقضي بقية الليل في تصريف اعجل الشؤون وادعاها الى الاهتمام واستطاع ان ينتهي من ذلك في وقت قصير، فانه يقرأ حتى الهزيع الثالث، اي التبديل الثالث للحراسه عندما يمثل امامه التريبيونون وقواد المائة لتلقي الأوامر. وفي ليلة من الليالي قبل ان يعبر الجيش الى بلاد الاغريق كان جالساً بمفرده في خيمته التي يضيئها نور معتم وكان الوقت متأخراً والسكون يخيّم على المعسكر كلّه. وخيل له وهو في استغراق تأملي انه سمع من يدخل عليه فرفع بصره مستطلعاً فرأي شبحاً رهيباً غريباً لجسم غير انساني يقف الى جانبه فسأله بروتوس بما استجمع من شجاعة:

- من تكون بين الرجال او الآلهة وماذا تريد منيّ؟

فأجاب الطيف:

- اني جنيّك الشرير يا بروتوس: وستراني في فيليبي.

فقال [بروتوس] دون ان يفارقه ضبط نفسه:

- سألقاك هناك اذن.

وعند تلاشي الطيف، استدعى بروتوس خدمه، فأكدوا له انهم لم يسمعوا صوتاً ولم يروا احداً. فبقي ساهراً حتى الصباح حيث قصد [كاسيوس] حالاً واخبره بما رأى. وكان [كاسيوس] ابيقوريّ المذهب وكثيراً ما كان يناقش [بروتوس] في مثل هذه المسائل وكان رأيه في هذه المناسبة هو ما يلي:

- ان وجهة نظرنا يا بروتوس، هو ان ليس كل ما نراه وتدركه بحواسنا الجسميّة هو حقيقي وماديّ. فبالدرجة الأولى ان المدركات التي تأتينا عبر الحواس هي خادعة وغير مستقرة وبالدرجة الثانية ان ذكاءنا سريع في تغيير التجربة نفسها -تغييراً قد يكون وهماً كبيراً- الى اشكال وهيئات مختلفة. ان ما تسجله الحواس في الواقع، هو ما يسجله ضم الشمع، والروح الانسانية التي تتضمن خاصيّة الليونة. والمادة التي تعمل على الشمع،

تستطيع ان تكيّف موضوعات الحواس بالشكل الذي تريد. وبامكاننا نجد هذا يعمل في أحلامنا. حيث تقوم المخيلة بتغيير تجربة غير مادية تماماً الى كلّ شكل من اشكال العواطف والهيولات، ان طبيعة المخيلة ان تظلّ فعالة الى الأبد، وهذا العمل يعبرّ عن نفسه امّا بالتوهم واما بالفكر وفي قضيتنا هذه، كان الجسم مرهقاً بالعمل المتواصل فمن الطبيعي ان يؤثر ذلك على الذهن، فيجعله في تفزّع مستمر ووضع غير اعتيادي. انّا هذه الحالة تثير الذكاء وتشوهه معاً. اما بخصوص الأرواح فأنا لا أعتقد بوجودها او اذا كانت موجودة بحيث يمكنها ان تتخذ شكل انسان وتتحدث مثله او ان تمارس سلطاناً كفيلاً بالتأثير علينا. وامّا من جهتي فأني لأرجو ان تكون موجودة وان ما يقال عنها صحيح، فاذ ذاك لانكتفي بالاعتماد على جيشنا وخيالتنا واسطولنا بل ان نعتمد على الآلهة ايضاً مادمنا نتزعم قضيّة عادلة نبيلة مقدسة.

بهذا الحديث والبراهين استخدمها [كاسيوس] لاطمئنان [بروتوس]. وفي الوقت الذي باشرت القوات بصعود السفن لاجتياز المضائق الى بلاد الاغريق عبر المضائق حلق نسران وحطّا على اللوائين المتقدمين وحُملا وهما مستقران فوقهما خلال المسيرة. وكان الجنود يطعمونهما حتى وصل الجيش [فيليبي] الاّ انهما طارا قبل المعركة بيوم واحد.

سبق [لبروتوس] ان أخضع مُعظم الشعوب التي كان الجيش يمرّ بها. وبلغ الآن الساحل التراقي وأخذ يتقدم بمحاذاته مستولياً نقطة تقع مقابل جزيرة [تاسوس Thasos] وجد [نربانوس Narbanus] معسكراً بجيشه في المضائق بالقرب من [سيمبولوم Symbolum] فطوقه وضيق عليه الخناق حتى اجبره على التقهقر واخلاء الميدان، في الواقع كاد ان يأسر كلّ جيشه، لأن زحف [اوكتافيوس قيصر] تعوّق بسبب مرضه، ولولا سرعة [انطونيو] في انجاده، تلك السرعة العجيبة التي اذهلت [بروتوس] لقضي على قواته ووصل [اوكتافيوس] بعد عشرة ايام وضرب معسكره مقابل بروتوس، في حين كان [كاسيوس] يواجه انطوني.

ان رقعة الأرض التي تفصل بين المعسكرين عرفت عند الرومان باسم سهول [فيليپي] ولقد كان اعظم جيشين رومانيين يواجه احدهما الآخر في معركة. كانت قوة [بروتوس] أقل عدداً بكثير من قوات [انطوني واوكتافيوس] ولكنها تتفوق بجودة سلاحها وتجهيزاتها مما جعلها تبدو منظراً رائعاً. فمعظم الدروع كانت مكفتةً بالذهب والفضة بسبب ما اغدقه عليهم بروتوس من سخائه.

لقد عودّ ضباطه على مستوى معيشةٍ معتدلٍ تشوبه الصرامة في النواحي الأخرى. الاّ انه أعتقد بان الثروة التي يحملها المرء بين يديه او يضعها على ظهره ترفع من معنوياته وتزيد

من اقدامه لاسيما الجنديّ الكفوء الطموح، اما أولئك الذين حصروا همهم بالربح فإنهم يقاتلون بأكثر ضراوة حرصاً منهم على تروسهم لأنها كلّ ما يملكونه.

واستعرض [اوكتافيوس قيصر] جنوده وقام بمراسيم الطهارة في استحكاماته ثم وزّع وجبة طعام صغيرة وخمسة دراخمات على كلّ جندي لأجل القيام بالتضحية المعتادة. واظهر [بروتوس] و[كاسيوس] استحقارهما لفقر عدوهما وخسّته، باجراء مراسيم الطهارة في ارض مكشوفة خارج الاستحكامات كما هي العادة ووزع عدداً كبيراً من الاضاحي لكلّ كتيبة. واعطى كل جندي خمسين دراخما. وبهذا رفعوا معنويات الجيش واخلاصه أكثر من فعل العدوّ بكثير. وفي الوقت عينه وقع [لكاسيوس] اثناء المراسيم حادث شؤم فقد جاءه [ليكتوره] بأكليل الزهر الذي كان سيضعه على رأسه مقلوباً. وفي مناسبة أخرى سبقت هذه كان ثم موكب لاحتفال ديني. حمل تمثال ذهبي لربّ النصر يعود لكاسيوس فسقط على الأرض عندما زلت قدم حامله. اضف الى هذا، أنّ عدداً كبيراً من الجوارح شوهدت تحوّم فوق المعسكر يومياً وشوهدت كذلك اسراب من النحل تتجمع في محلات معينة بين الخطوط، فعزلها السحرة بسياج لازالة روح التشاؤم والخوف الوهميّ بوسائلهم. فقد هبطت به معنويات الجنود كما بدأت تزعزع عقيدة [كاسيوس] الابيقورية. ولهذا السبب لم يشأ ان يضع مصيرهم في تجربة معركةٍ مع العدوّ وقتئذ وفضل الحالة اطالة امد الحرب لأنّ قوة حزبهما تكمن في مواردهما في حين كانا اضعف من خصمهما نسبيًا في الرجال والسلاح. الا ان [بروتوس] كان يرغب في دخول المعركة الفاصلة بأسرع ما يمكن من الوقت فإمّا ينقذ بلاده من الإضطهاد ويعيد اليها حريتها. وإمّا ينهي شتاء أولئك الذين اثقلوا باعباء الحرب ونفقات وخدمات واتاوات وتطوّع فيها. واتفق في تلك الاثناء انّ خيالته الخفيفة انتصرت في بعض المعارك الثانوية التمهيدية. فشدت من عزيمته كما هرب بعض الجنود من معسكر [اوكتافيوس] والتحقوا به، وانتشرت اشاعات بأن مزيداً من هؤلاء سيلتحقون به. وقد اقنع هذا السبب كثيراً من اصدقاء [كاسيوس] في مجلس الحرب، على تبنى رأي [بروتوس] ومهما يكن فان [اتيلليوس] احد اصدقاء [بروتوس] عارض في خطته ونصح بتأجيل المعركة الى ما بعد انقضاء الشتاء فسأله ما الذي يجعله يعتقد انه سيكون أحسن حالاً وتوفيقاً بعد سنة؟ فأجاب:

- على الأقل أكون قد أطلت عمري سنةً واحدةً. ان لم يكن ثم أكثر من هذا.

لم يسرّ [كاسيوس] من هذا الجواب مطلقاً في حين جرح مشاعر بقية اعضاء مجلس الحرب، وأخيراً تقرّر الدخول في المعركة ثاني يوم.

وظهر [بروتوس] في عشاء تلك الليلة مفحماً بالثقة، وساهم في المناظرات الفلسفية مع

اصدقاءه ثم ذهب للنوم. اما [كاسيوس] فقد كان على خلاف ذلك. على حَدّ ما يذكر لنا [ميسالا Messala] فقد تناول عشاءه مع اخصّ خاصته وبدأ واجماً كثير التفكير خلافاً لعادته. وبعد ان فرغوا من العشاء ضغط على يد ميّسالا بحرارة وأخذ يكلمه باليونانية على عادته عندما يريد اظهار مودته فقال:

- أشهد عليّ يا ميّسالا، بأني ارغمت على هذا مثلما ارغم پومپي الاكبر من قبلي. لقد أجبرت على المغامرة بمصير بلادي بمعركة واحدة. لكن علينا نشدد من عزائمنا وأن ننظر الى الحظّ بعين غير واجفة ونحن ننتظر حكمه. فعلينا أن لايفقد ثقتنا به وان كان في رأينا.

خَطَلُ يقول ميّسالا: كانت هذه كلماته الأخيرة التي وجهها اليه وبعدها تعانق الرجلان. وكان [كاسيوس] قد دعا [ميّسالا] الى العشاء في اليوم التالي الذي يوافق عيد ميلاده.

وما ان اصبح الصبح حتى كانت شارة المعركة وهي الوشاح القرمزي قد رفعت امام معسكري [بروتوس] و[كاسيوس] وخرج الجنرالان والتقيا في الفسحة التي تفصل ما بين معسكريهما. وبهذه المناسبة وجه [كاسيوس] الى [بروتوس] الكلام التالي:

- الا فليكن هذا اليوم موعد النصر لنا يا بروتوس، وان نتقاسم ثمار نجاحنا حتى نهاية حياتنا ولما كان أعظم امنيات المرء هي ابعدها تحقيقاً. ولما كان من اضعف الاحتمالات ان نلقى بعضنا بعضاً ان دارت الدائرة علينا. فأجبني ماذا اعتزمت ان تفعل اذا خيرت بين امرين لا ثالث لهما: الهرب والموت.

فأجاب [بروتوس]:

- اي [كاسيوس] عندما كنت صغيراً غراً لا أعرف عن الدنيا الاّ قليلاً الجئت ولا ادري كيف، الى اعطاء أحكام متسرّعة عن الفلسفة. فانحيت باللوم على [كاتو] لأنه انتزع حياته بيده ولكونني توهمت بأن محاولة تحاشي الطريق الذي رسمته العناية الالهية للاشياء، وعدم القبول بكلّ ما يأتي به القدر دونما وجلٍ والهروب منه، انما هو مروق عن الدين وضعف لايليق بالرجل. لكنني أرى الامور الآن وبالنظر الى واقع حظوظي - بمنظار مختلف. فإن لم تعط الآلهة حكمها لصالحنا، فليس لي رغبةٌ في تجربة آمال او خطط أخرى، وسأموت قانعاً بحكم مصيري. في منتصف آذار وهبتُ حياتي لبلادي ومنذ ذلك الحين وانا أعيش لأجلها حياة ثانية حُرةً مجيدةً.

فابتسم [كاسيوس] وعانق [بروتوس] وقال:

- والآن وبعد ان استقرَ عزمنا على هذا، فنكرّ على العدوّ: فإمّا تحقق لنا الغلبة، وإمّا لن يصيبنا خوفٌ من المنتصر.

ثم انثينا الى اصدقائهما وانشأ يبادلانهم الحديث حول اوامر القتال وخططه، وطلب [بروتوس] من [كاسيوس] ان يسمح له بقيادة الميمنة وان كان هذا من حق [كاسيوس] عادةً بسبب تقدمه عليه في السنّ والخبرة. ولم تقتصر موافقة [كاسيوس] على هذا، بل أمر [ميسّالا] الذي يقود خيرة الجنود في جيشه ان يتمركز بها على الجناح الأيمن. واسرع [بروتوس] بتحريك خيالته الممتازة التسليح ورصّ مشاته بنسق المعركة بنفس الفوريّة.

في الوقت نفسه كان جنود [انطوني] يعلمون على حفر خنادق من المستنقعات حيث يعسكرون، حتى السهل، ليقطعوا على [كاسيوس] طريق البحر. وكان جنود [اوكتاڤيوس] يتبعون في غياب قائدهم المريض. خطته في اتخاذ موقف الدفاع، إذ لم يتوقعوا ان يجازف العدوّ بمعركة فاصلة. بل افترضوا ان يقتصر تعرضه لهم على بعض الهجمات الموضعية والمناوشات لإقلاق الرجال الذين كانوا يحفرون الخنادق بالصياح وبقذفهم ببعض الحراب الخفيفة. وبما انهم لم يكونوا يراقبون القطعات وهي تتحرك وتتخذ مواقعها مقابلهم فقد ادركتهم الحيرة بالضجّة والصيحات المختلطة التي بدأت تتناهى اليهم من الخنادق. وفي تلك الاثناء اصدر [بروتوس] رسائله الى ضباطه بكلمة السرّ مكتوبة فيها في حين اخذ يستعرض خطوط الفرق المصطفة ويشجع الجنود في الواقع لم يسمع بكلمة السرّ وهي تنقل بين الصفوف الاّ قسمٌ قليلٌ ولكن الاغلبية الساحقة عملت بوحي من غزيرتها دون انتظار لكلمة السرّ، فقذوا بأنفسهم على العدوّ وهم يطلقون صيحة الحرب كرجلٍ واحد، وبذلك تباعدت الشقة فيما بينهم ومقدراً الاتصال. ودارت فرقة ميسّالا اولاً بجناح [اوكتاڤيوس قيصر] الأيسر وتبعتها الفرق الأخرى ثم مضت بعيداً في حركتها التطويقية واشتبكوا بخطوط العدوّ الخلفيّة لفترة قصيرة ولم يقتلوا منهم كثيراً. ثم انهم داروا بحركة التفاف حول الجناح كله واندفعوا الى داخل المعسكر. ولقد كتب [اوكتاڤيوس قيصر] في مذكراته كيف ان أحد اصدقائه المدعو [فاركوس ارتوريوس Marcus Artorius] رأى في الحلم كيف كان [اوكتاڤيوس] يحث على ترك فراشه والخروج من المعسكر. وقد أخذ بهذا النذير فأمر بان يحمل الى خارج المعسكرقبل مهاجمة المعسكره بفترة جدّ قصيرة. وانتشرت الاشاعة بانه قتل لأن الجنود خرقوا محفته الخالية بطعناتهم ورماحهم ومقذوفاتهم. وتم الاستيلاء على المعسكر وحصلت مذبحه عظيمة فيه فقتل الفان من اللقيديمين الذين التحقوا مؤخراً بقيصر، ولم ينج منهم رجل واحد.

اما بقية جيش [بروتوس] الذي لم يطوق العدوّ المقابل، واشتبك بالقسم الأكبر، فقد حقق

الغلبة عليه بسهولة، وابادت ثلاث فرقٍ عن بكرة ابيها في قتال اليد باليد، واندفعوا الى الامام ثملين بخمرة النصر ومعهم [بروتوس] نفسه واندفعوا الى المعسكر في اعقاب المنهزمين، إلاّ ان المنتصرين هنا ارتكبوا غلطةً فقد اسرع عدوّهم المتقهقر باهتبال الفرصة. كانت ميمنة [بروتوس] قد تحركت وأخذت بالمطاردة فأنفصلت عن القسم الرئيس تاركة القلب محتلاً ومكشوفاً. وهنا قام العدوّ بهجومه المعاكس. فصمد القلب ودافع دفاعاً مجيداً الاّ ان الميسرة التي احتلت صفوفها ودبت الفوضى في تشكيلاتها ولم تدر ما حدث في سائر ميادين القتال، حلت بها الهزيمة. ودفع بهم جنود اوكتافيوس الى معسكرهم والقوا الحصار عليه. وفي هذه الموقعة لم يتواجد اي قائدٍ من الجيشين، فقد ذكروا أن [انطوني] انسحب الى المستنقع لإجتناب عنف الهجمة الأولى. و[اوكتافيوس] لم يكن يعلم مكانه بعد ان نقل من معسكره. مع ان بعض الجنود لوحوا بسيوفهم الدامية [لبروتوس] زاعمين انهم قضوا عليه ووصفوا له شكله وقيافته وعمره. وفي تلك الاثناء تمكن قلب جيش [بروتوس] من المهاجمين ودحروهم واوقعوا بهم مقتلة عظيمة. وقد وضح تماماً ان [بروتوس] انتصر في هذا القطاع من الجبهة، مثلما اصيب [كاسيوس] بهزيمة ساحقة في القطاع الآخر، وسلم بالهزيمة الأمر الذي ادى الى خطأ مميت، لأن [بروتوس] لم يخفَّ لنجدته ظانا انه قد انتصر مثله. كما ان [كاسيوس] لم يكن يتوقع نجدة [بروتوس] ظانّاً بأنه قد هزم مثله وقتل دون ان ينتظر نجدة منه. وعلى اية حال فان ميسّالا كان يرى [بروتوس] منتظراً بدليل اغتنامه ثلاثة نسور وعددٍ كبير من الالوية. من العدو في حين لم يغتنم خصمه شيئاً منه.

بعد ان نهب [بروتوس] معسكر [اوكتافيوس قيصر] وفيما هو عائد من المطاردة، ادهشه انه لم ير خيمة [كاسيوس] التي كانت أعلى من البقية، ولا الخيم الأخرى في اماكنها المعتادة اذ ان معظمها وقع في يد العدو فنصبها وقوضها عند هجومه على المعسكر. الاّ ان اتباعه الذين كانوا يتمتعون ببصرٍ حديد قالوا انهم يرون من بعيد دروعاً كثيرة وتروساً فضيةً وكثيراً من الخوذ تسطع وترسل شعاعاً في ما حول مخيم كاسيوس ومن عددها وشكلها لايظنون انها لأولئك الذين تركوا للقيام بحراسة المعسكر. وفي الوقت نفسه قالوا انهم لايرون العدد المتوقع من جثث القتلى حين تشتبك عدة فرقٍ وتمنى بالهزيمة كانت هذه الاشارة الأولى الى النكبة، فترك حرسه في معسكر العدوّ وصدر أمره بايقاف المطاردة ونظم قواته لنجدة كاسيوس.

وكان موقف كاسيوس كالآتي:

في مبدء الأمر استاء كثيراً من هجوم [بروتوس] الأول الذي جرى قبل انتظار كلمة السرّ، او الامر ببدء التعرض. ولم يُسرّ بل زاد حنقاً بعد نجاح هجومهم واندفاعهم الى النهب

والسلب في معسكر العدوّ دون ان يفكروا في تطويق العدو واكمال حركة الالتفاف. على أن خطته كانت مشوبة بالتردد وكثرة التحسّب والحذر، أكثر مما كانت حاسمة سريعة. ولذلك وجد نفسه مطوقاً بميمنة العدوّ، واستدارت خيالته فجأة واتجهت نحو البحر وعندما وجد مشاته تتقهقر ايضاً، حاول رصّ صفوفها واعادتها الى مواقعها، واختطف علماً من احد حملة الاعلام اثناء فراره وركزه في الأرض أمامه، وان كان حراسه الخاص بفنه قد أخذ يبدي علائم الوهن وخور النفس، أخيراً اضطر الى الانسحاب مع شرذمة من اتباعه الى تلّ صغير مشرف على السهل وكان كليل البصر فلم يتبين ان معسكره يتعرض للنهب. على ان الخيالة القليلين الذين كانوا معه تبينوا قطعات كبيرة من الخيالة تتجه الى مواقعهم وهي التي ارسلها [بروتوس] في الحقيقة الاّ ان [كاسيوس] حسبها ضيالة عدوة خرجت لمطاردته على انه ارسل [تتينيوس Titinius] لمعرفة هوية المتقدمين. ولما اقترب منهم وعرفوا به احد اعوان [كاسيوس] المخلصين، احاطوا به وراحوا يهتفون هتاف الفرح وترجلوا واخذوا يصافحونه ويعانقونه، ودارت به الخيالة يصيحون ويهتفون من فرط سرورهم. الاّ ان هذه المظاهر سببت اعظم النكبات. فقد اعتقد [كاسيوس] ان رسوله وقع في أسر العدّو فصاح قائلاً:

- اجبت الحياة وتعلقت بها كثيراً الى الحدّ الذي صرت معه أشهد اصدقائي يعقون في الأسر امام عيني.

وعلى اثر ذلك انسحب الى خيمة خالية وليس معه غير عتيقه [پندارس Pindarus]. كان [كاسيوس] منذ نكبة الحملة البارثية عندما خدم تحت امرة [كراسوس] قد درب هذا الرجل لبقوم بدوره في مثل هذه الحالة الاضطرارية. تمكن [كاسيوس] من الافلات اثناء تلك الحملة الاّ انه غطى رأسه بوشاحه وحسر عن عنقه ليتلقى الطعنة القاتلة. ووجد رأسه مفصولاً عن جسده فيما بعد. الاّ ان پنداروس لم ير بعد موت سيّده. ولذلك ظن بعضهم انه قتل [كاسيوس] دون انتظار امره.

ما لبثت جماعة [كاسيوس] ان تبينت هويّة الخيالة المتقدمة، وشاهدت [تيتينيوس] وهو مكلل الرأس بالزهر، يخب بحصانه متجهاً الى كاسيوس. لكنه ادرك موته من بكاء ورثاء اصحابه وما ان ادرك الخطأ الفادح الذي تسبب فيه واخذ ينحى على نفسه باللائمة لتأخره ثم استل سيفه وسقط عليه وبخع نفسه.

عندما تأكد [بروتوس] من هزيمة [كاسيوس] اسرع اليه على انه لم يبلغ بنبأ موته حتى اصبح قريباً من معسكره فوقف عند جثته وراح يندبه وسمّاه بآخر الرومان. قاصداً بهذا ان روما لن تنجب بعده رجلاً بمثل هذه الروح العالية. وكفن جسده وارسل الى [تاسوس] لدفنه

خوف ان يحدث تشييعه في المعسكر اضطراباً. ثم انه جمع الجنود وراح يعزيهم على مصابهم به واخذ يستنهض هممهم ويرفع من معنوياتهم الهابطة. ووجد ان نهب المعسكر قد جردهم من ادنى ضروريات العيش فوعد كل واحدٍ منهم بألفي درهم تعويضاً عما فقدوه فاذهلتهم قيمة المكافأة وارتفعت معنوياتهم بكلماته وشيعوه بالهتافات. واصفين اياه بأنه احد جنرالات اربعة لم يغلبوا في المعركة. وقد ابدت الوقائع ان ثقته بالنصر كان لها كل مبرراتها فبفرق قليلة سحق كل مقاومةٍ واجهته وهزم عدوّه. ولو انه ركز كل قواته وزجّها في هجومه، ولو لم يتعدّ القسم الاكبر من قواته خطوط العدوّ وينهمكو اني سلب ممتلكاته، لكان من المؤكد تحقيقه هزيمة العدوّ الساحقة.

كانت خسائر [بروتوس] في هذه المعركة ثمانية آلاف قتيل بينهم المراسلة والخدم الذين يعرفون باسم Briges. ويقدر ميسالا خسارة [انطوني واوكتافيوس] بضعف هذا العدد، لذلك كانوا اكثر خوراً ووهناً حتى اقبل على [انطوني] أحد خدم [كاسيوس] واسمه [ديمتريوس] مساء ذلك اليوم ومعه السيف والثياب التي نزعها من جسد سيده. فرفع ذلك معنوياتهم الى حدٍ كبيرٍ حتى انهم اخرجوا القطعات في بكور اليوم التالي واتخذوا وضع القتال. وكان المعسكران اللذان صار الآن [بروتوس] يقودهما قد دبّ فيهما الاضطراب الشديد فمعسكره مكتظّ بالأسرى الأمر الذي كان يلجئه الى تخصيص حرس قويّ، في حين كان الضيق مستولياً على جنود [كاسيوس] لتبدل القائد. وكان الحسد والحقد يعمل في نفوسهم بسبب النصر الذي حازه رفاقهم في المعسكر الثاني. لذلك قرر [بروتوس] ابقاء جنوده تحت السلاح على ان لايجازف بمعركة. ووجد ان عدداً كبيراً من العبيد الذين أسرهم يتحركون حركات مريبة بين أسرى الحرب فأمر بقتلهم كما انه امر باطلاق سراح بعض الأسرى الأحرار مصرحاً ان العدد هو الذي حرمهم في الواقع من حريتهم فهم اسرى وعبيد تحت قيادته في حين انهم مواطنون رومانيون احرار عنده. ولما تبين ان اصدقاءه وضباطه يهمون بالانتقام منهم. انقذهم باخفائهم ثم عاونهم على الفرار.

وكان من بين الأسرى الممثل [ڤولمنيوس Volumnius] والمهرج [ساكيوليو Dacculio] وجد [بروتوس] انهما أقل شانا من يلحظ وجودهما الا ان اصدقاءه جاؤا بهما متذمرين وقالا انهما لم ينفكا عن ارسال النكات الوقحة والتعليقات السليطة في موقف لايحتمل الهزل والمزاح، وكان [لبروتوس] الكثير مما يشغله عن هذه الأمور فلم يقرر شيئاً بحقهما الاّ ان [ميسالا كورڤينوس] ارتأى ان يجلدا علناً فوق المرسح وان يرسلا عاريين الى قواد العدوّ بوصفهما خير رفاقٍ وندمان شراب لأولئك القادة. فضحك الحاضرون. الاّ ان [پوبليو كاسكا]

اول طاعني [يوليوس قيصر] قال:

- أترى من اللائق [يابروتوس] ان نحتفل بجنازة [كاسيوس] بالسخر والمزاح على هذه الشاكلة؟ الاّ اننا سنرى اي منزلة لكاسيوس عندك، من موقفك هنا. هل ستحمي هذين الرجلين اللذين حقراه واساءا الى ذكراه ام ستعاقبهما؟

فأخذت [بروتوس] سورة من الغضب وصاح قائلاً:

- اذن لماذا تسألني عن رأيي ياكاسكا بدلاً من ان تفعل انت نفسك ما تراه مناسباً؟

وقد عُدّ جواب [بروتوس] أذناً بقتل هذين التاعسين فاقتيدا الى حيث قتلا.

بعد هذا اصدر [بروتوس] امراً بدفع المكافأة التي وعد بها الجنود وبعد ان انبهم تأنيباً خفيفاً لأنهم لم ينتظروا كلمة السرّ وانما كرّوا على العدوّ في هجوم طائش دون امرٍ، وعدهم ان يستبيح لهم مدينتي [سالونيكي] و[ليقديمون] ليسلبوهما ان احسنوا القتال في المعركة التالية. كانت هذه التهمة الوحيدة التي لايمكن الدفاع عنه ازاها في سائر حياته. الحق يقال أن [انطوني] و[اوكتافيوس] ارتكبا من اعمال العنف والقسوة ما يفوق هذا بكثير في ابتزاز المكافآت لجنودهما وطرد الأهالي من اراضي أسلافهم في طول ايطاليا وعرضها لاغناء اتباعهما ومن والاهما بالمدن والمقاطعات التي لاحق لهم فيها. الاّ ان الفتح والسلطة العليا هما الهدفان اللذان كانا يتوخيانه من الحرب. في الوقت الذي كان [بروتوس] يتمتع بسمعة واشتهار في الفضيلة بين الناس، حتى انهم لايرونه قادراً على ان يغلب او ينقذ نفسه الاّ اذا استخدم وسائل شريفة عادلة، وقد اصبحت هذه الفكرة عنه أدعى الى الاهتمام بعد موت [كاسيوس] لأنه كان في الماضي يتهّم بحمل [بروتوس] على القيام بمختلف اعمال العنف. والقصة كلها اشبه بالسفينة التي حطمت العاصفة دفتها وهي في عرض البحر، يحاول الملاحون اصلاحها بوضع قطع من الخشب في محل القطع المحطمة، فلا يفلحون في اصلاح متقن وهم يجهدون انفسهم لتفادي الخطر، فينجزوا خير ما يمكنهم انجازه، كذلك [بروتوس] فبعد ان أصبح القائد الأوحد لمثل هذا الجيش العظيم في احرج ساعةٍ ولعدم وجود قائد آخر في مثل كفاءته تراه يضطر الى الاستعانة بالمرؤوسين الذين يملكهم والى تنسيق كثيرٍ من اعماله واقواله مع ما يرونه مقبولاً. وهذا ما جعله يقررّ ان يفعل كلّما يرونه ضرورياً الى اعادة روح جيش [كاسيوس] ومعنوياته لأن الجنود باتوا الآن متمردين يصعب ضبطهم وقيادتهم. ان افتقارهم الى قائد خاصّ جعلهم ثائرين في المعسكر، في حين جعلتهم هزيمتهم يخشون مواجهة العدوّ.

ولم يكن حال [اوكتافيوس قيصر] و[انطوني] بأحسن من تلك فقد بدأ يشكوان شحاً في الارزاق. ولأن معسكرهما قد ضرب في ارض منخفضة فقد ادركهما الخوف من الشتاء القاسي الذي سيعانونه وقد تجمعوا متزاحمين على حافّة المستنقع. وطغت امطار الخريف التي اخذت تنهمر بغزارةٍ بعد المعركة - على خيامهم فاغرقتها في الوحل والماء، فادركته حالة الانجماد مباشرة بسبب البرد الشديد. وبلغتهما في اثناء ذلك انباء النكبة البحرية التي اصابت سفنهما، فقد هاجم اسطول [بروتوس] وحطم عمارة كبيرة تحمل النجدات من ايطاليا الى [اوكتافيوس قيصر] واضطر النفر القليل الذي نجا من المقتلة، الى اكل قلوع السفن وحبال الأشرعة من فرط الجوع، ولما علما بهذا قرّ رأيهما على منازلة بروتوس، قبل ان يحاط علماً بانتصاره البحري هذا. وهكذا حصل القتال البريّ في اليوم الذي انتهت المعركة البحرية لصالح بروتوس. وشاء سوء الحظ ان يجهل بروتوس هذا بخطأ ارتكبه القواد البحريون فلم يبعثوا اليه بالانباء الاّ بعد عشرين يوماً، ولو انه ابلغ في حينه لما دخل المعركة الثانية، لأنه كان موفور الأقرات، حسن المواقع، ومعسكره جيد الحماية لايتعرض الى الطقس الشتوي، منيع تماماً من الناحية المواجهة للعدوّ. اضف الى هذا كله ان علمه بأنه مسيطر على البحر ونصره في المعركة الأولى كان سيملأوه ثقةً واعتداداً.

لكن ايام الجمهورية انصرمت على ما يبدو، ومن الضروري ان يحل حكم الرجل الفرد محلّها. لذلك فلأجل ان تزيح الآلهة الرجل الوحيد القادر على مقاومة السيد الذي قدر له ان يحكم الدنيا، حالت دون وصول انباء النجاح الذي احرزه [بروتوس] في الوقت المناسب. ففي الليلة التي سبقت المعركة الاخيرة لجأ هاربٌ من معسكر العدوّ يدعى [كلوديوس] وقال ان [اوكتافيوس قيصر] علم بهزيمته البحرية وهو لهذا يريد الدخول في معركة مستعجلة. فلم يصدق قصته أحدٌ ولذلك لم يسمح له حتى بمواجهة [بروتوس]. واحتقروه واهملوه بوصفه تاجر اشاعات إمّا سمع خبراً مكذوباً، أو انه اخترع هذه الحكاية لعله يجني من ورائهما نفعاً.

في تلك الليلة ظهر الطيف [لبروتوس] ثانية، بنفس هيئته السابقة الاّ انه غاب دون ان ينطق بحرف. ان الفيلسوف [پوبليوس ڤولمينوس Publius Volwmius] الذي خدم بروتوس في كل معاركه لا يذكر شيئاً عن هذه الآية الا انه يقول ان راية الجيش القائد كانت مغطاة باسراب النحل وان ذراع احد قواد المائة نضحت زيتٍ وردٍ وظلّت تنضح رغم مسحها وازالة الزيت عنها مراراً. وذكر ايضاً ان نسرين اعتركا في الجوّ قبيل المعركة فوق الفُسحة التي تمتد ما بين المعسكرين وراح الجيشان يراقبانهما وقد خيم عليهما الصمت التام ولم يعد يسمع صوت في السهل. وأخيراً كفّ النسر الذي كان الى جهة [بروتوس] وحلق في الجوّ. وهناك

ايضاً حكاية الايتوبي المعروفة الذي لقي حامل اللواء عند مدخل المعسكر حال فتح بابه وكيف ان الجنود قطعوه اربا ارباً لأنهم اعتبروا ظهوره فألا سيئاً.

بعد ان وضع [بروتوس] جيشه في نسق المعركة بمواجهة العدوّ، أخرّ الاشتباك برهة من الوقت لانه شعر شكاً من بعض القطعات وسمع اتهامات بحق أخرى. كما لاحظ ايضاً ان الخيالة لاتبدي حماسة كبيرة لبدء المعركة وانها تنتظر ما سيفعله المشاة. ثم وبدون سابق انذار خرج من الصفوف جندي يدعى [كامولاتوس Camulatus]، وهو مثال العسكري الممتاز – كان [بروتوس] قد قلده شارات الشرف لشجاعته، وانضم الى صفوف العدوّ. الأمر الذي آلم [بروتوس] كثيراً ودفعه غيظه من جهة وخوفه من خيانة او هروبٍ على نطاق اوسع من هذا، امر بالهجوم وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً او الشمس قد مالت الى الاصيل. ونجح الهجوم في قطاعه وتغلب حالاً على العدو ومضى في ضغطه مع ميسرته حتى زحزحه عن مواقعه وتقهقر وكرت خيالته ايضاً لمساندة المشاة المتقدمة وهجموا على العدو حالما تبينوا الفوضى التي تسوده. اما في الجناح الآخر، فقد كان منتشراً على جبهة واسعة ليحول دون تطويقه من قبل العدو الذي كان يفوقه عدداً وكانت النتيجة ان القلب أصبح ضعيفاً جداً فلم يفلحوا في صدّ الهجوم وانكسرت صفوفه ولاذت بالفرار وما ان حقق العدوّ هذه الخطوة حتى التفّ حول مؤخرة بروتوس واجه [بروتوس] هذه الأزمة مواجهة القائد المحنك الموهوب، بكلّ كفاءاته الشخصية وبادارته الدقيقة المعركة. الاّ ان ما كان عاملاً على انتصاره في المعركة السالفة، كان سبباً لانكساره في هذه المعركة، فقد تمّ الاجهاز على كل قوات العدوّ في ميدان القتال في الجزء الذي تحققت هزيمته. الاّ ان قوات [كاسيوس] المندحرة لم يقتل منها الاّ افراد قليلون. لكن المنهزمين امروا بمعنوياتهم على القسم الاكبر من الجيش فثبطوا عزائمهم واشاعوا فيهم الفوضى. وهنا قتل [ماركس] ابن [كاتو] وهو يقاتل ويبدي من ضروب البسالة الواناً بين اشجع الفتيان الپاتريشيين، قاتل حتى خارت قواه وابى انه يستسلم او يهرب بل ظل مشهراً سيفه وهو يصرخ عالياً بانه ابن [ماركوس كاتو] وسقط ميتاً فوق اكداس من جثث الاعداء التي قتلها. وقتل ايضاً اشجع رجال الجيش ضحوا بانفسهم دفاعاً عن [بروتوس].

من بين اصدقاء [بروتوس] الخلص رجل تميز بشجاعة فريدة يدعى [لوچيليوس]. عندما رأى خيالة من البرابرة تجدّ في اثر [بروتوس] دون ان تلقى بالاً على شيء آخر، عزم ان يوقفها مجازفاً بحياته فتنكب الطريق ثم صاح يقول «انابروتوس». وصدقه البرابرة لأنه طلب منهم ان يذهبوا به الى [انطوني] لا غيره، كأنما يخشى ان يأخذوه الى [اوكتافيوس قيصر]. ففرحوا بما اقتنصوا وحمدوا حسن حظهم وجاؤا به ليلاً وارسلوا من يسبقهم الى [انطوني]

ليزفوا اليه النبأ، واستخفه الفرح فخرج لاستقبالهم ومعه كل من سمع بالنبأ وتجمعوا زرافات بعضهم يندب سوء حظه وبعضهم يندد بجبنه الذي يناقض كبرياءه وشعوره بالكرامة، وبعضهم يلومه لتعلقه الشديد بالحياة الذي ادّى به الى تسليم نفسه للبرابرة. واقترب الفرسان وظلّ [انطوني] جامداً في وقفته، يفكر بايّ شكل يقابل [بروتوس]، واذابه يسمع [لوچيليوس] الذي كان واقفاً امامه يقول بجرأة:

- لا أحد من العدوّ اسر بروتوس، ولا احد سيكون قادراً على اسره حيّاً يا انطوني، ان الحظ لم يسمح بهذا النصر على الفضيلة. عندما تعثر على [بروتوس] حيّاً كان او ميتاً فانه سيكون جديراً بنفسه. امّا انا فقد كان اقتيادي اليك بخدعة انطلت على جنودك واني لمستعد لأي عقابٍ ترتأيه بحقي.

وبهت الجميع لصراحة [لوچيليوس]. والتفت [انطوني] الى اسريه وقال:

- اعتقد ان الغضب يعصف بكم للخطأ الذي وقعتم فيه يا رفاقي، وانكم حانقون لأنكم ظهرتهم بمظهر الغباوة والحمق. لكن ثقوا انكم وضعتم يدكم على أسير يسوى اكثر من الرجل الذي انطلقتم للقبض عليه. خرجتم لاقتناص عدوّ، فجئتموني بصديق. اني وقسماً بالآلهة، ما كنت ادري كيف ساعامل [بروتوس] لو جئتم به اليّ حيّاً. لكن أعلم بانه خير لي ان اتخذ من رجل [كلوچيليوس] صديقاً لا عدّواً.

ثم انه عانق [لوچيليوس] وعهد به الى احد اصدقائه لرعايته ثم استخدمه ووجده صديقاً وفياً مقيماً على الصداقة.

في تلك الاثناء عبر [بروتوس] غديراً تظلّه الأشجار وتقوم على جانبيه ضفاف شديدة الانحدار. وادركه الليل فتوقف وجلس مع بعض الضباط والاصدقاء في موضعٍ منخفض من الأرض تستره صخره. ثم شخص بانظاره الى السماء التي طرزتها النجوم وترنمّ ببيتين يسجل احدهما [ڤرلنيوس][31].

تذكر يا زفس العظيم مسبّب كلّ هذه البلايا

ويقول انه نسي الآخر. وبعد قليل نطق باسماء اصدقائه الذين قتلوا في المعركة دفاعاً عنه، وأطلق تنهيدات عميقة عندما نطق باسمي [لاپيو] و[فلاڤيوس] اولهما رئيس اركانه وثانيهما قائد سلاح الهندسة. وهنا شعر احد اتباعه بالعطش وتبين ان [بروتوس] يشكو

(٣١) يوريپيس [ميديا] ٣٣٤. يعتبر أپيان Appeian ان بروتوس يتنزل اللعنة من [جوپتر] على انطوني باقتباسه هذا البيت الذي تعلن به بطلة المسرحيه زوجها ياسون Jason الغادر.

العطش ايضاً، فأخذ خوذة ونزل الى الغدير. وفجأة سمعوا ضجة من الجهة المقابلة، فخرج [ڤولمينوس] ليستطلع يرافقه [دردانوس Dardanus] حامل ترسه معه. ثم عادا بعد قليل وسألا عن الماء، فأجاب [بروتوس]

- نفد كله.

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى

- إلاّ اننا سنأتيك بشيء منه.

وارسل الشخص الذي اتى بالماء اولاً. الاّ انه كاد يقع أسيراً فقد أصيب بجرح ولم ينج الاّ بصعوبة.

بقي [بروتوس] يعتقد انه لم يقتل الكثير من رجاله في المعركة، وعرض احد من اصدقائه واسمه [ستاتيليوس] ان يجد له طريقاً الى معسكر [بروتوس] باختراقه خطوط العدو اذ لم يكن ثم طريقاً آخر للوصول اليه، ويقوم بالاستطلاع، فاذا وجد كلّ شيء على مايرام فسيرفع مشعلاً ويعود. ووصل المعسكر بسلام ورفع المشعل ومَرّ زمن طويل ولم يعد الاّ ان [بروتوس] قال:

- ان كان [ستاتيليوس] حيّاً فسيعود.

لكن يبدو انه وقع في يد العدوّ عند عودته وقتل.

مضى من الليل اكثره. وفيما كان [بروتوس] مفترشاً الأرض مال الى خادمه [كليتوس Cleitus] وكلمه بصوت منخفض فلم يجبه الخادم بشيء وانما انفجر باكيا. وعندها اوما الى [دردانوس] حامل ترسه وانتحى به جانباً واخذ يكلمه، ثم التفت الى [ڤولمينوس] وخاطبه باليونانية مستذكراً السنوات التي قضياها معاً في دراسة الفلسفة ورجاه ان يمسك له بالسيف ويساعده على اغماده في احشائه. فرفض [ڤولمينوس] كما رفض الجميع. وقال احدهم بان لا سبب يدعوهم الى الانتظار وعليهم ان ينقذوا ارواحهم وعندها هب [بروتوس] واقفاً واجاب

- اجل علينا ان ننجو، وفي هذه المرّة ليس باقدامنا بل بايدينا. وبعد ان مدّ يده لكلّ منهم مصافحاً، ابتسم وقال انه معظم بسرور عظيم لانه لم يجد من اصدقائه خائناً. او متخاذلاً. وانا عن الحظّ، فانه لايلومه الاّ من اجل بلاده. وانه ليعتقد بان القدر كان ارحم به من المنتصرين لا في الماضي وحده بل في الحاضر، لأنه سيخلف ذكرى للفضيلة لايستطيع قاهروه بكلّ غناهم وسلاحهم ان يباروها. وستعلم الدنيا بأن الأشرار والظالمين الذي فتكوا بالصالحين العادلين، هم لايصلحون للحكم. ثم بعد ان حثهم على ان يتدبروا أمر سلامتهم تركهم وسار

بعيداً عنهم مع اثنين او ثلاثة من رفاقه ومنهم [ستراتو Strato] وهو احد اعز اصدقائه منذ ان كانا يدرسان البلاغة معاً. اوقف [ستراتو] الى جنبه. ثم امسك بسيفه المسلول من عنقه وبكلتا يديه القى بنفسه عليه فمات. وروى بعضهم ان [ستراتو] امسك بالسيف امامه واعانه بعد ان ادار رأسه الى ناحية أخرى، وان [بروتوس] القى عليه بنفسه بشدةٍ حتى انه اخترق صدره ومات لساعته.

ان [مسالا] الذي كان احد اصدقاء [بروتوس]، ثم تصالح مع [اوكتافيوس قيصر]، وجد له مناسبة بعد فترة من الوقت، ليقدم [ستراتو] الى السيد الجديد، ويقول وعيناه دامعتان:

- هذا يا قيصر الرجل الذي قام بآخر خدمةٍ لبروتوس صديقي العزيز.

فأحسن [اوكتافيوس] استقباله وضمه الى خدمته ووجده كالاغريق الذين يحفون به، شجاعاً في المعارك التي تلت ولاسيما في معركة [اكسيوم]. وتمضي الرواية الى القول ان [ميسالا] نفسه كان موضع ثناءٍ حارٍ من [اوكتافيوس] بقوله: في الوقت الذي كان اشدّ المقاتلين مراساً في معركة فيليپي الى جانب بروتوس، اثبت انه أخلص واصدق خلٍ له في معركة [اكسيوم]. فردّ [ميسالا] على هذا بقوله:

- لقد قاتلت يا قيصر الى جانب الأفضل والاكثر عدالة دائماً.

عندما عثر [انطوني] على جثة [بروتوس] امر ان تلف باثمن عباءة ارجوانية عنده. ولما علم بعدئذ ان لصاً اقدم على سرقته، قبض عليه وقتله. وارسل رماد [بروتوس] الى [سرفيليا] امه. وامّا عن [بورشيا] زوجه، فقد روى كلٌ من [نيقولاوس Nicoloüs] الفيلسوف وفاليريوس ماكسيموس Valerius Moximus] انها تمنت الموت وحاولت انهاء حياتها الاّ ان صديقاتها حلن دون ذلك ولازمنها ملازمة الظلّ، ولم يدعنها تغيب عن انظارهن. الاّ انها استطاعت في غفلة منهن ان تختطف جمرة فحم من الموقد وتصنعها في فمها وتشد عليها بالنواجذ حتى اختنقت وماتت. الا انه يوجد لدينا الآن رسالة من بروتوس الى اصدقائه ويرثي فيها [بورشيا] ويتألم لمصيرها ويلومهم لأنهم اهملوها حتى انها فضلت الموت على الاستمرار في مرضها. ويبدو ان نيقولاوس قد أخطأ في حساب الزمن. فهذه الرسالة تعلمنا بان [پورشيا] كانت مريضة. كما تعلمنا عن حبها لزوجها. وعن كيفية موتها. لو كانت رسالة [بروتوس] صحيحة.

١٩٧٢/٢/٢٧

أوجه المقارنة بين ديون وبروتوس

هناك مواقف نبيلة لاتحصى في خلق هذين الرجلين. ومما يستحق الذكر منها بالدرجة الأولى هو وصولهما قمة المجد، بوسائل بسيطة محدودة تكاد لاتذكر. والارجحيّة تكون [لديون] اذا اخذنا بسبيل المضاهاة. فقد كان يجاهد وحيداً لا شريك له، كما كان [لبروتوس] شريكه [كاسيوس] فهذا وان لم يكن مساوياً له في السجايا والمناقب الا انه ساهم بقدر كبير في مجهودات الحرب بجرأته وخبرته ونشاطه. وهنا من يعزو اليه المجهود كله من بدايته الى نهايته، فيقولون ان [بروتوس] لم يشأ ان يتحرك. وان [كاسيوس] هو الذي دفعه ضد [قيصر] في حين كان [ديون] صاحب الفكرة والمنظم. ولم يقتصر مجهوده على توفير السلاح والسفن والجنود، وانما على تعبئة الانصار والموالين ولم يعمد كبروتوس الى جمع الأموال وتجنيد الرجال بالحروب والقسر وانما انفق على الحرب من حُرِّ ماله مستخدماً رزقه ومدار عيشه في منفاه اداة لتحرير بلاده. اضف الى هذا ان [بروتوس وكاسيوس] بعد هروبهما من روما لم يجدا الراحة والطمأنينة لانهما كانا قد حكما بالموت ولما لوحقا الجأتهما الضرورة الى رفع السلاح والمقامرة بحياتيهما دفاعاً عن نفسيهما اكثر منه دفاعاً عن بلادهما ونجد ديون من ناحية أخرى يتمتع برغد من العيش في منفاه، كما ينعم بالسلامة والراحة الاّ انه خاض الأهوال وركب الشدائد انقاذاً لصقلية فحسب.

وعليك ان تلاحظ ايضاً ان تحرير الصقليين من نير [ديونيسيوس] وتحرير الرومان من حكم [قيصر] لم يكونا بمستوى واحد. فاولهما كان مستبداً لا شائبة في استبداده لم يكن لآثامه وشروره بحق الصقليين حَدّ. ومع ان سلطة [قيصر] المطلقة نكبت الناس في اولى مراحل تكوينها وابتلتهم بشتى المحن ولاسيما الذين وقفوا في وجهها، الاّ انها خففت من غلوائها بعد ان ثبتت أسسها وحققت انتصارها ولم يعد باقياً منها غير اسمها ومظاهرها. واذا نظرنا الى العلل والادواء التي كان يشكو منها المجتمع والحكومة في تلك الفترة، فيمكن القول ان الحكم الفردي المطلق. كان هبة سماوية تدخلت كما يتدخل ارق الأطباء والطفهم في معالجة مرض عضال. ولذلك عمّ الأسى سواد الشعب بصورة لا شعورية عندما قتل [قيصر] وتعاظم

غضبه وسخطه على قاتليه. في حين كانت جريمة [ديون] الكبرى في اعين ابناء وطنه، هو انه ترك سبيل الفرار مفتوحة امام [ديونيسيوس] وانه حال دون تخريب ضريح والده المستبد الاول.

امّا في فنون الحرب وقيادة الجيوش فقد كان [ديون] مثال القائد المحنك، لايتمسك بالاوامر والخطط التي يرسمها وانما يظلّ يعيد فيها نظره ويحسّنها وفي حين كانت خطط الآخرين ونصائحهم تؤدي به الى اسوء العواقب رأيته دؤباً على تصحيحها وتقويم اعوجاجها. وكان [بروتوس] على ما يبدو متسرعاً في معركته الأخيرة التي قدر لها ان تكون المعركة الحاسمة التي يتوقف عليها كل شيء. ولما أخفق فيها لم يقم بما يحتمه عليه واجبه في تدبّر العلاج، بل ادركه اليأس التام وتخلّى عن كل شيء ولم يتحدّ سوء الحظ، ولو بالقدر الذي فعله [پومپي]، في حين كان جيشه سليماً تقريباً واسطوله يسيطر على البحار سيطرةً تامة. ان جريرة [بروتوس] الكبرى هي انه لم يتورع عن نقع يده بدم [قيصر] الذي انقذ حياته اولاً ثم قبل شفاعته في صدقانه كلّهم فعفا عنهم اكراماً له. مثل هذا لايمكن ان ينسب الى [ديون]. لقد كان من اسرة [ديونيسيوس] وكان صديقاً له. نفعه وخدمه خدمات جليلة. ولم يناصبه العداء الأ بعد ان طرده من بلاده واساء الى زوجه وصادر املاكه، اذ ذاك اعلنها حرباً مشروعة عادلة صريحة.

ولنتحول الآن الى وجه مقارنة أخرى.

ان اعظم مجدٍ ناله، نجم اصلاً عن بغضتهما الاستبداد والشرّ هذا البغض في [بروتوس] لم يكن مشوباً بعاطفة شخصية، اذ لم يكن بينه وبين [قيصر] خصومة او عداء. ولكنه عرض نفسه للأخطار توخياً لحرية بلاده. امّا [ديون] فما أعلن الحرب الا بعد ان جرحت مشاعره وهذا ما تجده في رسالة لافلاطون، يقول فيها لقد شنّ حرباً على [ديونيسيوس] لأنه طرد من البلاط ولم يتركه مختاراً. زد على هذا ان المصلحة العامة وصلت حبل بين [بروتوس] و[پومپي] وازالت العداء الذي كان اولهما يضمره للثاني، وجعلته في الوقت نفسه عدواً [لقيصر] ولذلك كان العدل هو معيار صداقات [بروتوس] وعداواته.

كان [ديون] مخلصاً في خدمة [ديونيسيوس] عند تمتعهم بالحظوة لديه ولما لم يعد موضع ثقةٍ منه، ثارت ثورته واحتكم الى السلاح. لذلك لم يثق احدٌ بان [ديون] سيبرّ بوعده، وكان سائر الناس يشكون في انه سيحلّ مَحَل [ديونيسيوس] في تفرده بالملك وطغيانه حال تغلبه عليه. ولم يكن اصدقاؤه انفسهم بمنجى عن هذه الشكوك، فقد توقعوا انه سيموّه استبداده باتخاذه عنواناً لحكمه لطيف الوقع لا يورث رهبة في النفس كلقب الطاغية. اما [بروتوس]

فاعداؤه انفسهم يقرون بان هدفه الأول والأخير كان اعادة نظام الحاكم الجمهوري السابق للشعب الروماني.

ولو طوينا كشحا عن كل ما اتينا لذكره آنفاً فان المؤامرة التي دبرت للقضاء على [ديونيسيوس] لم تكن بمستوى تلك التي نسجت ضد [يوليوس قيصر]. فلم يكن ثمّ قريب او صديق الا عاب على [ديونيسيوس] حياة الخمول واللهو التي يعيشها بين الخمر والنساء والقمار. في حين كان يحتاج الى بطولةٍ واباء وعزة لكل نفس تتبنى فكرة القضاء على [قيصر] الذي تشيع مواهبه وعبقريته الرهبة والجلال. لقد كان سلطانه وسعده بله اسمه فحسب يقض مضاجع ملوك الپارثيين والهند.

ما وقعت انظار الصقليين على [ديون] الاّ واسرعوا ينضمون اليه بالالوف لمقارعة [ديونيسيوس] في حين استمد الاصدقاء قوةً من شهرة [قيصر] وصيته بعد مماته. ان اسمه وحده رفع من قدر ذلك الذي اتخذه لقباً لنفسه، فنقله من صبيّ غرّ غير معروف الى زعيم الرومان الأوحد بزمن قصيرٍ جداً. لقد استخدمه ضدّ خصومه كما تستخدم الرقية، حتى ضدَ [انطوني] بالذات. وان اعترض احدهم بقوله ان [ديون] عانى الكثير من المشاق والأخطار ليحقق نصره على الطاغية، وان [بروتوس] نال من [قيصر] مأربه وهو اعزل لايحميه احدٌ؛ فنحن نرى في ذلك تدبيراً دقيقاً وتنظيماً محكماً يتسم بالحذق ان تنال رجلاً جيد الحراسة منيع الجانب وهو اعزل ومن دون حماية. انه لم ينقض على [قيصر] ولم ينفرد به ولا ظفر به في قلة من اتباعه، وانما توصل الى ذلك بأناة واحكام خطةٍ اقتضته وضع الثقة التامة في عدد كبير من الرجال لم ينمّ عنه واحد منهم والامرسيان سواء اتمتع [بروتوس] بموهبة الفراسة وتقديم الرجال الافاضل. واما انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم والعكس يصدق على [ديون] فإما انه كان اخطل الحكم على الرجال باعتماده على اراذلهم وامّا انه جعلهم كذلك بمجرد وضع ثقته فيهم فأنقلب صالحهم طالحاً. كل افتراض من هذين يصلح ان يكونا موضع تفكير للمتأمل العاقل. ان افلاطون نفسه لم يشفق على [ديون] في حكمه اذ قال انه اساء اختيار اصدقائه، فقد خانوه وغدروا به.

زد على هذا انه لما قتل [ديون] لم يحرك احدٌ ساكناً للثأر له، في حين وجد [بروتوس] بين اعدائه زعيمهم [انطوني] يتكفل بتشييعه تشييعاً فخماً. واتخذ [اوكتافيوس قيصر] ايضاً التدابير اللائقة للمحافظة على جلال قدره. ففي [ميلان] الواقعة في بلاد الغال الألپيّة. اقيم تمثال من البرونز له. فلفتت نظر [اوكتافيوس] اليه دقة صنعه وقرب الشبه بينه وبين صاحبه، فتوقف. وبعد ان سمع اقوالاً كثيرة استدعى ولاة الأمر في المدينة فمثلوا بين يديه. فقال لهم:

- ان مدينتكم نقضت احكام المعاهدة. فهي تاؤي عدواً.

فانكر هؤلاء تلك التهمة بشدّة، واخذوا يتبادلون نظرات الحيرة، وقد غمض عليهم مراده. وهنا استدار [اوكتافيوس قيصر] نحو التمثال وقال مقطباً:

- اسمحوا لي! اليس هذا عدونا الذي ينتصب هنا؟

فأضطربوا ولم يحضرهم جواب. ولكن [اوكتافيوس] عاجلهم بابتسامة واثنى على مواطنيهم الغاليين الذين اظهروا اخلاصهم لاصدقائهم حتى عندما تنزل بهم المصائب وامر بان يبقى التمثال كما كان.

أراتوس
ARATUS



اذكر يا پوليقراطس Polycrates ان خرسيپوس Chrysippus] الفيلسوف، كان قد اقتبس مثلاً من امثال القدماء السائرة بعد تحويره. واعتقد ان ما دفعه الى هذا هو ما توهم فيه من خشونة شديدة، فهذب فيه وجعله كالآتي:

«مَنْ مادح الآباء، غير اكرم الابناء؟».

الاّ ان [ديونيسيودورس Dionysudorus] الترويزيي اثبت خطأه في ذلك واعاد قراءته الاصلية الصحيحة هكذا:

«من مادح الاباء، غير أفسد الابناء؟»

ويشرح المقصود فيقول ان المراد منه هو كَمّ افواه اولئك الذين تجردوا عن كل المؤهلات، ومنعهم من الاحتماء بفضائل اسلافهم، واستعلائهم على غيرهم بمدح ابائهم. ولله در [پندار] الشاعر اذ يقول:

انه ذلك الذي يرث بحكم الطبيعة

روحاً نبيلةً عن اسلافه

هو الذي جعل حياتك نسخة صادقة من اصول اسرتك. اقول ان امثالك يغتبطون كثيرون عندما يُذكرون بأنبل واشرف اسلافهم عن طريق حديث الآخرين عنهم. او بحديثهم هم انفسهم. ان امثالك لايستغلون فوائد الثناء الذي يستحقه الآخرون لأنهم يفتقرون اليه لضعة شأنهم. الاّ انـم يضيفون مآثرهم الى مآثر اجدادهم فترتفع منزلتهم باعتبارهم اصلاً لاخلاقهم ولنسلهم. ولذلك ابعث اليك [ياپوليقراطس] بما كتبته من سيرة احد اجدادك الأعلين ومواطن من مواطنيك – وهو [اراتوس] الذي لا تقل انت عنه مكانةً وسلطاناً. لا لأنك بحاجة الى معلومات عنه وعن مآثره، بل ليكون ابناك [پوليقراطس وپيثوكلس] واقفين على مثل من تاريخ اجدادهما، قراءة وسماعاً. مثل يجدر بهما ان يحتذياه ويسيرا على نهجه. فمن الأثرة وحبّ النفس لا من حب الفضائل ان يتصور الأنسان بانه سبق الى الوصول الى الفضيلة والصلاح.

بدأت احوال مدنية [سيكيون Sicyon] تسوء وسادتها الفوضى عمّها والاضطراب منذ خروجها من يد الحكم الدوري Dorie الارستقراطي النزيه (دالت دولته واستظهر الغوغائيون بمنازعاتهم الشخصية فتعاقب على المدينة سلسلة من الفتن والثورات). وهكذا راحت تتنقل من يد مستبدٍ الى يد مستبدٍ آخر، حتى مقتل [كليون Cleon]. فأنتخب [تيموقليدس Tim-oclides] و[كلينياس Clinias] لحكمها. وهما رجلان حسنا السمعة رفيعا المقام بين المواطنين. فبدت احوال الجمهورية متجهة نحو الأمن والاستقرار. ثم توفي [تيموقليدس] ووثب [ابانتيداس Abantidas] ابن [پاسياس Paseas] على [كلينياس] فقتله فخلاله الجو واستبد بالحكم فأهلك عدداً من اقربائه واشياعه ونفى بعضهم. وهم ايضاً بقتل ابنه [اراتوس] الذي كان عند مقتل ابيه طفلاً لايتجاوز السابعة. الاّ ان الصبي خرج من وسط الفوضى التي سادت وقتذاك وانضم الى الهاربين وراح يتجول في انحاء المدينة على غير هدى مرتعباً وجلاً شريداً، وتشاء الصدف ان دخل خلسة منزل اخت [ابانتيداس] التي هي زوج [پروفانتس Prophantus] أخ [كلينياس] واسمها [سوسو Soso]. عرفت هذه المرأة بطيبة القلب. وقد اعتقدت بأن العناية الآلهية هي التي قادت [اراتوس] الى بيتها، فعمدت الى اخفائه في منزلها. وعندما جنّ الليل بعثت به الى [ارغوس].

بهذا كتبت [الاراتوس] السلامة. وطوت نفسه من البداية الى النهاية على حقدٍ وكره جارف بالاستبداد والمستبدين كانا يشتدان بمرور الزمان. ونشأ بين اصدقاء ابيه ومعارفه في [ارغوس] وتلقى ثقافة حُرة وكان جسمه صحيحاً قوياً فاتخذ المصارعة هواية، وتدرب في غيرها حتى اتقن ممارسة الالعاب الخمس ونال بعض تيجان التفوق. وتماثيله في الواقع تبرز تكوينه الرياضي، ولم يكن استخدامه ادوات الرياضة لتخفي رجاحة عقله وجلال سيمائه. ولم يدرس فنيّ البلاغة والخطابة محتجاً بأنها لاتناسب رجل السياسة، الاّ انه كان اقوى عارضةً مما يظنه الكثيرون واذا حكمنا من التعليقات التي خلفها. وقد كتبت باسلوب مهملٍ غير منّمق مستعجل ولم ينتق تعابيره وانما استعمل اول ما خطر بباله منها.

وبعد مرور فترةٍ من الزمن وثب [دينياس Dinias] و[ارسطوطوليس Aristoteles] على [ابانتيداس] فقتلاه، وكان معتاداً الحضور في الساحة العامة لسماع مناقشاتهم ومشاركتهم فانتهزا فرصتهما ونفذا مؤامرتهما فيه هناك. فخلفه في الحكم والده [پاسياس]، ماعتم ان أغتيل بيد [نيكوكلس] الذي تفرد بالحكم ولقد قيل انه يشبه [پرياندر Periander] ابن [كپسيلوس Cypselus] شبها غريباً، كما قيل ان [اورونتس Orontes] الفارسي، يشبه [الكميون] ابن [امفياروس Amphiaraus]. وكالشبه بين [هكتور] وبين ذلك الشاب

اللقيديمي الذي تقاطر الناس لرؤيته ومزقوه ارباً وطئاً باقدامهم.

حكم [نيكوكلس] هذا، اربعة اشهر، وارتكب خلالها شتّى انواع الموبقات واقدم على المحرمات، وكاد يترك المدينة فريسة في ايدي الايتوليين. في ذلك الزمن بلغ [اراتوس] مبلغ الشباب، وكان موضع تقدير لعراقة اصله ولسجاياه العالية غير الاعتيادية لروحه الوثابة الصلبة. ولأصالة رأيه مما لايناسب سنه. فاتجهت انظار المنفيين اليه وبنوا الآمال عليه. ولم يكن [نيكوكلس] بغافل عنه فقد أخذ يتجسس عليه ويتابع حركاته وسكناته سراً لا خوفاً من محاولة جريئة واسعة النطاق يقوم بها للاطاحة بحكمه. وانما لشكوك ساورته بانه يراسل الملوك الذين كانت تربطهم بوالده روابط صداقة ومعرفة. في الواقع انتهج [اراتوس] هذا السبيل لكنه من [انتيغونس] إعراضاً وقلة اهتمام ومماطلة بعد العهد الذي قطعه له. كما اتضح له ان الآمال التي بناها على مصر ومساعدة بطليموس لايمكن ان تتحقق في المدى القصير. ولذلك قرر القضاء بنفسه على الطاغية.

واول من افضى اليه بسرّه، [ارسطوماخس] و[اقديلس Acdelus]. واولهما احدى منفيي [سيكيون] وثانيهما فيلسوف اركادي من [ميغالوبوليس]، رجل عملٍ وحميّة، وصديق [اركيسلاوس] الاكاديمي في اثينا. فحبذا له الفكرة وانضما اليه ثم اتصل بالمنفيين الآخرين فأنضم اليه نفر قليل منهم خجلوا من الظهور امامه بمظهر اليائس من النجاح. اما الاغلبية فقد حاولت ردّه عما اعتزمه ووصفوه بالمتهور القليل التجربة. والجريء الى حدّ الطيش.

وفيما هو يعمل لا نشاء قاعدة انطلاق له في [سيكيونيا] يشنّ منها الحرب على الطاغية. وصل ارغوس اخٌ لاحد المنفيين المدعو [كزينوقلس Xenocles] هارباً من السجن. فقام اخوه بتعريفه له. واصفاً له ذلك الجزء الذي تسلقه من السور، قائلاً انه بمستوى الأرض من الناحية المواجهة للمدينة كما انه يجاور ارضاً صخرية مرتفعة وانه يمكن الصعود اليه بالسلالم. فأسرع [اراتوس] بارسال [كزينوقلس] وتابعيه [سيوثاس Seuthas] و[تخنون Technon] لالقاء نظرةٍ على السوّر. فاذا كان تسلقه ممكناً جازف بالعملية وقامر بكل شيءٍ لانها افضل من الاشتباك في صراعٍ طويل الأمد بين انسان محدود الموارد وبين طاغية مستبدٍ. او شنّ حرب تتحكم منها القوة والعدّة، وعاد [كزينوقلس] ورفيقاه بعد ان قاسا ارتفاع الجدار فأفادا بأن تسلق هذا الجزء من السور ليس مستحيلاً ولا عسيراً. الا ان الاقتراب منه سراً فيه صعوبة كبيرة. لوجود مجموعة من الكلاب الصغيرة الجسم النبّاحة التي لا شبه بشراستها، يملكها بستاني منزله قريب من السور. فقرّ رأيه على الخطة في الحال.

ولم يكن تجميع السلاح والاستعداد للحملة ليثير تقولاً وشكوكاً في ذلك الزمن لأن قطع

الطرق، واعمال النهب الصغيرة كانت من الأمور اعتيادية تمارسها الجماعات بعضها ضد بعض في كل مكان. اما موضوع السلالم وادوات التسلقّ فقد قام [بوفرانور Euphranor] احد المنفيين وهو صانع ادوات، بعلمها على ملأى من الناس لان مهنته كانت ترتفع به عن المظنة. واما حاجته من الرجال فقد مدّه كلّ من اصدقائه في [اراغوس] بعشرةٍ من العدد القليل الذي يملكونه، وسلّح هو ثلاثين من اتباعه وخدمه واستأجر من [كزينوفيلوس Xenophilus] زعيم رؤساء قطاع الطرق عدداً قليلاً من الرجال، زاعماً له انه سيغزو بهم اراضي [سيكيون] لينهب خيول الطاغية الخاصة. وارسل معظم الرجال قبله شراذم قليلة العدد الى برج [وليغنوتس Pol-ygnotus] وامرهم بانتظاره هناك. وارسل ايضاً [كافيسياس] مع اربعةٍ بسلاحٍ خفيف لدخول منزل البستانيّ عند حلول الظلام بوصفهم مسافرين وان يحتالوا على المبيت فيه، وما ان يتمكنوا من البستاني حتى يتحجزوه هو وكلابه. اذ لم يكن ثم وسيلة لتأمين الطريق غير هذه. امّا ادوات التسلق فقد صنعت بشكل يمكن تفكيكها وتركيبها عند الحاجة. فوضعت في صناديق وارسلت مسبقاً في عرباتٍ. وفي اثناء ذلك ظهر بعض جواسيس [نيكوكلس] في ارغوس. وقيل ان مهمتهم هي مراقبة [اراتوس] خفيةً، فاحتال على خداعهم بان نزل في بكور اليوم التالي الى الساحة العامة واظهر نفسه لاكبر عدد من الناس وتحدث الى كثير من اصدقائه، ثم قصد الساحة الرياضية وهناك دهن جسمه بالزيت ودعا الى منازلة عدد من الشبان الذين اعتاد عشرتهم والشرب معهم. ثم ارسل خدمه الى السوق فاحدثوا ضجّة وجلبوا انتباه المارة بما حملوه من الاكاليل وابتاعوا من مشاعل وقصدوا المغنيات والراقصات اللاتي اعتدن احياء الليالي للاتفاق معهن، ولم يفت ذلك الجواسيس الذين كانوا، يراقبون كل شيء، وانطلت عليهم الخدعة وايقنوا ان [اراتوس] في شغل شاغل عن [نيكوكلس] بحفلاته فتضاحكوا وقالوا:

- لعمركم! أرايتم أجبن من [نيكوكلس]. ان يتم طاغية وسيداً لمثل هذه المدينة المنيعة، وآمراً مطاعاً لكلّ هذه القوات يخشى شاباً متهتكاً متلافاً ينفق القليل الذي يكاد لايكفيه ستر الخلّة في منفاه، على اللهو والمجون النهاري لا الليلي!

واقتنعوا بما رأوا واستنتجوا وعادوا الى بيوتهم.

الآ ان [اراتوس] خرج من منزله بعد تناول الفطور مباشرة واجتمع بجنوده في برج [پوليغنوتس] وسار بهم الى [نيميا Nenea]. وهناك فاتحهم ولأول مرة بما في نفسه وكشف لهم عن غايته الحقيقية وبذل لهم شتى الوعود وقطع لهم العهود بالعطاء الجمّ ثم تقدم من المدينة وابلغ كلمة السرّ وهي «ابوللو الظافر» وحرص ان يستفيد من نور القمر وهو في سراه

فلا يغيب الاّ ويكون قد بلغ البستان المجاور للسور. وتمّ ذلك فعلاً. وكان في استقباله [كانيسياس] الذي اعلمه انه لم يستطع احتجاز الكلاب لأنها هربت قبل ان يتسنى القبض عليها. غير انه تمكن من البستاني وحبسه. وهنا ساد رجال الحملة القلق وهبطت معنويات غالبيتهم. فأخذ [اراتوس] يقوي عزائمهم. وتعهد بأن ينكص على الاعقاب ان اثارت الكلاب ضجةً. وارسل امامه حملة السلالم بقيادة [اقديلوس] و[مناسيتيوس Mnasitius] وسار في اثرهم متثاقلاً. وهنا بدأت الكلاب تنبح نباحاً شديداً وتتابع خطى [اقديلوس] وزملائه. على انهم بلغوا السور وثبتوا السلالم دون حادث او عقبة. ولما باشر اول الرجل بالتوقل، بدأ آمر الحرس القديم يقوم بجولته التفقدية الأخيرة وبيده الناقوس. تمهيداً للتبديل الصباحي. وسمع المهاجمون جلبة الحرس المقتربين بانوارهم فالتصقوا بالسلالم فلم ينتبه الهم أحد الاّ ان الخطر من افتضاح امرهم زاد بدنو الحرس الصباحي لتسلم الحراسة من البدل، على انه مرّ بهم دون ان ينتبه اليهم. فأسرع [مناسيشيون] و[اقديلوس] الى اعتلاء السور، وسيطروا على المداخل والمخارج، وارسلوا [تنحنون] الى [اراتوس] يستعجلونه القدوم.

كانت المسافة قصيرة بين الروضة والسورّ والبرج الذي قام كلب ضخم على حراسته. لم يسمع الكلب وقع اقدامهم من بلقاء نفسه اما لأنه كان بليداً بطبعه او لانه بات تعباً في جولات النهار، لكن نباح كلاب البستاني ايقظه، فبدء يهرّ ثم ينبح رداً على الكلاب، بعدها اطلق نباحاً شديداً عند مرورهم به ثم تعالى النباح وتعاظم حتى ان الديدبان الذي كان بمواجهته، نادى وليّه ليتأكد من سبب نباحه المتواصل. وليستفسر منه عما اذا استجدّ شيء. فأجاب صاحب الكلب بالاّ شيء هناك. وان سبب نباح كلبه هو سقوط انوار الحرس عليه ورنين نواقيسهم. وشدد هذا من عزيمة جنود [اراتوس]. وقد ظنوا ان صاحب الكلب هو رفيق لهم يعرف مقدماً بخطتهم وانه يعمد الى تغطية عمليتهم. وراح الوهم بهم الى ان ثمة شركاء وانصاراً لهم من أهل المدينة. ولكنهم وجدوا صعوبة شديدة في تسلق السور فضلاً عن الوقت الطويل والجهد الذي تستلزمه. فقد أخذت السلالم تتأرجح بهم وتهتزّ. فلجأوا الى الرفق في معالجتها، وأخذوا يتسلقونها واحداً واحداً. كان الوقت يمضي سريعاً، لان الديكة بدأت تصيح واهل الريف الذي اعتادوا جلب سلعهم الى سوق المدينة، يوشكون ان يصلوا فعجل [اراتوس] بالصعود وكان قد سبقه الى اعتلاء السور اربعون فقط، ثم انتظر قليلاً حتى انضم الى الاربعين نفر آخر وبقي الآخرون خارج السور، لم ينتظر [اراتوس]، وتقدمهم الى قصر الطاغية ودار الحكومة حيث مهاجع الجنود المرتزقة. وهناك فاجأوهم بسرعة خاطفة فأسروهم جميعاً ولم يقتلوا منهم احداً. ثم اسرع ينبئ انصاره واصدقاءه في المدينة فخفوا اليه مسرعين من كل

صوب وبدأت خيوط الصبح تنفرط وامتلأ الملعب بالجمهور وقد ساده التوتر للانباء المتضاربة التي أخذت تطرق اسماعه، ولجهله بحقيقة ما يحدث. وبينما هم في هذه الحال تقدم مناد عمومي واعلن قائلاً: ان [اراتوس] ابن [كلينياس] قد دخل المدينة وهو يدعو المواطنين الى استعادة حريتهم.

وما ان تأكدوا ان الحلم البعيد الذي ساورهم قد تحقق، حتى اندفعوا زرافات ووحدانا الى منافذ قصر الطاغية لاشعال النار فيه وسرعان ما تصاعدت النيران الهائلة وسرت في ابهائه فأصبح شعلة واحدة من اللهب شوهدت من مدينة [كورنث] وراح اهلها يضربون اخماساً باسداس عما يجري في [سيكيون] وفكروا في ارسال نجدة. وهرب [نيكوكلس] سراً من المدينة بنفق يمتد تحت الأرض. وتعاون رجال اراتوس مع اهل المدينة على اخماد النار وبهذه الوسيلة اقدموا على نهب كل ما في القصر ولم يعترض [اراتوس] على هذا بل زاد عليه بتوزيع ممتلكات الطاغية على الجميع ولم يفقد في هذه العملية الجريئة رجلاً واحداً وشاء الحظ كذلك الا تراق قطرة دم من الأهلين.

اعاد [اراتوس] ثمانين منفياً كان [نيكوكلس] قد ابعدهم، وما لايقل عن خمسمائة آخرين نفاهم من سبقه من الطغاة فقضوا سنيناً طوالاً مبعدين عن اوطانهم، حتى امتد النفي ببعضهم الى خمسين عاماً، وعضهم الفقر بنابه. وأدقع بعضهم. ولهذا كانوا يريدون استعادة املاكهم ومنازلهم بكل سرعة وهو ما آحرج موقف [اراتوس] كثيراً. فقد كثرت المنازعات وعمت الفوضى مدينة صارت المدن الاخرى تغبطها لزوال حكم الاستبداد وشروق شمس الحرية عليها. وهي في الوقت نفسه مطمح انظار [انتيغونس] فلم يجد مندوحة من ضمها الى الحلف الأخائي، وان كان اهلها دوريين أصلاً وبذلك اتخذوا المواطنة الآخائية وان لم يكن هؤلاء في ذلك الحين قوة يعتد بها او ذوي مكانة مرموقة في بلاد الاغريق. كان معظمهم يعيش في بلدان صغيرة، ولاتتميز ارضهم بالخصوبة او السعة. ويكاد الساحل كله يكون خالياً من ميناء وهو جرف صخري برمّته. ومع ذلك كله فلطالما ضربوا بشجاعتهم الفائقة امثلة لسائر الاغريق عندما يتحدون وينتظمون تحت قيادة محنكة موجهة وقلما عد الاخائيون جزء من القوات اليونانية حتى جاء زمن لم تكن قواتهم تضاهي قوة مدينة اعتيادية الحجم الا ان حصافتهم وتماسكهم وتخلصهم من رذيلة التحاسد وحبك الدسائس واطاعة الفضلاء والاكارم منهم والتسليم بالقيادة مكنتهم من المحافظة على استقلالهم وحريتهم وهم محاطوان بمدن كبيرة وملوك يقودون جيوشاً قوية بل اهلتهم للقيام بدور المنقذ والمحرر لكثير من الاغريق.

وكان اراتوس مثلاً رائعاً لرجل الدولة. فقد تميز بعقل راجح وانكار للذات كما انه كان دوماً

يقدم المصلحة العامة على مصلحة الخاصة، ويجعل من الحيز العام مبدءً وشريعة في صداقاته وخصوماته ولذلك كان عدواً كريماً سمحاً اكثر منه صديقاً وفياً. يتكيف بحسب الظروف السياسية في هذا المجال وكان شديد الكره للطغاة والمستبدين ولذلك وضع نصب عينيه احلال التآلف بين شعوب الاغريق وتآخي مدنهم وتحري الوصول الى الاجماع في التصويت على القرارات في الجمعيات العامة والمجالس المحلية.

وكان يشكو الضعف في السلاح والقلة في الرجال. لكنه كان يحقق بالسياسة والبراعة بالتعامل مع المدن والامراء ما يعز تحقيقه بالقوة والحرب. وقد نجح والحق يقال في كثير من الاعمال التي لم يكن لها اي حظّ من النجاح على ان ترك كبيراً من المشاكل السهلة كما يبدو - بدون حلٍ او معالجة لأنه كان ضعيف الثقة بنفسه. والذي يلاحظه المرء ان ثم حيوانات ضعيفة نهاراً لا تبدو قوتها الا في الليل، لرقة اخلاط أعينها التي لاتتحمل ضياء النهار، وشبيه بهذا نوعٌ من البراعة والحكمة البشرية، لايمكنها البروز والنجاح في العلانية. وانما تحقق غاياتها وتصل الى اهدافها في الخفاء والسريّة. وهو نقص عقليّ ان وجد في ذوي الكفاءة فسببه فقرهم في الفلسفة. عقلٌ كهذا هو أشبه بثمره فجة من ثمار الفضيلة لاتكشف عن نضوجٍ صحيح.

بعد ان دخلت [سيكيون] في اتحاد مع الأخائيين. تولى [اراتوس] قيادةً في صنف الخيالة فاحبّه ضباطه الآمرون لما تميز به من اطاعة للأوامر، فقد كان مستعداً كاي جنديٍ لتلقي اوامر الجنرال الآخائي وتنفيذها مثل اي مواطن [دايني Dynae او تريراي Triræa] مع انه ساهم بعدد كبير من الخيالة في قوات الحلف او اي مواطن من مواطني مدن اصغر من هاتين شأناً. واهداه الملك خمسة وعشرين تالنتاً. فوزعها على المحتاجين من مواطنيه واستخدمها لافتداء الأسرى منهم.

واصبح المنفيون العائدون معضلة. وقد صعب ارضاؤهم واسكانهم وظلّوا مصدر ازعاج لواضعي اليد على ممتلكاتهم. وباتت [سيكيون] على قاب قوسين من الفوضى والانقسام الداخلي. ولم يعد لاراتوس أملٌ الاّ بمساعدةٍ يتلقاها من [بطليموس] فقد رحل اليه يطلب المال منه، ليفض النزاعات المالية في داخل المدينة. وابحر من موثونه Mothone، فيما يلي [ماليا Malea] وهو طريق مباشرة لاوقف فيها. الاّ ان الملاح جوبه بريح قوية وامواج عالية مندفعة من البحر فلم يقو على توجيه سفينته في الطريق المنتوى وحاد عنه الى الساحل بعد معاناة كثيرٍ من الأهوال وجنح الى [اندارس Andras] وهي ارض عدوة من ضمن املاك [انتيغونس] كانت له فيها حامية عسكرية. فأضطر [اراتوس] الى ترك السفينة حال بلوغها

الساحل، ونفذ الى داخلية البلاد وليس معه غير تابع واحد يدعى [تيمانثوس Timanthes].
فأخفيا نفسيهما في غابة كثيفة واستراحا ليلة واحدة. وبعد مرور حين من الوقت على رسو السفينة اقبل قائد الحامية وسأل عن [اراتوس] فضلله الخدم بقولهم انه قصد جزيرة [يوبيا Euboea]. فأعتبر السفينة وحمولتها غنيمة شرعية واحتجز كل من كان على ظهرها. اما [اراتوس] فبعد ان قضى اياماً في ضيق شديد ساقت اليه الصدف الطيبة سفينة رومانية ألقت مراسيها في البقعة التي استقرّ فيها. واتخذ منها موضع استكشاف فيختفي فيها احياناً ويخرج منها أحياناً. وكانت وجهة السفينة سورية. فاتفق مع الربان على انزاله في [كاريا] وصعد اليها ولكنه لاقى من المصاعب ما لايقل عن تلك التي لقيها في رحلته الأولى وبلغ مصر من [كاريا] وقابل الملك الذي كان يعطف عليه كثيراً ويخصّه بالتفاته، لان [اراتوس] الخبير في الفنون اليونانية سبق له اهداء الملك عدداً من المنحوتات والصور، وكان شديد التدقيق في انتقاء اروعها واغربها وارسالها اليه، لاسيما رسوم [بامفيلوس Pamphilus]، و[ميلانثوس Melantheus].

كانت اللوحات السيكيونية اشهر اللوحات واندرها، لأنها الرسوم الوحيدة التي لاتتغير الوانها مطلقاً. وابلليس Applles] نفسه قصد المدينة بعد ان ذاع صيته واصبح من الاعلام. ودفع تالنتاً واحداً وهو رسم الدخول في عضوية جمعية الرسامين لا للاستفادة من خبرتهم وعلمهم وهو ما لايحتاجه، بل ليكون له شرف الانتماء الى نقابتهم لا غير. ولما حرّر [اراتوس] المدينة انزل كل رسوم الطغاة الاّ انه تردد كثيراً في انزال رسم [اريستراتوس Aris-tratus] الذي عاصر فيليب المقدوني. فهي من اعمال [ميلانثوس] وتلاميذه، وتمثله بالقرب من عجلة حربية وقد ركب فوقها تمثال للنصر. وكان [ايبللس] نفسه قد اشتغل فيها كما ذكر لنا [بولمين] الجغرافي. كانت لوحةً نفسية رائعة جداً فعزّ على [اراتوس] ان يتخلّى عنها، ورغب في ابقائها لقيمتها الفنية الاّ ان دافع الكره للطغاة تغلّب عليه فأمر بانزالها. الاّ ان [نياكلس Neacles] الرسام وهو من اصدقاء [اراتوس]، قيل انه توسل به وهو يبكي للابقاء عليها، ولما وجد مساعيه لاتؤدي الى شيء قال له:

– لا خير في ان تواصل نضالك ضدّ الطغاة. لكن فليكن نضالك هذا قاصراً عليهم. ودع العجلة وآله النصر على حوالهما وسأجد الوسائل الكفيلة بطمس معالم صورة اريستوترس في اللوحة.

فوافق [اراتوس] على ذلك، ومسح [نياكلس] صورة الطاغية من اللوحة ورسم في مكانها نخلة ولم يجرأ على اضافة شيء آخر من مخيلته. وقيل ان قدمي [اريستوتراتوس] في

الصورة ظلّت ظاهرة لأنها كانت مختفية وراء العجلة فغفل الرسام عن ازالتها.

لهذا السبب ارتفعت مكانة [اراتوس] عند الملك. وبعد ان ازداد هذا معرفةً به تضاعف حبّه له. واعطاه مائة وخمسين تالنتاً للتخفيف عن ضائقة المدينة، نقل منها اربعين معه، عند ابحاره الى [البيلوبونيس] اما الباقي فقد قسمه الملك اجزاء وارسله تباعاً اليه في اوقات مختلفة.

انه لشيء رائع حقاً. لقد أمن [اراتوس] لابناء وطنه هذا المبلغ الكبير من المال لاصلاح حالهم. في حين كان جزء قليل منه يكفي لتخريب ذمة اي قائدٍ او زعيمٍ، ولتجعلهم على استعدادٍ للغدر بمواطنيهم خيانة بلادهم. ان ابدع ما في هذا العمل هو ان يستخدم هذا المال لاحلال الوئام والصفاء بين الأغنياء والفقراء وسيادة الاستقرار والطمأنينه ربوع البلاد.

أما الجانب العادل في خلقه وهو الذي أثار أعظم الاعجاب به، فقد تجلى عند اختياره حكماً مطلقاً مفوضاً بغضّ النزاعات على الاراضي التي تعود رقبتها للمنفيين العائدين، فقد ابى قبول هذه المسؤولية وحده وبادر الى ضمّ خمسة عشر مواطناً آخرين لهذا الغرض. وحقق النجاح في تسوية هذا النزاع المعقد واحلال الودّ والسلام بين مختلف طبقات السكان بعد كثير من المتاعب والمصاعب. وبلغ في اكرامه والثناء عليه، من سائر الأهالي، حتى ان المنفيين اقاموا له تمثالاً برنزياً نقشوا عليه هذه الابيات:

ان مشوراتك ومآثرك وبراعتك العسكرية

في سبيل الأغريق، تعدى صيتها اعمدة هرقل

ونحن يا [اراتوس] اهدينا صورتك؛ صورة

الذي انقذنا - الى آلالهة التي ارسلتك

لتنقذنا من المنفى، وتفيدنا الى موطننا

بفضائلك وعدلك اللذين ترفل [سيكيون]

بنصحهما الى يومنا هذا. مع الثروة التي يتمتع

بها الجميع على السواء، ومع القوانين التي يطيعها الجميع.

وقد أمن [اراتوس] من حسد ابناء جلدته بتحقيقه هذه الأمور. فقد شعروا بالمنافع التي حققها لهم، فحرصوا على وجوده الاّ ان [انتيغونس] الملك كان شديد القلق من نواياه. ولذلك فكرّ في ان يضمّه الى حلفه فان فشل عمد الى تشكيك [بطليموس] فيه. وفي غضون ذلك

اظهر له كثيراً من المودّة واخذ يتقرب منه. ولم يعبأ [اراتوس] كثيراً بما يفعله [انتيغونس] لأجله فمن ذلك انه قرب للآلهة في [كورنث] وارسل الى [اراتوس] جانباً من قرابينه. وانتهز العيد فصرح بين جميع كبير من المدعوين قائلاً:

- ظننت ان هذا الشاب [السيكيوتي] محب فحسب للحرية ولابناء وطنه. لكني صرت اعدّه الآن خبيراً باخلاق الملوك مقدراً افعالهم في الماضي. كان يتجاهلنا ويضع آماله في جهات بعيدة؛ معتمداً على ثروات مصر، بعد سماعه الكثير عن قصورها وفيلتها واساطيلها ولكنه وجد كل هذا مجرد ابهة فارغة، ومظاهر تمثيل كاذبة بعد ان رآها عن كثبٍ فعاد الينا، واما من ناحيتي فأنا ارحّب به من كلّ قلبي وانوي استخدامه في اعظم المهام واني لآمركم ان تعتبروه صديقاً وحليفاً.

التقط المبغض والنمامون هذه الاقوال وتسابقوا على ابلاغها لپطليموس، فكتبوا له الرسائل الطوال مسندين فيها الى [اراتوس] شتىّ الاتهامات والافتراءات. فأرسل [پطليموس] يعاتبه ويؤنبه. ان كثيراً من الحسد والشكّ ونية السوء يتخلل علاقات الامراء والعظماء وصداقاتهم. لأنها اكثر الصداقات اطلاباً وتعرضاً للحسد.

في تلك الاثناء كان [اراتوس] قد انتخب جنرالاً للآخائيين لأول مرةٍ. فأجتاح اراضي [لوكريس Locres] و[كاليدون Calydon] وهما مما يلي أخائياً. ثم انجد البويوتيين بعشرة آلاف جندي. على انه لم يدركهم بنفسه الا بعد ان انتهت معركة خيرونيا بهزيمتهم امام الايتوليين وخسارتهم [ابيوقريطس Aboecritus] و[بويوتارخ Boeotarch] وألفاً من الرجال وبعد هذا بسنة واحدة وعلى اثر انتخابه جنرالاً للمرة الثانية قرر الاستيلاء على [قلعة كورنث Acrocorinthes] لا لكونها ذات اهميّة للسيكيونيين او الاخائيين بل لأنه وجدها فاتحة لتحرير كل اليونان من حكم الاستبداد الذي يجثم على كل شبرٍ فيها بمجرد طرده الحامية المقدونية منها. وواتى الحظّ [خارس] الآثيني في تحقيق النصر على قواد الملك بمعركةٍ. فكتب الى اهالي آثينا يقول «ان نصره هو توأم لنصر مراثون!» ولذلك فيجب ان يعدّ عمله هذا صنواً لعمل [پيلوپيداس] الثيبي وتراسيبولس Thrasybulus] الآثيني اللذين تمكنا من القضاء على الطاغيتين. على انه يتفوق عليهما من ناحية واحدة وهي ان معركته لم تكن مع اغريق وانما ضدّ سيطرة اجنبية. ان البرزخ الذي يرتفع بين البحار كالجرف الساحلي هو مفتاح كل بلاد اليونان الجنوبية تقف عقبةً كؤوداً وتقطع [الپيلوپونيسس] تماماً عن اي تماس مع الاجزاء الباقية واذا ما عززت بحامية قوية فيصبح مرور السلاح والرجال والنقل البحري والبريّ من قبيل المستحيلات ومن يسيطر على تلك القلعة هو سيدّ البلاد كلّها. ولذلك لم يكن [فيليب]

الشـاب يمزح حين اطلق على [كـورنث] اسم «اغـلال اليونان». وكـان هذا الموقع والحـالة هذه، مطمح انظار الجميع، وقبلة المنافسة بين الملوك والطغاة. وفي مقدمتهم [انتيغونس] الذي كان امامها اشبه بالمحبّ المتيّم الواله. وانشغل ذهنه بخطط الاستيلاء عليها ولازمته فكرة المفاجأة لأنه كان يائساً من الاستيلاء عليها بهجوم عسكري ولذلك عمد كمل قبل الى دسّ السمّ لصاحبها [الكساندر] مخلفته زوجه نيقيا Nicaea في حكم تلك القلعة، فأسرع [انتيغونس] يتخذ ابنه [ديمتريوس] طعماً للوصول الى مرماه، فمناها بزواج ملكي فخم فحياة سعيدة مع ابنه الشاب فراق لها الأمر ووقع في نفسها موقعاً حسناً لاسيما وقد تعدّت سنّ الشباب ووافقت وتزوجته الاّ ان القلعة بقيت في يدها وظلت حاميتها القوية تحافظ عليها. وتظاهر [انتيغونس] بعدم الاهتمام واحتفل في [كورنث] بالزواج واقام للزوجين المآدب ومجالس اللهو كأنه خالي الذهن منصرف انصرافاً تاماً الى المرح واللهو لفترة من الزمن. وكانت ساعة الصفر هي بدء غناء [امبيوبيوس Amboebeus] على خشبة المرسح. وكان [انتيغونس] برفقة [نيقيا] وقد نقلت على كرسي ملكي مزيّن، وهي تكاد تطير فرحاً بما تلقى من حفاوة وتكريم، وليس عندها اية فكرة بما بيت للقلعة.

وما لبث [انتيغونس] حتى ودّع الموسيقى وحفلة الزواج وخف بأسرع ما يسمح له عمره الى حصن [كورنث] فوجد المداخل محكمة الإغلاق في وجهه. فدق بعصاه وامر بفتح الباب، فلم يسع الحراس الاّ ان يفعلوا ذلك وهم في حيرة من امرهم. وبهذه الطريقة استولى على الموقع. ولم يستطع كبح جماح عواطفه الجائشة بالفرح فقد نسي وقاره وتقدم عمره، ونسي طول معاناته تصاريف الدهر وتقلبات الحظّ. وخرج الى الشارع مظهراً انبساطه، واخذ وهو واقف في الساحة العامة متوجاً باكاليل الزهر وبين يديه الضاربات والنافخات في الناي يدعو المارة الى مشاركته في افراحه. تلك هي طبيعة العاطفة النزقة الخالية من التحفظ تذهب العقل اكثر مما يذهبه الخوف والأسى.

هكذا استولى [انتيغونس] على قلعة كورنث ووضع فيها حامية من جنوده المؤتمنين وجعل [برسيوس Persæuse] الفيلسوف حاكماً مدنياً لها. وكان [اراتوس] قد حاول في زمن صاحبها [الكساندر] الاستيلاء عليها، ووضع خطة لذلك، الاّ انه عدل بعد ان تحالف [الكساندر] هذا مع الآخائيين. الاّ ان دخولها الآن في املاك [انتيغونس] دفعه الى تجديد المحاولة بخطة جديدة اليك هي:

كان يوجد في كورنث اخوة اربعة من السوريين، احدهم المدعو [ديوقليس] كان احد عساكر الحامية، اما الثلاثة الباقون فقد لجأوا الى [سيكيون] بعد ان سرقوا ذهباً من الملك. وكان ثم

صراف يتعامل [اراتوس] معه بحدود مهنته اسمه [ايغياس Aegias] قصدّه هؤلاء الاخوة فباعوا منه جزءً من الذهب المسروقّ. امّا الباقي فقد أخذ احد الاخوة الثلاثة وهو المدعو [ارغينوس Arginus] يصرفه بالمفرّق تباعاً الى الصراف [ايقياس] وبذلك اصبحا صديقين حميمين، ومرّة انجرّبهما الحديث الى قلعة كورنث فقال [ارغينيوس] انه لاحظ عند صعوده اليها لزيارة أخيه بأن هناك شقّاً جانبياً بوجه الصخرة يؤدي الى جزء من السور اقل ارتفاعاً من سائر الاجزاء الأخرى، فعقب [ايغياس] ممازحاً.

- اني لاعجب من فرط حكمتك! لقد اقتحمت خزائن الملك لأجل الحصول على مقدار ضئيل من الذهب. في حين انك تستطيع ان تكسب مالاً طائلاً لو شئت بعمل ساعةٍ واحدة لا اكثر. وتعلم ايضاً ان العقاب واحد على السرقة والخيانة العظمى وهو الموت.

فضحك [ارغينيوس] وقال له انه سيفاتح [ديوقلس] بالأمر (ذلك لأنه لم يكن يثق باخويه الآخرين ثقة تامة) وعاد بعد ايام قليلة واتفق مع [اراتوس] على اصطحابه الى ذلك الجزء من السور، حيث لايبلغ الارتفاع اكثر من خمس عشرة قدماً. وتعهد له ان يفعل كل ما يطلب منه بالتعاون مع اخيه [ديوغليس].

ووافق [اراتوس] على ان يدفع لهم ستين تالنتاً في حالة النجاح. امّا اذا فشلت العملية وخرج الفريقان سالمين فانه سيمنح كل واحدٍ منهم منزلاً وتالنتاً واحداً. ثم انه وضع الستين تالنتاً امانةً عند [ايغياس] لأمر [ارغينوس] وشريكيه. ولم يكن [اراتوس] يملك هذا المبلغ ولم يكن يريد ان يثير التساؤل بالاستقدانة من الآخرين فارتهن صحافه الثمينة وحليّ زوجه عند [ايغياس] مقابل هذا المبلغ. لقد بلغ من سمو الخلق والغيرة على اشرف المقاصد ان عمد الى الانفاق على المشروع من جيبه الخاص، فبذّ [فوكيون] و[ايبامنينداس] اللذين سمع بأنهما افضل الاغريق واعدلهما لأنهما رفضا اعظم الهدايا ولم يخونا واجبهما لقاء المال. وبذلك تحمل عواقب المغامرة كلها لأجل الآخرين الذين ظلوا يجهلون أمرها. ولم يسع الجميع اخفاء اعجابهم بانكارٌ الذات والسخاء بهذا المبلغ الكبير ثمناً لمجازفةٍ محفوفة بالأخطار، وبذل كل ما لديه لنيل فرصة التعرض للموت بالنزول بين الاعداء في دجنة الليل. غير طالبٍ مكافأة على ما بذل غير الأمل بالنجاح المشرف.

كانت المغامرة بحدّ ذاتها خطرة، ولكن خطرها تضاعف كثيراً بخطأ ارتكب من البداية. فقد ارسل [اراتوس] تابعه [تخنون] الى [ديوقليس] ليستطلعا السوّر معاً. وكان [تخنون] يجهل شكل [ديوقليس] الاّ ان [ارغينيوس] وصفه له وصفاً دقيقاً يتعذر معه ان يخطئه. ذكر له انه اجعد الشعر، اسمر اللون أملط. فذهب [تخنون] الى المكان المعين وظلّ ينتظر مقدم

[ديوقليس] و[ارغينيوس] في ظاهر المدينة امام موضع يقال له [اورنس Ornis] واتفق ان [ديونيسيوس] الأخ الاكبر مَرّ به وهو واقف (ولم يكن يدري شيئاً عن المسألة انه كان يشبه اخاه ديوقليس شبهاً غريباً) فتطلع اليه [تخنون] فوجد الأوصاف منطبقة عليه تماماً فاستوقفه وسأله هل له معرفة بارغينيوس؟ فأجابه انه أخوه فأيقن [تخنون] انه يكلم [ديوقليس] لا غيره فلم يجد حاجة الى التأكد من اسمه او طلب دليل آخر ومدّ اليه يده مصافحاً وشرع يتحدث اليه ويطرح الأسئلة حول ما اتفق عليه مع [ارغينيوس]، وكان [ديونيسيوس] أشدّ مكراً من ان تفوته فرصة الافادة من الالتباس. فتظاهر بفهم ما يقول واتجها نحو المدينة وهما يتحدثان دون ان يخالج [تخنون] اي شك. ولما اصبحا قريبين من الباب هم [ديونيسيوس] بالقبض عليه الاّ ان الصدف حكمت بان يدركهما [ارغينيوس] فأنكشفت له الخدعة ولاح له الخطر فأشار على [تخنون] بالفرار ودار كلاهما على الاعقاب واطلقا ساقيهما للريح حتى وصلا الى [اراتوس] وقصّا عليه الأمر، فلم يخالجه اليأس، وانما ارسل [ارغينيوس] الى [ديونيسيوس] فوراً واغراه بمبلغ من المال لقاء سكوته كما نجح في جلبه الى [اراتوس] وما ان اصبح تحت رحمته حتى بادر الى شدّ وثاقه واحتجزاه في غرفة واقاما عليه حراسة قوية واخذا يستعدان للعملية الكبرى.

بعد ان تمّ كل شيء، أمر جنوده بان يظلوا شاكي السلاح طول الليل واختار منهم اربعمائة لايعلمون شيئاً عما هم مقدمون عليه الاّ قلة. وسار بهم حتى الأبواب القريبة من هيكل [جونو] وكان الوقت منتصف الصيف والقمر بدراً والليلة صافية الأديم لاتشوبها قطعة غيم وكان الخطر من بريق الصفائح والدروع في ضوء القمر، الذي سيجتذب انظار العدوّ ويكشف المهاجمين وما ان شارف الرتل الأول القلعة حتى زحف الضباب من البحر فغطاهم وغطى القلعة نفسها وما جاورها. فأفتقد المهاجمون الأرض ونزعوا احذيتهم لأن ذلك يخفف كثيراً من وقع اقدامهم ويثبتها اثناء التسلّق. واخذ [ارغينيوس] سبعة من الشبان تنكروا بزيّ المسافرين وبلغوا الباب دون ان يسترعي بهم الانتباه، وقتل الناطور والحراس بينما ثبتت السلالم على الأسوار. وعجل [اراتوس] باصعاد مائة من رجاله وامر الباقين بالتسلق ثم صعد هو وسحب سلالمه وسار مع رجاله في قلب المدينة قاصداً القلعة، وقد كاد يطير فرحاً لبقاء امره سراً ولفرط وثوقه الآن بالنجاح، وكانت المسافة بينه وبين القلعة واسعة عندما تبين اربعة من الخفراء الليليين قادمين وبأيديهم المصابيح لكنهم مروا بهم دون ان يفطنوا اليهم فقد كانوا يسيرون في ظل القمر لا في نوره. الاّ انهم توضحوهم عندما توجهوا نحوهم مباشرة، فأنسحب رجال [اراتوس] وتواروا خلف بعض الجدران في باحات البيوت وكمنوا للخفراء ثم وثبوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة وفرّ رابعهم وهو مصاب بجرح سيف في رأسه، يهتف ان العدوّ

قد دخل المدينة، فنفخ في الابواق وهبت المدينة من رقادها وعلا الضجيج وامتلأت الشوارع بالناس وهم يهرجلون واضيئت الأنوار في المدينة وفي القلعة. وسمعت جلبة واصوات مختلطة في كل الانحاء.

في الوقت نفسه كان [اراتوس] يعمل بهمّة على توقل الصخور المؤدية الى القلعة فعانى مشقة وابطأ وحاد عن الشقّ الصخريّ العميق الذي كانت تخفيه الاطناف من الجانبين وتتخلله المنعطفات والالتواءات الكثيرة وهو متجه الى القلعة، ولكن الغيوم انحسرت فجأة عن وجه البدر بقدرة قادرٍ فانارت للرجال أشقٍ جزءٍ من الشعب وبلغ [اراتوس] الناحية المنشودة من السّور. حتى اذا تم ذلك زحفت الغيوم ثانية وحجبت نور القمر.

اما الثلاثمائة الذين تركهم [اراتوس] في معبد [جونو] خارج المدينة، فقد دخلوا المدينة بعد ان استيقظ الناس وانيرت الاضواء ولم يعلموا شيئاً عن وجهة [اراتوس] برجاله المائة ولم يعثروا لهم على اثر فانسلوا بهدوءٍ وتجمعوا كلهم تحت جرف صخري بارزٍ مستترين بظله الكثيف وظلوا هناك حائرين قلقين. وفي تلك الاثناء هوجم رتل [اراتوس] بالمقذوفات ونشب القتال بينهم وبين الحامية وتناهت اليهم الاصوات وضجة المعركة من فوق ولذلك كانت مختلطة غامضة صعب عليهم تعيين اتجاهها لان الصدى كان يصدر من كل جهة. وادركت المدافعين عن المدينة الحيرة ولم يدروا بالضبط مركز الهجوم. فساق [ارخيلاوس] جنوده نحو القلعة واخذوا يطلقون الصيحات الراعدة وينفخون في الابواق بشدّة، وقصدهم مباغتة رتل [اراتوس] من الخلف. ومروا بالثلاثمائة الكامنين، فخرج هؤلاء من وكامنهم وحملوا عليهم وقتلوا بعضهم فالقوا الرعب في نفوس البقية فهربوا، فطاردوهم حتى دحروهم وشُتتوا شملهم في ارجاء المدينة. وأقبل في اعقاب ذلك [ارغينوس] ليعلمهم بأن [اراتوس] مشتبك مع العدوّ في قتال عنيف فوق الاسوار، وان العدو يدافع دفاعاً عنيداً وان [اراتوس] في حاجة الى مدد سريع. فطلبوا منه ان يتقدمهم دون تأخير، وساروا مطلقين الصيحات العالية فسمعها رفاقهم وارتفعت بها معنوياتهم. وانعكس نور القمر على اسلحتهم الصقيلة وهم يسيرون في رتل طويل فبدوا للعدو اكثر من عددهم الحقيقي وضاعف الصدى من حجم صيحاتهم. وبمختصر القول انضم الرتل الى جماعة [اراتوس] ودفعوا بالعدو الى الوراء حتى تمّ لهم الاستيلاء على القلعة واسر الحامية. وانبلج الصبح عن نصرٍ كاملٍ لهم والقت الشمس باشعتها على اسياد القلعة الجدد. وفي تلك الاثناء وصل القسم الاكبر من جيش [اراتوس] قادماً من [سيكيون] واستقبلهم الكورنثيون بفرح عظيم عند مداخل المدينة وعاونهم في القاء القبض على اشياع الملك.

بعد ان وضع [اراتوس] الامور في نصابها هناك. نزل الى الملعب وكان ثم عدد لايحصى من الجمهور احتشد لسماع اقواله ولرؤيته.

فأنتظم الجنود الاخائيون في صفين متقابلين على طول ممشى المرسح وتقدم [اراتوس] وهو في شكة سلاحه ودروعه وقد بدت امارات الاجهاد والاعياء واضحة عليه وغلبت على البشر والفرح الذي كان يملأ قلبه. فأعتلى المرسح واطلق الجمهور هتافاً عظيماً مشفوعاً بالتهاني الحارة. امسك اراتوس رمحه بيده اليمنى واسند عليه جسمه مثنياً ركبته قليلاً وظلّ واقفاً بهذه الصورة فترة من الوقت وهو يستمع الى هتافاتهم وصيحاتهم بصمت، ويصغي الى عبارات التعظيم والاعجاب بشجاعته وتوفيقه، حتى هدأت الضجّة وارهفت الآذان فأفتتح خطابه اليهم باسم الأخائيين حول عمليته الأخيرة، مزيناً لهم التحالف مع الاخائيين، ثم اعاد اليهم مفاتيح ابواب مدينتهم التي حرموا منها منذ عهد [فيليب] الملك. وأطلق سراح [ارخيلاوس] قائد حامية انتيغونس الذي وقع في اسره. واما [ثيوفراستس] الذي رفض ترك موقعه فقد أمر بقتله. وهرب [پيرسيوس] الى [Cenchreae] عند استسلام القلعة. وقيل انه كان يتحدث مع احدهم بعد مرور زمن على هذه المعركة - فقال محدثه في سياق الكلام: «ان العاقل وحده، هو القائد الحقيقي». فأجاب [پرسيوس].

- أجل، فليس هناك مبدء فلسفي يعجبني قدر ما يعجبني مبدء [زينو] هذا. الاّ اني اهتديت الى رأي اصلح بفضل هذا الشاب السيكيوني.

هذا ما عزاه كثير من الكتاب الى [پرسيوس].

ثم سيطر [اراتوس] على معبد [جونو] وميناء [ليخيوم Lechaeum] وفي هذا الميناء استولى على خمس وعشرين سفينة من سفن الملك وخمسمائة حصان واربعمائة من السوريين الذين باعهم عبيداً. ووضع الحلف الاخائي حامية في قلعة [كورنث] قوامها اربعمائة جندي وخمسون كلباً مع خمسين مدرباً لها.

يعظم الرومان [فيلوپومين] ويسمونه بـ«آخر الأغريق». اعني انه لم يقم بينهم رجل عظيم بعده. وانا اسميّ استيلاء [اراتوس] على قلعة [كورنث] بآخر مآثر الأغريق. فهذه العملية جديرة بان توضع في مصاف أعظم ما حققوه في ميادين الحرب والسياسة سواء بالجراءة التي اتسمت بها او بنتائجها واثارها: فما عتم الميغاريون ان ثاروا على [انتيغونس] وانضموا الى [اراتوس] ودخل [الروزينيون والاپيداريون] في الحلف الأخائي. واتيح له لأول مرة ان يدخل [آتيكا] ويبحر الى سلاميس ويجتاحها. ثم يوجه القوة العسكرية الآخائية الى كل مكان

كأنها طائر حبيس انطلق من سجنه يتنسمّ انسام الحرية. وبعث الى الآثينين كل حُرّ أسره دون طلب فدية عنهم تمهيداً لسبيل انضمامهم الى الحلف. وأقنع [بطليموس] بمحالفة الأخائيين.

ومنح [اراتوس] امتيازاً لم يعط لغيره وهو الجمع بين القيادة العليا البحرية والبريّة. وعظم قدره لدى الحلف ومارس سلطاناً عظيماً. فكان ينتخب جنرالاً بين سنة وأخرى بصورة مستمرة لأن دستورهم لم يكن يسمح ببقاء الجنرال سنتين متتاليتين او اكثر. على انه كان هو القائد العام عملياً وسواء في ذلك اكان يتقلد المنصب أو لايتقلده، اذ كان في مشوراته وآرائه فصل الخطاب. لقد ادركوا ان أعزّ امانيه هي منعة الأخائيين واتساع نفوذهم. لقد وجد ان المدينة الواحدة، ضعيفة عادة، لاتقوى على حفظ كيانها ودرء الاخطار عن نفسها الاّ بالتحالف مع غيرها على المعونة المتبادلة في مجال المصلحة العامة اي كاعضا الجسم الحيّ الذي لايقوى على التنفس والعيش الاّ بالتعاون والنموّ الطبيعي. فاذا انفصلت الاعضاء بعضها عن بعض تحلّلت وفسدت كما يحلّ الدمار بالمدن عندما تنقسم على نفسها في حين انها تنمو وتزدهر وتنعم بالرفاء عندما تتحدّ وتتبادل المنافع مع الاقليم الأخائي الذي تحكم اراؤه الكلّ، كأنها اعضاء في جسم كبير.

لقد آلم [اراتوس] ان يرسف اهل [ارگيڤ] في اغلال العبودية، في حين تنعم المدن المجاورة بحرياتها وقوانينها الخاصّة فراح يتداول في أمر القضاء على طاغيتهم [ارسطوماخس]. وكان مشوقاً الى تسديد دينه لتلك المدينة التي آوته وهو طريد، وربته حتى استوى رجلاً. وذلك باعادة حريتها. وضمها الى الحلف الأخائي ولم يكن يعوزه الرجال الشجعان المستعدون لهذا العمل. وفي مقدمتهم المنجمان [ايسخيلوس Aeschylus] و[خاريمنيس Charimenes]. وكان هؤلاء الثائرون بحاجة الى الاسلحة، لأن الطاغية منع حمل السلاح داخل المدينة وفرض عقوبات شديدة على المخالفين. فاعدّ [اراتوس] مقداراً من السيوف القصيرة في مدينة [كورنث] واخفاها في سروج وبراذع خيول النقل التي تحمل السلع الاعتيادية الى [اراغوس]. الاّ ان [خاريمنيس] افضى بالأمر الى احد الاشخاص. الأمر الذي استاء له [ايسخيلوس] وجماعته، فقاطعوه وانصرفوا لاتمام العمل وحدهم. فثارت ثورة [خاريمنيس] وانطلق بسورة من غضبه فأخبر عنهم في الوقت الذي كانوا يهمون بالوثوب عن الطاغية في الساحة العامة. وافلح معظمهم في النجاة ولجأ الى كورنث. ولم تمرّ فترة من الزمن على هذا حتى وثب فريق من عبيد [ارسطوماخوس] عليه واغتالوه. فقبض [ارسطپوس Aristoppus] على ناصية الحكم وكان أكثر من سلفه طغياناً وشراً. فعبأ [اراتوس] ما امكنه من الآخائيين اللائقين للخدمة واسرعوا لنجدة المدينة وهم واثقون من استعداد الأهالي للانضمام اليهم. ولكن

[اراتوس] كان مخطئاً في حسابه، فقد طال بهم حكم الاستبداد فتعودوه ورضوا به، ولم يتحرك احد منهم لنصرته فأضطر الى العودة معرّضاً الأخائيين الى تهمة ارتكاب اعمال عدوانية في وقت السلم. ورفعت عليهم القضية امام [المانيتينين] فلم يحضر [اراتوس] مجلس التحكيم، وفرض عليه تعويض [لارسطپوس] قدره ثلاثون[مينا]. وساور الطاغية خوف عظيم من [اراتوس] وازداد له بغضا وراح يعمل على اهلاكه، فوجد في شخص [انتيغونس] الملك ظهيراً. وباتت حياة [اراتوس] في خطر عظيم فقد انتشر المؤتمرون به يتحينون الفرصة لاغتياله الأ ان اخلاص ابناء قومه بعامتهم واشرافهم وزعمائهم وحرصهم عليه وعلى سلامته، يسرّ له ان يتجنب مكائدهم ويقف على خططهم ويسمع باذان عديدة وينظر باعين كثيرة الى كل ما يقولون ويفصلون. ولايسعني هنا الأ ان احيد قليلاً عن موضوع البحث لأصف حياة الطاغية، وحكمه الاستبدادي الكريه، وابين حقيقة الابهة والعظمة التي اشتهرت بها الحكومات المستبدة والحياة الخاصة التي كان ارسطپوس مضطراً اليها.

كان [انتيغونس] صديقه وحليفه، وكان لديه عدد كبير من الجنود فضلاً عن الحرس الشخصي. ولم يترك عدواً له في المدينة على قيد الحياة، ومع هذا كلّه كان مضطراً الى جعل ثكنة حرسه في رواق الاعمدة المحيط بمنزله. وكان يصرف جميع خدمه بعد انتهاء العشاء مباشرةً ويغلق الأبواب عليهم ويحكم رتاجها. ثم يصعد زحفاً على قدميه الى عليّة صغيرة مع مخطيته، ويدخلها من بابٍ في ارضيتها. وبعد ولوجهما يغلق هذا الباب ويضع الفراش فوقه وينام النوم المتوقع لمن هم في حالته هذه: نوم متقطع خفيف يكتنفه الخوف والهواجس ثم ان امّ مخطيته تقوم بسحب السلم من باب العلية بعد اغلاقه وتأخذه الى غرفةٍ وتقفل عليه بابها. وفي صباح اليوم التالي تأتي الأم بالسلّم وتثبته في موضعه وتنادي الطاغية الشجاع العظيم فينزل زاحفاً مثل حيوان يمشي على اربع وهو يخرج من حجره. تلك هي حياة [ارسطپوس]. اما [اراتوس] فلا يحيا بفضل القوة التي يمارسها ويديرها، وانما بقوة فضائله، وبسلطة القانون الذي منحه القيادة والأمر دون ان يخشى شيئاً، ينام ويصبح كغيره ويلبس ما يلبسه الآخرون مجرداً عن الابهة والفخفخة، وبقي ابداًعدواً لدوداً للطغاة، مدافعاً عن المصلحة العامة. تاركاً نسلاً شريفاً ابياً مازال يتمتع باحترام الاغريق حتى يومنا هذا. لاينكر ان بعض اولئك الذين سكنوا القلاع واتخذوا لأنفسهم حرساً واحتموا وراء المزاليج والابواب المحكمة واعتدوا بصنوف الاسلحة لحماية انفسهم، قد نجوا بارواحهم، لكنها نجاة شبيهة بنجاة الأرنب من قبضة الصيادين. افتلوا من الموت الا انهم عاشوا مشردين بلا اسرة او بيت يأويهم، وماتوا مجهولين لايعرف لهم قبر يزار وتذرف الدموع عليه.

نعود فنقول: قام [اراتوس] بعدة محاولات سرية وعلنية للقضاء على [ارسطپوس] اثناء عمله على تحرير [ارغوس] فكان نصيبها الفشل. ونذكر منها محاولته اقتحامها. فقد ركز السلالم وتسلق الاسوار بفئة قليلة من الجنود، وتمكن من قتل الخفراء الذين اعترضوا سبيله واحتل الاسوار كلها بعد الجهد الجهيد، الاّ ان نور النهار ادركه فحشد [ارسطپوس] كل قواته واطلقها عليه، وجلس الاهالي يرقبون القتال بهدوء تام كأنهم محكمون محايدون في مسابقة العاب وكأن القتال ليس في سبيل حريتهم بل حفلة العاب نيمية Nemea كان العرف قد منحهم امتياز توزيع الجوائز على الفائزين فيها. وقاتل [اراتوس] قتالاً شديداً واصيب فخذه بطعنة رمحٍ لكن ظل في مكانه صامداً يردّ هجمات العدو المتوالية حتى جنّ الليل فواصل القتال اثناءه حتى رجحت الكفة. ولم تعد تخالج الطاغية فكرة غير الهرب. وكان قد احتاط من قبل فحمل الى السفن القسم الاكبر من امواله. ولكن [اراتوس] كان يجهل الأمر. وكان يشعر بعطش قاتل، واعجزه جرحه عن مواصلة القتال، فلم يرد بداً من الانسحاب بجنوده من المدينة، ثم انه انقض على [ارغوليس] ونهبها.

وفي معركة أخرى ضارية مع [ارسطپوس] بالقرب من نهر [خاريس] اتّهم بانه انسحب من القتال وبذلك فاته النصر وكان على قاب قوسين منه لأن قسماً من جيشه استظهر تماماً على العدو وانطلق يجدّ وراء المنهزمين وابتعد مسافة كبيرة، الاّ ان [اراتوس] كفّ عن القتال وتراجع الى معسكره بدون انتظام من دون ان يُضايق او يلقى عنتاً من العدو المواجه له، وانما لخوف شديد انتابه ولعدم ثقة بالنجاح. وعاد الجناح المنتصر من جيشه بعد ان أعمل فتكاً في المنهزمين. واظهروا حنقاً واستياء وقالوا:

– اننا قتلنا من العدو اكثر بكثير مما قتل منّا. ومن حقنا ان نقيم نصباً تذكارياً لانتصارنا.

فامتلأ [اراتوس] خجلاً، واعتزم معاودة القتال في سبيل اقامة النصب. وفي اليوم التالي بكر في الخروج وصف جيشه للقتال الاّ انه تبين ان العدو قد عزز جيشه بوحدات جديدة وبدت معنوياته افضل من اليوم السابق. فلم يجرأ على القتال وانسحب وارسل يقترح هدنةً لدفن القتلى.

مع هذا كله فقد استطاع ازالة آثار هذه الغلطة الفادحة من الأذهان بدهائه السياسي، وحسن تصرفه مع الرجال والجنود. ثم انه ضمّ مدينة [كليوني Cleomae] الى الحلف الأخائي. وأحيا الالعاب (النيمية) فيها باعتبارها احقّ تاريخياً بهذا الشرف، واكثر ملاءمةً. واقام [الارگيف] الالعاب نفسها في مدينتهم في الوقت نفسه. وتسبب هذا في اوّل خرقٍ لمبدأ الأمان والحصانة المتعارف عليه. والمسلم به لكلّ قادم للمسابقات على الجوائز. اذ اخذ

الأخائيون يقبضون على القادمين الى [ارغوس] لمشاهدة الالعاب، ويبيعونه عبداً. الى هذا الحدّ كان [اراتوس] قد بلغ في عدائه للطغاة.

ادرك [اراتوس] بعد قليلٍ، ان [ارسطپوس] يبيت [لكليوني] شراً الاّ انه كان متردداً في تنفيذ محاولته خوفاً من وجوده في [كورنث] فتفتق ذهن [اراتوس] عن خطة بارعة، واعلن التعبئةَ رسمياً وجمع جيشه وامر الجنود ان يتزودوا بارزاق تكفيهم عدة ايام، ثم تظاهر بالزحف عن [كنخريي] تاركاً [كليوني] دون حماية ليحمل [ارسطپوس] على الاتجاه اليها متوهماً ان [اراتوس] قد ابتعد مسافةً لاتمكنه من العودة لانقاذها. وهذا ما وقع فعلاً فقد خرج [ارسطپوس] من [ارغوس] يقصد [كليوني]. الا ان [اراتوس] اتجه الى [كورنث] فوصلها غسقاً ووضع رباياً على طول الطرق المؤدية الى كليوني، ثم زحف بالآخائيين لمفاجأة [ارسطپوس] فساروا باحسن نظام وبسرعة شديدة ولم يفطن الطاغية الى الامر ولم يشعر بتقدمهم او حتى بوصولهم [كليوني] وانتظامهم بنسق المعركة. حتى اذا انجلى الصبح، فتحت ابواب المدينة ونفخ في الابواق وانقض [اراتوس] على العدوّ وهو في غفلة بصياح عظيم وبشدةٍ فالحق بهم هزيمة سريعة وراح يجدّ في اثرهم معقباً طريقاً كان يعتقد ان [ارسطپوس] سيفضل سلوكه وهو يمتاز بكثير من المنعطفات. ولكن المطاردة انتهت في [ميكيني Myce-nae] اذ وثب [تراغيسكوس Tragiscus] الكريتي على [ارسطپوس] فقتله، كما ذكر لنا [ديناياس Dinias] وقتل من الجنود ألفاً وخمسمائة ومع ان [اراتوس] حقق نصراً بهذا دون ان يخسر جندياً واحداً فانه لم يفلح في الاستيلاء على [ارغوس] ولم يمكنّها من حريتها لأن [اغياس Agias] و[ارسطوماخوس] الاصغر دخلا المدينة على رأس قوات الملك وقبضا على ناصية الحكم. على انه ابطل بنصره هذا مزاح وسخرية أولئك الذين دأبوا على الزلفى والتملق للطغاة بقولهم: ان الجنرال الأخائي يصاب عادةً باسهال عندما يترتب عليه خوض المعركة. وان نفير بوق الحرب يصيبه بدوارٍ وتهافتٍ. وانه بعد تنظيمه الصفوف واعطاء كلمة السرّ لبدء القتال، اعتاد ان يسأل اركانه وضباطه هل ان وجوده ضروري الآن بعد ان اصبحت المعركة محتومة؟ ثم يتركهم ويمضي فيجلس بعيداً وينتظر ما يسفر عنه القتال.

في الواقع كانت هذه الحكايات تجد لها صدى في النفوس بصورة عامة، ومال الفلاسفة ايضاً الى تصديقها حتى انهم عندما يأخذون بمناقشة احتمال حصول سرعة في دقات القلب، وتغيّر لون الوجه وانخفاض درجة حرارة الجسم عند الخطر بسبب الخوف أو اية علة عقلية، أخرى فانهم كانوا دائماً يضربون [باراتوس] مثلاً لذلك الجنرال المحنك البارع الذي تبدر عليه هذه الانعكاسات في وقت المعركة.

بعد ان تخلص [اراتوس] من [ارسطيوس] على هذه الشاكلة، شرع يفكر في كيفية التخلص من طاغية ميغالوپوليس المدعو [ليدياديس Lydiades]. كان هذا الرجل بطبعه طيّب الخلق، فيه نبل واستقامة لم يسلك هذا السبيل السيء في الحكم بالدوافع التي كانت لدى الطغاة الآخرين من جشع وتبذل وفجور وحب السيطرة وانما لأنه كان مشوقاً الى الشهرة والمجد، فانساقت عاطفته الفتية بمظاهر التكريم والاجلال الذي يؤدي له، وباستحسان افعاله والثناء على مظاهر استبداده. الاّ انه نبذ كلّ مظاهر السلطان بعد فترة قليلة من توليه الحكم المطلق وعزف عن الأبهة واعبائها. وآثر حياة الهدؤ والاستقرار، ودفعه خوفه من اراتوس، الى اختيار افضل السبيل. فأولاً تخلّص من عاملي الكره والخوف بالاستغناء عن الجنود والحرس. وثانياً بعث في طلب [اراتوس] وهناك تنازل عن الحكم لابناء قومه واعلن ضمّ مدينته الى الحلف الاخائي فاستحسن الاخائيون عمله النبيل وسارعوا بانتخابه جنرالاً لهم وهنا هزته الحمية فأعتزم ان ينجز من المآثر مما لم ينجزه [اراتوس] واقدم على خطوة لم تكن الضرورة تدعو اليها وأعلن الحرب على اللقيديميين الامر الذي لقي معارضةً شديدة من [اراتوس] حتى ظنّ انه يعارضه حسداً. واختير [ليديادس] جنرالاً مرة أخرى رغم انف [اراتوس] الذي كان يعارض في ذلك ويحاول اسناد المنصب الى آخر، لأنه كان ينتخب بين سنة وسنة كما اوردنا ذكره. ولكن [ليديادس] انتخب للمرة الثالثة اي صار يتداول المنصب مع [اراتوس]. ولما تمكن اعلن عداءه الصريح وكثرت اتهاماته له امام الاخائيين، ظلماً وتحاملاً، فما لبث هؤلاء ان ادركوا حقيقة أمره فلم يعيدوا انتخابه ونبذوه واحتقروه. وتبين الناس الفرق بين الحقيقي والمزيف من الفضائل؛ وتذكروا به قصّة [ايسوپ] عن الوقواق اذ سأل العصافير مَرّةً، لماذا تطير عنه وتتحاشاه دائماً. فأجابته: لأنها تخاف ان ينقلب يوماً ما صقراً. كذلك كان في طغيان [ليدياديس] شكّ في ان التغيير الذي طرأ عليه مؤقت.

ونال [اراتوس] مجداً مؤثلاً آخر في الحرب الايتولية. فقد قررّ الاخائيون الاغارة على الايتوليين من حدود [ميغارا]، وتقدم [اغيس] ملك اللقيديميين بجيشه لنصرتهم وتشجيعهم على الاستمرار في القتال. فاحجم [اراتوس] عن المعركة وتحمل بصبرٍ كثيراً من اللوم والسخرية وعُيرّ برخاوته وجبنه، ومع هذا كل لم يتزحزح عن قراره ولم يحمله على العدول عما وجده مصلحة عامة. فترك العدوّ يجتاز [غيرانيا Geranea] الى [الپيلوپونيسس] دون ان يتعرض له. وما ان وردت الانباء بأنهم انقضوا فجأة على [پيلليني Pellene] واخذوها حتى انقلب حال [اراتوس]، واصبح رجلاً آخر ولم يعد يطيق انتظاراً وتأخيراً في تعبئة كل قواته بل زحف على العدوّ بما كان لديه من العسكر وانقضّ عليهم وكان قد اختل نظامهم وتفشت

الفوضى في صفوفهم على اثر نجاحهم. اذ ما ان دخلوا المدينة حتى تفرقوا في احيائها ودخلوا المساكن وثار القتال والشجار فيما بينهم على الغنائم والأسلاب واخذ الضباط والقادة يجرون وراء النسوة والبنات ويضعن فوق رؤوسهن خوذهم الحربية. ليتبين كل واحد غنيمته فيما بعد ويمنع الآخرين من حيازتها. هكذا كانوا عندما بلغتهم الانباء بقرب انقضاض [اراتوس] عليهم. فسادهم الذعر وركبهم الهلع. وآضوا بمواجهة الخطر الماثل قبل السماع به وتلك هي عاقبة الفوضى. فاشتبكت طلائع منهم عند مداخل المدينة وضواحيها بالأخائيين فأنكسرت واندفعت لاتلوي الى الداخل لتبث الرعب في أولئك الذين كانوا يحاولون تنظيم صفوفهم لاسنادهم.

وقد اتفق في تلك الاثناء ان احدى الأسيرات وهي بنت وجيه من وجهاء المدينة يدعى [ايبغيتس Epigethes] تمتاز بالفتنة والجمال والقوام الفارع الأهيف؛ جاء بها قائد وحدةٍ من المقاتلين الى هيكل (ديانا) واجلسها هناك بعد ان ألبسها خوذته المريشة بوصفها غنيمته. لما سمعت الضجة نهضت واسرعت الى الخارج مستطلعةً ووقفت عند باب الهيكل تراقب سير القتال من الأعلى وعلى رأسها الخوذة المريشة، فبدت للناس مخلوقاً غير انسّي والقت المزيد من الرعب في قلوب الغزاة. فقد حسبوها الربّة متجليّةً فخانتهم الشجاعة واستسلموا. ويحدثنا البِلِلينيون بان تمثال ديانا لايمسّ عادةً ولاينقل من موضعه، وان قضت الضرورة الماسة بذلك فتقوم الكاهنة برفعه، وفي اثناء ذلك يغضّ الحضور بابصارهم ويديرون وجوههم الى ناحية أخرى. لأنهم يعتقدون ان النظر اليه شؤم، وجالب للنحس، وأنه يصيب الاشجار التي تعترض طريق مروره بالعقم فلا تعود تؤتي ثمراً. ويزعمون ان الكاهنة حملت هذا التمثال في ساعة المعركة تلك ورفعته امام وجوه الايتوليين الغزاة، فاطارت صوابهم واعمتهم. الاّ ان [اراتوس] لاينوه بشيء من هذا في تعليقاته. بل يقول انه هزم الايتوليين واختلط الحابل بالنابل في المدينة وجرى قتال الرجل للرجل حتى قتل سبعمائة منهم واجبر الباقون على ترك المدينة والفرار.

واشتهرت هذه المعركة وعدت من ابرز الوقائع وقام [تيمانتس Timanthus] برسم لوحة للمعركة ووفق في تصوير دقائقها وتفاصيلها فابدع واجاد.

وتألف اتحاد مناويء للحلف الأخائي يضمّ شعوباً وحكاماً كثيرين فاسرع [اراتوس] يفاوض [الايتوليين] المغلوبين ويعرض عليهم صداقته. وضمن مساعدة [پانتاليون Pantalion] ابرز شخص فيهم واعظمهم نفوذاً. ووفق الى الصلح ثم الى حلفٍ معهم غير انه اضرّ بسمعة الأخائيين وجلب لنفسه الخزي والعار بسبب رغبته في تحرير الآثينيين. فقد تجاهل الهدنة بينه

وبين المقدونيين وحاول الاستيلاء على [پيريوس]. غير انه ينكر ذلك في تعليقاته ويلوم [ارغينوس] مساعده في الاستيلاء على قلعة [كورنث]. فيقول انه هاجم [پيريوس] من تلقاء نفسه ودون امرٍ منه. فتقطعت حبال السلالم به وبرجاله ولوحق وتحرج مركزه، فاستجار باراتوس هاتفاً باسمه وكأنه موجود معهم فخدع اعدا « وبذلك كتبت له النجاة، لكن هذا العذر لايبدو معقولاً، او مقبولاً، فليس في وسع [ارغينوس] وهو انسان بسيط ومواطن سوري، ان يخطط من ذات نفسه لعملية عسكرية واسعة النطاق كهذه دون ان يكون [اراتوس] ورا « يهيء له الوسائل ويعيّن له الزمن. اضف الى هذا كله، ان محاولاته الاستيلاء على [پيريوس] لم تعد سِراً ولم تقتصر على اثنتين او ثلاث بل كثرت وكان منها اشبه بالمحب المعنيد يكرر محاولات الوصال ولا يثنيه عن عزمه تكرار الفشل. بل كانت الخيبة حافزاً على القيام بتجربة جديدة وبالمزيد من الاقدام يشجعه في ذلك اقترابه من النجاح اكثر فأكثر بعد كل محاولة ومرة اضطر الى الفرار بمن معه من سهول تسالي، فأصيب بخلع في ساقه واضطر الى معاناة عدة عمليات جراحية بالمبضع ليستقيم أمره. وظلّ مدة طويلة عاجزاً عن السير وكان يحمل في محفة اثناء الحرب.

ووافي [انتيغونس] الأجل فخلفه في ملكه ابنه [ديمتريوس] وهنا زاد شوق [اراتوس] الى تحرير أثينا، وكان أيضاً يستهين بالمقدونيين على العموم ولا يأبه بقوتهم. على انه لاقى هزيمة بالقرب من [فيلاكيا Phylacia] على يد [بيش] أحد قواد [ديمتريوس] وعلى اثر الهزيمة انتشرت اشاعة قوية عن قتله او اسره. فأرسل [ديوغينس] حاكم [پيريوس] رسائل الى [كورنث] يأمر بها الآخائيين هناك باخلاء المدينة لأن «اراتوس قد قضى نحبه». وتشاء الصدف ان يكون [اراتوس] فيها عندما وصلت تلك الرسائل. فأعيد الرسل الى سيدهم بعد ان أُشبعوا هزؤاً وسخرية. والانكى من هذا كله ان [ديمتريوس] ارسل سفينه خاصّة لنقل [اراتوس] اليه مكبلاً بالاغلال! وخرق الآثينيون المتزلفون كل الحدود المعقولة عندما ورد نبأ موته وضفروا الاكاليل على رؤوسهم ابتهاجاً وتيمناً. وحمل [اراتوس] وهو في سورة من الغضب على [آتيكا] وتوغل فيها حتى بلغ [الاكاديمي] نفسها ولكنه توقف وهدأت نفسه ولم يقدم على عملٍ عدواني آخر. على ان الاثينيين ادركوا فيما بعد قيمة فضائله عندما حاولوا بعد موت [ديمتريوس] استعادة حريتهم واستنجدوا به. ولم تكن السنة سنة قيادته وكان طريح الفراش يشكو العلّة. فلم يخيب ظن المدينة به في وقت الضيق وامر بان يحمل في محفة وهو مريض ونجح في اقناع الحاكم [ديوغينيس] بتسليمه للآثينيين كلاً من [پيريوس ومونيخيا وسلاميس وسونيوم Sunium] لقاء مائة وخمسين تالنتاً تدفع له. وتبرع [اراتوس]

بعشرين منها. وعلى اثر ذلك انضمّ [الايجينون Aegintans والهرميونيون Hermionians] الى الأخائيين. ودخل القسم الأكبر من اركاديا في الحلف الأخائي. وتعاظمت قوة هذا الحلف مساعدة الايتوليين وبانشغال المقدونيين في حروبهم الداخلية، وفي قتالهم مع جيرانهم، حتى بلغت اوجها الاّ ان [اراتوس] لم يتخلّ عن فكرته الأولى وهي القضاء على الطغاة. وعيل صبره من بقاء الاستبداد يخيم على مدينة [ارغوس] القريبة. فأرسل يطلب الى [ارسطوماخوس] ظاغيتها باعادة الحرية اليها وضمها الى الحلف الأخائي مقتدياً [بليدياديس] وقال له ناصحاً:

- خير لك ان تختار لنفسك منصب جنرال الشعب عظيم، بكل ما يخلعه عليك من شرفٍ ومكانة، على ان تكون طاغية مستبد في مدينة واحدة، بكلّ ما يتضمن ذلك من بغضٍ واخطار.

فوقعت الرسالة، في نفسه موقعاً ايجابياً وطلب من [اراتوس] ان يبعث اليه بخمسين تالنتاً ليفي ما بذمته من اجر للجنود.

فشرع في جمعها. الاّ ان [ليدياديس] الذي كان جنرالاً للحلف في تلك السنة، اراد ان يعزى الفضل في هذا له مدفوعاً بشد طموحه. فأخذ يغتاب [اراتوس] ويشكك [ارسطوماخوس] فيه قائلاً انه عدوّ لدود للطغاة لايلين جانبه، واقنعه بان يوكل اليه أمر الاتفاق مع الأخائيين عنه ويترك وساطة [اراتوس]. الاّ ان الآخائيين اتوا بالبرهان الدافع على مبلغ حبهم لاراتوس ومكانته العظيمة عندهم وثقتهم به، عندما اندفع بسورة من غضبه يعارض في اقتراح ضمّ [ارسطوماخوس] الى الحلف فأسرعوا كلهم الى رفض الطلب، ولما هدأ واسترضي وحبذ الطلب صوتوا حالاً بقبول بارغوسيين والفلياسيين Phliosions في الاتحاد الآخائي. وانتخبوا [ارسطوماخوس] جنرالاً للمسنة التالية.

وبات [ارسطوماخوس] يتمتع بكثير من الثقة والتقدير لدى الآخائيين وهذا ما شجعهُ على فكرة غزو [الاقونيا] فأرسل يستقدم [اراتوس] من اثينا لهذا الغرض، فكتب اليه [اراتوس] محاولاً جهده ان يحمله على نبذ الفكرة فقد كان يخشى كثيراً دخول الآخائيين في نزاع مع [كليومينس] الذي كان شجاعاً سريع الصعود في مراقي السلطان والبأس. الاّ ان [ارسطوماخوس] قررّ المضيّ قدماً في حملته، فلم يسع [اراتوس] الاّ الرضوخ والمشاركة فيها. وكان هذا سبباً في ان يحول بين [ارسطوماخوس] وبين خوضة معركة مع [كليومينس] عندما واجههما هذا في [فالانسيوم Phallantium]. فاستهدف الى اتهام ليدياديس ونشبت بينهما معركة انتخابية فاز فيها [اراتوس] بمنصب الجنرال برفع الأيدي للمرة الثانية عشرة.

في هذه السنة عانى [اراتوس] هزيمة [ليقيوم] على يد [كليومينس] فهرب وهام على وجهه ليلاً وظن انه قتل وانتشر هذا النبأ للمرة الثانية في طول اليونان وعرضها. واكده الناس، الاّ انه اعاد تنظيم قواته، ولم يخلد الى الهدوء ولكنه استخدم اشاعة موته بخير ما يمكن فقد انقضّ بدون سابق انذار على [المانتينيين] حلفاء [كليومينس] واحتل مدينتهم ووضع فيها حامية، ومنح حقوق المواطنة للاجانب فيها فأمن فوائد جمة للأخائيين المقهورين بصعب حصولهم عليها فيما لو كانوا هم المنتصرون. واغار اللقيديميون ثانية على اراضي [ميغالوپوليس] فتقدم اراتوس لنجدة المدينة. الاّ انه لم يتح [لكليومينس] فرصة جرّه الى القتال واستفزازه. كذلك لم يفلح [الميغالوپوليون] في جرّه الى المعركة مع الحاحهم الشديد عليه. لم يكن [اراتوس] مستعداً كلّ الاستعداد لخوض معركة فاصلة، فقواته اقل عدداً من قوات خصمه، كما انه كان يواجه خصماً جريئاً بشخص القائد الشاب. في حين كان هو قد تخطى حدود الاقدام وبلغ الطموح الذي يستوجب كبحه وعدم التفريط بالمجد الذي فاز به بالتزام حدود التأني والتبصرّ في حين كان [كليومينس] خصمه يريد الوصول اليه بالمزيد من الاقدام والاندفاع.

قامت المشاة الخفيفة بهجوم من المدينة فأجبروا [اللقيديميين] على التقهقر حتى معسكرهم. الاّ ان [اراتوس] لم يتقدم برجاله وانما ربض في مجرى ماءٍ جافٍ يعترض الطريق الى المعسكر. ومنع الجنود من العبور. فأشتد غيظ [ليدياديس] لما يحدث. وانهال على [اراتوس] لوماً وتقريعاً، وناشد الخيالة الانضمام الى المطاردين في المطارده لئلا يفلت النصر المحقق من ايديهم. وقال انه مقدم على المخاطرة بحياته في سبيل بلاده وان عليهم ان لايتخلوا عنه وعزز قواته بكثير من الكُماة الذين لبوا نداءه ثم كرّ على ميمنة العدو وهزمها وراح يطاردها مطاردة عنيفة ملقياً بجانب الحذر تاركاً حماسته واملِه بالمجد تعزيه بالتقدم في ارض وعرة تغطيها النباتات واشجار الفاكهة وتعترضها سواق عريضة. وهنا اصطدم بقوات [كليومينس] فخرّ صريعاً وهو يقاتل قتال المغاوير في اشرف معركة عند عتبة بلاده. وفزعت البقية الى الجزء الاكبر من الجيش فأوقعت الاضطراب والخلل في صفوف المشاة الثقيلة وادت الى هزيمة الجيش كله.

وُجه اشد الاتهام الى [اراتوس] اذ شكّ في انه غدر [بليدياديس]. وارغمه الأخائيون المنسحبون على مرافقتهم الى ايغيوم وهو ساخطون عليه اشدّ السخط. وهناك عقدوا مجلس حرب وقرروا فيه ان لايمدوا [اراتوس] بعد الآن بمالٍ وان لايؤجر له جنوده، وفرضوا عليه ان يدفع من جيبه اجور جنوده ان رغب ان يشنّ حرباً.

هذه الاهانة اصابته بألم شديد حتى فكر في اعادة اختتام المنصب والاستقالة من القيادة العامة. الاّ انه عاد فعدل عن رأيه ووجد الصبر أخلق به. وزحف في الحال مع الأخائيين الى [ارخومينس] واشتبك بمعركة ضد [ميغوستونس Megistonus] زوج أم [كليومينس] وانتصر عليه وقتل ثلاثمائة محارب ووقع [مغيستونس] في الأسر.

انتهت قيادة سلفه وقد جرت العادة ان يتسلم هو القيادة للسنة التالية، ولكنه رفض قبولها عندما دعي لتسلمها. فأنتخب [تيموكزينس Timoxenus] في محلّه. ولم يكن سبب رفضه حنقه على الأهلين كما زعموا، بل للظروف السيئة التي تمرّ بها احوال الأخائيين. [فكليومينس] فأعاد الآن يغزوهم غزوات بسيطة خفيفة الأثر كما كان يفعل قبلاً بوصفه قائداً مقيداً بأوامر سلطة مدينته. بل صار يغير عليهم بوصفه صاحب الأمر والنهي غير المسؤول امام احدٍ بعد ان فتك بالايفور، ووزع الأراضي، ومنح خلقاً كثيراً من الاجانب المقيمين حقوق المواطنة اللقيديمية، وبهذا دخلت خصومته مع الأخائيين صفحة جديدة خطرة، بدأها بالمطالبة لنفسه بالقيادة العليا.

لامناص لنا هنا من توجيه اشدّ اللوم الى [اراتوس] فقد بدا كالربان الهيّاب المتردد في وقت هبوب العاصفة وهياج البحر لقد تخلى عن الدفّة في حين كان واجبه يقضي عليه بالتشبث بها شاء الركاب الخلاص ام أبوا. أمّا اذا كان يعتقد بان حالة الآخائيين لايرجى لها امل، فكان يجب عليه ان يسلّم الأمر الى [كليومينس] ولايدع [البيلوبونيسس] تقع مرة أخرى في يد الحاميات المقدونية الهمجية، وان يحتلّ قلعة كورنث الجنود اللاليريون والغاليون. زد على هذا ان أولئك الذين جعل همه التغلب عليهم وسحقهم بالقوة او بالسياسة واغرقهم بالاهانات والانتقادات في تعليقاته عاد ينصبهم حكاماً على المدن تحت راية العنوان الفخم «الحلف الأخائي». في حين ابى ذلك على [كليومينس] الذي كان طاغية مستبداً في الواقع الاّ انه منحدر من النسل الهيراقليدي العريق، وسپارطه موطنه حيث يحق لكل مواطن مهما خمل ذكره ان يتولى القيادة قبل ان يتولاها افضل المقدونيين، ان كان ثم من يقيم وزناً لشرف المحتد اليوناني. ثم ان [كليومينس] طالب بقيادة الآخائيين معتزماً ان يعطي شرف اللقب حقّه بردّ فضل حقيقي للمدن الاغريقية. في حين رفض [انتيغونس] قبول منصب الجنرال بصلاحيات مطلقة في البرّ والبحر، إلاّ اذا تمت الموافقة على اطلاق يده في قلعة كورنث. مثله في ذلك مثل صيّاد [ايسوب]. انه لم يشأ ان يعتلي ظهور الأخائيين الذين انحنوا له وقدموا اقفيتهم للضرب بارسالهم السفراء اليه واصدار المراسيم الشعبية، فقد ابى الاّ ان يسرجهم ويشكمهم باخذ رهائن منهم ووضع حاميات في مدنهم!

استنفد [اراتوس] كل طاقاته في الكلام ليوضح الضرورة التي ألجأته الى ذلك. الاّ ان [پوليبيوس Polybius] يقول ان [اراتوس] كان قد اتصل سراً [بانتيغونس] قبل ان تلوح هذه الضرورة بوقت طويل، اذ كان يوجس خيفة من [كليومينس] ويخشى اندفاعه. وكان قد نجح كذلك في اقناع اهالي [ميغالوپولس] بالضغط على الأخائيين لالتماس العون من [انتيغونس] لأنهم أكثر تعرضاً لويلات الحرب من سواهم. وكان [كليومينس] لاينفك ينهب لادهم ويعيث فيها سلباً.

ويكتب [فيلارخوس Phylarchus] الشيء نفسه (وهو ليس بثقة لولا تأييد [پوليبيوس] لروايته - لأن الحماسة كانت تغلب عليه كلما اتى الى ذكر [كليومينس] بكلمة، حتى لكأنه يترافع عنه في محكمة وليس يكتب تاريخاً فيسهب في الدفاع عن هذا، ويسرف في قدح [اراتوس].

واستعاد [كليومينس] كانتينيا من يد الأخائيين، واصاب [اراتوس] بهزيمة نكراء، بعد قتال شديد بالقرب من [هيكاتوبيوم] فعم السخط عليه حتى ان الآخائيين ارسلوا الى [كلومنيس] في الحال، يطلبون منه المجيء الى [ارغوس] لتسلّم قيادة الحلف العليا. وسمع [اراتوس] بقدومه وكان يخشى العاقبة فأرسل اليه يشير بأن لا يأتي ومعه اكثر من ثلاثمائة رجل كما يفعل الاصدقاء والحلفاء. وان شكّ في أمرٍ يبيت له فهو مستعد لوضع رهائن بين يديه. الاّ ان [كليومينس] عد هذا السلوك اهانةً وقفل راجعاً وارسل الى الآخائيين رسالة حفلت بالعتاب والاتهام [لاراتوس] وكتب [اراتوس] من جهته رسائل ضدّ [كليومينس] تضمنت اقبح الشتائم واقذع الاوصاف ولم تنج زوجتا المتقادحين ولازواجهما من تلك الاهانات المتبادلة. وعلى اثر ذلك ارسل [كليومينس] منادياً للآخائيين، باعلان الحرب. ولما فشل في الاستيلاء على [سيكيون] بسبب الخيانة وكان اقرب اليها من حبل الوريد - انسحب الى مسافة قصيرة وانقضّ على [پلليني] واستولى عليها عنوةً. وعجلّ بالاستيلاء على [پنتاليوم Pentollum] و[فينيوس Phenêus] واسرع الارغوسيون للانضمام اليه بملء رغبتهم ورضي [الفلياسيون] بحاميته في مدينتهم. وبمختصر القول لن يبق للآخائيين حليف من كلّ المنضمين اليهم مؤخراً واحدقت الفوضى والضجة باراتوس من كل جهة ورأى سائر الپيلوپونيسس يهزّ قبضة متوعداً، والمدن ثائرة عليه بتحريض المحرضين الذين بدأت اصواتهم ترتفع بالثورة. في الواقع لم يبق ارض لم تطأها الثورة. ولم يعد موضع واحدٌ فيه استقرار او رضا بالوضع الراهن. حتى ان السيكيونيين والكورنثيين اتصلوا سراً [بكليومينس]، بعد ان ضاقوا ذرعاً بالوضع السائد وحنواً الى الانفصال عن الحلف والاستقلال بأمورهم. وكان [اراتوس] يملك سلطة مطلقة في

فرض العقوبات الرادعة فنفذ احكام الموت بمن وقع بيده من السيكيونيين، وذهب الى [كورنث] وفرض ما ارتآه من العقوبات. فثارت الخواطر وتغيرت مشاعرهم على الآخائيين وملوا حكمهم. وأجتمعت جموعهم الزاخرة في هيكل [ابوللو] وارسلوا بطلب [اراتوس] وقد قرروا فيما بينهم ان يقبضوا عليه او يقتلوه قبل اعلان الثورة. فجاء يقود زمام حصانه وكأنه خالي البال لايشك في أمر. فنهض عدد منهم وانهالوا عليه لوماً وصبوا عليه الاتهامات صباً؛ فلم يبد عليه اي تأثر من الصراخ والزعيق في وجهه وقوفاً وان يجلسوا واشار الى الواقفين بالباب ان يدخلوا. وبعد ان سار الهدوء سار بكل ثبات الى الباب وخرج كأنه يريد ان يسلّم زمام حصانه لاحد الواقفين وبعد ان ابتعد عن الجمع بمسافة متحدثاً الى الكورنثيين الذين يلقاهم بشكل اعتيادي ومن غير اكتراث ويطلب فيهم التوجه الى هيكل [ابوللو] حتى بلغ القلعة دون ان يفطنوا الى قصده وهنا اعتلى صهوة حصانه واوصى [كليوباطر Cleopater] آمر الحامية باليقظة والحذر والحرص على الواجب، ثم اطلق العنان له متجهاً الى سيكيون ومعه ثلاثون جندياً لا غير. تاركاً الباقين يتدبر كل منهم أمره. وبعد قليل ذاع خبر فراره، فأسرع الكورنثيون يجدون في اثره ولكنهم عجزوا عن اللحاق به. فبادروا الى استدعاء [كليومينس] ودفعوا اليه بمدينتهم. وقال [كليومينس] لهم ان أعظم غنيمة كان بامكانهم الفوز بها، هي [اراتوس] الذي تركوه ينجو بجلده وتقاطر اهالي (اكتي)[1] لموآزية ووضعوا مدنهم تحت تصرفه، فباشر ببناء الأطم وخطوط من المتاريس حول قلعة كورنث.

على ان [اراتوس] يلغ [سيكيون] بسلام فاجتمع حوله الآخائيون كافةً وصوتوا على انتخابه جنرالاً مطلق الصلاحية. فبادر الى حماية نفسه بحرس شخصيّ من مواطنيه.

ها قد مرّ على [اراتوس] ثلاثة وثلاثون عاماً وهو يعمل في الحياة العامة مع الآخائيين زعيماً اوحد لاينازعه احد في سلطانه، ولا في الثقة التي وضعت فيه. تراه الآن وحيداً منبوذاً من الجميع، لاحول له ولا طول، تتقاذفه الأهواء وتحدق به الأخطار في سفينة بلاده النخرة المتكسرة. رفض الايتوليون معاونته في وقت الضيق عندما اتجه اليهم والآثينيون الذين احبّوه واحترموه حيل بينهم وبين مساعدته بتدخل [يوقليدس وميكيون Micion] اللذين امتنعا عن تعزيز قواته. الاّ ان [كليومينس] ابى مصادرة ما كان يملكه من عقار وملك في كورنث. ولم يدع احداً يمد يده اليه بل استقدم اصدقاءه ووكلاءه وطلب منهم ان يأخذوا على أنفسهم مسؤولية الاشراف على امواله وان يقدموا له حساباً عنها. وارسل اليه في السرّ زوج امّه [فيغوستونس] و[تريبيلوس Tripylus] فعرضا عليه الكثير، ومنه مكافأة تقاعدية سنوية

(١) Acte: هو الاسم القديم لاتيكا. وتعني بالاغريقية «ارض الساحل».

قدرها اثنا عشر تالنتاً اي ضعف ما عرض عليه [پطليموس] لقاء سعيه له بانتخابه قائداً للأخائيين وان يشارك في السيطرة على قلعة كورنث. فكان جواب [اراتوس] ان الظروف ليست خاضعة لسلطانه، وانما هو الذي يخضع لسلطانها. وعدّ [كليومينس] هذا الردّ مراوغة وتهرباً فغزا اراضي [سيكيون] ودمرّها تدميراً بالسيف والنار، ثم القى الحصار على المدينة طوال ثلاثة أشهر، صمد لها [اراتوس] بعزم لايلين، ونفسه تنازعه في دعوة [انتيغونس] لنجدته لقاء تنازله له عن قلعة كورنث، فهو الشرط الوحيد الذي يقبله هذا الملك.

واجتمع الأخائيون في [ايغيوم] وطلبوا حضور [اراتوس] وكان وصوله محفوفاً بأعظم الخطر، فقد ضرب [كليومينس] معسكره امام [سيكيون] تماماً ولابد من اختراقه لبلوغ المدينة والحّ عليه السيكيونيون ان يبقى حيث هو قائلين انهم لن يسمحوا له بتعريض نفسه للخطر الاكيد والعدو متربص بع على الأبواب والمداخل والتفت النسوة والاطفال حوله يتباكون ويتشبثون به كأبٍ ونصير، فطمأنهم وشجعهم على قدر ما امكنه واعتلى ظهر جواده مع عشرة من اصدقائه وابنه الذي كان وقتذاك فتىً يافعاً. اتجه الى الساحل فوجد سفناً راسيةً على مبعدة من اليابسة فصعد اليها وابحر متجهاً نحو [ايغيوم] لحضور الاجتماع. وتقرر هناك طلب معونة [انتيغونس] وتسليم قلعة كورنث له مقابل ذلك وارسل [اراتوس] ابنه وآخرين ليكونوا رهائن لدى الملك المقدوني. فثارت ثائرة الكورنثيين عليه حتى انهم نهبوا ممتلكاته وصادروا عقاره، وقدموا منزله هديةً لـ[كليومينس].

وكملت استعدادات جيش [انتيغونس] وبات متأهباً للقتال وكانت عدته عشرين الفاً من الرجاله والفاً وثلاثمائة فارس مقدوني. فخرج [اراتوس] واعضاء المجلس الى عرض البحر لاستقباله، فبلغ پيگي Pegæ دون ان يعلم به العدوّ. ولم يكن كبير الثقة بانتيغونس والمقدونيين وكان يدرك ان مجد هذا الملك قد بني على حساب الخسائر التي اوقعها بهم، كما لم يكن ناسياً ان شهرته السياسية الأولى بنيت على خصومته السابقة لانتيغونس. ولكن للظروف احكاماً، والحاجة القصوى، وتصلّب رأس وسيد كل من نسميهم حكاماً جعله يغامر بكل شيء.

لما انبيء [انتيغونس] بقدوم [اراتوس] وصحبه، خرج لاستقبالهم ونحيتهم بصورة اعتيادية، الا انه خصّ [اراتوس] بالتكريم من البداية، فقد وجده راجح العقل اهلاً للثقة. فقرّبه واجعله من جملة اخصّ عشرائه. وقد جمع [اراتوس] الى اصالة الرأي وجيد المشورة في المسائل العامة، طيب المعاشرة وحسن المجلس في اللقاءات الخاصة ومناسبات الأنس واللهو. وما ادرك الفتى انتيغونس هذه الخصال فيه وموافقها لمشاريه الملكية حتى القى اليه بثقله

واعتمده في أمور المقدونيين فضلاً عن امور الاخائيين وبهذا تحققت نبوءة الآله فيه بما كشف له في احدى قرابينه في الماضي. فقد روي انه كان قد ضحىً من زمن بعيد فوجدوا في كبد الأضحية كيسين من الصفراء يغلفهما غشاء دهني واحد ففسر هذه الظاهرة كاهنٌ بقوله ان صداقة متينة العرى ستشتد ما بينه وبين الد اعدائه عما قريب، فأستخف بالتفسير ولم يأبه به لأنه كان قليل الأيمان بكلام المشعبذين والعرافين كبير الاعتماد على منطقه وتحليله العقلي للأمور.

بعد ان حالفهما التوفيق في الحروب التي خاضاها، واصبحت الأمور على ما يرام أقام [انتيغونس] مزدبة عظيمة في [كورنث] دعا اليها عدداً كبيراً من الضيوف ووضع مجلس [اراتوس] الى جانبه مباشرة ثم انه شعر بقشعريرة فطلب غطاءً وسأله الايشعر هو أيضاً بالبرد فقال [اراتوس]:

- أجل فالدنيا باردة جداً.

فأشار عليه [انتيغونس] بان يقرب منه مقعده ولما اقبل الخدم بالغطاء القوه عليهما معاً، وعندها تذكر [اراتوس] الاضحية وقول العراف فأنشأ يضحك واخبر الملك بالقصّة. على ان هذا حدث بعد مرور زمن طويل مما نحن فيه. وهكذا تبادل الملك و[اراتوس] عهد الاخلاص في [پيغي] وزحفا على العدوّ واشتبكا معه في عدة وقعات عند مشارف المدينة. وكانت مواقع [كليومينس] منيعة والكورنثيون يدافعون عن مدينتهم دفاعاً مجيداً وفعلاً. وفي ذلك الوقت ارسل اليه صديقه ارسطوطيليس Aristoteles] الأرغوسي يخبره سراً بانه سيحمل ابناء مدينته الارغوسيين على الثورة ان قدم اليها شخصياً مع وجدة عسكرية، فأطلع انتيغونس على ذلك واخذ معه الفاً وخمسمائة رجل وابحر في زوارق سارت به على محاذاة الساحل في الوغاز حتى [اپيداورس Epidaurus] الاّ ان الأرغوس لم يصبروا حتى وصوله وهبّوا ثائرين بصورة مفاجئة وانقضوا على جنود [كليومينس] فلاذ هؤلاء بالقلعة. وعلم [كليومينس] بما حصل وخشي ان يقطع عليه خطّ الرجعة باستيلاء خصمه على [ارغوس] فترك قلعة [كورنث] واسرع ليلاً لنجدة رجاله هناك. وسبق [اراتوس] في الوصول وقضى على الفتنة. ووصل اراتوس برجاله، ثم ما لبث ان زحف [انتيغونس] بجيشه، فأنسحب [كليومينس] الى [مانتينيا]. وهنا عادت كل المدن الى حظيرة الحلف الأخائي واحتل [انتيغونس] قلعة كورنث، وانتخب اهل ارغوس [اراتوس] جنرالاً، وحملهم على ان يقدموا كل يملكه الطغاة والخونة هدية لانتغونس.

وأمّا عن [ارسطوماخوس] الطاغية، فقدّ شدّ على المخلعة وعذبّ، ثم اغرق في البحر قرب

مدينة [كنجزيي]. وكان هذا العمل البربري سبباً في توجيه اشدّ الانتقاد [لاراتوس] لأنه وافق على قتل انسان بدون وجه حق، قتل رجلاً خلافاً لاحكام القانون - كان صديقاً حميماً له. ولم يعرف عنه الاّ الطيب وكرم الأخلاق. نزل بمساعي [اراتوس] نفسها عن سلطاته الاستبدادية بملء اختياره عليه. فقالوا انه تنازل عن كورنث [لانتيغونس] بأسهل مما تتنازل عن قرية مقدونية في [اورخومنيس] بعد ان حاصروها هم وفتحوها. واتهموه بانه حملهم على اصدار قرار يحرمّ عليهم الاتصال باي ملك او مكاتبته الاّ بموافقة انتيغونس. وانه ارغمهم على تقديم مواد الاعاشة للجنود المقدونيين وصرف اجورهم. وانه اضطرهم الي اقامة القرابين وتنظيم المواكب والألعاب تكريماً لانتيغونس وان مواطنيه سبقوا الى استقبال هذا الملك ودعوه الى النزول ضيفاً في منزل [اراتوس] فاختطوا سنةً كريهة وارغموهم على تكرارها. كل هذه عدت اخطاءً ارتكبها [اراتوس] شخصيّاً؛ وكأنهم غفلوا عن الحقيقة المعروفة وهي انه من العسير كبح جماح سلطة الملك. فما ان وضعت الأعنة في يد [انتيغونس] حتى انطلق بقوة ذلك السلطان الملكي دون توقف. واصبح السيّد المطلق على الحرية التي لاتعود قطّ مأمونة العواقب عند استعماله لها.

في الواقع كان ثم الكثير مما يقلق بال [اراتوس]. كما ظهر من مسألة التماثيل. فقد اعاد [انتيغونس] اقامة تماثيل طغاة [ارغوس] وازال تماثيل كل فاتحي قلعة كورنث إلاّ تمثال [اراتوس]. ولم يستطع هذا ان يقنعه بخلافه رغم محاولته. ومما آلمه ايضاً معاملة الآخائيين للمانيتينين بعد استيلائه على مدينتهم بمساعدة [انتغونس] فقد اعملوا السيف في رقاب ابرز المواطنين وارفعهم مقاماً. واما الباقون فبعضهم بيع في سوق النخاسة، وبعضهم كبل بالاغلال وارسل الى مقدونيا ليكون رقيقاً واماء لزوجات المقدونيين واولادهم وجمعوا كل الأموال من المدينة المفتوحة فوزعوا ثلثها فيما بينهم ودفعوا بالثلثين الباقين الى المقدونيين ليتوزعوها فيما بينهم ايضاً. قد يمكن تبرير هذا العمل بمبدء المقابلة بالمثل؛ ولكن اليس من الهمجية ان يقوم اخوان مواطنون من شعب واحدٍ ودم واحدٍ بهذه الأعمال فيما بينهم وهم في فورة من الهياج والجنون؟ ان الضرورة على حد قول [سيمونيوس] تجعل هذا العمل مستطاباً ومغتفراً، اذ لا جناح في ان تتاح للعواطف الحانقة المكروب متنفس لشفاء غليلها. الاّ ان الدفاع عن سمعة [اراتوس] في الموقف التالي غير ممكن باي وجهٍ من الوجوه. لا من ناحية منطقية ولا بحكم الضرورة، فقد وهب [انتيغونس] المدينة للارغوسيين بعدما اقدم على تلك الأفعال، فقرر [اراتوس] بعد انتخابه مؤسساً جديداً لها ان يعيد تأهيلها فأصدر بحكم منصبه العسكري مرسوماً يقضي بابطال أطلاق الاسم القديم عليها، وسمّاها [انتيغونيا] وهو ما

يطلق عليها الآن. ولذلك يمكن القول بأنه كان السبب في طمس معالم الذكرى الغابرة لمانتينيا الجميلة وحملها الى يومنا هذا اسم مدمّرها وجزّار اهاليها.

تحققت هزيمة [كليومينس] التامة في معركة طاحنة بالقرب من [سيلأسيا Sellasia] فترك سپارطة وهرب الى مصر. وبعد ان اظهر [انتيغونس] لاراتوس كل آيات الودّ والصداقة، بادر الى الانسحاب بجيشه الى [مقدونيا] وهناك اقعده المرض الشديد، فأرسل ابنه [فيليب] الى الپيلوپونيس وهو فتىً لم يطرّ شاربه واوصاه بان يعتمد كل الاعتماد على مشورة [اراتوس] وان لايتعامل مع المدن الاّ عن طريقه ولايتصل بالآخائيين الاّ بوساطته فأستقبله [اراتوس] ومحضه النصيحة واحسن توجيهه وقام على تهذيبه واعاده الى [مقدونيا] وهو يحمل له قدراً كبيراً من الحب والاحترام. وقلبه مفعم بالرغبة والطموح الى القيام بدورٍ نبيل في بلاد الاغريق.

لمّا قضى [انتيغونس] نحبه، حاول الايتوليون التدخل في شؤون [الپيلوپونيس] مستهينين بالأخائيين. لما رأوهم عليه من قلة الحيلة والاعتياد على الاعتماد على غيرهم للدفاع عنهم والاحتماء بقوة المقدونيين، واستسلامهم الى حياة الكسل والراحة. فاغاروا على اراضي [پاتري Patrae] و[ديمه Dyme] ونهبوها اثناء زحفهم، وغزت جحافلهم مسينه واعملت فيها تخريباً. فبلغ الغضب [باراتوس] اقصاه، ووجد [تيموكزينس] جنرال تلك السنة متردداً يضيع الوقت سدى. لأن مدته كانت توشك على الانتهاء وكان هو سيخلفه، فما كان منه الاّ واستبق الأجل المقرر بخمسة ايام، ليتمكن من نجدة المسينيين فحبذ الأخائيين الذين كانوا يكرهون الحرب ولايعرفون كيف يستخدمون السلاح فلحقت به الهزيمة في [كافيي Ca-phyae]. لقد باشر الحرب باندفاع وحماسة فأنتهى بنقيضهما اذ فترت حرارته وادركه الجزع وضيع كثيراً من الفرص المؤآتية التي كانت ستمكنه من خصومه. وتركهم يسرحون ويمرحون في [الپيلوپونيس] ويشيعون الفوضى فيها من اقصاها الى ادناها ويرتكبون كل انواع المحرمات والجرائم. وهكذا اسقط في يد [اراتوس] واضطر الى الاستنجاد بالمقدونيين ثانية، وبهذا دعي [فيليب] وجرّ جراً للتدخل في شؤون اليونان وكان الأمل فيه ان يظهر لطفاً وليناً واستعداداً للعمل وفقما يريدون بسبب حبه وثقته باراتوس.

لكن الملك كان واقعاً آنذاك تحت تأثير [ابلليس Apelles وميغالياس Megaleas] وغيرهما من رجال البلاط الذي اوغروا صدره على [اراتوس] وقضوا على مكانته لديه. فانحاز [فيليب] الى الحزب المناوئ له في آخائيا، وساند مرشحه [اپيراتوس Epiratus] لمنصب الجنرال، فكان بذلك موضع سخرية الآخائيين واحتقارهم، اضف الى هذا ان الأمور لم

تسر معه سيراً طيباً لافتقاره الى معونة [اراتوس]، وسرعان ما ادرك خطأه فصالح [اراتوس] واعتمد عليه اعتماداً مطلقاً، فاستقامت له الأمور، وحسنت احواله وعادت مكانته وسلطته الى سابق عهدها. وبذلك اثبت [اراتوس] انه خير قيم على الحكم الملكي كما كان خير قيم على الحكم الديمقراطي. فقد أخذت أعمال الملك وتصرفاته تنحو منحى عقلية [اراتوس] وطباعه، وتظهر طابعها الأصيل. مثال ذلك معاملته الرقيقة للقيديمين، بعد ان اثاروا سخطه وغضبه بتصرفاتهم. والعطف الذي ابداه لأهالي كريت (مما ادى الى خضوع الجزيرة كلها لحكمه في ايام قلائل). وحملته على الايتوليين والنصر الساحق الذي حققه. كل هذا رفع من مكانته وصيته، بفضل مشورة [اراتوس]. وهو مازاد من حسد اتباع الملك له. وقد وجدوا من المعتذر ان يتغلبوا عليه بحبك الدسائس من خلف الستار. فراحوا يوجهون اليه الإهانات، ويسيئون اليه علناً في مجالس شربهم ومآدبهم، بكل فظاظة وصفاقة. حتى انهم قذفوه مرة بالحجارة عندما خرج بعد العشاء قاصداً خيمته، فاستاء [فيليب] من هذا العمل وفرض على الفاعلين غرامة قدرها عشرون تالنتاً. فلم يكفوا وظلوا يثيرون الفتن ويعرقلون الأمور. فبطش بهم.

الأ ان انتصاراته ودوام نجاحه وازدهار احواله أخذ يصيبه بالعجرفة والغرور، فبطر وبدأت الرغبات الجامحة تتفجر في رأسه وتخرج اشطاءها. واندفعت ميوله السيئة فكسرت كل الضوابط المصطنعة التي كانت تقيّدها وتحبسها. وما مرَّ عليه زمن حتى تبدت طباعه الحقيقة ووضح خلقه الأصيل. وكان اولّ فعلة هو استغلال وجوده ضيفاً في بيت [اراتوس] الأبن، فأغوى امرأته واعتدى على شرفها سراً ولذلك ظل الأمر مستوراً مدة طويلة. ثم ازداد خشونة وتحكماً في معالجة شؤون الاغريق العامة. ونمتّ تصرفاته على انه يريد التخلص من رقابة [اراتوس] لينطلق على رسله دون ضابط. وقد تأيد ذلك [لاراتوس] في مسألة المسينيين. فقد ثارت الفتنة فيما بينهم وتأخر [اراتوس] قليلاً في السير بالنجدات اليهم، فسبقه فيليب الى المدينة بيوم واحدٍ واخذ يؤرث نار الشقاق بينهم بدلاً اخمادها. اذ سأل زعماء المسينيين الاشراف كلاً على حدة: هل ان قوانينهم تكفل لهم السيطرة على عامة الشعب؟ ثم انفرد بالزعماء الشعبيين وسألهم هل ينوون البقاء مكتوفي الايدي امام مضطهديهم فنفخ في الجهتين روح التحديّ والعداء، وحاول القواد القاء القبض على زعماء الشعب، فهاجم هؤلاء القواد على رأس الجمهور وقتلوا منهم زهاء مائتين. بعد ان ارتكب [فيليب] هذه الجريمة النكراء راح يعمل جهده لاخضاع المسينيين لمشيئته التامة وفي تلك الاثناء وصل [اراتوس] واظهر سخطه على هذا العمل لفيليب وللمسينيين أيضاً. كما انه اوعز الى ابنه بأن يؤنبه ويقرعه. ويبدو انه كان ثم علاقة حبٍّ بين هذا الشاب وبين [فيليب] وفي هذه المناسبة كان احد

تعابير اللوم والتأنيب التي وجهها اليه قوله انه ما عاد يبدو في عينه أجمل الرجال بل اقبحهم بعد هذا العمل المنكر. فلم يردّ عليه [فيليب] بكلمة واحدة وان بان عليه الغضب الشديد وبدا وكأنه يهمّ بالاجابة، وقاطعه عدة مرات بصيحات عالية اثناء ما كان يتكلم. امّا [اراتوس] الأب فقد ظلّ ساكناً كأن الامر لايعنيه في شيء. كسياسي مطبوع يمتاز بالمقدرة على كظم الغيظ وضبط النفس. ومدّ اليه يده وسار به الى خارج الملعب وقصدا معاً [الايثوماتس Ithomatas] للتقريب الى جوبتر والقاء نظرة على الموقع اذ كان منيعاً يشبه قلعة كورنث، يتعذر اقتحامه ان عزز بحامية، ويظلّ صامداً لأي هجوم من ايه ناحيةٍ. وبعد ان قرب [فيليب] وتسلّم احشاء الثور بيده من الكاهن، عرضها على [اراتوس] مرّة وعلى [ديمتريوس الغاري] مرة وسألهما ما الذي يجب عمله بخصوص القلعة حسبما استخلصا من دلائل في الاضحية؟

أيحتفظ بها أم يعيدها للمسينيين؟

فضحك [ديمتريوس] واجاب:

- ان كان صدرك يضمّ روح منجمٍ، فأعدها اليهم، وان كان يضم روح ملك فعليك ان تقبض على الثور من قرنيه معاً.

مشيراً الى [البيلوبونيس] التي ستكون طوع امره ان هو اضاف الى ملكه قلعة [ايثوماتاس] الى جانب قلعة كورنث. وظلّ [اراتوس] صامتاً برهة من الزمن، فالتفت اليه فيليب وسأله عن رأيه فقال:

- هناك جبال عديدة عظيمة في كريت. وفي [بويوسيا وفوكيس] صخور منيعة لاتعدّ. وثم قلاع وحصون مشهورة لاتحصى في داخلية [اكارنانيا] وعلى سواحلها. وكل سكان هذه الأمصار يطيعونك ويدينون بالولاء لك مع انك لم تستول عنوةً على اي موقع من هذه البلاد. ان اللصوص وحدهم يكمنون في الصخور والجرف. وامنع قلعة يحرزها الملك هي الثقة والولاء. فهذان فتحا لك البحر الكريتي، وهذان يجعلانك سيد [البلوبونيسس] وبمعونتهما - وانت بعد شاب ستكون قائداً للحصن الاول وسيداً للقلعة الثانية.

كان فيليب قد اعاد الاحشاء الى الكاهن واراتوس مسترسل في حديثه. وبعد هذا جذب يده قائلاً:

- تعال اذن ولنتبع هذا السبيل.

كأنما احسّ بأن [اراتوس] ارغمه على التخلي عن المدينة.

ومنذ ذلك الحين اخذ [اراتوس] ينائ عن بلاط [فيليب] ويتهرب بالتدريج من صحبته. ولما تهيأ للزحف على [ايبروس] وطلب منه ان يرافقه اعتذر ولازم منزله خوفاً من ان يناله العار بمشاركته في اعماله. ولما لحقت به الهزيمة الشنعاء مع الرومان وخسر اسطوله، وبالفشل الذريع الذي لاقت خططه، عاد الى [اليبلوبونيسس] وحاول مرة أخرى ايقاع الخلاف بين المسينيين، فلم يفلح، فأعلنها حرباً عليهم وهاجمهم وراح يخرب بلادهم. فوقعت القطيعة التامة بينه وبين [اراتوس] وانكره صديقاً بعد ان اصبح على علم بما لحق ابنه من عار بسبب صلة فيليب بامرأته لقد تألم كثيراً ولكنه أبقى الأمر سراً ولم يطلع عليه ابنه اذ لا فائدة في اعلامه بما ناله من ضرّ ان كان عاجزاً عن الثأر لنفسه. يقوم [فيليب] في الواقع مثلاً لأغرب واعظم تحوّل خُلقي. فبعد ان كان ملكاً لطيفاً. وشاباً عفاً محتشماً انقلب رجلاً فاسقاً وطاغية من اقسى الطغاة وأكثرهم استبداداً. وهذا في الحقيقة لايعد انقلاباً، بل انكشافاً لطبع أصيل عند سنوح الفرصة الملائمة للميول الشريرة التي كانت مقيدة بالخوف من الظهور وعمل النفاق على سترها مدة طويلة. ولذلك كان احترامه [لاراتوس] في مبدء الأمر ينطوي على كثير من الخوف والرهبة، وآية ذلك ما فعله به في الأخير. فقد مرّ رأيه على التخلص منه بقتله، اذ كان يشعر بان وجود هذا الرجل يحدّ من حريته وسلطانه. وانه لايستطيع ان يتصرف تصرف الملوك والطغاة طالما بقي [اراتوس] حياً. الا انه لم يكن يجرأ على الفتك به علنا. ولذلك أمر[توريون Taurion] احد ضباطه المقربين بأن يدس له سماً، بغيابه ان امكن. فتقرب [توريون] من [اراتوس] حتى نال ثقته. ودس له سماً لا يشبه سمومكمالقوية السريعة التأثير، بل من تلك التي تسبب في اول الامرحمى خفيفة، ثم سعالا جافا، ثم تحدث الموت بصورة بطيئة. وما ادرك [اراتوس] ما حل به. وكان من العبث ان يصرح بما حصل، فآثر احتمال الامر بصبر وصمت، وبدا وكأن ماألمّ به وعكة بسيطة اعتيادية. ولم يبدر منه شئ يدل على ما يكنه قلبه الا مرة واحدةً فقد بصق دماً بمحضر من صديق له كان يعوده. فلاحظ الصديق ذلك واستغرب وسأله عما به فقال [اراتوس]:

- هذا يا [كيفالون Cephalon] أجر محبة الملوك.

ووافاه الاجل في [ايغيوم] وهو في منصب الجنرال للمرة السابعة عشرة. ورغب الاخائيون بدفنه هناك وعمل موكب تشييع رسمي له وتخليده بنصب يليق بحياته الحافلة الا ان السيكيونيين احتجوا بشدة معتبرين دفنه في بقعة اخرى غير موطنه كارثة وطنية. واقنعوا الاخائيين بأن يسلموه لهم. وكان ثم قانون قديم يمنع دفن اي شخص داخل اسوار مدينة [سيكيون]. كذلك كان هناك ثم نفور قوي لبواعث دينية - من دفن الجثث في المدينة. لذلك

ارسلوا وفداً الى دلفي ليستخيروا الكاهنة البيثينية Pythoness فأجابتهم بما يلي:

سيكيون التي كثيرا ماانقذها

تقول «اين ستثوي رفاة اراتوس؟»

ان التربة التي لاتستقر عليه بلطف

والتربة التي تشعر تحته بضيق

ستكون ملعونة في الارض والبحر والسماء

ولما عاد الرسل بهذه النبوءة سُر الاخائيون بها كثيراً الا ان سرور السيكيونيين كان اعظم. فقد نزعوا الحداد و نبذوا مظاهره، وبدوا وكأنهم في عيد وفرح عام واسرعوا بنقل الجثمان من [ايغيوم] الى المدينة بما يشبه الموكب الديني وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وانتظموا صفوفاً بثيابهم الناصعة البياض. وساروا بالغناء والرقص حتى بلغوا به موضعاً رحباً اختاروه ليكون مثوى اخيراً لمؤسس مدينتهم ومنقذها. وظل الموقع الى يومنا هذا يعرف بالاراتيوم نسبة الى اسمه. واليه كانوا يتقدمون سنوياً بقربانين اولهما في يوم ذكرى انقاذه المدينة من حكم الطاغية، ويتفق مع الخامس من شهر [ديسيوس Daesius] الذي يسميه الاثينيون [آنتستريون Anthesterion] ويطلقون على هذا القربان اسم [سوتيريا Soteria]. اما المناسبة الثانية ففي يوم ميلاده. ومازال هذان القربانان عالقين بالاذهان. ويقوم بمراسيم اولهما كاهن [جوبتر سوتر] ويقوم بمراسيم ثانيهما كاهن [اراتوس] بعد ان يحيط جبينه بعصابة بيضاء مشوبة باللون الارجواني. وتنشد الترانيم على نغم القيثار، ينشدها مغنو الاعياد الباخوسية. ويقود الموكب رئيس الالعاب ويسير وراءه الصبيان ثم الشباب ثم المستشارون وهم يتقلدون عقود الزهر، ويلحق بالركب سائر المواطنين وعامتهم. وقد دخلت مظاهر قليلة من هذه المراسيم في الطقوس الدينية وعدت جزءً لايتجزأ منه الآن ولايمكن اغفالها او الاستغناء عنها في الايام المخصوصة. الا ان القسم الرئيس منها بطل استعماله بتقادم الزمن وغير ذلك من الطوارئ.

ذلكم هو حديث التاريخ عن حياة وافعال [اراتوس] الاب. اما عن [اراتوس] الابن فقد عمد [فيليب] الشرير اللئيم بطبعه، المتطرف في استخدام سلطته، الى دسّ عقار سام له، لم يقتله بل افقده الرشد، فراح يقوم باعمال غريبة لاتمت الى العقل بصلة، ويشبع رغبات مخجلة ويتيه في بيداء النزوات. ومات وهو في عنفوان شبابه. وكان موته نعمة ونهاية لشقائه اكثر منه مصيبة له ولأهله. على ان فيليب دفع ثمناً غالياً لغدره باصدقائه طول حياته، فبعد ان

قهره الرومان اضطر الى وضع نفسه تحت حمايتهم فجردوه من كل ممتلكاته وصادروا سفنه كلها عدا خمساً منها. وفرضوا عليه غرامةً قدرها الف تالنت، وتسليم ابنه رهينةً. وتعطفوا عليه فسمحوا له بحكم [مقدونيا] وملحقاتها. فواصل قتل انبل رعيته والفتك بذوي قرباه فملأ المملكة ارهاباً وشراً حتى مقته الناس. ولم يبتسم له الحظ بعد كل ما حل به من محن وكوارث إلا في حالة واحدة، وهو انه اعقب ابنا عظيم المناقب رفيع الاخلاق. لكنه حقد عليه حسداً و غيرةً لما نال من الرومان من التكريم والتشريف فأمر بقتله. وترك مملكته لـ[برسيوس] ابنه من الخياطة [غناثينيون Gnathenion] وهو الذي قاده [پاولوس اميليوس] اسيراً في موكب نصره. وبه كانت نهاية سلالة [انتيغونس] الملكية. في حين ان نسل [اراتوس] ظل حتى يومنا هذا متواجداً في كل من [سيكيون] و[پلليني].

١٩٧٢/٣/٣

أرتحشستا

ARTAXERXES

465_424



امتاز ارتحشستا الاول على جميع ملوك الفرس باللطف ونبل النفس. ولقب بذي اليد الطويلة لأن يمناه كانت اطول من يسراه. وهو ابن (احشويرش Xerxes]. اما ارتحشستا الثاني الذي اقصّ سيرته الآن، والمعروف «بالحسن الذاكرة» فهو حفيد ارتحشستا الاول، من بنته (باريساتس Parysatis] التي انجبت لداريوش اربعة ابناء بكرهم ارتحشستا وثانيهم (كورش] وثالثهم (اوستانس Ostanes] ورابعهم (اوكستاثرس Oxtathres]. وسمي بكورش تيمنا بكورش الاول الذي اشتق اسمه على ما يقال من الشمس واسمها باللغة الفارسية (كورش]. وكان اسم ارتحشستا بالاول [ارسيكاس Arsicas]. ويقول [دينون Di-non]، بل كان يدعي [اورسيس Oorses]. ولكن ليس من المحتمل ان ينسى [قطسياس Ctisias] اسم الملك الذي عاش معه كطبيب خاص في بلاطه له ولزوجه وامه واولاده (وان كان قد حشا كتبه بخليط متنافر من الاساطير الخرافية التي لايرضى بها العقل السليم ولا تستقيم مع المنطق).

اظهر الابن الثاني كورش، منذ حداثته صلابة، وروحاً وثابة، بعكس ارتحشستا الذي كان الين منه جانباً وارق روحاً في كل شيء. تزوج بنتاً جميلة فاضلة نزولاً عند رغبة ابويه. وابقاها في ذمته ضد رغبتهما ايضا! فقد قتل [داريوس] الملك، اخاها وهَم بقتلها كذلك. الا ان زوجها ارتحشستا القى بنفسه على قدمي امه باكياً متشفعاً واقنعها بعد لاي، بان ان يعدل عن قتلها وعن فكرة فصلها عنه. على ان [كورش] كان الابن الاثير المدلل عند امه. ولذا كانت تفضله على سائر اخوته في تولي العرش بعد أبيه. فلما حضرت الوفاة زوجها استدعته من الساحل فأسرع الى البلاط ينهب الارض نهباً وكله امل بتوليه العرش بمساعيها. وكانت لدى [باريساتس] حجة قوية لتعزيز ادعائه بالعرش، استخدمها [احشويرش] في ما مضى لنفسه بناء على نصيحة [ديماراتوس]. والحجة ان [باريساتس] انجبت له بكره [ارتحشستا : ارسيكاس] عندما كان زوجها مواطناً عادياً، في حين انها انجبت له [كورش] عندما كان ملكاً. الا انها لم تفلح في مساعيها مع [داريوش] واعلن بكره ملكا فاتخذ له اسم [ارتحشستا] بدلاً من اسمه الاول. وظل [كورش] ساترابأ على [ليديا] وقائداً لجيوش

الاقاليم الساحلية.

ومرّ الزمن على وفاة [داريوش] وحل موعد رحلة [ارتحشِشتا] الى [پاسارگادي Pasar-gadae] ليقوم كهنة الفرس باتمام مراسيم تنصيبه. كان ثمّ هيكل لربة محاربة يمكن تشبيهها بـ[مينرڤا]، تحتم التقاليد على الامير الملكي الذي سيتوج ملكاً ان يمر به بعد ان يخلع حلته الملوكية ويلبس الرداء الذي كان [كورش] الاول يرتديه قبل ان ينصب ملكاً. ويقضي العرف ايضاً ان يأكل سلةً من التين، وعصير شجر الصنوبر [تربنتين Turpentine]، ثم يشرب كأسا من اللبن الرائب. هذا كل ما عرف عن المراسيم المتبعة، ولا احد يدري ان كان هناك المزيد الا من يُحضرها. وكان [ارتحششتا] يوشك على اقتبال تلك الطقوس حين اقبل عليه [تيسافرانس] مع احد الكهنة الذين علموا كورش في شبابه ولقنوه الآداب الفارسية والنظم المتبعة والفلسفة المجوسية. ولذلك كان متوقعاً منه ان لايسر ان ارتقى العرش شخص آخر غير تلميذه، فصدقه في اسناد اي تهمة لكورش ليس محل شك والحالة هذه. ذكر هذا الكاهن لارتحششتا، ان [كورش] كامن له داخل المعبد وانه سيثب عليه ويغتاله وقتما ينزع ثيابه. ويؤكد بعض الكتاب ان كورش قبض عليه بعد الاتهام مباشرة، بينما يزعم آخرون انه دخل المعبد وعثر عليه مترصداً بالقرب من الكاهن. فهرعت اليه امه قبل ان ينفذ فيه حكم الموت وشبكته بذراعيها وشدته اليها بجدائل شعرها والصقت عنقه بعنقها. وهكذا نجحت في انقاذ حياته بتوسلاتها وضراعتها الحارة، فعفا عنه وبعث به الى مركزه السابق، فسافر وهو حاقد ولم يذكر نجاته من الموت قدر ما كان يذكر القبض عليه. ان حقده هذا جعله اكثر تحرقاً وتطلعاً الى العرش.

قيل انه اعلن العصيان على اخيه لانه لم يسمح له بنفقات كافية لطعامه اليومي. ان هذا التعليل سخيف من اساسه. إذ لو سلمنا جدلاً بأن [ارتحششتا] كذا ممسكاً لايصرف له ما يكفيه فان امه كانت كفيلة بكل ما يحتاجه من اموالها الخاصة. على ان الالوف المؤلفة من الرجال الذين كان يجندهم وينفق عليهم [كما يذكر لنا گزينفون] هو دليل كاف على غناه. لم يكن [كورش] يجمع قواته في صعيد واحد. وانما يوزعهم في ثكنات عديدة لانه اراد ان يخفي نواياه. وبث وكلاءه في كل الاقاليم لتجنيد المرتزقة الاجانب متذرعاً بمزاعم شتّى. وكانت امه [پاريساتس] التي تعيش مع اخيه الملك - تسعى في الوقت ذاته لتبديد كل شك يساور الملك بخصوصه، كذلك حرص [كورش] على ان تكون رسائله اليه حافلة بعبارات الولاء والاخلاص وكان احياناً يطلب إنعاماً. واحياناً كان يبادل [تيسافرنس] الاتهام كأن حسده وغيرته مركزان في هذا الشخص فحسب. زد على هذا طول الأناة الذي يمتاز به طبع

الملك، مما كان يتوهمه الكثيرون رحمةً وتسامحاً. وهو في الواقع كان يبدو في بدء ملكه، شبيهاً بارتحششتا الاول في رقته ولطفه وانفتاحه على الناس وكرمه الشديد في عطائه وهباته. ولم يكن يلحظ في عقوباته اثر للتشفي او لذة انتقام وكان سرور من يقدم له هدية يفوق سرور اولئك الذين يتقبلون هداياه لكياسته ورقة اسلوبه في تقديمها. ولم يؤثر عنه انه تلقى هدية مهما صغرت قيمتها الا وتقبلها بحفاوة ولطف. ولنا مثل من ذلك الرجل [اومسيس] الذي قدم له رمانة كبيرة الجرم فقال المهدي له:

- قسماً بميثرا، لو وضع في رعاية هذا الرجل بلدة صغيرة، لجعلها مدينة عظيمة.

ومرة كان في جولة تفقدية في انحاء المملكة والناس يتبارون في تقديم الهدايا له. ووجد بعض الشغيلة الفقراء انه لا يملك ما يقدمه له. فهرع الى ضفة النهر واغترف بكفيه ماءً وقدمه له، فسرّ ارتحششتا بذلك سروراً عظيما وارسل اليه قدحاً ذهبياً والف داريي [darie]. وكان [اقليدس] اللقيديمي يذيع عنه بعض التعليقات السليطة الصريحة فأرسل اليه احد قواده ليبلغه بالآتي:

- انك مأذون بقول ما تريد لي. ولكن تذكر بأن لي ان اقول واعمل ما اريده لك.

وكان مرة في رحلة قنص فتقدم منه [تريبازوس Teribazus] واشار بأن رداءه الملكي قد تمزق. فسأله الملك عما يرى عمله في هذا الشأن فقال [تريبازوس]:

- إن سرّك فلتستبدل بهذا الثوب آخر وتمنحه لي.

فعمل الملك بما قاله وعقب:

- اني اهبك الثوب ياتريبازوس. ولكني اطلب منك الاّ تلبسه.

الا ان تريبازوس لم يعبأ بهذا التنبيه، ولم يكن رجل سوء الا انه كان قليل التبصر خفيف العقل. فما ان وجد الحلة الممزقة بين يديه حتى سارع في ارتدائها وزاد عليها زينة الملك من القلائد والعقود الذهبية والحلي النسائية فذهل الجميع لأن العمل مما يخالف العرف والتقاليد. الا ان الملك ضحك وقال:

- اذنت لك ان تتزين بالحلي بوصفك امرأة. واذنت لك بارتداء الثوب الملكي بوصفك مهرجاً.

وكان التقليد لايسمح بجلوس احد على مائدة طعامه غير امه وزوجته الشرعية. وكانت الاولى ترتفع عنه في مجلسها اما الثانية فتليه. الا انه خرق العادة بدعوة أخيه [اوكساتريس داوستانس]. وكان احب منظر عند الفرس هو عربة امرأته [ستايزا] فقد كانت ترفع سجفها دائما لتسمح للمواطنين بالسلام عليها والاقتراب منها، وهذا ما اكسبها محبة الناس.

على ان المشاغبين والمتصيدين الذين لا صبر لهم على الاستقرار ولاهمّ لهم الا إثارة الفتن اخذوا يصرحون بأن الزمن بحاجة الى رجل مثل [كورش] لانه رجل مقدام ومقاتل ممتاز، يحب اصدقاءه ويخلص لهم. وان سعة رقعة الامبراطورية تتطلب حتماً اميراً مغامراً جريئاً. ولم يكن اعتماد [كورش] قاصراً على اتباعه في الاقاليم التي يحكمها دائماً كان يعتمد ايضاً على كثير من الموالين له في البلاد الشمالية القريبة من قاعدة الملك. ولذلك اعلن الحرب عليه، وكتب الى اللقيديميين يطلب منهم العون والرجال مؤكداً لهم انه سيعطي الراجل منهم حصاناً، والخيال منهم عربة. ومن ملك حقلا فسيعطيه قرية، ومن كان صاحب قرية فسيؤمره على مدينة. ومن تطوع في جيشه فسيدفع له اجره بالوزن لا بالعدد. وتكال [كورش] المديح لنفسه بلا حساب. فقالوا انه اشجع واكثر اقداماً واكثر وقوفاً على الفلسفة من اخيه، واعمق اطلاعاً في الدين المجوسي وان بوسعه ان يشرب ويتحمل مقداراً من الخمر اكثر مما يتحمله اخوه. واكّد [كورش] ان اخاه بلغ حداً كبيراً من الجبن وان ليس فيه الكثير من الرجولة ولايستطيع الجلوس على صهوة جواده في رحلة صيد، ولا على عرشه في ساعة الخطر.

بعد ان تلي كتاب [كورش] هذا على اللقيديميين. ارسلوا [القضيب] الى [كليارخوس] يأمرونه باطاعة اوامر [كورش] في كل شيء. وعلى الاثر زحف بجموعه الكثيفة من البرابرة لقتال اخيه. الا ان مرتزقة الاغريق لم يكونوا يزيدون عن ثلاثة عشر الفاً. واخفي عنهم السبب الحقيقي للحملة فكان يزعم مرة سبباً. ثم يزعم مرة سبباً آخر، الا ان الغرض الاصلي ما عتم ان انكشف واسرع [تيسافرنس] الى الملك ليطلعه على الامر شخصياً. فهاج البلاط وماج وانصبّ اللوم كله على ام الملك وحام الشك حول بطانتها ووجهت اليهم اصابع الاتهام وكانت [ستايترا] اكثرهم حزناً واشدّهم عتاباً ولوماً لام الملك فراحت تذكرها بتعهداتها وبتوسلاتها التي استخدمتها لانقاذ المتآمر على حياة اخيه «...كي يقذف بنا في أتون حربٍ ويثير المتاعب لأخيه». فزاد بغض الام [ستايترا]، وكانت حقوداً لايعرف قلبها معنى الصفح في سورة غضبها ومجال نقمتها. فبدأت تداعب فكرة القضاء على حياتها. وبما ان [دينون] يقول انها نفذت فعلتها هذه اثناء الحرب، وان [قطسياس] يقول ان ذلك تم بعد ان وضعت الحرب اوزارها، فسأمسك الآن عن سرد الحكاية وارجئها الى حين عملاً بزعم ثانيهما اذ ليس من المعقول ان يجهل التاريخ وكان موجوداً بشخصه هناك، وليس ثم من سبب يدفعه الى تحوير تاريخ الحادثة عمداً عند ايرادها. وان كان يحيد احياناً عن الحقائق ويسرح في اجواء الخيال.

كانت الانباء والاشاعات تهبط على [كورش] وهو يتقدم بجيشه حثيثاً، مصورة له حيرة الملك وعكوفه عن دراسة الموقف. وعدم توفر نية القتال الفوري لديه، بل الانتظار في عقر

داره حتى تتجمع قواته من كل ارجاء مملكته.

كان الملك قد حفر في السهل، خندقاً عظيماً عرضه ستون قدماً وطوله لايقل عن ثمانين ميلاً. ومع هذا فقد ترك [كورش] يجتازه دون ان يحرك ساكناً. ولم يعترض سبيله الى مدينة بابل. ويروى ان [تريبازوس] كان اول من وجد في نفسه الجرأة ليذكر الملك بواجبه في القتال، والمحافظة على ميديا وبابل وسوسة. واوضح له محاذير بقائه مختفياً في [پرسيس] في حين يبلغ جيشه اضعاف اضعاف ما لدى خصمه وان عدداً لايحصى من الحكام والقادة الذين يفضلون [كورش] في مجال السياسة والحرب، طوع امره. فقرر الملك القتال وخرج على رأس تسعمائة الف مقاتل مدرب، فدبَّ الرعب في قلوب العدو، وفوجيء وكان يزحف بثقة نفس واستهانة ومن دون نظام واسلحته في وضع لاتمكنه من استخدامها حالاً، حتى ان [كورش] عجز عن تنظيم صفوفهم في نسق المعركة بسبب الفوضى والضجيج. وكان جيش الملك يسير بصمت وهدوء وانتظام تام جعل الوحدات اليونانية تقف مشدوهة لحسن الضبط. فقد كانوا يتوقعون الجلبة والهرجلة والفوضى والفجوات الكبيرة بين السرايا والوحدات في مثل هذه الحشود الضخمة من الجنود. ووضع الملك الصفوة المختارة من عجلاتها امام فلانكسه الخاص المواجه للوحدات الاغريقية حتى يخترق صفوفهم بهجوم عنيف صاعق قبل ان يطبقوا عليه من الجانبين.

لقد تناول كثير من المؤرخين هذه المعركة بالوصف. ومنهم [گزينفون] الذي ابدع واجاد حتى انه حملنا على الاعتقاد بأننا نراها بأم اعيننا، لا كأنها حدث من احداث الماضي. ولقد كان من الدقة في ايراد التفاصيل ان قارئه لايسعه الا ان يشعر وكأنه يشارك في مراحل المعركة فعلاً ويكابد اهوالها بكل ما في ذلك من العواطف. لذلك كان من السخف ان احاول عرض وصف اوسع واكثر شمولاً وسأعمد الى ذكر كل ما يستحق التسجيل مما اغفله.

يطلق على اسم الموقع الذي التحم فيه الجيشان اسم [كوناكسا Cunaxa] ويبعد زهاء خمسمائة فرلنگ عن مدينة بابل. قبل بدء المعركة طلب [كلياركوس] من [كورش] ان يبقى في المؤخرة لئلا يعرض نفسه للخطر. وقيل ان جواب [كورش] كان كالآتي:

- ما هذا الذي تقترحه يا كلياركوس؟ اتريد مني انا الذي اطمع بالامبراطورية ان أعد غير جدير بها؟

واذا كان [كورش] قد ارتكب خطأً فاحشاً في اندفاعه الى قلب الخطر دون ان يقيم لسلامته وزناً، فإن خطأ [كلياركوس] لايقل عنه ان لم يكن افدح - عندما رفض توجيه الوحدات

الاغريقية الى القسم الرئيس من الجيش العدو حيث موقع الملك. فقد اسند ميمنته الى النهر خوفاً من حركة التفاف. وكان الاجدر به البقاء في موطنه وعدم الخروج للحرب، ان كان يريد لنفسه السلامة بالدرجة الاولى او ان ينام بهدوء وامان! وها هوذا بعد ان قطع مسافة عشرة آلاف فرلنگ من الساحل؛ مختاراً غير مجبر بقواته الشاكية السلاح لوضع [كورش] على العرش، تراه يعمل الفكر لانتقاء مواقع تساعده على دخول المعركة باطمئنان وراحة، لا على حماية من اجره للدفاع عنه والحالة هذه اشبه بذاك الذي دفعه الخوف من الخطر الحالي الى التخلي عن الهدف الحالي من القتال؛ فخان واجبه وضيع الغرض من حملته. لقد اتضح من اولى صفحات المعركة ان الوحدات التي التفت حول الملك كانت عاجزة عن صد هجوم اغريقي كاسح ولو فعلت تلك الوحدات ذلك لانهزم ارتحششتا او قتل وكتب النصر [لكورش]. فضلاً عن نجاته من الموت وظفره بالعرش.

ان حذر [كلياخورس] الذي اسفر عن خيبة [كورش] ثم هلاكه كان ادعى الى اللوم والنقد من تهور [كورش] واندفاعه. ولم يكن الملك نفسه ليختار او يتمنى موقعاً للاغريق يهاجمهم فيه باقل ما يمكن من المجازفة كذلك الموقع الذي اختاروه هم بعيداً عنه وعن مقاتليه. فقد كر الملك عليهم ولم يعلم باندحاره امامهم. وكذلك لم يعلم [كورش] بالنصر الذي ناله [كليارخوس] ولذلك لم يستفد منه ومات وهو يجهل الامر. وكان [كورش] يدرك جيداً ما يجب عمله فأمر [كليارخوس] ان يأخذ هو ورجاله موضع القلب. فأجابه [كليارخوس] انه لن يقوم الا بأفضل شيء، فأتلف بذلك كل شيء.

تمكن الاغريق من دحر البرابرة وهم جاثمون في مواضعهم حتى اثخنوا فيهم قتلا وطاردوهم بنجاح الى مسافة بعيدة. وكان [كورش] ممتطياً جواداً من الاصائل الا انه جامح لا يسلس قياده اسمه على قول قطسياس - [پاسكاس]، فتوجه اليه [ارطاكيرسيس Artagerses] قائد [القادوسيين Cadusians] وهو يعدو هذبا وصاح به:

- يا أظلم الناس واكثرهم حمقاً يا عار الاسم الشريف [كورش]، أجئت الى هنا تقود شرّ الاغريق في شرّ حملة، تسلب نفائس الفرس؛ معتزماً قتل سيدك واخيك، سيد عشرة آلاف عشرة آلاف خادم كلهم افضل منك؟ انك ستفقد رأسك هنا قبل ان يتسنى لك ان تصيب لمحة من وجه الملك.

قال هذا وسدد اليه طعنة رمح الا ان زرده القوي ردأ الطعنة فلم يصبه. ولكن شدة الطعنة جعلته يرتد الى الخلف. وعندما الوى [ارطاكيرسيس] عنان فرسه قذفه [كورش] بحربة فغاب نصلها في عنقه باعلى لوح الكتف. واتفق الجميع ان مقتل [ارطاكيرسيس] كان على يد

كورش. واما عن مصرعه هو نفسه، فلما كان [كزينفون] قد خصه بعبارات قليلة لاتفي الموضوع حقه فمن المناسب ان نورد هنا ما قاله كلّ من [دينون] و[قطسياس].

يؤكد [دينون] ان [كورش] كرّ على حرس ارتحششتا كرة عنيفة بعد قتله [ارطاكيرسيس] فجرح حصان الملك، وارغم على الرحيل وهنا اسرع [تيريبازوس] برفعه على سرج حصان آخر وهو يقول له:

- اذكر ايها الملك هذا اليوم فهو ليس باليوم الذي يمكن ان ينسى.

وهمز [كورش] جواده وحمل على [ارتحششتا] فاسقطه ارضاً. فعصف الغضب بالملك عند الهجمة الثالثة وصاح ان الموت لاجدر به من هذا وحمل على [كورش] الذي كان يندفع بعنف وجنون بوجه السلاح الموجه اليه كالاعمى، فطعنه الملك برمحه وتوالت عليه الطعنات فخرّ صريعاً بيد الملك كما يقول فريقٌ، وبيد جندي من [كاريا Caria] كما يدعي الآخرون - الذين يزيدون قائلين بأن الملك كان قد كافأه على هذا بمنحه امتياز رفع ديك ذهبي على رمحه والسير به امام الصف الاول من الجيش في كل حملة. وسبب ذلك ان الفرس يلقبون رجال [كاريا] بالديكة لانهم يزينون خوذاتهم بالريش.

ودونك الآن رواية قطسياس بعد اختصارها وحذف بعض التفاصيل:

بعد ان خرّ [ارطاكيرسيس] صريعاً بيد [كورش] ادار جواده نحو الملك، وفعل هذا فعله واطبق احدهما على الآخر دون ان يتبادلا كلمة واحدة. الا ان [اريئوس Ariaews] تابع [كورش] فوّق رمحاً نحو الملك فأخطأه، فقذف الملك اخاه برمح فلم يصبه بل اصاب [ساتيفرنس Satiphernes] وهو انسان نبيل ومخلص لكورش - فصرعه. وسدد [كورش] الى الملك فاخترق سنانه درعه ونفذ في صدره مقدار عقدتين، فهوى الملك على الارض لشدة الضربة. فتبدد شمل من كان يحف به وتفرقوا. ولكنه قام من سقطته وبقلة من رجاله [ومن بينهم قطسياس] شق طريقه الى نشز من الارض غير بعيد فجلس هناك ليصيب بعض الراحة. اما [كورش] الذي كان في قلب جيش العدو فقد جمح به حصانه وجرى به مسافة بعيدة ولم ينجح في كبحه. وانتشر الظلام ولم يعد من السهولة ان يتعرف عليه، كما ان اتباعه تعبوا في البحث عنه. واسكره النصر وملأه ثقة بنفسه فاندفع بين جنود الملك وهو يردد بالفارسية باعلى صوته:

- افسحو السبيل ايها الاوغاد، افسحوا.

فانشقت صفوفهم له والقوا بانفسهم تحت قدميه، الا ان قلنسوته سقطت عن هامته

وانكشف امره فلحق به شاب فارسي يدعى [ميثريداتس] واصابه بطعنة رمح في احدى صدغيه بالقرب من عينه من غير معرفة بهويته. فانبثق الدم الغزير من وجهه ودارت به الارض فسقط على الارض فغمي عليه وظل حصانه منطلقاً يجري على رسله في ميدان القتال. ولكن رفاق [ميثريداتس] اختطفوا غطاء سرجه الذي سقط عن الحصان وهو مضرج بالدماء. ولما اخذ [كورش] يعود الى صوابه حاول حفيدان له ان يركبه حصانا آخر لنقله الى موضع امين. فعجز عن الركوب وفضل السير فأسندوه وسار متحاملاً على نفسه وهو يشعر بدوار وضعفٍ شديدين. على انه كان واثقا بأنه انتصر. اذ كان يسمع وهو سائر - جماعات الفارين وهي تهتف باسمه وتحييه بتحية الملوك - مستعطفة مسترحمة. وفي تلك الاثناء التحق بركبه جماعة من [الكاونيين Caunians] وهم اناس فقراء معدمون انضموا الى جيش الملك خدماً واتباعاً في المعسكرات ليقوموا باحقر الاعمال - فساروا في ركاب [كورش] مع اتباعه بمحض الصدف معتقدين انهم من جنود الملك، ولكنهم مالبثوا ان تبينوا خطأهم من الصدار الاحمر الذي يلبسونه فوق دروعهم. لان اتباع الملك كانوا يلبسون الصدار الابيض، فأسرع واحد منهم يسدد طعنة رمح الى كورش من الخلف دون ان يعرف هويته، فأصابه بجرح تحت الركبة وفتح العرق فسقط كورش، وبسقطته اصطدم صدغه المجروح بصخرة فشجه فلفظ انفاسه.

تلك هي رواية [قطسياس] يسردها على مهل، ويتباطأ في احداث الموت فيها. حتى كانت اشبه بالسلاح ذي الحد المثلوم!

وفي اثناء مرور [ارطاسيراس Artasyras] وهو واحد من عيون الملك - بجثة [كورش] استرعى نظره الخصيان وهم يندبون ويعولون فسأل احد معارفه منهم:

- من هو هذا الذي تندبونه يا پارسيكاس؟

فأجابه:

- اما ترى يا ارطاسيراس؟ انه سيدنا [كورش].

فأدركه العجب، وعزى الخصي وطيب خاطره وطلب منه المحافظة على الجثة. واسرع وهو ينهب الارض نهباً الى ارتحششتا الذي كان قد قطع الامل تماما كما كان يشعر بآلام شديدة من الجرح الذي اصابه والعطش الشديد. وكادت الدنيا لاتسعه من الفرح وهو يبلغه بموت [كورش] فأسرع الملك الى الموقع حالا. ثم توقف وعدل عن رأيه وارسل عدداً من اتباعه لما سمع ان جنود الاغريق يكتسحون كل ما يعترض سبيلهم وهم في سورة المطاردة. فذهب

ثلاثون رجلاً وبأيديهم المشاعل ليتحققوا من الامر. وبدأ ارتحشستا وكأنه يلفظ انفاسه من حرقة العطش فأنطلق حاجبه [ساتي بارزانس Sati Barzanes] يبحث له عن شربة ماء، اذ لم يكن في تلك الناحية شيء منه. ومصدر الماء بعيد بمسافة كبيرة عن معسكره. وبعد طويل بحث لقي احد الكاونيين الفقراء خدم المعسكر ومعه مقدار من الماء الآسن الموحل في جراب جلدي لاتزيد سعته عن اربعة ليترات فأخذه منه وجاء به الى الملك. وبعد ان شربه كله سأله هل الماء طيب؟ فقال الملك:

- قسماً بالآلهة جميعاً لم اجد خمراً او ماءً الذ واصفى وانقى من هذا. وإن خاب سعيي في معرفة من اعطاك ايا ومكافأته، فأطلب من السماء ان تسعده في حياته وتجعله غنياً.

وعاد الرجال الثلاثون وسيماؤهم تطفح بالبشر والسعادة، يؤكدون له موت [كورش]. فارتفعت معنوياته ايضاً بتجمع الجنود حوله. ووصل الى حيث وضع جسد اخيه، وكانت التقاليد تقضي بفصل الرأس او اليد اليمنى. فأمر الملك ان يؤتى اليه بالرأس ولما جيء به امسكه من شعره الكثيف المسترسل وعرضه على الجميع وهو بين مصدق ومكذب يعتزم الفرار. فاعترتهم الدهشة وسارعوا باعلان ولائهم واجتمع في وقت يسير سبعون الفاً من الجنود حوله ودخلوا المعسكر معه.

يؤكد [قطسياس] انه خرج معه الى الحرب اربعمائة الف مقاتل. الا ان [دينون] و [كزينفون] يقولان ان جيشه كان اكثر عدداً من هذا بكثير، ولا يحسب فيه من لم يدخل المعركة. اما عدد القتلى بموجب الثبت الذي ارسل لارتحشستا فقد كان تسعة آلاف على حد قول [قطسياس]. لكن عدد القتلى الحقيقي لم يكن يقل عن عشرين ألفاً.

ويزعم [قطسياس] انه كان ضمن وفد ارسل الى الاغريق مع [فيلانوس Philanus] الزاكنثي وهو كذب صريح. فكزينفون يعلم جيداً ان [قطسياس] يسكن في البلاط وقد ذكره في اماكن كثيرة، من تعليقاته ولا ريب في انه اطلع على كتاباته. فلو انه كان من اعضاء الوفد ولو انه انتدب حقاً لنقل الرسالة الخطيرة مترجمةً لما اغفل گزينفون ذكره بالتأكيد منوها باسم [فيلانوس] وحده. ولكن يبدو ان [قطسياس] مبتلى بحب الظهور الى درجة الافراط، كما انه كثير التشيع والممالأة للقيديميين ولكلياخوس. ولذلك عمد الى حشر نفسه في حكاية السفارة، منتهزاً الفرصة هنا ليكيل المديح جزافاً [لكليارخوس] و[سپارطة].

بعد انتهاء المعركة بعث ارتحشستا بهدايا نفيسة لابن [ارطاكرسيس] الذي صرعه [كورش] وخلع مثلها من النعم والهبات على [قطسياس] والآخرين. وعثر على الكاوني

الذي سقاه الماء. فأنقذه من فقره ورفع من مكانته وجعله غنياً. واما عن العقوبات التي انزلها بالمتمردين فقد كان ثمّ انسجام وتوازن بينها وبين الجرائم التي ارتكبوها. فحكم على [ارباكس Arbaces] الميدي الذي انحاز الى [كورش] اثناء القتال ثم عاد الى صفوف الملك بعد مصرعه حكما يدل على فرط ما تحلى به من جبن وخنوثة، لا بوصفه خائنا ذا خطورة. فقد امر ان يركبوا على ظهره عاهرة من العواهر العاديات فيسير بها هكذا في الساحة يوماً كاملاً. وكان ثمّ آخر انضم الى العدو، ولكنه عاد واخذ يتبجح كذبا بانه قتل اثنين من العصاة. فامر ان يغرز في لسانه ثلاثة دبابيس. ولاجل ان يظهر ويثبت في اذهان الناس انه قتل [كورش] تم على يده، وليحملهم على الايمان بذلك. ارسل بهدايا فاخرة الى [ميثريدات] اول من اصابه بجرح وامر حاملي الهدايا اليه ان يقولوا له عند تقديمها «انه الملك قد شرفك واكرمك بهذه الهدايا لانك عثرت على غطاء سرج كورش وجنته به».

وطالب ذلك الكاري الذي قضى على [كورش] بعد اصابته بجرح في مأبضه، بالمكافأة، فبعث اليه بهدايا كثيرة وامر حامليها اليه ان يقولوا له: «ان الملك يهديك هذا مكافأة اخرى على الانباء السارة التي ابلغتها له. فإن اول مكافأة كانت لاول من حمل النبأ وهو [ارطاسيراس] وانت الذي أكدت له موت [كورش]».

وانسحب [ميثريدات] راضياً ولكنه كان حانقاً في سرِّه. الاّ ان الكاري السيء الحظ كان قاصر العقل، فقد تغلب عليه الضعف البشري وبهرته الهبات السنية التي بسطت امامه واغرته نفسه على المطالبة بالاكثر وطمع باشياء أخرى أرفع مما تناسب مقامه. فلم يتنازل بقبول الملك بوصفها مكافأة على ابلاغه نبأ مصرع [كورش] بل صاح مستنكراً واستشهد بالناس واحتج قائلاً انه هو وحده قاتل [كورش] وانه حرم من شرف العمل ظُلماً. ولما بلغ الملك ما قاله استشاط غضباً وامر في الحال بقطع رأسه الاّ ان امّ الملك الذي كانت موجودة اذ ذاك قالت له:

- أرجو ان لايعمد الملك الى التخلص من الكاري الحقير بهذه الطريقة السهلة. وليدفعه الي لاذيقه العقاب الذي يلاءم لسانه الطويل.

فأسلمه الى [اريساتس] فأمرت الجلاّد بأن يشده الى دولاب المخلعة عشرة ايام ثم يقتلع عينيه ويصبّ نحاساً ذائباً في أذنيه حتى يموت.

وبعد فترة قصيرة قضي على [ميثريدات] باشنع ميتة لارتكابه الغلطة نفسها فقد دعي الى وليمة كان يحضرها عدد من خصيان الملك، ووالدته. فأقبل يختال في حلّة فاخرة وحلي

ذهبية مما اهداه الملك. ثم اديرت كؤوس الخمر وبدأ أقرب الخصيان واوسعهم نفوذاً في البلاط عند الملكة، يتحدث اليه قائلاً:

- ان هذا الرداء الفاخر الذي خلعه عليك الملك لايثمن يا ميثريدات وتلك القلائد والأساور نفيسة جداً، وسيفك هذا لا قرين له. لقد اصبحت فأنت قبلة الأنظار كأفةً بما حبيت من سعادة واقبال.

فردّ عليه وهو نشوان بفعل الخمر: ما قيمة هذه الاشياء يا [سپاراميزس Sparamizes]؟ حقاً اني برزت في يوم الامتحان ذاك. وبرهنت للملك بأني استحق انفس وأغلى من هذه الهدايا.

فابتسم [سپاراميزس] وقال: اني لا احسدك على نعمتك يا ميثريدات. ولكن لما كانت الخمر والصراحة تسيران جنباً الى جنب كما يقول الاغريق. فأسمعني ايها الصديق عن مأثرتك المجيدة وعملك الباسل في العثور على بعض الأغطية التي سقطت من ذلك الحصان وكيفية مجيئك بها الى الملك؟

سأله وهو يعلم الحقيقة. الاّ انه قصد ان يطلق لسانه امام الحاضرين بإثار كبريائه بعد ان حلّت الخمر عقدته واعجزته عن ضبط اقواله فلم يخف شيئاً وانشأ يقول: تحدث بما شئت حول اغطية السرج وغير ذلك من التوافه! اني اقول لك بصراحة، ان يدي هذه هي التي صرعت [كورش]. لم اقذف برمح طائش كما فعل [ارطاگيرسيس]، فقد كانت طعنة صادقة تلك التي سددتها اليه لم يكن بينها وبين عينه الاّ شعرة، فنفذت الى صدغه واسقطته ارضاً. ان طعنتي هي الطعنة القاتلة.

اطرق الحاضرون برؤوسهم وسكتوا وكأنهم على ثقة من نهاية ميثريدات ومن المصير الفاجع الذي ينتظره. وقال صاحب الدعوة: اي صديقي [ميثريدات] دعنا نأكل ونشرب الآن، ونحترم يُمن أميرنا وحسن حظّه، ولنمسك عن الخوض في حديث هو اخطر مما يناسبنا.

وانهى [سپاراميزس] الى [اريساتس] بما سمعه، فأطلعت عليه الملك الذي لم يخف غضبه الشديد. لأن ما قال [ميثريدات] هو تكذيب، واصبح اعظم مأثرة له واسنى موقف في انتصاره معرضا للضياع. فقد كان يريد ان يوهم الجميع فرساً واغريقاً بأن النزال الشخصي الذي وقع بينه وبين أخيه بقي كذلك حتى الأخير دون تدخل خارجي وانه كان ثم ضربات وطعنات متبادلة وان الضربة التي تلقاها جرحته، اما الضربة التي سددّها فقد ادت أمانت خصمه. ولذلك حكم على [ميثريدات] بالموت بطريقة الزورق المزدوج، ويتمّ هذا على النحو التالي:

يؤتى يزورقين متماثلين تماماً فيمدوا المحكوم في واحدٍ وهو مستلق على ظهره ثم يطبقون عليه الزورق الثاني بشكل يجعل رجليه ويديه ورأسه خارج هذه العلبة المحكمة، وبقية جسده داخلها، مثل السلحفاة. ويطعمونه وان رفض الاكل ارغموه على ذلك بوخز عينيه. وبعد ان يأكل يصبون في فمه مزيج الحليب والعسل ويرشون به وجهه ثم يبقون وجهه بمواجهة الشمس دائماً، فتزحف عليه جموع الذباب والهوام حتى تغطي وجهه وتخفيه، ويقذف بفضلات جسمه داخل الزورق المزدوج فتسعى الدواب والحشرات وكل انواع الدود الى تلك الفضلات المتفسخة المتعفنة وتجد سبيلها الى امعائه فتنهش جسمه وتتلفه. وعندما يزول الشك في موت المحكوم يرفع الزورق الاعلى ويتبين ان لحمه قد نهش نهشاً وحشود من الحشرات البشعة المنظر وهي مشغولة بالتهام ما تبقى منه وقد تكاثرت وتوالدت في الداخل.

بهذه الطريقة قضي على [ميثريدات] بعد سبعة عشر يوماً من العذاب الشديد.

اما [ماساباطس Masabates] خصي الملك الذي قطع يد [كورش] ورأسه فقد بقي الهدف الأخير لانتقام [پاريساتس] الاّ انه كان حذراً واعياً فلم يتح لها فرصة النيل منه. وأخيراً توصلت اليه بنصبها الفخ الآتي:

كانت امرأة ذكاء ودهاء وحذقٍ في مسائل كثيرة، وقد عرفت بكونها من أمهر لاعبي النرد. وكثيراً ما لاعبت به الملك قبل الحرب. بعد ان انتهت الحرب وصالحته، راحت تزامله في كلّ تسلياته، وعادت الى ملاعبته بالنرد كالسابق واصبحت موضع ثقته حتى في شؤون حبه وسعت جهدها الى ان لاتتركه منفرداً بزوجه [ستاتيرا] فقد كان بغضها لها لايعدله بغض، كما انها كانت تكره ان تنافسها امرأة في نفوذها عند الملك. وفي ذات يوم شعر [ارتخشثتا] بحاجة الى ما يسليه ويروح عن نفسه، فزينت له امّه لعبة نردٍ معها وارهنت بألف [داركي] وتعمدت الخسارة ودفعت له الرهان بالذهب، ثم تظاهرت بأنها تأثرت من الخسارة وطلبت منه انه يتيح لها فرصة الثائر والحت ان يكون موضع الرهان خصياً فوافق، الاّ انهما اتفقا على ان يستثني كل واحد منهما خمسة من اعزّ خصيانه وان يختار من يريده من الباقين اذا ربح وبدأ اللعب فيما بينهما وبذلت أقصى جهدها واستخدمت كلّ حذقها وساعدها الحظ ففازت عليه. واسرعت تطلب منه [ماساباتس] الذي لم يكن بين الخمسة المستثنين فدفع به اليه، فأمرت فوراً - وقبل ان يشك الملك في الموضوع - بسلخه حيّاً وتعليقه على ثلاثة اقطابٍ ونشر جلده على ثلاثة اقطابٍ أخرى. فسخط عليها الملك سخطاً شديداً وكان يجنّ غضباً عندما سمعها تضحك وتقول مازحةً:

- ما اسعدك واريح بالك، مادام ازعجك أمر خصيٍّ شائب وغدٌ الى هذه الدرجة، في حين انني فقدت الف [داركي] ولم اتأثر وبقيت ساكتة قانعة بخطيّ.

وانحى الملك باللائمة على نفسه لأنه خدع على هذه الشاكلة الاّ انه آثر السكوت واخفاء الأمر، بعكس [استاتيرا] التي اخذت تناصبها العداء منذ زمن - فقد زاد حنقها عليها بسبب هذه الفعلة التي خرقت بها كلّ مبادئ العدل والانسانية، وضحت بصديق الملك المخلص وخصيّه اكراماً لذكرى ابنها [كورش].

عذر [تيسافرنس] بـ[كليارخوس] والقواد الاغريق الآخرين بعد ان حلف لهم الايمان وتعهد بالاّ يمسّهم ضررٌ. اذ قبض عليهم وارسلهم مصفدين الى الملك. يقول [قطسياس] ان [كليارخوس] طلب منه مشطاً وانه سُرّ كثيراً عندما اجابه الى سؤله وقام له بهذه الخدمة. واهداه خاتماً على سبيل الذكرى وليكون عهداً لاقربائه واصدقائه في سپارطة. وكان نقش الخاتم يمثل رقصةً كارية Carya. ويحدثنا [قطيساس] ان زملاء [كليارخوس] الأسرى، كانوا يسرقون جزءً من علاوة الارزاق التي خُص بها ولايعطونه سوى القليل. فعالج [قطيساس] الأمر وحسّن من جرايته. وأمر ان توزع مخصصات الجنود والأسرى الباقين لوحدهم. وقال انه فعل ذلك بسعي وتدبير [پريساتس]. ويذكر [قطيساس] في هذا المجال أنها أمرته ان يضع في داخل قطعة من لحم الخنزير كانت ضمن طعام [كليارخوس] اليومي، سكيناً حتى لايكون مصيره رهناً بارادة الملك وقسوته ولكن قطيسياس احجم عن ذلك خوفاً واستجاب الملك لمساعي امّه ووعدها مقسماً بأن يبقي على حياة [كليارخوس] الاّ انه ما لبث ان قضى عليه ورفاقه كافة بتحريض من ستاتيرا وابقى على [مينون] وحده. يقول [قطيسياس] ان [پاريساتس] أخذت منذ ذلك اليوم تتربص [بستاتيرا] واعدت لها سُماً زعافاً. بقصد القول انها اكراماً لذكرى [كليارخوس] راحت تأتمر بحياة ملكة شرعية هي أم ولاة عهد الامبراطورية. ولكن هذا لايمكن ان يكون دافعاً يقبله المنطق والعقل. ومن الواضح ان هذا الجزء من رواية [قطسياس] ما هو الاّ تأبين وتشييع تكريمي لجنازة كليارخوس. لقد اراد منا ان نصدق بان جثته وحدها سلمت من تمزيق الكلاب ونهش الطيور عندما نفذ حكم الموت بكلّ قادة الحملة، اذهبت ريح شديدة فدفعت كميات كبيرة من التراب فوق الجثة فحجبتها عن الحيوانات. ثم سقطت فوق هذه التربة ثمرات، فأنبتت روضةً جميلة من الاشجار الضليلة. حتى ان الملك نفسه أبدي اسفه لما فعل، لأنه استنتج من ذلك انه قتل بشخص [كليارخوس] رجلاً خصته الآلهة بحبّها!

كانت [پاريساتس] منذ البداية تكره كنتّها وتضمر لها حسداً وغيرةً فقد وجدت ان

خطواتها عند زوجها [ارتحششتا] متأت من الحبّ والثقة؛ وهما اقوى عوامل الثبات فيها. في حين ان خطوتها عنده مبعثه احترامه وتقديره لها كأم. فقرّ عزمها على السعيّ لاهلاكها، وهي على معرفة بأنها تقوم بأخطر مجازفةٍ متصورة. كان ثم من بين وصائفها امرأة تدعى [جيجيس Gigis] اختصتها باكبر الثقة، وهذه هي التي عاونتها في اعداد السمّ كما يروي لنا [دينون]. امّا [قطسياس] فيزعم انها كانت مطلعة على الموضوع لا أكثر، وقد تمّ خلافاً لرأيها. واتهم [قطسياس] [بيليتأرز Belitaras] بأنه الفاعل الأصلي. لكن [دينون] يذكران [ميلانتاس Melantas] هو الذي قام بدسّ السمّ بدأت المرأتان تتزاوران وتتناولان الطعام معاً كالسابق ومع ان حدّة التحاسد والتباغض قد خفت الى حَدّ ما فيما بينهما الاّ انهما ظلتا تتبادلان الحذر والخوف فلا تأكلان من صحاف مختلفة بل تتناولان الطعام من صحفةٍ واحدةٍ دائماً. وكان ثم طير صغير الجرم يكثر في بلاد فارس فقط، ولايوجد في احشائه غائط، بل هو كتلة من الشحم ولذلك اعتقدوا ان هذا الحيوان الصغير انما ـــــ بالهواء والندى وهم يسمونه [رينتاسس Rhyntaces]. يؤكد لنا [قطسياس] ان [پاريساتس] قطعت هذا الطائر الى نصفين بسكين لوثت احد وجهيها بنقيع السمّ فأكلت هي الجزء الذي لم يلوثه السمّ وقدمت [لستاتيرا] الجزء المسموم. الاّ ان [دينون] ينفي هذه الحكاية ويقول ان [ميلانتاس] هو الذي قطع الطير واعطى [ستاتيرا] القسم المسموم فأصيبت بتشنج وكابدت الآماً رهيبة وادركت وهي في نزعها الأخير بانها مسمومة ووجهت شك الملك الى امّه، وكان يعلم حق العلم من اية طينة جبلت ويعرف ما طبعت عليه نفسها الشريرة. فبادر فوراً باجراء التحقيق وقبض على كل وصائفها وخدام منزلها المكلفات بشؤون الطبخ واعداد المائدة وسلمهّن الى الجلادين لتعذيبهن. الاّ ان [پاريساتس] اخفت [جيجيس] وابقتها معها في الدار مدةً فأمرها بتسليمها الاّ انها امتنعت. واخيراً رغبت هذه الوصيفة في العودةِ الى بيتها وكان الوقت ليلاً. وعلم الملك فأرسل من كمن لها وقبض عليها وأمر بقتلها.

ان عقوبة الموت المفروضة على المجرمين تنفذ في بلاد فارس قانوناً على الشكل الآتي وصفه: هناك صخرة مسطحة يستقر عليها رأس المحكوم فيدق رأسه ويهشم بصخرة اخرى حتى يسحق الوجه والرأس الى شظايا وقد طبقت على [جيجيس] الاّ ان ارتحششتا لم يقل شيئاً لأمه ولم يلحق بها اذىً لكنه ابعدها الى مدينة بابل وهو ما لم تكن تكرهه. وحلف ان لايقرب تلك المدينة مادامت حية.

هذا ما كان من امر شؤون الملك المنزلية وآل بيته.

فشلت مساعي [ارتحششتا] وخابت محاولاته في أسر حملة الاغريق التي حاربت مع

كورش. ولم تكن رغبتـه في ذلك تقلّ عن رغبتـه في التغلب على [كورش] والمحافظة على عرشـه. لقد كـتبت النجـاة لسـائر جنود الحـملة رغم انهم خسـروا قـوادهم وانتـشـروا في بلاد الاغـريق يذيعون حقيـقة أمر الملك الفـارسي ويقولون انه غنى جداً، لايلحقه بشر بترفه وكثرة نسـائه، الاّ أن مـا تبـقى ان هو الى مظاهر جوفـاء لاتخفي تحتهـا شيئـاً. وعندمـا دبّت الحميـة والشجاعة في نفوس الاغريق جميعاً واستهانوا بقوة البرابرة ولاسيّما اللقيديمين الذي خيل لهم ان الوقت قـد حان لـتحـرير ابنا ء وطنهم المسـاكين من عـبوديتهم للفرس في آسـيـا. وان يضعـوا حداً للاضطهـاد والمعاملة السـيئـة التي يلقونهـا. فـجـهـزوا اولاً جيشـاً، وسلمـوا قـيـادته الى [ثيـمبـروين Thimbroin]، ثم الى [ديركيلليـداس Dercyllidas]. ولكنهم لم يحـقـقـوا شيـئـاً يذكر. وأخيراً سلمـوا القيادة لملكهم [اغيسيلاوس] الذي انزل قواته في آسيا واخذ النجاح تلو النجـاح يحـالـفـه اذ دحـر تيـسـافـرنس في مـعـركـة طاحنه واطلق الثـورة فـي عـدة مـدن. وكـان ارتحـشـشـتـا يدرك سـبـيـلاً غـيـر الحـرب لمعـالجـة ذلك. فـعـمـد الى ارسـال [تيـمـوقـراطس Timo-crates] الروديسي الى بلاد الأغريق بمقدار كبير من الذهب وأمره باغـراء زعمـاء المدن وتوزيع هذه الأمـوال عليـهم دون حسـابٍ او تردد. وان يعـمل على اثارة حـرب اغريـقيـة تكون سـپـارطة هدفاً لها. فأتبع [تيـموقـراطس] تعليـماتـه فهبت أكثر المدن تناصب [سپارطة] العداء وعمت الفوضى كل [الپيلوپونيسس] واسـتدعى مجلس الايفور [اغيـسيلاوس] من آسيـا. وقد روى انه قال لاصدقائه وهو يتهيأ للعودة ان ارتحششتا قد طرده من آسيا «بثلاثين ألف رام» يشير بذلك الى النقش الذي يرى على قطعة النقد الذهبية الفارسية فهو يمثل رامي قوس.

وطهر [ارتحـشـشـتـا] البحار من اللقيـديمـيـين وكان اسطوله مـعقـود اللواء للاميرالين [كونون Conon] الآثيني، و[فارنا بازوس]. كان [كونون] بعد معركة [ايغوسپوتامي Aegospoto-mi] قـد سـكن قـبرص. لا لأنه كـان يحـرص على سـلامـتـه، بل انتظاراً منه للاحداث. ولم يكن بأقل أمـلاً من أولئك الذين ينتظرون تغييـراً في اتجـاه الريح البـحرية. وكـان يدرك ان مـؤهلاتـه وبراعته في حاجـة الى القوة. وان قوة الملك تحتاج الى توجيه رجل ذكي. فأرسل اليـه بتفاصيل خطةٍ قـام باعـدادها، واوصى الرسـول بان يسلمـهـا الى الملك يداً بيـد ان أمكـن، وان يسـتـخـدم لذلك وساطة [زينو] الكريتي أو [پوليقريطس Polycrites المندي Mandaen] (اولهما معلم رقص، وثانيـهما طبيب) فلم يجدهمـا فأتصل بقـطسياس الذي قـيل انه تسلم رسالـة [كونون] ودس فـيهـا عبـارة ترجو الملك «ان يبعث بقـطسيـاس مع رده لانه سيـكون ذا فائدة في الاقـاليم الساحلية» الاّ ان قطسيـاس ينفي ما عزي اليه ويقول ان الملك انابه من تلقاء نفسه ليقوم بهذه المهـمة. على اية حال استظهر [ارتحششتا] على اللقـيديميين في معركة [كيندوس] البحـرية

وكان [فارنابازوس وكونون] يقودان اسطوله. وهكذا قضى على سيادتهم البحرية وانحاز الاغريق كلهم الى جانبه وقيل أن عهد السلام الشهير الذي ابرم فيما بينهم المعروف «بسلم انتاقليداس» كان من اقتراحه. وانتاقليداس [Antaclidas] هذا هو ابن ليون السپارطي. كان احد خاصة الملك وممن يعتمد عليهم. فاوض اللقيديين واقنعهم بعقد معاهدة يتنازلون فيها عن كل حق لهم في المدن الاغريقية الآسيوية وكل ما جاورها من الجزر للملك فلا يعارضون سلطته عليها. وبذلك احلّ السلم بين الاغريق، اذا كانت كلمة السلم النبيلة تصح لوصف عملٍ هو في الواقع عار على الاغريق وغدر بهم. انها في معاهدة اشنع واقبح من اية معاهدة يمليها غالب في الحرب على مغلوب. ومع ان [ارتحششتا] كان شديد المقت للسپارطيين ويعتبرهم اشدّ الشعوب صلافة ووقاحة، الاّ انه خصّ [انتاقليداس] بكثير من التكريم وقربّه اليه عندما زاره في بلاده. وبلغت حظوته عنده انه نقع قلادة زهرٍ في انفس واندر عطرٍ وبعث بها اليه بعد العشاء، وكانت التفاته أثارت الدهشة في انفس الجميع. في الواقع انه كان شخصاً جديراً بهذه المعاملة من ارتحششتا وباحرازه هذه الهدية النفيسة، بعد أمر مكر بـ[ليونيداس] و[كاللبركراتيداس Callicratidas]، لمصلحة الفرس. فقد هتف واحدٌ منهم لا ادري ايهما - قائلاً:

- ما اتعس حظ اليونان، بعد ان اصبح السپارطيون ميديين!

فأجاب [اغيسيلاوس]:

- كلاّ، بل الميديين هم الذين اصبحوا سپارطيين.

ولم تغنِ دقة الجواب ولم تمسح عار النتيجة. فما لبث اللقيديون ان فقدوا سيادتهم على اليونان بهزيمتهم في - [ليوكترا Leuctra] على انهم اضاعوا شرفهم قبلها بالمعاهدة التي ابرموها. وقد ظلّ انتاقليداس يتمتع بالحظوة لدى الملك فيدعوه بالصديق والضيف العزيز حتى معركة [ليوكترا] التي مرغت كبرياءهم في التراب واذلتهم، وجعلتهم في حاجة كبيرة الى المال وارسلوا [اغيسيلاوس] الى مصر، وانتاقليداس الى ارتحششتا ليطلبا مالاً يكفيهم ادنى حاجتهم. فاهين [انتاقليداس] واحتقر، ولم يبت طلبه فعاد الى بلاده خائباً ليكون موضع هزء واهانة خصومه. ودبّ في نفسه الخوف من صولة الايغور. فأعلن اضراباً عن الطعام حتى مات. وزار ابسمينياس [Ismenias] الثيبي وپيلوپيداس اللذان انتصرا في موقعة [ليوكترا] البلاط الفارسي ولم يقدم ثانيهما على ما يحط من مكانته وسمعته خلال زيارته، امّا ايسمينياس، فقد طلب منه الانحناء الى الملك وفيما هو يفعل سقط خاتمه على الارض فانكب معفراً وجهه ليتناوله، فبدا وكأنه يقوم برفع فروض الولاء والطاعة. واظهر الملك رضاءً وسروراً

بالخدمة التي اداها له [تيماغوراس Timagoras] الذي ارسل له انباءً هامة بوساطة امين سرّه [بيلوريس Beluris] بعشرة آلاف (داركي). وعلم انه مريض وانه اشير عليه بشرب حليب البقر فاستاق اليه ثمانين بقرةً حلوباً وارسل اليه معها سريراً واثاثاً له وخدماً لنصب السرير وترتيبه لأن الاغريق لا معرفة لهم بمثل هذه الأمور ولايملكون الحذق الكافي لصنع مثل هذا الاثاث. وكذلك ارسل رجالاً لحمله الى ساحل البحر وهو مستلق عليه بسبب ضعف بنيته. وعلينا ان نذكر ايضاً الحفل الذي اقيم له في البلاط. كان من الفخامة والروعة بحيث دفع [اوستانس] اخ الملك الى التوجه اليه بالقول الآتي:

- لاتنس يا تيماغوراس Timagoras المائدة الفخمة التي جلست اليها هنا؛ انها لم تفرش لك عبثاً.

وهو لاشكَّ تعريض بخيانته اكثر مما هو تذكير له بكرم الملك. والواقع ان الآثينيين حكموا على [تيماغوراس] بالموت لارتشائه.

وازاء الكثير من الاساءات والأذى الذي الحقه ارتخشتا بالاغريق فإنه ارضاهم في مسألة واحدة، وهي انقاذهم من طغيان [تيسافرنس] اخبث اعدائهم وابغضهم الى قلوبهم. فقد انفذ فيه حكم الموت. كانت [پاريساتس] قد شجعته على اتخاذ هذا القرار وأيدت التهم التي ادين بها. لأن الملك لم يبق مقيماً على خصامه معها. فقد انفثأ غضبه بعد وقت وجيز وصالحها وارسل يستقدمها اليه مستفيداً من ذكائها وشجاعتها وحسن مشورتها. ولم يعد بينه وبينها اي سبب للنفرة واخذا يتعاونان في شتى الامور ويتبادلان وجهات النظر دون شكوك. وعملت هي جهدها لارضاء الملك والترويح عنه بتيسير كلّ ما يشتهيه ويهفو اليه قلبه، ولم تعد تعيب عليه اي شيء يقدم عليه. وبهذا زاد نفوذها عنده وقوي وسلطانها عليه حتى صار يلبيّ كل ما تطلب منه. وادركت انه يهيم حبا [باتوسا] احدى ابنتيه. الأ انه كان يخفي عاطفته هذه ويقمعها خوفاً من امّه بالدرجة الأولى الا اذا صدقنا روايات بعض الكتاب - الذين يزعمون انه أطفأ نار رغبته منها سراً. ما ان شكت [پاريساتس] بحقيقة الأمر حتى اخذت تظهر للفتاة كثيراً من الودّ وراحت تبالغ في وصف فضائلها وسجاياها وجمالها له، ومجمل القول فانها راحت تزين له الاقتران بها واعلانها حليلةً شرعية، خلافاً للمبادئ الخلقية والقوانين المتعارف عليها بين الاغريق. لأن الملك عند الفرس هو مصدر القانون بارادة الآلهة، وهو القاضي الأعلى والحكم في ما هو خير وما هو شرّ. واكد بعض المؤرخين ومنهم هيراقليدس [الكومي Cuma] انه لم يكتف بالزواج من هذه الأبنة، بل تزوج ايضاً بنته الثانية [اميتريس Ameitris] التي سيرد ذكرها بين آن وآخر في السباق. الأ انه كان شديد التعلق باتوسا حتى

انه لم ينفر منها قط عندما اخذ الجُذام ينتشر في انحاء جسمها وانما راح يبتهل الى [جونو] لأجلها. والى هذه الرّبه وحدها دون سواها كان يصلي ويقدم لها فرائض العبادة ببسط يديه على الارض. وحذا كل ساتراب حذوه وتنافسوا مع اصدقائه في رفع التقدمات اليها حتى اكتظ الطريق اليها بالنفائس والذهب والفضة والخيل والارجوان من الهدايا الى مسافة ستة عشر فرلنگ الممتدة ما بين معبدها والبلاط الملكي.

وارسل [فارنابازوس] و[ايفيقراطس Iphicrates] على رأس حملة الى مصرٍ ولكنه لم ينجح في حربه هذه بسبب الخلاف الذي نشب بين القائدين. وفي حملته على القادوسيين Ca-dusian تولى القيادة بنفسه واغار بثلاثمائة الف راجل وعشرة آلاف فارس على اراضيهم الجبلية التي يتعذر اقتحامها. الى جانب الضباب الكثيف الذي يخيم عليها دائماً وجدبها وقلة ثمارها فهي لاتغلّ اي نوع من الغلة كالقمح، ما عدا التفاح والكمثرى وغيرهما من انواع الفاكهة وعليها فقط يقتات هذا الشعب الجسور الذي رضع حبّ القتال والحرب منذ نعومة اظفاره. فاحدقت الاخطار بحملته، ووقع في ضيق شديد وعضهم الجوع بنابه اذ لم يكن ثم طعام يصلح لجنوده مما تنبت تلك الأرض ولم يجد وسيلة لنقل الارزاق من مكان آخر فعمدوا الى ذبح حيوانات اثقالهم. وبلغ ثمن رأس الحمار ستين دراخماً. واقفرت مائدة الملك مما يغري بالأكل. واستهلكت الخيول الاّ القليل. وهنا تفتق ذهن [تريبازوس] عن حيلة انقذ بها الملك وجيشه. كان حظّ تريبازوس عرضة للتغير المفاجيء عند الملك. فيبدو حيناً مقرباً منه حائزاً رضاه، ليجفوه وينفر منه بعدها فيهوى به جدّه الى الحضيض وهكذا أختلف نجمه بين صعود وافول بسبب بسالته وبسبب تهريجه والأعيبه. وكان في ذلك ألوقت في اسوء حالٍ من الاهمال والجفوة عندما تقدم باقتراحه: يحكم القادوسيين ملكان كل منهما يعسكر بقواته فوق مرتفع بعيد عن الآخر. مثل [تريبازوس] امام الملك وافضى اليه بخطته فوافق عليها. فأرسل ابنه الى احد الملكين وقصد الثاني منهما بنفسه وانطلت الخدعة التي عملاها. فقد اكدّ كل واحدٍ منهما الى هذين الملكين بان صاحبه قد اوفد سفيراً الى ارتحشِشتا بطلب عقد معاهدة صداقة وحلف لنفسه. فان كان حكيماً فعليه ان يسبق زميله ويتصل بالملك قبل ان يعقد هذا الحلف على حسابه. وانه [اي تريبازوس او ابنه] سيعاونه وسيسعى له في ذلك عند الملك. فصدق الملكان كذبة الأب والابن كل من تأمر الآخر. ولذلك بعث كل واحدٍ منهما بسفير، برفقة الرسولين المزعومين تريبازوس وابنه.

استغرقت هذه العملية وقتاً ولذلك شك في تريبازوس وابنه، وفوتح الملك بهذه الوساوس، وكان اليأس والندم من وثوقه به قد بدأ يتسرب اليه، فبدء يعير اذناً صاغية للواشين

الحاسدين. غير ان الأب والأبن عادا أخيراً، وكل منهما برفقه مندوب قادوسي. فأعلنت هدنة وسلام وعاد [تريبازوس] الى الوطن مع الملك وهو يختال بالحظوة التي نالها وبالمقام الذي ارتفع اليه عند الملك. لقد اثبت [ارتخشتا] بحملته الخطرة هذه، ان الجبن والخنوثة لايتأتيان من ترف العيش ونعومته كما يظن الكثيرون، بل من آثار الطبع الفاسد الوضيع الذي يحركه سوء الرأي وخطله. اذ بصرف النظر عما كان يرتديه الملك من نفيس الثياب والذهب والحلى الفاخرة مما لاتقلّ قيمته عن اثني عشر الف تالنت، لم يجد اي معرّة في مشاركة اصغر جنوده رتبةً تعبهم وكدحهم. فقد كنت تراه وقد شد كنانته الى جنبه وامسك بترسه يقود جيشه سائراً على قدميه تاركاً حصانه جانباً، يجوس المسالك الوعرة ويهبط الشعاب الحادة. وكان عمله هذا يشيع في نفوس الجنود الراحة ويشد من عزائمهم. في حين كان وجهه الباسم وقوته التي لايعتريها وهن تجعل لجنوده اجنحة وتخفف اعباء السير عنهم. وبلغ معدل ما كانوا يقطعونه في اليوم الواحد مائتي فرلنگ.

ووصل الجيش الى قصر من قصور الملك الريفية، امتاز بحدائقه الزهراء وجنانه البديعة النظام. وكان يقع وسط اقليم قاحلٍ ماحلٍ لاترى فيه نبتاً ولا شجراً وكان البرد شديداً لايحتمل فأطلق جنوده يحتطبون لأنفسهم ما شاؤا دون قيدٍ او شرط من اشجار الحدائق ولم يستثن حتى اشجار السرو والصنوبر الثمينة. وكانت اشجاراً سامقة مهيبة فترددوا ونكصوا عنها، فما كان من الملك الا ان تناول فأساً واهوى بضرباته على اكبرها واجملها منظراً فحذا الجنود حذوه واشعلوا نيراناً عظيمة وقضوا ليلتهم في راحةٍ ودفء. على ان الملك مني بخسائر في اشجع رجاله لم تكن بالقليلة، كما فقد كل خيوله. واخذ يشكّ في ان فشله وسوء حظه افقده مكانته عند الشعب واشاع فيه الاحتقارله واوجس خيفة من نبلائه بصورة خاصة فأوقع بهم مذبحة. قتل بعضهم بدافع الخوف وبعضهم بسورة من غضب. ان الخوف في الواقع هو اشدّ حافزٍ للامراء الى البربرية وسفك الدماء. اما الثقة فتدفع الى الرحمة والعطف وصفاء القلب من الشك ولذلك نجد اشدّ الوحوش ضراوة اقلها الفة، واكثرها نفرة خوفاً واسرعها اثارة اما الحيوانات الراقية والاكثر نبلاً مما تجعلها شجاعتها موضع ثقة، فهي اكثرها تجاوباً للألفة والصداقة مع البشر.

بلغ ارتخشتا من العمر عتياً، ليجد ابنيه يتنافسان على عرش مملكته ولكلّ منهما حزبه المؤلف من اشراف مملكته ومقربيه. اما المحايدون العقلاء فكانوا يرون ان الحكمة والعرف يقضيان بتولي الابن الاكبر سناً وهو [داريوش] مثلما تسلم [ارتخشتا] نفسه الملك بوصفه الابن البكر. وكان الأخ الاصغر [اوخوس Ochus] العنيف الحادّ المزاج، مسنداً من عدد كبير

من رجال البلاط. الاّ ان امله الاكبر كان [باتوسا] اخته التي منّاها بالزواج وبجعلها شريكةً له في الملك ان هي استطاعت اقناع ابيه باعلانه وليّ عهده. في الواقع كان ثم اشاعات بوجود علاقةٍ صميمة فيما بين الاخت وأخيها وهو ما كان موضع جهلٍ من الملك. وكان [ارتحششتا] يريد اختيار الوقت المناسب ليقضي على أمل [اوخوس] في الملك، لئلا ينجم عن محاولته الشبيهة بمحاولة عمه - نزاع قد يؤدي الى الحربِ وخراب المملكة. وسنحت له الفرصة بعد قليل فبادر الى اعلان [داريوس] ولياً للعهد وكان له من العمر خمسة وعشرون عاماً. وسمح له ان يعتمر بالقلنسوة الطويلة كما يسمونها وهي شعار الملك. وقد جرى العرف ان يطلب ولي العهد الجديد طلباً ممن أعلنه وريثاً لعرشه. وحتمّ التقليد ان يجاب طلبه هذا مهما كان شريطة ان يكون ضمن مقدرته ومجال سلطانه. وكان مطلب [داريوش]، [اسپاسيا Aspasia] وهي احبّ واثمن محظيات عمه كورش، وكانت في حينه من نساء الملك وهي فوكيّة Phocae الولادة، آيونية الموطن ولدت لابوين حرّين ونالت تهذيباً حسناً. ويروى ان كورش كان جالساً للعشاء يوماً فجيء بها اليه لاول مرة مع فتيات آخر فأجلسن بالقرب منه فأنشأ يمازحهنّ ويعابثهن ويباسطهن الحديث ورفع الكلفة تماماً في مغازلته لهن. الاّ ان اسپاسيا لم تجاره في عبثه وظلت واقفة صامتة وابت التقدم من كورش عندما استدناها؛ فلما همّ حجابه باستخدام القوة صاحت بهم.

- من يضع يده على سيندم.

وبدت جافة خشنة الطبع سيئة السلوك الاّ ان تصرفها هذا احدث أطيب الاثر في نفس كورش فضحك وقال للرجل الذي اتى بالفتيات.

- بالتأكيد ان هذه الفتاة هي الوحيدة من كل من جئت به فهي تمتاز بخلق طاهر نبيل ولم يمر عليه زمن طويل حتى كان اهتمامه قاصراً عليها وزاد كلفه بها ـــ على سائر نسائه ولقبها بالعاقلة وكانت من بين الاسلاب عندما قتل لاشكّ ان الملك استاء كثيراً لطلب ابنه هذا. لأن حرص البرابرة على نسائهم وموضع متعتهم معروف. والموت هو عاقبة كل من تعرض لهن باي شكل من الاشكال، ولايقتصر التعرض على التقرب او لمس مخظية من محظيات الملك بل يعتبر من قبيل التعرض تقدم الركب او سبق العربات التي تقلهن اثناء رحلةٍ. ولذا ازعجه طلب [داريوس] كثيراً مع انه لم يستنكف عن الزواج ببنته [اتوسا] اطفاء لشهوته متحدياً كل النواميس، ومع انه كان يملك ثلاثمائة وستين مخظيّة كلهن آيات في الجمال. فأعتذر لابنه قائلاً ان من يطلبها ليست امةً بل حُرّة. وان من حقها ان تختار فان رضيت به فهي له والاّ فليس من حقّه ارغامها. قال هذا وارسل

يستدعي [اسپاسيا] التي لم تتردد في اختيار [داريوس] خلافاً لما توقعه الملك منها. فلم يسعه الاّ التخلي عنها تحت حكم التقليد المتبع. الا انه لم يصبر وانتزعها منه بعد زمن بحيلةٍ، بان كرّسها كاهنة لـ[ديانا اكبتانا] التي يسمونها [آيناتس Anaitis]. حتى تقضي بقية حياتها بعيدة عن الرجال وفي حالة العفّة التامة، وكان يظنّ ان انتقامه هذا الذي يتسم بالاعتدال ويختلط فيه الجدّ بالهزل، لن يؤثر في ابنه كثيراً. فخاب فأله اذ كان حنق الإبن شديداً وسواء أنجم عن غرامه الشديد باسپاسيا أم عن شدّة وقع الإهانة والتحقير. وادرك [تريبازوس] ما يعتمل في نفس الفتى فسعى لتأريث هذا الحقد لانه وجد الاهانة شبيهة بما ناله في المناسبة التالية:

وعد [ارتحششتا] بتزويج [اپاما Apama] بنته من فارنابازوس وبتزويج ابنة أخرى له تدعى [رودوغونه Rhodoguna] من [اورنتس Orantes] وبتزويج بنت ثالثة اسمها [امستريا Amestria] من [تريبازوس] الاّ انه نكل عن وعده لهذا الأخير واتخذها لنفسه زوجاً. على انه اراد ان يعوضه عن ذلك فعقد له على صغرى بناته [اتوسا] الا انه وقع في حبها كما اسلفنا فتزوجها. فاضطغن له وحقد عليه حقداً شديداً. وكان [تريبازوس] معروفاً بنقلب الاهواء والتهور وبعده عن الهدوء. وسواء اوجد نفسه مقرباً من الملك ام من المغضوب عليهم فتراه بعيداً عن الاعتدال في اي من الحالتين ان استدني تواقح وطغى بصورة لاتحتمل. وان تجوفي وابعد لايستسلم ولا يسالم، بل تجده ثائراً عنيفاً. فكان ناراً تسعرّ نار الأمير، ما يفتأ بحثه على العمل ويدفعه بعباراته الثائرة كأن يقول له:

- من العبث ان لايهتّم ذوو القلانس الطويلة بأمورهم على الوجه الصحيح: واني لأراك قصير النظر مأفون الرأي ان كنت ضامناً ارتقاءك العرش، ولديك أخ يتطلع الى هذا المركز الأسمى ويبحث عن السبل المؤدية اليه في اجنحة الحريم ومخادع النساء، وابوك ذو المزاج السريع التقلب، والطبع النزف الذي جعله يتخطى اقدس القوانين الفارسية واكثرها حرمةً حبًا بفتاةٍ آيونية ليس من المحتمل قطّ ان يكون مخلصاً في اهم عهدٍ قطعه.

وزاد على ذلك قوله:

- ليس من حق اوخوس ان يصل الى التاج ولا ضرار عليه ان لم يصله وليس من حقك ان تنزل عنه او تهمل أمر المحافظة عليه. فاوخوس مواطن بسيط من الرعية، وبامكانه ان يعيش بهدوءٍ وهناء وليس ثم ما يخشى منه. ولكنك انت الذي نودي بك ملكاً امامك طريقان لا ثالث لهما. امّا ان تقبض على صولجان الملك فعلاً او ان تخاطر بحياتك في سبيل ذلك.

اثارت [داريوس] هذه الأقوال. ولاشك ان [سوفوكليس] لم يتعد الحقيقة حين قال:

ان سبيل الاقناع بما هو خاطيء سهل وسريع

ذلك لأنه ممهد بارادتنا. ومعظمنا يميل الى شرّ بسبب بعده عن الخير وجهله به. وفي هذه القضية كانت حجّة [تريبازوس] قوية ومادة اقناعه لايأتيها فشل بسبب سعة رقعة الامبراطورية والغيرة التي يشعر بها [داريوس] من اخيه، ولم تكن [ثينوس] بعيدة ايضاً. فهناك خسارته [اسپاسيا] مما يجب ان يدخل في الحساب. وهكذا اسلم [داريوس] مقاديره لتريبازوس واصبح طوع امره. وازداد عدد المؤتمرين الملتفين حولهما. وأطلع احد الخصيان على ما يدبر في الخفاء فأبلغ الملك بتفاصيل الخطة المرسومة لتنفيذ المؤامرة وتتم باقتحام مخدعه ليلاً وقتله وهو نائم. لم ير ارتحشستا ان يستهين بخطر كبير كهذا، ولا ان يثق بوجوده لان الدليل كان ينقصه، او ان الدليل لم يكن من الضعف بحيث يستدعي اهمال المسألة ولذلك قام الملك بالخطوات التالية: أمر الخصبي ان يواصل الاجتماع بالمؤتمرين ويلازمهم ولايدعهم يغيبون عن مراقبته. ثم عمل فتحة في جدار مخدعه خلف سريره ووضع عليها باباً يفتح ويغلق ووضع سجادة فوقه ليخفيها. ودنت ساعة التنفيذ وابلغه الخصيّ بالموعد الذي قرره المؤتمرون لتنفيذ عملية الاغتيال فانتظرهم وهو مستلق على سريره ولم يغادره الاّ بعد ان تبين وجوه مهاجميه وعرفهم واحداً واحداً. ولما أخترطوا سيوفهم وتقدموا نحوه، رفع السجادة ودلف الى الغرفة الصغيرة واحكم رتاج الباب واطلق صيحة. ولما تأكد القتلة انهم انكشفوا وان الملك لم يعد في متناول يدهم، اسرعوا بالخروج من حيث اتوا وحثوا [تريبازوس] ورفاقه على الهروب بعد افتضاح مؤامرتهم فهربوا كلاً في سبيل. الاّ ان حرس الملك كانوا في اعقابهم فأدركهم وقتل منهم عدداً كبيراً واطبقوا على تريبازوس وقُذف برمح من بعد فصرعه. اما [داريوس] فقد احيل مع اولاده الى المحاكمة. وعين الملك قضاةً مدنيين للنظر في قضيته. ولكونه غائباً فقد اتهم بالواسطة وامر كتبته بتدوين رأي كل قاضٍ وجلبه اليه. وبعد ان أجمعت الآراء على موته اخذه الضباط الى غرفة قريبة، واستدعي الجلاد فجأة وبيده الموس التي يستخدمها ارباب صنعته عادة في حزّ رؤوس المحكومين ولكنه ارتاع واحجم وانكفأ. الى الوراء عندما تبين [داريوس] واراد ان يترك الغرفة وقد خانته قواه. الاّ ان القضاة الذين كانوا واقفين بباب الغرفة، حالوا بينه وبين الخروج وهددوه وتوعدوه فعاد وقبض على شعر رأسه وجرّ وجهه الى الارض بيد وقطع رقبته باليد الأخرى. ويؤكد بعضهم ان الحكم صدر بحضور ارتحشستا وان [داريوس] بعد ان ادين بالجرم المشهود انطرح على قدميّ ابيه مستعطفاً مستغفراً. وبدلاً من العطف عليه نهض غاضباً واخترط سيفه وصار يضربه به حتى قتله. ثم خرج الى القصر وتوجه بالدعاء الى الشمس قائلاً:

- اذهبوا يا أيها الفرس بسلام وأعلنوا لاخوانكم رعاياي عن القوة التي صبّ بها اهورمزدا انتقامه على فاعلي الشر والأثم.

تلك كانت عاقبة المؤامرة. وكبرت آمال [اوخوس] وعلل نفسه بنفوذ [اتوسا] الاّ انه كان يخشى اخاه [آريا آسپس Ariaspes] الذكر الوحيد الباقي من النسل الشرعي لابيه خلافه. وكذلك كان يخشى [آرسام Arsames] احد ابناء ابيه غير الشرعيين. وكان [آريا اسب] محطّ انظار الفرس وكانوا يرغبون في ان يملك عليهم لا لأنه اكبر سنّا من [ارخوس] بل لأنه امتاز عنه بلطفه وعدالته وسمّو خلقه، الاّ ان [ارسام] كان اصلح لتولى الحكم لرجاحة عقله. كذلك كان [اوخوس] يعلم انه المفضل عند ابيه. فأخذ ينصب لاخويه هذين الفخاخ وكان غدره لايقل مطلقاً عن قوته فاستخدم الأخيرة ضدّ [آرسام] واستخدم الثاني ضدّ [آريا ايب]. ودفع خصيان ابيه والمقربين الى ان يختلقوا اقوالاً على لسان الملك وينقلوها الى [آريا اسب] كقولهم ان الملك اصدر الاوامر بانزال انواع النكال به واذاقته شرّ ميتة. ينقلون اليه هذه الاكاذيب يومياً ويهمسون بها في اذنيه بوصفها أسراراً. وقالوا له ان الملك ينوي الفتك به وشيكاً وان الضربة لاتلبث ان تهوى عليه، حتى اطاروا صواب الفتى المسكين وملأوا رأسه اوهاماً وهواجس فعمد الى سمّ كان قد هيّأه فشربه تخلصاً من حالته. وعلم الملك باسباب موته فبكاه وتحسّر عليه وحزن حزناً صادقاً. وخالجه الشكّ في هوية من دفعه الى هذا المصير الاّ ان شيخوخته وضعفه حالاً بينه وبين تحري الادلة والبراهين. وزاد تعلقه [بارسام] بعد موت هذا الابن ووضع فيه كل ثقته وجعله أمين سرّه ومستشاره، فلم يطق [اوخوس] صبراً عليه واستخدم [ارپاطس Arpates] ابن [تريبازوس] لقتل أخيه. ولم يكن ارتخششتا اذ ذاك غير انفاس تصعد وتهبط ولما ابلغ بمصير [ارسام] لم يحتمل الصدمة ومات تحت وطأة الحزن وله من العمر اربعة وتسعون عاماً. حكم منه اثنتين وستين سنة، كان فيها حاكماً معتدلاً يميل الى الرأفة ولاسيما اذا قورن بابنه اوخوس الذي فاق جميع اسلافه في القسوة وسفك الدماء.

١٩٧٢/٣/٨



گالبا

GALBA

(Servius Sulpicius)

5-69

اعتاد الفيلسوف [ايفيقراطس Iphicrates] القول: من الأفضل ان تستخدم الجنود المرتزقة الذين لايهمهم من الدنيا غير المال والملاذ، فهم اكثر اقداماً واقوى مراساً من الآخرين لأن القتال سبيلهم الوحيد للوصول الى ما يشبع رغباتهم. على ان الكثرة ترى غير هذا وتقول ان تركيب الجيش هو اشبه بتركيب جسم الانسان عندما يكون في حالة الصحّة فان اعضاءه كلها تطيع اوامر الرأس وتسير على هديه بانتظام، ولايعمل كل منها على هواه ويحدثنا الرواة مصداقاً لهذا، ان [پاولس اميليوس] تسلم قيادة القوات المرابطة في مقدونيا، فراعه ما وجد بينهم من الفضول والتدخل في شؤون لاتعنيهم وكثرة الكلام الى حَدّ الوقاحة، حتى لكأن كل واحد منهم قائدٌ. فاصدر امراً يومياً جاء فيه «فلتكن ايديكم على استعداد ولترهفوا نصال سيوفكم، امّا الباقي فاتركوه لي». وافلاطون نفسه لم يكن يؤمل من اي حاكم داهية او جنرال موهوب خيراً ان لم ينل من جنوده الثقة والطاعة والانسجام (يرى ان فضيلة الطاعة كفضيلة الحكم لاتتوفر الاّ في الخلق النبيل الذي يدعمه التهذيب الفلسفي، فتتحالف القوى الفاعلة مع ارق الأحاسيس واكثرها انسانية)، بوسع هذا الفيلسوف ان يورد دعماً لمبدئه هذا مختلف الأحداث المحزنة. ولاسيما تلك التي عقبت موت [نيرون] عند الرومان حيث تضافرت البراهين على ان ليس ثم افظع وافجع من القوة العسكرية حين تنطلق من عقالها فتصول وتجول في الامبراطورية دون رادع من العقل، ولا رقيب موجّه ان [ديموادیس Demuades] بعد وفاة الاسكندر الكبير شبّه الجيش المقدوني [بالسيكلوب Cyclops] التي اقتعلت عينها الباصرة لما اقدموا عليه من فوضى وتخريب. الاّ ان الكوارث التي انزلها الجيش بالحكم الروماني هي أشبه بحركات العمالقة giants الذين هاجموا السماء، يعتورها التشنج مرة، وينتابها الانبساط مرة أخرى، ثم تنطوي على نفسها وتنسحب، وذلك حسب اهواء اولئك الذين نودي بهم اباطرةً فضلاً عن اطماع الجنود وجشعهم ومويقاتهم. فلقد كانوا يقتلعون القواد واحداً بعد الآخر كما يقتلعون اظافر الانامل.

قال [ديونيسيوس] عن حكم [الفيريّن Phereans] هازئاً «لقد كان حكمهم تراجيدياً» ذلك لم يستمتعوا بالحكم غير استقبال مالا يقلّ عن اربعة أباطرة خلال مدة تقل عن عشرة

اشهر. مثلهم في ذلك الممثلين يظهر أحدهم على خشبة المرسح فلا يلبث أن يخلي موضعه للتالي وهكذا.

ذلكم هو الانتصاف الوحيد المدّخر للمضطهدين. فليس ثم عدالة وقصاص ينزل بساحة مضطهديهم أقوى واشد من ان يشاهدوهم وهم يذبحون بعضهم بعضاً. وكان اولّ من اكد لهم وعلمهم الفائدة من تبديل الأباطرة فنال أعدل الجزاء على ما قدمت يداه، هو ذلك الذي اساء الى عهدٍ نبيل قطعه بالأجر الذي دفعه لتحقيقه، فانحرف بالثورة ضد [نيرون] الى ما هو اشبه بالخيانة العظمى.

ساءت احوال [نيرون] وبلغت حَدّاً لايرجى منها اي صلاح وعلم انّه ينوي الفرار الى مصر. كما ذكرنا سابقاً، فأنتهز كلّ من [نمفيديوس سابينوس Nymphidius Sabinus] قائد الحرس، وتغلينوس Tiggelinus] الفرصة واقنعا الوحدات العسكرية بالمناداة بـ(غالبا) امبراطوراً. كأنما اصبحت دولة [نيرون] في حكم الزوال، لقاء وعدٍ بدفع سبعة آلاف وخمسمائة درهم لكل واحدٍ من افراد الحرس، او الجند البريتوري (كما كانت تدعى) والف ومائتين وخمسين درهماً لكل جندي من الوحدات المرابطة في الخارج. وكان مجموع المبالغ التي تعهدا بتوزيعها مما يستحيل ان يجمعها احد الاّ اذا لجأ الى الظلم والوحشية في جبايتها، والى الاستمرار في جمعها حتى يوم القيامة. اعني ان يمارس قسوة واستبداداً يفوقان ما مارسه [نيرون] نفسه بمراحل، على ان هذه الوعود احدثت اثرها واسرعت [بنيرون] الى حتفه، ثم ما لبث ان الحقتً به [غالبا]. قتلوا اولهما بأمل قبض المكافأة التي وعدوا بها وقتلوا الثاني بعد قليل لأنهم لم ينالوها. ثم بحثوا عمن يستطيع شراء المنصب الشاغر بهذا الثمن، وارتكبوا اثناء بحثهم هذا سلسلة متوالية من اعمال العنف والغدر حتى نالوا مطلبهم. ولو شئنا الدخول في التفاصيل لاقتضانا ذلك مجلداً كاملاً. ولكنني وسأكتفي هنا بما يفي بغرضي أعني سأقصر كلامي عمّا فعله القياصرة، وما عانوه.

هناك اجماع على ان [غالبا] هو أغنى من تولى منصب الامبراطور. والى جانب شرف كونه من اسرة [سرڤيي Servii] فخر بصلة نسبه مع [كاتولوس Catulus] اعظم الرومان قدراً واعلاهم سجاياً وخلقاً، وان كان قد استسلم لاغراء الآخرين حين طمع بالسلطة والمنصب. ويمتّ [سوليپچيوس غالبا .Sulpicius G] ايضاً بصلة قرابةٍ الى [ليڤيا Livia] امرأة [اغسطس قيصر]، التي سعت له عند زوجها فعينه پروقنصل. وأثر عنه حسن القيادة في جرمانيا. والكفاءة في ممارسة الوظيفة نفسها في ليبيا، فنال سمعةً طيبة هناك، قلّما نالها سلف. الا ان اسلوب عيشه الهادي، وعزوفه عن اسباب الترف وشتّى المظاهر الباذخة حطّ من قدره عند

صيرورته امبراطوراً وافسح المجال لتعزى اليه صفة البخل. وهي سمعة ظلّ لها من الحقيقة، كان انتظام حياته وزهده مسؤولين عنها. اناط به [نيرون] حكم اسپانيا وهو يجهل كيف يحتاط لنفسه ويحذر من آثار سمعته الطيبة وشهرته العظيمة. كما ساد الاعتقاد بأن مباشرته الشؤون العامة ستتّم بالحذر والتوجس بسبب مزاجه اللطيف وشيخوخته.

وفيما كان عمّال [نيرون] الطغاة يعبثون بمقدرات الأمصار وينفذون اوامره بقسوة ووحشية، ظلّ [غالبا] مكتوف اليدين لا حول له ولا قدرة على وقف تلك الأعمال الاّ التخفيف والتشجيع المعنوي للمنكوبين، بمشاركتهم آلامهم والتسرية عن المحكومين الذين تصدر الاوامر ببيعهم عبيداً ونشرت نشرات هجاء ونقد بحق [نيرون] ووزعت وتليت جهاراً في كل مكان فلم يمنعها. الاّ انه في الوقت نفسه لم تبدر منه بادرة سوء بحق وكلاء نيرون وعماله. وقد ازداد الناس به تعلقاً لحياده وعطفه. ولطول بقائه حاكماً لاقليمهم. فقد كان له ثمانية اعوام في الحكم عندما بدأ [يونيوس ڤنديكس Junius Vindex] قائد القوات الرومانية في بلاد الغال بعصيانه على [نيرون] ولقد قيل ان رسائل بهذا المآل وردت الى [غالبا] قبل ان يذرّ قرن العصيان وينقلب الى تمرّد علني، والظاهر انه لم يكترث بتلك الرسائل، الاّ انه لم يخبر [نيرون] بأمرها كما فعل الضباط الآخرون والقادة الذين وصلهم مثلها، فلم يساهموا في التمرّد، مع انهم انضموا الى الانقلاب فيما بعد واعترفوا بانخداعهم مثلما اعترفوا بانهم خدعوه. واخيراً اعلن [ڤنديكس] الحرب وكتب الى [غاليا] يحثه على تولي السلطة العليا، وبذلك يمنح رأساً مفكراً لهذا الجسم القوي، ويعني به الاقاليم الغالية التي يحميها مائة الف مقاتل كامل العدة والسلاح ويقول له ان باستطاعته فضلاً عن هذه القوات تعبئة اكثر من مثل هذا العدد عندما تدعو الحاجة. فعرض [غالبا] الأمر على انصاره واصدقائه فرأى بعضهم ان الانتظار أجمل به وان الافضل هو مراقبة تطور الموقف في روما من هذا الانقلاب وما ينجم عنه من آثار. الاّ ان [تيطس ڤينيوس] قائد الحرس البريتوري هبّ متسائلاً:

- ما معنى هذا التدقيق والحذر يا غالبا؟ ان مجرد المداولة في بقائنا على ولائنا [لنيرون] أو شق عصا الطاعة عليه، هو بحدّ ذاته عصيان. ان نيرون هو عدوّنا. وليس من الحكمة ان نحبس انفسنا عن معونة [ڤنديكس] والاّ يجب ان نبادر الى شجب عمله فوراً ونزحف لقتاله لأنه يرغب في ان تتولى انت حكم الرومان بدلاً من ان يستمر [نيرون] في طغيانه.

وعندئذ اصدر [غالبا] بياناً أعلن فيه موعداً لتسلمه زمام الحكم التحرري، وكانت الشائعات والدعاوات السابقة له قد احدثت اثرها الكبير في جمع الناس حوله واعدت الأذهان

لتبنيّ الانقلاب. فلما ظهر في دار القضاء هتف الناس له وحيّوه بلقب الامبراطور بلسانٍ واحدٍ. الاّ انه ابى قبول ذلك في حينه، ثم أخذ بعدها يقدح في نيرون ويندد بأفعاله ويأسف على الأفاضل والخيرين الذين اهلكهم. ثم قدم نفسه لخدمه بلاده لا بلقب [قيصر] او [امبراطور] بل باسم «وكيل الشعب الروماني ومجلس شيوخه».

كان [ڤنديكس] بعيد النظر في دعوة [غالبا] لمنصب الامبراطور، وهذا ما شهد به نيرون نفسه، فقد كان يحتقر من شأن [ڤنديكس] ولايهتم بالغالبين قلامة ظفر، ولايشغل نفسه بهم. ولكن الأمر كان مختلفاً من جهة [غالبا] وقد شاءت الصدفة ان يرده نبأ انتفاضة عليه وهو خارج من حمامه بهم بتناول فطوره، فرفس المائدة وقلبها عاليها سافلها حنقاً. ولكن نفسه طابت عندما صوت مجلس الشيوخ على اعتبار [غالبا] عدواً لروما. فأتخذ من الأمر مادة للتفكهة وبث الثقة في نفوس الموالين له:

- تلك فرصة ذهبية لي انا الذي كنت في امس الحاجة الى غنيمة كالغنيمة الغالية التي ستقع بين يدي اسلاباً شرعيّة. امّا املاك [غالبا] فبوسعي استعمالها او بيعها حالاً بعد ان أعلن عدواً لنا.

واسرع بعرض احوال [غالبا] للبيع. فلما سمع هذا وضع الحجز على جميع ما يملكه [نيرون] في اسپانيا ووجد له مشترين متحمسين للشراء. واصبح عدد القائمين ضدّ[نيرون] كثيرين، وانضموا كلهم تقريباً الى جانب [غالبا] ما عدا [كلوديوس ماچير Clodius Macer] في افريقيا، و[ڤرجينوس روفوس Virginius Rufus] قائد القوات الجرمانية في بلاد الغالبين. فقد رفضا الانضمام اليه على انهما لم يتفقا على رأي واحدٍ. فكلوديوس الذي بدري ما ادّى به الجشع والقسوة من قتول واغتصاب، كان يتجاذبه عاملان: اعتزاله القيادة، او البقاء فيها. امّا [ڤرجينيوس] الذي كان يقود أقوى الفرق الرومانية. فقد حظي منها بلقب الامبراطور عدة مرات وكثر الحاح الجنود عليه بقبول اللقب فأعلن قائلاً انه لم يقبل لنفسه هذا اللقب الرفيع ولم يدع أحداً يفعل ذلك. الاّ من يختاره مجلس الشيوخ.

كل هذا أقلق [غالبا] كثيراً. ولكن الجنود تغلبوا على ارادتي [ڤنديكس] و[ڤرجينيوس] بالضغط والحث فأرغموهما على دخول معركة ضارية وجد [ڤنديكس] نفسه الطرف الخاسر والسيف يعمل في رقاب عشرين الفاً من جنوده الغالبين فقتل نفسه. وانتشرت الانباء في سائر البلاد بأن الكلّ قد اجمعوا على [ڤرجينيوس] بعد ان نال هذا النصر الساحق، فان رفض فسيشدون ازر [نيرون]. فركب [غالبا] همّ عظيم وكتب الى [ڤرجينيوس] يدعوه الى الانضمام اليه مخافة ان يدبّ الانقسام في الامبراطورية ومحافظة على حرية الرومان. ثم

انسحب هو واتباعه الى [كلونيا Clunia] المدينة الاسپانية نادماً على تنطعه وتزمته، ناشداً الهدوء والراحة مفضلاً الجمود على التحرك للقيام بواجبه وفقما تملي عليه الظروف. وكان الوقت صيفاً عندما جاءه رسول من روما، قبل الغسق بقليل. وهو روماني حرّ يدعى [ايجيلوس Icelus] قطع المسافة من روما بسبعة ايام فقط. وتوجه الى موضع الذي انزوى فيه [غالبا] ودفع جانباً الخدم الذين اعترضوا سبيله الى غرفته ودخل عليه ليبلغه ان نيرون قد أختفى ولا احد يعلم محلّه. وان الجيش بالدرجة الأولى ثم عامة الشعب ومجلس الشيوخ بالدرجة الثانية قد أعلنوه امبراطوراًولم يذع نبأ القضاء على حياة نيرون الاّ بعد فترة طويلة من اعلانه امبراطوراً. ثم استطرد يقول:

- على اني أقتنع باشاعة موته، حتى ذهبت بنفسي وشاهدته جثة هامدة فأنطلقت اليك لابلغك الأمر.

فأرتفعت معنويات [غالبا] ثانية، وتقاطر الناس الى منزله وهم مؤمنون بنبأ الرسول وان كانت رحلته بسبعة ايام يصعب تصديقها. ومرّ يومان على وصوله، وجاء [تيطس ميثيوس] يحمل انباءً أخرى من المعسكر تؤكد النبأ الأول وتحوى تفاصيل الاوامر التي اصدرها مجلس الشيوخ. فرفع [غالبا] من مكانته وقلده اسمى الرتب. امّا الرجل الحرّ الذي جاءه باول الانباء فقد شرّفه [غالبا] بالخاتم الذهبيّ وعمد هو الى تغيير اسمه فأصبح يعرف بـ[مارشيانوس Marcianus] وعُدّ اول الاحرار الرومان. الاّ ان الأمور في روما لم تستقرّ. فقد استأثر [نمفيديوس سابينوس] بالسلطة كلها دون ان ينزل عن شيء منها لغيره ومارسها بصورة فجائية لا بلطف أولين. فكرّ [نمفيديوس] ان [غالبا] العجوز الذي اناف على الثالثة والسبعين، لن يمتد به العمر ليحمل الى روما واهن القوى بمحفة. وكان جنود العاصمة يحبونه منذ زمنٍ طويل، بسبب اهتمامه واتحافهم بالهدايا، في حين ان الوعد بالمكافأة الذي قطعه لهم [غالبا] جعلهم يعتبرونه مديناً لهم. فوجه [نمفيديوس] اهتمامه بمصلحته الخاصّة. وأمر صاحبه وزميله [تجيللنيوس Tigellinus] ان يعيد السيف الى قرابه وبدأ يقيم الولائم والحفلات ويدعو رجال الحكم السابقين من قناصل وقواد اليها. باسم [غالبا]. وجمع عدداً كبيراً من الجنود في المعسكر ليقترحوا الطلب من [غالبا] بان يعينه حاكماً عاماً[1] مدى الحياة دون شريك يقاسمه السلطان. واتبع مجلس الشيوخ سبيل الاغراق في تكريمه، وتوسيع صلاحياته مما جعله بغيضاً مخوفاً حتى من أولئك الاعضاء الذين امّلوا عطفه واحسانه

(١) Prefect: في روما القديمة يعتبر هذا اللقب صفة لمختلف الرتب العسكرية والمدنية ويلقب به الحكام وذوو السلطة الاجرائية.

واعتبروه منقذاً فكانوا يتسكعون امام منزله يومياً. وخصّوه بامتياز اعطاء قراراتهم صيغة التنفيذ بتصديرها باسمه وبهذا بلغوا به نهاية الصلافة والعجرفة. وعندما ارسل القنصلان رسلهما الى الامبراطور بقرارات مجلس الشيوخ مع الدبلومات[٢] المختومة بالاختام التي كانت السلطات الادارية تنتظرها في كلّ مدينة يجرى فيها تبديل عربات الرسل وخيولهم. فيستحث الرسل للاسراع جهد طاقتهم، استاء جداً لأنه لم يسأل عن وضع ختمه، ولم يكلّف جنوده بالمهمة، واخذ يفكرّ في الانتصاف لنفسه من القنصلين. الاّ ان غضبه انفثأ بعد ان اعتذرا له واكداً ولاءهما. ولم يتدخل باي شكل عندما اخذ الجمهور يتصيّد اتباع [نيرون] ويضربون كل من وقع منهم بايديهم حتى الموت ارضاءً لهم. وممن لقي حتفه بهذه الطريقة المصارع [سپكلوس Spiclus] الذي ديس تحت اقدام تماثيل نيرون في الفورم، وانزلت التماثيل وسحبت فوق جثته. وطرحوا [اپونيوس Aponius] أرضاً واشبعوه ضرباً ثم جرّوا عربات مثقلة بالحجارة فوقه، وهو احد الذين مدت اليهم العامة باصابع الاتهام عن كثير من الجرائم. ومزقوا كثيرين غيرهما تمزيقاً وكان بعضهم بريئاً. وتمادى الناس في ذلك حتى ان [مورسيكوس Moursicus] عضو الشيوخ وهو رجل فاضل عظيم القدر صرح في المجلس قائلاً يخشى ان لايطول بهم الزمن حتى يتمنّوا عودة [نيرون].

بلغ [ثمغيديوس] نهاية جبروته؛ فلم ينف ما اشيع عنه بانه ابن [كايوس قيصر] خليفة [طيبريوس] الذي كان معروفاً عنه بأنه عشيق امّه في مطلع شبابه. وكانت ام [ثمغيديوس] من الجميلات المعدودات، وهي ابنة كالليستوس Callistus احد عتقاء قيصر وكانت تمتهن الخياطة. وواضح بأن علاقة [كايوس] بالأم [ثمغيديا] كانت في زمن متأخر بحيث لايمكن قطّ ان تعزّز ادعاءه هذا بسبب مقبول. ولقد شك في انه قد يدعي ايضاً ببنوة المصارع الشهير [مارشيانوس Martianus] الذي اغرمت به [ثمغيديا]، للشبه الكبير بين الاثنين. ومع اعترافه بأمومة [ثمغيديا]، تراه يعزو سقوط [نيرون] لنفسه وحده ويعتقد ان كل ما ناله من ثروة وجاه وسلطان لاتكفي لايفاءه حقّه (وزاد على هذا كله، انه ارسل يستقدم [سپورس Sporus] ومازالت النيران تشتعل في جثمان نيرون واتخذه صاحباً، وعامله معاملة الزميل مع اسم پوپيا Poppæa[٣]) وانما كان يجب ان يتولى منصب الامبراطور. ولم يكن يعدم انصاراً له في روما، يعلمون لهذه الغاية في السرّ، فضلاً عن عدد من النساء المتنفذات، واعضاء من

(٢) Diploma: لغوياً «رسالة مختومة ومغلفة». وفي عهد الجمهورية تصميم او نشرة رسمية تتضمن توصية تعطى المسافرين من قبل الحكومة لتسهيل سفرتهم وفي عهد الامبراطورية صارت الكلمة تطلق على الوثيقة الحكومية التي تصدر بمنح امتيازات للاشخاص الموجهة اليهم. والشك ان المقصود هنا هو المعنى الأخير.

(٣) زوج نيرون.

مجلس الشيوخ، وارسل الى اسپانيا [جيليانوس Gellianus] احد اصدقائه لمراقبة الامور عن كثب.

على ان امور [اغالبا] استقامت بعد موت [نيرون] وباتت على خير ما يرام. خلا موقف [ڤرجينيوس روفوس] المتردد. فقد ظلّ معلّقاً موزع الفكر بين ان يعمل وفق نصيحة من يزين له الاستيلاء على السلطة لنفسه بعد ظفره [بڤنديكس] وخضوع جزءٍ كبير من الامبراطورية الرومانية له، اعني بلاد الغاليين باسرها التي بدت وكأن الثورة تتمخض فيها وانها على حافة الانفجار، فضلاً عن الجيش العظيم الذي يتولى قيادته. لم يكن هناك صنو لڤرجينيوس في الواقع سمعةً واسماً وشهرةً، فقد اضطلع بمهمة مزدوجة الخطورة وهي انقاذ الامبراطورية من أهول استبدادٍ، وانتشالها من مخاطر حرب غاليّة سيئة العواقب. على ان ظلّ متمسكاً برأيه الأول فأبقى لمجلس الشيوخ سلطانه في انتخاب الامبراطور. لكن الجنود زادوا من الحاحهم وضغطهم عليه بعد موت [نيرون] وخيروه بين تولي الحكم، وبين البطش به ودخل تريبيوس خيمته مخترطاً سيفه لتنفيذ ذلك. ثم أعلن [فابيوس ڤالينس Fabius Valens] احد قادة الفرق ولاءه لغالبا، ووردته رسائل من مجلس الشيوخ تعلمه بقراره انتخاب [غالبا] امبراطوراً. وعندها وبعد لأيٍ وتمكن من اقناع الجيش بقبول الأمر الواقع والمناداة بغالبا امبراطوراً. وسلم قيادته لـ[فلاكوس هورديونيوس Flaccus Hardeonius] خلفه المرسل من [غالبا] طوعاً ورحل لمقابلة [غالبا] وهو قادم الى روما وقام على خدمته، الا ان [غالبا] لم يشع عنه بوجهه ولم يظهر له التفاتاً كثيراً. ان شعور [غالبا] بالاحترام منعه من اظهار استيائه منه، وغيرة اصدقائه منْ [ڤرجينيوس] ولاسيما [تيطس ڤينيوس] ضده عن القيام بواجب التكريم له. كان [تيطس] مدفوعاً الى مناصبة العداء بدوافع حسدٍ شخصية تهدف الى الحيلولة دون صعوده في مدارج السلطة. وبهذا عاون روح ڤرجينيوس الحارسة على انقاذه من المخاطر التي تجابه غيره من القادة وتقودهم الى نهايات مفجعة. فأمن له حياة هادئة وشيخوخة هنيئة مستقرة.

استقبل [غالبا] وفد مجلس الشيوخ بالقرب من مدينة [ناربو Narbo] الغاليّة. وبعد التهنئة طلبوا منه الاسراع الى روما لأن الشعب هناك ينتظره بفارغ الصبر. وكان [غالبا] يحادثهم بكل احترامٍ وتواضع، وارسل اليه [نمفيديوس] الأثاث الملكي والخدم الذين كانوا يقومون بخدمة [نيرون] في ولائمه. فلم يستخدم شيئاً منها ولم يقربها واكتفى بما لديه. فأطلق الالسنة بمدحه والثناء عليه ووصفه بالحكيم اللبيب المرتفع عن متاع الدنيا وعبثها. الأ ان [ڤينيوس] اشار بأن هذه الاساليب الرفيعة والحياة المتجردة عن الفخفخة والحافلة بروح

البساطة قد تفسرّ بأنها مجرد تظاهر مقصود لا بذاته بل لخطب ودّ الشعب. فهو احجام لا طائل تحته عن اطلاب المجد الحرّي به. فأقنعه واغراه باستعمال اثاث نيرون في ولائمه التي باتت فهي لاتخلو من الأبهة والمظهر الملكي واخذ الشيخ الهرم يستسلم بالتدريج [لڤينيوس] ويعمل بمشورته [ڤينيوس] هذا، لم يكن يعرف للجشع حدوداً. كما لم يكن بعيداً عن الشبهات في علاقاته الجنسية فقد عرف عنه في اول حياته ايام شبابه عندما كان يخدم بآمرة كالڤيسيوس سابينوس Calvisius Salbinus انه ادخل زوج قائده وهي امرأة هلوك شديدة السبق الى المعسكر خلسة وهي متنكرة بشياب جندي ليلاً. وقبض عليه وهو نائم معها في الجزء الذي يطلق عليه الرومان [پرنچيپيا Principia][٤] فزجه [كابوس قيصر] في السجن ولم ينقذه من شديد العقاب الأ وفاة هذا القائد. وذكر ايضاً عنه ان [كلوديوس قيصر] دعاه مَرّةً للعشاء، فأختلس من المائدة كأساً فضيّة. وابلغ قيصر بالأمر. فدعاه ايضاً في اليوم التالي وأمر خدامه بالأ يضعوا امامه صحفة من الفضة بل طبقاً فخارياً. وجعل قيصر الأمر أدعى الى التندر والتفكهة منه الى المؤآخذة الجنائية. الأ ان الاعمال التي ارتكبها بدافع من طمعه سببت واثارت مشاكل خطيرة واذىً قتّالاً محزناً لما اتسعت سلطته وكان [غالبا] في قبضته.

وزاد قلق [غغيديوس] بعودة [جيليانوس] من اسپانيا. وكان كما اسلفنا قد ارسله ليكون له عيناً على [غالبا] ورقيباً على اعماله، فقد علم منه ان [كورنيليوس لاكو Cornilius Laco] عُيِن قائداً للحرس البريتوري. وان [ڤينيوس] هو اقرب المقربين من [غالبا]. وانه [اي جيليانوس] لم يسمح له بالدنو من غالبا، فكيف بمبادلته الكلام على انفراد. فقد وضعت عليه رقابة شديدة شلّته تماماً. فلم يكن من [غغيديوس] الأ ودعا ضباط الجيش الى اجتماع وخطب فيهم قائلاً: ان [غالبا] شيخ فاضل، حسن النية الأ انه سليب الارادة، وهو لايعمل بوحي ضميره. وان [ڤينيوس] و[لاكو] يسيئان النصح له. وهناك خوف كبير من احتكار السلطة التي كان [تيجيلينوس] يمارسها على جنوده قبل ان يفطن هؤلاء للأمر ولذلك فهو يقترح عليهم ارسال وفدٍ من المعسكر الى [غالبا] يعلمه بأنه سيلقى مزيداً من الترحيب والحفاوة عند وصوله، ان اقصى هذين الشخصين عن دائرة خاصته ومستشاريه. (كان من الحمق والقحة ان ترسم القواعد واسلوب العمل لقائد محنك، ولاسيما حول من يختار من اصدقاء، ومن يبعد من مستشارين، كأنه شاب غرٌ حديث العهد بالحكم وممارسة السلطة)

---

(٤) يطلق هذا الاسم على موضع من المعسكر حيث تنصب فيه خيم القائد العام وضباطه وقواد الفرق والتريبيونين وحيث تلقى فيه الخطب فهو اشبه بمقر عام.

ووجد [نمفيديوس] مساعيه في هذا السبيل لم تؤت الثمرة المنشودة، فلجأ الى طريقة أخرى وكتب له شخصيّاً عدة رسائل تفوح منها رائحة التهديد، والانذار بسوء العاقبة. منها قوله ان العاصمة بعيدة عن الاستقرار، وان الهدوء مفقود. ومنها ان [كلوديوس ماچير] اعترض سفن القمح من افريقيا واحتجزها. وان الفرق المعسكرة في جرمانيا بدأت تتململ وتميل الى التمرد، وانه سمع بما يشبه ذلك فن سوريا واليهودية. فلم يأبه [غالبا] به ولم يقم وزناً لحكاياته تلك. ولذلك قرر [نمفيديوس] ان يقوم بمحاولته. فنصحه [كلوديوس چلسوس Clodius Celsus] الانطاكي وهو رجل عاقل وصديق مخلص له. بان يعدل عن نيته، قائلاً انه مخطيء اذ ليس هناك حيٌّ واحد من احياء روما يستقبل به قيصراً. على ان معظم انصاره كانوا يستهينون ويستصغرون شأنه. ومن بينهم [ميثريدات] ملك البونطس الذي قال ساخراً: «ما ان يُر هذا الرجل الأصلع الكثير التجاعيد في روما، حتى يجد اهاليها ان اختياره قيصراً لهو عين العار والخزي.

وتقررّ أخيراً أن يؤتي بنمفيديوس الى المعسكر في حدود منتصف الليل للمناداة به امبراطوراً، الا ان [انطونيوس هونوراتوس Antonius Honoratus]اوّل التريبيونين، جمع ليلاً كل من كان تحت أمرته. وأخذ يتهمهم ويتهم نفسه بكثرة التقلّب وأفن العقل وفساد الرأي. والتذبذب غير المبتني على هدف او اقامة وزن للأهلية والكفاءة وقال ان شيطاناً رجيماً يدفعهم الى الانتقال المفاجيء من رأي الى رأي. وختم كلامه بقوله هذا:

- لا شكّ ان جرائم [نيرون] تبررّ الى حدٍّ ما اعمالكم السابقة. اما الآن فما دفاعكم وما تبريركم لغدركم بـ[غالبا] الفتكه بأم ام لدم زوج سفكه؟ ام لالحاقه العار بالسلطة الامبراطورية فوق خشبة المرسح وبين الممثلين؟ اننا لم نتخلّ عن [نيرون] مع هذا كله، الى ان اقنعنا [نمفيديوس] نفسه بان [نيرون] كان البادي بالتخليّ والفرار الى مصر. افينبغي لنا والحالة هذه ان تُرسل [غالبا] الى الابدية للتسرية عن طيف [نيرون] او علينا ان نخلع أحد اعضاء اسرة [ليڤيا] لنجعل من ابن [نمفيديا] امبراطوراً، كما كان الحال مع ابن [اغريبينا]؟ ان اردنا ان تكون عادلين مقسطين فيجدر بنا الانتقام لموت نيرون واظهار الاخلاص والوفاء باحتفاظنا بغالبا.

بعد ان انتهى هذا التريبيون من كلامه، اتفقت كلمة الجنود على العمل برأيه واخذوا يحثون بعضهم بعضاً على الولاء للامبراطور. وحصلت موافقة الاغلبية الساحقة، وفيما هم يتداولون في الأمر سمعوا ضجّة وصيحة عظيمة. قيل ان [نمفيديوس] ظنّ الجنود يترقبونه بفارغ الصبر، وقيل انه عجلّ بالقدوم ليتخذ الأهبة للقضاء على اية معارضة وكسب المترددين الى

جانبه، فخف مسرعاً الى المعسكر بكثير من النور المشاعل، وهو قابض على خطاب كتبه له [چنگونيوس ڤارو Cingonius Varro] كان قد استظهره، لالقائه على الجنود. الاّ انه وجد ابواب المعسكر موصدة، وشاهد عدداً كبيراً من الجنود متقلدين الاسلحة يخفرون السياج فساوره خوفٌ، على انه دنا وسألهم عن الخبر وعمن امرهم بتقلد السلاح. فسمع هتافاً عاماً بحياة [غالبا] امبراطورهم. فتقدم منهم وراح يهتف معهم وامر القادمين معهم بان يحذوا حذوه الاّ ان الحرس لم يسمح له بدخول المعسكر الاّ مع نفرٍ قليل. فلم يجتز المدخل الاّ وقذف برمحٍ فادرأه عنه [سپتيميوس Siptimius] بترسه وكان يسير قدامه. الاّ انه هوجم بالسيوف، فهرب فلحقوا به الى مضجع الجنود وهناك فتكوا به. ومن ثم سحلوا جثته. ثم احاطوها بحاجزٍ وعرضوها على الانظار في اليوم التالي ولما بلغ [غالبا] نبأ القضاء عليه امر فوراً باستئصال شافة انصاره واشياعه الباقين الذين لم يقتلوا انفسهم وكان من بين القتلى [چنگونيوس] كاتب الخطاب و[ميثريدات] الذي ورد ذكره. وعلى اية حال فقد كان هذا عملاً ينطوي على ظلم واعتساف جرى خلافاً للقوانين، ولم يلق تحبيذاً وان كان جزاءً وفاقاً فلم يجر العرف ان تنتزع حياة اناس من ذوي المكانة دون محاكمة، في وقت كان الجميع يتوقعون تبدلاً اساسياً في الحكم يختلف عن الحكم السابق؛ وشعروا انهم انخدعوا بالوعود والمعسولة والكلمات الطيبة. ومما زاد في الطين بَلّة قتل القنصل پترونيوس تُرپليانوس Petronius Tur-pilianus] الذي ظلّ مخلصاً لنيرون! في الواقع ان ازاحة [ماچير] من افريقيا وقيام [ڤالينس] بازاحة [تريبونيوس] و[فونتيوس Fontius] من المانيا، كان له ما يبرره، فهؤلاء لايؤمن جانبهم، لأنهم قادة عسكريون مؤمرون على قوات مسلّحة، وجنودهم طوع أمرهم. ولكن ما الذي دعا الى حرمان الشيخ الأعزل [تورپليانونس] من حق الدفاع ومحاولة تبرئة نفسه؟ واخذ الناس يتساءلون هل سيطبق حقاً ولو جزء من العدالة والمساواة اللتين وعد بهما الناس. الى مثل هذا النقد عرضت [غالبا] تلك التصرفات اللاقانونية.

لم يبق بين [غالبا] وروما غير خمسة وعشرين فرلنگا عندما اعترضته حشود من البحارة لايجمع بينها نظام، فاحاطت به اثناء مسيرته، كان هؤلاء قوام فرقة عسكرية شكلّها [نيرون]. وهم الآن يطلبون من [غاليا] بكل خشونة وغلاظة تأييد قرار التشكيل. فأحدثوا خللاً عظيماً وهرجاً ومرجاً وسدوا عليه السبل ومنعوا مستقبلي الامبراطور الجديد من الوصول اليه والتسليم عليه وعلا ضجيجهم وصراخهم مطالبين لفرقتهم بالأعلام والشعارات وتخصيص مقرات لها. فاستمهلهم [غالبا] الى وقت مناسب ففسروا كلامه بالرفض فزادوا تطاولاً ووقاحة وراحوا يقتفون اثره وهم يصرخون وجرد بعضهم السيوف. فلم يسع [غالبا] الاّ

ان يأمر خيالته بالهجوم عليهم، ففعلوا وشتتوا شملهم ولم يصمد واحدٌ منهم وسقط هناك كثير من القتلى وقضى على عدد مماثل في اثناء المطاردة. وهكذا اقترن اول دخول لغالبا بحادث مشؤوم. اذ سار خائضاً الدم ومتخطيا جثث القتلى. وراح الناس الذين احتقروه قبلاً الشيخوخته ينظرون اليه الآن برعب وتوجس.

وكان اول خطأ فأحش وقع فيه هو محاولته اظهار الفرق بين سفاهة نيرون وتبذيره الاموال، وبين امساكه وحرصه على الأموال العامة. فقد تجاوز تقتيره واقتصاده وابتعاده عن الفخفخة كل حدٍّ معقول، فلما عزف [كانوس Canus] العازف المشهور اثناء عشاءٍ، عبّر عن استحسانه بان طلب ان يؤتى له بحقيبة. ثم أخذ يضع فيها قطع ذهبية فيها وقال ان ما اعطاه هو من حبيبه لا من خزينة الدولة. وضيق من حدود المخصصات الكبيرة التي كان [نيرون] قد منحها للمصارعين والممثلين ومن لفّ لفهم، وانزلها الى العشر، ومع ان ما سبق واعطي لهؤلاء كان بمجموعه صغيراً وهم من ينفق دخله اليومي باسرع مما يتسلمه لحياة الترف والتهتك التي ترغمهم عليها صناعتهم. فقد امر باجراء تحقيق مع من باع واشترى منهم وطلب إعادة الفرق بين مخصصاتهم الحالية وبين ما تسلموا قبلاً واثار مشاكل لا حَدّ لها. وانداحت عملية استعادة الاموال فشملت رقعة واسعة، ومسّت عدداً كبيراً من الاشخاص فاساءت كثيراً الى سمعة [غالبا]، واثارت كره الناس لڤينيوس الذي جعل الامبراطور يبدو للناس كزاً بخيلاً وضيع النفس، في حين كان هو نفسه ينفق الاموال بدون حساب. ويضع يده على كل ما يستطيع ويبيع لاي مشترٍ تطبيقاً لوصية هسيود الذي يشير علينا بأن نشرب ولا نستبقي شيئاً...

من فم الزقّ حتى قرارته

و[ڤينيوس] الذي وجد امبراطوره شيخاً هِمّاً واهناً، راح يسعى ليجمع اول ثروة له وآخرها. دون رادع او رقيب.

وساءت سمعة [غالبا] من ناحيتين. اولاهما اطلاق يد [ڤينيوس] في ارتكاب اسوء الاعمال. وثانيتهما بايقافه الاجراءات العادلة والصحيحة التي كان قد أمرها بها او بتشويهها. كانزاله العقاب باشياع نيرون. فعندما قضى على اشرارهم من أمثال [هيليوس Helius وپولقليطس Polycletus وپتينوس Petinus وپاتروبيوس Patrolius] استحسن الشعب عموماً هذا العمل وايده تأييداً تاماً وراحوا يهتفون للامبراطور وهم يسحلون جثثهم سحلاً في الفورم، فكان منظراً يشفي القلوب الكليمة وموضع الرّضى من الآلهة نفسها. ثم اجمعوا بصوت واحد على ان الآلهة والبشر يطلبون على السواء اجراء حكم العدالة بحق

[تجللينوس] اصل كل البلاء ومؤسس الطغيان ومرشده. الا ان هذا الرجل كان قد اتخذ احتياطاته بشكل هدية ووعد [ڤينيوس]. اما [توريليانوس] المسكين فلم يسمح له بانقاذ حياته مع ان جريمته الوحيدة هو انه لم يخن [نيرون] ولم يظهر كرهاً له الا ان هذا الذي عمل نيرون ما عرفه به التاريخ ثم تخلى عنه وغدر به، ذلك الذي كان محرضه على الفساد والى أقصى حدود الفساد، سمح له بانقاذ حياته ليكون مثلاً حيًا على مقدرة [ڤينيوس] على ان يفعل ما يريد. او اعلاناً بان الغنيّ المستعد للدفع لن ييأس في حصول على ما يريد. وعلى اية حال تملكت الناس رغبة شديدة في رؤية [تجللينوس] وهو يساق الى النطع. وظلّوا يواصلون طلبهم في كل مكان حتى في المرسح، وفي ميدان السباق؛ الى ان اسكتهم مرسوم امبراطوري يعلن بان [تجللينوس] لن يعيش طويلاً لأنه مبتل بداء الصدر، ويرجو المرسوم منهم ان لايحاولوا جعل عهده يبدو حافلاً باعمال القسوة والاستبداد. وهكذا ضحك على الجمهور الناقم واسكته.

واقام [تجللينوس] وليمة فخمة، وضحّى للآلهة شكراً على خلاصه. وترك [ڤينيوس] مائدة الامبراطور بعد العشاء، واخذ معه ابنته الأرملة ليسمر مع [تجللينوس] فأسرع هذا يقدم شكره لها، مع هدية من المال تبلغ مائتين وخمسين الف درهم ثم التفت الى كبيرة محظياته فطلب منها ان ترفع من جيدها قلادة نفيسة وطوق بها جيد بنت [ڤينيوس]. وقد قدر ثمن هذا العقد في حينه بمائة وخمسين الف درهم.

ولم يعد ثم مجال للاتيان بالاعمال النافعة والمعقولة مثل ذلك معاملته للغاليين الذين شاركوا [ڤنديكس] في عصيانه. فقد اعتبر الرومان الغاء الجزية عنهم ومنحهم حقوق المواطنة الرومانية لا مظهراً من مظاهر رأفة [غالبا] بل ربحاً مالياً [لڤينيوس]. وبهذا اصبحت جماهير الشعب تنظر الى الحكم نظرة نفرة. الا ان الجيش ظلّ محافظاً على الهدوء ترقباً للأعطيات التي وعد بها وكانوا يعللون انفسهم على الأقل بجزء منها يساوي ما كان نيرون يعطيهم ان لم يتيسير الكلّ. ولما سمع [غالبا] فيما بعد انهم بدأوا يتظلمون قال بعجرفة الجنرال الآمر: انه لم يتعود شراء الجنود بل دخولهم الخدمة تطوعاً فسمعوا ما قاله واشتد غضبهم عليه وكرهوه. فلم يقتصر على غشهم، وخداعهم في آمالهم، بل اختط بقوله هذا سابقةً سيئة ليتبعها خلفاؤه. على ان النار التي كانت كامنة في فؤاد روما لم تستعرّ بعد لأن ما تخلّف فيها من الاحترام لشخص [غالبا] خفف من غلوائها، وأخرّ ضرامتها. ولم يجد الجنود علّة ظاهرة للتحرك، ولكن ثورتهم ظلت مستسرة تحت نقمتهم المتصاعدة على ان القوات الجرمانية التي كانت بامرة [ڤرجينيوس] وهي الآن بقيادة [فلاكوس] ركبتها الخيلاء

وشعرت بروح التفوق بعد المعركة الظافرة التي خاضتها ضد [ڤنديكس]، ووجدت أنها لم تجن شيئاً كثيراً منها فاشتدت نقمتها على ضباطها وعصيت اوامرهم. ولم يكون لتقيم وزناً لآمرها [فلاكوس] بسبب مرضه وابتلائه بالنقرس المزمن فضلاً عن كونه رجلاً قليل الخبرة.

وحدث في احد الاعياد حيث العادة ان يتوجه الضباط بالتهانيء للامبراطور وتمنيّ الصحة والسعادة له، ان أخذ الجنود عامة يجأرون بالشكوى ويتذمرون. ومضى الضباط في مراسيم الحفل وطلبوا منهم المشاركة فأجابوا «انه لايستحق ذلك» (يقصدون الامبراطور).

واخذ ترد [غالبا] رسائل حول هذه الأمور من وكلائه بعد ان ظهرت الشكاوى نفسها من جنود الفرق المعقود لواؤها لـ[ڤيتيللوس] فدبّ فيه القلق وبدء الخوف من سقوط سمعته يشيع في نفسه لابسبب شيخوخته وحده بل لأنه لم يخلّف وريثا من صلبه. فقرر أن يتبنى شاباً حسن الخلق والمؤهلات، ويعلنه خليفةً له، وكان يوجد آنذاك شاب يدعى [ماركوس اوتو] وهو شاب طيب الأصل، الا انه عرف منذ حداثته بانه من أكثر شباب روما تهتكاً وفجوراً وترفاً، وكما خلع [هوميروس] على [پاريس] في عدة مواضع لقب «حبيب هيلين الجميل» فخلد اسم المرأة وجعل اسمه ملحقاً بها كأن ليس لپاريس ما يمتاز به غير هذا، كذلك كان الأمر [بأوتو] فقد انحصرت شهرته في روما بوصفه «زوج پومپيا» ارملة [نيرون] التي اغرم بها هذا عندما كانت زوجاً [لكرسپينوس Crispinus] ولما كان [نيرون] في ذلك الوقت يخشى امّه ويخلص لزوجه الأولى فقد استخدم [اوتو] ليكون وسيطاً له الى قلبها في السرّ. فقد كان نيرون لاوتو خلاً لصيقاً به. اذ قربه منه تطرفه واغراقه في اللهو وكان يبدو عليه السرور والانشراح حتى عندما يقسو عليه في التندر والمزاج ولايبخل عليه بالحريّة في وصفه بالبخل والتقتير وما الى ذلك دون ان ينزعج منه. ومرة تعطر [نيرون] بعطر غالي الثمن وخص [اوتو] بشيء قليل منه فما كان من [اوتو] الا ان دعا نيرون الى منزله في اليوم التالي وأمر بانابيب فضية وذهبية تمدّ في المجلس ليجرى فيها نفس العطر الثمين ويضخ كل زاوية من الحجرة كالماء! واما بخصوص [پوپيا] فقد كان يعمل لأجل [نيرون] في مبدء الأمر لينال حظوة لديه. فباشر باغرائها ليوقعها في حبه حتى نجح في تفريقها عن زوجها وجاء بها الى منزله زوجاً له. ولكنه لم يرض بان يشاركه فيها احد بعد ذلك واحفظه ان ينافسه [نيرون]. اما [پوپيا] فكانت على ما يقال مسرورةً بهذه الغيرة، تراها احياناً تمتنع عن [نيرون] حتى عندما يكون [اوتو] غائباً. اما لتزيد من شوقه اليها وحذراً من تطرق الملل منها اليه. اما لأنها على ما يقال كانت تكره فكرة الزواج بامبراطور مع رغبتها في ان تبقى له عشيقة. ولذلك ظلّ [اوتو] يعيش في خطرٍ مقيم. ومن العجيب حقاً ان ينجو في الوقت الذي عمد [نيرون] الى قتل اخته

وزوجه تمهيداً لهذه الزيجة. الا ان صداقة سينيكا كبحته. فبمسعاه ورجاءاته رضي [نيرون] بارساله بمنصب [بريتور] الى [لورتيانيا Lurtania] على ساحل البحر المحيط. فكان محبوباً من الاقاليم لحسن تصرفه واهتمامه بشؤون الاهلين الذين كانوا على معرفة تامة بان المنصب الذي يتقلده انما هو حجّة وتغطية لإبعاده عن روما.

ولما شقّ [غالبا] عصا الطاعة على [نيرون] كان [اوتو] اوّل من انضم اليه من حكام الأقاليم واسرع اليه يحمل كل ما جمعه من الذهب والفضة اقداحاً وآنية وموائد ووضعها تحت تصرفه لصهرها وصكّها نقوداً. وقدم له أيضاً ما يملك من خدم وحشم مدربين على خدمة الملوك. وكان مخلصاً له في كل الشؤون الأخرى. وأعجب [غالبا] بمهارته في تصريف الشؤون العامة. وبتفانيه في خدمته وتعلقه به حتى انه ركب معه في نفس العربة التي اقلته الى روما طوال الرحلة التي دامت اياماً عديدة. فأصبح بهذا وبملازمته الطويلة. من أخلص اصدقاء [ڤينيوس] ايضاً، لكثرة ما اتحفه من هدايا ولطلاوة حديثه، ولاسيما لأنه سلّم له بالمكانة الأولى عند گالبا وارتضى لنفسه المقام الثاني. ولكنه ـــــ في اجتنابه قالة السوء، وتحاشى الحسد وحافظ على سمعة طيبة بمساعدته كل من يقصده من ذوي الحاجات دون اطلاب ففقد او مكافأة لنفسه ولاسيما العسكريون منهم، فقد توسط لتعيين الكثير منهم في مناصب قيادية اما بالامبراطور رأساً او عن طريق [ڤينيوس] او عن طريق عتيقين لگالبا عظيمي النفوذ في البلاط هما [ايچلوس Icelus] و[آسياتيكوس Asiaticus]. وحرص ان يدفع بمناسبة كل دعوة يقيمها لتكريم لگالبا قطعة ذهبية لكلّ جندي في الكتيبة القائمة بواجب الحراسة كمظهر من مظاهر ذلك التكريم للامبراطور، في حين كان في الحقيقة يعمل على تحطيم سمعته وتجريده من شعبية عند الجنود بهذا الضيع. قليل الميل الى اختيار [اوتو] ان لم يكن لسببٍ غير سبب ايلولة ثروته اليه وهو الشاب المعروف باسرافه وبذخه، وبانه غارق في ديون تبلغ خمسة ملايين دراخماً. ولذلك لم يعط [ڤينيوس] جواباً وسكت واعلن نفسه قنصلاً، وعين [ڤينيوس] زميلاً له وكان الجميع يتوقعون انه سيعلن عن حليفته في مطلع العام الجديد وكان الجيش يرغب في [اوتو].

أعلنت القوات المرابطة في جرمانيا عصيانها وهو مازال يقلّب وجوه النظر في هذه المسألة. وعمّ السخط الشديد الجنود كافةً لأنه نكل عن وعده لهم ولم يعطهم المكافأة الكبرى التي كانوا يترقبونها منذ تنصيبه. وأخذوا يذكرون باهتمام كبير الطردة المهينة التي نالها [ڤرجينيوس روفوس]، ومكافأة الغاليين على تمردهم، والعقاب الذي انزله عن رفض مشاركة [ڤنديكس] في خططه، حتى بدأ وكأنه [غالبا] لايقر بفضل احدٍ غير فضل [ڤنديكس] فقد

اكرم ذكراه باقامة المهرجانات الرسمية كأنه وصل الى مركزه الامبراطورية بمسعاه. هذا الاقوال كانت تدور علناً بين اوساط العسكر عندما حلّ اليوم الأول من السنة الجديدة او «الكالند» كما يسميه الرومان. فجمع [فلاكوس] الجنود لتأدية القسم السنوي التقليدي بالاخلاص للامبراطور فتمردوا واخذوا ينزلون تماثيل [غالبا] ويسحقونها، ثم اقسموا يمين الاخلاص لمجلس الشيوخ والشعب الروماني وتركوا الاجتماع. وخاف الضباط والمسؤولون الفوضى وكانوا يتوقعون عصياناً لايبقي ولا يذر فبرز احدهم واستوقف الجنود وراح يحدثهم بالآتي:

- ماذا سيكون من أمرنا أيها الأخوة في السلاح ان لم نختر لنا جنرالاً آخر، او لم نحتفظ بجنرالنا الحالي؟ ان التخليّ عن [غالبا] فحسب لايعني غير شق عصا الطاعة وعصيان الاوامر ومن العبث ان نؤمر علينا [فلاكوس هوردونيوس] وهو لا أكثر من صورة منسوخة عن [غالبا]. الاّ ان [ڤيتيلليوس] قائد القوات المرابطة في جرمانيا السفلى لايبعد عنّا غير مسيرة يومٍ واحدٍ. وقد تولى ابوه منصب [چنسور]، ثم انتخب قنصلاً ثلاث مرأت. وكان اشبه بالامبراطور المزامل [الكلوديوس قيصر]. وقد قدم [ڤيتيلليوس] اسطع دليل على كرمه وطيبه نفسه بالفقر الذي يعيبه عليه الآخرون. الا فلنختره امبراطوراً الجميع اننا ادرى باختيار رجلنا من الاسپان. واللوزيتان.

فوافق فريق منهم على هذا الاقتراح ورفضه آخرون الاّ ان احد حملة الأعلام انسلّ خارج المعسكر وقصد [ڤيتيلليوس] الذي كان يستضيف جماعة كبيرة من اصحابه في تلك الليلة. وتفشى الخبر بين جنوده فشاع الأمر، وركب [فابيوس ڤالينس] قائد احدى الفرق في صباح اليوم التالي على رأس عدد كبير من الخيالة، وحيّا [ڤيتيلليوس] بتحية الامبراطور. وكان الى تلك اللحظة يبدو عازفاً عن المنصب، ويعلن ان الخوف يتملكه دائماً من الاضطلاع بالسلطة ومسؤولياتها. الاّ ان الخمر والطعام الفاخر الذي تناوله جرّأه وبث فيه الاقدام كما يقال، فبدء يرضخ ويتقبل فكرة تنصيبه امبراطوراً. واتخذ اسم [جرمانيكوس] الذي اقترح عليه الاّ انه اعتذر عن قبول لقب [قيصر]. واسرع جنود [فلاكوس] ليحنثوا بالقسم الذي ادوّه باسم مجلس الشيوخ، وعادوا ليقسموا يمين الاخلاص والولاء [لڤيتيلليوس] الامبراطور. وحلفوا ان يطيعوا اوامره كافةً. فأعلن امبراطوراً بصورة رسمية في المانيا. ولما ابلغ [غالبا] بذلك وجد ان ارجاء اجراءات التبنيّ لم يعد له معنى. وكان يعلم ان بعض اصدقائه يحبذون [دولابللاّ] ويضغطون عليه. وامّا الأغلبية الساحقة فكانوا يريدون [اوتو] ولم يكن كلاهما يعجبه. وفوجيء الجميع دون سابق انذار بارساله في طلب [پيزو] ابن [كراسوس وسكريبونيا Scribonia] اللذين قتلا بأمرٍ من نيرون وكان هذا شاباً حسن الاخلاق بصورة عامة، الاّ انه

امتاز بسجنتين: الاستقامة، والجدّ الصارم. وسار [گالبا] الى المعسكر لاعلانه قيصراً وخلفاً له في المنصب الامبراطوري. إلاّ ان عدداً من المخاريق ظهر له وهو في اول الرحلة ثم تكررت هذه الظواهر في مفتتح خطبته في الجنود. وكان يقرأ حيناً ويرتجل حيناً.

ان هزيم الرعد المتواصل، وزخات المطر الشديدة التي نزلت على المدينة والمعسكر معاً كانت دلائل قوية على ان القوى السماوية لاتنظر بعين الرضى والارتياح الى عملية التبني هذه، وانها تراها سيئة العقبى. واظهر الجنود ايضاً علائم السخط الكظيم. عندما تلقوا خطابه باوجهٍ عابسة، لأنه لم يوزع عليهم شيئاً من المال حتى تلك الساعة. على ان الحاضرين الذين كانوا يتطلعون الى [پيزو] ويسمعون صوته لم يسعهم الاّ الإعجاب بضبط النفس الذي تجلّى فيه بقلة تأثير هذا التكريم العظيم عليه فقد بدأ غير مكترث به او شاعر بخطورته. اما سحنة [اوتو] فلم تكن لتخفيَ مشاعر المرارة والحنق والخيبة. لقد كان المرشح الأول المنتظر وكان على قاب قوسين او أدنى. وها هو الآن ينحي جانباً باهمال وعدم اكتراث وانقابه شعور فجائي بأن [گالبا] ينفر منه ويضمر له السوء، فأمتلأ خوفاً ورعباً، وعاد الى منزله تصطخب في رأسه شتىّ العواطف. كان يخشى [پيزو] من جهة، ويكره [غالبا]، ويحقد على [ڤينيوس] من جهة أخرى. وهاهم السحرة الكلدانيون واخصّهم بالذكر [بطليماؤس Ptolemæus] لاينصحونه بنبذ آماله والتخلي عما رسمه، فقد اصرّ هذا العرّاف على نبؤته التي سبق وتنبأ لاوتو بها ايام نيرون وهي ان [نيرون] لن يقتل [اوتو] بل سيسبقه الى الآخرة وان [اوتو] سيعيش حتى يتولى منصب الامبراطور. فلأن الشق الأول من النبوءة قد تحقق؛ لا سبيل الى تكذيب الشق الثاني او لعل أولئك الذين رثوا لحاله سراً وابدوا اسفهم الصادق لحظّه العاثر وسوء الجزاء الذي ناله من [غالبا] كانوا اكبر محفز له ومنهم تلك المخلوقات الحقيرة امثال [غمغيديوس] و[تجلّلينوس] الذين هبطت منزلتهم بعد هذه الاجراءات واصبحوا في حكم المنبوذين. راحوا الآن ينشطون لاثارته واخذوا يجسمون له الاهانة التي لحقت به ويحتثونه على الانتصاف لنفسه.

ومن بين هؤلاء قام اثنان بدور كبير في الاحداث التالية. وهما ڤيتوريوس [Veturius «الاوپسيو» و[باربيوس Barbius] «التسّراروس»[٥] (وهما من الموكلين بواجبات السعاة والاستطلاع) فقد انطلقا مع [اونوماستوس Omomastus] عتيق [اوتو] الى المعسكر لاستمالة الجيش وشراء من يمكن شراؤه بالمال واغراء من يمكن اغراؤه بالوعود. ولم يكن ذلك

---

(٥) Optio: لغة هو الضابط المرافق للقائد، أو المساعد. و Tesserarus: هو في اللغة العسكرية الرومانية: ضابط مهمته تسلم «البطاقة Tessera» التي بدون عليها كلمة السرّ (كلمة الليل) وينقلها الى الوحدات.

بالأمر العسير فقد فسدت الذمم وارتخصت النفوس منذ زمن بعيد ولم يكن المرء ليحتاج الاّ الى ذريعة مقبولة. ولولا ذلك لما توصلوا الى مرامهم بايام اربعة فحسب (تبدء من اجراءات التبني وتنتهي باغتيال غالبا). لقد اتموا خلال هذه الفترة القصيرة ما انطلقوا في سبيله وانجزوا مهمة التحريض والإثارة حتى خلفوا تمرداً شاملاً. وفي اليوم السادس لعملية التبني وهو «الثامن عشر السابق لشباط كما يطلق عليه الرومان تمّ القضاء على[غالبا]. ففي صبيحة ذلك اليوم ضحّى في [الپالايسوم] بمحضر من اتباعه وانصاره. فأخرج الكاهن [اومبريچيوس Umbricius] الاحشاء، وانشأ يتكلم بشكل واضح، لا مبهم كما جرت العادة وقال: هناك دلائل تبنيء باضطراب عظيم وشيك. وهناك فخاخ خطيرة تنصب للامبراطور مستهدفةً حياته. هكذا اشارت الآلهة باصبع الاتهام الى [اوتو] وكان واقفاً خلف [غالبا] مباشرةً يسمع كل ما يقال ويرى كل ما يشير اليه الكاهن في الأضحية. فأخذت الوانه تتغيرّ من فرط خوفه وهلعه وفضحت أساريره كل ما اضمره في قلبه وفي تلك الاثناء وصل معتوقه [اوغماستوس] وقال له ان رؤساء البنائين قد حضروا وهم ينتظرونه في المنزل. وكانت هذه العبارة المصطلح عليها وتعني ان يذهب [اوتو] لمواجهة الجنود وفسرّ الأمر للسامعين بأنه كان قد ابتاع منزلاً قديماً وهو يريد عرض ما وجد فيه من عيوب على البائعين ثم رحل. وبعد بما ان مرّ كان يدعى «دار طيبريوس» دخل الفورم ووقف في البقعة التي تنصب فيها عمود مذهب حيث تلتقي عنده كل الطرق المؤدية الى روما من ايطاليا. وهنا استقبله على ما يقال ما لايزيد عن ثلاثة وعشرين شخصاً - وحيوه بلقب امبراطور. ان رغد العيش وترفه وان اثرا على جسم [اوتو] الاّ ان تأثيرهما على روحه وعقله كان قليلاً، فهو بطبعه جريء القلب لايتطرق اليه الخوف عندما تحدق به الأخطار. الاّ انه احجم عن الذهاب الى المعسكر مع ذلك فحال الجنود الحاضرون دون تردده واحاطوا بكرسيه وقد انتضوا سيوفهم وامروا حَمَلَته برفعه والتقدم الى المعسكر، وسمع وهو يردد لنفسه عدة مرات «اني رجل ضائع».

كان استغراب الناس الواقفين هناك اكثر من قلقهم بسبب هذا العدد الضئيل من المتجمهرين القائمين بالانقلاب. ولكن العدد اخذ يزداد. بما كان ينضم من الناس وهو يسير في الفورم، ثلاثاً واربعاً. فاتجهوا الى المعسكر بسيوف مشرعة وهم يهتفون له باسم [قيصر] ولم يعترض [مارچيالياس Martialias] التريبيون الخفر دخوله المعسكر، فقد ذكروا انه لم يكن على علم بالمؤامرة مطلقاً ولكن الدهشة استولت عليه وخاف أن يعترض سبيله، وبعد هذا لم يبد احدٌ اية مقاومة فقد عمد المؤتمرون الى الاحاطة بالذين لم يعلموا شيئاً عن المسألة وكانوا يروحون ويغدون في ارجاء المعسكر على رسلهم، خائفين وجلين، ثم اقنعوا باعلان الولاء [لأوتو]،

ووصلت هذه الانباء فوراً الى [غالبا] وهو في [البالاسيوم] يقوم بتقديم القرابين مع الكهنة فلم يسع الأقل قابلية لتصديق المخاريق منهم، الاّ العجب لتحقيق النبوءة بهذه السرعة الخاطفة وبدأت الجماعات الكبيرة من مختلف الناس تولي هاربةً من الفورم وانتضى [ڤينيوس ولاقو] وبعض عتقاء [غالبا] سيوفهم واحاطوا به وتقدم [پيزو] فتكلم الى الحرس القائم بالخفارة، ثم ارسل [ماريوس چلسوس Marius Celsus] وهو من الشجعان المعدودين، لاستقدام الفرقة الالليرية المرابطة في ما يدعى بالقاعة الفِپسانية Vipsanian لتقوم بواجب الحماية.

وسأل [غالبا] انصاره هل يفضلون خروجه ام بقاءه حيث هو؟ فأشار عليه [ڤينيوس] بالبقاء، الاّ ان [چلسوس ولاقو] اخذا يلحّان عليه في الخروج وانحيا باللوم والتأنيب على [ڤينيوس]. الاّ ان اشاعة جديدة انتشرت بسرعةٍ خاطفة تقول ان [اوتو] قتل في المعسكر. ثم اقبل المدعو [يوليوس اتيكوس Julius Atticus] وهو رجل ذو شهرة ومكانة في اوساط الحرس. اقبل بعدو منتضياً سيفه وهو يصيح انه قتل عدوّ [قيصر] واندفع يشق طريقه بين الجموع وتقدم من غالبا بسيفه الدامي. فسأله [غالبا]:

- ممن تلقيتَ اوامرك؟

فأجابه انه الواجب الذي أملى عليه ذلك، وانها التبعة التي حمّلها له قسم الولاء. فصاح الجمهور استحساناً وهتفوا له غالبا. وجلس [غالبا] على كرسيه ونقل محمولاً الى الهيكل للتقريب الى [جوپتر] ولاظهار نفسه للملأ. وما ان وصل الفورم حتى وجد نفسه امام الفريق المعادي، وان الريح التي قذفت به تغير اتجاهها الآن. فقد سيطر [اوتو] على المعسكر تماماً. واخذ بعض الناس يحثه على العودة من حيث أتى، وبعضهم يشجعه على السير قدماً، كما يحصل عادةً في امثال هذه الأزمات. وطلب بعضهم منه ان يتحلّى بالبسالة والاقدام واوصاه بعضهم الآخر بالحذر والشكّ. وبينما كانت الكرسي تميل به ذات اليمين وذات الشمال كأنها تطفو فوق الامواج وهي تهتز به. ظهرت قطعات الخيالة وأعقبتها وحدات المشاة الثقيلة قادمةً من ميدان [پاولوس] وهي تهتف بصوت واحدٍ.

- فليسقط هذا الرجل المنحط.

وعندها بدأ الجمع المحتشد يصد لا يتفرق هارباً بل يحتل الأروقة والمواضع المرتفعة من الفورم، كأنهم يستبقون الحصول على اماكن للنظر منها الى مشهد طريقٍ وما ان اسقط [ايتلليوس ڤرجيليو Atillius Vergilio] أرضاً احد تماثيل [غالبا] حتى كان ذلك اشارة للقتال فوجهت رشقة من الحراب الى محفة [غالبا] ولما أخطأت هدفها تقدمت القوة وهاجمته

بسيوفها من مسافةٍ قريبة فلم يثبت احدٌ للدفاع عنه ولم يبدوا مقاومة الأ [سمپرونيوس دينوس Sempronius Densus] قائد المائة. رجل واحدٌ من بين تلك الألوف المؤلفة التي رأت شمس ذلك اليوم، يقوم بعمل مجيد، جدير بسمعة امبراطورية الرومان لم يكن هذا الضابط مديناً بفضل لغالبا، الا انه حاول الدفاع عن المحفة فرفع اولاً غصن الكرم التي يستعملها قواد المائة عادة لتصحيح مشية الجنود، وصاح بالمهاجمين منتهراً وامرهم بأن يمسكوا ايديهم عن امبراطورهم ولما اطبقوا عليه امتشق سيفه ودافع عنه مدة طويلة ثم سقط بعد اصابته في ساقيه.

وهوجمت محفة [غالبا] في موضع يسمى [لاكوس كورتيوس Lacus Cortius]. فسقطت عليه الضربات وهو ممدد وعليه درعه، فمد لهم عنقه وقال:

- إطعنوا، ان كان في ذلك مصلحة الرومان.

واصيب بعدة طعنات في ساقيه وذراعيه وأخيراً اجهزوا عليه بطعنة في عنقه كما ذكر معظم الكتاب سددّها جندي من الفرقة الخامسة عشرة يدعى [كاموريوس Camurius]. الأ ان فريقاً يذكر بان [ترنيتوس] هو الذي قتله، ويذكر آخرون [ليكانيوس Lecanius] ويقول آخرون ان [فابيوس فابولوس Fabius Fabulus] هو الذي قام بقطع رأسه وحمله ملفوفاً بطرف معطفه. لأن ابقاءه مكشوفاً يجعله عرضة للخطف. ولم يسمح مرافقوه بابقاء غنيمة مستورةً وطلب منه ان يعرضها للأنظار ليشهد الجميع بطولته، فركزه على سنان رمح ورفع رأس ذلك الشيخ الهرم الوقور الذي كان قبل لحظات حاكمهم العادل وقنصلهم وكاهنهم الأعلى واخذ يعدو به مثل باخوسيٍّ ماجن، ويديره ويرقصه في الهواء والدماء تشخب منه وتقطر على قناة الرمح. ولما جاؤا به الى [اوتو].

- أيها الرفاق الجنود. لن يكون هذا شيئاً ما لم تأتوني برأس [پيزو].

فجيء اليه برأس الشاب بعد برهة وجيهة. وكان [پيزو] قد انسحب بعد ان أصيب بجرحٍ، فعقبه المدعو [موركوس Morcus] حتى معبد [ڤيستا] وهناك اجهز عليه، كما قتل [تيتوس ڤينيوس] بعد ان اقرّ علناً باشتراكه في المؤامرة ضد [غالبا] حين صاح بقاتليه انكم تقتلوني خلافاً لرغبة [اوتو]. وعلى اية حال فقد احتزوا رأسه ورأس [لاكو] وجاؤا بهما الى [اوتو] طمعاً بجائزة على حدّ قول [ارخيلوخوس]

عندما تجد ستاً او سبعاً من الجثث على الأرض

تسمع آلافاً وهي تصيح، انه انا، انه انا الذي قتلهم

ولذلك غمس عدد كبير من الناس الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل - ايديهم وسيوفهم في الدم المهراق وأقبلوا يعرضونها على انظار [اوتو] وقدموا طلبات خطية بالتعويض والمكافأة، وتمّ تشخيص هويات ما لايقل عن مائة وعشرين منهم من تواقيعهم. فتعقبهم [ڤيتيلليوس] وقتلهم جميعاً.

وأقبل [ماريوس چلسوس] الى المعسكر فجوبه بصيحات الجنود التي ادانته بالانتصار لغالبا وطالبوا بقتله، وهو مالم يكن برغبة [اوتو] على ان خوفه من الاجابة الباقة بالرفض جعله يصرح بانه سيحجم الآن عن قتله حتى يستخلص منه معلومات هامة كثيرة. وسلمه الى المكلفين بوضعه تحت الحفظ.

وجمع [اوتو] مجلس الشيوخ فوراً... فاذا هم غير اشخاص الأمس او كأنهم بدلوا الآلهة التي يحلفون بها. فقد اسرعوا يقسمون [لاوتو] القسم الذي اداّه هو لغالبا وحنث به. وخلعوا عليه لقبي [قيصر واغسطس] وجثث القتلى مازالت في ارديتها القنصلية ملقاة في الساحة العامة. أما ما كان من الرؤوس المقطوعة. فعندما انتفت الحاجة اليها وملّتها الانظار، عرض رأس [ڤينيوس] للبيع فاشترته بنته بألفين وخمسمائة دراخما. وتوسلت [ڤارينيا Varenia] بهم فأعطي لها رأس زوجها [پيزو] دون مقابل. امّا رأس [گالبا] فقد دفعوا به الى خدم [پاتروبيوس] فعبثوا به وكالوا له شتى انواع الاهانات والتعدّي. ثم القوه في الموضع الذي جرت العداة التي ترمي اليه جثث من يقتل بأمر الامبراطور ويعرف باسم [سسيريوم Sesse-rium]. وقام [ارجيوس Argius] عتيق [پرسكوس هلڤيديوس Prescus Hervidius] باذن خاص من [اوتو] بحمل جثة سيده ودفنه ليلاً.

بهذا نأتي الى نهاية سيرة [گالبا]. الرجل الذي لاتجد صنواً له من الرومان الأ القليل، في الغنى او النبل. لقد فاق بهذين كل رجال عصره. وعاش وهو يتمتع بأعلى منزلة من الاحترام وحسن السمعة خلال حكم خمسة اباطرة. واسقط [نيرون] بشهرته وسمعته أكثر مما كان عامل القوة والعنف مسؤولاً عن ذلك. وكان الرأي العام ينظر الى من نحى منحى نيرون في الحكم اما بأنهم استحقوا المنصب الامبراطوري، واما انهم فرضوا انفسهم عليه وهم لايستحقونه امّا [گالبا] فهو الوحيد الذي عُرض عليه المنصب وقرر قبوله وسمح لـ[ڤندكس] بأن ينتقض بأسمه ولا أكثر. فأعطى صفة «الحرب الاهلية لما كان يعرف قبلها بالتمرد، بمجرد وجوده، ذلك الشخص الذي عُدّ جديراً بالسلطة، ان المنصب هو الذي انقاد اليه، وليس هو الذي انقاد الى المنصب. لقد اراد ان يقود اولئك الجنود الذين اغرا هم [نمفيديوس وتجللينوس] بالمال على الطاعة، بالطرق التي سبق لـ[سچيپيو] و[فابريچيوس] و[كاميللوس] ان اتبعوها في قيادة

العسكر الروماني في سالف العصور. ولكن كبر سنه في الواقع جعل الجنود والوحدات العسكرية، تنظر اليه نظرتها الى حاكم عتيق الطراز صلب العود. أمّا من الجهات الأخرى، فباستسلامه لرأي [ڤيتيوس ولاكو] والعتقاء المقربين، فقد نزل الى مستوى نيرون فيما كان يخصّ به عشراءه وندماءه وخلانّه. ولذلك لم يترك وراءه من كان يتمنى دوام حكمه، وان كان الأسف لموته عميقاً.

١٩٧٢/٥/٢٦

اوتو
OTHO
(Marcus Salvius)
32 _ 69

1913



في صباح اليوم التالي خرج الامبراطور الجديد الى الكابتول وقدم القرابين، ثم امر باحضار [ماريوس چلسوس] وحيّاه وتلطف معه ورجا منه ان ينسى اتهامه اكثر مما يتذكر اخلاء سبيله. فأجابه [چلسوس] بخير ما يمكن ان يقال في ذلك الظرف وشكره موضحاً بأن تهمته نفسها يجب ان تكون عاملاً في رفع سمعته لأنها الاخلاص [لغالب] الذي لم يكن مديناً له بايّ فضل خاص. واعجب الحاضرون بموقف الرجلين وهتف الجنود لهما.

وفي مجلس الشيوخ، تكلّم [اوتو] بالطف واحبّ لهجة. وكان مقرراً ان يبقى قنصلاً لما فضل من السنة الاّ انه تنازل عنها [ڤرجينيوس روفوس] ولم يعزل أحداً من القناصل الذين سماهم [گالبا ونيرون]. ومنح الترقيات للمستحقين والمبرزين ورفع المتقدمين بالعمر من الشيوخ الى منصب الكهنوت واعاد بقية املاك الشيوخ المصادرة غير المباعة التي وضع نيرون يده عليها ونفاهم ثم الغى گالبا اوامر نفيهم. فبدء الأمل يداعب نفوس الاشراف ورؤساء الشعب بحكم زاهر باسم من مطالعه. بعد الخوف الذي امسك بخناقهم، الى حدّ اعتقادهم بأن قوىً منتقمة آلهية قد استولت على الامبراطورية وليس مخلوقات بشرية مثلهم.

ولم يرفعه في نظر الشعب الروماني شيء قدر ما رفعته عدالته في معالجة أمر [تجللينوس]. كان هذا الشخص في الواقع قد بدء يستوفي قصاصه لقاء ما جنت يداه، فقد لازمه الخوف من العقاب الذي الحتّ روما بطلبه، وأخذت الأسقام التي لايرجى شفاؤها تنخر في جسمه، دعك من افراطه الأثيم في تعاطي الفحش مع العاهرات والساقطات منذ نعومة اظفاره حتى لفظ بينهن آخر أنفاسه على حدّ مأثور القول. هذه الاعمال في عُرف افاضل الناس هي اشدّ عقاب يمكن ان ينزل بالبشر. انها عدة ميتات في الواقع. لكنها على اية حال كانت مبعثاً للسخط العظيم عند الناس، وقد ملأهم غيظاً رؤيته نور النهار حتى تلك الساعة وهو المسؤول عن قتل الكثير مباشرةً والاكثر تسبباً. ولذلك أمر [اوتو] بجلبه وكان يتهيّأ للفرار وقد اعدّ بعض السفن للاقلاع به من الساحل بالقرب من [سينويسا Sinuessa] محل سكناه. فأدركه السعاة فحاول ارشاء الضابط بمبلغ كبير من المال ليخلي سبيله ولايحول دون فراره ولما وجده مصرّاً قدم له هدية ثمينة كأنما هو غير مهتم بالأمر ورجا منه ان ينتظر قليلاً

ليحلق لحيته ثم ذبح نفسه بالموسى.

وبهذا ارض [اوتو] الرومان وشفى غليلهم. امّا هو فقد أظهر عدم اهتمام بتعقيب من ألحق به الأذى في الماضي. ولم يرفض في مبدء الأمر تلقيب الناس له في المرسح بـ[نيْرون] ولم يتدخل عندما عرض بعضهم تماثيل هذا العاهل لأنظار الجمهور. ويقول [كلوفيوس روفوس Cluvius Rufus] ان الرسائل الرسميّة الموجهة من الامبراطور، الى اسپانيا كانت اولاً تمهر بتوقيع [اوتو نيرون] ولكن ما ان ادرك ان ذلك يجرح مشاعر اخيار المواطنين، حتى حذف اللقب.

ولما بدأ يجرى التعديل في نظام الحكومة على هذه الوتيرة اخذ الجنود المرتزقة يتذمرون وحاولوا تشكيكه في نوايا الاشراف لينزل بهم العقاب، ولا ندري أكان يدفعهم في هذا حرصهم على سلامته او لرغبتهم في اثارة حربٍ او اشاعة الفوضى تحت هذا الزعم؟ فلما أمر [اوتو] [كرسپينوس Crispinus] بسوق الكتيبة السابعة عشرة من [اوستيا]، راح هذا يتهيأ لذلك بعد حلول الظلام وكدّس الاسلحة في عربات النقل، صاح بعض مثيري الفتن ودعاة الشغب ان [كرسپينوس] يتآمر ويبيت خيانة وان مجلس الشيوخ يدبّر امراً بليلٍ ضد الامبراطور وان هذه الاسلحة ستخدم هذا الفرض. وما انطلقت هذه الصيحة حتى وجدت لها افواهاً تتلقفها ونفوساً تؤمن بها وتتبناها فثارت عواطف الجماهير وتفجرت براكين عنفهم فأستولى فريق منهم على العربات ووثب فريق على [كرسپينوس] فقتله مع قائدين من قواد المائة اعترضا سبيلهم، ووزع السلاح على الغوغاء ونظموا صفوفهم مشجعين بعضهم بعضاً للوقوف الى جانب [قيصر] واتجهت جموعهم الى روما. وسمعوا ان ثمانين شيخاً يتناولون عشاءهم على مائدة [اوتو] فاندفعوا الى القصر قائلين انها خير فرصةٍ للقضاء على اعدائه دفعةً واحدة وانذرت المدينة بأن الجنود على وشك تطويقها وساد الاضطراب نفوس من في القصر، وتصاعد غضب [اوتو] الى اقصاه، وكان القلق ينهشه على الشيوخ الذين كان بعضهم قد صحب زوجاته. كذلك شعر بأنهم صاروا ينظرون اليه بشك وقلق من اعينهم الشاخصة اليه بصمت وفزع. فطلب من امراء الحرس ان يخرجوا الى الجنود ويعملوا على تهدئتهم. في حين اوعز للمدعوين بالنهوض وترك القاعة والخروج من بابٍ آخر. وما أن أخلى المكان حتى اندفع الجنود وهم يصرخون:

- أين هم اعداء [قيصر]؟

فأعتلى [اوتو] معقده وحاول معهم اثارةً بالمنطق، وتارة بالضراعة بالدموع الصادقة حتى تمكن بعد لايء من صدهم عما اعتزموه.

وفي اليوم التالي قصد المعسكر ووزع مكافأةً قدرها ألف ومائة وخمسون دراخما لكلّ جندي. ثم شكرهم واثنى على غيرتهم وحرصهم على سلامته. ثم ذكر لهم أن هناك من يتآمر عليه من بينهم. هؤلاء الذين عابوا عليه رحمته وتساهله، ولم يكتفوا بهذا بل سلكوا اسوء السبل ليعبروا عن اخلاصهم الزائف له. ولذلك فهو يريد منهم ان يعاونوه لانفاذ حكم العدالة في هؤلاء النفر. فأعلن الجميع تضامنهم وموافقتهم على حكمه. فأكتفى بتنفيذ حكم الموت باثنين فقط كان يعلم أن موتها لن يكون موضع أسفٍ عند جندي واحدٍ في الجيش كله.

لم يكن ينتظر أحدٌ من [اوتو] مسلكاً كهذا، الاّ ان الناس اختلفوا في تعليله فبعضهم كان يعتبره منّة منه وفضلاً. وبعضهم عده سبيلاً اندفع فيه بحكم الضرورة لتأمين مساندة الجنود له عند نشوب الحرب. فقد وردت في حينه ابناء تشير الى ان [ڤيتيللوس] قد تسلّم زمام السلطة واتخذ لنفسه لقب الامبراطور. وتعاقب السعاة والرسل بانباء انتفاضات أخرى جديدة، على ان فريقاً من السعاة حملوا انباء تفيد بأن الفرق العسكرية المرابطة في پانونيا Pannonia ودالماسيا Dalmasia وموسيا Moesia بجنودها وضباطها مقيمة على ولائها له. وما مرّ وقت قصير حتى وردته رسائل تأييد من [موشيانوس Mucianus] و[ڤسپاسيان Vespa- sian] وكلاهما يقود جيشاً جراراً اولهما في سورية وثانيهما في بلاد اليهودية، يؤكدان فيها وقوفهما الى جانبه بصورة اكيدة. ان الاطمئنان الذي ثبته هذه الرسائل فيه، رفعت من معنوياته وحمّسته فكتب الى [ڤيتيلليوس] يحذره من مغبه اعتدائه على السلطة وتخطيه حدود صلاحياته ويأمره بالتزام واجبات منصبه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال مع مدينةٍ ليعيش فيها طول حياته عيش رغدٍ وراحة. فردّ [ڤيتيلليوس] بجواب فيه لطف ومجاملات مبطنة ثم سرعان ما انتقلت مراسلاتهما الى المهاترة والمغاضبة وتبادل التهم المخجلة والشتائم القبيحة، ولم يكونا كاذبين بها. انما من السخف والحمق ان يهاجم احدهما الآخر ويتهمه بالجرائم التي لم يتعفف كلاهما عن ارتكابها فعلاً. اذ يصعب والحق يقال أن يجزم المرء بايّ منهما أكثر سفاهة وتخنثاً، وايهما اشد جهلاً بالقيادة، واكثرهما اغراقاً في الاستدانة لفقرهما في الماضي؟

أما عن المخاريق والظواهر السماوية التي حصلت في تلك الفترة فقد ذكر عنها الكثيرون دون ابراد اصولها، او التثبت في تفاصيلها فقد روي بعضها باشكال مختلفة. على ان ثم خارقةً واحدة رآها الناس كافة بأعينهم. وهو ما حصل لتمثال ربّة النصر القائم فوق عربة الكاپتول. فقد شوهدت الأعنة تسقط من يد الربّة كأنها لم تعد تقوى على شدّها. وثم خارقة أخرى حصلت لتمثال [كايوس قيصر] القائم في جزيرة [التيبر] فقد دار على نفسه وصار

يواجه الشرق بعد ان كان يستقبل الغرب دون ان يحدث هزة ارضية أو تهبّ عليه ريح. وقيل ان ذلك وقع في الزمن الذي بدء [ڤاسپسيان] وحزبه بالتمخض والعمل علانية. ثم وقع حادث آخر عدّه الناس نذير شؤم وهو ارتفاع منسوب ماء التيبر وطغيانه. لقد وقع هذا في موسم ارتفاع مناسيب الانهار المعتاد الى اقصى ما تبلغ من ارتفاع، الاّ ان زيادة الماء في التيبر والطوفان الهائل الذي نجم عنه والخراب الذي احدثه في الممتلكات لم يعرف شبيه له من قبل. لقد طغى الماء على جزءٍ كبيرٍ من المدينة ولاسيما سوق القمح فأحدث قحطاً لايام عديدة.

وعندما وردت الانباء بأن قائدي [ڤيتيلليوس]؛ وهما [كايچينا وڤالنس] قد بسطا سيطرتهما على الألب. ارسل [اوتو] [دولابللا] (وهو پاتريشي كان الجيش يشك في ان له مآرب شريرة) الى بلدة [اكونيوم Aqiunum] لامر لم تعرف حقيقته وقد يكون بسبب الخوف منه او لعلةٍ أخرى. زاعماً انه أرسله لبث روح المقاومة والشجاعة في النفوس. ثم اختار القادة والحكام الذين سيرافقونه شخصياً الى الحرب. وممن عين [لوشيوس] أخا [ڤيتيلليوس]. ولم يخصّه بفضلٍ او يبدِ له جفاء الاّ انه اتخذ اشد التدابير حزماً لسلامة زوج [ڤيتيلليوس] وامّه، ويدّد كل ما قد تشعران به من خوفٍ وهواجس وعين [فلاڤيوس سابينوس Flavius Sabi-nus] أخا [ڤسپاسيان] حاكماً لروما اما اكراماً لذكرى [نيرون] الذي كان قد أسند اليه هذا المنصب ثم عزله عنه [گالبا]، امّا اظهاراً لثقته [بڤسپاسيان] اخيه.

وعند وصوله [پركسيللوم Brixillum] وهي مدينة ايطالية قريبة من نهر [پو]. قرر البقاء هناك وعين لقيادة الجيش كلاً من [ماريوس چلسوس] و[سوتونيوس پاولينوس Suetonius Paulinus] و[سپورينا Spurina] وهم رجال عركتهم الخبر وبلتهم التجارب واشتهر أمرهم. الاّ انهم عجزوا عن تنفيذ ما يجب تنفيذه للروح المتمردة الفوضوية التي سادت افراد الجيش. فقد ابوا ان يطبعوا امراً غير صادرٍ من الامبراطور المختار من قبلهم. ولم تكن حال جيش العدو بافضل من ذلك. فالانضباط عندهم مفقود والأوامر لاتطاع والجنود تتملكهم روح الزهو والعجرفة والتمرد على القادة لعين السبب. الاّ انهم كانوا أكثر تجربة ومراناً وتعودوا على العمل الشاق اما رجال [اوتو] فقد جردهم رغد العيش وقلة التدريب من الرجولة واصيبوا بالرخاوة لانغماسهم في الملاذ وارتياد الملاعب والمراسح والحفلات في العاصمة. والى جانب محاولة تغطية قصورهم وضعف هممهم بالتواقح والمظاهر الزائفة. فقد تظاهروا وتعمدوا التنصل من واجباتهم لا لعجز فيهم، بل لأنهم كانوا يترفعون عنها. وكاد [سپوريتا] يفقد حياته ويمزّق ارباً، لأنه حاول ارغامهم على اداء واجباتهم، فأهانوه واسمعوه من هجر القول واتهموه بالكيد [للقيصر] واضمار السوء والخيانة له واقتحم بعض السكارى خيمته ليلاً

وطلبوا منه نفقات رحلة الى الامبراطور ليقدموا شكوى ضده!

على أن ما لقوه في [پلاچنسيا Placentia] من تحقير وازدراء اسدى في حينه خدمة طيبة له ولقضية [اوتو]. فقد تقدم رجال [ڤيتيلليوس] من الاسوار واخذوا يعيرون رجال [اوتو] القائمين على حراسة الابراج ويسخرون منهم فلقبوهم بالراقصين والممثلين والمهرجين والمتفرجين الكسالى في الالعاب الاولمپية. والمستجدين في فنون الحرب، ممن لم يسبق لهم ان شاهدوا ميدان قتال، والجبناء الذين كان نصرهم الوحيد هو قطع رأس [غالبا] الشيخ الأعزل. والكارهين مواجهة الاعداء الحقيقيين... هذه الأهانات ملأت نفوسهم حنقاً فجثوا تحت قدمي [سپورينا] متوسلين به ان يصدر اليهم اوامره بالانقضاض على اعدائهم وأكدوا له أنهم لن ينثنوا عن مكامن الخطر ولن يتقاعسوا عن اي واجب. وكانوا عند كلمتهم فقد شنت قوات [ڤيتيلليوس] هجوماً عنيفاً على المدينة مستخدمة عدداً كبيراً من آلات الحصار والثغر فصدّها المدافعون بشجاعة وردوّها على اعقابها بعد ان كبّدوها افدح الخسائر، وبذلك ضمنوا سلامة مدينة شريفة هي من اجمل وازهى المدن الايطالية.

وظهر جلياً ان ضباط جيش [اوتو] كانوا أطيب معاملة للسكان كبارهم وصغارهم من ضباط [ڤيتيلليوس]، وكان من قواده [كاپچينا] الذي تميزّ بفظاظه في الطبع، وسلاطة لسان. لايتصف بسلوك الرجل المهذب ولايتكلم بلغته. غطريس غريب الهيئة عملاق يرتدي دائماً اثواباً باكمام وسراويل على الزّي الغاليّ عندما يحضر مجالس موظفي الرومان وحكامهم. وكانت زوجه تلازمه في مسيراته العسكرية فتمتطى جواداً وهي في حلّة فاخرة، يحف بها حرس من الخيالة المنتقاة. امّا زميله الجنرال الآخر [فابيوس ڤالنس] فقد كان طمّاعاً جشعا لايشبع من المال الذي ينهبه من العدو، او يهدى اليه او يرشى به او يسرقه من اصدقائه وحلفائه. وذكروا انه كان يتعمد البطء في تقدمه (حتى انه لم يدرك المعركة التي سلف ذكرها) ليتاح له وقت كافٍ للسلب والنهب وهو في طريقه. الأ أن بعضهم يلومون [كاپچينا] في هذا بقولهم انه استعجل الهجوم قبل وصول [فابيوس ڤالنس] لأنه اراد ان يستأثر بالنصر، وقد ارتكب أيضاً عدة اخطاء أخرى ثانوية. فكاد يلحق الدمار التام بالحملة كلها لاشتباكه مع العدو في ظروف غير ملائمة.

اندحر [كاپچينا] في [پلاچنسيا] فأنطلق للانقضاض على [كريمونا] المدينة الكبيرة الغنية. وفي الوقت عينه زحف [آينوس غاللوس Annius Gallus] للانضمام الى [سپورنيا] في [پلاچنسيا] ولكنه علم قبل وصوله ان الحصار رفع عنها، وان [كريمونا] تتعرض الآن للحصار فاتجه اليها لانقاذها وعسكر بالقرب من العدوّ، وكانت تعزيزاته من الضباط مستمرة

على مدار اليوم ووضع [كايچينا] كميناً قوياً من المشاة الثقيلة في ارض وعرة كثيفة الشجر واصدر أمراً لخيالته بالتقدم والتعرض للعدو حتى اذا استنفر انسحبت خيالته ببطء واستدرجتهم الى الكمين. الاّ ان احد الهاربين كشف الخطة للعدوّ فقام [چلسوس] بالتصدي للخيالة بقوات كبيرة من فرسانه واخذ يعقب المتقهقرين بكل حذرٍ الى ان نجح في تطويق كل القوات التي وضعت في الكمين والحق بها هزيمة نكراء ولو وصلت المشاة التي بعث في طلبها من المعسكر في الوقت المناسب لاسناد الخيالة لحلّت الهزيمة التامة بكلّ جيش [كايچينا] على اية حال. الاّ أن حركة [پاولينوس] كانت في غاية البطء حتى انه اتهم بالحذر غير المتوقع من قائدٍ مثله ذي دراية وسمعة طائرة.

لذلك اثار الجنود حفيظة [اوتو] عليه فاتهموه بالخيانة وفخروا ملء افواههم بالنصر الذي حازوه قائلين انه لم يكن كاملاً بسبب خطل قادتهم واخطائهم. ومع ان [اوتو] لم يصدق كل ادعاءاتهم الاّ انه لم يعترض على ما قالوا. ولذلك عيّن اخاه [تيتيانوس Titianus] مع آمر الحرس [پروكولوس Proculus] اولهما قائداً رسمياً وثانيهما قائداً فعلياً، وانزل رتبة [چلسوس وپاولينوس] الى مستوى المستشارين وجردهما من كل سلطة اجرائية. وكان العدو في الوقت نفسه يشكو الفوضى، والتناحر قد مزق صفوفه تمزيقاً. ولاسيما قطعات [ڤالنس] عندما علمت بهزيمة جنود [كايچينا] في الكمين. واجتاحتها سورة من الغضب الشديد لأنه لم يتح لها المشاركة ولو في اشتباك واحدٍ دفاعاً عن العدد الكبير من اخوانهم الجنود الذين قتلوا في تلك المعركة. ولقي [ڤالنس] الأمرين في تهدئة عواطفهم الاّ انهم عادوا فقذفوا خيمته بالرماح فما كان منه الاّ وترك معسكره وذهب الى [كايچينا].

وانتقل [اوتو] الى [بدرياكوم Bidriacun] وهي بُليدة لا تبعد كثيراً عن [كريمونا] ودخل المعسكر وامر باجتماع لمجلس الحرب وفيه اقترح [پروكولوس وتيتيانوس] شنّ الهجوم فوراً لاستغلال معنويات الجنود العالية بالنجاح الذي حققوه، وقالا ان الواجب يقضي بأن لايضيع الوقت مع الفرصة المؤاتية وان تستثمر أقصى حالات القوة التي بلغوها الآن دون انتظارٍ لمقدم [ڤيتيلليوس] من بلاد الغال. وخالفهما [پاولينوس] بقوله، انهم يواجهون الآن كل ما لدى العدوّ من وحدات عسكرية. وانه لايملك اي احتياطي فلو ان [اوتو] تريّث وتأنى ولم يتسرع وفضل ان يختار ساعة المعركة بنفسه لا ان يقبل بالموعد الذي اختاره العدوّ فمن المتوقع ان تصل نجدات من [موسيا وپانونيا] لاتقل عدداً عما لديه الآن من قوات. ومن المحتمل جداً ان الجنود وهم الآن على درجة كبيرة من الحماسة قبل وصول هذه النجدات، سيكونون أكثر تحمساً واندفاعاً بعد وصولها. كذلك ليس هناك اي خطر عليهم من تأخير المعركة لأن اقواتهم

تكفيهم. في حين ان العدو وهو في ارض غريبة لن يلبث ان يشكو من نقص ارزاقه. وكان هذا من رأي [ماريوس چلسوس] ايضاً. اما [انيوس غاللوس] فلم يكن موجوداً في مجلس الحرب بسبب السقطة عن ظهر حصانه وخضوعه لعلاج الجراحيّ. فأستخرج رأيه كتابةً فنصح [اوتو] بانتظار الفرق العسكرية القادمة من [موسيا]. على ان الامبراطور لم يعمل بهذا الرأي واخذ برأي من حبذ الدخول في المعركة فوراً.

بُررّ هذا القرار باسباب عدة، وكان ابرزها هو هذا: ان الجند البريتوريّ كما كان يطلق عليه. وهو الذي يقوم بواجبات الحرس الامبراطوري، ضاقوا ذرعاً بالانضباط العسكري الذي بدء يفعل فعله في نفوسهم وما كانوا يطيقونه لاعتيادهم حياة النعومة والتسلية فحنوا الى عيشهم الرغد البعيد عن سمة الحرب بين ملاعب روما ومراسحها. ولذلك ارادوا التعجيل في خوض المعركة متصورين بأن النصر التام سيكون الى جانبهم في اول الهجوم. ويبدو ان [اوتو] نفسه لم يكن قويّ الارادة حازماً كما يجب في مواجهة كلّ الاحتمالات. ولم يدعه طبعه المخنث يتحلى بالصبر. كما ان قلة مرانه وتجربته جعلته يغفل حساب الخطر فكان شديد الخوف عند مواجهته له وفعل طبق ما فعله الجبان الرعديد اذ أغمض عينيه وترك مصيره في كفّة القدر وقذف بنفسه من الجرف الى أسفل. هذا ما اورده بتفصيل [سكوندس Secundus] المنطقي امين سرِّه. وقد يقول لك آخرون انه لوحظ تقارب كبير بين افراد الجيشين وتفاهم حول انهاء النزاع بالاتفاق على انتخاب افضل الموجودين من القادة لمنصب الامبراطور. وان لم يتمكنوا طلبوا اجتماع مجلس الشيوخ ومنحوه صلاحية الاختيار. ومن المحتمل جداً ان يكون هذا هدف ذلك الفريق الواعي المتزن من افراد الجيش الذي لم يجد في ايّ من الامبراطورين المتنازعين على السلطة الجدارة والخبرة والاهلية لتسنمّ المنصب فهما في الواقع لايتمتعان عنده باي احترام أو مكانة. لم يكن هناك مشبه للمصائب والشرور التي تجرعها الرومان بسبب احترابهم وقتالهم بعضهم بعضاً لأجل المدعو «سللاً» أو «ماريوس» او من عرف باسم «قيصر» و«پومپي». وهاهم اليوم يتجرعونها مجدداً لتدفع الجمهورية الرومانية مصاريف طيش [ڤيتيلليوس] وجشعه. ونفقات تفسخ [اوتو] وخنوثته. ولقد ساد الاعتقاد ان تفكير [چلسوس] كان ينمو هذا المنحى فأخذ يمدّ في حبل الزمن ويؤجل القتال بعل التسوية المنشودة تحقق، في حين كان [اوتو] يستعجل الأمور ويندفع ليحول دون الوصول الى اتفاق.

عاد [اوتو] الى [بركسيلوم]، فكانت عودته غلطة أخرى لأنه جردّ المقاتلين من الدافع الحقيقي لحسن البلاء واجادة القتال للظفر بالتقدير الذي كانوا يطمحون اليه، منه، كما قضى على كل احترام يشعرون به تجاهه. ولأنه كذلك اضعف الجيش بسحب بعض الوحدات الممتازة

المخلصة وضمها الى حرسه من صنفي الخيالة والمشاة.

وفي تلك الاثناء حصل اشتباك على نهر [پو] بينما كان [كايچينا] يمدّ جسراً فوقه فقد هاجمه رجال [اوتو] فأحبط هجومهم. وبينما كانوا يحملون زوارقهم بخشب المشاعل وكميات من الكبريت والقار، هبت ريح النهر على تلك المواد التي كانوا يهيئونها لاستخدامها ضد العدو فقدحت فيها ناراً، وخرج منها دخان ثم تصاعدت السنة اللهب فدبّ الذعر في الرجال وعمتهم الفوضى. واخذوا يهرجلون في داخل القوارب فأختل توازنها واصبحوا تحت رحمة عدوهم بشكل يدعو الى الضحك والرثاء. وهاجم الجرمان مصارعي [اوتو] في جزيرة صغيرة وسط النهر وهزموهم بعد ان فتكوا بعدد كبيرٍ منهم.

كل هذا اغاظ الجنود المعسكرين في داخل [بدرياكوم] وملأهم شوقاً الى المعركة. فخرج بهم [پروكولوس] من المدينة وسار الى موضع يبعد عنها خمسين فرلنگا، فضرب فيها خيامه، بقصر نظر فاضح وجهل مطبق بالفنون العسكرية فقد أخذ الجنود يشكون شحاً في الماء في حين كان الفصل ربيعاً والسهول المجاوره تحفل بالغدران والنهيرات الدائمة الجريان على مدار السنة وفي اليوم التالي قام بمسيرة لا تقل عن مائة فرلنگ واقترح الاشتباك بالعدو، لكن [پاولينوس] عارض في ذلك بقوله ان الانتظار أخلق بهم. وليس من الحكمة ان يدفع جنوده الى خضم المعركة بعد ان ساروا هذه المسافة الطويلة مع حيوانات نقلهم وخدم المعسكر والأثقال. في حين كان العدوّ منتظم الصفوف متهيئاً للمعركة بسلاحه وفيما كان القادة يتناقشون في هذا الأمر، قدم ساعٍ نوميديٌ من مقرّ [اوتو] يأمرهم باستعجال القتال وعدم اضاعة الوقت. فأنهى بذلك النقاش واتفق الجميع على الهجوم وبدأوا بالحركة. فأدركت [كايچينا] الدهشة العظمى لعمل لم يتوقع صدوره من عدوه وغادر موقعه على النهر واسرع الى المعسكر. وكان معظم جنود [ڤالنس] قد استعدوا بسلاحهم وتلقوا كلمة السرّ منه. وأخذت الفرق تتجمع في مواقعها بينما تحركت تشكيلات الخيالة الى الميدان.

وسرت اشاعة بين جنود [اوتو] لا أساس لها، تفيد ان ضباط العدو سينفصلون وينضمون اليهم. حتى خيل لهم ان الأمر حقيقة فبادروا يحيون العدوّ المتقدم ويرسلون اليه عبر الخطوط عبارات الودّ، ودعوهم بالاخوان والرفاق عند اقتراب الجمعين. الاّ ان الردّ كان جافاً مهيناً. فركبتهم الخيبة وهبطت معنوياتهم. كما شك الجنود المتأخرون في اخلاص الصفوف الأماميّة للسلوك الودّي الذي ابدوه للعدو. فكان الاضطراب يسود اول كرةٍ لهم على العدوّ. وجرت كل صفحات المعركة بدون خطة او نظامٍ. فقد اختلط حملة الاثقال بالمقاتلين وخلقوا فوضى عظيمة، واحدثوا تخللاً وانفصالاً بين الوحدات. وارغمت طبيعة الأرض بحفرها وسواقيها العديدة

كثيراً من الوحدات على كسر صفوفها والدوران حول هذه العقبات، فصارت تقاتل بدون نظام وعلى شكل وحدات متفرقة قليلة العدد. اللهم الاّ فرقتين احداهما تعود [ڤيتيللوس] وتدعى «بالشهباء»، والأخرى [لاوتو] وتدعى «المساعدة» فقد خرجتا الى ارضٍ سهلة واشتبكتا بشكلٍ نظاميّ ردحاً طويلاً من الزمن. كان رجال [اوتو] اشداء شجعاناً الاّ انهم لم يسبق لهم خوض معركة. امّا رجال [ڤيتيلليوس] فقد خاضوا معارك كثيرة، إلاّ انهم لم يعودوا شباباً فقد انهك تقدم السنّ قواهم. ولذلك كرت عليهم فرقة [اوتو] كرة عنيفة واجبروهم على التقهقر واغتنموا منهم نسرا. وقتلوا كل رجال الصف الأمامي تقريباً، حتى عصف الغضب والخزي بالمتقهقرين فصمدوا وردّوا الهجوم وقتلوا [اورفيديوس Orfiduis] قائد الفرقة واخذوا عدة اعلام. وسار [ڤاروس الفينوس Varus Alfenus] على رأس جنوده الباتاڤيين Batavia وهم سكان جزيرة في الراين واشتهروا بأنهم أفضل فرسان الجرمان فأنقض بهم على المصارعين الذين عرفوا بالبسالة والبراعة الاّ ان قلة من هؤلاء ادّوا واجبهم. لكن الأغلبية ألوت باعنة خيلها الى النهر وانقضت على بضع كتائب هناك، فعزلت نفسها عن سائر الجيش ولم يقف احد موقفاً مخزياً كموقف الحرس الپريتوري فقد ولوا الادبار قبل ان يلتحموا بالعدوّ وشقوا طريقهم خلال الصفوف الصامدة منهم فنشروا الفوضى. مع هذا كله فقد وفِقّت قطعات عديدة [لأوتو] في دحر اعدائهم الذين صمدوا لهم وفتحوا ثغرة في صفوفهم ونفذوا منها الى معسكرهم دون ان يتمكن منهم المنتصرون.

ولم يجرؤ [پروكولوس] و[پاولينوس] على دخول المدينة مع الجنود وانتحيا جانباً وتحاشيا ثورة الجنود الذين القوا كل اللوم عليهما بالهزيمة. ولكنهم سمحوا [لآنيوس غالوس] بدخول المدينة فباشر بعيد تنظيم الوحدات المشتتة. وبث في نفوسهم الشجاعة بقوله ان المعركة لم يتقرر مصيرها بعد، وان النصر في اكثر مواقعها هو بجانبهم وجمع [ماريوس چلسوس] الضباط وحثهم على المجاهدة في سبيل الوطن.

ولو كان [اوتو] يتحلّى باي قدرٍ من الشجاعة، لكفّ عن القتال بعد ان سفك هذا القدر الكبير من الدم الروماني. ولاسيّما وله في [كاتو] و[سچيپيو] اسوةٌ فقد أتهما بأنهما هدرا حياة عدد كبير من اشجع الرومان في افريقيا ولم يقبلا الاستسلام لقيصر بعد معركة [ڤرساليا] اتهما بذلك مع ان حرية روما كانت في كفّة القدر. لا يسلم احد من غدر الدهر الخؤون وتقلبات الحظّ الاّ ان هناك سجيّة مميزة للافاضل منهم، لا سبيل للحظ في نكرانها وهي أنهم يستخدمون عقولهم ويعلمون بهدي منها عندما تكبو بهم الاقدار ويقلب لهم الحظّ ظهر المجّن. هذه الفكرة كانت تسود ضباط جيش [اوتو] فأخذوا يسبرون غور الجنود فوجدوا انهم

يرغبون في السلام مثلهم. وعلى اثر ذلك اصدر [تيتيانوس] أمراً بارسال وفد مفاوضة واتفق ان يتألف الوفد من [چلسوس] و[غاللوس] و[ڤالنس] و[كايچينا]. وانطلق الاولان لمقابلة الطرف الثاني. فاستوقفهما في الطريق جماعة من قواد المائة واعلموهما ان جنودهم يتحركون نحو [بدرياكوم]. الاّ ان قائديهم قد انابوهم للقدوم اليهما بشروط الصلح والسلام. فاعرب [چلسوس وغاللوس] عن رضاهما وطلبا منهم العودة معهم الى [كايچينا] ففعلوا وساروا سويّة الاّ ان [چلسوس] تعرض للخطر، عندما اقترب من حرس المقدمة وكانوا من الخيالة التي لحقت بها خسائر جراء فشل كمين [كايچينا] كما مرّ بيانه فما ان تبينوه حتى أطلقوا صراخاً وهجموا عليه الاّ ان قواد المائة تولوا حمياته، وانتهزوا ضباطهم وصاحوا بهم حتى ردوّهم عنه. وخرج [كايچينا] ليرى سبب الضجة وعمل على تهدئة الحال وحيّا [چلسوس] تحية الصديق وضمه الى ركبه المتقدم نحو [بدرياكوم]. على ان الندم خالط [تيتيانوس] لارساله وفد الصلح وعززّ الاسوار بحرس موثوقين واستنهض همم الجنود الآخرين ليشدوا ازرهم. الاّ أنهم حيوا [كايچينا] ورجاله عند اقترابهم بودّ ولطف ولم يصدر منهم عمل عدائي. وبادر بعضهم الى فتح ابواب المدينة وخرجوا لاستقبال القادمين واختلطوا بهم دون كلفةٍ. وأخذ الفريقان يصافح احدهما الآخر وتبودلت عبارات التهاني، وتسابقوا الى اداء يمين الولاء والطاعة [لڤيتيلليوس].

هذا ما يورده معظم من كان موجوداً في القتال. الاّ انهم يقرون بأن الاضطراب والفوضى التي سادت وفقدان النظام حال دون التأكد والأطلاع على التفاصيل دقائق الأمور. ولما شددتُ الرحال الى ميدان القتال بصحبة [مستريوس فلورس Mestrius Florus] وهو من القناصل السابقين وكان في معية [اوتو] وقتذاك مجبراً لا مختاراً. وجّه اهتمامي الى معبد عتيق وقال لي موضحاً:

- كنت اتمشى بعد انتهاء المعركة في هذا الطريق فلاحظت كدساً من الجثث تعلو بعضها بعضاً حتى تبلغ بمستوى سطح المعبد الذي تشاهده الآن. فتساءلت كيف حصل هذا ولم اهتد الى الحقيقة، ولم يفدني احدٌ بجوابٍ شافٍ. فالعادة في الحرب الاهلية ان أكثر القتول لا تسقط خلال المعركة، وانما بعدها. اذ لاتقبل دخالة جنود الفريق المغلوب لأن المنتصرين لايجتنون ايةّ فائدة من الأسرى الاّ ان سبب تكديس الجثث هنا لم يجد له اي تعليل.

وكما يحصل دائماً في مواقف كهذه، وردت [اوتو] شائعات غير مؤكدة عن نتائج المعركة. ثم وصل بعض الجرحى العائدين من الميدان رأساً واعلموا بالحقيقة الواقعة. وليس لنا ان نعجب عندما نعلم ان اصدقاءه وانصاره اخذوا يشجعونه، ويستنهضون همتّه، ويحثونه على

نبذ اليأس جانباً. الاّ ان العجب الكبير هو ما اظهره جنوده من شعور بالتفاني والتضحية. فقد وقفوا جميعاً الى جانبه، ولم يدر احدٌ ظهره اليه مستقبلاً العدو، او مظهراً اية رغبة في التفاوض مع المنتصر لأن الفشل بات حليف قادتهم بالعكس تماماً، فقد تجمعوا امام بابه وهتفوا له وحيوه بلقب الامبراطور عندما برز لهم واستلموا يده، والقوا بأنفسهم على الأرض وراحوا يتوسلون ويضرعون باعين باكية، ليقف الى جانبهم ولايتخلى عنهم لاعدائهم وان يتصرف كما يشاء بمصائرهم وارواحهم التي ستبقى ملك يمينه ما ظلّ فيهم نفس يتردد. كان صدق عواطفهم وحماستهم عامةً حقيقية. وبرز جندي بسيط من الكتل المتراصح وانقضى سيفه ووجه الى [اوتو] العبارات التالية:

- امتحن اخلاصنا بهذا يا قيصر. ليس بيننا رجل الاّ ويطاعن في سبيلك كما أطعن الآن.

قال هذا وغيب نصل سيفه في احشائه.

ومع هذا كلّه فقد وقف [اوتو] كئيباً صامتاً. ثم تلفت متطلعاً فيهم بوجه صارم يشع منه الحزم والعزم وقال:

- أيها الجنود الرفاق. ان هذا اليوم الذي يقدم لي هذه الأدلة الصادقة على حبّكم، لهو افضل واسمى من ذلك اليوم الذي بايعتموني فيه امبراطوراً. فلا تأبوا عليّ اذن سعادةً ارفع من هذا شأناً، وهي ان استرخص حياتي للمحافظة على ارواح هذا العدد الكبير من الرجال الشجعان. فلتسمحوا لي في هذا على الأقل أن أكون جديراً بالامبراطورية، أعني ان أموت فداءً لها. وفي رأيي ان العدوّ لم ينل حتى الآن نصراً تاماً، ولم يربح معركة فاصلة، ليس خفيّاً عنيّ ان جيش [موسيا] الذي يتجه الآن الى البحر الادرياتيّ، لايبعد كثيراً عنا. وان آسيا وسورية ومصر والفرق التي تقاتل اليهود هي معنا. ومجلس الشيوخ يقف الى صفنا، ونساء العدو واولاده هم تحت رحمتنا، لكن معركتنا مع الأسف، ليست معركة دفاع عن ايطاليا، كتلك المعارك التي جرت ضد [هنيبعل اوبيروّس]، أو قبائل الچمبري. فهاهنا الرومان يقاتلون الرومان، والامر سواء أكتب لنا النصر او مُنينا بالهزيمة فبلادنا هي التي ستعاني النتيجة واننا لنرتكب جرماً فالنصر سيتم على حساب امتنا كائنا من كان الغالب. كونوا على ثقة -واكررّ هذا- كونوا على ثقة بأني قادر على موت بشكل اشرف مما انا قادر على الحكم. ولست افهم قط كيف يسعني تقديم خدمة كبيرة لبلادي بانتصارٍ احرزه، مثلما اخدمها بموتي في سبيل اشاعة السلام والاتحاد وانقاذ ايطاليا من مثل هذا اليوم السيء النقيبة.

وأقبل عليه الجميع يحاولون صده عما اعتزمه بالرجاء والضراعة فلم يتزحزح عن موقفه. واستأذن من اصدقائه، وطلب الشيوخ الحاضرين ان يعجلوا بالرحيل وكتب بذلك للغائبين منهم. ووجه الى المدن رسائل يرجو فيها ان يقدموا لهم كل التسهيلات والتكريم عند مرورهم. ثم استدعى ابن اخيه [كوچيوس Cocceius] وكان بعد حدثاً. وطلب منه يطرح كل خوفٍ جانباً لأن اسرة [ڤيتيلليوس] وزوجه وامّه عوملن معاملة طيبة جداً لم تختلف عن معاملته لذويه وقال له:

- ان ما منفي عن تبنيّك الى هذا اليوم هو رغبتي في ان تشاركني السلطة فيما لو كتب لي النصر، وان لاتشاركني سوء حظيّ أن كتبت لي الهزيمة.

واستطرد يقول:

- انتبّه يا بنيّ الى كلماتي الأخيرة هذه: لاتنس بفرط اهمالٍ، ولا تتذكر بكثير حماسة ان عمّك كان [قيصراً].

وأخذت الضجة تعلو تدريجياً بين الجنود في الخارج. فقد اخذوا يتوعدون الشيوخ ويتهددونهم عندما بدأ هؤلاء يستعدون للرحيل فخرج الى الجنود مرة أخرى. وقد ظهرت عليه امارات الصرامة والغضب وفارقه لينه ورقته وراح ينهرهم بجفاء ودالّة ذي السلطان. وأمر المتسببين بالشغب ان يتركوا الموضع حالاً فاطاعوا ولم يتمرد عليه احد منهم.

كان الوقت مساءً، فشعر بعطشٍ وشرب بعض الماء، ثم تناول خنجرين. وبعد ان تفحص نصليهما بدقةٍ ترك احدهما جانباً ودس الثاني تحت ابطه داخل طيات ثوبه، ثم استدعى خدمة وفرّق عليهم بعض الأموال لا مسرفاً ولا قانتاً كأن المال لايعود له اصلاً. وأخذ بعين الاعتبار استحقاق كل واحدٍ عند تقرير مبلغ عطائه وبصورة يتمثل فيها العدل والقسطاس. وبعد ان فرغ من ذلك صرفهم وقضى بقية ليله يغط في نوم عميق حتى ان ضباط خفر الليل كانوا يسمعون شخيره. وفي صباح اليوم التالي استدعى عتيقاً له كان مكلفاً بتنظيم سفر الشيوخ فسأله عن احوالهم وعن سلامتهم فطمأنه قائلاً ان حاجاتهم قد امنّت جميعاً وهم لايشكون شيئاً فقال [اوتو]:

- فانصرف اذن، وأظهر نفسك للجنود، او سيقطعونك ارباً ان بقيت معي، لأنهم سيظنون بأنك ساعدتني على قتل نفسي.

وما أن انصرف هذا، حتى ركز اوتو خنجره بصورة عمودية امامه وقبض عليه بكلتا يديه والقى بنفسه على النصل فخرجت روحه باهة واحدةٍ فقط تعبيراً عن الاحساس بالالم الفجائي،

أو تنبيها لأولئك الذين كانوا ينتظرون في الخارج وما أخذ اتباعه يصعدون الحسرات معبرين عن حزنهم. حتى سرت المناحة في المدينة كلها وامتلأت بالندب والعويل واسرع الجنود فاقتحموا الباب وهم يصرخون صرخات شديدة وقد غلب عليهم للأسى وراحوا ينحون على انفسهم باللوم لأنهم قصروا المحافظة على حياة انتزعت في سبيل المحافظة على ارواحهم. وظلوا هناك ولم يتخل عن الجثة أحداً اطلاباً لنجاته أو خوفاً من دنوّ العدو بل اقاموا محرقةً جنائزية وبعد أن أجروا ما يجب اجراؤه على الجثمان حملوه الى المحرقة واصطفوا كأنهم في عرض عسكري، وهم بكامل سلاحهم وكانوا يتزاحمون على شرف حمل النعش ورفعه، والقى بعضهم بنفسه امام الجسد واخذ يلثم الجرح، وامسك آخرون بيديه وركع البعيدون منهم على الأرض ساجدين له، كمظهر من مظاهر التجلة والاحترام. وكان ثم بعض من قتل نفسه بعد اشعاله المحرقة، ولم يكونوا خاصّة له او مدينين له بفضل خاص او اعتبار شخصيّ له او يخشوا انفسهم من المنتصر لأمرٍ ما، ان ذلك ليثبت بصورة واضحة انه ما من ملك شرعي او غير شرعي شيّع بمثل هذه العواطف الصادقة الجيّاشة التي اظهرها هؤلاء الجنود [لاوتو] فاطاعوه حتى في الساعات الأخيرة، ولم يمت حبهم له بموته وظل يبدو جلياً في البغض المميت الذي حفظوه لخلفه كما سيأتي تفصيله.

ووضعوا بقايا [اوتو] في جدثٍ واقاموا فوقها نصباً لايثير اي تساول او عداء أو حسدٍ بحجمه او فخامته او بالكتابة التي نقشت عليه وانا نفسي شاهدته في پركسيليوم. كان بناءً عادياً نقشت عليه العبارة التالية:

«الى ذكرى ماركوس اوتو».

مات وهو في الثامنة والثلاثين بعد ان حكم ثلاثة اشهر تقريباً وحَسُنت ذكرى موته أكثر مما ساء ذكر حكمه. فمع ان لم يكن أفضل سلوكاً وعيشاً من [نيرون] الاّ انه مات بصورة انبل من موته.

حنق الجنود على [پولليو Pollio] وهو واحد من قائديهم اذ ذاك. لأنه اراد منهم ان يقسموا في الحال يمين الاخلاص [لڤيتيلليوس]. ولم يحاولوا اعتراض سبيل الشيوخ الذين كانوا قد تخلفوا عن البقية حتى تلك الساعة. الاّ انهم اورثوا [ڤرجينيوس رفوس] قلقاً وانزعاجاً حين الحّوا عليه بتولي السلطة وقصدوا منزله بمجموعهم وهم مدججون بالسلاح وابتدأوا بالالتماس والرجاء ثم انقلبوا يلحفون ويشدون عليه النكير بقبول لمنصب الامبراطوري. او بأن يكون وسيطاً بينهم وبين [ڤيتيلليوس] وجنده. ولكنه – وهو الذي رفض ان يكون قائداً لهم ابان انتصارهم وجد من الحمق ان يقبل بذلك بعد ان غلبوا على أمرهم، كما انه كان يكره ان يرسل

وسيطاً لهم الى الجرمان الذين لقوا منه في الماضي مالايحبون. فتسلل خفية من بابٍ سريٍّ وافلت فلم يسعهم الأ اعلان ولائهم [الڤيتيلليوس] فعفا عنهم. وانظموا الى وحدات كابچينيا.